العالم النبيل الفاضل الجليل الخبير الاديب محمد الشربيني الخطيب

في المطبع الكائن في لكهنؤ المعروف بمطبع المنشي نولكشور

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس عليه السلام مكية

الا فان كنت فى شك الآيتين او الثلاث أو ومنهم من يؤمن به الآية مائة وتسع آيات وعدد كلماتها
الف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا وهى
أول المئين ان جعلنا براءة مع الانفال من الطوال والا فبراءة اولاهن بسم الله جامع العباد بعد تفريقهم
بما له من العظمة والامتنان الرحمن الذى عمهم بالايجاد وخص منهم من شاء بالايمان الرحيم الذى
خص أولياءه بالرضوان المبيح للجنان الر قال ابن عباس والضحاك الر انا الله ارى والمر انا الله اعلم
وارى وقيل أنا الله الرب لا رب غيرى وقال سعيد بن جبير الر وحم ونون حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام
على حروف الهجاء اوّل البقرة واتفقوا على أنّ الر وحده ليس آية واتفقوا على أنّ قوله طه وحده آية
والفرق أنّ قوله تعالى الر لا يشاكل مقاطع الآى التى بعده بخلاف قوله تعالى طه فانه يشاكل مقاطع الآى
التى بعده وقرأ قالون وابن كثير وحفص بفتح الراء والالف بعدها وورش بين اللفظين والباقون
بالامالة المحضة تلك اى الآيات العظيمة جدّا التى اشتملت عليها هذه السورة او السورة التى تقدمت
هذه السورة وهذه الحروف المقطعة المشيرة الى أنّ القرآن كلام الله تعالى لعجز القادرين على التلفظ بهذه الاحرف
آيات الكتاب أى الذكر الجامع لكل خير وهو هذا القرآن [illegible] على ما فيه من القصص كما فى التوراة
والانجيل من ذلك فدل ذلك على صدق الآتى به قطعا [illegible] شيئا من الكتابين ولا جالس
احدا يعلمه الحكيم اى المحكم وقوله تعالى اكان للناس [illegible] الشمس [illegible] انكار للتعجب وقوله تعالى

عجبا خبر كان والعجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة ثم ذكر ما حمل على العجب وهو اسم
كان بقوله تعالى ان اوحينا اى ايحاؤنا الى رجل منهم اى من اهل مكة ومن قريش وهو محمد صلى الله
عليه وسلم وهم يعرفون صدقه ونسبه وامانته قيل كانوا يقولون العجب ان الله تعالى لم يجد رسولا
يرسله الى الناس الا يتيم ابى طالب وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة وجهلهم
بحقيقة الوحي والنبوة وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا في المال
وخفة المال اهون شيء في هذا الباب ولذلك كان اكثر الانبياء عليهم الصلوة والسلام قبله كذلك
قال تعالى وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ان انذر الناس عامة اى اعلمهم
بما امامهم من البعث وغيره وان هي المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول وبشر الذين آمنوا
... في الانذار لانه قل ان يسلم احد من كبيرة او صغيرة او هفوة جليلة او حقيرة على اختلاف الرتب
وتباين المقامات وخصص البشارة اذ ليس للكافر ما يصح ان يبشر به أن اى بان لهم قدم اى سلف
صدق عند ربهم اختلفت عبارات المفسرين واهل اللغة في معنى قدم صدق فقال ابن عباس اجرا
حسنا بما قدموا من اعمالهم وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم
وقال الحسن عمل صالح اسلفوه يقدمون عليه وقال عطاء مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه وقال زيد
بن اسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع
وصلوة الاولى وحب الحصيد وقال ابو عبيدة كل سابق في خير او شر فهو عند العرب قدم قال الشاعر
صل لذي العرش واتخذ قدما * ينجيك يوم العثار والزلل * وهو مؤنث فيقال قدم حسنة وقدم
صالحة وقوله تعالى قال الكافرون ان هذا لسحر مبين قرأه نافع وابو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون
الحاء على ان الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون بفتح السين والف بعدها وكسر الحاء على
ان الاشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ان ربكم الموجد لكم والمربي والمحسن هو الله الذي خلق اى قدر واوجد
السموات والارض على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع في ستة ايام من ايام الدنيا اى في قدرها لانه
لم يكن ثم شمس ولو شاء لخلقهما في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت فان قيل ان اليوم قد يراد به
اليوم مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد اجيب بأن الغالب في اللغة انه يراد باليوم اليوم
بليلته ولما اوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الاقطار الواسع الانتشار المفتقر الى عظيم التدبير
ولطيف التصريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى عن علمه فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيرا الى عظمته ١٠
باداة التراخي ثم استوى اى عمل في تدبيره واتقان ما فيه واحكامه عمل المعتني بذلك على العرش المتقدم
وصفه في الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها ثم بين ذلك الاستواء
بقوله يدبر الامر كله فلا يخفى عليه عاقبة امر من الامور لان التدبير اعدل احوال الملك فالاستواء كناية
عن عظمته جل وعلا ورد على من زعم ان آلهتهم تشفع لهم عند الله وقوله تعالى ما من شفيع ...
الله اى الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية

لهم عند الله ...

والربوبية ربكم أي الذي يستحق العبادة منكم فاعبدوه اي وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه
من ملك او انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع فان عبادتكم مع التشريك ليست عبادة لو لا فضله
لم يكن لمن ذل ادنى ذلة طاعة وقوله تعالى افلا تذكرون قرأه حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال
والباقون بالتشديد بادغام التاء في الاصل في الذال اي فلا تتفكرون ادنى تفكر فينبئكم عن انه المستحق
للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه اليه تعالى مرجعكم اي رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم جميعا
لا يتخلف منكم احد فاستعدوا للقائه وقوله تعالى وعد الله مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكد لنفسه
لان قوله تعالى اليه مرجعكم وعد من الله وقوله تعالى حقا اي صدقا لا خلف فيه مصدر آخر
بفعله المقدر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه وعد الله (انه يبدؤا الخلق) اي يحييهم ابتداء ثم يعيده
ثم يميتهم ثم يحييهم وفي هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه
لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد
تفريقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة اخرى فاذا ثبت
القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي
وهو قوله تعالى ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط اي بالعدل لا ينقص من اجورهم شيئا
والذين كفروا لهم شراب من حميم وهو ماء حار قد انتهى حره وعذاب اليم اي بالغ في الايلام بما كانوا
يكفرون اي بسبب كفرهم هو الذي جعل الشمس ضياء اي ذات ضياء والقمر نورا اي ذا نور وخص
الشمس بالضياء لانه اقوى وآكد من النور وخص القمر بالنور لانه اضعف من الضياء لان الشمس نيرة
في ذاتها والقمر نيره بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها وقرأ قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضاد
والباقون بياء مفتوحة والضمير في قوله تعالى وقدره منازل يرجع الى الشمس والقمر اي قدر مسير
كل واحد منهما منازل او قدره ذا منازل او يرجع الى القمر فقط وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة
منازله واناطة احكام الشرع به ولذلك علله بقوله تعالى لتعلموا عدد السنين والحساب اي حساب
الاوقات من الاشهر والايام في معاملاتكم وتصرفاتكم لان الشهور المعتبرة في الشريعة مبنية على رؤية
الاهلة والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا
في كتاب الله فائدة منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا واسماؤها الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة
والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانى والاكليل
والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو
المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه المنازل مقسومة على البروج وهي اثنا عشر برجا الحمل والثور
والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت فلكل برج منزلان
وثلث فينزل القمر في كل ليلة منها منزلا فيستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين فليلة
واحدة فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون

انقضاء السنة مع انقضائها وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى هذه الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل والنهار يكون زمانا للتكسب والطلب والليل يكون زمانا للراحة ما خلق الله ذلك المذكور الا بالحق اى لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا تعالى الله عن ذلك اظهارا لقدرته ودلائل وحدانيته ونظيره قوله تعالى فى آل عمران ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقال تعالى فى سورة اخرى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا يفصل اى يبين الآيات اى الدلائل الباهرة واحدة فى اثر واحدة بيانا شافيا لقوم يعلمون فانهم المنتفعون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحفص بالياء والباقون بالنون ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الالهية والتوحيد بقوله تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وثانيا باحوال الشمس والقمر استدل ثالثا بقوله تعالى ان فى اختلاف الليل والنهار اى بالمجئ والذهاب والزيادة والنقصان ورابعا بقوله تعالى وما خلق الله فى السموات من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك وما خلق الله فى الارض من حيوان وجبال وبحار وانهار واشجار وغير ذلك فائدة اقسام الحوادث فى هذا العالم محصورة فى اربعة اقسام احدها الاحوال الحادثة فى العناصر الاربعة ويدخل فيها احوال الرعد والبرق والسحاب والامطار ويدخل فيها ايضا احوال البحار والصواعق والزلازل والخسف وثانيها احوال المعادن وهى عجيبة كثيرة وثالثها اختلاف احوال النبات ورابعها اختلاف احوال الحيوانات وجملة هذه الاقسام الاربعة داخلة فى قوله تعالى وما خلق الله فى السموات والارض والاستقصاء فى شرح هذه الاحوال لا يدخل تحت الحصر بل كل ما ذكره العقلاء فى احوال اقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب لآيات اى دلالات على قدرته تعالى لقوم يتقون الله فانه خصهم بها لانهم عرفوا التفكر والتذكر وخصهم بالذكر لانهم المنتفعون بها قال القفال من تدبر فى هذه الاحوال علم ان الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما اهملهم بل جعلها لهم دار عمل واذا كان كذلك فلا بد من امر ونهى ثم من ثواب وعقاب ليتميز المحسن عن المسئ فهذه الاحوال فى الحقيقة دالة على صحة القول باثبات المبدأ واثبات المعاد ولما اقام الله سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على صحة القول باثبات الاله الرحيم الحكيم وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر شرع فى شرح احوال من يكفر بها وشرح احوال من يؤمن بها وقد ابتدأ باولها ووصفه باربع صفات مستدأ باولها بقوله تعالى ان الذين لا يرجون لقاءنا اى لا يخافونه لانكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع فمن الاول قول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول ابى ذويب الهذلى اذا لسعته النحل لم يرج لسعها اى لم يخفها ومن الثانى قولهم فلان يرجو فلانا اى يطمع فيه والمعنى لا يطمعون فى ثوابنا والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها منهمكين فى لذاتها وزخارفها وسكنوا فيها

سكون من لاينزع عنها والصفة الرابعة قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا﴾ اى دلائل وحدانيتنا ﴿غَافِلُونَ﴾
تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشئ الذى لايخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشئ وبالجملة فهذه
الصفات الاربعة دالة على شدة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات الاخروية ويحتمل ان الصفة
الاخيرة لفريق آخر ويكون المراد بالاولين من انكر البعث ولم يرد الا الحيوة الدنيا وبالاخر من الهاه حب
العاجل عن التامل فى الآجل والاعداد له ولما وصفهم الله تعالى بتلك الصفات قال ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الشرك والمعاصى ولما شرح احوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها
فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والاعمال الصالحة عبارة عن الاعمال التى تحمل النفس على ترك
الدنيا وطلب الآخرة والاعمال المذمومة ما يكون بالضد من ذلك ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ اى يرشدهم ﴿رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾
اى بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يؤدى الى الجنة او لما يريدونه فى الجنة او لادراك الحقائق كما قال صلى الله
عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقال مجاهد المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم الى الجنة وروى
انه صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول انا عملك فيكون
له نورا وقائدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول انا عملك فينطلق به
حتى يدخله النار ومفهوم ترتب الهداية على الايمان والعمل الصالح قد دل على ان سبب الهداية هو
الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله جل وعلا بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية وان
العمل الصالح كالتتمة والرديف ثم انه تعالى لما وصفهم بالايمان والاعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات
كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهى اربعة الاولى قوله تعالى ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ اى
يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والانهار تجرى من بين ايديهم ينظرون اليها من اعالى
اسرتهم وقصورهم ونظيره قوله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا فليس ما كانت قاعدة عليه ولكن المعنى
بين يديك وكذا قوله وهذه الانهار تجرى من تحتى اى بين يدى فكذا هنا الثانية قوله تعالى ﴿دَعْوَاهُمْ
فِيهَا﴾ قال بعض المفسرين اى طلبهم لما يشتهون فى الجنة ان يقولوا ﴿سُبْحَانَكَ﴾ اى ننزهك من كل سوء
ونقيصة ﴿اللَّهُمَّ﴾ اى يا الله فاذا ما طلبوا بين ايديهم على موائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون
الف صحفة فى كل صحفة لون من الطعام لايشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى فذلك
قوله تعالى وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين او ان المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال اهل الجنة
بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو اهله وفى هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال
لذاتهم وهذا اولى ويدل عليه ما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول اهل الجنة ياكلون فيها ويشربون ولايبولون ولايتغوطون ولايتمخطون قالوا فما بال
الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس اى يخرج ذلك
الطعام جشاء وعرقا الثالثة قوله تعالى ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ فيما بينهم وتحية الملائكة لهم ﴿فِيهَا﴾ اى الجنة ﴿سَلَامٌ﴾
وتأتيهم الملائكة ايضا من عند ربهم بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم

وقال تعالى سلام قولاً من رب رحيم الرابعة قوله تعالى ﴿وآخر دعواهم﴾ اى وآخر دعائهم ﴿ان الحمد لله
رب العالمين﴾ اى ان يقولوا ذلك وان هى المخففة من الثقيلة وقد ذكرنا ان بعض المفسرين حمل
التسبيح والتحميد على احوال اهل الجنة بسبب المأكول والمشروب فانهم اذا اشتهوا شيئا قالوا سبحانك
اللهم فيحصل ذلك الشئ فاذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترتفع الموائد عند ذلك قال
الرازى وهذا القائل ما رقى نظره فى دنياه واخراه عن المأكول والمشروب وحقيق بمثل هذا الانسان
ان يعد فى زمرة البهائم واما المحققون فقد تركوا ذلك اهـ ولا ينبغى هذه المبالغة فقد قاله البغوى
وتبعه جماعة من المفسرين وقال الزجاج اعلم الله ان اهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه
ويختمون بشكره والثناء عليه قال البيضاوى المعنى انهم اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى
وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز باصناف
الكرامات او الله تعالى فحمدوه واثنوا عليه بصفات الاكرام ولما وصف الله تعالى الكفار بانهم
لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحيوة الدنيا واطمئنوا بها وكانوا عن آيات الله غافلين بين ان من غفلتهم
ان الرسول متى انذرهم استعجلوا العذاب جهلا منهم وسفها بقوله تعالى ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾
اى ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه ﴿استعجالهم بالخير﴾ اى كما
يحبون ان يعجل لهم اجابتهم بالخير ﴿لقضى اليهم اجلهم﴾ اى لاهلكهم ولكن يمهلهم نزلت فى النضر بن
الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب
اليم ويدل عليه قوله تعالى ﴿فنذر﴾ اى نترك ﴿الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم﴾ اى فى تمردهم
وعتوهم ﴿يعمهون﴾ اى يترددون متحيرين وقال ابن عباس هذا فى قول الرجل عند الغضب لاهله
وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب
له فيه وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم انى اتخذ عندك
عهدا لن تخلفنيه انما انا بشر فاى المؤمنين اذيته او شتمته او جلدته او لعنته فاجعلها له صلوة
وزكوة وقربة تقربه بها الى يوم القيامة فان قيل قابل التعجيل فى الآية بالاستعجال وكان مقتضى
النظم ان يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال اجيب بان تقدير الكلام ولو يعجل الله
للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى
عليه وقال فى الكشاف اصل هذا الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير الا انه جعل استعجالهم
بالخير موضع تعجيله لهم بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كان استعجالهم
بالخير تعجيل لهم ولما حكى تعالى عنهم انهم يستعجلون فى نزول العذاب بين انهم كاذبون فى ذلك الطلب
والاستعجال بقوله تعالى ﴿واذا مس الانسان﴾ اى الكافر ﴿الضر﴾ اى المرض والفقر ﴿دعانا لجنبه﴾
اى على جنبه مضطجعا ﴿او قاعدا او قائما﴾ وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الاحوال او لاصناف
المضار والمعنى انه لو نزل بالانسان ادنى شئ يكرهه ويؤذيه فانه يتضرع الى الله تعالى فى ازالته عنه

وفي دفعه عنه وذلك يدل على انه ليس صادقا في طلب الاستعجال فلما كشفنا عنه ضره اي ازلنا عنه ما نزل به مرّ اي مضى على ما كان عليه من الكفر كأن لم يدعنا اي كأنه فاسقط الضمير على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى كأن لم يلبثوا الى ضر مسه قال الحسن نسي ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به في ازالة ذلك البلاء عنه وانما حمل الانسان في هذه الآية على الكافر لان العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة وقول بعضهم كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الانسان فالمراد هو الكافر مردود فقد قال تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه واما المؤمن اذا ابتلي ببلية ومحنة وجب عليه رعاية امور اولها ان يكون راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه ذلك لانه تعالى مالك على الاطلاق وملك بالاستحقاق فله ان يفعل في ملكه ما شاء ولانه تعالى حكيم على الاطلاق وهو منزه عن فعل العبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب فيجب عليه الصبر وترك القلق فان ابقى عليه تلك المحنة فهو عدل وان ازالها عنه فهو فضل وثانيها ان في ذلك الوقت ان اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا عن الدعاء كان افضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى من شغله ذكري عن مسألتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين ولان الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ولا شك ان الاول افضل وثالثها الله تعالى اذا ازال عنه تلك البلية وجب عليه ان يبالغ في الشكر وان لا يخلو عن ذلك الشكر في السراء والضراء واحوال الشدة والرخاء فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء وحينئذ يكون المؤمن على الضد من الكافر لان الكافر منهمك في الشهوات والاعراض عن العبادات كما قال تعالى كذلك اي مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح زين للمسرفين اي المشركين ما كانوا يعملون من القبائح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات وانما سمي الكافر مسرفا لانه اتلف نفسه تضييعها في عبادة الاوثان واتلف ماله في البحيرة والسائبة والوصيلة والمزين هو الله تعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف شاء وقيل هو الشيطان وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك والاول احسن واحق ولقد اهلكنا القرون اي الامم الماضية من قبلكم يا اهل مكة لما ظلموا اي حين اشركوا وقوله تعالى وجاءتهم رسلهم بالبينات اي بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو باضمار قد او عطف على ظلموا وما اي والحال انهم ما كانوا ليؤمنوا اي وما استقام لهم ان يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية لعلمه تعالى بانهم يموتون على كفرهم واللام لتأكيد النفي كذلك اي مثل ذلك الجزاء العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم نجزي القوم المجرمين اي نجزيكم يا اهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وانهم اعلام فيه ثم جعلناكم اي ايها المرسل اليهم اشرف رسلنا خلائف جمع خليفة في الارض من بعدهم اي استخلفناكم فيها بعد القرون التي اهلكناها استخلاف من يختبر لننظر ونحن اعلم بكم من انفسكم في عالم الشهادة لاقامة الحجة كيف تعملون من خير وشر فنجازيكم به وفيه نظر لهذه

قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الدنيا خضرة حلوة وان الله
مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال قتادة صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء الا لينظر الى اعمالنا
فاروا الله من اعمالكم خيرا بالليل والنهار قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله تعملون اى لا معمول
ننظر لانها حرف استفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله لان له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله
وظاهر كلامه ان كيف مفعول لتعملون وجمهور النحاة على انه حال من ضمير تعملون وَاِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِمْ
اى واذا تقرأ على هؤلاء المشركين اٰيَاتُنَا اى القرآن الذى انزلناه اليك يا محمد حالة كون تلك الآيات
بَيِّنَاتٍ اى ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك قَالَ الَّذِيْنَ لَا يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا اى لا يخافون
عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكر البعث بعد الموت فانه
لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ائْتِ اى من عندك بِقُرْاٰنٍ اى كلام مجموع جامع لما تريد غَيْرِ هٰذَآ فى نظمه
ومعناه اَوْ بَدِّلْهُ بالفاظ اخرى والمعانى باقية وقد كانوا عالمين بانه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى العجز
عن ذلك ولكنهم قصدوا ان ياخذ فى التغيير صارا على اجابة مطلوبهم فيبطل ما عداه او يهلك واختلف
فى هذا القائل فقال قتادة هم مشركوا اهل مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن امية المخزومى والوليد بن
المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن ابى قيس العامرى والعاص بن عامر بن هشام
قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد ان نؤمن بك فات بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات
والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله فقل انت من عند نفسك او بدله فاجعل مكان آية عذاب
آية رحمة او مكان حرام حلالا او مكان حلال حراما ولما كان كانه قيل فماذا اقول لهم قال الله تعالى قُلْ لهم
مَا يَكُوْنُ اى ما يصح لِيْ ولا يتصور بوجه من الوجوه اَنْ اُبَدِّلَهٗ مِنْ تِلْقَآءِ اى قبل نَفْسِيْ وانما اكتفى
بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الاتيان بقرآن آخر وقرأ نافع وابو عمرو بفتح الياء والباقون
بالسكون اِنْ اى ما اَتَّبِعُ اِلَّا مَا يُوْحٰى اِلَيَّ فيما امركم به او انهاكم عنه اى لا آتى بشئ ولا اذر شيئا من نحو ذلك
الا متبعا لوحى الله تعالى واوامره ان نسخت آية تبعت النسخ وان بدلت آية مكان آية تبعت التبديل
وليس الى تبديل ولا نسخ اِنِّيْۤ اَخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ اى بتبديله عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ فانى مؤمن به غير مكذب
ولا شاك كغيرى ممن يتكلم بالهذيان بلا خوف عاقبته فى ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة
عما ارضعت وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء فى انى وانى والباقون بالسكون قُلْ يا محمد لهؤلاء المشركين
الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله لَوْ شَآءَ اللّٰهُ مَا تَلَوْتُهٗ عَلَيْكُمْ اى لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن
ولم يامرنى بقراءته عليكم وَلَآ اَدْرٰىكُمْ بِهٖ اى ولا اعلمكم به على لسانى وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزى بقصر
الهمزة بعد اللام جواب لو اى لا علمكم به على لسان غيرى والباقون بالمد المنفصل وقوله تعالى
فَقَدْ لَبِثْتُ اى مكثت قراءة نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام فِيْكُمْ عُمُرًا
سنين اَرْبَعِيْنَ مِنْ قَبْلِهٖ اى قبل ان يوحى الى هذا القرآن لا اتلوه ولا اعلمه ففى ذلك اشارة الى ان هذا القرآن
معجز خارق للعادة وتقريره ان اولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من اول عمره

الى ذلك الوقت وكانوا عالمين باحواله وانه ما طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ ولا تعلم من احد ثم بعد انقراض اربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الاصول ودقائق علم الاحكام ولطائف علم الاخلاق واسرار قصص الاولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء وكل من له عقل سليم فانه يعرف ان مثل هذا لا يحصل الا بالوحي والالهام من الله تعالى أَفَلَا تَعْقِلُونَ اى افلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا ان مثل هذا الكتاب العظيم على من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة انه لا يكون الا على سبيل الوحي من الله تعالى لا من مثلي وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه ۔ تنبيه ۔ اقام صلى الله عليه وسلم بعدما اوحى اليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فاقام بالمدينة عشر سنين وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة قال النووى ورد فى عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها انه توفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي اصحها واشهرها وتاول رواية ستين بان راويها اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس ايضا متاولة وحصل فيها اشتباه ولما اقيمت الدلائل على ان هذا القرآن من عند الله وجب ان يقال انه ليس فى الدنيا احد اجهل ولا اظلم على نفسه من منكر ذلك كما قال تعالى فَمَنْ اى لا احد أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ اى تعمد عَلَى اللَّهِ كَذِبًا اى اى كذب كان من شريك او ولد او غير ذلك وكان الاصل مبنيا على تقدير ان يكون هذا القرآن من عند الله ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميما وتعليقا للحكم بالوصف أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ اى دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم انتم وذلك من اعظم الكذب وقوله تعالى إِنَّهُ اى الشان لَا يُفْلِحُ بوجه من الوجوه الْمُجْرِمُونَ اى المشركون تاكيد لما سبق من هذين الوصفين وَيَعْبُدُونَ اى هؤلاء المشركون مِنْ دُونِ اللَّهِ اى غيره مَا لَا يَضُرُّهُمْ اى ان لم يعبدوه وَلَا يَنْفَعُهُمْ اى ان عبدوه وهو الاصنام لانها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع والكافرون قادرون على التصرف فيها تارة بالاصلاح وتارة بالافساد واذا كان العابد اصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة لان العبادة اعظم انواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع بان يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية وكان اهل الطائف يعبدون اللات واهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل واسافا ونائلة وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ اى الاصنام التى نعبدها شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ونظيره قوله تعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام والاوثان على صور انبيائهم واكابرهم وزعموا انهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان اولئك الاكابر يكونون شفعاء لهم عند الله قال الرازى ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد انهم اذا عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء لهم عند الله اهـ ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار وفى هذه الشفاعة قولان احدهما انهم يزعمون انها تشفع لهم فيما يهمهم من امور الدنيا فى اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعث الموت والثانى انهم يزعمون انها تشفع لهم فى الآخرة ان يكن بعث قاله ابن جريج عن ابن عباس وكانهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط

جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع الى عبادة ما يعلم قطعا انه لا يضر ولا ينفع على توهم
انه ربما يشفع لهم قال النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى وقوله تعالى
﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ اى تخبرون ﴿اللَّهَ﴾ وهو العالم بكل شئ المحيط بكل محيط ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ اى
لا يوجد له به علم فى وقت من الاوقات استفهام انكار تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة
الاصنام واعلام بأن الذى انبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة فكأنهم يخبرونه بشئ لا يتعلق به علمه
وقوله تعالى ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ تأكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم وهذا على
طريق الالزام والمقصود نفى علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لكان
معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب ان لا يكون معلوما موجودا وهذا مثل مشهور
فى العرب فان الانسان اذا اراد نفى شئ عن نفسه يقول ما علم الله ذلك منى ومقصوده انه ما حصل ذلك
الشئ منه قط ولا وقع ﴿سُبْحَانَهُ﴾ اى تنزيها له عن كل شئ فيه شائبة نقص ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما مصدرية
او موصولة اى عن اشراكهم او عن الشركاء الذين يشركونهم به وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب
لقوله أتنبئون الله والباقون بالياء على الغيبة فكأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم قل انت سبحانه وتعالى
عما يشركون ويجوز ان يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى نزه نفسه عما قالوه فقال سبحانه وتعالى عما يشركون
ولما اقام تعالى الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الاصنام بين السبب فى كيفية حدوث هذا
المذهب الفاسد بقوله ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ اى جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل
على الضلال فى فترة الرسل واختلف القائلون بالاول انهم متى كانوا كذلك فقال ابن عباس ومجاهد
كانوا على دين الاسلام من لدن آدم الى ان قتل قابيل هابيل وقال قوم الى زمن نوح وكانوا عشرة قرون ثم
اختلفوا فى عهد نوح فبعث الله تعالى اليهم نوحا وقال آخرون كانوا على دين الاسلام من زمن نوح بعد
الغرق حيث لم يذر الله على الارض من الكافرين ديارا الى ان ظهر الكفر فيهم وقال آخرون من عهد
ابراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن لحى وهذا القائل قال المراد من الناس فى قوله تعالى وما كان
الناس الا امة واحدة العرب خاصة ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ بأن ثبت بعض وكفر بعض ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ﴾ وهو تأخير الحكم الى يوم القيامة وقيل تلك الكلمة هى قوله سبحانه سبقت رحمتى غضبى فلما
كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة اسبال الستر على الجاهل الضال وامهاله الى وقت
الوجدان ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ اى الناس بنزول العذاب فى الدنيا دون يوم القيامة ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين
باهلاك المبطل وابقاء المحق وكان ذلك فصلا بينهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ اى كفار مكة ﴿لَوْلَا﴾ اى هلا
﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ اى محمد صلى الله عليه وسلم ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ اى غير ما جاء به كما كان للانبياء من الناقة
والعصا واليد ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ اى ما غاب عن العباد امره ﴿لِلَّهِ﴾ اى هو
المختص بعلمه ومنه الآيات فلا يأتى بها الا هو وانما على التبليغ ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ اى نزول ما اقترحتموه وقيل
نزول العذاب ان لم يؤمنوا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ اى لما يفعل الله تعالى بكم بعنادكم وجحودكم الآيات وكفى بالقرآن ع

وهذه آية باقية على وجه الدهر بديعة في الآيات دقيقة المسلك بين المعجزات مع عجزكم عن معارضته بتبديل أو غيره فأي عناد أعظم من هذا وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ أي كفار مكة رَحْمَةً أي صحة وسعة مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ أي شدة وبلاء مَسَّتْهُمْ سلط الله تعالى القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا إلى العناد والكفر كما قال تعالى إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا بالاستهزاء والتكذيب بسبب وقيل لا يقولون هذا من رزق الله إنما يقولون سقينا بنوء كذا وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا والنوء عند العرب هي منازل القمر إذا طلع نجم سقط نظيره قُلِ اللَّهُ أي قل لهم يا محمد الله أَسْرَعُ مَكْرًا منكم أي أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء ومعنى الوصف بالأسرعية أنه تعالى قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر إخفاء الكيد وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر فإنهم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بأشد منه وهو إمهالهم إلى يوم القيامة إِنَّ رُسُلَنَا أي الحفظة الكرام الكاتبين يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ لأنهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا فلم يوكلوا بكم إلا بعد علم موكلهم بكل ما تفعلونه ولا يكتبون مكركم إلا بعد اطلاعهم عليه وأما هو سبحانه وتعالى فإنه إذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه رسله إلا بإطلاعه فكيف بغيرهم وإذا تبين أن الله عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره علم أنه لا يدعهم يدبرون كيدا إلا وقد سبب له ما يبطله في نحورهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به أسرعية مكره في مثال دال على ما في الآية قبلها لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي فقال هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ أي يحملكم على السير في كل وقت تسيرون فيه لا تقدرون على الانفكاك عنه ويمكنكم منه فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أي يسبب لكم أسبابا توجب سيركم فيهما وقرأ ابن عامر بعد الياء الأولى بنون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة والباقون بسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة ولما كان العطب بسير البحر أظهر مع أن السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات بينه معرضا عن ذكر البر بقوله تعالى حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ أي كونا لا براح لكم منه فِي الْفُلْكِ أي السفن فإن قيل كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر مع أن الكون في الفلك متقدم لا محالة على التسيير في البحر أجيب بأنه لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير بل تقدير الكلام كأنه قيل هو الذي يسيركم حتى إذا وقع في جملة تلك التسييرات الحصول في الفلك كان كذا وكذا ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع فإن أريد الواحد كان كبناء قفل أو الجمع كان كبناء حمر المراد هنا الجمع لقوله تعالى وَجَرَيْنَ بِهِم أي بمن فيها وعدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح والالتفات في الكلام عن الغيبة إلى الحضور والعكس في فصيح كلام العرب بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ أي لينة الهبوب وَفَرِحُوا بِهَا أي بتلك الريح وبالفلك الجارية بها وقوله تعالى جَاءَتْهَا جواب إذا

اذا والضمير للفلك او للريح الطيبة بمعنى تلقتها ريح عاصف اى شديدة الهبوب فاضطربت
سفينتهم واساءت ظنهم وجاءهم الموج اى وجاء ركاب السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من غوارب
الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه من كل مكان اى يجئ الموج منه فارجفت
قلوبهم وظنوا انهم احيط بهم اى دنوا وان الهلاك قد احاط بهم وسدت عليهم مسالك
الخلاص كمن احاط به العدو دعوا الله مخلصين اى من غير اشراك به له الدين اى الدعاء لانهم
لا يدعون حينئذ غيره لان الانسان فى هذه الحالة لا يطمع الا فى فضل الله ورحمته ويصير منقطعا
عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع اجزائه منصرفا الى الله تعالى وقوله تعالى لئن انجيتنا
من هذه الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة لنكونن من الشاكرين
على ارادة القول او مفعول دعوا لانه من جملة القول اى لنكونن من الشاكرين لك بالايمان والطاعة
على انعامك علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة فلما انجاهم اى هؤلاء الذين ظنوا انهم
احيط بهم من الشدة التى كانوا فيها اجابة لدعائهم اذا هم يبغون اى فاجاؤا الفساد وسارعوا الى
ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى فى الارض اى جنسها بغير الحق فان قيل البغى لا يكون بحق فما
معنى قوله بغير الحق اجيب بانه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على ارض الكفرة وهدم دورهم واحراق
زروعهم وقطع اشجارهم كما فعل صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة فان ذلك افساد بحق قال صاحب
المفردات البغى على ضربين احدهما غير محمود وهو مجاوزة الحق الى الباطل والى الشبهة والآخر كفعل
المسلمين ما ذكر يا ايها الناس انما بغيكم اى الذى تبغونه على انفسكم لانه وباله عليها خاصة قال صلى الله عليه
وسلم اسرع الخير ثوابا صلة الرحم واعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله
تعالى فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس لو بغى جبل على جبل لدك الباغى وكان
المأمون يتمثل بهذين البيتين فى اخيه شعر يا صاحب البغى ان البغى مصرعة + فاربع فخير فعال
المرء اعدله + فلو بغى جبل يوما على جبل + لاندك منه اعاليه واسفله + وعن محمد بن كعب
ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر وعلى تقدير الانتفاع بالبغى هو عرض زائل كما قال تعالى
متاع الحيوة الدنيا اى لا تبغوا لكم بغى بعضكم على بعض الا اياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها وسرعة
انقضائها ثم الينا بعد البعث مرجعكم فى القيامة فننبئكم اى فنخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من
البغى والمعاصى فنجازيكم عليها وقرأ حفص متاع بنصب العين على انه مصدر مؤكد اى تتمتعون
متاع الحيوة الدنيا والباقون بالرفع على انه خبر بغيكم وعلى انفسكم صلته او خبر مبتدأ محذوف وتقديره
ذلك متاع الحيوة الدنيا وعلى انفسكم خبر بغيكم ولما قال تعالى يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع
الحيوة الدنيا اتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغى فى الارض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى
اعراضه عن امر الآخرة والتأهب لها بقوله تعالى انما مثل الحيوة الدنيا اى حالها العجيبة فى سرعة
تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها فالمثل قول سائر يشبه

فيه حال الثاني بالاول كماءٍ أنزلناه وحقق امره وبينه بقوله تعالى من السماء فاختلط به اى بسببه
نبات الارض اى اشتبك بعضه ببعض ولاختلاط تداخل الاشياء بعضها فى بعض مما يأكل
الناس من الحبوب والثمار ونحو ذلك والانعام من الحشيش ونحوه حتى اذا اخذت
الارض زخرفها اى حسنها وبهجتها من النبات وازينت بالنبات الوان زهرها من ابيض واصفر واحمر وغير ذلك
من الزهور كالعروس اذا اخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من
الوان الزين واصل ازينت تزينت ابدلت التاء زايا وادغمت فى الزاى وظن اهلها اى اهل تلك
الارض انهم قادرون عليها اى متمكنون من تحصيل جذاذها وحصادها اتاها امرنا اى قضاؤنا من
البرد والحر المفرط وغيره ليلا او نهارا اى فى الليل او فى النهار فجعلناها اى زرعها حصيدا اى
كالمحصود بالمناجل وقوله تعالى كان مخففة اى كانها لم تغن اى لم تكن بالامس تلك الزروع
والاشجار قائمة على ظهر الارض وحذف المضاف من فجعلناها ومن كان لم تغن للمبالغة
تنبيه تشبيه الحيوة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها الاول ان عاقبة هذه الدنيا التى
ينفقها المرء فى باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذى حين عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع اليأس منه
لان الغالب ان المتمسك بالدنيا اذا وضع قلبه عليها وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت وهو معنى قوله
تعالى حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون اى خاسرون الدنيا وقد انفقوا اعمارهم
فيها وخاسرون من الآخرة مع انهم توجهوا اليها الثانى انه تعالى بين انه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة
محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد مع ان المنافع التى تحصل فيها مخلوطة
بالمضار والمتاعب فان سعادة الدنيا غير خالصة من الآفات بل هى ممزوجة بالبليات والاستقراء
يدل عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من طلب ما لم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل يا رسول الله
وما هو قال سرور يوم بتمامه الثالث ان مالك ذلك البستان لما عمره باتعاب النفس وكد الروح
وعلق قلبه على الانتفاع به فاذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء والشديد الذى تحمله
فى الماضى سببا لحصول الشقاء الشديد له فى المستقبل وهو ما يحصل له فى قلبه من الحسرات فكذا حال
من وضع قلبه على الدنيا واتعب نفسه فى تحصيلها فاذا مات وفاته كل ما فات صار العناء الذى تحمله
فى تحصيل اسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء العظيم له فى الآخرة كذلك اى مثل هذا التفصيل الذى
ذكرناه نفصل الآيات اى نبينها لقوم يتفكرون لانهم المنتفعون بها ولما نفر تعالى الغافلين عن
الميل الى الدنيا بالمثل السابق رغبهم فى الآخرة بقوله تعالى والله يدعو اى يعلق دعاءه على سبيل
التجدد والاستمرار بالمدعوين الى دار السلام قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة وسمى سبحانه
وتعالى بالسلام لانه واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير وسلم من احتياجه فى ذاته وصفاته
ومن الافتقار الى الغير وهذه الصفة ليست الا له سبحانه كما قال تعالى والله الغنى وانتم الفقراء وقال
تعالى يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله وقيل السلام بمعنى السلامة وقيل المراد بالسلام التحية

سميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحيي بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم قال الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده ان دعاهم الى الجنة التي هي دار السلام وفيه دليل على ان فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لأن العظيم لا يدعو الا الى عظيم ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله تعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه وعن جابر قال جاءت ملائكة الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا ان لصاحبكم هذا مثلا كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن اجاب الداعي دخل الدار واكل من المائدة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة والدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ من عباده بما يخلق في قلبه من الهداية إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وهو دين الاسلام عم سبحانه وتعالى بالدعوة اولا اظهارا للحجة وخص بالهداية ثانيا اظهارا للقدرة لأن الحكم له في خلقه وقال الجنيد الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة بل الصحبة عامة والاتصال خاص وقيل يدعو بالآيات ويهدي بالحقائق والمعارف وقيل الدعوة لله والهداية من الله وقال بعضهم لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا اي بالايمان الْحُسْنَى وهي الجنة وَزِيَادَةٌ وهي النظر اليه تعالى في الآخرة كما في الحديث الصحيح اذا دخل اهل الجنة الجنة نودوا ان يا اهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما اعطاهم الله شيئا هو احب اليهم منه والزمخشري في كشافه قال في هذا زعمت المشبهة والمجبرة لأن المعتزلة ينكرون الرؤية ويرد عليهم قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فاثبت الله لاهل الجنة امرين احدهما النضارة وهي حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر الى الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الحسنى الحسنة والزيادة عشرة امثالها وعن الحسن عشر امثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد الزيادة مغفرة من الله ورضوان وعن يزيد بن شجرة الزيادة ان تمر السحابة باهل الجنة فتقول ما تريدون ان امطركم فلا يريدون شيئا الا امطرتهم ولا مانع من ان تفسر الزيادة بذلك كله اذ لا تنافي فيها والفضل واسع وَلَا يَرْهَقُ اي يغشى وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ اي سواد وَلَا ذِلَّةٌ اي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان أُولَئِكَ اي هؤلاء الذين وصفهم الله هم أَصْحَابُ الْجَنَّةِ وقوله تعالى هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ اشارة الى كونها ملائمة آمنة من الانقطاع ولا زوال فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها، ولما بين تعالى حال الفضل فيمن احسن بين حال العدل فيمن اساء بقوله تعالى وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ اي الشرك جَزَاءُ سَيِّئَةٍ منهم بِمِثْلِهَا بعدل الله من غير زيادة وفي ذلك اشارة الى الفرق بين السيئات والحسنات لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة تفضلا منه تعالى وتكرما واما السيئة فانه يجازى عليها بمثلها عدلا منه تعالى وَتَرْهَقُهُمْ اي تغشاهم ذِلَّةٌ عكس اهل الجنة مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ اي مانع يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ اي البست وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا لفرط سوادها وظلمتها وقرأ ابن كثير والكسائي بسكون الطاء اي جزءا والباقون بفتحها جمع قطعة اي اجزاء أُولَئِكَ اي هؤلاء الاشقياء أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا يمكنون من مفارقتها

وَاذكر يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ أي الفريقين الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية الى موقف الحساب حال كونهم جَمِيعًا لا يتخلف منهم احد وهو يوم القيامة والحشر الجمع بكره الى موقف واحد ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أي الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم وقوله تعالى أَنْتُمْ تأكيد للضمير المستتر في الفعل المقدر ليعطف عليه وَشُرَكَاؤُكُمْ أي من كنتم تعبدونه من دون الله فَزَيَّلْنَا أي فرقنا بَيْنَهُمْ أي بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين تبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده وقيل فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم ايها المجرمون والاول انسب بقوله تعالى وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ لهؤلاء المشركين مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ أي انما كنتم تعبدون الشياطين حيث امروكم ان تتخذوا لله اندادا فاطعتموهم واختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ومنهم من قال هي الاصنام والدليل عليه ان هذا الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة المقربين وسموا شركاء لانهم جعلوا نصيبا من اموالهم لتلك الاصنام فصيروهم شركاء لانفسهم في تلك الاموال ثم اختلفوا في هذه الاصنام كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى خلق الحيوة والعقل والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام وقال آخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من غير ان يخلق فيها الحيوة حتى سمع منها ذلك الكلام والاول اظهر لان ظاهر قوله تعالى وقال شركاؤهم يقتضي ان يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء فان قيل اذا احياها الله تعالى هل يبقيها او يفنيها اجيب بان الكل محتمل فان الله تعالى يفعل في خلقه ما يشاء واحوال القيامة غير معلومة الا القليل الذي اخبر الله تعالى عنه في القرآن وعلى لسان انبيائه وقال بعضهم المراد بهؤلاء الشركاء كل من عبد من دون الله من انسان وملك وجني وشمس وقمر وصنم وهذا اظهر وعلى هذا والاول سموا شركاء لان الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله تعالى مكانكم صاروا شركاء في هذا الخطاب ولما قال لهم شركاؤهم ذلك قالوا بل كنا نعبدكم فقال شركاؤهم فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فانه تعالى العالم بكنه الحال إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ أي لم نأمركم بها ولم نعلم بها وعلى القول بانها الاصنام فتقول ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فانها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور البتة * تنبيه: ان هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين المخففة والنافية هُنَالِكَ أي في ذلك الموقف من المكان العظيم الاهوال الشديد الزلزال تَبْلُو أي تختبر كُلُّ نَفْسٍ طائعة وعاصية مَا أَسْلَفَتْ أي ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضره يؤدي الى سعادة او شقاوة وقرأ حمزة والكسائي بتاءين من التلاوة أي تقرأ ذكر ما قدمت او من التلو فيتبع كل شخص عمله فيقوده الى الجنة او الى النار والباقون بدل التاء باء موحدة من البلوى وهو الاختبار وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ أي الى جزائه اياهم عما اسلفوا فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أي ربهم ومتولي امرهم على الحقيقة ولا التفات الى سواه من تلك الاباطيل بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعونه في الدنيا وهو المراد بقوله تعالى وَضَلَّ عَنْهُمْ أي ذهب وبطل وضاع مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أي يعبدون

كذبه من ان معبوداتهم شركاء ويشفعوا في ذلك المقام ان توليهم لغير الله كان باطلا غير حق ولما بين
فضائح عبدة الاوثان اتبعها بذكر الدلائل على فساد هذا المذهب بحجج الحجة الاولى قوله تعالى قل اي قل
يا محمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء بالمطر والارض بالنبات فانحصر الرزق في ذلك اما من السماء
فبنزول الامطار واما من الارض فلان الغذاء اما ان يكون نباتا او حيوانا اما النبات فلا يثبت
الا من الارض واما الحيوان فهو يحتاج ايضا الى الغذاء ولا يمكن ان يكون غذاء كل حيوان حيوانا آخر لانه يلزم
الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال فثبت ان اغذية الحيوانات يجب انتهاؤها الى النبات
وثبت ان تولد النبات من الارض فثبت القطع بان الارزاق لا تحصل الا من السماء والارض
أمن يملك السمع اي الاسماع والابصار اي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه
من الفطرة العجيبة وعن علي رضي الله تعالى عنه كان يقول سبحان من بصر بشحم واسمع بعظم وانطق
بلحم او حفظهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما ادنى شيء بكلاءته
وحفظه ومن يخرج الحي من الميت كان يخرج الانسان من النطفة والطائر من البيضة ويخرج الميت من
الحي كان يخرج النطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقيل المراد ان يخرج المؤمن من الكافر والكافر من
المؤمن وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي ميت في الموضعين بعد الميم بكسر الياء المشددة والباقون
بعد الميم بسكون الياء ومن يدبر الامر اي ومن يلي تدبير امر الخلائق وهو تعميم بعد تخصيص وذلك
لان اقسام تدبير الله تعالى في العالم السفلي وفي العالم العلوي وفي عالم الارواح والاجساد امور لا نهاية
لها وذكر كلها كالمتعذر فلما ذكر بعض تلك التفاصيل عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بين تعالى
ان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سألهم عن مدبر هذه الاحوال فسيقولون الله اذ لا يقدرون على المكابرة
والعناد في ذلك لفرط وضوحه واذا كانوا يقرون بذلك فقل لهم يا محمد أفلا تتقون الشرك مع اعترافكم
بان كل الخيرات في الدنيا والآخرة انما تحصل بفضل الله تعالى واحسانه فذلكم الله ربكم الحق اي الثابت
ربوبيته ثباتا لا ريب فيه واذا ثبت ان هذا هو الحق وجب ان يكون ما سواه ضلالا لان النقيضين
يمتنع ان يكونا حقين وان يكونا باطلين فاذا كان احدهما حقا وجب ان يكون ما سواه باطلا كما قال تعالى
فماذا بعد الحق الا الضلال اذ لا واسطة بينهما فهو استفهام تقرير اي ليس بعده غيره فمن تخطى الحق
وهو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ولذلك تسبب عنه قوله تعالى فأنى اي فكيف ومن اي جهة
تصرفون اي تعدلون عن عبادته وانتم تقرون بان الله هو الحق كذلك اي كما حقت الربوبية لله تعالى او
الحق بعده الضلال او انهم مصروفون عن الحق حقت كلمة ربك في الازل على الذين فسقوا اي تمردوا
في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح وقوله تعالى انهم لا يؤمنون بدل من الكلمة اي حق عليهم انتفاء
الايمان وعلم الله منهم ذلك والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب وهو لأملأن جهنم الآية وانهم لا يؤمنون
تعليل بمعنى لانهم لا يؤمنون او كذلك تفسير الكلمة التي حقت وقرأ نافع وابن عامر كلمات بالالف بعد الميم
على الجمع والباقون بغير الف بعد الميم على الافراد الحجة الثانية قوله تعالى قل اي قل يا محمد لهؤلاء هل من شركائكم

الذين زعمتم شركاء واشركتموهم فى اموالكم من انعامكم وزروعكم من يبدأ الخلق كما بدأه بسهم لكم ما ادعيتم من الشركة ثم يعيده كما كان فان قيل هم غير معترفين بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتداء فى الالزام بها اجيب بانها لظهور برهانها وان لم يقروا بها وضعت موضع ما ان دفعه دافع كان مكابرا ردا للظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه دلالة على انهم فى انكارهم لها منكرون امرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ولذلك امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينوب عنهم فى الجواب بقوله تعالى قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده لان لجاجهم لا يدعهم ان يعترفوا بها فانى اى فكيف تؤفكون عن عبادته مع قيام الدلائل فان قيل ما الفائدة فى ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام اجيب بان الكلام اذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك ابلغ واوقع فى القلب الحجة الثالثة قوله تعالى قل اى قل يا محمد لهم هل من شركائكم من يهدى الى الحق بنصب الحجج وخلق الاهتداء وارسال الرسل ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق فى ذلك او معاندين امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان يجيب بقوله تعالى قل الله اى الذى له الاحاطة الكاملة يهدى للحق من يشاء ولا احد ممن زعمتموه شركاء فلا اشتغال بشئ منها بعبادة او غيرها جهل محض قال الزجاج يقال هديت الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد فالله تعالى ذكرهاتين اللغتين فى قوله تعالى من يهدى الى الحق وفى قوله تعالى قل الله يهدى للحق وقوله تعالى افمن يهدى الى الحق اى وهو الله تعالى احق ان يتبع امن لا يهدى اى يهتدى الا ان يهدى احق ان يتبع استفهام تقرير وتوبيخ اى الاول احق فما لكم كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد من لا يستحق الاتباع وقوله تعالى وما يتبع اكثرهم فى تفسيره وجهان الاول وما يتبع اكثرهم فى اقرارهم بالله تعالى الا ظنا لانه قول غير مستند الى برهان عندهم بل سمعوه من اسلافهم الثانى وما يتبع اكثرهم الا ظنا فى قولهم للاصنام انها آلهة وانها شفعاء عند الله تعالى الا الظن حيث قلدوا فيه اباءهم قال الرازى والقول الاول اقوى لانا فى القول الثانى نحتاج الى تفسير الاكثر بالكل ان الظن لا يغنى من الحق فيما المطلوب فيه العلم شيئا من الاغناء فدلت هذه الآية على ان كل من كان ظانا فى مسائل الاصول وما كان قاطعا لا يكون مؤمنا فان قيل فقول اهل السنة انا مؤمن ان شاء الله يمنع من القطع فوجب ان يلزمهم الكفر اجاب الرازى بان هذا ضعيف من وجوه الاول ان مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه ان الايمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل فالشك حاصل فى ان هذه الاعمال هل هى موافقة لامر الله تعالى والشك فى احد اجزاء الماهية لا يوجب الشك فى تمام الماهية الثانى ان الغرض من قوله ان شاء الله تعالى بقاء الايمان عند الخاتمة الثالث الغرض هضم النفس وكسرها ان الله عليم اى بالغ العلم بما يفعلون اى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه وقوله تعالى وما كان عطف على قوله ما يكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى الخ فهو حينئذ مقول القول اى قل لهم ذلك الكلام هذا القرآن اى الجامع لكل خير مع التأدية باساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق ان يفترى افتراء من دون الله اى غيره لان المفترى هو الذى تأتى به البشر وكفار مكة زعموا ان محمدا صلى الله عليه وسلم اتى بهذا من عند

عند

نفسه فاخبر الله تعالى ان هذا القرآن وحي انزله عليه وانه مبرأ عن الافتراء والكذب وانه لا يقدر عليه
احد الا الله ثم ذكر ما يؤكد هذا بقوله تعالى وَلٰكِنْ انزل تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ اي قبله من الكتب
الذي انزلها على انبيائه كالتوراة والانجيل فثبت بذلك انه وحي من الله انزله على نبيه صلى الله عليه
وسلم وانه معجزة له فانه كان اميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع باحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه
وسلم اتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه اخبار الاولين وقصص الماضين وقيل تصديق الذي
القرآن بين يديه من القيامة والبعث وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ اي تبيين ما كتب الله من الاحكام
وغيرها لَا رَيْبَ اي لا شك فِيهِ وقوله تعالى مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ متعلق بتصديق او بانزل
المحذوف أَمْ اي بل يَقُولُونَ افْتَرَاهُ اي اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار قُلْ اي قل لهم
يا محمد ان كان الامر كما تقولون فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فانتم
عرب مثله في البلاغة والفطنة فان قيل هل يتناول ذلك جميع السور الصغار والكبار او يختص
بالسور الكبار اجيب بان هذه الاية في سورة يونس وهي مكية فيكون المراد مثل هذه السورة
لانها اقرب ما يمكن ان يشار اليه هكذا اجاب الرازي والاولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون
ان يأتوا باقصر سورة فان قيل لم قال في البقرة بسورة من مثله وهنا بسورة مثله اجيب انه صلى الله
عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلمذ لاحد فقيل في سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله بناء على ان
الضمير يرجع للنبي صلى الله عليه وسلم اي فليأت انسان يساوي محمدا صلى الله عليه وسلم في عدم
مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة وحيث ظهر العجز ظهر
المعجز فهذا لا يدل على ان السورة في نفسها معجزة ولكنه يدل على ان ظهور مثل هذه السورة
من انسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم في عدم التعلم والتلمذ معجز ثم بين تعالى في هذه السورة
ان تلك السورة في نفسها معجزة فان الخلق وان تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا لا يمكنهم الاتيان
بمعارضة سورة واحدة من هذه السورة هو المراد من قوله تعالى وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ اي فاستعينوا
بمن امكنكم ان تستعينوا به مِنْ دُونِ اللَّهِ اي غيره فانه تعالى وحده قادر على ذلك إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
اي في اني اتيت به من عندي لان العاقل لا يجزم بشيء الا اذا كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون
الا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر تنبيه مراتب تحدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالقرآن ستة اولها انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان
يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها انه تحداهم بعشر سور فقال
تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فأتوا بسورة
من مثله رابعها انه تحداهم بحديث مثله خامسها ان في تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم
ان يأتي بالمعارضة رجل يساوي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدم التلمذ والتعلم ثم في هذه
السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من اي انسان سواء تعلم العلوم ام لم يتعلمها سادسها

أنّ في المراتب المتقدّمة تحدّى واحدة من الخلق وفي هذه المرتبة تحدّى جميعهم وجوّزوا أن يستعين البعض بالبعض في الإتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله وههنا آخر المراتب فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات أن القرآن معجز ثم إن الله تعالى ذكر السبب الذي لأجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى بَلْ كَذَّبُوا أي أوقعوا التكذيب الذي لا تكذيب أشنع منه مسرعين في ذلك بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ أي القرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته من غير شبهة أصلاً بل [illegible] شيئاً [illegible] والإحاطة إدراك ما هو كالحائط حول الشيء وإحاطة العلم بالشيء العلم به من جميع وجوهه وَلَمَّا يَأْتِهِمْ أي إلى الآن [illegible] تَأْوِيلُهُ أي تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد حتى تبين لهم أنه صدق أم كذب ومعنى التوقع في لما أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي ثم رازوا قواهم في معارضته فتضاءلت دونها ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً كَذَلِكَ أي مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم في الشناعة قبل تدبر المعجزة كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أي من الأمم الماضية فظلموا فأهلكناهم بظلمهم فَانظُرْ يا محمد كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ بتكذيب الرسل أي آخر أمرهم من الهلاك فكذلك نهلك من كذبك من قومك وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله وَمِنْهُمْ أي من قومك يا محمد مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ أي القرآن أي يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره ومنهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدله بالإيمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر وإذا صحت هذه الآية بهذين التأويلين لأن كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ أي المعاندين على التفسير الأول والمصرين على التفسير الثاني وفي ذلك تهديد لهم وَإِنْ كَذَّبُوكَ أي وإن كذبك يا محمد بعد إلزام الحجة فَقُلْ لهم لِي عَمَلِي من الطاعة وجزاء ثوابها وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ من الشرك وجزاء عقابه أي فتبرأ منهم فقد أعذرت والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم واختلف في معنى ذلك فقيل معنى الآية الزجر والردع وقيل بل معناه استمالة قلوبهم وقال مقاتل والكلبي هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الرازي وهذا بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وذلك لا يقتضي حرمة القتال وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً انتهى ولا تنبغي هذه المبالغة مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما قسم تعالى الكفار قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين منهم من يكون في نهاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الأول في

قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم﴾ اى من هؤلاء المشركين ﴿مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع
باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك فان الانسان اذا قوى بغضه لآخر وعظمت
نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ اى أتقدر
على اسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ مع الصمم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ اى لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع
فى صماخه دوى الصوت فاذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فكما انك لا تقدر
على اسماع الاصم الذى لا يعقل لا تقدر على اسماع من اصمه الله تعالى قلبه فان الله تعالى صرف قلوبهم
عن الانتفاع بما يستمعون ولم يوفقهم لذلك فشبهوا بالصم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ثم
وصف القسم الثانى فى قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ اى يعاينون دلائل نبوتك ولا
يصدقونك ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ اى أتقدر على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ مع العمى ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ اى
لا بصيرة لهم لان الاعمى الذى فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن فاما العمى مع الحمق فجهد
البلاء فلا تقدر على هداية من اعمى الله تعالى بصيرته فهؤلاء فى اليأس من ان يقبلوا ويصدقوا
كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر فلا يقدر على اسماعهم وهدايتهم الا الله تعالى (تنبيه)
اختلف فى ان السمع افضل او البصر فمنهم من قال السمع افضل من البصر واحتج بامور منها ان الله تعالى
ومنها ان القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب والقوة الباصرة لا تدرك المرئى
الا من جهة واحدة وهى المقابلة ومنها ان الانسان انما يستفيد العلم والتعلم من الاستاذ وذلك
لا يكون الا بقوة السمع فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل الا بقوة السمع ومنها ان الانبياء
عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم فنبوتهم ما حصلت بسبب ما يسمعون من الصفات
المرئية وانما حصلت بسبب ما سمعوه من الاحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الاحكام
ومنها ان المعنى الذى يمتاز به الانسان من سائر الحيوانات هو النطق بالكلام وانما ينتفع بذلك بالقوة
السامعة فمتعلق السمع النطق الذى يحصل به شرف الانسان ومتعلق البصر ادراك الالوان
والاشكال وذلك امر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات ومنهم من قال البصر افضل واحتج
بامور منها ان آلة القوة الباصرة هى النور وآلة القوة السامعة هى الهواء والنور اشرف من الهواء ومنها ان
جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الانسان عيبا فى الجمال والجمال
والعرب تسمى العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا وفى الحديث يقول الله تعالى من اذهبت
كريمتيه فصبر واحتسب لم ارض له ثوابا دون الجنة ومنها انهم قالوا فى المثل المشهور ليس وراء
العيان بيان وذلك يدل على ان اكمل وجوه الادراكات هو الابصار ومنها ان كثيرا من الانبياء
سمع الله واختلفوا فى انه هل رآه منهم احد ام لا وايضا فان موسى عليه السلام اسمعه الله تعالى
كلامه من غير سبق سؤال والتماس فلما طلب الرؤية قال لن ترانى وذلك يدل على ان حال الرؤية اعلى من
حال السماع وهذا هو الظاهر ولما حكم تعالى على اهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم

نبه تعالى ان الذى يصل اليهم من العقوبة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى إِنَّ اللّٰهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا اى لانه تعالى في جميع افعاله متفضل وعادل فيتصرف فى ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما وانما قال تعالى وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ لان الفعل منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ففي ذلك دليل على ان للعبد كسبا وانه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت المجبرة وقرأ حمزة والكسائي بكسر النون مخففة ورفع السين والباقون بنصب النون مشددة ونصب السين ولما وصف تعالى هؤلاء الكفار بقلة الاصغاء وترك التدبر اتبعه بالوعيد بقوله تعالى وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ اى واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء المشركين لموقف الحساب واصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم عن مكانهم كَأَنْ اى كانهم لَمْ يَلْبَثُوا فى دنياهم والجملة فى موضع الحال من ضمير نحشرهم اى نحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا إِلَّا سَاعَةً حقيرة مِنَ النَّهَارِ اى يستقصرون مدة مكثهم فى الدنيا وفى القبور لهول ما يرون يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ اى يعرف بعضهم بعضا اذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الاهوال والجملة حال مقدرة متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم نحشرهم وقوله تعالى قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللّٰهِ اى بالبعث يحتمل وجهين الاول ان يكون على ارادة القول اى يتعارفون بينهم قائلين ذلك الثانى ان يكون كلام الله تعالى فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى ان من باع آخرته بالدنيا فقد خسر لانه اعطى الكثير الشريف الباقى واخذ القليل الخسيس الفانى وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ اى الى رعاية مصالح التجارة وذلك لانهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا كمن راى زجاجة خسيسة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه فاذا عرضها على الناقد بان خاب سعيه وفات امله ووقع فى حرقة الروع وعذاب القلب وقوله تعالى وَإِمَّا فيه ادغام ان الشرطية فى ما الزائدة نُرِيَنَّكَ يا محمد بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ به من العذاب فى حياتك وجواب الشرط محذوف اى فذاك أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل ان نريك ذلك الوعد فى الدنيا فانك ستراه فى الآخرة وهو قوله تعالى فَإِلَيْنَا بعد البعث مَرْجِعُهُمْ فنريك هناك ما هو اقر لعينك واسر لقلبك وقوله تعالى ثُمَّ اللّٰهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ فيه وعيد وتهديد لهم اى انه تعالى شهيد على افعالهم التى فعلوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ولما بين تعالى حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال كل الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع اقوامهم كذلك بقوله تعالى وَلِكُلِّ أُمَّةٍ اى من الامم التى خلت من قبلك رَسُولٌ يدعوهم الى الله تعالى وقوله تعالى فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ فيه اضمار تقديره فاذا جاء رسولهم وبلغهم ما ارسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون قضى اى حكم وفصل بينهم بالقسط اى بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان احدهما انه فى الدنيا بان يهلك الكافرين وينجي رسوله والمؤمنين لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا الثانى فى الآخرة وذلك ان الله تعالى اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جئ بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم

والمراد منه المبالغة في اظهار العدل وهو قوله تعالى وهم لا يظلمون في جزاء اعمالهم شيئا بل يجازى
كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء ويقولون متى هذا الوعد الذي تعدنا به يا محمد من نزول
العذاب ومن قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد ان كنتم صادقين اي فيما
تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع على سبيل التعظيم او خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وان كان
كل امة قالوا لرسولها مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل امة رسول قال الله تعالى قل اي قل لهم يا محمد
لا املك لنفسي ضرا من مرض او فقر او غيره ولا نفعا من صحة او غنى اجلبه الا ما شاء الله ان يقدرني
عليه فكيف املك لكم حلول العذاب او قيام الساعة ولا يقدر على ذلك احد الا الله تعالى لكل امة اجل
اي مدة مضروبة اذا جاء اجلهم اي انقضت مدة اعمارهم فلا يستأخرون اي لا يتأخرون عنه ساعة
ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها ولا يستقدمون اي ولا يتقدمون اي ولا يستعجلون فان الوفاء
بالوعد لا بد منه والسين فيهما بمعنى الوجدان اي لا يوجد لهم المعنى الذي منه الفعل ويجوز ان
يكون المعنى لا يجدون التأخر ولا التقدم وان اجتهدوا في الطلب فيكون في السين معنى الطلب ودلت
الآية على ان احدا لا يموت الا بانقضاء اجله وكذا المقتول لا يقتل الا على هذا الوجه وقرأ قالون والبزي
وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش وقنبل الثانية وابدل لها ايضا حرف مد والباقون
بالتحقيق قال الله تعالى قل اي قل لهم يا محمد ايضا ارأيتم ان اتاكم عذابه الذي تستعجلون به بياتا
اي في الليل بغتة كما يفعل العدو او نهارا اي وقت انتم فيه تشتغلون بطلب المعاش والكسب
ماذا اي اي شيء يستعجل منه اي من عذابه وعذابه كل مكروه ولا يحتمل شيء منه المجرمون اي
المشركون وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة على انهم لجرمهم ينبغي ان يفزعوا من مجيء الوعيد لا ان
يستعجلوا وجملة الاستفهام متعلقة بارأيتم وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال
او تعرفوا الخطأ فيه ثم اذا ما وقع اي حل بكم آمنتم به اي آمنتم بالله او العذاب وقت نزول العذاب
وهو وقت اليأس والهمزة لانكار التأخير فلا يقبل منكم وقوله تعالى آلآن على ارادة القول اي قيل لهم
اذا آمنوا وقت نزول العذاب الآن وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا واستهزاء تنبيه اتفق قالون
مع ورش على النقل هنا واتفق القراء كلهم على همزة الوصل التي بعد همزة الاستفهام ان فيها وجهين
وهما البدل والتسهيل وقوله تعالى ثم قيل للذين ظلموا عطف على قيل المقدر وأي مناد قال كان
استهانة بهم وقرأ هشام والكسائي باشمام القاف وهو ان تضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر
ذوقوا عذاب الخلد اي الذي تخلدون فيه والاتيان بثم اشارة الى تراخي ذلك عن الاهلاك في الدنيا
بالمكث في البرزخ او الى ان عذابه ادنى من عذاب يوم الدين هل اي ما تجزون الا بما كنتم تكسبون
في الدنيا من الكفر والمعاصي ويستنبئونك اي يستخبرونك يا محمد احق هو اي ما وعدتنا به من نزول
العذاب وقيام الساعة وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء قاله حيي بن اخطب لما قدم مكة
قل لهم في جوابهم اي وربي انه لحق اي كائن ثابت لا بد من نزوله بكم تنبيه اي بمعنى نعم وهو من

لوازم القسم ولذلك توصل بواوه في التصديق فيقال اي والله ولا ينطقون به وحده وما انتم
بمعجزين اي بفائتين العذاب لان من عجز عن شيء فقد فاته ولو ان لكل نفس ظلمت اي اشركت
ما في الارض من الاموال لافتدت به من عذاب يوم القيامة ولم ينفعها الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها
عدل ولا هم ينصرون واسروا الندامة لما رأوا العذاب اي حين عاينوه وابصروه وصاروا مبهوتين
متحيرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فانه
يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة وقيل انهم اخلصوا لله في تلك الندامة ومن اخلص في الدعاء اسره
وفيه تهكم بهم وباخلاصهم لانهم انما اتوا بهذا الاخلاص في غير وقته بل كان من الواجب عليهم ان يأتوا به
في دار الدنيا وقت التكليف وقيل المراد بالاسرار الاظهار وهو من الاضداد لانهم انما اخفوا الندامة
على الكفر والفسق في الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفي القيامة بطل هذا فوجب الاظهار وليس هناك
تجلد فان قيل اسروا جاء على لفظ الماضي والقيامة من الامور المستقبلة اجيب بانها لما كانت واجبة
الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضي وقضي بينهم اي بين الخلائق بالقسط اي بالعدل وهم لا يظلمون
فان قيل هذه الآية مكررة اجيب بان الاولى في القضاء بين الانبياء ومكذبيهم وهذه عامة وقيل
بين المؤمنين والكفار وقيل بين الرؤساء والاتباع فان الكفار وان اشتركوا في العذاب فلا بد ان
يقضي الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع ان يكون قد ظلم بعضهم بعضا في الدنيا وخانه فيكون في ذلك
القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضي ان ينتصف للمظلومين
من الظالمين ولا سبيل اليه الا ان يخفف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين وقوله
تعالى الا ان لله ما في السموات والارض تقرير لقدرته تعالى على الاثابة والعقاب الا ان وعد الله
اي ما وعد به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزاء ومن ثواب الطائع وعقاب
العاصي حق لا شك فيه ولكن اكثرهم اي الناس لا يعلمون اي جاهلون عن حقيقة ذلك
فهم باقون على الجهل محجوبون مع البهائم لقصور عقلهم الا ظاهرا من الحياة الدنيا هو اي
الذي يملك ما في السموات والارض يحيي ويميت اي قادر على الاحياء والاماتة لا يتعذر عليه
شيء مما اراده واليه ترجعون بعد الموت للجزاء وقوله تعالى يا ايها الناس خطاب عام وقيل لاهل مكة
قد جاءتكم موعظة من ربكم اي كتاب فيه ما لكم وعليكم وهو القرآن وشفاء اي دواء لما في الصدور
اي القلوب من داء الجهل لان داء الجهل اضر للقلب من المرض للبدن وامراض القلب
هي الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة فالقرآن مزيل لهذه الامراض
كلها لان فيه المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفاء
لهذه الامراض القلبية وانما خص تعالى الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغيره وهو اعز موضع
في الانسان لمكان القلب فيه وهدى من الضلالة ورحمة اي اكرام منعم للمؤمنين لانهم هم
الذين انتفعوا به دون غيرهم واختلف في تفسير قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فقال مجاهد وقتادة

فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عباس والحسن فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وعن أبيّ بن كعب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله وبالاسلام وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن ولا مانع من أن تفسر الآية بجميع ذلك اذ لا تنافي بين هذه الاقوال والباء في بفضل الله وبرحمته متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل ان فرحوا بشيء فليفرحوا بهما فانه لا مفروح به أحق منهما هو أي المذكور عنه من الفضل والرحمة خير مما يجمعون أي من حطام الدنيا ولذاتها الفانية وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة قل يا محمد لكفار مكة أرأيتم أي أخبروني ما أنزل الله أي خلق الله لكم من رزق وانه تعالى جعل الرزق منزلا لانه مقدر في السماء يحصل باسباب منها فجعلتم منه أي من ذلك الرزق حراما وحلالا وهو مثل ما ذكروه من تحريم السائبة والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه انعام وحرث حجر ومثل قولهم هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ومثل قولهم ثمانية أزواج من الضأن اثنين قل لهم يا محمد آلله أذن لكم في هذا التحريم والتحليل أم أي بل على الله تفترون أي تكذبون على الله بنسبة ذلك اليه وما ظن الذين يفترون أي يتعمدون على الله الكذب أي أي شيء ظنهم به يوم القيامة أيحسبون أن لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب إن الله لذو فضل على الناس بنعم كثيرة لا تحصى منها انزال الكتب مفصلا فيها ما يرضيه وما يسخطه ومنها ارسال الرسل عليهم الصلوة والسلام ببيانها بما يحتمله عقول الخلق منها ومنها طول امهالهم على سوء أفعالهم ومنها انعامه عليهم بالعقل فكان شكره واجبا عليهم ولكن أكثرهم أي الناس لا يشكرون هذه النعم ولا يستعملون العقل في دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة انبيائه ولا ينتفعون باستماع كتب الله وقوله تعالى وما تكون خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن أي عمل من الاعمال وجمعه شؤون والضمير في قوله تعالى وما تتلوا منه اما للشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه واما للتنزيل كأنه قيل وما تتلو من التنزيل من قرآن لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له واما لله تعالى والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وقوله تعالى ولا تعملون من عمل أي أي عمل كان تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رئيسهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة وهو الشأن وذكر حيث عمّ بقوله تعالى من عمل ما يتناول الجليل والحقير وقيل ان الكل داخلون في الخطابين الاولين أيضا لانه من المعلوم انه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب كما في

قوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا اى رقباء نحصي عليكم اعمالكم لان الله
تعالى رقيب على كل شئ وعالم بكل شئ اذ لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل
في الوجود هنا من احوال العباد واعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وشاهد عليه
إِذْ تُفِيضُونَ اى الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون فِيهِ اى ذلك العمل وقيل الافاضة
الدفع بكثرة وقال الزجاج اذ تنتشرون فيه يقال افاض القوم في الحديث اذا انتشروا فيه وَمَا يَعْزُبُ
اى يغيب عَنْ رَبِّكَ يا محمد مِنْ مِثْقَالِ اى وزن ذَرَّةٍ وهي النملة الحمراء الصغيرة خفيفة الوزن جدا
وقيل المراد بها الهباء وهو الشئ المنبث الذى تراه في البيت في ضوء الشمس وقرأ الكسائي بكسر الزاء
والباقون بالضم ومن صلة على القراءتين وانما قيد بقوله تعالى فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ تقريبا لعقول
العامة فان قيل لم قدم ذكر الارض على السماء وقدم ذكر السماء على الارض في سورة سبأ حيث
قال تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض فما فائدة ذلك اجيب بان الكلام
هنا في حال اهلها والمقصود منه هو البرهان على احاطة علمه على ان العطف بالواو حكمه حكم التثنية
وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ اى الذرة وَلَا أَكْبَرَ اى منها إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ اى بين وهو اللوح المحفوظ وقرأ حمزة
برفع الراء من اصغر واكبر على الابتداء والخبر والباقون بالنصب على ان ذلك اسم لا وفي كتاب
خبرها أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ اى الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من لحوق مكروه
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ بفوات مامول وفسرهم بقوله تعالى الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ الله بامتثال امره ونهيه
وهذا الذى فسر الله تعالى به الاولياء لا مزيد عليه وعن علي رضي الله عنه هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش
العيون من العبر خمص البطون من الخوى وعن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من
اولياء الله تعالى فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم يعني السمت والهيئة وعن ابن عباس الاخبات
والسكينة وعن عمر رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا
ما هم بانبياء ولا شهداء تغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يا رسول الله اخبرنا
من هم وما اعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله بغير ارحام بينهم ولا اموال يتعاطونها فوالله ان
وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الآية
ونقل النووي في مقدمة شرح المهذب عن الامامين الشافعي وابي حنيفة رضي الله تعالى عنهما ان
كلا منهما قال اذا لم تكن العلماء اولياء لله فليس لله ولي وذلك في العالم العامل بعلمه وقال القشيري
من شرط الولي ان يكون محفوظا كما ان من شرط النبي ان يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه اعتراض
فهو مغرور مخادع فالولي هو الذى توالت افعاله على الموافقة ولما نفى الله عنهم الخوف والحزن زادهم
فقال تعالى مبينا لتوليته لهم بعد ان شرع بتوليتهم له لَهُمُ الْبُشْرَى اى الكاملة فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
اما البشرى في الدنيا ففسرت باشياء منها الرؤيا الصالحة فقد ورد انه صلى الله عليه وسلم قال
البشرى هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن او ترى له وقال صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوة وبقيت المبشرات

وقال الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم احدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزأ من النبوة ومنها محبة الناس له وذكرهم اياه في الثناء الحسن فعن ابي ذر قال قلت يارسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن ومنها البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة واما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرونه من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بايمانهم وما يقرؤن منها وسلام الله تعالى عليهم كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم وغير ذلك من البشرى بما بشر الله تعالى به عباده المتقين في كتابه وعلى لسنة انبيائه من جنته وكريم ثوابه فان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر اثره في بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل في هذه الآية ثم انه تعالى لما ذكر صفة اوليائه وشرح احوالهم قال تعالى لا تبديل اي بوجه من الوجوه لكلمات الله اي لا تغيير لاقواله ولا اخلاف لمواعيده والكلمة والقول سواء ونظيره قوله تعالى ما يبدل القول لدي وقوله تعالى ذلك اشارة الى كونهم مبشرين في الدارين هو الفوز العظيم وهذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه ان يقع بعده كلام يتصل بما قبله ولا يحزنك يا محمد قولهم اي هؤلاء المشركين اي لا يغمك تكذيبهم وتهديدهم وتشويرهم في تدبير هلاكك وابطال امرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من احزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاي وكلاهما بمعنى وقوله تعالى ان العزة اي القوة لله جميعا استئناف بمعنى التعليل كانه قيل ما لي لا احزن فقيل ان العزة لله جميعا اي ان الغلبة والقهر في مملكة الله لله جميعا لا يملك احد شيئا منها لا هم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم قال تعالى كتب الله لاغلبن انا ورسلي وقال تعالى انا لننصر رسلنا وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة اموالهم واولادهم وعبيدهم فاخبر الله تعالى ان جميع ذلك في ملكه فهو قادر على ان يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز هو السميع اي البليغ السمع لاقوالهم العليم اي المحيط العلم بضمائرهم وجميع احوالهم فهو البالغ القدرة على كل شيء فيجازيهم وهو تعليل لتفرده بالعزة لانه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم فاني يكون له عزة فان قيل قوله تعالى ان العزة لله جميعا يضاد قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين اجيب بالمنع لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله الا ان لله من في السموات ومن في الارض ملكا وخلقا فان قيل قد ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة الا ان لله ما في السموات والارض بلفظ ما وقال هنا بلفظ من فما فائدة ذلك اجيب بانه تعالى غلب في الآية الاولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته وفي هذه غلب العاقل على غيره لشرفه وقيل مجموع الآيتين دال على ان الكل خلقه وملكه وقيل ان المراد بمن في السموات الملائكة ومن في الارض الثقلان وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا كان هؤلاء في ملكه وتحت قهره فما لا يعقل منها احق ان لا يكون له ندا وشريكا فهو

كالدليل على قوله تعالى وما يتبع الذين يدعون أي يعبدون من دون الله أي غيره أصناما
شركاء على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء تعالى الله عن ذلك إن أي ما يتبعون في ذلك
إلا الظن أي ظنهم أنها آلهة تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله تعالى ثم بين تعالى أن هذا الظن لا
حكم له بقوله تعالى وإن أي ما هم إلا يخرصون أي يكذبون في ذلك ويجوز أن يكون وما يتبع في معنى
الاستفهام أي وأي شيء يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الأول بيتبع وكان حقه
وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة وقوله تعالى
هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه أي ليزول عنكم التعب والكلال فيه بما تقاسون في نهاركم من تعب
التردد في المعاش والنهار مبصرا أي مضيئا تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم تنبيه
على كمال قدرته وعظم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة وإضافة
الإبصار إلى النهار مع أنه يبصر فيه على طريق نقل الاسم من المسبب إلى السبب كقولهم ليل نائم
لأن الليل سبب للسكون قال قطرب تقول العرب أظلم الليل أي صار ذا ظلمة وأضاء النهار أي
صار ذا ضياء إن في ذلك المذكور لآيات أي دلالات على وحدانيته تعالى لقوم يسمعون سماع
اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك أن الذي خلق الأشياء كلها هو الإله المعبود المتفرد بالوحدانية في
الوجود ثم ذكر الله تعالى نوعا من أباطيل الكفار بقوله تعالى قالوا أي اليهود والنصارى ومن زعم
أن الملائكة بنات الله اتخذ الله ولدا قال الله تعالى سبحانه أي تنزيها له عن الولد هو الغني عن كل
أحد وإنما يطلب الولد من يحتاج إليه ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى له ما في السموات وما في الأرض
من ناطق وصامت ملكا وخلقا ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا إليه عطف بالإنكار
والتوبيخ فقال إن أي ما عندكم من سلطان أي حجة بهذا أي الذي تقولونه ثم بالغ تعالى في ذلك
الإنكار عليهم بقوله تعالى أتقولون على الله ما لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا يجوز
إضافته إليه تعالى جهلا منكم والاستفهام للتوبيخ قل يا محمد لهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب
يقولون عليه الباطل ويزعمون أن له ولدا إن الذين يفترون أي يتعمدون على الله الكذب
لا يفلحون أي لا ينجون في سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا فإنهم لا ينجون من النار
ولا يفوزون بالجنة ومن الناس من إذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة
ظن أنه قد فاز بالمقصد والله سبحانه وتعالى أزال هذا الخيال بأن قال متاع في الدنيا وفيه
إضمار تقديره لهم متاع في الدنيا على أنه مبتدأ خبره محذوف ويصح أن يكون خبر المبتدأ
محذوف تقديره افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون به رياستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع
في الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة إلى طول بقائهم في العذاب ثم إلينا مرجعهم بالموت ثم نذيقهم
العذاب الشديد بعد الموت بما أي بسبب ما كانوا يكفرون ع ولما ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة
أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في قصص الأنبياء وما جرى لهم

مع اممهم وذكر الله تعالى منهم في هذه السورة ثلاث قصص القصة الاولى قصة نوح عليه
السلام المذكورة بقوله تعالى وَاتْلُ يا محمد عَلَيْهِمْ اي كفار قريش نَبَأَ اي خبر نُوحٍ وذلك ليكون لرسول
الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه اسوة بمن سلف من الانبياء فانه كان صلى الله عليه وسلم اذا سمع ان
معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كان الا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة
اذا عمت خفت ولان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا ان الجهال وان بالغوا في ايذاء الانبياء
المتقدمين الا ان الله تعالى اعانهم بالآخرة ونصرهم وايدهم وقهر اعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار
لامثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل في صدورهم ولان الكلام اذا طال
تقريرا في نوع من انواع العلوم فربما حصل نوع من انواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن
من العلم الى فن آخر شرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا
قويا ولانه صلى الله عليه وسلم لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت
ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على انه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحي والتنزيل
ويبدل من نبأ نوح إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ وهم بنو قابيل يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ اي شق وعظم عَلَيْكُمْ مَقَامِي اي لبثي
فيكم الف سنة الا خمسين عاما وَتَذْكِيرِي اي وعظي اياكم بِآيَاتِ اللَّهِ اي بحججه وبيناته فعزمتم على
قتلي وطردي فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ اي فهو حسبي وثقتي او قيامي على الدعوة لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة
قاموا على ارجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام انه
كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ اي فاعزموا على امر تفعلونه في اذاي بالاهلاك
او غيره وَشُرَكَاءَكُمْ اي وادعوا شركاءكم او الواو بمعنى مع اي شركائكم وهي الاصنام وانما حثهم
على الاستعانة بها بناء على مذهبهم الفاسد واعتقادهم انها تضر وتنفع مع اعتقاده انها جماد
لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ اي الذي تقصدونه بي عَلَيْكُمْ غُمَّةً اي مستورا
من غمه اذا ستره بل اظهروه وجاهروني به مجاهرة فانه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده
السر والجهر ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ اي امضوا ما في انفسكم وافرغوا منه يقال قضى فلان اذا مات ومضى وقضى
دينه اذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا الي بالقتل والمكروه وقيل فاقضوا ما انتم قاضون وهذا مثل
قول السحرة لفرعون فاقض ما انت قاض اي اعمل ما انت عامل وَلَا تُنْظِرُونِ اي ولا تؤخرون بعد
اعلامكم اياي ما انتم عليه وانما قال ذلك اظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته
وعصمته وانهم لن يجدوا اليه سبيلا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ اي اعرضتم عن تذكيري فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ اي من
جعل وعوض على تبليغ الرسالة فينفركم عني وتتهموني لاجله من طمعي في اموالكم وطلب اجر على عظتكم
ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله اقوى تاثيرا في القلب إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وهو الثواب
الذي يثيبني به في الآخرة اي ما نصحتكم الا لوجه الله تعالى لا لغرض من اغراض الدنيا وهكذا ينبغي لكل
من ينفع الناس بعلم او ارشاد الى طريق الله تعالى وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اي الى ما مسعد

بالاستسلام بكل مكروه يصل الىّ منكم لاجل هذه الدعوة وقيل بين الاسلام واما ماض فيه غير آخذ
له فبلغوه او لم تقبلوه فكذبوه اى اصرّوا على تكذيبه بعد ما الزمهم الحجة وبين ان توليهم ليست الا لعنادهم
وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب فنجيناه من الغرق ومن معه في الفلك اى السفينة
وكانوا ثمانين وجعلناهم اى الذين انجيناهم معه فى الفلك خلائف فى الارض يخلفون الهالكين
بالغرق واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا بالطوفان وقوله تعالى فانظر اى ايها الانسان او يا محمد
كيف كان عاقبة المنذرين تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن انذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن مثله وتسلية له وهذه القصة اذا سمعها من صدق النبى صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجرا
للمكلفين من حيث يخافون ان ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على
الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة فى الترغيب والتحذير
اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ ولهذا الوجه اكثر تعالى ذكر
اقاصيص الانبياء عليهم السلام ثم بعثنا من بعده اى نوح رسلا الى قومهم لم يسم هنا تعالى من كان
بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه
عليهم فجاؤهم بالبينات اى بالمعجزات الواضحات التى تدل على صدقهم فما كانوا ليؤمنوا اى فما استقام
لهم ان يؤمنوا لشدة عنادهم وخذلان الله تعالى اياهم بما اى بسبب ما كذبوا به من قبل اى انهم
كانوا قبل بعثة الرسل اليهم اهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل
وقبلها كأن لم يبعث اليهم احد كذلك اى مثل ما طبعنا على هؤلاء بسبب تكذيبهم الرسل نطبع
اى نختم على قلوب المعتدين فى كل زمن لكل من تعمد العدول فيما لا يحل له فلا يقبل الايمان لانهماكهم
فى الضلال واتباعهم المألوف وفى امثال ذلك دليل على ان الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب
العبد. القصة الثانية قصة موسى عليه السلام المذكورة بقوله تعالى ثم بعثنا من بعدهم اى هؤلاء
الرسل موسى وهرون الى فرعون وملائه اى اشراف قومه وغيرهم تبع لهم مرسلين الى الجميع
بآياتنا التسع فاستكبروا عن اتباعها والايمان بها وهو اعظم الكبر ان يتهاون العبيد برسالة
ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها وكانوا قوما مجرمين اى كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا
عنها واجترؤا على ردها فلما جاءهم الحق اى جاء فرعون وقومه من عندنا اى الذى جاء به موسى من
عند ربه وعرفوا انه ليس من عند موسى وهرون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة للشك قالوا
اى غير متأملين له ولا ناظرين فى امره لفرط تمردهم ان هذا لسحر مبين اى بين ظاهر يعرفه
كل احد وهم يعلمون ان الحق ابعد شئ من السحر الذى لا يظهر الا على كافر فاسق وقوله تعالى
قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر
هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار
بمعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله تعالى فقال ولا يفلح الساحرون فانه لو كان سحرا لاضمحل

ولم يبطل سحر السحرة فقلب العصا حية وفلق البحر معلوم بالضرورة انه ليس من باب التمويه والتخييل
فثبت انه ليس بسحر قالوا اى قوم فرعون لموسى أجئتنا لتلفتنا اى لتردنا وتصرفنا واللفت والفتل
اخوان عما وجدنا عليه آباءنا اى من الدين وعبادة الاصنام ثم قالوا لموسى وهرون وتكون لكما
الكبرياء اى الملك والعز في الارض اى ارض مصر قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه اكبر ما يطلب
من امر الدنيا وأيضا الملوك موصوفون بالكبر ولهذا وصف ابن الرقيات مصعبا في قوله

ملكه ملك رأفة ليس فيه + جبروت منه ولا كبرياء + ينفي ما عليه الملوك من ذلك ويجوز ان
يقصد وابن لك ذمهما وانهما ان ملكا ارض مصر تجبرا وتكبرا كما قال القبطي لموسى عليه
السلام ان تريد الا ان تكون جبارا في الارض وما نحن لكما بمؤمنين اى مصدقين فيما جئتما به وقال
فرعون لقومه ارادة للمناظرة لما اتى به موسى عليه السلام ائتوني بكل ساحر عليم اى بالغ في علم السحر
الذى لا يفوت شئ من السحر بتاخر البعض وقرأ حمزة والكسائي بغير الف بين السين والحاء وتشديد الحاء
مفتوحة والف بعدها بصيغة فعال دال على زيادة قلق فرعون والباقون بالف بعد السين وتخفيف
الحاء مكسورة ولا الف بعدها فلما جاء السحرة اى كل من في ارض مصر منهم قالوا لموسى اما ان تلقي
واما ان نكون نحن الملقين قال لهم موسى ألقوا جميع ما أنتم ملقون فان قيل كيف امرهم بالكفر والسحر
والامر بالكفر كفر اجيب بانه انما امرهم بالقاء ما معهم من الحبال والعصي التي معهم ليظهر
للخلق انما اتوا به عمل فاسد وسعي باطل لا على طريق انه عليه السلام امرهم بالسحر فلما ألقوا ما معهم
من الحبال والعصي وخيلوا بسحرهم اعين الناس انها تسعى قال موسى منكرا عليهم ما جئتم به السحر
قرأه ابو عمرو بهمزتين الاولى همزة الاستفهام فهي مفتوحة والثانية همزة وصل وله فيها وجهان
التسهيل والبدل فما استفهامية مبتدأ وجئتم به خبرها والسحر بدل منه وقرأ الباقون بهمزة وصل
فتسقط في الوصل اى الذى جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا اشار الى موسى عليه السلام
بقوله ان الله سيبطله اى يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين اى لا يثبته
ولا يقويه وقول البيضاوي وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له محمول على ما يفعله
اصحاب الحيل بمعونة الآلات والادوية والا فله حقيقة فهو حق عند اهل السنة وهو على كيفية استمدت
نفوس ربها النفوس البشرية على ظهور التاثير في عالم العناصر ويحق اى يثبت ويظهر الله الحق بكلماته اى بقضائه
ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد اخبر الله تعالى في غير هذه السورة انه كيف ابطل ذلك السحر وذلك
بسبب ان ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصي ولو كره المجرمون ذلك + ولما بين تعالى ان قوم موسى شاهدوا هذه ٨ ع
المعجزات ومع ذلك لم يؤمن منهم الا القليل كما قال تعالى فما آمن لموسى الا ذرية من قومه وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله
عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر بين تعالى ان له في هذا الباب
بسائر الانبياء اسوة لان الذى ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان امرا عظيما ومع ذلك
فما آمن له الا ذرية من قومه والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل

والهاء التي في قومه راجعة الى موسى اي فما آمن قومه الا طائفة من ذرارى بني اسرائيل كانه قيل الا اولاد من اولاد قومه وذلك انه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من ابنائهم مع الخوف وقيل راجعة الى فرعون والذرية امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته على خوف من فرعون وملائهم اي خوف منه لانه كان شديد البطش وكان قد اظهر العداوة مع موسى واذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ في ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن اشراف قومه والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظمة لانه ذو اصحاب يأتمرون به وقيل الى آل فرعون كما يقال ربيعة ومضر ان يفتنهم اي يصرفهم ويصدهم عن الايمان وان فرعون لعال اي متكبر قاهر في الارض اي ارض مصر وانه لمن المسرفين اي المجاوزين الحد فانه كان من اخس العبيد وادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني اسرائيل وقال موسى لقومه يا قوم ان كنتم آمنتم بالله اي صدقتم به وبآياته فعليه توكلوا اي ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر اوليائه ومهلك اعدائه ان كنتم مسلمين اي مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وقيل ان كنتم آمنتم بالقلب واسلمتم بالظاهر فقالوا مجيبين له على الله توكلنا اي عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين اي لا تسلطهم علينا فيفتنونا ونجنا اي خلصنا برحمتك من القوم الكافرين اي من ايدي قوم فرعون لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الاعمال الشاقة وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مخلصين لا جرم ان الله تعالى قبل توكلهم واجاب دعاءهم ونجاهم واهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في الارض وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على ان الداعي ينبغي ان يتوكل اولا لتجاب دعوته ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى اتبعه بان امر موسى وهرون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى واوحينا الى موسى واخيه اي الذي طلب موازرته ومعاضدته ان تبوّآ اي اتخذا لقومكما بمصر بيوتا تسكنون فيها او ترجعون اليها للعبادة واجعلوا انتما وقومكما بيوتكم اي تلك البيوت قبلة مصلى ومساجد كما في قوله تعالى في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة اي الكعبة وكان موسى عليه السلام يصلي اليها وقرأ ورش وابو عمرو وحفص بيوتا وبيوتكم برفع الباء والباقون بالخفض واقيموا الصلوة فيها ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة الاول ان موسى عليه السلام ومن معه كانوا في اول امرهم مأمورين بان يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة في اول الاسلام بمكة الثاني انه قيل انه تعالى لما ارسل موسى اليهم امر فرعون بتخريب مساجد بني اسرائيل ومنعهم من الصلوة فامرهم الله تعالى ان يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون الثالث انه تعالى لما ارسل موسى اليهم واظهر فرعون تلك العداوة الشديدة امر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل الله تعالى

بان يصونهم من شر الاعداء وقد خص الله تعالى موسى وهرون في اول هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى ان تبوآ لقومكما لان التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤس القوم للتشاور ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد واقامة الصلوة مما ينبغي ان يفعله كل احد ثم خص موسى عليه السلام في آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى وبشر المؤمنين اي بالنصر في الدنيا والجنة في العقبى لان الغرض الاصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على ان الاصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وان هرون عليه السلام تبع له ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ في اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار اخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير ان يذكر اولا سبب اقدامه على الجرائم وكان جرمهم هو لاجل حبهم الدنيا يذكر ولهذا السبب قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه اي اشراف قومه على ما هم عليه من الكفر والكبر زينة اي عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان واثاث البيت الفاخر ونحو ذلك واموالا اي كثيرة من الذهب والفضة وغيرها في الحيوة الدنيا روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان لهم من فسطاط مصر الى ارض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ثم بين غايتها لهم فقال مفتتحا بالنداء باسم الرب ليبينه واتباعه من مثل حالهم ربنا اي يا ربنا آتيتهم ذلك ليضلوا اي في خاصة انفسهم ويضلوا غيرهم عن سبيلك اي دينك واللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل لام كي اي آتيتهم كي نفتنهم وقيل هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة احوالهم انه لا يكون غير ذلك وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الياء والباقون بالفتح ربنا اطمس على اموالهم اي امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة صارت اموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا واثلاثا وارباعا ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها اشياء من بقايا آل فرعون فاخرج منها البيضة منقوقة والجوزة مشقوقة وانها كالحجر قال السدي مسخ الله تعالى اموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والاطعمة فكانت احدى الآيات التسع واشدد على قلوبهم اي اطبع عليها واستوثق حتى لا تنشرح للايمان وقوله فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم جواب للدعاء او دعاء بلفظ النهي او عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض وقوله تعالى قال قد اجيبت دعوتكما فيه وجهان الاول قال ابن عباس ان موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال دعوتكما وذلك ان من يقول عند دعاء الداعي امين فهو ايضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما ان الداعي سائل ايضا الثاني ان يكون كل منهما ذكر هذا غاية ما في الباب ان يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى وقال موسى ربنا وهذا لا ينافي ان يكون هرون قد ذكر الدعاء ايضا واما قوله تعالى فاستقيما فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة والزيادة في الزام الحجة فقد لبث نوح في قومه الف سنة الا خمسين

عاما فلذا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
اى الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال فربما اجاب الله تعالى
دعاء الانسان فى مطلوبه الا انه انما يوصله اليه فى وقته المقدور والاستعجال لا يصدر الا من الجهال
وهذا كما قال تعالى لنوح عليه الصلوة والسلام انى اعظك ان تكون من الجاهلين وهذا النهى لا يدل على
ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما ان قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور
الشرك منه صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها لانها نون التوكيد الثقيلة
وخففت ولما اجاب الله تعالى دعاءهما امر بنى اسرائيل وكانوا ستمائة الف بالخروج من مصر فى الوقت
المعلوم ويسر لهم اسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع انهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته
خرج فى عقبهم كما قال تعالى وَجَاوَزْنَا اى قطعنا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ اى عبدنا المخلص لنا الْبَحْرَ حتى بلغوا الشط
حافظين لهم فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ اى لحقهم وادركهم يقال تبعه واتبعه اذا ادركه ولحقه بَغْيًا
وَعَدْوًا اى ظلما وعدوانا وقيل بغيا فى القول وعدوا فى الفعل فلما ادركهم فرعون قالوا لموسى اين المخلص
والمخرج البحر امامنا وفرعون وراءنا قد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فاوحى الله تعالى الى موسى ان اضرب
بعصاك البحر فضربه فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف عنه وجه الارض
وانشر لهم البحر فلما وصل فرعون الى البحر هاب دخوله وكان فرعون على حصان ادهم وكان معه فى عسكره
ثمانمائة الف حصان على لون حصانه وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ منهم احد فلما خرج آخر بنى اسرائيل
من البحر تقدمهم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من امره شيئا
فنزل البحر واتبعه جنوده حتى اذا اكملوا جميعا فى البحر وهم اولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما اتاه الغرق
اتى بكلمة الاخلاص كما قال تعالى حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ اى لحقه قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ اى بانه لَا إِلَهَ إِلَّا
الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فان قيل انه آمن ثلاث مرات اولها قوله آمنت وثانيها
قوله لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وانا من المسلمين فما السبب فى عدم القبول
اجاب العلماء عن ذلك باجوبة منها انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عند معاينة
الملائكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ودس جبريل
فى فيه من حمأ البحر مخافة أن تناله الرحمة وقال له آلْآنَ تؤمن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وضيعت التوبة فى وقتها
وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية وكنت من المفسدين بضلالك واضلالك عن الايمان والتوبة
حتى اغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة وانما قال له وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله وانا من
المسلمين ومنها ان فرعون انما قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم
يكن قصده الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية فلم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت ومنها ان فرعون
كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى ولذلك قال آمنت انه لا اله الا الذى
آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته

الا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية ومنها ما روي في بعض الكتب ان بعض اقوام بني اسرائيل
لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل انصرف
ذلك الى العجل الذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة في حقه سببا لزيادة الكفر
ومنها ان الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى وبالاقرار بنبوة موسى عليه السلام وفرعون
لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار لو قال الف مرة اشهد ان لا اله الا الله فانه لا يتم
ايمانه الا اذا قال معه واشهد ان محمدا رسول الله فكذا ههنا ومنها ان جبريل عليه السلام اتى فرعون بفتوى
ما قول الامير في عبد نشأ في مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون
فيه يقول ابو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته ان يغرق في البحر ثم ان
فرعون لما غرق دفع جبريل عليه السلام اليه خطه فان قيل فما فائدة دس جبريل في فم فرعون ذلك
لانه في تلك الحالة اما ان يكون التكليف ثابتا ام لا فان كان فكيف منعه من التوبة وان كان غير
مكلف فلا فائدة في ذلك اجيب بان التكليف كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من قبل
نفسه فانه عبد مأمور والله تعالى يفعل ما يشاء كما قال تعالى فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء
وقال تعالى ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند
الموت جزاء على تركه الايمان اولا فدس الحمأة في فم فرعون من جنس الختم والطبع على القلب ومن الناس من قال
قائل هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده فاليوم ننجيك اي نخرجك من البحر ببدنك اي جسمك الذي
لا روح فيه كاملا سويا لم يتغير او نخرجك من البحر عريانا من غير لباس او ان المراد بالبدن الدرع قال الليث
البدن هو الدرع الذي يكون قصير الكمين وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب
يعرف به فاخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف لتكون لمن خلفك اي بعدك آية اي عبرة
فيظهروا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن ابن عباس ان بعض بني اسرائيل شكوا في موته فاخرج لهم
ليروه ويشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله انا ربكم الاعلى ليعلموا ان دعواه كانت
باطلة وان ما كان فيه من عظم الشان وكبرياء الملك آل امره الى ما يرونه لعصيانه ربه وان كثيرا من الناس
عن آياتنا لغافلون اي لا يعتبرون بها وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ولكن القول الاول اشهر ع ٩
ولقد بوأنا اي انزلنا بني اسرائيل مبوأ صدق اي منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف المكان
بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيئا اضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم
صدق والسبب فيه ان الشيء اذا كان كاملا صالحا لا بد ان يصدق الظن فيه وقيل ارض
الشام والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة ورزقناهم من الطيبات اي الحلالات
المستلذات من الفواكه والحبوب والالبان والاعسال وغيرها فاورث الله تعالى بني اسرائيل جميع ما كان تحت
ايدي فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال تعالى واورثنا القوم الذين كانوا
يستضعفون مشارق الارض ومغاربها فما اختلفوا اي هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني اسرائيل

في امر دينهم حتى جاءهم العلم اي جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك انهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه
وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته
ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله
بن سلام واصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة وانهم ما اختلفوا في دينهم
الا من بعد ما قرؤا التوراة وعلموا احكامها ان ربك يا محمد يقضي بينهم يوم القيامة اي الذي هو اعظم
الايام فيما كانوا اي بافعالهم الجبلية فيه يختلفون اي فيميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق
ويسكن كلا داره واختلف المفسرون فيمن المخاطب بقوله تعالى فان كنت في شك مما انزلنا اليك
فسئل الذين يقرؤن الكتاب اي التوراة من قبلك اي فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه
فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر والمراد امته كقوله تعالى يا ايها النبي اتق الله ولا تطع
الكافرين والمنافقين وقوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك وقوله تعالى لعيسى عليه السلام
ءانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله ومن الامثلة المشهورة اياك اعني واسمعي
يا جارة والذي يدل على صحة ذلك وجوه الاول قوله تعالى في آخر السورة يا ايها الناس فبين ان ذلك
المذكور في اول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح الثاني انه صلى الله
عليه وسلم لو كان شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته اولى وهذا يوجب سقوط الشريعة
بالكلية الثالث اذا فرض ان يكون شاكا في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار اهل الكتاب
عن نبوته مع انهم في الاكثر كفار فثبت ان الخطاب وان كان في الظاهر معه صلى الله عليه وسلم الا ان المراد
هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان اذا كان له امير وتحت راية ذلك الامير جمع فاذا اراد ان
يأمر الرعية بامر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذي جعله
اميرا عليهم ليكون ذلك اشد تاثيرا في قلوبهم وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على حقيقته ولكن
الله تعالى علم انه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك الا ان المقصود انه متى سمع هذا الكلام فانه
يصرح ويقول يا رب لا اشك ولا اطلب الحجة من قول اهل الكتاب بل اكتفي بما انزلته علي من الدلائل
الظاهرة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لا اشك ولا اسئل احدا منهم ونظير هذا قوله للملائكة اهؤلاء
اياكم كانوا يعبدون والمقصود ان يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا
يعبدون الجن وكما قال تعالى لعيسى عليه السلام ءانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين والمقصود
منه ان يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة من ذلك فكذلك هنا وقرأ ابن كثير والكسائي بنقل حركة
الهمزة الى السين والباقون بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب لكل من يسمع اي ان كنت ايها
السامع في شك مما انزلنا على لسان نبينا اليك وفيه تنبيه على ان من خالجته شبهة في الدين ينبغي
ان يسارع الى حلها بالرجوع الى اهل العلم والظاهر من هذه الاقوال اولها وهذه الاقوال تجري في قوله تعالى
لقد جاءك الحق من ربك اي الآيات القاطعة لا مدخل للمرية فيه فلا تكونن من الممترين اي الشاكين فيه

وفي قوله تعالى ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين اي الذين خسروا انفسهم ان الذين حقت عليهم كلمت ربك اي ثبت عليهم قوله تعالى الذي كتبه في اللوح المحفوظ واخبر به الملائكة انهم لا يؤمنون اي يموتون كفارا فلا يكون غيره اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه ولو جاءتهم كل آية فان السبب الاصلي لايمانهم وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقود فان الدليل لا يهدي الا باعانة الله تعالى واذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل حتى يروا العذاب الاليم فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع فرعون وقرأ نافع وابن عامر كلمات بالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الف على الافراد + القصة الثالثة قصة يونس عليه السلام المذكورة بقوله تعالى فلولا اي فهلا كانت قرية واحدة من قرى الامم الماضية التي اهلكناها آمنت اي آمن اهلها عند اتيان الآيات او عند رؤية اسباب العذاب فنفعها اي فتسبب عن ايمانها ذلك انه نفعها ايمانها بان تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها وقوله تعالى الا قوم يونس استثناء منقطع بمعنى لكن قوم يونس لما آمنوا اي لما اخلصوا الايمان اول ما رأوا امارة العذاب ولم يؤخروه الى حلوله كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا ويجوز ان يكون متصلا والجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه كانه قيل ما آمن اهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس ومتعناهم الى حين اي الى انقضاء آجالهم روي عن ابن مسعود وغيره ان قوم يونس كانوا بارض نينوى من ارض الموصل فارسل الله تعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان فدعاهم فابوا فقيل له ان العذاب مصبحهم الى ثلاثة ايام فاخبرهم بذلك فقالوا انا لم نجرب عليه كذبا فانظروا فان بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء وان لم يبت فاعلموا ان العذاب مصبحكم فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين اظهرهم فلما اصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل وقال وهب غامت السماء غيما عظيما اسود هائلا يدخن دخانا عظيما فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك ايقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه وقذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصعيد بانفسهم ونسائهم واولادهم ودوابهم ولبسوا المسوح واظهروا الايمان والتوبة واخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن بعضها الى بعض وعلت اصواتها واختلطت باصواتهم وعجوا وتضرعوا الى الله تعالى وقالوا آمنا بما جاء به يونس عليه السلام فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما اظلهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه اساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا انت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وانت اعظم منها واجل افعل بنا ما انت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله وسيأتي بقية القصة ان شاء الله تعالى في سورة والصافات

فان قيل قد حكى الله تعالى عن فرعون انه تاب فى آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس انهم آمنوا
وقبل توبتهم فما الفرق بين الحالين اجيب بان فرعون انما تاب بعد ان شاهد العذاب وهو وقت
الياس من الحيوة واما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت امارات دلت على قرب العذاب
تابوا قبل ان ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية وان الله تعالى قد علم صدق
نياتهم فى التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم يصدق فى ايمانه ولا اخلص فلم يقبل منه قال الله تعالى
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ يا محمد لَآمَنَ بك وصدقك مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ بحيث لم يشذ منهم احد جَمِيعًا اى مجتمعين
على ذلك فى آن واحد لا يختلفون فى شئ منه ولكن لم يشأ ان يصدقك ويؤمن بك الا من سبقت له
السعادة فى الازل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فاخبر الله
تعالى انه لا يؤمن به الا من سبقت له السعادة الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله تعالى
أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ اى الذين لم يرد الله ايمانهم حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ اى ليس ايمانهم اليك حتى
تكرههم عليه وتحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لاحد ذلك
سواه كما قال تعالى وَمَا كَانَ اى وما ينبغى وما يتأتى لِنَفْسٍ اى واحدة فما فوقها أَنْ تُؤْمِنَ اى يقع منها ايمان
فى وقت ما إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ اى بارادته لها بالايمان فان هدايتها الى الله فهو الهادى والمضل وقال ابن عباس
بامر الله وقال عطاء بمشيئة الله وَيَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ اى العذاب والخذلان فانه سببه وقرأ شعبة وحده
بالنون عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ اى لا يتدبرون فى آيات الله تعالى فينتفعوا بها وهم يدعون انهم اعقل الناس
ويتساقطون فى مساوى الاخلاق وهم يدعون انهم ابعد الناس عنها فلا تذهب نفسك عليهم حسرات
ولما بين الله تعالى فى الآيات السابقة ان الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته امر بالنظر
والاستدلال فى الدلائل بقوله تعالى قُلِ انْظُرُوا اى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات
مَاذَا اى الذى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته
وكمال قدرته ففى العالم العلوى الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات
الافلاك ومقاديرها واوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع وفى العالم السفلى الجبال
والبحار والمعادن والنبات والحيوان واخصها حال الانسان كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية
الله تعالى وانه خالقها كما قال القائل شعر وفى كل شئ له آية + تدل على انه واحد + وقرأ عاصم وحمزة
فى الوصل بكسر اللام والباقون بضمها واما الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدؤن بالضم وَمَا تُغْنِي
الْآيَاتُ اى وان كانت فى غاية الوضوح وَالنُّذُرُ جمع نذير اى الرسل عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ فى علم الله تعالى
وحكمه + تنبيه + قال النحويون ما هنا تحتمل وجهين الاول ان تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات
والنذر لا تفيد الفائدة فى حق من حكم الله تعالى عليه بانه لا يؤمن كقولك لا يغنى عنك المال اذا لم تنفق
والثانى ان تكون استفهاما كقولك اى شئ يغنى عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار فَهَلْ اى فما يَنْتَظِرُونَ
اى اهل مكة بتكذيبك إِلَّا مِثْلَ اى مثلا اى وقائع مِثْلَ أَيَّامِ اى وقائع الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ اى من مكذبى الامم

كالقبط وقوم نوح وما انطوى بينهما من الامم اى مثل وقائعهم من العذاب قل اى قل لهم يا محمد فانتظروا
اى العذاب انى معكم من المنتظرين اى لنزول العذاب بكم وقوله تعالى ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا
عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم كانه قيل نهلك الامم
ثم ننجى رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الاحوال الماضية وقرأ ابو عمرو وحده بسكون السين كذلك
اى كما نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك حقا علينا ننج المؤمنين اى ننجيك يا محمد
ومن آمن معك وصدقك من الهلاك والعذاب فان قيل قوله تعالى حقا يقتضى الوجوب
والله تعالى لا يجب عليه شئ اجيب بان ذلك حق بحسب الوعد والحكم لا انه حق بحسب الاستحقاق
لما ثبت ان العبد لا يستحق على خالقه شيئا وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ونصب بفعله
المقدر وقيل بدل من ذلك وقرأ حفص والكسائى بسكون النون الثانية والباقون بفتحها واما
الوقف عليها فجميع القراء يقفون على الجيم لانها مرسومة فى المصحف بالجيم بلا ياء فهى فى القرآن
وقفا ووصلا بلا ياء لجميع القراء ولما ذكر تعالى الدلائل على اقصى الغايات وابلغ النهايات امر رسوله
صلى الله عليه وسلم باظهار دينه فقال قل يا محمد يا ايها الناس اى الذين ارسلت اليهم فشكوا
فى امرك ولم يؤمنوا بك ان كنتم فى شك من دينى اى الذى ادعوكم اليه انه حق واصررتم على ذلك
وعبدتم الاصنام التى لا تضر ولا تنفع فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله اى غيره وهو الاصنام
التى لا قدرة لها على شئ ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم يقبض ارواحكم التى لا شئ عندكم يعدلها
فانه الذى يستحق العبادة وانما خص الله تعالى هذه الصفة للتهديد وقيل انهم لما استعجلوا بطلب
العذاب اجابهم بقوله ولكن اعبد الله الذى هو قادر على اهلاككم ونصرى عليكم وامرت ان اى بان
اكون من المؤمنين اى المصدقين بما جاء من عند الله وقيل انه لما ذكر العبادة وهى من اعمال الجوارح
اتبعها بذكر الايمان لانه من اعمال القلوب فان قيل كيف قال فى شك وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به
اجيب بانه كان فيهم شاكون او انهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا فى امره صلى الله عليه وسلم
وقوله تعالى وان اقم وجهك للدين عطف على ان اكون غير ان صلة ان محكية بصيغة الامر ولا ضير
بينهما فى الغرض لان المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه وصيغ الافعال كلها
كذلك سواء الخبر منها والطلب والمعنى وامرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه باداء
الفرائض والانتهاء عن القبائح او فى الصلاة باستقبال القبلة وقوله حنيفا حال من فاعل اقم او من
الدين او من الوجه ومعناه مائلا مع الدين غير معوج عنه الى دين آخر وقوله تعالى ولا تكونن من
المشركين اى ممن يشرك الله فى عبادته غيره فتهلك خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد امته
اى ولا تكونن ايها الانسان وكذا قوله تعالى ولا تدع اى تعبد من دون الله اى غيره ما لا ينفعك
اى ان عبدته ولا يضرك ان لم تعبده فان فعلت ذلك فانك اذا من الظالمين لنفسك لانك
وضعت العبادة فى غير موضعها والظلم وضع الشئ فى غير محله فاذا كان ما سوى الحق معزولا لا

نلخ

على الخصوص كان اضافة الضرر الى ما سوى الحق وضعا للشيء في غير موضعه فيكون ظلما ولما ذكر تعالى
الاوثان وبين انها لا تقدر على ضر ولا نفع بين تعالى انه هو القادر على كل شيء وانه ذو الجود والكرم
والرحمة بقوله تعالى وان يمسسك الله اي يصيبك الله بضر كفقر ومرض فلا كاشف اي لا دافع له الا هو
لانه الذي انزله بك وان يردك بخير كرخاء وصحة فلا راد اي دافع لفضله اي الذي اراد لك به
يصيب به اي بالخير من يشاء من عباده وهو الغفور اي البليغ الستر للذنوب الرحيم اي البالغ
في الاكرام وقرأ ابو عمرو وقالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بالضم فرجح سبحانه وتعالى جانب
الخير على جانب الشر من ثلاثة اوجه الاول انه تعالى لما ذكر امساس الضر بين انه لا كاشف له الا هو
وذلك يدل على انه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفي اثبات ولما ذكر الخير لم يقل بانه
يدفعه بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على ان الخير مطلوب بالذات وان الشر مطلوب
بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى انه قال سبقت رحمتي غضبي الثاني انه سبحانه وتعالى
قال في صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على ان جانب الخير اقوى واغلب
الثالث انه تعالى قال وهو الغفور الرحيم وهذا ايضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام
في هذه الاية انه سبحانه وتعالى بين انه متفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وانه لا موجد
سواه ولا معبود الا اياه وان جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة فالايدي مرفوعة
اليه والحاجات منتهية اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود فائض منه ٭ ولما قرر تعالى
الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين امر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه
تعالى مستبدا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لتاويفي
كلاهي عنه بقوله تعالى قل يا محمد يا ايها الناس اي الذين ارسلت اليهم قد جاءكم الحق من ربكم
وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن فلم يبق لكم عذر فمن اهتدى اي
امن بالنبي صلى الله عليه وسلم وعمل بما في الكتاب فانما يهتدي لنفسه لانه اتبع الحق الثابت وترك
الباطل الزائل فانقذ نفسه من النار واوجب لها الجنة فثواب اهتدائه له ومن ضل اي كفر بهما
او بشيء منهما فانما يضل عليها اي على نفسه لان وبال ضلاله عليها لان من ترك الباقي وتمسك
بما ليس في يده منه شيء فقد غر نفسه ثم قال صلى الله عليه وسلم وما انا عليكم بوكيل اي حفيظ
اي موكول الي امركم وانما انا بشير ونذير قال ابن عباس وهذه الاية منسوخة باية السيف قال الله
تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واتبع يا محمد ما يوحى اليك بالامتثال والتبليغ واصبر اي على دعوتهم
وتحمل اذيتهم حتى يحكم الله اي بنصرك عليهم واظهار دينك او بالامر بالقتال وهو خير الحاكمين
اذ لا يمكن الخطأ في حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر فحكم بقتل المشركين والجزية
على اهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون وانشد بعضهم في الصبر ٭ ساصبر حتى يعجز الصبر عن
صبري ٭ واصبر حتى يحكم الله في امري ٭ ساصبر حتى يعلم الصبر انني ٭ صبرت على شيء امر من الصبر ٭

وروى ان ابا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار ثم دخل المدينة فقال
له مالك لم تتلقنا فقال لم يكن عندنا دواب قال فاين النواضح قال قطعناها في طلبك وطلب ابيك يوم بدر
وقد قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار انكم ستلقون بعدي اثرة قال معاوية فماذا قال قال فاصبروا
حتى تلقوني قال فاصبر قال اذا نصبر فقال عبد الرحمن بن حسان الا ابلغ معاوية بن حرب • امير
الظالمين نثا كلامي • بانا صابرون فمنظروكم • الى يوم التغابن والخصام • وقول البيضاوي تبعا
للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس اعطي من الاجر عشر حسنات
بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون حديث موضوع

سورة هود عليه السلام مكية

الا واقم الصلاة الآية والا فلعلك تارك الآية واولئك يؤمنون به الآية مائة وثنتان او ثلاث
وعشرون آية وكلماتها الف وسبعمائة وخمس عشرة وحروفها سبعة الاف وستمائة وخمسة احرف
وعن ابي بكر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتني هود واخواتها الحاقة
والواقعة وعم يتساءلون وهل اتاك حديث الغاشية • بسم الله اي الذي له تمام العلم وكمال الحكمة
وجميع القدرة الرحمن لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة الرحيم لاهل ولايته بالحفظ في سلوك
سبيله وقوله تعالى الر كتاب مبتدأ وخبر او كتاب خبر مبتدأ محذوف وتقدم الكلام على اوائل
السور اول سورة البقرة وقرأ ابو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالامالة والباقون بالفتح
وقوله تعالى أُحكمت آياته صفة للكتاب وفسر الاحكام بوجوه الاول احكمت آياته اي نظمت
نظما محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ولا يعتريه اخلال من جهة اللفظ والمعنى
ولا يستطيع احد نقض شئ منه ولا الطعن في شئ من بلاغته او فصاحته الثاني ان الاحكام عبارة
عن منع الفساد من الشئ فقوله احكمت اياته اي لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به كما قال
ابن عباس الثالث انها احكمت بالحجج الدالة او جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم اذا صار
حكيما لانها مشتملة على امهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى ثم فُصِّلت صفة اخرى للكتاب
اي بينت بالاحكام والقصص والمواعظ والاخبار او بالانزال نجما نجما او فصل فيها ولخص ما يحتاج
اليه او بجعلها سورا وقال الحسن احكمت بالامر والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد • تنبيه •
معنى ثم في قوله ثم فصلت ليس للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول هي محكمة احسن الاحكام
ثم مفصلة احسن التفصيل وفلان كريم الاصل ثم كريم الفعل وقوله تعالى من لدن حكيم خبير
اي الله تعالى صفة اخرى للكتاب والتقدير الر كتاب من حكيم خبير او خبر بعد خبر والتقدير
الر من لدن حكيم خبير او صلة لاحكمت وفصلت اي احكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى
هذا التقدير يحصل بين اوائل هذه السورة وبين آخرها مناسبة لطيفة كانه يقول تعالى
احكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ يحتمل وجوهاً الأول ان تكون مفعولاً له والتقدير كتاب احكمت اياته ثم فصلت لاجل
ان لا تعبدوا الا الله الثاني ان تكون مفسرة لان في تفصيل الآيات معنى القول قال الرازي والحمل على
هذا اولى لان قوله تعالى وان استغفروا معطوف على قوله تعالى ان لا تعبدوا فيجب ان يكون معناه
اي لا تعبدوا وليكون الامر معطوفاً على النهي فان كونه بمعنى لان لا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه الثالث
ان يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم اغراء منه على اختصاص
الله تعالى بالعبادة ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ اي الله نَذِيرٌ بالعقاب على الشرك
وَبَشِيرٌ بالثواب على التوحيد كانه قيل ترك عبادة غير الله تعالى بمعنى اتركوها انني لكم منه نذير وبشير
كقوله تعالى فضرب الرقاب • تنبيه • هذه الآية الكريمة مشتملة على اشياء مترتبة الاول انه تعالى
امر ان لا تعبدوا الا الله لان ما سواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة
عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وذلك لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم
المحسن فثبت ان عبادة غير الله تعالى منكرة المرتبة الثانية قوله تعالى وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ المرتبة
الثالثة قوله ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه الاول ان معنى قوله
وان استغفروا اي اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة فقال
ثم توبوا اليه لان الداعي الى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة فالاستغفار
مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار وما كان آخراً في الحصول كان اولاً في
الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة الثاني وان استغفروا من الشرك والمعاصي ثم
توبوا اي ارجعوا اليه بالطاعة الثالث الاستغفار طلب من الله تعالى لازالة ما لا ينبغي والتوبة سعي من
الانسان في ازالة ما لا ينبغي فقدم الاستغفار ليدل على ان المؤمن يجب عليه ان لا يطلب الشيء الا من
مولاه فانه هو الذي يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل ياتي به الانسان ويتوسل به
الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تقدم على الاستعانة بسعي النفس ثم انه تعالى لما ذكر هذه
المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار المطلوبة ومن المعلوم ان المطالب محصورة في
نوعين لانه اما ان يكون حصولها في الدنيا او في الآخرة اما المنافع الدنيوية فهي المرادة من قوله تعالى يُمَتِّعْكُمْ
مَتَاعًا حَسَنًا اي بطيب عيش وسعة رزق إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وهو الموت فان قيل ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال ايضاً خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل
فالامثل وقال تعالى ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من
فضة فهذه النصوص دالة على ان نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى
هذه الآية ان نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما اجيب بان المشتغل
بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكلما كان امعانه في ذلك الطريق اكثر وتوغله
فيه اتم كان انقطاعه عن الخلق اتم واكمل وكلما كان الكمال في هذا الباب اكثر كان الابتهاج والسرور

أكمل لأنه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه وأما من كان مشتغلاً بحب غير الله كان
أبداً في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله وكان عيشه منغصاً وقلبه مضطرباً ولذلك قال تعالى
في صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حيوة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب
الاستيصال كما استاصل أهل القرى الذين كفروا وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لأجل التنبيه
على حقارتها وقلتها ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى إلى أجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على
كونها حقيرة خسيسة منقضية وأما المنافع الأخروية فقد ذكرها تعالى بقوله تعالى وَيُؤْتِ أي في الآخرة
كُلَّ ذِي فَضْلٍ أي في العمل فَضْلَهُ أي جزاءه لأن مراتب السعادة في الآخرة مختلفة لأنها متقدرة بمقدار
الدرجات الحاصلة في الدنيا فلما كان الإعراض عن غير الحق والإقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية
فكذلك مراتب السعادات الأخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذي فضل
فضله وقال أبو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة وقال ابن عباس من زادت
حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار ومن استوت سيئاته وحسناته
كان من أهل الأعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة
كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب
بها في الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقي له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب
آحاده أعشاره وقوله تعالى وَإِنْ تَوَلَّوْا فيه حذف إحدى التاءين أي وإن تعرضوا عما جئتكم به من الهدى
فَإِنِّي أي فقل لهم إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم
والثقل وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ أي رجوعكم في ذلك اليوم
فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي قادر على جميع المقدورات
لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب وفي ذلك دلالة على قدرة عالية
وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد والملك القاهر العالي إذا رأى عاجزاً مشرفاً على
الهلاك فإنه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فأسجح أي فاعف يقول مصنف
هذا الكتاب قد أفنيت عمري في خدمة العلم ومطالعة الكتب ولا رجاء لي في شيء إلا أني في غاية الذلة
والقصور والكريم إذا قدر عفا فأسألك يا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين
أن تفيض سجال رحمتك علي وعلى والدي وأولادي وإخواني وأحبابي وأن تخصني وإياهم بالفضل
والعطاء ذو الجود والكرم واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ فقال ابن عباس
نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فمعنى قوله تعالى يثنون صدورهم يخفون ما في صدورهم
من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله
صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه النبي صلى الله عليه وسلم

وقال قتادة كانوا يحنون ظهورهم كي لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره وروى البخاري عن ابن عباس
انها نزلت فيمن كان يستحي ان يتخلى او يجامع فيفضي الى السماء وقيل كان الرجل من الكفار يدخل
بيته ويرخي ستره ويغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي وقال السدي يثنون صدورهم
اي يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني ليستخفوا منه اي من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسول الله
صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه وقيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل انها نزلت في
طائفة من المشركين قالوا اذا ارخينا علينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد
كيف يعلم الا حين يستغشون ثيابهم اي يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم يعلم تعالى ما يسرون
في قلوبهم وما يعلنون بافواههم اي انه لا تفاوت في علمه تعالى بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه
لتوصلهم الى ما يريدون من الاخفاء انه تعالى عليم بذات الصدور اي بالقلوب واحوالها ولما اعلم
تعالى انه يعلم ما يسرون وما يعلنون اردفه بما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات بقوله تعالى
وما من دابة في الارض الا على الله رزقها فذكر تعالى ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله
تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات والدابة اسم لكل حيوان دب
على وجه الارض ولا شك ان اقسام الحيوانات وانواعها كثيرة وهي الاجناس التي تكون في البر
والبحر والجبال والله تعالى عالم بكيفية طبائعها واعضائها واحوالها واغذيتها ومساكنها وما يوافقها
وما يخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارض وطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما
باحوالها روي ان موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه باحوال اهله فامره الله تعالى ان
يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرج
منها صخرة ثالثة ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفي فمها شيء يجري
مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة كانت تقول
سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني فان قيل ان كلمة على للوجوب فيدل
على ان ايصال الرزق الى الدابة واجب على الله تعالى اجيب بانه تعالى انما اتى بها تحقيقا لوصوله
بحسب الوعد والفضل والاحسان وحملا على التوكل فيه وفي هذه الآية دليل على ان الرزق قد يكون
حراما لانه ثبت ان ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى لا يخل به
ثم قد نرى ان انسانا لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما اوصل رزقه
اليه فيكون الله تعالى قد اخل بالواجب وذلك محال فعلمنا ان الحرام قد يكون رزقا ويعلم تعالى
مستقرها قال ابن عباس هو المكان الذي تأوي اليه وتستقر فيه ليلا ونهارا ومستودعها هو الذي
تدفن فيه اذا ماتت وقال عبد الله بن مسعود المستقر ارحام الامهات والمستودع المكان الذي
تموت فيه وقال عطاء المستقر ارحام الامهات والمستودع اصلاب الآباء وقيل الجنة او النار والمستودع
القبر لقوله تعالى في صفة الجنة والنار حسنت مستقرا وساءت مستقرا ومقاما ولا مانع ان يفسر بالكل

بهذا كله كل اي كل واحدة من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها في كتاب اي ذكرها
مثبت في اللوح المحفوظ مبين اي بين كما قال تعالى ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولما اثبت
تعالى بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات اثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى
وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام اي من ايام الدنيا اولها الاحد وآخرها الجمعة وتقدم
الكلام على تفسير ذلك في سورة الاعراف وكان عرشه على الماء قال كعب خلق ياقوتة خضراء ثم نظر اليها
بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال ابو بكر الاصم
ومعنى قوله تعالى وكان عرشه على الماء كقولهم السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون احدهما
ملتصقا بالآخر وقال حمزة ان الله عز وجل كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم
فكتب به ما هو خالقه وما هو كائن من خلقه ثم ان ذلك الكتاب سبح الله تعالى ومجده الف عام
قبل ان يخلق شيأ من خلقه ففي هذا دلالة على كمال قدرته تعالى لان العرش مع كونه اعظم من السموات
والارض كان على الماء وقد امسكه الله تعالى من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالى ليبلوكم
متعلق بخلق اي خلقها وما فيها منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو اعلم بكم منكم ايكم احسن عملا اي اطوع
لله واورع عن محارم الله وهذا لقيام الحجة عليهم وقت امتثال ذلك ولما بين تعالى انه انما خلق هذا
العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم وهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان
يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب وذلك لا يتم الا مع الاعتراف بالمعاد
والقيامة خاطب تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال جل وعلا ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك
انكم مبعوثون من بعد الموت اي للحساب والجزاء ليقولن الذين كفروا ان اي ما هذا اي القرآن بالبعث
او الذي تقوله الا سحر مبين اي بين وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين والف بعدها وكسر الحاء فيكون
ذلك راجعا للنبي صلى الله عليه وسلم والباقون بكسر السين وسكون الحاء ولما حكى تعالى عن الكفار انهم
يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم حكى عنهم نوعا آخر بقوله تعالى ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة
اي جماعة من الاوقات معدودة اي قليلة ليقولن اي استهزاء ما يحبسه اي ما يمنعه من الوقوع
قال الله تعالى ألا يوم يأتيهم كيوم بدر ليس مصروفا اي مدفوعا العذاب عنهم وحاق اي نزل بهم
من العذاب ما كانوا به يستهزؤن اي الذي كانوا يستعجلون فوضع يستهزؤن موضع يستعجلون
لان استعجالهم كان استهزاء فان قيل لم قال تعالى وحاق على لفظ الماضي مع ان ذلك لم يقع اجيب
بانه وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة في التاكيد والتقرير والتهديد ولما ذكر تعالى
ان عذاب الكفار وان تأخر الا انه لا بد وان يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين
لذلك العذاب بقوله تعالى ولئن اذقنا اي اعطينا الانسان اي الكافر منا رحمة اي نعمة كغنى وصحة
بحيث يجد لذتها ثم نزعناها اي سلبناه تلك النعمة منه انه ليؤس اي قنوط من رحمة الله تعالى لقلة
صبره وعدم ثقته به كفور اي جحود لنعمتنا عليه واما المسلم الذي يعتقد ان تلك النعمة من جود الله تعالى

وتفضله واحسانه فانه لا يحصل له الياس بل يقول لعله تعالى يردها على بعد ذلك احسن واكمل وافضل مما كانت ولئن اذقناه اى الكافر نعماء بعد ضراء مسته كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم وفي اختلاف الفعلين وهما اذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى في الاول والى الضراء في الثاني نكتة لطيفة وهي ان النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه لخبر ما احد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا انت يا رسول الله قال ولا انا والضر صادر من العبد كسبا لانه السبب فيه باجتلابه اياه بالمعاصي غالبا لقوله تعالى ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافي ذلك قوله تعالى قل كل من عند الله فان الكل منه ايجادا لغير ان الحسنة احسان وامتحان والسيئة مجازاة وانتقام لخبر ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله اكثر ليقولن اى الذي اصابه الصحة والغنى ذهب السيئات اى المصائب التى اصابتنى عنى ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها انه لفرح اى فرح بطر فخور على الناس بما اذاقه الله تعالى من نعمائه وقد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبين سبحانه وتعالى في هذه الآية ان احوال الدنيا غير باقية بل هي ابدا في التغير والزوال والتحول والانتقال فان الانسان اما ان يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات كالقسم الاول واما ان يكون بالعكس من ذلك وهو ان ينتقل من المكروه الى المحبوب كالقسم الثاني ولما بين تعالى ان الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين بين حال المتقين بقوله تعالى الا اى لكن الذين صبروا على الضراء وعملوا الصالحات اى في النعماء اى فانهم ان اصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا اولئك لهم مغفرة واجر كبير فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين احدهما زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله تعالى لهم مغفرة والثاني الفوز بالثواب ودخول الجنة وهو المراد من قوله تعالى واجر كبير فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى اليك فلا تبلغهم اياه لتهاونهم بها لانهم كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وضائق به صدرك اى بتلاوته عليهم لاجل ان يقولوا لولا اى هلا انزل عليه كنز ينفقه في الاستتباع كالملوك او جاء معه ملك يصدقه كما اقترحنا وروى عن ابن عباس ان رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك فقال لا اقدر على ذلك فنزل انما انت نذير فلا عليك الا البلاغ لا الاتيان بما اقترحوه والله على كل شئ وكيل فتوكل عليه انه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء اقوالهم وافعالهم ام اى بل يقولون كفار مكة افتراه اى اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى قل لهم يا محمد فأتوا بعشر سور مثله في البيان وحسن النظم مفتريات فانكم عربيون مثلي قال ابن عباس هذه السور التى وقع بها هذا التحدى معينة وهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود وقيل التحدى وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدى بسورة واحدة والتحدى بسورة واحدة وقع في سورة البقرة وفي سورة يونس اما تقدم هذه السورة على

سورة البقرة فظاهر لان السورة مكية وسورة البقرة مدنية واما فى سورة يونس فلان كل واحدة
من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس كما قاله الرازى وانكر
المبرد هذا وقال بل سورة يونس اولا وقال معنى قوله فى سورة يونس فاتوا بسورة مثله اى مثله فى الخبر
عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم فى سورة هود ان عجزتم عن الاتيان بسورة مثله
فى الاخبار والاحكام والوعد والوعيد فاتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد وانما هى مجرد البلاغة وادعوا
اى وقل لهم يا محمد ادعوا للمعاونة على ذلك من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فى انه مفترى
والضمير فى قوله تعالى فان لم يستجيبوا لكم اى باتيان ما دعوتموهم اليه للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين
لانه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال تعالى فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم والتعظيم
للنبى صلى الله عليه وسلم فاعلموا انما انزل ملتبسا بعلم الله اى بما لا يعلمه الا الله تعالى من نظم يعجز الخلق واخبار
بغيوب لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه سواه وقوله تعالى وان مخففة من الثقيلة اى وانه لا اله الا هو
وحده وان توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم فهل انتم مسلمون اى ثابتون على الاسلام راسخون
مخلصون فيه اذ تحقق عندكم اعجازه مطلقا وقيل الخطاب للمشركين والضمير فى لم يستجيبوا لمن
استطعتم اى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه
وان طاقتهم اقصر من ان تبلغه فاعلموا انه منزل من عند الله وان ما دعاكم اليه من التوحيد حق فهل
انتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون اى اسلموا وفى مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى
الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واختلف فى سبب نزول قوله تعالى من كان يريد
الحيوة الدنيا وزينتها اى بعمله الذى يعمل من اعمال البر نوف اليهم اعمالهم اى التى عملوها من خير
كصدقة وصلة رحم فيها اى فى الدنيا وهم فيها لا يبخسون اى نوصل اليهم اجور اعمالهم وافية كاملة
من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد ونحو ذلك
اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط اى بطل ما صنعوا اى عملوا فيها اى الآخرة فلا ثواب
لهم وباطل ما كانوا يعملون لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد نزلت فى اهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم
ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء والرياء
هو ان يظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس ويعتقد وا فيه الصلاح فهذا هو العمل الذى
لغير الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان وقال اكثر المفسرين انها نزلت فى الكافر واما المؤمن فيريد الدنيا
والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وعن انس ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة
واما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا افضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا وقيل نزلت
فى المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبى صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير ان يؤمنوا بالآخرة
وثوابها وقيل فى اليهود والنصارى وهو منقول عن انس ولما ذكر تعالى الذين يريدون باعمالهم الحيوة

الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى أفمن كان على بينة
من ربه قيل هو النبي صلى الله عليه وسلم والبينة هي القرآن ويتلوه اى يتبعه شاهد يصدقه منه اى من
الله تعالى وهو جبريل عليه السلام ومن قبله اى القرآن كتاب موسى وهو التوراة شاهد له ايضا وقوله
تعالى اماما اى كتابا مؤتما به فى الدين ورحمة اى على المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بسعادة
الدارين حال من كتاب موسى والجواب محذوف تقديره افمن كان على بينة من ربه
كمن يريد الحيوة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت بعيد وتباين بين
وقيل هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد
هو القرآن ومنه اى من الله ومن قبله كتاب موسى اى ويتلو ذلك البرهان من قبل مجئ القرآن
كتاب موسى اى فى دلالته على هذا المطلوب لان الوجوه قال الرازى وهذا القول هو الاظهر لقوله تعالى
أولئك يؤمنون به وهذه صفة جمع ولا يجوز رجوعه الى النبي صلى الله عليه وسلم انتهى ويجوز ان تكون للتعظيم
اوله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه وربما يكون هذا اولى كما جرى عليه بعض المفسرين والاشارة الى من كان
على بينة والضمير فى به للقرآن واذا كان هذا الفريق ليس له فى الآخرة الا النار فهذا الفريق ليس له فى الآخرة
الا الجنة ومن يكفر به اى بالنبي صلى الله عليه وسلم او القرآن من الاحزاب اى اصناف الكفار فيدخل
فيهم اليهود والنصارى والمجوس فالنار موعده يعنى فى الآخرة روى سعيد بن جبير عن ابى موسى ان
النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى الا كان من اهل النار قال ابو موسى
فقلت فى نفسى ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن
يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال بعض العلماء ولما دلت الآية على ان من يكفر به كانت النار موعده
دل على ان من لا يكفر به كانت الجنة موعده وقوله تعالى فلا تك فى مرية اى فى شك منه اى القرآن
او الموعد انه الحق من ربك الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم
لم يشك قط ويؤيد ذلك قوله تعالى ولكن اكثر الناس لا يؤمنون اى لا يصدقون بما اوحينا اليك او بان
موعد الكفار النار ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم الصفة
الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى ومن اى لا احد اظلم ممن افترى على الله كذبا بنسبة الشريك
والولد اليه او اسند اليه ما لم ينزله او نفى عنه ما انزله الصفة الثانية انهم يعرضون على الله تعالى
فى موقف الذل والهوان كما قال تعالى أولئك يعرضون على ربهم اى يوم القيامة فان قيل هم
لا يختصون بهذا العرض لان العرض عام فى كل العباد كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا اجيب
بانهم يعرضون فيفتضحون بشهادة الاشهاد عليهم كما قال تعالى ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم
فيحصل لهم من الخزى والنكال ما لا مزيد عليه وهذه هى الصفة الثالثة واختلف فى هؤلاء الاشهاد فقال
مجاهد هم الملائكة الذين يحفظون اعمالهم عليهم فى الدنيا وقال مقاتل هم الناس كما يقال على رؤس
الاشهاد اى على رؤس الناس وقال قتادة هم الانبياء كما قال تعالى فلنسألن الذين ارسل اليهم

والمشتملين المرسلين والفائدة في اعتبار قول الاشهاد المبالغة في اظهار الفضيحة فان قيل العرض على الله يقتضي ان يكون الله تعالى في حيز وهو تعالى منزه عن ذلك اجيب بانهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال او يكون ذلك عرضا على من يشاء بامر الله تعالى من الانبياء والمؤمنين والاشهاد جمع شاهد كصاحب واصحاب او جمع شهيد كشريف واشراف قال ابو علي الفارسي وكان هذا ارجح لان ما جاء من ذلك في التنزيل جاء على فعيل كقوله تعالى وجئنا بك شهيدا على هؤلاء وعن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول اي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم حتى اذا قرره بذنوبه قال تعالى سترتها عليك في الدنيا وقد سترتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته واما الكافر والمنافق فتقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ولما اخبر الله تعالى عن حالهم في عقاب القيامة اخبر عن حالهم في الحال بقوله تعالى الا لعنة الله على الظالمين فبين تعالى انهم في الحال ملعونون من عند الله وهذه هي الصفة الرابعة ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى الذين يصدون عن سبيل الله اي دينه ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى ويبغونها اي يطلبون السبيل عوجا اي معوجة اي كانهم [illegible] بالتزام الكفر والضلال فقد اضافوا الى المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لا يقال في العاصي انه يبغي عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيف الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم وصفهم بالصفة السابعة بقوله تعالى وهم اي والحال انهم بالآخرة هم كافرون وتكرير لفظ هم لتاكيد كفرهم وتوغلهم فيه الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله كما قال تعالى اولئك لم يكونوا معجزين في الارض اي ما كانوا معجزين الله في الدنيا ان يعاقبهم اذ لا يمكنهم ان يهربوا من عذابه فان هرب العبد من عذاب الله تعالى محال لانه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف الصفة التاسعة انهم ليس لهم اولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى وما كان لهم من دون الله اي غيره من اولياء اي انصار يمنعونهم من عذابه الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قال تعالى يضاعف لهم العذاب اي بسبب اضلالهم غيرهم وقيل لانهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور الصفة الحادية عشرة قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به وما كانوا يبصرون خيرا فياخذوا به قال ابن عباس اخبر الله تعالى انه حال بين اهل الشرك وبين طاعة الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة اما في الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون واما في الآخرة فانه قال فلا يستطيعون خاشعة ابصارهم الصفة الثانية عشرة قوله تعالى اولئك الذين خسروا انفسهم فانهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان خسرانهم الى النار المؤبدة عليهم وذلك اعظم وجوه الخسرانات الصفة الثالثة عشرة قوله تعالى وضل اي غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله تعالى من دعوى الشريك وان الآلهة تشفع لهم

الصفة الرابعة عشرة قوله تعالى لا جرم انهم في الآخرة هم الاخسرون اى لا احد ابين واكثر خسرانا
منهم * تنبيه * قال الفراء ان لا جرم بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة
حقا تقول العرب لا جرم انك محسن على معنى حقا انك محسن وقال الزجاج ان كلمة لا نفي لما ظنوا انه
ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران
في الدنيا والآخرة قال الازهري وهذا من احسن ما قيل في هذا الباب * وقال سيبويه لا رد على اهل الكفر كما
مر وجرم معناه احق والمعنى انه احق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر
* ولقد طعنت ابا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا * اراد احقت الطعنة فزارة ان يغضبوا
ولما ذكر تعالى عقوبة الكفار وخسرانهم اتبعه بذكر احوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة بقوله تعالى
ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم اى اطمأنوا اليه وخشعوا اليه اذ الاخبات في اللغة
هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ويتعدى بالى وباللام فاذا قلت اخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن
اليه واذا قلت اخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة
الى جميع عمل الجوارح وقوله تعالى واخبتوا اشارة الى اعمال القلوب وهي الخشوع والخضوع لله تعالى وان هذه
الاعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة الا بحصول اعمال القلب وهي الخشوع والخضوع اولئك اى الذين
هذه صفتهم اصحاب الجنة هم فيها خالدون فاخبر تعالى عن حالهم في الآخرة بانهم من اهل الجنة التي لا انقطاع
لنعيمها ولا زوال * ولما ذكر سبحانه وتعالى احوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن
الصمم عن سماعه وذكر احوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة
ذكر فيهما مثالا مطابقا بقوله تعالى مثل اى صفة الفريقين اى الكفار والمؤمنين كالاعمى والاصم هذا مثل
الكافر شبه بالاعمى لتعاميه عن آيات الله وبالاصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالى وتابيه
عن تدبر معانيه والبصير والسميع هذا مثل المؤمن شبه بالبصير والسميع لان امره بالضد من الكافر
فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين او تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن
بالجامع بين ضديهما على ان تكون الواو في الاصم وفي السميع لعطف الصفة على الصفة بخلافه
على التشبيه الاول فانه لعطف الموصوف على الموصوف ويعبر عنه بعطف الذات على الذات هل يستويان
اى هل يستوى الفريقان مثلا اى تشبيها لا يستويان ويجوز ان يكون مثلا صفة لمصدر محذوف
اى استواء مثلا وان يكون حالا من فاعل يستويان وقوله تعالى افلا تذكرون فيه ادغام التاء في الاصل
في الذال اى تتعظون بضرب الامثال والتامل فيها وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون
بالتشديد وقد جرت عادة الله تعالى بانه اذا اورد على الكفار انواع الدلائل اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا
لتلك الدلائل وفي هذه السورة ذكر انواعا من القصص القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة في
قوله تعالى ولقد ارسلنا نوحا الى قومه وقوله انى لكم قرأه ابن كثير وابو عمرو والكسائي بفتح الهمزة اى بانى
والباقون بكسرها على ارادة القول نذير مبين اى بين النذارة اخوفكم من العقاب لمن خالف امر الله تعالى

وقوله أن لا تعبدوا الا الله بدل من انى لكم او مفعول مبين إنى أخاف عليكم أى ان عبدتم غيره عذاب يوم أليم أى مؤلم موجع فى الدنيا او الآخرة قال ابن عباس بعث نوح بعد اربعين سنة ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره الف سنة واربعمائة وخمسين ولما حكى تعالى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم انهم طعنوا فى نبوته بثلاثة انواع من الشبهات بقوله تعالى فقال الملأ الذين كفروا من قومه وهم الاشراف ما نراك الا بشرا مثلنا هذه الشبهة الاولى اى انك بشر مثلنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان الله تعالى اذا اصطفى عبدا من عباده واكرمه بنبوته ورسالته وجب على من ارسله اليهم اتباعه الشبهة الثانية ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا اى اسافلنا كالحاكة واهل الصنائع الخسيسة وهو جمع ارذل بفتح الهمزة كقوله تعالى اكابر مجرميها وقوله صلى الله عليه وسلم احاسنكم اخلاقا او جمع اراذل بضم الذال جمع رذل بسكونها فهو على الاول جمع مفرد وعلى الثانى جمع جمع ثم قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكابر من الناس والاشراف منهم وانما قالوا ذلك جهلا منهم ايضا لان الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية والمال بادى الرأى اى اتبعوك فى اول الرأى من غير تثبت وتفكر فى امرك ولو تفكروا ما اتبعوك ونصبه على الظرف اى وقت حدوث اول رأيهم وقرأ ابو عمرو بادئ بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بياء مفتوحة وابدل السوسى همزة الرأى الفا وقفا ووصلا واما حمزة فابدلها وقفا لا وصلا الشبهة الثالثة ما ذكره الله تعالى عنهم فى قوله تعالى وما نرى لكم اى لك ولمن اتبعك علينا من فضل اى بالمال والشرف والجاه تستحقون به الاتباع منا وهذا ايضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة وقولهم بل نظنكم كاذبين خطاب لنوح عليه السلام فى دعوى الرسالة وادرجوا قومه معه فى الخطاب وقيل خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وقيل كذبوه فى دعوى النبوة وكذبوا قومه فى دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغائبين ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام قال لهم يا قوم أرأيتم اى اخبرونى إن كنت على بينة اى نبوة ورسالة من ربى وآتانى رحمة اى نبوة ورسالة من عنده من فضله واحسانه فعميت اى خفيت والتبست عليكم ووحد الضمير اما لان البينة فى نفسها هى الرحمة واما لانه لكل واحدة منهما وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم أنلزمكموها اى انكرهكم على قبولها وانتم لها كارهون اى لا تختارونها ولا تتأملون فيها لا نقدر على ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك واتفق القراء على ضم الميم من انلزمكموها لاتصالها باللام رسما وحيث اجتمع ضميران وليس احدهما مرفوعا وقدم الاعرف منهما جاز فى الثانى الوصل كما فى الآية والفصل كان يقال انلزمكم اياها

ويا قوم لا أسألكم عليه أي على تبليغ الرسالة وهو وإن لم يذكر معلوم مما ذكر مالا أي جعلا تعطونيه
إن أي ما أجري إلا على الله أي ما ثواب تبليغي إلا عليه فإنه المأمول منه تعالى وقرأ ابن كثير وشعبة
وحمزة والكسائي بسكون الياء والباقون بالفتح وقول نوح عليه السلام وما أنا بطارد الذين آمنوا
جواب لهم حين طلبوا طردهم فإنهم طلبوا من نوح عليه السلام قبل أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون
في زعمهم فقال ما يجوز لي ذلك إنهم ملاقوا ربهم أي بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده وما أخفي لهم من
ظلمهم وطردهم أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم ولكني أراكم قوما تجهلون أي أن هؤلاء
المؤمنين خير منكم أو عاقبة أمركم أو تسفهون عليهم بأن تدعوهم أراذل ويا قوم من ينصرني أي يمنعني
من الله أي من عقابه إن طردتهم عني وهم مؤمنون مخلصون أفلا أي فهلا تذكرون أي تتعظون
وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بإدغام التاء في الأصل في الذال ولا أقول
لكم عندي خزائن الله أي خزائن رزقه فكما أني لا أسألكم مالا فكذلك لا أدعي أني أملك مالا ولا غرض لي
في المال لا أخذا ولا دفعا وقوله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك فأتعاظم به عليكم حتى تقولوا ما أنت
إلا بشر مثلنا بل طريقي التواضع والخضوع ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فإنه لا يستنكف
عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين ثم أكد ذلك بقوله ولا أقول
للذين تزدري أي تحتقر أعينكم أي لا أقول في حقهم لن يؤتيهم الله خيرا فإن ما أعد الله تعالى لهم
في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا الله أعلم بما في أنفسهم وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباعه مع
الفقر والذلة إلى النفاق إني إذا أي إن فعلت ذلك لمن الظالمين لنفسي أو من الظالمين لهم فإن قيل
هذه الآية تدل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الإنسان إذا قال
لا أدعي كذا وكذا إنما يحسن إذا كان ذلك الشيء أشرف من أحوال ذلك القائل أجيب بأن نوحا عليه
السلام إنما ذكر ذلك جوابا عما ذكروه من الشبه فإنهم طعنوا في أتباعه بالفقر فقال ولا أقول لكم
عندي خزائن الله حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضا بأنهم منافقون فقال ولا أعلم الغيب حتى
أعرف كيفية باطنهم وإنما أكتفي ببناء الأحوال على الظاهر وطعنوا فيه أنه من البشر فقال ولا أقول إني
ملك حتى تنفوا عني ذلك وحينئذ فالآية ليس فيها ذلك فإن قيل في هذه دلالة على أن طرد المؤمنين
لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب
مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى في قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي أجيب
بأن الطرد المذكور في هذه الآية محمول على الطرد المطلق على سبيل التأبيد والطرد المذكور في واقعة
محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد في أوقات معينة رعاية للمصلحة، ولما أن الكفار أوردوا
تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أوردوا عليه كلامين
الأول ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى قالوا يا نوح قد جادلتنا أي خاصمتنا فأكثرت جدالنا أي فأطنبت
فيه وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم وذلك الجدال ما كان إلا في اثبا

التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على ان الجدال في تقرير الدلائل وازالة الشبهات حرفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى ان التقليد والجهل حرفة الكفار والثاني ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله فأتنا بما تعدنا اي من العذاب ان كنت من الصادقين في الدعوى والوعيد فان مناظرتك لا تؤثر فينا قال لهم نوح عليه السلام في جواب ذلك انما يأتيكم به الله ان شاء تعجيله لكم فان امره اليه ان شاء عجله وان شاء اخره لا الي وما انتم بمعجزين اي بفائتين الله تعالى ولما اجاب نوح عليه السلام عن شبههم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم اي يضلكم وجواب الشرط دل عليه ولا ينفعكم نصحي وتقدير الكلام ان كان الله يريد ان يغويكم فلو اردت ان انصح لكم فلا ينفعكم نصحي فهو من باب اعتراض الشرط على الشرط ونظيره قول القائل ان دخلت الدار فانت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا ان دخلت ثم كلمت لم تطلق لوجوب تقدم وقوع الشرط الثاني قبل وقوع الاول وفي الآية دليل على ان الله تعالى قد يريد الكفر من العبد فانه اذا اراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه هو ربكم اي خالقكم والمتولي لامركم وفق ارادته واليه ترجعون فيجازيكم على اعمالكم قال تعالى ام اي بل يقولون افتراه اي اختلقه وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحي الذي بلغه اليهم قل لهم ان افتريته فعلي اجرامي وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلي اثم اجرامي والاجرام اقتراف المحظور والآية على حذف مضاف اي وعلي وبال اجرامي او ان كنت افتريته فعلي عقاب جرمي وان كنت صادقا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها وانا بريء مما تجرمون اي من عقاب جرمكم في اسناد الافتراء الي تنبيه اكثر المفسرين على ان هذا من بقية كلام نوح عليه السلام مع قومه وقال مقاتل ام يقولون اي المشركون من كفار مكة افتراه اي محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه وهذه الآية وقعت في قصة محمد صلى الله عليه وسلم في اثناء قصة نوح عليه السلام قال الرازي وقوله بعيد جدا واوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك اي لن يستمر على الايمان الا من قد آمن قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في بيت يظنون انه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم الى الله تعالى وروي ان شيخا منهم جاء متوكئا على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال يا ابتاه مكني من العصا فاخذها من ابيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فاوحى الله تعالى اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس اي لا تحزن عليهم فانهم هالكون بما كانوا يفعلون من الشرك والايذاء لك منهم فحينئذ دعا عليهم نوح عليه السلام فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثي انه بلغه انهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا افاق قال رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون حتى تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر من الجيل الى الجيل فلا يأتي قرن الا كان اخبث

من الذين قبلهم ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا
هكذا مجنوناً فلا يقبلون منه شيئاً فشكى إلى الله تعالى فقال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً حتى قال
رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً فأوحى الله تعالى إليه واصنع الفلك أي السفينة بأعيننا
قال ابن عباس بمرأى منا وقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا ووحينا أي بأمرنا لك كيف تصنعها
ولا تخاطبني في الذين ظلموا أي ولا تراجعني في الكفار ولا تدعني في استدفاع العذاب عنهم إنهم مغرقون
أي محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه وقيل لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك واعلة فإنهما
كانا من القوم ويروى أن جبريل عليه السلام أتى نوحاً فقال إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك قال كيف
أصنع ولست بنجار قال إن ربك يقول اصنع فإنك بأعيننا فأخذ القدوم فجعل ينجر ولا يخطئ وصنعها
مثل جؤجؤ الطير وفي قوله تعالى ويصنع الفلك وجهان أحدهما أنه حكاية حال ماضية أي في ذلك
الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك الثاني التقدير فأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع
الفلك شرع نوح عليه السلام وأقبل على عملها ولهى عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد
ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون عليه ويسخرون منه كما قال تعالى وكلما مر عليه
ملأ أي جماعة من قومه سخروا منه أي استهزؤوا به ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعد ما كنت
نبياً فأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم قال ابن عباس رضي الله عنهما اتخذ نوح عليه السلام
السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة
بطون فحمل في البطن الأول الوحوش والهوام وفي البطن الأوسط الدواب وركب هو ومن معه البطن
الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد وقال قتادة كان بابها في عرضها وروي عن الحسن كان طولها ألف
ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة وقيل إن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا رجلاً
شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب
فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال كعب بن حام قال فضرب الكثيب بعصاه فقال
قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت
قال لا ولكن مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال
كان طولها ألف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحوش وطبقة
للإنس وطبقة للطير ثم قال له عد بإذن الله تعالى كما كنت فعاد تراباً قال البغوي والمعروف أن طولها
ثلاثمائة ذراع وعن زيد بن أسلم قال مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ومائة سنة يعمل الفلك
وعن كعب الأحبار أن نوحاً عمل السفينة في ثلاثين سنة وروي أنها كانت ثلاث طبقات الطبقة
السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الإنس والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت أرواث
الدواب أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا
على الروث ولما أفسد الفأر في السفينة فجعل يقرض حبالها أوحى الله تعالى إليه أن اضرب بين

يعني الاسد فضرب بيده على ظهره فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فاقبلا على الفأر فاكلاه قال الرازي واعلم ان
امثال هذه المباحث لا تعجبني لانها امور لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة
وكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بانه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذي
نعلمه انها كانت في السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه وما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من
كل حيوان لان هذا القدر مذكور في القرآن وما آمن معه الا قليل فاما تعيين ذلك القدر فغير معلوم
قال لهم لما سخروا منه ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون اذا نجونا وغرقتم فان قيل السخرية
لا تليق بمنصب النبوة اجيب بان ذلك ذكر على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى
وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى ان تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم وهو قوله تعالى فسوف
تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه اي يهينه في الدنيا وهو الغرق ويحل عليه في الآخرة عذاب مقيم
وهو النار التي لا انقطاع لها وقوله تعالى حتى اذا جاء امرنا اي باهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما
بينهما حال من الضمير فيه او حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام واختلف في التنور في قوله تعالى وفار التنور
فقال عكرمة والزهري هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء فار على وجه
الارض فاركب السفينة وروي عن علي رضي الله عنه انه قال فار التنور وقت طلوع الفجر ونور
الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبي انه التنور الذي يخبز فيه وهو قول اكثر المفسرين ورواية
عطية وابن عباس لانه حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يخبز فيه
وهو قول اكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح ومنهم
من قال انه كان لآدم عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار الى نوح
فقيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب السفينة انت واصحابك واختلفوا
ايضا في موضعه فقال مجاهد والشعبي كان في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور
الا من ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل
مما يلي باب كندة وكان فوران الماء منه علما لنوح وقال مقاتل كان ذلك تنور آدم عليه السلام
وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروي عن ابن عباس انه كان بالهند ومعنى فار نبع على
قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة ان التنور لا يفور والمراد فار الماء من التنور
فلما فار امر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحمل في السفينة ثلاثة انواع من الاشياء الاول قوله تعالى
قلنا احمل فيها اي السفينة من كل زوجين اثنين والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون احدهما ذكرا والآخر
انثى والتقدير من كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين واحد ذكر وواحد انثى
في القصة ان نوحا عليه السلام قال يا رب كيف احمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع
والطير فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والانثى في يده اليسرى فيحملهما
في السفينة وقرأ حفص بتنوين لام كل اي واحمل من كل شيء زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج فان قيل

ما الفائدة في قوله زوجين اثنين والزوجان لا يكونان الا اثنين أجيب بأنّ هذا على مثال قوله تعالى
لا تتخذوا الهين اثنين وقوله تعالى نفخة واحدة والباقون بتنوين فرق السؤال غير وارد النوع
الثاني من الاشياء التي امر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحملها في السفينة قوله تعالى وأهلك
وهم ابناؤه وزوجته وقوله تعالى إلا من سبق عليه القول بانه من المغرقين وهو ابنه كنعان وامه
راعلة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك فنجى من ذريته سام وحام ويافث وزوجاتهم ثلاثة
وزوجته المسلمة فان قيل الانسان اشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوان أجيب بانّ الانسان
عاقل فهو بعقله مضطر الى دفع اسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة في الترغيب
بخلاف السعي في تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به النوع الثالث من الاشياء
التي امر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها في السفينة قوله تعالى ومن آمن اي واحمل معك من آمن
معك من قومك واختلف في العدد الذي ذكره الله تعالى في قوله تعالى وما آمن معه الا قليل فقال قتادة
وابن جريج لم يكن معه في السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته المسلمة وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث
ونساؤهم وقال ابن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه الثلاثة وستة اناس ممن كان آمن به وازواجهم
جميعا وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وعن ابن عباس قال كان في سفينة نوح
ثمانون نفسا نصفهم رجال ونصفهم نساء وقال الطبري والصواب من القول في ذلك ان يقال كما قال الله
تعالى وما آمن معه الا قليل فوصفهم بالقلة ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغي ان يجاوز في ذلك حد الله
تعالى اذ لم يرد عدد في كتاب الله تعالى ولا في خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم نحو ذلك
على الرازي وقال مقاتل حمل نوح معه في السفينة جسد آدم عليه السلام وجعله معترضا بين الرجال
والنساء وقصد نوح عليه السلام جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس اول ما حمل نوح الذرة
وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار ادخل صدره تعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول
ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على
لسانه فلما قالها خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح ما ادخلك علي يا عدو
الله قال مالك بد ان تحملني معك فكان معه على ظهر السفينة كذا ذكره البغوي قال الرازي واما
الذي يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري او هوائي فكيف يؤثر الغرق
فيه وايضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد في ذلك خبر صحيح فالاولى ترك الخوض في ذلك قال
البغوي وروي ان بعضهم قال ان الحية والعقرب اتيا نوحا عليه السلام فقالا احملنا معك
فقال انكما سبب البلاء فلا احملكما فقالتا احملنا فانا نضمن لك ان لا نضر احدا ذكرك فمن قرأ حين
يخاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح في السفينة الا ما يلد
ويبيض فاما ما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيئا وقال نوح لمن معه
اركبوا اي صيروا فيها اي السفينة وجعل ذلك ركوبا لانها في الماء كالمركوب في الارض وقوله تعالى

بسم الله مجريها ومرسيها متصل باركبوا حال من الواو في اركبوا اي اركبوا فيها مسمين الله او قائلين
بسم الله وقت اجرائها وارسائها قال الضحاك كان نوح اذا اراد ان تجري السفينة قال بسم الله فجرت
واذا اراد ان ترسو قال بسم الله فرست وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الميم من مجريها من جرت ورست
اي جريها ورسوها وهما مصدران والباقون بضم الميم من اجريت وارسيت اي بسم الله اجراؤها
وارساؤها وامال الالف بعد الراء ابو عمرو وحفص وحمزة والكسائي محضة وورش بين اللفظين
والباقون بالفتح وذكروا في عامل الاعراب في بسم الله وجوها الاول اركبوا بسم الله الثاني ابدؤا
بسم الله الثالث بسم الله اجراؤها ان ربي لغفور رحيم اي لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته اياكم لما نجاكم
وقوله تعالى وهي تجري بهم متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا اي فركبوا مسمين الله تعالى وهي تجري وهم
فيها في موج وهو ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح كالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء
قال العلماء بالسير ارسل الله تعالى المطر اربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله تعالى
ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر فصار الماء نصفين
نصف من السماء ونصف من الارض وارتفع الماء على اعلى جبل واطوله اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر
ذراعا حتى اغرق كل شيء وروي انه لما كثر الماء في السكك خشيت امرأة على ولد لها من الغرق وكانت
تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه
فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب
بهما الماء فلو رحم الله تعالى منهم احدا لرحم هذه المرأة وطبق الماء ما بين السماء والارض
وكانت السفينة تجري في جوفه كما تسبح السمكة فان قيل قال البغوي وغيره المشهور انه علا شوامخ
الجبال خمسة عشر ذراعا فان صح اي انه طبق ما بين السماء والارض فكيف قال اي بان ذلك كان على الموج قبل
التطبيق ونادى نوح ابنه كنعان وكان كافرا وقيل كان اسمه يام وكان في معزل اي مكان عزل فيه
نفسه اما عن ابيه او دينه ولم يركب معه واما عن السفينة واما عن الكفار كانه انفرد عنهم فظن
نوح عليه السلام ان ذلك انما كان لانه احب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله يا بني اركب معنا
في السفينة وقرأ عاصم بفتح الياء اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة في قولك
يا بنيا والباقون بالكسر في الوصل ليدل على ياء الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر + يا ابنة عما لا تلومي واهجعي +
ثم حذف الالف للتخفيف ولا تكن مع الكافرين اي في دين ومكان فتهلك ولما قال له ذلك قال
سآوي اي التجئ واصير الى جبل يعصمني اي يمنعني من الماء قال له نوح عليه السلام لا عاصم اي لا مانع
اليوم من امر الله اي من عذابه وقوله الا من رحم استثناء منقطع كانه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم
كقوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن وقيل الا من رحم اي الا الراحم وهو الله تعالى وقيل لا عاصم الا مكان
من رحمه الله تعالى فانه مانع من ذلك وهو السفينة وحال بينهما اي بين نوح وابنه او بين ابنه والجبل
الموج المذكور في قوله موج كالجبال فكان ابنه من المغرقين اي فصار من الهالكين بالماء ثم

لما تناهى الطوفان واغرق قوم نوح وقيل اى قال الله تعالى او ملك بامره تعالى يا ارض ابلعي ماءك
اى اشربيه ويا سماء اقلعي اى امسكي ماءه ناداهما بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص
والاقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ثم امرهما بما يؤمر به اهل التمييز والعقل فتبيين كمال
انقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة
فقرأ ابو عمرو ونافع وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة والباقون بالتحقيق وغيض الماء اى نقص وذهب
وقرأ هشام والكسائي باشمام الغين وهو ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل وقضي الامر
اى وانجز ما وعد من اهلاك الكافرين وانجاء المؤمنين واستوت اى استقرت السفينة على الجودي
وهو جبل بالجزيرة قريب من الموصل وقيل اى قال الله تعالى او ملك بامره تعالى بعدا اى هلاكا للقوم
الظالمين وجيء اخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وان تلك الامور العظام
لا تكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وان فاعلها واحد لا يشارك في افعاله فلا يذهب
الوهم الى ان يقول غيره يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي ولا ان يقضي ذلك الامر الهائل غيره
ولا ان تستوي على متن الجودي وتستقر عليه الا بتسويته واقراره وروي ان السفينة لما استقرت
بعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت
بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح ان الماء قد نقص فقيل انه دعا على
الغراب بالخوف فلذا لا يألف البيوت وطوق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم
تألف البيوت وروي ان نوحا ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة
اشهر ومرت بالبيت العتيق وقد رفعه الله تعالى من الغرق وبقي موضعه فطافت به السفينة سبعا
واودع الحجر الاسود في جبل ابي قبيس وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وامر
من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل وسميت سوق ثمانين فهي اول قرية عمرت
على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج احد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل
الى حجزته وهذا الاباني على القول باطباق الماء قال هذا القائل وسبب نجاته ان نوحا احتاج الى خشب
ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج اليه من الشام فنجاه الله تعالى من الغرق بذلك فان قيل
كيف اغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الاطفال اجيب بانه تعالى متصرف في خلقه لا يسئل عما يفعل
وقيل ان الله تعالى اعقم ارحام نسائهم اربعين سنة فلم يولد لهم تلك المدة ونادى نوح ربه
اى دعاه وسأله فقال رب ان ابني من اهلي وقد وعدتني ان تنجيني واهلي وان وعدك الحق
اى الصدق الذي لا خلف فيه وانت احكم الحاكمين لانك اعلمهم واعدلهم فان قيل اذا كان النداء
هو قوله رب فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء اجيب بان ارادة تفصيل لما نادى مثلها في توضأ
فغسل وقيل نادى اى اراد نداءه فقال رب قال الله تعالى يا نوح انه اى هذا الابن الذي سألت نجاته
ليس من اهلك اى المحكوم بنجاتهم لا بانهم وكانه ثم علل تعالى ذلك بقوله تعالى انه عمل غير صالح وقرأ الكسائي

بكسر الميم ونصب اللام بغير تنوين ونصب الراء اى عمل الكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح والباقون
بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء اى ذو عمل غير صالح او صاحب عمل غير صالح فجعل ذات العمل
للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة ترتع ، فانما هي اقبال وادبار ، واختلف علماء التفسير هل كان ذلك
الولد ابن نوح اولا على اقوال الاول وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والاكثرين
انه ابنه حقيقة ويدل عليه انه تعالى نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح ايضا نص عليه فقال يا بني
وصرف هذا اللفظ الى انه ربّاه واطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته
الى مجازه من غير ضرورة القول الثاني انه كان ابن امرأته وهو قول محمد ابن على الباقر وقول الحسن البصري
القول الثالث وهو قول مجاهد والحسن انه ولد حنث ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك واحتج هذا
القائل بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما قال الرازي وهذا قول رذل حيث يجب صون منصب
الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو خلاف نص القرآن وقد قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة
فقال كانت امرأة نوح تقول زوجي مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به فلا تسألن
ما ليس لك به علم اى بما لا تعلم اصواب هو ام لا لان الذي يليق بامثالك من اولى العزم بناء امورهم على
التحقيق وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف
النون واثبت الياء بعد النون في الوصل دون الوقف ورش وابو عمرو وحذفها الباقون وقفا ووصلا
اني اعظك اى بمواعظي كراهة ان تكون من الجاهلين فتسأل كما يسأل الجاهلون وانما سمى نداءه سؤالا
لتضمن ذكر الوعد بنجاة اهله واستنجازه في شأن ولده قال نوح رب اني اعوذ بك ان اى من ان
اسألك في شيء من الاشياء ما ليس لي به علم تأدبا بادبك واتعاظا بموعظتك والا تغفر لي اى
الان ما فرط مني وفي المستقبل ما يقع مني وترحمني اى تسبغ الافي رحمتك تكن مني اكن من الخاسرين
اى العريقين في الخسارة فان قيل هذا يدل على عصمة الانبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه
السلام اجيب بان الزلة الصادرة من نوح انما هي كونه لم يستقص ما يدل على نفاق ابنه وكفره
لان قومه كانوا على ثلاثة اقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم ايمانه ومنافق لا يعلم حاله في نفس الامر
وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما واما اهل
النفاق فبقي امرهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة
التي تكون للاب في حق الابن تحمله على حمل اقواله وافعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة
فاخطأ في ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام في الاكل من الشجرة فلم يصدر عنه الا الخطاء
في الاجتهاد ولم تصدر منه معصية فلجأ الى ربه تعالى وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة كما قال
آدم عليه السلام ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات
الابرار سيئات المقربين قيل اى قال الله تعالى او ملك بامره تعالى يا نوح اهبط اى انزل من السفينة
او من الجبل الى الارض المستوية بسلام اى بعظم وامن وسلامة منا وذلك ان الغرق لما كان عاما في جميع

الارض فحين ما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم انه ليس في الارض شيء مما ينتفع به من النبات
والحيوان فكان كالخائف في انه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب
فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة وان
لا يكون الامر الا من وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة اردفه بان وعده بالبركة بقوله
تعالى وبركات عليك وهي عبارة عن الدوام والبقاء والثبات لان الله تعالى صير نوحا عليه
السلام ابا البشر لان جميع من بقي كانوا من نسله لان نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان
معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله او انه لم يكن معه
في السفينة الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ويدل على ذلك
قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت ان نوحا كان آدم الاصغر فكان ابا الانبياء والخلق بعد
الطوفان كلهم منه وممن ذريته وكان بين نوح وآدم ثمانية اجداد وقوله تعالى وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ
يحتمل ان تكون من للبيان فيراد الامم الذين كانوا معه في السفينة لانهم كانوا جماعات او قيل لهم
امم لان الامم تتشعب منهم وان تكون لابتداء الغاية اي على امم ناشئة ممن معك وهي الامم الى آخر الدهر
قال في الكشاف وهو الوجه وقوله تعالى وَأُمَمٌ بالرفع على الابتداء وقوله تعالى سَنُمَتِّعُهُمْ اي في الدنيا
صفة والخبر محذوف وتقديره وممن معك امم سنمتعهم وانما حذف لان قوله ممن معك يدل عليه
والمعنى ان السلام منا والبركات عليك وعلى امم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك امم
ممتعون في الدنيا ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ في الآخرة وهم الكفار وعن محمد بن كعب القرظي دخل
في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل
كافر وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب ولما شرح تعالى قصة نوح عليه
السلام على التفصيل قال تعالى تِلْكَ اي قصة نوح التي شرحناها ومحل تلك رفع على الابتداء
وخبرها مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ اي من الاخبار التي كانت غائبة عن الخلق وقوله تعالى نُوحِيهَا إِلَيْكَ
خبر ثان والضمير لها اي موحاة اليك وقوله تعالى مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا
اي نزول القرآن خبر آخر والمعنى ان هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا
اليك ونظير هذا ان يقول انسان لآخر لا تعرف هذه المسئلة لا انت ولا اهل بلدك فان قيل
قد كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند اهل العلم اجيب بان ذلك كان بحسب الاجمال
واما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة او بانه صلى الله عليه وسلم كان اميا لم يقرأ الكتب
المتقدمة ولم يطالعها وكذلك كانت امته ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فَاصْبِرْ اي انت
وقومك على اذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على اذى اولئك الكفار إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ع
الشرك والمعاصي وفي هذا تنبيه على ان عاقبة الصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم النصر و
الفرج اي السرور كما كان لنوح ولقومه فان قيل هذه القصة ذكرت في يونس فما الحكمة والفائدة

فی اعادتها اجیب بان القصة الواحدة قد ینتفع بها من وجوه ففی السورة الاولی کان الکفار
یستعجلون نزول العذاب فذکر تعالی قصة نوح فی بیان ان قومه کانوا یکذبونه بسبب ان العذاب
ما کان یظهر ثم فی العاقبة ظهر فکذا فی واقعة محمد صلی الله علیه وسلم وفی هذه السورة ذکرت لاجل
ان الکفار کانوا یبالغون فی الایحاش فذکرها الله تعالی لبیان ان اقدام الکفار علی الایذاء والایحاش
کان حاصلا فی زمان نوح علیه السلام فلما صبر فاز وظفر فکن یا محمد کذلک لتنال المقصود ولما کانت
وجه الانتفاع بهذه القصة فی کل سورة من وجه آخر لم یکن تکریرها خالیا عن الحکمة والفائدة
• القصة الثانیة من القصص التی ذکرها الله تعالی فی هذه السورة قصة هود علیه السلام
المذکورة فی قوله تعالی وَإِلَىٰ عَادٍ ای وارسلنا الی عاد أَخَاهُمْ فهو معطوف علی قوله تعالی نوحا وقوله
تعالی هُودًا عطف بیان ومعلوم ان تلک الاخوة ما کانت فی الدین وانما کانت فی النسب لان هودا
کان رجلا من قبیلة عاد قبیلة من العرب کانوا بناحیة الیمن فان قیل انه تعالی قال فی ابن نوح انه
لیس من اهلک فبین ان قرابة النسب لا تفید اذا لم تحصل قرابة الدین وهنا اثبت هذه الاخوة مع
الاختلاف فی الدین اجیب بان قوم محمد صلی الله علیه وسلم کانوا یستبعدون ان یکون رسولا من
عند الله تعالی مع انه واحد من قبیلتهم فذکر الله تعالی ان هودا کان واحدا من عاد وان صالحا
کان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد ولما تقدم امر نوح علیه السلام مع قومه استشرف السامع
الی معرفة ما قال هود علیه السلام هل هو مثل قوله اولا فاستأنف الجواب بقوله قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
ای وحدوه ولا تشرکوا معه شیئا فی العبادة مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ای هو الهکم لان هذه الاصنام التی تعبدونها
حجارة لا تضر ولا تنفع فان قیل کیف دعاهم الی عبادة الله تعالی قبل اقامة الدلیل علی ثبوت الاله اجیب
بان دلائل وجود الله تعالی ظاهرة وهی دلائل الآفاق والانفس فلما یوجد فی الدنیا طائفة ینکرون وجود
الاله ولذلک قال تعالی فی صفة الکفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض لیقولن الله وقرأ الکسائی
بکسر الراء والهاء صفة علی اللفظ والباقون بالرفع صفة علی محل الجار والمجرور ومن زائدة إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ
ای کاذبون فی عبادتکم غیره وکرر قوله یا قوم لاستعطاف وقوله لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
الَّذِي فَطَرَنِي ای خلقنی خاطب به کل رسول قومه ازالة للتهمة وتمحیضا للنصیحة فانها لا تنجع مادامت
مشوبة بالمطامع أَفَلَا تَعْقِلُونَ ای افلا تستعملون عقولکم فتعرفوا الحق من المبطل والصواب
من الخطأ فتتعظون ثم قال وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ای آمنوا به ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ من عبادة
غیره لان التوبة لا تصح الا بعد الایمان يُرْسِلِ السَّمَاءَ ای المطر عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ای کثیر الدر وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً
إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ای ویضاعف قوتکم وانما رغبهم بکثرة المطر وزیادة القوة لان القوم کانوا اصحاب زرع وبساتین
وعمارات حراصا علیها اشد الحرص فکانوا احوج شیء الی الماء وکانوا مدلین بما اوتوا من شدة
القوة والبطش والبأس والنجدة مهابین فی کل ناحیة وقیل اراد القوة فی المال وقیل القوة علی النکاح وقیل
حبس عنهم المطر ثلاث سنین وعقمت ارحام نسائهم وعن الحسن بن علی رضی الله تعالی عنهما انه

وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال انى رجل ذو مال ولا يولد لى فعلمنى شيئا لعل الله يرزقنى ولدا فقال عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر فى يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشرة بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سألته مم قال ذلك فوفد مرة اخرى فسأله الرجل فقال الم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم باموال وبنين ولا تتولوا اى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حالة كونكم مجرمين اى مشركين ✽ ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره لقومه حكى ايضا ما ذكره قومه له وهو اشياء اولها ما ذكره تعالى بقوله قالوا يا هود ما جئتنا ببينة اى بحجة تدل على صحة دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم انه عليه الصلوة والسلام كان قد اظهر لهم المعجزات الا ان القوم لجهلهم انكروها وزعموا انه ما جاء بشئ من المعجزات وثانيها قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا اى عبادتها وقولهم عن قولك اى صادرين عن قولك حال من الضمير فى تاركى وهذا ايضا من جهلهم فانهم كانوا يعرفون ان النافع والضار هو الله تعالى وان الاصنام لا تضر ولا تنفع وذلك حكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها قولهم وما نحن لك بمؤمنين اى مصدقين وفى ذلك اقناط له من الاجابة والتصديق ورابعها قولهم ان اى ما نقول فى شانك الا اعتراك اى اصابك بعض آلهتنا بسوء لسبك اياها فجعلتك مجنونا وافسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر انهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام مجيبا لهم انى اشهد الله على واشهدوا انتم ايضا على انى برئ مما تشركون من دونه اى الله وهو الاصنام التى كانوا يعبدونها فكيدونى اى احتالوا فى هلاكى جميعا انتم واصنامكم التى تعتقدون انها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع ✽ فائدة ✽ اتفق القراء على اثبات الياء فى كيدونى هنا وقفا ووصلا لثباتها فى المصحف ثم لا تنظرون اى تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام لانه كان وحيدا فى قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت ثقة بالله تعالى كما قال تعالى انى توكلت على الله ربى وربكم اى فوضت امرى اليه واعتمدت عليه ما من دابة تدب على الارض ويدخل فى هذا جميع بنى آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض الا هو آخذ بناصيتها اى مالكها وقاهرها فلا يقع نفع ولا ضر الا باذنه والناصية كما قال الازهرى عند العرب منبت الشعر فى مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت هنا ناصية باسم منبته والعرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان وكانوا اذا اسروا الاسير وارادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون من كلامهم ان ربى على صراط مستقيم اى طريق الحق والعدل فلا يظلمهم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف فيجازى المحسن باحسانه والمسئ بعصيانه وقوله تعالى فان تولوا فيه حذف احدى التاءين اى تعرضوا فقد ابلغتكم جميع ما ارسلت به اليكم فان قيل الابلاغ كان قبل التولى فكيف وقع جزاء للشرط اجيب بان معناه فان تتولوا لم اعاتب على تقصير من جهتى وصرتم محجوجين لانكم انتم الذين اصررتم على التكذيب وقوله ويستخلف ربى قوما غيركم استئناف بالوعيد لهم بان الله تعالى يهلكهم

ولا تضرونه

ويستخلف قوما آخرين في ديارهم وأموالهم يوحدونه تعالى ويعبدونه ولا تضرونه أي الله بأشرككم
شيئا من الضرر وإنما تضرون أنفسكم وقيل لا تنقصونه شيئا إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده
سواء إن ربي على كل شيء صغيرا وكبيرا وجليل حفيظ أي رقيب عالم بكل شيء وقادر على كل شيء
فيحفظني أن تنالوني بسوء أو حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها أو حفيظ على كل شيء يحفظه
من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء ولما لم يرجعوا ولم يرعووا بالبينة ولا رغبة ولا رهبة جاء أمرنا
أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية أيام
حسوما تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وترفعهم وتضربهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا
كأعجاز نخل خاوية وهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين قرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الأولى
وقرأ ورش وقنبل بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما نجينا هودا والذين آمنوا معه
أي من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف برحمة منا لأن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما
أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه ونجيناهم من عذاب غليظ هو
عذاب الآخرة ووصفه بالغلظ لأنه أغلظ من عذاب الدنيا أو نجينا هودا والذين آمنوا معه من أن يصل إليهم
الكفار بسوء مع اجتهادهم في ذلك ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة ولما ذكر الله تعالى قصة
عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد وهي إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى
قال سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا
والآخرة أما أوصافهم فثلاثة الصفة الأولى قوله تعالى جحدوا بآيات ربهم أي بالمعجزات التي أتى بها
هود عليه السلام الصفة الثانية قوله تعالى وعصوا رسله أي هودا وحده وإنما أتى به بلفظ الجمع
إما للتعظيم أو لأن من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله الصفة
الثالثة قوله تعالى واتبعوا أمر كل جبار عنيد أي أن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم ما هذا
إلا بشر مثلكم فأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم وعصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم والجبار
المرتفع المتمرد والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض ولما ذكر تعالى أوصافهم ذكر أحوالهم بقوله
تعالى واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة أي جعل اللعن رديفا لهم وتابعا ومصاحبا
في الدنيا والآخرة ومعنى اللعنة الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير وقيل اللعنة في الدنيا من الناس
وفي الآخرة لعنة على رؤوس الأشهاد ثم إنه تعالى بين السبب الأصلي في نزول هذه الأحوال المكروهة
بهم بقوله تعالى ألا إن عادا كفروا ربهم أي كفروا بربهم فحذف الباء أو أن المراد بالكفر الجحد أي
جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أي كفروا نعمة ربهم تنبيه ألا أداة استفتاح
لا تذكر إلا بين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ثم قال ألا بعدا لعاد دعاء عليهم بالهلاك
والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكي عنهم وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعا
لأمرهم وحثا على الاعتبار بحالهم وقوله تعالى قوم هود عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم من عاد الثانية

عاد ارم والايماء الى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود القصة الثالثة التي ذكرها الله
تعالى في هذه السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى والى ثمود وهم سكان
الحجر اي وارسلنا الى ثمود اخاهم فهو معطوف على قوله تعالى نوحا كما عطف عليه والى عاد وقوله
تعالى صالحا عطف بيان وتلك الاخوة كانت في النسب لا في الدين كما مر في هود ثم اخرج قوله عليه
السلام على تقدير سؤال بقوله قال يا قوم اي يا من يعز علي ان يحصل لهم سوء اعبدوا الله
اي وحدوه وخصوه بالعبادة ما لكم من اله غيره هو الحكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم
ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته تعالى بقوله هو انشأكم اي ابتدأ خلقكم من الارض وذلك
انهم من بني ادم وادم خلق من الارض وان الانسان مخلوق من المني وهو متولد من الدم والدم
متولد من الاغذية وهي اما حيوانية واما نباتية فاما الحيوانية فحالها كحال الانسان فوجب انتهاء
الكل الى النبات والنبات متولد من الارض فثبت انه تعالى انشأ الانسان من الارض وقيل من بمعنى
في كما في قوله تعالى اذا نودي للصلوة من يوم الجمعة واستعمركم فيها اي جعلكم عمارها وسكانها
وقال الضحاك اطال اعماركم فيها حتى ان الواحد منهم كان يعيش ثلثمائة سنة الى الف سنة وكذا
كان قوم عاد وقيل ان ملوك فارس قد اكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وحصلت لهم
الاعمار الطويلة فسأل نبي من انبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فاوحى الله اليه انهم عمروا
بلادي فعاش فيها عبادي واخذ معاوية في احياء الارض في آخر عمره فقيل له في ذلك فقال
ما حملني عليه الا قول القائل: ليس الفتى بفتى لا يستضاء به + ولا يكون له في الارض اثار +
وقال مجاهد استعمركم من العمرى اي جعلها لكم ما عشتم فاذا متم انتقلت الى غيركم + ولما بين لهم
عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه بقوله فاستغفروه اي آمنوا به ثم
توبوا اليه من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر تقرير ذلك ان ربي قريب
من خلقه بعلمه لكل من اقبل عليه من غير مسافة الى حركة مجيب لكل من ناداه لا كمعبودكم
في الاعراض فلما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل قالوا له يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا
اي القول الذي جئت به اذ كنا نرجو فيك الرشد والسداد فانك كنت تعطف على فقيرنا
وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا فقوي رجاؤنا فيك ان تنصرنا فكيف اظهرت العداوة + ثم
انهم اضافوا الى هذا التعجب التشديد فقالوا أتنهانا ان نعبد ما كان يعبد آباؤنا من الالهة
ومقصودهم من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الاباء والاسلاف ونظير هذا التعجب
ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ثم قالوا
واننا لفي شك مما تدعونا اليه من التوحيد وترك عبادة الاصنام مريب اي موقع في الريبة
وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين والرجاء تعلق النفس بمجيء الخير على جهة الظن ونظيره
الامل والطمع والنهي المنع من الفعل بصيغة لا تفعل وقولهم هذا مبالغة في تزييف كلامه قال

صالح عليه السلام مجيبا لهم يا قوم أرأيتم اي اخبروني إن كنت على بينة اي بيان وبصيرة من ربي
وانى بحرف الشك على سبيل الجزم ليلائم الخطاب حال المخاطبين وآتاني منه رحمة اي نبوة ورسالة
فمن ينصرني اي يمنعني من الله اي عذابه إن عصيته اي ان خالفت امره في تبليغ رسالته والمنع عن
الاشراك به فما تزيدونني اي بامركم لي بذلك غير تخسير اي غير تضليل قال الحسين بن الفضيل
لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وانما المعنى فما تزيدونني بما تقولون الا نسبتي
اياكم الى الخسارة + ولما كانت العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الاصنام ان يطلبوا المعجزة
وامر صالح عليه السلام هكذا كان يروى ان قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه ان يأتيهم باية وان
يخرج لهم من صخرة معينة اشاروا اليها ناقة فدعا ربه فخرجت كما سألوا اشار اليها بقوله ويا قوم
هذه ناقة الله واضافتها الى الله اضافة تشريف كبيت الله لكم آية اي معجزة من وجوه احدها انه
خلقها الله تعالى من الصخرة ثانيها انه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق الجبل عنها ثالثها انه تعالى
خلقها حاملا من غير ذكر ثم ولدت فصيلا يشبهها رابعها انه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة
واحدة خامسها ما روي انه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر سادسها انه كان يحصل
منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم به فكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن الا ان تلك
الناقة كانت آية معجزة واما بيان انها كانت آية معجزة من اي الوجوه فليس فيه بيانه + تنبيه +
آية نصب على الحال وعاملها معنى الاشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها ولو تأخرت
لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ثم قال لهم فذروها اي اتركوها على اي حالة
كان تركهم لها تأكل مما ارادت في ارض الله من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فصارت مع
كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم انه عليه السلام خاف عليها منهم
لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم يحب تحقير حجة خصمه بل يسعى في اخفائها وابطالها
باقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال ولا تمسوها
بسوء اي بعقر او غيره ثم توعدهم بقوله فيأخذكم ان مسستموها بسوء عذاب قريب اي في الدنيا
لا يتأخر عن مسكم لها الا يسيرا وذلك حتى يرشدهم ثم ان الاقدام على قتلها لفعل الغوية فعقروها
ونحروها فقال لهم عند بلوغه الخبر تمتعوا اي عيشوا في داركم التمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التي
تدرك بالحواس وذلك لا يحصل الا للحي وفي المراد من الدار وجهان احدهما البلد وتسمى البلد
الديار لانه يدار فيها اي يتصرف فيها يقال ديار بكر لبلادهم الثاني دار الدنيا اي تمتعوا في الدنيا
ثلاثة ايام وذلك انهم لما عقروا الناقة انذرهم صالح عليه الصلوة والسلام بنزول العقاب
بعد هذه المدة قال ابن عباس انه تعالى لما امهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم في الايمان ثم
قالوا لصالح عليه السلام وما علامة ذلك قال تصير وجوهكم في اليوم الاول مصفرة وفي الثاني محمرة
وفي الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم مسودة ايقنوا بالعذاب

فتمتعوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع كما قال تعالى ذلك اي الوعد العالي الرتبة في الصدق
وعد غير مكذوب اي فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله * ويوم شهدناه
اي ورب يوم شهدنا فيه سليما وعامرا * او غير مكذوب على المجاز او وعد غير كذب على انه مصدر وقوله
تعالى فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا في تفسيره وقراءة الهمزتين وعدمه
الذين آمنوا معه مثل ما تقدم في قصة عاد ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة
او ذلهم او فضيحتهم يوم القيامة وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم من يومئذ على البناء لاضافته الى
مبني وكسرها الباقون على الاعراب والاول اكثر ان ربك هو القوي فهو يغلب كل شيء العزيز اي
القادر على منع غيره من غير ان يقدر احد عليه ثم اخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله واخذ الذين
ظلموا اي انفسهم بالكفر الصيحة اي صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا
او اتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا كما قال تعالى فاصبحوا في ديارهم
جاثمين اي باركين على الركب ميتين * تنبيه * انما قال تعالى واخذ ولم يقل واخذت لان
الصيحة محمولة على الصياح وايضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل
كالعوض من تاء التانيث وقوله تعالى كأن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف اي كأنهم لم يغنوا
اي يقيموا فيها اي ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا اقمت به وقوله تعالى
الا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود تفسيره ما تقدم في قوله تعالى الا ان عادا كفروا ربهم الآية ع
وقرأ حفص وحمزة الا ان ثمود بغير تنوين للتعريف والتانيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين للذهاب
الى الحي او الى الاب الاكبر ومن نون وقف على الف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة وقرأ
الكسائي بعدا لثمود بالتنوين ثمود مع الكسر والباقون بغير تنوين مع الفتح لما مر ايضا القصة
الرابعة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله
تعالى ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى اي باسحق ومن وراء اسحق يعقوب والمراد بالرسل
الملائكة ولفظ رسلنا جمع واقله ثلاثة واختلف في الزائد على ذلك واجمعوا على ان الاصل فيهم كان
جبريل عليه السلام واقتصر ابن عباس وعطاء على اقل الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل
واسرافيل وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات بقوله تعالى هل اتاك حديث ضيف
ابراهيم المكرمين وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال الضحاك كانوا تسعة وقال محمد بن
كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة املاك وقال السدي كان جبريل ومعه احد عشر ملكا
على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن قال النحويون ودخلت كلمة قد هنا لان السامع
لقصص الانبياء يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتاكيد الخبر قالوا سلاما
اي سلمنا عليك سلاما ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاما اي سلموا قال سلام اي امركم او جوابي
سلام او وعليكم سلام * تنبيه * قوله سلام اكمل من قوله السلام لان التنكير يفيد الكمال والمبالغة

والتمام ولهذا صح وقوعه مبتدأ لان النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ واما لفظ السلام
فانه لا يفيد الا الماهية فان قيل هل في هذا شيء مما يكون الاول في المحال من الصلوة هنا النووي اجيب
بان ذلك سنة متبعة وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام ولا الف بعدها والباقون بفتح
السين واللام وبعدها الف قال الفراء ولا فرق بين القراءتين كما يقال حل وحلال وحرم وحرام وقيل
سلم هو بمعنى الصلح اي نحن سلم صلح غير حرب فما لبث ان جاء بعجل حنيذ اي فما ابطأ مجيئه به والحنيذ
المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الارض وكان سمينا يقطر ودكه كما قال تعالى في موضع آخر فجاء
بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال ابراهيم البقر وروي ان ابراهيم عليه السلام مكث خمس
عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءته الملائكة
رأى اضيافا لم ير مثلهم فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوي فلما رأى ايديهم اي الاضياف لا تصل
اليه اي لا يمدون ايديهم اليه نكرهم اي انكرهم وانكر حالهم لامتناعهم من الطعام واوجس
اي اضمر في نفسه منهم خيفة اي خوفا قال قتادة وذلك انهم كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم
يأكل من طعامهم ظنوا انه لم يأت بخير وانما جاء بشر قالوا لا تخف يا ابراهيم انا ملائكة الله ارسلنا
الى قوم لوط بالعذاب وانما لم نمد اليه ايدينا لانا لا نأكل وامرأته اي ابراهيم سارة وهي ابنة عم ابراهيم
قائمة وراء الستر تسمع محاورتهم او على رؤسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التي دل عليها
فيما مضى قوله بالبشرى فضحكت سرورا من تلك البشرى لزوجها مع كبره ولما ظنته من غيرها
لانها كانت عجوزا عقيما فاذن ذلك الظن عنها بقوله تعالى فبشرناها اي على لسان الملائكة تشريفا
لها وتعظيما لشأنها باسحق تلده ومن وراء اسحق يعقوب اي يكون يعقوب عليه السلام ابنا
لاسحق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها قال البقاعي والذي يدل على هذا التقدير من انهم
بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت ما يأتي عن نص التوراة وساق عن التوراة عبارة مطولة
وقيل سبب سرورها زوال الخيفة او هلاك اهل الفساد وقيل فضحكت فحاضت كما قال الشاعر
شعر عهدي بسلمى ضاحكا في لبانة ❊ اي حائضا في جماعة من النساء وهذا يرد على الفراء حيث
قال ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال آخر ❊ تضحك الضبع لقتلى هذيل ❊ اراد انها
تحيض فرحا ❊ تنبيه ❊ ههنا همزتان مكسورتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي بتسهيل الاولى
مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها ايضا حرف مد وقرأ ابو عمرو باسقاط احداهما
مع المد والقصر والباقون بتحقيق الهمزتين ولا الف بينهما قالت يا ويلتى هذه كلمة تقال عند امر عظيم
والالف مبدلة من ياء الاضافة أألد وانا عجوز وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن اسحق وقال
مجاهد تسع وتسعين سنة وهذا بعلي اي زوجي سمي بذلك لانه قيم امرها وقوله شيخا نصب على الحال
قال الواحدي وهذا من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قولها وهذا بعلي شيخا قائم
مقام ان يقال اشير الى بعلي حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهي الشيخوخة

وكان ابن مائة وعشرين سنة في قول ابن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين البشارة والولادة سنة
سنة إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ اي ان الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك
قَالُوا اي الملائكة لسارة أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ منكرين عليها ذلك اي لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى
قادر على كل شيء واذا اراد شيئا كان سريعا فان خوارق العادات باعتبار اهل بيت النبوة ومهبط المعجزات
وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس بمستغرب رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ اي بيت ابراهيم
واهل منصوب على المدح او النداء لقصد التخصيص كقولهم اللهم اغفر لنا ايتها العصابة وهذا على معنى الدعاء
من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على ان ازواج الرجل من اهل بيته إِنَّهُ تعالى حَمِيدٌ اي محمود
على كل حال او فاعل ما يستوجب به الحمد مَجِيدٌ اي كثير الخير والاحسان القصة الرابعة التي ذكرها
الله تعالى في هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله تعالى فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ
الرَّوْعُ اي الخوف وهو ما اوجس من الخيفة حين انكر اضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم وَجَاءَتْهُ
الْبُشْرَىٰ بدل الروع بالولد اخذ يُجَادِلُنَا اي يجادل رسلنا فِي شأن قَوْمِ لُوطٍ وجواب لما اخذ يجادلنا
الا انه حذف اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا فان قيل
كيف جادل ابراهيم الملائكة مع علمه بانهم لا يمكنهم مخالفة امر الله وهذا منكر اجيب بان المراد من هذه
المجادلة تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي لان الملائكة
قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية وان مجادلته انما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيهم ولهذا قال
ابراهيم عليه السلام ارايتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين اتهلكونها قالوا لا قال او اربعون
قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فعشرون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال ارايتم ان كان فيها رجل مسلم
اتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال ولما جاءت
رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا
نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته كانت من الغابرين قال ابن جريج وكان في قرى لوط اربعة
آلاف الف ولو كانت هذه المجادلة مذمومة لما مدحه بقوله تعالى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ اي غير عجول
مكافأة غيره بل يتأنى فيها فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله يحسب من غيره هذه الحالة
عظيم من الله تعالى لابراهيم ثم ضم الى ذلك ما يتعلق بالعلم وهو قوله تعالى أَوَّاهٌ اي كثير التأوه
من الذنوب والتاسف على الناس مُنِيبٌ اي رجاع فلما اراد ابراهيم الالحاح قالوا له يَا إِبْرَاهِيمُ
أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا اي الجدال وان كانت الرحمة ديدنك إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ
اي قضاؤه الازلي بعذابهم وهو اعلم بحالهم وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ اي لا سبيل
الى دفعه ورده وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا اي هؤلاء الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال ابن
عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وهو ابن اخي ابراهيم عليهما السلام وبين القريتين
القريتين اربعة فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني ادم وكانوا في غاية الحسن

لم يعرف لوط انهم ملائكة الله تعالى سيء بهم اي حزن بمجيئهم وضاق بهم ذرعا اي صدرا يقال ضاق ذرع
فلان بكذا اذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم
فخاف عليهم خبث قومه وان يقصدوهم فيعجز عن مدافعتهم وقيل ساءه ذلك لانه عرف بالآخرة انهم ملائكة
الله تعالى وانهم جاؤا لاهلاك قومه فرق لبعيد عن قومه وقال هذا يوم عصيب اي شديد كانه قد عصب به
الشر والبلاء اي شد به مأخوذ من العصابة التي تشد بها الراس قال قتادة خرجت الملائكة من عند
ابراهيم نحو قرية لوط فاتوا لوطا نصف النهار وهو في ارض له يعمل فيها وروي انه كان يحتطب وقد
قال الله تعالى لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط اربع شهادات فاستضافوه وانطلق بهم فلما مضى
ساعة قال لهم ما بلغكم من امر هذه القرية قالوا وما امرهم قال اشهد بالله انها لشر قرية في الارض
عملا يقول ذلك اربع مرات وروي ان الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك
احد الا اهل بيت لوط فخرجت امرأته فاخبرت قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم
قط وجاءه قومه لما علموا بهم يهرعون اليه اي يسرعون اليه قاله ابن عباس وقال الحسن الاهراع المشي
بين مشيين ومن قبل اي قبل مجيئهم الى لوط وقيل من قبل مجيء الرسل اليهم كانوا يعملون السيئات
اي العادات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي اتيان الرجال في ادبارهم لوط قال لقومه حين
قصدوا اضيافه وظنوا انهم غلمان من بني آدم يا قوم هؤلاء بناتي قال مجاهد وسعيد بن جبير اراد
ببناته نساء قومه واضافهن الى نفسه لان كل نبي ابو امته كالوالد لهم اي فتزوجوا منهن
وقيل اراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الاسلام وقيل كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة
يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن ابي لهب
وابي العاص بن الربيع قبل الوحي وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد ان يزوجهما
ابنتيه هن اطهر لكم اي انظف فعلا وقيل افعل التفضيل يقتضي كون العمل الذي يطلق عليه
طاهرا ومعلوم انه فاسد لانه لا طهارة في اتيان الرجال اجيب بان هذا جار مجرى قوله تعالى
اذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم ومعلوم ان شجرة الزقوم لا خير فيها وكما قال صلى الله عليه وسلم لما قالوا
يوم احد اعل هبل قال الله اعلى واجل ولا مماثلة بين الله تعالى وبين الصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة
ولهذا نظائر كثيرة فاتقوا الله اي خافوه بان تتركوا ما انتم عليه من الكفر والمعاصي ولا تخزون اي
تفضحون في ضيفي اي اضيافي اليس منكم رجل رشيد يهدي الى الحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر
قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق اي حاجة وانك لتعلم ما نريد اي من اتيان الذكور مما لنا
فيه الشهوة الخبيثة قال اي لوط لو ان لي بكم قوة اي طاقة او آوي الى ركن شديد
اي عشيرة تمنعني شبهها بركن الجبل في شدتها وعن النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله اخي لوطا كان يأوي
الى ركن شديد والركن [illegible] النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] لوط
عليه السلام قوله [illegible] الركن الذي كان يأوي اليه

وجواب لو محذوف تقديره لبطشت بكم او لدفعتكم روي انه اغلق بابه دون اضيافه واخذ يجادلهم
من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا
إليك بسوء فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه في عقوبتهم
فاذن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم
وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس اعينهم كما قال تعالى فطمسنا اعينهم فصاروا
لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان في بيت لوط قوما سحرة
تنبيه. لن يصلوا اليك جملة موضحة للتي قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لن يصلوا اليه ولن يقدروا
على ضرره ثم قالوا له فأسر بأهلك بقطع اي طائفة من الليل وقرأ نافع وابن كثير بعد الفاء بهمزة
وصل من السري والباقون بهمزة قطع من الاسراء ولا يلتفت منكم احد اي لا ينظر الى ورائه
لئلا يرى عظيم ما نزل بهم وقوله الا امرأتك قرأه ابن كثير وابو عمرو برفع التاء على انه بدل من
احد والباقون بالنصب على انه استثناء من الاهل اي فلا تسر بها انه مصيبها ما اصابهم فلم يخرج بها
وقيل خرجت والتفتت فقالت واقوماه فجاءها حجر فقتلها روي انه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا له
ان موعدهم الصبح قال اريد اسرع من ذلك فقالوا أليس الصبح بقريب اي فاسرع الخروج بمن امرت
بهم فلما جاء امرنا اي عذابنا بهلاكهم جعلنا عاليها اي قراهم سافلها روي ان جبريل عليه السلام
ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات المذكورة في سورة براءة وكانت خمس مدائن وفيها
اربعمائة الف وقيل اربعة آلاف الف فرفع المدائن كلها حتى سمع اهل السماء صياح الديكة ونهيق
الحمير ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينتبه نائم ثم اسقطها مقلوبة الى الارض وامطرنا عليها
اي المدن بعد قلبها وقيل على شذاذها وهم الذين [illegible] المدينة وبذا [illegible] مجتمعين او لهما
[illegible] وهم الذين ليسوا من اهلها يكونون في القوم ولم يسلموا منهم حجارة من سجيل اي من طين
طبخ بالنار كما قال تعالى في موضع آخر حجارة من طين وقيل مثل السجيل وهو الدلو العظيمة منضود اي متتابع
يتبع بعضها بعضا مسومة اي معلمة عليها اسم من يرمى بها وقال ابو صالح رأيت منها عند ام هانئ
وهي حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن عليها امثال الخواتيم وقال ابن جريج كان عليها
سيما يعلم بها انها ليست من حجارة الارض وقوله تعالى عند ربك ظرف لها وما هي اي تلك
الحجارة من الظالمين اي مشركي مكة ببعيد اي بشيء بعيد او بمكان بعيد لانها وان كانت في السماء
وهي مكان بعيد الا انها اذا وقعت منها فهي اسرع شيء لحوقا بالمرمى فكانها بمكان قريب منه
وفيه وعيد لهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم سال جبريل فقال يعني ظالمي مكة ما من ظالم منهم
الا وهو يعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى اي هي قريبة من ظالمي
مكة يمرون عليها في مسيرهم. القصة السادسة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة شعيب
عليه السلام المذكورة في قوله تعالى والى مدين اي وارسلنا الى مدين وهم قبيلة ابوهم مدين بن

ابراهيم عليه السلام وقيل هو اسم مدينة بناها مدين المذكور وعلى هذا فالتقدير وارسلنا الى اهل
مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه أَخَاهُمْ أي في النسب لا في الدين شُعَيْبًا عطف بيان وكان
قائلاً قال لما قال لهم فقيل قَالَ ما قال اخوته من الانبياء في البداءة باصل الدين يَا قَوْمِ مستعطفاً لهم
مظهراً غاية الشفقة اعْبُدُوا اللَّهَ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فلقد اتفقت
كما ترى كلمتهم واتحدت الى الله تعالى دعوتهم وهذا اوضح قاطع الدلالة على صدق كل منهم
لما علم قطعاً من تباعد اعصارهم وتنائي ديارهم وان بعضهم لم يلم بالعلوم ولا عرف اخبار الناس
الا من الحي القيوم ولما دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين الله تعالى دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين عبيده
في اقبح ما كانوا اتخذوه بعد الشرك ديدناً فقال وَلَا تَنْقُصُوا بوجه من الوجوه الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
اي لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته والكيل تعديل الشيء بالآلة في القلة والكثرة والوزن
تعديله في الخفة والثقل فالكيل العدل في الكمية والوزن العدل في الكيفية ثم علل ذلك بقوله
إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ أي بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف قال ابن عباس كانوا موسرين في نعمة وقال
مجاهد كانوا في خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة ان لم يؤمنوا
ويتوبوا وهو قوله وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ان لم تؤمنوا عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ اي محيط بكم فيهلككم جميعاً وهو
عذاب الاستئصال في الدنيا وعذاب النار في الآخرة ومنه قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين
والمحيط من صفة اليوم في الظاهر وفي المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا
يوم عصيب وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا أي أتموا إتماماً حسناً الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ أي الكيل والوزن والتصريح
فان قيل النهي عن النقصان امر بالايفاء فما فائدة قوله تعالى اوفوا اجيب بانهم نهوا اولاً عن
القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لان في التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعييراً له
ثم ورد الامر بالايفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه
وجيء به مقيداً بِالْقِسْطِ اي ليكون الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان
امراً بما هو الواجب لان ما جاوز العدل فضل وامر مندوب اليه غير المأمور به وقد يكون محظوراً
كما في الربا وقوله تعالى وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ تعميم بعد تخصيص فانه اعم من ان يكون
في المقدار او في غيره فانهم كانوا يأخذون من كل شيء يباع كما تفعل السماسرة وكانوا يمكسون الناس
وكانوا ينقصون من اثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا عن ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه
الاشياء غير مكررة بل في كل واحد منها فائدة زائدة والحاصل انه تعالى نهى في الآية الاولى عن
النقصان في المكيال والميزان وفي الثانية امر باعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين باداء
الواجب الا عند اداء ذلك القدر من الزيادة ولهذا قال الفقهاء ان الله تعالى امر بغسل الوجه وذلك
لا يحصل الا عند غسل جزء من الراس فكانه تعالى نهى اولاً عن سعي الانسان في ان يجعل مال غيره ناقصاً
ليحصل له تلك الزيادة وفي الثاني امر بان يسعى في تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة

كما نص عليه بقوله تعالى بالقسط وفي الآية الثالثة نهي عن النقص في كل الاشياء وكذا قوله تعالى
ولا تعثوا في الارض مفسدين فان العثي يعم تنقيص الحقوق وغيره من انواع الفساد ومفسدين
حال مؤكدة لمعنى عاملها وفائدتها اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام
بقيت الله قال ابن عباس اي ما ابقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير لكم
مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد ما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام ان كنتم مؤمنين
اي مصدقين بما قلت لكم وامرتكم به ونهيتكم عنه وبقيت رسمت هنا بالتاء المجرورة ووقف عليها
بالهاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي والباقون وقفوا عليها بالتاء وما انا عليكم بحفيظ اي رقيب احصي اعمالكم
واقدر على كفكم عما يكون منها فسادا وانما امرهم شعيب عليه السلام بشيئين بالتوحيد وترك
البخس قالوا له يا شعيب ساخرين به باسمه استخفافا واهانة وانكروا عليه متهزئين به اصلوتك تأمرك
اي تفعل معك فعل من يأمر وانما تكليفنا ان نترك ما يعبد اي على سبيل المواظبة آباؤنا
من الاصنام فحذف الذي هو التكليف لان الانسان لا يؤمر بفعل غيره قالوا له ذلك في جواب امره لهم
بالتوحيد او نترك ان نفعل اي دائما في اموالنا ما نشاء من قطع الدراهم والدنانير وافساد المعاملة
والمقامرة ونحوها مما يكون افساد المال قالوا له ذلك في جواب النهي عن التطفيف والامر بالايفاء
وانما اضافوا ذلك الى صلواته تهكما واستهزاء بها واشعارا بان مثل هذا لا يدعو اليه داع عقلي
وانما دعاك اليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه وكان شعيب عليه الصلاة
والسلام كثير الصلاة في الليل والنهار وكان قومه اذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا وقصدوا
بقولهم اصلواتك تأمرك السخرية والهزء كما اذا رأيت معتوها يطالع كتابا ثم يذكر كلاما فاسدا
فيقال له هذا فائدة مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء ولهذا قرأ حفص وحمزة والكسائي
اصلوتك بالافراد والباقون بالجمع والتاء بالرفع في القراءتين وغلظ ورش اللام في اصلوتك
وقولهم له انك لانت الحليم الرشيد تهكم به وقصدوا وصفه بضد ذلك كما يقال للبخيل الخسيس
لو رآك حاتم لسجد لك وعللوا انكار ما سمعوا منه واستبعدوه بانه موسوم بالحلم والرشد المانعين
من المبادرة الى مثل ذلك ثم اخرج قوله عليه الصلاة والسلام على تقدير سؤال بقوله قال يا قوم
مستعطفا لهم لما بينهم من عواطف القرابة منبها لهم على احسن النظر فيما ساقه على سبيل العرض
والتقدير ليكون ادعى الى سبيل الوفاق والانصاف ارأيتم اي اخبروني ان كنت على بينة اي برهان
من ربي وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله ورزقني والضمير في منه لله تعالى اي من عنده
باعانته بلا كد مني في تحصيله ونظم الرزق بقوله رزقا حسنا حلالا وما لا لم اظلم فيه احد
وجواب الشرط محذوف اي فهل يسوغ مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية
ان اخون في وحيه فاخالفه في امره ونهيه وهذا اعتذار عما انكروا عليه من تغيير المألوف والنهي
عن دين الآباء وما اريد ان اخالفكم اي واذهب الى ما انهاكم عنه فارتكبه ان اي ما اريد

اى فيما امركم به وانهاكم عنه إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ اى ما اريد الا ان اصلحكم بموعظتى ونصيحتى وامرى
بالمعروف ونهيى عن المنكر مَا اسْتَطَعْتُ اى وهو الابلاغ والانذار فقط ولا استطيع اجباركم على
الطاعة لان ذلك الى الله تعالى فانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء وَمَا تَوْفِيقِي اى لاصابة الحق
والصواب إِلَّا بِاللَّهِ اى الا بمعونته وتاييده عَلَيْهِ لا على غيره تَوَكَّلْتُ اى اعتمدت فى جميع امورى فانه
القادر على كل شئ وما عداه عاجز وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغى للانسان ان يتوكل على احد
الا على الله تعالى وفيه اشارة الى محض التوحيد الذى هو اقصى مراتب المبدأ واما قوله وَإِلَيْهِ أُنِيبُ
ففيه اشارة الى معرفة المعاد وهو ايضا يفيد الحصر لان قوله واليه انيب يدل على انه لا مآب
للخلق الا الى الله تعالى وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيبا قال ذاك خطيب الانبياء
لحسن مراجعته قومه وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ اى لا يكسبنكم شِقَاقِي اى خلافى وهو فاعل يجرم والضمير
مفعول اول والمفعول الثانى أَنْ يُصِيبَكُمْ العذاب العاجلة على كفركم وافعالكم الخبيثة قال فى الكشاف
جرم مثل كسب فى تعديه الى مفعول واحد والى مفعولين تقول جرم ذنبا وكسبه وجرمته ذنبا
وكسبته اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مِثْلُ مَا أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ من الغرق أَوْ قَوْمَ هُودٍ من الريح العقيم أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ من الرجفة وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ
لا فى الزمان ولا فى المكان لانهم كانوا احدث عهد بهلاكهم وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة
من بلادهم فان القرب فى الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكانه يقول
اعتبروا باحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب فان قيل
لم قال ببعيد ولم يقل ببعيدين اجيب بان التقدير وما اهلاكهم بشئ بعيد وايضا يجوز ان يسوى
فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق
ونحوهما انتهى وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اى امنوا به ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ عن عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد
الايمان وقد مر مثل ذلك إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ اى عظيم رحمة للتائبين وَدُودٌ اى محب لهم ولما بالغ
عليه السلام فى التقرير والبيان اجابوه بانواع فاسدة الاول قَالُوا له يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ اى ما نفهم
كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ فان قيل انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه اجيب بانهم كانوا لا يلقون اليه
اذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو قوله تعالى وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه او انهم
فهموه ولكنهم ما اقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه
اذا لم يعبأ بحديثه ما ادرى ما تقول الثانى قولهم له وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا اى لا قوة لك
فتمتنع منا ان اردنا بك بسوء او ذليلا لا عز لك وقيل اعمى بلغة حمير قاله قتادة وفى هذا تجويز العمى
على الانبياء الا ان هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به فى اثبات هذا المعنى لانه ترك الظاهر من غير دليل
وقيل ضعيف البصر قاله الحسن الثالث قولهم له وَلَوْلَا رَهْطُكَ اى عشيرتك وهم فى عزة لكونهم
على ملتنا لا لخوف من شوكتهم لَرَجَمْنَاكَ بالحجارة حتى تموت والرهط من الثلاثة الى عشرة وقيل

الى الحجة والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا له انه لا حرمة له عندهم ولا وقع له في صدورهم وانهم انما
لم يقتلوه لاجل احترام رهطه. النوع الرابع قولهم له وما انت علينا بعزيز اي لا تعز علينا ولا تكرم حتى
نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من اهل ديننا ولم يختاروك
علينا ولم يتبعوك دوننا ولما خوف الكفار شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنه
ما ذكره في هذا المقام وهو نوعان الاول قال لهم يا قوم مستعطفا لهم مع غلظتهم عليه أرهطي أعز عليكم
من الله المحيط بكل شيء قدرة وعلما حتى نظرتم اليهم في قرابتي منهم ولم تنظروا الى الله تعالى في قربي منه
لما ظهر علي من كرامته تعالى واتخذتموه وراءكم ظهريا اي جعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بترككم
به والاهانة لرسوله قال في الكشاف والظهري منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره
قولهم في النسبة الى الامس امسي بكسر الهمزة وقوله ان ربي بما تعملون محيط اي انه عليم بأحوالكم
فلا يخفى عليه شيء منها. النوع الثاني قوله ويا قوم اعملوا على مكانتكم والمكانة الحالة التي يمكن صاحبها
من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما في وسعكم وطاقتكم من ايصال
الشرور الي اني ايضا عامل بما اتاني الله من القدرة والطاقة سوف تعلمون من يأتيه عذاب
يخزيه ومن هو كاذب فمن موصولة مفعول العلم فان قيل لم لم يقل فسوف تعلمون اجيب
بان ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل واما حذف الفاء فجعله جوابا عن سؤال مقدر
وهو المسمى في علم البيان بالاستئناف البياني تقديره انه لما قال ويا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل كأنهم
قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر ان حذف حرف الفاء ههنا اكمل في باب الفخامة
والتهويل لانه استئناف وارتقبوا اي انتظروا عاقبة امركم اني معكم رقيب اي منتظر والرقيب
بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم او بمعنى المراقب كالعشير
والنديم او بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع ولما جاء امرنا بعذابهم واهلاكهم
نجينا شعيبا والذين امنوا معه برحمة اي بفضل منا بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة
فان قيل لم جاءت قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء اجيب بان قصة
عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فانهما ذكرا بعد
الوعد وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح فلذلك جاء بفاء السببية
واخذت الذين ظلموا اي ظلموا انفسهم بالشرك والبخس الصيحة اي صيحة جبريل عليه السلام
صاح بهم صيحة خرجت ارواحهم وماتوا جميعا وقيل اتتهم صيحة من السماء فاصبحوا في ديارهم
جاثمين اي باركين على الركب ميتين كأن لم يغنوا اي كأنهم لم يقيموا فيها اي ديارهم مدة من الدهر
ماخوذ من قولهم غني بالمكان اذا اقام فيه مستغنيا به عن غيره الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود
انما شبههم بهم لان عذابهم كان ايضا بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين
كانت من فوقهم قال ابن عباس لم يعذب الله تعالى امتين بعذاب الا قوم شعيب وقوم صالح

فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فاخذتهم الصيحة من فوقهم * القصة السابعة
التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي آخر قصصها قصة موسى عليه الصلوة والسلام المذكورة في قوله
تعالى وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا اى التورية مع ما فيها من الشرائع والاحكام وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ اى
برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته وقيل المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين
العصا لانها اظهر الآيات وذلك لان الله تعالى اعطى موسى تسع آيات بينات وهي العصا واليد البيضاء
والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والسنين ومنهم من ابدل نقص
الثمرات والسنين باظلال الجبل وفلق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب
الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلماء سلاطين بسبب ما لهم في القوة العلمية
والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة الا ان سلطنة العلماء اكمل واقوى
من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة
الملوك تابعة لسلطنة العلماء لان سلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من
جنس سلطنة الفراعنة إِلَىٰ فِرْعَوْنَ طاغية القبط وَمَلَئِهِ اى اشراف قومه الذين تتبعهم الاذناب
لان القصد الاكبر رفع ايديهم عن بني اسرائيل فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ اى اتبعوا طريقة فرعون المنهمك
في الضلال والطغيان الداعي الى ما لا يخفى فساده على من له ادنى مسكة من العقل ولم يتبعوا موسى الهادي
الى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ
اى بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو الى خير وقيل رشيد ذو رشد وانما نفى عن فرعون من الرشد
كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على اهل كل بلد
ان يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وكل الرشد في عبادة الله تعالى ومعرفته
فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الى النار
كما كان يتقدمهم في الدنيا الى الضلال وكما تقدم قومه في الدنيا فادخلهم البحر واغرقهم فكذا يتقدمهم
في القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ فان قيل لم لم يقل يتقدم قومه فيوردهم النار بل
اتى بلفظ الماضي اجيب بانه انما اتى بلفظ الماضي مبالغة في تحققه ونزل النار له منزلة الماء فسمى
اتيانها موردا ولهذا قال تعالى وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ اى المورد هي لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد
الاكباد والنار ضده فان قيل لفظ النار مؤنث فكان مقتضى ذلك ان يقال وبئست الورد المورودة
اجيب بان لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتانيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت
المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن انث بنى على تانيث الدار وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ اى الدنيا لَعْنَةً
اى طردا وبعدا عن الرحمة وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ اى واتبعوا يوم القيامة لعنة اخرى فهم ملعونون في الدنيا
والآخرة ونظيره قوله تعالى في سورة القصص واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين
بِئْسَ الرِّفْدُ اى العون الْمَرْفُودُ رفدهم سأل نافع بن الازرق ابن عباس عن ذلك فقال هو اللعنة

بعد اللعنة وقال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء
جعلته عونا لشيء فقد رفدته به وسميت اللعنة عونا لانها اذا تبعتهم في الدنيا ابعدتهم عن الرحمة
ثم اعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا اي عونا بهذا المعنى على التهكم كقول القائل تحية بينهم
ضرب وجيع . وسميت معانا لانها اردفت في الآخرة بلعنة اخرى ليكونا هاديين الى طريق الجحيم
ولما ذكر تعالى قصص الاولين قال تعالى ذلك اي المذكور وهو مبتدأ خبره من انباء القرى اي اخبار
اهل القرى وهم الامم السالفة في القرون الماضية وقوله تعالى نقصه عليك اي نخبرك به يا محمد خبرا
بعد خبر وفائدة ذكر هذه القصص على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع ان المؤمن يخرج
من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة وان الكافر يخرج مع اللعنة في الدنيا
والعقاب في الآخرة واذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع ازدادت ولان بها القلب وتخشع
النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال وفي اخباره صلى الله
عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تعلم دلالة على نبوته فان ذلك لا يكون الا بوحي
من الله تعالى منها اي القرى قائم اي باق كالزرع القائم هلك اهله دونه ومنها حصيد اي عافي الاثر
كالزرع المحصود هلك مع اهله وما ظلمناهم اي باهلاكهم بغير ذنب ولكن ظلموا انفسهم بالكفر
والمعاصي وقال ابن عباس يريد وما نقصناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ انفسهم
حيث استخفوا بحقوق الله تعالى فما اغنت اي دفعت عنهم آلهتهم اي اصنامهم التي يدعون
اي يعبدون من دون الله اي غيره من شيء اي شيئا من مزيد لما جاء امر ربك اي عقابه
وما زادوهم بعبادتهم غير تتبيب اي غير تخسير وقيل تدمير ولما اخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه
وسلم في كتابه بما فعله بامم من تقدم من الانبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل وما ورد
عليهم من عذاب الاستئصال وبين انهم ظلموا انفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال تعالى بعده
وكذلك اي ومثل ذلك الاخذ العظيم اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي اي القرى ظالمة والمراد
اهلها ونظيره قوله تعالى وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية
كانت ظالمة فبين تعالى ان عذابه ليس مقصورا على من تقدم بل الحال في حق كل الظالمين يكون
كذلك ولما بين تعالى كيفية اخذ الامم المتقدمة ثم بين تعالى انه انما يأخذ جميع الظالمين
على ذلك الوجه اتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية بقوله تعالى ان اخذه اليم شديد
اي صعب مفتت القوى وعن ابي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال ان الله تعالى ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى
وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد وفي هذه الآية الكريمة والحديث الشريف دلالة على ان من اقدم
على ظلم فانه يجب ان يتداركه بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى اهلها ان كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا
الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية حكم مختص بظالمي الامم الماضية بل هو عام

في كل ظالم وبعضه وهو الحديث ان في ذلك اي ما ذكر من عذاب الامم الماضية واهلاكهم لآية
اي لعبرة وموعظة لمن خاف عذاب يوم القيامة الآخرة لانه ينظر ما احل الله تعالى بالمجرمين في الدنيا
وما هو الا انموذج لما اعد لهم في الآخرة فاذا راى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له
عبرة وعظة ولطفا في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى وقوله ذلك اشارة الى يوم القيامة
لان عذاب الآخرة دل عليه يوم مجموع له اي فيه الناس اي ان خلق الاولين والآخرين كلهم
يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون ثم وصفه تعالى بوصف آخر بقوله تعالى وذلك يوم مشهود
اي يشهده اهل السموات واهل الارض وما نؤخره اي ذلك اليوم وهو يوم القيامة الا لاجل
اي وقت معدود اي معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه الا الله تعالى يوم يأت ذلك اليوم لا تكلم
فيه حذف احدى التاءين اي لا تتكلم نفس الا باذنه تعالى وقرأ نافع وابو عمرو والكسائي باثبات
الياء بعد التاء من يأتي وصلا ووقفا وحذفها الباقون واما التاء من تكلم فشددها البزي في الوصل
وخففها الباقون فان قيل كيف يوفق بين قوله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله تعالى
هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون اجيب بان ذلك اليوم يوم طويل له مواقف
ومواطن ففي بعضها يجادلون عن انفسهم وفي بعضها يكفون عن الكلام ولا يؤذن لهم وفي بعضها
يؤذن لهم فيتكلمون وفي بعضها يختم على افواههم وتتكلم ايديهم وتشهد ارجلهم فمنهم اي الناس
شقي ومنهم سعيد اي فمنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ومنهم
من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد وعن علي رضي الله تعالى عنه قال كنا في
جنازة في بقيع الغرقد فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة فنكس فجعل
ينكت بها الارض ساعة ثم قال ما من نفس منفوسة الا قد كتب مكانها من الجنة او النار فقالوا
يا رسول الله افلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل السعادة
فسيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير لعمل اهل الشقاوة ثم قرأ
فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية وبقيع الغرقد هو مقبرة اهل المدينة الشريفة
ومدفنهم فيه والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة
من فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة او باليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه فاما الذين شقوا في علمه تعالى
ففي النار لهم فيها زفير وهو صوت شديد وشهيق وهو صوت ضعيف وقيل الزفير اخراج النفس والشهيق ردّه
وقيل الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار اذا ردده في صدره
وقيل الزفير في الحلق والشهيق في الصدر وعلى كل المراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم
خالدين فيها وقوله تعالى ما دامت السموات والارض فيه وجهان احدهما سموات الآخرة وارضها
وهي مخلوقة دائمة للابد والدليل على ان لها سموات وارضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض
والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ولانه لا بد لاهل الآخرة مما

يقلهم ويظلهم اما سماء يخلقها الله تعالى او يظلهم العرش وكل ما اظلك فهو سماء وكل ما استقر
قدمك عليه فهو ارض والوجه الثاني ان المراد مدة دوامهما في الدنيا الا اي غير ما شاء ربك
من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له وذلك هو الخلود فيها ابدا إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ من غير
اعتراض وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ
رَبُّكَ كما تقدم ودل عليه قوله تعالى عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ اي مقطوع وقيل الاستثناء في اهل
الشقاوة يرجع الى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون
ذلك استثناء وذلك كاف في صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض ومن غير
الجنس لان الذين اخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء المروي عن
جابر انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بالشفاعة وفي رواية ان الله تعالى يخرج ما شاء من النار
فيدخلهم الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال ليصيبن قوما سفع من النار بذنوب اصابوها
عقوبة ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة
محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ليأتين على جهنم
يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها احد اي من اهل الكبائر من امة محمد صلى الله عليه وسلم بان تخلى
طبقتهم التي كانوا فيها وان نازع في ذلك الزمخشري على مذهبه الفاسد من ان اهل الكبائر يخلدون
في النار واما الاستثناء في اهل السعادة فيرجع الى مدة لبثهم في النار قبل دخولهم الجنة او ان الاستثناء
راجع الى الفريقين فانهم مفارقون للجنة ايام عذابهم وان التأبيد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء
كما ينتقض باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله
تعالى فمنهم شقي وسعيد تقسيما صحيحا لان شرطه ان تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه لان ذلك
الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي او مانع من الجمع من الجنة والنار مدة تعميرهم في الدنيا
واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل اهل الجنة
الجنة واهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه لو شاء ربك
لاخرجهم منها ولكنه لا يشاء لانه تعالى حكم لهم بالخلود وقال الفراء وهذا الاستثناء استثناه الله تعالى
ولا يفعله كقولك والله لاضربنك الا ان ارى غير ذلك وعزيمتك ان تضربه وقال اهل المعاني هذه
عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا اتيك ما دامت السموات والارض ولا يكون كذا ما اختلف
الليل والنهار يعنون ابدا وقيل ان اهل النار ينقلون منها الى الزمهرير وغيره من العذاب احيانا
وكذلك اهل الجنة ينعمون بما هو اعلى من الجنة وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه كما قال تعالى
وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة
في جنات عدن ورضوان من الله اكبر وقرأ حفص وحمزة والكسائي سعدوا بضم السين على
البناء للمفعول من سعده الله بمعنى اسعده والباقون بفتحها وعطاء نصب على المصدر المؤكد اي

اعطوا عطاء او الحال من الجنة ولما شرح الله تعالى اقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه باحوال الاشقياء
واحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم احوال الكفار من قومه فقال فَلَا تَكُ يا محمد فِي مِرْيَةٍ
اى شك مِمَّا يَعْبُدُ هٰؤُلَاءِ المشركون من الاصنام انا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبي صلى الله
عليه وسلم مَا يَعْبُدُونَ اِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ اى كعبادة آبائهم من قبل وقد عذبناهم وَاِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ
اى حظهم من العذاب غَيْرَ مَنْقُوصٍ اى كاملا غير ناقص ولما ذكر تعالى فى هذه الآية اعراضهم عن ع ٩
الاتباع مع ما اتى به من المعجزات وانزل عليه من الكتاب سلاه باخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ اى التورية الجامعة للخير فَاخْتُلِفَ فِيهِ اى الكتاب فآمن به قوم وكفر به
قوم كما اختلف هؤلاء فى القرآن وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ بتاخير الحساب والجزاء للخلائق الى
يوم القيامة لَقُضِيَ اى لوقع القضاء بَيْنَهُمْ اى بين من اختلف فى كتاب موسى فى الدنيا فيما اختلفوا
فيه بانزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ولكن سبقت الكلمة ان القضاء الكامل انما يكون يوم القيامة
كما قال تعالى فى سورة يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الآية ولما كان الاختلاف قد يكون
بغير الكفر بين تعالى انه به لان كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وتعللها فعل الشاك فقال تعالى
مؤكدا وَاِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ اى عظيم محيط بهم مِنْهُ اى من الكتاب والقضاء مُرِيبٍ اى موقع فى الريب
والتهمة والاضطراب مع ما راوا من الآيات التى منها سماع كلام الله تعالى ورؤية ما كان يتجلى فى
جبل الطور من خوارق الاحوال وقيل الضمير فى وانهم راجع لكفار مكة وفى منه للقرآن وَاِنَّ كُلًّا
اى كل الخلائق وقوله تعالى لَمَّا ما زائدة واللام موطئة لقسم مقدر تقديره والله لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ اَعْمَالَهُمْ
فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار وقرأ نافع وابن كثير و
شعبة بتخفيف وان والباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون
بالتخفيف + فائدة + قال بعض الفضلاء انه تعالى لما اخبر عن توفية الاجزية على المستحقين
فى هذه الآية ذكر فيها سبعة انواع من التاكيدات اولها كلمة ان وهى للتاكيد وثانيها لفظة كل وهى
ام الباب فى التاكيد وثالثها اللام الداخلة على خبر ان تفيد التاكيد ايضا ورابعها حرف ما اذا جعلناها
على قول الفراء موصولا وخامسها المضمر وسادسها اللام الثانية الداخلة على جواب القسم وسابعها
النون المذكورة فى قوله تعالى ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد فى هذه الكلمة
الواحدة تدل على ان امر الربوبية والعبودية لا يتم الا بالبعث والقيامة وامر الحشر والنشر ثم
اردفه بقوله تعالى اِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ وهو من اعظم المؤكدات فانه تعالى لا يخفى عليه شئ من اعمال
عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين الكافرين ولما بين تعالى امر الوعد والوعيد قال
لنبيه صلى الله عليه وسلم فَاسْتَقِمْ اى على دين ربك والعمل والدعاء اليه كَمَا اُمِرْتَ والامر
فى ذلك للتاكيد فانه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم
حتى اتيك اى دم على ما انت عليه من القيام حتى اتيك وتوطئة لقوله تعالى وَمَنْ تَابَ مَعَكَ

اى وليستقم ايضا على دين الله والعمل بطاعته من امن معك قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الاستقامة ان تستقيم على الامر والنهى ولا تروغ عنه روغان الثعلب واشار صلى الله عليه وسلم الى شدة الاستقامة بقوله شيبتنى هود واخواتها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم اية اشد ولا اشق من هذه الاية وعن بعضهم رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له يروى عنك انك قلت شيبتنى هود فقال نعم فقلت باى اية قال قوله تعالى فاستقم كما امرت وعن سفيان ابن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا اسال عنه احدا غيرك قال قل امنت بالله ورسوله ثم استقم قال الامام الرازى ان هذه الاية اصل عظيم فى الشريعة وذلك لان القران لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى فاستقم كما امرت ولما ورد الامر فى الزكوة باداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول فى كل ما ورد امر الله تعالى به انتهى ولما كانت الاستقامة هى التوسط بين طرفى الافراط والتفريط نهى عن الافراط بقوله تعالى ولا تطغوا اى لا تتجاوزوا الحد فيما امرتم به او نهيتم عنه بالزيادة افراطا فان الله تعالى انما امركم ونهاكم لتهذيب انفسكم لا لحاجة الى ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا الله حق قدره والدين متين لم يشاده احد الا غلبه كما ورد عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة فقوله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر ضد العسر اراد به التسهيل فى الدين وترك التشديد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فلن يغالب ولن يقاوى وقوله وسددوا اى اقصدوا السداد فى الامور وهو الصواب وقاربوا اى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشاء والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل ايضا وقوله واستعينوا بشئ من الدلجة اشارة الى تقليله ولما نهى تعالى عن الافراط وهو الزيادة تصريحا افهم النهى عن التفريط وهو النقص عن المامور تلويحا من باب اولى ثم علل ذلك مؤكدا تنزيلا لمن يفرط او يفرط منزلة المنكر فقال انه بما تعملون بصير اى عالم باعمالكم كلها لا يخفى عليه شئ منها فيجازيكم عليها ولا تركنوا اى تميلوا الى الذين ظلموا ادنى ميل فتمسكم النار اى تصيبكم بحرها والنهى متناول للانحطاط فى هواهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا باعمالهم والتشبه بهم والتزيى بزيهم ومد العين الى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم وتامل قوله تعالى ولا تركنوا فان الركون هو الميل اليسير وحكى ان الموفق صلى خلف الامام فقرا بهذه الاية فغشى عليه فلما افاق قيل له فى ذلك فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم ولما خالط الزهرى السلاطين كتب اليه اخ له فى الدين عافانا الله واياك ابا بكر من الفتن فقد اصبحت بحال ينبغى لمن عرفك ان يدعو الله لك ويرحمك اصبحت شيخا كبيرا وقد اثقلتك نعم الله تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه

وليس كذلك اخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه وتعالى لتبيننه للناس ولا تكتمونه واعلم
ان ايسر ما ارتكبت واخف ما احتملت انك انست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن
لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين ادناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم وجسرا يعبرون
عليك الى بلائهم وسلما يصعدون فيك الى ضلالهم يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك
قلوب الجهلاء فما ايسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك وما اكثر ما اخذوا منك فيما افسدوا عليك
من دينك فما يؤمنك ان تكون ممن قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلوة واتبعوا
الشهوات فسوف يلقون غيا فانك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك
فقد دخله سقم وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء
والسلام وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعي ما من شيء ابغض
الى الله تعالى من عالم يزور عاملا اي من الظلمة وعن محمد بن سلمة الذباب على العذرة احسن من قارئ
على باب هؤلاء وقال صلى الله عليه وسلم من دعا للظالم بالبقاء فقد احب ان يعصى الله في ارضه ولقد سئل
سفيان عن ظالم اشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت فقال دعه يموت
وقوله تعالى وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ اي اعوانا وانصارا يمنعونكم من عذابه
حال من قوله فتمسكم النار اي فتمسكم النار وانتم على هذه الحالة ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ اي لا تجدون من ينصركم
ويخلصكم من عذاب الله في القيامة ففي هذه الآية وعيد لمن ركن الى الظلمة بان تمسه النار فكيف
يكون حال الظالم في نفسه ولما امر تعالى بالاستقامة اردفه بالامر بالصلوة بقوله تعالى وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ
وذلك يدل على ان اعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى هو الصلوة وقوله تعالى طَرَفَيِ النَّهَارِ
الغداة والعشي اي الصبح والظهر والعصر وقوله تعالى وَزُلَفًا جمع زلفة اي طائفة مِّنَ اللَّيْلِ اي
المغرب والعشاء إِنَّ الْحَسَنَاتِ كالصلوات الخمس يُذْهِبْنَ اي يكفرن السَّيِّئَاتِ اي الذنوب
الصغائر لما رواه مسلم انه صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن
ما اجتنبت الكبائر وزاد في رواية اخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر
وعن ابي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ارأيتم لو ان نهرا بباب
احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يا رسول الله لا يبقى
من درنه شيء فقال ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا وعن جابر قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات
وعن الحسن ان الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وسبب
نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن ابي اليسر بن عمرو قال اتتني امرأة وزوجها بعثه النبي صلى الله عليه
وسلم في بعث فقالت بعني بدرهم تمرا قال فاعجبتني فقلت ان في البيت تمرا هو اطيب من هذا فالحقيني
فدخلت معي البيت فاهويت اليها فقبلتها فاتيت ابا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك

وتب ولا تخبر احدا فاتيت عمر فذكرت له ذلك فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر احدا فاتيت النبي
صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال اخنت رجلا غازيا في سبيل الله في اهله بمثل هذا حتى تمنى انه
لم يكن اسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من اهل النار واطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا
حتى اوحى اليه واقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل الى قوله تعالى ذلك ذكرى للذاكرين اى عظة
للمتقين قال ابو اليسر فاتيته فقرأها علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم الهذا خاصة ام للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذي هذا حديث حسن
غريب وعن عبد الله بن مسعود ان رجلا اصاب من امرأة قبلة فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك
له فنزلت فقال رجل يا رسول الله الهذا خاصة فقال بل للناس كافة وعن معاذ بن جبل قال اتى النبي صلى الله
عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله ارأيت رجلا لقي امرأة ليس بينهما معرفة فليس يأتي الرجل الى امرأة
شيئا الا قد اتى هو اليها الا انه لم يجامعها قال فانزل الله تعالى هذه الآية وامره النبي صلى الله عليه وسلم
ان يتوضأ ويصلي فقال معاذ بن جبل فقلت يا رسول الله اهي له خاصة ام للمؤمنين عامة قال بل للمؤمنين
عامة قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحة مثل الصلوة والصدقة والذكر
والاستغفار ونحو ذلك من اعمال البر واما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث
شرائط الاول الاقلاع عن الذنب بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث العزم التام على ان لا يعود اليه
في المستقبل فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى والاشارة
في قوله تعالى ذلك ذكرى الى ما تقدم ذكره من قوله تعالى فاستقم كما امرت الى ههنا وقيل هو اشارة
الى القرآن وقوله تعالى واصبر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي واصبر يا محمد على اذى قومك
او على الصلوة وهو قوله تعالى وامر اهلك بالصلوة واصطبر عليها فان الله لا يضيع اجر المحسنين
اي اجر اعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على ان الصلوة والصبر احسان
وايماء بانه لا يعتد بهما دون الاخلاص ولما بين تعالى ان الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال
بين ان السبب فيه امران السبب الاول انه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الارض فقال تعالى
فلولا اي فهلا كان من القرون اي من الامم الماضية من قبلكم اولو بقية اي اصحاب راي وخير و
فضل ينهون عن الفساد في الارض وسمي الفضل والجودة بقية لان الرجل يستبقي مما يخرجه اجوده
وافضله فصار مثلا في الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم اي من خيارهم وبه فسر
بيت الحماسة * ان تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم * ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ويجوز ان تكون
البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى اي فهلا كان منهم ذوو بقاء على انفسهم وصيانة لها من
سخط الله تعالى وعقابه * فائدة * حكي عن الخليل انه قال كل ما في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التي
في الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات لولا ان تداركه
نعمة من ربه ولولا رجال مؤمنون ولولا ان ثبتناك انتهى وقوله تعالى الا قليلا ممن انجينا منهم

استثناء منقطع معناه ولكن قليلا ممن انجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي السبب الثاني لنزول عذاب الاستيصال قوله تعالى واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه اي ما نعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل اسبابها واعرضوا عما وراء ذلك وكانوا مجرمين اي كافرين * تنبيه * قوله تعالى واتبع الذين ظلموا ان كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر لان المعنى الا قليلا ممن انجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا وان كان معناه واتبعوا جزاء الاتراف فالواو للحال فكانه قيل انجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم وقوله تعالى وكانوا مجرمين عطف على اترفوا اي اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام او على اتبعوا اي اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك ثم بين تعالى انه ما اهلك اهل القرى بظلم بقوله تعالى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم اي بشرك واهلها مصلحون فيما بينهم والمعنى انه لا يهلك اهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحال ان عذاب الاستيصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين الشرك بل انما ينزل ذلك العذاب اذا اساؤا في المعاملات وسعوا في الايذاء والظلم ولهذا قيل ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال في الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستيصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة اي اهل ملة واحدة وهي الاسلام كقوله تعالى ان هذه امتكم امة واحدة وفي هذه الآية دليل على ان الامر غير الارادة وانه تعالى لم يرد الايمان من كل احد وان ما اراده يجب وقوعه والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار ولهذا قال الزمخشري يعني لاضطرهم الى ان يكونوا اهل ملة واحدة ولا يزالون مختلفين اي على اديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل اهل دين من هذه الاديان اختلفوا في دينهم ايضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة وفي رواية الا ان من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة والمراد بهذه الفرق اهل البدع والاهواء كالقدرية والمعتزلة والرافضة والمراد بالواحدة هي ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في اقواله وافعاله فان قيل ما الدليل على ان الاختلاف في الاديان فلم لا يجوز ان يحمل على الاختلاف في الالوان والالسنة والارزاق والاعمال اجيب بان الدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من ان يكونوا امة واحدة وما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى الا من رحم ربك اي اراد لهم الخير فلا يختلفون فيه فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح ان يستثنى منه ذلك وفي هذه الآية دلالة على ان الهداية والايمان لا تحصل الا بتخليق الله تعالى

لان تلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار فلم يبق الا ان يقال تلك الرحمة هو انه سبحانه وتعالى خلق فيهم تلك الهداية والمعرفة وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ اى خلق اهل الاختلاف للاختلاف وخلق اهل الرحمة للرحمة روى ابن عباس انه قال خلق الله اهل الرحمة لئلا يختلفوا وخلق اهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها اهلا وخلق النار وخلق لها اهلا والحاصل ان الله تعالى خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق اهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم اهل الباطل ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم اهل الحق ومصيرهم الى الجنة ويدل لذلك قوله تعالى وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ وهى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ اى الجن وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ وهذا صريح بان الله تعالى خلق اقواما للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال اهل الجنة وخلق اقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر نوعين من الفائدة اولهما تثبيت الفؤاد بقوله تعالى وَكُلًّا اى وكل نبأ نَقُصُّ عَلَيْكَ وقوله تعالى مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ اى نخبرك به بيان لكل وقوله تعالى مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ بدل من كلا ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وطمانينة قلبه وثبات نفسه على اداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا راى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت واذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وامكنه الصبر عليه الفائدة الثانية قوله تعالى وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ اى فى السورة وعليه الاكثر او فى هذه الانباء المقتصة فيها وقال الحسن فى هذه الدنيا قال الرازى وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليها فان قيل قد جاءه الحق فى غير هذه السورة بل القرآن كله حق وصدق اجيب بانه انما خصها بالذكر تشريفا لها وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك دون غيرهم من الكفار فذكر تعالى امورا ثلاثة الحق والموعظة والذكرى اما الحق فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد واما الموعظة فهى اشارة الى التنفير عن الدنيا وتقبيح احوالها واما الذكرى فهى اشارة الى الارشاد الى الاعمال النافذة الصالحة فى الدار الآخرة ولما بلغ تعالى الغاية فى الانذار والاعذار والترغيب والترهيب اتبع ذلك بان قال لرسوله صلى الله عليه وسلم وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ اى حالتكم وفيه وعيد وتهديد وان كانت صيغته صيغة الامر فهو كقوله تعالى لابليس وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وقرأ شعبة بعد النون بالف على الجمع والباقون بغير الف على الافراد إِنَّا عَامِلُونَ اى على حالتنا التى امرنا بها ربنا وَانْتَظِرُوا اى ما يعدكم الشيطان به من الخذلان إِنَّا مُنْتَظِرُونَ اى ما يحل بكم من نقمة الله تعالى وعذابه نحو ما نزل على امثالكم وقيل انا منتظرون ما وعدنا

الوحي من انواع القران والاحسان ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة
المقدسة فقال وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اى علم ما غاب فيهما فعلمه سبحانه وتعالى نافذ
في جميع المعلومات خفيها وجليها وَإِلَيْهِ اى لا الى غيره يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ اى اليه يرجع امر الخلق كله
في الدنيا والآخرة وقرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول والباقون بفتح
الياء وكسر الجيم ولما كان اول درجات السير الى الله تعالى عبوديته وآخرها التوكل عليه
قال تعالى فَاعْبُدْهُ اى ولا تشتغل بعبادة غيره وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ اى ثق به في جميع امورك فانه كافيك
١٠ ع وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فيجازيك على الجميع وانما هم لا يخفى عليه شيء منها فيجزي المحسن باحسانه
والمسيء باساءته وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة فائدة
قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن
كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء حديث موضوع

سورة يوسف عليه السلام مكية كلها

مائة واحدى عشرة آية وعدد كلماتها الف وستمائة وست وسبعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا
بِسْمِ اللَّهِ الذي وسع كل شيء قدرة وعلما الرَّحْمَنِ بجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى الرَّحِيمِ الذي خص
حزبه بالابعاد عن طرق الردى وقوله تعالى الر تقدم الكلام على اوائل السور اول سورة البقرة
وقرأ ورش بالامالة بين بين وابو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالامالة محضة والباقون
بالفتح واختلف في سبب نزول هذه السورة فعن سعيد بن جبير انه قال لما انزل القرآن على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فكان يتلوه على قومه فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة
فتلاها عليهم فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ
فقالوا لو ذكرتنا فنزل أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وعن ابن عباس انه قال سألت
اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن امر يعقوب وولده وشأن يوسف فنزلت
هذه السورة وقوله تعالى تِلْكَ اشارة الى آيات هذه السورة اي تلك الآيات التي انزلت اليك
في هذه السورة المسماة بالر هي آيَاتُ الْكِتَابِ اى القرآن الْمُبِينِ اى البين فيه الهدى
والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل الذي ثبت فيه قصص الاولين والآخرين
وشرحت فيه احوال المتقدمين إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ اى الكتاب قُرْآنًا عَرَبِيًّا اى بلغة العرب لكي يعلموا معانيه
ويفهموا ما فيه روي ان علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين اسألوا محمدا لم انتقل آل يعقوب
من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فانزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها انه تعالى
عبر عن هذه القصة بالفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير انا انزلنا هذا الكتاب الذي فيه
قصة يوسف حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض

لعلكم يا أهل مكة تعقلون أي إرادة أن تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه قرآنا أعجميا
لقالوا لولا فصلت آياته واختلف العلماء هل في القرآن شيء بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم
أن في القرآن لسانا غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية إنا أنزلناه قرآنا عربيا وروي
عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن فيه من غير لسان العرب مثل سجيل والمشكاة واليم والإستبرق
وجمع بعض المفسرين بين القولين بأن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم
صارت عربية فصيحة وإن كانت غير عربية في الأصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم وصارت
لهم لغة وهو جمع حسن نحن نقص عليك أحسن القصص أي أحسن الاقتصاص لأنه اقتص على أبدع
الأساليب والقصص اتباع الخبر بعضه بعضا وأصله في اللغة من قص الأثر إذا اتبعه وإنما سميت
الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا والمعنى إنا نبين لك يا محمد
أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان أو المراد قصة يوسف خاصة
وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا
وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على إيذاء الأعداء وحسن
التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك قال خالد بن معدان سورة يوسف ومريم يتفكه فيهما
أهل الجنة في الجنة وقال ابن عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها بما أي بسبب
ما أوحينا أي بإيحائنا إليك هذا القرآن [illegible] وقالوا فيه إنه القرآن فمعنى تتابع القصص
القصة بعد القصة حتى لا يشك سامعه أنه من عند الله وإن أي وإنك كنت من قبله أي
إيحائنا إليك أو هذا القرآن لمن الغافلين عن قصة يوسف وإخوته لأنه صلى الله عليه وسلم
إنما علم ذلك بالوحي وقيل لمن الغافلين عن الدين والشريعة وإن هي المخففة من الثقيلة واللام
هي الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى إذ قال يوسف بدل من أحسن القصص أو منصوب
بإضمار اذكر ويوسف اسم عبري وقيل عربي ورد بأنه لو كان عربيا لانصرف وسئل أبو الحسن
الأقطع عن يوسف فقال الأسف في اللغة الحزن والأسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به
وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم
يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لأبيه يعقوب يا أبت أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث
لتناسبهما في الزيادة ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر هاء في الوقف ووقف الباقون بالتاء
كالرسم في الوصل بالتاء المجرورة وفتح التاء في الوصل ابن عامر وكسرها الباقون إني رأيت
أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قال أهل التفسير رأى يوسف عليه الصلاة والسلام في منامه
وكان ابن اثنتي عشرة سنة وقيل ابن سبع عشرة وقيل سبع سنين ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر كأن
أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له ففسر الكواكب بإخوته
وكانوا أحد عشر يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس والقمر بأبيه وأمه وجعل الشمس للأم لأنها

مؤنثة والقمر للاب لانه مذكر والذي رواه البيضاوي تبعا للكشاف عن جابر ان يهوديا
قال للنبي صلى الله عليه وسلم اخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فاخبره باسمائها فقال
اليهودي اي والله انها لاسماؤها قال ابن الجوزي انه موضوع وقوله رأيتهم لي ساجدين
استيناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرار لان الرؤية الاولى تدل على انه شاهد الكواكب
والشمس والقمر والثانية تدل على انه شاهد كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال اني رأيت
احد عشر كوكبا والشمس والقمر قيل له كيف رأيت قال رأيتهم لي ساجدين وقال آخرون
يجوز ان يكون احدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين اي اللفظين يحمل على الرؤية
وايهما يحمل على الرؤيا قال الرازي فذكر قولا مجملا غير مبين فائدة فان قيل قوله رأيتهم وقوله لي
ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جاءت اللفظة المخصوصة بالعقلاء
في حق الجمادات اجيب بانها لما وصفت بالسجود صارت كانها تعقل واخبر عنها كما اخبر عمن يعقل
كما قال تعالى في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وكما في قوله تعالى يا ايها النمل
ادخلوا مساكنكم فان قيل لم افرد الشمس والقمر بالذكر مع انهما من جملة الكواكب اجيب بانه
افردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وهل
المراد بالسجود نفس السجود حقيقة او التواضع كلاهما محتمل والاصل في الكلام حمله على الحقيقة
قال اهل التفسير ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده
اخوته بهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها ان ابويه
واخوته يخضعون له وخاف عليه حسدهم وبغيهم قال له ابوه يا بني تصغير ابن صغره للشفقة
او لصغر سنه على ما تقدم وقرأ حفص في الوصل بفتح الياء والباقون بالكسر والتشديد
للجميع لا تقصص رؤياك على اخوتك اي لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك
كيدا اي فيحتالوا في هلاكك فان قيل لم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدوني اجيب بان هذه
اللام تاكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقوله نصحت لك ونصحتك وشكرت لك وشكرتك
وقيل صلة كقوله لربهم يرهبون ان الشيطان للانسان عدو مبين اي ظاهر العداوة
كما فعل بآدم وحواء فلا يألو جهدا في تسويلهم واثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد وعن
ابي قتادة قال كنت ارى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا
الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا رأى احدكم ما يحب فلا يحدث به الا من يحب واذا رأى
ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها فانها
لا تضره وعن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى احدكم الرؤيا
يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من
الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن ابي رزين العقيلي

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رؤيا المؤمن جزء من اربعين جزءا من النبوة وهي على رجل
طائر ما لم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال واحسبه قال ولا يحدث بها الا لبيبا او حبيبا
وانما اضيفت الرؤيا المحبوبة الى الله اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا
من خلق الله تعالى وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيهما لكنه يحضر المكروهة ويرتضيها
فيستحب اذا رأى الشخص في منامه ما يحب ان يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره
فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها وليتفل ثلاثا وليتحول عن جنبه الآخر
فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة
سببا لوقاية المال قال الحكماء ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما يظهر
تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فيه ان رحمة الله تعالى تقتضي ان لا يحصل الاعلام بوصول
الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم اقل واما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما
على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير اكثر واتم
ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام الا بعد اربعين سنة وهو قول اكثر المفسرين وقال الحسن
البصري كان بينهما ثمانون سنة حتى اجتمع عليه ابوه واخوته وخروا له ساجدين وكذلك
اي وكما اجتباك ربك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس
يجتبيك اي يختارك ويصطفيك ربك بالرياسات الدينية والاجتباء اصطفاء الله العبد بفيض
الهي يحصل منه انواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالانبياء وبعض من
يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين ويعلمك كلام مستأنف خارج عن التشبيه
والتقدير وهو يعلمك من تاويل الاحاديث اي من تاويل الرؤيا وغيرها من كتب الله
تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين وكان يوسف عليه السلام في تعبير الرؤيا وغيرها
غاية والتاويل ما يؤول اليه عاقبة الامر ويتم نعمته عليك بالنبوة قال ابن عباس لان منصب
النبوة اي وهو الرسالة اعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من تمام
النعمة عليهم لان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة فالكمال المطلق والتمام
المطلق في حق البشر ليس الا النبوة والرسالة وقيل يتم نعمته عليك بالخلاص من المحن ويحتمل ان يكون بسعادات
الدنيا وسعادات الآخرة اما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع
في المال والجاه والحشم والاجلال في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد واما سعادات الآخرة فالعلوم
الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى [illegible]
يقتضي حصول تمام النعمة [illegible] من النبوة والرسالة كما [illegible]
[illegible] كوكبا [illegible]
[illegible]

من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضى ان تكون جملة اولاد يعقوب انبياء ورسلا فان قيل
كيف يجوز ان يكونوا انبياء وقد اقدموا على ما اقدموا عليه فى حق يوسف عليه السلام اجيب
بان ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة من المعاصى انما تعتبر بعد النبوة لا قبلها على خلاف فيه
كما اتمها على ابويك بالنبوة والرسالة وقيل اتمام النعمة على ابراهيم عليه السلام خلاصه
من النار واتخاذه خليلا وعلى اسحق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح عظيم على قول ان
اسحق هو الذبيح من قبل اى من قبل هذا الزمان وقوله ابراهيم واسحق عطف بيان لابويك
ثم ابتدأ يعقوب عليه السلام للاهتمام بهذه البشارات العظيمة ختم الكلام بقوله ان ربك
عليم اى بليغ العلم حكيم اى بليغ الحكمة وهو وضع الاشياء فى اتقن مواضعها لقد كان فى خبر
يوسف واخوته وهم احد عشر يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبالون قال البقاعى وزاكر
ويشجر وامهم ليا بنت ليان وهى ابنة خال يعقوب وولد له من سريتين احداهما
زلفة والاخرى بلهة كذا قاله البغوى وقال الرازى والاخرى بلهة اربعة اولاد واسماؤهم دان ونفتالى
قال البقاعى بدون ... وجاد واشر ثم توفيت ليا فتزوج
باختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين ... فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا آيات اى علامات
ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته فى كل شئ للسائلين عن قصتهم قال الرازى وان لم يسأل
عنها وهو كقوله تعالى فى اربعة ايام سواء للسائلين وقيل آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك
ان اليهود سألوه عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من ارض كنعان
الى ارض مصر فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما فى التوراة فتعجبوا منه فكان ذلك دلالة على نبوته
صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء واصحاب الاخبار ولم ياخذ عنهم
شيئا فدل ذلك على ان ما اتى به وحى سماوى اوحاه الله تعالى اليه وعرفه به وهذه السورة تشتمل
على انواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيها ومنها حسد اخوته
وما آل اليه امره من الملك ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه
امره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التى اذا فكر فيها الانسان اعتبر وقرأ ابن كثير آية على التوحيد
والباقون على الجمع آيات واذكر اذ قالوا اى بعض اخوة يوسف لبعض بعد ان بلغتهم الرؤيا فقالوا ما نرى
ان يعبر له اخوته حتى يحسد له ليوسف واخوه اى شقيقه بنيامين احب الى ابينا منا اللام لام الابتداء
وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة ارادوا ان زيادة محبته لهما امر ثابت لا شبهة فيه ووحد احب
وهو خبر عن اثنين لان افعل التفضيل يستوى فيه الواحد وما فوقه مذكرا كان او مؤنثا اذا لم يعرف ولم يضف وقيل
اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا واخوه وهم جميعا اخوة لان امهما كانت واحدة وانما قالوا
ونحن عصبة والواو للحال اى يفضلهما فى المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية
ولا منفعة ونحن جماعة اقوياء نقوم بمرافقه فنحن احق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة

والمنفعة عليهما والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم
جماعة تعصب بهم الامور ويستكفى بهم النوائب انّ ابانا لفي ضلال اي خطأ مبين اي بين في ايثاره
حب يوسف واخيه علينا والقرب المقتضي للحب كائنا واحد لانا في النبوة سواء وانا مزية تقتضي
تفضيلنا وهي انا عصبة لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ما ليس لهما ❊ تنبيه ❊ ههنا سؤالات
الاول ان من المعلوم ان تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد فلم اقدم يعقوب
عليه السلام على ذلك اجيب بانه انما فضلهما في المحبة والمحبة ليست في وسع البشر فكان
معذورا فيها ولا يلحقه في ذلك لوم الثاني كيف اعترضوا على ابيهم وهم يعلمون انه نبي وهم
مؤمنون به واجيب بانهم وان كانوا مؤمنين بنبوته لكن جوزوا ان يكون فعله باجتهاد ثم ان
اجتهادهم ادى الى تخطئة ابيهم في ذلك الاجتهاد لكونهم اكبر سنا واكثر نفعا وغاب عنهم ان تفضيلهما
بالبركات لوجوه احدها ان امهما ماتت [illegible] ثانيها انه كان في يوسف من آثار الرشد والنجابة ما لم يجده
في سائر اولاده ثالثها انه وان كان صغيرا الا انه كان يخدم اباه بانواع من الخدم اعلى واشرف
مما كان يصدر عن سائر اولاده والحاصل ان هذه المسألة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس
وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها الطعن في احد الخصمين الثالث
انهم نسبوا اباهم الى الضلال وهو [illegible] مصالح الدنيا [illegible] عن طريق الرشد لا الضلال في الدين
الرابع ان قولهم ليوسف واخوه احب الى ابينا منا محض الحسد وهو من امهات الكبائر لا سيما وقد اقدموا
بسبب ذلك الحسد على امور مذمومة منها قولهم اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا اي بحيث يحصل اليأس
من اجتماعه بابيه ومنها القاؤه في ذل العبودية ومنها انهم بقوا اباهم في الحزن الدائم والاسف
العظيم ومنها اقدامهم على الكذب [illegible] واجيب بان ما تقدم من ذلك
كان قبل النبوة وقرأ نافع وابن كثير [illegible] في الوصل والباقون
بالكسر فان وقف القارئ على مبين [illegible] يخل لكم
وجه ابيكم جواب الامر اي يصف لكم وجه ابيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم الى غيركم
ولا ينازعكم في محبته احد وقولهم وتكونوا [illegible]
من بعده اي قتل يوسف او طرحه قوما صالحين بان تتوبوا الى الله تعالى بعد فعلكم فانه
يعفو عنكم وقال مقاتل يصلح امركم فيما بينكم وبين ابيكم قال قائل منهم [illegible]
رأيا فيه وهو الذي قال [illegible] لا تقتلوا يوسف والقوه
اي اطرحوه في غيابت الجب اي في [illegible]
قال القائل [illegible]
حفرته التي يدفن فيها والجب البئر الكبيرة [illegible] سميت جبا لانها قطعت
قطعا ولم يحصل فيها شيء غير القطع [illegible]

ان المشير اشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين قال بعض اهل العلم انهم عزموا
على قتله وعصمه الله تعالى رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا اجمعين واختلف في موضع ذلك الجب فقال
قتادة هو بيت المقدس وقال وهب هو بارض الاردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل
يعقوب وقرأ نافع بالف بين الباء والتاء على الجمع والباقون بغير الف على التوحيد يلتقطه
اي ياخذه بعض السيارة جمع سيار اي المبالغ في السير وذلك الجب كان معروفا يرد عليه
كثير من المسافرين فاذا اخذه ذهبوا به الى ناحية اخرى فتستريحوا منه ان كنتم فاعلين اي
ما اردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ولما اجمعوا على التفريق بين يوسف وابيه بضرب من الحيل
قالوا اعمالا للحيلة في الوصول اليه مستفهمين على وجه التعجب لانه كان احس منهم بالشر فكان
يحذرهم عليه يا ابانا ما لك لا تأمنا على يوسف والحال انا له لناصحون اي قائمون بمصالحه وحفظه
وتنبيه واتفق القراء على اخفاء النون الساكنة عند النون المتحركة واتفقوا ايضا على ادغامها مع
الاشمام ارسله معنا غدا اي الى الصحراء يرتع اي يتسع في اكل الفواكه ونحوها واصل الرتع اكل
البهائم في الخصب في زمن الربيع ويستعار للانسان اذا اريد به الاكل الكثير ويلعب
روي انه قيل لابي عمرو كيف يقولون ونلعب وهم انبياء فقال لم يكونوا يومئذ انبياء وايضا جاز ان
يكون المراد باللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روي انه صلى الله عليه وسلم
قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وايضا كان لعبهم الاستباق والانتضال والغرض منه
المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورته
وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بالنون فيهما والباقون بالياء وسكن العين ابو عمرو وابن عامر
وعاصم وحمزة والكسائي وكسرها الباقون وقرأ قنبل بخلاف عنه وجه اخر وهو انه يثبت الياء في نرتع
بعد العين وقفا ووصلا وانا له لحافظون اي يحفظونه من المخاطر حتى نرده اليك سالما قال
ابو حيان وانتصب غدا على الظرف وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك وعلى
الزمن المستقبل من غير تقييد واصل غد غدو فحذفت الواو انتهى ثم ان يعقوب عليه
السلام اعتذر لهم بعذرين الاول ما حكاه الله تعالى عنه بقوله قال اني ليحزنني ان تذهبوا به
اي ذهابكم به والحزن هنا الم القلب بفراق المحبوب لانه كان لا يقدر ان يصبر عنه ساعة وقرأ نافع
بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي والثاني قوله واخاف ان ياكله الذئب وانتم عنه غافلون
باللهو واللعب او لقلة اهتمامكم به وكان يعقوب عليه السلام رأى في النوم ان الذئب شد
على يوسف فكان يحذره فمن اجل هذا ذكر ذلك وكانه لقنهم العلة وفي امثال العرب البلاء موكل
بالمنطق والمراد به الجنس وكانت ارضهم كثيرة الذئاب قالوا مجيبين عن الثاني بما يليق باب لا يسلاه
مؤكدين لتطييب خاطره واليمين على القسم بلام لئن اكله الذئب ونحن اي والحال انا عصبة اي جماعة
عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب واجابوا عن القسم بما اغنى عن جواب الشرط

[illegible] أي إذا كان [illegible] في الشدة [illegible]
[illegible] الأول [illegible] كان بسبب [illegible]
الأول وهو [illegible]
[illegible]
[illegible] وقوله تعالى [illegible]
[illegible]
أي [illegible] أهل [illegible] حذف الجواب في القرآن كثير
[illegible] أهل [illegible]
أخي يوسف قالوا والله [illegible] قال إنما [illegible]
[illegible] قال يوسف [illegible]
[illegible] فقال يعقوب [illegible]
[illegible] يعقوب عليه السلام [illegible]
[illegible]
[illegible]
القول [illegible]
[illegible] يوسف [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] فقال له [illegible]
[illegible]
[illegible]
فقال يا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
إبراهيم عليه السلام [illegible] عليه السلام [illegible]
الجنة [illegible] إبراهيم عليه السلام [illegible] يعقوب [illegible]

في تميمة علقتها بيوسف فاخرجها جبريل والبسه اياها لَتُنَبِّئَنَّهُمْ اي لتخبرنهم بعد هذا اليوم
بِأَمْرِهِمْ اي بصنعهم هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ اي انك يوسف لعلو شأنك وبعده عن اوهامهم
وطول العهد المغير للهيآت كما قال تعالى فعرفهم وهم له منكرون والمقصود من ذلك تقوية
قلبه وانه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصيرون مستوليا عليهم ويصيرون تحت امره ونهيه
وقهره روى انهم لما دخلوا عليه لطلب الحنطة عرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على
يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم اخ من ابيكم يقال له يوسف فطرحتموه وقلتم
لابيكم اكله الذئب وقيل لا يشعرون بايحائنا اليك وانت في البئر بانك ستخبرهم بصنيعهم هذا
والفائدة في اخفاء ذلك الوحي عنهم انهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله
وقيل ان المراد من هذا الوحي الالهام كما في قوله تعالى واوحينا الى ام موسى وقوله تعالى واوحى
ربك الى النحل ولما كان من المعلوم انه ليس بعد هذا الفعل الذي فعلوه الا الاعتذار وَجَاءُوا أَبَاهُمْ
دون يوسف عِشَاءً في ظلمة الليل لئلا يتفرس ابوهم في وجوههم اذا راهم في ضياء النهار
ضد ما جاؤا به من الاعتذار وقد قيل لا تطلب الحاجة في الليل فان الحياء في العينين
ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار يَبْكُونَ والبكاء جريان الدمع من العين
والاية تدل على انه لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع روى ان امرأة حاكمت الى شريح فبكت
فقال الشعبي يا ابا امية اما تراها تبكي فقال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي
للانسان ان يقضي الا بالحق فلما سمع ذلك فزع يعقوب عليه السلام فقال هل اصابكم في غنمكم
شيء قالوا لا قال فما فعل يوسف قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ قال الزجاج يسابق بعضنا بعضا في الرمي
ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف او نصل او حافر يعني بالنصل الرمي وقيل
العدو لنتبين اينا اسرع عدوا وَتَرَكْنَا يُوسُفَ اخانا عِنْدَ مَتَاعِنَا اي ما كان معنا مما نحتاج اليه
في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك فَأَكَلَهُ اي فتسبب عن انفراده ان اكله الذِّئْبُ وَمَا
ثلثة اي والحال انك مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ اي بمصدق لما علموا انه لا يصدقهم بغير امارة لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ
في هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وانت تسيء الظن بنا وقيل لا تصدقنا لانه لا دليل لنا
على صدقنا وان كنا صادقين عند الله تعالى ولما علموا انه لا يصدقهم بغير امارة جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ
اي يوسف عليه السلام بِدَمٍ كَذِبٍ قال الفراء اي مكذوب فيه الا انه وصفه بالمصدر وعلى
تقدير ذي كذب او مكذوب اطلق على المصدر مبالغة لانه غير مطابق للواقع لانهم ادعوا انه دم يوسف
عليه السلام والواقع انه دم سخلة ذبحوها ولطخوا القميص بذلك الدم قال القاضي ولعل غرضهم
في نزع قميصه عند القائه في غيابة الجب ان يفعلوا هذا توكيد الصدق فهم اخذوا ان يفعلوا ذلك
طمعا في نفس القميص ولابد في المعصية من ان يقترن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم
لكان الاتهام اقوى فلما شاهد يعقوب عليه السلام القميص صحيحا علم كذبهم وروى انه

يعقوب عليه السلام اخذ القميص منهم والقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص
وقال تالله ما رايت كاليوم ذئبا احلم من هذا اكل ابني ولم يمزق قميصه ✦ تنبيه ✦ على قميصه محله النصب
على الظرفية كانه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاؤا على جماله باحماله ولا يصح ان يكون حالا منه
لان حال المجرور لا يتقدم عليه قال الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك انهم لما القوه في الجب
نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على ابيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل
ولما اتى بقميصه الى يعقوب والقي على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى ان اخوة يوسف لما ذكروا ذلك
الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام بل سولت اي زينت
لكم انفسكم امرا ففعلتموه به واختلف في السبب الذي عرف به كونهم كاذبين على وجوه الاول انه كان يعرف
الحسد الشديد في قلوبهم الثاني كان عالما بانه حي لانه عليه السلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك
ربك وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول الثالث انه لما راى قميصه صحيحا قال كذبتم لو اكله الذئب
لخرق ثوبه وقيل انه لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه
وهم الى قميصه احوج منهم الى قتله فلما اختلفت اقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم وقوله فصبر جميل
مرفوع بالابتداء لكونه موصوفا وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل اولى من الجزع ومنهم من اضمر
المبتدأ قال الخليل الذي افعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبري صبر جميل وقال الفراء فهو
صبر جميل وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوى فيه
فمن بث لم يصبر كما قال يعقوب انما اشكو بثي وحزني الى الله وقال مجاهد فصبر جميل من غير جزع
وقال الثوري ان من الصبر ان لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك وروي ان
يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول
الزمان وكثرة الاحزان فاوحى الله تعالى اليه يا يعقوب اتشكوني فقال يا رب خطيئة اخطاتها
فاغفرها لي وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة الافك انها قالت والله لئن حلفت
لا تصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على
ما تصفون فانزل الله تعالى في عذرها ما انزل وقوله فصبر جميل يدل على ان الصبر على قسمين
قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل فالصبر الجميل ان ينكشف له ان هذا البلاء من الحق فاستغراقه
في شهود نور المبلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية من البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء
ولا تنقص بالجفاء لانها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون
محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل واما الصبر لا لرضا بقضاء الله تعالى بل كان لسائر
الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا فان قيل الصبر على قضاء الله تعالى واجب واما الصبر على ظلم
الظالمين فغير واجب بل الواجب ازالته لا سيما في الضرر العائد الى الغير فلم صبر يعقوب على ذلك و
لم يبالغ في التفتيش مع شدة رغبته في حضور يوسف ونهاية حبه له وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس

بنفوسه ويستقرون فيه أجيب بانه يحتمل ان يكون منعهم من الطلب تشديد المحنة عليه وزيادة في الاجر او انه لو بالغ في البحث لربما اقدموا على ايذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص فرأى ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى قال والله المستعان اى المطلوب منه العون على ما تصفون اى تذكرون من امر يوسف والمعنى ان اقدامه على الصبر لا يكون الا بمعونة الله تعالى لان الدواعي النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه الى الصبر فكان المحاربة وقعت بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجري مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ما تصفون يجري مجرى قوله واياك نستعين ولما اراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى وجاءت سيارة وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون في الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فاخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على ارض فيها جب يوسف وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران اى لم يكن الا للرعاة وروى ان ماءه كان مالحا فعذب حين القي يوسف فيه فلما نزلوا ارسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر ليطلب الماء فذلك قوله تعالى فارسلوا واردهم اى الذي يرد الماء ليستقي منه والوارد هو الذي يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء فادلى اى ارسل دلوه في البئر يقال ادليت الدلو اذا ارسلتها في البئر ودلوتها اذا اخرجتها والدلو معروف والجمع الدلاء فلما ارسلها تعلق بالحبل يوسف عليه السلام فلما خرج فاذا هو بغلام احسن ما يكون قال صلى الله عليه وسلم اعطي يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت جدته قد اعطيت سدس الحسن قال ابن اسحق ذهب يوسف وامه بثلثي الحسن وحكى الثعلبي عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق ابيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رايت النور في ضواحكه واذا تكلم رايت شعاع النور من ثناياه لا يستطيع احد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله وصوره قبل ان يصيبه الخطيئة فلما رآه مالك بن ذعر قال يا بشرى هذا غلام نادى البشرى بشارة لنفسه كانه قال تعالى فهذا اوانك وعن الاعمش انه قال دعا امراة اسمها بشرى فقال يا بشرى وعن السدي ان المدلي نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يا بشرى كما قرأه حمزة وعاصم والكسائي فانهم قرؤا بحذف الياء بعد الالف والباقون باثبات الياء وقيل ذهب به فلما دنا من اصحابه صاح بذلك وروى ان جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين اخرج منها واختلف في ضمير واسروه بضاعة الى من يعود وفيه قولان الاول انه عائد الى الوارد واصحابه اخفوه من الرفقة لئلا يشاركوهم فيه وقيل اخفوا امره وجدوه بالجب وذلك انهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه سالونا الشركة فالاصوب ان نقول ان اهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على ان نبيعه لهم بمصر والثاني ونقل عن ابن عباس انه قال واسروه يعني اخوة يوسف اسروا شانه وذلك ان يهوذا كان ياتيه بالطعام كل يوم فلم يجده في البئر فاخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك بن ذعر واصحابه نزول

فاتوهم فاخبروهم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا ابق منا وتابعهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل
بلسان العبرانية قال الرازي والاول اولى لان قوله واسروه بضاعة يدل على ان المراد انهم اسروه حال
ما حكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالواردين لا باخوة يوسف وقوله بضاعة اي قطعة من المال
تجعل للتجارة من بضعت الشيء اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوب على الحال كانه قال واسروه
حال ما جعلوه بضاعة وجعل تعالى هذه البلوى سببا لوصوله الى مصر ثم صار ... الى ان
صار ملكا بمصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الاعداء في دفعه عن ذلك
المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى والله عليم بما
يعملون اي لم يخف عليه ما يعملونه بيوسف واخوته وشروه اي باعوه اخوته لان لفظ الشراء
على البيع يقال شريت الشيء بمعنى بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في شروه وفي كانوا فيه
من الزاهدين يرجع الى شيء واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير يرجع الى
مالك بن ذعر واصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه وقال محمد بن اسحق ربك اعلم اخوته باعوه ام
السيارة واختلفوا في معنى قوله تعالى بثمن بخس فقال الضحاك اي حرام لان ثمن الحر حرام وسمي
الحرام بخسا لانه مبخوس البركة وقال ابن مسعود زيوف وقال عكرمة اي بثمن قليل ويدل له
قوله تعالى دراهم معدودة لانهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان اقل من اربعين درهما انما
كانوا ياخذون ما دونها عددا فاذا بلغتها وزنوها اوقية واختلفوا في عدتها فقال ابن
عباس كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين وعلى هذا لم ياخذ اخوه بنيامين منها
شيئا وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما وقال عكرمة اربعين درهما وكانوا اي اخوته
فيه اي يوسف من الزاهدين لانهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال
زهد فلان في كذا اذا لم يرغب فيه واصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطعم وقيل كانوا
في الثمن من الزاهدين لانهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف عن ابيه
وقيل الضمير في كانوا للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل
في بيعه لانهم باعوه باوكس الاثمان وروي في الاخبار ان مالك بن ذعر انطلق هو واصحابه بيوسف
وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لانه ابق فذهبوا به حتى قدموا مصر وعرضه مالك على البيع
فاشتراه قطفير او اطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل
من العمالقة وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه
يوسف الى الاسلام فابى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة واقام في منزله ثلاث عشرة
سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث
وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك في ايامه فرعون موسى عاش
اربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى

من اولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين ابيضين وقال
وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس
في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل
وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن
فذلك قوله تعالى وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته واسمها زليخا وقيل راعيل اكرمي مثواه
قال الرازي اعلم ان شيئا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت ايضا في خبر صحيح وتفسير
كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات فالأليق بالعاقل ان يحترز من ذكرها انتهى
ولكن البغوي ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام في لامرأته متعلقة بقال لا باشتراه
والمثوى موضع الاقامة اي اجعلي منزله ومقامه عندنا كريما اي حسنا مرضيا بدليل قول يوسف انه
ربي احسن مثواي والمراد تفقده بالاحسان وتعهده بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة
في صحبتنا ساكنة في كنفنا قال المحققون امر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه
كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالي . ولما امر باكرام
مثواه علل ذلك بان قال عسى ان ينفعنا اي يقوم باصلاح مهماتنا او نبيعه بالربح ان اردنا بيعه
او نتخذه ولدا اي نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود افرس الناس ثلاثة العزيز في
يوسف حين قال لامرأته اكرمي مثواه وابنة شعيب حين قالت لابيها في موسى
استأجره وابو بكر في عمر حين استخلفه وكذلك اي وكما نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه
قلب العزيز مكنا ليوسف في الارض اي ارض مصر قال البقاعي التي هي كالارض كلها لكثرة
منافعها بالملك نبوئه ما يشاء من الحكم بالعدل والنبوة وقوله تعالى ولنعلمه من تأويل الاحاديث اي تعبير
الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكنا اي لنملكه او والواو زائدة والله غالب على امره اي الامر الذي
يريده لانه تعالى فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع من حكمه في ارضه وسمائه او على امر يوسف
اراد اخوته شيئا فغلب امره عليهم واراد ان يشتريه بعض السيارة لينسى من اسمه فغلب
امره وظهر اسمه واشتهر ثم باعوه ليكون مملوكا فغلب الله امره حتى صار ملكا وعبيده بين يديه ثم
ارادوا ان يغروا اباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب امره تعالى ما ظهر على مكرهم واحتالت
عليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه فغلب امره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب منه غاية الهرب
ثم احتالت جهدها في اذلاله والقاء التهمة عليه فابى الله تعالى الا اعزازه وبراءته ثم اراد يوسف عليه
السلام ذكر الساقي له فغلب امره تعالى فانساه ذكره حتى لبث الى الاجل الذي ضربه الله تعالى له وكم من
امر كان في هذه القصة وفي غيرها يرشد الى انه لا امر لغيره ولكن اكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون
ان الامر كله بيد الله تعالى او ان اكثر الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فيتأمل في الدنيا
وعجائب احوالها فيعرف ويتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله تعالى غالب . ولما بين تعالى ان اخوته

اساؤا اليه وصبر على تلك الشدائد والمحن ومكنه فى الارض اتبعه الامر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ اى منتهى شبابه وقوته وشدته تقول العرب بلغ فلان اشده اذا انتهى منتهاه فى
شبابه وقوته وهذا اللفظ مستعمل فى الواحد والجمع يقال بلغ فلان اشده وبلغوا اشدهم
وهو ثلاث وثلاثون سنة وقال السدى بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة وقال
الكلبى الاشد ما بين ثمانية عشر الى ثلاثين وقيل اقصاه اثنان وستون سنة قال الاطباء ان الانسان
يحدث فى اول الامر ويتزايد كل يوم شيأ فشيأ الى ان ينتهى الى غاية الكمال ثم يأخذ فى التراجع
الى ان ينتهى الى العدم فالمحاق كالقمر آتَيْنَاهُ حُكْمًا اى حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل او حكما بين
الناس وَعِلْمًا اى علم تاويل الاحاديث وقيل المراد بالحكم النبوة والرسالة وتقدم ان قوله تعالى واوحينا
انه وحى حقيقة قال الرازى فلا يبعد ان يقال ان ذلك الوحى اليه فى ذلك الوقت كان لا لاجل بعثته
الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل ان يستأنس بحضور جبريل عليه
السلام وَكَذَٰلِكَ اى ومثل ذلك الجزاء الذى جزيناه به نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ قال ابن عباس يعنى المؤمنين
وعنه ايضا يعنى المهتدين وقال الضحاك يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام
وعن الحسن من احسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله ولما اخبر تعالى ان سبب
النعمة عليه احسانه اتبعه دليله فقال تعالى وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا اى امرأة العزيز راودت يوسف
عَنْ نَفْسِهِ لانها لما رأته فى غاية الحسن والجمال طمعت فيه ويقال ان زوجها كان عاجزا والمراودة
مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كان المعنى خادعته عن نفسه اى فعلت ما يفعل المخادع
لصاحبه عن الشئ الذى لا يريد ان يخرجه من يده يحتال ان يغلبه عليه ويأخذه منه وهو عبارة
عن التمحل لمواقعته اياها وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ اى اطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير
او للمبالغة فى الايثاق لان مثل هذا الفعل لا يكون الا فى ستر وخفية لاسيما اذا كان حراما ومع قيام
الخوف الشديد وَقَالَتْ هَيْتَ اى تهيأت وتصنعت لَكَ خاصة فاقبل الى وامتثل امرى قال
الواحدى هيت لك اسم للفعل نحو رويد وصه ومه ومعناه هلم فى قول جميع اهل اللغة وقرأ نافع
وابن ذكوان بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرأ هشام بعد الهاء بهمزة ساكنة والباقون بياء ساكنة
وقرأ ابن كثير بضم التاء وفتحها والباقون بالفتح قَالَ لها يوسف عليه السلام مَعَاذَ اللَّهِ اى اعوذ بالله واعتصم
به والتجئ اليه مما تدعينى اليه إِنَّهُ اى الذى اشترانى رَبِّي اى سيدى أَحْسَنَ مَثْوَايَ اى اكرم منزلى فلا
اخونه فى اهله وقيل انه اى الله ربى احسن مثواى اى تولانى ومن بلاء الجب انجانى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ اى
ان فعلت هذه الفعلة فانا ظالم ولا يفلح الظالمون وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا اى قصدت مخالطته
وقصد مخالطتها والهم بالشئ قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذى اذا هم بشئ امضاه والمراد
بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل
الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض

اهل الحقائق الهم قسمان هم ثابت وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امراة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم او يعمل كما روى عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل اذا تحدث عبدي بان يعمل حسنة فانا اكتبها حسنة ما لم يعملها فاذا عملها فانا اكتبها له بعشر امثالها واذا تحدث بان يعمل سيئة فانا اغفرها له ما لم يعملها فاذا عملها فانا اكتبها له بمثلها قال في الكشاف ويجوز ان يريد بقوله وهم بها شارف ان يهم بها كما يقول الرجل قتلته لو لم اخف الله يريد مشارفة القتل ومشافهته كانه شرع فيه لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ اي بعين قلبه بُرْهَانَ رَبِّهِ اي الذي آتاه اياه من الحكم والعلم اي لهم بها لكنه كان البرهان حاضرا لديه حضور من يراه بالعين فلم يهم اصلا مع كونه في غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوة مع كونه في سن الشباب فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الداعي غير ان نور الشهود محا ما امره وهذا التقرير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام مع انه الذي تدل عليه اساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء وان السجن احب اليه من ذلك مع قيام الشاهد على كذب ما تضمنه قولها ما جزاء من اراد باهلك سوءا الآية من مطلق الارادة وهم ما يختم من تقديرها ذكرته لولا في خصوص هذا التركيب من اساليب كلام العرب فانه يجب ان يكون الشيء المقتضي لكل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله وهذا مثل قوله تعالى ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها اي لابدت به واما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك من تفسيرهم بانه حل الهميان وجلس منها مجلس الخاتن وانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهي مستلقية على قفاها ومن تفسير البرهان بانه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث له فسمعه ثانيا فلم يعمل به فسمعه ثالثا اعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على انملته وقيل ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من انامله وقيل كل ولد يعقوب ولد له اثنا عشر ولدا الا يوسف فانه ولد له احد عشر ولدا من اجل ما نقص من شهوته حين هم وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لا ريش له وقيل بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فيه فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام ادرك عبدي قبل ان يصيب الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل قامت المراة الى صنم كان هناك فسترته وقالت استحي ان يرانا فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا استحي من السميع العليم بذات الصدور فلم يصح منه شيء عن احد منهم مع ان هذه الاقوال التي وردت عنهم اذا جمعت تناقضت وتكاذبت قال الزمخشري وهذا ونحوه مما يورده اهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله وانبيائه

فاخزى الله اولئك فى ايرادهم ما يؤدى الى ان يكون انزل الله السورة التى هى احسن القصص
فى القرآن العربى المبين ليقتدى بنبى من انبياء الله تعالى فيما ذكروه واهل العدل والتوحيد ليسوا
من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل واطال فى رد ذلك وكذا فعل الرازى وقيل وهم بها اى بزجرها
ووعظها وقيل هم بها اى تمنى ان تكون له زوجة وقيل هم بها اى نظر اليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل
هذا كله قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن الى يوسف عليه السلام ميل شهوة حتى
نبأه الله تعالى فالقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه كذلك اى مثل ذلك
التثبيت ثبتناه فى كل امر لنصرف عنه السوء اى الهم بالزنا وغيره والفحشاء اى الزنا وغيره وقيل
السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هى الزنا فكانه قيل لم فعل به
هذا فقيل انه من عبادنا اى الذين عظمناهم المخلصين اى فى عبادتنا الذين هم خير صرف
لا يخالطهم غش وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء والباقون بالفتح قال الرازى
فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده باسم
المفعول يدل على ان الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته وعلى كلا الوجهين فانه من ادل الالفاظ
على كونه منزها عما اضافوه اليه وهذا مع قول ابليس لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين
شهادة من ابليس ان يوسف عليه السلام برئ من الهم فمن نسبه الى الهم ان كانوا من اتباع دين
الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من اتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على
طهارته تعالى ولعلهم يقولون كنا فى اول الامر تلامذة ابليس الا انا زدنا وفقنا عليه فى السفاهة كما قال الخوارزمى
شعر وكنت فتى من جند ابليس فارتقى * بى الامر حتى صار ابليس من جندى * فلو مات قبلى كنت
احسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدى ثم ذكر سبحانه وتعالى ما اتفق فى الاجتماع بالجسد
فى العصمة مع دلالته على اخلاصه وانه لم يهم اصلا فقال واستبقا الباب اى اوجد المسابقة بغاية الرغبة
من كل منهما هذا للخروج منه وهذه لمنعه فكل منهما يبذل اقصى جهده فى السبق فلحقته عند
الباب الاقصى مع انه قد كان سبقها بقوة الهمة وقوة الداعية الى الفرار الى الله تعالى ولكن
عاقها انها لما يكون الابواب كانت مغلقة فكان يشتغل بفتحها فتعلقت باذياله وجذبته الله
من خلفه [illegible] فانشدت تعلقوا به وهو يجذب نفسه شوقا وهربا منها ففتحه
وقدت قميصه من دبر اى شقته قطعة وكان القد من دبر اى الناحية
من الخلف لانه هارب وهى طالبة فى اثره فى يدها والفيا اى وجدا سيدها اى زوجها قطفير وهو
العزيز يقول العرب لزوجها سيد وانما لم يقل سيدهما لان ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيدا له على الحقيقة
لدى الباب اى عند الباب جالسا مع ابن عم المرأة فان قيل كيف وحد الباب وقد جمعه فى قوله وغلقت
الابواب اجيب بان المراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار فقد روى كعب الاحبار
ان يوسف لما هرب جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب فلما رأت المرأة

ابن عمها هابته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول و قالت لزوجها ما جزاء من اراد باهلك سوءا
اي فاحشة زنا او غيره ثم خافت عليه ان يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت الا ان يسجن اي يحبس
في السجن ويمنع التصرف او عذاب اليم اي مؤلم بان يضرب بالسياط ونحوها وانما بدأت بالسجن
قبل العذاب لان المحب لا يشتهي ايلام المحبوب وانما ارادت ان يسجن عندها يوما او يومين
ولم ترد السجن الطويل فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب ان يجعل من المسجونين الا ترى
ان فرعون هكذا قال في حق موسى عليه السلام في قوله لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من
المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها قال هي بضمير الغيبة لاستحيائه ان
يواجهها باشارة او ضمير خطاب راودتني عن نفسي اي طلبت مني الفاحشة فابيت وفررت منها
وذلك ان يوسف عليه السلام ما كان يريد ان يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت
هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه ويوسف صادق فيما قال لا يحتاج الى البيان
اكثر من الحال الذي كان فيه وهو انهما عند الباب ولو كان الطالب منه لما كان ذلك في عدوه الذي يخلق
وهو قصد الباب والشرف موضع فيه وايضا ان العبد لا يمكنه ان يتسلط على مولاته الى هذا
الحال وايضا ان المراة زينت نفسها على اكمل الوجوه واما يوسف فما كان عليه اثر من اثار تزيين النفس
فكان الحاق هذه الفتنة بالمراة اولى ثم انه تعالى اظهر ليوسف عليه السلام دليلا اخر يقوي تلك
الدلائل المذكورة ويدل على انه بريء من الريبة وان المراة هي الخائنة وهو قوله تعالى وشهد شاهد
من اهلها اي وحكم حاكم من اهل المراة واختلفوا في هذا الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك
كان صبيا في المهد انطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام وقد روي انه صلى الله عليه وسلم
قال تكلم في المهد اربعة وهم صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم
وصاحب جريج الراهب رواه الامام احمد وفي الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم في المهد
الا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وصبي كان يرضع امه فمر راكب حسن الهيئة فقالت امه
اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله وبهذا الاعتبار صاروا خمسة وزاد
الثعلبي سادسا وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام وزاد غيره على ذلك ولعل الحصر فيما ذكر في الخبر
كان قبل العلم بالزيادة فلا تناقض وقد اوصلهم السيوطي الى احد عشر ونظمهم فقال
تكلم في المهد النبي محمد * ويحيى وعيسى والخليل ومريم * ومبري جريج ثم شاهد يوسف * وطفل
لدى الاخدود يرويه مسلم * وطفل عليه مر بالامة التي * يقال لها تزني ولا تتكلم * وماشطة في عهد فرعون
طفلها * وفي زمن الهادي المبارك يختم وقالت طائفة عظيمة من المفسرين انه كان لها ابن عم وكان
رجلا حكيما واتفق في ذلك الوقت انه كان مع الملك يريد ان يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء
الباب وشق القميص الا انا لا ندري ايكما قدام صاحبه ولكن ان كان قميصه قد من قبل اي من قدام
فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر اي من خلف فكذبت وهو من الصادقين

لانه لو لا انها ارادته واقبلت عليه لما وقع ذلك فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى
فلما رأى اى سيدها قميصه اى يوسف عليه السلام قد من دبر قال لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه
وكذبها موثرا للاجمال اذكارها انه اى هذا القذف له من كيدكن معشر النساء والكيد طلب
الانسان بما يكرهه ان كيدكن عظيم والعظيم ما ينقص مقدار غيره عنه حسا او معنى فان قيل كيف
وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال اقوى من مكر
النساء اجيب بان الانسان ضعيف بالنسبة لخلق ما هو اعظم منه كخلق السموات والارض وبان
كيدهن ادق من كيد الرجال والطف واخفى لان الشيطان عليهن لنقصهن اقدر وبان مكرهن
في هذا الباب اعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد في اتمام مرادهن ما
لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب ولان كيدهن في هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال
ولما ظهر للقوم براءة يوسف من ذلك الفعل المنكر حكى تعالى انه قال يوسف اى يا يوسف اعرض
اى انصرف بكليتك مجاوزا عن هذا الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ثم
التفت الى المرأة وقال لها واستغفري لذنبك اى توبي الى الله تعالى مما رميتي يوسف به من الخطيئة
وهو بري منها انك كنت من الخاطئين اى الآثمين قال ابو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة
فاكتفى منها بالاستغفار وقيل ان القائل المذكور هو الشاهد فان قيل كيف قال من الخاطئين
بلفظ التذكير اجيب بانه قال ذلك تغليبا للذكور على الاناث او ان المراد انك من نسل الخاطئين
فمن ذلك النسل سرى ذلك العرق الخبيث فيك ثم شاع الخبر واشتهر وقال نسوة اى وقال جماعة
من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة
الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتانيثه غير حقيقي ولذلك لم يلحق فعله تاء التانيث وقوله
في المدينة اى مدينة مصر ظرف اى اشعن الحكاية في مصر او صفة نسوة وقيل مدينة عين شمس
امرأت العزيز وانما اضفنها الى زوجها ارادة لاشاعة الخبر لان النفس الى سماع اخبار ذوي الاخطار
ميل ويريدون قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ورسم امرأة بالتاء المجرورة ووقف عليها
ابن كثير وابو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء واما الوصل فهو بالتاء للجميع تراود فتاها اى
عبدها الكنعاني يقال فتاي وفتاتي اى عبدي وجاريتي عن نفسه اى تطلب منه الفاحشة وهو
يمتنع منها قد شغفها حبا اى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها حبا نصب على
التمييز وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة شعر وقد حال هم دون ذلك والج
مكان الشغاف تبتغيه الاصابع * وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الشين
والباقون بالادغام انا لنراها اى نعلم امرها علما هو كالرؤية في ضلال اى خطأ مبين اى بين
ظاهر بسبب تركها ما يجب على امثالها من العفاف والستر بسبب حبها اياه فلما سمعت زليخا
بمكرهن اى قولهن وانما سمي ذلك مكرا لوجوه الاول ان النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء

لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن انهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف
عليهن ليمهدن عذرها عندهن الثاني ان زليخا اسرت اليهن حبها ليوسف عليه السلام وطلبت
منهن كتمان هذا السر فلما اظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن في غيبتها والغيبة
انما تذكر على سبيل الخفية فاشبهت المكر ارسلت اليهن تدعوهن لتقيم عذرها عندهن قال وهب
اتخذت مادبة ودعت اربعين امرأة من اشراف مدينتها فيهن الخمس واعتدت اي اعدت لهن
متكأ اي طعاما يقطع بالسكين وهو الاترج وانما سمي الطعام متكأ لانه يتكأ عنده قال جميل
فظللنا بنعمة واتكأنا ÷ وشربنا الحلال من قلله ÷ والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب
والحديث لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك جاء النهي
عنه في الحديث ان ياكل الرجل متكأ وقال صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل انها زينت
البيت بالوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب
يوسف عليه السلام وآتت اي اعطت كل واحدة منهن سكينا اي لتاكل بها وكانت عادتهن
ان ياكلن اللحم والفواكه بالسكين وقالت زليخا ليوسف عليه السلام اخرج عليهن
اي النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واخبأته في مكان
وقرأ ابو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بكسر التاء في الوصل والباقون بالضم واما الابتداء
فجميع القراء يبتدئون الهمزة بالضم فلما رأينه اي النسوة أكبرنه اي اعظمنه ودهشن
عند رؤيته اتفق الاكثرون على انهن انما اكبرنه بحسبهن الجمال الفائق والحسن الكامل وكان
يوسف قد اعطي شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف في الحسن كفضل القمر ليلة البدر
على سائر الكواكب وروي انه صلى الله عليه وسلم قال رأيت يوسف ليلة اسري بي الى السماء
كالقمر ليلة البدر ذكره البغوي بغير سند وقال ابن اسحق كان يوسف اذا سار في ازقة مصر يرى تلألؤ
وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها ويقال انه ورث حسن آدم عليه السلام
السلام م خلقه الله تعالى قبل ان يخرج من الجنة وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل
اكبرنه يعني حضن والهاء للسكت يقال اكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر
لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكان ابا الطيب اخذ من هذا التفسير قوله
خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ÷ فان لحت حاضت في الخدور العواتق ÷ وقيل امنين قال الكميت
ولما رأته الخيل من رأس شاهق ÷ صهلن وامنين المني الدفقا ÷ وقال الرازي انما اكبرنه
لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه شيئا
الهيبة وهيبة ملكية وهي عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان
الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن وقطعن ايديهن
اي جرحنها بالسكاكين التي معهن وهن يحسبن انهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم

من فرط الدهشة بيوسف وقال وهب ماتت جماعة منهن وقلن حاش لله اي تنزيها له والرسم
بغير الف بعد الشين وقرأ ابو عمرو في الوصل دون الوقف بالف بعد الشين والباقون بغير
الف وقفا ووصلا ما هذا اي يوسف عليه السلام بشرا واعمال ما عمل ليس هي اللغة القدمى الحجازية
وبها دل عليها هذه الاية وقوله تعالى ما هن امهاتهم ان اي ما هذا الا ملك كريم اي على الله لما حواه
من الحسن الذي لا يكون عادة في النسمة البشرية وان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة
البالغة من خواص الملائكة قالت اي زليخا للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن
اي فهذا هو الذي لمتنني فيه اي في محبته قبل ان تتصورنه حق تصوره ولو تصورتنه بما عاينتن لعذرتنني
ثم انها صرحت بما فعلت فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم اي فامتنع من هذا الشيء
الفعل الذي طلبت وانما صرحت بذلك لانها علمت انها لا ملامة عليها منهن وانهن قد اصابهن
ما اصابها عند رؤيته ثم قالت ولئن لم يفعل ما امره اي وان لم يطاوعني فيما دعوته اليه ليسجنن
اي ليعاقبن بالحبس وليكونا من الصاغرين اي الذليلين المهانين فقال النسوة ليوسف
اطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما دعت اليه فلذلك
قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه وان كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه
نظرا الى العاقبة لان الاول فيه الذم في الدنيا والعقاب في الاخرة والثاني فيه المدح في الدنيا والثواب
الدائم في الاخرة فان قيل ان الدعاء كان منها فلم اضافه اليهن جميعا اجيب بانهن خوفنه من
مخالفتها وزين له مطاوعتها وقيل انهن دعونه الى انفسهن قال بعض العلماء لو لم يقل السجن احب
الي لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد ان يسأل الله تعالى العافية ولذا لما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم
على من كان يسأل الله الصبر بقوله له سألت الله البلاء فاسأله العافية رواه الترمذي والا اي وان
لم تصرف عني كيدهن اي فيما اردن مني بالتثبيت على العصمة اصب اي امل اليهن يقال صبا فلان
الى كذا اذا مال اليه واشتاقه واكن اي اصر من الجاهلين اي من السفهاء بارتكاب ما يدعونني
اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفي ذلك دليل على ان من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة والقصد
بذلك الدعاء ولذلك قال فاستجاب له ربه اي فاجاب الله تعالى دعاءه الذي تضمنه
هذا الثناء لان الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما قيل شعر اذا اثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه
الثناء فصرف عنه كيدهن اي ثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على
اللذة المتضمنة للعصيان انه هو السميع اي لدعاء الملتجئين اليه العليم اي بالضمائر والنيات فيجيب
ما صح فيه القصد وطاب منه العزم ثم بدا لهم اي ظهر لهم اي العزيز واصحابه من بعد ما رأوا
الآيات اي الدالة على براءة يوسف عليه السلام كشهادة الصبي وقد القميص وقطع النساء
ايديهن واستعصامه عنهن ليسجننه حتى حين اي الى حين ينقطع فيه كلام الناس وذلك ان
المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم اني راودته عن نفسه

وانا لا اقدر على اظهار عذري فاما ان تاذن لي فاخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستني فعند ذلك وقع في قلب العزيز ان الاصلح حبسه حتى ينقطع عن السنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فسجنه + تنبيه + في فاعل بدا اربعة اوجه احدها انه ضمير يعود على السجن بفتح السين اى ظهر لهم حبسه الثاني ان الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا اى بدا لهم بداء والثالث انه مضمر يدل عليه السياق اى بدا لهم راى والرابع انه محذوف وليسجننه قائم مقامه اى بدا لهم السجن فحذف واقيمت الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لان الجمل لا تكون كذلك وقيل الحبس هنا خمس سنين وقيل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتي عشرة سنة وقال الرازي والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم انه بقي مسجونا مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد امة وعن عكرمة قال قال رجل فرد راى للعزيز متى تركت هذا العبد يعتذر الى الناس ويقص عليهم امره فاتركه في بيتك لا يخرج الى الناس فان خرج للناس عذروه وفضحوا اهلك فامر به فسجن ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ وهما غلامان كانا للوليد بن ثروان العمليقي ملك مصر الاكبر احدهما خبازه صاحب طعامه والاخر ساقيه صاحب شرابه فغضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه ان جماعة من اشراف مصر ارادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على ان يسما الملك في طعامه وشرابه فاجابا الى ذلك ثم ان الساقي ندم ورجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تاكل ايها الملك فان الطعام مسموم فقال الخباز لا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقي اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى فاطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر بحبسهما وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لاهله اني اعبر الاحلام فقال احد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبراني فتراءيا له رؤيا قال ابن مسعود وما رايا شيئا وانما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رايا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسالهما عن شانهما فذكرا انهما صاحبا الملك حبسهما وقد رايا رؤيا غمتهما فقال يوسف قصا علي ما رايتما ﴿قال احدهما﴾ وهو صاحب شراب الملك ﴿اني اراني اعصر خمرا﴾ فان قيل كيف يعقل عصر الخمر اجيب عن ذلك بثلاثة اقوال احدها ان يكون المعنى اعصر عنب خمر اى العنب الذي يكون عصيره خمرا فحذف المضاف الثاني ان العرب تسمي الشيء باسم ما يؤل اليه تقول فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا الثالث قال ابو صالح اهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى اهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بلسان جميع العرب وذلك انه قال اني رايت في المنام كاني في بستان واذا فيه شجرة فيها ثلاثة اغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كاس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه ﴿وقال الآخر اني اراني احمل فوق راسي خبزا تاكل الطير منه﴾ وذلك انه قال اني رايت في المنام كان فوق راسي ثلاث سلال فيها الخبز والوان الطعام وسباع الطير تنهش منه ﴿نبئنا﴾

اى اخبرنا بتاويله اى بتفسيره اِنَّا نَرٰىكَ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ اى فى علم التفسير لانه متى عبر لم يخطئ كما
قال وعلمتنى من تاويل الاحاديث وقيل فى امر الدين لانه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم
والصلوة فانه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير
الرؤيا وفى سائر الامور وقيل فى حق الشركاء والاصحاب لانه كان يعود مرضاهم ويونس حزينهم
واذا ضاق على احدهم وسع عليه واذا احتاج احدهم جمع له شيئا قيل انه لما دخل السجن وجد قوما
اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسكنهم ويقول اصبروا وابشروا توجروا فيقولون
بارك الله فيك يا فتى ما احسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن انت
يا فتى قال انا يوسف ابن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن والله
يا فتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن ساحسن جوارك فكن فى اى بيوت السجن شئت وروى
ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا لقد احببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف انشدكما الله ان لا تحبانى
فوالله ما احبنى احد قط الا دخل على من حبه بلاء لقد احبتنى عمتى فدخل علىّ بلاء ثم احبنى ابى فالقيت
فى الجب واحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف ان يعبر لهما ما سألاه لما علم
فى ذلك من المكروه على احدهما قال معرضا عن سؤالهما اخذا فى غيره من اظهار المعجزة فى الدعاء
الى التوحيد لَا يَأْتِيْكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهٖ اى فى منامكما اِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَاْوِيْلِهٖ اى فى اليقظة قبل ان يأتيكما
تاويله وقيل اراده فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما تطعمانه الا انبأتكما بتاويله
بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما قبل ان يصل واى طعام اكلتم ومتى اكلتم وهذه كمعجزة
عيسى عليه السلام حيث قال وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا هذا فعل العرافين
والكهنة فمن اين لك هذا العلم فقال ما انا بكاهن ذٰلِكُمَا اى هذا التاويل والاخبار بالمغيبات
مِمَّا عَلَّمَنِىْ رَبِّىْ وفى ذلك حث على ايمانهم ثم قواه بقوله اِنِّىْ تَرَكْتُ مِلَّةَ اى دين قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ
وَهُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ كٰفِرُوْنَ وكرر لفظة هم للتاكيد لشدة انكارهم للمعاد ولما ادعى يوسف عليه السلام
النبوة واظهر المعجزة اظهر انه من اهل بيت النبوة بقوله وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ اٰبَاۗءِىْٓ اِبْرٰهِيْمَ وَاِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ
ليسمعوا قوله ويطيعوا امره فيما يدعوهم اليه من التوحيد فان الانسان متى ادعى حرفة ابيه وجده
لم يستبعد ذلك منه وايضا فكمال درجة ابراهيم واسحق ويعقوب امر مشهور فى الدنيا
فاذا ظهر انه من اولادهم عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له اتم وتاثر قلوبهم
بكلامه اكمل فان قيل انه كان نبيا فكيف قال اتبعت ملة اٰباءى والنبى لا بد وان يكون
مختصا بشريعة نفسه اجيب بان مراده التوحيد الذى لا يتغير ولعله كان رسولا من عند الله تعالى
لا انه كان نبيا على شريعة ابراهيم عليه السلام وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بسكون ياء اباءى والباقون
بالفتح مَا كَانَ اى ما صح لَنَا معشر الانبياء اَنْ نُّشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَىْءٍ لان الله تعالى طهره وطهر اباءه
من الكفر ونظيره قوله تعالى ما كان لله ان يتخذ من ولد وانما قال من شئ لان اصناف الشرك كثيرة

فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد
الملائكة فقوله من شيء رد على هؤلاء الطوائف وارشاد الى الدين الحق وهو انه لا موجد لا خالق
ولا رازق الا الله ذلك اي التوحيد من فضل الله علينا بالوحي وعلى الناس اي سائرهم
ببعثنا لارشادهم وتثبيتهم عليه ولكن اكثر الناس اي المبعوث اليهم لا يشكرون هذه النعمة
التي انعم الله تعالى بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهم الى الايمان فقال
يا صاحبي السجن اي يا صاحبي في السجن فاضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة فكما ان الليلة
مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب وانما المصحوب غيره وهو
يوسف عليه السلام او يا ساكني السجن كما قيل لسكان الجنة اصحاب الجنة ولسكان النار اصحاب
النار أأرباب اي آلهة متفرقون اي متباينون من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب
وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير ذلك خير اي اعظم في صفة المدح واولى بالطاعة
ام الله الواحد القهار اي المتوحد بالالوهية الذي لا يغالب ولا يشارك في الربوبية غيره خير
والاستفهام للتقرير وفي الهمزتين مع ارباب من القراءات ما في أأنذرتهم وقد مر فان قيل
هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انها خير ام الله اجيب بان ذلك
خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا انه حصل منها ما يوجب الخير فهي خير ام الله الواحد
القهار ثم بين عجز الاصنام فقال ما تعبدون وانما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية في الحالة
لانه اراد جميع من في السجن من المشركين والعبادة خضوع القلب في اعلى مراتب الخضوع ومن
اعتقاد معبوديتهم وسفاهتها بقوله من دونه اي الله الذي قام البرهان على الوهيته وعلى اتصافه
بذلك الا اسماء وبين ما يريد واوضحه بقوله سميتموها اي ذوات اوجدتم لها اسماء انتم سميتموها
آلهة وارباباً وهي جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها انتم وآباؤكم من قبلكم سموها كذلك
ما انزل الله بها اي بعبادتها من سلطان اي حجة وبرهان ان الحكم اي ما الحكم الا لله اي المختص
بصفات الكمال والحكم فصل الامر بما تدعو اليه الحكمة امر وهو النافذ الامر المطاع الحكم ان لا تعبدوا
الا اياه لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التي سميتموها آلهة ولما اقام الدليل على هذا الوجه
الذي كان جديراً بالاشارة الى فضله اشار اليه باداة البعد تنبيها على علو مقامه وعظيم شانه
فقال ذلك اي الشأن الاعظم وهو توحيده وافراده عن خلقه الدين القيم اي المستقيم الذي لا عوج
فيه ولكن اكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون ولما قرر يوسف
عليه السلام امر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذي ذكراه فقال يا صاحبي السجن اي
الذي يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة في القلب فتخلص فيه المودة ولما كان في الجواب
ما يسوء الخباز ابهم ليجوز كل منهما انه الفائز فان الخباز الى السجن كان ذلك عند داله في الخروج
عن الابق فقال اما احدكما وهو صاحب شراب الملك فيسقي ربه اي سيده خمراً على

ثم يدعو به الملك فيردّه الى رتبته التي كان
عادته والعناقيد الثلاثة هي ثلاثة ايام يبقى في السجن
عليها هذا تاويل رؤياه وامّا الآخر وهو صاحب طعام الملك فيصلب والسلال الثلاثة ثلاثة
ايام ويدعو به الملك فيصلبه فتاكل الطير من رأسه هذا تاويل رؤياه قال ابن مسعود فلما سمعا
قول يوسف عليه السلام قالا ما راينا شيئا انما كنا نلعب فقال لهما يوسف عليه السلام قُضِيَ
الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ اي تطلبان الافتاء فيه عملا بالفتوة في التماس تاويله وهو تعبير رؤيا
كما الذي بما ادعيتما فلم اقله عن جهل ولا غلط وَقَالَ يوسف عليه السلام لِلَّذِي ظَنَّ اي علم وتحقق
فالظن بمعنى العلم لانه قاله عن وحي لقوله قضي الامر ويجوز ان يكون الظن للساقي فهو حينئذ على
بابه أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا وهو الساقي اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ اي سيدك الملك بمصر بما رأيت مني من ما لي
الاخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدي مما رميت به والمراد بالرب هنا غير المراد به في قوله ارباب
متفرقون فنجا الساقي وصلب صاحبه وفق ما قاله لهما يوسف عليه السلام واختلف في ضمير
فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ على قولين احدهما انه يعود الى الساقي وهو قول جماعة من المفسرين اي
فانسى الشيطان الساقي ان يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك
الرجل الساقي حتى انساه ذكر يوسف اولى من صرفها الى يوسف والقول الثاني وعليه اكثر المفسرين انه
يرجع الى يوسف عليه السلام وقال الرازي انه الحق اي ان الشيطان انسى يوسف ذكر ربه تعالى
حتى استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق في دفع
الظلم جائزة في الشريعة الا ان حسنات الابرار سيئات المقربين فهذا وان كان يأذن العامة الا
ان الاولى بالصديقين ان يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وان لا يشتغلوا الا بمسبب
الاسباب فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذا بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى في تلك القصة
البتة بل ذكره باعظم وجوه المدح والثناء فعلم بذلك انه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية اليه
فان قيل كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى انساه ذكر ربه اجيب بان ذلك انما كان بشغل خاطره واما
النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه واختلف في
قدر البضع في قوله تعالى فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ فقال مجاهد ما بين الثلاث الى التسع
وقال ابن عباس ما دون العشرة قال البغوي واكثر المفسرين ان البضع في هذه الآية سبع سنين
وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة وقال وهب اصاب ايوب البلاء سبع
سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك
قيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يارب انسى قلبي كثرة البلوى فقلت
كلمة قال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث ثم
بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا امر فزعنا الى الناس ذكره الثعلبي مرسلا وبغير سند وقال الحسن دخل
جبريل على يوسف عليهما السلام في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يا اخا المنذرين ما لي اراك بين

الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر يا ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك
اما استحييت مني واستشفعت للآدميين وعزتي لالبثنك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو
في ذلك عني راض قال نعم قال اذا لا ابالي وقال كعب قال جبريل ليوسف ان الله تعالى يقول لك من
خلقك قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن حببك الى ابيك قال الله قال فمن انجاك
من كرب البئر قال الله تعالى قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استشفعت بآدمي
مثلك قال محمد بن عمر الرازي في تفسيره والذي جربته من اول عمري الى آخره ان الانسان كلما عول في
امر من الامور على غير الله تعالى صار ذلك سببا للبلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عول على الله تعالى
ولم يرجع الى احد من الخلق حصل ذلك المطلوب على احسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من اول
عمري الى هذا الوقت الذي بلغت الى السابع والخمسين فعند ذلك استقر قلبي على انه لا مصلحة للانسان
في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى واحسانه. ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الاكبر
الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هائلة كما قال تعالى (وقال الملك اني ارى) اي رأيت عبر بالمضارع حكاية للحال الماضية
ما هاله من ذلك (سبع بقرات سمان) اي خرجن من نهر يابس والسمن زيادة البدن من الشحم واللحم وسمان
جمع سمينة وجمع سمين ايضا يقال رجال سمان ونساء سمان كما يقال رجال كرام ونساء كرام (يأكلهن)
اي يبتلعهن (سبع) اي من البقر (عجاف) جمع عجفاء اي مهازيل خرجن من ذلك النهر. تنبيه. جمع عجفاء
على عجاف والقياس عجف نحو حمراء وحمر حملا له على سمان لانه نقيضه ومن دابهم حمل النظير على النظير و
النقيض على النقيض (واني ارى سبع سنبلات خضر) اي قد انعقد حبها كاني ارى سبع سنبلات (اخر
يابسات) اي قد ادركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها وانما استغنى عن بيان حالها
بما نص من حال البقرات والسنبلة نبات كالقصبة فيها جملة حبوب منتظمة فكأنه قيل فكان ماذا فقيل
قال الملك بعد ان جمع السحرة والكهنة والمعبرين (يا ايها الملأ) اي الاشراف النبلاء الذين تملأ العيون
مناظرهم والقلوب مآثرهم (افتوني في رؤياي) اي اخبروني بتأويلها (ان كنتم للرؤيا تعبرون) اي ان كنتم
عالمين بعبارة الرؤيا فاعبروها. تنبيه. اللام في للرؤيا مزيدة فلا تعلق لها بشيء وزيدت لتقدم
المعمول تقوية للعامل كما زيدت اذا كان العامل فرعا كقوله تعالى فعال لما يريد ولا تزاد فيما عدا ذلك
الا ضرورة وقيل ضمن تعبرون معنى ما يتعدى باللام تقديره ان كنتم تنتدبون لعبارة
الرؤيا وقيل متعلقة بمحذوف على انها للبيان كقوله تعالى وكانوا فيه من الزاهدين
تقديره اعني فيه وكذلك هذا تقديره اعني للرؤيا وعلى هذا يكون مفعول تعبرون محذوفا
تقديره تعبرونها وفي الآية ما يوجب حال العلماء من حاجة الملوك اليهم فكأنه قيل فما
قالوا فقيل (قالوا اضغاث احلام) اي اخلاط احلام مختلطة مشتبهة جمع ضغث
بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة وهي قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس والاحلام
جمع حلم بضم الحاء واسكان اللام وضمها وهو الرؤيا فقيدوها بالاضغاث وهو ما يكون من الرؤيا باطلا

لكونها من حديث النفس ووسوسة الشيطان لكونها تشبه اخلاط النبات التي لا تناسب بينها
لان الرؤيا تارة تكون من الملك وهي الصحيحة وتارة تكون من تحريش الشيطان وتخليطاته
وتارة من حديث النفس ثم قالوا وَمَا نَحْنُ اي باجمعنا بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ اي المنامات الباطلة بِعَالِمِينَ
اي ليس لها تاويل عندنا وانما التاويل للمنامات الصادقة كانه مقدمة ثانية للعذر ولما سأل
الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف عليه السلام
لانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا في هذا العلم كما قال تعالى وَقَالَ الَّذِي نَجَا اي خلص مِنْهُمَا اي
من صاحبي السجن وهو الشرابي ان في الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت انا والخباز
عليه منامين فذكر تاويلهما فصدق في كل ما ذكر وما اخطأ في حرف فكانت هذه الرؤيا سببا لخلاص
يوسف عليه السلام ولم يذكر الشرابي الا بعد طول المدة كما قال تعالى وَادَّكَرَ بالدال المهملة اي طلب
الذكر بالدال المعجمة وزنه افتعل بَعْدَ أُمَّةٍ اي وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة اي مدة
طويلة والجملة اعتراض ومقول القول أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ اي الى يوسف عليه السلام فانه
اعلم الناس فارسلوه اليه قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولم يكن السجن بالمدينة فاتاه فقال الساقي
المرسل اليه مناديا بالنداء القريب تحببا اليه يُوسُفُ وزاد في التحبب بقوله أَيُّهَا الصِّدِّيقُ
اي البليغ في الصدق والتصديق لانه جرب احواله وعرف صدقه في تاويل رؤياه ورؤيا صاحبه
وهذا يدل على ان من اراد ان يتعلم من رجل شيئا فانه يجب عليه ان يعظمه وان يخاطبه بالالفاظ المشعرة
بالاجلال ثم انه اعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك فقال أَفْتِنَا اي اذكر لنا الحكم فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
اي راهن الملك يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ من البقر عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ جمع سنبلة وهي مجمع الحب من الزرع
خُضْرٍ وَفي سبع أُخَرَ من السنابل يَابِسَاتٍ اي في رؤيا ذلك ونعم ما فعل من ذكر السؤال بعين اللفظ
فان نفس الرؤيا قد تختلف بحسب اختلاف الالفاظ كما هو مذكور في ذلك العلم ثم قال لَعَلِّي أَرْجِعُ
إِلَى النَّاسِ اي الى الملك وجماعته بفتواك قبل ما انو منعنى لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ اي بتاويل هذه الرؤيا
وقيل منزلتك في العلم وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون قَالَ
يوسف عليه السلام معبرا لتلك الرؤيا اما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة
واما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تَزْرَعُونَ سَبْعَ
سِنِينَ وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما خرج الامر في
صورة الخبر للمبالغة في الايجاب فيجعل كانه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الامر
قوله فذروه في سنبله وقوله دَأَبًا نصب على الحال اي دائبين اي سبع سنين متتابعة على عادتكم
في الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد وهذا تاويل السبع السمان والسنبلات
الخضر وقرأ حفص بفتح الهمزة وسكنها الباقون وابدلها السوسي الفا وقفا ووصلا وحمزة وقفا
فقط فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ اي اتركوه فِي سُنْبُلِهِ لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس وذلك ابقى له

طول الزمان إلا قليلا مما تأكلون اى ادرسوا قليلا من الحنطة للأكل بقدر الحاجة امرهم بحفظ
الاكثر لوقت الحاجة ايضا وهو وقت السنين المجدبة كما قال ثم يأتي من بعد ذلك اى السبع المخصبات
سبع شداد اى مجدبات صعاب وهي تأويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات يأكلن ما قدمتم
لهن اى يأكل اهلهن ما ادخرتم لاجلهن فاسند اليهن على المجاز تطبيقا بين المعبر وهو يأكلهن
سبع عجاف والمعبر به وهو يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون اى تحرزون وتدخرون
للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ثم يأتي من بعد ذلك
اى السبع المجدبات عام فيه يغاث الناس اى يمطرون من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من
من قول العرب استغثت فلانا فأغاثني وفيه يعصرون من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم
دهنا واراد بذلك كثرة النعم والخير وقال ابو عبيدة ينجون من الكرب والشدة والجدب وقرأ حمزة والكسائي
بالتاء على الخطاب لان الكلام كله مع الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ردا الى الناس ولما رجع
الشرابي الى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه وقال الملك
اى الذي العزيز في خدمته ائتوني به لاسمع ذلك منه واكرمه وهذا يدل على فضيلة العلم فانه
سبحانه وتعالى جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص
من المحن الاخروية فأتاه الرسول ليأتي به الى الملك فلما جاءه اى يوسف عليه السلام من قرب من
الزمان الرسول بذلك وهو الساقي وقال له اجب الملك قال له يوسف عليه السلام ارجع الى ربك
اى سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه بعين النقص ولذلك قال فاسأله
ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن وانما قال يوسف عليه السلام فاسأله ما بال النسوة ولم يقل
فاسأله ان يفتش عن حالهن لان قوله فاسأله يحتمل ان يكون بمعنى المسئلة اى اسأله عن شأنهن
وان يكون بمعنى الطلب وهو ان يفتش عن شأنهن فحسن تقييده بلفظ ما التي يسأل بها عن حقيقة الشيء
ليهيجه ان يتحرى للتفتيش عن حالهن لان الانسان حريص على تحقيق الشيء ويستنكف ان ينسب
الى الجهل به بخلاف ما لو قال سله ان يفتش اى اطلب منه فانه لا يبالي بهذا الطلب ولا يلتفت اليه
لا سيما الملوك وانما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعته به كرما ومراعاة للأدب وقدم سؤال النسوة وفحص
حالهن لتظهر براءة ساحته لانه لو خرج في الحال ربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة اثرا فالتمس
من الملك ان يفحص عن حال تلك الواقعة ليدل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر احد
ان يلطخه بتلك الرذيلة وان يتوصل بها الى الطعن فيه وفي ذلك دليل على انه ينبغي للشخص ان يجتهد في
نفي التهم ويتقي مواقعها وروي انه صلى الله عليه وسلم قال لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين
سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما اجبتهم حتى اشترطت ان يخرجوني ولقد عجبت
حيث اتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لاسرعت الاجابة وبادرتهم
الباب ولما ابتغيت العذر ان كان لحليما ذا اناة واصل الحديث في الصحيحين مختصرا وانما قال صلى الله عليه وسلم

ذلك على سبيل التواضع لا انه صلى الله عليه وسلم كان في الامر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف
والتواضع لا يصغر كبيرا ولا يضع رفيعا ولا يبطل لذي حق حقه لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويكسبه جلالة
وقدرا وقوله والله يغفر له مثل هذه المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب من توقيره وتوقيره ومنه كما تقول
لمن تعظمه عفا الله عنك ما صنعت في امري ورضي الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامي وقوله ان كان
حليما ان هي المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو اسم من التأني في الامور وقرأ ابن كثير والكسائي
بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها إِنَّ رَبِّي اي الله
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ حين قلن اطع مولاتك وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وانه بريء
مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن وقيل المراد بربي الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه
اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وابى ان يخرج
من السجن قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك فاخبره بما قال عليه السلام فكأنه قيل فما فعل الملك فقيل
قَالَ للنسوة بعد ان جمعهن وامرأة العزيز معهن مَا خَطْبُكُنَّ اي ما شأنكن العظيم وقوله إِذْ رَاوَدْتُنَّ اي
خادعتن يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ دليل على ان براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة وانما خاطب
الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون استر لها وقيل ان امرأة
العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة امرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن فكأنه قيل فما قلن قيل قُلْنَ
حَاشَ لِلَّهِ اي معاذا بالملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ اي يوسف عليه السلام
واغرقن في النفي فقلن مِنْ سُوءٍ اي من خيانة في شيء من الاشياء ولما ان يوسف عليه السلام
راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن فذكرهن ولم يذكر تلك
المرأة البتة وعرفت المرأة انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عليها ارادت
ان تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم ازالت الغطاء والوطاء فلذلك قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ مصرحة
بحقيقة الحال الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ اي ظهر وتبين أَنَا رَاوَدْتُهُ اي خادعته عَنْ نَفْسِهِ واكدت ما افصحت به
من حاله نفيا لكل سوء بقولها مؤكدا لاجل ما تقدم وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ اي العريقين في هذا الوصف في
نسبة المراودة الي وتبرئة نفسه فقد شهد النسوة كلهن ببراءته وانه لم يقع منه ما ينسب بسببه
الى شيء من السوء البتة فمن نسب بعد ذلك هما او غيره فهو تابع لمجرد الهوى في نبي من المخلصين
قال الرازي رأيت في بعض الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضي وادعت عليه المهر فامر
القاضي بان تكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى
ذلك فاني مصدق لها في دعواها فقالت المرأة لما اكرمتني الى هذا الحد فاشهدوا اني ابرأت ذمتك
من كل حق لي عليك ولما رجع الرسول الى يوسف عليه السلام واخبره بشهادتهن ببراءته قال
ذَلِكَ اي الخلق العظيم في تثبتي في السجن الى ان تبين الحق لِيَعْلَمَ العزيز باقرارها وهي في الامن
وانا في محل الضيق والخوف علما مؤكدا أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ اي في اهله ولا في غيرها بِالْغَيْبِ اي

والحال ان كلا منا غائب عن صاحبه هذا قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة هذا كلام بلقيس ثم قال الله تعالى وكذلك يفعلون وقوله تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لاريب فيه كلام الداعي ثم قال الله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم ختم الكلام بقوله وَأَنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِي اي لا يسدد ولا ينجح بوجه من الوجوه كَيْدَ الْخَائِنِينَ اي ولو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصني منها ظهر اني بريء عما نسبوني اليه وقيل انه كلام امرأة العزيز والمعنى اني وان كنت احلت عليه الذنب في حضوره لكني ما احلت الذنب عليه في غيبته اي لم اقل فيه وهو في السجن خلاف الحق ثم انها بالغت في تأكيد هذا القول وقالت وان الله لا يهدي كيد الخائنين يعني اني لما اقدمت على الكيد والمكر لاجرم افتضحت وانه لما كان بريئا من الذنب لاجرم طهره الله تعالى منه ✽ واعلم ان حمل هذه الآية على القول الاول دال على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه كثيرة الاول قولها انا راودته عن نفسه والثاني قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى انه صادق في قوله هي راودتني عن نفسي والثالث قول يوسف عليه السلام ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب والحشوية يذكرون انه لما قال يوسف هذا الكلام قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت قال الرازي وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد اي وانما اسندها بعضهم لابن عباس بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم في تحريف ظاهر القرآن وتأييدا لاقدامه على قوله ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب مع انه خانه باعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير ان يتعلق به مصلحة بوجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة اصلا لا يليق باحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى نبي مرسل من سلالة الانبياء الاصفياء فثبت ان هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقول الجهال والحشوية واختلفوا في تفسير قوله وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ذلك يختلف باختلاف ما قبله لان قوله ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف عليه السلام وقد مر انه قول الاكثرين فهو ايضا كلامه وان كان من كلام المرأة فهذا ايضا كلامها فعلى الاول قد تمسك به الحشوية وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين حللت تكة سراويلك فعند ذلك قال يوسف عليه السلام وما ابرئ نفسي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ اي بالزنا إِلَّا مَا رَحِمَ اي عصم منه رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ اي للهم الذي هممت به رَحِيمٌ اي لو فعلته لتاب علي وهذا ضعيف كما قاله الرازي لما تقدم ان الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته من الذنب وانما قال ذلك عليه السلام لانه لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى فلا تزكوا انفسكم فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما ابرئ نفسي والمعنى وما ازكي نفسي ان النفس لامارة بالسوء ميالة الى القبائح راغبة في المعصية وعلى الثاني انها

تم الجزء الثاني عشر

لما قالت ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب قالت وما ابرئ نفسي من الخيانة مطلقا فاني قد خنته حين احلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من اراد باهلك سوءا الا ان يسجن واودعته في الحبس كانها ارادت الاعتذار مما كان واختلف في قوله وَقَالَ الْمَلِكُ فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال هو الريان الذي هو الملك الاكبر قال الرازي وهذا هو الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف اجعلني على خزائن الارض يدل عليه الثاني قوله استخلصه لنفسي يدل على انه قبل ذلك ما كان خالصا وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز فدل هذا على ان هذا الملك هو الملك الاكبر انتهى وانما صرح به ولم يستغن بضميره كراهية الالتباس لما تخلل بينه وبين جواب امراة العزيز من كلام يوسف عليه السلام ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج الى ابرازه اِئْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي اي اجعله خالصا لي دون شريك قال ابن عباس فاتاه الرسول فقال له الق عنه ثياب السجن والبسه ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له اهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة واغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل السجن فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وبيوت الاحزان وتجربة الاصدقاء وشماتة الاعداء ثم اتى الملك فلما راه غلاما حدثا فقال ايعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة ثم اقعده قدامه وقال له لا تخف والبسه طوقا من ذهب وثياب حرير واعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وروي ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو في الحبس وقال قل اللهم اجعل لي من عندك فرجا ومخرجا وارزقني من حيث لا احتسب فقبل الله تعالى دعاءه واظهر هذا السبب في تخليصه من السجن وروي ان يوسف لما دخل عليه قال اللهم اني اسالك بخيرك من خيره واعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان عمي اسمعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان ابائي قال وهب كان الملك يتكلم بسبعين لغة ولم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان اجابه يوسف عليه السلام وزاد بالعربية والعبرانية فَلَمَّا كَلَّمَهُ اي كلم الملك يوسف عليه السلام وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة اقبل عليه وقال اني احب ان اسمع منك تاويل رؤياي شفاها فاجابه بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك قَالَ له اِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ اَمِيْنٌ اي ذو مكانة وامانة على امرنا فما ترى ايها الصديق قَالَ ارى ان تزرع في هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبني الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنين المجدبة بعنا الغلال فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف اِجْعَلْنِي عَلٰى خَزَائِنِ الْاَرْضِ جمع خزانة واراد خزائن الطعام والاموال والارض ارض مصر اي خزائن ارضك مصر وقال الربيع بن انس على خرج مصر ودخله روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الاية قال رحم الله اخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من ساعته لكنه

لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة فأقام في بيته سنة مع الملك قال الرازي وهذا من العجائب لأنه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما سارع في ذكر هذا الالتماس أخره الله تعالى عن ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف أتم والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى ثم قال ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي ذو حفظ وعلم بأمرها وقيل كاتب وحاسب فإن قيل لم طلب يوسف عليه السلام الإمارة والنبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة ولم طلب الإمارة من سلطان كافر ولم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة في طلبها في الحال ولم طلب أمر الخزائن في أول الأمر مع أن هذا يورث نوع تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم ولم ترك الاستثناء في هذا وقد قال تعالى ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله فهذه سبعة أسئلة أجيب عنها بأن الأصل في جواب هذه الأسئلة أن التصرف في أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان وإنما كان ذلك واجبا عليه لوجوه الأول أنه كان رسولا حقا من الله تعالى إلى الخلق والرسول يجب عليه مراعاة الأمة بقدر الإمكان والثاني أنه علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد فلعله تعالى أمره أن يدبر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق والثالث أن السعي أيضا في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وإنما مدح نفسه لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكن ما كان عالما بأنه يفي بهذا الأمر وأيضا مدح النفس إنما يكون مذموما إذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل وأما هذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم المراد به تزكية حال من لا يعلم كونها مزكاة والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية هو أعلم بمن اتقى أما إذا كان الإنسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه وإنما ترك الاستثناء لأنه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه أنه إنما ذكره لعلمه أنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلهذا المعنى ترك الاستثناء ولما سأل يوسف عليه السلام ما تقدم قال معلما بأنه قد أجيب بتيسير الله تعالى له ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما أنعمنا عليه بالخلاص من السجن ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ أي ينزل ﴿مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ بعد الضيق والحبس قال ابن عباس وغيره ولما انقضت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه وجعل خاتم الملك في إصبعه وقلده سيفه وجعل له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشا فقال يوسف عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي وأمره أن يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه في صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض إليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن إسحق قال ابن زيد

وكان الملك بمصر وخزائن كثيرة فسلم سلطانه كله اليه وجعل امره وقضاءه نافذا في مملكته ثم مات
قطفير بعد ذلك فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال اليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت
ايها الصديق لا تلمني فاني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا وكان صاحبي لا ياتي النساء
وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي فوجدها يوسف عليه السلام عذراء فاصابها
فولدت له ذكرين افرائيم وميشا فاقام العدل بمصر واحبه الرجال والنساء واسلم على يديه الملك وكثير من
الناس وباع من اهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الاولى ثم بالحلي والجواهر
في السنة الثانية ثم بالدواب في السنة الثالثة ثم بالعبيد والاماء في السنة الرابعة ثم بالضياع
والعقار في السنة الخامسة ثم بالاولاد في السنة السادسة ثم برقابهم في السنة السابعة حتى لم يبق
بمصر حر ولا حرة الا صار عبدا له فقال الناس ما رأينا كاليوم ملكا اجل ولا اعظم من هذا فصار كل الخلق
عبيدا له فلما سمع ذلك قال اني اشهد الله اني اعتقت اهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم املاكهم
وكان لا يبيع احدا ممن يطلب الطعام اكثر من حمل بعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص
ما قاله البغوي والزمخشري وغيرهما قال الرازي والاولى ان يحمل على حقيقة الحال وروي ان يوسف عليه السلام
كان لا يشبع من طعام في تلك الايام فقيل له تجوع وبيدك خزائن الارض فقال اني ان شبعت نسيت الجائع
وامر يوسف طباخ الملك ان يجعل غداءه نصف النهار واراد بذلك ان يذوق الملك طعم الجوع
فلا ينسى الجائعين قال البغوي فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار وقال الله تعالى نُصِيبُ اي نخص
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ في الدنيا والآخرة وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ بل نوفيهم اجورهم عاجلا وآجلا وكان اضاعة
الاجر اما ان تكون للعجز او للجهل او للبخل والكل ممتنع في حق الله تعالى فالاضاعة ممتنعة وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ الشرك والفواحش قال الرازي وهذا تنصيص من الله تعالى على ان يوسف
عليه السلام كان في الزمان السابق من المتقين وليس هنا زمان سابق يحتاج الى بيان انه كان فيه
من المتقين الا ذلك الوقت الذي قال الله تعالى فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا من الله
تعالى شهادة بانه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين وايضا قوله ولا نضيع اجر المحسنين
شهادة من الله تعالى على انه كان من المخلصين فثبت ان الله تعالى شهد بان يوسف كان
من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوي يقول انه كان من المذنبين ولا شك
ان من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه التأكيدات كان من الاخسرين ولما اشتد القحط وعظم البلاء
عم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشام وارض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة فجعل
يوسف عليه السلام لا يعطي احدا اكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا بين الناس فتزاحم الناس
عليه ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وامسك بنيامين اخا
يوسف لامه وابيه فذلك قوله تعالى وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ وكانوا عشرة وكان منزلهم بالعربات من
ارض فلسطين ثغور الشام وكانوا اهل بادية وابل وشاء فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال يا بني ان

بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون من الطعام وفي جاء
همزتان مختلفتان من كلمتين فقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بتسهيل الثانية والباقون بالتحقيق
ولما امرهم ابوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا عليه فعرفهم قال ابن عباس باول نظرة اليهم
عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه وهم له منكرون اي لم يعرفوه وذلك لوجوه الاول انه
عليه السلام امر حجابه بان يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بواسطة الثاني انهم حين القوه
في الجب كان صغيرا ثم انهم راوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة قال ابن عباس وكان بين ان قذفوه
في البئر وبين ان دخلوا عليه اربعون سنة فلذلك انكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير
الملك وكان بزي ملوك مصر عليه ثياب حرير وفي عنقه طوق من ذهب ثم ان يوسف عليه السلام امر بانزالهم
واكرامهم وكانت عادته ان لا يزيد احدا على حمل بعير وكانوا عشرة فاعطاهم عشرة احمال كما قال تعالى ولما جهزهم
بجهازهم اي وفاهم كيلهم والجهاز ما يعد من الامتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة الى اخرى
وما تزف به المرأة الى زوجها فقالوا ان لنا شيخا كبيرا واخا اخر بقي معه وذكروا ان اباهم لاجل سنه
وشدة حزنه لم يحضر وان اخاهم في خدمة ابيه ولا بد لهما ايضا من حملين اخرين من الطعام فلما ذكروا
ذلك قال يوسف عليه السلام فهذا يدل على ان حب ابيكم له ازيد من حبه لكم وهذا شيء عجيب لانكم
انتم مع جمالكم وعقلكم وادبكم اذا كانت محبة ابيكم لذلك الاخ اكثر من محبته لكم دل ذلك على انه
اعجوبة في العقل والادب فجيئوني به حتى اراه كما قال تعالى حكاية عنه قال ائتوني باخ لكم من ابيكم
اي الذي خلفتموه عنده وقيل انه لما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم اخبروني من انتم وما امركم
فاني انكرت شانكم قالوا قوم من ارض الشام اصابنا ما اصاب الناس فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم
لتنظروا الى عورة بلادنا قالوا لا والله لسنا بجواسيس انما نحن اخوة بنو اب واحد وهو شيخ صديق
يقال له يعقوب نبي من انبياء الله تعالى قال وكم كنتم قالوا كنا اثني عشر فذهب اخ لنا الى البرية
فهلك فيها وكان احبنا الى ابينا قال فكم انتم ههنا قالوا عشرة قال واين الاخ الآخر قالوا عند ابينا
لانه اخو الذي هلك وابوه متسل به قال فمن يعلم ان الذي تقولون حق قالوا ايها الملك انا ببلاد
لا يعرفنا فيها احد فقال يوسف عليه السلام فائتوني باخيكم الذي من ابيكم ان كنتم صادقين
فانا ارضى بذلك فقالوا ان ابانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة
حتى تاتوني باخيكم فاقترعوا بينهم فاصابت القرعة شمعون وكان احسنهم رايا في يوسف فخلفوه
عنده ثم انه قال لهم الا ترون اني اوفي الكيل اي اتمه ولا ابخس منه شيئا وقرأ نافع بفتح الياء من
اني والباقون بالسكون واما الياء من اوفي فجميع القراء يثبتونها في الوقف لثباتها في الرسم
وحذفها في الوصل لالتقاء الساكنين وانا خير المنزلين اي المضيفين فانه كان قد احسن انزالهم
وضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الرازي وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم
ونسبهم الى انهم جواسيس ولو شافههم بذلك الكلام فلا يليق به ان يقول لهم الا ترون اني

اى فى الكيل وانا خير المنزلين وايضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا ان يقول لهم انتم عيون وجواسيس مع انه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال عليه السلام فان لم تأتونى به اى باخيكم فلا كيل اى فلا ميرة لكم عندى ولم يمنعهم عليه ولا تقربون نهى او عطف على محل فلا كيل لكم اى تحرموا ولا تقربوا منى ولا تدخلوا ديارى فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب فى قوله الاول والترهيب فى قوله الثانى لانهم كانوا فى نهاية الحاجة الى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الا من عنده ومع ذلك لم يخطر ببالهم انه يوسف فكانه قيل فما قالوا اجيب قالوا سنراود عنه اباه اى سنكلمه فيه وننازعه الكلام ونحتال فيه ونتلطف فى ذلك ولا ندع جهدا وانا لفاعلون اى ما امرتنا به والزمناه ق لما ارغبهم وارهبهم فى شان اخيه قال لفتيانه اى غلمانه الكيالين جمع فتى وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالف بعد الياء المثناة تحت وبعد الالف نون مكسورة والباقون بالياء المثناة تحت ثم بتاء مثناة فوق مكسورة اجعلوا بضاعتهم اى التى اتوا بها ثمن الميرة وكانت دراهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انها كانت النعال والادم فى رحالهم اى اوعيتهم التى يحملون فيها الطعام لعلهم يعرفونها اى بضاعتهم اذا انقلبوا اى رجعوا الى اهلهم وفتحوا اوعيتهم لعلهم يرجعون الينا واختلف فى السبب الذى من اجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم فى رحالهم على اوجه الاول انه اراد ان يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية الى ان يصلوا الى ابيهم الثانى اراد ان يعرف اباه انه اكرمهم وطلبهم لمزيد الاكرام فلا يثقل على ابيه ارسال اخيه الثالث مقصوده ان يعرفوا انه لا يطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا لطلب زيادة الثمن الرابع اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة الخامس قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم انهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم انبياء واولاد انبياء فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا المال الى مالكه السادس اراد به التوسعة على ابيه لان الزمان كان زمان القحط السابع راى ان اخذ ثمن الطعام من ابيه ومن اخوته على شدة حاجتهم الى الطعام لؤم الثامن خاف ان لا يكون عند ابيه من المال ما يرجعون به مرة اخرى التاسع انهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء فيبعثهم ذلك الى العود اليه والحرص على معاملته عليه السلام فلما رجعوا اى اخوة يوسف عليه السلام الى ابيهم قالوا يا ابانا انا قدمنا على خير رجل انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من آل يعقوب ما اكرمنا كرامته فقال يعقوب عليه السلام اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤه منى السلام وقولوا له ان ابانا يدعو لك بما اوليتنا ثم قال لهم اين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر واخبروه بالقصة وقالوا منع منا الكيل فيه قولان احدهما انهم لما طلبوا الطعام لاخيهم الغائب عند ابيهم منعوا منه والثانى انه منع الكيل

في المستقبل وهو قول يوسف عليه السلام فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ويدل لهما قولهم
فأرسل معنا أخانا بنيامين نكتل فإن حمزة والكسائي قرآه بالياء أي يكتل لنفسه وهذا يدل للقول
الأول والباقون بالنون أي نكتل نحن وإياه وهذا يدل للقول الثاني وإنا له لحافظون عن أن يناله
مكروه حتى نرده إليك فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة قال لهم هل آمنكم
أي أقبل منكم الآن وفي مستقبل الزمان تأمينكم لي فيه بما يسوءني تأمينا مستقرا عليه أي بنيامين
إلا كما أمنتكم أي في الماضي على أخيه يوسف عليه السلام من قبل فإنكم أكدتم غاية التأكيد بحفظه
وحفظتموه لي ولم تردوه إلي والأمن اطمئنان القلب إلى سلامة النفس فأنا في هذا لا آمن عليه إلا الله
تعالى فالله المحيط علما وقدرة خير حفظا منكم ومن كل أحد ففيه التفويض إلى الله تعالى والاعتماد
عليه في جميع الأمور وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء والباقون
بكسر الحاء وسكون الفاء وهو منصوب على التمييز في القراءتين ويحتمل الأولى النصب على الحال اللازمة
وهو أرحم الراحمين أي أرحم بي من أن يفجعني به بعد مصيبتي بأخيه فأرجو أن لا يجمع علي مصيبتين ولما
أرادوا تفريغ ما قد حملوه من الميرة فتحوا متاعهم أي أوعيتهم التي حملوها من مصر وجدوا بضاعتهم
أي ما كانوا دفعوه من كنعان لشراء القوت ردت إليهم والوجدان ظهور الشيء للنفس بحاسة أو ما
يقوم مقامها فكأنه قيل ما قالوا فقيل قالوا أي لأبيهم عليه السلام يا أبانا ما استفهامية أي أي شيء
نبغي أي نريد جميع القراء أثبتوا الياء وقفا ووصلا لثباتها في الرسم فكأنه قال لهم ما الخبر فقالوا إيضاحا
لذلك وتأكيدا للسؤال في استصحاب أخيهم هذه بضاعتنا ردت إلينا هل من مزيد على ذلك
أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا ولما كان التقدير فنرجع بها إليه بأخينا
فيطلق له نصيبا وصدقنا ونمير أهلنا أي نجلب إليهم الميرة برجوعنا إليه والميرة الأطعمة التي
تحمل من بلد إلى بلد ونحفظ أخانا فلا يصيبه شيء مما تخشى عليه تأكيد للوعد بحفظه ونزداد
كيل بعير لأخينا ذلك كيل يسير أي سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل وقيل قصير المدة
ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير وقيل قليل فابعث أخانا معنا حتى
نبدل تلك القلة بالكثرة فكأنه قيل ما قال لهم فقيل قال يعقوب عليه السلام لن أرسله أي
بنيامين كائنا معكم أي في وقت من الأوقات حتى تؤتون موثقا أي عهدا مؤكدا من الله قرأ
ابن كثير بإثبات الياء بعد النون وقفا ووصلا وأبو عمرو بإثبات الياء وصلا لا وقفا وحذفها
الباقون وقفا ووصلا وقوله لتأتنني أي كلكم به أي تحلفوا بالله لتأتنني به من الإتيان وهو
في كلامه جواب القسم والمعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به إلا أي في حال أن يحاط أي تحصل
الإحاطة بمصيبة من المصائب لا طاقة لكم بها بكم فتهلكوا من عند آخركم كل ذلك زيادة في التوثق بأحسن
له من المصيبة بيوسف عليه السلام وإن كان الاعتماد في حفظه إنما هو على الله تعالى وهذا من باب
اعقلها وتوكل فأجابوه إلى ذلك كما قال تعالى فلما آتوه موثقهم بذلك قال الله على ما نقول

نخي والله وكيل اى شهيد وارسله معهم بعد ذلك فان قيل لم ارسله معهم وقد شاهد ما شاهد في يوسف عليه السلام اجيب بان ذلك لوجوه احدها انهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح الثاني انه كان شاهد انه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام الثالث لعل الله اوحى اليه وضمن حفظه وايصاله اليه ولما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وابناء رجل واحد قال لهم يا بني لا تدخلوا اذا قدمتم الى مصر من باب واحد من ابوابها وادخلوا من ابواب واحترز من ان تكون متلاصقة او متقاربة جدا بقوله متفرقة اى تفرقوا كثيرا وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهي من قدر الله تعالى وقد ورد شرعنا بذلك ففي الصحيحين وغيرهما عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العين حق وفي رواية عن احمد يحضرها الشيطان وحسد ابن ادم وفي رواية لمسلم العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين وفي رواية عن جابر ان العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول اعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين وعن عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت اليه في اخر النهار فرايته معافى فقال ان جبريل عليه السلام اتاني فرقاني فقال بسم الله ارقيك من كل شئ يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك قال فافقت وفي رواية ان بني جعفر بن ابي طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت اسماء يا رسول الله ان العين اليهم سريعة فاسترق لهم من العين فقال لها نعم وفي رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ام سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا يا رسول الله اصابته العين فقال افلا تسترقون له من العين وعن عائشة رضي الله تعالى عنها كان يؤمر العائن ان يتوضأ ثم يغتسل منه المعين الذي اصيب بالعين ولما خاف يعقوب عليه السلام ان يسبق من امره هذا الى بعض الاوهام ان الحذر يغني عن القدر نفى ذلك بقوله عليه السلام وما اغني اى ادفع عنكم بقولي ذلك من الله من شئ قدره عليكم وانما ذلك شفقة ومن مزيدة للتاكيد واعلم ان الانسان مامور بان يراعي الاسباب المعتبرة في هذا العالم وان يجزم بانه لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا يدفع القدر فالانسان مامور بان يحذر الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ومع ذلك يكون جازما بانه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى ولا يحصل في الوجود الا ما اراده الله تعالى فقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة في هذا العالم وقوله وما اغني عنكم من الله من شئ اشارة الى عدم الالتفات الى الاسباب بل الى التوحيد المحض والبراءة من كل شئ سوى الله تعالى ولما فوض الامر كله اليه تعالى وجب رد كل امر اليه وقصر النظر عليه فقال منبها على ذلك ان الحكم الا لله

ان الحكم الا لله

وحده الذي ليس الحكم إلا له عليه أي على الله وحده توكلت أي جعلته وكيلي وفوضت بكل ما نفعل
وعليه وحده فليتوكل المتوكلون أي الثابتون في باب التوكل فإن ذلك من أعظم الواجبات
من فعله فاز ومن أغفله خاب وقد ثبت بالبرهان أن لا حكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات
ودفع كل الآفات من الله تعالى وذلك يوجب أن لا توكل إلا على الله تعالى فهذا مقام شريف عال والشيخ
أبو حامد الغزالي أكثر في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتب إحياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء
فيه فليطالع ذلك الكتاب. ولما قال يعقوب عليه السلام وما أغني عنكم من الله من شيء صدقه الله
تعالى في ذلك فقال ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم أي متفرقين ما كان ذلك التفرق
يغني عنهم من الله أي من قضائه وأغرق في النفي فقال من شيء أي مما قضاه عليهم كما تقدم من قول
يعقوب عليه السلام فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على
يعقوب عليه السلام وقوله تعالى إلا حاجة استثناء منقطع أي لكن حاجة في نفس يعقوب وهي
الوصول إلى ما أمر به شفقة عليهم قضاها يعقوب عليه السلام وأبرزها من نفسه إلى أولاده فعملوا فيها
بمراده فأغنى عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط وإنه أي يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك
لذو علم أي معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع على الكونين عظيم لما علمناه بالوحي
ونصب الحجج ولذلك قال وما أغني عنكم من الله من شيء ولم يغتر بتدبيره. ولما كان قد يظن أن كل
أحد يكون كذلك أي يعلم ما علمه نفى ذلك سبحانه وتعالى بقوله جل شأنه ولكن أكثر الناس أي لأجل
ما لهم من الاضطراب لا يعلمون أي ليسوا بذوي علم لما علمناهم لإعراضهم عنه واستغراق قواهم
في الاهتمام بما فوق التكليف لهم به من أحوال الدنيا ومقابلة فطرهم القويمة السليمة بردها إلى ما تدعوهم
إليه الحظوظ والشهوات حتى لا يكون طب للمخلوق. ولما أخبر تعالى عن دخولهم إلى البلد أخبر عن
دخولهم لحاجتهم إلى يوسف عليه السلام فقال ولما دخلوا أي إخوة يوسف عليه السلام على يوسف
في القدمة الثانية بأخيهم بنيامين قالوا هذا أخونا فقال أحسنتم وأصبتم وستجدون خير ذلك
عندي ثم أنزلهم وأكرم منزلهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحيدا فبكى
وقال لو كان أخي يوسف حيا أجلسني معه فقال يوسف لقد صار أخوكم هذا وحيدا فأجلسه معه على
مائدته وصار يؤاكله فلما كان الليل أمرهم أن ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقي بنيامين وحده فقال يوسف
هذا ينام معي على فراشي كما قال تعالى آوى أي ضم إليه أخاه فبات معه وجعل يوسف يضمه إليه ويشمه
ثم قال له ما اسمك فقال بنيامين قال وما بنيامين قال المثكل وذلك أنه لما ولد هلكت أمه قال
وما اسم أمك قال راحيل بنت لاوي قال فهل لك من ولد قال نعم عشرة بنين ولما رأى تأسفه
لأخ له هلك قال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك فقال ومن يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك
يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال إني أنا أخوك فلا تبتئس أي لا تحزن
بما كانوا يعملون أي بشيء فعلوه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا فلا تلتفت إلى أعمالهم المنكرة

التي قد اقتضاها وعد بها وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشيء من ذلك وقرأ نافع وابن كثير و
ابو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وعند بعض القراء من انا قبل الهمزة المفتوحة نافع والباقون
بالقصر ثم انه مدة [illegible] كما ارادوا [illegible] في المرة الاولى ابطأ في تجهيزهم في طول المدة ليتعرف
اخبارهم من حيث لا يشعرون [illegible] واسرع في تجهيزهم في هذه المرة قصدا الى انفراده
باخيه من غير [illegible] الحيلة التي دبرها فلذلك اثبت الفاء في قوله فَلَمَّا جَهَّزَهُم اي اعجل جهازهم
واحسنه بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ بنفسه او باعوانه السِّقَايَةَ اي المشربة التي كان يشرب بها فِي رَحْلِ أَخِيهِ
اي وعاء طعام اخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم في المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد
وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر
وجعلها يوسف عليه السلام مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها قال الرازي هذا بعيد لان
الاناء الذي يشرب فيه الملك لا يصلح ان يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا ايضا
بعيد لان الاواني التي تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك قال والاصوب ان يقال كان ذلك الاناء
شيئا له قيمة اما الى هذا الحد الذي ذكره [illegible] والسقاية والصواع واحد ثم ارتحلوا وامهلهم يوسف
عليه السلام حتى انطلقوا [illegible] وقيل [illegible] من العمارة ثم بعث خلفهم من
استوقفهم وحبسهم ثُمَّ أَذَّنَ اي اعلمهم بالنداء مُؤَذِّنٌ قائلا برفع صوته وان كانوا في غاية
القرب منه بما دل عليه اسقاط اداة النداء أَيَّتُهَا الْعِيرُ اي القافلة قال ابو الهيثم كل ما سير عليه من الابل
والحمير والبغال فهو عير قال وقول من قال العير الابل خاصة باطل فقوله ايتها العير اي اصحاب العير كقوله
يا خيل الله اركبي قال الفراء كانوا اصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير حميرا وقرأ ورش بابدال الهمزة
مؤذن واوا وقفا ووصلا وحمزة في الوقف فقط والباقون بالهمز إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ فقفوا حتى ننظر
الذي فقد لنا والسرقة اخذ مال الغير [illegible] من حرز مثله فان قيل هل كان هذا
النداء بامر يوسف عليه السلام او ما كان بامره فان كان بامره فكيف يليق بيوسف عليه السلام
مع علو منصبه النبوية ان يرمي قوما [illegible] الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير امره فهلا اظهر
براءتهم عن تلك التهمة [illegible] باجوبة الاول انه عليه السلام لما اظهر لاخيه انه يوسف
قال لست افارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بعد ان انسبك فيها الى ما لا يليق بك
قال رضيت بذلك وعلى هذا التقدير فلا يتأذى بسبب هذا الكلام لانه قد رضي به فلا يكون ذلك ذنبا
الثاني انكم لسارقون يوسف من ابيه الا انهم ما اظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفي المعاريض
مندوحة عن الكذب الثالث ان المنادي انما ذكر النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا يجب
ان يكون [illegible] في القرآن ما يدل على انهم قالوا هذا بامر يوسف عليه السلام قال الرازي
والاقرب الى ظاهر الحال انهم فعلوا ذلك من انفسهم لانهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن
هناك احد غيرهم غلب على ظنهم انهم الذين اخذوها فلما وصل اليهم الرسول قال لهم الم نحسن ضيافتكم

ولكم منه اكرم ونفعكم كيلكم وفعلنا بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذلك قالوا سقاية الملك فقدناها
ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا اي اخوة يوسف وقد اقبلوا عليهم اي على جماعة الملك المنادي
وغيره ماذا اي ما الذي تفقدون مما معكم انه الفقد اي ضد الوجود قالوا نفقد وكان للسقاية
اسمان فعبروا بقولهم صواع الملك والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة سموه تارة كذا وتارة
كذا وانما اتخذ هذا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به في ذلك الوقت ولمن جاء به حمل بعير اي
من الطعام والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة واطلاقه يعم على الانثى ايضا وجعله نظير انسان
وهو ما جرى عليه الفقهاء في باب الوصية والجمهور في القلة على البعير والانثى وانا به زعيم
قال مجاهد هذا الزعيم هو الذي اذن والزعيم الكفيل وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة
في شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الزعيم غارم واذا ورد في شرعنا
ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا في ذلك خلاف والراجح انه ليس بشرع لنا فان قيل كيف
تصح هذه الكفالة مع ان السارق لا يستحق شيئا اجيب بانهم لم يكونوا سراقا في الحقيقة فيحمل
ذلك على مثل رد الضائع فيكون ذلك جعالة او ان مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم
في ذلك الزمان قالوا اي اخوة يوسف عليه السلام تالله التاء حرف قسم وهي بدل من الواو
من واو القسم والواو بدل من الباء فهي فرع الفرع فلذلك ضعفت عن التصرف في الاسماء فلا تدخل
الا على الجلالة الكريمة او الرب مضافا للكعبة او الرحمن في قول ضعيف ولو قلت تالرحمن لم يجز اي
والله لقد علمتم اي مما جربتم من امانتنا قبل هذا في كرتي مجيئنا ما جئنا والنفي باللام
فقالوا لنفسد اي لنوقع الفساد في الارض اي ارض مصر وما كنا اي بوجه من
الوجوه سارقين اي موصوفين بهذا الوصف قط فان قيل من اين علموا ذلك اجيب بان
ذلك يعلم مما راوا من احوالهم وقيل لانهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم قالوا فلو كنا
سارقين ما رددناها وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بانهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا
اذا دخلوا مصر كمموا افواه دوابهم كي لا تتناول شيئا من حروث الناس قالوا اي اصحاب يوسف
عليه السلام المنادي ومن معه فما جزاؤه اي السارق وقيل الصواع ان كنتم كاذبين
في قولكم ما كنا سارقين ووجد فيكم والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من خير او شر قالوا وثوقا منهم
بالبراءة واخبارا بالحكم عندهم جزاؤه من وجد في رحله ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد
الوجدان لا السرقة ثم اكد ذلك بقولهم فهو جزاؤه قال ابن عباس كان في ذلك الزمان
كل سارق بسرقته فلذلك قالوا ذلك اي فالسارق جزاؤه ان يسلم بسرقته الى المسروق منه
فيسترق سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان حكم ملك مصر ان يضرب
السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق فاراد يوسف ان يحبس اخاه عنده فرد الحكم اليهم
ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم كذلك اي الجزاء نجزي الظالمين بالسرقة قاله اصحاب

يوسف لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف عليه السلام فامر بتفتيشها بين يديه
فبدأ باوعيتهم ففتشوها قبل وعاء اخيه لتهمته فلم يجد فيها شيأ ثم اى بعد التفتيش لاوعيتهم
والانتهاء الى ذلك استخرجها اى السقاية او الصاع لانه يذكر ويؤنث من وعاء اخيه فلما اخرج الصاع
من وعاء بنيامين نكس اخوته رؤسهم من الحياء واقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ايش
الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى اخذت هذا الصاع
فقال بنيامين بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم باخي فاهلكتموه في البرية ان الذي وضع
هذا الصاع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادي واصحابه
هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فاخذوه برقبته وردوه الى يوسف
عليه السلام (تنبيه) ههنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بابدال الثانية
ياء والباقون بالتحقيق كذلك اى مثل ذلك الكيد كدنا ليوسف خاصة بان علمناه اياه جزاءهم
على كيدهم بيوسف عليه السلام في الابتداء وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام فيكيدوا
لك كيدا والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبير بالحق فالمراد من هذا الكيد هو ان الله
تعالى القى في قلوب اخوته بان حكموا ان جزاء السارق هو ان يسترق لا جرم لما ظهر الصاع في رحله
حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك اخيه عند نفسه
ولما كان الكيد يشعر بالحيلة والخديعة وهو في حق الله تعالى محال حمل على الغاية ونهايته القاء
الانسان من حيث لا يشعر في امر مكروه لا سبيل له الى دفعه فالكيد في حق الله تعالى محال على هذا
المعنى وقيل المراد بالكيد ههنا ان اخوة يوسف سعوا في ابطال امره والله تعالى نصره وقواه
واعلى امره وقوله تعالى ما كان اى يوسف ليأخذ اخاه في دين الملك اى حكمه بيان
للكيد لان جزاء السارق كان عنده الضرب وتغريم مثل ما اخذ لا انه يستعبد وقوله تعالى الا ان
يشاء الله فيه وجهان احدهما انه استثناء منقطع تقديره ولكن بمشيئة الله اخذه في دين غير
دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام ان الاسترقاق جزاء السارق والثاني انه مفرغ
من الاحوال العامة والتقدير ما كان ليأخذه في كل حال الا في حال التباسه بمشيئة الله اى اذنه
في ذلك ولما كان يوسف عليه السلام انما تمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه ورتبته بعد ما
كان فيه عندهم من الصغار كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا الى مقام التكلم نرفع درجات
من نشاء اى بالعلم كما رفعنا درجته وكان الاصل درجاته ولكنه عمم لانه ادل على العظمة لكان
الرق مظهرها وفي هذه الآية دليل على ان العلم اشرف المقامات واعلى الدرجات لان الله تعالى
لما هدى يوسف عليه السلام الى هذه الحيلة مدحه لاجل ذلك ورفع درجته على اخوته ووصف
ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى نرفع درجات من نشاء عندما حكى عنه دلائل التوحيد والبراءة
عن الهية المتعدد والشمس والقمر والكواكب وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتنوين في التاء والباقون بغير تنوين

وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى ان ينتهي العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغني بعلمه عن التعلم وفي الآية دليل على ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء وكان يوسف اعلم منهم قال ابن الانباري يجب ان يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لربه تعالى ولا يطمع نفسه في الغلبة في العلوم لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه * ولما انفصل لاخوة يوسف من اخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل فكأنه قيل فما كان فعلهم عند ذلك فقيل قَالُوا تسلية لانفسهم ودفعا للعار عن جانبهم إِن يَسْرِقْ ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بامانته وظنهم ان الصواع دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم في رحالهم وكان قد قال لهم ذلك فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ اي يوسف وكان غرضهم من ذلك انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو واخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من ام اخرى واختلفوا في التي نسبوها الى يوسف عليه السلام على اقوال فقال سفيان بن عيينة اخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فاعطاها سائلا وقال مجاهد جاءه سائل فاخذ بيضة من البيت فناولها للسائل وقال وهب كان يخبأ الطعام من مائدة يعقوب للفقراء وقال سعيد بن جبير كان جده ابو امه كافرا يعبد الوثن فامرته امه ان يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة وقال محمد بن اسحق ان يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة اسحق وكانت تحبه حبا شديدا فارادت ان تمسكه عند نفسها وكان قد بقي معها منطقة لابيها اسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت انه سرقها وكان علمهم ان من سرق يسترق فقال يعقوب عليه السلام ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فامسكته عندها حتى ماتت فتوصلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها قال ابن الانباري ليس في هذه الافعال كلها سرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وقيل انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدة الطويلة قال الرازي وهذه الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطهر من الغل البتة فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا اي يظهرها لَهُمْ والضمير للكلمة التي هي قوله قَالَ اي في نفسه أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا اي من يوسف واخيه اي لسرقتكم اخاكم من ابيكم وظلمكم له وقيل الضمير يرجع الى الكلمة التي قالوها في حقه وهي قولهم فقد سرق اخ له من قبل وعلى هذا يكون المعنى فاسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ اي تقولون وانه ليس كما قلتم قال اصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره وادناه الى اذنه ثم قال ان صاعي هذا يخبرني انكم كنتم اثني عشر رجلا لاب واحد وانكم انطلقتم باخ لكم من ابيكم فبعتموه فقال بنيامين ايها الملك ان صاعك يخبرك من جعله في رحلي ثم نقره وادناه من اذنه فقال ان صاعي غضبان وهو يقول كيف تسألوني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت قال فغضب روبيل لذلك وكانوا اولاد يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شيء

وكان إذا صاح ألقت كل حامل حملها إذا سمعت صوته وكان متى مس هذا الغضبان أحد من
ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه وكان أقوى الإخوة وأشدهم وروي أنه قال لإخوته كم
عدد الأسواق بمصر قالوا عشرة فقال اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفوني أنتم الملك
وأنا أكفيكم الأسواق ودخلوا على يوسف فقال يهوذا لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا تبقى بمصر
امرأة حامل إلا ألقت ولدها وقامت كل شعرة في جسده حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له
صغير قم إلى جنبه ومس جسده ويروى خذ بيده فأتني به فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه
فقال لإخوته من مسني منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل إن هذا بذر من بذر يعقوب
فقال يوسف من يعقوب وروي أنه غضب ثانيا فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه
فوقع على الأرض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا
أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا و قالوا يا أيها العزيز تعظيما له وترقيقا لقلبه بما كان يبرق لهم
إن له أي هذا الذي وجد الصواع في رحله أبا شيخا كبيرا أي في سنه وقدره ومن قوم يعز عليهم
فراقه ولا يصبر عنه فخذ أحدنا مكانه واحبسه لأبيه أو استماله إليه إنا نراك أي نعلمك علما هو كالرؤية
أو بحسب ما رأيناه من المحسنين أي العريقين في صفة الإحسان فأجرنا على عادة إحسانك فكأنه
قيل فما أجابهم قيل قال معاذ الله هو منصوب على المصدر وحذف فعله وأضيف إلى المفعول أي نعوذ
بالذي لا مثل له معاذا عظيما من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ولم يقل سرق متاعنا لأنه
لم يفعل في الصواع فعل السارق ولم يقع منه قبل ذلك ما يسمى سرقة أو وصف عليه ثم علله بقوله إنا إذا
أي إذا أخذنا أحدا مكانه لظالمون أي عريقون في الظلم في دينكم فلم تطلبون ما هو ظلم عندكم
ولما استيأسهم بما قال عن إطلاق بنيامين حكى الله تعالى ما تم لهم من الرأي فقال فلما دالا بالفاء على قرب
زمن تلك المراجعات استيأسوا أي أيسوا يأسا عظيما لما رأوا من إحسانه ولطفه وحمته بأسا شديدا
بما رأوا من ثباته على أخذه بعينه وعدم استيفائه خلصوا أي انفردوا واعتزلوا حال كونهم نجيا
وهو مصدر يصلح للواحد وغيره أي ذوي نجوى يناجي بعضهم بعضا فكأنه قيل فما قالوا فقيل قال كبيرهم
في السن وهو روبيل وقيل في الفضل والعلم وهو يهوذا وقيل شمعون وكان له الرياسة على إخوته
ألم تعلموا مقررين لهم بما يعرفونه من قرب الزمان ليشتد توجههم في بذل الجهد في الخلاص من غضب
أبيهم أن أباكم أي الشيخ الكبير الذي فجعتموه في أحب ولده إليه قد أخذ عليكم أي قبل أن
يعطيكم هذا الولد الآخر موثقا أي عهدا وثيقا من الله في أخيكم وإنما جعل حلفهم بالله
موثقا منه لأنه بإذن منه وتأكيد من جهته وقوله ومن قبل ما فرطتم في يوسف في هذه الآية وجوه
أظهرها أن ما مزيدة فيتعلق الظرف بالفعل بعدها والتقدير ومن قبل هذا فرطتم أي قصرتم
في حق يوسف وشأنه وزيادة ما كثيرة وبه بدأ الزمخشري وغيره وقيل إنها مصدرية في محل
رفع بالابتداء والخبر هو قوله في يوسف أي وتفريطكم كائن أو مستقر في يوسف وإلى هذا ذهب

الفارسي وقيل غير ذلك ولا طائل بذكره اذ في هذا القدر كفاية فلن ابرح اي افارق الارض
اي ارض مصر حتى يأذن لي ابي اي بالعود اليه او يحكم الله لي بالخلاص اي منهم وهو خير الحاكمين
اي اعدلهم فان قيل هذه الواقعة من اولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز ليوسف عليه السلام
ان يعمل مثل هذه الاعمال بابيه ولم يخبره بمكانه وحبس اخاه ايضا عنده مع علمه بشدة وجد
ابيه عليه وشدة همه وفيه ما فيه من العقوق وايذاء الناس من غير ذنب لا سيما ويعلم انه اذا حبس
اخاه عنده بهذه التهمة فانه يعظم حزن ابيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة
في التزوير الى هذا الحد اجيب باجوبة كثيرة للعلماء واحسنها انه انما فعل ذلك بامر الله تعالى له
لا عن امره وانما امره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام فيضاعف له الاجر على
البلاء ويلحقه بدرجة ابائه ولله تعالى اسرار لا يعلمها الا هو جل من خلقه وهو المتصرف في خلقه
بما يشاء فهو الذي اخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد ان يبرز
فيهم والله اعلم باحوال عباده ثم قال كبيرهم ارجعوا الى ابيكم دوني فقولوا له اي متلطفين في
خطابكم يا ابانا واكدوا مقالتكم فانه ينكره وقولوا ان ابنك سرق فان قيل كيف يحكمون عليه بانه
سرق من غير بينة وهو قد اجابهم بالجواب الثاني فقال الذي جعل الصاع في رحلي هو الذي جعل البضاعة
في رحالكم اجيب بانهم لما شاهدوا الصاع وقد اخرج من متاعه غلب على ظنهم انه سرق فلذلك
نسبوه الى السرقة في ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم وما
شهدنا عليه الا بما علمنا ظاهرا من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه واما قوله وضع الصاع في رحلي
من وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بانهم
هم الذين وضعوها في رحالهم واما هذا الصاع فان احدا لم يعترف بانه هو الذي وضع الصاع
في رحله فلهذا السبب غلب على ظنهم انه سرق فشهدوا بناء على الظن وما كنا للغيب اي لما غاب
عنا حين اعطينا الموثق حافظين اي ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير امرنا الى هذا ولو علمنا ذلك
ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ اخانا مما لنا الى حفظه سبيل وحقيقة الحال غير معلومة لنا فان
الغيب لا يعلمه الا الله تعالى فلعل الصاع دس في رحله ونحن لا نعلم ذلك فلعل حيلة دبرت
في ذلك غاب عنا علمها كما صنع في رد بضاعتنا واسأل القرية اي اهلها على حذف المضاف
وهو مجاز مشهور وقيل انه مجاز لكنه من باب اطلاق المحل وارادة الحال التي كنا فيها وهي
مصر عما اخبرناك به فيخبرونك بصدقنا فان الامر قد اشتهر عندهم وقيل هي قرية من قرى مصر كانوا
ارتحلوا منها الى مصر واسأل العير اي القافلة وهم قوم من كنعان جيران يعقوب عليه السلام
التي اقبلنا فيها والسؤال طلب الاخبار باداته من الهمزة او هل او غيرهما والقرية الارض
الجامعة لحدود فاصلة واصلها من قريت الماء جمعته والعير قافلة الحمير من العير بالفتح وهو
الحمار هذا هو الاصل ثم كثر حتى استعمل في غير الحمير ولما كان ذلك بالاشكال لما يتحقق من كرامتهم

اكدوه بقولهم وَإِنَّا اي والله انا لَصَادِقُونَ في اقوالنا ولما رجعوا الى ابيهم وقالوا له ما قال كبيرهم
فكانه قيل فما قال لهم فقيل قَالَ لهم بَلْ سَوَّلَتْ اي زينت تزيينا فيه تمويه لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا اي وهو تهمة
بامر فعلتموه والا فما ادرى الملك ان السارق يوخذ بسرقته فَصَبْرٌ جَمِيلٌ اي فامري صبر جميل
او فصبر جميل صبري او اجمل وقد مر مثل ذلك في واقعة يوسف الا انه قال فيها والله المستعان
على ما تصفون وقال هنا عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ اي بيوسف وشقيقه بنيامين والاخ الثالث
الذي اقام بمصر جَمِيعًا اي فلا يتخلف منهم احد وانما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة لانه
لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك
على سبيل حسن الظن بالله تعالى وتفرس ان هذه الافعال نشأت من يوسف عليه السلام وانه
لامر يرجع الى سلامة واجتماع شمل علل هذا بقوله إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ اي البليغ العلم بما خفي عنا من ذلك
فيعلم اسبابه الموصلة الى المقاصد الْحَكِيمُ اي البليغ فيما يدبره ويقضيه وَلما ضاق قلب
يعقوب عليه السلام بسبب الكلام الذي سمعه من ابنائه في حق بنيامين تَوَلَّى عَنْهُمْ اي انصرف
بوجهه عنهم لما ادى اليه عنده من الحزن وَقَالَ يَا أَسَفَى اي يا اسفي عَلَى يُوسُفَ اي تعال هذا اوانك
والاسف اشد الحزن والحسرة والالف بدل من ياء المتكلم وانما تاسف على يوسف دون اخويه والحادث
انما هو مصيبتهما لان مصيبته كانت قاعدة المصائب والحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان
ذلك اوجع للقلب واعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما راى قبرا جديدا جدد
حزنه على اخيه مالك فقالوا اتبكي كل قبر رايته + لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت لهم ان الاسى يبعث الاسى + فدعني فهذا كله قبر مالك ولانه كان واثقا بحياتهما
حياته وفي حديث رواه الطبراني لم تعط امة من الامم انا لله وانا اليه راجعون عند المصيبة
الا امة محمد صلى الله عليه وسلم الا ترى الى يعقوب حين اصابه ما اصابه لم يسترجع وقال يا اسفا
وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ اي انمحق سوادهما وبدل بياضا مِنَ الْحُزْنِ اي من كثرة البكاء عليه وقيل عند غلبة
البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كانها ابيضت من بياض ذلك الماء وقيل ضعف بصره حتى
صار يدرك ادراكا لطيفا وقيل عمي وقال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى
بقميص يوسف عليه السلام وقيل ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن فقال ان
بصر ابيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال ليت امي لم تلدني ولم اك حزنا على
ابي فان قيل هذا الحزن والجزع جار مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام اجيب
بانه لم يذكر الا هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ثم امسك لسانه عن النياحة وذكر ما لا ينبغي ولم يظهر
الشكاية مع احد من الخلق ويدل لذلك قوله فَهُوَ كَظِيمٌ اي مغموم مكروب لا يظهر كربه
وقوله انما اشكو بثي وحزني الى الله فكل ذلك يدل على انه لما عظمت وقويت محنته صبر وتجرع الغم
وما اظهر الشكاية به فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل وروي ان يوسف عليه السلام

قال لجبريل عليه السلام هل لك علم بيعقوب قال نعم قال فكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهي التي
لها ولد واحد يموت قال فهل له اجر قال نعم اجر مائة شهيد ولعل امثال ذلك لا يدخل تحت التكليف
فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد وايضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم
على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا على فراقك يا ابراهيم
لمحزونون رواه الشيخان ٭ تنبيه ٭ شرف الانسان باللسان والعين والقلب فبين تعالى ان هذه الثلاثة
كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله يا اسفا والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد
الذي يشبه الوعاء المملوء الذي سد فلا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم
ولما وقع من يعقوب عليه السلام ذلك كان كانت قائلا يقول فما قال له اولاده فقيل قالوا له متلطفين
ذلك تالله تفتؤ اي لا تفتؤ اي لا تزال تذكر يوسف تفجعا فتفتؤ جواب القسم وهو على حذف لا كقول
الشاعر ٭ فقلت يمين الله ابرح قاعدا ٭ ولو قطعوا راسي لديك واوصالي ٭ ويدل على حذفها انه
لو كان مثبتا لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معا عند البصريين او احدهما عند الكوفيين فتفتؤ هنا
ناقصة بمعنى لا تزال كما تقرر ورسمت تفتؤ بالواو حتى الى ان تكون حرضا اي مشرفا على الهلاك لطول
مرضك وهو مصدر يستوي فيه الواحد وغيره او تكون من الهالكين اي الموتى فان قيل
لم حلفوا على ذلك مع انهم لم يعلموا ذلك قطعا اجيب بانهم بنوا الامر على الظاهر قال اكثر المفسرين
قائل هذا الكلام هم اخوة يوسف وقال بعضهم ليس الاخوة بل الجماعة الذين كانوا في الدار من اولاده
وخدمه ٭ ولما قالوا له ذلك فكان قائلا يقول فما قال لهم فقيل قال لهم انما اشكو بثي والبث
اشد الحزن سمي بذلك لانه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر وحزني مطلقا وان كان
سببه خفيفا فيقيد المطلق هي ازالته الى الله المحيط بكل شيء علما وقدرة لا الى غيره فهو الذي تنفع
الشكوى اليه واعلم من الله اي المالك الاعلى من اللطف باهل البيت ما لا تعلمون فيأتيني بالفرج
من حيث لا احتسب وفي ذلك اشارة الى انه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وذكروا
لسبب هذا التوقع امورا احدها ان ملك الموت اتاه فقال له يا ملك الموت هل قبضت روح ابني
يوسف قال لا يا نبي الله ثم اشار الى جانب مصر وقال اطلبه من ههنا ولذلك قال يا بني اذهبوا فتحسسوا
اي والتحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل التحسس بالحاء يكون
في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورة الناس والمعنى
تحسسوا خبرا من اخبار يوسف واخيه اي اطلبوا خبرهما ثانيها انه علم ان رؤيا يوسف عليه السلام
صادقة لان امارات الرشد والكمال ظاهرة في حق يوسف عليه السلام ورؤيا مثله لا تخطئ ثالثها
لعله تعالى اوحى اليه انه سيوصله اليه ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق ورابعها قال
السدي لما اخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله واقواله وافعاله طمع في ان يكون هو يوسف وقال
بعيد ان يظهر في الكفار مثله ثم تلطف بنيه وقال لهم ولا تيأسوا اي تقنطوا من روح الله قال ابن عباس

من رحمة الله وقال قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله إنه لا ييأس من روح الله إلا
القوم الكافرون أي الغريقون في الكفر قال ابن عباس إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء
ويحمده على الرخاء والكافر على الضد من ذلك فإن اليأس من رحمة الله لا يحصل إلا إذا اعتقد
الإنسان أن إله العالم غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد
من هذه الثلاثة يوجب الكفر وإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل
واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا وقرأ البزي بعد التاء من تيأسوا وبعد الياء
من لا ييأس بألف وبعدها ياء مفتوحة بخلاف عنه والباقون بهمزة مفتوحة قبلها ياء ساكنة
ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية وعادوا إلى مصر فلما دخلوا عليه
أي على يوسف عليه السلام قالوا يا أيها العزيز وكان العزيز لقب الملك مصر يومئذ مسنا وأهلنا
أي من خلفناهم وراءنا الضر أي لابسنا ملابسة نحسها وجئنا ببضاعة وقالوا مزجاة أما لنقصها
أو رداءتها أو لهما جميعا وقال الحسن البضاعة المزجاة القليلة واختلفوا في تلك الرداءة فقال ابن عباس
كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام وقيل متاع الأعراب الصوف والسمن وقيل الأقط وقيل النعال
والأدم وقيل إن دراهم مصر كان ينقش فيها صورة يوسف عليه السلام والدراهم التي جاؤا بها ما كان
فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس ثم سببوا عن هذا الاعتذار لأنه أقرب إلى رحمة أهل الكرم قولهم
فأوف لنا الكيل أي شفقة علينا بسبب ضعفنا وتصدق علينا أي تفضل علينا زيادة على الوفاء كما عودتنا
بفضل ترجو ثوابه ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله تعالى عللوا ذلك بقولهم إن الله أي الذي له
الكمال كله يجزي المتصدقين أي وإن كانت على غني قوي فكيف إذا كانت على أهل الحاجة والضعف
فائدة: سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على نبي من الأنبياء سوى نبينا عليه وعليهم
الصلاة والسلام قال سفيان ألم تسمع قوله وتصدق علينا الآية يريد أن الصدقة كانت حلالا
لهم لا لنبينا وروي أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق علي قال إن الله لا يتصدق وإنما يتصدق
من يبغي الثواب قل اللهم أعطني وتفضل علي فإن قيل إذا كان أبوهم أمرهم أن يتحسسوا من يوسف
وأخيه فلم عادوا إلى الشكوى أجيب بأن المتحسس يتوصل إلى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف
بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وذلك مما يرقق القلب فقالوا نجربه في هذه الأمور
فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا فقدموا هذه المقدمة قال أبو إسحق ذكر ولما
أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة على إخوته فارفض دمعه فباح بالذي كان يكتم فلهذا قال
لهم هل علمتم تقرير والعهد به أن استأنسوا به قال البقاعي والظاهر أن هذا كان بغير ترجمان
ما أي قبح الذي فعلتم بيوسف أي أنجيكم الذي ... بينه وبين أبيه وأخيه في جعلكم إياه فريدا
مفردا ... [illegible] ... لا يزال يأتينا البلاء من قبلك
يا بني واحيل وإنما قال لهم ذلك تنبيها لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم

وتمسكنهم لاصابته وتقربا وقيل اعطوه كتاب يعقوب عليه السلام في تخليص بنيامين
وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف واخيه فقال لهم ذلك وقوله اذ انتم جاهلون
اى فاعلون فعل الجاهلين لانهم كانوا حينئذ صبيانا او طياشين تلويحا الى معرفته فقد روى انه لما قال هذا
تبسم وكان في ثنيته اى من الحسن ما لا يجهله منه من رآه ولو مرة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك
قالوا ءانك لانت يوسف استفهام تقرير ولذلك حقق بان واللام عليه وقيل عرفوه بنظره
وخلقه حين كلمهم وقيل رفع التاج عن راسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان
لسارة ويعقوب واسحق مثلها وقرأ ابن كثير بهمزة مكسورة بعدها نون على الخبر وقرأ قالون
وابو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما الف على الاستفهام وقرأ ورش
بغير الف بينهما والتسهيل في الثانية على الاستفهام ايضا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين مع
القصر ولهشام وجه ثان وهو المد وقيل انهم لم يعرفوه حتى قال لهم انا يوسف وزادهم بقوله
وهذا اخي بنيامين شقيقي وانما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتا في امره وليبني عليه
قوله قد من الله علينا قال ابن عباس بكل خير في الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد
التفرقة انه من يتق اى المعاصي ويصبر اى على البليات واذى الناس قال ابن عباس
يتق الزنا ويصبر على العزوبة وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن فان الله لا يضيع
اجر المحسنين والمعنى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجرهم فوضع المحسنين موضع
الضمير لاشتماله على المتقين وقرأ قنبل باثبات الياء بعد القاف وقفا ووصلا واختلف
المعربون في ذلك على وجهين اجودهما ان اثبات حرف العلة في الجزم لغة لبعض العرب
وانشدوا عليه قول قيس بن زهير شعر الم ياتيك والانباء تنمي + بما لاقت لبون بني زياد + وقول
الآخر شعر هجوت زبان ثم جئت معتذرا + من هجو زبان لم تهجو ولم تدع + وقول الآخر
اذا العجوز غضبت فطلق + ولا ترضاها ولا تملق + والثاني انه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة
والفعل صلتها فلذلك ثبت لامه وسكن يصبر لتوالي الحركات وان كانت في كلمتين
وقرأ الباقون بالحذف وقفا ووصلا ولما ذكر يوسف عليه السلام لاخوته ان الله تعالى
من عليه وانه من يتق ويصبر فان الله تعالى لا يضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمرتبة
ولذلك قالوا مقسمين بقولهم تالله اى الملك الاعظم لقد آثرك اى اختارك الله علينا
بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى ونحو ذلك واحتج بعضهم بهذه الآية
على ان اخوته ما كانوا انبياء لان جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم
بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا وان كنا لخاطئين اى
والحال ان شاننا انا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك اذلنا الله تعالى لك وكانه قيل ما قال
لهم على قدرته وتمكنه مع ما سلف من اساءتهم له فقيل قال لهم قول الكرام اقتداء باخوانه من

الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لَا تَثْرِيبَ اى لا لوم ولا تعنيف عليكم وقوله عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ
وانما خصه بالذكر لانه مظنة التثريب فاذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ولما اعفاهم من
التثريب كانوا فى مظنة السوال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى فاتبعه الجواب عن
ذلك بالدعاء لهم بقوله يَغْفِرُ اللَّهُ اى الذى لا اله غيره لَكُمْ اى ما فرط منكم وعبر فى هذا الدعاء
بالمضارع ارشادا لهم الى اخلاص التوبة ورغبهم فى ذلك ورجاهم بالصفة التى هى سبب الغفران
فقال وَهُوَ تعالى أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ لجميع العباد لاسيما التائب فهو جدير بادراك النعم روى
انهم ارسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحيى مما فرط منا فقال
ان اهل مصر ينظرون الىّ وان ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين
درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم وعظمت فى العيون حيث علم الناس انكم اخوتى وانى من
ذرية ابراهيم عليه السلام ولما اقر اعينهم بعد انزعاج شمائلهم بازالة ما يخشونه دنيا واخرى
سال عن ابيه فقال ما فعل ابى بعدى قالوا ابيضت عيناه من الحزن فاعطاهم قميصه وقال
اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا وهو قميص ابراهيم عليه السلام الذى لبسه حين القى فى النار عريانا
فاتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه وكان ذلك عند ابراهيم فلما مات ابراهيم ورثه
اسحق فلما مات اسحق ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك فى قصبة من فضة
وسد راسها وعلقها فى عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما القى فى
البئر عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ فاخرج القميص والبسه اياه ففى الوقت
جاء جبريل عليه السلام وقال ارسل ذلك القميص فان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا
على سقيم الا عوفى فدفع يوسف ذلك القميص الى اخوته وقال اذا وصلتم الى ابى فَأَلْقُوهُ عَلَى
وَجْهِ أَبِي يَأْتِ اى يصر بَصِيرًا اى يرد اليه بصره كما كان او يات الىّ حال كونه بصيرا وَأْتُونِي
اى الىّ وانتم بِأَهْلِكُمْ اى مصاحبين لكم أَجْمَعِينَ لا يتخلف منكم احد فوجهوا
بالقميص لهذا القصد وروى ان يهوذا هو الذى حمل القميص لما لطخوه بالدم فقال لا يحمل
هذا غيرى لافرحه كما احزنته فحمله وهو حاف من مصر الى كنعان وبينهما ثمانون فرسخا ولما
فَصَلَتِ الْعِيرُ من عريش مصر وهو آخر بلد مصر الى اول بلد الشام قَالَ أَبُوهُمْ لولد ولده
ومن حوله من اهله مؤكدا لعلمه انهم ينكرون قوله إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ اوصلته اليه ريح
الصبا باذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة ايام او ثمانية او اكثر قال مجاهد هبت ريح فصفقت
القميص ففاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام
انه ليس فى الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص قال اهل المعانى ان الله تعالى
اوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجىء وقت الفرج من المكان
البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى فى مدة ثمانين سنة

من تاويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله توفني اي اقبضني
روحي وافيا انا ما في جميع امري حسا ومعنى حال كوني مُسلماً ولما كان المسلم حقيقة من كان عريقا
في الاخلاص عقبه بقوله وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وتغيير ما فعله الخليل عليه السلام في قوله الذي
خلقني فهو يهدين من هنا الى قوله رب هب لي حكما ثناء على الله تعالى ثم من قوله رب هب لي حكما
الى اخر الكلام دعاء فكذا هنا. تنبيه: اختلف في قوله توفني مسلما هل هو طلب منه للوفاة ام
لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول
وقال ابن عباس في رواية عطاء يريد اذا توفيتني فتوفني على الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله
تعالى وفاته على الاسلام وليس فيه ما يدل على انه طلب الوفاة واللفظ صالح للامرين ولا يبعد في الرجل
العاقل اذا اكمل عقله ان يتمنى الموت وتعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها ان الخطباء والبلغاء وان
اطنبوا في مذمة الدنيا الا ان حاصل كلامهم يرجع الى ثلاثة امور احدها ان هذه السعادات
سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها اشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها
وثانيها انها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات وثالثها ان الاراذل من الخلق يشاركون
الافاضل فيها بل ربما كان حصة الاراذل اعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة
عن هذه اللذات ولما عرف العاقل انه لا يمكن تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة
المنفرة لا جرم تمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات ومنها ان مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي
ثلاثة انواع لذة الاكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة اما لذة الاكل ففيها
عيوب احدها ان هذه اللذة ليست لذة قوية فانه لا يمكن ابقاؤها فان الانسان اذا اكل وشبع لم يبق فيه
الالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية وثانيها انها في نفسها خسيسة وان الاكل
عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولا شك انه شيء منفر ولما يصل الى المعدة
يظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك ايضا منفر وثالثها ان جميع الحيوانات
الخسيسة مشاركة له فيها ورابعها ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع والجوع نقص وآفة
وخامسها ان الاكل مستحقر عند العقلاء حتى قيل من كانت همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج
من بطنه فهذه اشارات مختصرة الى معايب الاكل واما لذة النكاح فما ذكر في الاكل حاصل هنا مع
اشياء اخر وهي ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجات الى المال فيحتاج
الانسان بسببها الى الاحتيال في المال بطرق لا نهاية لها وربما صار هالكا بسبب طلب المال واما لذة
الرياسة فعيوبها كثيرة منها ان يكون على شرف الزوال في كل حين واوان ومنها انه عند حصولها
في الخوف الشديد من الزوال ومنها انه يكون عند زوالها في الاسف العظيم والحزن الشديد
بسبب ذلك الزوال فالعاقل اذا تأمل في هذه المعاني علم قطعا انه لا صلاح له في طلب هذه اللذات
فيكون لقاء الله عنده ارجح فيتمنى الموت وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه ان ميمون بن مهران

بات عنده فرآه كثير البكاء والسؤال للموت فقال له صنع الله لك خيرا كثيرا احييت سنينا وامت بدعاء في حياتك خير وراحة للمسلمين فقال اذا لا اكون كالعبد الصالح لما اقرّ الله عينه وجمع له امره قال توفني مسلما والحقني بالصالحين فان قيل الانبياء عليهم الصلاة والسلام يعلمون انهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز اجيب بان حال كمال المسلم ان يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وتطمئن النفس وينشرح الصدر وينفسح القلب في هذا الباب وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى فان قيل ان يوسف عليه السلام كان من اكابر الانبياء والصلاح اوّل درجة المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به ان يطلب البداية اجيب بان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال يعني بان يلحقه بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى الحقني بهم في ثوابهم ودرجاتهم وولد ليوسف عليه السلام من امرأة العزيز ثلاثة افرائيم وميشا وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة ايوب عليهم السلام ولما تاقت نفسه الى الملك المخلد وتمنى الموت فلم يأت عليه اسبوع حتى توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا وتشاح الناس في دفنه فطلب اهل كل محلة ان يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال فرأوا ان يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل حيث يتفرّق الماء بمصر ليجري عليه الماء وتصل بركته الى جميعهم قال عكرمة دفن في الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك الجانب واجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فاخصب ذلك الجانب واجدب الآخر فدفنوه في وسطه وقدّروا ذلك بسلسلة فاخصب الجانبان الى ان اخرجه موسى عليه السلام ودفنه بقرب آبائه بالشام وقد يسر الله تعالى زيارته وزيارة آبائه في عام شرعت في هذا التفسير سنة اربع وستين وتسعمائة جمعني الله تعالى وآبائي واهلي واصحابي واحبابي معهم في دار كرامته ولما تم الذي كان من امر يوسف عليه السلام واخوته على الوجه الاحكم والصراط الاقوم من ابتدائه الى انتهائه قال تعالى مشيرا الى انه دليل كاف في تصحيح نبوّته صلى الله عليه وسلم بقوله ذٰلِكَ اي الذي ذكرته لك يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع اخوته ثم صار الى الملك بعد الرق مِنْ اَنْبَآءِ الْغَيْبِ اي اخبار ما غاب عنك نُوْحِيْهِ اِلَيْكَ اي الذي اخبرناك به من اخبار يوسف وحي اوحيناه اليك وَ الحال انك مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ اي عند اخوة يوسف عليه السلام اِذْ اي حين اَجْمَعُوْآ اَمْرَهُمْ اي عزموا على امر واحد وهو القاء يوسف في الجب وَهُمْ يَمْكُرُوْنَ اي يريدون الاذى في المكيدة بيوسف والمعنى ان هذا النبأ غيب لانه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تلمذ لاحد ولا كانت البلدة بلدة العلماء واتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير ان يقال انه حاضر معهم لا بدّ وان يكون معجزا وقوله تعالى وما كنت لديهم ذكر على سبيل التهكم بهم لان كل احد يعلم ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان معهم

ولما سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نقله ابو حيان عن ابن الانباري عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت مشروحة هذا الشرح الشافي مبينة هذا البيان الوافي فامل صلى الله عليه وسلم ان يكون ذلك سبب اسلامهم فخالفوا تأميله عزاه الله تعالى بقوله وما اكثر الناس اي اهل مكة ولو حرصت على ايمانهم بمؤمنين لعنادهم وتصميمهم على الكفر وكان ذلك اشارة الى ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى وما تسألهم عليه اي على تبليغ هذا الكتاب الذي اوحيناه اليك واغرق في النفي فقال من اجر حتى يكون سؤالك سببا لان يتهموك او يقولوا لولا انزل عليه كنز ليستغنى به عن سؤالنا ثم نفى عن هذا الكتاب كل غرض دنيوي بقوله تعالى ان هو الا ذكر اي عظة من الله تعالى للعالمين عامة ثم ان الله تعالى اخبر عنهم انهم لما تاملوا الآيات الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى وكأين اي وكم من آية دالة على وحدانية الله تعالى في السموات كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى والارض من الجبال والشجر والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى يمرون عليها اي يشاهدونها وهم عنها معرضون اي لا يتفكرون فيها فلا عجب اذا لم يتاملوا في الدلائل على نبوتك فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها ، ولما كان ربما قيل كيف يوصفون بالاعراض وهم يعتقدون ان الله تعالى فاعل تلك الآيات بين ان اشراكهم سقط لذلك بقوله تعالى وما يؤمن اكثرهم بالله حيث يقرون بانه الخالق الرازق الا وهم مشركون بعبادة الاصنام قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون شريكا في العبودية وعن ابن عباس ان هذه الآية نزلت في تلبية مشركي العرب كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك يعنون الاصنام وعنه ايضا ان اهل مكة قالوا الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل اشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء اربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده لا شريك له ولما كان اكثر هؤلاء لا ينقادون الا بالعذاب قال تعالى افأمنوا انكار فيه معنى التوبيخ والتهديد ان تأتيهم في الدنيا غاشية اي نقمة تغشاهم وتشملهم من عذاب الله اي الذي له الامر كله كما اتى من ذكرنا قصصهم من الامم او تأتيهم الساعة بغتة اي فجأة وهم عنها في غاية الغفلة وقوله تعالى وهم لا يشعرون اي بوقت اتيانها قبله كالتأكيد لقوله بغتة ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى امره ان يامرهم باتباعه بقوله تعالى قل يا اعلى الخلق واصفاهم واعظمهم نصحا واخلاصا هذه اي الدعوة الى الله تعالى التي ادعو اليها سبيلي اي طريقتي التي ادعو اليها الناس وهي توحيد الله تعالى ودين الاسلام وسمي الدين سبيلا لانه الطريق المؤدي الى ثواب الجنة

ادعوا الى الله اى الى توحيده والايمان به على بصيرة اى حجة واضحة وقوله انا تاكيد للمستتر
فى ادعو على بصيرة لانه حال منه او مبتدأ خبره على بصيرة وقوله ومن اتبعنى اى من آمن بى
وصدق بما جاء لى عطف عليه لان كل من ذكر الحجة واجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه الى الله
وهذا دل على ان الدعاء الى الله انما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو ان يكون على بصيرة مما يقول وعلى يقين
فان لم يكن كذلك والا فهو محض الغرور وقال صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل على عباد الله من
حيث يحفظون ما يدعون اليه • فائدة • جميع القراء يثبتون الياء وقفا ووصلا لثبوتها فى الرسم
وسبحان اى وقل سبحان الله تنزيها له تعالى عما يشركون به وما انا من المشركين اى الذين
اتخذوا مع الله ضدا او ندا او ولدا ولما قال اهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله ملكا قال تعالى
وما ارسلنا من قبلك الى المكلفين الا رجالا اى مثلك لانك رجل لا ملائكة ولا اناثا كما قاله
ابن عباس ولا من الجن كما قاله الحسن نوحى اليهم اى بواسطة الملائكة مثل ما يوحى اليك
وقرأ حفص قبل الواو بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء وضم الهاء من اليهم حمزة
على اصله وكسرها الباقون من اهل القرى اى من اهل الامصار والمدن المبنية بالمدر والحجر لانهم
لا من اهل البوادى لان اهل الامصار افضل واعلم واكمل واعقل من اهل البوادى ومكة ام القرى
لانها تجمع جميع الخلائق للاسلام والبه من حج البيت وكان العرب كلهم يأتونها فكيف يعجبون فى بعثك
قال الحسن لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى
افلم يسيروا اى هؤلاء المشركون المكذبون فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم
من المكذبين للرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بما حل بهم من عذاب الله ولما كان
الله تعالى نجى المؤمنين عند نزول العذاب بالامم الماضية المكذبة وما فى الآخرة خير لهم بين
ذلك بقوله تعالى ولدار الآخرة اى ولدار الحال الآخرة او الساعة الآخرة او الحياة الآخرة خير من
الجنة للذين اتقوا الله من جهة ما لها الدوام وان فرحوا بالدنيا وان امتدت الف عام وكان
عيشها كله رغدا من هذه الدار افلا تعقلون فيستعملوا عقولهم فيتبعوا الداعى الى هذا السبيل
الاقوم وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتاء على الخطاب لاهل مكة والباقون بالياء على الغيبة لهؤلاء
المشركين المكذبين وقوله تعالى حتى اذا استيأس الرسل غاية لمحذوف دل عليه الكلام
اى لا يغررهم تمادى ايامهم فان من قبلهم امهلوا حتى ايس الرسل من النصر عليهم فى الدنيا او من
ايمانهم لانهماكهم فى الكفر متمادين فيه من غير وازع وظنوا اى ايقن الرسل انهم قد كذبوا
بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائى تكذيبا لا ايمان بعده واما بالتخفيف كما قرأه هؤلاء
فالمعنى ان الامم ظنوا ان الرسل قد اخلفوا ما وعدوا به من النصر عليهم جاءهم نصرنا لهم بخذلان
اعدائهم فنجى من نشاء اى النبى والمؤمنون وقرأ ابن عامر وعاصم بنون مضمومة بعدها جيم
مشددة وياء بعد الجيم مفتوحة والباقون بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف

وذلك يدل على ان كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل
ومعنى اجد ريح يوسف اشم وعبر بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ اي
تنسبوني الى الخرف قال ابو بكر الانباري افند الرجل اذا خرف وتغير عقله وعن الاصمعي اذا كثر كلام
الرجل من خرف فهو مفند قال في الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن
في شبيبتها ذات رأي حتى تفند في كبرها وقيل التفنيد الافساد يقال فندت فلانا اذا افسدت
رأيه ورددته قال بعضهم يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي + فليس ما فات من امري بمردود
ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك قَالُوا اي الحاضرون عنده تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ اي
حبك الْقَدِيمِ ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد وهو كقول اخوة يوسف ان ابانا
لفي ضلال مبين وقال مقاتل معنى الضلال هنا الشقاء اي شقاء الدنيا والمعنى انك لفي شقائك
القديم بما تكابده من الاحزان على يوسف وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم ان يوسف
قد مات فكان يعقوب في ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم انهم عجلوا البشير فاسرع
قبل وصولهم بالقميص فَلَمَّا وزيدت أَنْ لتاكيد مجيئه على تلك الحالة وزيادتها بعد الالتباس
مطر وجَاءَ الْبَشِيرُ وهو يهوذا بذلك القميص أَلْقَاهُ اي طرحه البشير عَلَى وَجْهِهِ اي يعقوب
وقيل القاه يعقوب على وجه نفسه فَارْتَدَّ اي رجع بَصِيرًا اي صيره الله بصيرا كما كان كما يقال
طالت النخلة والله تعالى هو الذي اطالها + ولما القى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف
عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت احزانه فعند ذلك قَالَ لبنيه أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ من حياة يوسف وان الله تعالى يجمع بيننا قال السدي لما جاء
البشير الى يعقوب عليه السلام اعطاه في بشارته كلمات كان يرويها عن ابيه عن جده عليهم السلام
وهي يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بي في اموري كلها كما احب ورضني في دنياي واخرتي وروي
ان يعقوب عليه السلام قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال ما اصنع بالملك
على اي دين تركته قال على دين الاسلام قال الان تمت النعمة فعند ذلك قَالُوا يَا أَبَانَا منادين
بالاداة التي تدل على الاهتمام العظيم بما بسطه لما له من عظيم الوقع اسْتَغْفِرْ اي اطلب من الله تعالى
ان يغفر لَنَا ذُنُوبَنَا اي التي اقترفناها ثم قالوا مؤكدين تحقيقا للاخلاص في التوبة إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ
اي متعمدين للاثم بما ارتكبنا في امر يوسف عليه السلام ومن حق المعترف بذنبه ان يصفح
عنه ويسئل له المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه
فكانه قيل فما قال لهم فقيل قَالَ لهم سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ اي اطلب ان يغفر لَكُمْ رَبِّي الذي احسن
الي بان يغفر لبني حتى لا يفرق بيني وبينهم في دار البقاء والديمومة ملك هو اتم الملك على
الاطلاق وهو ملك الله تعالى وظاهر هذا الكلام انه لم يستغفر لهم في الحال بل وعدهم
بان يستغفر لهم بعد ذلك واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه فقال ابن عباس والاكثرون

اراد ان يستغفر لهم في وقت السحر لان هذا الوقت اوفق الاوقات لرجاء الاجابة وفي رواية
اخرى له انه اخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها اوفق لاوقات الاجابة وقال وهب كان
يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقال طاوس اخر الى السحر ليلة الجمعة
فوافق ليلة عاشوراء وقيل استغفر لهم في الحال وقوله سوف استغفر لكم معناه اني اداوم
على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل وقيل قام الى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع
يديه وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لاولادي ما فعلوا في حق
يوسف فاوحى الله تعالى اليه اني قد غفرت لك ولهم اجمعين وعن الشعبي قال اسال يوسف
ان عفا عنكم استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم كل ذلك تسكينا لقلوبهم وتصبيرا لرجائهم
وروي ان يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير الى يعقوب عليه السلام مائتي راحلة وجهازا
كثيرا ليأتوا بيعقوب واهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج الى مصر فخرجوا فلما دنا من
مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه فخرج يوسف عليه السلام والملك في اربعة آلاف من الجند والعظماء
وركب اهل مصر معهما باجمعهم يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر
الى الخيل والناس فقال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد منهما
من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال
يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال الثوري لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام
عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف يا ابت بكيت علي حتى ابيضت عيناك الم تعلم
ان القيامة تجمعنا قال بلى يا بني ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك
قوله تعالى فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى اي ضم اِلَيْهِ أَبَوَيْهِ قال الحسن اباه وامه وكانت حية
اكراما لهما بما يتميزان به وغلب الاب في التثنية لذكورته وعن ابن عباس انها خالته
ليا وكانت امه قد ماتت في نفاس بنيامين قال البغوي وفي بعض التفاسير ان الله تعالى
احيا امه حتى جاءت مع يعقوب الى مصر فان قيل ما معنى دخولهم عليه قبل مصر اجيب بانه
حين استقبلهم نزل بهم في خيمة او بيت هناك فدخلوا عليه وضم اليه ابويه وَقَالَ لهم ادْخُلُوا مِصْرَ
اي البلد المعروف واتى بالشرط للامن لا للدخول فقال إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ من جميع ما ينوب
حتى مما فرطتم في حقي وفي حق اخي روي ان يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون
ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ستمائة الف وخمسمائة
وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ قال لما استقرت بهم الدار بعد دخولهم مصر رَفَعَ أَبَوَيْهِ
اي اجلسهما معه عَلَى الْعَرْشِ اي السرير الرفيع والرفع هو النقل الى العلو وَخَرُّوا لَهُ اي خر له ابواه
واخوته سُجَّدًا اي سجود انحناء وتواضع وقد يسمى تحية كقول الشاعر ترى الاكم فيها سجدا للحوافر
لا وضع جبهة وكان تحيتهم في ذلك الزمان اي انحنوا وتواضعوا وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم

لا على طريقة العبادة وكان ذلك جائزا في الامم السالفة فنسخت في هذه الشريعة وروى عن ابن عباس انه قال معناه خروا لله سجدا بين يدي يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لاجل وجدان يوسف ويدل عليه قوله تعالى ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وذلك يشعر بانهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولو انهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك ادخل في التواضع فان قيل هذا التاويل لا يطابق قول يوسف عليه السلام ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ والمراد منه قوله انى رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رايتهم لى ساجدين اى رايتهم ساجدين لاجلى اى انهم سجدوا لله لطلب مصلحتى والسعى في اعلاء منصبى واذا كان هذا محتملا سقط السؤال قال الرازى وعندى ان هذا التاويل متعين لانه يبعد من عقل يوسف ودينه ان يرضى بان يسجد له ابوه مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة او انهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان

ما كنت اعرف ان الامر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن ابى الحسن
اليس اول من صلى لقبلتكم ... واعرف الناس بالاثار والسنن

ثم استانف يوسف عليه السلام فقال ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي﴾ اى الذى ربانى بما اوصلنى اليها ﴿حَقًّا﴾ اى مطابقة للواقع لتاويلها وتاويل ما اخبرتنى به انت والتاويل تفسير ما يؤل اليه معنى الكلام وعن سلمان رضى الله تعالى عنه ان ما بين رؤياه وتاويلها اربعون سنة وعن الحسن انه القى في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل الى ابيه واقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ﴾ اى اوقع احسانه ﴿بِي﴾ تصديقا لما بشرتنى به من اتمام النعمة وتعديته احسن بالباء ادل على القرب من التعدية بالى وان كان اصل احسن ان يتعدى بالى كما قال تعالى واحسن كما احسن الله اليك وقيل ضمن معنى لطف فتعدى بالباء كقوله تعالى وبالوالدين احسانا وقال ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يذكر اخراجه من الجب لوجوه اولها انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم ثانيها انه لما خرج من الجب لم يصر ملكا بل صيروه عبدا واما صار ملكا بعد اخراجه من السجن فكان هذا الاخراج اقرب من ان يكون انعاما كاملا ثالثها انه لما خرج من الجب وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المراة ولما خرج من السجن وصل الى ابيه واخوته فكان هذا اقرب الى المنفعة ومع ان اللفظ يحتمل الجب ايضا لكنه احتمال خفى ولما كان يعقوب وولده بارض كنعان وتحول اليه قال ابن عباس وسنه قدم على يوسف قال يوسف عليه السلام ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ اى من اطراف بادية فلسطين وذلك من اكبر النعم كما جاء في الحديث من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور يقال بدا يبدو واذا سكن في البادية ... افا ... فى

البدو وبين قال الواحدي البدو بسيط من الارض يظهر فيه الشخص من بعيد واهله بدو
بدا يبدو بدوا ثم سمي المكان باسم المصدر وفي الآية دلالة على ان فعل العبد خلق الله تعالى لانه
اضاف اخراجه من السجن الى الله تعالى ومجيئهم من البدو اليه ﴿من بعد ان نزغ﴾ اي افسد ﴿الشيطان﴾
بسبب الحسد ﴿بيني وبين اخوتي﴾ واصل النزغ دخول في امر لافساده فان قيل اضافة يوسف
عليه السلام الخير الى الله تعالى والشر الى الشيطان تقتضي ان فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله
بعض المبتدعة ولو كان منه لاضافه اليه اجيب بان اضافة هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان
الفاعل المطلق هو الله تعالى في الحقيقة قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فثبت
بذلك ان الكل من عند الله تعالى وبقضائه وقدره وليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة
والتحريش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك كما حكى الله تعالى ذلك عنه
بقوله تعالى وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي ولما كان حصول الاجتماع
بينه وبين اخوته وابويه مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال وكان في غاية البعد عن
المعقول الا انه تعالى لطيف قال يوسف عليه السلام ﴿ان ربي لطيف لما يشاء﴾ اي لطيف التدبير له
اذ ما من صعب الا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها فاذا اراد حصول الشيء سهل اسبابه
فحصل وان كان في غاية البعد عن الحصول ﴿انه هو العليم﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿الحكيم﴾
اي الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه تقتضيه الحكمة روي ان يوسف عليه السلام طاف
بابيه في خزائنه فلما ادخله خزانة القرطاس قال يا بني ما اعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت
الي على ثمان مراحل قال امرني جبريل بذلك قال او ما تسأله قال انت اقرب مني اليه فسأله فقال
جبريل الله امرني بذلك لقولك واخاف ان ياكله الذئب قال فهلا خفتني ولما حضر يعقوب
عليه السلام الموت وصى يوسف عليه السلام ان يحمله ويدفنه عند ابيه فمضى بنفسه فدفنه ثمة
ثم عاد الى مصر واقام بعده ثلاثا وعشرين سنة ولما تم امره وعلم انه لا يدوم تاقت نفسه الى الملك الدائم
فقال ﴿رب قد آتيتني﴾ وافتتح بقد لان الحال حال توقع السامع لشرح حال الرؤيا ﴿من الملك﴾ اي
بعضه بعد بعدي منه بملك مصر ﴿وعلمتني من﴾ اي بعض ﴿تأويل الاحاديث﴾ [illegible]
به الي واخبرت به انت من التمكين والتعليم قيل قوله والله غالب امره ثم ناداه بوصف جامع للعلم
والحكمة فقال ﴿فاطر﴾ اي خالق ﴿السموات والارض﴾ ثم اعلمه بما هو اعلم به منه من انه لا يعول
على غيره في شيء من الاشياء ﴿انت وليي﴾ اي الاقرب الي باطنا وظاهرا ﴿في الدنيا والآخرة﴾ اي انت المتولي لجميع
والولي يفعل لموليه الاصلح والاحسن فاحسن لي في الآخرة اتم مما احسنت لي في الدنيا روى انه
صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا انه قال من شغله ذكري عن مسألتي
اعطيته افضل ما اعطي السائلين فلهذا المعنى من اراد ان [illegible] قدم عليه ذكر الثناء على الله
تعالى فهذا يوسف عليه السلام لما اراد ان يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتني من الملك وعلمتني

بضم الياء وسكون الباء ولا يرد بأسنا اى عذابنا عن القوم المجرمين اى المشركين ما نزل بهم
ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار بها بقوله أفلم يسيروا اتبعه بأن فى احاديثهم
اعظم عبرة فقال حثا على تأملها والاستبصار بها لقد كان فى قصصهم اى يوسف واخوته او فى قصص الرسل
عبرة اى عظة عظيمة لاولى الالباب اى لذوى العقول المبرأة من شوائب الكدر يعتبرون بها الى ما يسعدهم
لان من قدر على ما قص من امر يوسف عليه السلام لقادر على ان يعز محمدا صلى الله عليه وسلم ويعلى كلمته
وينصره على من عاداه كائنا من كان كما فعل بيوسف وغيره ولما كان من اجل العبرة فى ذلك القطع بحقية
القرآن نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال تعالى ما كان حديثا يفترى اى يختلق لان الذى جاء به
من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه ان يفتريه لانه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط
العلماء فمن المحال ان يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد فى التوراة من غير تفاوت
كما يعلم من قوله تعالى ولكن تصديق الذى بين يديه اى من الكتب الالهية المنزلة من السماء كالتوراة
والانجيل ففى ذلك اشارة الى ان هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من ذكر قصة
يوسف عليه السلام وزاد على ذلك بقوله وتفصيل اى تبيين كل شئ اى يحتاج اليه من الدين
اذ ما من امر دينى الا وله سند من القرآن بوسط او بغير وسط وقيل المراد تفصيل كل شئ من واقعة
يوسف مع ابيه واخوته قال الواحدى وعلى التفسيرين جميعا فهو من العام الذى اريد به الخاص كقوله
تعالى ورحمتى وسعت كل شئ اى يجوز ان يدخل فيها وقوله تعالى واوتيت من كل شئ وهدى من الضلال
ورحمة ينال بها خير الدارين لقوم يؤمنون اى يصدقون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به
كقوله تعالى هدى للمتقين فسبحان من انزله معجزا باهرا وقاضيا بالحق لا يزال ظاهرا وما رواه
البيضاوى تبعا للكشاف من انه صلى الله عليه وسلم قال علموا ارقاءكم سورة يوسف فانه ايما مسلم
تلاها وعلمها اهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة ان لا يحسد مسلما حديث موضوع والله اعلم

سورة الرعد مكية

الا ولا يزال الذين كفروا الآية ويقول الذين كفروا لست مرسلا الآية او مدنية الا ولو ان قرآنا سيرت
به الجبال وهى ثلاث او اربع او خمس او ست واربعون آية وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون
كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وسبعة احرف بسم الله
الحق الذى كل ما عداه باطل الرحمن الذى عم الرغبة والرهبة بعموم الرحمة الرحيم الذى
خص من شاء بما يرضاه عظيم الرهبة المر قال ابن عباس معناه انا الله اعلم وارى وقال فى رواية
عطاء انا الله الملك الرحمن وقد تقدم الكلام على شئ من اوائل السور فى اول سورة البقرة
وقرأ قالون وابن كثير وحفص بالفتح وقرأ ورش بين بين والباقون بالامالة تلك اى هذه الآيات
آيات الكتاب اى القرآن والاضافة بمعنى من وقيل المراد بالكتاب السورة الكاملة ووصفت
بالكمال من تعريف الكتاب بأل لان خبر المبتدأ اذا عرف بأل اوهم الحصر افاد المبالغة وقوله تعالى

وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ اي القرآن مبتدأ وخبره الْحَقُّ اي الموضوع كل شيء منه في موضعه على ما تدعو اليه الحكمة الواضح الذي لا يتخلف شيء منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ اي مشركي مكة لَا يُؤْمِنُونَ لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه قال مقاتل نزلت في مشركي مكة حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك ولما ذكر تعالى ان اكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بامور احدها قوله تعالى اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ اي سواري جمع عمود كأدم وأديم او عماد كأهب وإهاب والعمود جسم مستطيل يمنع المرتفع ان يميل تَرَوْنَهَا اي وانتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها تسندها ولا من فوقها علاقة تمسكها فالعمد منفية بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة ففي ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى لان هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل ان يكون بقاؤها هناك لاعيانها ولذاتها فيدل ذلك على وجود الاله القادر القاهر وقيل الضمير راجع الى العمد اي ان لها عمدا ولكن لا ترونها انتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة قال الرازي وهذا التأويل في غاية السقوط لان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فاي دلالة تبقى فيها على وجود الاله تنبيه الله مبتدأ والذي رفع السموات خبره ويجوز ان يكون الموصول صفة والخبر يدبر الامر ثانيها قوله تعالى ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بالحفظ والتدبير والقهر والقدرة اي ان من فوق العرش الى ما تحت الثرى في حفظه وتدبيره وفي الاحتياج اليه وتقدم الكلام على ذلك في سورة الاعراف بما فيه كفاية وثالثها قوله تعالى وَسَخَّرَ اي ذلل الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لما فيه خلقه فهما دائبان يجريان على ما يريد كُلٌّ منهما يَجْرِي في فلكه لِأَجَلٍ مُسَمًّى اي الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وعند مجيء ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك التسييرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وعن ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة اشهر ثم انها تعود مرة اخرى الى واحد واحد في ستة اشهر مرة اخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله تعالى كل يجري لاجل مسمى هذا وتحقيقه انه تعالى قدر لكل واحد من تلك الكواكب سيرا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء وحينئذ يلزم ان يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة اخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال يُدَبِّرُ الْأَمْرَ اي يقضي امر ملكه من الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد وفي ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من اعلى العرش الى ما تحت الثرى انواع واجناس لا يحيط بها الا الله عز وجل والدليل المذكور دل على ان اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وصنعته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم ان من اشتغل

قوله جمع عمود كأدم وأديم ... والعامة على العماد ...

بتدبير شئ آخر فانه يشغله شأن عن شأن فالعاقل اذا تامل في هذه الآية علم انه تعالى يدبر عالم الاجساد وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على انه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات ولما كان هذا بيانا شافيا لا لبس فيه قال تعالى ﴿يُفَصِّلُ﴾ اي يبين ﴿الْآيَاتِ﴾ التي ابرزت الى الوجود وتدبيرها الدالة على وحدانيته وكمال حكمته المشتملة عليها مبتدعاته فيفرقها ويباين بينها بيانا لا لبس فيها تقريبا لعقولكم وتدريبا لفهومكم لتعلموا انها فعل الواحد المختار + ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل واظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا اهل مكة ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ بالبعث ﴿تُوقِنُونَ﴾ فتعلموا ان من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها قادر على ايجاد الانسان واحيائه بعد موته يروى ان واحدا قال لعلي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام انه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي لا يبعد ان يرد الارواح الى الاجساد وان كان الخلق عاجزين عنه وكما امكنه ان يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى لا يشغله شان عن شان فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شان عن شان + تنبيه اليقين صفة من صفات العلم وهي فوق المعرفة والدراية وهي سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك + ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته من رفع السماء بغير عمد واحوال الشمس والقمر اردفها بذكر الدلائل الارضية بقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ اي بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام وتتقلب عليها الحيوان ولو شاء لجعلها كالجدار والازج لا يستطاع القرار عليها هذا اذا قلنا ان الارض مسطحة لا كرة وعند اصحاب الهيئة انها كرة فكيف يقولون بذلك ومد الارض ينافي كونها كرة كما ثبت بالدليل اجيب بان الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما ان الله تعالى جعل الجبال اوتادا مع ان العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا ومع هذا فالله تعالى قد اخبر انه مد الارض ودحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى اصدق قيلا وابين دليلا من اصحاب الهيئة هذا هو الدليل الاول من الدلائل الارضية الثاني منها قوله ﴿وَجَعَلَ﴾ اي خلق ﴿فِيهَا﴾ اي الارض ﴿رَوَاسِيَ﴾ اي جبالا ثوابت واحدها راسية اي ثابتة باقية في حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك ولا يتحرك ما هي راسية فيه وهذا لا بد وان يكون بتخليق القادر الحكيم قال ابن عباس اول جبل وضع على وجه الارض جبل ابي قبيس ولما غلب على الجبال وصفها بالرواسي صارت الصفة تغني عن الموصوف فجمعت جمع الاسم كحائط وحوائط وكاهل وكواهل قاله ابو حيان الثالث منها قوله تعالى ﴿وَأَنْهَارًا﴾ اي وجعل في الارض انهارا جارية لمنافع الخلق والنهر المجرى الواسع من مجاري الماء واصله

الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيائه الرابع منها قوله تعالى ومن كل الثمرات وهو متعلق بقوله تعالى
جعل فيها اى الارض زوجين اثنين اى وجعل فيها من جميع انواع الثمار صنفين اثنين والاختلاف
اما من حيث الطعم كالحلو والحامض او اللون كالاسود والابيض او الحجم كالصغير والكبير او الطبيعة
كالحار والبارد فان قيل الزوجان لابد وان يكونا اثنين فما الفائدة فى اثنين اجيب بانه قيل انه
تعالى اول ما خلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق
زوجين لم يعلم ان المراد النوع او الشخص فلما قال اثنين علم انه تعالى اول ما خلق من كل زوجين
اثنين لا اقل ولا ازيد فكما ان الناس وان كان فيهم الآن كثرة فابتداؤهم من زوجين اثنين
بالشخص آدم وحواء فكذا القول فى جميع الاشجار والزرع الخامس منها قوله تعالى يغشى اى يغطى
الليل بظلمته النهار اى والنهار الليل بضوئه فيعتدل نفعهما على ما قدره الله تعالى لهما من
الزيادة والنقصان وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا الظاهرة لكل ذى عقل انه تدبير
بفعله واختياره وقهره واقتداره وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون
بسكون الغين وتخفيف الشين ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع الباهرة ختمها
وناطها بالفكر فقال تعالى ان فى ذلك اى الذى وقع القص عنه من الآيات لآيات اى
دلالات لقوم يتفكرون اى يجتهدون فى الفكر فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب
على المسبب والفكر والتدبر تصرف القلب فى طلب معانى الاشياء ثم انه تعالى ذكر دليلا ظاهرا
جدا بقوله تعالى وفى الارض اى التى انتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تمترون
قطع اى بقاع مختلفة متجاورات اى متقاربات يقرب بعضها من بعض واحدة طيبة
والاخرى سبخة لا تنبت واخرى صالحة للزرع لا للشجر واخرى بالعكس واخرى قليلة الريع
واخرى كثيرته مع انتظام الكل فى الارضية وهو من دلائل قدرته تعالى وجنات اى بساتين
فيها انواع الاشجار من نخيل واعناب وغير ذلك كما قال تعالى من اعناب وزرع ونخيل صنوان
جمع صنو وهى النخلات يجمعها اصل واحد وتتشعب فروعها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم
فى عمه العباس عم الرجل صنو ابيه يعنى انهما من اصل واحد وغير صنوان اى متفرقات
مختلفة الاصول وسمى البستان جنة لانه يستتر باشجاره الارض وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحفص
برفع العين واللام والنون الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين فى العين واللام
والنون وعدم التنوين فى الراء والباقون بالخفض فى الاربعة وعدم التنوين فى الراء ولما كان
الماء بمنزلة الاب والارض بمنزلة الام وكان الاختلاف مع اتحاد الاب والام عجيبا دل على الاسناد الى
الواحد المسبب للاسباب قال يسقى قراءة ابن عامر وعاصم بالياء على التذكير اى المذكور
وقراءة الباقين بالتاء على التانيث اى الجنات وما فيها بماء واحد فتخرج اغصانها وثمراتها
فى وقت معلوم لا تتاخر عنه ولا تتقدم والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده جوهر سيال

به قوام الارواح ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ اى فى الطعم ما بين حلو وحامض وغير
ذلك وفى الشكل والرائحة والمنفعة وغير ذلك وذلك ايضا مما يدل على القادر الحكيم فان اختلافها
مع اتحاد الاصول والاسباب لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال مجاهد وذلك كمثل بنى ادم صالحهم
وخبيثهم وابوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بنى ادم وكانت الارض طينة
واحدة فى يدى فى قدرة الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات فينزل عليها الماء من السماء
فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد
وكذلك الناس خلقوا من ادم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع
وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القران احد الا قام من عنده
بزيادة او نقصان قال تعالى وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين
الا خسارا وقرأ حمزة والكسائى بالياء ليطابق قوله تعالى يدبر الامر والباقون بالنون وقرأ نافع
وابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ اى الامر العظيم الذى ذكرناه ﴿لَآيَاتٍ﴾
اى دلالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ اى يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر فى الايات الدالة على وحدانيته
تعالى + ولما ذكر تعالى الدلائل القاهرة الدالة على معرفة المبدأ ذكر بعده ما يدل على المعاد بقوله
تعالى ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ اى يا اكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد ان كنت تعرف عندهم بالصادق
الامين ﴿فَعَجَبٌ﴾ اى فحقيق ان يتعجب منه ﴿قَوْلُهُمْ﴾ اى منكرى البعث ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ اى بعد الموت
﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ اى خلق بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا ان القادر على انشاء الخلق وما تقدم
على غير مثال قادر على اعادتهم وقيل وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم الهة
يعبدونها مع اقرارهم بان الله تعالى خلق السموات والارض وهو يضر وينفع وقد راوا قدرة الله تعالى
وما ضرب لهم به الامثال فعجب قولهم ذلك والعجب تغير النفس برؤية المستبعد فى العادة وقال المتكلمون
العجب هو الذى لا يعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية
وقرأ ابو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء فى الفاء والباقون بالاظهار + تنبيه + هنا ايتان فى كل منهما
همزتان فقرأ قالون بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية ويدخل بينهما الفا على الاستفهام وفى الاية
الثانية بهمزة مكسورة وبعدها نون مشددة على الخبر وورش كذلك الا انه لا يدخل بين الهمزتين
فى اذا الفا وينقل فى الثانى على اصله وابن كثير يقرأ بالاستفهام فيهما من غير ادخال الف بين
الهمزتين مع تحقيق الاولى وتسهيل الثانية فيهما وابو عمرو كذلك مع ادخال الف بينهما وابن عامر
فى الاول بهمزة مكسورة بعدها ذال مفتوحة على الخبر وفى الثانى بهمزة مفتوحة محققة وهمزة
مكسورة محققة على الاستفهام وادخل هشام بينهما الفا بخلاف عنه والباقون بهمزتين
محققتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة ولا الف بينهما فى الموضعين + فائدة + جميع ما فى القران
من ذلك احد عشر موضعا فى تسع سور والاحد عشر مكررة فتصير اثنين وعشرين فى هذه السورة

موضع والثانى والثالث فى سورة الاسراء والرابع فى المؤمنون والخامس فى النمل والسادس فى العنكبوت والسابع فى السجدة والثامن والتاسع فى الصافات والعاشر فى الواقعة والحادى عشر فى النازعات واذكران ثناء الله تعالى فى كل سورة من السور المذكورة مذهبهم فى جحده أُولَٰئِكَ اى الذين جمعوا انواعا من البعد من كل خير الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ اى غطوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة بالذى بدأ خلقهم ثم رباهم بانواع اللطف فاذا انكروا معادهم فقد انكروا بدأهم وَأُولَٰئِكَ البعداء البغضاء الْأَغْلَالُ يوم القيامة فِي أَعْنَاقِهِمْ بسبب كفرهم والغل طوق من حديد تقيد به اليد فى العنق وقيل المراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الاسير الذليل بالغل وقيل انهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم وَأُولَٰئِكَ اى الذين لا خسارة اعظم من خسارتهم أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ اى ثابت خلودهم دائما لا يخرجون منها ولا يموتون + ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب يوم القيامة انكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذى تقدم ذكره فى الاية الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل الطعن واظهار ان الذى يقوله كلام لا اصل له نزل وَيَسْتَعْجِلُونَكَ اى استهزاء وتكذيبا والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشئ قبل وقته الذى يقدر له بِالسَّيِّئَةِ اى العذاب قَبْلَ الْحَسَنَةِ اى الرحمة وذلك ان مشركى مكة كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم + تنبيه + قوله قبل الحسنة فيه وجهان احدهما متعلق بالاستعجال ظرفا له والثانى انه متعلق بمحذوف على انه حال مقدرة من السيئة قاله ابو البقاء وَقَدْ اى والحال انه قد خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ جمع مثلة بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات اى عقوبات امثالهم من المكذبين افلا يعتبرون بها وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ والا لم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس معناه لذو تجاوز عن المشركين اذا امنوا وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه وقال مقاتل انه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا عاقب + ولما بين سبحانه وتعالى ان الكفار طعنوا فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم فى الحشر والنشر اولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا فى نبوته بان طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى قوله تعالى وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا اى هلا أُنزِلَ عَلَيْهِ اى محمد صلى الله عليه وسلم آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ اى مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم انكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم راغبا فى اجابة مقترحاتهم لشدة التفاته الى ايمانهم

قال الله تعالى له انما انت منذر اى ليس عليك الا الانذار والتخويف وليس عليك اتيان الآيات
ولكل قوم هاد اى نبى يدعوهم الى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وقرأ ابن كثير فى الوقف ع
بياء بعد الدال وفى الوصل بغير ياء وتنوين الدال والباقون بغير ياء فى الوقف والوصل مع تنوين
الدال ۔ ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات اخبرهم الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه
بقوله تعالى الله يعلم ما تحمل كل انثى من ذكر وغيره وواحد ومتعدد وغير ذلك وما تغيض اى تنقص
الارحام من مدة الحمل وما تزداد اى من مدة الحمل فقد تكون سبعة اشهر وازيد عليها الى سنتين
عند الامام ابى حنيفة والى اربع عند الامام الشافعى والى خمس عند الامام مالك رضى الله تعالى عنهم
وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقى فى بطن امه اربع سنين ولذلك سمى هرما وقيل
ما تنقصه الرحم من الاولاد وتزيده منهم يروى ان شريكا كان رابع اربعة فى بطن امه وقيل من نقصان
الولد بخروجه ناقصا والزيادة تمام خلقه وقيل ما تنقص بالسقط عن ان يتم وما يزداد بالتمام وقيل
ما تنقص بظهور دم الحيض وذلك انه اذا سال الدم فى وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول
ذلك قال ابن عباس كلما سال الحيض فى وقت الحمل يوما زاد فى مدة الحمل يوما ليحصل الجبر ويعتدل
الامر والآية تحتمل جميع ذلك اذ لا تنافى فى هذه الاقوال ويدل لذلك قوله تعالى وكل شئ من هذا
وغيره من الآيات المقترحات وغيرها عنده اى فى علمه وقدرته بمقدار فى كيفيته وكميته لا يجاوزه
ولا يقصر عنه لانه تعالى عالم بكيفية كل شئ وكميته على الوجه المفصل المبين ۔ تنبيه ۔ قوله تعالى عنده
يجوز ان يكون مجرور المحل صفة لشئ او مرفوعه صفة لكل او منصوبه ظرفا لقوله بمقدار او ظرفا للاستقرار
الذى تعلق به الجار لوقوعه خبرا عالم الغيب وهو ما غاب عن كل مخلوق والشهادة وهو ما شاهدوه
وقيل الغيب هو المعدوم والشهادة هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشهادة ما حضر للحس
الكبير اى العظيم المتعال عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل
والقدرة التامة وقرأ ابن كثير فى الوقف والوصل بياء بعد اللام والباقون بغير ياء وقفا ووصلا ولما
كان علمه تعالى شاملا لجميع الاشياء قال تعالى سواء منكم اى فى علمه تعالى من اسر القول اى اخفى معناه
فى نفسه ومن جهر به اى اظهره فقد استوى فى علمه تعالى المسر بالقول والجاهر به ومن هو مستخف
اى مستتر بالليل اى بظلامه وسارب اى ظاهر ذاهب فى سربه بالنهار والسرب بفتح السين وسكون
الراء الطريق وقال ابن عباس سواء ما اضمرته القلوب واظهرته الالسنة وقال مجاهد سواء من يقدم
على القبائح فى ظلمات الليل ومن ياتى بها فى النهار الظاهر على سبيل التوالى والضمير فى له يعود
الى من فى قوله سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل او للانسان معقبات
اى ملائكة تعقبه والذى عليه الجمهور ان المراد بالملائكة الحفظة وانما صح وصفهم بالمعقبات
اما لاجل ان ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون اعمال العباد
ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة

الليل والنهار روي عن عثمان انه قال يا رسول الله اخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال صلى الله عليه وسلم ملك عن يمينك للحسنات وهو امير على الذي على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين اكتب قال لا لعله ان يتوب او يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فاذا قال ثلاثا قال اكتب اراحنا الله منه فبئس القرين ما اقل مراقبته لله واستحياءه منا فهو قوله تعالى له مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ اي قدامه وَمِنْ خَلْفِهِ اي ورائه وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلوة وملك على فيك لا يدع ان تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهذه عشرة املاك على كل آدمي ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فهم عشرون ملكا على كل آدمي وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلوة الفجر وصلوة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو اعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك موكل يحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته فان قيل الملائكة ذكور فلم ذكروا في جمع الاناث وهو المعقبات اجيب بجوابين الاول قال الفراء المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب ثم جمعت معقبة معقبات كما قيل ابناوات سعد ورجالات بكر جمع ابناء ورجال والذي يدل على التذكير قوله تعالى يَحْفَظُونَهُ والثاني وهو قول الاخفش انما انثت لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر واختلف في المراد من قوله تعالى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ على اقوال احدها انه على التقديم والتاخير والتقدير له معقبات من امر الله يحفظونه ثانيها ان فيه اضمارا اي ذلك الحفظ من امر الله اي مما امر الله تعالى به فحذف الاسم وابقى خبره ثالثها ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بامر الله وباعانته وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه اي يحفظون عليه الحسنات والسيئات فان قيل ما الفائدة في تخصيص هؤلاء الملائكة مع بني آدم وتسليطهم عليهم اجيب بان الانسان اذا علم ان الملائكة تحصي عليه اعماله كان الى الحذر من المعاصي اقرب لان من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد انهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الاقدام عليها كما يزجره اذا حضر من يعظمه من البشر واذا علم ان الملائكة تحصي عليه تلك الاعمال كان ذلك ايضا رادعا له عنها واذا علم ان الملائكة يكتبونها كان الردع اكمل ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى إِنَّ اللَّهَ اي بقدرته لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ اي لا يسلبهم نعمته حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا اي الذي بِأَنفُسِهِمْ من الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا اي هلاكا وعذابا فَلَا مَرَدَّ لَهُ اي لا يقدر احد لا من المعقبات ولا من غيرها ان يرد ما نزل بهم من قضائه وقدره وَمَا لَهُم اي لمن اراد الله بهم سوءا مِّن دُونِهِ اي غير الله مِن وَالٍ يلي امرهم وينصرهم ويمنع العذاب عنهم وقرأ ابن كثير

في الوقف باثبات الياء بعد اللام دون الوصل والباقون بغير ياء بعد اللام وقفا ووصلا ولما خوّف
الله تعالى بقوله واذا اراد الله بقوم سوءا اتبعه بذكر آيات النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه
العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا اي للمسافرين من الصواعق
وَطَمَعًا اي للمقيم في المطر وقيل ان كل شيء يحصل في الدنيا يحتمل الخير والشر فهو خير بالنسبة الى قوم
وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير في حق من يحتاج اليه في اوانه وشر في حق من يضره
ذلك اما بحسب المكان واما بحسب الزمان والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب
وَيُنْشِئُ اي يخلق السَّحَابَ الثِّقَالَ اي بالمطر تنبيه خوفا وطمعا مصدران ناصبهما محذوف اي
تخافون خوفا وتطمعون طمعا ويجوز غير ذلك والسحاب قال علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه
غربال الماء وهو غيم منسحب في السماء وهو اسم جنس جمعي واحده سحابة واكثر المفسرين على ان الرعد
في قوله تعالى وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ على انه اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع
تسبيحه ولا يرد ذلك عطف الملائكة عليه في قوله تعالى وَالْمَلَائِكَةُ اي تسبح مِنْ خِيفَتِهِ اي الله لانه
افرد بالذكر تشريفا له كما في قوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال قال ابن عباس اقبلت
يهود على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا اخبرنا عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب
معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب قال ابن الاثير والمخاريق جمع مخراق وهو في الاصل ثوب
يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وهي آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه وقد جاء تفسير
المخراق في حديث آخر وهو سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن عباس انه قال من سمع
صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير
فان اصابته صاعقة فعلي ديته وعن عبد الله بن الزبير انه كان اذا سمع صوت الرعد ترك الحديث
وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفي بعض الاخبار يقول الله تعالى لو ان عبادي
اطاعوني لسقيتهم المطر بالليل واطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم اسمعهم صوت الرعد وفي رواية
عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر وانه يحوز الماء في نقرة ابهامه
وانه يسبح الله تعالى اذا سبح لا يبقى ملك في السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وعن
الحسن ان الرعد خلق من خلق الله ليس بملك وقد اختلفت الروايات في ذلك ففي بعضها انه
ملك موكل بالسحاب وفي بعضها انه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه وفي بعضها انه
ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادي الابل بحدائه وفي بعضها انه ملك سمي به وهو
الذي تسمعون صوته وقد مرت الاشارة الى ذلك في البقرة وقيل هؤلاء الملائكة اعوان الرعد
جعل الله تعالى له اعوانا فهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة واستظهر
وقوله تعالى وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ جمع صاعقة وهي العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه
فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ فيهلكه وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم

والتكذيب الشديد في الخصومة روي ان عامر ابن الطفيل واربد بن ربيعة اخا لبيد وفدا الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله فاخذه عامر بالمجادلة ودار اربد من خلفه ليضربه
بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت فارسل الله تعالى
على اربد صاعقة فقتلته ورمى عامر بغدة فمات في بيت سلولية فكان يقول غدة كغدة البعير
وموت في بيت سلولية فنزلت وعن الحسن انه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه
النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم اخبروني
عن رب محمد هذا الذي تدعونني اليه مم هو امن ذهب او فضة او حديد او نحاس فاستعظم
القوم مقالته فانصرفوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما راينا رجلا اكفر قلبا ولا اعتى
على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فجعل لا يزيدهم على مقالته الاولى
وقال اجيب محمدا الى رب لا اراه ولا اعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى
واخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة اذ ارتفعت
سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحرقت الكافر وهم جلوس
فجاؤا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من اصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقالوا احترق صاحبكم فقالوا من اين علمتم فقالوا اوحى الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم
ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال واختلف المفسرون
في قوله تعالى وهو شديد المحال فقال علي رضي الله عنه شديد الاخذ وقال ابن عباس شديد
الحول وقال مجاهد شديد القوة وقال ابو عبيدة شديد القوة والمغالبة واختلفوا في قوله تعالى له
اي لله دعوة الحق فقال علي دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة ان لا اله الا الله وقال
الحسن الحق هو الله تعالى وكل دعاء اليه دعوة الحق والذين يدعون اي وهم الكفار من دونه
اي غير الله وهي الاصنام لا يستجيبون اي الاصنام لهم اي الكفار بشيء مما يطلبونه من نفع او دفع
ضر الا اي الاستجابة كباسط اي كاستجابة باسط كفيه الى الماء اي على شفير البئر يدعوه ليبلغ فاه
اي بارتفاعه من البئر اليه وما هو اي الماء ببالغه اي فاه ابدا لانه جماد لا يشعر بعطشه ولا يقدر
على اجابته فكذلك ما هم بمستجيبين لهم ابدا لان الاصنام كذلك وقيل شبهوا في قلة فائدة دعائهم
لالهتهم بمن اراد ان يغرف الماء بيديه ليشربه فبسط كفيه ناشرا اصابعهما ولم يصل كفاه الى ذلك
الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه ثم انه تعالى صرح في انه لا يستجاب لهم بقوله تعالى وما دعاء الكافرين
الا في ضلال اي ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الهتهم لم تستطع اجابتهم وقيل
المراد بالدعاء في الآية العبادة وقوله تعالى ولله يسجد من في السموات والارض يحتمل ان يراد به
السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة وعلى هذا فالمراد من قوله تعالى طوعا الملائكة والمؤمنين من الثقلين
بحالتي الشدة والرخاء وقوله تعالى وكرها للكافرين والمنافقين الذين اكرهوا على السجود بالسيف

سجدة

وان يراد به التعظيم والاعتراف بالعبودية فكل من في السموات والارض معترف بعبودية الله تعالى
كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وان يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع
وكل من في السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة في الكل + تنبيه +
قوله تعالى طوعا وكرها اما مفعول من اجله واما حال اي طائعين وكارهين واختلف في تفسير قوله تعالى
وظلالهم بالغدو اي البكر والآصال اي العشايا اي تسجد فقال اكثر المفسرين كل شخص سواء
كان مؤمنا او كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله تعالى وهو طائع وظل الكافر
يسجد لله تعالى وهو كاره وقال الزجاج جاء في التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله
قال ابن الانباري ولا يبعد ان يخلق الله تعالى في الظلال عقولا وافهاما تسجد بها لله وتخشع
وقيل المراد من سجود الظلال ميلها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب
ارتفاع الشمس وهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص
الغدو والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر في هذين الوقتين + تنبيه + الغدو جمع
غداة كقنى وقناة والآصال جمع الاصل والاصل جمع اصيل وهو ما بين العصر الى غروب الشمس
ولما بين تعالى ان كل من في السموات والارض ساجد لله تعالى عدل الى الرد على عباد الاصنام
بقوله تعالى قل يا اشرف الخلق على الله تعالى لقومك من رب السموات والارض اي من مالكهما
وما فيهما ومدبرهما وخالقهما قل الله اي اجب عنهم بذلك ان لم يقولوه ولا جواب لهم غيره
ولانه البين الذي لا يمكن المراء فيه فلقنهم الجواب به وروي انه لما قال للمشركين ذلك عطفوا
عليه وقالوا اجب انت فامره الله تعالى فاجاب بذلك ثم الزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله
تعالى قل لهم افاتخذتم من دونه اي غير الله اولياء اي اصناما تعبدونها لا يملكون
لانفسهم نفعا يجلبونه ولا ضرا يدفعونه عنها فكيف يملكون لكم ذلك وقرا ابن كثير وحفص باظهار
الذال في اتخذتم عند التاء والباقون بالادغام ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون
الاصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله تعالى فقال تعالى قل هل يستوي الاعمى والبصير قال
ابن عباس يعني المشرك والمؤمن وانما شبه الكافر بالاعمى لانه لا يهتدي سبيلا فكذلك الكافر
لا يهتدي سبيله ثم ضرب الله مثلا للايمان والكفر بقوله تعالى ام هل تستوي الظلمات
اي الكفر والنور اي الايمان الجواب لا وقرا شعبة وحمزة والكسائي يستوي بالياء على التذكير
والباقون بالتاء على التانيث واما اللام من هل فادغمها هشام على القراءتين ام جعلوا لله شركاء
والهمزة للانكار وقوله تعالى خلقوا كخلقه صفة شركاء اي خلقوا سموات وارضين وشمسا وقمرا
وجبالا وبحارا وجنا وانسا فتشابه الخلق اي خلق الشركاء بخلق الله عليهم من هذا الوجه فلا يدرون
ما خلق الله وما خلق آلهتهم فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم وهذا استفهام انكار اي
ليس الامر كذلك ولا يستحق العبادة الا الخالق ولما كان من المعلوم قطعا ان جوابهم ان الخلق كله لله

لزمتهم الحجة فقال تعالى قُلِ لهؤلاء المشركين اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ اى مما يصح ان يكون مخلوقا فهو من العموم الذى يراد به الخصوص فلا يدخل فى ذلك صفات الله تعالى واذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه فى العبادة احد فوجب ان ينفرد بالالهية كما قال تعالى وَهُوَ الْوَاحِدُ اى الذى لا يجانسه شئ وكل ما سواه لا يخلو عن مماثل يماثله واين رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له الْقَهَّارُ الذى كل شئ تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته وارادته ثم ضرب تعالى مثلا للحق والباطل بقوله تعالى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ اى السحاب او السماء نفسها مَاءً اى مطرا فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ اى انهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى فيه وتنكيرها لان المطر ياتى على تناوب بين البقاع بِقَدَرِهَا اى بمقدارها الذى علم الله تعالى انه نافع غير ضار او بمقدارها فى الصغر والكبر فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا اى عاليا عليه هو ما على وجهه من قذر ونحوه وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ اى من جواهر الارض الذهب والفضة والنحاس والحديد ابْتِغَاءَ اى طلب حِلْيَةٍ اى زينة أَوْ مَتَاعٍ اى ينتفع به كالاوانى اذا اذيبت والات الحرب والحرث والمقصود من هذا بيان منافعها زَبَدٌ مِّثْلُهُ اى مثل زبد السيل وهو خبثه الذى ينفيه الكير ومن للابتداء او للتبعيض وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة على ان الضمير للناس واضماره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب كَذَٰلِكَ اى مثل هذا الضرب العلى الرتبة المتين السبب يَضْرِبُ اللّٰهُ اى الذى له الامر كله الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ اى مثلهما فانه تعالى مثل الحق فى افادته وثباته بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به الاودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به انواع المنافع ويمكث فى الارض بان يثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والقنى والابار ومثل الباطل فى قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وهو قوله تعالى فَأَمَّا الزَّبَدُ اى من السيل وما اوقد عليه من الجواهر فَيَذْهَبُ جُفَاءً قال ابو حيان مضمحلا اى متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له وقال ابن الانبارى متفرقا وانتصابه على الحال وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ من الماء ومن الجواهر الذى هو مثل الحق فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ اى يثبت ويبقى لينتفع به اهلها كَذَٰلِكَ اى مثل ذلك الضرب يَضْرِبُ اى يبين اللّٰهُ الذى له الاحاطة الكاملة علما وقدرة الْأَمْثَالَ فيجعلها فى غاية الوضوح وان كانت فى غاية الغموض قال اهل المعانى هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق فى بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق واهله كالزبد الذى يعلو على الماء فيذهب الزبد فيبقى الماء الصافى الذى ينفع وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذى لا ينتفع به البتة ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل ذكر ما لاهلهما من الثواب والعقاب فقال تعالى لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ اى اجابوه الى ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة

وبعث الاموات والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الحسنى قاله
ابن عباس وقال اهل المعاني الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة عن
شوائب المضرة الدائمة الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى
الزيادة ههنا لانه تعالى ذكرها في سورة اخرى وهي قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة
هذا ما لاهل الحق واما لاهل الباطل فهو ما ذكره بقوله جل من قائل وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ
وهم الكفرة فلهم انواع ثلاثة من العذاب والعقوبة فالنوع الاول قوله تعالى لَوْ أَنَّ لَهُمْ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ اي جعلوه فكاك انفسهم بغاية جهدهم لان المحبوب
بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فهو انما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا
كانت النفس في الضرر والالم والتعب وكان مالكا لما يساوي عالم الاجسام والارواح فانه
يرضى بان يجعله فداء نفسه لان المحبوب بالعرض لابد وان يكون
فداء لما كان محبوبا بالذات والكناية في به عائدة الى ما في قوله ما في الارض والنوع الثاني
من انواع العذاب الذي اعده الله تعالى لهم ما ذكره بقوله تعالى أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ
وهو المناقشة فيه وعن النخعي بان يحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر منه شيء وانما نوقشوا
لانهم احبوا الدنيا واعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا
وبقوا محرومين من الفوز بسعادة خدمة المولى والنوع الثالث من عقوباتهم ما ذكره بقوله تعالى
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاشتغال بخدمة المولى مشتغلين
للذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شيء آخر يجبر هذه
المصيبة فلذلك كان مأواهم جهنم ثم انه تعالى وصف هذا المأوى بقوله عز من قائل وَبِئْسَ
نصف ح الْمِهَادُ اي الفراش والمخصوص بالذم محذوف اي هي جهنم ونزل في حمزة وابي جهل وقيل في
عمار وابي جهل أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ اي يؤمن به ويعمل بما فيه وهو حمزة
او عمار رضي الله تعالى عنهما كَمَنْ هُوَ أَعْمَى اي اعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو
ابو جهل قال ابن الخازن في تفسيره وحمل الاية على العموم اولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى
لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى
لان الاعمى لا يهتدي لرشد إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ اي يتعظ أُولُو الْأَلْبَابِ اي اصحاب العقول الذين يطلبون
من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون من ظاهر كل حديث الى سره ولبابه
الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ اي ما عاقدوه على انفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى او ما عهد الله
تعالى عليهم في كتبه وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ اي ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين
العباد فهو تعميم بعد تخصيص وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ اي من الايمان والرحم
وغير ذلك والاكثرون على انه اراد به صلة الرحم عن ابي موسى ان عبد الرحمن بن عوف عاد ابا الرداد

فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكي عن ربه تعالى انا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته او قال بتته وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم متعلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره ان يبسط له في رزقه وان ينسأ له في اثره فليصل رحمه ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وفيه قولان احدهما وهو المشهور انه يزاد في عمره زيادة حقيقية والثاني يبارك له في عمره فكانه قد زيد فيه وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي اذا انقطعت رحمه وصلها وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال تأتي يوم القيامة لها السنة ذلقة الرحم فتقول اي رب قطعت والامانة تقول اي رب تركت والنعمة تقول اي رب كفرت وعن الفضيل بن عياض ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من اين انتم فقالوا من خراسان قال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا ان العبد لو احسن كل الاحسان وكانت له دجاجة فاساء اليها لم يكن من المحسنين ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ اي وعيده عموما والخشية خوف يشوبه تعظيم ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصا فيحاسبون انفسهم قبل ان يحاسبوا ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ اي على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفي كل ما ينبغي الصبر فيه وقال ابن عباس صبروا على امر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي ومرجع الكل واحد فان الصبر الحبس وهو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله ﴿ابْتِغَاءَ﴾ اي طلب ﴿وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ اي رضاه لا طلب غيره من جود او سمعة او رياء او لغرض من اغراض الدنيا او نحو ذلك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ اي المفروضة وقيل مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ قال الحسن المراد به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة فالاولى ان يؤديها سرا وان كان يتهم بترك ادائها فالاولى ان يؤديها علانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة وقيل المراد بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه الى الامام ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ اي يدفعون ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ كالجهل بالحلم والاذى بالصبر وروي عن ابن عباس قال يدفعون بالصالح من العمل السيء من العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله صلى الله عليه وسلم اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة اخرى فانفكت اخرى حتى يخرج الى الارض وقال ابن عباس يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا اعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن عمر ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى

اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن ابن كيسان اذا اذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا
امروا بتغييره وروى ان شقيقا البلخي دخل على ابن المبارك متنكرا فقال له من اين انت فقال من بلخ
فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة اصحابه قال اذا منعوا صبروا واذا اعطوا شكروا فقال
ابن المبارك طريقة كلابنا هكذا فقال شقيق فكيف ينبغي ان يكون الامر فقال الكاملون هم الذين
اذا منعوا شكروا واذا اعطوا آثروا اُولَٰئِكَ اى العالو الرتبة لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ وبينها تعالى بقوله جَنَّاتُ
عَدْنٍ اى اقامة لا انفكاك لها يقال عدن بالمكان اذا اقام به ثم استأنف بيان تمكنهم بها بقوله
تعالى يَدْخُلُونَهَا ولما كانت الدار لا تطيب بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ اى الذين كانوا سببا فى ايجادهم فيشمل ذلك الآباء والامهات وان علوا
وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ اى الذين تسببوا عنهم والمعنى انه يلحق بهم من صلح من اهلهم وان لم
يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم وتعظيما لشأنهم ويقال ان من اعظم موجبات سرورهم ان يجتمعوا فيتذاكروا
احوالهم فى الدنيا ثم يشكروا الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال الله
تعالى فى صفة اهل الجنة انهم يقولون يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين
وفى ذلك دليل على ان الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوفين بتلك الصفات يقترن
بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى انسهم والتقييد بالصلاح
دلالة على ان مجرد الانساب لا تنفع وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال يريد من صدق
بما صدقوا وان لم يعمل مثل اعمالهم قال الرازى قوله وازواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة
وزوجة ولعل الاولى من ماتت عنه او مات عنها وما روى عن سودة انها لما هم الرسول صلى الله
عليه وسلم بطلاقها قالت دعنى يا رسول الله احشر فى جملة نسائك كالدليل على ما ذكرناه وعلى
من تزوجت بغيره قيل انها تخير بينهما ثم زاد تعالى فى ترغيبهم بقوله تعالى وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ لان الاكثار من تردد رسل الملك اعظم فى الفخر واكثر فى السرور والعز ولما كان اتيانهم
من الاماكن المعتادة مع القدرة على غيرها ادل على الادب والكرم قال تعالى مِنْ كُلِّ بَابٍ قال
ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها الف باب مصاريعها من ذهب
يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم سَلَامٌ عَلَيْكُمْ اى فاضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه
بِمَا صَبَرْتُمْ على امر الله والباء للسببية اى بسبب صبركم او البدلية اى بدل ما احتملتم من مشاق
الصبر ومتاعبه فان قيل بم يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشرى بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم
وقال البيضاوى متعلق بعليكم او بمحذوف لا بسلام فان الخبر فاصل مع ان الزمخشرى قال ويجوز ان
يتعلق بسلام اى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم وهذا اظهر ورد الاول بان الممنوع منه انما هو المصدر
المؤول بحرف مصدرى وفعل والمصدر هنا ليس كذلك ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى
فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ وهى المسكن فى قرار الدنيا بالابنية التى يحتاج البناء والدار فى التى يتنعم بها والعقبى

الانتهاء الذی یؤدی الیه الابتداء من خیر او شر و المخصوص بالمدح محذوف ای عقباکم، ولما ذکرنا
صفات السعداء وما یترتب علیها من الاحوال الشریفة العالیة اتبعها بذکر احوال الاشقیاء وذکرنا
یترتب علیها من الاحوال المخزیة المکربة واتبع الوعد بالوعید والثواب بالعقاب لیکون البیان
کاملا فقال تعالی وَالَّذِيْنَ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَ اللّٰهِ ای فیعملون بخلاف موجبه والنقض التفریق
الذی ینفی تالیف البناء مِنْ بَعْدِ مِيْثَاقِهٖ ای الذی اوثقه علیهم من الاقرار والقبول وَيَقْطَعُوْنَ
مَا ای الذی اَمَرَ اللّٰهُ بِهٖۤ اَنْ يُّوْصَلَ وذلك فی مقابلة قوله من قبل والذین یصلون ما امر الله
به ان یوصل فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع ما یوجب
الله تعالی وصله ای لما له من المحاسن الجلیة والخفیة التی هی علی الصدور ویدخل فی ذلك وصل
الرسول صلی الله علیه وسلم بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنین ووصل الارحام ووصل سائر من له حق
وَيُفْسِدُوْنَ ای یوقعون الفساد فِی الْاَرْضِ ای فی ای جزء کان منها بالظلم وتهییج الفتن والدعاء الی
غیر دین الله تعالی اُولٰٓئِكَ ای البعداء البغضاء لَهُمُ اللَّعْنَةُ ای الطرد والبعد وَلَهُمْ سُوْٓءُ الدَّارِ
والدار لهم هی جهنم ولیس لهم فیها الا ما یسوء الصائر الیها، ولما حکم تعالی علی من نقض عهده فی قبول
التوحید والنبوة بانهم ملعونون فی الدنیا ومعذبون فی الاخرة فکانه قیل لو کانوا اعداء الله تعالی
لما فتح الله علیهم ابواب النعم واللذات فی الدنیا فاجاب الله تعالی بقوله تعالی اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ای یوسعه
لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ ای یضیقه علی من یشاء سواء فی ذلك الطائع والعاصی ولا تعلق لذلك بالکفر والایمان
فقد یوجد الکافر موسعا علیه دون المؤمن ویوجد المؤمن موسعا علیه دون الکافر فالدنیا دار امتحان
ولما کانت السعة مظنة الفرح الا عند من وفقه الله تعالی قال الله تعالی وَفَرِحُوْا ای کفار مکة فرح بطر
بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ای بما نالوه فیها لا فرح سرور بفضل الله والعافیة علیهم ولم یقابلوه بالشکر حتی یستوجبوا
نعیم الاخرة وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا ای بکمالها فِی الْاٰخِرَةِ ای فی جنبها اِلَّا مَتَاعٌ ای حقیر ومتاع شیء یتمتع به ع
ویذهب کعجالة الراکب وهی ما یتعجله من تمیرات او شربة ماء سویق او نحو ذلك وَيَقُوْلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا
من اهل مکة لَوْلَا ای هلا اُنْزِلَ عَلَيْهِ ای علی هذا الرسول اٰيَةٌ ای علامة بینة مِّنْ رَّبِّهٖ ای المحسن الیه
کالعصا والید لموسی والناقة لصالح لنهتدی بها فنؤمن به، وامره الله تعالی ان یجیبهم بقوله قُلْ
ای لهؤلاء المعاندین اِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ اضلاله فلا تغنی عنه الایات شیئا وان انزلت کل ایة
وَيَهْدِیْۤ ای یرشد اِلَيْهِ ای الی دینه مَنْ اَنَابَ ای رجع الیه کابی بکر الصدیق وغیره ممن تبعه من
العشرة المشهود لهم بالجنة وغیرهم ولو حصلت اٰیة واحدة فلا تشتغلوا بطلب الایات ولکن تضرعوا
الی الله تعالی فی طلب الهدایة وقوله تعالی اَلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا بدل من اناب او خبر مبتدأ محذوف وَتَطْمَئِنُّ
ای تسکن قُلُوْبُهُمْ بِذِكْرِ اللّٰهِ ای انسا به واعتمادا علیه ورجاء منه او بذکر رحمته ومغفرته بعد القلق
والاضطراب من خشیته او بذکر دلائله الدالة علی وجوده او بالقران الذی هو اقوی المعجزات وقال
ابن عباس یرید اذا سمعوا القران خشعت قلوبهم واطمانت فان قیل قد قال الله تعالی فی سورة

الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين
هاتين الآيتين اجيب بانهم اذا ذكروا العقاب ولم يأمنوا ان يقدموا على المعاصي فهناك يحصل الوجل
واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما أَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ اى
الذى له الجلال والاكرام لا بذكر غيره تَطْمَئِنُّ اى تسكن الْقُلُوبُ ويثبت اليقين فيها وقوله تعالى اَلَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ مبتدأ خبره طُوبٰى لَهُمْ واختلف العلماء فى تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح
لهم وقرة عين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال النخعي خير لهم وكرامة وقال سعيد بن جبير
طوبى اسم الجنة بالحبشية قال الرازى وهذا القول ضعيف لانه ليس فى القرآن الا العربى لا سيما واشتقاق
هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر وعن ابى هريرة وابى الدرداء ان طوبى شجرة فى الجنة تظل الجنان
كلها وقال عبيد بن عمير هى شجرة فى جنة عدن اصلها فى دار النبى صلى الله عليه وسلم وفى كل
دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة
الا وفيها منها ينبع من اصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل وكل ورقة منها تظل امة عليها
ملك يسبح الله تعالى بانواع التسبيح وعن ابى سعيد الخدرى ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم
ما طوبى قال شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب اهل الجنة تخرج من اكمامها وعن معاوية بن قرة
عن ابيه يرفعه طوبى شجرة غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلى والحلل وان اغصانها
لترى من وراء سور الجنة وفى رواية عن ابى هريرة انه قال ان فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله تعالى
لها تفتقى لعبدى عما يشاء فتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتفتق له عن الراحلة
برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وقيل طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضم ما قبلها مصدر
لطاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك اصبت خيرا وطيبا وَحُسْنُ مَاٰبٍ اى حسن المنقلب كَذٰلِكَ
اى مثل ارسال الرسل الذين قدمنا الاشارة اليهم فى آخر سورة يوسف وفى غيرها اَرْسَلْنٰكَ فِىٓ اُمَّةٍ
اى جماعة كثيرة قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَآ اى تقدمتها اُمَمٌ طال اذاهم لانبيائهم ومن آمن بهم واستهزاؤهم
بهم فى عدم الاجابة حتى كانهم تواصوا بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليهم لِّتَتْلُوَا اى لتقرأ عَلَيْهِمُ
اى على امتك الَّذِىٓ اَوْحَيْنَآ اِلَيْكَ من القرآن وشرائع الدين وَهُمْ اى والحال انهم يَكْفُرُوْنَ بِالرَّحْمٰنِ
اى بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شئ وقال قتادة هذه الآية مدنية نزلت فى صلح الحديبية
وذلك ان سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على ان يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لعلى اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة
يعنى مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن
اى انهم يكفرونه ويجحدونه قال البغوى والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان ابا جهل
سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحجر يدعو يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو
الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى

قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس أنها
نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن قال الله تعالى
قل لهم يا محمد إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت أي اعتمدت عليه
في أموري كلها وإليه متاب أي مرجعي ومرجعكم وروي أن أهل مكة قعدوا في فناء الكعبة
فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم وعرض الإسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومي سير لنا
جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها وأحي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق
ما تقول أم باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى وسخر لنا الريح حتى نركبها إلى البلاد فقد كانت الريح
مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال
أي نقلت عن أماكنها أو قطعت به الأرض أي شققت من خشية الله تعالى عند قراءته
فجعلت أنهارا وعيونا أو كلم به الموتى أي بأن يحيوا وجواب لو محذوف أي لكان هذا القرآن
في غاية ما يكون من الصحة ولكن بمعرفة السامعين مراده وهذا معنى قول قتادة قال لو فعل
هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقيل تقديره لما آمنوا ونقل عن الفراء أن جواب لو مقدم وهو
قوله وهم يكفرون ففي الكلام تقديم وتأخير بينهما اعتراض وتقدير الكلام وهم
يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن
ولم يؤمنوا أيضا وهو معلوم لنا فإن قيل لم حذفت التاء في قوله تعالى وكلم به الموتى وثبتت
في الفعلين قبله أجيب بأنه من باب التغليب لأن الموتى يشمل المذكر والمؤنث بل لله الأمر
أي القدرة على كل شيء جميعا وهو إضراب عما تضمنته لو من معنى النفي أي بل الله قادر على
الإتيان بما اقترحوه من الآيات لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بأنه لا تلين قلوبهم
ولا يؤمنون بذلك قوله تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا [illegible]
أكثرهم [illegible] الذين آمنوا [illegible] أن لو يشاء الله [illegible]
لهدى الناس جميعا أي إلى الإيمان من غير آية ولكنه لم يشأ [illegible]
الذين كفروا أي [illegible] الكفار [illegible] تصيبهم بما صنعوا أي بسبب [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

فينقطع ذلك لانه لا يبقى على الارض كافر وقيل اراد به وعد الله بيوم القيامة لان الله يجمعهم فيه
فيجازيهم باعمالهم ان الله لا يخلف الميعاد لامتناع الكذب في كلامه تعالى ولما كان الكفار
يسألون هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك
يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات انزل الله تعالى تسلية له وتصبيرا له على سفاهة قومه
ولقد استهزئ برسل من قبلك كما استهزئ بك فامليت للذين كفروا اي اطلت المدة بتأخير
العقوبة ثم اخذتهم بالعقوبة فكيف كان عقاب اي هو واقع موقعه فكذلك افعل بمن استهزأ بك
والاملاء الامهال بان يترك مدة من الزمان في راحة وامن كالبهيمة يملى لها في المرعى وهذا استفهام
معناه التعجب وفي ضمنه وعيد شديد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم
على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى اورد على المشركين ما يجري مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا
من عقولهم فقال تعالى افمن هو قائم اي رقيب على كل نفس بما كسبت اي عملت من خير وشر
وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات
ولابد لهذا الكلام من جواب فان من موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره
محذوف وتقديره كمن ليس بهذه الصفة وهي الاصنام التي لا تنفع ولا تضر دل على هذا المحذوف
قوله تعالى وجعلوا لله شركاء ونظيره قوله تعالى افمن شرح الله صدره للاسلام الآية تقديره كمن
قسا قلبه يدل عليه قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله وانما حسن حذفه كون المبتدأ مقابلا
للمبتدأ وقد جاء مبينا كقوله تعالى افمن يخلق كمن لا يخلق وقوله تعالى قل سموهم فيه تنبيه على ان
هؤلاء الشركاء لا يستحقونها والمعنى سموهم باسمائهم الحقيقية فانهم اذا عرفت حقائقهم انها جمادات
او غير ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء ثم قيل
ان امتنعوا من ذلك الى الاقرار بانهم من جملة عبيده ام تنبئونه اي تخبرونه بما لا يعلم وعلمه محيط
بكل شيء في الارض من كونها آلهة ببرهان قاطع ام تسمونهم شركاء بظاهر من القول اي بحجة
ظاهرية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشيء وهذا احتجاج بليغ على اسلوب عجيب ينادي على نفسه
بالاعجاز ولما كان التقدير ليس لهم على شيء من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بني عليه قوله تعالى
بل زين اي وقع التزيين بامر من لا يرد امره على يد من كان من شياطين الانس او شياطين الجن
للذين كفروا مكرهم اي امرهم الذي ارادوه به ما يراد بالمكر من الاخفاء وابطان غير ما يظهر وذلك
انهم اظهروا ان شركاءهم آلهة معتقدهم بطلان ذلك وليس بمرادهم الا الاقتداء بالآباء
والظهور والنفس بصدوفها لتقربهم الى الله زلفى وليشفعوا لهم وهم لا يعتقدون ضرا ولا نفعا ولا انتصارا
ثم تمادوا في غيهم قبل المكر وصدوا اي غيرهم عن السبيل اي طريق الهدى الذي لا يقال لغيره
سبيل فانه غيره عدم بل العدم خير منه وقرأ الكوفيون بضم الصاد وقرأ غيرهم بفتحها
والمعنى ... ومن يضلل الله اي الذي له الامر كله بان اراد اضلاله فما له من هاد

وقرأ ابن كثير باثبات الياء بعد الدال في الوقف دون الوصل والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذا للشاصى واق وكذا ولا واق ولما اخبر الله تعالى بتلك الامور المذكورة بين انه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بالقتل والاسر والذم والاهانة واغتنام الاموال واللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ اى اشد في المشقة بسبب القوة والشدة وكثرة الانواع والدوام وعدم الانقطاع ثم بين تعالى ان احدا لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ اى مانع يمنعهم اذا اراد بهم سوءا لا في الدنيا ولا في الآخرة والواقي فاعل من الوقاية ولما ذكر تعالى عذاب الكفار في الدنيا والآخرة اتبعه بذكر ثواب المتقين بقوله تعالى مَثَلُ اى صفة الْجَنَّةِ اى التي هي مقرهم الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ واختلف في اعراب ذلك على اقوال الاول قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصنا عليك مثل الجنة والثاني قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدأ وخبره تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كما تقول صفة زيد اسمر والرابع الخبر أُكُلُهَا اى ما يؤكل فيها دَائِمٌ لانه الخارج عن العادة فقد وصف الله تعالى الجنة بثلاثة اوصاف الاول تجري من تحتها اى من تحت قصورها واشجارها الانهار الثاني ان اكلها دائم لا ينقطع ابدا بخلاف جنة الدنيا والثالث قوله تعالى وَظِلُّهَا اى دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها اذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم انه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين تعالى انها للمتقين بقوله تعالى تِلْكَ اى الجنة العالية الاوصاف عُقْبَى اى آخر امر الَّذِينَ اتَّقَوْا اى الشرك ثم ذكر الوعيد للكافرين بقوله تعالى وَعُقْبَى اى منتهى امر الْكَافِرِينَ النَّارُ لا غير وفي ترتيب النظمين اطماع للمتقين واقناط للكافرين واختلف في قوله تعالى وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ على قولين الاول انهم اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ من انواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص وَمِنَ الْأَحْزَابِ اى الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ وهذا قول الحسن وقتادة فان قيل الاحزاب منكرون كل القرآن اجيب بانهم لا ينكرون كل ما في القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته واقاصيص الانبياء والاحزاب لا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثاني ان المراد بالكتاب التوراة وباهله الذين اسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام واصحابه ومن اسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا اربعون من نجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية اهل الكتاب وسائر المشركين وقيل كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن في الابتداء فلما اسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من اهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره في التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره في القرآن فرحوا به فانزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه يعني مشركي مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم

في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم قالوا ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعني مسيلمة فأنزل الله
تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون. ثم إنه تعالى لما بين هذا حصر كل ما يحتاج المرء إليه في معرفة
المبدأ والمعاد وبينه بألفاظ قليلة فقال قل أي يا أكرم الخلق على الله تعالى إنما أمرت أي وقع
إلي الأمر الجازم الذي لا شك فيه ولا تغيير ممن له الأمر كله أن أعبد الله أي وحده ولذلك قال
ولا أشرك به شيئاً إليه وحده أدعو وإليه مآب أي مرجعي للجزاء لا إلى غيره وكذلك أي كما
أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم أنزلناه أي القرآن حكماً والحكم فصل الأمر على الحق عربياً
بلسانك ولسان قومك وإنما سمى القرآن حكماً لأن فيه جميع التكاليف والحلال والحرام والنقض
والإبرام فلما كان سبباً للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وروى أن المشركين كانوا يدعون
النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملة آبائه فتوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب بأن يصلي إلى
قبلتهم بعد ما حوله الله تعالى عنها بقوله تعالى ولئن اتبعت أهواءهم أي الكفار فيما يدعونك إليه
من ملتهم بعد ما جاءك من العلم أي بأنك على الحق وأن قبلتك هي الكعبة ما لك من الله من
ولي أي ناصر ولا واق أي مانع من عذابه قال ابن عباس الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم ع
والمراد أمته. ونزل لما عير الكفار النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء ولقد أرسلنا رسلاً
من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً أي نساء ينكحونهن فكان لسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية
وكان لداود عليه السلام مائة امرأة وذرية أي أولاداً فأنت مثلهم وكانوا يقولون أيضاً لو كان
رسولاً من عند الله لكان أي شيء طلبناه منه من المعجزات أتى به فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى
وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله أي بإرادته لأن المعجزة الواحدة كافية في إزالة العذر
والعلة وفي إظهار الحجة والبينة والزائد عليها فهو مفوض إلى مشيئة الله تعالى إن شاء أظهرها
وإن لم يشأ لم يظهرها لا اعتراض لأحد عليه في ذلك ولما توعدهم صلى الله عليه وسلم بنزول العذاب
وظهور النصرة له ولقومه وتأخر ذلك عنهم قالوا لو كان نبياً صادقاً لظهر كذبه فرد الله تعالى
عليهم بقوله تعالى لكل أجل أي مدة كتاب أي مكتوب قد أثبت فيه أن أمر كذا يكون في وقت
كذا من الثواب والعقاب والأحكام والإتيان بالآيات وغيرها إثباتاً ونفياً على ما تقتضيه
الحكمة. ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إن محمداً يأمر أصحابه بأمر اليوم
ثم يأمرهم بخلافه غداً وما سبب ذلك إلا أنه يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بقوله
تعالى يمحو الله ما يشاء أي محوه من الشرائع والأحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه ويثبت ما يشاء إثباته
من ذلك بأن يقره ويمضي حكمه كقوله تعالى ما ننسخ من آية إلى قوله تعالى ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير
وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بسكون الثاء المثلثة وتخفيف الباء الموحدة والباقون بفتح الثاء
وتشديد الباء الموحدة. تنبيه: في هذه الآية قولان أحدهما أنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر
اللفظ وهذا مذهب عمر وابن مسعود وغيرهما قالوا إن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول في الأجل

في السعادة والشقاوة والايمان والكفر وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه انه كان يطوف بالبيت
وهو يبكي ويقول اللهم ان كنت كتبتني في اهل السعادة فاثبتني فيها وان كنت كتبتني على الشقاوة
فامحني واثبتني في اهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب ومثله عن
ابن مسعود وفي هذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل بمعنى ان الرجل
يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد الى ثلاثة ايام والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة
ايام فيصل رحمه فيرد الى ثلاثين سنة وروي ان الله تعالى ينزل امره في آخر ثلاث ساعات تبقى
من الليل فينظر في الساعة منهن في ام الكتاب الذي لا ينظر فيه احد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت
والقول الثاني ان هذه الآية خاصة في بعض الاشياء دون بعض واختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن
جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه
وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل لهذا بما رواه
حذيفة بن اسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان واربعون
ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يا رب اذكر ام انثى
فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يا رب رزقه فيقضي ربك ما يشاء ويكتب
الملك ثم يقول يا رب اشقي ام سعيد فيكتبان فيكتب ثلاثة اثره واجله ورزقه ثم تطوى الصحف
فلا يزاد ولا ينقص وقال عطية عن ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يعود لمعصية الله تعالى
فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو والذي يثبت الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو في طاعته فهو
الذي يثبت وقال الحسن يمحو ما يشاء اي من جاء اجله فيذهب به ويثبت من لم يجيء اجله الى اجله وقال سعيد بن
جبير قال يمحو ما يشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء
من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وقال
السدي يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت ما يشاء يعني الشمس بيانه قوله تعالى فمحونا آية الليل وجعلنا آية
النهار مبصرة وقال الربيع هذا في الارواح يقبضها الله تعالى عند النوم فمن اراد موته امسكه ومن اراد بقاءه
اثبته ورده الى صاحبه بيانه قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها الآية وقيل ان الله تعالى يثبت في اول
كل سنة حكما فاذا مضت السنة محاه واثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت
الآخرة وقيل ان الحفظة يكتبون جميع اعمال بني آدم واقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب
ولا عقاب وقيل هذا في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة [illegible] وقال
ام الكتاب اي اصل الكتاب والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشيء اما ومنه ام الرأس للدماغ وام القرى
مكة وكل مدينة فهي ام لما حولها من القرى وكذا ام الكتاب هو الذي يكون اصلا لجميع الكتب وفيه
قولان الاول انه اللوح المحفوظ الذي لا يتغير ولا يتبدل لما تقدم من ان جميع حوادث العالم العلوي والسفلي مثبت فيه [illegible]
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان الله ولا شيء ثم خلق اللوح واثبت فيه احوال جميع الخلق الى [illegible]

والقول الثاني ان ام الكتاب اصله الذي لا يتغير منه شيء وهو الذي كتب في الازل. قال ابن عباس
في رواية عكرمة هما كتابان كتاب سوى ام الكتاب يمحو ما يشاء منه ويثبت وعنده ام الكتاب
لا يتغير منه شيء وعلى هذا فالكتاب الذي يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذي تكتبه الملائكة على الخلق وعن
ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه
في كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب. وسأل ابن عباس كعبا عن
ام الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه. ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استعجالهم و
استعجال السيئة ما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك البعض واتيانه ليؤمن به
غيره تقويا بالفصل النزاع قال تعالى وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ باختصار ما اكده بما كيد للاعلام بانه لا حرج
عليه في شيء من ذلك بعدا وقعه تحقيقا بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ اي من العذاب وانت حي كما تحبه وتوعدنا
احبابك قبل وفاتك فذلك شافيك من اعدائك والوعد الخبر عن خير يحصل والوعيد الخبر
عن شر يحصل والمعنى هنا عليه وسماه وعدا لان الذي يلهم اياه في طلب نزوله منزلة الوعد أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
اي قبل ان نريك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ اي ليس عليك الا تبليغ الرسالة
اليهم وليس عليك ان تجازيهم ولا ان تأتيهم بالمقترحات والبلاغ اسم اقيم مقام التبليغ واما فيه
ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ اي علينا ان نحاسبهم يوم القيامة
فنجازيهم باعمالهم فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم … قال ابو حيان الظاهر ان
لان المعطوف على الشرط شرط فتحقق لكل شرط ما يناسب ان يكون جوابا مرتبا عليه والتقدير واما نرينك
بعض الذي نعدهم فذلك شافيك من اعدائك واما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب
وقد … الى ذلك ولما وعد الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بان يريه بعض ما يعدهم
او يتوفاه قبل ذلك بين ان اثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى
أَوَلَمْ يَرَوْا اي كفار مكة أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ اي نقصد ارض هؤلاء الكفرة نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا بما يفتح
الله تعالى على المسلمين من بلاد الشرك ارضا بعد ارض حوالي ارضهم هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة
وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض اهلها وعن عكرمة قال هو قبض الناس وعن الشعبي مثله وعطاء
وجماعة نقصها بموت العلماء وذهاب الفقهاء وخيار اهلها وعن ابي الدرداء انه قال …
… صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلماء
حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤسا جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا وقال الحسن قال
… وقال علي … مثل الفقهاء كمثل
… وقال سليمان لا يزال الناس بخير ما بقي الاول حتى يتعلم الاخر واذا هلك الاول قبل
ان يتعلم الاخر هلك الناس وقيل … ثم اثبت
… فقال وَاللَّهُ يَحْكُمُ … لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ اي …

راد لان التعقيب رد الشيء بعد فصله لحكمه وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره تنبيه محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كانه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لا عمامة على راسه ولا قلنسوة تريد حاسرا وهو عز وجل مع تمام القدرة سريع الحساب فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء في الدنيا وقال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعني حسابه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا وقوله تعالى وقد مكر الذين من قبلهم اي من كفار الامم الماضية بل مكروا بانبيائهم مثل نمرود مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى فلله المكر جميعا اي ان مكر جميع الماكرين حاصل بتخليقه وارادته لانه تعالى هو الخالق لجميع اعمال العباد فالمكر لا يضر الا باذنه ولا يؤثر الا بتقديره فيه امان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكانه قيل اذا كانت حدوث المكر من الله تعالى وتاثيره في الممكور به من الله وجب ان لا يكون الخوف الا من الله تعالى لا من احد من المخلوقين وذهب بعض المفسرين الى ان المعنى فلله جزاء المكر وذلك انهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى انه يجازيهم على مكرهم قال الواحدي والاول اظهر القولين بدليل قوله تعالى يعلم ما تكسب كل نفس اي ان اكساب العباد معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله فيجازيهم على اعمالهم وفي ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين ثم انه تعالى اكد ذلك التهديد بقوله تعالى وسيعلم الكفر لمن عقبى الدار اي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة الهم ام للنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بالالف بعد الكاف على الافراد والكاف مفتوحة والفاء مكسورة مخففة والباقون بالالف بعد الفاء على الجمع فالكاف مضمومة والفاء مفتوحة مشددة فمن قرأ بالافراد اراد الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر ليوافق قراءة الجمع وقال عطاء المستهزؤن وهم خمسة والمقتسمون وهم ثمانية وعشرون وقال ابن عباس يريد ابا جهل قال الرازي والاول هو الصواب اي ليوافق قراءة الجمع كما مر ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى ويقول الذين كفروا لست مرسلا اي لكونك لا تاتي بمقترحاتهم مع انه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما انه قادر عليها فكانه قيل فما اقول لهم فقال تعالى قل لهم كفى بالله الذي له الاحاطة الكاملة شهيدا اي بليغ العلم في شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن بيني وبينكم يشهد بتاييد رسالتي وتصديق مقالتي بما اظهر لي من الآيات واوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد بكذبكم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا وهذا اعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجز فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا واختلف في قوله تعالى ومن عنده علم الكتاب فروى العوفي عن ابن عباس انهم علماء اليهود والنصارى

اى ان كل من كان عالما من اليهود بالتورية ومن النصارى بالانجيل علم ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وانكره من انكر منهم والثانى ان المراد شهادة اهل الكتاب من الذين آمنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى قال الحسن لا والله لا يعنى الا الله والمعنى كفى بالله الذى يستحق العبادة وبالذى لا يعلم علم ما فى اللوح الا هو شهيدا بينى وبينكم وهذا اظهر كما استظهره البقاعى وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل اذ يقال شهد بهذا زيد الفقيه لا زيد والفقيه لانه جائز فى الجملة وقيل معناه ان علم القرآن الذى جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بينى وبينكم والله اعلم بمراده وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى وتبعهما ابن عادل من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرعد اعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله حديث موضوع

سورة ابراهيم عليه السلام مكية

الا قوله تعالى الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله الآيتين وهى اثنتان وخمسون آية وعدد كلماتها ثمانمائة واحدى وثلاثون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف واربعمائة واربعة وثلاثون حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى الر تقدم الكلام عليها اول يونس وهود وقوله تعالى كتاب خبر لمبتدأ محذوف اى هذا القرآن كتاب او الر ان قلنا انها مبتدأ والجملة بعده صفة ويجوز ان يرتفع بالابتداء وخبره الجملة بعده وجاز الابتداء بالنكرة لانها موصوفة تقديرا تقديره كتاب اى كتاب يعنى عظيما من بين الكتب السماوية انزلناه اليك يا اشرف الخلق عند الله تعالى لتخرج الناس اى عامة قومك وغيرهم بدعائك اياهم من الظلمات اى الكفر وانواع الضلالة الى النور اى الايمان والهدى قال الرازى والآية دالة على ان طرق الكفر والبدع كثيرة وان طريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات وهى صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الجهل والكفر كثيرة وان طريق العلم والايمان ليس الا واحدا تنبيه القائلون بان معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول احتجوا بهذه الآية وذلك يدل على ان معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم واجيب بان الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه واما المعرفة فهى انما تحصل من الدليل وقوله تعالى باذن ربهم متعلق بالاخراج اى بتوفيقه وتسهيله ويبدل من الى النور الى صراط اى طريق العزيز اى الغالب الحميد اى المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد وفى قوله الله قولان فقرأ نافع وابن عامر برفع الهاء وصلا وابتداء على انه مبتدأ خبره الذى له ما فى السموات وما فى الارض اى ملكا وخلقا وقرأ الباقون بالجر على انه بدل او عطف بيان

وما بعده صفة + تنبيه + ذهب جماعة من المحققين الى ان قولنا الله جار مجرى الاسم العلم
لذات الله سبحانه وتعالى وذهب قوم آخرون الى انه لفظ مشتق قال الرازي والحق عندنا
هو الاول لان الامة لما اجتمعت على ان قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض علمنا ان قولنا
الله جار مجرى الاسم العلم وقد قال تعالى هل تعلم له سميا اي هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك
يدل على قولنا الله اسم لذات الله المخصوصة ولذا استشكل قراءة الجر اذ الترتيب الحسن ان يذكر الاسم
ثم يذكر عقبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور واما الخالق الله فلا يحسن
واجيب عن ذلك بانه لا يبعد ان تذكر الصفة اولا ثم يذكر الاسم ثم تذكر الصفة مرة اخرى كما يقال
مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله تعالى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات
وما في الارض والآية تفيد حصر ما في السموات وما في الارض له لا لغيره وذلك يدل على انه لا مالك
الا الله ولا حاكم الا الله وانه تعالى خالق لاعمال العباد لانها حاصلة في السموات والارض فوجب
القول بان افعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة
لله واذا ثبت انها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله والا لكان العبد قد منع الله تعالى من ايقاع
مقدوره وذلك محال ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال تعالى وَوَيْلٌ لِلْكٰفِرِيْنَ
اي الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الارض وعبدوا من لا يملك شيئا
البتة بل هو مملوك الله تعالى لانه من جملة ما في السموات وما في الارض وويل مبتدأ وجاز الابتداء به
لانه دعاء كسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى مِنْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ اي يعذبهم في الآخرة
متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ثم وصفهم بقوله تعالى اَلَّذِيْنَ يَسْتَحِبُّوْنَ اي يختارون الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا
عَلَى الْاٰخِرَةِ اي يؤثرونها عليها وَيَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اي يمنعون الناس عن قبول دين الله
وَيَبْغُوْنَهَا اي السبيل عِوَجًا اي معوجة والاصل ويبغون لها زيغا وميلا فحذف الجار واوصل
الفعل الى الضمير اُولٰٓئِكَ اي الموصوفون بهذه الصفات فِيْ ضَلٰلٍ بَعِيْدٍ اي عن الحق واسناد
البعد الى الضلال اسناد مجازي لان البعيد هم الضلال بميلهم عن الباقي الى الفاني + ثم ذكر
ما يجري مجرى تكميل النعمة والاحسان في الوجهين بقوله تعالى وَمَآ اَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُوْلٍ اي
في زمن من الازمان اِلَّا بِلِسَانِ اي لغة قَوْمِهٖ اما بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى بين
ان سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة واما انت يا محمد فمبعوث الى عامة البشر وكان
هذا الانعام في حقك اكمل وافضل واما بالنسبة الى عامة الخلق فهو انه تعالى ذكر انه ما بعث
رسولا الا بلسان اولئك القوم لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ما امروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة لان ذلك
اسهل لفهم اسرار تلك الشريعة والوقوف على حقائقها وابعد عن الغلط والخطأ + تنبيه +
تمسك طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية بهذه الآية على ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل
لغير العرب من وجهين الاول ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب

ما فيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة الا عليهم الثاني ان قوله تعالى وما ارسلنا
من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب فذلك يدل على انه مبعوث الى العرب
فقط ورد عليهم بان المراد بالقوم اهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل يا ايها الناس
اني رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدي كما وقع مع الانس وقع مع الجن بدليل قوله تعالى
قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيرا ثم بين سبحانه وتعالى ان الاضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى فَيُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشَاءُ
اضلاله وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ هدايته فانه تعالى هو المضل الهادي وليس على الرسل الا التبليغ والبيان
والله تعالى هو الهادي المضل يفعل ما يشاء وَهُوَ الْعَزِيزُ في ملكه فلا رادّ له عن مشيئته الْحَكِيمُ
في صنعه فلا يهدي ولا يضل الا لحكمة ولما بين تعالى انه انما ارسل محمدا عليه الصلاة والسلام
الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه في ذلك الارسال وفي
تلك البعثة اتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى اقوامهم وكيفية معاملة اقوامهم لهم ليكون ذلك
تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على اذى قومه وارشادا له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى
على العادة المالوفة قصص بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام
فقال وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا مُوسٰى بِاٰيٰتِنَا اي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر و
انفجار العيون من الحجر واظلال الجبل والمن والسلوى وسائر معجزاته اَنْ اَخْرِجْ قَوْمَكَ اي بني اسرائيل
مِنَ الظُّلُمٰتِ اي الكفر والضلال اِلَى النُّوْرِ اي الايمان والهدى تنبيه يجوز ان تكون ان مصدرية
اي بان اخرج والباء في باياتنا للحال وهذه للتعدية ويجوز ان تكون مفسرة للرسالة بمعنى اي
ويكون المعنى اي اخرج قومك من الظلمات اي قلنا له اخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملأ منهم
ان امشوا وَذَكِّرْهُمْ بِاَيّٰمِ اللّٰهِ قال ابن عباس بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله في الامم السالفة
يقال فلان عالم بايام العرب اي بوقائعهم وفي المثل من يرَ يوما يُرَ به قال الرازي معناه من رأى
في يوم سروره مصرع غيره رآه غيره في يوم آخر بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها
بين الناس والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد ان يذكرهم
ما انعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الايام والترهيب والوعيد ان يذكرهم
بامر الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم
من العذاب ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب وقيل بايام الله
في حق موسى ان يذكر قومه بايام المحنة والبلاء حين كانوا تحت ايدي القبط يسومونهم سوء
العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ اي التذكير
العظيم لَاٰيٰتٍ على وحدانية الله تعالى وعظمته لِكُلِّ صَبَّارٍ اي كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية
شَكُوْرٍ اي كثير الشكر للنعم وانما خص الصبور والشكور بالانتفاع بالآيات وان كان فيها عبرة للكل لانهم المنتفعون

بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكانها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى هدى للمتقين فان الانتفاع لا يمكن حصوله الا لمن يكون صبارا شاكرا اما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة ولما امر الله تعالى موسى ان يذكرهم بايام الله حكى عنه انه ذكرهم بها بقوله تعالى وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وقوله إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ظرف للنعمة بمعنى الانعام اى اذكروا انعام الله عليكم في ذلك الوقت يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بالاستعباد وَيُذَبِّحُونَ اى تذبيحا كثيرا أَبْنَاءَكُمْ اى المولودين وَيَسْتَحْيُونَ اى يستبقون نِسَاءَكُمْ احياء وذلك لقول بعض الكهنة ان مولودا يولد في بني اسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون فان قيل لم ذكر تعالى في سورة البقرة يذبحون بغير واو وذكره هنا مع الواو اجيب بانه انما حذفت في سورة البقرة لانها تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو وهنا ادخل الواو فيه لانه نوع آخر لانهم كانوا يعذبونهم بانواع من العذاب غير التذبيح فليس تفسيرا للعذاب وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ اى انعام وابتلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ لان الابتلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة فان قيل تذبيح الابناء فيه بلاء واما استحياء النساء فكيف فيه ابتلاء اجيب بانهم كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت ايديهم كالاماء فكان ذلك ابتلاء وقوله تعالى وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ اى واذكروا اذ تأذن ربكم فهو ايضا من كلام موسى عليه السلام وتأذن بمعنى اذن كتوعد واوعد غير انه ابلغ لما في التفعل من معنى التكلف والمبالغة لَئِن شَكَرْتُمْ يا بني اسرائيل نعمتي بالتوحيد والطاعة لَأَزِيدَنَّكُمْ نعمة الى نعمة ولاضاعفن لكم ما آتيتكم فان الشكر قيد الموجود وصيد المفقود والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة ثم قد يترقى العبد عن تلك الحالة الى ان يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته واما الزيادة في النعمة فهي على قسمين روحانية وجسمانية فالاولى هي ان الشاكر يكون ابدا في مطالعة اقسام نعمة الله تعالى وانواع فضله وكرمه واما الثانية فلان الاستقراء دل على ان كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله اكثر كان وصول نعم الله اليه اكثر نسأل الله تعالى القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه ويفعل ذلك باهلينا واحبابنا ثم انه تعالى لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله بقوله تعالى وَلَئِن كَفَرْتُمْ اى جحدتم النعمة بالكفر والمعصية لاعذبنكم دل عليه إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ اى لمن كفر نعمتي ولا يشكرها ومن عادة اكرم الاكرمين ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد وللبيان موسى ان الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا والآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات في الدنيا والآخرة بين بعده ان منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب الكفران واما المعبود المشكور فانه متعال عن ان ينتفع بالشكر او يستضر بالكفران فلهذا قال تعالى وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ يا بني اسرائيل وَمَن فِي الْأَرْضِ

واكده بقوله تعالى جميعا اي من الثقلين فانما ضرر ذلك يعود على انفسكم بحرمتها الخير كله
فان الله لغني عن جميع خلقه فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين حميد اي محمود
في جميع افعاله لانه فيها متفضل عادل وقوله تعالى الم ياتكم يا بني اسرائيل نبؤا اي خبر الذين من
قبلكم قوم نوح وكانوا ملء الارض وعاد قوم هود وكانوا اشد الناس ابدانا واقواها وثمود
قوم صالح وكانوا اقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور يحتمل ان يكون من كلام موسى
او كلام مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وهو استفهام تقرير وقوله تعالى
والذين من بعدهم اي بعد هؤلاء الامم الثلاثة لا يعلمهم الا الله فيه قولان الاول ان يكون
المراد لا يعلم كنه مقاديرهم الا الله تعالى لان المذكور في القرآن جملة فاما ذكر العدد والعمر والكيفية
والكمية فغير حاصل والقول الثاني ان المراد ذكر اقوام ما بلغنا اخبارهم اصلا كذبوا رسلا
لم نعرفهم اصلا ولا يعلمهم الا الله ولذلك كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون
يعني انهم يدعون علم الانساب الى آدم عليه السلام وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن
عباس انه قال بين عدنان واسمعيل ثلاثون ابا لا يعرفون ونظير هذه الآية قوله تعالى
وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا
عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعنه صلى الله عليه وسلم انه كان في انتسابه لا يجاوز معد بن
عدنان بن ادد وقال تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به
على الطريق قال الرازي والقول الثاني اقرب ولما جاءتهم اي هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم
رسلهم بالبينات اي الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات اتوا بامرين اولهما ما حكاه الله
تعالى عنهم بقوله تعالى فردوا اي الامم ايديهم في افواههم وفي ذلك احتمالات الاول ان الكفار
ردوا ايديهم في افواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل
من الغيظ والثاني انهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك
ردوا ايديهم في افواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فيضع يده على فيه والثالث انهم
وضعوا ايديهم على افواههم مشيرين بذلك الى الانبياء ان كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا
الحديث والرابع انهم اشاروا بايديهم الى السنتهم والى ما تكلموا به من قولهم الكفر كما حكى الله تعالى
ذلك عنهم بقوله تعالى وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به اي على زعمكم اي ان هذا جوابنا لكم ليس عندنا
غيره اقناطا لهم من التصديق هذا هو الامر الثاني الذي اتوا به وقيل الضمير في ردوا راجع للرسل
عليهم السلام وفيه وجهان احدهما ان الكفار اخذوا ايدي الرسل ووضعوها على افواههم ليسكتوا
ويقطعوا الكلام والثاني ان الرسل لما ايسوا منهم سكتوا ووضعوا ايدي انفسهم على افواه انفسهم
فان من ذكر كلاما عند قوم وانكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يده على فم نفسه
وغرضه ان يعرفهم انه لا يعود الى ذلك الكلام البتة والامر الثالث قولهم وانا لفي شك مما اي الذي

تدعوننا أيها الرسل إليه أي من الدين مريب أي موجب الريبة أي موقع في الريبة والشبهة
والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر الذي يشك فيه فإن قيل إنهم قالوا أولاً إنا كفرنا بما
أرسلتم به فكيف يقولون ثانياً وإنا لفي شك والشك دون الكفر أجيب بأنهم لما صرحوا بكفرهم
بالرسل كأنهم حصل لهم شبهة توجب الشك لهم فقالوا إن لم ندع الجزم واليقين في كفرنا فلا أقل
من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم
ولما قال هؤلاء الكفار للرسل ذلك قالت لهم رسلهم مجيبين أفي الله شك أي هل تشكون
في الله وهو استفهام إنكار أي لا شك في توحيده للدلائل الظاهرة عليه منها قوله تعالى فاطر أي
خالق السموات والأرض أي وما فيهما من الأنفس والأرواح والأرزاق وقرأ أبو عمرو رسلهم
هنا وفيما مر في جاءتهم رسلهم بإسكان السين والباقون بالرفع ولما أقاموا الدليل على وجود
الله تعالى وصفوه بكمال الرحمة بقولهم يدعوكم أي إلى الإيمان ببعثنا وقولهم ليغفر لكم اللام
متعلقة بيدعو أي لأجل غفران ذنوبكم كقوله ‫دعوت لما نابني مسوراً * فلبى فلبى يدي مسور
ويجوز أن تكون معدية كقوله دعوتك لزيد والتقدير يدعوكم إلى غفران ذنوبكم وقوله من ذنوبكم
قال السيوطي من زائدة فإن الإسلام يغفر به ما قبله أو تبعيضية لإخراج حقوق العباد اه
أي والمغفور لهم ما بينهم وبين الله تعالى قال الرازي والعاقل لا يجوز له المصير إلى كلمة من كلام
الله تعالى بأنها زائدة من غير ضرورة اه وقال في الكشاف ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب
الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم
من ذنوبكم وقال في خطاب المؤمنين ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما
يقفك عليه الاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين وأن لا يسوي بين الفريقين
في الميعاد اه قال الرازي وأما قول الكشاف فهو من باب الطامات لأن هذا التبعيض إن حصل
فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب وإن لم يحصل كان هذا الكلام فاسداً ويؤخركم أي ولا يفعل
بكم فعل من تهددون من الملوك في العاجلة في الإهلاك من عاقبهم بل يؤخركم إلى أجل مسمى
أي إلى وقت قد سماه وبين مقداره يبلغكموه إن آمنتم به ولا يعاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت
إن أنتم ما آمنتم فإن قيل أليس قال تعالى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فكيف
قال هنا ويؤخركم إلى أجل مسمى أجيب بأن الأجل على قسمين معلق ومبرم قالوا أي الأمم مجيبين الرسل
إن أي ما أنتم أيها الرسل إلا بشر مثلنا أي لا فضل لكم علينا فلم تختصون بالنبوة دوننا ولو أرسل الله
تعالى إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أي من البشر في زعم القائلين أفضل وقول الكشاف وهم الملائكة
جار على مذهبه تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا أي ما تريدون بقولكم هذا إلا صدنا
عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدون فأتونا بسلطان مبين أي بحجة ظاهرة على صحة دعواكم ولما حكى
الله تعالى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها

بقوله تعالى قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ مجيبين لهم إِنْ اي ما نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ كما قلتم فسلموا ان
الامر كذلك لكنهم بينوا ان التماثل في البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ اي يتفضل عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من
عباده بهذا المنصب العظيم الشريف كما قال تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالته وَمَا كَانَ
اي ما صح واستقام لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ اي بامره لانا عبيد مربوبون فليس
الينا الاتيان بالايات فلا تستبد به استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه وانما هو امر متعلق
بمشيئة الله تعالى فله ان يخص كل نبي بنوع من الايات وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ بامرهم الْمُؤْمِنُونَ
اي يثقوا به فلا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فضل
الله فان الروح متى كانت متشرفة بالمعارف الالهية مشرقة باضواء عالم الغيب قلما تبالي بالاحوال
الجسمانية وقلما تقيم لها وزنا في حالتي السراء والضراء فلهذا توكلوا على الله وعولوا على فضله وقطعوا
اطماعهم عمن سواه وصدّروا الامر ابتداء بما يوجب التوكل وقصدوا به انفسهم قصدا اوليا الا ترى
الى قولهم وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ اي اي عذر لنا في ان لا نتوكل عليه وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا
اي وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام
الاخلاص والمكاشفة يقبح عليه ان يرجع في امر من الامور الى غير الحق وفي هذه الاية دلالة على انه
تعالى يعصم اولياءه والمخلصين في عبوديته عن كيد اعدائهم ومكرهم وقرأ ابو عمرو بسكون الباء
والباقون بالرفع وكذلك رسلهم سكن ابو عمرو السين ورفعها الباقون ثم قالوا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى
مَا آذَيْتُمُونَا فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لابد وان يصير غالبا قاهرا والباطل
لابد وان يصير مغلوبا مقهورا ثم قالوا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ فان قيل اي فرق بين التوكلين ع
اجيب بان الاول لاستحداث التوكل والثاني طلب دوامه اي فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه
من توكلهم المسبب عن ايمانهم + ولما حكى الله تعالى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا في دفع
شرور اعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار انهم بالغوا في السفاهة
بقوله تعالى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ مستهينين لمن قصروا النجاة عليه لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا
اي التي لنا الان الغلبة عليها أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا اي حلفوا ليكونن احد الامرين اما اخراجكم ايها
الرسل واما عودكم الى ملتنا اي ديننا فان قيل قد يفهم من ظاهره انهم كانوا على ملتهم قبل ذلك
اجيب بان العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون
صار ولكن عاد يقولون ما عدت اراه عاد لا يكلمني ما عاد لفلان مال وقد اجمعت الامة على
ان الرسل من اول الامر انما نشأوا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز ان يكون الخطاب لكل رسول ولمن
آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد وقيل او لتعودن في ملتنا اي الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة
من السكوت عن ذكر معايبه وعدم التعرض له بالطعن والقدح + ولما ذكر الكفار هذا الكلام قال تعالى

فاوحى اليهم اى الرسل ربهم وقوله تعالى لنهلكن الظالمين اى الكافرين حكاية تقتضي اضمار
القول او اجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه ولنسكننكم الارض اى ارضهم من بعدهم
اى بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض
ومغاربها وقوله تعالى واورثكم ارضهم وديارهم قال الزمخشري وعن النبي صلى الله عليه وسلم
من اذى جاره ورثه الله داره قال ولقد عاينت هذا في مدة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية
التي انا فيها ويؤذيني فيه فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته فنظرت يوما الى ابناء خالي
يترددون منها ويامرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم
به وسجدنا شكرا لله تعالى ذلك اى النصر وايراث الارض لمن خاف مقامي اى موقفي وهو
موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله الذي يوقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره
واما من خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل ذلك لمن خاف مقامي اى
خافني فالمقام مقحم مثل ما يقال سلام على المجلس العالي والمراد السلام على فلان وخاف وعيد قال
ابن عباس ما اوعدت من العذاب وهذا يدل على ان الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان
العطف يقتضي المغايرة وفي تفسير قوله تعالى واستفتحوا قولان احدهما طلب الفتح اى واستنصر
الله تعالى على اعدائهم وهو كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثاني الفتح الحكم والقضاء
اى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو ماخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى
ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فعلى القول الاول المستفتح هم الرسل لانهم استنصروا الله ودعوا
على قومهم بالعذاب لما ايسوا من ايمانهم قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقال
موسى ربنا اطمس على اموالهم وقال لوط انصرني على القوم المفسدين وعلى القول الثاني قال الرازي
فالاولى ان يكون المستفتح هم الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا
ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء وكقول
آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين وخاب اى خسر وهلك كل جبار اى متكبر عن
طاعة الله وقيل هو الذي لا يرى فوقه احدا وقيل هو المتعظم في نفسه المتكبر على اقرانه واختلفوا
في قوله تعالى عنيد فقال مجاهد معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال
مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذي يابى ان يقول لا اله الا الله وقيل هو المعجب بما عنده
ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بامور الاول
قوله تعالى من ورائه اى امامه جهنم اى هو صائر اليها قال ابو عبيدة هو من الاضداد وقال
الشاعر عسى الكرب الذي امسيت فيه + يكون وراءه فرج قريب + ويقال ايضا الموت
وراء كل احد وقال تعالى وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا اى امامهم وقال ثعلب
هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك او قدامك فيصح اطلاق لفظ الوراء على خلف وقدام

وقال ابن الانباري وراء بمعنى بعد قال الشاعر * وليس وراء الله للمرء مهرب * ومعنى الآية على هذا ان الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم الامر الثاني ما ذكره تعالى بقوله ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ اي في جهنم ﴿مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو ما يسيل من جوف اهل النار مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شراب اهل النار وقال محمد بن كعب هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر فان قيل علام عطف ويسقى اجيب بانه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ اي يتكلف ان يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ اي ولا يقدر على ابتلاعه قال الزمخشري دخل كاد للمبالغة يعني ولا يقارب ان يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها اي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها فان قيل كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه اجيب بجوابين احدهما ان المعنى ولا يسيغه جميعه كانه يتجرع البعض وما اساغ الجميع والثاني ان الدليل الذي ذكرناه دل على وصول ذلك الشراب الى جوف ذلك الكافر لان ذلك ليس باساغة لان الاساغة في اللغة اجراء الشراب في الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه اي لا يستطيبه ولا يشربه شربا مرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة الامر الثالث ما ذكره تعالى بقوله ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ اي اسبابه المقتضية له من انواع العذاب ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ اي من سائر الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من اصول شعره وابهام رجله ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح وقال ابن جريج تتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة الامر الرابع ما ذكره تعالى بقوله تعالى ﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ اي ومن بين يديه بعد ذلك العذاب ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ اي شديد في كل وقت يستقبله اشد مما قبله وقيل هو الخلود في النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد *

ولما ذكر تعالى انواع عذابهم بين بعده ان سائر اعمالهم تصير باطلة ضائعة وذلك هو الخسران الشديد بقوله تعالى ﴿مَّثَلُ﴾ اي صفة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ اي الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك اسير واقراء ضيف وبر والدين في عدم الانتفاع بها ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ اي شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثورا لا يقدر عليه كما قال تعالى ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ اي الكفار يوم الجزاء ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ اي عملوا في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ اي لا يجدون له ثوابا لفقد شرطه وهو الايمان وقرأ نافع الرياح بالجمع والباقون بالافراد ﴿ذَٰلِكَ﴾ اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم انهم محسنون ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ اي الخسران الكبير لان اعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها * تنبيه * في ارتفاع قوله تعالى مثل اوجه احدها وهو مذهب سيبويه انه مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وتكون الجملة من قوله تعالى اعمالهم كرماد مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل اعمالهم كرماد والثاني وهو مذهب الفراء ان التقدير مثل اعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله تعالى اعمالهم ومثله قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين

كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة الثالث ان يكون
التقدير صفة الذين كفروا اعمالهم كرماد كقوله صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول الرابع
ان تكون اعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل اعمالهم وقوله تعالى كرماد هو الخبر
وقيل غير ذلك وقوله تعالى أَلَمْ تَرَ اي تنظر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به امته وقيل لكل
واحد من الكفرة على الالتفات أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ على عظمها وارتفاعها وَالْأَرْضَ على تباعد
اقطارها واتساعها وقوله تعالى بِالْحَقِّ اي بالحكمة والوجه الذي يحق ان تخلق عليه متعلق بخلق
وقرأ حمزة والكسائي بالف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض والباقون بغير الف
بعد الخاء وفتح اللام والقاف ونصب الارض إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ايها الناس وَيَأْتِ بدلكم بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ اطوع منكم رتب ذلك على كونه خالق السموات والارض استدلالا به عليه فان من خلق
اصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور خلقا آخر لم يتعذر عليه كما قال تعالى وَمَا ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ اي بممتنع فانه تعالى قادر بذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن
هذا شأنه كان حقيقا ان يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه يوم الجزاء ولما ذكر
تعالى اصناف عذاب هؤلاء الكفار وذكر عقبه ان اعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلتهم
عند تمسك اتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى وَبَرَزُوا اي الخلائق من قبورهم
لِلَّهِ جَمِيعًا والتعبير فيه وفيما يأتي بالماضي وان كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه لان كل ما اخبر
الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كانه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره ونادى
اصحاب الجنة اصحاب النار ونظيره البروز في اللغة الظهور بعد الاستتار وهو في حق الله تعالى
محال فلا بد من تأويله وهو من وجهين الاول انهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب
الفواحش ويظنون ان ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند
انفسهم وعلموا ان الله تعالى لا يخفى عليه خافية الثاني انهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب
الله تعالى وحكمه ثم حكى الله تعالى عنهم ان الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع
عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى فَقَالَ الضُّعَفَاءُ اي الاتباع جمع ضعيف يريد به ضعفاء الرأي
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا اي المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه فاستغووهم به حتى تكبروا على الرسل
وقوله تعالى إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا يصح ان يكون مصدرا نعت به للمبالغة او على اضمار مضاف وان
يكون جمع تابع اي تابعين لكم في تكذيب الرسل فكذبناهم بسببكم وقد جرت عادة الاكابر بالدفع
عن اتباعهم المساعدين لهم على اباطيلهم فَهَلْ أَنْتُمْ اي في هذا اليوم مُغْنُونَ اي دافعون
عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ اي من انتقامه مِنْ شَيْءٍ فان قيل فما الفرق بين من في عذاب الله وبين
من في شيء اجيب بان الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كانه قيل هل انتم مغنون عنا بعض الشيء
الذي هو بعض عذاب الله ويجوز ان يكونا للتبعيض معا بمعنى هل انتم مغنون عنا بعض شيء

هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم قالوا لو هدنا الله اى
الذى له صفات الكمال لهديناكم اى لو ارشدنا الله تعالى لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكنه
لم يهدنا فضللنا وكنتم لنا تبعا فاضللناكم ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا سواء علينا اى
نحن وانتم اجزعنا ام صبرنا اى مستو علينا الجزع والصبر والجزع ابلغ من الحزن لانه يصرف
الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه ما لنا من محيص اى منجى ومهرب مما نحن فيه من العذاب ع
\+ تنبيه + يحتمل ان يكون هذا من كلام المتبوعين وان يكون كلام الفريقين ويؤيد الثانى ما روى
انهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا
نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون ذلك وقال محمد بن كعب
القرظى بلغنى ان اهل النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين فى النار لخزنة جهنم
ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم اولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات
قالوا بلى فردت الخزنة عليهم ادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة
نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون
يوما واليوم كالف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم
لبعض ذلك ولما ذكر تعالى المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس اردفها
بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين اتباعه بقوله تعالى وقال الشيطن الذى هو اول
المتبوعين فى الضلال ورأس المضلين والمتكبرين لما قضى الامر اى احكم وفرغ منه وادخل
اهل الجنة الجنة واهل النار النار اخذ اهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا
قال مقاتل يوضع له منبر من نار فيجتمع اهل النار اليه يلومونه فيقول لهم ما اخبر الله تعالى بقوله
ان الله وعدكم وعد الحق اى بالبعث والجزاء على الاعمال فصدقكم ووعدتكم ان لا جنة ولا نار ولا
حشر ولا حساب فاخلفتكم اى الوعد فلم اقل شيئا الا كان زيفا فاتبعتمونى مع كونى عدوكم وتركتم
ربكم وهو وليكم + تنبيه + فى الاية اضمار من وجهين الاول ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق
فصدقكم كما تقدم تقريره ووعدتكم فاخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك
الوعد لانهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر فى وعد الشيطان الاخلاف
فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى الثانى ان قوله ووعدتكم فاخلفتكم الوعد يقتضى مفعولا
ثانيا وحذف هنا للعلم به والتقدير ووعدتكم ان لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ولما بين
غروره بين سهولة اغترارهم زيادة فى تندمهم فقال وما كان لى عليكم من سلطن اى تسلط
من مزيده اى قوة وقدرة اقهركم على الكفر والمعاصى والجئكم على متابعتى وقوله الا ان دعوتكم
استثناء منقطع قال النحويون لان الدعاء ليس من جنس السلطان فمعناه لكن دعوتكم فاستجبتم
لى محكمين الشهوات لان النفس تدعوا الى هذه الاحوال الدنيوية ولا يتصور كيفية السعادات

الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والآخرة خير وابقى قال
الرازي وعندي انه يمكن ان يقال كلمة الا هاهنا استثناء حقيقي لان قدرة الانسان على حمل الغير
على عمل من الاعمال تارة تكون بالقهر والقسر وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه بالقاء الوساوس اليه
فهذا نوع من انواع التسليط اهـ ثم قال لهم فَلَا تَلُومُونِي اي لانه ما كان مني الا الدعاء والقاء
الوسوسة وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ لانكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم
ان لا تلتفتوا الي ولا تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم اولى باجانبي
ومتابعتي من غير حجة ولا دليل فان قيل لم قال الشيطان فلا تلوموني وهو ملوم بسبب اقدامه
على تلك الضلالة والوسوسة الباطلة أجيب بانه اراد لا تلوموني على فعلكم ولوموا انفسكم عليه لانكم
عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان انه قال مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ
اي بمغيثكم فيما حصل لكم من العذاب فازيل صراخكم منه وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ اي بمغيثي فيما يحصل بي منه
وقرأ ما عدا حمزة بفتح الياء مع التشديد وقرأ حمزة بكسر الياء مع التشديد على الاصل في التقاء
الساكنين لان ياء الاعراب ساكنة وياء المتكلم اصلها السكون فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين
قال البيضاوي وهو اصل مرفوض في مثله لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع ان حركة ياء الاضافة الفتح
اهـ فقوله اصل مرفوض اي متروك عند النحاة والا فهي قراءة متواترة عند القراء فيجب المصير اليها
لانها وردت من رب العالمين على لسان سيد المرسلين وقول الفراء ولعلها من وهم القراء فانه
قل من سلم منهم من الوهم ممنوع فقد قال ابو حيان هي قراءة متواترة نقلها السلف واقتفى آثارهم فيها
الخلف فلا يجوز ان يقال فيها انها خطأ او قبيحة او رديئة وقد نقل جماعة من اهل اللغة انها لغة لكن
قل استعمالها ونص قطرب على انها لغة في بني يربوع ونص على انها صواب ابو عمرو بن العلاء
[illegible] والقاسم بن معن من رؤساء الكوفيين قال الله تعالى حكاية عن الشيطان انه قال
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ اي كفرت اليوم باشراككم اياي من قبل هذا اليوم اي في الدنيا كقوله
تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى
انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم روى البغوي باسناده عن عقبة بن عامر عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة يقول عيسى ذلكم النبي الامي فيأتوني فيأذن
الله لي ان اقوم فيثور من مجلسي من اطيب ريح شمها احد حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر
راسي الى ظفر قدمي ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو
غير ابليس هو الذي اضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم انت فاشفع لنا
فانك انت اضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه انتن ريح شمها احد ثم يعظم لجهنم ويقول عند ذلك
ان الله وعدكم وعد الحق الآية قال في الكشاف وقوله إِنَّ الظَّالِمِينَ اي الكافرين لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ اي مؤلم من كلام الله تعالى ويحتمل ان يكون من تتمة قول ابليس وانما حكى الله تعالى ما سيقوله

في ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لابد لهم من الوصول
اليه وان يتصوروا في انفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا
ما يخلصهم منه وينجيهم + ولما بالغ سبحانه وتعالى في شرح حال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح
احوال السعداء وما اعد لهم من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك ان الثواب منفعة خالصة
دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وكونها دائمة اشير اليها بقوله تعالى خَالِدِينَ
فِيهَا وهو حال مقدرة والتعظيم حصل لهم من وجهين احدهما قوله تعالى بِإِذْنِ رَبِّهِمْ لان تلك
المنافع انما كانت تفضلا من الله تعالى وانعاما والثاني قوله تعالى تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ لان
بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم
من كل باب سلام عليكم والرب يحييهم ايضا بهذه التحية كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم
ويحتمل ان يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها
واسقامها وانواع همومها وغمومها لان السلام مشتق من السلامة + ولما شرح سبحانه وتعالى
احوال الاشقياء واحوال السعداء ذكر مثلا يبين الحال في حكم هذين القسمين بقوله تعالى أَلَمْ تَرَ
اي تنظر والخطاب يحتمل ان يكون للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره وان يكون لكل فرد من
الناس اي الم تر ايها الانسان كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ اي المحيط بكل شيء علما وقدرة مَثَلًا سيره بحيث
يعم نفعه والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول ثم بينه بقوله تعالى كَلِمَةً طَيِّبَةً قال ابن عباس
واكثر المفسرين هي لا اله الا الله كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ قال ابن مسعود وانس هي النخلة وعن ابن عباس
هي شجرة في الجنة وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب
مثل المؤمن شجرة فاخبروني ما هي قال عبد الله فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبيا فوقع
في قلبي انها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اقولها وانا اصغر القوم وروي فمنعني
مكان عمر فاستحييت فقال له عمر يا بني لو كنت قلتها لكانت احب الي من حمر النعم ثم قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة قيل الحكمة في تشبيه الانسان بالنخلة من بين سائر الاشجار ان
النخلة اشبه به من حيث انها اذا قطع راسها يبست وسائر الاشجار يتشعب من جوانبها بعد قطع
راسها وانها تشبه الانسان بحيث انها لا تحمل الا باللقاح لانها خلقت من فضلة طينة آدم عليه
السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اكرموا عمتكم قيل ومن عمتنا قال النخلة أَصْلُهَا ثَابِتٌ اي
في الارض وَفَرْعُهَا اي غصنها فِي السَّمَاءِ اي في جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة كقولك في الجبل
طويل في السماء تريد ارتفاعه وشموخه تُؤْتِي اي تعطي أُكُلَهَا اي ثمرها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا اي
بارادته والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقدار هذا فقال مجاهد
الحين هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر في كل سنة مرة وقال قتادة ستة اشهر يعني من حين طلعها

الى وقت صرامها وقال الربيع كل حين يعني كل غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا وصيفا
وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر
اليابس الى حين الطري الرطب فاكلها دائم في كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة في تمثيل كلمة
الاخلاص بالشجرة لان الايمان ثابت في قلب المؤمن كثبوت اصل هذه الشجرة في الارض وعمله
يصعد الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فكذلك فرع هذه
عال في السماء وتنال بركته وثوابه كل وقت والمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء
وجاءت بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ولان الشجرة لا تكون شجرة الا بثلاثة اشياء عرق راسخ
واصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة اشياء تصديق القلب وقول اللسان وعمل
بالابدان ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل ليقبل بكليته على تدبره ليحصل المراد منه فقال ويضرب الله
اي الذي له الاحاطة الكاملة الامثال للناس لعلهم يتذكرون اي يتعظون فان في ضرب الامثال
زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعاني النفيسة بتصويرها بصور المحسوس التام والوصول الى المطلوب ولما ذكر
مثل حال السعداء اتبعه بمثل حال الاشقياء فقال ومثل كلمة خبيثة هي كلمة الكفر كشجرة خبيثة
هي الحنظل وقيل الثوم وقيل الكشوث وهي شجرة لا اصل لها قال الجوهري نبت يتعلق باغصان الشجر
من غير ان يضرب بعرق في الارض قال الشاعر هو الكشوث فلا اصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر
وقيل شجرة الشوك اجتثت اي استؤصلت من فوق الارض اي لعروقها قريبة منه ما لها من قرار
اي اصل ولا فرع فكذلك الكفر اذ لا حجة له ولا ثبات ولا قوة وعن ابن عباس انه قيل لبعض
العلماء ما تقول في كلمة خبيثة فقال ما اعلم لها في الارض مستقرا ولا في السماء مصعدا الا ان تلزم
عنق صاحبها حتى يوافي بها يوم القيامة ولما وصف الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة في الآية
المتقدمة اخبر بقوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت انه تعالى يثبتهم بسببها
في الحياة الدنيا اي في القبر وقيل قبل الموت وفي الآخرة اي يوم القيامة عند البعث والحساب
وقيل في القبر وهو القول الثاني ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة اخبر بقوله تعالى
ويضل الله الظالمين اي الكفار انه تعالى لا يهديهم الى الجواب الصواب ويفعل الله ما يشاء اي
ان شاء هدى وان شاء اضل لا اعتراض عليه روي عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال المسلم اذا سئل في القبر يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فذلك قوله تعالى
يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وروي عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا
وضع في قبره وتولى عنه اصحابه يسمع قرع نعالهم اتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول
في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم فاما المؤمن فيقول اشهد انه عبد الله ورسوله فيقال له انظر
الى مقعدك من النار قد ابدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما
جميعا قال قتادة ذكر لنا انه يفسح له في قبره ثم رجع الى حديث انس قال واما المنافق او الكافر

فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا ادري كنت اقول ما يقول الناس فيه فيقال
لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين اذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه
غير الثقلين وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فلما فرغنا من دفنها وانصرف الناس قال انه الآن يسمع خفق نعالكم اتاه منكر ونكير اعينهما
مثل قدور النحاس وانيابهما مثل صياصي البقر واصواتهما مثل الرعد فيجلسانه فيسألانه
ما كان يعبد ومن نبيه فان كان ممن يعبد الله تعالى قال كنت اعبد الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم
جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول
الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة فيقال له على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث
ثم يفتح له باب الى الجنة ويوسع له في حفرته وان كان من اهل الشك قال لا ادري سمعت الناس
يقولون شيئا فقلته فيقال له على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى النار
ويسلط عليه عقارب وتنانين لو نفخ احدهم في الدنيا ما انبتت شيئا فتنهشه وتؤمر الارض فتنضم
عليه حتى تختلف اضلاعه نسأل الله الثبات لنا ولوالدينا ولاحبابنا في الدنيا والآخرة انه كريم
جواد ثم انه تعالى عاد الى وصف الكافرين فقال ألم تر اي تنظر وفي الخطاب ما تقدم الى الذين
بدلوا والتبديل جعل الشيء مكان غيره نعمت الله اي التي اسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن
جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك بان جعلوا مكان شكرها كفرا وهم يدعون انهم اشكر
الناس للاحسان واعلاهم هما في الوفاء وابعدهم عن الجفاء واحلوا اي انزلوا قومهم اي الذين
تابعوهم في الكفر باضلالهم اياهم دار البوار اي الهلاك مع ادعائهم انهم اذب الناس عن الجار
فضلا عن الاهل وهي الجنان في التفسير انهم كفار اهل مكة وقوله تعالى جهنم عطف بيان
يصلونها اي يدخلونها وبئس القرار اي المقر هي وجعلوا لله اي الذي لم يرث اي لا شريك له
في خلقهم ولا رزقهم لان له الكمال كله اندادا اي شركاء وقوله تعالى ليضلوا عن سبيله اي دين
الاسلام فيه قراءتان قرأ ابن كثير وابو عمرو بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من اضل
يضل وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم في اتخاذ الانداد لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض
ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل اي
لمن بدا لهم فانهم لا يشكون في قولك وان عاند تمتعوا بدنياكم قليلا فان مصيركم اي مرجعكم
الى النار في الآخرة ولما امر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا امر
المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى قل لعبادي الذين
وصفهم باشرف اوصافهم واضافهم الى ضميره الشريف تشريفا لهم وتنبيها على تعريفهم ثم اتبع هذا الوصف
ما يناسبه من افعالهم ... بقوله تعالى الذين آمنوا اي اوجدوا هذا الوصف ...
يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية فيه وجهان احدهما ان يكون جوابا لامر ...

تقديره قل لعبادي الذين آمنوا اقيموا الصلوة وانفقوا يقيموا الصلوة وينفقوا والثاني يصح ان يكون
هو امراً مقولاً محذوف فامنه اللام اي ليقيموا ليصح تعلق القول بهما وانما حسن ذلك هنا ولم يحسن
في قوله محمد تفد نفسك كل نفس + اذا ما خفت من شيء تبالا + اي تبالي به اي تكترث به
لدلالة قل عليه سِرًّا وَعَلَانِيَةً اي ينفقون اموالهم في حال السر والعلانية وقيل المراد بالسر الصدقة
التطوع وبالعلانية اخراج الزكوة الواجبة + تنبيه + في انتصاب سرا وعلانية وجوه احدها ان
يكون على الحال اي ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين والثاني على الظرف اي وقت
سر وعلانية وثالثها على المصدر اي انفاق سر وانفاق علانية + ولما امرهم الله تعالى باقامة
الصلوة والانفاق اشار الى عدم التهاون بذلك بقوله عز وجل مِنْ قَبْلِ اَنْ يَاْتِيَ يَوْمٌ اي عظيم
جدا ليس كشيء من الايام التي تعرفونها لَا بَيْعٌ فِيهِ اي فيشتري المقصر ما يتدارك به تقصيره
او يفدي به نفسه وَلَا خِلَالٌ اي مخالة اي صداقة تنفع في ذلك اليوم قال مقاتل انما هو يوم
لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكانه تعالى يقول انفقوا اموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب
ذلك الانفاق في مثل هذا اليوم الذي لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الاية قوله
تعالى في سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة فان قيل كيف نفى الله تعالى المخالة في هاتين
الايتين مع انه تعالى اثبتها في قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين اجيب
بان الاية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس والاية
الدالة على حصول المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة
الله تعالى + ولما طال الكلام في وصف احوال السعداء واحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى
والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وفي حصول الشقاوة
فقدان ذلك ختم تعالى احوال الفريقين بقوله تعالى اَللّٰهُ اي الملك الاعلى المحيط بكل شيء
ثم اتبعه بالدلائل الدالة على وجوده وكمال علمه وقدرته وذكر هنا عشرة انواع من الدلائل اولها
قوله تعالى الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وثانيها قوله تعالى وَالْاَرْضَ وهما اكبر خلقا منكم واعظم شانا
وثالثها قوله تعالى وَاَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَاَخْرَجَ بِهٖ مِنَ الثَّمَرٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ تعيشون به وهو يشمل
المطعوم والملبوس + تنبيه + الله مبتدأ وخبره الذي خلق ورزقا مفعول لاخرج ومن الثمرات
بيان له حال منه ويصح ان يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع وان
يكون الجرم المعهود فينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض وقد ذكرت ذلك
في سورة البقرة وفي غيرها ورابعها قوله تعالى وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ اي السفن لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ اي بالركوب
والحمل بِاَمْرِهٖ اي بمشيئته وارادته وخامسها قوله تعالى وَسَخَّرَ لَكُمُ الْاَنْهٰرَ اي ذللها لكم تجرونها
حيث شئتم لان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزروع والثمرات ولا في الشراب فكان ذلك نعمة من
الله تعالى وسادسها وسابعها قوله تعالى وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حال كونهما دَآئِبَيْنِ

دائبين

اى جاريين فى فلكهما لا يفتران فى سيرهما وانارتهما وتأثيرهما فى ازالة الظلمة واصلاح النبات والحيوان الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها والشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة وهى افضل من القمر لكثرة نفعها والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور كل ذلك بتسخير الله تعالى وانعامه وتأمينها وتأسيسها قوله تعالى وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة والنقصان وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار ليبتغوا فيه من فضله ومعاشهم قوله تعالى وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ اى مما انتم محتاجون اليه على حسب مصالحكم فانكم سألتموه بالقوة. ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما انعم به على عباده بين ان العبد عاجز عن حصرها وعدها بقوله تعالى وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا اى لا تحيطوا بها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا ارادوا ان يعدوها على الاجمال واما على التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه الا الله تعالى إِنَّ الْإِنْسَانَ اى الكافر وقال ابن عباس يريد ابا جهل لَظَلُومٌ اى كثير الظلم لنفسه كَفَّارٌ اى كفور لنعم ربه وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع فان قيل لم قال تعالى هنا ان الانسان لظلوم كفار وفى النحل ان الله لغفور رحيم اجيب بانه تعالى يقول للعبد اذا حصلت لك النعم الكثيرة فانت الذى اخذتها وانا الذى اعطيتها فحصل لك عند اخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولى وصفان عند اعطائها لك وهما كونى غفورا رحيما والمقصود كانه يقول ان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت كفارا فانا رحيم اعلم عجزك وتقصيرك فلا اقابل تقصيرك الا بالتوقير ولا اجازى جفاءك الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة. ولما بين الله تعالى بالدلائل المتقدمة ان لا معبود الا الله سبحانه وتعالى وانه لا تجوز عبادة غير الله البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغة فى انكار عبادة الاوثان بقوله تعالى وَإِذْ اى واذكر لهم ممن ذكروا بايام الله خبر ابراهيم إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اى المحسن الىّ باجابة دعائى اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ اى مكة آمِنًا اى ذا امن وقد اجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه احد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه فان قيل اى فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا اجيب بان المسؤل فى الاول ان يجعله من جملة البلاد التى يأمن اهلها ولا يخافون وفى الثانى ان يزيل عنها الصفة التى كانت حاصلة لها وهى الخوف ويحصل لها تلك الصفة وهى الامن كانه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا فان قيل كيف اجاب الله تعالى دعاءه مع ان جماعة من الجبابرة قد اغاروا عليها واخافوا اهلها اجيب بجوابين احدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر احد على اخراب مكة فان قيل يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة اجيب بان قوله تعالى اجعل هذا البلد يعنى الى قرب يوم القيامة

ويخراب الدنيا فهو عام مخصوص من الآية في السورتين فلا تعارض بين النصين والجواب
الثاني ان المراد جعل اهلها آمنين كقوله تعالى واسأل القرية اي اهلها وهذا الجواب عليه
اكثر المفسرين وعلى هذا فقد اختص اهل مكة بزيادة الامن في بلدهم كما اخبر الله تعالى بقوله ويتخطف
الناس من حولهم واهل مكة آمنون من ذلك حتى ان من التجأ الى مكة امن على نفسه وماله
وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة الحرم استوحشت واذا كانت داخل الحرم استأنست
لعلمها انه لا يهيجها احد في الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها واجنبني
اي بعدني وبني ان اي عن ان نعبد الاصنام اي اجعلنا في جانب غير جانب عبادتها فان قيل
الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن عبادة الاصنام فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادة الاصنام
اجيب بانه عليه الصلاة والسلام انما سأل ذلك هضما لنفسه واظهارا للحاجة والفاقة
الى فضل الله في كل المطالب وفي ذلك دليل على ان عصمة الانبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم
فان قيل كان كفار قريش من ابنائه وهم كانوا يعبدون الاصنام فكيف اجيب دعاؤه
اجيب بان المراد من كان موجودا حال الدعاء ولا شك ان دعوته كانت مجابة فيهم او ان
هذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من اولاده والدليل عليه انه قال عليه السلام في آخر الآية
فمن تبعني فانه مني وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى انه
ليس من اهلك انه عمل غير صالح او العصمة المطلوبة عن خاصة البشر وما كان مقدورا على غير خلقه
البشر وقد روى ان سائلا سأل ابن عيينة كيف عبدت العرب الاصنام فقال ما عبد
احد من ولد اسمعيل صنما واحتج بقوله تعالى واجنبني وبني ان نعبد الاصنام انما كانت انصاب
الحجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر
يطوفون به اسابيع تشبيها بالكعبة ويسمونه الدوار بضم الدال مشددة وقد تفتح قال الجوهري
ودوار بالضم صنم وقد تفتح فاستحب ان يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت قال الرازي وهذا
الجواب ليس بقوي لانه عليه السلام لم يرد بهذا الدعاء الا عبادة غير الله والحجر كالصنم في ذلك
ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم انه قال رب انهن اي الاصنام اضللن كثيرا من الناس بعبادتهم لها
نسبة الاضلال اليهن مجاز لانهن جمادات والجماد لا يفعل شيئا البتة
الا انه لما حصل الضلال عند عبادتها اضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم اي افتتنوا بها واغتروا
بسببها ثم قال فمن تبعني اي على التوحيد فانه مني اي فانه بعضي يجري مجرى بعضي لفرط اختصاصه
بي وقربه مني ومن عصاني اي في غير الدين فانك غفور رحيم وهذا صريح في طلب الرحمة
والمغفرة لاولئك العصاة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام
ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم لانه مأمور بالاقتداء به كما قال تعالى واتبع ملة ابراهيم
وقيل ان هذا الدعاء كان قبل ان يعلم ابراهيم ان الله لا يغفر الشرك وقيل انك قادر ان تغفر له وترحمه

بان تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة ان لا يعاجلهم بالعقاب فلا يعاجلهم حتى يتوبوا قال الرازي واعلم ان هذه الاوجه ضعيفة وارتضى ما تقرر اولاً تنبيه حكى الله سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام في هذا الموضع انه طلب من الله تعالى سبعة امور الاول طلب من الله تعالى نعمة الامان وهو رب اجعل هذا البلد امنا المطلوب الثاني ان يرزقه الله تعالى التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبني وبني ان نعبد الاصنام المطلوب الثالث قوله رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي اي بعض ذريتي او ذرية من ذريتي فحذف المفعول على هذا القول وهم اسمعيل ومن ولد منه فان اسكانه متضمن لاسكانهم بِوَادٍ هو وادي مكة المشرفة لكونه في فضاء منخفض بين جبال تجري فيه السيول غَيْرِ ذِي زَرْعٍ اي لا يكون فيه من الزرع قط فانه حجري لا ينبت كقوله تعالى قرانا عربيا غير ذي عوج بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ اي الذي حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه او لانه لم يزل ممنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه ان يجتنب او لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه او لانه حرم على الطوفان اي منع منه كما سمي عتيقا لانه اعتق منه فلم يستول عليه او لانه امر الصائرين اليه ان يحرموا على انفسهم اشياء كانت تحل لهم من قبل او لانه حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة املاك وهو مثل البيت المعمور الذي بناه ادم فرفع الى السماء السادسة وروي ان هاجر كانت امة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت منه اسمعيل فقالت سارة كنت اريد ان يهب الله لي ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي وغارت عليهما فقالت لابراهيم نحهما عني فناشدته بالله ان يخرجهما من عندها فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في اعلى المسجد وليس بمكة يومئذ احد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل ابراهيم منطلقا فتبعته ام اسمعيل وقالت يا ابراهيم اين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت اليها فقالت له آلله امرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه وقال ربنا اني اسكنت من ذريتي حتى بلغ يشكرون وجعلت ام اسمعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى او قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا اقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى من احد فلم تر احدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما اشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت ايضا فقالت قد اسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه او قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور

بعد ما تعرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله ام اسمعيل لو تركت زمزم او قال
لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وارضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة
فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وابوه وان الله لا يضيع اهله وكان البيت مرتفعا من الارض
كالرابية يأتيه السيل فياخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم او اهل
بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في اسفل مكة فرأوا طائرا فقالوا ان هذا الطائر ليدور
على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فارسلوا جريا او جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فاخبروهم فاقبلوا
وام اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا ان ننزل عندك فقالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم
قال ابن عباس قالت ذلك ام اسمعيل وهي تحب الانس فنزلوا وارسلوا الى اهليهم فنزلوا معهم حتى
اذا كان بها اهل ابيات منهم فشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم حتى شب فلما ادرك
زوجوه امرأة منهم وماتت ام اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل وتقدم تمام هذه القصة
في سورة البقرة ثم قال رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ اللام لام كي متعلقة باسكنت اي ما اسكنتهم بهذا الوادي
المقفر الذي لا شيء فيه الا لاقامة الصلوة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وتعمر به
مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع مستسعدين بجوارك الكريم
متقربين اليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة
التي اثرت بها سكان حرمك وتكرير النداء وتوسطه للاشعار بانهما المقصود بالذات من اسكانهم
هنالك والمقصود من الدعاء توفيقهم لها فَاجْعَلْ اَفْئِدَةً اي قلوبا محترقة بالاشواق مِّنَ النَّاسِ
ومن للتبعيض والمعنى واجعل افئدة بعض الناس تَهْوِيْ اي تميل اِلَيْهِمْ ويدل عليه ما روي
عن مجاهد لو قال افئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن
جبير لو قال افئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال افئدة من الناس فهم
المسلمون وقال ابن عباس لو قال افئدة الناس لحنت اليه فارس والروم والناس كلهم ولما دعا لهم
بالدين دعا لهم بالرزق فقال وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرٰتِ ولم يقل وارزقهم الثمرات وذلك يدل على ان
المطلوب بالدعاء ايصال بعض الثمرات اليهم ويحتمل ان يكون المراد بايصال بعض الثمرات اليهم
ايصالها اليهم على سبيل التجارات كما قال تعالى يجبى اليه ثمرات كل شيء حتى توجد فيه الفواكه الصيفية
والربيعية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من اياته بعجيب وان يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها
لتحصل تلك الثمار وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه قال كانت الطائف من ارض فلسطين
فلما قال ابراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُوْنَ يدل على ان
المقصود للعاقل من منافع الدنيا ان يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام
بين انه انما طلب تيسير المنافع على اولاده لاجل ان يتفرغوا لاقامة الطاعات واداء الواجبات
ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر انه لا يعلم عواقب

الاحوال ونهاية الامر في المستقبل فانه تعالى هو العالم بها والمحيط باسرارها فقال ربنا انك تعلم
ما نخفي اي نسر وما نعلن وهذا هو المطلوب الرابع والمعنى انك اعلم باحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا
منا قيل ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين اسمعيل وما نعلن من البكاء وقيل ما نخفي
من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع
الى من تكلنا قال الى الله اكلكم قالت آلله امرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا واختلف
في قوله تعالى وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء فقيل من تتمة قول ابراهيم عليه السلام
يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في اي مكان والاكثرون على انه قول الله
تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله تعالى وكذلك يفعلون ولفظة من تفيد الاستغراق كانه قيل وما يخفى
عليه شيء ما ولما انهى ابراهيم عليه السلام ما دعا به اتبعه الحمد على ما رزقه من النعم بقوله تعالى
الحمد لله اي المستحق لصفات الكمال الذي وهب لي اي اعطاني على الكبر اي وهب لي وانا كبير آيس
من الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهارا لما فيه من المعجزة اسمعيل واسحق
ومقدار ذلك السن غير معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقال ابن عباس
ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة
فان قيل ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء عند ما اسكن اسمعيل وامه في ذلك الوادي
وفي ذلك الوقت ما ولد اسحق فكيف يمكنه ان يقول ذلك اجيب بان هذا يقتضي ان ابراهيم
انما ذكر هذا الكلام في زمن آخر لا عقب ما تقدم من الدعاء قال الرازي ويمكن ايضا ان يقال انه
عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه
انتهى تنبيه قوله على الكبر بمعنى مع كقوله شعر اني على ما ترين من كبري ... اعلم من حيث تؤكل الكتف
وهو في موضع الحال ولما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الافصاح والتصريح قال
ان ربي اي المحسن الي لسميع الدعاء اي لمجيبه فان قيل الله تعالى يسمع كل دعاء اجابه او لم يجبه
اجيب بان هذا من قولك سمع الملك كلامي اذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده المطلوب
الخامس قوله رب اجعلني مقيم الصلوة اي معدلا لها مواظبا عليها تنبيه في الآية دليل
على ان افعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واجنبني
وبني ان نعبد الاصنام يدل على ان ترك المنهيات لا يحصل الا من الله تعالى وقوله رب اجعلني
مقيم الصلوة يدل على ان فعل المامورات لا يحصل الا من الله تعالى وذلك تصريح بان ابراهيم
عليه السلام كان مصرا على ان الكل من الله تعالى وقوله تعالى ومن ذريتي عطف على المنصوب
في اجعلني اي واجعل بعض ذريتي كذلك لان كلمة من في قوله ومن ذريتي للتبعيض وانما ذكر هذا
التبعيض لانه علم باعلام الله تعالى انه يكون في ذريته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى لا ينال
عهدي الظالمين المطلوب السادس انه عليه السلام لما دعا الله تعالى في المطالب المذكورة دعا الله

تعالى في ان يقبل دعاءه فقال رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ قال ابن عباس يريد عبادتي بدليل قوله تعالى
واعتزلكم وما تدعون من دون الله وقيل دعائي المذكور المطلوب السابع قوله رَبَّنَا اي ايها المالك
لامورنا المدبر لنا اغْفِرْ لِي + فان قيل ان طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة ذنب اجيب بان
المقصود من ذلك الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله وكرمه ورحمته ثم اشرك معه اقرب
الناس اليه واحقهم بشكره فقال وَلِوَالِدَيَّ + فان قيل كيف جاز ان يستغفر لوالديه وكانا كافرين
اجيب بوجوه الاول ان المنع منه لا يعلم الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه جائزا الثاني
اراد بوالديه آدم وحواء الثالث كان ذلك بشرط الاسلام وقال بعضهم كانت امه مؤمنة
ولذلك خص اباه بالذكر في قوله فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه + ثم دعا لمن تبعه في الدين من ذريته
وغيرهم بقوله وَلِلْمُؤْمِنِينَ اي المعريقين في هذا الوصف يَوْمَ يَقُومُ اي يبدو ويظهر الْحِسَابُ
وقيل اراد يوم يقوم الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا
دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله تعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام وفيه بشارة عظيمة
للمؤمنين بالمغفرة فنسأل الله تعالى ان يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولاصحابنا ولمن نظر في هذا
التفسير ودعا لمن كان سببا فيه بالمغفرة ولما بين تعالى دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام
انه طلب من الله تعالى ان يصونه عن الشرك وطلب منه ان يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه
بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة عقبه بقوله تعالى مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم وَلَا تَحْسَبَنَّ
اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ لان الغفلة معنى يمنع الانسان عن الوقوف على حقائق الامور
وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله تعالى محال
والمقصود من ذلك التنبيه على انه ينتقم للمظلوم من الظالم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بانه
لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا عنه قال سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد
للظالم فقيل له من قال هذا فغضب وقال انما قاله من علمه فان قيل كيف يليق به صلى الله عليه وسلم
ان يحسب الله موصوفا بالغفلة وهو اعلم الناس به اجيب بوجوه الاول ان المراد به التثبيت على ما كان
عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تدع مع الله الها آخر والثاني ان المقصود منه بيان انه لو
لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث ان المراد ولا تحسبنه يعاملهم
معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير والرابع
ان يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر الا انه يكون في الحقيقة
خطابا مع الامة + ثم بين تعالى انه إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ اي عذابهم لِيَوْمٍ موصوف بخمس صفات الصفة
الاولى قوله تعالى تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ اي ابصارهم لا تقر في اماكنها من هول ما ترى في ذلك اليوم
الصفة الثانية قوله تعالى مُهْطِعِينَ اي مسرعين الى الداعي او مقبلين بابصارهم لا يطرفون هيبة
وخوفا وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت الصفة الثالثة قوله تعالى مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ اي رافعيها

اذ الاقناع رفع الراس الی فوق فاهل الموقف من صفتهم انهم رافعو رءوسهم الی السماء
وهذا بخلاف المعتاد لان من یتوقع البلاء یطرق ببصره الی الارض وقال الحسن وجوه الناس
یوم القیامة الی السماء لاینظر احد الی احد الصفة الرابعة قوله تعالى لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ای
بل تثبت عیونهم شاخصة لایطرفون بعیونهم ولکن عیونهم مفتوحة ممدودة من غیر تحریک
للاجفان قد شغلهم ما بین ایدیهم الصفة الخامسة قوله تعالى وَأَفْئِدَتُهُمْ ای قلوبهم هَوَاءٌ
ای خالیة من العقل لفرط الحیرة والدهشة وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت
فی حناجرهم فلا تخرج من افواههم ولا تعود الی اماکنها + تنبیه + اختلفوا فی وقت حصول هذه
الصفات فقیل انها عند المحاسبة بدلیل انه تعالى انما ذکر هذه الصفات عقب وصف
ذلک بانه یوم یقوم الحساب وقیل انها تحصل عند ما یتمیز فریق عن فریق فالسعداء یذهبون
الی الجنة والاشقیاء الی النار وقیل تحصل عند اجابة الداعی والقیام من القبور قال الرازی
والاول اولی وَأَنذِرِ النَّاسَ یا محمد ای خوفهم یوم القیامة وهو قوله تعالى يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ
ای الذی تقدم ذکره وهو شخوص ابصارهم وکونهم مهطعین مقنعی رءوسهم فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
ای کفروا رَبَّنَا أَخِّرْنَا ای بان تردنا الی الدنیا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ الی امد واحد من الزمان قریب
نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ای بالتوحید ونتدارک ما فرطنا فیه وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ فیما یدعوننا الیه فیقال لهم
توبیخا أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم ای حلفتم مِّن قَبْلُ فی الدنیا مَا لَكُم واکد النفی بقوله مِّن زَوَالٍ ای ما لکم
عنها انتقال ولا بعث ولا نشور کما قال فی آیة اخری واقسموا بالله جهد ایمانهم لا یبعث الله
من یموت وکانوا یقولون لا زوال لنا من هذه الحیاة الی حیاة اخری ومن هذه الدار الی دار
المجازاة لا انهم کانوا ینکرون ان یزولوا عن حیاة الی موت او عن شباب الی هرم او عن غنی الی
فقر ثم انه تعالى زادهم توبیخا آخر بقوله تعالى وَسَكَنتُمْ فی الدنیا فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
بالکفر من الامم السابقة وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ای وظهر لکم بما تشاهدون فی منازلهم
من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندکم من اخبارهم وَضَرَبْنَا ای وبینا لَكُمُ الْأَمْثَالَ فی القرآن ان
عاقبتهم عادت الی الوبال والخزی والنکال مما یعلم به انه قادر علی الاعادة کما قدر علی الابتداء
وقادر علی التعذیب المؤجل کما یفعل الهلاک المعجل وذلک فی کتاب الله تعالى کثیر ولما ذکر
تعالى صفة عقابهم اتبعه بذکر کیفیة مکرهم بقوله تعالى وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ای الشدید العظیم
الذی استفرغوا فیه جهدهم واختلف فی عود الضمیر فی مکروا علی وجوه الاول ان یعود الی الذین
سکنوا فی مساکن الذین ظلموا انفسهم لان الضمیر یعود الی اقرب مذکور والثانی الی قوم محمد
صلی الله علیه وسلم بدلیل قوله تعالى وانذر ای یا محمد الناس وقد مکر قومک مکرهم وذلک المکر
هو الذی ذکره الله تعالى فی قوله واذ یمکر بک الذین کفروا لیثبتوک او یقتلوک او یخرجوک وَعِندَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ ای ومکتوب عند الله فعلهم فهو مجازیهم علیه بمکر هو اعظم منه وقیل ان مکرهم لا یزیل امرا

محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكى عن علي بن ابي طالب رضي الله تعالى
عنه في الاية قول اخر وهو انها نزلت في نمروذ الجبار الذي حاج ابراهيم في ربه فقال نمروذ ان كان
ما يقوله ابراهيم حقا فلا انتهي حتى اصعد الى السماء فاعلم ما فيها ثم امر نمروذ صاحبه فاتخذ لنفسه
تابوتا وجعل له بابا من اعلاه وبابا من اسفله وربط قوائمه الاربع باربعة نسور كان قد جوعها ورفع
فوق الجوانب الاربع من التابوت عصيا اربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة لحم ثم انه جلس مع
صاحبه في ذلك التابوت فلما ابصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهواء فطارت يوما حتى
ابعدت في الهوا فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاسفل وانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال
ارى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما اخر وارتفعت حتى حالت
الريح بينها وبين الطيران فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاعلى ففتح فاذا السماء كهيئتها
وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة ونودي ايها الطاغي اين تريد قال عكرمة كان
معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بالدم
بدم سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء وقيل طائر اصابه السهم فقال كفيت اله السماء ونكس
تلك العصي التي علق عليها اللحوم فتسفلت النسور وهبطت الى الارض فسمعت الجبال حفيف
التابوت والنسور ففزعت وظنت انه قد حدث في السماء حدث وان القيامة قد قامت
فكادت تزول عن اماكنها فذلك قوله تعالى وان كان مكرهم اي من القوة والعظامة لتزول
منه الجبال قال الرازي ولا حاجة في تاويل الاية الى هذا لانه لم يثبت فيه خبر صحيح معتمد انتهى والمراد
بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرائع الاسلام المشبهة بها في القرار والثبات وقرأ الكسائي بفتح
اللام الاولى ورفع الاخيرة والباقون بكسر الاولى ونصب الثانية والنفي على القراءة الاولى وان كان
بحيث انه تزول منه الجبال وقيل ان نافية واللام لتاكيد النفي فلا تحسبن الله الخطاب له صلى الله
عليه وسلم والمراد منه امته مخلف وعده رسله من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين كما قال
تعالى انا لننصر رسلنا وقال تعالى كتب الله لاغلبن انا ورسلي ثم قال الرازي فان قيل هلا قال مخلف رسله وعده
ولم قدم المفعول الثاني على الاول اجيب بانه قدم الوعد ليعلم انه لا يخلف الوعد اصلا كقوله
تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه اذا لم يخلف وعده احدا وليس من شانه
اخلاف المواعيد فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته ان الله عزيز اي غالب والاكرام عزيز
اي غالب يقدر ولا يقدر عليه ذو انتقام اي ممن عصاه يوم تبدل الارض غير الارض
بدل من يوم ياتيهم او ظرف للانتقام والمعنى يوم تبدل هذه الارض التي تعرفونها ارضا اخرى غير هذه
المعروفة وقوله تعالى والسموات عطف على الارض وتقديره والسموات غير السموات والتبديل
التغيير قد يكون في الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه بدلناهم جلودا غيرها وبدلناهم
بجنتيهم جنتين وفي الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا اذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل

اخر ومنه قوله تعالى فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات والآية محتملة لكل واحد من هذين
المفهومين فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي تلك الارض وانما تغير اوصافها وانشد
وما الناس بالناس الذين عهدتهم * ولا الدار بالدار التي كنت تعلم * فتبدل اوصافها فتسير
عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتستوي فلا ترى فيها عوجا ولا امتا وتبدل السماء بانتثار كواكبها
وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها ابوابا ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم
يحشر الناس يوم القيامة على ارض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لاحد اخرجاه في
الصحيحين العفراء بالعين المهملة هي البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقي وهو الخبز
الابيض الجيد الفائق المائل الى الحمرة كان النار ميلت بياض وجهه الى الحمرة وقوله ليس فيها علم
لاحد يعني ليس فيها علامة لاحد لتبدل هيئتها وصفتها وزوال جبالها وجميع بنائها فان قيل فما
الذي يستدل به قيل عن ابن مسعود انه قال تبدل الارض بارض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم
ولم يعمل عليها خطيئة وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الارض من فضة والسماء من ذهب
وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير تبدل الارض خبزة بيضاء ياكل المؤمن من تحت قدميه
وعن الضحاك ايضا من فضة كالصحائف وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سألت رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فاين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط اخرجه
مسلم وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم اين تكون الناس يوم
تبدل الارض غير الارض قال هم في الظلمة دون الجسر قال الرازي واعلم انه لا يبعد ان يقال المراد من تبديل
الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم والسموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب
الابرار لفي عليين وقوله تعالى كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وبرزوا اي خرجوا من قبورهم لله اي
لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب الواحد اي الذي لا شريك له القهار اي الذي لا يدافعه
شيء عن مراده كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى
بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى وترى يا محمد اي تبصر المجرمين اي الكافرين يومئذ
اي يوم القيامة ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم امورا الصفة الاولى قوله تعالى مقرنين
اي مشدودين في الاصفاد اي القيود او الاغلال جمع صفد وهو القيد قال الكلبي كل كافر مع شيطان في غل وقال عطاء
هو معنى قوله تعالى واذا النفوس زوجت اي قرنت فتقرن نفوس المؤمنين بنفوس الحور العين
ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين وقيل يقرن بعض الكفار ببعض فتضم تلك النفوس
الشقية والارواح الكدرة الظلمانية بعضها الى بعض لكونها متشاكلة متماثلة وتتادى ظلمة كل
واحدة منها الى الاخرى وقال ابن زيد قرنت ايديهم وارجلهم الى رقابهم بالاغلال الصفة الثانية
قوله تعالى سرابيلهم اي قمصهم جمع سربال وهو القميص من قطران وهو شيء يتحلب من شجر يسمى
الابهل فيطبخ وتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف

ومن شانه انه يتسارع فيه اشتعال النار وهو اسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود اهل النار حتى يصير ذلك الطلاء كالسرابيل فيحصل بسببها اربعة انواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وايضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين الصفة الثالثة قوله تعالى وتغشى اي تعلو وجوههم النار ونظيره قوله تعالى افمن يتقي بوجهه سوء العذاب وقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم هو الرأس واثر هذه الاحوال يظهر في الوجه فلهذا خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وقال في الوجه وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى ليجزي الله متعلق ببرزوا كل نفس ما كسبت اي من خير او شر وهذا اولى من قول الواحدي المراد منه انفس الكفار لان ما سبق ذكره لا يليق ان يكون جزاء لاهل الايمان ولما كان حساب كل نفس جوابا ربما يستعظم قال ان الله سريع الحساب اي لا يشغله حساب نفس عن حساب اخرى ولا شان عن شان وقوله تعالى هذا اشارة الى القرآن الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور نزل منزلة الحاضر وقيل الى السورة بلاغ اي كفاية غاية الكفاية في الايصال للناس والموعظة لهم وقوله تعالى ولينذروا به عطف على محذوف وذلك المحذوف متعلق ببلاغ تقديره اي لينصحوا ولينذروا به وقيل الواو مزيدة ولينذروا متعلق ببلاغ وليعلموا اي بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى انما هو اي الله اله واحد فيستدلوا بذلك على ان الله واحد لا شريك له وليذكر بادغام التاء في الاصل في الذال اي يتعظ اولوا الالباب اي اصحاب العقول الصافية من الاكدار والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ ❊ تنبيه ❊ ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى ولينذروا به وتاليه والحكمة في انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التي هي التدرع بلباس التقوى جعلنا الله تعالى من الفائزين بها بمحمد وآله وفعل ذلك بوالدينا واحبابنا وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ابراهيم اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد حديث موضوع قال العراقي وقال ابن حجر في شرح منظومة ابن فرح اللهم ارحمنا... من غرائب الجويني تكفير واضع الحديث اي والمشهور عدم تكفيره

سورة الحجر مكية

وهي تسع وتسعون آية وستمائة واربع وخمسون كلمة وعدد حروفها الفان وسبعمائة وستون حرفا بسم الله الملك الواحد القهار الرحمن الذي اسبغ انعمه على سائر بريته فغرقت عن وصفه الافكار الرحيم الذي خص اهل ولايته بنجاتهم من النار وقوله تعالى الر تقدم فيه الفتح والامالة اول سورة يونس وتقدم ايضا انا الله ارى وتقدم الكلام على اوائل السور اول سورة البقرة وقوله تعالى تلك

اشارة الى آيات هذه السورة اى هذه الآيات آيات الكتاب اى القرآن والاضافة بمعنى من
وقوله تعالى وقرآن مبين اى مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة وقيل المراد بالكتاب
هو السورة وكذا القرآن وقيل المراد بالكتاب التوراة والانجيل وبالقرآن هذا الكتاب ثم
بين سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى رُبَمَا يَوَدُّ اى يتمنى الَّذِينَ كَفَرُوا
اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين فى ذلك اليوم لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ وقيل حين يعاينوا حال المسلمين
عند نزول النصر وحلول الموت ورب للتكثير فانه يكثر منهم تمنى ذلك وقيل للتقليل فان
الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا فى احيان قليلة فان قيل لم دخلت رب على
المضارع وقد ابوا دخولها الا على الماضى اجيب بان المترقب فى اخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع
به فى تحقيقه فكأنه قيل ربما ود وقرأ عاصم ونافع بتخفيف باء ربما والباقون بالتشديد
قال ابو حاتم اهل الحجاز يخففون ربما وقيس وبكر يثقلونها ولما تمادوا فى طغيانهم قال الله تعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم ذَرْهُمْ اى دعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة و
النصيحة وخلهم يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا بدنياهم وتنفيذ شهواتهم والتمتع التلذذ وهو طلب اللذة
حالا بعد حال كالتقرب فى انه طلب القرب حالا بعد حال وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ اى ويشغلهم
توقعهم لطول الاعمار واستقامة الاحوال عن اخذ حظهم من السعادة وعن الاستعداد للمعاد
وقرأ ابو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم
الميم واما الوقف فالجميع بكسر الهاء والكلام على الهاء الثانية واما الهاء الاولى فمكسورة
للجميع وقفا ووصلا ولما كان هذا امرا لا يشتغل به الا احمق تسبب عنه التهديد بقوله
تعالى فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ اى ما يحل بهم بعد ما صنعنا لهم فى زمن التمتع من سوء صنيعهم وهذا
قبل الامر بالقتال تنبيه فى الآية دليل على ان ايثار التلذذ والتنعم فى الدنيا يؤدى الى طول
الامل وليس ذلك من اخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمتع فى الدنيا من اخلاق الهالكين
والاخبار فى ذم الامل كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان
الحرص على المال والحرص على العمر وعن على رضى الله تعالى عنه انما اخشى عليكم اثنتين طول الامل
واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق ولما انذرهم تعالى
بآية التمتع والهاء الامل اتبعه بما يؤكد الوعيد بقوله تعالى وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ اى من القرى
والمراد اهلها ومن مزيدة إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ اى اجل مقدر مكتوب فى اللوح
المحفوظ لهلاكها تنبيه المستثنى جملة واقعة صفة لقرية والاصل ان لا تدخلها الواو كقوله
تعالى الا لها منذرون وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال فى الحال جاءنى زيد
عليه ثوب وجاءنى وعليه ثوب فائدة رسم كتاب هنا باثبات الالف ثم بين تعالى الآية
السابقة بقوله تعالى مَا تَسْبِقُ واكد الاستغراق بقوله تعالى مِنْ أُمَّةٍ وقيل من مزيدة كقولك

ما جاء في من اعداء احد مبين ان المراد بالكتاب الاجل بقوله تعالى أجلها اي الذي قدر لها
وما يستأخرون اي عنه + تذنيبه انث الامة اولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ الاول
وعلى المعنى في الثاني قال البقاعي وانما ذكره لئلا يتوهم الخطاب صلى الله عليه وسلم
وفي الآية دليل على ان كل من مات او قتل فانما مات باجله وان من قال لو انه لم يمت قبل
اجله فمعتزلي + ولما بالغ تعالى في تقريع الكفار ذكر شبههم في انكار نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله
تعالى وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر اي القرآن في زعمه انك لمجنون وانما نسبوه الى
الجنون اما لانهم كانوا يستبعدون ذكره ومن لا نعلمه الا الوحي اذا سمعوا
مستبعدا عليه فلما قالوا به جنون او انه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه
عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا انها جنون ويدل عليه قوله تعالى اولم يتفكروا ما
بصاحبهم من جنة ثم انهم لما ادعوا انه دليل على صدقه فقالوا لو ما اي هلا تأتينا بالملائكة
اي يشهدون لك بانك رسول من عند الله حقا ان كنت من الصادقين في ادعائك
للرسالة وان هذا القرآن من عند الله ولما كانت في قولهم امران اجاب الله تعالى عن قولهم
الثاني لانه اقرب بقوله تعالى ما ننزل الملائكة الا بالحق اي الا تنزيلا ملتبسا بالحكمة والمصلحة
ولا حكمة في ان تأتيكم بصورة تعاينونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم
لانكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما
الا بالحق وقيل الحق الوحي او العذاب وقرأ شعبة بضم التاء مع فتح الزاي ورفع الملائكة وحفص
وحمزة والكسائي بنونين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاي ونصب الملائكة
والباقون بالتاء مفتوحة مع فتح الزاي ورفع الملائكة وشدد التاء البزي في الوصل واما الزاي
فهي مشددة للجميع وما كانوا اي الكفار اذا اي اذ تأتيهم الملائكة
منظرين اي لزال الامهال عنهم فيعذبوا في الحال ان لم يؤمنوا ويصدقوا وكان حينئذ
يفوته ما قضينا به من تأخيرهم واخراج من اردنا ايمانه من اصلابهم ثم اجاب تعالى عن
الاول بقوله تعالى رادا لانكارهم انا نحن بما لنا من العظمة والقدرة نزلنا اي بالتدريج
على لسان جبريل عليه السلام الذكر اي القرآن وانا له لحافظون اي من التبديل والتحريف
والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا
فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر احد من جميع الخلق من الجن والانس
ان يزيد فيه او ينقص منه كلمة واحدة او حرفا واحدا وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف
سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان
فان قيل لم اشتغل الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه
وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه اجيب بان جمعهم القرآن في المصحف كان من اسباب

حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما اراد حفظه قيضهم لذلك قال اصحابنا وفي هذه الآية
دلالة قوية على كون البسملة آية من اول كل سورة لان الله تعالى قد وعد حفظ القرآن والحفظ
لا معنى له الا ان يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة آية من القرآن
لما كان مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز ان يظن بالصحابة انهم
زادوا لجاز ايضا ان يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة
وقيل الضمير في له راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا لمحمد لحافظون ممن اراده
بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ولما اساء الكفار عليه صلى الله عليه وسلم
في الاول وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك لمجنون وكانت عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء قال
سبحانه وتعالى تسلية له على وجه رادّ عليهم وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ اي رسلا فحذف ذكر
الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى فِي شِيَعِ اي فرق الْاَوَّلِيْنَ من باب اضافة الصفة
الى الموصوف كقوله تعالى حق اليقين سموا شيعا لمتابعة بعضهم بعضا في الاحوال التي يجتمعون
عليها في الزمن الواحد والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب
وطريقة وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم
الانسان وَمَا يَأْتِيْهِمْ عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل على مضارع
الا وهو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال والاصل وما كان يأتيهم مِنْ رَسُوْلٍ
اي على اي وجه كان اِلَّا كَانُوْا بِهٖ جبلة وطبعا يَسْتَهْزِءُوْنَ كاستهزاء قومك بك فصبروا فاصبر
كما صبروا كَذٰلِكَ اي مثل ادخالنا التكذيب في قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل نَسْلُكُهٗ
اي ندخله فِيْ قُلُوْبِ الْمُجْرِمِيْنَ اي كفار مكة المستهزئين لَا يُؤْمِنُوْنَ بِهٖ اي بالنبي صلى الله عليه وسلم
وقيل بالقرآن وفي الآية دليل على ان الله تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار والسلك ادخال
الشيء في الشيء كالخيط في المخيط والرمح في المطعون ومنه قوله تعالى ما سلككم في سقر وقيل
الضمير في نسلكه يعود للذكر كما ان الضمير في به يعود اليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك
الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين مكذبا به غير مؤمن به
قال البيضاوي وهذا الاستدلال ضعيف اذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها في المرجوع اليه
اهـ وما اعدت الضمير عليه في ذلك هو ما قاله ابن الخازن وجرى عليه الجلال السيوطي وقوله
تعالى وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْاَوَّلِيْنَ اي سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم انبياءهم وعيد شديد
لكفار مكة بانه ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة وقال الزجاج قد مضت سنة الله في ان
يسلك الكفر والضلال في قلوبهم قال الرازي وهذا اليق بظاهر اللفظ وقرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي
بادغام تاء التأنيث في السين والباقون بالاظهار وقوله تعالى وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ الآية
هو المراد في سورة الانعام في قوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس الآية اي الذين يقولون

لوما تأتينا بالملائكة فلو انزلنا الملائكة فظلوا فيه اى فظلت الملائكة يعرجون اى يصعدون
فى الباب وهم يرونها عيانا لقالوا اى من عتوهم فى الكفر انما سكرت ابصارنا اى سدت عن الابصار
بالسحر من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف او حيرت من السكر ويدل عليه قراءة الباقين
بالتشديد بل نحن قوم مسحورون اى قد سحرنا محمد بذلك اى كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات
كانشقاق القمر وما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس ان
ياتوا بمثله وقيل الضمير فى يعرجون للمشركين اى فظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب فينظرون فى
ملكوت السموات وما فيها من العجائب لما آمنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا انما سحرنا وقرأ الكسائى بادغام
لام بل فى النون والباقون بالاظهار ولما اجاب الله تعالى عن شبهة منكرى النبوة والقول بالنبوة
مفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها ارضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية
فقال مفتتحا بحرف التوقع ولقد جعلنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة فى السماء بروجا
قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك والبروج هى النجوم الكبار مأخوذة من الظهور
يقال تبرجت المرأة اذا ظهرت واراد بها المنازل التى تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهى
اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس
والجدى والدلو والحوت وهى منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة
ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد
والمشترى وله القوس والحوت وزحل وله الجدى والدلو وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة
وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس فى كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك
ويقطعها القمر فى ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس فى هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر
يعنى منازلهما وقال عطية هى قصور فى السماء عليها الحرس وقال مجاهد هى النجوم العظام قال ابو اسحق
يريد نجوم هذه البروج وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون
بالادغام وزيناها اى السماء بالشمس والقمر والنجوم والاشكال والهيئات البهية للناظرين اى
المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذى اوجد كل شئ وخلقه وصوره
وحفظناها من كل شيطان رجيم اى مرجوم وقيل ملعون قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن
السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون اخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة فلما ولد عيسى
عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فما منهم
من احد يريد استراق السمع الا رمى بشهاب فلما منعوا تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث
فى الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا والله
هذا حدث وقوله تعالى الا من استرق السمع بدل من كل شيطان رجيم وقيل استثناء منقطع اى
لكن من استرق السمع واستراق السمع اختلاسه قال ابن عباس يريد الخطفة اليسيرة وذلك

ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ وهو شعلة من نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب النار فلا يخطئ احدا منهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه او جنبه او يده حيث يشاء الله ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس في البوادي روى ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قضى الامر في السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كانه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين اصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها الى لسان الساحر او الكاهن وربما ادركه الشهاب قبل ان يلقيها وربما القاها قبل ان يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال اليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق في تلك الكلمة التي سمعها من السماء فان قيل اذا جاز ان يسمع الشيطان اخبار الغيوب من الملائكة خرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا دليلا على الصدق لان كل غيب يخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق اجيب بانا اثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته نقطع بان الله تعالى اعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيب معجزا ولما ذكر الله تعالى الدلائل السماوية في تقرير التوحيد اتبعها بذكر الدلائل الارضية وهي انواع النوع الاول قوله تعالى وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء قال الرازي يقال انها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة فان قيل فهل يدل ذلك على انها بسيطة او كرة عظيمة على ما يقوله ارباب الهيئة اجيب بان ليس في الآية دلالة على شيء من ذلك لان الارض على تقدير كونها كرة فهي في غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وسياتي زيادة على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة والنازعات النوع الثاني قوله تعالى وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ اي جبالا ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع الجمع رواسي وهو كقوله تعالى والقى في الارض رواسي ان تميد بكم قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت باهلها كالسفينة فارساها الله تعالى بالجبال الثقال لكي لا تميل باهلها وقيل ان الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال النوع الثالث قوله تعالى وَأَنْبَتْنَا فِيهَا واختلف في عود ضمير فيها فقيل يعود الى الارض لان انواع النبات المنتفع به يكون في الارض وقيل الى الجبال لانها اقرب مذكور ولقوله تعالى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وانما يوزن ما يتولد من الجبال والاولى عوده لهما واختلفوا في المراد بالموزون فقال ابن عباس اي معلوم وقال مجاهد اي مقدر معين تقتضيه حكمته وقال الحسن يعني به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج

من المعادن والاولى انه جميع ما ينبت في الارض والجبال لان ذلك نوعان احدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثاني النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها) اي الارض (معايش) وهي بياء صريحة من غير مد جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والملابس والمشارب وغيرها (و) جعلنا لكم (من لستم له برازقين) من العبيد والانعام والدواب والطير فانكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون في اكثر الامر انهم هم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق الخدم والمخادم والمملوك والمالك لانه تعالى خلق الاطعمة والاشربة واعطى القوة الغاذية والهاضمة والا لم يحصل لاحد رزق فان قيل صيغة من مختصة بمن يعقل اجيب بانه تعالى اثبت لجميع الدواب رزقا على الله تعالى حيث قال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها فغلب من يعقل على غيره حكي ان الماء قد قل في بعض الاودية والجبال واشتد الحر قال بعضهم فرأيت بعض تلك الوحوش دفعت رؤوسها الى السماء عند اشتداد عطشها قال فرأيت الغيوم قد اقبلت وامطرت وامتلأت الاودية. تنبيه. قيل لا يجوز ان يكون ومن لستم له برازقين مجرورا عطفا على الضمير المجرور لانه لا يقال اخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كما في قوله تعالى واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح والراجح الجواز كما قرئ قوله تعالى تساءلون به والارحام بالخفض في القراآت السبع وهذا اعظم دليل. ولما بين سبحانه وتعالى انه انبت لهم كل شيء موزون وجعل لهم معايش اتبعه بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى (وان) اي وما (من شيء) اي مما ذكر وغيره من الاشياء الممكنة وهي لا نهاية لها (الا عندنا خزائنه) اي قادرون على ايجاده وتكوينه اضعاف ما وجد منه فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر والخزائن جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه للحفظ وقيل اراد مفاتيح الخزائن وقيل المطر لانه سبب الارزاق لبني آدم والوحش والطير والدواب ومعنى عندنا اي في حكمه تعالى وتصرفه وامره وتدبيره (وما ننزله) من بقاع القدرة (الا بقدر معلوم) اي على حسب المصالح وقيل ان لكل ارض حدا ومقدارا من المطر يقال لا ينزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله ولما اتم ما اراد من ايات السماء والارض وختمه بشمول قدرته لكل شيء اتبعه ما ينشأ عنهما مما هو بينهما مودعا في خزائن قدرته بقوله تعالى (وارسلنا الرياح) جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المرور (لواقح) اي حوامل لانها تحمل الماء الى السحاب فهي لاقحة يقال ناقة لاقحة اذا حملت الولد وقال ابن مسعود يرسل الله تعالى الريح فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلفه

السحاب بعضه الى بعض فيجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر وعن ابن عباس قال
ما هبت ريح قط الا جثا النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها
عذابا وعن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم
اني اسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما ارسلت به واعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما ارسلت
به وقرأ حمزة بالافراد والباقون بالجمع فأنزلنا اي بعظمتنا بسبب تلك السحاب التي حملتها الريح
من السماء اي الحقيقية او جهتها او السحاب لان الاسباب المتوقفة بسببه انتهت اليه او الى العلو
منه او نادة الى البعيد ماء وهو جسم مائع سيال به حياة كل حيوان من شأنه الانتفاع به فأسقيناكموه
اي جعلناه لكم سقيا يقال سقيته ماء ليشربه واسقيته اي مكنته منه ليسقي به ماشيته ومن يريد
ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما اثبته اولا لنفسه بقوله وما انتم له اي لذلك الماء بخازنين
اي ليس خزائنه بايديكم والخزن وضع الشيء في مكان مهيأ للحفظ فثبت ان القادر عليه واحد
مختار ومن دلائل التوحيد الاحياء والاماتة كما قال تعالى وانا لنحن نحيي اي لنا هذه الصفة
على وجه العظمة فنحيي بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات
بالنمو وان كان احدهما حقيقة والاخر مجازا لان الجمع جائز ونميت اي لنا هذه الصفة فنميت بها
من عظمتنا ما نشاء ونحن الوارثون اي الارث التام اذا مات الخلق ونحن الباقون بعد كل شيء
كما كنا ولا شيء قبلنا ولا احد يتصرف باماتة ولا احياء فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار
فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم قال تعالى ولقد علمنا
المستقدمين منكم وهو من تقدمنا موته اولا من لدن آدم فيكون في موته كانه يسارع الى التقدم
اليه وان كان هو وكل من اهله مجتهدا بالحذر في تأخيره ولقد علمنا المستأخرين اي
الذين مد في اعمارهم فتأخر موتهم حتى يكونوا كانهم يسابقون الى ذلك وان عاجلوا الموت بشرب
سم او نحوه او عاجله غيرهم بضربهم بسيف او غيره فعرف من ذلك قطعا ان الفاعل واحد مختار
وقال ابن عباس اراد بالمستقدمين الاموات وبالمستأخرين الاحياء وقال عكرمة المستقدمين
من خلق الله تعالى والمستأخرين من لم يخلق وقال الحسن المستقدمين في الطاعة والخير
والمستأخرين المستبطئين عنه وقيل المستقدمين من القرون الاولى والمستأخرين امة محمد
صلى الله عليه وسلم وقيل المستقدمين في الصفوف والمستأخرين فيها وذلك ان النساء كن يخرجن
الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان في الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن
النساء من في قلبها ريبة فتتقدم الى اول صف النساء لتقرب من الرجال فقال النبي صلى الله عليه وسلم
خير صفوف الرجال اولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها اولها. تنبيه: في سبب
نزول هذه الآية قولان احدهما ان امرأة حسناء كانت تصلي خلف النبي صلى الله عليه وسلم فكان
بعضهم يستقدم حتى يكون في اول صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون في آخر صف فاذا ركع

ينظر من تحت ابطه فنزلت والثاني ان النبي صلى الله عليه وسلم حرّض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ اى المستقدمين والمستأخرين للجزاء وتوسيط الضمير للدلالة على انه القادر والمتولي لحشرهم لا غيره وتصدير الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على ان ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى إِنَّهُ حَكِيمٌ اى باهر الحكمة متقن فى افعاله عَلِيمٌ وسع علمه كل شئ ولما استدل سبحانه وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة اردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب بقوله تعالى وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ قال الرازي والمفسرون اجمعوا على ان المراد منه آدم عليه السلام ونقل فى كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر انه قال قد انقضى قبل آدم الذي هو ابونا الف الف آدم او اكثر وسمي انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسي مِنْ صَلْصَالٍ اى من الطين الشديد اليابس الذي لم تصبه نار فاذا نقرته سمعت له صلصلة اى صوتا وقال ابن عباس هو الطين الذي نضب عنه الماء تشقق فاذا حركته تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن اختاره الكسائي وقال الفراء هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره وقال الرازي قال المفسرون خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه فى الشمس اربعين سنة فصار صلصالا لا يدري احد ما يراد به ولم يروا شيئا من الصور يشبهه الى ان نفخ فيه الروح مِنْ حَمَإٍ اى طين اسود متغير مَسْنُونٍ اى مصور بصورة الآدمي وقال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير قال البغوي وفى بعض الآثار ان الله تعالى خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيرا اسود ثم خلق منه آدم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ما ذكره بعضهم ان الله تعالى لما اراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض واليه الاشارة بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بل بالماء حتى صار اسود وانتن وتغير واليه الاشارة بقوله تعالى من حمإ مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود المتغير صوّره الله صورة انسان اجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة واليه الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس يجف فى الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الانسان ذكر ما خلقه قبل من النار فقال تعالى وَالْجَانَّ قال ابن عباس هو ابو الجن كما ان آدم عليه السلام ابو البشر وابليس ابو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم واما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين قال ابن الخازن

والاصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين
من قولهم جن الليل اذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر و
انتصاب الجان بفعل يفسره خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ اى قبل خلق الانسان مِنْ نَارِ السَّمُومِ اى
من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من قوة حرارتها قال الرازي فالريح الحارة فيها
نار وبها فيح كما ورد في الخبر انها من فيح جهنم انتهى ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل وقال
الكلبي عن ابي صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار تكون بين السماء وبين الحجاب
فاذا احدث الله تعالى امرا خرقت الحجاب فهوت الى ما امرت به فالهدة التي تسمعون خرق ذلك
الحجاب وعن ابن عباس هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق منها الجان وتلا هذه
الآية وعن الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم
وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار واما الملائكة فخلقوا من النور ولما
ذكر الله تعالى حدوث الانسان الاول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده
واقعته بقوله تعالى وَاِذْ اى واذكر يا اشرف الخلق قول ربك عز وجل اذ قَالَ رَبُّكَ اى المحسن
اليك بتشريف ابيك آدم عليه السلام لتشريفك لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ خَالِقٌ بَشَرًا اى حيوانا كثيفا
يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون للطف اجسامهم عن ابشار البشر والبشرة ظاهر الجلد
من كل حيوان وقوله تعالى مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَاٍ مَّسْنُوْنٍ تقدم تفسيره فَاِذَا سَوَّيْتُهٗ اى عدلته
واتممته وهيأته لنفخ الروح فيه بالفعل وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِيْ اى خلقت الحيوة فيه وليس ثم
نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل واضاف الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو ما يصير به الروح
عالما واشرف منه ما يصير به العالم عاملا ههنا شيئا وسيأتي الكلام على الروح ان شاء الله تعالى في سورة
سبحان عند قوله تعالى ويسألونك عن الروح فَقَعُوْا اى اسقطوا لَهٗ تعظيما حال كونكم سَاجِدِيْنَ وتقدم
في سورة البقرة الكلام على من المخاطب بالسجود وهل هو كل الملائكة او ملائكة السموات او ملائكة الارض
وهل هو سجود انحناء او غيره فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ وقوله تعالى كُلُّهُمْ اَجْمَعُوْنَ قال سيبويه تاكيد بعد تاكيد
وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل ان يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال
هذا الاحتمال فظهر انهم باسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو انهم سجدوا دفعة واحدة او سجد
كل واحد في وقت آخر فلما قال اجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه
اجود لان اجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله تعالى اِلَّآ اِبْلِيْسَ اجمعوا على ان ابليس كان مامورا
بالسجود لآدم واختلفوا في انه هل كان من الملائكة ام لا وقد سبقت هذه المسألة على الاستقصاء
في سورة البقرة وقوله تعالى اَبٰٓى اَنْ يَّكُوْنَ مَعَ السّٰجِدِيْنَ اى لآدم استئناف تقديره ان قائلا قال هل
سجد فقيل ابى ذلك واستكبر عنه قَالَ الله تعالى له يٰٓاِبْلِيْسُ مَا لَكَ اَلَّا تَكُوْنَ اى ان تكون ولا مزيدة
اى ما منعك ان تكون مَعَ السّٰجِدِيْنَ لآدم قَالَ لَمْ اَكُنْ لِّاَسْجُدَ لِبَشَرٍ جسماني كثيف واللام لتاكيد النفي

اى لا ينبغى منى وينافى حالى ان اسجد وانا ملك روحانى لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون
وهو اخس العناصر وخلقتنى من نار وهى اشرفها استنقص آدم باعتبار النوع والاصل وقد سبق
الجواب عنه فى سورة الاعراف . تنبيه : قال بعض المتكلمين انه تعالى اوصل هذا الخطاب الى ابليس
على لسان بعض رسله وضعفه لان ابليس قال فى الجواب لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله
خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة والظاهر يقتضى ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وان
ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يعقل هذا وان مكالمة الله تعالى من غير واسطة من اعظم
المناصب واشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم . واجيب : بان مكالمة
الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كانت على سبيل الاكرام والاعظام فاما اذا كانت على سبيل الاهانة
والاذلال فلا . قال الله تعالى له فاخرج منها اى من الجنة وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة
وقد تقدم الكلام على ذلك ايضا فى سورة الاعراف فانك رجيم اى مطرود من الخير والكرامة
فان من يطرد يرجم بالحجارة وشيطان رجيم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته وان عليك اللعنة
اى هذا الطرد والابعاد الى يوم الدين قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد باعمالهم مثل
قوله تعالى مالك يوم الدين فان قيل كلمة الى تفيد انتهاء الغاية فهذا يفيد ان اللعنة لا تحصل
الا الى يوم الدين وعند القيامة تزول اللعنة اجيب بوجوه الاول ان المراد التأبيد وذكر القيامة
ابعد غاية ذكرها الناس فى كلامهم كقوله تعالى ما دامت السموات والارض فى التأبيد والثانى انه
مذموم مدعو عليه باللعن فى السموات والارض الى يوم القيامة من غير ان يعذب فاذا جاء ذلك
اليوم عذب عذابا ينقطع اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب ان شدة العذاب تذهل عنه
ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا الى يوم القيامة فكان قائلا يقول فماذا قال فقيل قال رب فاعترف له
بالعبودية والاحسانات اليه فانظرنى اى اخرنى والانظار تأخير المحتاج للنظر فى امره والفاء متعلقة
بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم الى يوم يبعثون اى الناس اراد ان يجد فسحة فى الاغواء
ونجاة من الموت اذ لا موت بعد وقت البعث قال الله تعالى مجيبا للاول دون الثانى بقوله تعالى
فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وهو المسمى فيه اجلك عند الله وهو النفخة الاولى ويتبعها
موت كل مخلوق لم يكن فى دار الخلد فان قيل كيف اجابه الله تعالى الى ذلك الامهال اجيب بانه انما
اجابه الى ذلك زيادة فى بلائه وشقائه وعذابه لا لاكرامه ورفع مرتبته ولما اجيب لذلك كانه
قيل فماذا قال فقيل قال رب اى ايها المحسن والمدبر لى وقوله بما اغويتنى اى خيبتنى من رحمتك الباء فيه
للقسم وما مصدرية وجواب القسم لازينن اى اقسم باغوائك اياى لازينن لهم فى الارض حب الدنيا
ومعاصيك كقوله فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا انه فى ذلك الموضع اقسم بعزة الله وهى من صفات
الذات وهنا اقسم باغواء الله وهى من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح واختلفوا
فى القسم بصفات الافعال والراجح فيها الصحة ولاغوينهم اى بالاضلال عن الطريق السوية بالقاء

الوسوسة في قلوبهم ولاحملنهم اجمعين على الغواية وقوله الا عبادك منهم المخلصين قرأه ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام اي الذين اخلصوا دينك عن الشوائب وقرأه الباقون بفتحها اي الذين اخلصهم الله تعالى بالهداية وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه قال الرازي والذي حمله على هذا الاستثناء انه لا يصير كاذبا في دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب في غاية الخساسة + تنبيه + قال رويم الاخلاص في العمل هو ان لا يريد صاحبه عنه عوضا من الدارين ولا عوضا من الملكين وقال الجنيد الاخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله وذكر القشيري وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ما هو قال سألت رب العزة عن الاخلاص ما هو قال سر استودعته قلب من احب من عبادي + ولما ذكر ابليس انه يغوي بني آدم الا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته قال تعالى هذا اي الذي ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه صراط اي طريق علي مستقيم اي لا انحراف عنه لاني قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل انت ولما قال ابليس لازينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين اوهم هذا ان له سلطانا على عباد الله غير المخلصين فبين تعالى كذبه انه ليس له سلطان على احد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين او لم يكونوا مخلصين بل من اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعا له ولكن حصول تلك المتابعات ايضا ليس لاجل ابليس واوهم ان له على بعض عباد الله سلطانا فبين تعالى كذبه وذكر تعالى انه ليس له على احد منهم سلطان ولا قدرة اصلا بقوله تعالى ان عبادي اي المؤمنين كلهم ليس لك اي بوجه من الوجوه عليهم سلطان اي لتردهم كلهم عما يرضيني ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي وقال تعالى في آية اخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون الا من اتبعك اي يتبعه منهم برغبة في اتباعك من الغاوين اي ومات من غير توبة فاني جعلت لك عليهم سلطانا بالتزيين والاغواء وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي وقيل ان الاضافة للتشريف فلا تشمل الا الخلص فحينئذ يكون الاستثناء منقطعا وفائدة سوقه بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع الترغيب في رتبة التشريف بالاضافة اليه والرجوع عن اتباع العدو الى الاقبال عليه لان ذوي الانفس الابية والهمم العلية يتنافسون في ذلك المقام ويريدونه كما هو الحق على مرام وان جهنم لموعدهم اي الغاوين وهم ابليس ومن تبعه اجمعين ثم بين تعالى انهم متفاوتون فيها بقوله تعالى لها اي لجهنم سبعة ابواب اي سبع طبقات قال علي رضي الله تعالى عنه اتدرون كيف ابواب النار هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى اي سبعة

ابواب بعضها فوق بعض وان الله تعالى وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها على بعض
قال ابن جريج النار سبعة دركات اولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية
+ تنبيه + تخصيص العدد لان اهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة
من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيات فكانت مواردها
الابواب السبعة ولما كانت هي بعينها مصادر للحسنات بشرط النية والنية من اعمال القلب
زادت الاعضاء واحدا فجعلت ابواب الجنان ثمانية قال تعالى لِكُلِّ بَابٍ اي منها مِنْهُمْ اي
من الغاوين خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم جُزْءٌ اي نصيب وقرأ شعبة بضم الزاي والباقون
بالسكون مَقْسُومٌ اي معلوم فلكل دركة قوم يسكنونها قال الضحاك في الدرجة الاولى اهل التوحيد ع
الذين ادخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفي الثانية النصارى وفي الثالثة اليهود وفي
الرابعة الصابئون وفي الخامسة المجوس وفي السادسة اهل الشرك وفي السابعة المنافقون
فذلك قوله تعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة ابواب باب منها لمن سل السيف على امتي
او قال على امة محمد ولما شرح تعالى احوال اهل العقاب اتبعه بصفة اهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا
لانكار المكذبين بالبعث اِنَّ الْمُتَّقِيْنَ اي الذين اتقوا الشرك بالله تعالى كما قال جمهور الصحابة
والتابعين وهو الصحيح لان المتقي هو الآتي بالتقوى مرة واحدة كما ان الضارب هو الآتي بالضرب
مرة واحدة والقاتل هو الآتي بالقتل مرة واحدة فكما انه ليس من شرط صدق الوصف بكونه
ضاربا او قاتلا كونه آتيا بجميع انواع الضرب والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا
كونه آتيا بجميع انواع التقوى لان الآتي بفرد واحد من افراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد
من افراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك الماهية فِيْ جَنّٰتٍ اي بساتين قال الرازي اما الجنات
فاربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع اربعة
وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ما قلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه من الخوف
من الله تعالى وقوله تعالى ولمن خاف يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى
وَّعُيُوْنٍ قال الرازي يحتمل ان يكون المراد منها ما ذكره الله تعالى في قوله مثل الجنة التي وعد المتقون
فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار
من عسل مصفى ويحتمل ان يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار فان قيل
هل كل واحد من المتقين مختص بعيون او تجري تلك العيون بعضها الى بعض اجيب بان كل
واحد من الوجهين محتمل فيجوز ان يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها ومن يختص به من الحور
والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل ان يجري من بعضهم الى
بعض لانهم يطهرون من الحقد والحسد وقرأ نافع وابو عمرو وهشام وحفص برفع العين

والباقون بالكسر وقرأ بكسر التنوين في الوصل ابو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة والباقون بالضم ولما كان المنزل لا يحسن الا بالسلامة والانس قال تعالى ادخلوها اي يقال لهم ذلك بسلام اي سالمين من كل آفة مرحبا بكم آمنين من ذلك دائما ولما كان الانس لا يكمل الا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى ونزعنا اي بما لنا من العظمة والقدرة ما في صدورهم من غل اي حقد كامن في القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء فكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لانها كامنة في القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد حالة كونهم اخوانا اي متصافين حالة كونهم على سرر جمع سرير وهو مجلس رفيع موطأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء الى الجابية متقابلين لا يرى بعضهم قفا بعض فان التقابل التواجه وهو نقيض التدابر ولا شك ان المواجهة اشرف الاحوال وعن مجاهد رضي الله تعالى عنه تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون في جميع احوالهم متقابلين + تنبيه + ليس المراد الاخوة في النسب بل المراد الاخوة في المودة والمخالطة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد انه قال ما احلى الاجتماع مع الاصحاب وما امر الاجتماع مع الاضداد وقوله تعالى لا يمسهم فيها نصب اي اعياء وتعب وجهد ومشقة استئناف او حال بعد حال او حال من الضمير في متقابلين وقوله تعالى وما هم منها بمخرجين المراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالا بلا نقصان وفوزا بلا حرمان + ولما ذكر تعالى احوال المتقين واحوال غيرهم اتبع ذلك بقوله تعالى نبئ اي خبر يا افضل الخلق عبادي اخبارا جليلا اني انا اي وحدي الغفور اي للمؤمنين الرحيم بهم وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء من عبادي واني والباقون بالسكون واما الهمزة في نبئ فلم يبدلها الا حمزة في الوقف فقط وكذا الهمزة من نبئهم ونقل عن حمزة كسر الهاء في الوقف وان عذابي اي وحدي للعصاة هو العذاب الاليم اي المؤلم + تنبيه + في هذه الآية لطائف الاولى انه سبحانه وتعالى اضاف العباد الى نفسه وهذا تشريف عظيم الا ترى انه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الذي اسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التاكيدات بالفاظ ثلاث اولها قوله تعالى اني وثانيها قوله انا وثالثها ادخال حرف الالف واللام على قوله تعالى الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل اني انا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وان عذابي هو العذاب الاليم الثالثة انه امر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ اليهم هذا المعنى فكانه اشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة والرابعة انه لما قال نبئ عبادي كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه

المؤمن العاصي وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن ابي هريرة رضي
الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله خلق الرحمة يوم خلقها
مائة رحمة فامسك منها عنده تسعة وتسعين وارسل في خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذي
عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن
من النار وعن عبادة رضي الله تعالى عنه قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم
العبد قدر عفو الله ما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجهد نفسه الى قتلها وعنه صلى الله عليه وسلم
انه مر بنفر من اصحابه وهم يضحكون فقال اتضحكون وقد ذكرت الجنة والنار بين ايديكم فنزل نبئ
عبادي اني انا الغفور الرحيم ولما بالغ تعالى في تقرير النبوة ثم اتبعه بذكر دلائل التوحيد ثم
ذكر تعالى عقبه احوال القيامة ووصف الاشقياء والسعداء اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم
الصلوة والسلام ليكون سماعها مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجات الاولياء ومحذرا عن
المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام
فقال تعالى وَنَبِّئْهُمْ اي خبر يا سيد المرسلين عبادي عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ وهم ملائكة اثنا عشر
او عشرة او ثلاثة منهم جبريل عليه السلام فان قيل الضيف هو المنضم الى غيره لطلب القرى
اجيب بان هؤلاء سموا بهذا الاسم لانهم على صورة الضيف فهو من دلالة التضمن وقيل ايضا
ان من يدخل دار انسان ويلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم ياكل إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ اي ابراهيم وكان
يكنى ابا الضيفان كان لقصره اربعة ابواب لكي لا يفوته احد فَقَالُوا سَلَامًا اي نسلم عليك سلاما
او سلمت سلاما قَالَ اي ابراهيم عليه السلام بلسان المقال او الحال إِنَّا اي انا ومن عندي مِنْكُمْ وَجِلُونَ
اي خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الاكل او لانهم دخلوا بغير اذن وبغير وقت والوجل اضطراب
النفس لتوقع ما تكره قَالُوا لَا تَوْجَلْ اي لا تخف إِنَّا رسل ربك نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اي ولد ذكر في غاية
القوة ليس كاولاد الشيوخ ضعيفا وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة
والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة عَلِيمٍ اي ذي علم كثير هو اسحق عليه السلام
كما ذكر في هود وتقدم ذكر القصة هناك باسرها قَالَ ابراهيم عليه السلام أَبَشَّرْتُمُونِي اي بالولد
وقوله عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ حال اي مع مسه اياي فان قيل كيف قال فَبِمَ اي فباي شيء تُبَشِّرُونَ
اي بايّ الى ذلك بانا شابا فيما مضى انهم قد بينوا ما بشروا به وما فائدة هذا الاستفهام اجيب
بانه اراد ان يعرف ان الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقائه على صفة الشيخوخة او يقلبه
شابا ثم يعطيه الولد والسبب في هذا الاستفهام ان العادة جارية بانه لا يحصل في حالة الشيخوخة
التامة وانما يحصل في حال الشباب او انه استفهام تعجب ويدل لذلك قولهم قَالُوا بَشَّرْنَاكَ
بِالْحَقِّ قال ابن عباس يريدون بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى ان يخرج من صلب
ابراهيم اسحق ويخرج من صلب اسحق ذرية مثل ما اخرج من صلب آدم وقولهم فَلَا تَكُنْ اي بسبب

تبشيرنا مِنَ الْقَانِطِينَ اى الآيسين نهى لابراهيم عليه السلام عن القنوط ونهى الانسان عن الشئ لايدل على كونه فاعلا للمنهى عنه كما فى قوله تعالى ولاتطع الكافرين والمنافقين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ اى ييأس من هذا اليأس مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ اى الذى لم يزل احسانه عليه إِلَّا الضَّالُّونَ اى المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح فى ربهم من تمام القدرة وانه لاتضره معصية ولاتنفعه طاعة وقرأ ابو عمرو والكسائى بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى انهم مختفين على غير الصفة التى ياتى عليها الملك للوحى وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بانه ماينزل الملك الابالحق كان ذلك سببا لان يسألهم عن امرهم لنزول وجله كله ولذلك قَالَ عليه السلام فَمَا بفاء السبب خَطْبُكُمْ اى شأنكم قال ابو حيان والخطب لايكاد يقال الا فى الامر الشديد اهـ وقال الرازى انه الامر الجليل أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ فانكم ما جئتم الا لامر عظيم يكون فصله بين هالك وناج قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا اى ارسلنا العزيز الحكيم الذى انت اعرف الناس فى هذا الزمان به إِلَى اهلاك قَوْمٍ اى ذوى منعة مُجْرِمِينَ اى كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى إِلَّا آلَ لُوطٍ فيه وجهان احدهما انه استثناء متصل على انه مستثنى من الضمير المستكن فى مجرمين بمعنى اجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ويكون معنى قوله تعالى إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ اى لانبا نهم استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للفريقين وآل لوط لاهلاك اولئك وانجاء هؤلاء والثانى انه استثناء منقطع لان آل لوط لم يندرجوا فى المجرمين البتة فيكون قوله تعالى انا لمنجوهم اجمعين جرى مجرى خبر لكن فى اتصاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجوهم وقرأ حمزة والكسائى بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى إِلَّا امْرَأَتَهُ استثناء من آل لوط او من ضميرهم على الاول وعلى الثانى لايكون الا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقوله تعالى قَدَّرْنَا وقرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ اى من الباقين فى العذاب لكفرها تنبيه معنى التقدير فى اللغة جعل الشئ على مقدار غيره يقال قدر هذا الشئ بهذا اى اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات اى جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله تعالى عليه وقدره عليه اى جعله على مقدار ما يكفى فى الخير والشر وقيل معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا فان قيل لم اسند الملائكة فعل التقدير الى انفسهم مع انه لله عز وجل اجيب بانهم انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول خاصة الملك دبرنا كذا وامرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم وانما يريدون بهذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا ههنا ولما بشر الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام بالولد واخبروه بانهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ابراهيم عليه السلام الى لوط وآله وهذه هى القصة الثانية المذكورة فى هذه السورة قال تعالى فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ

ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وابو عمرو باسقاط واحدة منهما مع
المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا
وجاء اهل المدينة قَالَ لهم إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ لانه خاف اطلاعه عليهم فاستنكرهم وخاف من دخولهم
لاجل شر يوصلونه اليه ولاجل انهم كانوا شبانا مردا حسان الوجوه فخاف ان يهجم قومه عليهم بسبب
طلبهم فقال هذه الكلمة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله عليه السلام انكم قوم منكرون اى لا اعرفكم
ولا اعرف انكم من اى الاقوام انتم ولاى غرض دخلتم علي فعند ذلك قَالُوا اى الملائكة بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا
اى بالعذاب الذي كَانُوا اى قومك فِيهِ يَمْتَرُونَ اى يشكون في نزوله بهم والباء في بل يصرف
بالمثل وان كان ملكا من جهة ما يعرض له منه من حيث انه لا يرجع الى نفسه فيما هو عليه
ثم اكدوا ما ذكروه بقولهم وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ اى باليقين الذي لا يشك فيه ثم اكدوا هذا التأكيد
بقولهم وَإِنَّا لَصَادِقُونَ اى فيما اخبرناك به فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ اى فاذهب بهم في الليل بِقِطْعٍ مِنَ
اللَّيْلِ اى في طائفة من الليل وقيل هي اخره قال الشاعر: افتحي الباب وانظري في النجوم * كم علينا
من قطع ليل بهيم * كانه طال عليه الليل فخاطب محبوبته بذلك او كان يحب طول الليل للوصال
وقرأ نافع وابن كثير بوصل همزة فاسر بعد الفاء من السري والباقون بالقطع وهما بمعنى وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ
اى وكن على اثار اهلك وسر خلفهم وتطلع على احوالهم وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ اى لئلا يرى عظيم ما نزل
بهم من البلاء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ اى
المكان الذي امركم الله بالمضي اليه قال ابن عباس هو الشام وقال المفضل حيث يقول لكم جبريل
وذلك ان جبريل امرهم ان يمضوا الى قرية معينة ما عمل اهلها عمل قوم لوط وقيل الى الاردن وقيل الى
مصر. تنبيه: حيث ههنا على بابها من كونها ظرف مكان مبهم ولابهامها تعدى اليها الفعل
من غير واسطة وَقَضَيْنَا اى واوحينا إِلَيْهِ ولما ضمن قضينا معنى الايحاء تعدى بالى ومثله وقضينا
الى بني اسرائيل وقوله تعالى ذَلِكَ الْأَمْرَ مبهم تفسيره أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ اى مستأصلون عن
اخرهم حتى لا يبقى منهم احد وقوله تعالى مُصْبِحِينَ حال من هؤلاء او من الضمير في مقطوع وجمعه
للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء اى يتم استئصالهم في الصباح وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
اى مدينة من مدائن قوم لوط وهي سدوم بسين مهملة ودال معجمة واهملها من قال بزوال يَسْتَبْشِرُونَ
اى باضياف لوط طمعا فيهم وليس في الاية دليل على المكان الذي جاءوا اليه الا ان القصة تدل على انه
جاءوا دار لوط وقيل ان الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأة لوط
اخبرتهم بذلك قال الرازي وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما راينا قط اصبح وجها
ولا احسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم لاولئك المرد والاستبشار اظهار السرور ولما
وصلوا اليه قَالَ لهم لوط إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي اى حق على الرجل اكرام الضيف فَلَا تَفْضَحُونِ فيهم يقال
فضحه يفضحه اذا اظهر من امره ما يلزمه به العار واذا قصد الضيف بسوء كان ذلك اهانة لصاحب

الفعل ثم اكد ذلك بقوله واتقوا الله اي خافوا الله في امرهم ولا تخزون اي ولا تهينوني فيهم بقصدكم اياهم
بفعل الفاحشة من الخزاية وهي الحياء او لا تذلوني بسببهم من الخزي وهو الهوان قالوا اي قومه
في جواب قوله لهم اولم ننهك عن العالمين اي عن ان تضيف احدا من العالمين وقيل اولم ننهك ان
تدخل الغرباء المدينة فانا نطلب منهم الفاحشة وقيل اولم ننهك ان تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا
يتعرضون لكل احد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنهم بقدر وسعه ثم قال لهم هؤلاء بناتي
اي نساء القوم لان كل امة اولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته فكانه قال لهم هؤلاء بناتي فانكحوهن
وخلوا بني فلا تتعرضوا لهم ان كنتم فاعلين اي ما اقول لكم او قضاء الشهوة والكلام في ذلك
قد مر بالاستقصاء في سورة هود وقرأ نافع بفتح ياء بناتي والباقون بسكونها قال الله تعالى لنبيه
محمد صلى الله عليه وسلم على لسان ملائكته لعمرك اي وحياتك وما اقسم بحياة احد غيره وذلك
يدل على انه اكرم الخلق على الله تعالى انهم لفي سكرتهم اي شدة غفلتهم التي ازالت عقولهم
يعمهون اي يتحيرون الخطاب للوط عليه السلام قالت له الملائكة ذلك اي فكيف يعقلون
قولك ويلتفتون الى نصيحتك * تنبيه * لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوبا وانهم وما في حيزه
جواب القسم تقديره لعمرك قسمي او يميني والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء الا انهم
خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فيه وذلك لان الحلف كثير الدور على السنتهم بلعمري ولعمرك
فاخذتهم الصيحة اي صيحة هائلة مهلكة وقيل هي صيحة جبريل عليه السلام قال الرازي ليس
في الآية دليل على ذلك فان ثبت بدليل قوي قيل به والا فليس في الآية دليل الا انهم جاءتهم صيحة
عظيمة مهلكة وقوله تعالى مشرقين اي داخلين في وقت الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول
اخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن الصيحة معقبا لها بقوله تعالى فجعلنا اي بما لنا من
العظمة والقدرة عاليها اي مدائنهم سافلها بان رفعها جبريل عليه السلام الى السماء واسقطها
مقلوبة الى الارض وامطرنا عليهم اي اهل المدائن التي قلبت المدائن لاجلهم حجارة من سجيل
اي طين طبخ بالنار * تنبيه * دلت الآية الكريمة على ان الله تعالى عذبهم بثلاثة انواع من العذاب
احدها الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها انه جعل عاليها سافلها وثالثها انه امطر عليهم حجارة من
سجيل وتقدمت الاشارة الى ذلك في سورة هود ان في ذلك اي المذكور من هذه الانواع لآيات
اي دلالات على وحدانية الله تعالى للمتوسمين اي للناظرين المعتبرين جمع متوسم وهو الناظر في السمة
حتى يعرف حقيقة الشيء وسمته وانها اي هذه المدائن لبسبيل اي طريق قريش الى الشام مقيم
اي لم يندرس بل يشاهدون ذلك ويرون اثره افلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الى
زيادة الحث على الاعتبار بالتاكيد ان في ذلك اي هذا الامر العظيم لآية اي علامة عظيمة
في الدلالة على وحدانيته تعالى للمؤمنين اي كل من امن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف ان ذلك
انما كان لاجل ان الله تعالى انتقم لانبيائه من اولئك الجهال اما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على

حوادث العالم ووقائعه ثم ذكر تعالى القصة الثالثة وهي قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى
وَإِنْ مخففة من الثقيلة اي وانه كَانَ اي جبلة وطبعا أَصْحَابُ الأَيْكَةِ وهم قوم شعيب عليه السلام
وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء والايكة الشجر المتكاثف وقيل الشجر الملتف وقال ابن
عباس هي شجر المقل وقال الكلبي الايكة الغيضة اي غيضة شجر بقرب مدين لَظَالِمِينَ اي
عريقين في الظلم بتكذيبهم شعيبا عليه السلام فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ اي بسبب ذلك قال المفسرون
اشتد الحر فيهم اياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله تعالى وَإِنَّهُمَا فيه
قولان الاول ان المراد قرى قوم لوط والايكة والثاني ان الضمير للايكة ومدين لان شعيبا
كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما لَبِإِمَامٍ اي طريق مُّبِينٍ
اي واضح والامام اسم لما يؤتم به قال الفراء انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة
لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي يريده ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهي قصة صالح
عليه السلام بقوله تعالى وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم
بين المدينة الشريفة والشام الْمُرْسَلِينَ اي كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين
بتكذيبك لان الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا منهم فقد كذب
الجميع وهم في اثبات الرسالة بالمعجزة على حد سواء ثم اشار الى ذلك قوله تعالى وَآتَيْنَاهُمْ اي بما لنا
من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام آيَاتِنَا اي آيات الكتاب المنزل على نبيهم
او معجزات كالناقة وكانت فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وقرب ولادتها
وغزارة لبنها وانما اضاف الآيات اليهم وان كانت لنبيهم صالح عليه السلام لانه مرسل
من ربهم اليهم بهذه الآيات فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ اي تاركين لها غير ملتفتين اليها لا يتفكرون
فيها ثم اخبر تعالى عنهم انهم كانوا مثل هؤلاء في الامن من العذاب والغفلة عما يراد بهم وانهم كانوا
اشد منهم فقال تعالى وَكَانُوا يَنْحِتُونَ اي ينقبون فلم يبق بعد جزء من الجسم على سبيل المرين
الْجِبَالِ اي التي تقدم انا جعلناها رواسي بُيُوتًا آمِنِينَ عليها من الانهدام ونقب اللصوص
وتخريب الاعداء لوثاقتها لا كبيوتكم التي لا بقاء لها على ادنى رجة وقرأ ورش وابو عمرو وحفص
برفع الباء والباقون بكسرها فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ اي صيحة العذاب مُصْبِحِينَ اي وقت الصبح
فَمَا أَغْنَى اي ما دفع عَنْهُمُ الضر والبلاء مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ اي يعملون من بناء البيوت الوثيقة
واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضي الله تعالى عنه مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
على الحجر فقال لنا لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين حذرا ان يصيبكم
مثل ما اصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فاسرع حتى خلفها ولما ذكر
تعالى هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع ان الامم السالفة كانوا يعاملون
انبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل عليه تحمل تلك السفاهة قال تعالى وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

اى على ما لها من العلو والسعة والارض على ما لها من المنافع والغرائب وَمَا بَيْنَهُمَا من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه النبات وغير ذلك اِلَّا بِالْحَقِّ اى الا خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى ليعلم النشأة الاخرة بوجود النشأة الاولى وَاِنَّ السَّاعَةَ اى القيامة لَاٰتِيَةٌ لا محالة فيجازى الله تعالى كل احد بعمله ثم انه تعالى لما صبره على اذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيأتهم بقوله تعالى فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيْلَ اى اعرض عنهم اعراضا لا جزع فيه ولا تعجل بالانتقام منهم وهذا منسوخ باية السيف قال الرازى وهو بعيد لان المقصود من ذلك ان يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا اهـ والاول جرى عليه البغوى وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى هذا الامر بقوله اِنَّ رَبَّكَ اى المحسن اليك الآمر لك بهذا هُوَ اى وحده الْخَلّٰقُ اى المتكرر منه هذا الفعل الْعَلِيْمُ اى البالغ العلم بكل المعلومات فليست اقوالهم وافعالهم الا منه سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد علمت انه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه فى اخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير ولما صبره الله تعالى على اذى قومه وامره ان يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله تعالى افضل خلقه بها بقوله تعالى وَلَقَدْ اٰتَيْنٰكَ يا افضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة كما اتينا من كلها ما تقدم سَبْعًا يكون كل سبع منها كفيلا باغلاق باب ابواب من النيران السبعة وهى ام القران الجامعة لجميع معانى القران التى امرنا باعادتها فى كل ركعة زيادة فى حفظها وتبركا بلفظها وتذكرا لمعانيها وتخصيصا لها عن بقية الذكر الذى تكفلنا بحفظه والسبب فى وقوع هذا الاسم على الفاتحة لانها سبع ايات وهذا ما عليه اكثر المفسرين روى انه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هى السبع المثانى رواه ابو هريرة وقيل المراد سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما فى حكم سورة ولذا لم يفصل بينهما باية البسملة وقيل الحواميم السبع وقيل سبع صحائف وهى الاسباع وقوله تعالى مِّنَ الْمَثَانِيْ صفة للسبع وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شئ يثنى اى يجعل اثنين من قولك ثنيت الشئ ثنيا اى عطفته وضممت اليه اخر ومنه يقال لركبتى الدابة ومرفقيها مثانى لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثانى الوادى معاطفه اما تسمية الفاتحة بالمثانى فلوجوه الاول انها تثنى فى كل صلوة بمعنى انها تقرأ فى كل ركعة الثانى انها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها الثالث انها قسمت قسمين اثنين لما روى انه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلوة بينى وبين عبدى نصفين والحديث مشهور وقد ذكرته فى وجه تسميتها صلوة عند ذكرها الرابع انها قسمان اثنان ثناء ودعاء وايضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء الخامس ان كلمات فيها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم واما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء كانها تثنى على الله تعالى بافعاله العظمى وصفاته الحسنى + تنبيه + من فى من المثانى

اما للبيان او للتبعيض اذا اردت بالسبع الفاتحة او الطوال وللبيان ان اردت الاسباع قال الزمخشري ويجوز ان تكون كتب الله كلها مثاني لانها تثني عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها وقوله تعالى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ اى الجامع لجميع معاني الكتب السماوية المتكفل بجميع مصالح الدارين مع زيادات لا تحصى فيه اوجه احدها انه من عطف بعض الصفات على بعض اى الجامع بين هذين النعتين الثاني انه من عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما الفاتحة واما الطوال فكانه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه في العموم الثالث ان الواو مقحمة ، ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو انه آتاه سبعا من المثاني والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة في الدنيا بقوله تعالى لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ اى لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ اى اصنافا من الكفار والزوج في اللغة الصنف ، فقد اوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء قال ابو بكر رضي الله تعالى عنه من اوتي القرآن فرأى ان احدا اوتي في الدنيا افضل مما اوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتأول سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبي صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن اى لم يستغن وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا تمدن عينيك اى لا تتمن ما فضلنا به احدا من متاع الدنيا وقيل اتت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة والنضير فيها انواع البز والطيب والجوهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وانفقناها في طاعة الله تعالى فقال الله تعالى لقد اعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع وقرر الواحدي هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشيء اذا ادام النظر نحوه وادامة النظر الى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا روي انه نظر الى نعم بني المصطلق وقد عبست في ابوالها وابعارها وهو ان تجف ابوالها وابعارها على افخاذها اذا تركت من العمل ايام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي احسن ما تكون وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله عليه وسلم انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ نهي له عن الالتفات اليهم ان لم يؤمنوا فيخلصوا انفسهم من النار ، ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات الى اولئك الاغنياء من الكفار امره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ اى الن جانبك لِلْمُؤْمِنِينَ اى العريقين في هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم ، ولما امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين امره بتبليغ ما ارسل به اليهم بقوله تعالى وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ من عذاب الله ان ينزل عليكم ان لم تؤمنوا وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون الْمُبِينُ اى البين الانذار وقوله تعالى كَمَا أَنْزَلْنَا اى العذاب عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ قال ابن عباس هم اليهود والنصارى سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد هذه السورة لي وقال آخر هذه السورة لي وانما فعلوا ذلك استهزاء به

وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فامن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم ببعضها وقال قتادة اراد بالمقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك لان اقوالهم تقسمت فى القرآن فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم انه كهانة وزعم بعضهم انه اساطير الاولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة وذلك ان الوليد بن المغيرة بعث رهطا من اهل مكة قيل ستة عشر وقيل اربعين وقال انطلقوا فتفرقوا على طرق مكة حيث يمر بكم اهل الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه ساحر وليقل بعضكم انه شاعر فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج العرب وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام نصبوه حكما فاذا جاؤا سألوا عما قال اولئك فيقول صدقوا فاهلكهم الله تعالى يوم بدر وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ نعت للمقتسمين وقال ابن عباس هم اليهود والنصارى جزؤا القرآن اجزاء فآمنوا بما وافق التوراة والانجيل وكفروا بالباقى وقال مجاهد قسموا كتاب الله ففرقوه وبددوه وقيل كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لى ويقول بعضهم سورة آل عمران لى وقيل اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم اساطير الاولين وقيل هم اهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على ان القرآن ما يقرؤنه من كتبهم فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر واساطير الاولين بان غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم * تنبيه * عضين جمع عضة وهى الفرقة والعضين الفرق وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك وقيل العضة السحر بلغة قريش يقولون هو عاضه وهى عاضهة وفى الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة اى الساحرة والمستسحرة وقيل هو من العضه وهو الكذب والبهتان يقال عضهه عضها وعضيهة اى رماه بالبهتان وقيل جمع عضو ماخوذ من قولهم عضيت الشئ تعضية اذا فرقته وجعلته اجزاء وذلك انهم جعلوا القرآن اعضاء متفرقة فقال بعضهم سحر وقال بعضهم اساطير الاولين ثم اقسم سبحانه وتعالى بنفسه على انه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيكون الضمير عائدا على المقتسمين لانه الاقرب ويحتمل ان يعود على جميع المكلفين لان ذكرهم تقدم فى قوله تعالى وقل انى انا النذير المبين اى لجميع الخلق قال جماعة من المفسرين يسألون عن لا اله الا الله وقال ابو العالية يسئلون عما كانوا يعبدون وماذا اجابوا به المرسلين فان قيل كيف الجمع بين قوله تعالى فوربك لنسألنهم اجمعين وبين قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان اجيب بان النفى ينصرف الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيامة يوم طويل وفيه مواقف يسألون فى بعضها ولا يسئلون فى بعض آخر ونظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون وقال فى آية اخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فَاصْدَعْ﴾ اى اجهر بها وبينه فارقا بين الحق والباطل وقرأ حمزة

سائي باشمام الصاد الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد الخالصة بما اي بسبب ما تُؤْمَرُ به
نبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة روي عن عبد الله بن عبيدة قال كان
نخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو واصحابه وَأَعْرِضْ اي اعراض من لا يبالي عَنِ الْمُشْرِكِينَ
فو الجميل عن الاذى والاجتهاد في الدعاء ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعض
ورين كالبغوي وهذا منسوخ باية القتال قال الرازي وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك
الاة بهم فلا يكون منسوخا + ولما كان هذا الصدع في غاية الشدة عليه صلى الله عليه وسلم
ة ما يلقى عليه من الاذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا له إِنَّا اي بما لنا من العظمة
قدرة كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ اي شر الذين هم يبالغون في الاستهزاء وهم خمسة نفر من ذوي سادة
ش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدي بن قيس والاسود بن عبد المطلب والاسود بن
بد يغوث ووصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله تعالى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وقيل
ن صفة بل مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره وهو فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ اي
بة امرهم في الدارين + ولما ذكر سبحانه وتعالى ان قومه يستهزءون عليه ولا سيما اولئك المقتسمون
له تعالى وَلَقَدْ نَعْلَمُ اي تحقق وقوع علمنا أَنَّكَ اي على ما لك من الحلم وسعة البطان يَضِيقُ
رُكَ اي يوجد ضيقه ويتجدد بِمَا يَقُولُونَ اي من الاستهزاء والتكذيب بك وبالقرآن
ن الجبلة البشرية والمزاج الانساني يقتضي ذلك فعند ذلك قال تعالى فَسَبِّحْ ملتبسا بِحَمْدِ رَبِّكَ
نزهه عن صفات النقص وقال الضحاك قل سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس فصل
ربك وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ اي من المصلين روي انه صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه امر فزع
الصلوة وقد مر معناه في سورة البقرة + فيه اشارة الناس كيف صار الاقبال الى الطاعات
ببا لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع من
بادات تنور باطنه ويشرق قلبه وينفسح ويشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا
حقارتها فلا يلتفت اليها وقال بعض الحكماء اذا نزل بالانسان بعض المكاره ففزع الى الطاعات
فانه يقول يا رب يجب على عبادتك سواء اعطيتني الخيرات او القيتني في المكروهات فانا عبدك
بين يديك فافعل بي ما تشاء وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ قال ابن عباس يريد الموت وسمي
لموت يقينا لانه امر متيقن وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم واوصاني بالصلوة والزكوة ما دمت
حيا روى البغوي بسنده عن ابن جبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اوحي الله الي ان اجمع
المال واكون من التاجرين ولكن اوحي الي ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك
حتى ياتيك اليقين فان قيل اي فائدة لهذا التوقيت مع ان كل احد يعلم انه اذا مات سقطت
عنه العبادات اجيب بان المراد منه واعبد ربك في جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات
الحياة عن العبادات وعن عمر رضي الله عنه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب

بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا
الى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين ابويه يغذوانه باطيب الطعام والشراب ولقد رأيت
عليه حلة شراها او قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون
وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجر كان له من
الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

سورة النحل مكية

الا قوله تعالى وان عاقبتم الى اخر السورة وحكى الاصم عن بعضهم انها كلها مدنية وقال آخرون من
اولها الى قوله كن فيكون مدني وما سواه مكي وعن قتادة بالعكس وتسمى سورة النعم والمقصود
من هذه السورة الدلالة على انه تعالى تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص
وادل ما فيها على هذا المعنى امر النحل لما ذكر من شأنها في دقة الفهم في ترتيب بيوتها ورعيها
وسائر امرها من اختلاف الوان ما يخرج منها من اعسالها وجعله شفاء مع اكلها من الثمار النافعة
والضارة وغير ذلك من الامور وسميها بالنعم واضح وهي مائة وثمانية وعشرون آية والفان و
ثمانمائة واربعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة احرف بسم الله اي المحيط
بدائرة الكمال فما شاء فعل الرحمن اي الذي عمت نعمته جليل خلقه وحقيره صغيره وكبيره
الرحيم اي الذي خص من شاء بنعمة النجاة مما يسخطه بما يرضاه وقوله تعالى أتى أمر الله فيه وجهان
احدهما انه ماض لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيامة وانما ابرزه في صورة ما وقع وانقضى
تحقيقا له ولصدق المخبر به والثاني انه على بابه والمراد مقدماته واوائله وهو نصر رسوله صلى الله
عليه وسلم اي جاء امر الله ودنا وقرب فانه يقال في الكلام المعتاد انه قد اتى ووقع اجراء لما يجب
وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب الاعانة وقرب حصولها جاءك الغوث اي اتى امر الله وعدا
فلا تستعجلوه وقوعا قبل مجيئه فانه واقع لا محالة روي انه صلى الله عليه وسلم قال بعثت
انا والساعة كهاتين واشار باصبعيه السبابة والوسطى قال ابن عباس كان مبعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة ولما مر جبريل باهل السموات مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم
قالوا الله اكبر قامت الساعة وروي انه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض
ان هذا اي محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم ان القيامة قد اقتربت فامسكوا عن بعض ما تقولون حتى
تنظروا ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئا فنزل اقترب للناس حسابهم فاشفقوا وانتظروا فلما
امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل اتى امر الله فوثب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا انها قد اتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا ولما كان
الكفار قالوا سلمنا لك يا محمد لكنا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب
المحكوم به فاجابهم الله تعالى بقوله تعالى سبحانه اي تنزيها له وتعالى عما يشركون اي تبرأ سبحانه

وتعالى بالاوصاف الحميدة عن ان يكون له شريك فى ملكه وقرأ حمزة والكسائى اتى بالامالة وقرأ ورش
بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ حمزة والكسائى عما تشركون فى الموضعين بالتاء على وفق قوله
فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب او على ان الخطاب للمؤمنين او لهم ولغيرهم
ولما اجاب سبحانه وتعالى الكفار عن شبهتهم بقوله تنزيها لنفسه عما يشركون وكان الكفار قالوا هب
ان الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى آخرين بالخير ولكن كيف يمكنك ان تعرف هذه الامور
التى لا يعلمها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث تعرف اسرار الله تعالى واحكامه فى ملكه وملكوته
فاجابهم الله تعالى بقوله يُنَزِّلُ الْمَلٰٓئِكَةَ قال ابن عباس يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدى
يسمى الواحد بالجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا وقرأ ابن كثير وابو عمرو بتخفيف الزاى والباقون
بتشديدها والمراد بِالرُّوحِ الوحى او القرآن فان القلوب تحيا به من موت الجهالات وقوله تعالى
مِنْ اَمْرِهٖ اى بارادته حال من الروح عَلٰى مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهٖ وهم الانبياء اَنْ اَنْذِرُوْٓا اى خوفوا
الكافرين بالعذاب واعلموهم اَنَّهٗ اى الشان لَآ اِلٰهَ اِلَّآ اَنَا اى لا اله غيرى وقوله تعالى فَاتَّقُوْنِ اى
خافونى رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود + تنبيه + فى قوله تعالى ان انذروا ثلاثة اوجه احدها
انها المفسرة لان الوحى فيه ضرب من القول والانزال بالروح عبارة عن الوحى قال تعالى وكذلك
اوحينا اليك روحا من امرنا الثانى انها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان محذوف الثالث انها
المصدرية التى من شانها نصب المضارع ووصلت بالامر كقولهم كتبت اليه بان قم والاية تدل على ان
نزول الوحى بواسطة الملائكة وان النبوة عطاءة + ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الآيات
الدالة على وحدانيته من حيث انها تدل على انه تعالى هو الموجد لاصول العالم وفروعه على وفق
الحكمة والمصلحة بقوله تعالى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ اى التى هى السقف المظل وَالْاَرْضَ اى التى هى البساط
المقل بِالْحَقِّ اى اوجدها على مقدار وشكل واوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته
تَعٰلٰى اى تعالى بالذات والوصف عَمَّا يُشْرِكُوْنَ به من الاصنام + ولما كان خلق السموات والارض غيبا
لتقدمه وكان خلق الانسان على هذه الصفة شهادة فتكون اقوى فى الدلالة على وحدانيته تعالى
قال تعالى خَلَقَ الْاِنْسَانَ اى هذا النوع مِنْ نُّطْفَةٍ اى آدم عليه السلام من مطلق الماء ومن تفرع
منه بعد زوجه حواء من ماء مقيد بالدفق الى ان صيره قويا شديدا فَاِذَا هُوَ خَصِيْمٌ اى شديد
الخصومة مُّبِيْنٌ اى بينها روى ان ابى بن خلف الجمحى وكان ينكر البعث جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم
بعظم رميم فقال أتزعم يا محمد ان الله يحيى هذا العظم بعد ما قد رم فنزلت هذه الآية ونزل فيه ايضا
قوله تعالى قال من يحيى العظام وهى رميم قال الخازن فى تفسيره والصحيح ان الآية عامة فى كل
ما يقع فيه الخصومة فى الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم اولى ولما كان اشرف الاجسام الموجودة
فى العالم السفلى بعد الانسان سائر الحيوانات واشرفها الانعام ذكرها بقوله تعالى وَالْاَنْعَامَ اى الازواج
الثمانية الضأن والمعز والابل والبقر ونصبه بفعل يفسره خَلَقَهَا قال الواحدى تم الكلام عند قوله

والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال لكم فيها دفء اي ما يدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة
من الاصواف والاوبار والاشعار قال ويجوز ايضا ان يكون تمام الكلام عند قوله والانعام خلقها
لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال الرازي قال صاحب النظم واحسن الوجهين ان يكون
الوقف عند قوله تعالى خلقها والدليل عليه انه عطف عليه ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء
ولكم فيها جمال + ولما ذكر تعالى الانعام ذكر بعدها انواعا من المنافع الاول قوله تعالى لكم فيها دفء النوع
الثاني قوله تعالى ومنافع اي ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع
به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل
قد ينتفع به في الاكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود وقد ينتفع به بان يبدل بالثياب وسائر الضروريات
فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل النوع الثالث قوله تعالى ومنها تاكلون
فان قيل تقديم الظرف يفيد الحصر لان تقديم الظرف موذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها
اجيب بان الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم واما الاكل من غيرها كالدجاج
والبط والاوز وصيد البر والبحر فليس يعتد به في الاغلب واكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تاكلون
مخرج الغالب في الاكل من هذه الانعام فان قيل منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم قدمت
منفعة اللباس عليه اجيب بان منفعة اللباس اكثر من منفعة الاكل فلهذا قدمت على منفعة
الاكل ولكم فيها جمال اي زينة حين تريحون اي تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي وحين
تسرحون اي تخرجونها بالغداة الى المرعى فان الافنية تتزين بها في الوقتين ويجل اهلها في اعين
الناظرين اليها فان قيل لم قدمت الاراحة على التسريح اجيب بان الجمال في الاراحة اظهر
اذا اقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم اوت الى الحظائر حاضرة لاهلها فيفرح اهلها بها
بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تاخذ في التفرق
والانتشار للمرعى في البرية فليس في التسريح تجمل كما في الاراحة النوع الرابع قوله تعالى وتحمل
اثقالكم جمع ثقل وهو متاع المسافر الى بلد اي غير بلد لو اردتم السفر اليه لم تكونوا بالغيه اي
غير واصلين اليه على غير الابل الا بشق الانفس اي الا بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف
الشيء اي لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها وقال ابن عباس يريد من مكة
الى اليمن والى الشام والى مصر قال الواحدي والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل شق عليكم
وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر اهل مكة كانت الى هذه البلاد فان قيل المراد من قوله
تعالى والانعام خلقها لكم الابل فقط بدليل انه وصفها الى اخر الاية بقوله وتحمل اثقالكم الى بلد وهذا
الوصف لا يليق الا بالابل اجيب بان المقصود من هذه الايات تعديد منافع الانعام فبعض تلك
المنافع حاصل في الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه ان قوله ولكم فيها جمال حاصل في البقر
والغنم مثل حصوله في الابل + تنبيه + احتج منكرو كرامات الاولياء بهذه الاية فانها تدل على ان الانسان

لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق الانفس وحمل الاثقال على الابل ومنكرو الكرامات يقولون
ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة وكان
ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا واذا بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول
بها في سائر الصور لا قائل بالفرق واجاب المثبتون بانا نخصص عموم هذه الآية بالادلة الدالة
على وقوع الكرامات ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ اي الموجد لكم والمحسن اليكم ﴿لَرَءُوفٌ﴾ اي بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه
بما يرضيه وقرأ ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمد ﴿رَحِيمٌ﴾ اي بليغ
الرحمة بسبب وبغير سبب وقوله تعالى ﴿وَالْخَيْلَ﴾ اي الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه
كالابل والرهط ﴿وَالْبِغَالَ﴾ اي المتولدة بينها وبين الحمير ﴿وَالْحَمِيرَ﴾ الناهقة عطف على الانعام اي
وخلق هذه الحيوانات ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ اي لاجل ان تركبوها وفي نصب قوله تعالى ﴿وَزِينَةً﴾ اوجه احدها
انه مفعول من اجله وانما وصل الفعل الى الاول باللام في قوله تعالى لتركبوها والى هذا بنفسه
لاختلاف شرطه في الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان الخالق هو الله تعالى والراكب المخاطبون
بخلاف الثاني الثاني انها منصوبة على الحال وصاحب الحال اما مفعول خلقها واما مفعول
لتركبوها فهو مصدر اقيم مقام الحال الثالث ان ينتصب بتقدير فعل قدره الزمخشري بقوله
وخلقها زينة وقدره ابن عطية وغيره وجعلها زينة الرابع انها مصدر لفعل محذوف
اي وتتزينون بها زينة تنبيه احتج القائلون وهم ابن عباس والحكم وابو حنيفة ومالك
بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية قالوا منفعة الاكل اعظم من منفعة الركوب فلو كان اكل لحم الخيل
جائزا لكان هذا المعنى اولى بالذكر وحيث لم يذكره تعالى علمنا انه يحرم اكله لان الله تعالى
خص الانعام بالاكل حيث قال تعالى ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها
فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل واحتج القائلون باباحة اكل اللحم من الخيل وهم سعيد بن
جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعي بما روي عن اسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله
تعالى عنهما قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة وبما روي
عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية واذن في
الخيل وفي رواية اكلنا في زمن خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن
الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم وفي رواية ابي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال
والحمير وكنا قد اصابتنا مخمصة فنهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن
الخيل واجابوا عن هذه الآية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على ان منفعتها مختصة بذلك
وانما خص هاتين المنفعتين بالذكر لانهما معظم المقصود ولهذا سكت عن حمل الاثقال على
الخيل مع قوله تعالى في الانعام وتحمل اثقالكم ولم يلزم من ذلك تحريم الاثقال على الخيل وقال
الواحدي لو دلت هذه الآية على تحريم اكلها لكان تحريم اكلها معلوما في مكة لاجل

ان هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر اي وذلك في المدينة باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه السنة فائدة قال الرازي وهذا جواب حسن متين وقال الخازن والدليل الصحيح المعتمد عليه في اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضي ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه ودار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير فاخذنا به جمعا بين النصين ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الانواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الاجمال بقوله تعالى وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وذلك لان انواعها واصنافها واقسامها كثيرة خارجة عن الحد و الاحصاء ولو خاض الانسان في شرح عجائب احوالها لكان المذكور بعد كتبة المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان احسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الآية وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس انه قال ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل كل يوم ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا الف ملك يدخل كل يوم منهم سبعون الفا البيت المعمور وفي الكعبة ايضا سبعون الفا لا يعودون اليه الى ان تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر قتادة الآية بالسوس في النبات والدود في الفواكه وفسرها بعضهم بما اعدّ الله تعالى لاهل الجنة في الجنة مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى وَعَلَى اللهِ اي الذي له الاحاطة بكل شيء قَصْدُ السَّبِيلِ اي بيان الطريق المستقيم انما ذكرت هذه الدلائل وشرحها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذلك اضاف اليها القصد وقال وَمِنْهَا اي السبيل جَائِرٌ اي حائد عن الاستقامة فان قيل هذه الآية تدل على ان الله تعالى يجب عليه الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار كما قال به المعتزلة لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت اجيب بان المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم ان يبين الدين الحق والمذهب الصحيح فان قيل لم غير اسلوب الكلام حيث قال في الاول وعلى الله قصد السبيل وفي الثاني ومنها جائر دون وعليه جائر اجيب بان المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جاء بالعرض ثم قال تعالى وَلَوْ شَاءَ هدايتكم لَهَدَاكُمْ الى قصد السبيل أَجْمَعِينَ فتهتدون اليه باختيار منكم قال الرازي وهذا يدل على ان الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما اراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ولما ذكر تعالى نعمه على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر لانه من اعظم النعم على عباده فقال هُوَ اي لا غيره مما تدعى فيه الالهية الَّذِي أَنْزَلَ اي بقدرته الباهرة مِنَ السَّمَاءِ اما من نفسها او من غيرها

او من جهتها او من السحاب كما هو مشاهد ماء اى واحدا تحسونه بالذوق والبصر لكم منه اى من ذلك
الماء شراب اى تشربونه وقد بين تعالى فى اية اخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل
شئ حى فان قيل ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر اجيب بانه تعالى لم ينف ان نشرب من غيره وبتقدير
الحصر لا يمتنع ان يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر يسكن هناك بدليل قوله فى سورة
المؤمنون وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الارض ومنه اى من الماء شجر اى ينبت بسببه
والشجر هنا كل نبات من الارض حتى الكلأ وفى الحديث لا تاكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ فان قيل
قال المفسرون فى قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان المراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق
ومن الشجر ما له ساق اجيب بان عطف الجنس على النوع وبالعكس مشهور وايضا فلفظ الشجر يشعر
بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط اصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح اذا اختلطت قال
تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ فوجب اطلاق لفظ الشجر
عليه ويصح ان يكون المراد بالشجر هنا ما له ساق لان الابل تقدر على رعى ورق الاشجار الكبار وحينئذ
فاطلاق الشجر على الكلأ مجاز فيه اى الشجر تسيمون اى ترعون مواشيكم يقال اسمت الماشية اذا خليتها
ترعى وسامت هى اذا رعت حيث شاءت قال الزجاج اخذ ذلك من السومة وهى العلامة لانها تؤثر
فى الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم الابل فى المرعى + ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا
واجمالا ذكر الثمار تفصيلا واجمالا بقوله تعالى ينبت اى الله لكم به اى بذلك الماء الزرع والزيتون
والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير
الارز لان به قوام البدن وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة فيه وثلث بذكر
النخيل لان ثمرها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانها شبه النخيل فى المنفعة من التفكه والتغذية
ثم ذكر تعالى سائر الثمار اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لان الحبة
الواحدة تقع فى الطين فاذا مضى عليها مقدار معين من الوقت نفذ فى داخل تلك الحبة اجزاء من
رطوبة الارض ونداوتها فتنفتح الحبة فينشق اعلاها واسفلها فيخرج من اعلى تلك الحبة شجرة صاعدة
من داخل الارض الى الهواء ومن اسفلها شجرة اخرى غائصة فى قعر الارض وهذه الغائصة هى المسماة
بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ثم تخرج منها الاوراق والازهار والاكمام
والثمار ثم ان تلك الثمرة تشتمل على اجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان
يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان والى ذلك الاشارة بقوله تعالى ان فى ذلك
لاية بينة على ان فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الاعادة وانه مختار يفعل ذلك فى الوقت الذى يريده
وانما تحصل معرفة ذلك لقوم يتفكرون فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون + ثم ذكر سبحانه
وتعالى اشياء تدل على انه الفاعل المختار بقوله تعالى وسخر لكم اى ايها الناس لاصلاح احوالكم الليل
للسكن والنهار للمعاش ثم ذكر اية النهار فقال والشمس اى لمنافع اختصاصها ثم اية الليل فقال

والقمر لامور علقها به والنجوم اى الآيات نعم سيالها ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى مسخرات
اى بانواع التغير لما خلقها له على اوضاع دبرها بامره اى بارادته سببا لصلاحكم وصلاح ما به
قوامكم دلالة على وحدانيته تعالى وفعله بالاختيار ولو شاء تعالى لاقام اسبابا غيرها او اغنى عن
الاسباب وقرأ ابن عامر برفع الاربع وهي الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتداء والخبر ووافقه
حفص في الاثنين الاخيرين والنجوم مسخرات الاخير والباقون بالنصب عطفا على ما قبله في الثلاثة
الاول وفي الرابع وهو مسخرات على الحال ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الاشياء وجعلها مسخرات لمنافع
عباده ختم ذلك بقوله ان في ذلك اى التسخير العظيم لآيات اى دلالات متعددة كثيرة عظيمة
لقوم يعقلون اى يتدبرون فيعلمون ان جميع الخلق تحت قدرته وقهره وتسخيره لما اراده منهم
وقوله تعالى وما ذرأ اى خلق لكم في الارض عطف على الليل اى وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان
ونبات وقيل انه في موضع نصب بفعل مضمر اى وخلق هكذا قدره ابو البقاء وكانه استبعد
تسلط سخر على ذلك فقدر فعلا لائقا وقوله تعالى مختلفا حال منه وقوله تعالى الوانه اى في الخلقة
والهيئة والكيفية فاعل به ان في ذلك لآية لقوم يذكرون اى يتعظون * تنبيه * ختم تعالى
الآية الاولى بالتفكر لان ما فيها يحتاج الى تامل ونظر وختم الثانية بالعقل لان مدار ما تقدم عليه
وختم الثالثة بالتذكر لانه نتيجة ما تقدم وجمع الآيات في الثانية دون الاولى والثالثة لان ما نيط بها
اكثر ولذلك ذكر معها العقل * ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الاله اولا باجرام السموات والارض
وثانيا ببدن الانسان وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ورابعا بعجائب النبات ذكر خامسا عجائب
العناصر وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى وهو اى لا غيره وقرأ قالون وابو عمرو والكسائي بسكون
الهاء والباقون بضمها الذي سخر البحر اى ذلله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر وغير
ذلك قال علماء الهيئة ثلاثة ارباع كرة الارض غائصة في الماء وذلك هو البحر المحيط وحصل في هذا الربع
المسكون سبعة ابحر قال تعالى والبحر يمده من بعده سبعة ابحر والبحر الذي سخره الله تعالى للناس
هو هذه البحار فمن تسخيرها للخلق ما امر ومنه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب
وبالغوص وبغير ذلك فمنافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا ثلاثة منافع الاولى قوله
تعالى لتأكلوا منه اى بالاصطياد وغيره من لحوم الاسماك لحما طريا اى لا اطرى منه ولا الين وهو اطيب
اللحوم فيسرع اليه الفساد فيبادر الى اكله غضا وفي ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك ان
السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري لانه لما خرج من البحر الملح الزعاق
الطري في غاية العذوبة علم انه بخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله تعالى قادر على
اخراج الضد من الضد المنفعة الثانية قوله تعالى وتستخرجوا منه اى بجهدكم في الغوص وما يتبعه
حلية اى اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان تلبسونها اى نساؤكم وهن بعضكم
فكان اللابس انتم ولان زينة النساء بالحلي انما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم المنفعة

الثالثة قوله تعالى وترى الفلك اى السفن مواخر اى تمخر الماء اى تشقه بجريها فيه اى مقبلة
ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احداهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحدة وقال مجاهد
تمخر الريح السفن يعنى انها اذا جرت يسمع لها صوت وقال الحسن مواخر يعنى مملوءة متاعا وقوله تعالى
ولتبتغوا اى تطلبوا عطف على تاكلوا وما بينهما اعتراض وقيل عطف على محذوف تقديره
لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا من فضله اى من سعة رزقه بركوبها للتجارة وللوصول الى البلدان
الشاسعة ولعلكم تشكرون الله على هذه النعم التى انتم عاجزون عنها لولا تسخيره ثم انه تعالى
ذكر بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الارض بقوله تعالى والقى فى الارض رواسى اى جبالا ثوابت
ان تميد اى كراهة ان قيل وتضطرب بكم وقيل لئلا تميل بكم والاول قدره البصريون والثانى
قدره الكوفيون وقد تقدم مثل ذلك فى قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا وروى ان الله تعالى خلق
الارض فجعلت تمور فقالت ما هى بمقر احد على ظهرها فاصبحت وقد ارسيت بالجبال لم تدر الملائكة
مم خلقت وقوله تعالى وانهارا عطف على رواسى لان الالقاء بمعنى الخلق والجعل الا ترى انه تعالى
قال فى آية اخرى وجعل فيها رواسى من فوقها وقال تعالى والقيت عليك محبة منى وذكر تعالى الانهار
بعد الجبال لان معظم عيون الانهار واصولها تكون من الجبال وجعل لكم فيها سبلا اى طرقا
مختلفة تسلكون فيها فى اسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان لعلكم
تهتدون اى بتلك السبل الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى فلا تضلون وجعل لكم فيها علامات
اى من الجبال وغيرها جمع علامة تهتدون بها فى اسفاركم ولما كانت الدلالة بالنجم انفع الدلالات
واوضحها برا وبحرا ليلا ونهارا نبه على عظمها بالالتفات الى مقام الغيبة لافهام العموم لئلا يظن
ان المخاطب مخصوص والامر لا يتعداه فقال تعالى وبالنجم اى الجنس هم اى اهل الارض كلهم واولى
الناس بذلك المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم يهتدون وقدم الجار
تنبيها على ان الدلالة بغيره بالنسبة اليه ساقطة وقيل المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات
نعش والجدى وقيل الضمير لقريش لانهم كانوا كثيرى الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى
مسايرهم بالنجوم . ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب قدرته وبدائع خلقه ما ذكر على الترتيب
الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة
على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه تعالى المنفرد بخلقها جميعها ذكر ما يدل على الانكار على من ترك
عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام العاجزة التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شىء بقوله تعالى افمن يخلق
اى هذه الاشياء الموجودة وغيرها كمن لا يخلق شيئا من ذلك بل هى مخلوقة فكيف يليق
بالعاقل ان يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى
فان قيل ذلك الالزام للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق
مثل الخالق فكان حق الالزام ان يقال افمن لا يخلق كمن يخلق اجيب بانهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى

في تسميتها باسمه والعبادة له وسوّوا بينه وبينه فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبهوها
بها فانكر عليهم ذلك بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق فإن قيل من لا يخلق ان اريد به جميع ما عبد
من دون الله كان ورود من واضحا لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جيء ايضا بما
لجاز وان اريد به الاصنام فلم جيء بمن الذي هو لاولي العلم أجيب بانهم سموها آلهة وعبدوها فاجروها
مجرى اولي العلم الا ترى الى قوله تعالى على اثره والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون
والى قول الشاعر: بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي + فقلت ومثلي بالبكاء جدير + أسرب
القطا هل من يعير جناحه + لعلي الى من قد هويت اطير + وكل قطاة لا تعير جناحها + تعيش بذل
والجناح قصير + فاوقع من على سرب لما عامله معاملة العقلاء وقيل المشاكلة بينه وبين من يخلق
وقيل المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من اولي العلم فكيف بما لا علم عنده كقوله تعالى ألهم أرجل
يمشون بها يعني ان الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم ارجل وايد وآذان وقلوب لان هؤلاء
احياء وهم اموات فكيف تصح لهم العبادة لا انها لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح ان يعبدوا + ولما
كان هذا القدر ظاهرا غير خاف على احد فلا يحتاج فيه الى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه
كفاية لمن فهم وعقل ختم تعالى ذلك بقوله تعالى أفلا تذكرون بما تشاهدونه من ذلك ولو من
بعض الوجوه فتؤمنون + تنبيه + احتج اهل السنة بهذه الآية على ان العبد غير خالق لافعال
نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشياء التي يعبدونها بصفة الخالقية لان الغرض من قوله
تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق بيان تميزه عن هذه الاشياء بصفة الخالقية وانه انما استحق
الالهية والعبودية لكونه تعالى خالقا وهذا يقتضي ان العبد لو كان خالقا لشيء لوجب كونه
الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد ولما كانت المقدورات
المتقدمة اكثرها نعم على العباد وذكرها تنبيها لهم قال ممتنا عليهم باحسانه من غير سبب منهم
وان تعدوا نعمة الله اي انعام الملك الاعظم الذي لا رب غيره عليكم من صحة البدن
وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين ومشي الرجلين الى غير ذلك
مما انعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون اليه من امر الدنيا حتى لو رام احدكم معرفة ادنى نعمة
من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها وحصرها فان نعمه يفوت الحصر لا تحصوها اي لا تضبطوا
عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كثرتها واعراضكم جملة عن شكرها والعبد وان اتعب نفسه في القيام
بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعم الله تعالى فانه يكون مقصرا لان نعم الله كثيرة واقسامها
عظيمة وعقل الخلق قاصر عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك ان تشكر الله
تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها ان الله لغفور اي لتقصيركم في القيام بشكرها يعني النعمة كما يجب
عليكم رحيم بكم توسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي وقوله تعالى والله يعلم
ما تسرون وما تعلنون فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون اشياء وهم كانوا

اى ماكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون اى وما يظهرون من اذاه صلى الله عليه وسلم
فاخبر الله تعالى بانه عالم بكل احوالهم سرها وعلانيتها لا يخفى عليه خافية وان دقت وخفيت
والوجه الثاني انه تعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها في الآية المتقدمة ذكر في هذه الآية ان الاله
الذى يستحق العبادة يجب ان يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الاصنام ليست
كذلك فلا تستحق العبادة + ثم وصف تعالى هذه الاصنام بصفات الاولى مذكورة في قوله تعالى
وَالَّذِينَ يَدْعُونَ اى تعبدون مِنْ دُونِ اللّهِ اى الاصنام وتعتقدون انها الهة وقرأ عاصم
بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ اى يصورون
من الحجارة وغيرها فان قيل قوله تعالى في الآية المتقدمة افمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه
الاصنام لا تخلق شيئا وهم يخلقون وهذا هو المعنى المذكور في تلك الآية المذكورة فما فائدة هذا
التكرار اجيب بان فائدته ان المعنى المذكور في الآية المتقدمة انهم لا يخلقون شيئا فقط
والمذكور في هذه الآية انهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى
وهو فائدة التكرار فكانه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين اولا انها لا تخلق شيئا
ثم بين ثانيا انها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة كغيرها الصفة الثانية قوله تعالى أَمْوَاتٌ اى جمادات
لا روح لها غَيْرُ أَحْيَاءٍ اذ الاله الذى يستحق ان يعبد هو الحي الذى لا يموت فان قيل علم من قوله
اموات انها غير احياء فما الفائدة في ذكره اجيب بان من الاموات ما يعقب موته حياة كالنطف
التي ينشئها الله تعالى حيوانا واجساد الحيوانات التي تبعث بعد موتها واما الحجارة فاموات
لا يعقب موتها حياة وذلك اعرق في موتها وقيل ذكر للتاكيد لان الكلام مع الكفار الذين يعبدون
الاوثان وهم في نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغبي فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات
الكثيرة وغرضه الاعلام بكون المخاطب في غاية الغباوة فانه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة
الواحدة الصفة الثالثة قوله تعالى وَمَا يَشْعُرُونَ اى الاصنام أَيَّانَ اى وقت يُبْعَثُونَ اى وما
تعلم هؤلاء الالهة متى تبعث الاحياء تهكما بها لان شعور الجماد محال فكيف يشعر ما لا يعلمه
حي الا الحي القيوم سبحانه وتعالى وقيل الضمير راجع للاصنام قال ابن عباس ان الله تعالى
يبعث الاصنام لها ارواح ومعها شياطينها فيؤمر بالكل الى النار وقيل المراد بقوله تعالى والذين يدعون
من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى انهم اموات اى لا بد لهم
من الموت غير احياء اى باقية حياتهم وما يشعرون اى لا علم لهم بوقت بعثهم + ولما زيف سبحانه
وتعالى طريقة عبدة الاصنام وبين فساد مذهبهم قال تعالى إِلَهُكُمْ اى ايها الخلق جميعا المعبود بحق
إِلَهٌ اى متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة الى كل اوان وكل زمان وكل مكان وَاحِدٌ لا يقبل التعدد
الذى هو مثال النقص بوجه من الوجوه لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد
عن رتبة الالهية فَالَّذِينَ اى فتسبب عن هذا ان الذين لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ اى دار الجزاء ومحل اظهار الحكم

الذي هو ثمرة الملك والعدل الذي هو مدار العظمة قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ اي جاحدة للوحدانية وَهُمْ
اي والحال انهم بسبب انكار ذلك مُسْتَكْبِرُونَ اي متكبرون عن الايمان بها لَاجَرَمَ اي حقا أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ
علما غيبيا وشاهديا مَا يُسِرُّونَ اي ما يخفون مطلقا او بالنسبة الى بعض الناس وَمَا يُعْلِنُونَ اي يظهرون
فيجازيهم بذلك ولما كان في ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى إِنَّهُ اي العالم بالسر والعلن لَا يُحِبُّ
الْمُسْتَكْبِرِينَ اي على خلقه فما بالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى عدم
محبتهم انه يعاقبهم وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة
من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا قال ان
الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس ومعنى بطر الحق انه يستكبر عند سماع الحق فلا يقبله
ومعنى غمص الناس استنقاصهم وازدراؤهم ولما بالغ سبحانه وتعالى في دلائل التوحيد واورد الدلائل
القاهرة في ابطال مذاهب عبدة الاصنام قال تعالى عاطفا على قلوبهم منكرة وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اي لهؤلاء
الذين لا يؤمنون بالآخرة وقوله تعالى مَاذَا استفهامية وذا موصولة اي ما الذي أَنْزَلَ رَبُّكُمْ على محمد
صلى الله عليه وسلم واختلف في قائل هذا القول فقيل كلام بعضهم لبعض وقيل قول المسلمين لهم
وقيل قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم
وفود الحاج عما انزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم قَالُوا مكابرين في انزال القرآن هو أَسَاطِيرُ
اي اكاذيب الْأَوَّلِينَ مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضتهم اقصر سورة منه مع علمهم بانهم افصح الناس
وانه لا يكون من احد من الناس متقدم او متأخر قول الا قالوا ابلغ منه فان قيل هذا كلام متناقض لانه
لا يكون منزلا من ربهم واساطير اجيب بانهم قالوه على سبيل السخرية كقوله ان رسولكم الذي ارسل اليكم
لمجنون واللام في قوله تعالى لِيَحْمِلُوا لام العاقبة كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا
وذلك لما وصفوا القرآن بكونه اساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك ان يحملوا أَوْزَارَهُمْ اي ذنوب
انفسهم وانما قال تعالى كَامِلَةً لئلا يتوهم انه يكفر عنهم شيء بسبب البلايا التي اصابتهم في الدنيا واعمال
البر التي عملوها في الدنيا بل يعاقبون بكل اوزارهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ الذي لا شك فيه ولا محيص عن اتيانه
قال الرازي وهذا يدل على انه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا
في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة وَ ليحملوا ايضا مِنْ جنس أَوْزَارِ
الجهلة الضعفاء الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ وقوله تعالى بِغَيْرِ عِلْمٍ حال من مفعول يضلونهم اي يضلون
من يعلم انهم ضلال او من الفاعل وانما وصف بالضلال واحتمال الوزر من اضلوه وان لم يعلم لانه كان
عليه ان يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل وانما حصل للرؤساء الذين اضلوا غيرهم وصدوهم
عن الايمان مثل اوزار الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا في الاثم وعن ابي هريرة رضي الله
عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه
لا ينقص ذلك من اجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه

لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس والكبير إذا سنّ
سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فإن الله تعالى يعظم ثوابه وعقابه
حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساوياً للكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع الذين عملوا
بالسنة الحسنة أو القبيحة وليس المراد بأن الله يوصل جميع الثواب أو العقاب الذي يستحقه
الأتباع إلى الرؤساء ويدل لذلك قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للإنسان
إلا ما سعى. تنبيه. قال الواحدي لفظة من في قوله تعالى ومن أوزار ليست للتبعيض لأنها لو
كانت للتبعيض لنقص عن الأتباع بعض الأوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم لا ينقص ذلك من آثامهم
شيئاً لكنها للجنس كما تقدمت الإشارة لذلك في الآية الكريمة أي ليحملوا من جنس أوزار الأتباع وقيل إنها
للتبعيض وجرى عليه البيضاوي تبعاً للزمخشري ألا ساء أي بئس ما يزرون أي يحملون
حملهم هذا وفي هذا وعيد وتهديد لهم فإن قيل إن الله تعالى حكى هذه الشبهة عن القوم ولم يجب
عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب في ذلك أجيب بأن السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن
معجزاً بطريقين الأول أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم أولاً بكل القرآن وثانياً بعشر سور وثالثاً بسورة
فعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزاً الثاني أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى
وهي قوله تعالى اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً وأبطلها بقوله تعالى قل أنزله الذي يعلم السر في السموات
والأرض ومعناه أن القرآن يشتمل على الإخبار بالغيوب وذلك لا يتأتى إلا ممن يكون عالماً بأسرار السموات
والأرض. ولما ثبت كون القرآن معجزاً بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مراراً كثيرة لا جرم
اقتصر في هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم إنه
سبحانه وتعالى بالغ في وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي من رأوا آثارهم
ودخلوا في ديارهم فَأَتَى اللَّهُ أي أمره بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ أي من جهة العمد التي بنوا عليها مكرهم فَخَرَّ أي
سقط عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وصار سبب هلاكهم وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة
والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء على أصله
والباقون بالكسر وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أي من جهة لا تخطر ببالهم وهذا على سبيل
التمثيل أي التشبيه والتخييل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما أبرموه كحال
قوم بنوا بنياناً وشيدوه بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن تضعضعت فسقط عليهم السقف
فهلكوا ونحوه من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً وقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل
ليصعد إلى السماء قال ابن عباس كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب كان طوله
فرسخين فأهب الله تعالى الريح فألقت رأسه في البحر وخرّ عليهم الباقي وهم تحته قال البغوي ولما سقط
الصرح تبلبلت ألسن الناس يومئذ من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً فلذلك سميت بابل وكان
لسان الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد أي أمره بخرب

بنيانهم من اصلها فخر عليه وعلى قومه السقف اى اعلى البيوت من فوقهم فهلكوا + تنبيه + قال
ابن الخازن في قول البغوي وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لان صالحا عليه السلام كان
قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل اليمن عربا منهم جرهم الذين نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان
ببابل من العرب طائفة قديمة قبل ابراهيم عليه السلام انتهى وقد يقال انه كان لسان اكثر الناس
بالسريانية فلا ينافي ذلك فان قيل ما فائدة قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم والسقف من
فوقهم اجيب بانهم قد لا يكونون تحته فلما قال تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم دل على انهم كانوا
تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام بان الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها + ولما ذكر الله تعالى حال
اصحاب المكر في الدنيا ذكر حالهم في الآخرة بقوله عز وجل ثُمَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ يُخْزِيهِمْ اى يذلهم ويهينهم
بعذاب النار وَيَقُولُ لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخا أَيْنَ شُرَكَائِيَ اى في زعمكم واعتقادكم
الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ اى تخالفون المؤمنين فِيهِمْ اى في شأنهم وقرأ نافع بكسر النون والباقون بفتحها
قَالَ اى يقول الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ اى من الانبياء والمؤمنين وقال ابن عباس يريد الملائكة
إِنَّ الْخِزْيَ اى البلاء المذل الْيَوْمَ اى يوم الفصل الذي يكون للناس فيه العاقبة المأمونة وَالسُّوءَ
اى كل ما يسوء عَلَى الْكٰفِرِينَ اى العريقين في الكفر الذين تكبروا في غير موضع التكبر وفائدة قولهم
اظهار الشماتة وزيادة الاهانة وحكايته لتكون لطفا لمن سمعه + تنبيه + في الآية دلالة على
ان ماهية الخزي وماهية السوء في يوم القيامة مختصة بالكافرين وهذا ينفي حصول هذه الماهية
في حق غيرهم ويؤكد هذا قول موسى عليه السلام انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى ثم انه
تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى الَّذِينَ تَتَوَفّٰهُمُ الْمَلٰئِكَةُ اى
يقبض ارواحهم ملك الموت واعوانه عليهم السلام وقرأ حمزة في هذه الآية وفي الآية الآتية بالياء
في الموضعين على التذكير لان الملائكة ذكور والباقون بالتاء على التأنيث لان لفظ الجمع مؤنث
ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ اى بان عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم فَأَلْقَوُا السَّلَمَ اى استسلموا وانقادوا حين
عاينوا الموت قائلين مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ اى شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة بَلٰى اى بل كنتم
تعملون اعظم السوء ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ اى فلا فائدة
لكم في انكاركم فيجازيكم به + ولما كان هذا الفعل مع العلم سببا لدخول جهنم قال تعالى فَادْخُلُوا اى ايها
الكفرة أَبْوَابَ جَهَنَّمَ اى ابواب طبقاتها ودركاتها خٰلِدِينَ اى مقدرين الخلود فِيهَا اى جهنم
لا يخرجون منها وانما قال تعالى ذلك لهم ليكون اعظم في الخزي والغم وفي ذلك دليل على ان الكفار
بعضهم اشد عذابا من بعض ثم قال تعالى فَلَبِئْسَ مَثْوَى اى مأوى الْمُتَكَبِّرِينَ عن قبول التوحيد
وسائر ما اتت به الرسل + ولما بين تعالى احوال المكذبين ذكر احوال المصدقين بقوله تعالى وَقِيلَ
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا اى خافوا عقاب الله مَاذَا اى اى شيء أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا اى انزل خيرا وذلك ان
احياء العرب كانوا يبعثون ايام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا جاء سأل الذين

قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر شاعر كاهن كذاب مجنون ولو لم تلقه خير لك فيقول السائل انا شر وافد ان رجعت الى قومي دون ان ادخل مكة والقاه فيدخل مكة فيرى اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وانه نبي مبعوث من الله تعالى فذلك قوله تعالى وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم الآية فان قيل لم رفع الاول وهو قولهم اساطير الاولين ونصب الثاني وهو قولهم خيرا اجيب بانه ذكر ذلك للفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد وذلك انهم لما سالوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا اساطير الاولين وليس هو من الانزال في شيء لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سالوا المؤمنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وطابقوا الجواب عن السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا اي انزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ اي حياة طيبة اوان للذين اتوا بالاعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة اوانه تعالى بين ان اعترافهم بذلك الاحسان في هذه الدنيا حسنة اي جزاء لهم على احسانهم هل جزاء الاحسان الا الاحسان + ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال اخبر عن حالهم في الآخرة فقال وَلَدَارُ الْآخِرَةِ اي الجنة خَيْرٌ اي ما اعد الله لهم في الجنة خير مما حصل لهم في الدنيا ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ اي دار الآخرة فحذف لتقدم ذكرها وقال الحسن هي الدنيا لان اهل التقوى يتزودون فيها للآخرة وقوله تعالى جَنَّاتُ اي بساتين عَدْنٍ اي اقامة خبر مبتدأ محذوف ويصح ان يكون المخصوص بالمدح يَدْخُلُونَهَا اي تلك الجنات حالة كونها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اي من تحت غرفها الْأَنْهَارُ ثم كان سائلا سال عما فيها من الثمار وغيرها فاجيب بان لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ اي ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات فهي ابلغ من قوله تعالى وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان في قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن مع اقسام اخرى وعلى ان الانسان لا يجد كل ما يريده في الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر كَذَٰلِكَ اي مثل هذا الجزاء العظيم يَجْزِي اللَّهُ اي الذي له الكمال كله الْمُتَّقِينَ اي الراسخين في صفة التقوى ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على ان العبرة بحال الموت فقال الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ اي اي تقبض ارواحهم وقوله تعالى طَيِّبِينَ كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما امروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس ويدخل فيه انه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الا مع البشارة بالجنة حتى صاروا كانهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتالم بالموت واكثر المفسرين على ان هذا التوفي هو قبض الارواح كما مر وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر واستدل بقوله تعالى ادخلوا الجنة لانه لا يقال عند قبض الارواح في الدنيا ادخلوا الجنة

واجاب الاكثرون بما سياتي وادغم ابو عمرو التاء في الطاء بخلاف عنه ثم بين تعالى ان الملائكة يقولون
لهم عند الموت سَلٰمٌ عَلَيْكُمُ فتسلم عليهم او تبلغهم السلام من الله تعالى كما روي ان العبد المؤمن اذا اشرف
على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولي الله الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة ويقال لهم
في الآخرة هذا جواب الاكثرين ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ او انهم لما بشروهم بالجنة صارت الجنة
كانها دارهم وكانهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة اي هي خاصة لكم كانكم فيها، ولما طعن الكفار
في القرآن بقولهم اساطير الاولين وذكر انواع التهديد والوعيد ثم اتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن
بكونه خيرا عاد الى بيان ان اولئك الكفار لا ينزجرون عن كفرهم واقوالهم الباطلة الا اذا جاءتهم
الملائكة او اتاهم امر ربك فقال تعالى هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلٰئِكَةُ بقبض ارواحهم وقرأ
حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التانيث وتقدم توجيه ذلك أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ
اي يوم القيامة وقيل العذاب وقيل انهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ان ينزل الله تعالى ملكا
من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون في التصديق بنبوتك
الا ان تاتيهم الملائكة شاهدين بذلك وعلى كلا التقديرين فقد قال تعالى كَذٰلِكَ اي مثل ما
فعل هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الامم السالفة كذبوا رسلهم
فاهلكوا وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ باهلاكهم بغير ذنب وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بكفرهم وتكذيبهم
للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم فَأَصَابَهُمْ اي فتسبب عن ظلمهم لانفسهم ان اصابهم سَيِّئَاتُ اي
عقوبات او جزاء سيئات مَا عَمِلُوا وَحَاقَ اي نزل بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ تكبروا عن قبول
الحق فحاق بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل الا في الشر وقرأ حاق حمزة بالامالة والباقون بالفتح
وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا للنبي صلى الله عليه وسلم استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف لَوْ شَاءَ اللّٰهُ
مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا لانهم اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة
الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ اي من السوائب
والبحائر والحامي فهو راض به وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة في مجيئك وفي ارسالك وهذا عين
ما حكاه الله تعالى عنهم في سورة الانعام في قوله تعالى سيقول الذين اشركوا لو شاء الله الآية قال الله
تعالى كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ اي من تقدم هؤلاء من الكفار من الامم الماضية كانوا على هذه
الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما في الامم الخالية ففي ذلك تسلية للنبي صلى الله
عليه وسلم وكذا في قوله تعالى فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلٰغُ اي الابلاغ الْمُبِينُ اي البين فليس عليهم هداية
احد انما عليهم تبليغ ما ارسلوا به الى من ارسلوا اليه، ثم بين تعالى ان البعثة امر جرت به السنة الالهية
في الامم كلها سببا لهدى من اراد اهتداءه وزيادة لضلال من اراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه
ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه بقوله تعالى وَلَقَدْ اي والله لقد
بَعَثْنَا اي بما لنا من العظمة التي من اعترض عليها قصم فِي كُلِّ أُمَّةٍ من الامم الذين من

قبلكم رسولا اي كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أن اعبدوا الله اي الملك الاعلى وحده وقرأ ابو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون في الوصل والباقون بالضم واجتنبوا الطاغوت اي الاوثان ان تعبدوها فمنهم من هدى الله اي وفقهم للإيمان بإرشاده ومنهم من حقت اي وجبت عليه الضلالة اي في علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم تنبيه + في هذه الاية ابين دليل على ان الهادي والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه فيما حكم به لسابق علمه ثم التفت سبحانه وتعالى الى مخاطبتهم اشارة الى انه لم يبق بعد هذا الدليل القطعي في نظر البصيرة الا الدليل المحسوس للبصر فقال تعالى فسيروا اي فان كنتم ايها المخاطبون في شك من اخبار الرسل فسيروا في الارض اي جنسها فانظروا اي اذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ثم اشار تعالى بالاستفهام الى ان احوالهم مما يجب ان يسئل عنه للاتعاظ به فقال كيف كان عاقبة اي آخر امر المكذبين اي من عاد ومن بعدهم من الذين تلقيتم اخبارهم ممن قلدتموهم في الكفر من اسلافكم لعلكم تعتبرون + ولما كان من المحقق انه ليس بعد الايصال في الاستدلال الى الامر المحسوس الا العناد اعرض عنهم ملتفتا الى الرؤف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال مسليا له ان تحرص على هداهم فتطلبه بغاية جدك واجتهادك وقد اضلهم الله تعالى لا تقدر على ذلك ثم قال تعالى فان الله لا يهدي من يضل اي من يريد ضلاله وهو معين لمن حقت عليه الضلالة وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الدال والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول قال البيضاوي وهو ابلغ ثم قال تعالى وما لهم اي هؤلاء الذين اضلهم الله وجميع من يضله من ناصرين اي وليس لهم احد ينصرهم في الدنيا والاخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذهم مما يحق عليهم من الوبال كما فعل بالمكذبين ممن قبلهم ثم حكى الله عن هؤلاء القوم انهم ينكرون للحشر والنشر بقوله واقسموا بالله جهد ايمانهم اي غاية اجتهادهم فيها لا يبعث الله من يموت وذلك انهم قالوا ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت اجزاؤه وبلي امتنع عوده بعينه لان الشيء اذا عدم فقد فني ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فكذبهم الله تعالى في قولهم بقوله تعالى بلى اي يبعثهم بعد الموت فان لفظة بلى اثبات لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم ان الله تعالى خلق الانسان واوجده من العدم ولم يكن شيئا فالذي اوجده ولم يكن شيئا قادر على ايجاده بعد عدمه لان النشأة الثانية اهون من الاولى وقوله تعالى وعدا عليه حقا مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر اي وعد ذلك وعدا وحقه حقا ولكن اكثر الناس لا يعلمون ذلك اي لا علم لهم يوصلهم لذلك لانه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول اليه بغير ارشاد من الله تعالى ولا هم يقبلون اقوال الدعاة اليه الذين ايدهم الله بروح منه لتقيدهم بما يوصل الى عقولهم انها قاصرة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقي منه الى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى فلذلك ترى الانسان منهم

يأبى ذلك استبعادا وهو حصيم مبين وقوله تعالى لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ يتعلق بما دل
عليه بلى اى يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو عام للمؤمنين والكافرين والذى اختلفوا فيه
هو الحق وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فى قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ
وقولهم لا يبعث الله من يموت وقيل يجوز ان يتعلق بقوله ولقد بعثنا فى كل امة رسولا اى بعثناه
ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب ثم بين سبحانه
وتعالى تيسير الاعادة بقوله تعالى إِنَّمَا قَوْلُنَا اى بما لنا من العظمة والقدرة لِشَىْءٍ ابداءً واعادةً
إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ اى يتسبب عن ذلك القول انه يكون + تنبيه + قوله تعالى
قولنا مبتدأ وان نقول خبره فيكون وكن من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود اى اذا اردنا
حدوث شئ فليس الا ان نقول احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف فان قيل قوله تعالى
كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود فكان امرا بتحصيل الحاصل وهو
محال اجيب بان هذا تمثيل لنفى الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب
المعدوم لان ما اراد فهو كائن على كل حال وعلى ما اراده من الاسراع ولو اراد تعالى خلق الدنيا
والآخرة بما فيهما من السموات والارض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن خاطب تعالى العباد
بما يعقلون وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك
وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له ان يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له اما شتمه اياى فيقول ان لى ولدا
واما تكذيبه فيقول ليس يعيدنى كما بدأنى وفى رواية كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له
ذلك فاما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى وليس اول الخلق باهون على من اعادته واما شتمه اياى فقوله
اتخذ الله ولدا وانا الله الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد وقرأ ابن عامر والكسائى
بفتح النون من يكون عطفا على نقول او جوابا للامر والباقون بالرفع ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم
اقسموا بالله جهد ايمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا فى الغى والجهالة والجهل
والضلال وفى مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وانزال العقوبة بهم وحينئذ
يلزم على المؤمنين ان يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم تلك الهجرة وما لهؤلاء
المهاجرين من الحسنة فى الدنيا والآخرة بقوله تعالى وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ اى فى حقه ولوجهه
لاقامة دينه مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضى الله تعالى عنهم ظلمهم
اهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع الله تعالى بين الهجرتين ومنهم
من هاجر الى المدينة او المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال و
صهيب وخباب وعمار وعابس وابو جندل وسهيل اخذهم المشركون بمكة يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام
الى الكفر فاما بلال فكان اصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على
صدره الحجارة وهو يقول احد احد فاشتراه منهم ابو بكر رضى الله عنه واعتقه واشترى معه ستة

نفرا اخر واما صهيب فقال انا رجل كبير ان كنت معكم لم انفعكم وان كنت عليكم لم اضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما راٰه ابو بكر قال له ربح البيع يا صهيب وقال عمر له نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخاف الله نارا لا طاعه لَنُبَوِّئَنَّهُمْ اى لننزلنهم فِى الدُّنْيَا دارا حَسَنَةً وهى المدينة وقيل لنحسنن اليهم فى الدنيا بان نفتح لهم مكة ونمكنهم من اهلها الذين ظلموهم واخرجوهم منها وقيل اراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية الى الدين وَلَاَجْرُ الْاٰخِرَةِ وهى الجنة والنظر الى وجهه الكريم اَكْبَرُ اى اعظم لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ اى الكفار والمتخلفون عن الهجرة ما للمهاجرين من الكرامة لوافقوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين اى لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم وصبروا وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا اعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله به فى الدنيا وما ادخر لك فى الاخرة افضل ثم يقرأ هذه الاية وقوله تعالى اَلَّذِيْنَ صَبَرُوْا اى على الشدائد وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال والانفس فى سبيل الله محله رفع على تقدير هم او نصب على المدح ويجوز ان يكون تابعا للموصول قبله نعتا او بدلا او بيانا فمحله جر وَعَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ اى منقطعين اليه مفوضين الامر كله اليه ✽ تنبيه ✽ ذكر الله تعالى فى هذه الاية الصبر والتوكل وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه اما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على اعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق واما التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق كما مرت الاشارة اليه فالاول هو مبدأ السلوك والثانى هو اخر الطريق ومنتهاه ✽ ونزل لما انكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله اعظم واجل ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يا محمد الى الامم من طوائف البشر اِلَّا رِجَالًا لا ملائكة بل ادميين هم فى غاية الاقتدار على الصبر والتوكل الذى هو محط الرحال نُوْحِىْ اِلَيْهِمْ بواسطة الملائكة فعادة الله جارية مستمرة من اول مبتدا الخلق الى الان لم يبعث رسولا الا من البشر فَاسْاَلُوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اى اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما امرهم الله تعالى بسؤالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان اهل الكتاب اهل علم وقد ارسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر وكانوا بشرا امثالهم فاذا سألوهم فلا بد ان يخبروهم ان الرسل الذين ارسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا اخبروهم بذلك فربما زالت هذه الشبهة وقال ابن عباس يريد اهل التورية والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر يعنى التورية والذكر هو التورية وقال الزجاج معناه اسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق ولما كان عندهم احسن من ذلك سماع اخبار الامم قبلهم اشار اليه بقوله تعالى اِنْ كُنْتُمْ اى جبلة وطبعا لَا تَعْلَمُوْنَ ذلك فانهم يعلمونه وانتم الى تصديقه اقرب من تصديق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى بِالْبَيِّنٰتِ متعلق بمحذوف اى ارسلناهم بالحجج الواضحة وقيل التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات وَالزُّبُرِ اى الكتب فاسألوا اهل الذكر وقيل انه متعلق بمحذوف جواب لسؤال مقدر كأنه قيل بم ارسلوا فقيل ارسلوا بالبينات والزبر وقوله

تعالى وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والذكر هو القرآن وانما سمي ذكرا لانه موعظة وتذكير لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ كافة اي اعطاك الله تعالى من الفهم الذي فقت فيه جميع الخلق واللسان الذي هو اعظم الالسنة وافصحها وقد اوصلك الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها احد مَا نُزِّلَ اي ما وقع تنزيله إِلَيْهِمْ من هذا الشرع المؤدي الى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما اشكل من علم اصول الدين الذي راسه التوحيد ومن البعث وغيره فان القرآن فيه محكم وفيه متشابه فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فيما انزل اليهم اذا نظروا اساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائقة فيعتبرون فان قيل ان هذه الآية تدل على ان المبين لكل التكاليف والاحكام هو النبي صلى الله عليه وسلم فالقياس ليس بحجة اجيب بانه صلى الله عليه وسلم لما بين ان القياس حجة فمن رجع في تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك في الحقيقة رجوعا الى بيان النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ فيه اضمار تقديره المكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه وبالقرآن في اذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الاخفاء ثم انه تعالى ذكر في تهديدهم اربعة امور الاول قوله تعالى أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسف بقارون واصحابه فاذا هم في بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها الثاني قوله تعالى أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ على غير تلك الحال مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ به فيأتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله تعالى أَوْ يَأْخُذَهُمْ اي الله بعذابه فِي حالة تَقَلُّبِهِمْ ومشاعرهم حاضرة وقواهم مستجمعة وفي تفسير هذا التقلب وجوه اولها انه تعالى يأخذهم بالعقوبة في اسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم في السفر كما انه قادر على اهلاكهم في الحضر فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ اي بفائتين العذاب بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث كانوا ثانيها انه تعالى يأخذهم بالليل والنهار وفي حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وثالثها ان الله تعالى يأخذهم في حال ما ينقلبون في قضايا افكارهم فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها الامر الرابع قوله تعالى أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ وفي تفسير التخوف قولان الاول التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى انه تعالى لا يأخذهم بالعذاب اولا بل يخيفهم اولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو انه تعالى يهلك قرية فتخاف التي تليها فيأتيهم العذاب والثاني التخوف بمعنى التنقص اي انه تعالى ينقص شيئا بعد شيء في انفسهم واموالهم حتى يهلكوا من تخوفه اذا تنقصه روي ان عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون في هذه الآية فسكتوا فقال شيخ من هذيل هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك في اشعارها قال نعم قال شاعرنا ابو كبير تخوف (اي تنقص) الرحل (اي رحل ناقته) منها تامكا (اي سناما) قردا

اى متراكما او مرتفعا وهو بسكون الراء كما تخوّف عود النبعة السفن والنبعة بالضم واحدة النبع
وهو شجر يتخذ منه السفن والسفن بفتح السين والفاء ما ينحت به الشيء وهو فاعل تخوّف ومفعوله
عود فقال عمر عليكم بديوانكم قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم
ومعنى البيت ان رحل ناقته ينقص سنامها المتراكم او المرتفع كما ينقص السفن عود النبعة فَإِنَّ
رَبَّكُمْ اى المحسن اليكم باهلاك من يريد وابقاء من يريد وقوله تعالى لَرَؤُفٌ قرأه ابو عمرو وشعبة
وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمد ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بنوع وسيلة
وكذا من قاطعه اتم مقاطعة واليه اشار بقوله تعالى رَحِيمٌ اى حيث لم يعاجلهم بالعذاب ولما خوّف
سبحانه وتعالى المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب اردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته
في تدبير احوال العالم العلوي والسفلي وتدبير احوال الارواح والاجسام ليظهر لهم انه مع كمال هذه
القدرة الباهرة والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن ايصال العذاب اليهم على احد تلك الاقسام الاربعة
بقوله تعالى أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ اى من الاجرام التي لها ظل كشجر وجبل يَتَفَيَّؤُا اى تتميل
ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ جمع شمال اى عن جانبي كل واحد منهما وشقيه وقرأ حمزة والكسائي
بالتاء على الخطاب على نسق ما قبله والباقون بالياء على الغيبة الى ما خلق استعارة من يمين الانسان
وشماله لجانبي الشيء اى ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له
وقال قتادة والضحاك اما اليمين فاول النهار واما الشمائل فآخره لان الشمس وقت طلوعها الى وقت
انتهائها الى وسط الفلك تقع الظلال الى الجانب الغربي فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك
الى الجانب الغربي وقعت الظلال في الجانب الشرقي والظلال في اول النهار تبتدئ من يمين
الفلك على الربع الغربي من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ من شمال
الفلك واقعة على الربع الشرقي من الارض فان قيل ما السبب في ذكر اليمين بلفظ الواحد
والشمائل بصيغة الجمع اجيب باشياء الاول انه وحّد اليمين والمراد الجمع ولكنه اختصر في اللفظ
على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر الثاني قال الفراء كأنه اذا وحّد ذهب الى واحد من ذوات
الظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله الى ما خلق الله من شيء لفظه واحد ومعناه الجمع على
ما مرّ فيحتمل كلا الامرين الثالث ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احدهما بلفظ الواحد كقوله
تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم + تنبيه + الهمزة للاستفهام
وهو استفهام انكار اى قد رأوا امثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال
قدرته وقهره فيخافوا منه وما موصولة مبهمة بمعنى الذي ومن شيء بيان لها فان قيل كيف بين
الموصول بالموصوف بشيء وهو مبهم بل ابهم مما قبله اجيب بان شيئا قد اتضح وظهر بوصفه بالجملة بعده
وهو يتفيؤا ظلاله وقيل الجملة بيان لما وقوله تعالى سُجَّدًا لِّلَّهِ حال من الظلال جمع ساجد
كشاهد وشهد وراكع وركع واختلفوا في المراد من السجود على قولين احدهما ان المراد منه

لكون الانثى ولداً كما علم مما مرّ قال ابن عادل قال المفسرون كانت المرأة اذا ادركها المخاض احتفرت
حفرة وجلست على شفيرها فان وضعت ذكرا اظهرته وظهر السرور على اهله وان وضعت انثى
استأذنت مستولدها فان شاء امسكها على هون وان شاء امرها بالقائها في الحفرة وردّت
التراب عليها وهي حية لتموت انتهى وعن قيس بن عاصم انه قال يا رسول الله اني واريت ثمان بنات
في الجاهلية فقال له صلى الله عليه وسلم اعتق عن كل واحدة منهن رقبة فقال يا نبي الله اني ذو ابل
قال اهد عن كل واحدة منهن هديا وروي ان رجلا قال يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما اجد
حلاوة الاسلام منذ اسلمت فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فامرت امرأتي ان تزينها فاخرجتها
فلما انتهيت الى واد فيه بئر بعيدة القعر القيتها فيها فقالت يا ابت قتلتني فكلما ذكرت قولها
لم ينفعني شيء فقال صلى الله عليه وسلم ما كان في الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما في الاسلام يهدمه
الاستغفار وكانوا في الجاهلية مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها الى ان تموت
ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة
والحمية خوفا من ان يطمع فيهن غير الاكفاء وتارة خوفا من الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة وكان الرجل
منهم يريد ان يحيي ابنته تركها حتى تكبر ثم يلبسها جبة من صوف او شعر ويتركها ترعى الابل والغنم في البادية
قال الله تعالى الا ساء اي بئس ما يحكمون حكمهم هذا وذلك لانهم بلغوا في الاستنكاف من البنت
الى اعظم الغايات فاولها انه يسود وجهه وثانيها انه يختفي من القوم من شدة نفرته عن البنت
وثالثها ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على
ان النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل ان يثبت ذلك
لله عالم مقدس عال عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى الكم الذكر وله الانثى تلك
اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة وهم الكفار مثل السوء اي الصفة السوء بمعنى
القبيحة وهي قتلهم البنات مع احتياجهم اليهن للنكاح ولله المثل الاعلى اي الصفة العليا وهي انه لا اله
الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء والسرمدية وغير ذلك من
الصفات التي وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة ان لا اله الا الله
فان قيل كيف جاء لله المثل الاعلى مع قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال اجيب بان المثل الذي يضربه
الله تعالى حق وصدق والذي يذكره غيره باطل وهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء فلا نظير له
الحكيم الذي لا يوقع شيئا الا في محله ولما حكى الله تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين انه ع
تعالى يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم بقوله تعالى ولو يؤاخذ
الله الناس بظلمهم اي بسبب كفرهم ومعاصيهم ما ترك عليها اي على الارض وانما اضمر
ذكرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها من دابة اي ان الله تعالى لو آخذ الناس
بظلمهم لاهلك جميع الدواب التي على وجه الارض فان قيل اسم الناس يشمل الكل

فقد دخل في ذلك الانبياء وفيه دلالة على عدم عصمتهم اجيب بان ذلك عام مخصوص بقوله
تعالى ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
بالخيرات باذن الله فالمذكور في هذه الآية اما كل الظلمة المستحقين العقاب او الذين تقدم ذكرهم
من المشركين وهم الذين اثبتوا لله البنات او جميع الكفار بدليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين
كفروا وقال قتادة قد فعل الله تعالى ذلك في زمن نوح عليه السلام فاهلك جميع الدواب التي على
وجه الارض الا من كانت في السفينة مع نوح عليه السلام وروي ان ابا هريرة رضي الله تعالى
عنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئسما قلت ان الحبارى تموت هزلا من ظلم
الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب في جحرها بذنب ابن آدم والجعل بضم الجيم وفتح العين
دويبة قاله الجوهري وقيل في معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع
النسل ولم توجد الابناء فلم يبق في الارض احد ولكن يؤخرهم اي يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه الى
اجل مسمى اي الى انتهاء آجالهم وانقضاء اعمارهم فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة عنه ولا
يستقدمون اي لا يتقدمون ساعة من الاجل الذي جعله الله تعالى لهم ولا ينقصون منه. تنبيه
هنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وابو عمرو باسقاط احدى الهمزتين مع
المد والقصر وورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين. النوع
الثالث من اقاويلهم الفاسدة التي كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله ويجعلون لله
ما يكرهون اي لانفسهم من البنات والاذى للاموال والشركاء في الرياسة ثم وصف الله تعالى جراءتهم
مع ذلك بقوله تعالى وتصف اي تقول ألسنتهم الكذب اي مع ذلك مع انه قول لا ينبغي لاحد ان يتخيله
فاقترافه ثم بينه بقوله تعالى ان لهم الحسنى اي عند الله اي الجنة كقوله تعالى ولئن رجعت الى ربي ان لي
عنده للحسنى فلا يكفيهم احتمال ولا احتمال سواء ان تقولهم بانهم تجعل له ما تكره ان يجعل لك
ما تحب فكانه قيل ما لهم عند الله فقيل لا جرم اي لا شك ولا بد ولا محالة في ان لهم النار اي هي جزاء الظالمين
وانهم مفرطون قرأ غير نافع بفتح الراء اي متروكون فيها او مقدمون اليها وقرأ نافع بكسر الراء اي
متجاوزون الحد في المعاصي قال الرازي فان قيل انهم لا يقولون بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى
عند الله اجيب بانهم قالوا ان كان محمد صادقا في البعث بعد الموت فان لنا الحسنى وقيل انه كان
في العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة ولذلك كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه
الى ان يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر مع مركوبه ثم بين تعالى ان مثل هذا الصنيع
الذي يصدر من مشركي قريش قد صدر من سائر الامم السابقين في حق الانبياء المتقدمين بقوله تعالى
تالله اي الملك الاعلى لقد ارسلنا اي بما لنا من العظمة رسلا من الماضين الى امم من قبلك كما
ارسلناك الى هؤلاء فزين لهم الشيطان اي المحترق بالغضب المطرود باللعنة اعمالهم الخبيثة
من الكفر والتكذيب كما زين لهؤلاء فضلوا كما ضلوا فاهلكناهم وهذا يجري مجرى التسلية

للنبي صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله الغم بسبب جهالات القوم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى
هذا مذهب اهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالالقاء للوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة
على ان يضل احدا او يهدي احدا وانما له الوسوسة فقط فمن اراد الله تعالى شقاوته سلطه الله عليه
حتى يقبل وسوسته فهو وليهم اليوم اي في الدنيا وانما عبر باليوم عن زمانها اي هو وليهم حين
كان يزين لهم او يوم القيامة على انه حكاية حال ماضية او آتية اي لا ولي لهم غيره وهو عاجز عن نصر نفسه
فكيف ينصرهم وقيل الضمير لقريش اي زين الشيطان للكفرة المتقدمين اعمالهم وهو ولي هؤلاء القوم
يغويهم ويغريهم وقيل يجوز ان يقدر مضاف اي فهو ولي امثالهم والولي القرين والناصر فيكون نفيا للناصر
لهم على ابلغ الوجوه ولهم عذاب اليم اي مؤلم في الآخرة ثم ذكر تعالى انه مع هذا الوعيد الشديد
قد اقام الحجة وازاح العلة بقوله تعالى وما انزلنا اي بما لنا من العظمة من جهة العلو عليك
يا اشرف المرسلين الكتاب اي القرآن الا لتبين لهم اي الناس الذي اختلفوا فيه من امر الدين
مثل التوحيد والشرك واثبات المعاد ونفيه فانه كان منهم من ينكر البعث ومنهم من يؤمن به ومثل
عبد المطلب ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة وتحليل اشياء محرمة كالميتة فان قيل
اللام في لتبين لهم تدل على ان افعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى كتاب انزلناه اليك
لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اجيب بانه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل
وجب صرفه الى التاويل وقوله تعالى وهدى ورحمة اي واكراما عجيبة معطوفان على محل لتبين الا انهما
انتصبا على انهما مفعول لهما لانهما فعلا الذي انزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل
المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل ولما كان ذلك ربما
يتخيلهم على ضدهم نفاه بقوله تعالى لقوم يؤمنون ونظيره قوله تعالى في اول البقرة هدى للمتقين
وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه وانتفعوا به كما في قوله تعالى انما انت منذر من يخشاها
لانه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط وهو النفعي الدليل على انه [illegible] ما يتعلق به
وختمه بما احيا به القلوب في الايمان والعلم بعد موتها بالظلم والجهل وذلك ان المقصود الاعظم من القرآن
تقرير اصول اربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر [illegible] وكان
اجل هذه المقاصد الالهيات شرع في ذكر الوحدانية [illegible] المستلزم للقدرة
على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم ان ادلة ذلك [illegible]
فعطف على قوله والله يعلم ما تسرون وما تعلنون قوله [illegible] العالم العلوي والعالم السفلي
والله اي الذي له الامر كله انزل من السماء [illegible] ماء بالمطر والثلج والبرد فاحيا به
اي بذلك الماء الارض بانواع النبات بعد موتها اي يبسها ان في ذلك [illegible] لآية
اي دلالة واضحة على كمال قدرته تعالى لقوم يسمعون اي سماع تدبر وانصاف [illegible]
سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها

انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكأنه اصم لم يسمع فلم ينتفع بالآيات ومن الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب احوال الحيوانات وهو قوله «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً» اي اعتبارا اذا تفكرتم فيها وعرفتم كمال قدرتنا وقوله تعالى «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ» استئناف لبيان العبرة وانما ذكر لفظ الضمير لانه لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع كالرهط والقوم ولا من اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها سورة النعم وانثه في سورة المؤمنين للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه في باب ما لا ينصرف في الاسماء المفردة الواردة على افعال كقولهم ثوب اكياش بياء تحتية وشين معجمة ضرب من الثياب يغزل مرتين ومن قال انه جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن لبعضها دون جميعها وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون تقول سقيته حتى روى قال تعالى «وسقاهم ربهم شرابا طهورا» والباقون بضمها من قولك اسقاه اذا جعل له شرابا كقوله تعالى «وأسقيناكم ماء فراتا» ولما كان في موضع العبرة تخليص اللبن من غيره قدم قوله تعالى «مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ» وهو الثفل الذي ينزل الى الكرش فاذا خرج منه لم يسم فرثا «وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا» اي صافيا خلقه الله وسطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي عليه احدهما بلون او رائحة او طعم روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اذا اكلت البهيمة العلف واستقر في كرشها طحنته فكان اسفله فرثا واوسطه لبنا واعلاه دما والكبد متسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث في الكرش فسبحان الله ما اعظم قدرته والطف حكمته لمن تفكر وتأمل وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم «سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» اي سهل المرور في الحلق وقيل لم يغص احد باللبن قط. تنبيه. قال اهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذي ياكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا آخر فقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فاحدث من ذلك اللبن السمن والجبن فهذا الاستقراء يدل على انه تعالى قادر على ان يقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع ايضا ان يكون قادرا على ان يقلب اجزاء ابدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على ان البعث والقيامة امر ممكن غير ممتنع وفي حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا للتغذية للطفل مشتملة على حكمة عجيبة يشهد صريح العقل بانها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه من وجوه الاول انه تعالى خلق في اسفل المعدة منفذا يخرج منه ثقل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء او شربا انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب الى ان يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفي منه الى الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح

الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد في زمانه اي اخضع له وقال الشاعر * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * اي متواضعة والثاني ان هذه الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجد بين اطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول اما ظلك فيسجد لربك واما انت فلا تسجد لربك بئسما صنعت وعن مجاهد ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي وقيل ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك الشيء ساجدا ام لا قال الرازي والاول اقرب الى الحقائق العقلية والثاني اقرب الى الشبهات الظاهرية وقوله تعالى وَهُمْ دَاخِرُونَ اي صاغرون حال ايضا من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل حال من الضمير المستتر في سجدا فهي حال متداخلة فان قيل الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون اجيب بانه تعالى لما وصفها بالطاعة والدخور اشبهت العقلاء او ان في جملة ذلك من يعقل فغلب * ولما حكم على الظلال بما يعم اصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان اشرف من الجماد دخل في الحكم اليه بخصوصه فقال وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وقوله تعالى مِنْ دَابَّةٍ يجوز ان يكون بيانا لما في السموات وما في الارض جميعا على ان في السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب الاناسي في الارض وان يكون بيانا لما في الارض وحده ويراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح وان يكون بيانا لما في الارض ويراد بما في السموات الملائكة وكرر ذكرهم بقوله تعالى وَالْمَلٰئِكَةُ خصوصا من بين الساجدين لانهم اطوع الخلق واعبدهم ويجوز ان يراد بما في السموات ملائكتهن وبقوله تعالى والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم فان قيل سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد اجيب بان المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقياده لارادة الله تعالى وانه غير ممتنع عليه وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز ان يعبر عنهما بلفظ واحد فان قيل هلا جئ بمن دون ما تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم اجيب بانه لو جئ بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة فجئ بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ارادة للعموم وَهُمْ اي الملائكة لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ عن عبادته ثم علل تخصيصهم بقوله تعالى دلالة على انهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء يَخَافُوْنَ رَبَّهُمْ اي الموجد لهم المدبر لامورهم المحسن اليهم خوفا مبتدأ مِنْ فَوْقِهِمْ اشارة الى علو الخوف عليهم وغلبته لهم او ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم او يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده وقوله تعالى وانا فوقهم قاهرون والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون او بيان له او تقرير لان من خاف الله لا يستكبر عن عبادته وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ اي من الطاعة والتدبير وفي ذلك دليل على ان الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهي والوعد والوعيد كسائر المكلفين وانهم بين الخوف والرجاء كما مرت الاشارة اليه وانهم معصومون من الذنوب لان قوله تعالى وهم لا يستكبرون يدل

على انهم منقادون لخالقهم وانهم ما خالفوا في امر من الامور كما قال تعالى لا يسبقونه بالقول وهم
بامره يعملون ولما بين تعالى ان كل ما سوى الله تعالى سواء كان من عالم الارواح ام من عالم
الاجساد فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه اتبعه بالنهي عن الشرك وبالامر بان
كل ما سواه فهو ملكه وانه غني عن الكل بقوله تعالى وقال الله مخبرا لاجل تعظيم المقام بالاسم
الاعظم الخاص لا تتخذوا اي لا تكلفوا انفسكم [illegible] الادلة السابقة المجبولة على معرفة ان الاله واحد ان
تاخذوا في اعتقادها الهين اثنين فان قيل انما جمع بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين
فقالوا عندي رجال ثلاثة وافراس اربعة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل
ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى ان يقال رجل واحد
ورجلان اثنان فما وجه قوله تعالى الهين اثنين اجيب [illegible] الاقرب عندي
ان الشيء اذا كان مستنكرا مستقبحا [illegible] بعبارات كثيرة ليصير
توالي تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح [illegible] مستقبح في العقول
فان احدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين [illegible] الكمال فالتعبير
من تكرار اثنين تاكيد التنفير عنه وتوقيف العقل على ما فيه من القبح [illegible] تعالى الهين لفظ
واحد يدل على امرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لا تتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان
النهي وقع عن اثبات الالهين او عن اثبات التعدد [illegible] فلما قال لا تتخذوا الهين اثنين
ظهر ان قوله لا تتخذوا نهي عن اثبات التعدد [illegible] الثالث في الاية تقديم وتاخير والتقدير
لا تتخذوا اثنين الهين الرابع ان الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية
والعدد المخصوص فاذا اريدت الدلالة على ان المعنى به منهما والذي يساق اليه الحديث
[illegible] شفع بما يؤكده [illegible] الا ترى انك لو قلت انما هو اله
ولم تؤكده بواحد [illegible] لا الوحدانية ثم قال تعالى ذلك الاسم بما اقتضاه
السياق من الوحدانية فقال [illegible] انما هو اي الاله المعبود [illegible] لفظ الهين الذي لا يستحق
ان يطلق عليه هذا الاسم [illegible] لانه لا يطلق اطلاقا حقيقيا الا على من وجوده من ذاته اله اي
مستحق في هذا الوصف على الدوام [illegible] لا يمكن ان يثنى بوجه ولا ان يجزأ بغاية ولا بغير غاية لغناه
المطلق عن كل شيء واحتياج كل شيء اليه [illegible] دلت الدلائل على انه لا بد للعالم من اله وثبت ان القول
بوجود الهين محال وثبت انه لا اله الا الواحد الفرد الصمد قال تعالى بعده فاياي فارهبون اي
خافون دون غيري والرهبة مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى خطاب الحضور
وهو من طريقة الالتفات لانه ابلغ في الترهيب من قوله فاياه فارهبوه ومن ان يجيء ما قبله على لفظ المتكلم
ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لا شريك له في الالهية وجب ان يكون جميع
الخلق عبيده وفي ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى وله اي الله وحده ما في [illegible]

تعالى الله الاسم الاعظم العلم الجامع لجميع الاسماء المفسر ﴿ما في السموات والارض﴾ اى ما تعبدون وقته
وغيره فكيف يتوجه ان يكون شئ من ذلك الها وهو ملكه مع كونه محتاجا الى الزمان والمكان
وغيرهما ﴿وله الدين﴾ اى الطاعة وقوله تعالى ﴿واصبا﴾ اى دائما حال من الدين والعامل فيه
ما في الظرف من معنى الفعل قال ابن قتيبة ليس من احد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك
بسبب في حال الحياة او بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فطاعته واجبة ابدا ولانه المنعم على
عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائما ابدا وقوله تعالى ﴿افغير الله﴾ اى الذى له العظمة
كلها ﴿تتقون﴾ استفهام انكار والمعنى انكم بعد ما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم ان كل ما سواه محتاج
اليه في وقت حدوثه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل ان يكون للانسان رغبة في غير الله
تعالى او رهبة من غير الله تعالى. ولما بين تعالى ان الواجب على العاقل ان لا يتقى غير الله بين انه
يجب عليه ان لا يشكر احدا الا الله تعالى بقوله تعالى ﴿وما بكم من نعمة﴾ اى من نعمة الاسلام وصحة
الابدان وسعة في الارزاق وكل ما اعطاكم من مال او ولد او جاه ﴿فمن الله﴾ هو المتفضل على عباده
فيجب عليكم شكره على جميع انعامه لان الشكر انما يجب على النعمة فثبت بهذا ان العاقل يجب عليه
ان لا يخاف وان لا يشكر الا الله تعالى. تنبيه. احتج اصحابنا بهذه الآية على ان الايمان حصل بخلق
الله تعالى [illegible] من الله وايضا النعمة عبارة عن كل
ما يكون منتفعا به [illegible] مطبقون
[illegible] اما معرفة
الحق لذاته [illegible] واما خارجية
وكل واحد من [illegible] تعالى [illegible] وانه
الله لا شريك [illegible] له مواد [illegible]
غيره ام [illegible] ﴿ثم اذا مسكم﴾ اى اصابكم ﴿الضر﴾ والنقمة
مما انعم به عليكم وقال ابن عباس [illegible] ﴿فاليه﴾ اى لا الى غيره ﴿تجأرون﴾ اى ترفعون
اصواتكم بالاستغاثة [illegible] الا اليه ﴿ثم اذا كشف﴾
سبحانه وتعالى ﴿الضر﴾ اى الذى مسكم ﴿عنكم﴾ ونبه على مسارعة الانسان في الكفران فقال ﴿اذا فريق﴾ اى طائفة
هم اهل فرقة وضلال ﴿منكم﴾ اى ايها العباد ﴿بربهم﴾ الذى تفرد بالانعام عليهم ﴿يشركون﴾ اى يوقعون الاشراك
بعبادة غيره ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ اى من النعم. تنبيه. في هذه اللام وجهان الاول انها لام كي فيكون
المعنى على هذا انهم انما اشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر الثاني انها لام العاقبة
كما في قوله تعالى ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾ والمعنى عاقبة امرهم هو كفرهم
بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء. ثم انه تعالى توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى
﴿فتمتعوا﴾ اى بما انتم فيه من عبادة الاصنام وهذا اللفظ امر والمراد منه التهديد كقوله تعالى

قل آمنوا به أو لا تؤمنوا وقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فسوف تعلمون عاقبة أمركم
وما ينزل بكم من العذاب + ولما بين تعالى بالدلائل القاهرة فساد قول أهل الشرك والتشبيه
شرح تفاصيل أقوالهم وبين فسادها بأنواع الأول قوله تعالى ويجعلون أي المشركون لما لا يعلمون
نصيباً مما رزقناهم من الحرث والأنعام بقولهم هذا لله وهذا لشركائنا + تنبيه + الضمير في قوله تعالى
لما لا يعلمون عائد على الأصنام أي أن الأصنام لا تعلم شيئاً البتة لأنها جماد والجماد لا علم له وقيل عائد
إلى المشركين ومعنى لا يعلمونها أنهم يسمونها آلهة فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم وتشفع
لهم وليس الأمر كذلك + ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة بقوله
تعالى تالله لتسئلن سؤال توبيخ وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه
عما كنتم تفترون على الله من أنه أمركم بذلك + تنبيه + في وقت السؤال احتمالان الأول أنه يقع
عند القرب من الموت الثاني أنه يقع في الآخرة قال الرازي وهذا أولى النوع الثاني قوله تعالى ويجعلون
لله البنات ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً كانت خزاعة
وكنانة يقولون الملائكة بنات الله قال الرازي أظن أن العرب إنما أطلقوا لفظ البنات
على الملائكة لاستتارهم عن العيون فأشبهوا النساء في الاستتار فأطلقوا عليهم البنات
قال ابن عادل وهذا الذي ظنه ليس بشيء فإن الجن أيضاً مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم
لفظ البنات + ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال تعالى سبحانه وفيه وجهان الأول أن يكون المراد
تنزيه ذاته عن نسبة الولد إليه الثاني تعجيب الخلق من هذا الأمر والجهل الصريح وهو وصف الملائكة
بالأنوثة ثم نسبتها بالولدية إلى الله تعالى قيل في التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الأول ولما
ذكر الله تعالى ما جعلوه مع الغني المطلق بين ما نسبوا لأنفسهم مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى
ولهم ما يشتهون من البنين وقد يكونون أعدى أعدائهم + ثم إنه تعالى ذكر أن الواحد من هؤلاء المشركين
لا يرضى بالولد البنت لنفسه فكيف يثبته لله تعالى بقوله تعالى وإذا بشر أحدهم بالأنثى أي أخبر بولادتها
ظل وجهه أي صار أو دام النهار كله مسوداً من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن
الاغتمام والتخجيل كما أن بياض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح والسرور وهو كظيم أي مملوء غيظاً على
المرأة ولا ذنب لها بوجه والبشارة في أصل اللغة الخبر الذي يغير البشرة من حزن أو سرور ثم خص في
عرف اللغة بالسرور ولا يكون إلا بالخبر الأول فالمراد بالبشارة هنا الإخبار كما مر وقول الرازي إن إطلاقه
على الخير والشر داخل في التحقيق خلاف المشهور يتوارى أي يستخفي من القوم أي من الرجال الذين
هو فيهم من سوء ما بشر به خوفاً من التعيير وذلك أن العرب كانوا في الجاهلية إذا قرب ولادة زوجة
أحدهم توارى عن القوم إلى أن يعلم ما ولد له فإن ولد له ذكر ابتهج وسر بذلك وظهر
وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أياماً متردداً ماذا يفعل بذلك الولد أيمسكه أي يتركه بغير
قتل على هون هوان وذل أم يدسه في التراب وذكر الضمير في يمسكه ويدسه نظراً للفظ الولد و

الانطباق تارة والانفتاح تارة اخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتاتى الا بتقدير الفاعل الحكيم الثانى عند تولد اللبن فى الضرع يحدث الله تعالى حلمة الثدى ثقبا صغيرة ومسام ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا ما كان فى غاية الصفاء واللطافة واما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل فالحكمة فى احداث تلك الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة فى راس حلمة الثدى انها تكون كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس فى الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لبدن الطفل سائغا للشاربين الثالث انه تعالى الهم ذلك الطفل الى المص فان الام كلما القت حلمة الثدى فى فم الطفل فذلك الطفل فى الحال ياخذ فى المص ولولا ان الفاعل المختار الرحيم الهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن فى الثدى وقوله تعالى ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب اى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم عليه وقوله تعالى ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ بيان وكشف عن كنه الاسقاء قال الواحدى الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليس له ثمرة اخرى ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل. تنبيه. فى تفسير السكر وجوه الاول هو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالى فى معرض الانعام اجيب عن ذلك بوجهين احدهما ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة فكان نزول هذه الاية كان فى الوقت الذى كانت الخمرة فيه غير محرمة وممن قال بنسخها النخعى والشعبى الثانى ان الاية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الى السكر والمنة بالنسبة الى رزقا حسنا الوجه الثانى ان السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر فاذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد فهو حلال عند ابى حنيفة رحمه الله تعالى الى حد السكر ويحتج بهذه الاية وبقوله صلى الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها وهذا يقتضى ان يكون السكر شيئا غير الخمر وكل من اثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ الوجه الثالث ان السكر هو الطعام قاله ابو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر. جعلت اعراض الكرام سكرا. اى تنقلت باعراضهم بان جعلتها نقلا وتناولتها والنقل ما يتنقل به على الشراب قال البغوى والاولى الاقاويل ان قوله تعالى تتخذون منه سكرا منسوخ انتهى ويدل له قول الحسن ذكر الله نعمته عليهم فى الخمر قبل ان يحرمها عليهم وروى عن ابن عباس قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما احل من ثمرها وروى عنه ايضا السكر الحرام منه والرزق زبيبه وعنبه ومنافعه. ثم قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَةً﴾ اى دلالة على قدرته تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ اى يستعملون عقولهم بالنظر والتامل فى الايات فيعلمون ان هذه الاحوال لا يقدر عليها الا الله تعالى فيحتج بحصولها على وجود الاله القادر

الحكيم، ولما بين تعالى ان اخراج الالبان واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب
دليل قاطع وبرهان ساطع على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما ذكر ان اخراج العسل الذي جعله
الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهي النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود
بقوله تعالى وَاَوْحٰى رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ وحي الهام قال الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد من الالهام
انه تعالى قدر في انفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه
الاول ما ذكره الله بقوله تعالى اَنِ اتَّخِذِيْ اي بان اتخذي ويجوز ان تكون مفسرة لان في الايحاء معنى القول
مِنَ الْجِبَالِ بُيُوْتًا تاوين اليها وانما سمي ما تبنيه لتتعسل فيه بيتا تشبيها ببيت الانسان
تبني البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طبعها والعقلاء
من البشر لا يمكنهم مثل تلك البيوت الا بالات وانظار دقيقة الثاني انه ثبت في الهندسة
ان تلك البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوى المسدسات كان كانت مدورة او مثلثة
او مربعة او غير ذلك من الاشكال فانه تبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة
فاهتداء هذا الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب الثالث
ان النحل يحصل بينها واحد كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون اعظم جثة من الباقي ويكون
نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه وذلك ايضا من الاعاجيب الرابع
انها اذا انفردت عن وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع اخر فاذا ارادوا عودها الى وكرها ضربوا الطبول
والات الموسيقى فبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى اوكارها وهذه ايضا حالة عجيبة
فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة كان ليس الا على سبيل
الالهام وهو حالة شبيهة بالوحي والوحي قد ورد في حق الانبياء كقوله تعالى وما كان لبشر ان يكلمه
الله الا وحيا او من وراء حجاب وفي حق الاولياء قال تعالى واذ اوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام
في حق البشر قال تعالى واوحينا الى ام موسى وفي حق سائر الحيوانات خاص قال الزجاج يجوز ان يقال
سمي هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها وقال غيره النحل
يذكر ويؤنث وهي مؤنثة في لغة الحجاز ولذلك انثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده
الا الهاء وَمِنَ الشَّجَرِ اي الصالحة بيوتا وَمِمَّا يَعْرِشُوْنَ اي الناس فيبنون تلك
الاماكن وذلك ان النحل منه وحشي وهو الذي يسكن الجبال والشجر والكهوف ومنه اهلي وهو
الذي ياوي الى البيوت وتربية الناس عندهم وقد جرت العادة ان الناس يبنون للنحل الاماكن
حتى ياوي اليها وذكر ذلك بحرف التبعيض لانها لا تبنى في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكرم
او سقف ولا في كل مكان منها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بكسرها. تنبيه: ظاهر
قوله تعالى اتخذي امر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لا يبعد ان يكون لهذه الحيوانات عقول
ولا يبعد ان يتوجه عليها من الله امر ونهي وقال اخرون بل المراد منه انه تعالى خلق فيها

عرائز وطبائع توجب هذه الاحوال وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله فى سورة النمل عند
قوله تعالى يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم ، ولما كان اهم شئ للحيوانات بعد الراحة من هم المفصل
اكل شئ ثنى به فقال ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ اى من كل ثمرة يشتهيها مرها وحلوها وذكرلك بحرف
التراخى اشارة الى عجيب الصنع فى ذلك وتيسيره لها ، تنبيه ، لفظ من هذا للتبعيض ولابتداء
الغاية ولما اذن لها فى ذلك كله وكان من المعلوم عادة ان تعاطيه لا يكون الا بمشقة عظيمة
فى معاناة السير اليه نبه على خرقه العادة فى تيسيره لها بقوله تعالى فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ اى الطرق
التى الهمك الله تعالى ان تسلكيها وتدخلى فيها لاجل طلب الثمار وقوله تعالى ذُلُلًا جمع ذلول
حال من السبل اى مسخرة لك فلا تعسر عليك وان توعرت ولا تضلى عن العود فيها وان بعدت
وقيل من الضمير فى اسلكى اى منقادة لاربابها حتى انهم ينقلونها من مكان الى مكان آخر حيث
شاؤا وارادوا ولا تستعصى عليهم وقوله تعالى يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا فيه عدول عن خطاب النحل الى
خطاب الناس لانه محل الانعام عليهم والمقصود من خلق النحل والهامه لاجلهم شَرَابٌ اى عسل
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ما بين ابيض واحمر واصفر وغير ذلك من الوان العسل وذلك على قدر ما تاكل من
الثمار والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من افواهها يسيل كاللعاب
وقال الرازى انه راى فى بعض كتب الطب ان العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على
الازهار واوراق الشجر فيجمعه النحل فتاكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لانفسها لتتغذى به
فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول اقرب الى
العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وايضا انا نشاهد ان النحل يتغذى بالعسل
واجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها شراب ان كل تجويف داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج
من بطونها اى من افواهها انتهى والاول كما قال ابن الخازن وغيره اظهر لانا نشاهد ان العسل
يوجد فيه طعم تلك الازهار التى ياكلها النحل وكذا توجد لذتها وريحها وطعمها فيه ايضا ويعضد هذا
قول بعض ازواج النبى صلى الله عليه وسلم له اكلت مغافير قال لا قالت ما هذه الريح التى اجد منك
قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط والعرفط شجر الطلح له صمغ يقال له
المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط اكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة
فثبت بهذا انه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم ما ياكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من انه
طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وقوله كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا خلاف الظاهر
لان لفظ البطن اذا اطلق لم يرد به الا العضو المعروف بطن الانسان وغيره فِيهِ اى الشراب الذى يخرج
من بطون النحل شِفَاءٌ لِلنَّاسِ من الاوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود اما لبعضها كما دل عليه تنكير
شفاء واما لكلها بضميمته الى غيره اذ قل معجون من المعاجين لم يذكر الاطباء فيه العسل
او يدونه بنيته وبهذا سقط ما قيل انه يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب

المحرورين ويعطش قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وفي
رواية عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع ان ابن عمر ما كانت به قرحة ولا شيء الا لطخ
الموضع بالعسل ويقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وعن أبي سعيد الخدري
رضي الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي يشتكي بطنه فقال صلى الله عليه وسلم
اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب
بطن أخيك فسقاه فشفاه الله فبرأ فكأنما نشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب
بطن أخيك يحتمل انه صلى الله عليه وسلم علم بنور الوحي الالهي ان العسل الذي امره بشربه سيظهر نفعه
بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال قال صدق الله يعني فيما وعده من ان فيه شفاء للناس
وكذب بطن أخيك يعني باستعجالكم للشفاء في أول مرة وقال مجاهد الضمير في فيه شفاء للناس
راجع للقرآن لان فيه شفاء من امراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس
وعلى هذا تمت قصة تولد العسل من النحل عند قوله تعالى يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه
ثم ابتدأ وقال فيه شفاء للناس أي في هذا القرآن قال الرازي وهذا قول ضعيف ويدل عليه وجهان
الاول ان الضمير في قوله تعالى فيه شفاء للناس يجب عوده الى الاقرب المذكورات وما ذاك الا قوله
تعالى شراب مختلف ألوانه واما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع انه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب
والثاني حديث أبي سعيد الخدري المتقدم ثم انه تعالى ختم الآية بقوله تعالى إِنَّ فِي ذَلِكَ أي المذكور
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أي في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة واللطائف الخفية مثل بناء
البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا وقد
كثر في هذه السورة اضافة الآيات الى المخاطبين تارة بالافراد وتارة بالجمع ونوعها تارة بالعقل
وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها ثم انه تعالى ايقظهم من رقدتهم ونبههم على عظيم غفلتهم
نبى ببعض ما في انفسهم من الادلة على ذلك فقال وَاللَّهُ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما خَلَقَكُمْ
أي أوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيئا ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ أي عند انقضاء آجالكم على اختلاف
الانسان فلا يقدر الصغير ان يؤخر ولا الكبير على ان يتقدم فمنكم من يموت على حال قوته وَمِنْكُمْ
مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أي أخسه من الهرم والخرف قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب
سن الطفولية والنمو وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب
وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين سنة الى اربعين سنة وهو غاية
القوة وكمال العقل والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع
فيها الانسان في النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من
الستين الى آخر العمر خمسة وستون سنة يتبين النقص ويكون الهرم والخرف قال علي بن ابي طالب رضي الله
تعالى عنه ارذل العمر خمسة وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة وعن انس رضي الله

تعالى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى اعوذ بك من العجز والهرم والبخل
واعوذ بك من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفى رواية عنه كان يقول اللهم انى اعوذ بك
من البخل والكسل وارذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا
اى ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية فى نقصان القوة والعقل وسوء الفهم + تنبيه + هل
ذلك عام فى المسلم والكافر او مختص بالكافر فيه قولان احدهما انه عام والقول الثانى انه مختص
اذ المسلم لا يزداد بطول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يقال فى حقه انه رد الى ارذل العمر قال
الرازى والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصالحات
فبين ان الذين امنوا وعملوا الصالحات ما ردوا الى اسفل السافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن
لم يصر الى هذه الحالة وقال فى قوله تعالى الا الذين امنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن
وقال ابن عباس قوله ثم رددناه اسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال الا الذين
امنوا وعملوا الصالحات وهذا يؤيد ما مر إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بمقادير اعمارهم قَدِيرٌ يميت الشاب ع
النشيط ويبقى الهرم الفانى وفى ذلك تنبيه على ان تفاوت اجال الناس ليس الا بتقدير قادر حكيم
ركب ابنيتهم وعدل امزجتهم على قدر معلوم ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون
لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ + ولما ذكر تعالى المفاوتة فى الاعمار المنادية بابطال الطبائع الموجبة
للمسابقة الى الاعتبار لاولى الابصار للخوف كل لحظة من مصيبة الموت اتبعها بالمفاوتة
فى الارزاق فقال وَاللَّهُ اى الذى له الامر كله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ ايها الناس عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ
فمنكم غنى ومنكم فقير ومنكم مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل الضعيف
العاجز الجاهل اغنى من القوى المحتال العالم فنرى اكيس الناس واكثرهم عقلا يفنى عمره
فى طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ونرى اجلف الخلق واقلهم عقلا وفهما تفتح له ابواب
الدنيا فكل شئ خطر بباله اودار فى خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب فى ذلك هو جهل
الانسان وعقله لوجب ان يكون الاعقل افضل فى هذه الاحوال فلما راينا ان الاعقل اقل نصيبا
وان الاجهل الاخس اوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى اهم يقسمون
رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوة الدنيا فاتقوا الله واجملوا فى طلب الرزق واقبلوا
فى جمع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار وانشد سفيان بن عيينة يقول شعر كم من قوى قوى
فى تقلبه + مهذب الراى عنه الرزق منحرف + ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط + كانه
من خليج البحر يغترف + وحكى ان سليمان المهلبى ارسل الى الخليل بن احمد بمائة الف درهم
فردها الخليل وكتب اليه هذه الابيات شعر ابلغ سليمان انى عنه فى سعة + وفى غنى
غير انى لست ذا مال + شحا بنفسى انى لا ارى احدا + يموت جوعا ولا يبقى على حال + فالرزق عن
قدر لا العجز ينقصه + ولا يزيدك فيه حول محتال + والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه + ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

وقال الشافعي رحمه الله تعالى شعر ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
* تنبيه * هذا التفاوت ليس مختصا بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح
والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له قال الرازي
وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك في بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت
الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما احضرت الاطعمة
الشهية والفواكه الكثيرة العطرة عنده وما كان يمكنه ان يتناول شيئا منها وكان من الفقراء من
هو صحيح المزاج وقوي البنية كامل القوة وما كان يجد مل بطنه طعاما فذلك الملك وان كان
يفضل هذا الفقير في المال الا ان هذا الفقير كان يفضل ذلك الملك في الصحة والقوة وهذا باب
واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسال الله تعالى ان يغنينا من فضله وان يرضينا بما
قسم لنا انه كريم جواد * ثم ضرب الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى فَمَا الَّذِينَ
فُضِّلُوا اي في الرزق وهم الموالي بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ اي بجاعلي ما رزقناهم
من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم فَهُمْ اي المماليك والموالي فِيهِ سَوَاءٌ اي شركاء
يقول الله تعالى هم لا يرضون ان يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء فكيف يجعلون
بعض عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني وقيل معنى الآية ان الموالي والمماليك الله رزقهم
جميعا فهم في رزقه سواء فلا يحسبن الموالي يردون ارزاقهم على مماليكهم من عند انفسهم
بل ذلك رزق الله اجراه على ايدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله
تعالى لجميع خلقه وان الموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء وان المالك لا يرزق المملوك
وانما ذلك رزق اجريته اليهم على ايديهم فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى * ولما قرر
سبحانه وتعالى هذه الدلائل وبينها واظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما
منه على الخلق فعند هذا قال أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ في تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات
يَجْحَدُونَ اي يكفرون وفي ذلك انكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره وجعلوا
له شركاء يضيفون اليهم بعض ما انعم به عليهم فيسوون بينهم وبينه في ذلك وقرأ شعبة
بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم انه تعالى ذكر نوعا آخر من احوال الناس ليستدل
به على وجود الاله المختار الحكيم وتنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى
وَاللَّهُ اي الذي له تمام القدرة وكمال العلم جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا اي من جنسكم لتستأنسوا
بها ولتكون اولادكم مثلكم فخلق حواء من ضلع آدم وسائر الناس من نطف الرجال
والنساء فهو خطاب عام فتخصيصه بآدم وحواء فقط خلاف الدليل والمعنى انه تعالى
خلق النساء لتتزوج بهن الذكور ومعنى من انفسكم كقوله تعالى فاقتلوا انفسكم فسلموا على
انفسكم اي بعضكم بعضا ونظيره قوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا وَجَعَلَ

لكم من ازواجكم بنين وحفدة والحفدة جمع حافد وهو المسرع بالخدمة المسارع الى الطاعة
ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد اى نسرع الى طاعتك هذا اصله فى اللغة واختلف فيه
اقوال المفسرين فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة اختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود
انهم اصهاره فهو بمعنى الاول وعلى هذا يكون معنى الآية وجعل لكم من ازواجكم بنين وبنات
تزوجونهن فيحصل لكم بسببهن الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم
الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من اعانك فهو حفيدك وقال عطاء هم ولد الرجل
الذين يعينونه ويخدمونه وقال الكلبى ومقاتل البنون هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين
يعينون الرجل الذين ليسوا منه اى اولاد المرأة من الزوج الاول قال الرازى والاولى
دخول الكل فيه لان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك قال الزمخشرى ويجوز ان
يراد بالحفدة البنون انفسهم كانه قيل جعل لكم منهن اولادا هم بنون وهم حافدون اى جامعون
بين الامرين انتهى ومع هذا فالمشهور ان الحافد ولد الولد من الذكور والاناث + فائدة +
قال الاطباء واهل الطبيعة المنى اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى
الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة واذا انصب من الخصية اليسرى ثم
انصب الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد انثى تاما فى الانوثة واذا انصب الى الخصية اليمنى
وانصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان ذكرا فى طبيعة الاناث واذا انصب الى الخصية
اليسرى ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد انثى فى طبيعة الذكور
وحاصل كلامهم ان الذكور الغالب عليهم الحرارة واليبوسة والغالب على الاناث البرودة والرطوبة
وهذه العلة ضعيفة فان فى النساء من مزاجها فى غاية السخونة وفى الرجال من مزاجه فى غاية
البرودة فخالق الذكر والانثى هو الاله القادر الحكيم ولما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمناكح
وما فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال وَرَزَقَكُمْ
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة او كانت من الحيوان والمراد
بالطيب المستلذ او الحلال ومن فى من الطيبات للتبعيض لان كل الطيبات فى الجنة وما طيبات
الدنيا الا انموذج منها واختلف فى تفسير قوله تعالى أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ فقال ابن عباس يعنى بالاصنام
وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ
يَكْفُرُونَ اى بان يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركون اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما سول لهم
الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما احل لهم من هذه الطيبات فحرموها
فائدة + رسمت نعمت هنا بالتاء ووقف عليها ابن كثير وابو عمرو والكسائى بالهاء والباقون
بالتاء والكسائى يقرأ بالامالة + ولما شرح الله تعالى الدلائل على صحة التوحيد واتبعها بذكر اقسام النعم
العظيمة اتبعها بالرد على عبدة الاصنام فقال وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ اى غيره مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا

اى تاركين عبادة من بيده جميع الارزاق وهو ذو العلو المطلق الذى رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى مِنَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اما الرزق الذى ياتى من جانب السماء فالمطر واما الذى من جانب الارض فالنبات والثمار التى تخرج منها وقوله تعالى شَيْئًا فيه ثلاثة اوجه احدها انه منصوب على المصدر اى لا يملك لهم ملكا اى شيأ من الملك والثانى انه بدل من رزقا اى لا يملك لهم شيأ قال ابن عادل وهذا غير مفيد اذ من المعلوم ان الرزق شئ من الاشياء ويؤيد ذلك ان البدل لا ياتى الا لاحد معنيين البيان او التاكيد وهذا ليس فيه بيان لانه اعم ولا تاكيد والثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف فى ذلك ولما كان من لا يملك شيأ قد يكون موصوفا باستطاعة ان يتملك بطريق من الطرق نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى وَلَا يَسْتَطِيْعُوْنَ اى وليس لهم نوع استطاعة اصلا فان قيل انه تعالى قال ويعبدون من دون الله ما لا يملك فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهى لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال ولا يستطيعون وهو مختص بمن يعقل اجيب بانه عبر عنها ثانيا اعتبارا باعتقادهم انها الهة وفى تفسير قوله تعالى فَلَا تَضْرِبُوْا لِلّٰهِ الْاَمْثَالَ وجهان الاول قال اكثر المفسرين لا تشبهوا الله بخلقه فانه واحد لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز الثانى ان عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم اجل واعظم من ان يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب او نعبد هؤلاء الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم كما ان اصاغر الناس يخدمون اكابر حضرة الملك واولئك الاكابر كانوا يخدمون الملك فكذا ههنا اِنَّ اللّٰهَ اى الذى له الامر كله ولا امر لغيره يَعْلَمُ اى خطأ ما انتم عليه من ضرب الامثال له وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ذلك وقيل معناه وانتم لا تعلمون ما عليكم من العقاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام ولو علمتموه لتركتم عبادتها ولما ختم تعالى ابطال مذهب عبدة الاصنام بسبب العلم الذى هو مناط السداد عنهم اكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى ضَرَبَ اللّٰهُ اى الذى له كمال العلم وتمام القدرة مَثَلًا بالاحرار والعبيد ثم ابدل من مثلا عَبْدًا وقيده بقوله تعالى مَمْلُوْكًا ليخرج الحر لان العبد يطلق على الحر بالنسبة الى الله تعالى وقيده بقوله تعالى لَا يَقْدِرُ عَلٰى شَيْءٍ ليخرج المكاتب ومن فيه شائبة حرية وهذا مثل شركائهم ثم عطف على عبدا قوله وَمَنْ اى وحرا فهى نكرة موصوفة ليطابق عبدا رَزَقْنٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا اى واسعا طيبا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ دائما وهو معنى قوله تعالى سِرًّا وَّجَهْرًا اى يتصرف فيه كيف يشاء وهذا مثل الاله ولله المثل الاعلى ثم بكتهم انكارا عليهم بقوله تعالى هَلْ يَسْتَوٗنَ اى هذان الفريقان الممثل بهما لان المراد الجنس فاذا كان لا يسوغ فى عقل ان يسوى بين مخلوقين احدهما حر مقتدر والآخر مملوك عاجز فكيف يسوى بين حجر من صوان او غيره وبين الله تعالى الذى له القدرة التامة على كل شئ وقيل ذلك تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق

تنبيه: جواب هل يستوون لا يستوون وقوله تعالى الحمد لله قال ابن عباس الحمد لله على
ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد وقيل المعنى ان كل الحمد لله وليس شيء من الحمد للأصنام لأنه
لا نعمة لها على أحد لأنها جماد وما جزاء أي انما الحمد لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لأنه تعالى
أهل المحامد والثناء الحسن فكأنهم قالوا الحق نعلم ذلك فقيل بل أكثرهم أي الكفار لا يعلمون لأنهم
يعبدون غيره ومن نفى عنه أصل العلم الذي هو أعلى صفات الكمال كان في عداد الأنعام فهم لذلك
يشركون به ما ذكر ويضربون له الأمثال الباطلة ويضيفون نعمه إلى غيره ثم إنه تعالى ضرب لعبدة
الأوثان مثلا آخر بقوله تعالى وضرب الله مثلا ثم أبدل منه رجلين ثم استأنف
البيان لما أجمل فقال أحدهما أبكم وهو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس
أبكم وروى ثعلب عن ابن الأعرابي الأبكم الذي لا يسمع ولا يبصر ووصف الله تعالى هذا الرجل بصفة
ثانية بقوله تعالى لا يقدر على شيء لأنه لا يفهم ولا يفهم وفي ذلك إشارة إلى العجز التام والنقصان
الكامل ثم وصفه الله تعالى بصفة ثالثة بقوله تعالى وهو أي ذلك الأبكم العاجز كلّ على مولاه
أي ثقيل على من ولي أمره ويعوله قال أهل المعاني أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدّة
يقال كلّ السكين إذا غلظت شفرته فلم تقطع وكلّ اللسان إذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكلّ
فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه ثم وصفه تعالى بصفة رابعة بقوله أينما يوجهه
أي يرسله ويصرفه ذلك المولى لا يأت بخير لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم قيل هذا مثل شركائهم
الذين هم عيال ووبال على عبدتهم ونحوهم الله تعالى بقوله هل يستوي هو أي هذا الموصوف بهذه
الصفات الأربع ومن أي ورجل آخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن قوي خير مبارك ميمون
يأمر أي ورجل آخر يأمر بما له من العلم والقدرة بالعدل أي يبذل النصيحة لغيره وهو في نفسه ظاهرا
وباطنا على صراط أي طريق واضح مستقيم أي عامل فيه بما يأمر به قيل هذا مثال المعبود بالحق
الذي يكفي عابديه جميع المؤن وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته وقيل المراد من هذا الأبكم عبد
لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان ذلك العبد يكره الإسلام وما كان فيه خير ومولاه
وهو عثمان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم وقيل المراد كل عبد موصوف بهذه
الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول كما قال الرازي أولى من الأول
لأن وصفه تعالى إياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات
المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وأيضا المقصود تشبيه
صورة بصورة في أمر من الأمور وذلك التشبيه لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى
وأما القول الثاني فضعيف أيضا لأن المقصود إبانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة
وذلك غير مختص بشخص معين بل إذا حصل التفاوت في الصفات المذكورة فإنه يحصل المقصود
ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى ولله أي لا لغيره غيب السموات

وَالْأَرْضِ وهو ما غاب فيهما عن العباد بان لم يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس وقيل الغيب
هنا هو قيام الساعة فان علمه غائب عن اهل السموات والارض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال قدرته
بقوله تعالى وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ وهو الوقت الذي يكون فيه البعث إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ اي الا كرجع الطرف من اعلى
الحدقة الى اسفلها والمعنى وما امر قيام الساعة في السرعة والسهولة الا كطرف العين والمراد منه
تقديم كمال القدرة ومعنى قوله تعالى أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف
من اعلى الحدقة الى اسفلها ولا شك ان الحدقة مؤلفة من اجزاء فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة
تلك الاجزاء التي منها تألف الحدقة ولا شك ان تلك الاجزاء كثيرة والزمان الذي يحصل
فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة والله تعالى قادر على اقامة القيامة في آن واحد من تلك
الآنات فلذلك قال او هو اقرب الا انه لما كان اسرع الاحوال والحوادث في عقولنا وافكارنا هو
لمح البصر لاجرم ذكره ثم قال او هو اقرب تنبيها على ما مر ولا شبهة في انه ليس المراد طريقة
الشك فالمراد اذا بل هو اقرب وقال الزجاج المراد به الابهام على المخاطبين لا انه تعالى يأتي بالساعة
اما بقدر لمح البصر او بما هو اسرع وقيل معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند الله كالشيء
الذي تقولون فيه هو كلمح البصر او هو اقرب مبالغة كقوله تعالى وان يوما عند ربك كالف سنة
مما تعدون إِنَّ اللَّهَ اي الملك الاعظم عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على ان يحيي الخلائق دفعة
واحدة كما قدر على احيائهم فانه تعالى مهما اراده كان في اسرع ما يكون ثم انه تعالى عاد
الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا
قوله عز وجل وَاللَّهُ اي الذي له العظمة كلها أَخْرَجَكُمْ بقدرته وعلمه مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ حال
كونكم عند الاخراج لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا من الاشياء قل او جل فالذي اخرجكم منها قادر على اخراجكم
من بطون الارض بلا فرق بل بطريق الاولى وقرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة والباقون بضمها
وقرأ حمزة بكسر الميم والباقون بفتحها ثم عطف على اخرجكم قوله تعالى وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ آلات لازالة الجهل الذي وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها وسواها وعدلها وانتم
في البطون حيث لا تصل اليه يد ولا يتمكن من شق شيء منه بآلة فالذي قدر على ذلك في البطن
ابتداء قادر على اعادته في بطن الارض بل بطريق الاولى قال البقاعي ولعله تعالى جمعهما اي الابصار
والافئدة دون السمع لان التفاوت فيهما اكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه الا الله والافئدة هي القلوب
التي هيأها الله تعالى للفهم واصلاح البدن بما اودعها من الحرارة اللطيفة للمعاني الدقيقة
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لتصيروا بمعارف القلوب التي وهبكموها اذا سمعتم المواعظ وابصرتم الآيات في حال
يرجى فيها شكركم لما افاض عليكم من لطائف صنعه بان تعرفوا ما له من العلم والقدرة فانه انما انعم عليكم
بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من انعم بها عليكم فان قيل عطف وجعل لكم السمع على
اخرجكم يقتضي ان يكون جعل السمع والبصر متاخرين عن الاخراج من البطون مع ان

الامر ليس كذلك اجيب بان حرف الواو لا يوجب الترتيب وايضا اذا حملنا السمع على الاستماع
والابصار على الرؤية زال السؤال ثم انه تعالى ذكر دليلا آخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى
ألم يروا الى الطير مسخرات اى مذللات للطيران في جو السماء اى في الهواء بين السماء والارض مما
لا يقدر دون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتكم لها في السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول
فعلم قطعا انه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران فيها والا لما امكن ذلك لانه تعالى
اعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة اخرى مثل ما يعمل السابح في الماء وخلق الجو خلقة
لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك ما كان الطيران ممكنا ومع ذلك ما يمسكهن
في الجو عن الوقوع الا الله اى الملك الاعظم فان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه
في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب ان يكون الممسك له في ذلك
الجو هو الله تعالى وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على انه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة
ان في ذلك المذكور لآيات اى دلالات لقوم يؤمنون وخصهم بذلك لانهم هم المنتفعون
بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء ثم ذكر تعالى نوعا آخر من دلائل التوحيد بقوله
تعالى والله اى الذي له الحكمة البالغة جعل لكم من بيوتكم واصل البيت المأوى ليلا ثم
اتسع فيه سكنا اى موضعا لتسكنوا فيه + تنبيه + البيوت التي يسكن الانسان فيها على قسمين
احدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت واليها
الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها بل الانسان
ينتقل اليها والقسم الثاني القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله تعالى وجعل لكم من
جلود الانعام بيوتا المتخذة من الادم ويجوز ان يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها
من حيث انها ثابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها تستخفونها اى تجدونها خفيفة
يخف عليكم حملها ونقلها يوم ظعنكم اى وقت ترحالكم وعبر باليوم لان الترحال في النهار ويوم اقامتكم
اى وقت الحضر او وقت النزول وهذا القسم من البيوت يمكن نقلها وتحويلها من مكان الى مكان
وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح العين والباقون بالسكون واضاف قوله تعالى ومن اصوافها
واوبارها واشعارها الى ضمير الانعام لانها من جملتها قال المفسرون واهل اللغة الاصواف
للضان والاوبار للابل والاشعار للمعز اثاثا اى ما يلبس ويفرش ومتاعا اى ما يتجر به وقيل الاثاث
ما يكتسي به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين به واختلف في
قوله تعالى الى حين فقيل الى حين تبلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد حين وقيل الى يوم القيامة
+ تنبيه + في نصب اثاثا وجهان احدهما انه منصوب عطفا على بيوتا اى وجعل لكم من اصوافها اثاثا
والثاني انه منصوب على الحال واعلم ان الانسان اما ان يكون مقيما او مسافرا والمسافر اما ان يكون
غنيا يستصحب معه الخيام او لا فالقسم الاول اشار اليه بقوله تعالى جعل لكم من بيوتكم سكنا

واشار الى القسم الثانى بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا واشار الى القسم الثالث
بقوله تعالى والله اى الذى له الجلال والاكرام جعل لكم اى من غير حاجة منه تعالى مما خلق
من شجر وجبال وابنية وغيرها وقوله تعالى ظلالا جمع ظل تتقون به شدة الحر وقوله تعالى
وجعل لكم من الجبال اكنانا جمع كن موضع تسكنون فيه من الكهوف والبيوت
المنحوتة فيها وجعل لكم اى امتنانا منه عليكم سرابيل جمع سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال
من قميص او درع او جوشن او غيره اى وسواء كان من صوف او كتان او قطن او غير ذلك تقيكم الحر
ولم يقل تعالى والبرد لتقدمه فى قوله تعالى لكم فيها دفء وقيل انه اكتفى باحد الضدين وقيل
كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم
الى ما يدفع البرد كما قال تعالى ومن اصوافها واوبارها واشعارها وسائر انواع الثياب اشرف الا انه
تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان انعامهم بها اشد واعتيادهم للبسها اكثر ولما كانت السرابيل نوعا واحدا
كرر لفظ جعل فقال وسرابيل اى دروعا من حديد وغيرها تقيكم باسكم اى حربكم اى فى الطعن
والضرب فيها ولما عدد الله تعالى انواع نعمه قال كذلك اى كاتمام هذه النعمة المتقدمة
يتم نعمته عليكم فى الدنيا والدين بالبيان والهداية لطريق النجاة والمنافع والتنبيه على دوام
ذلك لعلكم يا اهل مكة تسلمون اى تخلصون لله الربوبية وتعلمون انه لا يقدر على هذه الانعامات
احد سواه وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع فان تولوا اى اعرضوا عنك واثروا الذات الدنيا
ومتابعة الاباء والمعاداة فى الكفر فانما عليك يا افضل الخلق البلاغ المبين هذا جواب الشرط
وفى الحقيقة جواب الشرط محذوف اى فقد تمهد عذرك بعد ما اديت ما وجب عليك من
التبليغ وذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب وذلك لان تبليغه سبب فى عذره فاقيم
السبب مقام المسبب وهذا قبل الامر بالقتال ثم انه تعالى ذمهم بانهم يعرفون نعمت الله اى النعم
الاعظم التى تقدم عد بعضها فى هذه السورة وغيرها ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم بها وقال
السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم انكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام
وهو من اعظم النعم التى انعم الله تعالى بها على عباده ثم ان كفار مكة انكروه وجحدوه واختلف
فى معنى قوله تعالى واكثرهم الكافرون مع انهم كلهم كانوا كافرين على وجوه الاول انما قال تعالى
واكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف او كان ناقص العقل فاراد
بالاكثر البالغين الاصحاء الثانى ان يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن معاندا بل
كان جاهلا بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله الثالث انه ذكر الاكثر والمراد الجميع
لان اكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله تعالى الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون
ولما بين تعالى من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله ثم انكروها وذكر ايضا من حالهم
ان اكثرهم كافرون اتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة بقوله تعالى ويوم اى وخوفهم

يوم اى واذكر لهم يوم نَبْعَثُ بعد البعث مِنْ كُلِّ اُمَّةٍ شَهِيْدًا هو نبيها كما قال تعالى فكيف
اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا اشهد نبيها لها وعليها يوم القيامة
ليحكم تعالى بقوله اجراء للامر على ما يتعارفون وان كان تعالى غنيا عن شهيد وقوله تعالى ثُمَّ
لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا فيه وجوه احدها لا يؤذن لهم فى الاعتذار كقوله تعالى ولا يؤذن لهم
فيعتذرون ثانيها لا يؤذن لهم فى كثرة الكلام ثالثها لا يؤذن لهم فى الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف
رابعها لا يؤذن لهم فى حال شهادة الشهود بل يسكت اهل الجمع كلهم ليشهد الشهود فان قيل
ما معنى ثم ههنا اجيب بان معناها انهم يمتحنون اى يبتلون بعد شهادة الانبياء عليهم السلام
بما هو اطم منها وانهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى القاء معذرة ولا ادلاء بحجة وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُوْنَ
اى لا تزال عنهم ما هو هى ما يعتبون عليها ويلامون يقال استعتبت فلانا بمعنى اعتبته اى ازلت عتباه
وَاِذَا رَاَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا اى ظلموا انفسهم بالكفر والمعاصى الْعَذَابَ اى عذاب جهنم بعد الوقف
وشهادة الشهداء فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ذلك العذاب وَلَا هُمْ يُنْظَرُوْنَ اى لا يمهلون ولما بين
تعالى حاصل امرهم فى البعث وما بعده وكان من اهم المهم امرهم فى الموقف مع شركائهم الذين
كانوا يرجونهم عطف على ذلك بقوله تعالى وَاِذَا رَاَ اى بالعين يوم القيامة الَّذِيْنَ اَشْرَكُوْا شُرَكَاءَهُمْ
اى الالهة التى كانوا يدعونها شركاء من الشياطين وغيرها قَالُوْا رَبَّنَا اى يا من احسن الينا وربانا
هٰٓؤُلَاۤءِ شُرَكَاۤؤُنَا اضافوهم الى انفسهم لانه لا حقيقة لشركتهم [illegible]
المراد بقولهم الَّذِيْنَ كُنَّا نَدْعُوْا اى نعبد مِنْ دُوْنِكَ [illegible]
مما جعلهم فى الدنيا فى الجهل والغباوة [illegible] شركاؤهم من عواقب هذا القول [illegible]
ثلثة ارباع
العضب فَاَلْقَوْا اى الشركاء اِلَيْهِمْ اى المشركين الْقَوْلَ اى بادروا به حتى كان اسراعهم اليهم
اسراع شئ ثقيل يلقى من علو واكد ذلك بقولهم فقالوا اِنَّكُمْ لَكٰذِبُوْنَ فى جعلنا شركاء او انكم عبدتمونا
حقيقة وانما عبدتم اهواءكم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ولا يبعد ان تنطق الاصنام
بذلك يومئذ فى انهم حملوهم على الكفر والزموهم اياه كقوله وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم
فاستجبتم لى وَاَلْقَوْا اى الشركاء اِلَى اللّٰهِ اى الملك الاعلى يَوْمَئِذٍ اى يوم القيامة السَّلَمَ اى
الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا وَضَلَّ اى غاب عَنْهُمْ اى الكفار مَّا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ
اى من ان الهتهم تشفع لهم ولما ذكر تعالى وعيد الذين كفروا اتبعه بوعيد من ضم الى كفره
صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى اَلَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَصَدُّوْا عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اى ضموا مع كفرهم
انهم منعوا الناس عن الدخول فى الايمان بالله ورسوله زِدْنٰهُمْ عَذَابًا لصدهم فَوْقَ الْعَذَابِ
المستحق بكفرهم بِمَا كَانُوْا يُفْسِدُوْنَ اى بكونهم مفسدين بصدهم وقيل زدناهم عذابا
بحيات وعقارب كامثال البخت يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر ان لكل عقرب
ثلثمائة فقرة فى كل فقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها انياب كالنخل الطوال ثم ذكر سبحانه

تعالى التهديد من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما افهمته الآية السابقة وهو ان الشهادة تقع
على الامم لا لهم وتكون بعضهم فقال ﴿ويوم﴾ اي وخوفهم او واذكر لهم يوم ﴿نبعث﴾ اي بما لنا من القدرة
﴿في كل امة﴾ من الامم والامة عبارة عن القرن والجماعة ﴿شهيدا عليهم﴾ قال ابن عباس يريد الانبياء
قال المفسرون كل نبي شاهد على امته وهو اعدل شاهد عليها ﴿من انفسهم﴾ اي منهم لان كل نبي انما
بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهد عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان
﴿وجئنا بك﴾ اي بما لنا من العظمة بك يا خير المرسلين ﴿شهيدا على هؤلاء﴾ اي الذين بعثناك اليهم وهم
اهل الارض والذي ليس من قومه صلى الله عليه وسلم لانه لم يبق بعده نبي وقال ابو بكر الاصم
المراد بذلك الشهيد هو انه تعالى ينطق عشرة من اعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه
وهي الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه انه قال في صفة
الشهيد انه من انفسهم وهذه الاعضاء لا شك انها من انفسهم واجيب بانه تعالى قال شهيدا
عليهم فيجب ان يكون غيرهم وايضا قال من كل امة فوجب ان يكون ذلك الشهيد من الامة واحاد
هذه الاعضاء لا يصح وصفها بانها من الامة ثم بين تعالى انه ازاح عللهم فيما كلفوا به فلا حجة لهم
ولا معذرة بقوله تعالى ﴿ونزلنا﴾ اي بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم ﴿عليك﴾ يا اشرف خلق الله ﴿الكتاب﴾
اي القرآن الجامع للهدى ﴿تبيانا﴾ اي بيانا بليغا ﴿لكل شيء﴾ فان قيل كيف كان القرآن تبيانا لكل شيء
اجيب بان المعنى من كل شيء من امور الدين حيث كان نصا على بعضها واحالة على السنة حيث
امر فيه باتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته وقيل قال تعالى وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع
في قوله تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع اصحابه
والاقتداء باثارهم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤوا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والاجماع
والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبيانا لكل شيء ﴿وهدى﴾ اي من الضلالة
﴿ورحمة﴾ لمن آمن به وصدقه ﴿وبشرى﴾ بالجنة ﴿للمسلمين﴾ اي الموحدين خاصة ولما استقصى ع ١٤
سبحانه وتعالى في شرح الوعد والوعيد والترغيب والترهيب اتبعه بقوله ﴿ان الله﴾ اي الملك
المستجمع لصفات الكمال ﴿يأمر بالعدل﴾ قال ابن عباس في بعض الروايات العدل شهادة
ان لا اله الا الله ﴿والاحسان﴾ اداء الفرائض وقال في رواية اخرى العدل خلع الانداد والاحسان
ان تعبد الله كأنك تراه وان تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مؤمنا احببت له ان يزداد ايمانا
وان كان كافرا احببت له ان يكون اخاك في الاسلام وقال في رواية ثالثة العدل هو التوحيد
والاحسان هو الاخلاص فيه وقال آخرون يعني بالعدل في الافعال والاحسان في الاقوال
فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان واصل العدل المساواة في كل شيء من غير زيادة
ولا نقصان فالعدل هو المساواة في المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان ان تقابل الخير
باكثر منه والشر بان تعفو عنه وعن الشعبي قال عيسى بن مريم انما الاحسان ان تحسن

الى من اساء اليك ليس الاحسان ان تحسن الى من احسن اليك وقيل العدل الانصاف والانصاف اعدل من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من اساء اليك وعن محمد بن كعب القرظي قال دعاني عمر بن عبد العزيز فقال صف لي العدل فقلت بخ سألت عن امر جسيم كن لصغير الناس ابا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم اخا وللنساء كذلك وَإِيتَاءِ اي ومن الاحسان ايتاء ذِي الْقُرْبَى اي القرابة القربى والبعدى فيندب ان تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد وروى ابو سلمة عن ابيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان اعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان اهل هذا البيت ليكونون فجارا فتنمى اموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم ولما امر تعالى بالمكارم نهى عن المساوى بقوله تعالى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ قال ابن عباس اي الزنا فانه اقبح احوال الانسان واشنعها وقال غيره الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة شرعا وَالْمُنْكَرِ قال ابن عباس يعني الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف في شريعة او سنة وَالْبَغْيِ اي الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم قيل ان اعجل المعاصي عقابا البغي ولو ان جبلين بغى احدهما على الآخر لدك الباغي ونص تعالى على البغي مع دخوله في المنكر اهتماما به كما بدأ بالفحشاء لذلك وقال ابن قتيبة في هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان ان تكون سريرته خيرا من علانيته والفحشاء والمنكر والبغي ان تكون علانيته احسن من سريرته وقال بعض العلماء ان الله تعالى ذكر من المامورات ثلاثة اشياء ومن المنهيات ثلاثة اشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة في الاقوال والافعال وذكر في مقابلته الفحشاء وهو ما قبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه ويحسن الى من اساء اليه وذكر في مقابلته المنكر وهو ان ينكر احسان من احسن اليه وذكر ايتاء ذي القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي وهو ان يتكبر عليهم او يظلمهم حقوقهم ولما كان هذا المذكور من ابدع المواعظ نبه عليه بقوله تعالى يَعِظُكُمْ اي يامركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الاول وهي العدل والاحسان وايتاء ذي القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهي الفحشاء والمنكر والبغي لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ اي لكي تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وفيه ادغام التاء في الاصل في الذال وروى البيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود انه قال اعظم آية في كتاب الله تعالى الله لا اله الا هو الحي القيوم واجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل ان الله يامر بالعدل والاحسان واكثر آية في كتاب الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب واشد آية في كتاب الله تعالى رجاء قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم الآية وقال اهل المعاني لما قال الله تعالى في الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء بين في هذه الآية المامور به والمنهي عنه على سبيل الاجمال فما من شيء يحتاج

اليه الناس فى امر دينهم مما يجب ان يؤتى به او يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان من اهل الجاهلية يعملون به ويعظمونه ويخشونه الا امر الله تعالى به وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم الا نهى الله عنه وعن عكرمة ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الآية فقال له يا ابن اخى اعد علىّ فاعادها عليه فقال الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وما هو بقول البشر ولما تقررت هذه الجمل التى جمعت بجميعها المأمورات والمنهيات ما تضيق عنه الدفاتر والصدور وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب انها بلغت من البلاغة مبلغا يحصل به غاية السرور ذكر بعض تلك الاقسام وبدأ بما هو مع جمعه اهم وهو الوفاء بالعهد بقوله تعالى وَأَوْفُوا اى اوقعوا الوفاء الذى لا وفاء فى الحقيقة غيره بِعَهْدِ اللَّهِ اى الملك الاعلى الذى عاهدكم عليه بالدلائل العقلية والسمعية من البيع والايمان وغيرها من اصول الدين وفروعه إِذَا عَاهَدْتُمْ ثم بتقبلكم له باذعانكم لامتثاله وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى بَعْدَ تَوْكِيدِهَا اى تشديدها فتحنثوا فيها وفى ذلك دليل على ان المراد بالعهد غير اليمين لانه اعم منه وقرأ ابو عمرو بادغام الدال فى التاء بخلاف عنه فى الدال اكم وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ اى الذى له العظمة كلها عَلَيْكُمْ كَفِيلًا اى شاهدا ورقيبا وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الجيم والباقون بالادغام وعن جابر رضى الله عنه قال نزلت هذه الآية فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم كان من اسلم بايع على الاسلام فقال تعالى واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فلا يحملنكم قلة محمد واصحابه وكثرة المشركين ان تنقضوا البيعة التى بايعتم على الاسلام إِنَّ اللَّهَ اى الذى له الاحاطة الكاملة يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله تعالى لنقض العهد مثلا فقال وَلَا تَكُونُوا اى فى نقض العهد كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا اى ما غزلته فهو مصدر بمعنى المفعول مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ اى ابرام واحكام وقوله تعالى أَنْكَاثًا جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل قال مقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها رائطة وقيل ريطة وتلقب جعراء وكانت خرقاء حمقاء لها وسوسة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن وكان هذا دأبها وقال السدى كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة تغزل فاذا ابرمت غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد ابرامها اياه وقال قتادة لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد ابرامه لقلتم ما احمق هذه وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده وقال فى قوله تعالى تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ خيانة وغدرا اى الدخل ما يدخل فى الشئ على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه وانما كانوا يفعلون ذلك أَنْ اى بسبب ان تَكُونَ اى توجد فتكون تامة ويجوز ان تكون ناقصة فتكون أُمَّةٌ اى جماعة فاعلها وان تكون ناقصة فتكون امة اسمها وهى مبتدأ وأَرْبَى اى اكثر من أُمَّةٍ

خبره والجملة في محل نصب على الحال على الوجه الاول وفي موضع الخبر على الثاني واربى ماخوذ من ربا
الشيء يربو اذا زاد وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف قال مجاهد كانوا
يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان اعز منهم واشرف فينقضون حلف الاولين ويحالفون هؤلاء
الذين هم اعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك انما يبلوكم الله الذي له الملك كله اى يختبركم به اى يعاملكم
معاملة المختبر ليظهر للناس تمسككم بالوفاء والخلف بكم عند اعتمادا على كثرة انصاركم وقلة انصار من
نقضتم عهده من المؤمنين او غيرهم مع قدرته سبحانه وتعالى على ما يريد فيوشك ان يعاقب بالمخالفة
فيضعف القوى ويقلل الكثير ويكثر القليل وليبينن لكم اى اذا تجلى لفصل القضاء يوم القيمة ما كنتم
فيه تختلفون اى اذا جازاكم على اعمالكم بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك السموات
والارض وان من نوقش الحساب يهلك ولو شاء الله اى الملك الاعلى الذى لا امر لاحد معه
ان يجعلكم امة واحدة لا خلاف بينكم في اصول الدين ولا فروعه لجعلكم امة واحدة
اى متفقة على امر واحد وهو دين الاسلام ولكن لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم فهو تعالى يضل
من يشاء عدلا منه تعالى لانه تام الملك ولو كان الذى اضله على احسن الحالات ويهدى بفضله
من يشاء ولو كان على اخس الحالات والاحوال فلذلك تكونون مختلفين لا يسأل عما يفعل
سبحانه وتعالى ولتسألن عما كنتم تعملون في الدنيا فيجازى المحسن باحسانه ويعاقب
المسيء بعدله تعالى + ولما حذر سبحانه وتعالى عن نقض العهود والايمان مطلقا قال تعالى ولا تتخذوا
ايمانكم دخلا اى فسادا ومكرا وخديعة بينكم وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان
والا لزم التكرار الخالي عن الفائدة في موضع واحد بل المراد نهى اولئك الاقوام المخاطبين بهذا
الخطاب عن بعض ايمان مخصوصة اقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون المراد نهى الذين
بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد لان قوله تعالى فتزل اى فيكون ذلك سببا لان
تزل قدم هى في غاية العظمة بعد ثبوتها اى عن مركزها التي كانت به من دين او دنيا فلا يصير لها
قرار فتسقط عن مرتبتها لا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
على الايمان به وبشرائعه + تنبيه + فتزل منصوب باضمار ان على جواب النهى وزلل القدم مثل يذكر
لكل من وقع في بلاء بعد عافية او سقط في ورطة بعد سلامة او محنة بعد نعمة وتذوقوا
السوء اى العذاب في الدنيا بما اى بسبب ما صددتم اى انفسكم
ومنعتم غيركم بايمانكم التي قد اردتم بها الافساد واخفاء الحق عن سبيل الله اى دينه
وذلك ان من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض العهد فيستن به ولكم مع ذلك عذاب
عظيم اى ثابت غير منفك اذا متم على ذلك ثم اكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله تعالى ولا تشتروا
اى ولا تكلفوا انفسكم لجاجا وتركا للنظر ان تاخذوا او تستبدلوا بعهد الله الذي له الكمال
كله ثمنا قليلا اى من حطام الدنيا وان كنتم ترونه كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى انما عند الله

أي الذي له الجلال والإكرام من ثواب العابدين هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ولا يعدل عن الخير إلى غيره إلا أهوج
ناقص العقل ثم شرط خيريته لكم بكونكم من ذوي العلم بقوله تعالى إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أي إن كنتم
من أهل العلم والتمييز فتعلمون فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك بقوله تعالى مَا عِنْدَكُمْ أي من متاع
الدنيا ولذاتها يَنْفَدُ أي يفنى فصاحبه منغص العيش أشد ما يكون به اغتباطاً بانقطاعه وَمَا عِنْدَ
اللهِ أي الذي له الأمر كله من ثواب الآخرة ونعيم الجنة بَاقٍ أي دائم وعن أبي موسى الأشعري
رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته
أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقرأ ابن كثير في الوقف بالياء والباقون بغير ياء وأما في
الوصل فالجميع بالتنوين وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا على الوفاء بما يجب عليهم من الأوامر والنواهي في السراء
والضراء أَجْرَهُمْ أي ثواب صبرهم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أي بجزاء أحسن من أعمالهم أو يجزيهم
على أحسن من أعمالهم وذلك لأن المؤمن قد يأتي بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك
أن الواجبات والمندوبات مما يثاب على فعلها لا على فعل المباحات وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون
قبل الجيم أي ولنجزين نحن والباقون بالياء أي وليجزين الله ثم إنه تعالى رغب المؤمنين في الإيمان
بكل ما كان من شرائع الإسلام بقوله تعالى مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ إذ لا اعتداد
بأعمال الكفار في استحقاق الثواب وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب فإن قيل من عمل صالحاً يفيد
العموم فما فائدة من ذكر أو أنثى أجيب بأنه ذكره للتنصيص على الفريقين واختلف في
قوله تعالى فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فقال سعيد بن جبير وعطاء هي الرزق الحلال وقال مقاتل هي
العيش في الطاعة وقال الحسن هي القناعة لأن عيش المؤمن في الدنيا وإن كان فقيراً أطيب من
عيش الكافر وإن كان غنياً لأن المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله تعالى وذلك بتقديره وتدبيره تعالى
وعرف أن الله تعالى محسن كريم حكيم يضع الأشياء في محالها فكان المؤمن راضياً بقضاء الله وما قدره الله
ورزقه إياه وعرف أن مصلحته في ذلك القدر الذي رزقه فاستراحت نفسه من الكد والحرص
فطاب عيشه بذلك وأما الكافر والجاهل بهذه الأصول فلا يزال الحرص على طلب الرزق فيكون أبداً في
حزن وتعب وعناء وحرص في الدنيا ولا يناله من الرزق إلا ما قدر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع
أطيب من عيش غيره وقال السدي الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر لأن المؤمن يستريح بالموت
من كد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة هي الجنة لأن فيها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم
وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة فثبت بهذا أن الحياة الطيبة لا تكون إلا في الجنة ولا مانع
من أن المؤمن الكامل يحيى بالجميع ثم إن الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ أي في
الدنيا والآخرة بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أي من الطاعة وقد سبق تفسيره ولما قال تعالى ولنجزينهم
أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون أرشد إلى العمل الذي به تخلص أعماله من الوسواس بقوله تعالى
فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ أي أردت قراءته فَاسْتَعِذْ أي إن شئت جهراً وإن شئت سراً قال الشافعي رضي الله

تعالى عنه والإسرار أولى في الصلاة وعن قول يجهر ثم يشتغل بخارج الصلاة بالله أي سل الذي له
الكمال كله أن يعيذك من الشيطان أي المحترق باللعنة الرجيم أي المطرود عن الرحمة من أن يصدك
بوساوسه عن اتباعه ويدخل في ذلك جميع المردة من الشياطين لأن لهم قدرة على إلقاء الوسوسة
في قلوب بني آدم بإقدار الله تعالى لهم عليه وقيل المراد إبليس خاصة لأن الاستعاذة بالله تعالى من الاختصاص
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته وظاهر الآية وجوب الاستعاذة وإليه
ذهب عطاء سواء كانت القراءة في الصلاة أم في غيرها واتفق سائر الفقهاء على أنها سنة
في الصلاة وغيرها والصارف لهذا الأمر عن الوجوب أحاديث كثيرة منها القراءة بدون التعوذ
كحديث البخاري وغيره عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ما منعك أن تجيبني قال كنت أصلي قال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ثم قال
لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن الحمد لله رب العالمين وفي رواية الموطأ أنه صلى الله عليه وسلم
نادى أبيا وأنه قال له كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة قال أبي فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى
أتيت إلى آخرها وظاهر الآية يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة وإليه ذهب جماعة من الصحابة
والتابعين وهو قول أبي هريرة وإليه ذهب مالك وداود الظاهري قالوا لأن قارئ القرآن يستحق
ثوابا عظيما وربما حصل الوسواس في قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أولا فإذا استعاذ بعد
القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصا والذي ذهب إليه الأكثرون من الصحابة
والتابعين ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الأمصار أن الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية إذا أردت
أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله وتبعتهم على ذلك فلهذا قدرت ذلك في الآية الكريمة ومثل ذلك قوله
تعالى إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ومثله من الكلام إذا أكلت فسم أي إذا أردت أن تأكل
فقل بسم الله الرحمن الرحيم وإذا سافرت فتأهب أي إذا أردت السفر فتأهب وأيضا الوسوسة
إنما تحصل في أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها
عن وقت الحاجة إليها ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان وكان
ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف في أبدان الإنسان أزال الله تعالى ذلك الوهم وبين أنه
لا قدرة له البتة إلا على الوسوسة بقوله تعالى إنه ليس له سلطان أي بحيث لا يقدر المسلط عليه
على الانفكاك عنه على الذين آمنوا أي بتوفيق ربهم لهم وعلى ربهم وحده يتوكلون أي على
أولياء المؤمنين به والمتوكلين عليه فإنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته
وعن سفيان الثوري قال ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم ثم وصل تعالى بذلك
ما أفهمه من أن له سلطانا على غيرهم بقوله إنما سلطانه أي الذي يتمكن به غاية التمكن بإمكان الله
تعالى له على الذين يتولونه أي يحبونه ويطيعونه والذين هم به أي بالله تعالى مشركون
وقيل الضمير راجع إلى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله ولما كان المشركون إذا

نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ناسخة لها يقولون ان محمدا يستهزئ باصحابه يامرهم اليوم بامر
وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه نزل واذا بدلنا اى بقدرتنا بالنسخ آية سهلة
كالعدة باربعة شهور وعشر وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار او شاقة كتحريم الخمر وايجاب
الصلوات الخمس فجعلناها مكان آية شاقة كالعدة بحول ومصابرة عشرة من الكفار او سهلة
كالآيات المتضمنة لاباحة الخمر والتبديل رفع الشئ ووضع غيره مكانه والله اى الذى له الاحاطة
الشاملة اعلم بما ينزل من المصالح بحسب الاوقات والاحوال بالنسخ او غيره قالوا اى الكفار انما انت
يا محمد مفتر اى متقول على الله تعالى تامر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب اذا والله اعلم
بما ينزل اعتراض والمعنى والله اعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف
اى هو اعلم بجميع ذلك ومصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قولهم انما انت مفتر اى اذا كان
هو اعلم بما ينزل فما لهم ينسبون محمدا الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ بل اكثرهم وهم الذين
يستمرون على الكفر لا يعلمون حكمة فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون الخطأ من
الصواب فان الله تعالى اعلم بمصالح العباد كما ان الطبيب يامر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها
ويامره بغيرها لمصلحة تلك الشربة ثم امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله
تعالى قل لمن واجهك بذلك القول نزله اى القرآن بحسب التدريج لاجل اتباع المصالح
باحاطة علم المتكلم به روح القدس اى جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس
وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس
المطهر من المآثم من ربك بالحق اى متلبسا بالحكمة ليثبت الذين آمنوا اى ليثبت بالقرآن
قلوب الذين آمنوا فيزدادوا ايمانا ويقينا وهدى اى بيانا واضحا وبشرى للمسلمين اى المنقادين
لحكمه فان قيل ظاهر الآية ان القرآن لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية
فمقتضاه ان الآية لا تنسخ الا باخرى اجيب بان هذه الآية دلت على انه تعالى يبدل آية باية
ولا دلالة فيها على انه لا يبدل آية الا باية وايضا فجبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالآية
ولما كان المشركون يقولون ان محمدا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمي
مثله وليس هو من عند الله كما يزعم نزل قوله تعالى ولقد نعلم اى علما مستمرا انهم يقولون انما يعلمه
بشر واختلف فى البشر الذى قال المشركون ان النبى صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبنى
عامر بن لؤى يقال له يعيش كان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد لبنى
الحضرمى صاحب كتب وكان اسمه جبرا فكانت قريش تقول عبد بنى الحضرمى يعلم خديجة وخديجة
تعلم محمدا وقيل كان بمكة نصرانى اعجمى اللسان اسمه بلعام ويقال ابن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل
سلمان الفارسى وبالجملة فلا فائدة فى تعداد هذه الاسماء والحاصل ان القوم اتهموه بانه يتعلم هذه
الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم انه انما عرفها بالوحى وهو كاذب فيه فاجاب

الله تعالى عنه تكذيباً لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى لِسَانُ
الَّذِي يُلْحِدُونَ أي يميلون إليه أو يشيرون إِلَيْهِ أنه يعلمه أَعْجَمِيٌّ أي لا يعرف لغة العرب وهو مع ذلك
ألكن في التأدية غير مبين وَهَٰذَا أي القرآن لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ أي ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه
أعجمي وروي أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
أي لا يصدقون كل تصديق معترفين بِآيَاتِ اللَّهِ أي الذي له العظمة كلها لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ أي
لا يرشدهم ولا يوفقهم للإيمان وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أي مؤلم في الآخرة ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم
المفترون بقوله تعالى إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ أي القرآن بقولهم هذا
من قول البشر وَأُولَٰئِكَ أي البعداء البغضاء هُمُ الْكَاذِبُونَ أي الكاملون في الكذب لأن تكذيب
آيات الله أعظم من الكذب أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء لا يحجبهم عنه
مروءة ولا دين ۔ ولما ذكر تعالى الذين لا يؤمنون مطلقاً أتبعهم صنفاً منهم هم أشد كفراً بقوله تعالى
مَنْ أي أي مخلوق وقع له أنه كَفَرَ بِاللَّهِ أي الذي له صفات الكمال بأن قال أو عمل ما يدل على الكفر
مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ أي على التلفظ بالكفر فتلفظ به وقلبه
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ فلا شيء عليه لأن محل الإيمان هو القلب روي أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه
ياسراً وأمه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت
وقتل ياسر وهما أول قتيل في الإسلام وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرهاً وهو كاره بقلبه فأخبر
النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كفر فقال صلى الله عليه وسلم كلا إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه
واختلط الإيمان بلحمه ودمه فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
يمسح عينيه ويقول ما لك إن عادوا لك فقل لهم مثل ما قلت ۔ تنبيه ۔ في الآية دليل على إباحة التلفظ
بالكفر وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه ولما روي أن مسيلمة أخذ رجلين
فقال لأحدهما ما تقول في محمد فقال رسول الله قال فما تقول في قال أنت أيضاً فخلاه وقال للآخر ما
تقول في محمد فقال رسول الله قال فما تقول في قال أنا أصم فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله فبلغ
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الأول فقد أخذ برخصة الله وأما الثاني فقد صدع بالحق
فهنيئاً له واختلف الأئمة في وقوع الطلاق بالإكراه فقال الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى لا يقع طلاق
المكره وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقع واستدل الشافعي بقوله تعالى لا إكراه في الدين ولا يمكن
أن يكون المراد نفي ذاته لأن ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره أي لا أثر له ولا عبرة به
وقال عليه الصلاة والسلام رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وقال أيضاً لا
طلاق في إغلاق أي إكراه وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى فإن طلقها فلا تحل له وهذا قد طلقها وأجيب
بأن الآية مخصوصة بغير ذلك جمعاً بين الأدلة وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا أي فتحه ووسعه
لقبول الكفر واختاره ورضي به فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ أي غضب لم تبين جهة عظمه لكونه مِنَ اللَّهِ

اى الملك الاعظم ولهم اى بظواهرهم وبواطنهم عذاب عظيم فى الآخرة لارتدادهم على اعقابهم ذلك اى الوعيد العظيم بانهم اى بسبب انهم استحبوا اى احبوا حبا عظيما الحيوة الدنيا الكائنة الحاضرة الفانية فآثروها على الآخرة الباقية الفاخرة لانهم راوا ما فيه المؤمنون من الضيق والكافرون من السعة وان الله اى الذى له الغنى المطلق لا يهدى القوم الكافرين اى لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل اولئك اى البعداء البغضاء الذين طبع الله اى الملك الذى لا امر لاحد معه على قلوبهم اى ختم عليها واستوثق ، ولما كان التفاوت فى السمع نادرا وحده بقوله تعالى وسمعهم اى بمعنى اسماعهم ليناسب قوله تعالى وابصارهم فصاروا بعدم انتفاعهم بهذه المشاعر كانهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون واولئك اى الابعدون من كل خير هم الغافلون عما يراد بهم من العذاب فى الآخرة لا جرم اى لا شك انهم فى الآخرة هم الخاسرون اى اكمل الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى انهم استوجبوا غضب الله تعالى الثانية انهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة انهم استحبوا الحيوة الدنيا على الآخرة الرابعة ان الله تعالى حرمهم من الهداية الخامسة انه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وابصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد يوم القيامة اذ كل واحدة من هذه الصفات من اعظم الاحوال المانعة من الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم انه تعالى انما ادخل الانسان فى الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران ، ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من اكره على الكفر ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن بقوله تعالى ثم ان ربك اى المحسن اليك للذين هاجروا الى المدينة الشريفة بالولاية والنصر وقوله تعالى من بعد ما فتنوا قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء على اسناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء وكسر التاء على بناء ما لم يسم فاعله ووجه القراءة الاولى انه عاد الضمير على المؤمنين فالمعنى فتنوا انفسهم بما اعطوا المشركين من القول ظاهرا وانهم لما صبروا على عذاب المشركين فكانهم فتنوا انفسهم وان عاد على المشركين فهو ظاهر اى فتنوا المؤمنين لان اولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم اقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى انهم هاجروا ثم جاهدوا وصبروا على الطاعة ان ربك من بعدها اى الفتنة لغفور اى بليغ الاكرام رحيم فهو يغفر لهم ويرحمهم

تنبيه : حذف خبر ان الاولى لدلالة خبر الثانية عليه او مقدر بما مر يوم اى اذكر يوم تأتى كل نفس اى وان عظم جرمها تجادل اى تحاج عن نفسها اى لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة فان قيل ما معنى النفس المضافة الى النفس اجيب بانه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفى نقيضه غيره والنفس الجملة كما هى فالنفس الاولى هى الجملة والثانية عينها وذاتها فكانه قيل يوم ياتى كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه شان غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها

كقولهم هؤلاء الذين اضلونا وما كنا مشركين وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ صالحة او غير صالحة مَا عَمِلَتْ اى جزاءه من جنسه وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ اى شيئا، ولما هدد تعالى الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم ايضا بآفات الدنيا وهى الوقوع فى الجوع والخوف بقوله تعالى وَضَرَبَ اللهُ اى المحيط بكل شئ مَثَلًا ويبدل منه قَرْيَةً هى مكة والمراد اهلها كَانَتْ آمِنَةً اى ذات امن ويأمن بها اهلها فى زمن الخوف قال تعالى اولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم والامن فى مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض دون اهل مكة فانهم كانوا اهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم مُطْمَئِنَّةً اى قارة باهلها لا يحتاجون فيها الى النجعة والانتقال بسبب زيادة الامن بكثرة العدد وقوة المدد وكف الله تعالى الناس عنها ووجود ما يحتاج اليه اهلها فان قيل الاطمئنان هو الامن فيلزم التكرار اجيب بان قوله تعالى آمنة اشارة الى الامن وقوله تعالى مطمئنة اى لا يحتاجون فيها الى النجعة كما مر وقيل اشار تعالى بذلك الى الصحة لان هواء ذلك البلد كان ملائما لامزجتهم فلذلك اطمأنوا اليه واستقروا قالت العقلاء ثلاثة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية يَأْتِيهَا اى على سبيل التجدد والاستمرار رِزْقُهَا رَغَدًا اى واسعا طيبا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ من نحو بتيسير الله تعالى، ولما كانت النعمة تجر الى البطر غالبا نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ اى الذى له الكمال كله والانعم جمع نعمة قال الزمخشرى على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وادرع وقال قطرب هى جمع نعم والنعم النعمة يقال هذه ايام نعم وطعم فلا تصوموا وقيل جمع نعماء مثل بأساء وابؤس فان قيل الانعم جمع قلة فكان تلك القرية كفرت بانواع قليلة من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم يقل تعالى كفروا بنعم عظيمة فاستوجبوا العذاب اجيب بان المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى فان كفران النعم القليلة لما اوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة اولى وبان الله تعالى انعم عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا فى ايذائه فَأَذَاقَهَا اللهُ اى المحيط بكل شئ لِبَاسَ الْجُوعِ بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا واكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة وقيل ان القرية غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة وَالْخَوْفِ بسرايا النبى صلى الله عليه وسلم، تنبيه استعير الذوق لادراك اثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف واوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار له كقول كثير عزة غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه واضاف اليه الغمر الذى هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظرا الى المستعار له ولو نظر الى المستعار لقال ضافى الرداء اى سابغه ومعنى البيت اذا تبسم المسئول ضاحكا ايقن السائل بذلك التبسم استرقاقه رقاب ماله وانه يعطيه بلا خلاف وقد ينظر الى المستعار له كقوله

شعر ينازعني ردائي عبد عمرو + رويدك يا اخا عمرو بن بكر + لي الشطر الذي ملكت يميني + ودونك
فاعتجر منه بشطر فاستعار الرداء للسيف ثم قال فاعتجر نظرا الى المستعار ولو نظر الى المستعار منه
لقال تعالى في الآية فكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير ضافي الرداء اذا تبسم ضاحكا وهذا نهاية
ما يقال في الاستعارة وقال ابن عطية لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الاعشى شعر
اذا ما الضجيع ثنى جيدها + تثنت عليه فكانت لباسا ومثله قوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس
لهن ومثله قول الشاعر وقد لبست بعد الزبير مجاشع + لباس التي حاضت ولم تغسل الدما
كان العار لما باشرهم ولصق بهم كانهم لبسوه وقوله تعالى فاذاقها نظير قوله تعالى ذق انك انت
العزيز الكريم ونظير قول الشاعر دونك ما جنيت فاحس وذق + وقوله تعالى بما كانوا يصنعون
يجوز ان يكون ما مصدرية اي بسبب صنعهم او بمعنى الذي والعائد محذوف اي بسبب
الذي كانوا يصنعونه والواو في يصنعون عائد على اهل البلد وقيل قرية نظير قوله تعالى
او هم قائلون بعد قوله تعالى وكم من قرية اهلكناها + ولما ذكر الله تعالى المثل ذكر الممثل له فقال
تعالى وَلَقَدْ جَاءَهُمْ اي اهل هذه القرية رَسُولٌ مِنْهُمْ من نسبهم يعرفونه باصله ونسبه وهو محمد
صلى الله عليه وسلم فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ قال ابن عباس يعني الجوع الذي كان بمكة وقيل
القتل الذي كان يوم بدر وَهُمْ ظَالِمُونَ اي في حال تلبسهم بالظلم كقوله تعالى الذين تتوفاهم
الملائكة ظالمي انفسهم نعوذ بالله من مفاجاة النقمة والموت على الغفلة وقرأ نافع وابن كثير
وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى فَكُلُوا
اي ايها المؤمنون مما رزقكم الله قال ابن عباس يريد من الغنائم وقال الكلبي ان رؤساء
مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النساء
والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم فاذن في الحمل اليهم فحمل الطعام اليهم فقال الله تعالى
كلوا مما رزقكم الله قال الرازي والقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية
انما حرم عليكم الميتة يعني انكم لما امنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله حَلَالًا طَيِّبًا وهو
الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم + ولما امرهم تعالى باكل الحلال امرهم
بشكر النعمة بقوله تعالى وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ اي تطيعون
+ تنبيه + رسمت نعمت بالتاء وقرأ ابن كثير وابو عمرو بالهاء والباقون بالتاء والكسائي يقف
بالامالة وتقدم تفسير قوله تعالى إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ في سورة البقرة فلا اعادة في تفسير ذلك وقرأ
ابو عمرو وعاصم وحمزة فمن اضطر في الوصل بكسر النون والباقون بالضم + تنبيه + حصر
المحرمات في هذه الاشياء الاربعة مذكور ايضا في سورة الانعام عند قوله تعالى قل
لا اجد فيما اوحي الي محرما على طاعم يطعمه الآية وفي سورة المائدة في قوله تعالى احلت

لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم واجمعوا على ان المراد بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم هو قوله تعالى في سورة البقرة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله وقوله تعالى في المائدة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما ذكيتم فهذه الاشياء داخلة في الميتة ثم قال تعالى وما ذبح على النصب وهو احد الاشياء الداخلة تحت قوله تعالى وما اهل به لغير الله فثبت ان هذه السور الاربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الاربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من اخر ما انزل الله بالمدينة فمن انكر حصر التحريم في هذه الاربعة الا ما خصه الاجماع والدلائل العقلية القاطعة كان في محل ان يخشى عليه لان هذه السورة دلت على ان حصر المحرمات في هذه الاربعة كان مشروعا ثابتا في اول زمان مكة واخره واول زمان المدينة وانه تعالى اعاد هذا البيان في هذه السور الاربعة قطعا للعذر وازالة للشبهة * ولما حصر تعالى المحرمات في هذه الاربع بالغ في تاكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الاربعة تارة وفي النقصان عنها اخرى بقوله تعالى وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لما لم يحله الله ولم يحرمه فانهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا فقد زادوا في المحرمات وزادوا ايضا في المحللات لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فبين تعالى ان المحرمات هي هذه الاربعة وبين ان الاشياء التي يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تعالى * تنبيه * في انتصاب الكذب وجهان احدهما قال الكسائي ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره ان يقال لا تقولوا لكذا وكذا كذا وكذا فان قيل حمل الآية على هذا يؤدي الى التكرار لان قوله تعالى لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ عين ذلك اجيب بان قوله تعالى لما تصف السنتكم الكذب ليس فيه بيان انه كذب على الله فاعاده ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظيره في القرآن كثير وهو انه تعالى يذكر كلاما ويعيده بعينه مع فائدة زائدة الثاني ان تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذي تصف السنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما وقيل اللام في لتفتروا لام العاقبة كما في قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا فان قيل ما معنى وصف السنتهم الكذب اجيب بان ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل قولهم كانه عين الكذب ومحضه واذا نطقت به السنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولهم وجهها يصف الجمال اي هي جميلة وعينها تصف السحر اي هي ساحرة فلما اراد المبالغة في وصف الوجه بالجمال ووصف العين بالسحر عبر بذلك ثم انه تعالى اوعد المفترين بقوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ اي الذي له الملك كله الْكَذِبَ منكم ومن غيركم لَا يُفْلِحُونَ اي لا يفوزون بخير لان المفتري يفتري لتحصيل مطلوب فنفى الله تعالى عنه الفلاح لانه الفوز بالخير والنجاة ثم بين

تعالى ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب بقوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ اى منفعة قليلة تنقطع عن قريب لفنائها وان امتدّ الف عام ﴿وَلَهُمْ﴾ بعده ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اى مؤلم فى الآخرة ❊ ولما بين تعالى ما يحل ويحرم لاهل الاسلام اتبعه ببيان ما خص اليهود به من المحرمات بقوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ اى اليهود ﴿حَرَّمْنَا﴾ عليهم عقوبة لهم ببغيهم وكذبهم على ربهم ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يا اجل المرسلين ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ اى فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ اى بتحريم ذلك عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا﴾ اى دائما طبعا لهم وخلقا مستمرا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ خاصة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بالبغى والكفر فضيقنا عليهم معاملة بالعدل وعاملنا كم انتم حيث ظاهرتم بالفضل فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة ❊ ولما بين تعالى هذه النعمة الدنيوية عطف عليها نعمة هى اكبر منها بحق الاستقباح بالكلام الظالم وبيان عظمتها بحرف التراخى فقال تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ اى المحسن اليك ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ وهو يتناول كل ما لا ينبغى فعله فيشمل الكفر وسائر المعاصى ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ اى بسببها او ملتبسين بها لانهم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر فى العواقب فكل من عمل سوأ انما يفعله بالجهالة اما الكفر فلان احدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا لانه لو لم يعتقد كونه حقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه واما المعصية فلان العالم لم تصدر منه المعصية ما لم تصر الشهوة غالبة للعقل فثبت ان كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ اى الذنب ولو كان عظيما واقتصروا على ما اذن فيه خالقهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بالاستمرار على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ اى المحسن اليك بتسهيل دينك وتيسيره ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ اى التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ اى بليغ الستر لما عملوا من السوء ﴿رَحِيمٌ﴾ اى بليغ الرحمة محسن بالاكرام فضلا منه ونعمة ❊ ولما دعاهم الله تعالى الى مكارم الاخلاق ونهاهم عن مساويها بقوله ما تقدم اليه وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام رئيس الموحدين لاجرم ذكره الله تعالى فى آخر هذه السورة ووصفه بتسع صفات الصفة الاولى قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ اى لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد الا متفرقة فى اشخاص كثيرة كقول القائل ❊ وليس لله اى من الله بمستنكر ❊ ان يجمع العالم فى واحد ❊ اى ان يجمع صفاتهم فى شخص واحد وقال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده امة واحدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله امة وحده وقال شهر بن حوشب لم تبق الارض الا وفيها اربعة عشر يدفع الله تعالى بهم عن اهل الارض الا زمن ابراهيم فانه كان وحده وقيل امة فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من امّه اذا قصده واقتدى به فان الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون به كقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما وقرأ هشام ان ابراهام وملة ابراهام بالالف بعد الهاء فيهما وقرأ الباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله تعالى ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ اى مطيعا له قائما باوامره الصفة الثالثة قوله تعالى ﴿حَنِيفًا﴾ اى مائلا عن الباطل قال ابن عباس انه اول من اختتن واقام

مناسك الحج وضحى وهذه السنة الحنيفية الصفة الرابعة قوله تعالى وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اى انه عليه الصلوة والسلام كان من الموحدين فى الصغر والكبر وقد ابطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا احب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى ان القوه فى النار وذلك دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربى الذى يحيى ويميت ثم طلب من الله تعالى ان يريه كيف يحيى الموتى ليحصل له زيادة الطمانينة قال الرازى ومن وقف على علم القرآن علم ان ابراهيم عليه الصلوة والسلام كان غريقا فى بحر علم التوحيد الصفة الخامسة قوله تعالى شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ فان قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعمة الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لانعمه اجيب بانه ذكر القلة للتنبيه على انه كان لا يخل بشكر القليلة فكيف بالكثيرة وروى انه عليه الصلوة والسلام كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له ان بهم جذاما فقال لهم الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على انه عافانى وابتلاكم بهذا البلاء الصفة السادسة قوله تعالى اجْتَبَاهُ اى اصطفاه للنبوة واختاره لخلته الصفة السابعة قوله تعالى وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ اى وهداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم ونظيره قوله تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه الصفة الثامنة قوله تعالى وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً قال قتادة حببه للناس حتى ان ارباب الملل يتولونه ويثنون عليه اما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر واما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق القول ان الله تعالى اجاب دعاءه فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقال آخرون هو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل اولادا ابرارا على الكبر الصفة التاسعة قوله تعالى وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ فى الجنة فان قيل لم لم يقل تعالى فى اعلى مقامات الصالحين اجيب بانه تعالى حكى عنه انه قال رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين فقال تعالى هنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على انه تعالى اجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفى ان يكون فى اعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية اخرى وهى قوله تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ولما وصف الله تعالى ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة امر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى اتباعه مشيرا الى علو رتبته بحرف التراخى بقوله تعالى ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يا اشرف الرسل وقيل اتى بثم للتراخى اى لتراخى ايامه عن ايام ابراهيم عليهما افضل الصلوة والسلام أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ فى التوحيد والدعوة اليه بالرفق وايراد الدلائل مرة بعد اخرى والمجادلة مع كل احد على حسب فهمه ولا بعد فى ان يفهم ذلك الجهر ايضا وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم مامورا بشريعة ابراهيم عليه الصلوة والسلام الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقوله تعالى حَنِيفًا حال من النبى صلى الله عليه وسلم ويصح ان يكون حالا من ابراهيم عليه الصلوة والسلام وقوله تعالى وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كرره

ردّاً على من زعم من اليهود والنصارى انهم على دينه وقوله سبحانه وتعالى إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى
الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ فيه قولان الاوّل روى الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما انه
قال امرهم موسى عليه السلام بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة ايام يوما واحدا وهو يوم الجمعة
ولا تعملوا فيه شيئا من اعمالكم فابوا ان يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه
من الخلق وهو يوم السبت فجعل عليهم السبت وشدّد عليهم فيه ثم جاء عيسى عليه السلام
ايضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد ان يكون عيدهم اي اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الاحد وروى
ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه
وهدانا الله له فهو لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد فان قيل هل في العقل وجه يدل على
ان الجمعة افضل من السبت والاحد فان اهل الملل اتفقوا على انه تعالى خلق العالم في ستة ايام
وبدأ تعالى بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتم في يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت
اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الاعمال فعينوا يوم السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ
الخلق والتكوين يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدا فهذان الوجهان معقولان لنا فما وجه
جعل يوم الجمعة عيدا أجيب بان يوم الجمعة هو يوم التمام والكمال وحصول التمام والكمال يوجب
الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم العيد اولى من هذا الوجه القول الثاني اختلافهم
في السبت هو انهم احلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم ان يتفقوا في تحريمه
على كلمة واحدة وَإِنَّ رَبَّكَ اي المحسن اليك بطواعية اصحابك لك لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ اي هؤلاء المختلفين
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وهو يوم اجتماع جميع الخلائق فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين
بالعقاب، ولما امر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه الصلوة والسلام بين الشيء
الذي امره بمتابعته فيه بقوله تعالى ادْعُ اي كل من تمكن دعوته ممن بعثت اليه إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ
اي المحسن اليك بتسهيل السبيل الذي تدعو اليه واتساعه وهو الاسلام الذي هو الملة الحنيفية بِالْحِكْمَةِ
اي المقالة المحكمة وهو الدليل الواضح المزيل للشبهة وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ اي بالدعاء الى الله تعالى
بالترغيب والترهيب بالخطابات المقنعة والعبارات النافعة والاولى لدعوة خواص الامة الطالبين
للحقائق والثانية لدعوة عوامهم وَجَادِلْهُمْ اي وجادل معانديهم بِالَّتِي اي بالمجادلة التي هِيَ أَحْسَنُ
كالدعاء الى الله تعالى باياته والدعاء الى حججه بالطريقة التي هي احسن طرق المجادلة من الرفق واللين
من غير غلظة ولا تعسف فان ذلك انفع في تسكين لهبهم وتبيين شبههم وقيل المراد بالحكمة القرآن
اي ادعهم بالقرآن والموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة وفي الامر بالمجادلة التي هي احسن الاعراض
عن اذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق وعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا
منسوخ باية السيف وقيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة اقسام القسم الاول العلماء الكاملون هم
اصحاب العلوم الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء

هم المشار اليهم بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة اى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية
حتى يعلموا الاشياء بحقائقها وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى
اصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا
الى حضيض النقصان فهم اوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله تعالى والموعظة الحسنة
اى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة القسم الثالث اصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم
المشار اليهم بقوله تعالى وجادلهم بالتى هى احسن اى حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه اِنَّ رَبَّكَ
المحسن اليك بالتخفيف عنك هُوَ اَعْلَمُ اى من كل من يتوهم فيه علم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيْلِهٖ وَهُوَ اَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِيْنَ اى فهو سبحانه وتعالى اعلم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة
اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكانك تضرب فى حديد بارد فما عليك الا البلاغ
والدعوة واما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس ذلك اليك وهذا قبل
الامر بالقتال وذكر فى قوله تعالى وَاِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوْا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهٖ اقوال احدها وهو قول
ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وابى بن كعب والشعبى ان النبى صلى الله عليه وسلم
لما راى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا انفه واذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه واخذت
هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث فى بطنها حتى رمت بها
فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال اما انها لو اكلته لم تدخل النار ابدا حمزة اكرم على الله من
ان يدخل شيئا من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه نظر الى شئ لم ينظر الى
شئ قط اوجع لقلبه منه فقال النبى صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانى ما علمتك الا فعالا
للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدى عليك لسرنى ان ادعك حتى تحشر من افواج شتى
اما والله لئن ظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله
عليه وسلم عما اراد وكفر عن يمينه وقال المسلمون ايضا لما راوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم احد
من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق احد من قتلى المسلمين الا مثل به الا حنظلة بن الراهب فان اباه ابا عامر الراهب
كان مع ابى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين راوا ذلك لئن ظفرنا عليهم لنزيدن
عليهم ولنربين على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها احد من العرب باحد القول الثانى ان هذا كان قبل الامر
بالسيف والجهاد حتى كان المسلمون قد امروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبتدئوا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا
فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وفى هذه الاية امر الله تعالى ان يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا
القول الثالث ان المقصود من هذه الاية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعى
وابن سيرين قال الرازى وحمل هذه الاية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب
فى كلام الله وهو فى غاية البعد بل الاصوب عندى ان يقال انه تعالى امر محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق
الى الدين الحق باحدى الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك

الدعوة تقتضي امرهم بالرجوع عن دين آبائهم واسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويوحش صدورهم ويحمل اكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعي المحق اذا سمع تلك السفاهات لابد وان يحمله طبعه على تاديب اولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا امر المحققين في هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه فان قيل فهل تقدحون فيما روي انه عليه الصلاة والسلام ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية اجيب بانه لا حاجة الى القدح في تلك الرواية لان تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية وذلك لا يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى. تنبيه. امر الله تعالى برعاية العدل والانصاف في هذه الآية ورتب ذلك على اربع مراتب المرتبة الاولى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به اي ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله تعالى ورحمته وفي قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له ان لا يفعل كما انك اذا قلت للمريض ان كنت تاكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه ان الاولى بك ان لا تاكله فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض ان الاولى تركه المرتبة الثانية الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله تعالى وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ وهذا تصريح بان الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة افضل من القسوة والانتفاع افضل من الايلام وقرأ لهو قالون وابو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون برفعها المرتبة الثالثة هو الامر الجازم بالترك وهو قوله تعالى وَاصْبِرْ لانه في المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير واولى وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر في هذا المقام. ولما كان الصبر في هذا المقام شديدا شاقا ذكر بعده ما يفيد سهولته بقوله تعالى وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ اي الملك الاعظم الذي شرع لك هذا الشرع الاقوم فذلك بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الاصلي ثم ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب بقوله سبحانه وتعالى وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ اي في شدة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ولو قل كما لوح اليه بتنوين التحقير مِّمَّا يَمْكُرُونَ اي من استمرارهم على مكرهم بك واعبد ربك حتى ياتيك اليقين وكانك به وقد اتى فاصبر فان الله معزك ومظهر دينك وقرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بفتحها + تنبيه + هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة فكان المعنى ولا يكن الضيق فيك الا ان الفائدة في قوله تعالى ولا تك في ضيق هو ان الضيق اذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ اي الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا اي وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصي وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ في اعمالهم والشفقة على خلقه وهذا يجري مجرى

التهديد لانه فى المرتبة الاولى رغبة فى ترك الانتقام على سبيل الرمز وفى الثانية عدل عن الرمز الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفى المرتبة الثالثة امر بالصبر على سبيل الجزم وفى هذه المرتبة الرابعة كانه ذكر الوعيد على فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا اى عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون اى فى ترك اصل الانتقام فكانه تعالى قال ان اردت ان اكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفى قوله تعالى اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله وفى قوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله تعالى قيل لهرم بن حيان عند قرب وفاته اوص فقال ان الوصية فى المال ولا مال لى ولكن اوصيكم بخواتيم سورة النحل ✦ تنبيه ✦ قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم الى لهو خير للصابرين منسوخ باية السيف قال الرازى وهذا فى غاية البعد لان المقصود من هذه الاية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوى الى الله تعالى وترك التعدى وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء باية السيف وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما انعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها او ليلته كان له من الاجر كالذى مات واحسن الوصية حديث موضوع قال الرازى فى اخر هذه السورة يقول مصنف الكتاب الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعالى فى غيب الغيب مكنونة والاسرار فيما وراء اقفال الغرة مخزونة وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس الا لله تعالى ذى الاكرام والجلال

سورة الاسراء وتسمى سبحان وبنى اسرائيل مكية

الا وان كادوا الايات الثمان مائة وعشر ايات او احدى عشرة والف وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة الاف واربعمائة وستون حرفا

بسم الله الملك المالك لجميع الامر الرحمن لكل ما اوجده بما براه الرحيم لمن خصه بالتزام العمل بما يرضاه وقوله تعالى سُبْحَانَ اسم بمعنى التسبيح الذى هو التنزيه وقد يستعمل علما له فيقطع عن الاضافة ويمنع من الصرف للعلمية وزيادة الالف والنون قال الاعشى فى مدحه عامر بن الطفيل ؎ قد قلت لما جاءنى فخره ✦ سبحان من علقمة الفاخر ✦ اى العجب منه اذ يفخر والعرب تقول سبحان من كذا اذا تعجبوا منه الشاهد فى سبحان حيث جعله علما على التنزيه فمنعه الصرف وعلقمة المذكور صحابى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فاسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حوران فمات بها الَّذِي اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو اشرف عباده على الاطلاق واحقهم بالاضافة اليه وقرأ ابو عمرو وحمزة والكسائى اسرى بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى لَيْلًا نصب على الظرف والاسراء سير الليل وفائدة ذكره

الاشارة بتنكيره الى تقليل مدته فكان هذا الامر الجليل فى جزء يسير من الليل والى انه عليه الصلوة والسلام لم يحتج فى الاسراء والعروج الى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العلى الاعلى الى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيأ لذلك متأهلا له فاقامه تعالى من الفرش الى العرش مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اى بعينه وهو الذى يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى انه صلى الله عليه وسلم قال بينا انا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ اتانى جبريل بالبراق وقيل كان نائما فى الحطيم وقيل فى بيت ام هانى بنت ابى طالب قال البقاعى وهو قول الجمهور والمراد بالمسجد حينئذ الحرم لانه فناء المسجد اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَى اى بيت المقدس الذى هو بعيد المسافة حينئذ وابعد المسجدين الاعظمين مطلقا من مكة المشرفة بينهما اربعون ليلة فصلى بالانبياء كلهم ابراهيم وموسى ومن سواهما على جميعهم افضل الصلوة والسلام ورأى من اياتنا الكبرى ما قدرناله كما سيأتى فى حديث المعراج ورجع بين اظهركم الى المسجد الاقرب منكم فى ذلك الجزء اليسير من الليل وانتم تضربون اكباد الابل فى هذه المسافة شهرا ذهابا وشهرا ايابا ثم وصفه تعالى بما يقتضى تعظيمه وانه اهل للقصد بقوله تعالى الَّذِىْ بٰرَكْنَا حَوْلَهٗ اى بما لنا من العظمة بالمياه والاشجار وقال مجاهد سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحى ومنه يحشر الناس يوم القيامة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والارزاق والبركات وبارك تعالى حوله لاجله فما ظنك به نفسه فهو ابلغ من باركنا فيه ثم منه الى السموات العلى الى سدرة المنتهى الى ما لم ينله بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال البقاعى ولعل حذف ذكر المعراج من القرآن هنا لقصور افهامهم عن ادراك ادلته لو انكروه بخلاف الاسراء فانه اقام دليله عليهم بما شاهدوه من الامارات التى وصفها لهم وهم قاطعون بانه صلى الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك علما بان صدقه بما ذكر من الامارات اخبر بعد ذلك من اراده الله تعالى بالمعراج ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسراء بقوله تعالى لِنُرِيَهٗ بعينه وقلبه مِنْ اٰيٰتِنَا اى عجائب قدرتنا السماوية والارضية كما ارينا اياه الخليل عليه السلام ملكوت السموات والارض اِنَّهٗ اى الله هُوَ السَّمِيْعُ لجميع الاقوال الْبَصِيْرُ اى العالم باحوال عباده فيكرم ويقرب من شاء منهم وقيل انه اى هذا العبد الذى اختصصناه بالاسراء هو اى خاصة السميع اى اذنا وقلبا بالاجابة لنا والاذعان لاوامرنا البصير بصرا وبصيرة بدليل ما اخبر به من الايات وصدقه من الدلالات حتى نعت ما سألوه عنه من بيت المقدس ومن امر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور فى قصة الاسراء واختلف هل اسرى بروحه او بجسده صلى الله عليه وسلم فعن عائشة رضى الله تعالى عنها انها كانت تقول ما فقدت جسد النبى صلى الله عليه وسلم ولكن اسرى بروحه والاكثرون على انه اسرى بجسده فى اليقظة وتواترت الاخبار الصحيحة على ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم اوتيت بالبراق وهو دابة ابيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بى حتى اتيت بيت المقدس

قوله الذى هو ... كلام مستقل

فربطت الدابة بالحلقة التي تربط فيها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن قال جبريل عليه السلام اصبت الفطرة قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد ارسل اليه قال قد ارسل اليه ففتح لنا فاذا انا بادم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من انت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد ارسل اليه قال قد ارسل اليه ففتح لنا فاذا انا بيوسف واذا هو قد اعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد ارسل اليه قال قد ارسل اليه ففتح لنا فاذا انا بادريس فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من انت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد ارسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بهرون فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بابراهيم فاذا هو مستند الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى السدرة المنتهى فاذا ورقها كاذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من امر الله ما غشيها تغيرت فما احد من خلق الله يستطيع ان يصفها من حسنها قال صلى الله عليه وسلم فاوحى الى عبده ما اوحى وفرض علي في كل يوم وليلة خمسين صلوة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال ما فرض ربك على امتك قلت خمسين صلوة في كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان امتك لا تطيق ذلك واني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربي فقلت له اي رب خفف عن امتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عني خمسا قال ان امتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لان امتك لا تطيق ذلك قال فلم ازل ارجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمسا خمسا حتى قال يا محمد هي خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلوة عشر فتلك خمسون صلوة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فاخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فان امتك لا تطيق فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت رواه الشيخان وروي انه قال بعد ذلك ولكن ارضى واسلم فلما جاوزت نادى مناد امضيت فريضتي وخففت عن عبادي ثم ادخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك وروي انه لما

وصل الى سدرة المنتهى فاذا اربعة انهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذان يا جبريل
قال اما الباطنان فنهران في الجنة واما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت المعمور ثم
اوتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فاخترت اللبن فقال هي الفطرة التي انت عليها وامتك
قال ثم فرضت علي الصلوة خمسين صلوة كل يوم فرجعت فمررت على موسى وساق الحديث ومنها مارواه
الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ربي
عز وجل قال هي رؤيا عين اريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به الى بيت المقدس قال
والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم ومنها مارواه قتادة عن انس بن مالك رضي الله تعالى
عنه ان نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة الاسراء به قال بينا انا في الحطيم وربما قال في
الحجر مضطجع ومنهم من قال بين النائم واليقظان وذكر بين رجلين واتيت بطست من ذهب مملوءة
حكمة وايمانا فشق من النحر الى مراق البطن واستخرج قلبي فغسل ثم حشي ثم اعيد وقال سعيد وهشام
ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة ثم اتيت بالبراق وهو دابة ابيض طويل فوق الحمار ودون
البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته وساق بقية الحديث ومنها ماروي انه
صلى الله عليه وسلم كان نائما في بيت ام هانئ بعد صلوة العشاء فاسري به ورجع من ليلته وقص القصة
على ام هانئ وقال مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت ام هانئ بثوبه فقال
ما لك قالت اخشى ان يكذبك الناس وقومك ان اخبرتهم قال وان كذبوني فخرج اليهم وروي انه
لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به فكان بذي طوى قال يا جبريل ان قومي لا يصدقوني
قال يصدقك ابو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لما كانت ليلة اسري بي فاصبحت بمكة فظعت بامري وعرفت ان الناس يكذبوني فروي انه عليه
الصلوة والسلام قعد معتزلا حزينا فمر به ابو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من
شيء قال نعم اسري بي الليلة قال الى اين قال الى بيت المقدس قال ثم اصبحت بين ظهرانينا قال نعم
فقال ابو جهل يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فانتفضت اليه المجالس فجاؤا حتى جلسوا اليهما قال
حدث قومك بما حدثتني قال نعم اني قد اسري بي الليلة قالوا الى اين قال الى بيت المقدس قالوا ثم
اصبحت بين اظهرنا قال نعم فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس
ممن كان آمن به وسعى رجال الى ابي بكر رضي الله عنه فقالوا له هل لك في صاحبك يزعم انه اسري به
الليلة الى بيت المقدس قال او قد قال قالوا نعم قال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا اتصدقه على انه
قال اني لاصدقه على ابعد من ذلك اصدقه على خبر السماء في غدوة او روحة فسمي الصديق قال وفي القوم
من كان يأتي المسجد الاقصى فقالوا فهل تستطيع ان تنعت لنا المسجد الاقصى قال نعم قال فذهبت
انعت وانعت فما زلت انعت حتى التبس علي قال فجيء بالمسجد وانا انظر اليه حتى وضع دون
دار عقيل فنعت المسجد وانا انظر اليه فقال القوم اما النعت فوالله لقد اصاب ثم قالوا يا محمد

اخبرنا عن عيرنا فهي اهم الينا هل لقيت منها شيئا قال نعم مررت على عير بني فلان وهي بالروحاء
وقد اضلوا بعيرا لهم وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فاخذته فشربته ثم وضعته
كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا اليه قالوا وهذه آية قال ومررت بعير بني فلان
وفلان وفلان راكبان قعودا لهما فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فاسألوهما عن ذلك
قالوا وهذه آية قالوا فاخبرنا عن عيرنا متى تجيء قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها واحمالها
وما احمالها ومن فيها فقال هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل اورق عليه غرارتان
مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون
والله لقد قص محمد شيئا وبينه حتى اتوا كدا فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه
اذ قال قائل منهم هذه الشمس والله قد اشرقت فقال آخر والله وهذه العير قد اقبلت يقدمها
جمل اورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا الا سحر مبين والاورق من الابل الذي في لونه بياض
الى سواد وهو اطيب الابل لحما قاله الجوهري ومنها ما روي عن انس بن مالك قال كان ابو ذر يحدث
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وانا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم
غسله من ماء زمزم وجاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فافرغها في صدري ثم اطبقه
ثم اخذ بيدي وعرج بي الى السماء فلما جئنا الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال
ومن هذا قال جبريل قال هل معك احد قال نعم معي محمد قال فارسل اليه قال نعم ففتح قال فلما
علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك
واذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم
وهذه الاسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل اليمين منهم اهل الجنة والاسودة التي عن شماله
اهل النار واذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل حتى اتى الى السماء الثانية
فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا فقال انس بن مالك فذكر انه وجد
في السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم ولم يبين كيف منازلهم غير انه ذكر انه وجد آدم في السماء
الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله صلى الله عليهما وسلم بادريس
فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال انه ادريس قال ثم مررت بموسى
فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى فقال ثم مررت بعيسى فقال
مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال فقلت من هذا قال عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالابن الصالح
والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب اخبرني ابن حزم ان ابن عباس كان يقول
كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى اسمع فيه صريف الاقلام وروى معمر
عن قتادة عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم اتى بالبراق ليلة اسري به ملجما مسرجا فاستصعب
عليه فقال جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك احد اكرم على الله منه فارفض عرقا قال ابن زيد

عن ابيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت الى بيت المقدس قال جبريل باصبعه فخرق
بها الحجر وشد به البراق وفي رواية انه جاء جبريل بالبراق الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له
يا محمد اركب فركبه صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل وطار به البراق في الهواء فاخترق به
الجو فعطش صلى الله عليه وسلم واحتاج الى الشراب فاتاه جبريل باناءين اناء من لبن واناء من
خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه السلام اصبت
الفطرة اصاب الله تعالى بك امتك ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يتأول اللبن بالعلم فلما وصل
الى السماء الدنيا استفتح الى ان قال ثم عرج بي الى سدرة المنتهى واخبره جبريل ان اعمال بني آدم تنتهي الى
تلك السدرة وانها مقر الارواح فهي نهاية لما ينزل مما فوقها ونهاية لما يعرج اليها مما هو دونها وبها مقام
جبريل عليه السلام فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق وجيء اليه بالرفرف وهو نظير المحفة عندنا فقعد
عليه وسلمه جبريل الى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة ليأنس به فقال لا اقدر لو خطوت خطوة
لاحترقت فما منا الا له مقام معلوم وما اسرى الله بك يا محمد الا ليريك من آياته فلا تغفل فودعه
وانصرف مع ذلك الملك والرفرف والملك يمشي به الى ان ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الاقلام في الالواح
وهي تكتب ما يجريه الله تعالى في خلقه وما تنسخه الملائكة من اعمال عباده قال تعالى انا كنا نستنسخ
ما كنتم تعملون ثم زج بي في النور زجة فافرده الملك الذي كان معه وتأخر عنه فلم يره معه فسأله
فقال ان الرفرف ما انتهى الى الا لكون البراق له مكان لا يتعداه كجبريل لما بلغ الى المكان الذي لا يتعداه وقف وكذلك
الرفرف لما وصل الى مقام لا يتعداه ازج به في النور فغمره النور من جميع نواحيه واعطي علما آخر لم يكن يعلمه
قبل ذلك من وحي من حيث لا يدري ترجمته. وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لقد رأيتني وانا في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن اشياء من بيت المقدس لم اثبتها فكربت
كربة ما كربت مثلها قط فرفعه الله لي انظر اليه ما سألوني عن شيء الا انبأتهم به وقد رأيتني في جماعة
من الانبياء فاذا موسى قائم يصلي فاذا رجل جعد كانه من رجال شنوءة واذا عيسى بن مريم قائم يصلي اقرب
الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قائم يصلي اشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه
صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فاممتهم فلما فرغت قال قائل يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه
فالتفت اليه فبدأني بالسلام وعن جابر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبني قريش قمت
الى الحجر فجلى الله لي بيت المقدس وذكر الحديث وعن انس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال اتيت موسى ليلة اسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلي في قبره فان قيل راى رسول الله صلى الله
عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف تصلي الانبياء بعد الموت وهم في دار الآخرة اجيب بان
صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء عليهم السلام ببيت المقدس يحتمل ان الله تعالى جمعهم له
ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله تعالى اراه اياهم في السموات على مراتبهم
ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وامامه رؤيته بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الاحمر

فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج واما حكم صلوة الانبياء وهم فى الدار الآخرة فهم فى حكم
الشهداء بل هم افضل منهم وقد قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء
فالانبياء بعد الموت اولى واما حكم صلواتهم فيحتمل انها بالذكر والدعاء وذلك من اعمال الآخرة
قال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد فى الحديث انهم يلهمون التسبيح كما يلهمون
النفس ويحتمل ان الله تعالى خصهم بخصائص فى الآخرة كما خصهم فى الدنيا بخصائص لم يخص
بها غيرهم منها انه صلى الله عليه وسلم اخبر انه راهم يلبون ويحجون فكذلك الصلوة والله اعلم
بحقائق الامور وروى عن شريك بن عبد الله قال سمعت انس بن مالك يقول ليلة اسرى
برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاءه ثلاثة نفر قبل ان يوحى اليه وهو نائم فى
المسجد الحرام فقال اولهم ايهم هو فقال اوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم وساق حديث
المعراج بقصته قال فاذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال ما هذان يا جبريل قال هذا النيل والفرات
عنصرهما ثم مضى به فى السماء فاذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك
اذفر فقال ما هذا يا جبريل قال هو الكوثر الذى خبألك ربك وذكر فى آخر حديثه انه صلى الله عليه وسلم
قال فى آخر الحديث ثم علا بى حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه كقاب
قوسين او ادنى فاوحى اليه وذكرت عائشة ان الذى دنا فتدلى جبريل عليه السلام وسيأتى الكلام
على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة النجم فان قيل قوله تعالى لنريه من آياتنا يدل على انه تعالى ما اراه
الا بعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم عليه الصلوة والسلام وكذلك نرى
ابراهيم ملكوت السموات والارض اى ملكهما فيلزم ان يكون معراج ابراهيم افضل من معراج نبينا عليهما
السلام اجيب بانه لما اضيفت تلك الآيات الى الله تعالى دل على انها افضل مما اراه ابراهيم. تنبيه
قال النووى فى شرح مسلم قد جاء فى رواية شريك فى حديثه اوهام انكرها عليه العلماء منها قوله
وذلك قبل ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسراء اقل ما قيل فيه انه كان بعد مبعثه
صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الطبرانى كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل
الهجرة بسنة وقال الزهرى كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين قال ابن اسحق اسرى
به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل وقيل كان الاسراء فى رجب [illegible]
قال النووى واشبه الاقوال قول الزهرى وابن اسحق ومما يدل على انه اسرى بجسده صلى الله عليه وسلم
قوله تعالى اسرى بعبده ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقوله صلى الله عليه وسلم اتيت
بالبراق وهو اسم للدابة التى ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء مشتقا من البرق
لسرعته او لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤ نوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد
بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط فى الامور وتعاطى الاسباب وان ذلك لا يقدح فى التوكل اذا
كان الاعتماد على الله تعالى وقوله فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن [illegible]

والمقدس ثم قال لي اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الاسلام وجعل اللبن
علامة الفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلاً طيباً سائغاً للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف
الخمر فانها ام الخبائث وجالبة لانواع الشر وقوله ثم عرج بي حتى اتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل
فقيل من انت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استأذن ان يقول انا فلان ولا يقول انا فقط فانه مكروه
وفيه ان للسماء ابواباً وبوابين عليها حرساً وقول بواب السماء وقد ارسل اليه وفي الرواية الاخرى
وقد بعث اليه معناه للاسراء وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن اصل البعثة والرسالة
فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة وقوله فاذا انا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب
لقاء اهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان الزائر افضل من المزور وفيه
جواز مدح الانسان في وجهه اذا امن عليه من الاعجاب وغيره من اسباب الفتنة وقوله فاذا انا بابراهيم
مسنداً ظهره الى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل الظهر اليها وقوله ذهب
بي الى السدرة المنتهى هكذا وقع في هذه الرواية بالالف واللام وفي باقي الروايات الى سدرة
المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهي اليها ولم يجاوزها
احد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونه ينتهي اليها ما يهبط
من فوقها وما يصعد من تحتها من امر الله عز وجل وقوله واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف
جمع قلة بضمها وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين او اكثر وقوله فرجعت الى ربي قال النووي معناه
رجعت الى الموضع الذي ناجيته منه اولاً فناجيته فيه ثانياً وقوله فلم ازل ارجع بين موسى وبين ربي
معناه بين موضع مناجاة ربي وقوله ففرض على امتي خمسين صلاة الى قوله فوضع عني خمساً وفي رواية
شطرها وفي رواية عشراً ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه
التنصيف واما رواية العشر فهو رواية شريك ورواية الخمس رواية قتادة وهو اثبت من شريك والمراد
حط عني خمساً الى الآخر ثم قال هي خمس وهي خمسون يعني خمسون في الاجر والثواب لان الحسنة
بعشر امثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء قبل فعله وفي الحديث انه شق صدره
ليلة المعراج وقد شق صدره ايضاً في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني
زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله اتيت بطست من ذهب قد يتوهم انه يجوز
استعمال الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهم مباح لهم استعمال
الذهب او لعل هذا كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ حكمة وايماناً فافرغها في صدري قد يقال الحكمة
والايمان من المعاني والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك اجيب بانه يحتمل انه جعل في الطست
شيء يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما فسمي ايماناً وحكمة لكونه سبباً لهما وهذا من احسن المجاز
وقوله في صفة آدم فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة جمع سواد وقد فسره في الحديث
بانه نسم بنيه يعني ارواح بنيه فان قيل ارواح المؤمنين في السماء واما ارواح الكفار فتحت

الارض السفلی فکیف تکون فی السماء واجیب بانه یحتمل ان ارواح الکفار تعرض علی آدم علیه السلام
وهو فی السماء فوافق وقت عرضها علی آدم مرور النبی صلی الله علیه وسلم فاخبر بما رای وقوله اذا
نظر عن یمینه ضحک واذا نظر عن شماله بکی فیه شفقة الوالد علی اولاده وسروره وفرحه بحسن
حال المؤمن منهم وحزنه علی حال الکافر منهم وقوله فی ادریس مرحبا بالاخ الصالح والنبی الصالح
قد اتفق المؤرخون انه هو اخنوخ جد نوح فیکون جد النبی صلی الله علیه وسلم کما ان ابراهیم جده
فکان ینبغی ان یقول بالنبی الصالح والابن الصالح کما قال آدم وابراهیم واجیب بانه قیل ان ادریس
المذکور هنا هو الیاس وهو من ذریة ابراهیم فلیس هو جد نوح قاله القاضی عیاض وقال النووی
لیس فی هذا الحدیث ما یمنع کون ادریس ابا لنبینا صلی الله علیه وسلم وان قوله الاخ الصالح
یحتمل ان یکون قاله تلطفا وتادبا وهو اخ وان کان ابنا لان الانبیاء اخوة والمؤمنون اخوة انتهی
وانما اطلت فی بیان ذلک لان الکلام مع الاحبة یطول ولولا خوف الملل ما اقتصرت علی ذلک
فقد قال بعض المفسرین لا اعلم فی الکتاب العزیز سورة تضمنت من خصائصه التی فضل بها
کافة الانبیاء ما تضمنته هذه السورة ولکن فی هذا القدر کفایة لاولی الالباب • ولما اثبت
بهذه الخارقة ما اخبر به صلی الله علیه وسلم عن نفسه المقدسة من عظیم القدرة وما جاءه
صلی الله علیه وسلم من الآیات البینات فی هذا الوقت الیسیر اتبعه ما منح فی السیر من مصر الی
الارض المقدسة من الآیات فی مدة طوال موسی علیه الصلوة والسلام الذی کان اعظم الانبیاء
برکة علی هذه الامة لیلة الاسراء لما ارشد النبی صلی الله علیه وسلم الیه من مراجعة الله تعالی فی
تخفیف الصلوة حتی رجعت من خمسین الی خمس مع اجر خمسین فقال ﴿وَاٰتَیْنَا﴾ ای بعظمتنا ﴿مُوْسَی الْکِتٰبَ﴾
ای التوریة ﴿وَجَعَلْنٰهُ﴾ ای الکتاب بما لنا من العظمة ﴿هُدًی لِّبَنِیْٓ اِسْرَآءِیْلَ﴾ بالحمل علی العدل فی التوحید
والاحکام واسرینا بموسی علیه السلام وبقومه من مصر الی بلاد المسجد الاقصی فاقاموا سائرین
الیها اربعین سنة ولم یصلوا ومات کل من خرج الا النقیبین الموفیین بالعهد فقد بان الفضل بین
الاسراءین کما بان الفضل بین الکتابین فذکر الاسراء اولا دلیل علی حذف مثله ثانیا فالآیة
من الاحتباک ثم نبه علی ان المراد من ذلک کلمة التوحید اعتقادا وعبادة بقوله تعالی ﴿اَلَّا﴾ ای لئلا
﴿تَتَّخِذُوْا﴾ علی قراءة ابی عمرو بالیاء علی الغیبة وقرأ غیره بالتاء علی ان لا تتخذوا کقولک کتبت الیه
ان افعل کذا ﴿مِنْ دُوْنِیْ وَکِیْلًا﴾ ای ربا تکلون الیه امورکم وذلک هو التوحید فلا معراج اعلی ولا درجة
اشرف ولا نعمة اعظم من ان یصیر المؤمن غریقا فی بحر التوحید وان لا یعول فی امر من الامور الا علی الله تعالی
فان نطق نطق بذکر الله وان تفکر تفکر فی دلائل تنزیه الله وان طلب طلب من الله فیکون کله لله
وبالله والی الله وقوله تعالی ﴿ذُرِّیَّةَ﴾ نصب علی الاختصاص فی قراءة ابی عمرو وعلی النداء عند الباقین
ای یا ذریة ﴿مَنْ حَمَلْنَا﴾ ای فی السفینة بعظمتنا علی ظهر ذلک الماء الذی طبق ما تحت ادیم السماء
وفیه تنبیه تعالی علی شرفهم وتمام نعمته علیهم بقوله تعالی ﴿مَعَ نُوْحٍ﴾ ففی ذلک تذکیر بانعام الله تعالی

عليهم وانجاء ابائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة قال قتادة الناس كلهم من ذرية
نوح لانه كان معه في السفينة ثلاث بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية اولئك
قال البقاعي لان الصحيح ان من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يعقبوا ولم يبق الا ذرية نوح ليعلم
انهم عقب اولاد المؤمنين لتكون تلك منة اخرى ثم انه تعالى اثنى على نوح حثا على الاقتداء به
في التوحيد كما اقتدى به اباؤهم في ذلك بقوله تعالى انه كان عبدا شكورا اى مبالغا في الشكر الذى
هو صرف العبد جميع ما انعم الله تعالى به عليه لما خلق له روى انه عليه الصلاة والسلام كان اذا
اكل قال الحمد لله الذى اطعمنى ولو شاء اجاعنى وفي رواية انه يسمى اذا اكل ويحمد اذا فرغ
واذا شرب قال الحمد لله الذى سقانى ولو شاء اظمانى واذا اكتسى قال الحمد لله الذى كسانى
ولو شاء اعرانى واذا احتذى قال الحمد لله الذى حذانى ولو شاء احفانى واذا قضى حاجته قال
الحمد لله الذى اخرج عنى اذاه في عافية ولو شاء حبسه وفي رواية انه كان يقول الحمد لله الذى
اذاقنى لذته وابقى منفعته في جسدى واخرج عنى اذاه وفي رواية انه كان اذا اراد الافطار عرض
طعامه على من آمن به فان وجده محتاجا اثره به ولما ذكر تعالى انعامه على بنى اسرائيل بانزال التورية
عليهم وانه جعل التورية هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداها بل وقعوا في الفساد بقوله تعالى
وقضينا اى اوحينا الى بنى اسرائيل اى الى بنى يعقوب عليه السلام الذى كان اطوع اهل
زمانه وحيا مقطوعا مبتوتا في الكتاب اى التورية التى اتيناها ووصلناها اليهم على لسان موسى عليه السلام
وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقوله تعالى لتفسدن جواب قسم محذوف ويجوز ان يجرى القضاء
المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كانه قال واقسمنا لتفسدن في الارض اى ارض الشام
قاله السيوطى وقال الرازى ارض مصر ويوافق الاول قول البقاعي اى المقدسة التى كانوا شرفوا بها
الارض مرتين اى افسادتين قال في الكشاف اولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس ارمياء حين
انذرهم سخط الله تعالى والاخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن مريم وقال البيضاوى
الاولى مخالفة احكام التورية وقتل شعيا وقيل ارمياء وثانيتهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم
السلام ولتعلن اى بما صرتم اليه من البطر بنسيان المنعم علوا كبيرا بالظلم والتمرد لانه يقال لكل متكبر
قد علا وتعظم فاذا جاء وعد اولاهما اى اول مرتى الفساد وهو الوقت الذى حددناه لهم للانتقام فيه
بعثنا عليكم عبادا لنا اى لا يدان لكم بهم كما قال تعالى اولى باس شديد اى اصحاب قوة في الحرب
والبطش [illegible] قال في الكشاف سنحاريب وجنوده وقيل بختنصر وقال ابن عباس جالوت قتلوا
علماءهم واحرقوا التورية وخربوا المساجد وسبوا منهم سبعين الفا وقال البيضاوى عباد الناس بختنصر
عامل لهراسف على بابل وجنوده وقيل جالوت الجزرى وقيل سنحاريب [illegible]
[illegible] ومعناها وهو الذى قتله داود [illegible] من الناس وذكر الرازى في ذلك
[illegible] ان الله تعالى سلط عليهم بختنصر فقتل منهم اربعين الفا ممن يقرأ التورية وذهب

بالبقية الى ارض نفسه فبقوا هناك فى الذل الثانى ان الله تعالى القى الرعب من بنى اسرائيل فى قلوب المجوس فلما كثرت المعاصى فيهم ازال الله ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا فى قتلهم وافنائهم واهلاكهم واخرج ابن ابى حاتم عن عطية قال افسد والمرّة الاولى فارسل الله عليهم جالوت فقتلهم وافسد والمرّة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر وعن ابن مسعود قال كان اول الفساد من قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك القبط وعن على بن ابى طالب رضى الله عنه قال الاولى قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازى واعلم انه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة اولئك الاقوام باعيانهم بل المقصود هو انهم لما اكثروا من المعاصى سلط الله عليهم اقواما فقتلوهم وافنوهم ثم قال الله تعالى فَجَاسُوا اى ترددوا لطلبكم خِلَالَ الدِّيَارِ اى وسطها للقتل والغارة قال البيضاوى فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التورية وخربوا المسجد والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك اولوا البعث بالتخلية انتهى وفى ذلك تعريض بالزمخشرى فانه قال فى كشافه فان قلت كيف جاز ان يبعث الله تعالى الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه قلت معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على ان الله عز وجل اسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه فهو كقوله تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وَكَانَ اى ذلك البعث ووعد العقاب به وَعْدًا مَفْعُولًا اى قضاء كائنا لازما لا شك فى وقوعه ولا بد ان يفعل ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ اى الدولة والغلبة عَلَيْهِمْ حتى تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد فى زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد مائة سنة وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ تستعينون بها على قتال عدوكم وَبَنِينَ تتقوون بهم وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ من عدوكم نَفِيرًا اى عشيرة تنفر معكم عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو ولما حكى الله تعالى عنهم انهم لما عصوا سلط الله عليهم اقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبى ولما تابوا ازال عنهم تلك المحنة واعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر انهم ان اطاعوا الله فقد احسنوا الى انفسهم وان اصروا على المعصية فقد اساؤا على انفسهم وقد تقرر فى العقول ان الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى إِنْ أَحْسَنْتُمْ اى بفعل الطاعة على حسب الامر فى الكتاب الداعى الى العدل والاحسان أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ اى لان ثوابها لها وَإِنْ أَسَأْتُمْ بارتكاب المحرمات والافساد فَلَهَا اى الاساءة لان وبالها عليها قال النحويون وانما قال وان اساتم فلها للتقابل والمعنى فاليها او فعليها كما مر من ان حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها اى اليها + تنبيه + قال اهل الاشارات هذه الآية تدل على ان رحمة الله غالبة على غضبه بدليل انه تعالى لما حكى عنهم الاحسان ذكره مرتين فقال تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال تعالى وان اساتم فلها ولولا ان جانب الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ اى ثانية فى

الافساد وهو الوقت الذي حدّد فاله الانتقام فيه ليسوؤا اي بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوؤا وجوهكم
اي يجعلوا آثار الاساءة بادية فيها وحذف متعلق اللام لدلالة الاول عليه وقرأ الكسائي بعد اللام
بنون مفتوحة على التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة واما الهمزة التي بعد الواو التي
بعد السين فقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وحفص بضم الهمزة ومدّها والباقون بفتح الهمزة
ولا مدّ وقوله تعالى وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ عطف على ليسوؤا والمراد بالمسجد الاقصى الذي سقناكم
اليه من مصر في تلك المدد الطوال واعطيناكم بلاده بالتدريج وجعلناه محل عزكم وامنكم ثم جعلناه
محل الاكرام اشرف خلقنا بالاسراء به اليه وجمع ارواح النبيين كلهم فيه وصلاته بهم وهذا تعريض
بتهديد لقريش بانهم ان لم يرجعوا ابدل الله امنهم في الحرم خوفا وعزهم ذلا وادخل عليهم جنودا لا قبل لهم
بها وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل اكرام لا اهانة ببركة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم
كَمَا دَخَلُوهُ اي الاعداء أَوَّلَ مَرَّةٍ بالسيف والقهر واجتمع جنودكم دفعة واحدة وَلِيُتَبِّرُوا اي يهلكوا
ويدمروا والمراد التقطيع والتفريق مَا عَلَوْا اي عليه من ذلك وقيل ما مصدرية اي مدة علوهم
تَتْبِيرًا اي اهلاكا قال الزجاج وكل شيء جعلته مكسرا مفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب
لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازي وهذه المرة
الاخيرة هي اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوي وذلك بان سلط عليهم
الفرس مرة اخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرز وقيل جردوس قيل دخل صاحب
الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلي فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال
ما صدقتموني فقتل عليه الوفا منهم فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقوني ما تركت منكم احدا فقالوا انه
دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم ثم قال يا يحيى اي خطابا للدم قد علم ربي وربك ما اصاب
قومك من اجلك فاهدأ باذن الله قبل ان لا يبقى احد منهم فهدأ اي سكن وقال الواحدي فبعث
الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي ابغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وخرب بيت المقدس قال
الرازي اقوال التواريخ تشهد ان بختنصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة
ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم يقال له قسطنطين الملك والله اعلم
باحوالهم ولا يتعلق غرض من اغراض تفسير القرآن بمعرفة اعيان هؤلاء الاقوام انتهى ولما انقضى
ذلك كان كانه قيل هل بقي لهم نصرة على عدوهم فقال تعالى عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ يا بني اسرائيل
بعد انتقامه منكم فترد الدولة اليكم ثم بعد ان اطمعهم خوفهم بقوله تعالى وَإِنْ عُدْتُمْ اي الى المعصية
عُدْنَا اي الى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة اخرى قال القفال انما حملنا هذه الآية على عذاب
الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن بني اسرائيل واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى
يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال وانهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد
صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والانجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب على ايدي

العرب فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقي منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى وَجَعَلْنَا اي بعد ذلك بعظمتنا جَهَنَّمَ اي التي تلقى داخلها بالتجهم والكراهة لِلْكَافِرِينَ وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير لبيان تعلق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء في ذلك هم وغيرهم وقوله تعالى حَصِيرًا يحتمل ان يكون فعيلا بمعنى الفاعل اي جعلنا جهنم حاصرا لهم ويحتمل ان يكون بمعنى مفعول اي جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد يتفلت بعض الناس عنه والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص منه اما بالموت واما بطريق آخر واما عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه ابدا • ولما بين سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذي انزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس في تلك المدة المتطاولة وجعله هدى لبني اسرائيل صادق الوعد والوعيد بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذي انزل عليه منه في سبب مسيره اليه في ذلك ووصفه ثلاثة انواع من الصفات الاولى قوله تعالى اِنَّ هٰذَا الْقُرْاٰنَ اي الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس يَهْدِيْ لِلَّتِيْ اي الى الطريق التي هِيَ اَقْوَمُ اي اصوب من كل طريق فقوله تعالى للتي هي اقوم نعت لموصوف محذوف كما تقرر ويصح ان يقدر الملة والشريعة اي يهدي الى الملة والشريعة التي هي اقوم الملل والشرائع ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله تعالى ادفع بالتي هي احسن وقيل الى الكلمة التي هي اعدلها وهي شهادة ان لا اله الا الله • تنبيه • لفظ افعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله اكبر اي الله الكبير وكقولنا الاشج والناقص اعدلا بني مروان فاقوم يحتمل ان يكون كذلك وان يبقى على ظاهره الصفة الثانية قوله تعالى وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ اي الراسخين في هذا الوصف ولهذا قيدهم بيانا لهم بقوله الَّذِيْنَ اي يصدقون ايمانهم بانهم يَعْمَلُوْنَ اي على سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم الصّٰلِحٰتِ من التقوى والاحسان اَنَّ لَهُمْ اَجْرًا كَبِيْرًا هو الجنة والنظر الى وجه الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة فان قيل قال هنا اجرا كبيرا وفي الكهف اجرا حسنا اجيب بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد في كل منهما الصفة الثالثة قوله تعالى وَاَنَّ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالْاٰخِرَةِ اَعْتَدْنَا اي احضرنا وهيأنا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا وهو النار في الآخرة وهو عطف على ان لهم اجرا كبيرا والمعنى انه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب اعدائهم نظيره قولك بشرت زيدا بانه سيعطى وبان عدوه سيمنع فان قيل كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب اجيب بان هذا مذكور على سبيل التهكم او انه من باب اطلاق احد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها او على يبشر باضمار يخبر فان قيل هذه الآية واردة في شرح احوال اليهود

ع

وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة اجيب بان اكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وبان بعضهم قال لن تمسنا النار الا اياما معدودات فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة ولما بين سبحانه وتعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم والانسان قد يقدم على ما لا فائدة فيه بينه بقوله تعالى وَيَدْعُ الْاِنْسَانُ بِالشَّرِّ عند ضجره على نفسه واهله وماله دُعَآءَهُ اي مثل دعائه بالخير ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك روي انه صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة اسيرا فاقبل يئن في الليل فقالت له ما لك فبكى وشكا قمطه فارخت كتافه فهرب فلما اصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فاعلمت بشانه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يديها تتوقع ان يقطع الله تعالى يدها فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انما انا بشر اغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له وقيل المراد النضر بن الحرث حيث قال اللهم انصر خير الحزبين اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الى آخره فاجاب الله تعالى دعاءه وضربت رقبته يوم بدر صبرا وكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل ولاعتقاد ان محمدا كاذب فيما يقول وقيل المراد ان الانسان قد يبالغ في الدعاء طالبا الشيء قد يعتقد ان خيره فيه مع ان ذلك الشيء منبع لشره وضرره وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها واسرارها كما قال تعالى وَكَانَ الْاِنْسَانُ اي الجنس عَجُوْلًا اي يسارع الى كل ما يخطر بباله ولا ينظر الى عاقبته وقيل المراد آدم عليه السلام لما انتهى الروح الى سرته ذهب لينهض فسقط ＋ تنبيه ＋ حذفت واو ويدع التي هي لام الفعل خطا في جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظا في العربية لكنها لما كانت لا تظهر في اللفظ حذفت في الخط ونظيره قوله تعالى سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المنادي فما تغن النذر قال الفراء ولو كان ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الرازي اقول هذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الواو والياء في اكثر الفاظ القرآن وعدم اثباتها في هذه المواضع المعدودة يدل على ان هذا القرآن نقل كما سمع وان احدا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله ＋ ولما بين تعالى ما اوصل من نعم الدين وهو القرآن اتبعه بما اوصل اليهم من نعم الدنيا فقال وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ اٰيَتَيْنِ دالتين على تمام العلم وشمول القدرة وآية الليل كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة وكما ان المقصود من التكليف لا يتم الا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به الا بهاتين الآيتين فَمَحَوْنَآ اي بعظمتنا الباهرة اٰيَةَ الَّيْلِ اي طمسنا نورها بالاظلام لتسكنوا فيه فجعلناها لا يبصر فيها المرئيات كما لا يبصر الكتاب اذا محي وَجَعَلْنَآ اي بما لنا من القدرة اٰيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً اي مبصرا فيها بالضوء فلا تزال هذه الدار الناقصة في تنقل من نور الى ظلمة ومن الظلمة الى النور كما ان الانسان بعجلته التي يدعو اليها طبعه وتأنيه الداعي اليه عقله في انتقال من نقصان الى كمال ومن كمال الى

نقصان كما ان القمر الذي هو انقص من الشمس كذلك قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين
جزأ ونور القمر كذلك فمحى من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعلها مع نور الشمس وحكى ان الله تعالى امر جبريل
فامر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور وسأل ابن الكواء
عليا رضي الله عنه عن السواد الذي في القمر قال هو اثر المحو. تنبيه. المراد من الآيتين نفس
الليل والنهار والاضافة للبيان اي انه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا
اما الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام وهو
من اقوى الدلائل على انهما غير موجودين بذاتهما بل لابد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما
بالمقادير المخصوصة واما في الدنيا فلان مصالح الدنيا لا تتم الا بالليل والنهار فلولا الليل ما حصل السكون
والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف وقيل الليل والنهار ظرفان والتقدير وجعلنا آيتين
في الليل والنهار والمراد بالآيتين على هذا اما الشمس والقمر واما تكوير هذا على هذا وهذا على هذا ثم
ذكر تعالى بعض المنافع المرتبة على ذلك بقوله تعالى لتبتغوا اي تطلبوا طلبا شديدا فضلا من ربكم
اي المحسن اليكم فيهما بضياء هذا تارة ونور هذا اخرى ولتعلموا بفعل هذا عن هذا عدد السنين
والحساب لان الحساب يبنى على اربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين والعدد
للسنين والحساب لما دون السنين وهي الشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب
الاربعة لا يحصل الا التكرار كما انهم رتبوا العدد على اربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات
والالوف وليس بعدها الا التكرار. ولما ذكر تعالى احوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه
دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على اهل الدنيا
وقد ذكر تعالى في آيات كثيرة منافعهما كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا
وكقوله تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وشرح تعالى حالهما وفصل
ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا وبيانا
كاملا فلا جرم قال تعالى وكل شيء اي لكم اليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم فصلناه تفصيلا اي
بيناه تبيينا وهو كقوله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء وكقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب
تبيانا لكل شيء وقوله تدمر كل شيء بامر ربها وانما ذكر تعالى تفصيلا لاجل توكيد الكلام وتقريره فكأنه
قال فصلناه حقا. ولما بين تعالى انه اوصل الى الخلق اصناف الاشياء النافعة لهم في الدنيا والدين
مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بوجوه النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته
وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤولا عن اعماله واقواله كما قال تعالى وكل انسان
الزمناه اي بعظمتنا طائره اي عمله الذي قدره الله عليه من خير وشر لان العرب كانوا اذا ارادوا
الاقدام على عمل من الاعمال وارادوا ان يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير او شر اعتبروا
احوال الطير وهو انه يطير بنفسه او يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهل يطير متيامنا او متياسرا

او صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التى كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على
احوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشئ
باسم لازمه فقوله تعالى وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه اى وكل انسان الزمناه عمله فى عُنُقِهٖ الذى
هو محل التزيين بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله خيرا كان كالقلادة والحلى
فى العنق وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان كالغل فى عنقه وهو مما يشينه وقال مجاهد ما من
مولود يولد الا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى او سعيد قال الرازى والتحقيق فى هذا الباب انه
تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق
والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه ان يتجاوز ذلك المقدار وان كان ينحرف عنه بل لا بد وان
يصل اليه ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كانها تطير اليه وتصير اليه
فلهذا المعنى لا يبعد ان يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله تعالى الزمناه طائره فى عنقه
كناية عن كل ما قدره الله ومعنى فى عنقه حصوله له فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه
واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة انتهى ملخصا
ثم قال تعالى وَنُخْرِجُ لَهٗ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كِتٰبًا اى مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها
قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فاما الذى
عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذى عن شمالك فيحفظ لك سيئاتك حتى اذا مت طويت
صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وقوله تعالى يَلْقٰىهُ مَنْشُوْرًا
صفتان لكتابا وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف على البناء للمفعول من لقيته
كذا اى استقبلته به والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف وامال الالف بعد القاف
حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ثم انه اذا لقى كتابه يوم القيامة
يوم العرض قيل له اِقْرَاْ كِتٰبَكَ اى بنفسك كَفٰى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ الذى تكشف فيه الستور وتظهر جميع
الامور عَلَيْكَ حَسِيْبًا اى حاسبا بليغا فانك تعطى القدرة على قراءته اميا كنت او قارئا ولا ترى فيه
زيادة ولا نقصانا ولا تقدر ان تنكر منه حرفا وان انكره لسانك شهدت عليك اركانك فيا لها
من قدرة باهرة وقوة قاهرة ونصفة ظاهرة قال الحسن عدل والله فى حقك من جعلك حسيب
نفسك وقال السدى يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلنى
احاسب نفسى فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا فان قيل قد قال تعالى وكفى
بنا حاسبين فكيف الجمع فى ذلك اجيب بان المراد بالحسيب هنا الشهيد اى كفى بشخصك اليوم شاهدا
عليك او ان القيامة مواقف مختلفة ففى موقف يكل الله تعالى حسابهم الى انفسهم وعلمه محيط بهم
وفى آخر يحاسبهم هو وقوله تعالى مَنِ اهْتَدٰى فَاِنَّمَا يَهْتَدِىْ لِنَفْسِهٖ لان ثواب اهتدائه له لا يتعداه لغيره
وَمَنْ ضَلَّ فَاِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا اى اثمه عليها فلا يضر فى ضلاله سواه كما قال الكلبى دلالة على ان السن تمكن

من الخیر والشر وانه غیر مجبور علی عمل بعینه اصلا لان قوله تعالی من اهتدی الی اخره انما
یلیق بالقادر علی الفعل المتمکن منه کیف شاء واراد اما المجبور علی احد الطرفین الممنوع عن
الطرف الثانی فهذا لا یلیق به هذا مذهب اهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم انه تعالی
اعاد تقریر ان کل احد مختص باثر عمل نفسه بقوله تعالی وَلَا تَزِرُ ای نفس وَازِرَةٌ ای اثمة ای
لا تحمل وِزْرَ نفس اُخْرٰی بل انما تحمل وزرها فقط فان قیل ورد ان المظلوم یاخذ من حسنات
الظالم فاذا لم یوف یؤخذ من سیأت المظلوم وتطرح علی الظالم اجیب بان ذلک بسببه فهو کفعله
فان قیل قد ورد ان المیت یعذب ببکاء اهله اجیب بان ذلک محمول علی ما اذا اوصی بذلک وکان
ذلک الفعل کقول طرفة بن العبد شعر اذا مت فانعینی بما انا اهله + وشقی علی الجیب یا ابنة معبد
+ وعلیه حمل الجمهور الاخبار الواردة بتعذیب المیت علی ذلک فان قیل ذنب المیت فیما اذا
اوصی او امر بذلک فلا یختلف عذابه بامتثالهم وعدمه اجیب بان الذنب علی السبب یعظم
بوجود المسبب وشاهده من سن سنة سیئة الخ وقال الشیخ ابو حامد ان ما ذکر محمول علی الکافر
وغیره من اهل الذنوب ثم قال تعالی وَمَا كُنَّا ای علی ما لنا من القدرة مُعَذِّبِیْنَ احدا حَتّٰی نَبْعَثَ
رَسُوْلًا یبین له ما یجب علیه فمن بلغته دعوته فخالف امره واستکبر عن اتباعه عذبناه بما
یستحقه وهذا امر قد تحقق بارسال آدم علیه السلام ومن بعده من الانبیاء الکرام علیهم
السلام فی جمیع الامم قال تعالی ولقد ارسلنا فی کل امة رسولا وقال تعالی وان من امة
الا خلا فیها نذیر فان دعوتهم الی الله تعالی قد انتشرت وعمت الاقطار واشتهرت فان قیل
الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لان معهم ادلة العقل التی بها یعرف الله تعالی وقد اغفلوا
النظر وهم متمکنون منه واستحقاقهم العذاب لاغفالهم النظر فیما معهم وکفرهم لذلک لا لاغفال
الشرائع التی لا سبیل الیها الا بالتوقیف والعمل بها لا یصح الا بعد الایمان اجیب بان بعثة
الرسول من جملة التنبیه علی النظر والایقاظ من رقدة الغفلة لئلا یقولوا انا کنا عن هذا
غافلین فهلا بعثت الینا رسولا ینبهنا علی النظر فی ادلة العقل وفی الایة دلیل علی ان لا وجوب
قبل الشرع + فائدة فی حکم اهل الفترة بین نوح وادریس وبین عیسی ومحمد صلی الله علیه وسلم
وهم ثلاثة عشر قسما ستة سعداء واربعة اشقیاء وثلاثة تحت المشیئة فاما السعداء فقسم
وحد الله تعالی بنور وجده فی قلبه کقس بن ساعدة فانه کان یقول اذا سئل هل لهذا العالم اله قال
البعرة تدل علی البعیر واثر الاقدام یدل علی المسیر وقسم وحد الله تعالی بما یجلی لقلبه من النور
الذی لا یقدر علی دفعه وقسم القی فی نفسه واطلع من کشفه علی منزلة محمد صلی الله علیه وسلم فامن به
فی عالم الغیب وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه وقسم طالع فی کتب الانبیاء فعرف شرف محمد صلی الله علیه وسلم
فامن به وقسم امن بنبیه الذی ارسل الیه وادرک رسالة محمد صلی الله علیه وسلم وامن به فله اجران واما الاشقیاء
فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقلید وقسم عطل بعد ما اثبت لا عن استقصاء بنظر وقسم اشرک عن

تقليد محض وقسم على الحق وعاند فهذا الذي تحت المشيئة وقسم عطل لم يقر بوجوده عن نظر
قاصر لضعف في مراتبه وقسم اشرك عن نظر اخطأ فيه وقسم عطل بعد ما اثبت لا عن نظر بل قيل فيه اقصى
القوة هكذا قسم محيي الدين بن عربي في الباب الثالث من الفتوحات المكية نقل ذلك عنه شيخ وقته
الشيخ عبد الوهاب الشعراني ونقل عن السيوطي ان ابوي النبي صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة
والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة انه يموت ناجيا
ولا يعذب ويدخل الجنة قال وهذا مذهب لا خلاف فيه بين المحققين من ائمتنا الشافعية
في الفقه والاشاعرة في الاصول ونص على ذلك الامام الشافعي رضي الله عنه وتبعه على ذلك
الاصحاب قال السيوطي وقد ورد في الحديث ان الله تعالى احيا ابويه حتى امنا به وعلى ذلك
جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي وابو القاسم بن عساكر وابو حفص بن شاهين والسهيلي
والقرطبي والطبري وابن المنير وابن سيد الناس وابن ناصر الدين الدمشقي والصفدي وغيرهم
والاولى لنا الامساك عن ذلك فان الله تعالى لم يتعبدنا بذلك ونكل الامر في ذلك الى الله تعالى
ونقول كما قال النووي لما سئل عن طائفة ابي عيسى تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم
ولا تسألون عما كانوا يعملون ولما اخبر تعالى انه لا يعذب المخالفين قبل ارساله وعرفنا انه بعده
وان قدره لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى واذا اردنا ان نحيي قرية الحياة الطيبة في الدنيا
والاخرة القينا في قلوب اهلها امتثال اوامرنا والتقيد باتباع رسلنا واذا اردنا ان نهلك قرية
في الزمن المستقبل امرنا اي بما لنا من القدرة التامة الشاملة مترفيها اي منعميها الذين
لهم الامر والنهي قال الاكثرون امرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسله ففسقوا فيها اي
خرجوا عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على انه تعالى يامرهم بالفسق
فيفسقون الا ان هذا مجاز ومعناه انه فتح عليهم ابواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا
وبغوا قال والدليل على ان ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه ان المامور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل
عليه يقال امرته فقام وامرته فقرأ لا يفهم منه الا ان المامور به قيام وقراءة فكذا هنا لما قال امرنا مترفيها
ففسقوا فيها وجب ان يكون المعنى امرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم امرته فعصاني
وخالفني فان هذا كلام لا يفهم منه اني امرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية
للامر ومناقضة له فيكون كونها امرا بها منافيا لها فلهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر انتهى قال الرازي
ولقائل ان يقول كما ان قوله امرته فعصاني يدل على ان المامور به شيء غير المعصية من حيث ان
المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك قوله امرته ففسق يدل على ان المامور به غير الفسق
لان الفسق عبارة عن الاتيان بضده فكونه فسقا ينافي كونه مامورا به كما ان كونه معصية ينافي كونها
مامورا بها فوجب ان يدل هذا اللفظ على ان المامور به ليس بفسق وهذا الكلام في غاية الظهور
فلا ادري لم اصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت ان الحق ما ذكره الكل وهو ان المعنى

امرناهم بالاعمال الصالحة وهي الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا واقدموا على الفسق فحق عليها القول اي الذي توعدناهم به على لسان رسولنا فدمرناها تدميرا اي اهلكناها باهلاك اهلها وتخريب ديارها وخص المترفين بالذكر لان غيرهم يتبعهم ولانهم اسرع الى الحماقة واقدر على الفجور وقيل معناه كثرنا وروى الطبراني وغيره حديثا خير المال سكة مابورة ومهرة مامورة اي كثيرة النتاج والسكة بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة المصطفة من النخل والمابورة الملقحة قاله ذلك الجوهري وروي ان رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني ارى امرك هذا حقيرا فقال صلى الله عليه وسلم انه سيأمر اي سيكثر وسيكبر وعن ام المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه وحلق باصبعيه الابهام والتي تليها قالت زينب قلت يا رسول الله افنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث اي الشر وويل يقال لمن وقع في مهلكة او اشرف ان يقع فيها وقوله تعالى وكم اهلكنا اي بما لنا من العظمة وبين مدلول كم بقوله تعالى من القرون اي المكذبين من بعد نوح كعاد وثمود من الامم الماضية تخويف به الكفار اي كفار مكة قال عبد الله بن ابي اوفى القرن عشرون ومائة سنة وقيل مائة سنة روي عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بسر المازني ان النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على راسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقال الكلبي القرن ثمانون سنة وقيل اربعون ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكفى بربك اي المحسن اليك بذنوب عباده خبيرا بصيرا اي عالما ببواطنها وظواهرها فكم من انسان كنتم ترونه من اكابر الصالحين ثم استقرت عاقبته على خلاف ذلك وكم من شخص ترونه مجتهدا في العبادة فاذا اخلا بارز ربه بالعظائم وتقديم الذنب لتقديم متعلقه ولما قرر انه سبحانه وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرهم قسمهم الى قسمين الاول قوله تعالى من كان يريد العاجلة اي الدنيا مقصورا عليها همه عجلنا له فيها اي العاجلة بان نفيض عليه من منافعها ما نشاء اي من البسط والتقتير لمن نريد اي ان نفعل به ذلك فقيد تعالى الامر بقيدين احدهما تقييد المعجل بارادته ومشيئته والثاني تقييد المعجل له بارادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضه وكثير منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة . تنبيه . لمن نريد بدل بعض من كل من الضمير في له باعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله له ويقال ان الاية في المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذا هو المناسب لقوله تعالى ثم جعلنا له جهنم يصلاها اي في الآخرة مذموما اي مفعولا به الذم مدحورا اي مدفوعا مطرودا مبعدا وان ذكره البيضاوي بصيغة قيل ثم ذكر تعالى القسم الثاني وشرط فيه ثلاثة شروط الاول قوله تعالى ومن اراد الآخرة اي اراد بعمله ثواب الآخرة فانه ان لم يرد

ذلك لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى وقوله صلى الله عليه وسلم انما
الاعمال بالنيات الثاني قوله تعالى وسعى لها سعيها وذلك يقتضي ان يكون ذلك العمل من باب
القرب والطاعات وكثير من الضلال يتقربون بعبادة الاوثان ولهم فيها تاويلات احدها انهم
يقولون اله العالم اجل واعظم من ان يقدر الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته ولكن غاية
قدرتنا ان نشتغل بعبادة بعض المقربين من عباد الله بان نشتغل بعبادة كوكب او ملك من الملائكة
ثم ان الملك او الكوكب يشتغل بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق وهذه
طريقة فاسدة فلا جرم انه لم ينتفع بها ثانيها انهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صورة الانبياء والاولياء
والمراد من عبادتها ان تصير تلك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق ايضا فاسد
فلا جرم لم ينتفع بها ثالثها انه نقل عن اهل الهند انهم يتقربون الى الله بقتل انفسهم تارة وباحراق
انفسهم اخرى وهذه الطريقة ايضا فاسدة فلا جرم لم ينتفع بها وكذا القول في جميع الفرق المبطلين
الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة الثالث قوله تعالى وَهُوَ مُؤْمِنٌ لان الشرط في كون
اعمال البر مقتضية للثواب هو الايمان فان لم يوجد لم يحصل المشروط وعن بعض المتقدمين من لم يكن
معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الاية ثم انه تعالى اخبر عند
وجود هذه الشروط بقوله تعالى فَأُولٰئِكَ اى العالو الرتبة الجامعون الشرائط الثلاثة كَانَ سَعْيُهُمْ
مَشْكُورًا اى مقبولا مثابا عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح له ابواب الدنيا مع ذلك كداود وسليمان
عليهما السلام ويستعمله فيها بما فيه مرضاة الله تعالى وبعضهم يزويها عنه كرامة له لا هوانا به
فربما كان الفقر خيرا له واعون على مراده فالحاصل انها ان وجدت عند الولي لم تشرفه وان عدمت
عنه لم تحقره وانما التشريف وغيره عند الله تعالى بالاعمال + تنبيه + كل من اتى بفعل اما ان يقصد به
تحصيل خيرات الدنيا واما ان يقصد به خيرات الاخرة واما ان يقصد به مجموعهما واما ان لا يقصد به
واحدا منهما فان قصد به تحصيل الدنيا فقط او تحصيل الاخرة فقط فالله ذكر حكم هذين القسمين في هذه
الاية واما القسم الثالث فينقسم الى ثلاثة اقسام اما ان يكون طلب الاخرة راجحا او مرجوحا او يكون
الطلبان متعادلين فان كان طلب الاخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه
رايان احدهما انه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى انه قال انا اغنى
الاغنياء عن الشرك من عمل عملا اشرك فيه غيري تركته وشركه وايضا طلب رضوان الله اما ان يكون
سببا مستقلا لكونه باعثا لهم على ذلك الفعل وداعيا اليه واما ان لا يكون فان كان الاول امتنع
ان يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا اسند لسبب تام كامل امتنع ان
يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثاني فيكون الداعي الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك المجموع ليس
هو طلب رضوان الله لان المجموع الحاصل من الشيء ومن غيره يجب ان يكون مغايرا للطلب رضوان
الله فوجب ان لا يكون مقبولا الراي الثاني انه مقبول لان طلب الآخرة لما كان راجحا على

طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقي القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه
مقبولا واما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متساويين او كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على انه
غير مقبول الا انه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة واما القسم
الرابع وهو الاقدام على الفعل من غير داع فهذا مبني على ان صدور الفعل من القادر هل يتوقف
على حصول الداعي ام لا فالذين يقولون انه يتوقف على حصول الداعي قالوا هذا القسم ممتنع الحصول
والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا الفعل لا اثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لانه عبث. ثم انه
تعالى قال كلا اي من الفريقين مريد الدنيا ومريد الآخرة نمد اي بالعطاء ثم ابدل من كلا قوله
تعالى هؤلاء اي الذين طلبوا الدنيا فقط وهؤلاء اي الذين طلبوا الآخرة فقط من عطاء ربك
اي المحسن اليك ان ضيق على مؤمن فبالحماية من الدنيا الفانية التي انما هي لعب ولهو وان وسع
فبالاستعمال فيها على حسب ما يرضيه وما كان عطاء ربك اي الموجد لك المدبر لامرك محظورا اي
ممنوعا في الدنيا عن مؤمن ولا كافر بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس
والجواهر والثمار واقوات الناس والبهائم وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس
على جمعه ليلا ونهارا ولم يكن لهم شغل سوى ذلك لاعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد المعطي
المانع ثم انه تعالى امر بالنظر في عطائه هذا على وجه مرغب في الآخرة مزهد في الدنيا بقوله تعالى انظر
اي ايها الانسان او يا محمد كيف فضلنا بعضهم على بعض فاوسعنا على مؤمن وقترنا على مؤمن
آخر واوسعنا على كافر وقترنا على كافر آخر وبين سبحانه وتعالى وجه الحكمة في التفاوت في سورة
الزخرف بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض
درجات الآية وقال تعالى في آخر سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات. تنبيه. كيف
نصب اما على التشبيه بالظرف واما على الحال وهي معلقة لانظر بمعنى فكر او ابصر. ولما نبه تعالى
على ان ما نراه من التفضيل انما هو بحسب قدرته اخبر ان ما بعد الموت كذلك بقوله تعالى وللآخرة اكبر
اي اعظم درجات واكبر تفضيلا من درجات الدنيا ومن تفضيلها فان نسبة التفاضل في درجات
الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فان كان الانسان تشتد رغبته
في طلب فضيلة الدنيا فبان تقوى رغبته في طلب الآخرة اقوى لانها دار المقامة. روي ان
قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله تعالى عنه فخرج الاذن لبلال
وصهيب فشق على ابي سفيان فقال سهيل بن عمرو انما اوتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعني
الى الاسلام فاسرعوا وابطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة. ولما بين تعالى ان
الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم اهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله
وهم اهل الثواب ثم شرط في ذلك ثلاثة شروط فصل تلك الجملات وبدأ بالا شرح حقيقة الايمان
واشرف اجزاء الايمان هو التوحيد ونفي الشركاء والاضداد بقوله تعالى لا تجعل مع الله

اي الذي له جميع صفات الكمال (الها آخر) قيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد
غيره وقيل انه للانسان اي فكان خطابا عاما لكل من يصح ان يخاطب به (فتقعد) اي فتصير
(مذموما) [illegible] في الدنيا [illegible] الآخرة [illegible] (مخذولا) لان المشرك كاذب
والكاذب يستوجب الذم والخذلان [illegible] فقد ثبت بالدليل انه لا اله ولا مدبر الا الله تعالى
[illegible] الشريك [illegible] من الله تعالى [illegible] اشرك بالله [illegible] تلك النعم الى غير الله
فاستحق الذم والخذلان [illegible] تنبيه قال الواحدي قوله تعالى فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء
جوابا للنهي وانتصابه باضمار ان كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك والتقدير لا يكن منك انقطاع
فيحصل ان نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء وانما سماه النحويون
جوابا لكونه مشابها للجزاء وان الثاني مسبب عن الاول [illegible] ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم
في الايمان اتبعه بذكر ما هو من شعائر الايمان وشرائعه وذلك [illegible] الانسان
بعبادة الله تعالى [illegible] المراد من قوله تعالى (وقضى) اي امر (ربك) ايها
المحسن اليه [illegible] وقوله تعالى (الا تعبدوا) [illegible] (الا اياه)
فيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية
التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن صدر عنه غاية الانعام [illegible] الا الله تعالى فكان هو المستحق للعبادة
لا غيره تنبيه [illegible] ميمون بن مهران عن ابن عباس انه قال في هذه الآية كان الاصل ووصى ربك
فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله احد قط
لان خلاف قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازي بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع الامان
عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين [illegible] فما قاله [illegible] قضى
ولما امر تعالى بعبادة نفسه اتبعه بالامر ببر الوالدين بقوله تعالى (وبالوالدين) اي واحسنوا اي
واوقعوا الاحسان بهما (احسانا) اي بان تبروهما [illegible] فانه مع الذين اتقوا والذين هم
محسنون تنبيهان احدهما المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى والامر ببر الوالدين من وجوه
الاول ان السبب الحقيقي لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان
فامر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقي ثم اتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهر الثاني ان الموجود
اما قديم واما محدث ويجب ان تكون معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية
ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على
خلق الله واحق الخلق بالشفقة الابوان [illegible] فقوله تعالى وقضى ربك
الا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله تعالى وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة
على خلق الله [illegible] الاشتغال بشكر المنعم [illegible] سبحانه وتعالى قد يكون منعما
[illegible] من لم يشكر الناس لم يشكر الله [illegible]

من المخلوق نعمة على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من الوالدين قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة منى وايضا شفقة الوالدين على الولد عظيمة وايصال الخير الى الولد منهما امر طبيعى واحترازهما عن ايصال الضرر اليه امر طبيعى ايضا فوجب ان تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هى اكبر من كل نعمة تصل من الانسان الى الانسان وايضا حال ما يكون الانسان فى غاية الضعف ونهاية العجز يكون انعام الابوين فى ذلك الوقت واصلا الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان موقعه عظيما وايضا فايصال الخير الى الغير قد يكون الداعية ايصال الخير اليه وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فكان الانعام فيه اتم واكمل فثبت بهذه الوجوه انه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فابتدأ الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه ثم اردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله تعالى وبالوالدين احسانا فان قيل الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لانفسهما فلزم منه دخول الولد فى الوجود ودخوله فى عالم الآفات والمخالفات فاى انعام للابوين على الولد حتى ان بعض المتسمين بالحكمة كان يضرب اباه ويقول هو الذى ادخلنى فى عالم الكون والفساد وعرضنى للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابى العلاء المعرى ماذا نكتب على قبرك فقال اكتبوا على قبرى هذا جناه ابى على وما جنيت على احد وقال فى ترك التزوج والولد شعر وتركت فيهم نعمة العدم التى + فيهم لقد سبقت نعيم العاجل + ولو انهم ولدوا لعانوا شدة + ترمى بهم فى موبقات الآجل + وقيل لاسكندر استاذك اعظم منة عليك ام والدك فقال استاذى اعظم منة لانه تحمل انواع الشدائد عند تعليمى فاوقفنى فى نور العلم واما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فاخرجنى الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المأثورة المشهورة خير الآباء من علمك اجيب بانه وان كان له فى اول الامر طلب لذة الوقاع الا ان الاهتمام بايصال الخيرات اليه ودفع الآفات عنه من اول دخوله فى الوجود الى وقت بلوغه الكبر اليس انه اعظم من جميع ما يصل اليه من جهات الخيرات والمبرات فسقطت تلك الشبهات التنبيه الثانى ان لفظ الآية يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الاحسان الى الوالدين منها انه تعالى قال فى الآية المتقدمة ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا ثم اردفه بهذه الآية المشتملة على الاعمال التى بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على ان هذه الطاعة من اصول الطاعات التى تفيد سعادة الآخرة ومنها انه تعالى بدأ بذكر الامر بالتوحيد وبطاعة الله تعالى وثلث ببر الوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة فى تعظيم هذه الطاعة ومنها انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها انه تعالى قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم اى احسانا عظيما كاملا لان احسانهما اليك

قد بلغ الغاية العظيمة فوجب ان يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل
المكافأة لان انعامهما عليك على سبيل الابتداء وفي الامثال المشهورة ان البادي بالبر لا يكافأ ولما
كان سبحانه وتعالى عليما بما في الطباع من ملال الولد لهما عند اخذهما في السن قال تعالى إِمَّا مؤكدا
بادخال ما على ان الشرطية لزيادة التقرير للمعنى اهتماما بشأن الوالدين يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ اي كان
يضطرا اليك في حالة الضعف والعجز فلا يكون لهما كافل غيرك فيصيرا عندك في اخر العمر كما كنت
عندهما في اوله أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا وقرأ حمزة والكسائي بالف بعد الغين وكسر النون فالالف ضمير الوالدين
لتقدم ذكرهما واحدهما بدل منه او كلاهما عطف عليه فاعلا او بدلا فان قيل هلا كان كلاهما توكيدا
لا بدلا اجيب بانه معطوف على ما لا يصح ان يكون توكيدا للاثنين فوجب ان يكون مثله فان قيل
لم لا يجوز ان يكون احدهما بدلا وكلاهما توكيدا ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل اجيب
بان العطف يقتضي المشاركة فجعل احدهما بدلا والاخر توكيدا خلاف الاصل وقرأ الباقون بغير الف
وفتح النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القراء يشددون النون ثم انه تعالى امر الانسان
في حق والديه بخمسة اشياء الاول منها قوله تعالى فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ اي لا تتضجر منهما قال
الزجاج اف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله فلا تقل لهما اف اي لا تتقذرهما
كما انهما كانا لا يتقذران منك حين كنت تخرأ وتبول وفي رواية اخرى عن مجاهد اذا وجدت
منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما اف فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالوصية بهما حيث شفع
الاحسان اليهما بتوحيده ونظمهما في سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى
لم يرخص في ادنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع احوال لا يكاد يدخل
صبر الانسان معها في الاستطاعة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة
يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء
ان الكبرياء لله رب العالمين وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال لا تقوم الى خدمتهما
عن كسل وقرأ نافع وحفص بالتنوين في الفاء مع الكسر وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين
والباقون بكسر الفاء من غير تنوين الثاني قوله تعالى وَلَا تَنْهَرْهُمَا اي لا تزجرهما عما يتعاطيانه
مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى واما السائل فلا تنهر فان قيل
المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بالاولى فما فائدة ذكره اجيب بان المراد بالمنع من التأفيف
المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار المنع من اظهار المخالفة في القول
على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما الثالث قوله تعالى وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا اي حسنا
جميلا طيبا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو ان تقول
يا ابتاه يا اماه وسئل سعيد بن المسيب رضي الله عنه عن القول الكريم فقال هو قول العبد
المذنب للسيد الفظ الغليظ وعن عطاء انه قال هو ان تتكلم معهما بشرط ان لا ترفع اليهما بص

ولا یشتد الیهما نظره وخذ للشیء ان هذین الفعلین بیانیات القول الکریم فان قیل ابراهیم الخلیل
علیه السلام قال لابیه انی اراک وقومک فی ضلال مبین مع انه علیه السلام من اعظم
الناس ادبا وعلما وکرما اجیب بان حق الله تعالی مقدم علی حق الابوین فاقدام ابراهیم علیه السلام
علی ذلک الایذاء انما کان تقدیما لحق الله تعالی والرابع قوله تعالی وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ
مِنَ الرَّحْمَةِ ای لا من اجل الامتثال للامر وخوف العار فقط بل من اجل الرحمة لهما بان لا تزال
تذکر نفسک بالاوامر والنواهی وبما تقدم لهما من الاحسان الیک والمقصود المبالغة
فی التواضع وهذه استعارة بلیغة قال القفال وفی تقریره وجهان الاول ان الطائر اذا اراد
ضم فرخه الیه للتربیة خفض له جناحه فلهذا صار خفض الجناح کنایة عن حسن التربیة فکانه
قال للولد اکفل والدیک بان تضمهما الی نفسک کما فعلا ذلک بک حال صغرک والثانی ان
الطائر اذا اراد الطیران نشر جناحیه ورفعهما لیرتفع واذا اراد ترک الطیران خفض جناحیه
ولم یرفع فجعل خفض الجناح کنایة عن التواضع واللین فان قیل کیف اضاف الجناح الی الذل
والذل لا جناح له اجیب بوجهین الاول انه اضیف الجناح الی الذل کما یقال حاتم الجود فکما ان
المراد هناک حاتم الجواد فکذا هنا المراد اخفض لهما جناحک الذلیل الثانی ان مدار
الاستعارة علی الخیال فهنا تخیل للذل جناحا خفیضا کما جعل لبید للشمال یدا وللقرة زماما
فی قوله ؎ وغداة ریح قد کشفت وقرة ✦ اذ اصبحت بید الشمال زمامها ✦ فاثبت
للشمال یدا وللقرة زماما ووضع زمامها فی ید الشمال فکذا هنا ومن ظریف ما حکی ان
ابا تمام لما نظم قوله ؎ لا تسقنی ماء الملام فاننی ✦ صب قد استعذبت ماء بکائی
جاءه رجل بقصعة وقال له اعطنی شیئا من ماء الملام فقال له حتی تاتینی بریشة من جناح الذل
یرید ان هذا مجاز استعارة کذلک وقال بعضهم ؎ اراشوا جناحی ثم بلوه بالندی ✦ فلم استطع
من حبهم ان اطیرا الخامس قوله تعالی وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ای لا تکتف برحمتک
علیهما التی لا بقاء لها وادع الله ان یرحمهما برحمته الباقیة واجعل ذلک جزاء لرحمتهما علیک
فی صغرک وتربیتهما لک هذا اذا کانا مسلمین فان کانا کافرین فان الدعاء لهما بالرحمة منسوخ
بقوله تعالی ما کان للنبی والذین امنوا ان یستغفروا للمشرکین ولو کانوا اولی قربی بل یدعو الله
تعالی لهما بالهدایة والارشاد فاذا هدیا فقد رحمهما وسئل بعضهم عن بر الوالدین فقال لا ترفع
صوتک علیهما ولا تنظر الیهما شزرا ولا یریا منک مخالفة فی ظاهر ولا باطن وان تترحم علیهما
ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة اودائهما من بعدهما لما ورد عنه صلی الله علیه وسلم
انه قال من ابر البر ان یصل الرجل اهل ود ابیه ✦ تنبیه ✦ قد ورد فی بر الوالدین احادیث
کثیرة منها ما روی عن ابی هریرة انه قال جاء رجل الی النبی صلی الله علیه وسلم فقال
یا رسول الله من احق الناس بصحبتی فقال امک ثم امک ثم ابوک ثم ابوک ثم ادناک فادناک

ومنها عنه ايضا انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ارغم الله انفه ارغم الله انفه ارغم الله انفه قيل من يا رسول الله قال من ادرك والديه او احدهما ثم لم يدخل الجنة ومنها ماروى عنه ايضا انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزي ولد والده الا ان يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ومنها ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص انه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستاذنه في الجهاد فقال احي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد ومنها مارواه الترمذي انه صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين ومنها ماروى عن ابي الدرداء انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد اوسط ابواب الجنة فاحفظ ان شئت او ضيع ومنها ماروى عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم اي العمل احب الى الله تعالى قال الصلوة على وقتها قلت ثم اي قال بر الوالدين قلت ثم اي قال الجهاد في سبيل الله وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال ذلك واصل اليه ولا شيء انفع لهم من الاستغفار ولو كان شيء افضل منه لامركم به في الوالدين ولقد كرر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الوصية بالوالدين ومنها ماروى انه صلى الله عليه وسلم قال رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما ومنها ماروى عن سعيد بن المسيب ان البار بوالديه لا يموت ميتة سوء ومنها ماروى ان رجلا قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابوي بلغا من الكبر اني الي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وانت تفعل ذلك وانت تريد موتهما ومنها مارواه ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رغم انف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ورغم انف رجل اتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم انف رجل ادرك ابويه الكبر فلم يدخلاه الجنة ومنها ماروى ان رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اباه وانه ياخذ ماله فدعاه فاذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال انه كان ضعيفا وانا قوي وفقيرا وانا غني فكنت لا امنعه شيئا من مالي واليوم انا ضعيف وهو قوي وانا فقير وهو غني ويبخل علي بماله فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع هذا الا بكى ثم قال للولد انت ومالك لابيك وشكا اليه آخر سوء خلق امه فقال لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة اشهر قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين ارضعتك حولين قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين اسهرت لك ليلها واظمأت لك نهارها قال لقد جازيتها قال ما فعلت قال حججت بها على عنقي قال ما جزيتها وعن ابن عمر انه رأى رجلا في الطواف يحمل امه ويقول

انا لها مطية لا تنفر … اذا الركائب نفرت لا تنفر

ما حملت وارضعتني اكثر … الله ربي ذو الجلال الاكبر

تظنني جزيتها يا ابن عمر قال لا والله ولا زفرة واحدة ولما كان ما ذكر في حق الوالدين عسر ابعد الحيد من التهاون به اشار بقوله تعالى ﴿رَبُّكُمْ﴾ اي المحسن اليكم في الحقيقة هو الذي عطف عليكم من يربيكم وهو الذي اعانهم على ذلك ﴿أَعْلَمُ﴾ اي من كل احد ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾

قوله [illegible] فان الاصول [illegible] على ما قبله ولعله راجع الى الاموات المعهودين من الحديث اهـ

من قصص البر بهما وغيره فربما يظهر احد لهما غير ما يبطن فان ذلك لا ينفعه ولا ينجيه الا ان يحمل
نفسه على ما يكون سببا لرحمتهما اِنْ تَكُوْنُوْا صَالِحِيْنَ اى متقين محسنين فى نفس الامر والصلاح
استقامة الفعل على ما يدعو الدليل اليه ‡ واشار تعالى الى انه لا يكون ذلك الا بمعالجة النفس
وترجيعها كرة بعد كرة بقوله تعالى فَاِنَّهٗ كَانَ لِلْاَوَّابِيْنَ اى الرجاعين الى الخير مرة اثر مرة بعد جماح
انفسهم عنه غَفُوْرًا اى بالغ الستر لمن وقع منه تقصير فرجع عنه فانه مغفور له ‡ ولما حث تعالى
على الاحسان للوالدين بالخصوص عم بالامر بالاحسان لكل ذى قرابة ورحم وغيره بقوله تعالى وَاٰتِ
ذَا الْقُرْبٰى من جهة الاب والام وان بعد حَقَّهٗ والخطاب لكل احد ان يؤتى اقاربه حقوقهم من صلة
الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محتاجين محاويج
وهو موسر لزمه الانفاق عليهم عند الامام ابى حنيفة وقال الشافعى لا يلزم الا نفقة الوالد على والده
والولد على والده فقط وقيل المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وَالْمِسْكِيْنَ
حقه وان لم يكن قريبا وَابْنَ السَّبِيْلِ وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون متقيا محسنا ‡ ولما
رغب تعالى فى البذل وكانت النفس قلما يكون فعلها قواما بين الافراط والتفريط اتبع ذلك
بقوله تعالى وَلَا تُبَذِّرْ بتفريق المال سرفا وهو بذله فيما لا ينبغى وقد كانت الجاهلية تبذر اموالها
فى الفخر والسمعة وتذكر ذلك فى اشعارها فامر الله تعالى بالنفقة فى وجوهها مما يقرب منه
ويزلف اليه وفى قوله تعالى تَبْذِيْرًا تنبيه على ان الارتفاع نحو ساحة التبذير اولى من الهبوط
الى مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد فى المال على حسب الهوى وقد سئل ابن
مسعود عن التبذير فقال انفاق المال فى غير حقه واما الجود فهو اتباع امر الله تعالى فى حقوق
المال وعن مجاهد لو انفق الانسان ماله كله فى الحق ما كان تبذيرا ولو انفق مدا فى باطل كان تبذيرا
وقد انفق بعضهم نفقة فى خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير وعن
عبد الله بن عمرو قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف
يا سعد قال او فى الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته
اياه الى افعال الشياطين بقوله تعالى اِنَّ الْمُبَذِّرِيْنَ كَانُوْٓا اِخْوَانَ الشَّيٰطِيْنِ اى على طريقتهم
وهم اخوانهم واصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يامرونهم به من الاسراف وهم قرناؤهم وهم فى النار على سبيل
الوعيد ثم انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى وَكَانَ الشَّيْطٰنُ اى هذا الجنس البعيد من كل
خير المحترق بكل شر لِرَبِّهٖ اى الذى احسن اليه بايجاده وتربيته كَفُوْرًا اى ستورا لما يقدر على ستره
من اياته الظاهرة ونعمته الباهرة مع الجحة فهو ينبغى ان يطاع لانه لا يدعو الا الى مثل فعله قال بعض
العلماء خرجت هذه الاية على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة
ثم كانوا ينفقونها فى الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون اموالهم ليصدوا الناس
عن الاسلام وتوهين اهله واعانة اعدائه فنزلت هذه الاية تنبيها على قبح اعمالهم فى هذا الباب

وقوله تعالى وَاِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَّبِّكَ تَرْجُوهَا نزل فى مهجع وبلال وصهيب
وسالم وخباب وكانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض
عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله يرجوه ان يأتيه فيعطيه فَقُلْ لَهُمْ اى فى حالة الاعراض
قَوْلًا مَّيْسُورًا اى ذا يسر يشرح صدورهم ويبسط رجاءهم لان ذلك اقرب الى طريق المتقين المحسنين
قال ابو حيان روى انه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الآية اذا لم يكن عنده ما يعطى
وسئل يقول يرزقنا الله تعالى واياكم من فضله انتهى وقد وقع هذا الابتغاء موضع الفقد لان
فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سببا للابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع
السبب ثم امر تعالى نبيه بما وصف له عباده المؤمنين فى الانفاق فى سورة الفرقان بقوله تعالى
والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال تعالى وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ اى بالبخل
مَغْلُولَةً اى كانها بالمنع مشدودة بالغل اِلٰى عُنُقِكَ اى لا تستطيع مدها اى لا تمسك عن الانفاق
بحيث تضيق على نفسك واهلك فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لا تجعل يدك
فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط وَلَا تَبْسُطْهَا بالبذل كُلَّ الْبَسْطِ فتبذر بحيث
لا يبقى فى يدك شئ ذكر الحكماء فى كتب الاخلاق ان لكل خلق طرفى افراط وتفريط وهما مذمومان
والخلق الفاضل هو العدل والوسط فالبخل افراط فى الامساك والتبذير افراط فى الانفاق
وهما مذمومان والمعتدل هو الوسط وعن جابر اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبى فقال يا رسول
الله ان امى تستكسيك درعا اى قميصا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبى
من ساعة الى ساعة هذا متعلق بمحذوف اى اخر سؤالك من ساعة ليس لنا فيها درع الى ساعة يظهر لنا
فيها درع فعد الينا فذهب الى امه فقالت له قل له ان امى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل
رسول الله صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه فاعطاه وقعد عريانا اى فى ازار ونحوه فاذن بلال بالصلوة
فانتظروه فلم يخرج فشغل قلوب اصحابه فدخل عليه بعضهم فراه عريانا فانزل الله تعالى ولا تجعل يدك
مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعطى جميع ما عندك. تنبيه: ما ذكرته عن جابر تبعا للكشاف
والبيضاوى والرازى وغيرهم قال الولى العراقى لم اقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر وقد يقال
من حفظ حجة على من لم يحفظ فَتَقْعُدَ اى توجد كالمقعد مَلُوْمًا اى بليغ الرسوخ فيما يلام بسببه
عند الله لان ذلك مما نهى الله عنه وعند نفسك وعند الناس لانه يلوم نفسه واصحابه ايضا يلومونه
على تضييع المال بالكلية مَّحْسُوْرًا اى منقطعا بك لذهاب ما تقوى به قال القفال شبه حال من انفق
كل ماله بمن انقطع فى سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كانه مطية تحمل الانسان
الى اخر الشهر والسنة كما ان ذلك البعير يحمله ويبلغه الى اخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقى فى وسط
الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان اذا انفق مقدار ما يحتاج اليه فى مدة شهر فاذا انفق منه بقى فى
وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل ذلك لحقه اللوم من اهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب

سوء تدبيره وتوريث الحزم في مهمات معاشه ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إِنَّ رَبَّكَ اى
المحسن اليك يَبْسُطُ الرِّزْقَ اى يوسعه لِمَنْ يَشَاءُ البسط دون غيره وَيَقْدِرُ اى يضيقه سواء قبض بعد
بسط ام لا لان الرب هو الذى يربي المربوب ويقوم باصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح
في الصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض لان ذلك هو الصلاح قال تعالى ولو بسط
الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا اى بالغ الخبر بَصِيرًا
اى بالغ البصر بما يكون من كل من القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة فالتفاوت في انه ربي العباد ليس
لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحة لا يعلم بها العبد فسبحان المتصرف في عباده كيف يشاء
ولما اتم سبحانه وتعالى الوصية بالاصول وما يتبع ذلك اوصى بالفروع بقوله تعالى وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ
فذكرهم بلفظ الولد الذى هو داعية الى الحنو والعطف خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ اى فقر متوقع لم يقع بعد ثم
وصل بذلك استئنافا بقوله تعالى نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ مقدما ضمير الاولاد لكون الاملاق متوقعا من
الانفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو اعم منه فقال تعالى إِنَّ قَتْلَهُمْ اى مطلقا لهذا ولغيره كَانَ خِطْئًا
اى اثما كَبِيرًا اى عظيما وقرأ ابن كثير بفتح الطاء ومد بعدها مدا متصلا وقرأ ابن ذكوان بفتح الخاء
والطاء ولا مد بعد الطاء والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء قال الرماني الخطء بكسر ثم سكون
لا يكون الا تعمدا الى خلاف الصواب والخطأ اى محركا قد يكون من غير تعمد وانما وجب بر الاولاد
لامور احدها انهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين وانما وجب بر الوالدين مكافأة لما
صدر منهما من انواع البر الى الولد الثانى ان امتناع الاباء من البر بالاولاد يقتضي خراب العالم الثالث
ان قرابة الولادة قرابة الجزئية والبعضية وهي من اعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك
على غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من اعظم الاخلاق الذميمة فرغب الله تعالى
في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة وعبر تعالى بالاولاد ليشمل الاناث فان العرب
كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة
عليهم وايضا كانوا يخافون انهن بعد كبرهن تفقد اكفاؤهن فيحتاجون الى انكاحهن من غير اكفاء
وفي ذلك عار شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فان الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا
المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث واما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله
في الذكور في حال الصغر وقد يخاف ايضا في العاجزين من البنين وكما انه سبحانه وتعالى يفتح ابواب
الرزق على الذكور فكذلك على الاناث ولما كان في قتل الاولاد حظ من البخل وفي فعل الزنا داع من
الاسراف اتبعه به فقال تعالى وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ادنى قرب ولو بفعل شيء من مقدماته وانما اتى تعالى
بالقربان تعظيما له لما فيه من المفاسد الجارة الى الفتن بالقتل وتضييع النسب والتسبب في ايجاد
نفوس بالباطل وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدا ابلاغا في التنفير عنه لما للنفس من
شدة الداعية اليه إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً اى فعلة ظاهرة القبح زائدته وقد نهاكم الله تعالى عن

الفحشاء في قوله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء الاية وَسَاءَ اي وبئس الزنا سَبِيلًا اي طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن القتل مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير حق بقوله تعالى وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ اي بالاسلام والعهد إِلَّا بِالْحَقِّ وهو المبيح للقتل من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بالله بعد ايمانه او زنى بعد احصانه او قتل نفسا بغير حق ومثل انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال كافر من دين الى دين اخر سواء كان ذلك الدين يقر عليه ام لا ومن ذلك قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر وقوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا واختلف الفقهاء في اشياء غير ذلك منها ان تارك الصلوة كسلا هل يقتل فعند الشافعي يقتل بشروط معلومة وعند ابي حنيفة لا يقتل التارك كالزاني ومنها ان عمل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجب قتل الفاعل كالزاني وعند ابي حنيفة لا يوجبه ومنها ان الساحر اذا قال قتلت فلانا بسحري عمدا هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجبه وعند ابي حنيفة لا يوجبه ومنها ان القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعي يوجب وعند ابي حنيفة لا يوجب ومنها الامتناع من اداء الزكوة هل يوجب القتل اختلفوا فيه في زمان ابي بكر رضي الله عنه ومنها اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند اكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجبه ولكل ممن ذكر ادلة يستدل بها رضي الله تعالى عنهم اجمعين ثم قال تعالى وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا اي باي ظلم كان من غير ان يرتكب ما يبيح قتله فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ اي سواء كان قريبا ام بعيدا سُلْطَانًا اي امرا متسلطا به وقوله تعالى فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ قرأه حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب اي ايها الولي والباقون بالياء على الغيبة اي الولي وفسر الاسراف بوجوه الاول ان يقتل القاتل وغير القاتل وذلك ان اولياء المقتول كانوا اذا قتل واحد من قبيلة شريفة قتلوا خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وحكم بقتل القاتل وحده الثاني ان الاسراف هو ان لا يرضى بقتل القاتل فان الجاهلية كانوا يقصدون اشرف القبائل ثم يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل الثالث ان الاسراف هو ان لا يكتفي بقتل القاتل بل يقتله ثم يمثل به ويقطع اعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان جملة هذه المعاني مشترك في كونها اسرافا واختلف في رجوع الهاء الى ماذا في قوله تعالى إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا فقال مجاهد راجعة الى المقتول في قوله تعالى ومن قتل مظلوما اي ان المقتول منصور في الدنيا بايجاب القود على قاتله وفي الاخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة راجعة لولي المقتول اي انه منصور على القاتل باستيفاء القصاص او الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع في الزيادة وقيل راجعة الى القاتل الظالم اي ان القاتل يكتفى منه باستيفاء القصاص ولا يطلب منه زيادة لانه منصور من عند الله تعالى في تحريم طلب الزيادة منه او انه اذا عوقب في الدنيا بازيد مما فعل نصر في الاخرة وقيل راجعة الى الدم وقيل الى الحق ، ولما ذكر تعالى النهي عن اتلاف النفوس اتبعه بالنهي

عن اتلاف الاموال لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال واحق الناس بالنهى عن اتلاف اموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصه الله تعالى بالنهى عن اتلاف امواله بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ عبر بالذى هو قبل الاخذ تعظيما للمقام فهو ابلغ من قوله تعالى ولا تأكلوها اسرافا وبدارا وفى تفسير قوله تعالى ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وجهان الاول الا بالتصرف الذى ينميه ويكثره الثانى روى مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج اكل بالمعروف واذا ايسر قضاه فان لم يوسر فلا شئ عليه والولى تبقى ولايته على اليتيم ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك فى اية اخرى وهى قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان انستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم ؛ ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة اشياء وهى الزنا والقتل واكل مال اليتيم اتبعها بثلاثة اوامر الاول قوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ اى اذا عاهدتم الله تعالى على فعل المامورات وترك المنهيات او الناس على فعل او قول جائز وفى تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ وجوه الاول ان يراد ان صاحب العهد كان مسئولا فحذف المضاف اليه فقامه كقوله تعالى واسأل القرية ثانيها ان العهد كان مسئولا اى مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفى ثالثها ان يكون هذا تخييلا وكان يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة باى ذنب قتلت وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام ءانت قلت للناس اتخذونى وامى الهين فالمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره الامر الثانى قوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ اى لغيركم فان كلتم لانفسكم فلا جناح عليكم ان نقصتم عن حقكم ولم توفوا الكيل الامر الثالث قوله تعالى ﴿وَزِنُوا﴾ اى وزنا متلبسا ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ اى ميزان العدل الذى هو اقوم الموازين وزاد فى تاكيد معناه فقال ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ دون شئ من الحيف ؛ تنبيه ؛ القسطاس رومى عرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لان الاعجمى اذا استعملته العرب واجرته مجرى كلامهم فى الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وقرأ حفص والكسائى وحمزة بكسر القاف والباقون بضمها ﴿ذَٰلِكَ﴾ اى الامر العالى الرتبة الذى اخبرناكم به من الايفاء بالتمام والكمال ﴿خَيْرٌ﴾ لكم فى الدارين الدنيا والاخرة من التطفيف بالكيل او الوزن من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعذاب الشديد فى الاخرة وان تراءى لكم ان التطفيف خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ اى عاقبة فى الدارين اما فى الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان القليل وكم راينا من الفقراء من اشتهروا عند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة انقلبت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما فى الاخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الاليم والتاويل وهو تفعيل من الاول وهو الرجوع وافعل التفضيل هنا لاستعمال الصفة بارخاء العنان اى على تقدير ان يكون فى كل منهما خير فهذا المعنى الذى ذكرناه اريد خيرا فالعاقل لا يرضى لنفسه بالدون ولا شح

الله تعالى الاوامر الثلاثة عاد الى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة اشياء اولها قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ﴾
اى لا تتبع ايها الانسان ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ من قول او فعل وحاصله يرجع الى النهي عن الحكم
بما لا يكون معلوما وهو قضية كلية يندرج تحتها انواع كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال
ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته اذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل سمعت
ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهي عن القذف وقيل المراد النهي عن الكذب
وقيل المراد نهي المشركين عن اعتقاداتهم وتقليد اسلافهم لان الله تعالى نسبهم في تلك العقائد
الى اتباع الهوى فقال تعالى ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان
ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وقيل القفو هو البهت واصله من القفا كانه يقال خلفه
وهو في معنى الغيبة قال صلى الله عليه وسلم من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى في ردغة
الخبال رواه الطبراني وغيره وردغة بسكون الدال وفتحها عصارة اهل النار وقال الكميت ـ
ولا ارمي البريء بغير ذنب ؛ ولا اقفو الحواصن ان قفينا ؛ فقفينا بالبناء للمفعول والحواصن النساء العفائف
واللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد ؛ تنبيه ؛ يقال قفوت اثره اقفوه اذا اتبعت اثره
وسميت قافية الشعر قافية لان البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم
يتبعون آثار اقدام الناس او آثار اقدامهم ويستدلون بها على احوال الناس وقال تعالى ثم
قفينا على آثارهم برسلنا وسمي القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان فان من يمشي يتبعه ويقفوه فان قيل
ان هذه الآية تدل على منع القياس فانه لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم اجيب بان ذلك
عام دخله التخصيص فان الحكم في الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة وبان المراد بالعلم هو الاعتقاد
الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيا ام ظنيا واستعماله بهذا المعنى شائع ذائع وقد استعمل
في مسائل كثيرة منها ان العمل بالفتوى عمل بالظن ومنها ان العمل بالشهادة عمل بالظن ومنها الاجتهاد
في طلب القبلة ولا يفيد الا الظن ومنها قيم المتلفات وارش الجنايات لا سبيل اليها الا بالظن ومنها
الفصد والحجامة وسائر المعالجات تبنى على الظن ومنها بعث الحكمين في الشقاق
قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها وحصول ذلك الشقاق
مظنون لا معلوم ومنها الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ويبنى على هذا الظن احكام
كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين ومنها الاعتماد على صدق الاصدقاء
وعداوة الاعداء كلها مظنونة وبناء الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه وسلم نحن
نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بان الظن معتبر فبطل قول من يقول انه
لا يجوز بناء الامر على الظن ثم علل تعالى النهي بخوفه بقوله تعالى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ﴾ وهما طريقا
الادراك ﴿وَالْفُؤَادَ﴾ الذي هو آلة الادراك ثم عول تعالى الامر بقوله تعالى ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ﴾
اى هذه الاشياء العظيمة العالية المنافع البديعة التكوين ؛ تنبيه ؛ اولاء وجميع اسماء

الاشارة يشار بها للعاقل وغيره كقول الشاعر ــ ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد اولئك الايام
* يجوز فى ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى اى بعد مفارقتها والاضافة فى منزلة
اللوى للبيان وهو ممدود ولكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف على المنازل والايام صفة
لاسم الاشارة او عطف بيان له كان عَنْهُ اى بوعد لا خلف فيه مَسْؤُلًا بسؤال يخصه * تنبيه *
ظاهر الاية يدل على ان الجوارح مسؤلة وفيه وجوه الاول ان معناه ان صاحب السمع
والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الا ممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست
كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان كقوله تعالى واسأل القرية اى اهلها والمعنى انه يقال
للانسان لم سمعت ما لم يحل سماعه ولم نظرت ما لم يحل نظره ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه
الثانى ان تقدير الاية ان اولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم
استعملتم السمع فيماذا أفى الطاعة ام فى المعصية وكذا القول فى بقية الاعضاء وذلك لان
الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها فى مصالحها فان استعملها فى الخيرات
استوجب الثواب وان استعملها فى المعاصى استحق العقاب الثالث ان الله تعالى يخلق
الحيوة فى الاعضاء ثم انها تسأل لقوله تعالى يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا
يعملون فكذلك لا يبعد ان يخلق العقل والحيوة والنطق فى هذه الاعضاء ثم انها تسأل روى عن
شكل بن حميد قال اتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا اتعوذ به فاخذ
بيدى ثم قال قل اعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها
قال سعد المنى ماؤه النهى الثالث قوله تعالى وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ اى جنسها مَرَحًا اى ذا مرح وهو
شدة الفرح والمراد من الاية النهى عن ان يمشى الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة فقال
الزجاج ولا تمش فى الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى فى سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون
على الارض هونا وقال تعالى فى سورة لقمان واقصد فى مشيك واغضض من صوتك وقال تعالى فيها
ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ثم علل تعالى النهى عن ذلك بقوله تعالى إِنَّكَ لَنْ
تَخْرِقَ الْأَرْضَ اى تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا اى بتطاولك وهو تهكم بالمختال
لان الاختيال حماقة مجردة لا تفيد شيئا ليس فى التذلل وفى ذلك اشارة الى ان العبد ضعيف لا يقدر
على خرق ارض ولا وصول الى جبال فهو محاط به من فوقه ومن تحته بنوعين من الجمادات وهو
اضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكانه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف
من خلق الله محصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوى وقيل ذكر ذلك لان من مشى
خيلاء يمشى مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تثقب الارض ان مشيت
على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك قال على بن ابى طالب رضى الله تعالى
عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفأ كانما ينحط من صبب وروى

ابو هريرة رضى الله عنه قال ما رايت احسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الشمس تجرى فى وجهه وما رايت احدا اسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانما الارض تطوى له انا لنجهد انفسنا وانه غير مكترث وقوله تعالى كُلُّ ذٰلِكَ اشارة الى ما نهى عنه مما تقدم فان الذى تقدم منهيات ومامورات وجملة ذلك من قوله تعالى لا تجعل مع الله الٰها آخر الى هنا خمسة وعشرون وها انا اسردها لك تسهيلا عليك فاولها لا تجعل مع الله الٰها آخر وثانيها وثالثها وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه لاشتماله على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهى عن عبادة غيره رابعها وبالوالدين احسانا خامسها فلا تقل لهما اف سادسها ولا تنهرهما سابعها وقل لهما قولا كريما ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا عاشرها وآت ذا القربى حقه حادى عشرها والمسكين ثانى عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولا تبذر تبذيرا رابع عشرها فقل لهم قولا ميسورا خامس عشرها ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك سادس عشرها ولا تبسطها كل البسط سابع عشرها ولا تقتلوا اولادكم ثامن عشرها ولا تقتلوا النفس تاسع عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا عشروها فلا يسرف فى القتل حادى عشريها واوفوا بالعهد ثانى عشريها واوفوا الكيل ثالث عشريها وزنوا بالقسطاس المستقيم رابع عشريها ولا تقف ما ليس لك به علم خامس عشريها ولا تمش فى الارض مرحا فكل هذه تكليفات بعضها اوامر وبعضها نواه فالمنهى عنه هو الذى قال تعالى فيه كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا اى يبغضه والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن اليه وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرأ الباقون بضم الهمزة والهاء مضمومة من غير تنوين والمعنى على هذا ظاهر اى ان سئ تلك الاقسام يكون مكروها واما على القراءة الاولى فسيئة خبر كان وانث حملا على معنى كل ثم قال مكروها حملا على لفظها وقال الزمخشرى ان السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتانيثه ولا فرق بين سيئة وسيا الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا فرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث وفى نصب مكروها اوجه احدها انه خبر ثان لكان الثانى انه بدل من سيئة وضعف بان البدل بالمشتق قليل الثالث انه حال من الضمير المستتر فى عند ربك لوقوعه صفة لسيئة الرابع انه نعت لسيئة وانما ذكر وصف سيئة لان تانيثه وتانيث موصوفه مجازى ورد بان ذلك انما يجوز حيث اسند الى المؤنث المجازى اما اذا اسند الى ضميره فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى ذٰلِكَ اشارة الى الاحكام المتقدمة فى الاوامر والنواهى مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ يا اشرف الخلق رَبُّكَ اى المحسن اليك مِنَ الْحِكْمَةِ التى هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه الامور حكمة لوجوه الاول ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وانواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فلا فى مثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بانه يكون داعيا الى دين الرحمن الثانى ان هذه الاحكام المذكورة فى هذه

الآیات شرائع واجبة الرعایة فی جمیع الادیان والملل ولا تقبل النسخ والابطال فکانت محکمة وحکمة من هذا الاعتبار الثالث ان الحکمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخیر للعمل به کما مرت الاشارة الیه فالامر بالتوحید عبارة عن القسم الاول وسائر التکالیف عبارة عن تعلیم الخیرات حتی یواظب علیها ولا یعرف عنها فثبت ان الاشیاء المذکورة من هذه الآیات عین الحکمة وعن ابن عباس رضی الله تعالی عنهما ان هذه الآیات کانت فی الواح موسی علیه السلام وجعل سبحانه وتعالی فاتحتها قوله تعالی لا تجعل مع الله الها آخر وخاتمتها قوله تعالی وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللّٰهِ اِلٰهًا اٰخَرَ تنبیها علی ان التوحید مبدء الامور ومنتهاه وان من قصد بفعل او ترک غیره ضاع سعیه وانه راس الحکمة وملاکها ورتب علیه ما هو عائدة الشرک فی قوله تعالی اولا لا تجعل مع الله ای فی الدنیا وثانیا ما هو نتیجته فی العقبی فقال فَتُلْقٰی ای فیفعل بک فی الآخرة فی المحشر فِیْ جَهَنَّمَ من الاسراع فیه وعدم القدرة علی التدارک فعل من القی من حال حال کونک مَلُوْمًا ای تلوم نفسک مَّدْحُوْرًا ای مبعدا من رحمة الله + تنبیه + ذکره سبحانه وتعالی فی الآیة الاولی بقوله تعالی مذموما مخذولا وفی هذه الآیة ملوما مدحورا والفرق بین الذم واللوم هو ان یذکر له ان الفعل الذی اقدم علیه قبیح ومنکر فهذا معنی کونه مذموما ثم یقال له فعلت هذا الفعل القبیح وما الذی حملک علیه فهذا هو اللوم فاول الامر یصیر مذموما وآخره یصیر ملوما والفرق بین المخذول والمدحور هو ان المخذول عبارة عن الضعیف یقال تخاذلت اعضاؤه ای ضعفت والمدحور هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة فکونه مخذولا عبارة عن ترک اعانته وتفویضه الی نفسه وکونه مدحورا عبارة عن اهانته فیصیر اول الامر مخذولا وآخره مدحورا وقوله تعالی اَفَاَصْفٰكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِیْنَ خطاب للذین قالوا الملائکة بنات الله والهمزة للانکار ای اخصکم ربکم علی وجه الخلوص والصفاء بافضل الاولاد وهم البنون ولم یجعل فیهم نصیبا لنفسه وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلٰٓئِكَةِ اِنَاثًا ای بنات لنفسه وهذا خلاف ما علیه معقولکم وعادتکم فان العبید لا یستاثرون باجود الاشیاء واصفاها من الشوائب ویکون اردؤها وادونها للسادات اِنَّكُمْ لَتَقُوْلُوْنَ قَوْلًا عَظِیْمًا باضافة الاولاد الیه لان اثبات الولد یقتضی کونه تعالی مرکبا من الابعاض والاجزاء وذلک یقدح فی کونه واجب الوجود لذاته وایضا فبتقدیر ثبوت الولد فقد جعلوا اشرف القسمین لانفسهم واخس القسمین لله تعالی وهذا جهل عظیم وایضا جعلوا الملائکة الذین هم من اشرف خلق الله الذین منهم من یقدر علی حمل الارض وقلب اسفلها علی اعلاها اناثا فی غایة الرخاوة ولما کان فی هذا من البیان ما لا یخفی علی انسان ولم یرجعوا اشار الی ان لهم مثل هذا الاعراض عن امثال هذا البیان فقال تعالی وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ای بینا بیانا عظیما بانواع طرق البیان من العبر والحکم والامثال والاحکام والحجج والاعلام فی قوالب الوعد والوعید والامر والنهی والمحکم والمتشابه الی غیر ذلک فِیْ هٰذَا الْقُرْاٰنِ ای فی مواضع منه من الامثال کما قال تعالی ولقد ضربنا للناس فی هذا القرآن من کل

ع

مثل قيل لفظة في زائدة كما في قوله تعالى واصلح لي في ذريتي وردّ بان في لا تزاد وما ذكرمنا قول
كما يأتي ان شاء الله تعالى في الاحقاف والتصريف لغة صرف الشيء من جهة الى اخرى ثم صار كناية
عن التبيين قاله ابو حيان وقوله تعالى لِيَذَّكَّرُوا متعلق بصرفنا وقرأ حمزة والكسائي بسكون
الذال ورفع الكاف من غير تشديد من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال
والكاف مع تشديدهما وَمَا يَزِيدُهُمْ اي التصريف إِلَّا نُفُورًا اي تباعدا عن الحق وقلة طمانينة
اليه وعن سفيان كان اذا قرأها قال زادني ذلك لك خضوعا ما زاد اعداءك نفورا ثم
قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قُلْ اي لهؤلاء المشركين ولا تياس من رجوع بعضهم لَوْ كَانَ
مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ من هذه الاقوال التي لو قالها اعظمكم في حق ادناكم وهو بريء منها حقيقتها
الضار مشكوة للعباد إِذًا لَابْتَغَوْا اي طلبوا طلبا عظيما إِلَى ذِي الْعَرْشِ اي صاحب السرير الاعظم
المحيط الذي من ناله كان منفردا بالتدبير سَبِيلًا اي طريقا سالكا يتوصلون به اليه ليقهروه
ويزيلوا ملكه كما تزود فعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض او ليتخذوا عنده يدا تقربهم اليه
وقرأ ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وادغم ابو عمرو الشين من العرش
في السين بخلاف عنه ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل سُبْحَانَهُ اي تنزه التنزه الاعظم
عن كل شائبة نقص وَتَعَالَى اي علا اعلى العلو بصفات الكمال عَمَّا يَقُولُونَ اي من هذه النقائص التي
لا يرضاها لنفسه احد من عقلاء خلقه عُلُوًّا اي تعاليا كَبِيرًا اي متباعدا غاية البعد عما يقولون
فانه تعالى في اعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته + تنبيه + جعل العلو مصدر
التعالي ومصدره تعاليا كما قدرته في المواد ونظيره قوله تعالى والله انبتكم من الارض نباتا فان قيل
ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير اجيب بان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت
الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت في القوة والكمال الى حيث
لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته وبين الممكن لذاته وبين القديم والمحدث
وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير و
قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم استانف تعالى بيان عظمة هذا
التنزيه مقرونا بالوصف بالكمال فقال تُسَبِّحُ اي توقع التنزيه الاعظم لَهُ اي الاله الاعظم الذي
تقدم وصفه بالجلال والاكرام خاصة السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ اي السبع وَمَنْ فِيهِنَّ
اي من ذوي العقول وَإِنْ اي وما واغرق في النفي فقال مِنْ شَيْءٍ اي ذي عقل او غيره
إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ اي يقول سبحان الله العظيم وبحمده او يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن
عباس وان من شيء حي الا يسبح بحمده وقال قتادة يعني الحيوانات والناميات وقال عكرمة
الشجرة تسبح والاسطوانة تسبح وعن المقدام بن معدي كرب التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك
التسبيح والورقة تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح ما دام

جاريا

جاريا فاذا ادرك ترك التسبيح والثوب يسبح ما دام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وقال السيوطي
في جواب سؤال عن ذلك شعر قد خصصت اية الاسرى بمتصف ٭ بوصف الحيوة كرطب النبت والشجر
فيابس مات لا تسبيح منه كذا ٭ ما زال عن موضع كالقطع للحجر ٭ وقال ابراهيم النخعي وان من شئ
جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقال مجاهد كل الاشياء تسبح لله تعالى
حيوانا كانت او جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود
كنا نعد الايات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء
فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم
في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين اصابعه صلى الله
عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ان بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت اني لاعرفه الان وعن ابن عمر انه صلى الله عليه وسلم كان يخطب
الى جذع فلما اتخذ له المنبر تحول اليه فحن الجذع فاتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه
وساره بشئ ففي هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وانه يسبح وقال بعض اهل المعاني تسبيح
السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال حيث تدل على الصانع
وقدرته ولطيف حكمته فكانها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي والاول اصح وهو
المنقول عن السلف وقال ابن الخازن القول الاول اصح لما دلت عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف
قال البغوي واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي ان يوكل علمه اليه ولكن
لا تفقهون اي لا تفهمون تسبيحهم اي لانه ليس بلغتكم انه كان حليما غفورا ولما ذكر سبحانه
وتعالى اثبات الالهية اتبعه بذكر تقرير النبوة بقوله تعالى واذا قرأت القرآن اي الذي لا يدانيه
واعظ ولا يساويه مفهم وهو تبيان لكل شئ جعلنا اي بما لنا من العظمة بينك وبين الذين
لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا اي يحجب قلوبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم والانتفاع به قال قتادة
هو الاكنة فالمستور بمعنى الساتر كقوله تعالى كان وعده ماتيا مفعول بمعنى فاعل وقيل مستورا
عن اعين الناس فلا يرونه وفسره بعضهم بالحجاب عن الاعين الظاهرة كما روي عن سعيد بن جبير انه
لما نزلت تبت يدا ابي لهب جاءت امرأة ابي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع ابي بكر رضي الله
عنه فلم تره فقالت لابي بكر اين صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله
فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ به راسه فقال ابو بكر ما رأتك يا رسول الله قال لا لم يزل
ملك بيني وبينها يسترني وجعلنا اي بما لنا من العظمة على قلوبهم اكنة اي اغطية كراهة ان يفقهوه [illegible]
ى يفقهوه اي يفهموا القرآن حق فهمه وفي آذانهم وقرا اي شيئا ثقيلا يمنعهم سماعهم وعن اسماء
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ومعه ابو بكر اذ اقبلت امرأة ابي لهب ومعها فهر تريد الرسول
صلى الله عليه وسلم وهي تقول مذمما ابينا ودينه قلينا وامره عصينا فقال ابو بكر يا رسول الله معها

فيه اخسنا ها عليك فتلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاية فجاءت وما رات رسول صلى الله عليه وسلم وقالت اني رايت قريشا قد علمت اني ابنة سيدها وان صاحبك هجاني فقال ابوبكر لا ورب الكعبة ورب هذا البيت ما هجاك وروى ابن عباس ان اباسفيان والنضر بن الحرث وابا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون حديثه فقال النضر يوما ما ادري ما يقول محمد غير اني ارى شفتيه يتحرك بشئ وقال ابوسفيان اني لا ادري بعض ما يقوله الاحقا وقال ابوجهل هو مجنون وقال ابولهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الاية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد تلاوة القران قرأ قبلها ثلاث ايات وهي في سورة الاسراء وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي اذانهم وقرا وفي سورة النحل اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفي حم الجاثية افرايت من اتخذ الهه هواه الى اخر الاية فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الايات عن عيون المشركين وَاِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ اي المحسن اليك واليهم فِي الْقُرْاٰنِ وَحْدَهٗ اي من الاعراض عن الهتهم كان قلت وانت تتلو القران لا اله الا الله ✦ تنبيه ✦ في نصب وحده وجهان احدهما انه منصوب على الحال وان كان معرفة لفظا لانه في قوة النكرة اذ هو في معنى منفردا والثاني انه منصوب على الظرف وَلَّوْا عَلٰٓى اَدْبَارِهِمْ نُفُوْرًا اي هربا من استماع التوحيد ✦ تنبيه ✦ في نفورا وجهان احدهما مصدر من غير اللفظ مؤكد لان التولي والنفور بمعنى والثاني انه حال من فاعل ولوا وهو حينئذ جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير في ولوا يعود الى الكفار وقيل يعود الى الشيطان وان لم يجر لهم ذكر وقال المفسرون ان القوم كانوا عند استماع القران على اقسام منهم من كان يلهو عند استماعه روى انه عليه الصلوة والسلام كان كلما قرأ القران قام عن يمينه ويساره اخوان من ولد قصي يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ومنهم من كان اذا اسمع من القران ما فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين لا يفهمون منه شيئا ومنهم من اذا سمع ايات فيها ذكر الله تعالى وذم المشركين ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس ✦ ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم فتشككوا بعض من لم يرسخ ايمانه اتبعه تعالى بقوله تعالى نَحْنُ اَعْلَمُ اي من كل عالم بِمَا يَسْتَمِعُوْنَ اي يبالغون في الاصغاء والميل لقصد السمع بِهٖ من الاذان والقلوب او بسببه ولاجله من الهزء بك وبالقران اِذْ يَسْتَمِعُوْنَ اي يصغون بجهدهم اِلَيْكَ اي الى قراءتك وَاِذْ اي حين هُمْ ذُو نَجْوٰٓى اي يتناجون بان يرفع كل منهم بصره الى صاحبه بعد اعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى اِذْ وهو بدل من اذ قبله يَقُوْلُ الظّٰلِمُوْنَ في قولهم اِنْ اي ما تَتَّبِعُوْنَ اِلَّا رَجُلًا مَّسْحُوْرًا اي مخدوعا مغلوبا على عقله روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امر عليا ان يتخذ طعاما ويدعو اليه اشراف قريش من المشركين ففعل ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القران ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فابوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم القران والدعوة الى الله تعالى يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا

فان قيل انهم لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصح ان يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا اجيب بان معناه ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا وقرأ ابو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين فى الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى انظر كيف ضربوا اى هؤلاء الضلال لك الامثال التى هى ابعد شئ من صفتك من قولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون فضلوا عن الحق فى جميع ذلك فلا اى فتسبب عن ذلك انهم لا يستطيعون سبيلا اى وصولا الى طريق الحق • ولما جرت عادة القرآن باثبات التوحيد والنبوة والمعاد وقدم الدلالة على الاولين وختم باثبات جهلهم فى النبوة مع ظهورها اتبع ذلك امرا جليا فى ضلالهم عن السبيل فى امر المعاد وقرره غاية التقرير وحرره اتم تحرير قال تعالى معجبا منهم وقالوا اى المشركون المنكرون للتوحيد والنبوة والبعث مع اعترافهم باننا ابتدأنا خلقهم ومشاهدتهم فى كل وقت اننا نحيى الارض بعد موتها وقولهم ءاذا استفهام انكارى كانهم على ثقة من عدم ما ينكرونه والعامل فى اذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فان ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها فالمعنى انبعث اذا كنا اى بجملة اجسامنا كونا لازما عظاما ورفاتا اى حطاما مكسرا مفتتا او غبارا وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد ويؤيده انه قد يكرر فى القرآن ترابا وعظاما ويقال للتبن الرفات لانه دقاق الزرع ءانا لمبعوثون حال كوننا مخلوقين خلقا جديدا • تنبيه • تقرير شبهة هؤلاء الضلال هى ان الانسان جفت اعضاؤه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم واختلطت تلك الاجزاء بسائر اجزاء العالم فالاجزاء المائية مختلطة بمياه العالم والاجزاء الترابية مختلطة بالتراب والاجزاء الهوائية مختلطة بالهواء فكيف يعقل اجتماعها باعيانها مرة اخرى وكيف يعقل عود الحيوة اليها باعيانها مرة اخرى هذا تقرير شبهتهم اجيب منها بانها لا تتم الا بالقدح فى كمال علم الله تعالى وفى كمال قدرته فانه تعالى قادر على كل الممكنات فهو قادر على اعادة التأليف والتركيب والحيوة والعقل الى تلك الاجزاء باعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت عنه هذه الشبهة بالكلية • ولما كان كانه قيل فما يقال لهم فى الجواب فقال قل لهم يا اشرف الخلق لا تكونوا رفاتا بل كونوا اصلب من التراب حجارة اى هى فى غاية اليبس او حديدا اى زائدا على يبس الحجارة لشدة اتصال الاجزاء • تنبيه • ليس المراد به الامر بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما اعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل اتطمع فى وانا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى او خلقا غير ذلك مما يكبر اى يعظم عظمة كبيرة فى صدوركم اى مما يكبر عندكم عن قبول الحيوة لكونه ابعد شئ منها فان الله تعالى قادر على اعادة الحيوة اليه قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة واكثر المفسرين انه الموت فانه ليس فى نفس ابن ادم شئ اكبر من الموت اى لو كنتم الموت بعينه لاميتنكم ولابعثنكم وقيل السموات والارض والجبال لانها من اعظم المخلوقات فسيقولون تماديا فى الاستهزاء من يعيدنا اذا كنا كذلك قل الذى فطركم اى ابتدأ خلقكم اول مرة ولم تكونوا شيئا يعيدكم بالقدرة التى ابتدأكم بها فكما لم تعجز تلك

عن الابتداء فهى لا تعجز عن الاعادة فسينغضون اى يحركون اليك رؤسهم تعجبا واستهزاء وكانهم
فى شدة جهلهم على غاية البصيرة من العلم بما يقولون والنغض والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض
ويقولون استهزاء متى هو اى البعث والقيامة قال الرازى واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم
حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التى تقدمت ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه
ممكنا فى نفسه فقولهم متى يوجد كلام لا تعلق له بالبحث فانه لما ثبت بالدليل العقلى كونه ممكن
الوجود فى نفسه وجب الاعتراف بامكانه فاما انه متى يوجد فذلك لا يمكن اثباته من طريق
العقل بل انما يمكن اثباته بالدليل السمعى فان اخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف
والا فلا سبيل الى معرفته لانه تعالى بين فى القرآن انه لا يطلع احدا من الخلق على وقته المعين
فقال تعالى ان الله عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربى وقال تعالى ان الساعة اتية
اكاد اخفيها فلا جرم قال تعالى قل عسى ان يكون قريبا قال المفسرون عسى من الله واجب معناه
انه قريب اذ كل ما هو ات قريب واما متى وعسى فحمزة والكسائى امالة محضة وورش بالفتح وبين
اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى يوم يدعوكم بدل من قريبا والمعنى عسى ان يكون البعث
يوم يدعوكم اى بالنداء الذى يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال تعالى يوم ينادى المناد من مكان
قريب وروى ان اسرافيل ينادى ايها الاجسام البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودى
كما كنتى فتستجيبون اى تجيبون والاستجابة موافقة الداعى فيما دعا اليه وهى الاجابة الا ان
الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهى اكد من الاجابة واختلف فى معنى قوله تعالى بحمده فقال
ابن عباس بامره وقال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم
ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك فيحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقال قتادة بمعرفته وطاعته
وقال اهل المعانى تستجيبون بحمده اى تستجيبون حامدين كما تقول جاء بغضبه اى جاء غضبان
وركب الامير بسيفه اى وسيفه معه وقال الزمخشرى بحمده حال منهم اى حامدين وهى
مبالغة فى انقيادهم للبعث كقولك لمن تامره بركوب ما يشق عليه فيابى ويمتنع ستركبه وانت
حامد شاكر يعنى انك تحمل عليه وتقسر عليه قسرا حتى انك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد
عليه وتظنون ان اى ما لبثتم الا قليلا اى من استجابتكم وطول لبثكم وشدة ما ترون من
الهول فعند ذا تستقصرون مدة لبثكم فى الدنيا وتحسبونها يوما او بعض يوم وعن قتادة
تحاقرت الدنيا فى انفسهم حين عاينوا الآخرة وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكانك
بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل فهذا يرجع الى استقلال مدة اللبث فى الدنيا وقيل المراد استقلال
مدة لبثهم فى برزخ القيامة لانه لما كان عاقبة امرهم الدخول فى النار استقصروا لبثهم فى برزخ القيامة
وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام ولما ذكر تعالى الحجة
اليقينية فى صحة المعاد وهو قوله تعالى قل الذى فطركم اول مرة قال تعالى وقل يا محمد لعبادى

اى المؤمنين لان لفظ العباد فى اكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادى الذين
يستمعون القول وقال تعالى فادخلى فى عبادى وقال تعالى عينا يشرب بها عباد الله يقولوا للكفار الذين
كانوا يؤذونهم الكلمة التى هى احسن ولا يكافئوهم على سفههم بل يقولون يهديكم الله وكان هذا قبل
الاذن بالقتال وقيل نزلت فى عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فامره الله تعالى بالعفو وقيل
امر المؤمنين بان يقولوا او يفعلوا الخلة التى هى احسن وقيل الاحسن قول لا اله الا الله ثم علل بقوله تعالى
ان الشيطان اى البعيد عن الرحمة المحترق باللعنة ينزغ بينهم اى يفسد ويغرى بعضهم على بعض
ويوسوس لهم لتقع بينهم المشادة والمشاقة واصل النزغ الطعن وهو غيره مبين فيوشك ان
ياتوا بما لا يناسب الحال ثم علل تعالى هذه العلة بقوله تعالى ان الشيطان كان اى فى قديم
الزمان واصل الطبع كونا هو مجبول عليه للانسان عدوا اى بليغ العداوة مبينا اى بين العداوة
ثم فسر تعالى التى هى احسن مما علمهم ربهم من الشفقة بقوله تعالى ربكم اعلم بكم فعلم ان قوله تعالى
ان الشيطان الى آخره جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن ابو عمرو الميم واخفاها عند الباء
غيره فحققه وكذا اعلم بمن ثم استانف تعالى ان يشأ اى ربكم يرحمكم اى بهدايتكم او ان يشأ
يعذبكم اى باضلالكم فلا تحتقروا ايها المؤمنون المشركين فتقطعوا بانهم من اهل النار
فتعيروهم بذلك فانه يجر الى غيظ القلوب فلا فائدة لان الخاتمة مجهولة ولا تتجاوزوا فيهم
ما امركم الله به من قول وفعل ثم رقى الله الخطاب الى اعلى الخلق واعلى اهل الشرع ليكون
من دونه اولى بالمثل منه فقال تعالى وما ارسلناك اى بما لنا من العظمة الغنية
عن كل شئ عليهم وكيلا اى حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضى الله وانما ارسلناك على حسب ما نامرك
به بشيرا ونذيرا فدارهم ومر اصحابك بالاحتمال منهم وقيل ان هذا قبل الاذن بالقتال ، ولما امرهم بان
ينسبوا الاعلمية بهم اليه تعالى اخبر بما هو اعم من ذلك فاعاد الخطاب على اعلمهم بقوله تعالى
وربك اى المحسن اليك بان جعلك اكمل الخلق اعلم بمن فى السموات والارض فعلمه غير مقصور عليكم
بل متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذوات الارضين والسموات فيعلم تعالى
حال كل احد ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ويعلم اختلاف صورهم واديانهم واخلاقهم
واحوالهم وجميع ما هم عليه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فيفضل بعض الناس على بعض
على حسب احاطة علمه وشمول قدرته وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى ولقد فضلنا
بما لنا من العظمة بعض النبيين سواء كانوا رسلا ام لا على بعض بعد ان جعلنا الكل فضلا ولقربه
كل منهم واحسانه فخصصنا كلا منهم بفضيلة كموسى بالكلام وابراهيم بالخلة ومحمد صلى الله
عليه وسلم بالاسراء فلا ينكر احد من العرب او بنى اسرائيل او غيرهم تفضيلنا لهذا النبى الكريم
الذى صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق فانا نفعل ما نشاء بما لنا من القدرة التامة والعلم
الشامل وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على اصله بمد على الهمزة وتوسط وقصر وآتينا

موسى التوراة وداود زبوراً وعيسى الانجيل فلم يبعد ايضاً ان يؤتي محمداً صلى الله عليه وسلم
القرآن ولم يبعد ان نفضله على جميع الخلق فان قيل ما السبب في تخصيص داود عليه السلام
بالذكر هنا اجيب باوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا
داود زبوراً يعني ان داود ولي ملكاً عظيماً ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من
الكتاب تنبيهاً على ان الفضل الذي ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال
الثاني انه تعالى كتب في الزبور ان محمداً خاتم الانبياء وان امة محمد خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا
في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وسلم وامته فان قيل
هلا عرفه كقوله ولقد كتبنا في الزبور اجيب بان التنكير هنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة
عن المزبور فكان معناه الكتاب وكان معنى التنكير انه كامل في كونه كتاباً ويجوز ان يكون زبوراً
علماً فاذا دخلت عليه ال كقوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور كانت للمح الاصل كعباس والعباس
وفضل والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا اهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود
في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض
الله عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود وروى البخاري في التفسير عن ابي هريرة ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال خفف على داود القرآن فكان يامر بدوابه لتسرج فكان يقرأ قبل ان يفرغ اي القرآن
قال البقاعي ومن اعظم المناسبات لتخصيص داود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ذكر البعث الذي
هذا مقامه فيه مصرحاً به ولذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك اما البعث فلم ار ذكره فيها اصلاً
واما النار فلم ار فيها كشيء مما يدل عليها الا الجحيم في موضع واحد واما الزبور فذكر فيه النار والهاوية
والجحيم في غير موضع انتهى وقرأ حمزة بضم الزاي والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول قوله تعالى
قل ادعوا الذين زعمتم انهم آلهة من دونه اي من سواه كالملائكة وعزير والمسيح وقرأ نافع وابن كثير
وابو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي بضم اللام من قل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا في حال
الوصل واما الابتداء فالجميع ابتدأ بهمزة مضمومة فلا يملكون كشف الضر اي البؤس الذي من شأنه
ان يمرض الجسم كله عنكم حتى لا يدعوا شيئاً منه ولا تحويلاً له الى غيركم فقال ابن عباس انها نزلت
في الذين عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل ان قوماً عبدوا نفراً من الجن
فاسلم النفر من الجن وبقي اولئك القوم متمسكين بعبادتهم فنزلت فيهم هذه الآية وقيل ان
المشركين اصابهم قحط شديد حتى اكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم
ليدعو لهم فنزل قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم انهم آلهة من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال
في وصفهم اولئك الذين يدعون اي يدعونهم الكفار آلهة يبتغون اي يطلبون طلباً عظيماً
الى ربهم اي المحسن اليهم الوسيلة اي المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة وابتغاء الوسيلة
الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرأ ابو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم

الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم ✣ تنبيه ✣ اولئك مبتدأ وخبره يبتغون ويكون الموصول
نعتا او بيانا او بدلا والمراد باسم الاشارة الانبياء او الملائكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو
العباد لهم ويكون العائد على الذين محذوفا والمعنى اولئك الانبياء الذين يدعونهم المشركون
لكشف ضرهم يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب اي يتسابقون بالاعمال مسابقة من يطلب
كل منهم ان يكون اليه اقرب ولديه افضل ويرجون رحمته رغبة فيما عنده ويخافون عذابه
فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم آلهة وقيل معناه ان الكفار ينظرون
ايهم اقرب الى الله تعالى فيتوسلون به ثم علل خوفهم بامر عام بقوله تعالى ان عذاب ربك اي المحسن
اليك بوضع انتقام الاستئصال منه عن امتك كان اي كونا لازما محذورا اي جديرا بان يحذره كل
احد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم لما شوهد من اهلاكه للقرون الماضية ✣
ولما قال تعالى ان عذاب ربك كان محذورا بين بقوله تعالى وان اي وما من قرية الا نحن مهلكوها
قبل يوم القيمة او معذبوها عذابا شديدا ان كل قرية اي اهلها لابد وان يرجع حالهم الى احد
امرين اما الاهلاك بالموت والاستئصال واما العذاب بالقتل وانواع البلاء وقال مقاتل اما
الصالحة فبالموت واما الطالحة فبالعذاب وقال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية
اذن الله تعالى في هلاكها كان ذلك اي الامر العظيم في الكتاب اي اللوح المحفوظ مسطورا اي مكتوبا
قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول ما خلق الله
القلم فقال اكتب فقال وما اكتب قال القدر ما كان وما هو كائن الى الابد اخرجه الترمذي
✣ ولما كان كفار قريش قد تكرر اقتراحهم للآيات وكان صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه
على ايمان كل احد يحب ان الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم طمعا في ايمانهم فاجاب الله تعالى
بقوله وما منعنا اي على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ولا يمنعها مانع ان نرسل بالآيات
اي التي اقترحوها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك في قولهم فأتنا باية كما ارسل الاولون وقال اخرى
لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآيات وقال سعيد بن جبير انهم قالوا انك تزعم انه
كان قبلك انبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من احيا الموتى فأتنا بشيء من هذه المعجزات
فكان كانه لا آيات عندهم سوى ذلك الا علمنا في عالم الشهادة بما وقع من ان كذب بها اي
المقترحات الاولون وعلمنا في عالم الغيب ان هؤلاء مثل الاولين ان الشقي منهم لا يؤمن بالمقترحات
كما لم يؤمن بغيرها ويقول فيها ما قال في غيرها من انها سحر ونحو ذلك والسعيد لا يحتاج في ايمانه
اليها فلم اجبنا امة الى مقترحها فما زاد ذلك اهل الضلالة منهم الا كفرا فاخذناهم لان سنتنا جرت
انا لا نمهل بعد الاجابة الى المقترحات من كذب بها قال ابن عباس سال اهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم
ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحي الجبال عنهم ليزرعوا تلك الاراضي فطلب صلى الله عليه وسلم ذلك من الله
تعالى فاوحى الله تعالى اليه ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط ان لم يؤمنوا اهلكتهم فقال صلى الله

عليه وسلم لاريد ذلك فتفضل الله تعالى برحمته هذه الامة وتشريفها على الامم السابقة بعدم
استئصالها لما علم من اصلاب كثيرها من خلص عباده فلهذا السبب ما اجابهم الله تعالى
الى مطلوبهم فقال جل ذكره بل الساعة موعدهم والساعة ادهى وامر ثم ذكر تعالى من تلك الآيات التي
اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت اليهم فاهلكوا ما ذكره تعالى بقوله تعالى وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ
حالة كونها مُبْصِرَةً اي مضيئة بينة جديرة بان يستبصر بها من كل شاهدها فيستدل بها
على صدق الذي اتى بها فَظَلَمُوا بِهَا اي ظلموا انفسهم بتكذيبهم بها وقال ابن قتيبة جحدوا انها
من الله تعالى فاهلكناهم فكيف يتمنى هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى وخص تعالى
هذه الآية بالذكر لان آثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم
وواردهم ثم قال تعالى وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ اي المقترحات وغيرها إِلَّا تَخْوِيفًا للمرسل اليهم بها فان
خافوا نجوا والا هلكوا بعذاب الاستئصال من كذب بالآيات المقترحات وبعذاب الآخرة من كذب
بغيرها كالمعجزات وآيات القرآن فامر من بعث اليهم مؤخر الى يوم القيامة فان قيل المقصود
الاعظم من اظهار الآيات ان يستدل بها على صدق المدعي فكيف حصر المقصود من اظهارها في
التخويف اجيب بانه لما كان هو الحامل والغالب على التصديق فكانه هو المقصود ولما طلب
القوم من النبي صلى الله عليه وسلم تلك الآيات المقترحات واجاب الله تعالى بان اظهارها ليس
مصلحة صار ذلك سببا لجرأة اولئك الكفار بالطعن فيه وان يقولوا له لو كنت رسولا حقا من
عند الله لاتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها كما اتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى
الله تعالى قلبه وبين له انه ينصره ويؤيده فقال تعالى وَ اذكر يا اشرف الخلق إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ
اي المفضل بالاحسان اليك بالرفق لامتك أَحَاطَ بِالنَّاسِ علما وقدرة فهم في قبضته وقدرته
لا يقدرون على الخروج من مشيئته فلا يقدرون على امر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك
ومانعك منهم فلا تهبهم وامض فيما امرك به من تبليغ الرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك كما
وعدك بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقيل ان المراد بالناس اهل مكة بمعنى انه يغلبهم ويقهرهم
روي انه لما تراءى الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع ابي بكر رضي الله عنه
كان يدعو ويقول اللهم اني اسالك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول سيهزم
الجمع ويولون الدبر وكان صلى الله عليه وسلم يقول حين ورد بدرا والله كاني انظر الى مصارع القوم
وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما اوحي الى النبي صلى الله
عليه وسلم ثم عطف تعالى على وما نرسل بالآيات قوله تعالى وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ اي التي شاهدتها
ليلة الاسراء إِلَّا فِتْنَةً اي امتحانا واختبارا لِلنَّاسِ لانه صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه
وكفر به كثير ممن كان قد آمن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كانت امتحانا وروى البخاري
في التفسير عن ابن عباس انه قال هي رؤيا عين اريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به وقيل

انه قول الاكثر فمنهم سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وما قاله
بعضهم من ان الرؤيا تدل على انها رؤيا منام ضعيف اذ لا فرق بين الرؤية والرؤيا فى اللغة يقال رأيته
بعينى رؤية ورؤيا ＋ فائدة ＋ قال بعض العلماء كانت اسراآته صلى الله عليه وسلم اربعا وثلاثين
مرة واحدة بجسده والباقى بروحه رؤيا رآها قال ومما يدل على ان الاسراء ليلة فرض الصلوة كانت
بالجسم ما ورد فى بعض طرق الحديث انه صلى الله عليه وسلم استوحش لما زج به فى النور ولم ير معه
احدا اذ الارواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش قال ومما يدل على ان الاسراء كان بجسمه
ما وقع له من العطش فان الارواح المجردة لا تعطش ولما كان صلى الله عليه وسلم قد وصل الجحيم
واخبر صلى الله عليه وسلم ان شجرة الزقوم تنبت فى اصل الجحيم وكان ذلك فى غاية الغرابة ضمها
الى الاسراء فى ذلك بقوله تعالى وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْاٰنِ لان فيها امتحانا ايضا بل قال بعض
المفسرين هى على التقديم والتاخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التى اريناك والشجرة الملعونة فى القرآن
الا فتنة للناس واختلف فى هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة فى قوله تعالى
ان شجرة الزقوم طعام الاثيم فكانت الفتنة فى ذكر هذه الشجرة من وجهين الاول ان ابا جهل قال زعم
صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول فى النار شجرة والنار تاكل
الشجر فكيف يولد فيها الشجرة الثانى قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه
فانزل الله تعالى حين عجبوا ان يكون فى النار شجرا انا جعلناها فتنة للظالمين الايات وما قدروا
الله حق قدره من قال ذلك فان الله تعالى قادر على ان يجعل الشجرة من جنس لا تاكله النار فهذا وبر
السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت فى النار فيذهب الوسخ
وبقيت سالمة لا تعمل فيها النار وترى النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد المحمى باحماء النار فلا يضرها ثم
اقرب من ذلك انه تعالى جعل فى الشجر نارا فما تحرقه قال تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فان قيل
ليس فى القرآن لعن هذه الشجرة أجيب عن ذلك بوجوه الاول المراد لعن الكفار الذين ياكلونها
لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما وصفت بلعن اصحابها على المجاز الثانى
ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون الثالث ان اللعن فى اللغة الابعاد ولما كانت هذه
الشجرة مبعدة عن صفات الخير سميت ملعونة وقيل ان الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله
تعالى لعن الذين كفروا الاية وقيل هى الشيطان وقيل ابو جهل وعن ابن عباس هى الكشوث التى تلتوى
بالشجر تجعل فى الشراب ＋ ولما ذكر سبحانه وتعالى انه يرسل بالايات تخويفا قال ههنا ايضا وَنُخَوِّفُهُمْ
فَمَا يَزِيْدُهُمْ اى الكافرين والتخويف بالقرآن اِلَّا طُغْيَانًا كَبِيْرًا اى تجاوزا للحد هو فى غاية العظم ع
فحينئذ بان يظهر الله تعالى لهم المعجزات التى اقترحوها لم يزدادوا بها الا تماديا فى الجهل والعناد
فاقتضت الحكمة ان لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الايات والمعجزات فانهم قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل
يوم بدر وخوفوا بعذاب الاخرة وشجرة الزقوم فما اثر فيهم فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال

وما يقترحون من الآيات ۰ ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه
الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد اما الكبر فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد واما الحسد
فلانهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان
حملا ابليس على الخروج من الايمان والدخول فى الكفر بقوله تعالى وَإِذْ اى واذكر اذ قُلْنَا بما لنا من
العظمة التى لا ينقض مرادها لِلْمَلَائِكَةِ حين خلقنا اباك آدم وفضلناه اسْجُدُوا لِآدَمَ اى
امتثالا لامرى فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ اى ابى ان يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه ما يعلم من قدرة الله
وعظمته وذلك معنى قوله تعالى قَالَ اى منكرا متكبرا أَأَسْجُدُ اى خضوعا لِمَنْ خَلَقْتَ حال كون اصله طِينًا
فكونه نسبته لها الى الجوهر متخيلا انه افضل من آدم عليه السلام من حيث ان الفروع ترجع
الى الاصول وان النار التى هى اصله اكرم من الطين الذى هو اصل آدم وذهب عنه ان الطين
انفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذى اوجدها
من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدثه فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه
القصة فى سبع سور فى البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام
المستقصى فيها قد تقدم فى البقرة ولعل هذه القصة انما كررت تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم
فانه كان فى محنة عظيمة من قومه واهل زمانه فكانه تعالى يقول الا ترى ان اول الانبياء هو آدم
عليه السلام ثم انه كان فى محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما بلية عظيمة ومحنة
عظيمة للخلق وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وادخل قالون وابو عمرو
بينهما الفا ولم يدخل ورش وابن كثير بينهما الفا ولورش ايضا ابدال الثانية الفا واذا وقف حمزة
سهل الثانية كقراءة ابن كثير وفرق هشام بالتحقيق فى الثانية والتسهيل وادخال الف بينهما وقرأ
الباقون بتحقيقهما بلا ادخال ۰ ولما اخبر تعالى بتكبره كان كانه قيل ان هذه الوقاحة عظيمة واجتراء على
الجناب الاعلى فهل كان منه غير ذلك قيل قَالَ أَرَأَيْتَكَ اى اخبرنى وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء
ولورش وجه ثان وهو ابدالها الفا واسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ
لم كرمته علىّ مع ضعفه وقوتى فكانه قيل لقد اتى بالغاية فى اساءة الادب فما كان بعد هذا فقيل قال
مقسما لاجل استبعاد ان يقع عن هذه الجرأة على الملك الاعلى لَئِنْ أَخَّرْتَنِ اى ايها الملك الاعلى
تأخيرا ممتدا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حيا متمكنا وجواب القسم الموطأ باللام لَأَحْتَنِكَنَّ اى بالاغواء ذُرِّيَّتَهُ
اى لاستاصلن عليهم استيلاء من جعل فى حنك الدابة الاسفل حبلا يقودها به فلا تأبى عليه وقرأ نافع
وابو عمرو باثبات ياء بعد النون فى اخرتنى عند الوصل وحذفها فى الوقف واثبتها ابن كثير وصلا ووقفا وحذفها
الباقون وقفا ووصلا اتباعا للرسم ۰ ولما علم انه لا يقدر على الجميع قال إِلَّا قَلِيلًا وهم اولياؤك الذين
حفظتهم منى كما قال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فان قيل كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق
بذرية آدم اجيب باوجه الاول انه سمع الملائكة يقولون اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء

فعرف هذه الاحوال الثانی انه وسوس الی ادم ولم یجد له عزما فقال الظاهر ان اولاده یکونون مثله فی ضعف العزم الثالث انه عرف انه مرکب من قوة بهیمیة شهویة وقوة وهمیة شیطانیة وقوة عقلیة ملکیة وقوة سبعیة غضبیة وعرف ان بعض تلک القوی تکون هی المستولیة فی بعض اول الخلقة ثم ان القوة العقلیة انما تکمل فی اخر الامر ومن کان کذلک کان ما ذکره ابلیس لازما له ثم کانه قیل لقد طال عمر والله الاجتراء فما قال له ربه بعد ذلک فقیل قال مدة اله اذهب ای امض لما قصدته وخلیته وتخلیة بینه وبین ما سولت له نفسه وتقدم فی الحجر انه انما یؤخر الی یوم الوقت المعلوم وهو یوم ینفخ فی الصور لا انه یؤخر الی یوم القیامة کما طلب وقرأ ابو عمرو وخلاد والکسائی بادغام الباء الموحدة فی الفاء واظهرها الباقون + ولما حکم تعالی بشقاوته وشقاوة من اراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالی فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ای اولاد ادم علیه السلام فَإِنَّ جَهَنَّمَ ای الطبقة الناریة التی تجهم داخلها جَزَاؤُكُمْ ای جزاؤک وجزاء اتباعک تجرون ذلک جَزَاءً مَوْفُورًا ای مکملا وافیا بما تستحقون علی اعمالکم الخبیثة + ولما طلب ابلیس اللعین من الله تعالی الامهال الی یوم القیامة لاجل ان یحتنک ذریة ادم ذکر الله تعالی له اشیاء الاول اذهب ای امض کما مر فانی امهلتک هذه المدة ولیس من الذهاب الذی هو ضد المجیء الثانی قوله تعالی وَاسْتَفْزِزْ ای استخف مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ ان تستفزه وهم الذین سلطناک علیهم بِصَوْتِكَ قال ابن عباس معناه بدعائک الی معصیة الله وکل داع الی معصیة الله تعالی فهو من جند ابلیس وقیل اراد بصوتک الغناء واللهو واللعب الثالث قوله تعالی وَأَجْلِبْ ای صح عَلَيْهِمْ من الجلبة وهی الصیاح بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ واختلفوا فی الخیل والرجل علی اقوال الاول روی ابو الضحی عن ابن عباس انه قال کل راکب او راجل فی معصیة الله تعالی وعلی هذا خیله ورجله کل من شارکه فی الدعاء الی المعصیة الثانی یحتمل ان یکون لابلیس جیش من الشیاطین بعضهم راکب وبعضهم راجل الثالث ان المراد منه ضرب المثل کما یقال للرجل المجد فی الامر جد بالخیل والرجل قال الرازی وهذا اقرب وقال الزمخشری هو کلام ورد مورد التمثیل مثل فی تسلطه علی من یغویه بمغوار وقع علی قوم فصوت بهم صوتا یستفزهم من اماکنهم ویقلقلهم عن مراکزهم واجلب علیهم بجنده من خیالة ورجالة حتی استأصلهم والخیل تقع علی الفرسان قال صلی الله علیه وسلم یا خیل الله ارکبی وقد تقع علی الافراس خاصة وقرأ حفص عن عاصم بکسر الجیم وسکنها الباقون جمع راجل کصاحب وصحب وراکب ورکب ورجل بالکسر والضم لغتان مثل حدث وحدث وهو مفرد ارید به الجمع الرابع قوله تعالی وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ اما المشارکة فی الاموال فقال مجاهد هو کل ما اصیب من حرام او انفق فی حرام وقال قتادة هو جعلهم البحیرة والسائبة والوصیلة والحام وقال الضحاک هو ما یذبحونه لالهتهم وقال عکرمة هو تبتیکهم اذان الانعام وقیل هو جعلهم من اموالهم شیئا لغیر الله کقولهم هذا لله وهذا لشرکائنا ولا منافاة بین جمیع هذه الاقوال واما المشارکة فی الاولاد فقال عطاء عن ابن عباس هو تسمیة الاولاد بعبد شمس وعبد العزی

وعبد الحرث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو انهم هوّدوا اولادهم ونصروهم ومجسوهم وروى
عن جعفر بن محمد ان الشيطان يقعد على ذكر الرجل فاذا لم يقل بسم الله اصاب معه امرأته
وانزل في فرجها كما ينزل الرجل ويقال في جميع هذه الاقوال ايضا ما تقدم وروى ان رجلا قال
لابن عباس ان امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن وفي الآثار ان ابليس
لما خرج الى الارض قال يا رب اخرجتني من الجنة لاجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال انت
مسلط قال لا استطيعه الا بك فزدني قال استفزز من استطعت منهم بصوتك قال آدم يا رب
سلطت ابليس عليّ وعلى ذريتي واني لا استطيعه الا بك قال لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظه
قال زدني قال الحسنة بعشر امثالها والسيئة بمثلها قال زدني قال التوبة مفروضة ما دام الروح
في الجسد فقال زدني فقال يا عبادي الذين اسرفوا الآية وفي الخبر ان ابليس قال يا رب بعثت
انبياء وانزلت كتبا فما قراءتي قال الشعر قال فما كتابي قال الوشم قال ومن رسولي قال الكهنة قال فما
طعامي قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال واين مسكني قال الحمامات قال واين
مجلسي قال الاسواق قال وما حبائلي قال النساء قال وما اذاني قال المزمار الخامس قوله تعالى وعدهم
اي من المواعيد الباطلة ما يستخفهم ويغرّهم من ذلك وعدهم بان لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة
الآلهة والكرامة على الله تعالى بالانساب الشريفة وتسويف التوبة وايثار العاجل على الآجل
ونحو ذلك وقوله تعالى وما يعدهم الشيطان من باب الالتفات واقامة الظاهر مقام المضمر ولو جرى
على سنن الكلام الاول لقال وما تعدهم بالتاء من فوق وقوله تعالى الا غرورا فيه اوجه احدها
انه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر والاصل الا وعدا غرورا الثاني انه مفعول من اجله
اي ما يعدهم من الاماني الكاذبة الا لاجل الغرور الثالث انه مفعول به على الاتساع اي ما يعدهم
الا الغرور نفسه والغرور تزيين الباطل بما يظن انه حق فان قيل كيف ذكر الله تعالى هذه الاشياء
لابليس وهو يقول ان الله لا يامر بالفحشاء اجيب بان هذا على طريق التهديد كقوله تعالى
اعملوا ما شئتم وكقول القائل اعمل ما شئت فسوف ترى وكما يقال اجهد جهدك فسوف ترى ما ينزل بك
+ ولما قال الله تعالى له افعل ما تقدر عليه قال تعالى انّ عبادي اي الذين اهلتهم للاضافة الي
فقاموا بحق عبوديتي بالتقوى والاحسان ليس لك عليهم سلطان اي قدرة تقدر ان تغويهم وتحملهم
على ذنب لا يغفر لاني وفقتهم للتوكل علي فكفيتهم امرك وكفى بربك اي الموجد لك وكيلا اي حافظا لهم
منك + ولما ذكر تعالى انه الوكيل الذي لا كافي غيره اتبعه بعض افعاله الدالة على ذلك بقوله تعالى
ربكم اي المتصرف فيكم هو الذي يزجي اي يجري لكم الفلك ومنها التي حملكم فيها مع ابيكم نوح عليه
الصلاة والسلام في البحر لتبتغوا اي لتطلبوا من فضله الربح وانواع الامتعة التي لا تكون عندكم ثم انه
تعالى علل ذلك بقوله عز وجل انه اي فعل سبحانه وتعالى ذلك لانه كان اي ازلا وابدا بكم
رحيما حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من اسبابه + تنبيه + الخطاب

في قوله ربكم وفي قوله تعالى انه كان بكم رحيما في حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها
واما قوله تعالى وَاِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ اي الشدة فِي الْبَحْرِ خطاب للكفار بدليل قوله تعالى ضَلَّ
اي غاب عن ذكركم وخواطركم مَنْ تَدْعُوْنَ اي تعبدون من الالهة اِلَّآ اِيَّاهُ وحده
فاخلصتم له الدعاء علما منكم انه لا ينجيكم سواه فَلَمَّا نَجّٰكُمْ من الغرق واوصلكم بالتدريج
اِلَى الْبَرِّ اَعْرَضْتُمْ عن الاخلاص له ورجعتم الى الاشراك وَكَانَ الْاِنْسَانُ اي هذا النوع
كَفُوْرًا اي جحودا للنعم بسبب انه عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء
والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره وقوله تعالى اَفَاَمِنْتُمْ الهمزة فيه للانكار والفاء
للعطف على محذوف تقديره انجوتم من البحر فامنتم بعد خروجكم منه اَنْ يَّخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ
فيغيبكم في اي جانب كان منه لانا قادرون على التغييب في الماء والتراب على السواء فعلى
العاقل ان يستوي خوفه من الله تعالى في جميع الجوانب اَوْ اَمِنْتُمْ اَنْ يُّرْسِلَ عَلَيْكُمْ من جهة
الفوق شيئا من امرنا حَاصِبًا اي يمطر عليكم حجارة من السماء كما امطرناها على قوم لوط قال الله
تعالى انا ارسلنا عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح ثُمَّ لَا تَجِدُوْا لَكُمْ ايها الناس وَكِيْلًا
ينجيكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا في البحر وكيلا غيره اَمْ اَمِنْتُمْ اي جاوزت بكم
الغباوة حدها فلم تجوزوا واذلك اَنْ يُّعِيْدَكُمْ فِيْهِ اي البحر الذي يضطركم الى ذلك فتقسركم
عليه وان كرهتم تَارَةً اُخْرٰى باسباب تضطركم الى ان ترجعوا فتركبوه فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
الرِّيْحِ اي ريحا شديدة لا تمر بشيء الا قصفته تكسر فلككم فَيُغْرِقَكُمْ في البحر الذي اعدنا لكم فيه
بقدرتنا بِمَا كَفَرْتُمْ اي بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة الانجاء ثُمَّ لَا تَجِدُوْا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهٖ تَبِيْعًا
اي مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم + تنبيه + تارة بمعنى مرة وكرة فهي مصدر ويجمع على تير وتارات
قال الشاعر وانسان عيني يحسر الماء تارة + فيبدو وتارات يجم فيغرق + وقرا ابن كثير
وابو عمرو ان نخسف او نرسل ان نعيدكم فنرسل فنغرقكم جميع هذه الخمسة بنون العظمة والباقون
بياء الغيبة والقراءة الاولى على سبيل الالتفات من الغائب في قوله تعالى ربكم الى اخره والقراءة
الثانية على سنن ما تقدم من الغيبة + ثم ان الله تعالى ذكر نعمة اخرى رفيعة جليلة على الانسان
وذكر فيها اربعة انواع النوع الاول قوله تعالى وَلَقَدْ كَرَّمْنَا اي بعظمتنا تكريما عظيما بَنِيْٓ اٰدَمَ وهذا في
متعلق التكريم فلذا اختلف المفسرون فيه فقال ابن عباس كل شيء ياكل بفيه الا ابن ادم فانه
ياكل بيده وعن الرشيد انه احضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده ابو يوسف فقال له جاء
في تفسير جدك ابن عباس ولقد كرمنا بني ادم جعلنا لهم اصابع ياكلون بها فاحضرت الملاعق
فردها واكل باصابعه وروي عن ابن عباس انه قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل على
سائر الطين بالنمو وعلى النامي بالحيوة وعلى سائر الحيوان بالنطق وقال عطاء بتعديل القامة وامتدادها والدواب
منكسة على وجوهها قال بعضهم وينبغي ان يشترط مع هذا شرط وهو طول القامة مع استكمال القوة

العقلية والحسية والحركية والافلاك انها راطوب قامة من الانسان وقيل الرجال باللحى والنساء
بالذوائب وقيل بان سخر لهم سائر الاشياء وقيل بان منهم خير امة اخرجت للناس وقيل بحسن
الصورة قال تعالى وصوركم فاحسن صوركم ولما ذكر الله تعالى خلقة الانسان وهى ولقد خلقنا
الانسان الآية قال فتبارك الله احسن الخالقين قال الرازى فان شئت فتأمل عضوا واحدا من اعضاء الانسان
وهى العين فخلق الحدقة سوداء ثم احاط بذلك السواد بياض العين ثم احاط بذلك البياض سوادا
الاشفار ثم احاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق
ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق ذلك البياض سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد انموذجا
لك فى هذا الباب انتهى واستدل ايضا لشرف الانسان بان الموجود اما ان يكون ازليا وابديا
وهو الله تعالى واما ان لا يكون لا ازليا ولا ابديا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات
والحيوان وهذا احسن الاقسام واما ان يكون ازليا ولا يكون ابديا وهذا ممتنع الوجود لان ما ثبت
قدمه امتنع عدمه واما ان لا يكون ازليا ولكنه يكون ابديا وهو الانسان والملك ولا شك ان
هذا القسم اشرف من الثانى والثالث وذلك يقتضى كون الانسان اشرف من اكثر المخلوقات
النوع الثانى قوله تعالى وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ على الدواب وغيرها وَفِي الْبَحْرِ على السفن وغيرها
من حملته حملا اذا جعلت له ما يركبه او حملناهم فيهما حتى لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم فى الماء
النوع الثالث قوله تعالى وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ اى المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك
لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذى بالطف انواعها واشرف
اقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لا يحصل الا للانسان النوع
الرابع قوله تعالى وَفَضَّلْنَاهُمْ فى انفسهم باحسان الشكل وفى صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة
الدارين عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا اى بعظمتنا التى خلقناهم بها . واكد الفعل بالمصدر اشارة الى اغراقهم
فى التفضيل فقال تعالى تَفْضِيلًا . تنبيه . ظاهر الآية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل
وقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهو قول ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه
الواحدى فى بسيطه وقال الكلبى فضلوا على جميع الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة جبريل
وميكائيل واسرافيل وملك الموت واشباههم وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى جميع الملائكة
كلهم وقد يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى هل انبئكم على من تنزل الشياطين الى قوله تعالى واكثرهم
كاذبون اى كلهم وروى جابر يرفعه قال لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم
ياكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا اجعل من خلقته بيدى
ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان والاولى كما قاله بعض المفسرين كالبغوى وابن عادل ان يقال
عوام الملائكة افضل من عوام المؤمنين وخواص المؤمنين افضل من خواص الملائكة قال تعالى
ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية وروى عن ابى هريرة رضى الله تعالى

عنه قال المؤمن اكرم على الله من الملائكة عنده رواه البغوى ورواه الواحدى فى بسيطه
فان قيل قال تعالى فى اول الاية ولقد كرمنا بنى ادم وقال فى اخرها وفضلناهم فلا بد من الفرق بين
التكريم والتفضيل والالزم التكرار أجيب بانه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بامور
خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه سبحانه
وتعالى عرّضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة + ولما ذكر تعالى
انواع كرامات الانسان فى الدنيا شرح احوال درجاته فى الاخرة بقوله تعالى يَوْمَ اى اذكر يوم نَدْعُو
اى بتلك العظمة كُلَّ أُنَاسٍ اى منكم بِإِمَامِهِمْ الامام فى اللغة كل من ائتمّ به قوم كانوا على هدى او ضلالة
فالنبى امام امته والخليفة امام رعيته والقران امام المسلمين وامام القوم هو الذى يقتدون به
فى الصلوة وذكروا فى تفسير الامام هنا اقوالا احدها امامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن ابى هريرة عن
النبى صلى الله عليه وسلم فينادى يوم القيامة يا امة ابراهيم يا امة موسى يا امة عيسى يا امة محمد صلى الله
عليه وسلم فيقوم اهل الحق الذين اتبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بايمانهم ثم ينادى الاتباع يا اتباع
نمرود يا اتباع فرعون يا اتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال واكابر الكفر الثانى ان امامهم كتابهم
الذى انزل عليهم فينادى فى القيامة يا اهل القران يا اهل التورية يا اهل الانجيل الثالث امامهم كتاب
اعمالهم قال تعالى وكل شئ احصيناه فى امام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما قال الزمخشرى
ومن بدع التفاسير ان الامام جمع ام وان الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم دون ابائهم وان
الحكمة فيه رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وان لا تفتضح اولاد الزنا قال وليت
شعرى ايهما ابدع اصحة لفظه ام بهاء حكمته قال ابن عادل وهو معذور لان اماما لا يجمع
على امام هذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب فَمَنْ أُوتِيَ اى من المدعوين كِتَابَهُ اى كتاب عمله
بِيَمِينِهِ وهم السعداء اولوا البصائر فى الدنيا فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه من
الحسنات وَلَا يُظْلَمُونَ بنقص حسنة ما من ظالم مّا فَتِيلًا اى شيئا فى غاية القلة والحقارة بل يزادون
بحسب اخلاص النيات وطهارة الاخلاق وزكاء الاعمال + تنبيه + الفتيل القشرة التى فى شق النواة
تسمى بذلك لانه اذا رام الانسان اخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشئ الحقير التافه ومثله القطمير
وهو اللفافة التى فى ظهر النواة والنقير وهى النقرة التى فى ظهر النواة وروى مجاهد عن ابن عباس
قال الفتيل هو الوسخ الذى يفتله الانسان بين سبابته وابهامه فان قيل لم خص اصحاب اليمين بقراءة
كتابهم مع ان اهل الشمال يقرؤنه أجيب بان اصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا
على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيستولى الخوف على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزون
عن القراءة الكاملة واما اصحاب اليمين فامرهم على عكس ذلك لا جرم انهم يقرؤن كتابهم
على احسن الوجوه ثم لا يقتنعون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارى لاهل المحشر هاؤم اقرؤا
كتابيه جعلنا الله تعالى وجميع احبابنا منهم + ثم قال الله تعالى وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي هٰذِهِ

اى الدار اعمى اى ضالا يهتدى فى الافعال فعل الاعمى فى اخذ الاعيان لا يهتدى الى اخذ ما ينفعه
وترك ما يضره ولا يميز بين حسن وقبيح فهو فى الآخرة اعمى اشد عمى مما كان عليه فى هذه الدار
لا يتجه له قصد ولا يهتدى لصواب ولم يقل تعالى اشد عمى كما يقال فى الخلق اللازمة لحالة واحدة
العور والحمرة والسواد ونحوها لان هذا مراد به عمى القلب الذى من شانه التزايد والحدوث فى كل
لحظة شيئا بعد شئ واضل سبيلا لان هذه الدار دار الاكتساب والترقى فى الاسباب واما تلك
فليس فيها شئ من ذلك وقال عكرمة جاء نفر من اهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه
الآية فقال اقرؤا ما قبلها فقرؤا ربكم الذى يزجى لكم الفلك الى قوله تفضيلا فقال ابن عباس
من كان اعمى فى هذه النعم التى قد راى وعاين فهو فى الآخرة التى لم يعاين ولم ير اعمى واضل سبيلا
وعلى هذا فالاشارة فى قوله هذه الى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة وحمل بعضهم العمى الثانى
على عمى العين والبصر كما قال تعالى ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا
قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم
عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة فى عقوبتهم ولما عدد تعالى فى الآيات المتقدمة اقسام نعمه
على خلقه واتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة وشرح احوال السعداء اردفه بما يجرى مجرى تحذير
السعداء عن الاغترار بوساوس ارباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس
فقال تعالى وان كادوا اى قاربوا فى هذه الحيوة الدنيا لعظم ما هم فى انفسهم عن عصمة الله تعالى
لك ولما كانت ان هذه هى المخففة من الثقيلة اتى باللام الفارقة بينها وبين النافية
بقوله تعالى ليفتنونك اى ليخالطونك مخالطة تميلك الى جهة قصدهم لكثرة خداعهم واختلف
فى سبب نزول هذه الآية فروى عطاء عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى وفد ثقيف
اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على ان تعطينا ثلاث خصال قال وما هن قالوا
ان لا نجبى فى الصلوة بفتح الجيم والباء الموحدة المشددة اى لا ننحنى فيها ولا نكسر اصنامنا
الا بايدينا وان لا تمنعنا من اللات والعزى سنة من غير ان نعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم
لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود واما ان تكسروا اصنامكم بايديكم فذلك لكم واما الطاغية يعنى
اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها وفى رواية وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فابى
ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يا رسول الله انا نحب ان تسمع العرب انك اعطيتنا
ما لم تعط غيرنا فان خشيت ان تقول العرب اعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله امرنى بذلك فسكت النبى
صلى الله عليه وسلم فطمع القوم فى سكوته ان يعطيهم ذلك فصاح عليهم عمر وقال اما ترون رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد امسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فانزل الله تعالى هذه الآية وقال
سعيد بن جبير كان النبى صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الاسود فمنعه قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم بآلهتنا
وتمسها فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه ما على ان افعل ذلك والله يعلم انى لها لكاره بعد ان يدعو
فى

حتى استلم الحجر فانزل الله تعالى هذه الاية وروى ان قريشا قالوا له اجعل اية رحمة اية عذاب
واية عذاب اية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك من اوامرنا
ونواهينا ووعدنا ووعيدنا لتفترى اى لتقول علينا غيره اى ما لم نقله واذا اى لو ملت الى ما دعوك
اليه لاتخذوك اى بغاية الرغبة خليلا اى لوالوك وصافوك واظهروا للناس انك موافق لهم
على كفرهم وراض بشركهم ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى ولكنك ابصرت رشدك
فلزمت امر الله واستمر واعلى عماهم اماما لتفضيلنا لك على كل مخلوق ولولا ان ثبتناك اى على
الحق بعصمتنا اياك لقد كدت اى قاربت تركن اى تميل اليهم اى الى الاعداء شيئا اى ركونا قليلا
لحبك فى هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعنا ان تقرب من الركون فضلا عن
ان تركن اليهم لان كلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره تقول لولا زيد لهلك عمرو ومعناه
ان وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو فكذلك ههنا قوله تعالى ولولا ان ثبتناك لقد كدت
تركن اليهم معناه لولا حصل تثبيت الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان تثبيت الله مانعا من
حصول قرب الركون وهذا صريح فى انه عليه الصلوة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل
على ان العصمة بتوفيق الله وحفظه اذا اى لو قاربت الركون الموصوف اليهم لاذقناك ضعف عذاب
الحيوة وضعف عذاب الممات اى مثلى ما يعذب غيرك فى الدنيا والاخرة وكان اصل الكلام
عذابا ضعفا فى الحيوة وعذابا ضعفا فى الممات ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه ثم اضيفت
كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحيوة عذاب الاخرة وضعف الممات عذاب القبر والسبب
فى تضعيف هذا العذاب ان اقسام نعمة الله تعالى فى حق الانبياء عليهم الصلوة والسلام اكثر فكانت
ذنوبهم اعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها اكثر ونظيره قوله تعالى يا نساء النبى من يأت
منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وقيل الضعف من اسماء العذاب ثم لا تجد لك
اى وان كنت اعظم الخلق واعلاهم مرتبة وهمة علينا نصيرا اى مانعا يمنعك من عذابنا واختلفوا
فى سبب نزول قوله تعالى وان اى وانهم كادوا اى الاعداء ليستفزونك اى ليزعجونك بمعاداتهم
من الارض ليخرجوك منها فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة
حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا ابا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة
وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام امنا بك واتبعناك وقد علمنا انه لا يمنعك من الخروج
الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم
على اميال من المدينة وقيل بذى الحليفة حتى يجتمع اليه اصحابه ويراه الناس عازما على الخروج
الى الشام فيدخلون فى دين الله فنزلت هذه الاية فرجع وهذا قول الكلبى وعلى هذا فالاية مدنية
والمراد بالارض ارض المدينة وقال قتادة ومجاهد الارض ارض مكة والاية مكية همّ
المشركون ان يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى امره

بالهجرة تخرجهم بنفسه قال ابن عادل تبعا للرازي وهذا اليق بالاية لان ما قبلها خبر عن اهل مكة والسورة مكية وهذا اختيار الزجاج وكثير في التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله تعالى او ينفوا من الارض اي من مواضعهم وقوله تعالى حكاية عن اخي يوسف فلن ابرح الارض يعني الارض التي كان قصدها لطلب الميرة فان قيل قال تعالى وكاين من قرية هي اشد قوة من قريتك التي اخرجتك يعني اهل مكة فالمراد اهلها فذكر تعالى انهم اخرجوه وقال تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما على القول الثاني اجيب بانهم هموا باخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بامر الله تعالى وحينئذ فلا تناقض وَإِذًا اي واذا اخرجوك لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ اي بعد اخراجك لو اخرجوك إِلَّا زمنا قَلِيلًا فائدة وقد كان كذلك على القول الثاني فانهم اهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول قتل منهم بنو قريظة واجلي بنو النضير بقليل وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام والباقون بكسر الخاء وفتح اللام وبعدها الف قال الشاعر

؎ عفت الديار اي درست خلافهم اي خلفهم فكانما ٭ بسط الشواطب بينهن حصيرا

الشواطب النساء اللاتي يشققن الجريد ليعملن منه الحصير والشطب والشواطب سعف النخل الاخضر يصف دروس ديار الاحبة بعدهم وانها غير مانوسة كانما بسط فيها سعف النخل ولما اخبره بذلك اعلمه انه سنة في جميع الرسل بقوله تعالى سُنَّةَ اي كسنة او سننا بك سنة مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ اي في الازمان الماضية كلها مِنْ رُسُلِنَا انا نهلك كل امة اخرجوا رسولهم من بين اظهرهم والسنة لله واضافتها الى الرسل لانها من اجلهم ويدل عليه قوله تعالى وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا اي تغييرا ٭ ولما قرر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الالهيات والمعاد والنبوات اردفها بذكر الامر بالطاعة واشرف الطاعة بعد الايمان الصلوة فلذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أَقِمِ الصَّلٰوةَ بفعل جميع اركانها وشرائطها بحيث تصير كانها قائمة بنفسها فانها لب العبادة لما فيها من المناجاة والاعراض عن كل غير والفناء عن كل سوى بما اشرق من انوار الحضرة التي قد اضمحل اليها كل فان وفي ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلوة اعظم ناصر على الاعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز الاولياء ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه امر فزع الى الصلوة ثم عين له الاوقات بقوله تعالى لِدُلُوكِ الشَّمْسِ في هذه اللام قولان احدهما انها بمعنى بعد اي بعد دلوك الشمس ومثله قول متمم

؎ فلما تفرقنا كاني ومالكا ٭ لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

٭ والثاني انها على بابها لانها انما تجب بزوال الشمس والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه اقوال احدها انه الزوال وهو قول ابن عباس وابن عمر وجابر واكثر التابعين ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم اتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقول اهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة والثاني انه

الغروب وهو قول ابن مسعود ونقله الواحدى فى البسيط عن على رضى الله عنه وبه قال ابراهيم النخعى والضحاك والسدى وهو اختيار الفراء وكما يقال للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة يقال لها ايضا اذا غربت دالكة لانها فى الحالين زائلة قال الازهرى والثالث انه من الزوال الى الغروب وقال فى القاموس دلكت الشمس غربت او اصفرت او مالت او زالت عن كبد السماء فحينئذ فى هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك فى معانيه اما فى الظهر والمغرب فواضح لما مر واما العصر فلان اول وقتها اول اخذ الشمس فى الاصفرار واول دليل على ذلك انه تعالى غيا الاقامة لوقت العشاء بقوله تعالى الى غسق الليل اى ظلمته وهو وقت صلوة عشاء الاخرة والغاية ايضا هنا داخلة لما سيأتى وقد اجمعوا على ان المراد من قوله تعالى وقرآن الفجر اى صلوة الصبح وهو منصوب قيل على الاغراء اى وعليك بقرآن الفجر ورد بان اسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفراء انه منصوب بالعطف على الصلوة فى قوله تعالى اقم الصلوة والتقدير اقم الصلوة واقم قرآن الفجر وحينئذ تدخل الصلوات الخمس فى هذه الآية قال ابن عادل كالرازى وحمل كلام الله تعالى على ما يكون اكثر فائدة اولى انتهى وسميت صلوة الصبح قرآنا لاشتمالها عليه وان كانت بقية الصلوات ايضا مشتملة عليه لانه يطول فيها فى القراءة ما لا يطول فى غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن الفجر الحث على طول القراءة فيها اكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر يدل على كونه اكمل من غيره ولما كان القيام من المنام يشق على مرغبا مظهرا غير مضمر لان المقام مقام تعظيم فقال ان قرآن الفجر كان مشهودا اى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو فى آخر ديوان الليل واول ديوان النهار قال الرازى ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت يا رب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا انا اتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى لملائكته اشهدوا انى قد غفرت لهم وقال ابو هريرة رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلوة الجمع صلوة احدكم وحده بخمس وعشرين درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلوة الفجر ثم يقول ابو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا وهذا يدل على ان التغليس اولى من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من اول الوقت ففى ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرة ثم اذا امتدت الصلوة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار واما اذا ابتدأ بهذه الصلوة فى وقت التنوير فهناك لم يبق احد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فقوله كان مشهودا يدل على ان التغليس افضل وايضا الانسان اذا شرع فى صلوة الصبح من اول هذا الوقت فكانت الظلمة القوية فى العالم فاذا امتدت القراءة ففى اثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم والضوء مناسب للحيوة والوجود فالانسان لما قام من منامه فكانه انتقل من الموت الى الحيوة ومن العدم الى الوجود ومن السكون الى الحركة وهذه الحالة العجيبة

تشهد العقول بانه لا يقدر على هذا التقليب الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة فحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة ويتخلص من مرض قلبه فان اكثر الخلق وقعوا في امراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوءة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما كان قد يقوى مرضه فلا يعود الى الصحة الا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في اكثر الاوامر ثم الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى في ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه وان لم يقدر على ازالته فانه يسعى في تقليله وفي تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستوليا على الخلق ولا علاج له الا بالدعوى الى معرفة الله سبحانه وتعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم ان الانبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض فحملوا الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من اول وقت القيام من النوم لانه مما ينفع في ازالة هذا المرض ثم حث سبحانه وتعالى على التهجد لافضليته وارشد اليه بقوله عز من قائل ﴿ومن الليل﴾ اي وعليك او وقم بعض الليل ﴿فتهجد به﴾ اي واترك الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد نام ليلا وهجد وتهجد سهر فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد قاله في الصحاح والضمير في به لمطلق القرآن والمراد من الآية قيام الليل لصلاة النافلة فلا يحصل التهجد الا بصلاة نفل بعد نوم وكانت فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى امته في الابتداء بقوله تعالى ﴿يا ايها المزمل قم الليل الا قليلا﴾ ثم نسخ بما في آخرها ثم نسخ بما في الصلوات الخمس وبقي قيام الليل على الاستحباب بقوله تعالى ﴿فاقرؤا ما تيسر منه﴾ وبقي الوجوب في حقه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى ﴿نافلة لك﴾ اي زيادة لك مختصة بك وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن علي فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح انه نسخ في حقه ايضا ودليل النسخ رواه مسلم وقد وردت احاديث كثيرة في قيام الليل منها ما روي عن المغيرة بن شعبة انه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له اتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال افلا اكون عبدا شكورا ومنها ما روي عن زيد بن خالد الجهني انه قال لارمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته او فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم اوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة فهذا قيل انه اكثر الوتر وهو قول الشافعي والمرجح عنده ان اكثره احدى عشرة ركعة لما رواه ابو سلمة انه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشرة ركعة اي وترا يصلي اربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي اربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة رضي الله تعالى عنها فقلت يا رسول الله اتنام قبل ان توتر فقال يا عائشة ان عيني تنام ولا ينام قلبي ومنها ما روي عن انس بن مالك قال ما كنا نشاء ان نرى رسول الله صلى الله

عليه وسلم في الليل مصلياً الا رأيناه وما نشاء ان نراه نائماً الا رأيناه وفي رواية غيره قال وكان
يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً ثم قال تعالى
عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ اي المحسن اليك مَقَامًا مَحْمُودًا اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله
واجب قال اهل المعاني لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن اطمع انساناً في شيء ثم حرمه
كان عاراً والله اكرم من ان يطمع احداً في شيء ثم لا يعطيه ذلك واما المقام المحمود فقال
الواحدي اجمع المفسرون على انه مقام الشفاعة كما قال صلى الله عليه وسلم في هذه الآية
هو المقام الذي اشفع فيه لامتي وقال حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد فلا تتكلم
نفس فاول من يدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك
والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك تباركت وتعاليت
سبحانك رب البيت فقال هذا هو المراد من قوله تعالى عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً ويدل للاول
احاديث منها ما روي عن ابي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبي دعوة مستجابة واني
اختبأت دعوتي شفاعتي لامتي وهي نائلة منكم ان شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيئاً ومنها ما روي
عن جابر انه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة
التامة والصلوة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي
يوم القيامة ، ومنها ما روي عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا
بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون انت آدم ابو البشر خلقك الله بيده
واسكنك جنته واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من
مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب اكله من الشجرة وقد نهي عنها ولكن ائتوا نوحاً اول
نبي بعثه الله الى الارض فيأتون نوحاً فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب سؤال ربه بغير علم
ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن
ائتوا موسى عبداً آتاه التورية وكلمه وقربه نجياً قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب
قتله النفس ولكن ائتوا عيسى عبد الله وكلمته قال فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر
الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فيأتوني فاستأذن على ربي فيؤذن لي فاذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني
ما شاء الله ان يدعني فيقول ارفع رأسك يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع رأسي فاثني
على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم اشفع فيحد لي حداً فاخرجهم من النار وادخلهم الجنة ثم اعود فاقع
ساجداً فيدعني ما شاء الله ان يدعني ثم يقول ارفع يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع
رأسي فاثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم اشفع فيحد لي حداً فاخرجهم من النار وادخلهم الجنة
قال فلا ادري في الثالثة او الرابعة فاقول يا رب ما بقي الا من حبسه القرآن اي وجب عليه الخلود
وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مقاماً محموداً يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف

فيه على جميع الخلائق سل تعطى واشفع تشفع ليس احد الا تحت لوائك والاخبار فى الشفاعة كثيرة وفى هذا القدر كفاية لاولى البصائر جعلنا الله تعالى وجميع احبابنا من اهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الانبياء والمرسلين امين واختلف اهل التفسير فى قوله تعالى وَقُلْ رَّبِّ اَدْخِلْنِىْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَّاَخْرِجْنِىْ مُخْرَجَ صِدْقٍ فقال ابن عباس والحسن ادخلنى مدخل صدق المدينة واخرجنى مخرج صدق مكة نزل حين امر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقال الضحاك اخرجنى مخرج صدق من مكة امنا من المشركين وادخلنى مدخل صدق ظاهرا عليها بالفتح وقال مجاهد ادخلنى فى امرك الذى ارسلتنى به من النبوة مدخل صدق واخرجنى من الدنيا وقد قمت بما وجب على من حقها مخرج صدق وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخلنى مدخل صدق الجنة واخرجنى مخرج صدق من مكة وقيل ادخلنى فى القبر مدخل صدق ادخالا مرضيا واخرجنى منه عند البعث مخرج صدق اخراجا ملقى بالكرامة والجامع لهذه الاقوال ما جرى عليه البقاعى فى تفسيره بقوله فى كل مقام تريد ادخالى فيه حسى ومعنوى دينا واخرى مدخل صدق يستحق الداخل فيه ان يقال له انت صادق فى قولك وفعلك فان الوجيه لا يكون عند الله وجيها واخرجنى من كل ما تخرجنى منه مخرج صدق انتهى والمراد من المدخل والمخرج الادخال والاخراج ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كانه سال الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لا يرى فيهما ما يكره ثم سال الله تعالى ان يرزقه التقوية بالحجة وبالقهر والقدرة فقال وَّاجْعَلْ لِّىْ مِنْ لَّدُنْكَ اى عندك سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا اى حجة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى وقد اجاب الله تعالى دعاءه واعلمه انه يعصمه من الناس بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقال تعالى الا ان حزب الله هم الغالبون وقال تعالى ليظهره على الدين كله وقال تعالى ليستخلفنهم فى الارض ووعده تعالى ليظهره على الدين ووعده تعالى لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له وعنه صلى الله عليه وسلم انه استعمل عتاب بن اسيد على اهل مكة وقال انطلق فقد استعملتك على اهل الله فكان شديدا على المرائين المنافقين لينا على المؤمنين وقال والله لا اعلم متخلفا يتخلف عن الصلوة الا منافقا فقال اهل مكة يا رسول الله لقد استعملت على اهل الله عتاب بن اسيد اعرابيا جافيا فقال صلى الله عليه وسلم انى رايت فيما يرى النائم كان عتاب بن اسيد اتى باب الجنة فاخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها فاعز الله تعالى الاسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير ثم امره الله تعالى ان يخبر بالاجابة بقوله تعالى وَقُلْ اى لاوليائك واعدائك جَآءَ الْحَقُّ وهو ما امرنى به ربى وانزله الىّ وَزَهَقَ اى اضمحل وبطل وهلك الْبَاطِلُ وهو كل ما يخالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى اِنَّ الْبَاطِلَ اى وان ارتفعت له دولة وصولة كَانَ فى نفسه بجبلته وطبعه زَهُوْقًا اى لا يبقى بل يزول على اسرع الوجوه وقت واسرع رجوع قضاء قضاه الله تعالى من الازل روى البخارى فى التفسير عن ابن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول

الكعبة ثلثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق
وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب لوجهه وعن ابن عباس كانت لقبائل العرب اصنام يحجون
اليها وينحرون لها فشكى البيت الى الله تعالى فقال اى رب الى متى تعبد هذه الاصنام حولى دونك
فاوحى الله تعالى الى البيت انى سأحدث لك توبة جديدة فاملأك خدودا سجدا يدفون اليك دفيف
النسور ويحنون اليك حنين الطير الى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية ولما نزلت هذه الآية يوم
الفتح جاء جبريل عليه السلام وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم القها فجعل
يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة فى عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب الصنم لوجهه حتى
القاها جميعا وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال يا على ارم به فحمله رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى صعد ورمى به فكسره فجعل اهل مكة يتعجبون ويقولون ما راينا رجلا اسحر من
محمد قال الزمخشري ونكاية البيت والوحى اليه تخييل وتمثيل ولما بين سبحانه وتعالى الالهيات
والنبوات والحشر والنشر والبعث واثبات القضاء والقدر ثم اتبعه بالامر بالصلوة ونبه على ما فيها من
الاسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك اتبعه ببيان كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ
مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ اى ما هو شفاء فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى
للمريض + تنبيه + فى من هذه ثلاثة اوجه احدها انه لبيان الجنس قاله الزمخشري والبيضاوى
وابن عطية وابو البقاء ورد عليهم ابو حيان بان التى للبيان لابد ان تتقدم ما تبينه لا ان تتقدم عليه
وهنا قد وجد تقدمها عليه الثانى انها للتبعيض وانكره الحوفى لانه يلزم ان لا يكون بعضه شفاء
واجاب ابو البقاء بان منه ما يشفى من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحى الذى لدغ
بالفاتحة فشفى من المرض فيكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية والا فهو كله شفاء للابدان
والقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث انها لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح ومن العجيب
ان هذا الشفاء وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ وهم الذين يضعون الشئ فى غير موضعه باعراضهم عما يجب قبوله
إِلَّا خَسَارًا اى نقصانا لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم اعرضوا عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة
فى كفرهم كما ان قبول المؤمنين له واقبالهم على تدبره زيادة فى ايمانهم وفى الدارمى عن قتادة قال
ما جالس احد القرآن فقام عنه الا بزيادة او نقصان ثم قرأ هذه الآية ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى
فى وقوع هؤلاء الكافرين الجاهلين الضالين فى اودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب
الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم ان ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال تعالى
وَإِذَا أَنْعَمْنَا اى بما لنا من العظمة عَلَى الْإِنْسَانِ اى هذا النوع هؤلاء وغيرهم وقال ابن عباس ان الانسان
ههنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازى وهذا بعيد بل المراد ان نوع الانسان اذا انعمنا عليه اعرض اى عن
ذكرنا ودعائنا اذ شأن نوع الانسان انه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن
عبودية الله متمردا عن طاعة الله كما قال تعالى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وَنَأَى عن ذكر الله

بجانبه اى لوى عطفه بعد نفسه كانه مستغنى بامره ويجوز ان يكون كناية عن الاستكبار
لانه من عادة المستكبرين ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشئ ان يوليه عرض وجهه
وقرأ ابن ذكوان بالف ممدودة بعد النون وتاخير الهمزة مثل جاء وفى هذه القراءة تخريجان
احدهما من ناء ينوء اى نهض والثانى انه مقلوب من نأى فيكونان بمعنى قال ابن عادل ولكن
متى امكن عدم القلب فهو اولى وقرأ الباقون بالهمزة بعد النون والف بعد همزة وامال الالف
بعد الهمزة السوسى وشعبة وخلاد بخلاف عنه عن السوسى واما لنا رش بين بين وامال
الهمزة والنون محضة خلف والكسائى وفتح الباقون وَاِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ اى هذا النوع وان قل كَانَ يَؤُسًا
اى شديد الياس مما عهده من رحمة ربه والحاصل انه ان فاز بالنعمة والدولة اغتربها ونسى
ذكر الله وان بقى فى الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين
محروم ابدا عن ذكر الله تعالى ونظيره قوله تعالى فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه
فيقول ربى اكرمن واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن وكذلك ان الانسان
خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا من حفظه الله وشرفه بالاضافة
اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قُلْ كُلٌّ من الشاكر
والكافر يَعْمَلُ عَلٰى شَاكِلَتِهٖ اى طريقته التى تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه عليه من خير وشر فَرَبُّكُمْ
اى فتسبب عن ذلك ان الذى خلقكم وصوركم اَعْلَمُ من كل احد بِمَنْ هُوَ مِنْكُمْ اَهْدٰى سَبِيْلًا اى اوضح ع ٩
طريقا واتباعا للحق فيشكر ويصبر احتسابا فيعطيه الثواب ومن هو منكم اضل سبيلا فيجعل له
العقاب لانه يعلم ما طبعهم عليه فى اصل الخلقة وغيره تعالى انما يعلم امور الناس فى طرائقهم
بالتجربة وقد روى الامام احمد لكن بسند منقطع عن ابى الدرداء رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله
عليه وسلم قال اذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا سمعتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا
فانه يصير الى ما جبل عليه واختلف فى سبب نزول قوله تعالى وَيَسْئَلُوْنَكَ اى تعنتا وامتحانا
عَنِ الرُّوْحِ فعن عبد الله بن مسعود قال بينما انا امشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسالوه عن الروح وقال بعضهم
لا تسالوه لا يجئ بشئ تكرهونه فقال بعضهم لنسألن فقام رجل منهم فقال يا ابا القاسم ما الروح فسكت
فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما انجلى عنه قال ويسئلونك عن الروح قُلِ الرُّوْحُ مِنْ اَمْرِ رَبِّىْ وَمَا
اُوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ اِلَّا قَلِيْلًا فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسالوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا
فقالوا ان محمدا نشأ فينا بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود
بالمدينة واسالوهم عنه فانهم اهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة اشياء
فان اجاب عن كلها او لم يجب عن شئ منها فليس بنبى وان اجاب عن اثنين فهو نبى فسالوه عن
فتية فقدوا فى الزمن الاول ما كان امرهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض

ومغربها وعن الروح فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال اخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثنى عشر ليلة وقيل خمسة عشر يوما وقيل اربعين يوما واهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد اصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله اهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ونزل في الفتية ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ويسألونك عن ذي القرنين ونزل في الروح ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي «قول الرازي» ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه وذكر من جملة ذلك كيف يليق به ان يقول اني لا اعرف هذه المسئلة مع انها من المسائل المشهورة المذكورة مع جمهور الخلق غير لائق لان ذلك علامة على نبوته قال الزمخشري فبين لهم القصتين وابهم امر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم انتهى واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس انه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة وروى عن علي انه قال ملك له سبعون الف وجه لكل وجه سبعون الف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بني ادم لهم ايد وارجل ورؤس وليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا اعظم من الروح غير العرش لو شاء ان يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الادميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو اقرب الخلق الى الله تعالى عند الحجب السبعين واقرب الى الله تعالى وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا ان بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق اهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى فانه روح الله تعالى وكلمته ومعناه انه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى وقال بعضهم هو الروح المركب في الخلق الذي يحيا به الانسان قال البغوي وهو الاصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم الا ترى ان الحيوان اذا مات لا يفوت منه الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل انه يموت باحتباس النفس وقال قوم عرض وقال قوم هو جسم لطيف وقال بعضهم الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء الا ترى انه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج ذهب الكل قال البغوي واولى الاقاويل ان يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول اهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله تعالى لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله تعالى قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا اي في جنب علم الله تعالى + تنبيه + اختلف في المخاطب بقوله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلا فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فانهم يقولون اوتينا التوراة وفيها العلم الكثير وقيل عام روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا اخص بهذا الخطاب ام انت معنا فيه فقال نحن وانتم لم نؤت من العلم الا قليلا فقالوا ما اعجب شانك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا

كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده الاية قال الزمخشري وليس ما قالوا بلازم لان القلة والكثرة يدوران مع الاضافة فيوصف الشيء بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته فالحكمة التي اوتيها العبد خير كثير في نفسها الا انها اذا اضيفت الى علم الله فهي قليلة وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر به لان ترك اخباره كان علما النبوته قال البغوي والاول اصح ان الله استأثر بعلمه انتهى وعن ابي يزيد لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقال الرازي قوله تعالى قل الروح من امر ربي من فعل ربي وهذا الجواب يدل على انهم سألوه ان الروح قديمة او حادثة فقال بل هي حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على احداث الروح بقوله وما اوتيتم من العلم الا قليلا بمعنى ان الروح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم تحصل المعارف والعلوم فهي لا تزال تكون في التغير من حال الى حال وفي التبديل من نقصان الى كمال والتغير والتبدل من امارات الحدوث فقوله قل الروح من امر ربي يدل على انهم سألوه ان الروح هل هي حادثة او قديمة فاجاب بانها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه وهو المراد من قوله تعالى قل الروح من امر ربي ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال وهو المراد بقوله وما اوتيتم من العلم الا قليلا فهذا ما نقوله في هذا الباب انتهى وهو نص لطيف ولما بين سبحانه وتعالى انهم ما اتاهم من العلم الا قليلا بين انه لو شاء ان يأخذ منهم ذلك القليل ايضا لقدر عليه بقوله تعالى وَلَئِنْ شِئْنَا اي ومشيئتنا لا يتعاظمها شيء واللام موطئة للقسم واجاب عن القسم بما اغنى عن جواب الشرط فقال لَنَذْهَبَنَّ اي بما لنا من العظمة ذهابا محققا بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ بان نمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان امرا مخالفا للعادة الا انه تعالى قادر عليه ثم اي بعد الذهاب به لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا اي لا تجد من تتوكل عليه في رد شيء منه واعادته مسطورا محفوظا وقوله تعالى إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ استثناء متصل لانه مندرج في قوله وكيلا والمعنى الا ان يرحمك ربك فيرده عليك او منقطع فتقدر لكن عند البصريين او بل رحمة من ربك عند الكوفيين والمعنى ولكن رحمة من ربك او بل رحمة من ربك بتركه غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن قال الرازي وهذا تنبيه على ان لله تعالى على جميع العلماء نوعين من المنة احدهما تسهيل ذلك العلم عليهم والثاني ابقاء حفظه عليهم فعلى كل ذي علم ان لا يغفل عن هاتين النعمتين وعن القيام بشكرهما وهما منة من الله تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره ومنته عليه في بقاء المحفوظ فان قيل كيف يذهب القرآن وهو كلام الله تعالى اجيب بان المراد محوه في المصاحف واذهاب ما في الصدور قال عبد الله بن مسعود اقرؤا القرآن قبل ان يرفع فانه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف ما في صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئا ولا يجدون في المصاحف شيئا ثم يفيضون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل

له دوي تحت العرش كدوي النحل فيقول الرب ما لك فيقول يا رب اتلى ولا يعمل بي وفي رواية
لابن مسعود اوّل ما تفقدون من دينكم الامانة واخر ما تفقدون الصلوة وليصلين قوم ولا دين
لهم وانّ هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد اثبتناه في قلوبنا
واثبتناه في مصاحفنا ونعلمه ابناءنا ويعلمه ابناؤنا ابناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه
فقراء ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب وقوله تعالى إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ اي ولم يزل عَلَيْكَ كَبِيرًا
فيه قولان احدهما المراد منه انّ فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك
ثانيهما انّ المراد انّ فضله كان عليك كبيرا بسبب انه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين
واعطاك المقام المحمود وقد انعم عليك ايضا بابقاء العلم والقرآن عليك ونزل حين قال الكفار
للنبي صلى الله عليه وسلم لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن قُلْ اي لهؤلاء البعداء لَئِنِ اجْتَمَعَتِ
الْإِنسُ الذين تعرفونهم وتعرفون ما اوتوا من البلاغة والحكمة والذين لا تعرفونهم وَالْجِنُّ الذين
يأتون كهانهم ويعلمونهم ببعض المغيبات عنهم وعن غيرهم وترك الملائكة لانهم لا عهد لهم بشيء من التعلّم
ولانهم كانوا وسائط عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِ اي لا يقدرون على ذلك فالقرآن معجز في النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام في
اعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لاتوا بمثله * تنبيه * في قوله تعالى لا يأتون بمثله
قولان اظهرهما انه جواب للقسم الموطأ باللام والثاني انه جواب للشرط واعتذر من ادعى ذلك بان
الشرط ماض فهو كقوله * وان اتاه خليل اي فقير يوم مسغبة * يقول لا غائب مالي ولا حرم * لانّ
وقع ماضيا وناقشه ابو حيان بان هذا ليس مذهب سيبويه ولا الكوفيين والمبرد لان مذهب
سيبويه في مثله انّ النية به التقديم ومذهب الكوفيين والمبرد انه على حذف الفاء وهذا مذهب
ثالث قال به بعض الناس وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا اي معينا بضم اقوى ما فيه الى اقوى ما في
صاحبه * تنبيه * قد تقدم في سورة البقرة انّ الله تعالى قال فأتوا بسورة من مثله وقد مرّ الكلام
على ذلك وفي وجه كون القرآن معجزا قولان احدهما انه معجز في نفسه والثاني انه ليس في نفسه
معجزا الا انه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الاتيان
بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضا للعادة فيكون معجزا والقول الاول
اظهر وَلَقَدْ صَرَّفْنَا اي بينا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ
مِن كُلِّ مَثَلٍ اي من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعا في الانفس وقيل معناه من كل
وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها وقيل صفة لمحذوف اي مثلا من جنس
كل مثل ليتعظوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ وهم من هم في صورة الناس لكفار قريش وقد علموا ما بهم إِلَّا كُفُورًا
اي جحودا فان قيل كيف جاز فأبى اكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا اجيب بان ابى
متأول بالنفي كانه قيل فلم يرضوا الا كفورا * ولما تبين بالدليل اعجاز القرآن على وفق دعوى محمد

صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا اخذوا يتعللون باقتراح الايات فعل المبهوت المحجوج المتعثر
في اذيال الحيرة وذكروا من ذلك ستة انواع من المعجزات اولها ما ذكره بقوله تعالى وقالوا اي كفار قريش معرضين عن الاهم لن نؤمن لك حتى تفجر اي تفجيرا عظيما لنا من الارض ينبوعا اي عينا غزيرة الماء من شانها ان
تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة
والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة ثانيها قولهم او تكون لك اي انت وحدك جنة من
نخيل وعنب اي واشجار غير ذلك عبر عنه بالثمرة لان الانتفاع منه بغيرها قليل فتفجر الانهار اي الجارية
خلالها اي وسطها تفجيرا اي تشقيقا والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور شق جلباب
الحياء بما يخرج الى الفساد ثالثها قولهم او تسقط السماء اي نفسها كما زعمت فيما تتوعدنا به
علينا كسفا اي قطعا جمع كسفة وهي القطعة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح السين مثل
قطعة وقطع وسدرة وسدر والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر وهو نصب
على الحال في القراءتين جميعا كانه قيل او تسقط السماء علينا مقطعة رابعها قولهم او تأتي معك
بالله اي الملك الاعظم والملائكة قبيلا اي عيانا ومقابلة ننظر اليه لا يخفى علينا شئ منه وقال
الضحاك هو جمع قبيلة اي اصناف الملائكة قبيلة قبيلة قال ابن عادل اي كفلاء يكفلون بما تقول
خامسها قولهم او يكون لك اي خاصا بك بيت من زخرف اي ذهب كامل الحسن والزينة سادسها
قولهم او ترقى اي تصعد في السماء درجة درجة ونحن ننظر اليك صاعدا ولن نؤمن اي نصدق
من عناد لرقيك اي اصلا حتى تنزل وحققوا معنى كونه من السماء بقولهم علينا كتابا ومعنى كونه
في رق اونحوه بقولهم نقرؤه بامر نافيه باتباعك روى عكرمة عن ابن عباس ان عتبة وشيبة
ابني ربيعة وابا البختري بن هشام وعبد الله بن امية وامية بن خلف والوليد بن المغيرة وابا جهل
بن هشام والعاصي بن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال
بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد
اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن انهم بدا لهم في امره بداء
وكان عليهم حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله
لا نعلم ان رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت الاباء وعبت الدين
وسفهت الاحلام وشتمت الالهة وفرقت الجماعة فما بقي امر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان
كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا وان كنت تريد
الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي ياتيك رئيا تراه قد غلب
عليك لا تستطيع رده بذلنا اموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه او نعذر فيك وكانوا يسمون
التابع من الجن الرئي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب
اموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل علي كتابا

وامرني ان اكون لكم بشيرا ونذيرا فابلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم
في الدنيا والاخرة وان تردوه الي اصبر لامر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد فان
كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت انه ليس احد اضيق بلادا ولا اشد عيشا منا فسل لنا ربك
الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت ويبسط لنا بلادنا ويفجر فيها انهارا كانهار الشام
والعراق وليبعث لنا من مضى من ابائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا
فنسألهم عما تقول احق هو ام باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما ارسلت به فان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه اصبر لامر الله قالوا فان
لم تفعل فسل ربك ان يبعث ملكا يصدقك وسله ان يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب
وفضة يغنيك بها عما نراك فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت
بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فاسقط السماء كما زعمت ان ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله
ان شاء فعل ذلك بكم فقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن امية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب وقال له
عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك ان تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل
فوالله لا اومن بك ابدا حتى تتخذ الى السماء سلما ترقى به وانا انظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة
لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت ان لا اصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى
اهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فانزل الله هذه الاية وفيها اشارة الى انه ليس من شرط كونه نبيا صادقا
تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها اذ لو فتح هذا الباب لزم ان لا ينتهي الامر فيه الى مقطع وكلما اتى
النبي صلى الله عليه وسلم بمعجز اقترحوا عليه معجزا اخر ولا ينتهي الامر فيه الى حد ينقطع عنده عناد المعاندين
وتعنت الجاهلين مع انه صلى الله عليه وسلم اعطي من الايات والمعجزات ما اغنى عن هذا كله مثل
القران وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الاصابع وما اشبه ذلك ، ولما تم تعنتهم وكان
لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب عنه امر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى قل اي لهؤلاء البعداء
والاشقياء سبحان ربي اي تعجبا من اقتراحاتهم وتنزيها لله من ان ياتي او يتحكم عليه او يشاركه
احد في القدرة وقرأ ابن كثير وابن عامر بصيغة الماضي والباقون قل بصيغة الامر هل كنت الا بشرا
لا اقدر على غير ما يقدر عليه البشر رسولا كما كان من قبلي من الرسل وكانوا لا يأتون قومهم
الا بما يظهره الله تعالى على ايديهم بما يلائم حال قومهم ولم يكن امر الايات اليهم ولا لهم ان يتحكموا على الله
حتى يتخيروها هذا هو الجواب المجمل واما التفصيل فقد ذكر في ايات اخر كقوله تعالى ولو نزلنا عليك
كتابا في قرطاس فلمسوه بايديهم ولو فتحنا عليهم بابا ونحو ذلك ، ولما امر بما تضمنته كان انه
من الرسل في كونه بشرا اتبعه قوله عطفا على فابى او وقالوا وما منع الناس اي قريشا ومن قال
بقولهم لما لهم من الاضطراب ان يؤمنوا اي لم يبق لهم مانع من الايمان والهدى

منع إذ جاءهم الهدى أي الدليل القاطع على الإيمان وهو القرآن وغيره من الأدلة وقرأ أبو عمرو وهشام
بإدغام ذال إذ عند الجيم والباقون بالإظهار وأمال الألف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان محضة
وإذا وقف حمزة على جاءهم سهّل الهمزة مع المد والقصر إلا أن قالوا فاعل منع أن قالوا أي منكرين
عليه غاية الإنكار متعجبين متهكمين أبعث الله بشرا رسولا لأن الكفار كانوا يقولون لن نؤمن
لك لأنك بشر ولو بعث الله تعالى رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة
فأجابهم الله تعالى بقوله قل أي لهؤلاء المطرودين عن الرحمة لو كان في الأرض ملائكة يمشون
عليها كالآدميين مطمئنين أي مستوطنين فيها كالبشر لنزلنا عليهم مرة بعد مرة كما فعلنا
في تنزيل جبريل عليه السلام على الأنبياء من البشر وحقق الأمر بقوله تعالى من السماء ملكا رسولا
يعلمهم الخير ويهديهم المراشد لتمكنهم من التلقي منه لما كانهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى
الحكمة لأن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم إذ الشيء عن شكله أفهم وبه أنس وإليه أحوج وله
ألف إلا من فضله الله تعالى بتغليب روحه على نفسه وبتغليب عقله على شهوته فأقدره بذلك على التلقي
من الملك كالمرسلين ثم أجابهم الله تعالى جوابا آخر بقوله عز وجل قل كفى بالله أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما
وأمال الألف حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح شهيدا بيني
وبينكم على أني رسوله إليكم بإظهار المعجزات على وفق دعواي وأني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم عاندتم
ومن يشهد الله على صدقه فهو صادق فعند ذلك قول القائل بأن الرسول يجب أن يكون ملكا
لا إنسانا تحكم فاسد لا يلتفت إليه + تنبيه + شهيدا نصب على الحال أو التمييز ثم إنه تعالى ذكر ما هو
كالتهديد والوعيد بقوله تعالى إنه كان بعباده خبيرا بصيرا يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم
لا ينكرون هذا إلا لمحض حسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق + ولما تقدم أنه تعالى
أعلم بالمهتدي والضال عطف عليه قوله تعالى ومن يهد الله بأن يخلق الهداية في قلبه فهو المهتدي
لا يمكن أحد غيره أن يضله + تنبيه + أثبت نافع وأبو عمرو الياء بعد الدال مع الوصل دون الوقف
وحذفها الباقون وقفا ووصلا ومن يضلل فلن تجد لهم أي الضالين أولياء يهدونهم من دونه
ولا ينفعونهم بشيء أراده الله تعالى بغيره + ولما كان يوم القيامة يظهر الله فيه لكل أحد ما كان يعمله
نبه على ذلك بقوله تعالى ونحشرهم بنون العظمة أي نجمعهم بكره يوم القيامة الذي هو محط
الحكمة على وجوههم مسحوبين عليها إهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا قال تعالى
يوم يسحبون في النار على وجوههم أي يمشون عليها روى أبو هريرة قيل يا رسول الله كيف
يمشون على وجوههم قال إن الذي يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم قال
حكماء الإسلام إن الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الأنوار
وحضرة الإله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة إلى الدنيا لا جرم كان
حشرهم على وجوههم وأما قوله تعالى عميا وبكما وصما فقد استشكله شخص على ابن عباس

فقال ابليس قد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال تعالى دعوا هنالك ثبورا وقال تعالى يوم تاتى كل نفس تجادل عن نفسها وقال تعالى حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات انهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى هنا عميا وبكما وصما اجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه الاوّل قال ابن عباس عميا لا يرون شيئا يسرّهم صما لا يسمعون شيئا يسرّهم بكما لا ينطقون بحجة الثانى قال فى رواية عطاء عميا عن النظر الى ما جعله الله تعالى لاوليائه وبكما عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقرّبين صما عن ثناء الله تعالى عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما اما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون الرابع انهم يكونون رائين سامعين ناطقين فى الموقف ولولا ذلك لما قدروا ان يطالعوا كتبهم ولا ان يسمعوا لالزام حجة الله تعالى عليهم الا انهم اذا اخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله تعالى عميا بكما صما قال الرازى والجواب الاوّل اولى لانّ الآيات السابقة تدل على انهم فى النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ثم بين تعالى مكانهم بقوله عز وجل مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ ثم تسعر عليهم كُلَّمَا خَبَتْ اى اخذ لهبها فى السكون عند اكلها لحومهم وجلودهم زِدْنٰهُمْ سَعِيرًا توقدا باعادة الجلود واللحوم ملتهبة مسعرة كانهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله تعالى بان لا يزالوا على الاعادة والافناء وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر باظهار تاء التانيث عند الزاى وادغمها الباقون ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى ذٰلِكَ اى العذاب العظيم جَزَآؤُهُمْ بِاَنَّهُمْ اى اهل الضلالة كَفَرُوْا بِاٰيٰتِنَا القرآنية وغيرها وكانوا كل يوم يزدادون كفرا وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا وَقَالُوْا انكارا للقدرتنا ءَاِذَا كُنَّا عِظَامًا وَّرُفَاتًا ممزقين فى الارض ثم كرروا الانكار كانهم على ثقة من امرهم هذا الذى بطلانه اوضح من الشمس بقولهم ءَاِنَّا لَمَبْعُوْثُوْنَ خَلْقًا جَدِيْدًا فعوقبوا جزاء على هذا الانكار المكرر الخلق الجديد فى جلودهم ولحومهم مكررا كل لحظة قال تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ثم اتبعه بقاطع فى بيان جهلهم بقوله تعالى اَوَلَمْ يَرَوْا اى يعلموا بعيون بصائرهم على ما هو كالرؤية بعيون ابصارهم لما قام عليه من الدلائل بعضه من المشاهدات بالدلائل اَنَّ اللّٰهَ الَّذِىْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ جميعا بما دل على ذلك من الحسن ولما لم تكن الارض مثل ذلك افردها مريدا للجنس الصالح للجميع بقوله تعالى وَالْاَرْضَ على كبر اجرامها وعظم احكامها قوله تعالى قَادِرٌ عَلٰٓى اَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُمْ فيه قولان الاوّل المعنى قادر على ان يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظة المثل كما يقوله المتكلمون انّ الاعادة مثل الابتداء الثانى انّ المراد قادر على ان يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويقرّون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله تعالى ويستبدل قوما غيركم قال الواحدى والقول هو الاوّل لانه اشبه بما قبله ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور انّ البعث والقيام امر ممكن

البعث في نفسه اردفه ببيان ان لوقوعه في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله تعالى وَجَعَلَ لَهُمْ اَجَلًا لَا رَيْبَ اي لا شك فيه وهو الموت او القيامة فَاَبَى الظَّالِمُوْنَ اِلَّا كُفُوْرًا اي بعد هذه الدلائل الظاهرة ابوا الا الكفور والجحود ولما قال الكفار لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا فطلبوا اجراء الانهار والعيون في بلدهم لتكثر اموالهم ويتسع عيشهم بين تعالى انهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى قُلْ اي لهؤلاء المتعنتين لَوْ اَنْتُمْ اي دون غيركم تَمْلِكُوْنَ خَزَائِنَ عبر بصيغة منتهى الجموع لان المقام جدير بالمبالغة رَحْمَةِ رَبِّيْ اي خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه اِذًا لَاَمْسَكْتُمْ اي لو فرض ذلك لبخلتم بالامساك عن الانفاق في بعض الوجوه التي تحتاجونها خَشْيَةَ اي مخافة الْاِنْفَاقِ اي الوصول الى الفقر فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على الشح والبخل وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح وقول البيضاوي تبعا للزمخشري انتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده قال الزمخشري تقديره لو تملكون جرى فيه على مذهب الكوفيين من ان لو يليها الفعل مضمرا كما يليها ظاهرا والبصريون يمنعون ايلاءها لها مضمرا الا في ضرورة كقول حاتم لو ذات سوار لطمتني واصل هذا المثل ان امراة عطلاء من الحلي والهيئة لطمت [illegible] فقالت له لقسوة [illegible] بنفسها والفصد عندهم ان يقطع عرق من عروقه ثم يجمع دمها فيشوى وقيل اصله ان المراة المذكورة لطمت رجلا فقال لو ذات سوار لطمتني لاحتملتها فصار مثلا يضرب للكريم يلطمه الدني ثم استدل على صحة هذا المفروض بالشاهد من مضمون قولهم وَكَانَ اي جبلة وطبعا الْاِنْسَانُ اي الذي من شانه الانس بنفسه [illegible] الامور [illegible] قَتُوْرًا اي بخيلا [illegible] فتح الياء في ربي نافع وابو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد فان قيل قد يوجد في نوع الانسان من هو جواد كريم اجيب منه بوجوه الاول ان الاصل في الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لا بد وان يحبس ما به يدفع الحاجة وان يمسكه لنفسه الا انه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت ان الاصل في الانسان البخل الثاني ان الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وليخرج عن عهدة الواجب فهو في الحقيقة ما انفق الا لياخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل الثالث ان المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ولما قدم سبحانه وتعالى ان اكثر الناس جحدوا الايات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله فلن هداه شرع يسلي نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بما اتفق لمن قبله من الانبياء بقوله تعالى وَلَقَدْ اٰتَيْنَا مُوْسٰى تِسْعَ اٰيٰتٍ بَيِّنٰتٍ اي واضحات واختلف في هذه الآيات فقال ابن عباس والضحاك هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال مجاهد وعطاء هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات وقال البقاعي وهي كما في التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم البرد الكبار التي ابرقها

الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كل ما مرّت عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة
ثم موت الابكار من الادميين وجميع الحيوانات ثم قال ... تلك تسعتها اليهود جميعها فقلت له
عصا قمل موت البهائم ظلمة + جراد دم ثم الضفادع والبرد + وموت بكور الادميين وغيره + من
الحي اتاه الذي عنه وانفوه + قال وكانه عد اليد مع العصا اية ولم تعد اليد لانه لم يرو فيها شيء
اهـ وقال البيضاوي هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق
البحر ونتق الطور على بني اسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظي الطمس والبحر بدل السنين ونقص
من الثمرات وقال كان الرجل منهم مع اهله في فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تخبز
وقد صارت حجرا وقال بعضهم هي آيات الكتاب وهي احكام يدل عليها ما روي عن صفوان ان يهوديا
قال لصاحبه تعالى نسأل هذا النبي فقال الآخر لا تقل نبي فانه لو سمع صارت له اربعة اعين فأتياه
فسألاه عن هذه الاية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا
النفس التي حرّم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء الى سلطان
ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود ان لا تعدوا
في السبت فقبلوا يديه وقالوا نشهد انك نبي قال فما منعكم ان تتبعوني قالوا ان داود دعا ربه
ان لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف ان اتبعناك ان تقتلنا اليهود وقال الرازي علم انه تعالى
ذكر في القرآن اشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام احدها انه تعالى ازال العقدة
من لسانه قيل في التفسير ذهب العجم وجاء فصيحا ثانيها انقلاب العصا حية ثالثها تلقف الحية
حبالهم وعصيهم مع كثرتها رابعها اليد البيضاء وخمسة اخرى وهي الطوفان والجراد والقمل
والضفادع والدم والعاشر شق البحر وهو قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادي عشر الحجر وهو
قوله تعالى ان اضرب بعصاك الحجر والثاني عشر اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم
كأنه ظلة والثالث عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه والرابع عشر والخامس عشر قوله تعالى
ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات والسادس عشر الطمس على اموالهم حجارة
من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روي ان عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب
عن قوله تعالى تسع آيات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس
فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب ان يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج ذلك الجراب فاخرجه
فنفضه فاذا بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفوم وعدس وحمص كلها حجارة وقوله تعالى
فسئل اي يا اعظم خلقنا بني اسرائيل يجوز ان يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد
غيره وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة
مفتوحة بعدها ويجوز ان يكون الخطاب له خاصة وامره بالسؤال لهم ليتبين لهم كذبهم مع قومهم اي فاسأل
بني اسرائيل عامة الذين نبهوا قريشا على السؤال عن الروح كما في بعض الروايات وعن اهل الكهف وذي

الفريقين وهو حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام واصحابه اذ اى عن
ذلك حين جاءهم اى جاء اباءهم فوقع لهم من التكذيب بعد ظهور المعجزات الباهرات ما وقع لك
فقال اى فذهب الى فرعون فامره بارسالهم معه فابى فاظهر له الآيات واحدة بعد اخرى فتسبب
عن ذلك ضد ما يقتضيه الحال وهو ان قال له فرعون عتوا واستكبارا انى لاظنك يا موسى
مسحورا اى مخدوعا مغلوبا على عقلك فكل ما ينشأ عنك فهو من آثار السحر وهذا كما قالت
قريش للنبى صلى الله عليه وسلم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقال فى موضع آخر ساحر وانهم
ربما اطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل مبالغة لانه كالمجبور على الفعل فى الامر بسؤال
اليهود تنبيه على ضلالهم ولما لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الآيات وعظمها فكأنه قيل فما قال
موسى عليه السلام فقيل قال لفرعون لقد علمت بفتح التاء قراءة غير الكسائى وقرأ الكسائى
بضمها على اخباره عن نفسه ما انزل هؤلاء اى الآيات الا رب السموات والارض اى خالقهما
ومدبرهما حال كون هذه الآيات بصائر اى بينات يبصر بها صدقى واما السحر فانه لا يخفى انه خيال
لا حقيقة له ولكنك تعاند * تنبيه * قوله تعالى هؤلاء الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام
على هؤلاء ان كنتم فى البقرة وقد تقدم الكلام على ذلك * ثم حكى الله تعالى ان موسى قال لفرعون وانى
اى وان ظننتنى يا فرعون مسحورا لاظنك يا فرعون مثبورا اى ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير فاسد
العقل فعارضه موسى بذلك وشتان بين الظنين فان ظن فرعون كذب بحت لعناده لرب
العالمين لوضوح مكابرته للبصائر التى كشفت عنها ربها الغطاء فهى اوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام
قريب الى الصحة واليقين من تظاهر اماراته لان هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب
العاقل انها من عند الله وانه تعالى اظهرها لاجل تصديقى وانت منكرها فلا يحملك على هذا
الانكار الا الحسد والعناد والبغى والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور
فاراد اى فتسبب عن هذا الذى هو موجب للايمان فى العادة الا ان فرعون اراد ان يستفزهم اى
يستخف بموسى ومن آمن معه ويخرجهم فيكونوا كالماء اذا سال من قولهم فز الجرح اذا سال من
الارض بالنفى والقتل للتمكن منهم كما اراد هؤلاء ان يستفزوك منها مما هم عليه من الكفر والعناد ثم
اخذ تعالى يحذرهم سطوته بما فعل بمن كان قبلهم واكثر منهم واشد بقوله تعالى فاغرقناه اى فتسبب
عن ذلك انا رددنا كيده فى نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله اراد فرعون ان يخرج موسى
من ارض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى اهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة لموسى
ولقومه فادخله البحر حين ادخل بنى اسرائيل فانجاهم واغرق آل فرعون ومن معه جميعا كما جرت به
سنة الله تعالى فيمن عاند بعد ان رأى الخوارق وكفر النعمة وافرط فى البغى بعد ظهور الحق فليحذر
هؤلاء مثل ذلك ولا سيما اذا اخرجوا رسولنا من بين اظهرهم ففى هذه الآية وامثالها بشارة له صلى الله
عليه وسلم فى ان الله تعالى يسلك به فى النصرة والتمكن سبيل اخوانه من الرسل عليهم الصلوة

والسلام وقلنا من بعده اى الاغراق لبنى اسرائيل الذين كانوا تحت يده اذل من العبيد لتقواهم
واحسانهم اسكنوا الارض اى التى اراد ان يستفزكم منها فاذا جاء اى مجيئا صادقا وعد الآخرة
اى القيامة بعد ان سكنتم الارض احياء ودفنتم فيها امواتا جئنا اى بما لنا من العظمة والقدرة
بكم منها لفيفا اى جميعا كم ايا هم مختلطين لا حكم لاحد على آخر ولا دفع لاحد عن آخر على غير الحالة
التى كانت فى الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى قوله تعالى ولقد صرفنا
قوله عز وجل وبالحق اى من المعانى الثابتة التى لا مرية فيها لا بغيره انزلناه نحن اى القرآن فهو
ثابت لا يزول كما ان الباطل هو الذاهب الزائل فهذا القرآن الكريم مشتمل على اشياء لا تزول وذلك
لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء
واثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ويشتمل ايضا على شرع باق لا يتطرق
اليها النقص والتغيير والتحريف وايضا هذا القرآن تكفل الله تعالى بحفظه عن تحريف الزائغين
وتبديل الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وبالحق لا بغيره نزل هو وحل
اليهم على لسانك بعد انزاله عليك كما انزلناه سواء غضا طريا محفوظا لم يطرأ عليه طارئ فليس فيه
من تحريف ولا تبديل كما وقع فى كتاب اليهود الذين سألهم قومك ثم قال تعالى وما ارسلناك
يا افضل الخلق بما لنا من العظمة الا مبشرا للمطيع ونذيرا للعاصى من العقاب فلا عليك الا — وقف لازم
التبشير والانذار لا ما يقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك
من كفرهم شئ ثم ان الله تعالى اخبر ان الحكمة فى انزال القرآن مفرقا بقوله عز وجل وقرآنا اى وفصلنا
او وانزلنا قرآنا فرقناه اى انزلناه منجما فى اوقات متطاولة قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة
القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل فى السنين التى نزل فيها قال قتادة كان بين
اوله وآخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة
ولم ينزل جملة لتقرأه على الناس اى عامة على مكث اى مهل وتؤدة ليفهموه ونزلناه من عندنا
بما لنا من العظمة تنزيلا بعضه اثر بعض مفرقا بحسب الوقائع لانه اتقن فى فصلها واعون على الفهم
بطول التأمل لما نزل من نجومه فى مدة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعانى ثم ان الله تعالى هددهم
على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى قل لهؤلاء المضلين آمنوا به اى القرآن او لا تؤمنوا
فالايمان به غير محتاج اليكم ولا موقوف عليكم لانكم ان آمنتم به كان الحظ لكم والا لم تضروا الا انفسكم
فاختاروا ما تريدون فان ايمانكم بالقرآن لا يزيده كمالا وامتناعكم منه لا يورثه نقصانا وقوله تعالى
ان الذين اوتوا العلم من قبله اى من قبل انزاله ممن آمن به من بنى اسرائيل تعليل له اى ان لم تؤمنوا به
وانتم اهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم وافضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحى
وما الشرائع قد آمنوا به وصدقوه وثبت عندهم انه النبى العربى الموعود فى كتبهم اذا يتلى
عليهم اى القرآن يخرون للاذقان منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام

قال الزجاج الذي فيه مجمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فاقرب الاشياء
من وجهه الى الارض الذقن وقيل ان الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود في الخشوع
والخضوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ في تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب في معرض
المبالغة فقد اتى بغاية التعظيم وقيل ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على
الارض في معرض السجود كالمغشي عليه فيكون حينئذ خروره على الذقن فقوله يخرون للاذقان كناية
عن غاية ولهه وخوفه وخشيته فان قيل لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون اجيب
بان المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى كانهم يسقطون فان قيل لم قال يخرون
للاذقان ولم يقل على الاذقان اجيب بان العرب تقول اذا خر الرجل فوقع لوجهه خر للذقن ثم بين
ان ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل جهة بقوله تعالى سُجَّدًا اي يفعلون ذلك لما يعلمون من خشية
بما اوتوا من العلم السالف وما في قلوبهم من الاذعان والخشية للرحمن ويقولون اي على وجه
التجديد المستمر سبحان ربنا تنزيها له عن خلف الوعد إن اي انه كان اي كونا لا ينفك وعد ربنا
اي المحسن الينا بالايمان وما تبعه من وجوه العرفان لمفعولا اي دون خلف ولا بد ان يأتي جميع ما وعد
به في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال الفرقان عليه ومن الثواب
والعقاب وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزؤن بالوعيد في قولهم او تسقط السماء كما زعمت علينا
كسفا فجزموا في معناه البعيد ان وعد الله تعالى القادر على كل شيء وقوله تعالى ويخرون للاذقان
يبكون تكرير لاختلاف الحالين والسببين فالاول للشكر عند انجاز الوعد والثاني لما اثر فيهم من مواعظ
القرآن حال كونهم باكين من خشية الله ويزيدهم اي سماع القرآن ومشاهدة ما فيه خشوعا اي خضوعا وتواضعا لين
قلب ورطوبة عين ولما طال تعنت الكفار في المناظرة مع المشركين ومنكري النبوات والجواب
عن شبهاتهم انهاها ببيان كيفية ذكر الله وطاعته وكيفية كونه في وقت الاشتغال
باداء العبودية فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لهم ادعوا الله او ادعوا الرحمن
واختلف في سبب نزول هذه الاية فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة
وهو ساجد يا الله يا رحمن فسمعها ابو جهل وهم لا يعرفون الرحمن فقال ان محمدا ينهانا ان نعبد الهين
وهو يدعو الها اخر مع الله تعالى يقال له الرحمن فانزل الله تعالى هذه الاية اي ان شئتم قولوا يا الله
وان شئتم قولوا يا رحمن وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يجهر بالدعاء يقول يا الله يا رحمن فسمعه اهل مكة فاقبلوا عليه فانزل الله تعالى قل ادعوا الله
او ادعوا الرحمن الاية وعن ابن عباس ان ذكر الرحمن كان في القرآن قليلا في اول ما انزل وكان
الذين قد اسلموا من اليهود يسوءهم قلة ذلك لكثرته في التوراة كابن سلام وابن يامين وابن
صوريا وغيرهم فسالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فنزل قوله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا
الرحمن فقال قريش ما بال محمد كان يدعو الها واحدا وهو الآن يدعو الهين ما نعرف الرحمن

سجدة

الا صاحب اليمامة فنزل وهم بذكر الرحمن هم كافرون ونزل ايضا قوله تعالى قالوا وما الرحمن وفرح
مؤمنو اهل الكتاب وهو قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب
اي مشركي قريش من ينكر بعضه وعن ابن عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله
تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن الى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو امان من السرقة
فان رجلا من المهاجرين تلاها حين اخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل
ليس بنائم حتى انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع الكارة ففعل ذلك ثلاث مرات فضحك
صاحب الدار فقال اني احصنت بيتي فان قيل اذا قال الرجل ادعو زيدا او عمرا فهم منه كون زيد مغايرا
لعمرو فيوهم كون الله تعالى غير الرحمن وحينئذ تقوى شبهة ابي جهل اجيب بان الدعاء
هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى الى مفعولين يقال دعوته زيدا ثم تترك احدهما
استغناء عنه فيقال دعوت زيدا والله والرحمن المراد بهما الاسم لا المسمى واو للتخيير فمعنى
الآية ادعوا باسم الله او ادعوا باسم الرحمن اي اذكروه بهذا الاسم او اذكروه بذلك الاسم فقوله
ادعوا الله ينبه على ما يتم في كرمه من الوجود ومن افاضة الرحمة والكرم وايضا تخصيص هذين
الاسمين بالذكر يدل على انهما اشرف من سائر الاسماء وتقديم اسم الله على اسم الرحمن يدل على ان
قولنا الله اعظم الاسماء وتقدم الكلام على ذلك في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين في قوله
تعالى اَيًّا مَّا تَدْعُوا عوض عن المضاف اليه وما صلة لابهام المؤكد والمعنى ايا تدعوا فهو حسن فوضع
موضعه قوله تعالى فَلَهُ الْاَسْمَاءُ الْحُسْنٰى لانه اذا حسنت اسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما
منها ومعنى كونها احسن الاسماء انها مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم وقد تقدم شيء من
ذكر الاسماء الحسنى في الاعراف عند قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وبعض الاحاديث
الواردة في فضلها فليراجع ووقف حمزة والكسائي على الالف بعد الياء ووقف الباقون على الالف
بعد الميم واختلف في تفسير ونزول قوله تعالى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا فروي عن
ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من
جاء به فاوحى الله تعالى اليه ولا تجهر بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبوا الله تعالى عدوا بغير علم
ولا تخافت بها فلا تسمع اصحابك وَابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيْلًا وروي انه صلى الله عليه وسلم طاف
بالليل على دور الصحابة فكان ابو بكر رضي الله تعالى عنه يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان
عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء ابو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر لم تخفي صوتك
فقال اناجي ربي وقد علم حاجتي وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال ازجر الشيطان واوقظ الوسنان فامر
النبي صلى الله عليه وسلم ابا بكر ان يرفع صوته قليلا وعمر ان يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر
بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة
النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها وابي هريرة ومجاهد

قالت عائشة هي الدعاء وروى هذا مرفوعا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية انما ذلك في الدعا
والمسألة قال عبد الله بن شداد كان اعراب من بني تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم
ارزقنا مالا وولدا يجهرون فانزل الله تعالى هذه والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال صوت خفيت
اي خفيض ويقال للرجل اذا مات قد خفت اي انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل والسبيل بين ذلك
التوسط وهو ان يسمع نفسه كما روي عن ابن مسعود انه قال من لم يخافت لم يسمع اذنيه وقد مدح
الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وامر الله تعالى
رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال عز من قائل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل
البسط وبعضهم قال الآية منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الرازي وهو بعيد ولما
امر الله تعالى انه لا يذكر ولا ينادى الا باسمائه الحسنى علم كيفية التحميد بقوله تعالى وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ اي
الملك الاعظم ثم ذكر سبحانه وتعالى من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة انواع الاول قوله
تعالى الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ اي لكونه محيطا بالصفات الحسنى وَلَدًا والسبب فيه وجوه الاول ان الولد هو
الشيء المتولد من جزء من اجزاء ذلك الشيء فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث
محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثاني ان كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم
لولده فاذا لم يكن له ولد افاض تلك النعم على عبيده الثالث ان الولد هو الذي يقوم مقام الوالد
بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام في كل
الاوقات فوجب ان لا يستحق الحمد على الاطلاق النوع الثاني من الصفات السلبية قوله تعالى وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
بوجه من الوجوه شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ والسبب في اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك لم يعرف حينئذ ان هذه
النعم والمنافع حصلت منه او من شريكه فلا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر النوع الثالث قوله تعالى
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ اي ولم يوال احدا من اجل مذلة به ليدفعها بموالاته والسبب في اعتباره انه لو جاز
عليه ولي يلي امره كان مستوجبا لاعظم انواع الحمد مستحقا لاقسام الشكر فنفى عنه ان يكون له ما يشاركه
من جنسه ومن غير جنسه اختيارا او اضطرارا او ما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على
انه الذي يستحق جنس الحمد لانه كامل الذات المنفرد بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك
نعمة او منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا اي وعظمه تعظيما على نفي اتخاذ الولد
والشريك والذل وكل ما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على انه المستحق لجميع المحامد لكمال
ذاته وتفرده في صفاته روى الامام احمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه كان يقول اية العز الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك الى آخر السورة وعن
ابن عباس انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين
يحمدون الله في السراء والضراء وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد
راس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم ان افضل الدعاء الحمد لله وافضل الذكر لا اله الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احب الكلام الى الله تعالى اربع لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بايهن بدأت اخرجه مسلم وروى ان قول العبد الله اكبر خير له من الدنيا وما فيها وعن عمرو بن شعيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا افصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الاية يقال افصح الصبى فى منطقه فهم ما يقول وعن عبد الله بن كعب قال افتتحت التورية بفاتحة سورة الانعام وختمت بخاتمة هذه السورة واما ما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى وتبعهما ابن عادل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة بنى اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة والقنطار الف اوقية ومائتا اوقية فحديث موضوع

سورة الكهف مكية

الا واصبر نفسك الاية وهى مائة وعشر آيات والف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وعدد حروفها ستة الاف وثلثمائة وستون حرفا

بسم الله الذى لا كفؤ له ولا شريك الرحمن الذى انعم على عباده واوضح الطرق بانزال هذا الكتاب الرحيم بتفضيل من اختصه بالصواب وقوله تعالى الحمد لله تقدم الكلام عليه مستقصى فى اول الفاتحة الذى انزل على عبده الكتاب اى القرآن رتب تعالى استحقاق الحمد على انزاله تنبيها على انه اعظم انعامه وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القرآن نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم اما كونه نعمة عليه فلان الله تعالى اطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على اسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام واسرار احوال الملائكة والانبياء واحوال القضاء والقدر وتعلق احوال العالم السفلى باحوال العالم العلوى وتعلق احوال عالم الاخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ولا شك ان ذلك من اعظم النعم واما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل فى اقصى الدرجات فكل احد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى امته ان يحمدوه على هذه النعم الجزيلة وقال تعالى على عبده لما فى كل من الوصف بالعبودية والاضافة اليه سبحانه وتعالى من الاعلام بتشريفه واشارة الى انه الذى اسرى به الى حضرات مجده ليريه من آياته ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين الاول قوله تعالى ولم يجعل له اى فيه عوجا اى اختلافا وتنافيا كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والجملة حال من الكتاب الوصف الثانى قوله تعالى قيما قال ابن عباس يريد مستقيما اى معتدلا لا افراط فيه ولا تفريط قال الرازى وهذا عندى مشكل لانه لا معنى لنفى الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم

يوجب التكرار بل الحق ان المراد من كونه قيما كونه سببا لهداية الخلق وانه يجري مجرى من يكون
قيما للاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم المشفق القائم بمصالحهم وقال
قبل ذلك ان الشيء يجب ان يكون كاملا في ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب ان يكون تاما في ذاته
ثم يكون فوق التمام بان يفيض عنه كمال الغير فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا
في ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة في صفة
الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه في نفسه بالغا في الصحة
وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل ان لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية
الخلق ولكمال حالهم فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله تعالى لا ريب فيه وقوله تعالى قيما قائم
مقام قوله تعالى هدى للمتقين واختلف النحويون في نصب قوله تعالى قيما على اوجه الاول قال في الكشاف
لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله تعالى ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله تعالى انزل فهو داخل
في حيز الصلة وانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب ان ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا
جعله قيما لانه تعالى اذا نفى عنه العوج فقد اثبت له الاستقامة قال فان قلت فما فائدة الجمع بين
نفي العوج واثبات الاستقامة وفي احدهما غنى عن الآخر قلت فائدته التاكيد ورب مستقيم
مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من ادنى عوج عند السبر والتصفح الوجه الثاني انه حال ثانية والجملة
المنفية قبله حال ايضا كما مر وتعدد الحال لذي حال واحد جائز والتقدير انزله غير جاعل له عوجا
قيما الوجه الثالث انه حال ايضا ولكنه بدل من الجملة قبله لانها حال وابدال المفرد من الجملة اذا كانت
بتقدير مفرد جائز ولما ذكر تعالى انه انزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر اردفه ببيان
ما لاجله انزله بقوله عز وجل لِيُنْذِرَ اي يخوف الكتاب الكافرين بَأْسًا اي عذابا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ
اي صادرا من عنده وقرأ شعبة باسكان الدال وكسر النون والهاء وصلة الهاء بياء والباقون بضم
الدال وسكون النون وضم الهاء وابن كثير على اصله بضم الهاء في الوصل بواو وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ
اي الراسخين في هذا الوصف وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وسكون الموحدة وضم الشين
مخففة والباقون بضم التحتية وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ
وهي ما امر به خالصا له وذلك اتيان الشيء مفتاح الايمان أَنَّ لَهُمْ اي بسبب اعمالهم أَجْرًا حَسَنًا هو الجنة
حال كونهم مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا بلا انقطاع اصلا فان الابد زمان لا آخر له وقوله تعالى وَيُنْذِرَ الَّذِينَ
قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا معطوف على قوله تعالى لينذر باسا شديدا من لدنه والمعطوف يجب
كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام في حق كل كافر والثاني خاص بمن اثبت لله ولدا وعادة
القرآن جارية بانه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه اعظم جزئيات
ذلك الكلي كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا هذا العطف يدل على ان
اقبح انواع الكفر اثبات الولد لله تعالى ✽ تنبيه ✽ الذين اثبتوا لله ولدا ثلاث طوائف الاولى

كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله الثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله الثالثة
اليهود الذين قالوا عزير ابن الله + ثم انه تعالى انكر على القائلين ذلك من وجهين الاول قوله تعالى
﴿ما لهم به﴾ اي القول ﴿من علم﴾ اي اصلا لانه مما لا يمكن ان يتعلق العلم به لانه لا وجود له ولا يمكن وجوده
ثم قرر تعالى هذا المعنى واكده بقوله ﴿ولا لآبائهم﴾ الذين يتسلطون بتقليدهم في الدين حتى في هذا
الذي لا يقبله عاقل ولو خطروا في تصور هؤلاء لم يتبعوهم فيه فان قيل اتخاذ الله ولدا محال في نفسه
فكيف قيل ما لهم به من علم اجيب بان انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه
وقد لا يكون لانه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره قوله تعالى ومن يدع مع الله الها
آخر لا برهان له به الوجه الثاني ﴿كبرت﴾ اي مقالتهم ﴿كلمة﴾ اي ما اكبرها من كلمة وصور فظاظة اجترائهم
على النطق بها بقوله تعالى ﴿تخرج من افواههم﴾ اي لم يكفهم خطورها في انفسهم وترددها في صدورهم
حتى تلفظوا بها وكان ضد ذلك هو الواجب وجه التكبير كما يشير اليه التمييز بالمنصوب + تنبيه + سميت
هذه الكلمة كما يسمون القصيدة كلمة + ثم بين تعالى ما اقتضاه الكلام من انه كما انهم لا علم لهم بذلك
لا علم لاحد به اصلا لانه لا وجود له فقال تعالى ﴿ان﴾ اي ما ﴿يقولون الا كذبا﴾ اي قولا لا حقيقة له بوجه
من الوجوه + ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ايمان قومه شفقة عليهم وغيرة على المقام
الالهي الذي ملأ قلبه تعظيما ... عليهم ... تعالى بقوله تعالى ﴿فلعلك باخع﴾ اي قاتل
﴿نفسك﴾ من شدة الغم والوجد ... الى ... وسرعة مفارقتهم وعظيم مباعدتهم
بقوله ... ﴿على آثارهم﴾ اي ... عن اجابتك ﴿ان لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾
اي القرآن المتعبد بتلاوته ... ﴿اسفا﴾ اي على ذلك والاسف شدة الحزن والغضب
فان قيل ذلك يدل على حدوث القرآن اجيب بانه محمول على الالفاظ وهي حادثة + ثم بين سبحانه
وتعالى علة ارشاده الى الاعراض عنهم ... من التبليغ للبشارة والنذارة بانهم لم يخرجوا
عن مراده تعالى وان الايمان لا يقدر على ادخاله قلوبهم غيره بقوله عز وجل ﴿انا﴾ اي انا لا نفعل ذلك لانا
﴿جعلنا ما على الارض﴾ من الحيوان والنبات والشجر والانهار والمعادن وغير ذلك وقال بعضهم المراد
الناس فهم زينة الارض وبالجملة فليس في الارض الا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات
الشامل للشجر والحيوان واشرف انواع الحيوان الانسان ﴿زينة لها﴾ اي الارض قيل المراد هنا
اي زينة لاهلها قال الرازي ولا يمتنع ان يكون ما تحسن به الارض زينة لها كما جعل الله السماء
مزينة بالكواكب + ولما اخبر تعالى بزينتها اخبر تعالى بعلته بقوله تعالى ﴿لنبلوهم﴾ اي
نعاملهم معاملة المختبر ﴿ايهم احسن عملا﴾ باخلاص الخدمة لربه فنصير ما كنا نعلمه منهم
ظاهرا فان الله تعالى يعلم السر واخفى انتقام به عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم بان من اظهر
موافقة الامر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ومن اجترأ على مخالفة الامر بما اتاه منها استحق
العقوبة فكانه تعالى يقول يا محمد اني خلقت الارض وزينتها واخرجت منها انواع المنافع

والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون
ويتمردون ومع ذلك فلا اقطع عنهم مواد هذه النعم فانت ايضا يا محمد لا ينبغي ان تنتهي في الحزن
بسبب كفرهم الى ان تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق + ثم انه تعالى لما بين انه انما زين الارض
لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل ان يبقى الانسان فيها متنعما بها ابدا زهد فيها بقوله تعالى
وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا من جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شئ منه صَعِيدًا اى فتاتا جُرُزًا اى
يابسا لا ينبت ونظيره قوله تعالى كل من عليها فان وقوله تعالى فيذرها قاعا صفصفا لا ترى
فيها عوجا ولا امتا وتخصيص الاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا ان سائر الآيات على ان
الارض ايضا لا تبقى كما قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض + ولما ان القوم تعجبوا في قصة اصحاب
الكهف وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال تعالى أَمْ حَسِبْتَ اى ظننت
على ما لك من العقل الرزين والرأي الرصين أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا
على ما لزم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب والواقع انهم كانوا من العجائب ليسوا
بعجب بالنسبة الى كثرة آياتنا فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض كيف يستبعد
من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة واكثر في النوم والكهف الغار الواسع
في الجبل واختلف في الرقيم فقيل هو اسم كلبهم . قال امية بن ابي الصلت ﴿شعر﴾ وليس بها الا الرقيم
مجاورا + وصيدهم وهو بكسر الصاد مفعول مجاورا اى فناءهم والقوم في الكهف هجد اى نوم
وقيل هو لوح من رصاص رقمت فيه اسماؤهم وقصصهم جعل على باب الكهف قال البغوي
وهذا اظهر الاقاويل وقيل ان الناس رقموا حديثهم نقرا في الجبل وقيل هو الوادي الذي فيه
الكهف وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل اصحاب الرقيم قوم آخرون غير اصحاب الكهف
كانوا ثلاثة يطلبون الكلا او نحوه لاهلهم فاخذهم المطر فآووا الى الكهف فانحطت صخرة
وسدت عليهم بابه فقال احدهم اذكروا ايكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته فقال واحد
استعملت اجراء ذات يوم فجاء رجل منهم وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم فاعطيته مثل
اجرهم فغضب احدهم وترك اجره فوضعته في جانب البيت ثم مر بي بقر فاشتريت فصيلة والفصيلة
ولد الناقة اذا انفصل عن امه فبلغت ما شاء الله فرجع الي بعد حين شيخا ضعيفا لا اعرفه وقال
ان لي عندك حقا وذكره حتى عرفته فدفعتها اليه جميعا اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج
عنا فانصدع عنهم الجبل حتى رأوا الضوء والصدع الشق والصداع وجع الراس وقال آخر
كان في فضل واصاب الناس شدة فجاءتني امرأة تطلب مني معروفا فقلت والله ما هو دون
نفسك فابت وعادت ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت ذلك لزوجها فقال اجيبي له واغني عيالك فاتت
وسلمت الي نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت لها ما لك فقالت اخاف الله تعالى
فقلت لها خفتيه في الشدة ولم اخفه في الرخاء فتركتها واعطيتها ملتمسها اللهم ان كنت فعلته لوجهك

فافرج

فافرج عنا فانصدع حتی تعارفوا وقال الثالث کان لی ابوان هرمان وکان لی غنم وکنت اطعمهما
واسقیهما ثم ارجع الی غنمی فحبسنی ذات یوم غیم فلم ارجع حتی امسیت فاتیت اهلی واخذت محلبی
فحلبت فیه ومضیت الیهما فوجدتهما نائمین فشق علیّ ان اوقظهما فوقفت حابسا
محلبی علی یدی حتی ایقظهما الصبح فسقیتهما اللهمّ ان کنت فعلت ذلک لوجهک الکریم فافرج
عنا ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلک النعمان بن بشیر وقد تقدم سبب نزول قصة اصحاب
الکهف عند قوله تعالی ویسئلونک عن الروح وذکر محمد بن اسحق سبب نزول هذه القصة مشروحا
فقال کان النضر بن الحرث من شیاطین قریش وکان یؤذی رسول الله صلی الله علیه وسلم وینصب له
العداوة وکان قد قدم الحیرة وتعلم بها احادیث رستم واسفندیار وکان رسول الله صلی الله علیه وسلم
اذا جلس مجلسا ذکر فیه الله تعالی وحذر قومه ما اصاب من کان قبلهم من الامم وکان النضر یخلفه
فی مجلسه اذا قام وقال انا والله یا معشر قریش احسن حدیثا منه فهلموا فانا احدثکم باحسن من حدیثه
ثم یحدثهم عن ملوک فارس ثم قال ان قریشا بعثوه وبعثوا معه عقبة بن ابی معیط الی احبار یهود بالمدینة
وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته فانهم اهل الکتاب الاوّل وعندهم من العلم ما لیس عندنا من علم
الانبیاء فخرجا حتی قدما المدینة فسالا احبار الیهود عن احوال محمد فقال لهم الیهود سلوه عن ثلاثة
عن فتیة ذهبوا فی الدهر الاوّل فان حدیثهم عجیب وعن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها
وسلوه عن الروح وما هی فان اخبرکم فهو نبیّ والا فهو متقوّل فلما قدم النضر وصاحبه مکة قالا قد
جئناکم بفصل ما بیننا وبین محمد واخبراهم بما قالته الیهود فجاؤا رسول الله صلی الله علیه وسلم
وسألوه فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم اخبرکم بما سألتم عنه غدا ولم یستثن فانصرفوا عنه
فمکث رسول الله صلی الله علیه وسلم فیما یذکرون خمس عشرة لیلة لم ینزل علیه وحی وشق علیه ذلک
ثم جاءه جبریل علیه السلام من عند الله بسورة اهل الکهف وفیها معاتبة الله تعالی ایاه علی حزنه
علیهم وفیها خبر اولئک الفتیة وخبر الرجل الطوّاف ثم بدأ بالفتیة فقال اذ ای واذکر اذ اوی الفتیة
وهم اصحاب الکهف المسؤل عنهم جمع فتی وهو الشاب الکامل والشباب اقبل الی الحق واهدی
للسبیل من الشیوخ الی الکهف خائفین علی ایمانهم من قومهم الکفار واختلفوا فی سبب مصیرهم
الی الکهف فقال محمد بن اسحق بن یسار مرج اهل الانجیل وکثرت فیهم الخطایا وطغت فیهم الملوک حتی
عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغیت وفیهم بقایا علی دین المسیح متمسکین بعبادة الله وتوحیده
وکان ممن فعل ذلک من ملوکهم ملک من الروم یقال له دقیانوس عبد الاصنام وذبح للطواغیت
وقتل من خالفه وکان ینزل قری الروم فلا یترک فی قریة نزلها احدا الا فتنه عن دینه حتی یعبد الاصنام
او یقتله ثم نزل مدینة اهل الکهف وهی افسوس فلما نزل بها کبر علی اهل الایمان فاستخفوا منه
وهربوا فی کل وجه واتخذ شرطا من الکفار وامرهم ان یتبعوهم فی اماکنهم ویخرجوهم الیه فیخیرهم
بین القتل وبین عبادة الاوثان والذبح للطواغیت فمنهم من یرغب فی الحیوة ومنهم من یابی ان

يعبد غير الله تعالى فيقتل فلما رأى ذلك اهل الشدة فی الایمان جعلوا يسلمون انفسهم للعذاب
والقتل فيقتلون ويقطعون ثم جعل ما قطع من اجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب
من ابوابها حتى عظمت الفتنة فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلوة والصيام
والدعاء والتسبيح وكانوا من اشراف المدينة ومن اشراف الروم وكانوا ثمانية نفر فبكوا وتضرعوا الى الله تعالى
وجعلوا يقولون ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وادفع عنهم هذا البلاء حتى
يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلى لهم ادركهم الشرط فوجدوهم سجودا على
وجوههم يبكون ويتضرعون الى الله تعالى فقالوا لهم ما خلفكم عن امر الملك انطلقوا اليه ثم خرجوا فرفعوا
امرهم الى دقيانوس فقالوا تجمع الناس للذبح لالهتك وهؤلاء الفتية من اهل بيتك يستهزؤن بك
ويعصون امرك فلما سمع ذلك بعث اليهم فاتى بهم تفيض اعينهم من الدمع معفرة وجوههم
فی التراب فقال لهم ما منعكم ان تشهدوا الذبح لالهتنا التی تعبد فی الارض وتجعلوا انفسكم
اسوة سراة اهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لالهتنا واما ان اقتلكم فقال له كبيرهم واسمه مكسلمينا
ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها ابدا له الحمد والتكبير والتسبيح
من انفسنا خالصا ابدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير واما الطواغيت فلن نعبدها ابدا اصنع
ما بدا لك وقال اصحابه مثل ما قال فلما قالوا ذلك امر الملك بنزع لباسهم وحلية كانت عليهم من
الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وانجز لكم ما وعدتكم من العقوبة وما يمنعنی ان اعجل لكم ذلك
الا انی اراكم شبابا حديثة اسنانكم فلا احب ان اهلككم حتى اجعل لكم اجلا تذكرون فيه وترجعون
الى عقولكم ثم امر بهم فاخرجوا من عنده وانطلق الى مدينة اخرى قريبة منهم لبعض اموره فلما رأى
الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا اذا قدم مدينتهم ان يذكرهم فائتمروا بينهم ان ياخذ كل واحد منهم
نفقة من بيت ابيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقی ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة فيمكثوا فيه
ويعبدوا الله تعالى حتى اذا جاء دقيانوس اتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك
بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم الى بيت ابيه فاخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقی معهم
واتبعهم كلب كان لهم حتى اذا اتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم
فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون منی لا تخشوا جانبی انا احب احباب
الله عز وجل فناموا حتى احرسكم وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع
معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد الى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن
اسحق فلبثوا فيه ليس لهم عمل غير الصلوة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء وجه الله تعالى
وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم ارزاقهم من المدينة سرا وكان من
اجملهم واجلدهم وكان اذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب
المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقه وينطلق الى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا

ويتجسس لهم الخبر هل ذكروا اصحابه بشيء ثم يرجع الى اصحابه فلبثوا في ذلك ما شاء الله ان يلبثوا
ثم قدم دقيانوس المدينة وامر عظماء اهلها ان يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك اهل الايمان
وكان تمليخا يشتري لاصحابه طعامهم فرجع الى اصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل اخبرهم ان
الجبار قد دخل المدينة وانهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجدا يدعون
ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة ثم ان تمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا
على ربكم فرفعوا رؤسهم واعينهم تفيض من الدمع فطعموا وذلك مع غروب الشمس ثم جعلوا
يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم كذلك اذ ضرب الله على اذانهم في الكهف وكلبهم
باسط ذراعيه بباب الكهف فاصابهم ما اصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان
من الغد تفقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظمائه وعظماء المدينة لقد ساءني
شان هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا ان بي غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من امري ما كنت
لاجهل عليهم ان هم تابوا وعبدوا الهتي فقال عظماء المدينة ما انت بحقيق ان ترحم قوما فجرة مردة
عصاة فقد كنت اجلت لهم اجلا ولو شاؤا لرجعوا في ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب
غضبا شديدا ثم ارسل الى ابائهم فاتى بهم فسألهم عنهم وقال اخبروني عن ابنائكم المردة الذين عصوني
فقالوا له اما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا باموالنا واهلكوها في اسواق المدينة
ثم انطلقوا فارتقوا الى جبل يدعى بنجلوس فلما قالوا ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدري ما يصنع
بالفتية فالقى الله تعالى في قلبه ان يسد باب الكهف عليهم واراد الله تعالى ان يكرمهم بذلك
ويجعلهم اية لامة تستخلف من بعدهم وان يبين لهم ان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث
من في القبور فامر دقيانوس بالكهف ان يسد عليهم وقال دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعا وعطشا
ويكون كهفهم الذي اختاروه قبرا لهم وهو يظن انهم ايقاظا يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله
ارواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين
وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما اتمروا ان يكتبا شان الفتية
وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلوهما في تابوت من نحاس ويجعلوا التابوت في البنيان وقالا لعل الله
يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلوا
ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة + وقد حكى الله تعالى عنهم انهم
لما اووا الى الكهف فقالوا اي عقب استقرارهم فيه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ اي من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ توجب لنا
المغفرة والرزق والامن من عدوك ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ اي من الامر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار
﴿رَشَدًا﴾ الرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسير اللفظ وجهان الاول ان التقدير وهيئ
لنا امرا ذا رشد اي حتى نصير بسببه راشدين مهتدين الثاني اجعل امرنا رشدا كله كقولك رايت
منك رشدا + ولما اجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى ﴿فَضَرَبْنَا﴾ اي عقب هذا القول

وبسببه على آذانهم حجابا يمنع السماع اى انمناهم نومة لا تنبههم الاصوات الموقظة فحذف المفعول الذى
هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم بين تعالى انه انما ضرب على آذانهم
فى الكهف اى المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى سنين ظرف زمان وقوله تعالى عددا اى ذوات
عدد ويحتمل التكثير والتقليل فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار
وقال الزجاج اذا قل الشئ فهم مقدار عدده فلم يحتج الى ان يعد واذا كثر احتاج الى ان يعد ثم بعثناهم اى ايقظناهم
من ذلك النوم لنعلم اى علم مشاهدة وقد سبق نظير هذه الاية فى القرآن كثيرا منها ما سبق
فى سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفى آل عمران ولما يعلم الله الذين
جاهدوا منكم وقد نبهنا على ذلك فى محله اىّ الحزبين اى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم احصى لما لبثوا امدا
واختلفوا فى الحزبين المختلفين فقال عطاء عن ابن عباس المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا الملك
ملكا بعد ملك واصحاب الكهف وقال مجاهد الحزبان من الفتية اصحاب الكهف لما تيقظوا
اختلفوا فى انهم لم لبثوا ويدل له قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما او بعض يوم
قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم اعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان
لبثهم قد تطاول وقال الفراء ان طائفتين من المسلمين فى زمان اصحاب الكهف اختلفوا
فى مدة لبثهم تنبيه احصى فعل ماض اى ايهم ضبط امد اوقات لبثهم واما من جعله افعل تفضيل
فقال فى الكشاف ليس بالوجه السديد وذلك ان بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس
ونحو اعدى من الجرب وافلس من ابن المذلق شاذ والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به
ثم قال الله تعالى نحن اى بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة نقص عليك يا اشرف الخلق نبأهم
اى خبرهم العظيم قصا ملتبسا بالحق اى الصدق انهم فتية اى شبان آمنوا بربهم اى المحسن اليهم
الذى تفرد بخلقهم ورزقهم ثم وصفهم الله تعالى بقوله وزدناهم بعد ان آمنوا هدى بما قذفناه
فى قلوبهم من المعارف وربطنا على قلوبهم اى قويناها فصار ما فيها من القوى مجتمعا غير مبدد
فكانت حالهم فى الجلوة حالهم فى الخلوة اذ قاموا اى وقت قيامهم بين يدى الجبار دقيانوس
من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فقالوا ربنا رب السموات والارض
وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك
الجبار واقروا بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراءة من الشرك والانداد بقولهم لن ندعو من دونه الها
لان ما سواه عاجز والله لقد قلنا اذا اى اذا دعونا من دونه غيره شططا اى قولا ذا بعد عن
الحق جدا وقال مجاهد كانوا ابناء عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد
فقال رجل منهم هو اكبر القوم انى لاجد فى نفسى شيئا ما اظن ان احدا يجده قالوا ما تجد قال
اجد فى نفسى ان ربى رب السموات والارض قالوا ونحن كذلك نجد فى انفسنا فقاموا جميعا فقالوا
ربنا رب السموات والارض وقال عطاء قالوا ذلك عند قيامهم من النوم قال الرازى وهو بعيد

لان الله تعالى استأنف قصتهم بقوله تعالى نحن نقص عليك وقال عبيد بن عمير كان اصحاب الكهف
فتيانا مطوقين مسورين ذوي ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي
وموكب واخرجوا معهم آلهتهم التي يعبدونها وقد قذف الله تعالى في قلوب الفتية الايمان وكان
احدهم وزير الملك فآمنوا واخفى كل واحد ايمانه فقالوا في انفسهم نخرج من بين اظهر هؤلاء القوم
لا يصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج فرآه جالسا
وحده فرجا ان يكون على مثل امره من غير ان يظهر ذلك ثم خرج آخر فخرجوا كلهم جميعا فاجتمعوا فقال
بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم
يفشي كل واحد سره الى صاحبه ففعلوا فاذا هم جميعا على الايمان واذا بكهف في الجبل قريب منهم
فقال بعضهم لبعض هؤلاء قومنا وان كانوا اسن منا واقوى واجل في الدنيا اتخذوا من دونه آلهة
اشركوهم معه تعالى بشبهة واهية لولا اي هلا يأتون عليهم بسلطان اي دليل بين اي ظاهر مثل
ما اتى نحن على تقرير معبودنا بالالهية فتسبب عن عجزهم عن دليل انهم اظلم الظالمين فلذلك
قالوا فمن اظلم اي لا احد اظلم ممن افترى اي تعمد على الله اي الملك الاعظم كذبا بنسبة الشريك
اليه تعالى ثم قال بعض الفتية لبعض واذ اي وحين اعتزلتموهم اي قومكم وما يعبدون
اي واعتزلتم معبودهم وقوله الا الله يجوز ان يكون استثناء منه متصلا على ما روي انهم
كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما كان اهل مكة وان يكون منقطعا وقيل هو كلام معترض
اخبار من الله تعالى عن الفتية بانهم لم يعبدوا غير الله تعالى فأووا الى الكهف اي الغار الذي
في الجبل ينشر اي يبسط لكم ويوسع عليكم ربكم اي المحسن اليكم من رحمته ما يكفيكم به المهم من امركم
في الدارين ويهيئ لكم من امركم اي الذي من شأنه ان يهمكم مرفقا اي ما ترتفقون به وتنتفعون
وجوههم بذلك لخلوص نيتهم وقوة يقينهم بفضل الله وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء
والباقون بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائي
لا يذكر في مرفق الانسان الذي في اليد الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيز فيه الامرين وقيل
هما لغتان الا ان الفتح اقيس والكسر اكثر والخطاب في قوله تعالى وترى الشمس للنبي صلى الله
عليه وسلم او لكل احد وليس المراد ان من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة في المخاطبة
تكون على هذا النحو ومعناه انك لو رأيته على هذه الصورة اذا طلعت تزاور اي تميل عن كهفهم
ذات اليمين اي ناحيته واذا غربت تقرضهم اي تعدل في سيرها عنهم ذات الشمال اي فلا يقع
شعاعها عليهم فيؤذيهم لان الله تعالى زواها عنهم وقيل ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا
الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله وقرأ
السوسي بامالة الف ترى المنقلبة بعد الراء في الاصل بخلاف عنه والباقون بالفتح في الوصل
وهم على اصولهم في الوقف وابو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون

بالفتح وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو تزاور بتشديد الزاي وتخفيف الراء مضمومة وابن عامر بسكون الزاي ولا الف بعدها وتشديد الراء على وزن تحمر والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الزاي والواو ولا خلاف في ضم الراء ولما بين انه تعالى حفظهم من حر الشمس بين انه انعشهم ببرد الهواء والطفهم بسعة الموضع في فضاء الغار فقال تعالى وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ اي في وسط الكهف ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ثم بين تعالى نتيجة هذا الامر الغريب في النبأ العجيب بقوله تعالى ذَٰلِكَ اي المذكور العظيم مِنْ آيَاتِ اللَّهِ اي دلائل قدرته مَن يَهْدِ اللَّهُ اي الذي له الملك كله بخلق هذه الهداية في قلبه كاصحاب الكهف فَهُوَ الْمُهْتَدِ في اي زمان كان فلن تجد له مضلا مغويا ففي ذلك اشارة الى ان اهل الكهف جاهدوا في الله واسلموا له وجوههم فلطف بهم واعانهم وارشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالاية العظيمة وان كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذي اصاب الفلاح واهتدى الى السعادة وقرأ نافع وابو عمرو بزيادة ياء بعد الدال في الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفا ووصلا وَمَن يُضْلِلْ اي يضله الله تعالى ولم يرشده كدقيانوس واصحابه فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا اي معينا مُّرْشِدًا اي يرشده للحق ثم انه تعالى عطف على ما مضى بقية امرهم بقوله تعالى وَتَحْسَبُهُمْ اي لو رأيتهم ايها المخاطب أَيْقَاظًا اي منتبهين لان اعينهم منفتحة للهواء لانه يكون ابقى لها جمع يقظ بكسر القاف وَهُمْ رُقُودٌ اي نيام جمع راقد قال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن انهم ايقاظ والدليل عليه قوله تعالى وَنُقَلِّبُهُمْ اي في ذلك حال نومهم تقليبا كثيرا بحسب ما ينفعهم كما يكون النائم ذَاتَ اي في الجهة التي هي صاحبة الْيَمِينِ منهم وَذَاتَ الشِّمَالِ لينال روح النسيم جميع ابدانهم ولا يتأثر ما يلي الارض منها بطول المكث. تنبيه اختلف في مقدار مدة التقليب فعن ابي هريرة ان لهم في كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون رقودا على ايمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة في يوم عاشوراء قال الرازي وهذه التقديرات لا سبيل للعقل اليها ولفظ القرآن لا يدل عليها وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف انتهى ولهذا قلت بحسب ما ينفعهم وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فائدة تقليبهم لئلا تاكل الارض لحومهم ولا ثيابهم اه قال الرازي وهذا عجب من ذلك لانه تعالى لما قدر على ان يمسك حياتهم ثلثمائة سنة واكثر فلو يقدر على حفظ اجسادهم ايضا من غير تقليب وهذا ليس بعجيب لان القدرة صالحة لذلك واكثر بحسب العادة واما امساك ارواحهم فهو خرق للعادة فلا يقاس عليه وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ اي يديه اي ملقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعتدلوا في السجود ولا يبسط احدكم ذراعيه انبساط الكلب قال المفسرون كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما. تنبيه باسط اسم فاعل ماض وانما عمل على حكاية الحال والكسائي يعمله ويستشهد بالاية الكريمة واكثر المفسرين على ان الكلب من جنس الكلاب وروى عن ابن جريج انه كان اسدا

ویسمی الاسد کلبا فان النبی صلی الله علیه وسلم دعا علی عتبة بن ابی لهب فقال اللهم سلط علیه
کلبا من کلابك فافترسه الاسد وقال ابن عباس کان کلبا اغر واسمه قطمیر وعن علی اسمه ریان
واختلف فی قوله تعالی بِالْوَصِيدِ فقال ابن عباس هو باب الکهف وقیل العتبة قال السدی الکهف
لا یکون له باب ولا عتبة وانما اراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج الوصید فناء البیت
وفناء الدار قال الشاعر ؎ بارض فضاء لا یسد وصیدها ✱ علی ومعروفی بها غیر منکر ✱ وقال مجاهد
والضحاك الوصید الکهف لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ بکسر الواو علی اصل التقاء الساکنین ای وهم علی تلك
الحالة لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ حال وقوع بصرك علیهم فِرَارًا لما البسهم الله تعالی من الهیبة وجعل لهم
من الجلالة تدبیرا منه لما اراد منهم حتی لا یصل الیهم احد حتی یبلغ الکتاب اجله وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا
ای فزعا واختلف فی ذلك الرعب کان لماذا فقال الکلبی لان اعینهم مفتحة کالمستیقظ الذی یرید
ان یتکلم وهم نیام وقیل من وحشة المکان وقیل لکثرة شعورهم وطول اظفارهم وتقلبهم من غیر حس
کالمستیقظ وقیل ان الله تعالی منعهم بالرعب حتی لا یراهم احد وروی عن سعید بن جبیر
عن ابن عباس قال غزونا مع معاویة نحو الروم فمررنا بالکهف الذی فیه اصحاب الکهف فقال معاویة
لو کشف لنا عن هؤلاء فنظرنا الیهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خیر منك لو اطلعت
علیهم لولیت منهم فرارا فبعث معاویة ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الکهف بعث الله
علیهم ریحا فاخرجتهم وقرأ نافع وابن کثیر بتشدید اللام بعد المیم والباقون بتخفیفها والسوسی
بابدال الهمزة یاء علی اصله وفقا ووصلا وحمزة فی الوقف فقط وقرأ ابن عامر والکسائی
رعبا بضم العین والباقون بسکونها وَكَذَلِكَ ای کما فعلنا بهم ما ذکرنا آیة بَعَثْنَاهُمْ ای
ایقظناهم آیة لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ای لیسأل بعضهم بعضا عن احوالهم فی نومهم ویقظتهم
فیتعرفوا احوالهم وما صنع الله تعالی بهم فیزدادوا یقینا علی کمال قدرة الله تعالی ولیستبصروا
به امر البعث ویشکروا ما انعم الله به علیهم قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ مستفهما من اخوانه كَمْ لَبِثْتُمْ نائمین
فی ذا الکهف من لیلة او یوم وهذا یدل علی ان هذا القائل استشعر طول لبثهم مما رای من
هیئتهم او بغیر ذلك من الامارات قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ لانهم دخلوا الکهف
طلوع الشمس وبعثوا آخر النهار فلما رأوا الشمس باقیة قالوا او بعض یوم فلما نظروا الی طول
اظفارهم وشعورهم قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فاحالوا العلم علی الله تعالی قال ابن عباس
القائل ذلك هو رئیسهم تملیخا رد علم ذلك الی الله تعالی وعلم ان مثل هذا التغییر لا یحصل
الا فی الایام الطویلة وقرأ نافع وابن کثیر وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند المثناة والباقون
بالادغام ثم لما علموا ان الامر ملتبس علیهم لا طریق لهم الی علمه اخذوا فیما یهمهم وقالوا
فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ ای بفضتکم وقرأ ابو عمرو وشعبة وحمزة بسکون الراء والباقون
بکسرها والورق اسم للفضة سواء کانت مضروبة ام لا ویدل علیه ما روی ان عرفجة اتخذ

انها من ورق ويقال لها الرقة وفي الحديث في الرقة ربع العشر الى المدينة اى التي خرجتم منها وهي مدينة طرسوس وهذه الآية تدل على ان السعي في امساك الزاد امر مهم مشروع وانه لا يبطل التوكل على الله تعالى اذ حقيقة التوكل على الله تعالى تهيئة الاسباب واعتقاد ان لا مسبب للاسباب الا الله تعالى فحمل النفقة وما يصلح المسافر هو راى المتوكلين على الله دون المتوكلين على الانفاقات على ما في اوعية القوم من النفقات ومنه قول عائشة رضي الله تعالى عنها لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه اوثق عليك نفقتك وما حكى عن بعض صعاليك العلماء انه كان شديد الحب الى ان يرزق حج بيت الله الحرام وعلم منه ذلك فكانت مياسير اهل بلده كلما عزم قوم على الحج الزموه ان يحج ابه والحوا عليه فيعتذر اليهم ويحمد اليهم بذلهم فاذا انفضوا عنه قال لمن عنده ما لهذا السفر الا شيئان شد الهميان والتوكل على الرحمن فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا قال ابن عباس يريد ما حل من الذبائح لان عامة اهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كانت ملكهم ظلمة فقوله ايها ازكى طعاما اى ايها ابعد عن الغصب وكل سبب حرام وقيل ايها اطيب والذ وقيل ايها ارخص قال الزجاج قوله ايها رفع بالابتداء وازكى خبره وطعاما تمييز ولا بد هنا من حذف اى اي اهلها ازكى اى احل وقيل لا حذف والضمير عائد على الاطعمة المدلول عليها من السياق فَلْيَأْتِكُمْ بذلك الاحد بِرِزْقٍ مِنْهُ لنا كل وَلْيَتَلَطَّفْ اى وليكن في ستر وكتمان في دخول المدينة وشراء الاطعمة حتى لا يعرف وَلَا يُشْعِرَنَّ اى ولا يخبرن بِكُمْ أَحَدًا من اهل المدينة إِنَّهُمْ اى اهل المدينة إِنْ يَظْهَرُوا اى يطلعوا عالين عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ اى يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير في القرآن كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله لارجمنك وقوله ان ترجمون وقال الزجاج اى يقتلوكم بالرجم والرجم اخبث انواع القتل أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ان لنصيرهم وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا اى ان رجعتم الى ملتهم أَبَدًا بل تكونوا خاسرين قال بعض العلماء ولا خوف على المؤمن الفار بدينه اعظم من هذين الامرين احدهما ما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذي هو اخبث انواع القتل والآخر هلاك الدين فان قيل اليس انهم لو اكرهوا على الكفر حتى اظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا ابدا اجيب بانهم خافوا انهم لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك الى الكفر الحقيقي فكان خوفهم بسبب هذا الاحتمال فان قيل ما النكتة في العدول عن واحدكم الى احدكم وكل ذلك دال على الوحدة اجيب بان النكتة فيه ان العرب اذا قالوا احد القوم ارادوا به فردا منهم واذا قالوا واحد القوم ارادوا رئيسهم والمراد في القصة اى واحد كان والقرآن الكريم انزل بلغتهم فراعى ما راعوا وَكَذَلِكَ اى ومثل ما فعلنا بهم ذلك الامر العظيم من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ لاجسادهم على مر الزمان وتعاقب الحدثان وعيد لك أَعْثَرْنَا اى اطلعنا غيرهم عَلَيْهِمْ يقال عثرت على كذا علمته واصله ان من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثر سببا لحصول العلم فاطلق السبب على المسبب بقوله تعالى لِيَعْلَمُوا متعلق باعثرنا

والضمير قيل يعود على مفعول اعثرنا المحذوف المقدر به واعثرنا الناس وقيل يعود الى اهل الكهف
وهذا هو الظاهر ﴿اِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ﴾ الذى له صفات الكمال بالبعث للروح والجثة معا ﴿حَقٌّ﴾ لان
قيامهم بعد نومهم منقلبين فيها ثلثمائة سنة مثل من مات ثم بعث قال بعض العارفين علامة
اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت ✦ ولما كان من الحق ما قد يداخله شك قال تعالى ﴿وَاَنَّ﴾
اى وليعلموا ان ﴿السَّاعَةَ﴾ اى التى ﴿لَا رَيْبَ﴾ اى لا شك ﴿فِيْهَا﴾ ✦ تنبيه ✦ اختلف فى السبب الذى
عرف الناس واقعة اصحاب الكهف فقال محمد بن اسحق ان ملك تلك البلدة رجل صالح يقال له
تندوسيس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس فى مملكته فكانوا احزابا منهم
من يؤمن بالله ويعلم ان الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع
الى الله تعالى وحزن حزنا شديدا لما راى اهل الباطل يزيدون ويظهرون على اهل الحق ويقولون
لا حيوة الا الدنيا وانما تبعث الارواح ولا تبعث الاجساد وجعل الملك يرسل الى من يظن فيهم
خيرا وانهم ائمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يحولون الناس
عن الحق وملة الحواريين فلما راى ذلك الملك الصالح دخل بيته واغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل
تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره زمانا يتضرع الى الله تعالى ويبكى اى رب قد ترى اختلاف
هؤلاء فابعث لهم اية تبين لهم ثم ان الله تعالى الذى يكره هلكة عباده اراد ان يظهر على الفتية
اصحاب الكهف ويبين للناس شانهم ويجعلهم اية وحجة عليهم ليعلموا ان الساعة اتية لا ريب فيها
ويستجيب لعبده تندوسيس ويتم نعمته عليه وان يجمع من كان تبدد من المؤمنين فالقى الله فى نفس رجل
من تلك البلد الذى فيه الكهف ان يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة لغنمه
فاستاجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى اذا نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب
الكهف اذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان محيى الموتى للفتية ان يجلسوا بين ظهرى الكهف فجلسوا فرحين
مسفرة وجوههم طيبة انفسهم فسلم بعضهم على بعض كانما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون
لها اذا اصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلوة فصلوا كالذى كانوا يفعلون لا يرى فى وجوههم ولا فى
الوانهم شئ يكرهونه كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون ان ملكهم دقيانوس فى طلبهم فلما قضوا صلاتهم
قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم انبئنا ما قال الناس فى شاننا عشية امس عند الجبار وهم يظنون انهم رقدوا
كبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل لهم انهم قد ناموا اطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال
بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما او بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم وكل ذلك فى انفسهم يسير
فقال لهم تمليخا التمستم بالمدينة وهو يريد ان يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت او يقتلكم فما شاء الله
بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا انكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله
ثم قالوا لتمليخا انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذى يذكر عند دقيانوس وتلطف
ولا تشعرن بك احدا وابتغ لنا طعاما وائتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد اصبحنا

قوله يقال له تندوسيس وفى نسخة الذى فى البيضاوى ان يقال له بيدوسيس [illegible]

جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه واخذ الثياب التي كان يتنكر فيها واخذ ورقا من
نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا
فلما مر بباب الكهف راى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى اتى باب
المدينة مستخفيا يصد عن الطريق متخوفا ان يراه احد من اهلها فيعرفه ولا يشعر ان دقيانوس
واهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما اتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فراى فوق ظهر الباب
علامة تكون لاهل الايمان اذا كان امر الايمان ظاهرا فلما راى تعجب وجعل ينظر اليها مستخفيا وينظر يمينا
وشمالا ثم ترك الباب وتحول الى باب آخر من ابوابها فراى مثل ذلك فجعل يخيل اليه ان المدينة ليست
بالتي كان يعرفها وراى ناسا كثيرا محدثين لم يكن راهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل اليه
انه حيران ثم رجع الى الباب الذي اتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول يا ليت شعري
ما هذا اما عشية امس فكان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها واما اليوم فانها
ظاهرة لعلي حالم ثم يرى انه ليس بنائم فاخذ كساءه فجعله على راسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين
ظهري سوقها فيسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا وراى انه حيران فقام مسندا
ظهره الى جدار من جدران المدينة ويقول في نفسه والله ما ادري ما هذا اما عشية امس فليس
على وجه الارض انسان يذكر عيسى بن مريم الا قتل واما اليوم فاسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخاف
ثم قال في نفسه لعل هذه ليست المدينة التي اعرف والله ما اعلم مدينة قريبا من مدينتنا فقام كالحيران
ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى فقال اسمها افسوس فقال في نفسه لعل بي مسا او امرا اذهب
عقلي والله يحق لي ان اسرع الخروج منها قبل ان اخزى فيها او يصيبني شر فاهلك ثم انه افاق فقال والله
لو عجلت الخروج من هذه المدينة قبل ان يفطن بي لكان اكيس ثم دنا من الذين يبيعون الطعام
فاخرج الورق التي كانت معه فاعطاها رجلا منهم فقال بعني بهذا الورق طعاما فاخذها الرجل
فنظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها الى رجل من اصحابه فنظر اليها ثم الى آخر ثم
جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم
لبعض ان هذا اصاب كنزا خبيا في الارض منذ زمان ودهر طويل فلما راهم تمليخا يتشاورون من اجله
فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن انهم فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون ان يذهبوا به الى ملكهم
دقيانوس وجعل اناس آخرون ياتونه فيتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق افضلوا علي قد اخذتم
ورقي فامسكوها واما طعامكم فليس لي حاجة به فقالوا من انت يا فتى وما شانك والله لقد وجدت كنزا
من كنوز الاولين وانت تريد ان تخفيه انطلق معنا وارنا وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وانك
ان لم تفعل ناتي بك السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال ما وجدت شيئا وقال
قد وقعت في كل شيء احذر منه قالوا يا فتى انك والله لا تستطيع ان تكتم ما وجدت فجعل تمليخا
لا يدري ما يقول لهم وخاف حتى انه لم يرد اليهم جوابا فلما راوه لا يتكلم اخذوا كساءه وطرحوه

في عنقه وجعلوا يقودونه في سكك المدينة حتى سمع من فيها فقيل اخذ رجل عنده كنز واجتمع عليه
اهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ما هذا الفتى من اهل هذه المدينة
وما رأيناه قط وما نعرفه فجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم فلما اجتمع عليه اهل المدينة وكان متيقنا
ان اباه واخوته في المدينة وانه من عظماء اهلها وانهم سيأتونه اذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران
ينظر متى يأتيه بعض اهله فيخلصه من بين ايديهم اذ اختطفوه وانطلقوا به الى رئيسي المدينة ومدبريها
اللذين يدبران امرها وهما رجلان صالحان اسم احدهما اريوس واسم الآخر اسطيوس فلما انطلقوا به
اليهما ظن تمليخا انه ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس
يسخرون منه كما يسخرون من المجنون وجعل تمليخا يبكي ويرفع رأسه الى السماء وقال اللهم اله
السماء واله الارض افرغ اليوم علي صبرا واولج معي روحا منك تؤيدني بها عند هذا الجبار وجعل
يقول في نفسه فرق ما بيني وبين اخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ويا ليتهم يأتوني فنقوم جميعا
بين يدي هذا الجبار فانا كنا تواثقنا على الايمان بالله سبحانه وتعالى وان لا نشرك به شيئا ولا نفترق
في حياة ولا موت فلما انتهى به الى الرجلين الصالحين ورأى انه لم يذهب به الى دقيانوس افاق وسكن عنه
البكاء فاخذ اريوس واسطيوس الورق فنظرا اليها وعجبا منها ثم قال احدهما اين الكنز الذي وجدت يا
يا فتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذه ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما ادري
ما شأني وما اقول لكم فقال احدهما ممن انت فقال تمليخا اما انا فكنت ادري اني من اهل هذه المدينة قالوا فمن ابوك
ومن يعرفك بها فانبأهم باسم ابيه فلم يجدوا احدا يعرفه ولا اباه فقال له احدهما انت رجل كذاب لا تنبئنا
بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول له غير انه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال
بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكي ينفلت منكم فقال له احدهما ونظر اليه نظرا شديدا
اتظن انا نرسلك ونصدقك بان هذا مال ابيك ونقش هذه الورق وضربها اكثر من ثلثمائة سنة
وانت غلام شاب وتظن انك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة وولاة
امرها وخزائن هذه البلدة بايدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار واني لاظنني سآمر بك
فتعذب عذابا شديدا ثم اوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته فلما قال ذلك قال لهم تمليخا
انبئوني عن شيء اسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم عما عندي فقالوا سل لا نكتمك شيئا قال ما فعل الملك
دقيانوس قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الارض ملكا يسمى دقيانوس ولم يكن الا ملكا هلك منذ زمان
ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة فقال تمليخا اني اذا لحيران وما هو مصدقي احد من الناس بما اقول
لقد كنا فتية وان الملك اكرهنا على عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية امس فنمنا فلما انتبهنا
خرجت لاشتري طعاما واتجسس الاخبار فاذا انا كما ترون فانطلقوا معي الى الكهف الذي في جبل
بنجلوس اريكم اصحابي فلما سمع اريوس ما يقول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله تعالى جعلها
الله تعالى لكم على يدي هذا الفتى فانطلقوا بنا معه ليرينا اصحابه فانطلق معه اريوس واسطيوس

وصعدوا جميع اهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو اصحاب الكهف لينظروا اليهم فلما رأى الفتية
اصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه فظنوا انه
قد اخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة
الخيل مصعدة نحوهم فظنوا انهم رسل الجبار دقيانوس بعث اليهم ليأتوا بهم فقاموا الى الصلوة وسلم
بعضهم على بعض واوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت اخانا تمليخا فانه الان بين يدي الجبار
وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على تلك الحالة اذا هم باريوس واصحابه
وقوف على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص
عليهم الخبر كله فعرفوا انهم كانوا نياما بامر الله تعالى ذلك الزمن الطويل وانما اوقظوا ليكونوا اية
للناس وتصديقا للبعث وليعلم الناس ان الساعة آتية لا ريب فيها ثم دخل على اثر تمليخا اريوس
فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء اهل المدينة
ففتح التابوت عندهم فوجد فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا
ومرطونس وكشطونس ويبرونس وبيطونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة ان
يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما اخبر بمكانهم امر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا
اسماءهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم ان عثر عليهم فلما قرؤه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذي اراهم اية
البعث فيهم ثم رفعوا اصواتهم بحمد الله تعالى وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا
مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس واصحابه سجدا وحمدوا الله تعالى الذي اراهم اية من اياته
ثم كلم بعضهم بعضا وانبأهم الفتية عن الذي لقوه من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس واصحابه بعثوا بريدا
الى ملكهم الصالح تندوسيس ان عجل لعلك تنظر الى اية من ايات الله جعلها الله تعالى على ملكك
وجعلها اية للعالمين ليكون لهم نورا وضياء وتصديقا بالبعث فاعجل الى فتية بعثهم الله تعالى
وكان قد توفاهم منذ اكثر من ثلثمائة سنة فلما اتى الملك الخبر قام ورجع اليه عقله وذهب همه فقال
احمد الله رب السموات والارض واعبدك واسبحك تطولت علي ورحمتني فلم تطفئ النور الذي
جعلته لآبائي وللعبد الصالح قسطيطيوس الملك فلما نبئ به اهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه
حتى اتوا مدينة افسوس فتلقاهم اهل المدينة وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية
تندوسيس فرح بهم وخروا سجدا على وجوههم وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس
بين يديه على الارض يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قالوا له نستودعك الله والسلام عليك ورحمة
الله وبركاته وحفظك وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذ رجعوا الى
مضاجعهم فناموا وتوفى الله انفسهم وقام الملك تندوسيس اليهم فجعل ثيابه عليهم وامر ان يجعل كل رجل
منهم في تابوت من ذهب فلما امسى ونام اتوه في المنام وقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا
من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فامر الملك

حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر احد على ان يدخل عليهم وقيل ان تمليخا لما حمل الى الملك الصالح قال له الملك من انت قال انا رجل من اهل هذه المدينة وذكر انه خرج امس او منذ ايام وذكر منزله واقواما لم يعرفهم احد وكان الملك قد سمع ان فتية فقدوا فى الزمان الاول وان اسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانته فدعا باللوح فنظر فى اسمائهم فاذا اسمه مكتوب فى ذكر اسماء الآخرين فقال تمليخا هم اصحابى فلما سمع الملك ذلك ركب هو ومن معه من القوم فلما اتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى ادخل على اصحابى وابشرهم فانهم ان رأوكم معى ارعبتموهم فدخل فبشرهم فقبضت روحه وارواحهم واعمى على الملك واصحابه اثرهم فلم يهتدوا اليهم ثم وقع التنازع فى امرهم بين اهل المدينة كما قال تعالى اذ يتنازعون اى اهل المدينة بينهم امرهم اى امر الفتية فى البناء حولهم فقالوا اى الكفار ابنوا عليهم اى حولهم بنيانا يسترهم فانهم كانوا على ديننا وقوله تعالى ربهم اعلم بهم يجوز ان يكون من كلام الله تعالى وان يكون من كلام المتنازعين فيهم قال الذين غلبوا على امرهم اى امر الفتية وهم المؤمنون لنتخذن عليهم اى حولهم مسجدا يصلى فيه وفعل ذلك على باب الكهف وقيل ان بعضهم قال الاولى ان يسد باب الكهف عليهم لئلا يدخل احد عليهم ولا يقف على احوالهم انسان وقال الآخرون بل الاولى ان يبنى على باب الكهف مسجد وهذا القول يدل على ان اولئك الاقوام كانوا عارفين بالله ومعترفين بالعبادة والصلوٰة وقيل تنازعوا فى مقدار مكثهم وقيل فى عددهم واسمائهم + تنبيه + بنيانا يجوز ان يكون مفعولا به جمع بنيانة وان يكون مصدرا + ولما ذكروا اصحاب الكهف عند النبى صلى الله عليه وسلم وقع الاختلاف فى عددهم كما قال تعالى سيقولون اى الخائضون فى قصتهم من اهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض اهل الكتاب ثلاثة رابعهم كلبهم اى هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم بانضمامه اليهم ويقولون اى بعضهم خمسة سادسهم كلبهم فهذان القولان لنصارى نجران وقيل الاول قول اليهود والثانى قول النصارى فان قيل لم جاءت سين الاستقبال فى الاول دون الآخرين اجيب بان فى ذلك وجهين ان تدخل الآخرين فى حكم السين كما تقول قد اكرم وانعم تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعا وان تريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له + ولما كان قولهم ذلك بغير علم كان رجما بالغيب اى ظنا فى الغيبة عنهم فهو راجع الى القولين معا ونصب على المفعول له اى لظنهم ذلك ويقولون اى المؤمنون سبعة وثامنهم كلبهم قال اكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل عليه وجوه الاول انه تعالى لما حكى قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده قل ربى اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل واتبع القولين الاولين بقوله تعالى رجما بالغيب وتخصيص الشىء بالوصف يدل على ان الحال فى الباقى بخلافه فوجب ان يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وان يكون القول الثالث مخالفا لهما فى كونه رجما بالغيب الوجه الثانى ان الواو فى قوله تعالى وثامنهم هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا من المعرفة فى نحو

قولك جاءني رجل ومعه آخر لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها امر ثابت
مستقر فكانت هذه الواو دالة على ان الذين قالوا في الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم وقول محمد
بن اسحق انهم كانوا ثمانية صدقوا وحققوا فكأن الله تعالى حكى اختلافهم وتم الكلام عند قوله ويقولون سبعة
ثم حقق هذا القول بقوله تعالى وثامنهم كلبهم والثامن لا يكون الا بعد السبع وهذه الواو يسمونها
واو الثمانية لان العرب تعد فتقول واحد اثنان ثلاثة اربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لان العقد كان
عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ونظير هذه الاية في ثلاث ايات وهو قوله تعالى والناهون
عن المنكر وقوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها لان ابواب الجنة ثمانية وابواب النار سبعة
وقوله تعالى ثيبات وابكارا قال القفال وقولهم واو الثمانية ليس بشيء بدليل قوله تعالى هو الله الذي
لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكروا الواو في النعت
الثامن اهـ وقد يجاب بان ذلك جرى على الغالب الوجه الثالث انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل
وهذا يقتضي انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكان ابن عباس يقول انا من اولئك العدد القليل
وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول كانوا سبعة قال الرازي
واسماؤهم يمليخا مكسلمينا مشلينا وهؤلاء الثلاثة كانوا اصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش
ودبرنوش وشاذنوش وكان الملك يستشير هؤلاء الستة ليتصرفوا في مهماته والسابع كشفططيوش
وهو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم وروي عن ابن عباس انه قال هم مكشلمينا ويمليخا ومرطونس
وبينونس وسارينونس ودونواس وكشفيططيونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم افسوس تنبيه
في الاية حذف والتقدير وسيقولون هم ثلاثة كما تقدم تقديره فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه
وقيل الاقوال الثلاثة لاهل الكتاب والقليل منهم اي ولا علم بذلك الا في قليل منهم واكثرهم على الظن
ثم انه تعالى لما ذكر هذه القصة اتبعها بان نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين عن المراء وعن
الاستفتاء اما النهي عن المراء فبقوله تعالى فَلَا تُمَارِ اي تجادل فِيهِمْ اي في شأن الفتية إِلَّا مِرَاءً اي جدالا
ظَاهِرًا اي غير متعمق فيه وهو ان تقص عليهم ما في القران من غير ان تكذبهم في تعيين ذلك العدد
ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن واما النهي عن الاستفتاء فقوله تعالى
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ اي ولا تسأل مِنْهُمْ اي من اهل الكتاب اليهود أَحَدًا عن قصتهم سؤال مسترشد لانه
لما ثبت انه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم وفيما اوحي اليك مندوحة عن
غيره ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤول عنه وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق ولما سأل
اهل مكة عن خبر اهل الكهف فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخبركم به غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي
عنه خمسة عشر يوما وفي رواية اخرى اربعين يوما نزل وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ اي لاجل شيء تعزم عليه
إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ الشيء غَدًا اي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
الا متلبسا بمشيئته بان تقول ان شاء الله والسبب في ذلك ان الانسان اذا قال سأفعل الفعل

الفلاني

الفلاني غدا لم يبعد ان يموت قبل مجيء الغد ولم يبعد ايضا ان بقي حيا ان يعيقه عن ذلك الفعل سائر
العوائق فاذا لم يقل ان شاء الله صار كاذبا في ذلك الوعد والكذب منفر لا يليق بالانبياء عليهم
الصلوة والسلام فلهذا السبب وجب عليه ان يقول ان شاء الله حتى اذا تعذر عليه الوفاء بذلك الوعد
لم يصر كاذبا ولم يحصل التنفير ﴿تنبيه﴾ قال كثير من الفقهاء اذا قال الرجل لامرأته انت طالق ان شاء الله
لم يقع عليه الطلاق لانه لما علق وقوع الطلاق على مشيئته تعالى لم يقع عليه الطلاق الا اذا علمنا حصول
المشيئة ومشيئة الله تعالى غيب لا سبيل لنا الى العلم بحصولها الا اذا علمنا ان متعلق المشيئة وقع وهو
الطلاق وعلى هذا لا يعرف حصول المشيئة الا اذا وقع الطلاق ولا يعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفت
المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور فلهذا لم يقع الطلاق وقيل
المراد الا ان يشاء الله اي الا ان يأذن لك الله تعالى في ذلك القول والمعنى انه ليس لك ان تخبر عن
نفسك بانك تفعل الفعل الفلاني الا ان يأذن لك الله تعالى في ذلك الاخبار وقد احتج القائلون
بان المعدوم شيء بهذه الآية لان الشيء الذي سيفعله غدا معدوم في الحال وجب تسمية المعدوم
بانه شيء وأجيب بان هذا الاستدلال لا يفيد الا ان المعدوم يسمى بكونه شيئا وعندنا ان السبب فيما
سيصير شيئا يجوز تسميته بكونه شيئا في الحال كما قال تعالى اتى امر الله فلا تستعجلوه والمراد سيأتي
امر الله واختلف في معنى قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فقال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه
اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس لو لم يحصل التذكر الا
بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى في دفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة او شهر او اسبوع
او يوم وعن طاوس لا يقدر على الاستثناء الا في مجلسه وعن عطاء يستثني على مقدار حلب ناقة غزيرة
وعند عامة الفقهاء انه لا اثر له في الاحكام ما لم يكن موصولا واحتج ابن عباس بان قوله اذا نسيت غير
مختص بوقت غير معين بل هو متناول لكل الاوقات وظاهره ان الاستثناء لا يجب ان يكون متصلا اما
عامة الفقهاء فقالوا لو جوزنا ذلك للزم ان لا يستقر شيء من العقود والايمان يحكى ان المنصور بلغه ان
ابا حنيفة خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له الامام ابو حنيفة
هذا يرجع عليك لانك تأخذ البيعة بالايمان افترضى ان يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن
المنصور كلامه ورضي عنه واستدل بان الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال
تعالى اوفوا بالعقود وقال تعالى واوفوا بالعهد فاذا اتى بالعقد والعهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل
هذه الآيات خالفنا الدليل فيما اذا كان الاستثناء متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام
الواحد بدليل ان الاستثناء وحده لا يفيد شيئا فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام
كالكلمة الواحدة المفيدة فاذا لم يكن متصلا افاد الكلام التام فوجب الوفاء بذلك الملتزم
وقيل ان قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله قال عكرمة واذكر ربك
اذا غضبت وقال وهب مكتوب في الانجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب

الضحاك والسدى هذا فى الصلوة المنسية قال الرازى وتعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام فى هذه القصة وجعله مستأنفا يصير الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز وفى قوله تعالى وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا وجوه الاوّل ان يكون قوله تعالى الا ان يشاء الله ليس بحسن تركه وذكره اولى من تركه وهو قوله لاقرب من هذا رشدا والمراد منه ذكر هذه الجملة الثانى انه لما وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول وعسى ان يهدين ربى لشئ احسن واكمل مما وعدتكم به الثالث ان قوله عسى ان يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا اشارة الى قصة اصحاب الكهف اى لعل الله يؤتينى من البينات والدلائل على صحة نبوّتى وصدقى فى ادعاء النبوة ما هو اعظم فى الدلالة واقرب رشدا من قصة اصحاب الكهف وقد فعل الله تعالى ذلك حين اتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ما هو اعظم من ذلك ثم شرع تعالى فى اٰية هى اخر الاٰيات المذكورة فى قصة اصحاب الكهف بقوله تعالى وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ اى نياما ثَلَاثَ مِائَةٍ اى مدّة ثلثمائة سِنِينَ قال بعضهم وهذه السنون الثلثمائة عند اهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها تسع سنين وقد ذكرت فى قوله وَازْدَادُوا تِسْعًا اى تسع سنين لان التفاوت بين الشمسية والقمرية فى كل مائة سنة ثلاث سنين لان السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية عشرة ايام واحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة فالثلثمائة سنة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية قال الرازى وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن ان يقال لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب امرهم من الانتباه ثم اتفق ما اوجب بقاءهم فى النوم بعد ذلك تسع سنين وقرأ حمزة والكسائى بغير تنوين فى الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان لثلثمائة لانه لما قال ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة لم يعرف انها ايام او شهور او سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان ذلك عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتاخير اى لبثوا سنين ثلثمائة واما وجه القراءة الاولى فهو ان الواجب فى الاضافة ان يقال ثلثمائة سنة الا انه يجوز وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى بالاخسرين اعمالا وحذف مميز تسع لدلالة ما تقدم عليه اذ لا يقال عندى ثلثمائة درهم وتسعة الا وانت تعنى تسعة دراهم ولو اردت ثيابا او نحوها لم يجز لانه الغاز ثم ان الله تعالى امر نبيه صلى الله عليه وسلم اذا نازعوه فى مدّة لبثهم فى الكهف بقوله تعالى قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا اى فهو اعلم منكم وقد اخبر بمدّة لبثهم وقيل ان اهل الكتاب قالوا ان المدّة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلثمائة سنين وازدادوا تسع سنين فرد الله تعالى عليهم ذلك وقال الله اعلم بما لبثوا يعنى بعد قبض ارواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اى ما غاب فيهما وخفى من احوال اهلهما فالغيب ما يغيب عن ادراكك والله عز ذكره لا يغيب عن ادراكه شئ فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ كلمة تذكر فى التعجب اى ما ابصر الله تعالى بكل موجود وما اسمعه بكل مسموع مَا لَهُمْ اى اهل السموات والارض مِنْ دُونِهِ اى الله مِنْ وَلِيٍّ اى ناصر وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ اى فى

قضائه احدا منهم ولا يجعل له فيه مدخلا لانه غنى بذاته عن كل احد وقيل الحكم هنا علم الغيب اى
لا يشرك فى علم غيبه احدا وقرأ ابن عامر بالمثناة فوق قبل الشين وبسكون الكاف على نهى كل احد عن
الاشراك والباقون بالتحتية وضم الكاف ٭ تنبيه ٭ احتج اصحابنا رحمهم الله تعالى بهذه القصة
على صحة القول بالكرامة للاولياء وقد قدمنا معرفة الولى فى سورة يونس عند قوله تعالى الا ان اولياء
الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فمما يدل على جواز كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول
اما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات الجهة الاولى قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها فى سورة
آل عمران فلا نعيدها الجهة الثانية قصة اصحاب الكهف وبقاؤهم فى النوم سالمين من الآفات
مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وان الله تعالى كان يعصمهم من حر الشمس ومن الناس
من تمسك ايضا فى هذه المسئلة بقوله تعالى قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل
ان يرتد اليك طرفك على انه غير السيد سليمان والسيد جبريل واما الاخبار فكثيرة منها ما اخرج
فى الصحيح عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم
وصبى فى زمن جريج وصبى آخر اما عيسى فقد عرفتموه واما جريج فكان رجلا عابدا فى بنى اسرائيل
وكانت له ام فكان يوما يصلى اذ اشتاقت اليه امه فقالت يا جريج فقال يا رب امى وصلاتى الصلوة
خير ام رؤيتها ثم يصلى فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى تم ثلاث مرات وكان يصلى ويدعها فاشتد
ذلك على امه فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية فى بنى اسرائيل فقالت لهم انا افتن
جريجا حتى يزنى بى فاتته فلم تقدر على شئ وكان هناك راع يأوى بالليل الى صومعته فلما اعياها جريج
راودت الراعى على نفسها فاتاها فولدت ثم قالت ولدى هذا من جريج فاتاه بنو اسرائيل وكسروا
صومعته وشتموه ثم صلى فدعا الغلام قال ابو هريرة كانى انظر الى النبى صلى الله عليه وسلم حين قال بيده
يا غلام من ابوك فقال الراعى فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا ابنى لك صومعتك
من ذهب وفضة فابى عليهم وبناها كما كانت واما الصبى الآخر فان امرأة كان معها صبى لها ترضعه
اذ مر بها شاب جميل ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابنى مثل هذا فقال الصبى اللهم لا تجعلنى مثله
ثم مر بها امرأة ذكروا انها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه فقال الصبى
اللهم اجعلنى مثلها فقالت له امه فى ذلك فقال ان الراكب جبار من الجبابرة فكرهت ان اكون مثله
وان هذه قيل لها زنيت ولم تزن وقيل لها سرقت ولم تسرق وهى تقول حسبى الله فاحببت ان اكون مثلها
ومنها خبر الغار وهو مشهور فى الصحيح عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فاواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت عليهم صخرة من الجبل
فسدت عليهم باب الغار وقد ذكرت ذلك عند قوله تعالى كانوا من آياتنا عجبا ومنها قوله صلى الله عليه وسلم
رب اشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو اقسم على الله لابره ولم يفرق من شئ وشئ فيما يقسم به على الله
تعالى ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل

يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت البقرة وقالت انى لم اخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس
سبحان الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا وابو بكر وعمر ومنها ما روى عن
ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل سمع رعدا وصوتا فى السحاب ان اسق حديقة
فلان قال فغدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان ابن فلان قلت
فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لانى سمعت صوتا فى السحاب
ان اسق حديقة فلان قال اما اذ قلت فانى اجعلها اثلاثا فاجعل لنفسى ولاهلى ثلثا واجعل للمساكين
وابناء السبيل ثلثا وانفق عليها ثلثا واما الآثار فكثيرة ايضا ولنبدأ منها ببعض ما نقل انه ظهر على
يد الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم ببعض ما ظهر على يد بعض الصحابة اما ابو بكر رضى الله تعالى
عنه فمن كراماته انه لما حملت جنازته الى باب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك
يا رسول الله هذا ابو بكر بالباب فاذا الباب قد فتح واذا بهاتف يهتف من القبر ادخلوا الحبيب الى
الحبيب واما عمر رضى الله تعالى عنه فقد ظهرت انواع كثيرة من كراماته النوع الاول ما روى انه
لما بعث جيشا وامّر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينما عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح
فى خطبته وهو على المنبر يا سارية الجبل الجبل قال على بن ابى طالب رضى الله عنه كتبت تاريخ هذه
الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش فقال يا امير المؤمنين غزونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة فهزمونا
فاذا بانسان يصيح يا سارية الجبل فاسندنا ظهورنا الى الجبل فهزم الله تعالى الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة
ببركة ذلك الصوت قال الرازى قلت سمعت بعض المذكورين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم
لانه قال لابى بكر وعمر انتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم
لا جرم قدر على ان يرى من ذلك البعد العظيم النوع الثانى ما روى ان نيل مصر كان فى الجاهلية يقف
فى كل سنة مرة واحدة فكان لا يجرى حتى تلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن
العاص الى عمر فكتب عمر على خرقة ايها النيل ان كنت تجرى بامر الله فاجر وان كنت انما تجرى بامرك
فلا حاجة بنا اليك فالقيت الخرقة فى النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك النوع الثالث لما وقعت الزلزلة
فى المدينة فضرب عمر بالدرة على الارض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة
بعد ذلك الوقت النوع الرابع وقعت النار فى بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يا نار اسكنى باذن الله
فالقوها فى النار فانطفأت فى الحال النوع الخامس ما روى ان رسول ملك الروم جاء الى عمر وطلب داره
فظن ان داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو فى الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب
الى الصحراء راى عمر وضع درته تحت راسه ونام على التراب فتعجب الرسول من ذلك وقال اهل المشرق
والمغرب يخافون هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال فى نفسه ان وجدته خاليا فاقتله واخلص
الناس منه فلما رفع السيف اخرج الله تعالى من الارض اسدين فقصداه فخاف والقى السيف
من يده وانتبه عمر ولم ير شيئا فسأله عن الحال فذكر له الواقعة واسلم قال الرازى واقول هذه

الواقعة رويت بالآحاد وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو انه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه
عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وقلب الممالك والدول ولو نظرت في كتب
التواريخ علمت انه لم يتفق لاحد من اوّل عهد آدم الى الآن ما تيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات
كيف قدر على تلك السياسات ولا شك ان هذا من اعظم الكرامات واما عثمان رضی الله تعالى عنه
فاشياء كثيرة منها ما روى عن انس قال سرت في الطريق فوقعت عيني على امرأة ثم دخلت على عثمان
فقال ما لي اراكم تدخلون عليّ وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت اجاء الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال لا ولكن فراسة صادقة ومنها انه لما طعن بالسيف فاوّل قطرة من دمه سقطت وقعت
على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ومنها انّ جهجاها الغفاري انتزع
العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته فوقعت الاكلة في ركبته واما علي رضي الله تعالى عنه فاشياء
كثيرة ايضا منها ما روى انّ واحدا من محبيه سرق وكان عبدا اسود فاتي به الى علي فقال اسرقت
فقال بلى فقطع يده فانصرف من عند علي فلقيه سلمان الفارسي وابن الكواء فقال ابن الكواء
من قطع يدك فقال له امير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال له سلمان
قطع يدك وتمدحه فقال ولم لا امدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار فسمع سلمان ذلك
فاخبر به عليا فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا
من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برئت واما ما روى عن بعض الصحابة فشيء كثير
ونذكر منها شيئا قليلا ومنها ما روى محمد بن المنكدر عن سفينة قال ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي
كنت فيها فركبت لوحا من الواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها اسد فخرج الاسد اليّ يريدني فقلت
يا ابا الحرث انا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتقدّم الاسد اليّ ودلني على الطريق ثم همهم
فظننت انه يودّعني ورجع ومنها ما روى ثابت عن انس انّ اسيد بن حضير ورجلا آخر من الانصار
تحدّثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده
وكانت الليلة شديدة الظلمة وكان في يد كل واحد منهما عصا فاضاءت عصا احدهما لهما حتى
مشيا في ضوئها فلما افترقت بهما الطريق اضاءت للآخر عصاه فمشى حتى بلغ منزله ومنها ما روى
انه قيل لخالد بن الوليد انّ في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلا
على فرس ومعه خمر فقال ما هذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى اصحابه فقال اتيتكم
بخمر ما شربت العرب مثله فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا بخل فقال والله هذا دعاء خالد
ومنها الواقعة المشهورة وهي انّ خالد بن الوليد اكل كفا من السم على اسم الله وما ضره ومنها ما روى ان ابن عمر
كان في بعض اسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال
انما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو انه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء ومنها ما روى انّ النبي
صلى الله عليه وسلم بعث العلاء الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا

باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن اراد ها طالعها واما الدلائل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه الاول انه صلى الله عليه وسلم قال حاكيا عن رب العزة من اذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فجعل ايذاء الولي قائما مقام ايذائه وتاكد هذا بالخبر المشهور انه تعالى يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني استسقيتك فما سقيتني استطعمتك فما اطعمتني فيقول يا رب كيف افعل هذا وانت رب العالمين فيقول ان عبدي فلانا مرض فلم تعده اما علمت انك لو عدته لوجدت ذلك عندي وكذا في السقي والاطعام فدلت هذه الاخبار على ان اولياء الله يبلغون هذه الدرجات العالية والمراتب الشريفة فاذا جاز اتصال العبد الى هذه الدرجات فاي بعد ان يعطيه الله تعالى كسرة خبز او جرعة ماء او يسخر له كلبا او دودة الوجه الثاني انه صلى الله عليه وسلم قال عن رب العزة ما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت له سمعا وبصرا وقلبا ولسانا ويدا ورجلا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي وهذا الخبر يدل على انه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله تعالى لما قال انا سمعه وانا بصره وهذا المقام اشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء عنقود من العنب او شربة من الماء فلما اوصل برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فاي بعد في ان يعطيه رغيفا واحدا او شربة من الماء في مفازة الوجه الثالث لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل ان الله تعالى ليس اهلا لان يفعل مثل هذا الفعل او لاجل ان المؤمن ليس اهلا لان يعطيه الله هذه العطية والاول قدح في قدرة الله تعالى وهو كفر والثاني باطل فان معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكره وتقديسه وتمجيده وتهليله اشرف من اعطاء رغيف واحد في مفازة وتسخير حية او اسد فان اعطاء المحبة والذكر والشكر من غير سؤال اولى من ان يعطيه شربة ماء في مفازة فاي بعد فيه واحتج المنكر للكرامات بوجوه الاول ان ظهور الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلا على النبوة فلو حصل لغير النبي لبطلت هذه الدلالة الوجه الثاني ان الله تعالى قال وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بان الولي ينتقل من بلد الى بلد بعيد لا على هذا الوجه طعن في هذه الآية وايضا ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا في ايام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل ان يقال ان الولي ينتقل من بلد نفسه الى الحج في اليوم الواحد الوجه الثالث ان هذا الولي الذي يظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما واحدا فهل يطالب بالبينة ام لا فان طالبناه بها كان عبثا لان ظهور الكرامة عليه يدل على انه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظني وان لم يطالب بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعي فهذا يدل على ان القول بالكرامة باطل والجواب عن الاول بان الناس اختلفوا هل يجوز للولي دعوى الولاية فقال قوم من المحققين انه لا يجوز فعلى هذا الفرق بين المعجزة والكرامة ان المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة

بدعوى الولاية وعلى القول بالجواز الفرق بينهما ان النبي يدعي المعجزة ويقطع بها والولي اذا ادّعى
الكرامة لا يقطع بها لانّ المعجز يجب ظهوره والكرامة لا يجب ظهورها واجيب عن الثاني بانّ
قوله تعالى وتحمل اثقالكم الى آخره محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء احوال نادرة فتصير
كالمستثنيات من ذلك العموم المتعارف واجيب عن الثالث بان التمسك بالامور النادرة لا يعول
عليه في الشرع فلا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدّعي ومع هذا فصاحب الكرامة
يجب عليه ان يكون خائفا وجلا ولهذا قال المحققون اكثر ما حصل الانقطاع عن حضرة الله انما وقع
في مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من اشدّ انواع البلاء
والذي يدل على انّ الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه الاوّل انّ الكرامات اشياء مغايرة
للحق سبحانه وتعالى فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف
يليق به الفرح والسرور الوجه الثاني انّ من اعتقد في نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب
عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه ومن كان لعمله وقع عظيم في قلبه كان جاهلا اذ لو عرف ربه
لعلم انّ كل طاعات الخلق في جنب جلاله تقصير وكل شكر في جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم
وعلومهم فهي في مقابلة عزته حيرة وجهل وجدت في بعض الكتب انه قرئ في مجلس الاستاذ
ابي علي الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة ان
الحق رفع عملك ان لا يبقى عندك منه شيء فان بقي عملك في نظرك فهو مدفوع وان
لم يبق عملك في نظرك فهو مرفوع مقبول الوجه الثالث ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة
لاظهار الذل والتضرع في حضرة الله تعالى فاذا ترفع وتكبر وتجبر بسبب الكرامات فقد بطل ما به
وصل الى الكرامات فهذا طريق يؤدي ثبوته الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر صلى الله عليه وسلم
مناقب نفسه وفضائلها كان يقول في آخر كل واحد منها ولا فخر اي لا افتخر بهذه الكرامات وانما
افتخر بالمكرم والمعطي الوجه الرابع انه تعالى وصف عباده المخلصين بقوله تعالى ويدعوننا رغبا اي
في ثوابنا ورهبا اي من عذابنا وقيل رغبا في وصالنا ورهبا من عتابنا قال بعض المحققين والاحسن
ان يقال رغبا فينا ورهبا عنا وفي هذا القدر كفاية لاولي الالباب جعلنا الله تعالى واحبابنا من
اهل ولاية محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة اصحاب
الكهف من حيث انها من المغيبات بالاضافة الى النبي صلى الله عليه وسلم على انه وحي معجز امره ان يداوم
درسه ويلزم اصحابه بقوله تعالى وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ اي القرآن واتبع ما فيه
واعمل بما فيه لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ اي لا احد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره وقال بعضهم مقتضى
هذا انّ لا يتطرق النسخ اليه واجاب بانّ النسخ في الحقيقة ليس بتبديل لانّ المنسوخ ثابت في وقته
الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وهذا لا يحتاج اليه مع التفسير
المذكور وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ اي الله مُلْتَحَدًا اي ملجأ في البيان والارشاد وقيل ان لم تتبع

القرآن ونزل في عيينة بن حصن الفزاري لما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة
من الفقراء فيهم سلمان الفارسي وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه فقال له
اما يؤذيك ريح هؤلاء نحن سادات مضر واشرافها فان اسلمنا اسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك
الا هؤلاء اي كما قال قوم نوح انؤمن لك واتبعك الارذلون فنحهم حتى نتبعك او اجعل لنا مجلسا واجعل
لهم مجلسا واصبر نفسك اي احبسها وثبتها مع الذين يدعون ربهم ونظير هذه الآية قد سبق
في سورة الانعام وهو قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه
ففي تلك الآية نهى الرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفي هذه الآية امره بمجالستهم والمصابرة
معهم وفي قوله تعالى بالغداة والعشي وجوه الاول انهم مواظبون على هذا العمل في كل الاوقات
كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشي الا شتم الناس الثاني المراد صلوة الفجر والعصر الثالث
ان المراد بالغداة هو الوقت الذي ينتقل فيه الانسان من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه
بالانتقال من الموت الى الحياة والعشي هو الوقت الذي ينتقل الانسان فيه من الحياة الى الموت
ومن اليقظة الى النوم والانسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله تعالى عظيم الشكر لآلاء
الله ونعمائه وقرأ ابن عامر بضم الغين المعجمة وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة والباقون
بفتح الغين والدال والف بعدها والرسم في المصحف بالواو هنا وفي سورة الانعام يريدون بعبادتهم
وجهه تعالى اي رضاه وطاعته لا شيئا من اعراض الدنيا ولا تعد اي تنصرف عيناك عنهم الى غيرهم
وعبر بالعينين عن صاحبهما فنهى صلى الله عليه وسلم ان يصرف بصره ونفسه عنهم لاجل
رغبته في مجالسة الاغنياء لعلهم يؤمنون وقوله تعالى تريد زينة الحيوة الدنيا في موضع
الحال اي انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك في زينة الحيوة الدنيا ولما بالغ تعالى
في امره في مجالسة الفقراء من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات الى اقوال الاغنياء والمتكبرين بقوله
تعالى ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا اي جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا اي عيينة بن حصن وقيل
امية بن خلف واتبع هويه اي في طلب الشهوات وكان امره فرطا اي اسرافا وباطلا وهذا يدل
على ان اشر احوال الانسان ان يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوا من الهوى الداعي الى الاشتغال
بالخلق لان ذكر الله تعالى نور وذكر غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق
تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله تعالى وما سواه فهو ممكن الوجود لذاته والامكان
طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب اذا اشرق فيه ذكر الله تعالى فقد حصل فيه النور
والضوء والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا
السبب اذا اعرض القلب عن الحق واقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة والاعراض عن الحق
هو المراد بقوله تعالى اغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله تعالى واتبع هواه
روى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه قال كنت جالسا في عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم

ليستتر ببعض من العرى وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال
ما الذى كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان واحد يقرأ من القرآن ونحن نسمع فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل من امتى من امرت ان اصبر نفسى معهم ثم جلس وسطنا وقال
ابشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الاغنياء بمقدار خمسمائة
سنة ٭ ولما امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بان لا يلتفت الى اولئك الاغنياء الذين
قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال تعالى بعده وَقُلِ الْحَقُّ اى وقل لهؤلاء ولغيرهم هذا الذى
جئتكم به فى امر اهل الكهف وغيرهم من هذا الوحى العربى المعرى عن العوج الظاهر الاعجاز الباهر
الحجج الحق كائنا مِنْ رَبِّكُمْ المحسن اليكم فى امر اهل الكهف وغيرهم من صبر نفسى مع المؤمنين والاعراض
عمن سواهم وغير ذلك لا ما قلتموه فى امرهم ويجوز ان يكون الحق مبتدأ وخبره الجار بعده
فَمَنْ شَاءَ اى منكم ومن غيركم فَلْيُؤْمِنْ بهذا الذى قصصناه فيهم وفى غيرهم فهو مقبول مرغوب فيه
وان كان فقيرا رث الهيئة لم ينفع الا نفسه وَمَنْ شَاءَ منكم ومن غيركم فَلْيَكْفُرْ فهو اهل لان يعرض
عنه ولا يلتفت اليه وان كان اغنى الناس واحسنهم هيئة وان تعاظمت هيئته وهذا لا يقتضى
استقلال العبد بفعله كما تقول المعتزلة فعن ابن عباس فى معنى الاية من شاء الله له الايمان
امن ومن شاء له الكفر كفر ونقل عن على رضى الله عنه انه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد اى
فهى كقوله تعالى اعملوا ما شئتم فان الله تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل
نفع الايمان يعود على المؤمن وضرر الكفر يعود على الكافر كما قال تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم
وان اسأتم فلها ٭ ولما هدد السامعين بما حاصله ليختار كل امرئ لنفسه ما يجده غدا عند الله اتبعه
بذلك الوعيد والافعال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والاعمال الصالحة اما الوعيد فقوله تعالى
إِنَّا اَعْتَدْنَا اى هيأنا بما لنا من العظمة والقدرة لِلظَّالِمِينَ اى لمن انف عن قبول الحق لاجل
ان الذين قبلوه فقراء ومساكين وكذا كل من لم يؤمن نَارًا وهى الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار بصفتين
الاولى قوله تعالى اَحَاطَ بِهِمْ كلهم سُرَادِقُهَا اى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل هو الحجرة
التى تكون حول الفسطاط وقيل حائط من نار والمراد انه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى
ما وراءها من غير النار بل هى محيطة من كل الجوانب وقيل هو دخان يغشاهم قبل دخولهم النار يحيط بهم
كالسرادق حول الفسطاط الصفة الثانية قوله تعالى وَاِنْ يَسْتَغِيْثُوا اى يطلبوا الغوث يُغَاثُوا بِمَاءٍ ووصف
هذا الماء بصفتين الاولى قوله تعالى كَالْمُهْلِ وهو كما فى حديث مرفوع كدردى الزيت وعن ابن مسعود
انه دخل بيت المال واخرج نفاعة كانت فيه واوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو
المهل وقال ابو عبيدة والاخفش كل شئ اذبته من نحاس او ذهب او فضة فهو المهل وقيل انه
الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل ان تكون هذه الاستغاثة لانهم طلبوا ماء
للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل ان يستغيثوا

من حر جهنم فيطلبوا ما يصبونه على انفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم
افيضوا علينا من الماء وقال تعالى في اية اخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار فاذا
استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذي يعم كل ابدانهم كالقميص والصفة الثانية للماء قوله
يشوي الوجوه اي اذا قرب الى الفم للشرب فكيف بالفم والجوف ثم وصل تعالى بذلك ذمه فقال تعالى
بئس الشراب اي ذلك الماء الذي هو كالمهل لان المقصود من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ
في احراق الانسان مبلغا عظيما ثم عطف عليه ذم النار المعدة لهم بقوله تعالى وساءت اي النار وقوله
تعالى مرتفقا تمييز منقول من الفاعل اي قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الآتي في الجنة وحسنت
مرتفقا والا فاي ارتفاق في النار ولما ذكر تعالى وعيد المبطلين اردفه بوعد المحقين فقال تعالى
ان الذين امنوا ولما كان الايمان هو الاذعان للاوامر عطف عليه ما يحقق ذلك بقوله تعالى
وعملوا الصالحات ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى انا لا نضيع اي بوجه من الوجوه اجر من احسن عملا وهذه
الجملة خبر ان الذين وفيها اقامة الظاهر مقام المضمر والمعنى اجرهم اي نثيبهم بما تضمنه اولئك
لهم جنات عدن اي اقامة فكانه قيل ما لهم فيها فقيل تجري من تحتهم اي من تحت منازلهم
الانهار وذلك لان افضل المساكن ما كان تجري فيه الانهار او الماء فكانه قيل ثم ماذا فقيل
يحلون فيها وبني الفعل للمجهول لان المقصود وجود التحلية وهي لعزتها انما يؤتى بها من الغيب
فضلا من الله تعالى ولما كانت نعم الله لا تحصى نوع منها قال تعالى مبعضا من اساور جمع اسورة
كاسوة جمع سوار كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة في بعض الاقاليم كاهل فارس وقيل
الاساورة ومن في قوله تعالى من ذهب للبيان صفة لاساور وتنكيرها لتعظيم حسنها عن الاحاطة
به وقيل للتبعيض ولما كان اللباس جزاء العمل فكان موجودا عندهم اسند الفعل اليهم
فقال ويلبسون ثيابا خضرا لان الخضرة احسن الالوان واكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى
من سندس وهو ما رق من الديباج واستبرق وهو ما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على ان فيها
ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين وفي اية اخرى بطائنها من استبرق فيكون الغليظ بطانة للرقيق
ثم استأنف الوصف عن حال جلوسهم فيها بانه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى
متكئين فيها اي لانهم في غاية الراحة على الارائك جمع اريكة وهي السرير في الحجلة وهي بيت يزين
بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى نعم الثواب اي الجزاء الجنة ولو لم يكن لها
وصف غير ما سمعتم فكيف ولها من الاوصاف ما لا يعلمه حق علمه الا الله تعالى والى ذلك اشار
بقوله تعالى وحسنت اي الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى مرتفقا اي مقرا ومرتفقا
ومجلسا ولما افتخر الكفار باموالهم وانصارهم على فقراء المسلمين بين الله تعالى ان ذلك مما
لا يوجب الافتخار لاحتمال ان يصير الفقير غنيا والغني فقيرا واما الذي يجب الافتخار به
فطاعة الله تعالى وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور

قوله تعالى واضرب لهم اي لهؤلاء الاغنياء المتجبرين الذين يستكبرون على المؤمنين ويطلبون
طردهم لضعفهم وفقرهم مثلاً لما آتاهم الله من زينة الحيوة الدنيا واعتمدوا عليه وركنوا اليه
ولم يشكروا من آتاهم اياه عليه بل اداهم الى الافتخار والتكبر على من زوي ذلك عنه اكراماً له وصيانة
عنه تجافياً عن الى آخر الآية واختلف في سبب نزولها فقيل نزلت في رجلين من اهل مكة من بني مخزوم احدهما
مؤمن وهو ابو سلمة وكان زوج ام سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر كافر وهو الاسود بن
عبد ياليل وهما ابنا عبد الاسد بن عبد ياليل وقيل مثال لعيينة بن حصن واصحابه مع سلمان
واصحابه شبههما برجلين من بني اسرائيل اخوين احدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول
ابن عباس وقال مقاتل تمليخا والآخر كافر واسمه فطروس وقال وهب قطفر وهما اللذان
وصفهما الله تعالى في سورة والصافات وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن
معمر عن عطاء الخراساني قال كانا رجلين شريكين لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا اخوين ورثا من ابيهما
ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى احدهما ارضاً بالف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلاناً قد اشترى
ارضاً بالف دينار واني مشتر منك ارضاً في الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى داراً بالف
دينار فقال صاحبه اللهم ان فلاناً بنى داراً بالف دينار واني اشتريت منك داراً في الجنة بالف دينار
فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فانفق عليها الف دينار فقال هذا اللهم اني اخطب اليك من نساء
الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدماً ومتاعاً بالف دينار فقال هذا اللهم اني
اشتري منك خدماً ومتاعاً من الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم اصابته حاجة شديدة فقال لو اتيت
صاحبي لعله ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في حشمه فقام اليه فنظر اليه الآخر فعرفه
فقال له فلان قال نعم قال ما شانك قال اصابتني حاجة بعدك فاتيت لتعينني بخير قال فما فعل
مالك وقد اقتسمنا مالاً واخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب
فلا اعطيك شيئاً فطرده وروي انه لما اتاه اخذ بيده فجعل يطوف به ويريه اموال نفسه فنزل
فيهما واضرب لهم مثلاً رجلين اي اذكر لهم خبر رجلين جعلنا لاحدهما جنتين اي بستانين
يسر ما فيهما من الاشجار من يدخلهما من اعناب لانها من اشجار البلاد الباردة وتصبر على
البرد هي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ثم انه تعالى وصف الجنتين بصفات الصفة
الاولى قوله تعالى وحففناهما اي اطفناهما من جوانبهما بنخل لانها من اشجار البلاد الحارة وتصبر على
الحر وبما منعت عن الاعناب بعض اسباب العاهات وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر
والخل فكان النخل كالاكليل من وراء العنب + تنبيه + الحفاف الجانب وجمعه احفة يقال احف به
القوم اي اطافوا بجوانبه الصفة الثانية قوله تعالى وجعلنا بينهما اي ارض الجنتين زرعاً ليعد
سهولة الآفة للكل لان زمان الزرع ومكانه غير زمان ثمار الشجر ومكانه وذلك هو السعة في
القوت فكانت الجنتان ارضاً جامعة لخير الفاكهة وافضل الاقوات وعمارتهما متواصلة

متشابكة لم يتوسطها ما يقطعهما ويفصل بينهما مع سعة الأطراف وتباعد الأكتاف وحسن الهيئات والأوصاف الصفة الثالثة قوله تعالى كِلْتَا أي كل واحدة من الجَنَّتَيْنِ المذكورتين آتَتْ أُكُلَهَا أي ما يطلب منها ويؤكل من ثمر وحب كاملا غير منسوب شيء منهما إلى نقص ولا رداءة وهو معنى وَلَمْ تَظْلِمْ أي ولم تنقص مِنْهُ شَيْئًا يعهد في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالبا والظلم النقصان يقول الرجل ظلمني حقي أي نقصني * تنبيه * كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد معرفة يؤكد به مؤنثان معرفتان وإنما إذا أضيفا إلى المظهر كانا بالألف في الأحوال الثلاثة كقولك جاءني كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءني كلتا أختيك ورأيت كلتا أختيك ومررت بكلتا أختيك وإذا أضيفا إلى المضمر كانا في الرفع بالألف وفي الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالألف في الأحوال الثلاثة أيضا فقوله تعالى آتت أكلها حمل على اللفظ لأن كلتا لفظ مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز الصفة الرابعة قوله تعالى وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا أي وسطهما وبينهما ومنه قوله تعالى ولأوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم أي دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما ويستغنيا عن المطر عند القحط ويزيد بهاؤهما الصفة الخامسة قوله تعالى وَكَانَ لَهُ أي صاحب الجنتين ثَمَرٌ أي أنواع من المال سوى الجنتين قال ابن عباس من ذهب وفضة وغير ذلك من أثمر ماله إذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة أي كان مع الجنتين أشياء من الأموال ليكون متمكنا من العمارة بالأعوان والآلات وجميع ما يريد وقرأ أبو عمرو ثمر هنا وثمره الآتي بسكون الميم فيهما بعد ضم الثاء المثلثة وقرأ عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما والباقون بضم المثلثة والميم فيهما ذكر أهل اللغة أن الضم أنواع المال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب وكان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وأنشد للحرث بن حلزة ولقد رأيت معاشرا * قد أثمروا مالا وولدا * وقال النابغة * مهلا فداء لك الأقوام كلهم * وما أثمر من مال ومن ولد * فَقَالَ أي هذا الكافر لِصَاحِبِهِ أي المسلم المجعول مثلا للفقراء المؤمنين وَهُوَ أي صاحب الجنتين يُحَاوِرُهُ أي يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع افتخارا عليه وتقبيحا لحاله بالنسبة إليه والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون إلى الدنيا أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا لما ترى من جناتي وثماري وقرأ نافع بمد الألف بعد النون والباقون بالقصر هذا في الوصل وأما في الوقف فبالألف للجميع وسكن قالون وأبو عمرو والكسائي هاء وهو وضمها الباقون ودقق ورش راء يحاوره وَأَعَزُّ نَفَرًا أي ناسا يقومون معي في المهمات وينفرون عند الضرورات لأن ذلك لازم لكثرة المال غالبا وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه وَدَخَلَ جَنَّتَهُ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها وأفرد الجنة لإرادة الجنس ودلالة ما أفاده الكلام من أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة وإشارة

اى انه لاجنة له غيرها لانه لاحظ له فى الآخرة وهو اى والحال انه ظالم لنفسه لاعتماده على ماله والاعراض عن ربه ثم استأنف بيان ظلمه بقوله تعالى قال ما اظن ان تبيد اى تنعدم هذه اى الجنة ابدا لطول امله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ثم زاد فى الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فانكر البعث بقوله وما اظن الساعة قائمة اى كائنة استلذاذا بما هو فيه واخلادا اليه واعتمادا عليه وقوله ولئن رددت الى ربى المحسن الىّ فى هذه الدار فى الساعة اقسام منه على انه ان رد الى ربه على سبيل الفرض والتقدير وعلى ما يزعم صاحبه ان الساعة قائمة لاجدن خيرا منها اى من هذه الجنة منقلبا اى مرجعا لانه لم يعطنى الجنة فى الدنيا الا ليعطينى فى الآخرة افضل منها قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده وانه ما اولاه الجنتين الا لاستحقاقه واستئهاله وان معه هذا الاستحقاق اينما توجه كقوله ان لى عنده للحسنى لاوتين مالا وولدا قال له صاحبه اى المؤمن وهو اى والحال ان ذلك الصاحب يحاوره اى يراجعه منكرا عليه اكفرت بالذى خلقك من تراب اى خلق اصلك آدم من تراب لان خلق اصله سبب فى خلقه فكان خلقه خلقا له ثم من نطفة متولدة من اغذية اصلها تراب هى مادتك القريبة ثم سوّاك اى عدلك بعد ان اوجدك وطورك فى اطوار النشأة رجلا اى كملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفرا بالله تعالى لان منشأه الشك فى كمال قدرة الله تعالى ولذلك رتب الانكار على خلقه اياه من التراب فان من قدر على بدء خلقه مرة قدر على ان يعيده منه ولما انكر على صاحبه اخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه فقال مؤكدا لاجل انكار صاحبه مستدركا لاجل كفرانه لكنا اصله لكن انا نقلت حركة الهمزة الى النون وحذفت الهمزة ثم ادغمت النون فى مثلها كما قال القائل * وترمينى بالطرف اى انت مذنب * وتقلينى لكنّ اياك لا اقلى * اى لكن انا لا اقليك * ولما كان سبحانه وتعالى لاشئ اظهر منه ولاشئ ابطن منه اشار الى ذلك جميعا باضماره قبل الذكر فقال هو اى الظاهر اتم ظهور فلا يخفى اصلا ويجوز ان يكون الضمير للذى خلقك الله اى المحيط بصفات الكمال ربى وحده لم يحسن الىّ خلقا ورزقا احد غيره وهذا اعتقادى فى الماضى والحال وقرأ ابن عامر باثبات الالف بعد النون وقفا ووصلا لاتباع المرسوم والباقون باثبات الالف بعد النون وقفا وحذفها وصلا فان قيل قوله لكنا استدراك لماذا اجيب بانه لقوله اكفرت فكأنه قال لاخيه اكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر وذكر القفال فى قول المؤمن ولا اشرك بربى اى المحسن الىّ فى عبادتى احدا وجوها احدها انى لا ارى الفقر والغنى الا منه فاحمده اذا اعطى واصبر اذا ابتلى ولا اتكبر عند ما ينعم علىّ ولا ارى كثرة الاموال والاعوان من نفسى وذلك لان الكافر لما اعتز بكثرة المال والجاه فكأنه قد اثبت لله شريكا فى اعطاء العز والغنى وثانيها لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم فبين هذا

المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء وقال الشهاب ان هذا الكافر لما عجز الله تعالى عن البعث والحشر
فقد جعله مساويا للخلق في هذا العجز واذا اثبت المساواة فقد اثبت الشريك ثم قال المؤمن
للكافر وَلَوْلَا إِذْ اى وهلا حين دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ عند اعجابك بها ما يدل على تفويضك الامر فيها
وفي غيرها الى الله تعالى وهو مَا شَاءَ اللَّهُ اى الامر ما شاء الله او ما شاء الله كائن على ان ما موصولة
اى واى شئ شاء الله كان على انها شرطية والجواب محذوف اى اقرارا بانها وما فيها بمشيئة الله
تعالى ان شاء ابقاها وان شاء اهلكها وقرأ ابن ذكوان وحمزة بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف
حمزة وهشام على شاء ابدل الهمزة الفا مع المد والتوسط والقصر واظهر الذال عند الدال نافع وابن كثير
وعاصم والباقون بالادغام وهلا قلت لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ اعترافا بالعجز على نفسك والقدرة لله وان
ما تيسر لك من عمارتها وتدبير امرها فبمعونة الله تعالى واقداره ولا يقوى احد في بدنه ولا في
غير ذلك الا بالله وفي الحديث من اعطى خيرا من اهل او مال فيقول عند ذلك ما شاء الله
لا قوة الا بالله لم ير فيه مكروها ثم ان المؤمن لما اعلم الكافر بالايمان اجابه عن افتخاره بالمال والنفر
فقال إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا اى من جهة المال والولد ويحتمل ان يكون انا فصلا وان
يكون تاكيدا للمفعول الاول وقرأ قالون وابو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا وابن كثير
باثباتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقوله تعالى فَعَسَى رَبِّي اى المحسن الي أَنْ يُؤْتِيَنِي
من خزائن رزقه خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ اما في الدنيا واما في الآخرة لايماني جواب الشرط وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا
اى جنتك حُسْبَانًا جمع حسبانة اى صواعق مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ بعد كونها قرة للعين بما فيها
من الاشجار والزروع صَعِيدًا زَلَقًا اى ارضا ملساء باستئصال نباتها واشجارها فلا يبقى فيها
نبات ولا يثبت عليها قدم وقوله أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا اى غائرا في الارض لا تناله الايدي والدلاء مصدر
وصف به كالزلق فَلَنْ تَسْتَطِيعَ انت لَهُ اى للماء الغائر طَلَبًا بحيث لا تقدر على رده الى موضعه
ثم انه اخبر الله تعالى انه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال وَأُحِيطَ اى وقعت الاحاطة بالهلاك
وبني للمفعول لان النكد حاصل باحاطة الهلاك من غير نظر الى فاعل مخصوص والدلالة على سهولته
بِثَمَرِهِ اى الرجل المشرك كله واستؤصل هلاكا ما في السهل منه وما في الجبل وما يصبرونه على البرد
والحر ومالا يصبر قال بعض المفسرين ان الله تعالى ارسل عليها نارا فاهلكتها وغار ماؤها فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ
كَفَّيْهِ تندما ويضرب احداهما على الاخرى تحسرا فتقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم
يقلب كفيه ظهرا لبطن كما يكني عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد لانه في معنى الندم
فعدى تعديته كانه قيل فاصبح يندم عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا اى في عمارتها ونماها وَهِيَ خَاوِيَةٌ اى ساقطة
عَلَى عُرُوشِهَا اى دعائمها التي كانت عمدا لها فسقطت على الارض وسقطت فوقها الكروم وقوله تعالى
وَيَقُولُ عطف على يقلب او حال من ضميره يَا للتنبيه لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا فانه لم يدر ذهاب
عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير اشراك بالاعتماد على الفاني لم اشرك بربي

احدًا كما قال له صاحبه فندم حيث لا ينفعه الندم على ما فرّط فى الماضى لاجل ما فاته على الدين
لا حرصا على الايمان لحصول الفوز فى العقبى لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدة
فان قيل ان هذا الكلام يوهم ان جنته انما هلكت بشؤم شركه وليس مرادا لان انواع البلاء اكثرها
انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم
سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم
الاولياء ثم الامثل فالامثل وايضا لما قال يا ليتنى لم اشرك بربى احدا فقد ندم على الشرك ورغب
فى التوحيد فوجب ان يصير مؤمنا فلم قال تعالى بعده وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ اى جماعة من نفره الذين
افتخر بهم ولا من غيرهم يَنْصُرُونَهُ مما وقع فيه مِنْ دُونِ اللّٰهِ عند هلاكها وَمَا كَانَ هو مُنْتَصِرًا
بنفسه بل ليس الامر فى ذلك الا لله وحده اجيب عن الاول بانه لما عظمت حسراته لاجل انه
انفق عمره فى تحصيل الدنيا وكان معرضا فى عمره كله عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية
بقى محروما من الدنيا والدين وعن الثانى بانه انما ندم على الشرك لاعتقاده انه لو كان موحدا غير
مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب فى ذلك لاجل طلب الدنيا فلذلك لم يقبل الله
توحيده وقرأ حمزة والكسائى يكن بالتحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التانيث ولما انتج
هذا المثل قطعا انه لا امر لغير الله تعالى المرجو لنصر اوليائه بعد ذلهم ولاغنائهم بعد فقرهم ولاذلال
اعدائهم بعد عزهم وكبرهم وافقارهم بعد اغنائهم وحده وان غيره انما هو كالخيال لا حقيقة له صرح
بذلك فى قوله تعالى هُنَالِكَ اى فى مثل هذه الشدائد العظيمة الْوَلَايَةُ لِلّٰهِ اى الذى له الكمال كله وقرأ حمزة
والكسائى بكسر الواو اى الملك والباقون بفتحها اى النصرة وقوله تعالى الْحَقِّ قرأه ابو عمرو والكسائى
برفع القاف على الاستئناف والقطع تبجيلا وتنبيها على ان فزعهم فى مثل هذه الازمان اليه تعالى دون
غيره برهان قاطع على انه الحق وما سواه باطل وان الفخر بالعرض الزائل من اجهل الجهل وان المؤمنين
لا يصيبهم فقر ولا يسوغ طردهم لاجله وانه يوشك ان يعود فقرهم غنى وضعفهم قوة وقرأه الباقون
بخفضها على الوصف اى الثابت الذى لا يحول يوما ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه
هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا من ثواب غيره لو كان يثيب وَخَيْرٌ عُقْبًا اى عاقبة للمؤمنين وقرأ عاصم وحمزة بسكون ٨ ع
القاف والباقون بضمها ونصب على التمييز ولما تم المثل لدنياهم الخاصة بهم التى افتخروا بها فكانت
سبب الشقاء وهم يحسبون انها عين اسعادهم ضرب للدار الدنيا العامة لجميع الناس فى قلة ثباتها
وسرعة فنائها وان من تكبر كان اخس منها فقال وَاضْرِبْ اى صيّر لَهُمْ اى لهؤلاء الكفار المفتخرين
بالعرض الفانى المفتخرين بكثرة الاموال والاولاد وعزة النفر وقوله تعالى مَثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا مفعول
اول ثم ذكر المثل بقوله تعالى كَمَاءٍ هو المفعول الثانى اَنْزَلْنَاهُ بعظمتنا وقدرتنا
وقال تعالى مِنَ السَّمَاءِ تنبيها على بليغ القدرة فى امساكه فى العلو وانزاله فى وقت الحاجة
فَاخْتَلَطَ اى فتعقب وتسبب عن انزاله انه اختلط بِهٖ نَبَاتُ الْاَرْضِ اى التف بسببه حتى

خالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وقيل
اختلط ذلك الماء بالنبات حتى روى واهتز ونما وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط نبات
الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته ثم اذا انقطع ذلك
بالمطر مدة جف ذلك النبات فَأَصْبَحَ هَشِيمًا اي يابسا متفرقة اجزاؤه تَذْرُوهُ اي تطيره وتفرقه
الرِّيَاحُ فتذهب به والمعنى انه تعالى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح حتى يصير عن
قليل كأنه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرأ حمزة والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع وَكَانَ اللَّهُ اي
المتصف بصفات الكمال عَلَى كُلِّ شَيْءٍ من دون ذلك وغيره انشاء وافناء واعادة مُّقْتَدِرًا ازلا وابدا
بتكوينه اولا وتنميته وسطا وابطاله اخرا فاحوال الدنيا ايضا كذلك تظهر اولا في غاية الحسن والنضارة
ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تاخذ في الانحطاط الى ان ينتهي الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشيء ليس للعاقل
ان يبتهج به. تنبيه. قوله تعالى فاصبح يجوز ان يكون على بابه فان اكثر ما يطرق من الافات صباحا
كقوله تعالى فاصبح يقلب كفيه ويجوز ان يكون بمعنى صار من غير تقييد بصباح كقول القائل شعر
اصبحت لا احمل السلاح ولا. املك راس البعير ان نفرا. ولما بين سبحانه وتعالى ان الدنيا سريعة
الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين بقوله تعالى الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ
الدُّنْيَا ان حال هذا الجزئي تحت هذا الكلي فيحصل به قياس بين الانتاج وهو ان المال والبنون
زينة الحيوة الدنيا وكلما كانت زينة الحيوة الدنيا سريعة الانقضاء والانقراض ينتج انتاجا بينا
ان المال والبنون سريع الانقضاء والانقراض وما كان كذلك فانه يقبح بالعاقل ان يفتخر به
او يفرح بسببه او يقيم له في نظره وزنا وهذا برهان ظاهر باهر على فساد قول اولئك المشركين الذين
افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال. ثم ذكر تعالى ما يدل على رجحان اولئك الفقراء على اولئك
الكفار من الاغنياء فقال وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ اي من الزينة الفانية لان خيرات الدنيا
منقرضة منقضية وخيرات الاخرة دائمة باقية والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا
معلوم بالضرورة لاسيما وقد ثبت ان خيرات الدنيا حقيرة خسيسة وان خيرات الاخرة رفيعة
شريفة والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات اقوالا احدها انها سبحان الله والحمد لله
ولا اله الا الله والله اكبر وزاد بعضهم ولا حول ولا قوة الا بالله وللغزالي في تفسير هذه الزيادة
وجه لطيف فقال روي ان من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فاذا قال
الحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله اكبر صارت
اربعين وتحقيق القول فيه ان مراتب الثواب اعظمها هو الاستغراق في معرفة الله تعالى
وفي محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزها عن كل ما لا يليق به وكل ما لا ينبغي
فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك الحمد لله فقد اقر بان الحق
سبحانه وتعالى مع كونه منزها عن كل ما لا ينبغي فهو المبدئ لكل ما ينبغي والافاضة كل خير وكمال

فقد تضاعفت درجات المعرفة فلا جرم قلنا بمضاعفة الثواب فاذا قال مع ذلك لا اله الا الله فقد اقر بان الذى تنزه عن كل ما لا ينبغي وهو المبدئ لكل ما ينبغي ليس في الوجود موجود مثله الا هو الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال العبد والله اكبر فمعناه اكبر وانه اعظم من ان يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة اربعة فلا جرم صارت درجات الثواب اربعة وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان اقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر احب الى مما طلعت عليه الشمس وعن ابي سعيد الخدري انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هي يا رسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ثانيها انها الصلوة الخمس ثالثها انها الطيب من القول رابعها وهو اعمها واولاها انها اعمال الخيرات التي تبقى ثمرتها ابد الآباد فيندرج في ذلك الصلوة واعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعاك لمحبة الله تعالى ومعرفته وخدمته واما ما دعاك من قول او عمل الى الاشتغال باحوال الخلق فهو خارج عن ذلك لان كل ما سوى الحق فهو فان لذاته فكان الاشتغال به والانفاق عليه باطلا وسعيا ضائعا وانما الحق لذاته فهو الباقي الذي لا يقبل الزوال لا جرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته وخدمته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ولما كان اهم ما الى من حصل البقاء ليس لكفايته بل لمن يحفظها له لوقت حاجته قال تعالى ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ اى الجليل المواهب العالم بالعواقب ﴿خَيْرٌ﴾ من المال والبنين في العاجل والآجل ﴿ثَوَابًا وَخَيْرٌ﴾ من ذلك كله ﴿أَمَلًا﴾ اى من جهة ما يرجوه فيها من الثواب ويرجوه فيها من الامل لان ثوابها الى بقاء املها كل ساعة في تحقق وعلو وارتقاء وامل المال والبنين بان اعوج ما يكون اليهما وعن قتادة كل ما اريد به وجه الله تعالى خير ثوابا اى مما يتعلق بها من الثواب ومما يتعلق بها من الامل لان صاحبها يامل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة ولما بين سبحانه وتعالى خساسة الدنيا وشرف الآخرة اردفه باحوال يوم القيامة وذكر منها انواعا النوع الاول قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ﴾ اى واذكر لهم يوم ﴿نُسَيِّرُ﴾ باسيرا ... الجبال عن وجه الارض بعواصف القدرة كما نسير نبات الارض بعد ان صار هشيما بالرياح كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب + تنبيه + ليس في لفظ الآية ما يدل الى اين تسير قال الرازي ويحتمل ان يقال ان الله يسيرها الى الموضع الذي يريده ولم يبين ذلك لخلقه والحق ان المراد ان الله تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بضم التاء الفوقية وفتح الياء التحتية بعد السين على فعل ما لم يسم فاعله ورفع الجبال باسناد تسيرا اليها كما في قوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون بالنون المضمومة وكسر الياء التحتية بعد السين باسناد فعل التسيير اليه تعالى نفسه ونصب الجبال لكونه مفعول نسير والمعنى نقلعها بقدرتنا

اعتبارا بقوله تعالى وحشرناهم والمعنى واحد لانها اذا سيرت ففي تسييرها اسناد الى الله تعالى والنوع
الثاني قوله تعالى وترى الارض بكمالها بارزة لانه لم يبق فيها ما يحجب لا جبل ولا نبت ولا شجر ولا ظل
فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا امتا وقيل
انها ابرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فهي بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر
الجوف كما قال تعالى والقت ما فيها وتخلت وقال تعالى واخرجت الارض اثقالها النوع الثالث قوله
تعالى وحشرناهم اي الخلائق بعد اقامتهم الى الموقف الذي تنكشف فيه المخبآت وتظهر الاسرار والغيبات
ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير والناقد فيه بصير فلم نغادر اي نترك منهم اي الاولين والآخرين
احدا لانه لا هول ولا عجز ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم
فان قيل لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى اجيب بان ذلك للدلالة على ان حشرهم قبل
التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال العظائم كانه قيل وحشرناهم قبل ذلك ولما ذكر تعالى حشرهم
وكان من المعلوم انه للعرض ذكر كيفية ذلك العرض فقال بانيا الفعل للمفعول على طريقة كلام القادرين
ولان المخوف العرض لا لكونه من معين وعرضوا على ربك المحسن اليك برفع اوليائك وخفض
اعدائك وقوله تعالى صفا حال اي مصطفين واختلف في تفسيره على وجوه الاول ان تعرض
الخلق كلهم صفا واحدا لا على الارض ظاهرين لا يحجب بعضهم بعضا ثانيها لا يبعد ان يكونوا صفا
يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي يكون بعضها خلف بعض وعلى هذا
فالمراد بقوله تعالى صفا صفوفا كقوله تعالى يخرجكم طفلا اي اطفالا ثالثها المراد بالصف القيام كما في قوله
تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف اي قياما وقيل ان الله يقول لهم لقد جئتمونا كما خلقناكم
اول مرة اي حفاة عراة غرلا وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لانهم خلقوا صغارا ولا
عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مر ويقال لمنكري البعث بل زعمتم اي انا لن نجعل لكم موعدا
اي مكانا ووقتا نجمعكم فيه هذا الجمع فننجز لكم ما وعدناكم به على السنة رسلنا فانتم من المتفاخرين
على المؤمنين بالاموال والانصار ومنكرين البعث والقيامة فالآن قد تركتم الاموال والانصار في الدنيا
وشاهدتم ان القيامة والبعث حق وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله
عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا اول خلق نعيده
وعدا علينا انا كنا فاعلين الا وان اول خلق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام الا وانه
سيجاء برجال من امتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فاقول يا رب اصحابي فيقول انك لا تدري
ما احدثوا بعدك فاقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز
الحكيم قال فيقال لي انهم لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم وفي رواية فاقول سحقا
سحقا وقوله غرلا اي قلفا الغرلة القلفة التي تقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا
اي بعدا قال بعض العلماء المراد بهؤلاء الذين ارتدوا من العرب بعده صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله تعالى

عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت الرجال
والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال الامر اشد من ان يهمهم ذلك زاد النسائی فی رواية
لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه وعن ابی هريرة رضی الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم يحشر الناس على ثلاث طوائف راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير واربعة
على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح
معهم حيث اصبحوا وتمسی معهم حيث امسوا وَوُضِعَ بعد العرض المستعقب للجمع بادنی اشارة
الْكِتَابُ المضبوط فيه دقائق الاعمال وجلائلها على وجه بين لا يخفى على قارئ ولا غيره شئ منه فيوضع
كتاب كل انسان فی يده اما فی اليمين واما فی الشمال والمراد الجنس وهو صحف الاعمال فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ ای خائفين خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة من الخلق مِمَّا فِيهِ من قبائح
اعمالهم وسيئ افعالهم واقوالهم وَيَقُولُونَ عند معاينتهم ما فيه من السيئات وقولهم يا للتنبيه
وَيْلَتَنَا ای هلكتنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه كناية عن انه لا نديم لهم اذ ذاك الا الهلاك
مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ ای ای شئ له حال كونه على غير حال الكتب فی الدنيا لَا يُغَادِرُ ای لا يترك
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن
جبير الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة والكبيرة الزنا إِلَّا أَحْصَاهَا ای عدها واثبتها فی هذا
الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقوله تعالى
انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . تنبيه . ادخال التاء فی الصغيرة والكبيرة على تقدير الفعلة او الخصلة
الصغيرة والكبيرة قال بعض العلماء اجتنبوا من الصغائر قبل الكبائر لان الصغائر هی التی تجرهم
الى الكبائر واحترزوا من الصغائر حذرا من ان تقعوا فی الكبائر وعن سهل بن سعد قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن
واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فطبخوا خبزهم وان محقرات الذنوب موبقات وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا
ای مثبتا فی كتابهم وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ ای الذی رباك بخلق القرآن أَحَدًا منهم ولا من غيرهم فی كتاب
ولا عقاب ولا ثواب بل يجازی الاعداء بما يستحقونه تعذيبا لهم ويجازی اولياءه الذين عادوهم
بما يستحقون تنعيما لهم روی الامام احمد فی المسند عن جابر بن عبد الله انه سافر الى عبد الله
بن انيس مسيرة شهر يستاذن فاستاذن عليه قال فخرج يطأ ثوبه فاعتنقنی واعتنقته قلت حديث
بلغنی عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فی القصاص فخشيت ان تموت قبل
ان اسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله عز وجل الناس او قال العباد حفاة
عراة بهما قلت وما بهما قال ليس معهم شئ ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب انا الملك
انا الديان لا ينبغی لاحد من اهل النار ان يدخل النار وله عند احد من اهل الجنة حق ولا ينبغی لاحد من
اهل الجنة ان يدخل الجنة ولاحد من اهل النار عليه حق حتى اقتصه منه حتى اللطمة قال قلنا كيف وانا

تأتي حفاة عراة بهما قال بالحسنات والسيئات وروى الرازي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه قال يحاسب الله الناس في القيامة على ملة يوسف وايوب وسليمان فيدعو المملوك فيقال
ما شغلك عني فيقول جعلتني عبدا لآدمي فلم يفرغني فيدعو يوسف فيقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك
ان عبدني فيؤمر به الى النار ثم يدعو المبتلى فاذا قال شغلتني بالبلاء دعا ايوب فيقول قد ابتليت هذا
باشد من بلائك فلم يمنعه ذلك من عبادتي ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله تعالى من الغنى
والسعة فيقول ما عملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى سليمان فيقول هذا
عبدي آتيته اكثر مما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لن تزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن اربع
عن جسده فيم ابلاه وعن عمره فيم افناه وعن ماله من اين اكتسبه وفيم انفقه وعن علمه كيف عمل به ولما
كان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا باموالهم واعوانهم على فقراء
المسلمين وهذه الآية المذكورة في قوله تعالى وَاِذْ اي واذكر اذ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ الذين هم اطوع شيء
لاوامرنا المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر باصله
ونسبه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين وانا اشرف منه في الاصل والنسب فكيف اسجد له
وكيف اتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف
نجالس هؤلاء الفقراء مع انا ناس من انساب شريفة وهم من انساب نازلة ونحن اغنياء وهم
فقراء ذكر الله تعالى هذه القصة تنبيها على ان هذه الطريقة هي نفسها طريقة ابليس حين امره الله
تعالى في جملة الملائكة بقوله تعالى اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ سجود انحناء بل وضع جبهة تحية له فَسَجَدُوْٓا
اِلَّآ اِبْلِيْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ قيل هم نوع من الملائكة فالاستثناء متصل وقيل هو منقطع وابليس ابو الجن
فله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لا ذرية لهم وكررت هذه القصة لهذا المقصود المذكور قال البيضاوي
وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن اي انما يكرر لمناسبة ذلك المحل الذي يذكر فيه فَفَسَقَ اي خرج بتركه
السجود عَنْ اَمْرِ رَبِّهٖ اي سيده ومالكه المحسن اليه والفاء للسببية وفيه دليل على ان الملك لا يعصي
البتة وانما عصى ابليس لانه كان جنيا في اصله والكلام المستقصى فيه تقدم في سورة البقرة ثم
انه تعالى حذر من اتباعه بقوله تعالى اَفَتَتَّخِذُوْنَهٗ الخطاب لآدم وذريته والهاء هنا وفيما سيأتي
لابليس والهمزة للانكار والتعجب اي بفسق باستحقاركم فطرده لاجلكم فيكون ذلك سببا لان
تتخذوه وَذُرِّيَّتَهٗ شركاء لي اَوْلِيَآءَ لكم مِنْ دُوْنِيْ تطيعونهم بدل طاعتي وقوله تعالى
وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ اي اعداء حال ولما كان هذا الفعل ابعد شيء بالذم وصل به قوله تعالى
بِئْسَ لِلظّٰلِمِيْنَ بَدَلًا من الله ابليس وذريته وكان الاصل لكم ولكنه ابرز الضمير ليعلق الفعل
بالوصف لافادة التعميم روى مجاهد عن الشعبي قال اني لقاعد يوما اذ اقبل جمال فقال
اخبرني هل لابليس زوجة قلت ان ذلك لعرس ما شهدته ثم ذكرت قوله تعالى افتتخذونه

وذريته اولياء من دوني فعلت ان لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم وقال قتادة يتوالدون
كما يتوالد بنو آدم وقيل انه يدخل ذنبه في دبره فيبيض البيضة فتنفلق عن جماعة من الشياطين
قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلوة والهفاف ومرة وبه يكنى
وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والايمان الكاذبة ومدح السلع وثبر وهو صاحب المصائب
يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ في احليل الرجل وعجز
المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها في افواه الناس لا يجدون لها اصلا وداسم
وهو الذي اذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله دخل معه واذا اكل ولم يسم الله اكل معه قال
الاعمش ربما دخلت البيت ولم اذكر الله ولم اسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم اذكر فاقول
داسم داسم وعن عثمان بن ابي العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين
صلاتي وقراءتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له
خنزب فاذا احسسته فتعوذ بالله واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه
الله عني وعن ابي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان
فاتقوا وسواس الماء وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه
على الماء ثم يبعث سراياه فادناهم منه منزلة اعظمهم فتنة يجيء احدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول
ما صنعت شيئا قال ثم يجيء احدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه
ويقول نعم انت قال الاعمش اراه قال فيلتزمه واختلفوا في عود الضمير في قوله تعالى ما اشهدتهم
على وجوه احدها وهو الذي ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما اشهدت الذين اتخذتموهم اولياء
خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم اي ولا اشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى اقتلوا
انفسكم اي ما اعتضدت بابليس وذريته خلق السموات والارض واعتضدت بعضهم في خلق بعض ليدل على
نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله تعالى وما كنت متخذ المضلين اي الذين يضلون الناس
وضع الظاهر موضع المضمر ذما لهم بالاضلال وما لهم عضدا اي اعوانا ثانيها قال الرازي وهو الاقرب
عندي ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد عن مجلسك هؤلاء الفقراء
من عندك فلا نؤمن بك فكأنه تعالى قال ان هؤلاء الذين اتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل
ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل اني ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم
ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم اقدموا على الاقتراح الفاسد قال
والذي يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورات والاقرب في هذه الآية هم اولئك
الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين اولئك الكفار ثالثها ان يكون المراد
من قوله ما اشهدتهم الى آخره هو ان هؤلاء الكفار جاهلون بما جرى به القلم في الازل من احوال
السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته والشقي من حكم الله بشقاوته

في الازل وانتم غافلون عن احوال الازل فانه تعالى قال ما اشهدتهم الى اخره واذا جهلتم هذه الحالة
فكيف يمكنكم ان تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل ربما صار الامر في الدنيا
والاخرة على العكس مما حكمتم به ولما قرر تعالى ان القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتداء فيه
بابليس عاد بعده الى التهويل باحوال القيامة فقال ويوم التقدير واذكر لهم يا محمد يوم عطفا على
قوله واذ قلنا للملائكة يقول اى الله يوم القيامة لهؤلاء الكفار تهكما بهم وقرا حمزة بالنون
والباقون بالياء نادوا شركائي اى ما عبد من دوني وقيل ابليس وذريته ثم بين تعالى ان الاضافة
ليست على حقيقتها بل توبيخ لهم فقال تعالى الذين زعمتم انهم شركائي او شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي
فدعوهم تماديا في الجهل والضلال فلم يستجيبوا لهم اى فلم يغيثوهم استهانة بهم واشتغالا بانفسهم
فضلا عن ان يغيثوهم وجعلنا بينهم اى المشركين والشركاء موبقا اى واديا من اودية جهنم
يهلكون فيه جميعا وهو من وبق بالفتح هلك نقل ابن كثير عن عبد الله بن عمرو انه قال هو واد عميق
فرق به يوم القيامة بين اهل الهدى واهل الضلال وقال الحسن البصري عداوة اى تؤول بهم
الى الهلاك والتلف كقول عمر رضي الله تعالى عنه لا يكون حبك كلفا ولا بغضك تلفا اى لا يكن حبك
يجر الى الكلف ولا بغضك يجر الى التلف وقيل الموبق البرزخ البعيد اى وجعلنا بين هؤلاء الكفار
وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه الساري لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في اعلى
الجنان ولما قرر سبحانه وتعالى ما لهم مع شركائهم ذكر حالهم في استمرار جهلهم فقال تعالى ورأى
المجرمون اى العريقون في الاجرام النار من مكان بعيد فظنوا ادلنا انهم مواقعوها اى مخالطوها
في تلك الساعة من غير تاخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال تعالى
اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فان مخالطة الشيء لغيره اذا كانت قوية تامة
يقال لها مواقعة ولم اى والحال انهم لم يجدوا عنها مصرفا اى مكانا ينصرفون اليه لان الملائكة
تسوقهم اليها والموضع موضع التحقق ولكن ظنهم جريا على عادتهم في الجهل كما قالوا اتخذ الله ولدا بغير علم
وما اظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين مع قيام
الادلة التي لا شك فيها وقيل الظن هنا بمعنى العلم واليقين ولما افتخر هؤلاء الكفار على فقراء المسلمين
بكثرة اموالهم واتباعهم وبين الله تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبههم باطلة وقرر فيه التمثيل
المتقدمين ثم قال بعده ولقد صرفنا واظهر نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم الدال وادغمها الباقون
في هذا القران اى القيم الذي لا عوج فيه مع جمعه للمعاني للناس اى المزلزلين والثابتين وقوله من كل
مثل صفة لمحذوف اى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا او انا حول الكلام وصرفناه في كل وجه
من وجوه المعاني والبيان من العبارات الرائقة والاساليب المتناسقة ما صار بها في غرابته كالمثل يقبله
كل من سمعه وتضرب به اباط الابل في سائر البلاد وتتلقاه العباد فتلين به قلوبهم وتلهج به السنتهم
فلم يصلحوا ولم يتركوا المجادلة الباطلة كما قال تعالى وكان الانسان اكثر شيء يتأتى منه الجدال

وميزه الاكثرية بقوله تعالى جدلا اى خصومة قال بعض المحققين والاية دالة على ان الانبياء عليهم
الصلوة والسلام جادلوهم فى الدين لان المجادلة لا تحصل الا من الطرفين ولهذا قيل اراد بالانسان
الكافر وقيل الاية على العموم قال ابن الخازن وهذا الاصح وكذا قال البغوى نص على ذلك ما روى عن على رضى الله تعالى عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله تعالى
عنها ليلة فقال الا تصليان فقلت يا رسول الله انفسنا بيد الله فاذا شاء ان يبعثنا بعثنا فانصرف
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيئا ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه
وهو يقول وكان الانسان اكثر شىء جدلا وقال ابن عباس اراد النضر بن الحرث وجداله فى القران
وقال الكلبى اراد به ابى بن خلف الجمحى ولما بين سبحانه وتعالى اعراضهم بين موجبه عندهم فقال تعالى
وَمَا مَنَعَ النَّاسَ اى الذين جادلوا بالباطل الايمان هكذا كان الاصل ولكنه عبر عن هذا المفعول الثانى بقوله
اَنْ يُؤْمِنُوا ليفيد التجديد وذمهم على الترك اِذْ اى حين جَآءَهُمُ الْهُدٰى اى القران على لسان رسوله
صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثانى معبرا بمثل ما مضى لما مضى قوله تعالى وَيَسْتَغْفِرُوْا
رَبَّهُمْ اى لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة ولما كان الاستثناء مفرغا اتى
بالفاعل فقال اِلَّآ اى طلب اَنْ تَاْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْاَوَّلِيْنَ اى سنتنا فيهم وهى الاهلاك المقدر عليهم
اَوْ طلب ان يَاْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا اى مقابلة وعيانا وهو القتل يوم بدر وقيل عذاب الاخرة وقرأ
الكوفيون بضم القاف والباء الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح الباء الموحدة ولما كان ذلك
ليس الى الرسول وانما هو الى الله تعالى نبه بقوله تعالى وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِيْنَ اِلَّا مُبَشِّرِيْنَ بالثواب
على افعال الطاعة وَمُنْذِرِيْنَ بالعقاب على افعال المعصية فيطلب منهم الظالمون منا
ما ليس اليهم وَيُجَادِلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اى يجددون الجدال كلما اتاهم امر من قبلنا بِالْبَاطِلِ من قولهم
ما انتم الا بشر مثلنا ولو كنتم صادقين لاتيتم بما يطلب منكم مع ان ذلك ليس كذلك اذ ليس
لاحد غير الله من الامر شىء لِيُدْحِضُوْا بِهِ اى ليبطلوا بجدالهم الْحَقَّ اى القران والمعجزات المثبتة لصدقهم
وَاتَّخَذُوْا اٰيٰتِىْ اى القران وَمَآ اُنْذِرُوْا اى وانذارهم والذى انذروا به من العقاب هُزُوًا اى استهزاء
وقرأ حفص بالواو وقفا ووصلا وحمزة بالواو وقفا لا وصلا وسكون الزاى حمزة وضمها الباقون
وفى الوقف ايضا النقل ولما حكى الله تعالى عن الكفار احوالهم القبيحة وصفهم بما يوجب الخزى
بقوله تعالى وَمَنْ اَظْلَمُ اى لا احد اظلم وهو استفهام على سبيل التقرير مِمَّنْ ذُكِّرَ بِاٰيٰتِ رَبِّهٖ اى المحسن اليه
من التعرض عنها تاركا لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما يوجب ذلك الاحسان
بقوله تعالى وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدٰهُ من الكفر والمعاصى فلم يتفكر فى عاقبتها ثم علل تعالى ذلك الاعراض
واحد اَكِنَّةً ... راجعا الى الصلة واتخذ والايات لانه انص على ذم حكل
من المضير ... الحق
... عليها استعارة بدليل سياق العظمة على انه لا يبيع شيئا
... مصونا باتباعه ... تذكير الضمير وافراده على ان المراد بالايات

القرآن فقال اَنْ اى كراهة ان يَّفْقَهُوْهُ اى يفهموه وَفِىْٓ اٰذَانِهِمْ وَقْرًا اى ثقلا فهم لا يسمعونه
حق السمع ولا يعون حق الوعى وَاِنْ تَدْعُهُمْ اى تكرر دعاءهم كل وقت اِلَى الْهُدٰى لتنجيهم بما عندك
من الحرص والجد على ذلك فَلَنْ يَّهْتَدُوْٓا اى بسبب دعائك اِذًا اى اذا دعوتهم اَبَدًا لان الله تعالى حكم
عليهم بالضلال فلا يقع منهم ايمان ثم قال تعالى وَرَبُّكَ مشيرا بهذا الاسم الى ما اقتضاه حال الوصف
من الاحسان الْغَفُوْرُ اى البليغ المغفرة الذى يستر الذنوب اما بمحوها واما بالحلم عنها الى وقت آخر
ذُو الرَّحْمَةِ اى الموصوف بالرحمة الذى يعامل وهو قادر مع موجبات الغضب معاملة الراحم بالاكرام
ثم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ اى هؤلاء الذين عادوك وهو عالم انهم
لا يؤمنون او يعاملهم معاملة المؤاخذة بِمَا كَسَبُوْا من الذنوب لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ اى فى الدنيا
بَلْ لَّهُمْ مَّوْعِدٌ وهو اما يوم القيامة واما فى الدنيا وهو يوم بدر وسائر ايام الفتح لَنْ يَّجِدُوْا مِنْ دُوْنِهٖ
اى الموعد مَوْئِلًا اى ملجأ ينجيهم منه فاذا جاء موعدهم اهلكناهم فيه باول ظلمهم وآخره
وقوله تعالى وَتِلْكَ مبتدأ وقوله تعالى الْقُرٰٓى اى الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط
واشكالهم صفته لان اسماء الاشارة توصف باسماء الاجناس والخبر اَهْلَكْنٰهُمْ والمعنى وتلك
اصحاب القرى اهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوْا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا اى وقتا معلوما لا يستاخرون عنه
ساعة ولا يستقدمون وقرأ شعبة بفتح الميم واللام اى لهلاكهم وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام
والباقون بضم الميم وفتح اللام اى لاهلاكهم ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى واذ قلنا للملائكة
وَاِذْ اى واذكر لهم حين قَالَ مُوْسٰى لِفَتٰىهُ يوشع ابن نون بن افرايم بن يوسف عليهم الصلوة والسلام
وانما قال فتاه لانه كان يخدمه ويتبعه وقيل كان ياخذ منه العلم وقيل فتاه عبده وفى الحديث
ليقل احدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وامتى ❊ تنبيه ❊ اكثر العلماء على ان موسى المذكور فى هذه
الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التورية وعن كعب الاحبار انه موسى
بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وهو قد كان نبيا قبل موسى بن عمران قال البغوى والاول اصح واحتج
له القفال بان الله تعالى لم يذكر فى كتابه موسى الا اراد به صاحب التورية فاطلاق هذا الاسم
يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب
الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور فى العرف عن ابى حنيفة هذا الرجل المعين فلو ذكرنا
هذا الاسم واردنا به رجلا سواه لقيدناه مثل ان نقول قال ابو حنيفة الدينورى وعن سعيد
بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالى يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى
اسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله ونوف البكالى هو نوف بن فضالة الحميرى
البكالى ويقال انه دمشقى وكانت امه زوجة كعب الاحبار نقله ابن كثير وحجة من
قالوا موسى هذا غير صاحب التورية انه يقال بعد ان انزل عليه التورية وكلمه الله تعالى بلا واسطة وخصه
بالمعجزات الباهرة العظيمة التى لم يتفق مثلها لاكابر الانبياء عليهم

والاستفادة واجيب بانه لا يبعد ان يكون العالم الكامل في كثرة العلوم يجهل بعض العلوم فيحتاج في تعلمها الى من هو دونه وهو امر متعارف روى البخاري حديثا ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل اي الناس اعلم قال انا فعتب الله تعالى عليه اذلم يرد العلم اليه فاوحى الله تعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو اعلم منك قال يا رب فكيف لي به قال تاخذ حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فاخذ حوتا فجعله في مكتل ثم قال لَآ أَبْرَحُ اي لا ازال اسير في طلب العبد الذي علمني ربي بفضله حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ اي ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلي الشرق قاله قتادة اي المكان الجامع لذلك فالقاه هناك أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا اي دهرا طويلا في بلوغه ان لم اظفر به بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعدا لي في لقائه والحقب قال في القاموس ثمانون سنة او اكثر والدهر والسنة والسنون انتهى فسارا وتزودا حوتا مشويا في مكتل كما امر به فكانا ياكلان منه الى ان بلغا المجمع كما قال تعالى فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا اي بين البحرين قال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرني وناما واضطرب الحوت في المكتل وخرج وسقط في البحر فلما استيقظا نَسِيَا حُوتَهُمَا اي نسي يوشع حمله عند الرحيل ونسي موسى عليه السلام تذكيره وقيل الناسي يوشع فقط وهو على حذف مضاف اي نسي احدهما كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فَٱتَّخَذَ الحوت سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ اي جعله بجعل الله سَرَبًا اي مثل السرب وهو الشق الطويل لانفاذله وذلك ان الله تعالى امسك عن الحوت جري الماء فانجاب عنه فبقي كالكوة لم يلتئم وجمد ما تحته وقد ورد في حديثه في الصحيح ان الله تعالى احياه وامسك عن موضع جريه في الماء فصار طاقا لا يلتئم وكان المجمع كان مما افطن عليه السلام ان المطلوب امامه او ظن ان المراد بمجمع البحرين اخر فسارا فَلَمَّا جَاوَزَا ذلك المكان بالسير بقية يومهما وليلتهما واستمرا الى وقت الغداء من ثاني يوم قَالَ موسى عليه السلام لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا اي احضر لنا غَدَآءَنَا وهو ما يؤكل اول النهار لنتقوى به على ما حصل لنا من الاعياء ولذلك وصل به قوله لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا اي تعبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي امره الله به فقوله هذا اشارة الى السفر الذي وقع بعد مجاوزتهما الموعد او مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا قَالَ له فتاه أَرَءَيْتَ اي ما دهاني وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه اخر وهو ابدالها حرف مد واسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ التي بمجمع البحرين فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ اي نسيت ان اذكر لك امره ثم علل عدم ذكره بقوله وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ بوسواسه وقرأ حفص بضم الهاء وامال الالف الكسائي محضة وورش بين بين وبالفتح والباقون بالفتح وقوله أَنْ أَذْكُرَهُۥ لك في محل نصب على البدل من هاء انسانيه بدل اشتمال اي انساني ذكره وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ اي طريقه الذي ذهب فيه فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا وهو كونه كالسرب معجزة لموسى او الخضر وذكره له الآن مانع من ان يكون للشيطان عليه سلطان على ان هذا النسيان ليس مفوتا لطاعة بل فيه ترقية لهما في معراج المقامات العالية ...

المكان الذى فيه البغية وحفظ الماء منجابا على طول الزمان وغير ذلك من الآيات الظاهرة
وله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه مبين ان السلطان الحمل على المعاصى وقوله وما انسانيه
الا الشيطان ان اذكره اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقد كان فى هذه القصة خوارق
منها حيوة الحوت ومنها الحياة دما كان اكل منه ومنها امساك الماء عن مدخله وقد اتفق لنبينا
صلى الله عليه وسلم نفسه ولاتباعه ببركته مثل ذلك اما اعادة ما اكل من الحوت المشوى وهو جنبه
فقد روى البيهقى فى اواخر دلائل النبوة عن اسامة بن زيد رضى الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم
اتى بشاة مشوية فقال لبعض اصحابه ناولنى ذراعها وكان احب الشاة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
مقدمها ثم قال ناولنى ذراعها فناوله ثم قال ناولنى ذراعها فقال يا رسول الله انما هما ذراعان وقد
ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو سكت ما زلت تناولنى ذراعا ما قلت
لك ناولنى ذراعا فقد اخبر صلى الله عليه وسلم انه لو سكت اوجد الله تعالى ذراعا ثم ذراعا وهكذا
واما حيوة الحوت المشوى ففى قصة الشاة المشوية المسمومة ان ذراعها اخبر النبى صلى الله عليه وسلم
انه مسموم فهذا اعظم من عود الحيوة من غير نطق وكذا حنين الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصى
ونحو ذلك اعظم من عود الحيوة الى ما كان حيا وروى البيهقى فى الدلائل عن عمرو بن سواد قال
قال الشافعى ما اعطى الله تعالى نبيا ما اعطى محمدا صلى الله عليه وسلم قلت اعطى عيسى عليه السلام
احياء الموتى فقال اعطى محمد صلى الله عليه وسلم احياء الجذع الذى كان يخطب الى جنبه حين هيئ
له المنبر وحن الجذع حتى سمع صوته فهذا اكبر من ذلك انتهى وقد وردت اشياء كثيرة من احياء الموتى
له صلى الله عليه وسلم ولبعض امته وروى عن انس رضى الله تعالى عنه انه قال كنا فى الصفة
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتته امرأة ومعها ابن لها فاضاف المرأة الى النساء واضاف
ابنها الينا فلم يلبث ان اصابه وباء المدينة فمرض اياما ثم قبض فغمضه النبى صلى الله عليه وسلم
وامر بجهازه فلما اردنا ان نغسله قال ائت امه فاعلمها فجاءت حتى جلست عند قدميه فاخذت بهما ثم
قالت اللهم انى اسلمت لك تطوعا وخلعت الاوثان زهدا وهاجرت اليك رغبة اللهم لا تشمت بى عبدة الاوثان
ولا تحملنى من هذه المصيبة ما لا طاقة لى بحملها قال فوالله ما انقضى كلامها حتى حرك قدميه والقى الثوب
عن وجهه وعاش حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت امه واما الماء فرجعها الى صلاحيته
ولا فرق بين جموده بعد جريه والتئامه بعد الانخراق وبين تجسده ومساواته بالامتناع من الانخراق وقد جهز
عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه جيشا واستعمل عليه العلاء بن الحضرمى فحصل لهم عطش شديد وجهدهم
العطش قال بعض الجيش فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مد يديه وما نرى فى السماء
شيئا فوالله ما حط يده حتى بعث الله تعالى ريحا وانشأ سحابا فافرغت حتى ملأت الغدر والشعاب
فشربنا وسقينا واستقينا ثم اتينا عدونا وقد جاوزوا خليجا فى البحر الى جزيرة فوقف على الخليج وقال يا على يا عظيم
يا حليم يا كريم ثم قال اجيزوا بسم الله فاجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا فاصبنا العدو عليه فقتلنا واسرنا

وسبينا ثم اتينا الخليج فقال مثل مقالته فاجزنا ومابل الماء حوافره وابنا والاخبار في ذلك كثيرة
ولما قال فتاه ذلك كأنه قيل فما قال موسى عليه السلام حينئذ قال له ذلك اي الامر العظيم
من فقد الحوت ما كنا نبغ اي نريد من هذا الامر المغيب عنا فان الله تعالى جعله موعدا في لقاء الخضر
وقرأ نافع وابو عمرو والكسائي باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون
بالحذف فارتدا على آثارهما اي فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه يقصانها قصصا اي يتبعان اثرهما
اتباعا ومقتصين حتى يأتيا الصخرة قال البقاعي يدل على ان الارض كانت رملا لا علم فيها فالظاهر
والله اعلم انه مجمع النيل والملح عند دمياط او رشيد من بلاد مصر ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي
ركب في سفينته المعدية كما في الحديث فان الطير لا يشرب من الملح ومن المشهور في بلاد رشيد ان
الامر كان عندهم وان عندهم سمكا ذاهب الشق يقولون انه من تلك السمكة والله اعلم انتهى وتقدم
عن قتادة انه ملتقى بحر فارس والروم وقال محمد بن كعب طنجة وقال ابي بن كعب افريقية وقيل البحران
موسى والخضر لانهما كانا بحري علم قال ابن عادل وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين
فان صح في الخبر الصحيح شيء فذاك والا فالاولى السكوت عنه انتهى ثم استمرا يقصان حتى انتهيا الى موضع
فقد الحوت فوجدا عبدا من عبادنا مضافا الى حضرة عظمتنا قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح
الذي جاء في التواريخ وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته
ابو العباس قيل كان من بني اسرائيل وقيل من ابناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب
سمي بذلك لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز تحته خضراء والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة
وقيل سمي خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله روي ان موسى عليه السلام رأى الخضر مسجى ثوبا فسلم
عليه فقال الخضر واني بارضك السلام قال انا موسى اتيتك تعلمني مما علمت رشدا وفي رواية لقيه
مسجى بثوب مستلقيا على قفاه ببعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه وفي رواية لقيه
وهو يصلي ويروى لقيه وهو على طنفسة خضراء على كبد البحر وروي ان موسى عليه السلام لما وصل
اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال موسى ما عرفك هذا فقال الذي
بعثك الي وكان الخضر في ايام افريدون وكان على مقدمة ذي القرنين الاكبر وبقي الى ايام موسى
وقيل ان موسى سال ربه اي عبادك احب اليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فاي عبادك
اقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى فقال فاي عبادك اعلم قال الذي يبتغي علم الناس الى علمه
عسى ان يصيب كلمة تدله على هدى او ترده عن ردى فقال ان كان في عبادك افضل مني فادللني
عليه قال اعلم منك الخضر قال اين اطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال كيف لي به قال تاخذ
حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك آتيناه بعظمتنا رحمة من عندنا اي وحيا ونبوة وكونه
نبيا هو قول الجمهور وقيل انه ليس بنبي قال البغوي عند اكثر اهل العلم اي فعندهم
انه ولي وعلمناه من لدنا اي مما لم يجر على قوانين العادات على انه ليس بمستغرب عند اهل

الاصطفاء علماً قذفناه في قلبه بغير واسطة واهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة العلم
اللدني فاذا سعى العبد في الرياضات بتزيين الظاهر بالعبادات وتخلي النفس عن العلائق وعن
الاخلاق الرذيلة بتحليتها بالاخلاق الجميلة صارت القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت
قويت القوى العقلية واشرقت الانوار الالهية في جوهر العقل وحصلت المعارف وكملت العلوم من
غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية ثم اورد سبحانه وتعالى
القصة على طريق الاستئناف على تقدير سؤال سائل عن كل كلام يرشد اليه ما قبله وذلك انه
من المعلوم ان الطالب للشخص اذا لقيه كلمه لكن لا يعرف عين ذلك الكلام فقال ان كانه سال عن ذلك
قَالَ لَهُ مُوسَى طالباً منه على سبيل التأدب والتلطف باظهار ذلك في قالب الاستئذان هَلْ أَتَّبِعُكَ اي اتباعاً
بليغاً حيث توجهت والاتباع الاتيان بمثل فعل الغير لمجرد كونه آتياً به وبين انه لا يطلب منه غير العلم بقوله
عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ اثبت الياء نافع وابو عمرو وصلاً لا وقفاً وابن كثير وصلاً ووقفاً والباقون بالحذف وزاد في
التلطف بالاشارة الى انه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان بل جزأ منه يسترشد به الى باقيه فقال
مِمَّا عُلِّمْتَ وبناه للمفعول لعلم المتخاطبين لكونهما من الخلصاء بان الفاعل هو الله تعالى وللاشارة
الى سهولة كل امر على الله تعالى رُشْدًا اي علماً يرشدني الى الصواب فيما اقصده وقرأ ابو عمرو بفتح الراء والشين
والباقون بضم الراء وسكون الشين ولما تم موسى عليه السلام العبارة عن السؤال قَالَ لَهُ الخضر
عليه السلام إِنَّكَ يا موسى لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا اي تمنع استطاعة الصبر معه على وجوه من
التأكيد كانها لا تصح ولا تستقيم وفتح الياء من معي حفص والباقون بالاسكان والاشارة هنا حفص وسكنها الباقون
ثم علل عدم الصبر معه واعتذر عنه بقوله وَكَيْفَ تَصْبِرُ يا موسى عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا اي وكيف تصبر على
امور ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا سيما الانبياء لا يتمالك ان يشمئز في ذلك بل يبادر بالشيء
في الانكار وخبرا مصدر لمعنى لم تحط به اي لم تخبر حقيقته قَالَ لَهُ موسى عليه السلام اتباعاً لما ينبغي في التواضع
لمن هو اعلم منه ارشاداً لما ينبغي في طلب العلم رجاء لتسهيل الله تعالى له ما امر به سَتَجِدُنِي فاكد الوعد بالسين
ثم اخبر تعالى انه قوى تاكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الامر على الوجه الذي تقدم اليه في
عليه في هذه السورة في قوله تعالى وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ليعلم انه
منهاج الانبياء فقال إِنْ شَاءَ اللَّهُ اي الذي له جميع الكمال صَابِرًا على ما يجوز الصبر عليه ثم زاد
التأكيد بقوله عاطفاً بالواو على صابراً البيان التمكن في كل من الوصفين وَلَا أَعْصِي اي وغير عاص
لَكَ أَمْرًا تامرني به غير مخالف لظاهر امر الله تعالى. تنبيه. دلت هذه الآية الكريمة
على ان موسى عليه السلام راعى انواعاً كثيرة من الادب واللطف عندما اراد ان يتعلم من
الخضر منها انه جعل نفسه تبعاً له بقوله هل اتبعك ومنها انه استاذن في اثبات هذه التبعية
كانه قال هل تاذن لي ان اجعل نفسي تبعاً لك وهذه مبالغة عظيمة في التواضع ومنها قوله
صلى الله عليه وسلم على ان تعلمني وهذا اقرار منه على نفسه بالجهل وعلى استاذه بالعلم ومنها قوله

مما علمت وصيغة من للتبعيض وطلب منه تعليم بعض ما علم وهذا ايضا اقرار بالتواضع كانه
يقول لا اطلب منك ان تجعلنى مساويا لك فى العلم بل اطلب منك ان تعطينى جزءا من اجزاء ما علمت
ومنها ان قوله مما علمت اعتراف منه بان الله تعالى علمه ذلك العلم ومنها قوله رشدا طلب منه
الارشاد والهداية ومنها قوله ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا ومنها انه ثبت
بالاخبار ان الخضر عرف اولا ان موسى صاحب التورية وهو الرجل الذى كلمه الله من غير واسطة
وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات
العالية الشريفة اتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام
اتيا فى طلب العلم باعظم ابواب المبالغة فى التواضع وذلك يدل على ان هذا هو اللائق به لان
كل من كانت احاطته بالعلوم التى علم ما فيها من البهجة والسعادة اكثر كان طلبه لها
اشد فكان تعظيمه لارباب العلم اكمل وارشد وكل ذلك يدل على ان الواجب على المتعلم اظهار
التواضع بكل الغايات واما المعلم فان راى ان فى التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وارشادا الى الخير
فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم فى الغرور وذلك يمنعه من التعلم وروى
ان موسى عليه السلام لما قال هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا قال له الخضر كفى بالتورية
علما وبنى اسرائيل شغلا فقال له موسى الله امرنى بهذا قال له الخضر فان اتبعتنى اى صحبتنى ولم يقل
اتبعنى ولكن جعل الاختيار اليه الا انه شرط عليه شرطا فقال فلا تسئلنى عن شىء اى تراه اوانكره حتى
احدث لك خاصة منه ذكرا اى حتى ابدأك بوجه صوابه فانى لا اقدم على شىء الا وهو صواب جائز فى
نفس الامر وان كان ظاهره غير ذلك فقبل موسى شرطه رعاية لادب المتعلم مع العالم فلما تشارطا وتراضيا
على الشرط تسبب عن ذلك قوله تعالى فانطلقا اى موسى والخضر عليهما السلام على الساحل فانتهوا الى موضع
احتاجا فيه الى ركوب السفينة فاذا لا يطلبان سفينة يركبان فيها واستمرا حتى اذا ركبا فى السفينة
التى مرت بهما واجاب الشرط بقوله خرقها اى اخذ الخضر فاسا فخرق السفينة بان قلع لوحا او لوحين من
الواحها من جهة البحر لما بلغت اللجة ولم يقترن خرق بالفاء لانه لم يكن مسببا عن الركوب ثم استأنف قوله
قال اى موسى عليه السلام منكرا لذلك لما فى ظاهره من الفساد باتلاف المال المفضى الى فساد اكبر منه
باهلاك النفوس ناسيا لما عقد على نفسه على انه لو لم ينس لم يترك الانكار كما فعل عند قتل الغلام
لان مثل ذلك غير داخل فى الوعد لان المستثنى شرعا كالمستثنى وضعا اخرقتها وبين عذره فى الانكار
بما فى غاية الخرق من الفظاعة فقال لتغرق اهلها فان خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضى الى غرق
اهلها وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية مفتوحة وفتح الراء ورفع اللام من اهلها والباقون بالتاء
الفوقية مضمومة وكسر الراء ونصب لام اهلها ثم قال له موسى والله لقد جئت شيئا امرا اى عظيما منكرا
قال الخضر الم اقل انك يا موسى لن تستطيع معى صبرا فذكره بما قال له عند الشرط قال
موسى لا تؤاخذنى يا خضر بما نسيت اى غفلت عن التسليم لك وترك الانكار عليك قال

ابن عباس انه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام اى وهى التورية بالشئ عن الشئ وفى المثل ان
فى المعاريض لمندوحة عن الكذب اى سعة فكانه نسى شيئاً آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك
والنسيان الترك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كانت الاولى من موسى نسياناً والوسطى
شرطاً والثالثة عمداً ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ اى لا تكلفنى مشقة يقال ارهقه عسراً وارهقته
عسراً اى كلفته ذلك يقول لا تضيق على امرى ولا تعسر متابعتك على ويسرها على بالاغضاء وترك
المناقشة وعاملنى باليسر ولا تعاملنى بالعسر وعسراً مفعول ثان لترهقنى من ارهقه كذا اذا حمله
اياه وغشاه به وما فى بما نسيت مصدرية او بمعنى الذى والعائد محذوف وروى ان الخضر لما خرق
السفينة لم يدخلها الماء وروى ان موسى لما راى ذلك اخذ ثوبه فحشا به الخرق وروى ان الخضر
اخذ قدحاً من زجاج ورقع به خرق السفينة فان قيل قول موسى عليه السلام اخرقتها لتغرق
اهلها ان كان صادقاً فى هذا دل ذلك على صدور ذنب عظيم من الخضر ان كان نبياً وان كان كاذباً دل
ذلك على صدور الذنب من موسى وايضاً فقد التزم موسى ان لا يعترض عليه وجرت العهود المذكورة
بذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب اجيب بان كلاً منهما صادق فيما قال عرفاً بحسب
ما عنده اما موسى عليه السلام فانه ما خطر له قط ان يعاهد على ان لا ينهى عما يعتقده منكراً واما
الخضر فانه عقد على ما فى نفس الامر انه لا يقدم على منكر ﴿فَانْطَلَقَا﴾ بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما
من الغرق والعطب ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ قال ابن عباس لم يبلغ الحنث ﴿فَقَتَلَهُ﴾ حين لقيه كما دلت
عليه الفاء العاطفة على الشرط قال البغوى فى القصة انهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون
فاخذ غلاماً ظريفاً وضئ الوجه فاضجعه ثم ذبحه بالسكين قال السدى كان احسنهم وجهاً كان
وجهه يتوقد حسناً قال البغوى وروينا انه اخذ راسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا
الخبر واشار بيده باصابعه الثلاثة الابهام والسبابة والوسطى وقلع راسه وروى انه رضخ راسه
بالحجارة وقيل ضرب راسه بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الاكثرين وقال الحسن كان رجلاً
قال شعيب الجبائى وكان اسمه جيسور وقال الكلبى كان فتى يقطع الطريق وياخذ المتاع ويلجئ الى
ابويه وقال الضحاك كان غلاماً يعمل بالفساد ويتاذى منه ابواه وعن ابى بن كعب قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لارهق ابويه طغياناً وكفراً
قال الرازى وليس فى القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان او كان منفرداً وهل كان مسلماً
او كافراً وهل كان بالغاً او صغيراً وكان اسم الغلام بالصغير اليق وان احتمل الكبير الا ان قوله بغير نفس
اليق بالبالغ منه بالصبى لان الصبى لا يقتل وان قتل قال البقاعى الا ان يكون شرعهم لا يشترط البلوغ
وقال ابن عباس ولم يكن نبى الله يقول اقتلت نفساً زاكية بغير نفس الا وهو صبى قال الرازى ايضاً
وكيفية قتله هل قتله بان حز راسه او بان ضرب راسه بالجدار او بطريق آخر فليس فى القرآن ما يدل
على شئ من هذه الاقسام انتهى ثم اجاب الشرط بقوله مشعراً بان شروعه فى الانكار فى هذه المرة

قال موسى أَقَتَلْتَ يا خضر نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ قتلتها ليكون قتلها لها قودا وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بالف بعد الزاي وتخفيف الياء التحتية والباقون بغير الف بعد الزاي وتشديد التحتية قال الكسائي الزاكية والزكية لغتان ومعنى هذه الطهارة وقال ابو عمرو الزاكية التي لم تذنب والزكية التي اذنبت ثم تابت ثم استأنف قوله لَقَدْ اظهر الدال نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وادغمها الباقون جِئْتَ في قتلك اياها شَيْئًا وصرح بالانكار في قوله نُكْرًا لان مباشرة الخرق سبب ولهذا قال بعضهم النكر اعظم من الامر في القبح لان قتل الغلام اعظم من خرق السفينة لانه يمكن ان لا يحصل الغرق واما هنا فقد حصل الاتلاف قطعا والنكر ما انكرته العقول ونفرت منه النفوس فهو ابلغ في القبح من الامر وقيل الامر اعظم لان خرق السفينة يؤدي الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة برفع الكاف والباقون بسكونها ولما كانت هذه ثانية قَالَ له الخضر أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ يا موسى لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وهذا عين ما ذكره في المسئلة الاولى الا انه هنا زاد لفظة لك فان قيل لم زادها هنا اجيب بانه زادها مكافحة بالعقاب على رفض الوصية ووسما بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير اول مرة قال ابن الاثير المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز من اشمأز الرجل اي انقبض قلبه قال البغوي وفي القصة ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي انت عليه قَالَ موسى حياء منه لما افاق بتذكيره ما حصل من فرط الوجد لامر الله تعالى فذكر انه ما تبعه الا بامر الله تعالى إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا اي بعد هذه المرة واعلم بشدة ندمه على الانكار بقوله فَلَا تُصَاحِبْنِي اي لا تتركني اتبعك بل فارقني ثم علل ذلك بقوله قَدْ بَلَغْتَ واشار الى ان ما وقع منه من الاخلال بالشرط من اعظم الخوارق التي اضطر اليها فقال مِنْ لَدُنِّي اي من قبلي عُذْرًا باعتراضي مرتين واحتمالك لي فيهما وقد اخبر الله بحسن حالك في غزارة علمك في هذه الطريقة من حيث انه احتمله مرتين اولا وثانيا مع قرب المدة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله اخي موسى استحيا فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه لابصر اعجب الاعاجيب وعن ابي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر احدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا انه عجل لرأى العجب ولكنه اخذته من صاحبه ذمامة اي حياء واشفاق فقال ان سألتك الى آخره وقرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون وقرأ شعبة كذلك الا انه يشم الدال التصير ساكنة قريبة من الضم والباقون بضم الدال وتشديد النون فَانْطَلَقَا اي موسى والخضر يمشيان لينظر الخضر امرا يفيد فيه ما عنده من علمه وورش يغلظ اللام في لفظ انطلقا على اصله بعد قتل الغلام حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ قال ابن عباس هي انطاكية وقال ابن سيرين هي الابلة وهي ابعد ارض الله من السماء وعبر عنها بالقرية دون المدينة لانه ادل على الذم وقيل برقة وعن ابي هريرة بلدة في الاندلس اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا اي طلبا من اهل القرية ان يطعموهما وفي الحديث انهما كانا يمشيان

مجالس اولئك القوم يستطعمانهم فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا اى ان ينزلوهما ويطعموهما يقال
ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض وضيّفه واضافه
انزله وجعله ضيفا فان قيل الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف قدم عليه موسى والخضر وقد
حكى الله تعالى عن موسى انه قال عند ورود ماء مدين رب انى لما انزلت الىّ من خير فقير أجيب
بانّ اقدام الجائع على الاستطعام امر مباح فى كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند الخوف من
الضرر الشديد فان قيل لم قال حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها ولم يقل استطعماهم
أجيب بانّ التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر ليت الغراب غداة ينعب دائبا * كان الغراب
مقطع الاوداج * وعن قتادة شر القرى التى لا تضيف الضيف فائدة قال الرازى رأيت فى كتب
الحكايات انّ اهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله نشترى بهذا الذهب ان تجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا
فأتوا ان يضيفوهما اى اتيا لاجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللوم فامتنع رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقال تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب فى كلام الله تعالى وذلك يوجب القدح
فى الالهية فعلمنا ان تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية * وقوله
ابوا ان يضيفوهما النعى فَوَجَدَا فِيهَا اى القرية ولم يقل فيهم ايذانا بانّ المراد وصف القرية
بسوء الطبع جِدَارًا اى حائطا مائلا مشرفا على السقوط ولذا قال مستعيرا للمائل فعل صفة
من يعقل يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ اى يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لانّ الجدار لا ارادة له وانما
معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب دارى تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها واستعير
الارادة للمشارفة كما استعيرت الهمّ والعزم فى قول الشاعر يريد الرمح صدر ابى براء * ويعدل عن دماء بنى عقيل
وقول الآخر انّ دهرا يلف شملى بجمل * لزمان يهم بالاحسان ففى البيت الاول دليل
على استعارة الارادة للمشارفة وفى الثانى دليل على استعارة الهم لها وجمل اسم محبوبته
يقول ان دهرا يجمع بينى وبينها لزمان قصده الاحسان لا الاساءة ونظير ذلك من القرآن
قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله تعالى ان يقول له كن فيكون وقوله
تعالى قالتا اتينا طائعين قال الزمخشرى ولقد بلغنى انّ بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم
كان يجعل الضمير للخضر وقيل انّ الله تعالى خلق للجدار حياة وارادة كالحيوان فَأَقَامَهُ اى
سواه وفى حديث ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده فاقامه وقال
ابن عباس هدمه وقعد يبنيه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار بيده فاستقام وذلك من معجزاته
وقال السدى بلّ طينا وجعل يبنى الحائط فشق ذلك على موسى عليه السلام فان قيل الضيافة
من المندوبات فتركها ترك مندوب وذلك غير منكر فكيف يجوز من موسى
عليه السلام مع علو منصبه انه غضب عليهم الغضب الشديد الذى لاجله ترك العهد الذى التزمه

قوله إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني وأيضاً مثل الغضب لأجل ترك الأكل في ليلة واحدة
لا يليق بآحاد الناس فضلاً عن كليم الله تعالى أجيب بأن تلك الحالة كانت حالة افتقار واضطرار
إلى الطعام فلأجل تلك الضرورة نسي موسى عليه السلام ما قاله فلا جرم قال موسى لو شئت لاتخذت
عليه أجراً أي لطلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرأ
ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف التاء بعد اللام وكسر الخاء وأظهر ابن كثير الذال عند التاء على أصلها وأدغمها
أبو عمرو والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء وأظهر حفص الذال على أصله وأدغمها الباقون + ولما
كان كلامه هذا متضمناً للسؤال قال له الخضر هذا أي هذا الإنكار على ترك الأجر فراق
بيني وبينك [illegible] وقيل إن موسى عليه السلام لما شرط أنه إن سأله بعد ذلك سؤالاً آخر حصل به
الفراق حيث قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني فلما ذكر هذا السؤال فارقه وهذا فراق
بيني وبينك أي هذا الفراق الموعود فإن قيل كيف ساغ إضافة بين إلى غير متعدد أجيب
بأنه [illegible] التكرير بالعطف بالواو الأولى لو اقتصرت على قولك المال بيني لم يكن كلاماً
حتى تقول بيني وبين [illegible] ثم قال له الخضر سأنبئك أي سأخبرك يا موسى قبل فراقي لك
بتأويل أي بتفسير ما لم تستطع عليه صبراً لأن هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شيء واحد وهو أن
أحكام الأنبياء عليهم السلام [illegible] مبنية على الظواهر كما قال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظواهر
والله يتولى السرائر والخضر [illegible] بل كانت مبنية على الأسباب
الحقيقية الواقعة في نفس الأمر [illegible]
فيها [illegible] في المسألة الأولى وفي الثانية من غير سبب ظاهر
[illegible] الإنسان من غير سبب ظاهر [illegible]
[illegible] في المسألة الثالثة [illegible] المشقة [illegible]
ظاهر ثم أخذ [illegible] في تأويل [illegible] المسألة الأولى بقوله أما السفينة أي التي [illegible]
أهلها [illegible] فكانت لمساكين [illegible] يعملون في البحر أي [illegible]
ويكتسبون [illegible] الشافعي رضي الله عنه [illegible] الفقير أسوأ حالاً في الحاجة والضرورة من حال
المساكين لأن الله تعالى سماهم مساكين [illegible] فأردت أن أعيبها أي
أي أن أجعلها ذات عيب [illegible] أهلها [illegible]
يسير [illegible] أشفق عليهم من أن [illegible] بالكلية [illegible] قوله وكان وراءهم
أي أمامهم كقوله تعالى ومن ورائهم برزخ وقيل خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه ملك
كان كافراً اسمه الجلندي وقال محمد بن إسحاق اسمه سولة بن جلندي الأزدي وقيل اسمه هدد بن بدد
يأخذ كل سفينة أي صالحة [illegible] غصباً من أصحابها ولم يكن عند أصحابها علم به فإذا مرت
به تركها لعيبها فإذا جاوزته أصلحوها فانتفعوا بها قيل سدوها بقارورة وقيل بالقار فإن قيل قوله

فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدم عليه أجيب
بأن النية به التأخير وإنما قدم للعناية ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده ولكن مع كونها للمساكين
فلما كان كل من الغصب والمسكنة سبب الفعل قدمها على الغصب إشارة إلى أن أقوى السببين
الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين ثم شرع في تأويل المسألة الثانية بقوله ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ التثنية للتغليب يريد أباه وأمه فغلب المذكر وهو شائع ومثله العمران قيل إن ذلك
الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على الأفعال المنكرة وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس
عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشيء من المنكرات وكان يصير سببا لوقوعهما في الفسق
وربما قاد ذلك الفسق إلى الكفر وقيل إنه كان صبيا إلا أنه علم منه أنه لو صار بالغا حصلت فيه
هذه المفاسد وفي الحديث أنه طبع كافرا ولو عاش لأرهقهما ذلك كما قال ﴿فَخَشِينَا﴾ أي خفنا والخشية
خوف يشوبه تعظيم ﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أي يغشيهما ويلحقهما ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي لمحبتهما له يتبعانه في ذلك
فإن قيل هل يجوز الإقدام على قتل الإنسان بمثل ذلك أجيب بأنه إذا تأكد ذلك بوحي من الله تعالى
جاز وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب إليه كيف قتله أي كيف قتل الخضر الغلام وقد
نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب إليه إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى
فلك أن تقتل رواه بمعناه مسلم ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه من الفساد تسبب عنه قوله ﴿فَأَرَدْنَا﴾
أي بقتله وإراحتهما من شره ﴿أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أي المحسن إليهما بإعطائه وأخذه قال مطرف فرح به
أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي كان فيه هلاكهما فليرض كل امرئ بقضاء الله تعالى فإن
قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ولهذا أبدلهما الله تعالى ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾
أي طهارة وبركة من الذنوب والأخلاق الرديئة وصلاحا وتقوى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي رحمة وعطفا عليهما
وقيل هو من الرحم والقرابة قال قتادة أي أوصل للرحم وأبر للوالدين قال الكلبي أبدلهما الله تعالى
جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم وعن جعفر
بن محمد عن أبيه قال أبدلهما الله تعالى جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن جريج أبدلهما بغلام
مسلم وقرأ نافع وأبو عمرو أن يبدلهما بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة
وتخفيف الدال وقرأ ابن عامر رحما برفع الحاء والباقون بالسكون ثم شرع في تأويل المسألة الثالثة
بقوله ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ أي الذي أشرت بأخذ الأجر عليه ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ﴾ ودل على كونهما دون البلوغ بقوله
﴿يَتِيمَيْنِ﴾ وكان اسم أحدهما أصرم والآخر صريما ولما كانت القرية لا تنافي التسمية بالمدينة
وكان التعبير بالقرية أولا أليق عبر بها لأنها مشتقة من معنى الجمع فكان أليق بالذم في
ترك الضيافة ولما كانت المدينة بمعنى محل الإقامة عبر بها فقال ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ فكان التعبير بها
أليق للإشارة به إلى أن الناس يعملون فيها فيتهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز كما قال
﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ فلذلك أقته احتسابا واختلف في ذلك الكنز فعن أبي الدرداء أن

النبي

النبي صلى الله عليه وسلم قال كان ذهباً وفضة رواه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه والذم
على كنزهما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما وما يتعلق بهما
من الحقوق وعن سعيد بن جبير قال كان الكنز صحفاً فيها علم رواه الحاكم وصححه وعن ابن عباس
قال كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجباً لمن أيقن بالقدر كيف
يغضب عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل عجباً لمن أيقن بزوال
الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله
لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل كل
الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه قال البغوي وهذا قول أكثر أهل التفسير وروي أيضاً ذلك
مرفوعاً قال الزجاج الكنز إذا أطلق ينصرف إلى كنز المال ويجوز عند التقييد أن يقال عنده كنز علم وهذا
اللوح كان جامعاً لهما وقوله وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه
فيراعى وتراعى ذريته وكان سياحاً واسمه كاسح قال ابن عباس حفظا لصلاح أبيهما وقيل كان
بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر إن الله تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده
وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم قال سعيد بن
المسيب إني أصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي وعن الحسن أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى
بينهما بم حفظ الله مال الغلامين قال بصلاح أبيهما قال فأبي وجدي خير منه قال قد أنبأنا الله أنكم قوم
خصمون وذكروا أيضاً أن ذلك الأب الصالح كان من الذين تضع الناس الودائع عنده فيردها إليهم
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أي الغلامان أَشُدَّهُمَا أي الحلم وكمال الرأي وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا لينتفعا به
وينفعا الصالحين * تنبيه * أسند الإرادة في قوله فأردت أن أعيبها إلى نفسه لأنه المباشر
للتعييب وثانياً في قوله فأردنا إلى الله وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله تعالى
بدله وثالثاً في قوله فأراد ربك إلى الله وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين أو لأن الأول في نفسه
شر والثالث خير والثاني ممتزج أو لأنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه ولما ذكر القتل عبر عن نفسه
بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية
مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى لأن التكفل بصلاح الأبناء لرعاية حق الآباء
ليس إلا لله تعالى أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط فإن قيل اليتيمان هل أحد منهما
عرف حصول ذلك الكنز تحت ذلك الجدار أو لا فإن كان الأول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار وإن
كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع به وأجيب لعلهما
كانا جاهلين به إلا أن وصيهما كان عالماً به ثم إن ذلك الوصي غاب وأشرف ذلك الجدار في غيبته
على السقوط ولما قرر الخضر هذه الجوابات قال رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أي إنما فعلت هذه الأفعال لغرض أن تظهر
رحمة الله لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى كما تقرر

وما فعلته أي شيئاً من ذلك عن أمري أي عن اجتهادي ورأيي بل بأمر من له الأمر وهو الله تعالى
تنبيه احتج من ادعى نبوة الخضر بأمور أحدها قوله تعالى آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هي
النبوة قال تعالى وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة
النبوة قال الرازي ولقائل أن يقول مسلم أن النبوة رحمة ولكن لا يلزم أن تكون كل رحمة نبوة الثاني قوله
تعالى وعلمناه من لدنا علماً وهذا يقتضي أن الله تعالى علمه بلا واسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد وكل
من علمه الله تعالى بلا واسطة البشر وجب أن يكون نبياً يعلم الأمور بالوحي من الله تعالى قال الرازي
وهذا الاستدلال ضعيف لأن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من الله وذلك لا يدل على النبوة
الثالث أن موسى عليه السلام قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت والنبي لا يتبع غير نبي في التعلم
قال الرازي وهذا أيضاً ضعيف لأن النبي لا يتبع غير نبي في العلوم التي باعتبارها صار نبياً أما غير تلك
العلوم فلا الرابع أنه أظهر على موسى الترفع حيث قال وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً وأما موسى
فإنه أظهر له التواضع حيث قال ولا أعصي لك أمراً وهذا يدل على أنه كان فوق موسى ومن لا يكون
نبياً لا يكون فوق نبي قال الرازي وهذا أيضاً ضعيف لأنه يجوز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم
لا تتوقف نبوته عليها الخامس قوله وما فعلته عن أمري والمعنى أني فعلته بوحي من الله وهذا
يدل على النبوة قال الرازي وهذا أيضاً ضعيف ظاهر الحجة السادس ما روي أن موسى عليه السلام
لما وصل إليه قال السلام عليك قال وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل فقال موسى من عرفك هذا
قال الذي بعثك إلي وهذا يدل على أنه إنما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون إلا مع النبوة قال الرازي
ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والإلهامات انتهى وبالجملة فالجمهور
على أنه نبي كما مر واختلفوا هل هو حي أو ميت فقيل إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة
بالموسم قال البغوي وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذا القرنين
دخل الظلمة ليطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل وشرب
وشكر الله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق وذهب آخرون إلى أنه ميت لقوله تعالى وما جعلنا لبشر
من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فإن
رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حياً لكان لا يعيش بعده ولما
بين لموسى سر تلك القضايا قال له ذلك أي هذا التأويل العظيم تأويل ما لم تسطع يا موسى عليه صبراً
وحذف تاء الاستطاعة هنا تخفيفاً فإن استطاع واسطاع بمعنى واحد تنبيه من فوائد هذه
القصة أن لا يعجب المرء بعمله ولا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سراً لا يعرفه وأن يداوم
على التعلم ويتذلل للمعلم ويراعي الأدب في المقال وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق
إصراره ثم يهاجره [illegible] لما أراد أن يفارق الخضر قال له أوصني قال لا تطلب العلم لتحدث
به واطلبه لتعمل به [illegible] ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم

عقبها بقصة من طاف الارض لطالب الجهاد وقدم الاول اشارة الى علو درجة العلم لانه اساس
كل سعادة وقوام كل امر فقال عاطفا على ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴿وَيَسْئَلُونَكَ﴾ اى اليهود
وقيل مشركو مكة يا اشرف الخلق ﴿عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ وذكروا فى سبب تسميته بذلك وجوها الاول
قال ابو الطفيل سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين اكان نبيا ام ملكا قال لم يكن نبيا ولا ملكا
ولكن كان عبدا صالحا امر قومه بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى
فامرهم بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى فسمى ذا القرنين وفيكم مثله
يعنى نفسه الثانى انه انقرض فى وقته قرنان من الناس الثالث انه كان صفحتا راسه من نحاس
الرابع كان على راسه ما يشبه القرنين الخامس كان لتاجه قرنان السادس انه طاف قرنى
الدنيا شرقها وغربها السابع كان له قرنان اى ضفيرتان الثامن ان الله تعالى سخر له النور والظلمة
فاذا سرى يهديه النور من امامه وتمده الظلمة من ورائه التاسع انه لقب بذلك لشجاعته
كما يسمى الشجاع كبشا لانه ينطح اقرانه العاشر انه رأى فى المنام كانه صعد الفلك وتعلق بطرفى
الشمس وقرنيها اى جانبيها فسمى به لذلك لهذا السبب الحادى عشر انه كان له قرنان تواريهما
العمامة الثانى عشر انه دخل النور والظلمة وذكروا فى اسمه ايضا وجوها الاول اسمه مرزبان
اليونانى من ولد يونان بن يافث ابن نوح الثانى اسمه اسكندر بن فيلقوس الرومى اشتهر
فى كتب التواريخ انه بلغ ملكه اقصى المشرق والمغرب وامعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى
مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه الثالث شمر بن عمرو بن افريقيس الحميرى وهو الذى
بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وافتخر به احد الشعراء من حمير حيث قال شعر قد كان ذو القرنين جدى
قبلى مسلما * ملكا علا فى الارض غير مفند * بلغ المشارق والمغارب يبتغى * اسباب ملك من كريم سيد
واختلفوا فى نبوته مع الاتفاق على ايمانه فقال بعضهم كان نبيا واحتجوا على ذلك بوجوه الاول
قوله تعالى انا مكنا له فى الارض وحمل على التمكين فى الدنيا والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة
الثانى قوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا وهذا يدل على انه تعالى آتاه من النبوة سببا الثالث
قوله تعالى يا ذا القرنين اما ان تعذب الخ والذى يتكلم الله معه لا بد ان يكون نبيا ومنهم من
قال انه كان عبدا صالحا ملكه الله تعالى الارض واعطاه الله سبحانه وتعالى الملك والحكمة
والبسه الهيبة وقد قالوا ملك الارض مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبختنصر
ومنهم من قال انه كان ملكا من الملائكة وعن عمر رضى الله تعالى عنه انه سمع رجلا
يقول يا ذا القرنين فقال اللهم غفرا اما رضيتم ان تتسموا باسماء الانبياء حتى تسميتم باسماء
الملائكة والاكثر على القول الثانى ويدل له قول على رضى الله تعالى عنه المتقدم * تنبيه *
قد قدمنا ان اليهود امروا المشركين ان يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة اصحاب
الكهف وعن قصة ذى القرنين وعن الروح والمراد من قوله تعالى ويسألونك عن ذى القرنين

عن ذلك السؤال ثم قال الله تعالى قل اى لهؤلاء المتعنتين سأتلو اى اقص قصا متتابعا فى مستقبل
الزمان اعلمنى الله تعالى به عليكم اى ايها البعداء والضمير فى قوله تعالى منه لذى القرنين وقيل لله
تعالى ذكرا اى خبرا كافيا لكم فى تعرف امره جامعا لمجامع ذكره انا مكنا له فى الارض اى مكناله امره
من التصرف فيها مكنة يصل بها الى جميع مسالكها ويظهر بها على سائر ملوكها وآتيناه بعظمتنا
من كل شئ يحتاج اليه فى ذلك سببا اى وصلة توصله اليه من العلم والقدرة والآلة فاتبع
سببا اى سلك طريقا نحو المغرب قال البقاعى ولعله بدأ به لان باب التوبة فيه وقرأ نافع وابن كثير
وابو عمرو فاتبع فى المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية
والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية واستمر متبعا له حتى اذا بلغ فى ذلك السير
مغرب الشمس اى موضع غروبها وجدها تغرب فى عين حمئة اى ذات حمأة وهى الطين الاسود اى
بلغ موضعا فى الغرب لم يبق بعده شئ من العمران وجد الشمس كأنها تغرب فى وهدة مظلمة وغروبها
فى رأى العين كما ان راكب البحر يرى الشمس كأنها تغرب فى البحر اذا لم ير الشط وهى فى الحقيقة
تغيب وراء البحر والا فهى اكبر من الارض مرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون
الارض قال البيضاوى ولعله بلغ ساحل المحيط فرأى ذلك اذ لم يكن فى مطمح بصره غير الماء ولذلك
قال وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب وقرأ شعبة وحمزة والكسائى وابن عامر بالف بعد الحاء
وياء مفتوحة بعد الميم عن ابى ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى
الشمس حين غابت فقال اتدرى يا ابا ذر اين تغرب هذه قلت الله ورسوله اعلم قال فانها
تغرب فى عين حمئة وقرأ الباقون بغير الف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة واتفق ان ابن عباس
كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو كيف تقرأ
قال كما يقرأ امير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار وسأله كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك
نجده فى التوراة ووجد عندها اى عند تلك العين على الساحل المتصل بها قوما اى امة قال ابن جريج
مدينة لها اثنا عشر الف باب لولا ضجيج اهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب اى تغرب قيل كان
لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه البحر كانوا كفارا فخيره الله تعالى بين ان يعذبهم او يدعوهم
الى الايمان كما حكى ذلك بقوله تعالى قلنا يا ذا القرنين اما بواسطة الملك ان كان نبيا او بواسطة نبى زمانه
ان لم يكن او باجتهاد فى شريعته اما ان تعذب بالقتل على كفرهم واما ان تتخذ اى بغاية جهدك فيهم حسنا
بالارشاد وتعليم الشرائع وقيل خيره بين القتل والاسر وسماه حسنا فى مقابلة القتل ويؤيد الاول قوله
قال اما من ظلم باستمراره على الكفر فانا نرفق به حتى نياس منه ثم نقتله والى ذلك اشار بقوله فسوف
نعذبه بوعد لا خلف فيه بعد طول الدعاء والترفق وقال قتادة كان يطبخ من كفر فى القدور
وهو العذاب المنكر ثم يرد الى ربه فى الآخرة فيعذبه عذابا نكرا اى شديدا فى احقاق النار وقرأ
فى نكرا بسكون الكاف وضمها واما من آمن وعمل صالحا تصديقا لما اخبر به من تصديقه

فله في الدارين جزاء الحسنى اي الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة بعد الزاي منونة
وتكسر في الوصل لالتقاء الساكنين قال الفراء نصبه على التفسير اي لجهة النسبة وقيل منصوب
على الحال اي فله المثوبة الحسنى مجزيا بها والباقون بضم الهمزة من غير تنوين فالاضافة للبيان
قال المفسرون والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما تقول له هذا الثوب هبة وعلى قراءة
الرفع وجهان الاول فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الايمان والعمل الصالح والثاني
فله جزاء المثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة كقوله ولدار الآخرة وامال الف
الحسنى حمزة والكسائي محضة وابو عمرو بين بين وورش بالفتح والامالة بين بين وسنقول له
بعد ان نختلف فيه بعد اختبار ه بالاعمال الصالحة له اي لاجله من امرنا اي ما نأمره به يسرا
اي قولا غير شاق من الصلوة والزكوة والخراج والجهاد وغيرها وهو ما يطيقه ولا يشق عليه مشقة
كثيرة ثم اتبع لارادة طلوع مشارق الشمس سببا من جهة الجنوب يوصله الى المشرق واستمر فيه
لا يمل ولا تغلبه امة مر عليها حتى اذا بلغ في مسيره ذلك مطلع الشمس اي الموضع الذي تطلع عليه
اولا من المعمور من الارض وجدها تطلع على قوم قال الجلال المحلي هم الزنج وقوله تعالى لم نجعل
لهم من دونها اي الشمس سترا فيه قولان الاول انه لا شيء لهم من سقف ولا جبل يمنع من وقوع شعاع
الشمس عليهم لان ارضهم لا تحمل بنيانا قال الرازي ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس
ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش وعند غروبها
يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش واحوالهم بالضد من احوال سائر الخلق وقال قتادة يكونون
في اسراب لهم حتى اذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم والثاني ان معناه لا ثياب لهم ويكونون
كسائر الحيوانات عراة ابدا وفي كتب الهيئة ان اكثر حال الزنج كذلك وحال كل من سكن البلاد
القريبة من خط الاستواء كذلك قال الكلبي هم عراة يفرش احدهم احدى اذنيه ويلتحف بالاخرى
وقال الزمخشري وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل
بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا احدهم يفرش احدى اذنيه ويلبس الاخرى فلما قرب
طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم افقت فلما طلعت الشمس فاذا هي فوق
الماء كهيئة الزيت فادخلوني سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس
فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس اكثر من جميع اهل الارض
وقوله تعالى كذلك فيه وجوه الاول ان معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها الثاني
ان امره كما وصفناه من رفعة المكان وبسطة الملك قال البغوي والصحيح ان معناه كما حكم في القوم
الذين هم عند غروب الشمس كذلك في القوم الذين هم عند مطلعها وقد احطنا بما لديه اي عنده
ذي القرنين من الآلات والجند وغيرهما خبرا اي علما تعلق بظواهره وخفاياه والمراد ان كثرة
ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير ثم اتبع القرنين لما بلغ المغرب والمشرق

أتبع سببا آخر من جهة الشمال في ارادة ناحية السد مخرج يأجوج ومأجوج واستمر آخذا فيه حتى إذا بلغ في مسيره ذلك بين السدين أي بين الجبلين وهما جبلا أرمينية وأذربيجان وقيل جبلان في أواخر الشمال وقيل هذا المكان في منقطع بلاد الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج قال الرازي والأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال سد الاسكندر وما بينهما كما سيأتي وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها وهما لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنع بني آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع الله فهو بالضم وقاله أبو عمرو وقيل بالعكس وجد من دونهما أي بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما الى الجهة التي أتى منها ذو القرنين قوما أي أمة من الناس لونهم في غاية السمرة من لفحات الشمس لبعدهم عن بقية البلاد فهم لذلك لا يكادون يفقهون أي لا يقربون يفقهون أي يفهمون قولا ممن مع ذي القرنين فهما جيدا كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف والباقون بفتحهما وقال ابن عباس لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم واستشكل بقوله قالوا يا ذا القرنين وأجيب بأنه تكلم عنهم مترجم ممن يجاورهم ويفهم كلامهم إن يأجوج ومأجوج وهما اسمان أعجميان لقبيلتين فلم ينصرفا وقرأ عاصم بهمزة ساكنة بعد الياء والميم والباقون بالألف فيهما وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام قال الضحاك هم جيل من الترك قال السدي الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة أنهم اثنان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لأنهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج وقال ابن عباس في رواية عطاء هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى عن حذيفة مرفوعا أن يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون في خراب الأرض وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد وصنف منهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية وعن حسان أن تنبت لهم مخالب في أظفارهم وأضراسهم كأضراس السباع وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول وقال كعب هم نادرة في ولد آدم وذلك أن آدم احتلم

ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء ياجوج وماجوج فهم يتصلون بنا من جهة
الاب دون الام وذكر وهب بن منبه ان ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا
صالحا قال الله تعالى انى باعثك الى امم مختلفة السنتهم منهم امتان بينهما طول الارض احداهما
عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك وامتان بينهما عرض
الارض احداهما فى القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى فى قطر الارض الايسر يقال لها تاويل وامم
فى وسط الارض منهم الجن والانس وياجوج وماجوج فقال ذو القرنين باى قوة اكاثرهم وباى لسان
اناطقهم قال الله تعالى انى ساطوقك وابسط لك لسانك واشد عضدك فلا يهولنك شئ والبسك
الهيبة فلا يروعنك شئ واسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك يهديك النور من
امامك وتحفظك الظلمة من ورائك فانطلق حتى اتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيه
الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى والى عبادته فمنهم من
امن ومنهم من كفر وصد عنه فعمد الى الذين تولوا عنه وادخل عليهم الظلمة فدخلت
اجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من اهل المغرب جندا عظيما فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم
حتى اتى هاويل فعمل فيهم كعمله فى ناسك ثم مضى حتى انتهى الى منسك عند مطلع الشمس فعمل
فيها وجند منها جنودا كفعله فى الامتين ثم اخذ ناحية الارض اليسرى فاتى تاويل فعمل فيها كعمله
فيما قبلها ثم عمد الى الامم التى وسط الارض فلما كان مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له امة صالحة من
الانس يا ذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا اشباه البهائم اى وهم ياجوج وماجوج مُفْسِدُونَ
فِى الْاَرْضِ يفترسون الدواب والوحوش والسباع وياكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح
خلقه الله فى الارض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا شك انهم سيملكون الارض ويظهرون
عليها ويفسدون فيها وقال الكلبى فسادهم انهم كانوا يخرجون ايام الربيع الى ارضهم فلا يدعون
فيها شيأ اخضر الا اكلوه ولا يابسا الا احتملوه وادخلوه ارضهم وقد لقوا منهم اذى شديدا
وقتلا وقيل فسادهم انهم كانوا ياكلون الناس وقيل معناه انهم سيفسدون فى الارض عند خروجهم
فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا اى جعلا من المال وقرأ حمزة والكسائى بفتح الراء والف بعدها والباقون
بسكون الراء ولا الف بعدها فقيل هما بمعنى وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك عَلَى اَنْ
تَجْعَلَ فى جميع ما بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ من الارض التى يمكن توصلهم الينا منها بما اتاك الله من المكنة سَدًّا
اى حاجزا بين هذين الجبلين فلا يصلون الينا وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بضم السين والباقون
بالنصب قَالَ لهم ذو القرنين مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى اى الحسن الذى ما تبذلونه من الاموال والرجال والتوصل
الى جميع الممكن للمخلوق خَيْرٌ من خراجكم الذى تريدون بذله كما قال سليمان عليه السلام فما اتانى
الله خير مما اتاكم وقرأ ابن كثير بنونين مفتوحة بعد الكاف وبعدها نون مكسورة والباقون بنون
واحدة مكسورة مشددة فَاَعِينُونِى بِقُوَّةٍ اى انى لا اريد المال بل اعينونى بابدانكم وقوتكم

وبالآلات التي اتقوى بها في فعل ذلك فان ما معي انما هو للقتال وما يكون من اسبابه لا لمثل هذا
أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ اي بين ما تخشون به وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا اي حاجزا حصينا موثقا بعضه فوق بعض من التلاصق
والتلاحم وهو اعظم من السد من قولهم ثوب ردم اذا كان رقاعا فوق رقاع قالوا وما تلك القوة قال فعلة
وصناع يحسنون البناء قالوا وما تلك الآلات قال آتُونِي اي اعطوني زُبَرَ الْحَدِيدِ اي قطعه وهو جمع
زبرة كغرفة وغرف قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة فاتوه به وبالحطب فحفر له
الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها
الحطب والفحم حَتَّى إِذَا سَاوَى اي بذلك البناء بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ اي بين جانبي الجبلين اي سوى
بين طرفي الجبلين سميا بذلك لانهما يتصادفان اي يتقابلان من قولهم صادفت الرجل اي لقيته
وقابلته وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر برفع الصاد والدال وشعبة برفع الصاد وسكون الدال
والباقون بنصب الصاد والدال ثم وضع المنافخ واطلق النار في الحطب والفحم وقَالَ اي للعملة
انْفُخُوا فنفخوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ اي الحديد نَارًا اي كالنار قَالَ آتُونِي اي اعطوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا اي اصب
النحاس المذاب على الحديد المحمى فصبه عليه فدخل في خلل الحديد مكان الحطب لان النار
اكلت الحطب حتى لزم الحديد النحاس فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا قال
الزمخشري قيل مابين السدين مائة فرسخ وروي ان عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتي ذراع
وعن قتادة قال ذكر لنا ان رجلا وفي رواية عن رجل من اهل المدينة قال يا رسول الله قد رايت
سد ياجوج وماجوج قال انعته لي قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وهذه معجزة عظيمة
ان كان نبيا او كرامة ان لم يكن لان هذه الزبرة الكبيرة اذا انفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر
الحيوان ان يقرب منها والنفخ عليها لا يكون الا بالقرب منها فكانه تعالى صرف تلك الحرارة
العظيمة عن ابدان اولئك النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيها ⁜ تنبيه ⁜ قطرا هو المتنازع
فيه وهذه الآية اشهر امثلة النحاة في باب التنازع وبها تمسك البصريون على ان اعمال الثاني من
العاملين المتوجهين نحو معمول واحد اولى اذ لو كان قطرا مفعول آتوني لاضمر مفعول افرغ حذرا
من الالباس ثم قال تعالى فَمَا اي فتسبب عن ذلك انه لما اكمل عمل الردم واحكمه مَا اسْطَاعُوا اي ياجوج
وماجوج وغيرهم أَنْ يَظْهَرُوهُ اي يعلوا ظهره لعلوه وملاسته وقرأ حمزة بتشديد الطاء والباقون
بالتخفيف وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا اي خرقا لصلابته وسمكه وزيادة التاء هنا تدل على ان العلو
عليه اصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد
ونحاس في علو الجبل فانهم لو احتالوا ابناء درج من جانبهم او وضع تراب حتى ظهروا عليه
لم ينفعهم ذلك لانهم لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر ويؤيد ان انهم انما يخرجون في آخر الزمان
بنقبه لا بظهورهم عليه ولا ينافي نفي الاستطاعة لنقبه مارواه الامام احمد والترمذي في التفسير
وابن ماجة في الفتن عن ابي رافع عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ياجوج وماجوج

يحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه
غدا فيعودون اليه كاشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم واراد الله تعالى ان يبعثهم على الناس
حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى
فيستثني فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس الحديث
وفي حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش عن النبي صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم
ياجوج وماجوج مثل هذا وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عن ابي هريرة وفيه مثل
هذا وعقد تسعين لان هذا في آخر التسعين ثم ابتدأ فيما قال حين فراغه قيل قال هذا اي السد
يعني الاقتدار عليه رحمة اي نعمة من ربي على الناس لانه مانع من خروجهم ومنع المفسدين فاذا جاء وعد ربي
بقرب قيام الساعة او بوقت خروجهم جعله دكا اي مدكوكا مبسوطا روي انهم يخرجون على الناس
فينشفون المياه ويتحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة
بالدماء فيقولون قهرنا من في الارض وعلونا من في السماء قسوة وعلوا فيبعث الله تعالى عليهم نغفا في
رقابهم وفي رواية في اقفائهم فيهلكون وقال صلى الله عليه وسلم فوالذي نفسي بيده ان دواب الارض لتسمن
ولتشكر من لحومهم شكرا اخرجه الترمذي قوله قسوة وعلوا اي غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود
يخرج في انوف الابل والغنم وقوله ولتشكر من لحومهم شكرا يقال شكرت الشاة تشكر اذا امتلأ
ضرعها باللبن والمعنى انها تمتلئ اجسادها لحما وتسمن وعن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله
صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة من النخل فلما
رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شانكم قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه
ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال غير الدجال اخوفني عليكم ان يخرج وانا فيكم فانا حجيجه
دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم وانه شاب قطط اي
شديد الجعودة وقيل حسن الجعودة عينه طافية اي بارزة وقيل ممسوحة كاني اشبهه بعبد العزى
بن قطن فمن ادركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج من خلة بين الشام والعراق فعاث
اي افسد يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما لبثه في الارض قال اربعون يوما يوم
كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر ايامه كايامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة ايكفينا
فيه صلاة يوم قال لا اقدروا له قدره اي في اليوم الثاني والثالث كذلك وسكت عن ذلك للعلم به
من الاول قلنا يا رسول الله وما اسراعه في الارض قال كالغيث استدبرته الريح فياتي على القوم فيدعوهم
فيؤمنون به ويستجيبون له فيامر السماء فتمطر والارض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم اطول ما كانت
ذرا واسبغه ضروعا وامده خواصر ثم ياتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون
ممحلين ليس بايديهم شيء من اموالهم ويمر بالخربة فيقول لها اخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب
النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل

ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء
فى دمشق بين مهرودتين اى حلتين واضعا كفيه على اجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه
تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه
حتى يدركه بباب لد قرية بالشام قريبة من الرملة فيقتله ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه
فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ اوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام
انى قد اخرجت عبادا لى لا يدان لاحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث ياجوج وماجوج وهم
من كل حدب ينسلون فيمر اوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان
بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله واصحابه حتى يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم
اليوم فيرغب نبى الله عيسى واصحابه الى الله تعالى فيرسل الله تعالى عليهم النغف فى رقابهم وهو
بالتحريك دود يكون فى انوف الابل والغنم كاموت واحدة تهاننفة فيصبحون فرسا اى قتلى الواحد
فريس ثم يهبط نبى الله عيسى واصحابه الى الارض فلا يجدون فى الارض موضع شبر الا ملأه
زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى واصحابه الى الله فيرسل الله تعالى عليهم طيرا كاعناق
البخت فتحملهم حيث شاء الله تعالى ثم يرسل الله تعالى مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل
الارض حتى يتركها كالزلفة وهى بالتحريك جمعها زلف مصانع الماء ويجمع على المزالف ايضا اى
فتصير الارض كانها مصنعة من مصانع الماء وقيل كالمرآة وقيل الزلفة الروضة وقيل بالقاف
ايضا ثم يقال للارض انبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون
بقحفها ويبارك فى الرسل وهو بتحريك الراء والسين من الابل والغنم من عشرة الى خمسة وعشرين
حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس وهو مهموز الجماعة الكثيرة واللقحة من البقر لتكفى
القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله تعالى عليهم
ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها
تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة وكان وعد ربى الذى وعد به فى خروج ياجوج وماجوج واوقم
الارض وافسادهم فيها وقرب قيام الساعة حقا كائنا لا محالة فلذلك اعان تعالى على هدمه هذا
آخر حكاية ذى القرنين وفى القصة ان ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفى بشهرزور وذكر بعضهم
ان عمره كان نيفا وثلاثين سنة سبحان من بيده عزه وبقاؤه ثم انه تعالى قال عاطفا على ما تقديره
فقد بان امر ذى القرنين اى بيان وصدق فى قوله فاذا جاء وعد ربى فانه اذا جاء وعدنا جعلناه
بقدرتنا التى نؤتيها لياجوج وماجوج دكا فاخرجناهم على الناس بعد خروج الدجال وتركنا بعضهم
اى ياجوج وماجوج يومئذ اى حين يخرجون يموج اى يضطرب فى بعض كموج البحر
اى يموج بعض الخلق فى بعض فيضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويؤيده ونفخ فى
٩٩ الصور اى القرن النفخة الثانية لقوله تعالى فجمعناهم اى الخلائق فى مكان واحد يوم

النقيامة قال البقاعي ويجوز ان تكون هذه الفاء فاء الفصيحة فيكون المراد النفخة الاولى اي ونفخ
فمات الخلائق كلهم فبليت اجسامهم وتفتت عظامهم كما كان من تقدمهم ثم نفخ الثانية فجمعناهم
من التراب بعد تمزقهم فيه وتفرقهم في اقطار الارض بالسيول والرياح وغير ذلك جمعا فاحييناهم
دفعة واحدة كلمح البصر وحشرناهم الى الموقف للحساب ثم الثواب والعقاب وعرضنا اي اظهرنا
جهنم يومئذ اي اذ جمعناهم لذلك للكافرين عرضا ظاهرة لهم بكل ما فيها من الاهوال وهم لا يجدون
لهم عنها مصرفا + ثم وصفهم بما اوجب لهم ذلك بقوله تعالى الذين كانت كونا كانه جبلة لهم
اعينهم وهو بدل من الكافرين في غطاء عن ذكري اي عن القرآن فهم لا يهتدون به وعما جعلنا على
الارض من زينة دليلا على الساعة بافنائه ثم احيائه واعادته بعد ابداده وكانوا بما جعلنا عليهم
لا يستطيعون سمعا اي لا يقدرون ان يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما يتلو عليهم بغضا له ع ١١
فلا يؤمنون به + ولما بين تعالى امر الكافرين انهم اعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به النبي
صلى الله عليه وسلم اتبعه بقوله تعالى افحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادي من الاحياء
كالملائكة وعزير والمسيح والاموات كالاصنام من دوني وقوله تعالى اولياء اي اربابا مفعول ثان
ليتخذوا والمفعول الثاني لحسب محذوف والمعنى اظنوا ان الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا يعذبهم
ولا اعاقبهم عليه كلا وقرأ نافع وابو عمرو بفتح الياء والباء والباقون باسكانها وهم على اصولهم
في المد + ولما كان معنى الاستفهام الانكاري ليس الامر كذلك حسن جدا قوله تعالى مؤكدا لاجل
انكارهم انا اعتدنا جهنم التي تقدم انا عرضناها لهم للكافرين اي هؤلاء وغيرهم نزلا اي شيئا
معدة لهم كالمنزل المعد للضيف وهذا على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى فبشرهم بعذاب
اليم + ثم ذكر تعالى ما فيه تنبيه على جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم
هل ننبئكم اي نخبركم وادغم الكسائي لام هل في النون والباقون بالاظهار بالاخسرين اعمالا
اي الذين اتعبوا انفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا واختلف في ذلك
فقال ابن عباس وسعد بن ابي وقاص هم اليهود والنصارى وهو قول مجاهد قال سعد بن ابي وقاص
اما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم واما النصارى فكفروا بالجنة فقالوا لا طعام فيها ولا شراب
انتهى قال البقاعي وكذا قال اليهود لان الفريقين انكروا الحشر الجسماني وخصوه بالروحاني
وقيل هم الرهبان الذين حبسوا انفسهم في الصوامع + تنبيه + اعمالا تمييز للاخسرين وجمع
عمل وان كان مصدرا لتنوع اعمالهم ثم وصفهم تعالى بضد ما يدعونه لانفسهم من تمام السعي
واحسان الصنع فقال تعالى الذين ضل اي ضاع وبطل سعيهم في الحيوة الدنيا لكفرهم
+ تنبيه + محل الموصول الجر نعتا او بدلا او بيانا او النصب على الذم او الرفع على الخبر
المحذوف فانه جواب السؤال ومعنى خسرانهم انه مثلهم كمن يشتري سلعة يرجو فيها ربحا
فخسر وخاب سعيه كذلك اعمال هؤلاء الذين اتعبوا انفسهم مع ضلالهم فبطل جدهم

واجتهادهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون اى يظنون وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر انهم يحسنون صنعا اى عملا يجازون عليه لاعتقادهم انهم على الحق ثم بين تعالى السبب فى بطلان سعيهم بقوله تعالى اولئك اى البعداء البغضاء الذين كفروا بايات ربهم اى بدلائل توحيده من القرآن وغيره ولقائه اى رؤيته لانه يقال لقيت فلانا اى رأيته فان قيل اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على امر قد قدر وذلك فى حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله تعالى كما قال بعض المفسرين اجيب بان لفظ اللقاء وان كان عبارة عن الوصول الا ان استعماله فى الرؤية مجازا ظاهر مشهور والذى يقول ان المراد لقاء ثواب الله قال لا يتم الا بالاضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور اولى من حمله على ما يحتاج الى الاضمار ثم قال تعالى فحبطت اى فبسبب جحدهم الدلائل بطلت اعمالهم فصارت هباء منثورا فلا يثابون عليها وفى قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا قولان احدهما انا نزدرى بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار تقول العرب ما لفلان عندى وزن اى قدر لخسته وروى ابو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيمة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا الثانى لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيئات وقال ابو سعيد الخدرى تاتى ناس باعمال يوم القيمة هى عندهم فى العظم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيئا فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا ولما كان هذا السياق فى الدلالة على ان لهم جهنم اوضح من الشمس قال تعالى ذلك اى الامر العظيم الذى بيناه من وعيدهم جزاؤهم ثم بين ذلك الجزاء بقوله تعالى جهنم وصرح بالسببية بقوله تعالى بما كفروا اى بما اوقعوا التغطية للدلائل واتخذوا اياتى الدالة على وحدانيتى ورسلى المؤيدين بالمعجزات الظاهرات هزوا اى مهزوا بهما فلم يكفهم ابا الكفر الذى هو طعن فى الالهية حتى ضموا اليه الهزو الذى هو اعظم احتقارا ولما بين سبحانه وتعالى ما لاحد قسمى اهل الجمع تنفيرا عنهم بين ما للاخرين على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال ترغيبا فى اتباعهم والاقتداء بهم بقوله ان الذين امنوا اى باشروا الايمان وعملوا تصديقا لايمانهم الصالحات من الاعمال كانت لهم اى فى علم الله قبل ان يخلقوا لبناء اعمالهم على الاساس جنات اى بساتين الفردوس اى اعلى الجنة واوسطها والاضافة اليه للبيان روى عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة واعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة وقال كعب ليس فى الجنان جنة اعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة واوسطها وافضلها وارفعها وقال كعب الفردوس هو بستان الجنة الذى فيه الاعناب وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال الزجاج هو بالرومية منقول الى لفظ العربية

وقال عكرمة هي الجنة بلسان الحبش وقال الضحاك هي الجنة الملتفة الاشجار نزلا اي منزلا كما كان
السعير والاغلال لاولئك نزلا وقوله تعالى خالدين فيها حال مقدرة لا يبغون اي لا يريدون ادنى
ارادة عنها حولا اي تحويلا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون ان يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل
من دار اذا لم توافقه الى دار اخرى ولما ذكر تعالى في هذه السورة انواع الدلائل والبينات
وشرح فيها اقاصيص الاولين والآخرين نبه على كمال القرآن بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم
قل يا اشرف الخلق للخلق لو كان البحر اي ماؤه على عظمته عندكم مدادا وهو اسم لما يمد به الشيء
كالحبر للدواة والسليط للسراج لكلمات اي لكتب كلمات ربي اي المحسن الي لنفد اي فني مع
الضعف فناء لا تدارك له البحر لانه جسم متناه قبل ان تنفد اي تفنى وتفرغ كلمات ربي
لان معلوماته تعالى غير متناهية والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي وقرأ حمزة والكسائي
بالياء التحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث ولما لم يكن احد غيره يقدر على
امداد البحر قال تعالى ولو جئنا بمثله اي مثل البحر الموجود مددا اي زيادة ومعونة ونظيره قوله
تعالى ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله
واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال البغوي وابن عباس قالت اليهود تزعم يا محمد انا قد اوتينا
الحكمة وفي كتابك ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ثم تقول وما اوتيتم من العلم الا قليلا
فانزل الله تعالى هذه الآية وقال البيضاوي وسبب نزولها ان اليهود قالوا في كتابكم ومن يؤت
الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وتقرؤن وما اوتيتم من العلم الا قليلا انتهى وقال في الكشاف يعني ان ذلك
خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله وقيل لما نزل وما اوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود اوتينا
التوراة وفيها علم كل شيء فانزل الله تعالى هذه الآية ولما كانوا ربما قالوا اما المتحدث من هذه
الكلمات بكل ما سألنا عنه قال الله تعالى قل يا خير الخلق لهم انما انا بشر في استبعاد القدرة على ايجاد
المعدوم والاخبار بالغيب مثلكم اي لا امر لي ولا قدرة الا ما اقدرني ربي عليه ولكن يوحى الي اي
من الله تعالى الذي خصني بالرسالة كالوحي الى الرسل قبلي انما الهكم الذي يجب ان يعبد اله واحد
لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر على ما يريد لا مانع له لم يؤخر جواب ما سألتموني عنه من عجز
ولا من جهل هذا الذي يعني كل احد علمه واما ما سألتم عنه في امر الروح والقصتين تعنتا
فامر لو جهلتموه ما ضركم جهله فمن اي فتسبب عن وحدته المستلزمة لقدرته انه من
كان يرجو لقاء ربه اي يخاف المصير اليه وقيل يأمل رؤية ربه والرجاء يكون بمعنى الخوف
والامل جميعا قال الشاعر: فلا كل ما ترجو من الخير كائن * ولا كل ما ترجو من الشر واقع
فجمع بين المعنيين فليعمل عملا صالحا ولو قليلا يرتضيه الله ولا يشرك اي ويكن ذلك
العمل مبنيا على الاساس وهو انه لا يشرك ولو بالرياء بعبادة ربه احدا فاذا عمل ذلك حاز ع ١٢
علوم الدنيا والآخرة روي ان جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعمل

العمل لله فاذا اطلع عليه سرّني فقال انّ الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا وروي انه قال له
لك اجران اجر السر واجر العلانية وذلك اذا قصد ان يقتدى به وروي انه صلى الله عليه وسلم قال
اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى انا اغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا اشرك
فيه غيري فانا منه بريء هو للذي عمله وعن سعيد بن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول اذا جمع الله تبارك وتعالى الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك في عمل عمله الله
فليطلب ثوابه منه فانّ الله تعالى اغنى الشركاء عن الشرك والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما
التوحيد والاخلاص في الطاعة * خاتمة * روي في فضائل سورة الكهف احاديث كثيرة منها ما رواه
الترمذي وغيره من قرأها عند مضجعه كان له نورا يتلألأ في مضجعه الى مكة حشو ذلك النور
ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت
المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ وروى ابو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من حفظ عشر آيات من اول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال البيضاوي وعنه
عليه السلام من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ولكن الذي رواه الامام
احمد من قرأ اوّل سورة الكهف كانت له نورا من فرقه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من
الارض الى السماء وروى البغوي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من قرأ اول سورة الكهف وآخرها
كانت له نورا من قدمه الى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء فنسأل الله تعالى
ان ينوّر قلوبنا وابصارنا وان يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء افعالنا وان يفعل ذلك بوالدينا واولادنا
واقاربنا واصحابنا ومشايخنا وجميع اخواننا المسلمين واحبابنا آمين ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما الى يوم الدين

سورة مريم عليها السلام مكية

وهي ثمان وتسعون آية وسبعمائة واثنان وستون كلمة وثلاثة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان
بسم الله المنزه عن كل شائبة نقص القادر على كل ما يريد الرحمن الذي عم نواله سائر
مخلوقاته الرحيم بسائر خلقه واختلف في تفسير قوله تعالى كهيعص قال ابن عباس
هو اسم من اسماء الله تعالى وقال قتادة هو اسم من اسماء القرآن وقيل هو اسم الله الاعظم
وقيل هو اسم السورة وقيل قسم اقسم الله به وعن الكلبي هو ثناء اثنى الله به على نفسه وعنه
معناه كاف الخلقه هاد لعباده يده فوق ايديهم عالم ببريته صادق في وعده وعن ابن عباس قال
الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق
وقيل انه من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه وقد تقدّم الكلام على ذلك في اوّل سورة البقرة
وقرأ نافع بامالة الهاء والياء بين بين وامالهما محضة شعبة والكسائي وامال الهاء محضة ابو عمرو

وابن عامر وحمزة وللسوسي في الياء خلاف في الامالة محضة والفتح والباقون وهم ابن كثير وحفص
بفتحهما بلا خلاف ولجميع القراء في العين المد والتوسط وقوله تعالى ذِكْرُ مبتدأ محذوف الخبر
تقديره مما يتلى عليكم او خبر محذوف المبتدأ تقديره المتلو ذكر او هذا ذكر رَحْمَتِ رَبِّكَ وقوله تعالى
عَبْدَهُ مفعول رحمة لانها مصدر بني على التاء لا انها دالة على الوحدة ورسمت بتاء مجرورة
ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي ووقف بالتاء على الرسم الباقون وقوله تعالى
زَكَرِيَّا بيان له. تنبيه. اعلم انه تعالى ذكر في هذه السورة قصص جملة من الانبياء الاولى هذه
القصة وهي قصة زكريا فيحتمل ان المراد من قوله تعالى رحمة ربك انه عنى عبده زكريا ثم
في كونه رحمة وجهان احدهما انه يكون رحمة على امته لانه هداهم الى الايمان والطاعة والثاني
ان يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى لما شرح له صلى الله عليه وسلم طريقته
في الاخلاص والابتهال في جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لطفا داعيا له ولامته الى تلك
الطريقة فكان زكريا رحمة ويحتمل ان يكون المراد ان هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي يرحم بها عبده
زكريا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً مشتملا على دعاء خَفِيًّا اي سرا جوف الليل لانه اسرع الى الاجابة وان كان الجهر
والاخفاء عند الله سيان وقيل اخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمن الشيخوخة وقيل اسره من مواليه
الذين خافهم وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ صوته خفات وسمعه
تارات فان قيل من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا اجيب بوجهين
الاول انه اتى باقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا ان صوته كان ضعيفا لنهاية
ضعفه بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى القصد خفيا نظرا الى الواقع الثاني انه دعا
في الصلاة لان الله تعالى اجابه في الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب
ان الله يبشرك وكون الاجابة في الصلاة يدل على كون الدعاء فيها فيكون النداء فيها
خفيا. تنبيه. في ناصب اذ ثلاثة اوجه احدها انه ذكر ولم يذكر الحوفي غيره والثاني رحمة
ولم يذكر الجلال المحلي غيره وذكر الوجهين ابو البقاء والثالث انه بدل من زكريا بدل اشتمال
لان الوقت مشتمل عليه ثم كانه قيل ما ذلك النداء فقيل قَالَ رَبِّ بحذف الاداة الدالة على
غاية القرب إِنِّي وَهَنَ اي ضعف جدا الْعَظْمُ مِنِّي اي هذا الجنس الذي هو اقوى ما في
بدني ولو جمع لاوهم انه وهن مجموع عظامه لا جميعها وقوله وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ اي مني شَيْبًا
تمييز محول عن الفاعل اي انتشر الشيب في شعره كما ينتشر شعاع النار في الحطب واني اريد ان
ادعوك وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ اي بدعائي اياك رَبِّ شَقِيًّا اي خائبا فيما مضى فلا تخيبني فيما
ياتي وان كان ما ادعو به في غاية البعد في العادة لكنك فعلت مع ابي ابراهيم مثله
فهو دعاء وشكر واستعطاف ثم عطف على قوله اني وهن العظم مني قوله وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ اي الذين يلوني
في النسب كبني العم ان يسيئوا الخلافة مِنْ وَرَائِي اي في بعض الزمان الذي بعدي وَكَانَتِ

امرأتي عاقرا اي لا تلد اصلا بما دل عليه فعل الكون فهب لي اي فتسبب عن شيخوختي وضعفي وتعويدك
لي بالاجابة وخوفي من سوء خلافة اقاربي ويأسي عن الولد عادة بعقم امرأتي وبلوغي من الكبر حد
الاحراك لي فيهما اني اقول لك يا قادرا على كل شيء هب لي من لدنك اي من الامور المستبطنة المستغربة
التي عندك لم تجر بها مناهج العادات والاسباب المطردات وليا اي ابنا من صلبي يرثني في جميع
ما انا فيه من العلم والنبوة والعمل ويرث زيادة على ذلك من آل يعقوب جوامع خصوصيتهم به
من العلم وفضائلهم به من الدين ومحاسن الاخلاق [illegible] الى الشيم فان الانبياء لا يورثون المال وقيل
يرثني الحبورة اي العلم بتحبير الكلام وتحسينه فانه كان حبرا وهو بالفتح والكسر وهو افصح يقال للعالم
بتحبير الكلام وتحسينه وهو يعقوب بن اسحق عليهما السلام وقيل يرثني العلم ويرث من آل
يعقوب النبوة ولفظ الارث يستعمل في المال وفي العلم والنبوة اما في المال فلقوله تعالى واورثكم
ارضهم وديارهم واموالهم واما في النبوة فلقوله تعالى واورثنا بني اسرائيل الكتاب الآية وقال
صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما يورثون
العلم وهو اسم [illegible] وقد اقتدى به نفسه اذ قال يوسف عليه السلام ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب
ولان اسرائيل قد صار علما على الاسباط كلهم وكانت قد غلبت عليهم الاحداث وقرأ ابو عمرو و
الكسائي بجزم الثاء المثلثة فيهما على انهما جواب الامر اذ تقديره ان تهب يرث والباقون بالضم
فيهما على انهما صفة [illegible] بان زكريا دعا الله تعالى ان يهبه ولدا يرثه وان يحيى قتل قبله
فلم يصل الى ارثه منه واجيب بان اجابة دعاء الانبياء غالبة لا لازمة فقد يتخلف لقضاء الله تعالى
ذلك كما في دعاء ابراهيم عليه السلام في حق ابيه وكما في دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله
ربنا اللهم ان لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعها ولما كان من قضاء الله تعالى وقدره ان يولد يحيى نبيا
صالحا ثم يقتل [illegible] دعاء زكريا بالاجابة [illegible] ولما ختم دعاءه بقوله واجعله رب اي ايها المحسن
اليّ رضيا اي مرضيا عندك اجابه الله تعالى بقوله تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام يرث كما سألت
اسمه يحيى وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم النون
وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة وكذلك في آخر السورة * تنبيه * يحيى اسم اعجمي ممنوع من الصرف
للعلمية والعجمة وقيل منقول من الفعل المضارع كما سموا بيعمر وانما تولى تعالى تسميته تشريفا له
قال تعالى لم نجعل له من قبل سميا اي مسمى بيحيى قال قتادة والكلبي لم يسم احد قبله يحيى * تنبيه *
سميا مأخوذ من السمو وفيه دلالة لقول البصريين ان الاسم من السمو ولو كان من الوسم لقيل وسيما
وقال سعيد بن جبير وعطاء لم نجعل له شبيها ومثلا كما قال تعالى هل تعلم له سميا اي مثلا والمعنى انه
لم يكن له مثل لانه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ورد هذا لان هذا يقتضي تفضيله على الانبياء قبله كابراهيم
وموسى وليس كذلك وقيل لم يكن له ميل الى امر النساء لانه كان سيدا وحصورا وعن ابن عباس
لم تلد العواقر مثله ولدا ثم كأنه قيل فما قال في جواب هذه البشارة العظيمة فقيل قال [illegible]

[illegible]

بعد قيامها بالتدبير ها وللتلذذ بتدبيرها وهل ذلك من امرأته او من غيرها وهل اذا كان منها
يكونان على حالهما من الكبر او غيرها غير طائش ولا عجل ذكره ابو الحسن الحرالى باجابة الدعاء دائما أنّى
اى من اين وكيف وعلى اى حال يكون لى غلام يولد لى فى غاية القوة والنشاط والكمال فى الذكورة
وكانت اى والحال انه كانت امرأتى اذ كانت شابة عاقرا غير قابلة للولد وانا وهى شابان
فلم يأتنا ولد لاختلال احد السببين فكيف بها وقد يبست قال الجلال المحلى بلغت ثمانيا وتسعين
سنة وقد بلغت انا من الكبر عتيا من عتا يبس اى نهاية السن قال الجلال المحلى مائة وعشرين
سنة وبما تقرر سقط ما قيل لم تعجب زكريا عليه السلام بقوله انى يكون لى غلام مع انه هو الذى
طلب الغلام وقرأ حفص وحمزة والكسائى عتيا وصليا وجثيا بكسر عين الاول وصاد الثانى وجيم
الثالث وضم الباقون واما بكيا فكسر الباء الموحدة حمزة والكسائى وضمها الباقون واصل عتى
عتو وكسرت التاء تخفيفا وقلبت الواو الاولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها وانما
استعجب للولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافا بان المؤثر فيه كامل القدرة وان الوسائط عند المحققين
ملغاة ولذلك قال اى الله تعالى كما قال الاكثرون لان زكريا انما كان يخاطب الله ويسأله بقوله
رب انى وهن العظم منى او الملك المبلغ للبشارة تصديقا له لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى
فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى وايضا فانه لما قال وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك اى الامر كذلك
فهو خبر مبتدأ محذوف ثم علله بقوله قال ربك اى الذى عودك بالاحسان فدل ذلك على انه كلام
الملك قال ابن عادل ويمكن ان يجاب بانه يحتمل ان يحصل النداآن نداء الله تعالى ونداء الملك ثم ذكر مقول
القول فقال هو اى خلق يحيى منكما على هذه الحالة علىّ اى خاصة هين اى بان ارد عليك قوة الجماع وافتق
رحم امرأتك للعلوق وقد خلقتك اى قدرتك وصورتك واوجدتك من قبل ولم اى والحال انك
لم تك شيئا بل كنت معدوما صرفا وفيه دليل على ان المعدوم ليس بشئ ولاظهار الله تعالى هذه القدرة
العظيمة الهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها وقرأ حمزة والكسائى بعد القاف بنون بعدها الف والباقون
بعد القاف بتاء مضمومة ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به قال رب اجعل لى على ذلك آية
اى علامة تدلنى على وقوعه قال آيتك على وقوع ذلك ألا تكلم الناس اى لا تقدر على كلامهم بخلاف
ذكر الله تعالى ثلاث ليال اى بايامها كما فى آل عمران ثلاثة ايام حال كونك سويا من غير خرس ولا مرض
وجعلت الآية الدالة عليه سكوت ثلاثة ايام ولياليهن من غير ذكر الله دلالة على اخلاصه وانقطاعه
بكليته الى الله تعالى دون غيره فخرج عقب اعلام الله تعالى له بهذا على قومه من المحراب اى من المسجد
وهم ينتظرونه ان يفتح لهم الباب متغيرا لونه فانكروه وهو منطلق اللسان بذكر الله تعالى
منحبس عن كلام الناس فقالوا ما لك يا نبى الله فأوحى اليهم اى اشار بشفتيه من غير نطق
وقال مجاهد كتب لهم فى الارض ان سبحوا اى اوجدوا التسبيح والتقديس لله تعالى بالصلاة
وغيرها بكرة وعشيا اى اوائل النهار واواخره على العادة فعلم بمنعه من كلامهم حمل امرأته

بيحيى قال الجلال المحلي وبعد ولادته بسنتين قال الله تعالى له يا يحيى خذ الكتاب اي التورية بقوة
اي بجد ثم ان الله تعالى وصفه بصفات الاولى قوله تعالى وآتيناه الحكم قال ابن عباس النبوة صبيا
قال الجلال المحلي تبعا للبغوي ابن ثلاث سنين اي احكم الله عقله في صباه واستنباه وقيل المراد
بالحكم الحكمة وفهم التورية فقرأ التورية وهو صغير قال البغوي وعن بعض السلف من قرأ القرآن
قبل ان يبلغ فهو ممن اوتي الحكم صبيا ، الصفة الثانية قوله تعالى وحنانا اي وآتيناه رحمة وهيبة
ووقارا ورقة قلب ورزقا وبركة من لدنا اي من عندنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة ، الصفة الثالثة
قوله تعالى وزكوة اي وآتيناه طهارة في دينه قال ابن عباس يعني بالزكوة الطاعة والاخلاص
وقال قتادة هي العمل الصالح وقال الكلبي يعني صدقة تصدق الله بها على ابويه ، الصفة
الرابعة قوله تعالى وكان اي جبلة وطبعا تقيا اي مخلصا مطيعا روي انه لم يعمل خطيئة
ولم يهم بها ، الصفة الخامسة قوله تعالى وبرا بوالديه اي بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه
لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى اعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا
الا اياه وبالوالدين احسانا ، الصفة السادسة قوله تعالى ولم يكن جبارا اي متكبرا والمراد وصفه
بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك
للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان راس العبادة معرفة الانسان
نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به
التجبر والترفع ولذلك لما تجبر ابليس وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن المؤمنين وقيل الجبار
هو الذي لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم والذهاب بنفسه من انه لا يلزمه قضاء حق لاحد
وقيل هو كل من عاقب على غضب نفسه ، الصفة السابعة قوله تعالى عصيا اي عاقا او عاصيا به وهو ابلغ
من العاصي كما ان العليم ابلغ من العالم ، الصفة الثامنة قوله تعالى وسلام عليه منا يوم ولد ويوم يموت
ويوم يبعث حيا ، فان قيل لم خص هذه الاوقات الثلاثة اجيب بوجوه الاول قال محمد بن جرير الطبري ع
وسلام عليه يوم ولد اي امان من الله تعالى عليه يوم ولد من ان يناله الشيطان كما ينال سائر بني ادم
ويوم يموت اي امان من الله من عذاب القبر ويوم يبعث اي ومن عذاب الله يوم القيامة الثاني قال
ابن عيينة اوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت
فيرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث فيرى في محشر عظيم فاكرم الله تعالى يحيى عليه السلام فخصه بالسلام
في هذه المواطن الثالث قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد اي اول ما يرى في الدنيا ويوم يموت
اي اول يوم يرى فيه امر الاخرة ويوم يبعث حيا اي اول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال
حيا تنبيها على كونه من الشهداء لانه قتل وقد قال تعالى احياء عند ربهم يرزقون ، فروع ، الاول هذا
السلام يمكن ان يكون من الله وان يكون من الملائكة وعلى التقديرين ففيه دلالة على تشريفه لان
الملائكة لا يسلمون الا عن امر الله تعالى ، الثاني ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الانبياء

ع ١

لقوله تعالى سلام على نوح سلام على ابراهيم لانه تعالى قال يوم ولد وليس كذلك سائر الانبياء
الثالث روي ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام انت افضل مني لان الله تعالى قال
سلام عليه وانا سلمت على نفسي قال الرازي وهذا ليس بقوي لان سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام
الله تعالى على يحيى لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما امر الله تعالى انتهى ولكن بين السلامين مزية تنبيه
هذه القصة قد ذكرت في آل عمران بقوله تعالى كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا الى ان قال
هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة
وهو قائم لان زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم طمع في حق نفسه فدعا وقد وقعت
المخالفة في ذكرها هنا وهناك في الالفاظ من وجوه الاول منها ان الله تعالى صرح في آل عمران بان المنادي
هو الملائكة بقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب وفي هذه السورة الاظهر
ان المنادي بقوله يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى هو الله تعالى واجيب بان الله تعالى هو المبشر
سواء كان بواسطة ام لا الثاني انه قال تعالى في آل عمران انى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي
عاقر فذكر اولا كبر سنه ثم عقر امرأته وفي هذه السورة قال انى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا
وقد بلغت من الكبر عتيا واجيب بان الواو لا تقتضي الترتيب الثالث قال في آل عمران وقد بلغني
الكبر وقال هنا وقد بلغت من الكبر عتيا واجيب بان ما بلغك فقد بلغته الرابع قال في آل عمران
آيتك ان لا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا وقال هنا ثلاث ليال سويا واجيب بان الآيتين دلتا على ان
المراد ثلاثة ايام بلياليهن كما مر القصة الثانية قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ولما
كانت قصة عيسى عليه السلام اغرب من قصة يحيى لان خلق الولد من شيخين فانيين
اقرب الى مناهج العادات من خلق الولد لا من اب البتة واحسن طرق التعليم والتفهيم الاخذ
من الاقرب فالاقرب مترقيا الى الاصعب فالاصعب اشار الى ذلك بتغيير السياق فقال عاطفا
على ما تقديره اذكر هذا لهم واذكر بلفظ الامر في الكتاب اي القرآن مريم اي قصتها وهي ابنة عمران
خالة يحيى كما في الصحيح من حديث انس بن مالك بن صعصعة الانصاري في حديث الاسراء فلما
خلصت فاذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ثم ابدل من مريم بدل اشتمال فقال اذ اي اذكر ما اتفق
لها حين انتبذت اي كلفت نفسها ان اعتزلت وانفردت من اهلها حالة مكانا شرقيا
اي شرقي بيت المقدس وقال الرازي شرقي دارها وعن ابن عباس اني لاعلم خلق الله تعالى
لاي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذت ميلاده قبلة واقتصر
الجلال المحلي على الشرق من الدار وتردد البيضاوي بينهما فقال شرقي بيت المقدس او شرقي دارها
انتهى ويحتمل ان يكون شرقي بيت المقدس هو شرقي دارها فلا مخالفة فاتخذت اي اخذت
بقصد وتكلف ودل على قرب المكان بالاتيان بالجار فقال من دونهم اي ادنى مكان من مكانهم
حجابا اي ارسلت سترا استترت به لغرض صحيح والمعنى مذكور واختلف المفسرون في ذلك على وجوه احدها

انها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة ثانيها انها عطشت فخرجت الى المفازة لتستقي ثالثها انها كانت في منزل زوج اختها زكريا وفيه محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج اغلق عليها الباب فتمنت ان تجد خلوة في الجبل لتفلي راسها وثوبها فانفجرت لها الشمس فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فاتاها الملك كما قال تعالى فَأَرْسَلْنَا لامر يدل على عظمتنا إِلَيْهَا رُوحَنَا اى جبريل عليه السلام ليعلمها ما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير اب لئلا يشتبه عليها الامر فتقتل نفسها غما فَتَمَثَّلَ لَهَا اى تشبح بشين معجمة ثم باء موحدة ثم حاء مهملة وهو روحاني بصورة الجسماني بَشَرًا سَوِيًّا في خلقه حسن الشكل رابعها انها قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها وكانت تتحول من المسجد الى بيت خالتها اذا حاضت وتعود اليه اذا طهرت فبينما هي في مغتسلها اتاها جبريل بعد لبسها ثيابها متمثلا بصورة شاب امرد سوى الخلق لتستانس بكلامه ولو اتاها في الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه قال البيضاوي ولعله لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها اى مع امنها الفتنة بعفتها قال الرازي وكل هذه الوجوه محتملة وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها ولما رات مريم جبريل نحوها قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ اى اعتصم بِالرَّحْمَنِ اى الذي رحمته عامة لجميع خلقه مِنكَ اى ان تقربني وفتح ياء انى نافع وابن كثير وابو عمرو وسكنها الباقون ثم علمت بما تقرر في المد ولما غرست فيه بما اتاها الله تعالى من جبلتها واصفى من سريرتها التقوى قالت إِن كُنتَ تَقِيًّا اى مؤمنا مطيعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله اى فانى عائذة منك او نحو ذلك هل تعرفها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها فان قيل انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا اجيب بان هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمني اى ينبغي ان يكون ايمانك مانعا لك من الظلم كذلك هنا ينبغي ان تكون تقواك مانعة لك من الفجور وهذا في نهاية الحسن لانها علمت انها لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي وهو كقوله تعالى وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين اى ان شرط الايمان يوجب هذا لا ان الله تعالى يخشى في حال دون حال وقيل كان في ذلك الزمان انسان فاجر يتبع النساء اسمه تقي فظنت مريم ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك فاستعاذت منه قال الرازي والاول هو الوجه ولما علم جبريل عليه السلام خوفها قَالَ مجيبا لها بما معناه انى لست ممن تخشين ان يكون متهما مؤكدا لاجل استعاذتها إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ اى الذي عذت به فانا لست متهما بل متصف بما ذكرت وزيادة الرسالة وعبر باسم الرب المقتضي للاحسان لطفا بها ولان هذه السورة مصدرة بالرحمة ومن اعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده وقوله لِأَهَبَ لَكِ قرأ ورش وابو عمرو وقالون بخلف عنه بالياء اى ليهب الله تعالى لك وقرأ الباقون بالهمزة اى لاهب انا لك وفي هذه الوجهان الاول ان الهبة لما جرت على يده بان كان هو الذي ينفخ في جيبها بامر الله تعالى جعل نفسه كانه هو الذي وهب لها واضافة الفعل الى من هو سبب مستعمل قال الله تعالى في الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس الثاني ان جبريل عليه السلام لما

بشرها بذلك كانت البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة ثم بين الموهوب بقوله غلاماً اى ولداً
ذكراً فى غاية القوة والرجولية ثم وصفه بقوله زَكِيًّا اى نبياً طاهراً من كل ما يدنس البشر نامياً
على الخير والبركة قَالَتْ مريم أَنّٰى اى من اين وكيف يَكُونُ لِي غُلَامٌ ام الدة وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ بنكاح
وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا اى زانية فتعجبت مما بشرها به جبريل عليه السلام لانها قد عرفت بالعادة ان
الولادة لا تكون الا من رجل والعادة عند اهل المعرفة معتبرة فى الامور وان جوزوا خلاف
ذلك فى القدرة فليس فى قولها هذا دلالة على انها لم تعلم انه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء
وكيف وقد عرفت انه تعالى خلق ابا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون
كذلك لابد ان يعرف قدرة الله تعالى على ذلك وبما تقرر سقط ما قيل قولها ولم يمسسنى بشر يدخل
تحته قولها ولم اك بغياً ولهذا اقتصر عليه فى سورة آل عمران بقولها قالت رب انى يكون لى ولد و
لم يمسسنى بشر فلم تذكر البغى ويجوز ان يقال انها افردت ذكر البغى مع دخوله فى الكلام الاول لانه اعظم
ما فى بابه فهو نظير قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله تعالى وملائكته ورسله
وجبريل وميكال قَالَ لها جبريل عليه السلام الامر كَذٰلِكِ من خلق غلام منك من غير اب ولما كان
لسان الحال قائلاً كيف يكون بغير سبب اجاب جبريل بقوله قَالَ رَبُّكِ هُوَ اى الخلق والايجاد لهذا
الولد على هذه الهيئة عَلَيَّ وحدى لا يقدر عليه غيرى هَيِّنٌ اى بان ينفخ بامرى جبريل فيك فتحملى به
ولكون ما ذكر فى معنى العلة عطف عليه وَلِنَجْعَلَهُ بما لنا من العظمة آيَةً لِلنَّاسِ اى علامة على كمال قدرتنا
على البعث ادل من الآية فى يحيى عليه السلام وبه تمام القسمة الرباعية فى خلق البشر فانه اوجد من
انثى بلا ذكر وحواء من ذكر بلا انثى وادم عليه السلام لا من ذكر ولا انثى وبقية اولاده من ذكر وانثى معاً
وَرَحْمَةً مِنَّا على العباد يهتدون به وَكَانَ ذلك كله أَمْرًا مَقْضِيًّا به فى علمى قوله تعالى فَحَمَلَتْهُ
فيه حذف تقديره فنفخنا فيها فحملته دل على ذلك قوله تعالى فى سورة التحريم ومريم ابنت عمران
التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا واختلف فى النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله
تعالى لهذه الآية ولانه تعالى قال ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم ومقتضى التشبيه حصول المشابهة
الا فيما اخرجه الدليل وفى حق ادم النافخ هو الله تعالى قال تعالى ونفخت فيه من روحى فكذا ههنا وقال
بعضهم النافخ جبريل لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لاهب لك على احد القولين انه
النافخ واختلف فى كيفية نفخه فقيل ان جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ فى جيبها فحملت
حين لبسته وقيل مد الى جيب درعها اصابعه ونفخ فى الجيب وقيل نفخ فى كم قميصها وقيل فى فيها
وقيل نفخ جبريل نفخاً من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى فى الحال وقيل نفخ فى ذيلها
فدخلت النفخة فى صدرها فحملت فجاءت اختها امرأة زكريا تزورها فلما التزمتها عرفت انها
حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا انى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله
تعالى مصدقاً بكلمة من الله وقيل حملت وهى بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد

كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل قال الرازي وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأقوال
المذكورة ثم عقب بالحمل قوله فانتبذت به أي فاعتزلت به وهو في بطنها حالة مكاناً قصياً
أي بعيداً من أهلها أو من المكان الشرقي وأشار إلى قرب الولادة من الحمل بفاء التعقيب في قوله
فأجاءها أي فأتى بها وألجأها المخاض وهو تحرك الولد في بطنها للولادة إلى جذع النخلة وهو
ما برز منها من الأرض ولم يبلغ الأغصان وكانت تعرفها لأنه لم يكن في تلك البلد الباردة غيرها
فكانت كالعلم لما فيها من العجيب لأن النخل من أقل الأشجار صبراً على البرد ولعلها ألجئت إليها دون
غيرها من الأشجار على كثرتها لمناسبة حال النخلة لها لأنها لا تحمل إلا باللقاح من ذكور النخل فحملها بمجرد
هزها أنسب شيء بإتيانها بولد من غير والد فكيف إذا كان ذلك في جذع يابسة وكانت يابسة مع ما لها
فيها من المنافع بالاستناد إليها والاعتماد عليها وكون رطبها خرسة للنفساء وغاية في نفعها وغير ذلك
والخرسة بخاء معجمة مضمومة طعام النفساء وبغير هاء الخرس فقوله طعام الولادة قال ابن عباس
الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته
في ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل
كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لأنه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى
لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر ولما كان ذلك أمراً صعباً عليها جداً كان كأنه قيل
يا ليت شعري ما كان حالها فقيل قالت لما حصل عندها من خوف العار يا ليتني مت وأشارت إلى استغراق
الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار قبل هذا أي الأمر العظيم وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي
مت بكسر الميم والباقون بالضم وكنت نسياً أي شيئاً من شأنه أن يطرح وينسى منسياً أي متروكاً بالفعل
لا يخطر على بال فإن قيل لم قالت ذلك مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام
إليها ووعدها بأن يجعلها وولدها آية للعالمين أجيب عن ذلك بأجوبة الأول أنها تمنت ذلك
استحياء من الناس فأنساها الاستحياء بشارة الملائكة بعيسى الثاني أن عادة الصالحين إذا وقعوا
في بلاء أن يقولوا ذلك كما روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال طوبى لك
يا طائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر ووددت أني ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تبنة
من الأرض فقال يا ليتني هذه التبنة ولم أك شيئاً وعن علي رضي الله عنه يوم الجمل ليتني مت قبل هذا اليوم
بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالاً لم تلده أمه فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند ما
اشتد الأمر عليهم الثالث لعلها قالت ذلك لئلا تقع المعصية ممن يتكلم فيها وإلا فهي راضية
بما بشرت به وقرأ حفص وحمزة نسياً بفتح النون والباقون بالكسر وقوله تعالى فناداها من تحتها
قرأه نافع وحفص وحمزة والكسائي بكسر ميم من وجر التاء من تحتها والباقون بفتح من ونصب تحتها وأمال ألف
ناداها حمزة والكسائي إمالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وفي المنادي
أوجه أحدها أنه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ثانيها أنه جبريل

عليه السلام وانه كالقابلة للولد ثالثها ان المنادي على القراءة بالفتح هو عيسى وعلى القراءة بالكسر
هو جبريل وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم قال الرازي والاول اقرب وجرى عليه البيضاوي واقتصر
الجلال المحلي على الثاني والمعنى على الاول ان الله تعالى انطقه لها حين ولدته تطييبا لقلبها وازالة
للوحشة عنها حتى تشاهد في اول الامر ما بشرها به جبريل من علو شان ذلك الولد وعلى الثاني
ان الله تعالى ارسله اليها ليناديها بهذه الكلمات كما ارسل اليها في اول الامر تذكيرا للبشارات
المتقدمة والضمير في تحتها للسيدة مريم وعلى تقدير ان يكون المنادي هو عيسى فهو ظاهر وان
كان جبريل فقيل انه كان تحتها يقبل الولد كالقابلة وقيل تحتها اسفل من مكانها وقيل الضمير فيه
للنخلة اي ناداها من تحتها أَلَّا تَحْزَنِي يجوز في ان ان تكون مفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول
ولا على هذا ناهية وحذف النون للجزم وان تكون الناصبة ولا حينئذ نافية وحذف النون للنصب ومحل
ان اما نصب او جر لانها على حذف حرف الجر اي فناداها بكذا قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ اي المحسن اليك تَحْتَكِ في هذه
الارض التي لا ماء جار فيها سَرِيًّا اي جدولا من الماء تطيب به نفسك قال الرازي اتفق المفسرون
الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد ان السري هو النهر والجدول سمي بذلك لان الماء يسري فيه
واما الحسن وابن زيد فانهما جعلا السري هو عيسى والسري هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات
قومه اي اشرافهم واحتج من قال هو النهر بان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السري فقال هو
الجدول وبقوله تعالى فكلي واشربي فدل على انه النهر حتى ينضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب
واحتج من قال انه عيسى بان النهر لا يكون تحتها بل الى جنبها ولا يجوز ان يجاب عنه بان المراد انه
جعل النهر تحت امرها يجري بامرها ويقف بامرها كقول فرعون وهذه الانهار تجري من تحتي لان
هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى لم يحتج الى هذا المجاز وايضا فانه موافق لقوله وجعلنا
ابن مريم وامه اية واجيب بان المكان المستوي اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان اقرب منه
كان فوق وكل من كان ابعد منه كان تحت * تنبيه * اذا قيل بان السري هو النهر ففيه وجهان
الاول قال ابن عباس ان جبريل ضرب برجله الارض وقيل عيسى فظهر عين ماء عذب وجرى وقيل
كان هناك ماء جار قال ابن عادل والاول اقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا يدل على
الحدوث في ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشأنها وقيل كان هناك نهر يابس اجرى
الله فيه الماء وحييت النخلة اليابسة واورقت واثمرت وارطبت قال ابو عبيدة والفراء
السري هو النهر مطلقا وقال الاخفش هو النهر الصغير وَهُزِّي اِلَيْكِ اي اوقعي الهز وهو جذب
بتحريك بِجِذْعِ النَّخْلَةِ اي التي انت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها تُسَاقِطْ عَلَيْكِ
من اعلاها رُطَبًا جَنِيًّا طريا اية اخرى عظيمة روي انها كانت نخلة يابسة لا راس لها ولا ثمر وكان
الوقت شتاء فهزتها فجعل الله تعالى لها راسا وخوصا ورطبا وقرأ حمزة بفتح التاء والسين
مخففة وفتح القاف وحفص بضم التاء وفتح السين مخففة وكسر القاف والباقون بفتح التاء

وتشديد السين مفتوحة وفتح القاف * تنبيه * الباء في بجذع زائدة والمعنى هزي اليك
جذع النخلة كما في قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وخذ الخطام
وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة وقال الاخفش يجوز ان يكون على معنى هزي اليك رطبا
بجذع النخلة اي على جذعها ورطبا تمييز وجنيا صفته والرطب اسم جنس لرطبة بخلاف تخم فانه
جمع لتخمة والفرق انهم التزموا تذكيره فقالوا هو الرطب وتأنيث ذلك فقالوا هي التخم فذكروا الرطب
باعتبار الجنس وانثوا التخم باعتبار الجمعية قال ابن عادل وهو فرق لطيف والرطب ما قطع قبل يبسه
وجفافه وخص الرطب بالذكر قال الربيع بن خثيم ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض
خير من العسل وهذه الافعال الخارقة للعادة كرامات لمريم او ارهاص لعيسى وفي ذلك تنبيه
على ان من قدر ان يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر ان يحبلها من غير فحل وتطييب لنفسها
فلذلك قال فكلي اي من الرطب واشربي من السري او كلي من الرطب واشربي من عصيره وقري عينا
اي وطيبي نفسك وارفضي عنها ما احزنها وقدم الاكل على الشرب لان حاجة النفساء الى الرطب
اشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدم فان قيل ان مضرة الخوف اشد
من مضرة الجوع والعطش لان الخوف الم الروح والجوع الم البدن والم الروح اقوى من الم البدن روي انه
اجيعت شاة فقدم اليها علف وعندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع
جوعها خوفا من الذئب ثم كسر رجلها وقدم اليها العلف فتناولت العلف مع الم البدن فدل ذلك
على ان الم الخوف اشد من الم البدن واذا كان كذلك فلم قدم ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف
اجيب بان هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت
تحتاج الا الى التذكير مرة اخرى وقيل قري عينا برؤية ولدك عيسى وقيل بالنوم فان المهموم لا ينام
وقوله فاما ترين فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة وترين حذفت منه لام الفعل وعينه
والقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين من البشر احدا ينكر عليك فقولي يا مريم
لذلك المنكر جوابا له مع التأكيد تنبيها على البراءة لان البريء يكون ساكنا لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه
وحلفه اني نذرت للرحمن اي الذي عمت نعمته صوما اي امساكا عن الكلام في شأنه وغيره مع
الاناسي بدليل فلن اكلم اليوم انسيا فان كلامي يقبل الرد والمجادلة ولكن يتكلم عني المولود الذي
كلامه لا يقبل الدفع واما انا فانزه نفسي عن مجادلة السفهاء قالوا ومن اذل الناس سفيه لم يجد مسافها
فلا اكلم الا الملائكة او الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر انواع الذكر وقيل صياما لانهم كانوا لا يتكلمون
في صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا في شرعهم
وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد
الفكر بذكر الله تعالى قربة ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام
في الشمس وروي انه دخل ابو بكر رضي الله عنه على امرأة قد نذرت ان لا تتكلم فقال

ابو بكر ان الاسلام قد هدم ما كان قبله فتكلمي + تنبيه + اختلفوا في انها هل قالت لهم اني نذرت للرحمن
صوما فقال قوم انها ما تكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بان تأتي بهذا النذر فلو تكلمت
معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها سكتت واشارت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت
في الحال بل صبرت حتى اتاها القوم فذكرت لهم انها نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا بعد
هذا الكلام فأتت اي فلما سمعت هذا الكلام اشتد قلبها وزال حزنها فأتت به اي عيسى قومها
وان كان فيهم قوة المجادلة لكل ما يريدون اتيانه البرئ الموقن بان الله معه حالة كونها تحمله غير مبالية
باحد ولا مستحيية واختلفوا في انها كيف اتت به فقيل ولدته ثم حملته في الحال الى قومها وقيل احتمل
يوسف النجار مريم وابنها الى غار فمكثت فيه اربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته فی
فكلمها في الطريق فقال يا اماه ابشري فاني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على اهلها ومعها الصبي بكوا
وحزنوا وكانوا اهل بيت صالحين قال الرازي وليس في القرآن ما يدل على التعيين ثم كانه قيل فلما اتت
به قومها ماذا قالوا لها فقيل قالوا يا مريم ما هذا الولد لان حالها في اتيانها به امر عجيب لقد جئت
شيئا فريا اي عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم فهو من الفري الجلد يقال فريت الاديم
اذا قطعته على جهة الافساد والا من فرينه يقال فريته قطعته على جهة الاصلاح ويدل على ان مرادهم
الاول قولهم بعده يا اخت هرون ما كان ابوك امرأ سوء اي زانيا وما كانت امك بغيا اي زانية
فمن اين لك هذا الولد لان هذا القول ظاهره التوبيخ وفي هرون هذا اربعة اقوال احدها انه رجل
صالح من بني اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد انك كنت في الزهد كهرون
فكيف صرت هكذا وروي ان هرون هذا الصالح تبع جنازته اربعون الفا كلهم يسمى هرون
من بني اسرائيل تبركا باسمه سوى سائر الناس شبهوها به على معنى انا ظننا انك مثله في الصلاح
وليس المراد منه الاخوة في النسب كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وعن
المغيرة بن شعبة قال لما قدمت نجران سألوني فقالوا انكم تقرؤن يا اخت هرون وموسى قبل عيسى
بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون
بانبيائهم والصالحين قبلهم قال ابن كثير واخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه انها اخت موسى
وهرون نسبا فان بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على من عنده ادنى علم وكانه غره ان في التوراة
ان مريم اخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم نجى الله تعالى موسى وقومه واغرق فرعون وقومه
وجنوده فاعتقد ان هذه هي تلك وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح المتقدم الثاني انه
هرون اخو موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا اخا تميم وللهمداني يا اخا همدان اي
يا واحدا منهم الثالث انه كان فاسقا في بني اسرائيل فنسبت اليه اي شبهوها به الرابع انه كان
لها اخ من ابيها يسمى هرون من صلحاء بني اسرائيل فعيرت به قال الرازي وهذا هو الاقرب لوجهين
الاول ان الاصل في الكلام الحقيقة فيحمل الكلام على اخيها المسمى بهرون الثاني انها

اضيفت اليه ووصف ابواها بالصلاح فحينئذ يصير التوبيخ اشد لان من كان حال ابويه واخيه بهذا الحال يكون صدور الذنب منه افحش فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ اى لما بالغوا فى توبيخها سكتت واشارت الى عيسى عليه السلام انه هو الذى يجيبكم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة اشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وعن السدى لما اشارت اليه غضبوا وقالوا سخريتها بنا اشد من زناها ثم قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا لم يبلغ سن هذا الكلام الذى لا يقوله الا الاكابر العقلاء بل الانبياء والتعبير بكان يدل على انه عند الاشارة اليه لم يتجدد لهم الآن تكلمه بل حين سمع المحاورة ورأى الاشارة بدا منه قول خارق لعادة الرضعاء بل الصبيان روى انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاعة واقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره واشار بسبابة يمينه وقيل كلمهم ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان

تنبيه في كان هذه اقوال احدها انها زائدة وهو قول ابى عبيد اى كيف نكلم من فى المهد وصبيا على هذا نصب على الحال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور الواقع صلة ثانيها انها تامة بمعنى حدث ووجد والتقدير كيف نكلم من وجد صبيا وصبيا حال من الضمير فى كان قال الرازى وهذا هو الاقرب الثالث انها بمعنى صار اى كيف نكلم من صار فى المهد صبيا وصبيا على هذا خبرها فان قيل كيف عرفت مريم من حال عيسى انه يتكلم اجيب بان جبريل وعيسى عليهما السلام لما ناداها من تحتها امراها بالسكوت وامرها عند رؤية الناس بالسكوت صار ذلك كالتنبيه لها على ان المجيب هو عيسى عليه السلام او انها عرفت ذلك بالوحى الى زكريا او اليها على سبيل الكرامة واختلفوا فى المهد فقيل هو حجرها لما روى انها اخذته عليه السلام فى خرقة فاتت به قومها فلما راوها قالوا لها ما قالوا فاشارت اليه وهو فى حجرها ولم يكن لها منزل بعد حتى يعد لها المهد وقيل هو المهد بعينه والمعنى كيف نكلم صبيا سبيله ان ينام فى المهد وقال وهب اتى زكريا مريم عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت امرت بها فوصف نفسه بثمان صفات

الصفة الاولى قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ اى الملك الاعظم الذى له صفات الكمال لا اتعبد لغيره وفى ذلك اشارة الى ان عبد الله لا يتخذ الها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى الصفة الثانية قوله تعالى آتَانِيَ الْكِتَابَ واختلف فى ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام فى الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال ابو مسلم هو الانجيل لان الالف واللام هنا للجنس وقال قوم التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق واقتصر البيضاوى على الاول والبقاعى على الثالث وزاد عليه والزبور وغيرها من الصحف الصفة الثالثة قوله وَجَعَلَنِي نَبِيًّا واختلف فى معنى ذلك فقيل معناه سيؤتينى الكتاب ويجعلنى نبيا وانى بلفظ الماضى لتحقق وقوعه كالواقع كما فى قوله تعالى اتى امر الله فلا تستعجلوه وقيل هو اخبار عما كتب فى اللوح المحفوظ كما قيل للنبى صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون اوتى الانجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال وقال الحسن الهم التوراة وهو فى بطن امه الصفة الرابعة قوله وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا بانواع البركات

على الاول بقوله فى ... ووصفه بالاول ... الكتاب ... الثالث ... العجب ...

أَيْنَمَا أي في أي مكان كُنْتُ وذكروا في تفسير المبارك وجوهاً أحدها أنّ البركة في اللغة هي الثبات
وأصله من بروك البعير ومعناه وجعلني ثابتاً على دين الله تعالى مستقراً عليه ثانيها إنما كان
مباركاً لأنه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق فإن ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله
روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سلمت أم عيسى عيسى إلى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه
إليك على أن لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال أي شيء أكتب فقال اكتب أبجد فرفع عيسى
عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني
إن كنت لا تدري فاسألني فأنا أعلمك الألف من آلاء الله والباء من بهائه والجيم من جماله
والدال من أداء الحق إلى الله تعالى ثالثها البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع
الأحوال منجحاً مفلحاً لأني ما دمت أبقى في الدنيا أكون مستعلياً على الغير بالحجة فإذا جاء الوقت
المعلوم أكرمني الله تعالى بالرفع إلى السماء رابعها مباركاً على الناس من حيث يحصل بسبب دعائه
إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وعن قتادة أنّ امرأة رأته وهو يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص
فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به فقال عيسى مجيباً لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع
ما فيه ولم يكن جباراً شقياً + تنبيه + قوله أينما كنت يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل إنه عاد إلى حال
الصغر وزوال التكليف الصفة الخامسة قوله وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ أي طهرة النفس وَالزَّكَاةِ أي طهرة
المال فعلاً في نفسي وأمراً لغيري مَا دُمْتُ حَيًّا ليكون ذلك أشبه على من ادعى أني إله لأنه لا شبهة
في أنّ من يصلي إلى الله ليس بإله فإن قيل كيف يؤمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلاً والقلم مرفوع
عن الصغير لقوله صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الحديث أجيب بوجهين الأول أن ذلك
لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فيكون المعنى أوصاني بأدائهما في وقت
وجوبهما علي وهو وقت البلوغ الثاني أنّ عيسى لما انفصل عن أمه صيره الله بالغاً عاقلاً تام الخلقة ويدل
عليه قوله تعالى إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاماً كاملاً دفعة
فكذا القول في عيسى عليه السلام قال الرازي وهذا أقرب إلى ظاهر اللفظ لقوله ما دمت حياً فهذا
يفيد أنّ هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته فإن قيل لو كان الأمر كذلك لكان
القوم حين رأوه رأوا شخصاً كامل الأعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص
لا يكون عجباً فكان ينبغي أن لا يتعجبوا أجيب بأنه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل
بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أنّ تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين
رفع إلى السماء وحين ينزل + الصفة السادسة قوله وَبَرًّا أي وجعلني براً + ولما كان السياق لبراءة
والدته قال بِوَالِدَتِي أي التي أكرمها الله تعالى بإحصان الفرج والحمل بي من غير ذكر وفي ذلك إشارة إلى تنزيه أمه
عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأموراً بتعظيمها الصفة السابعة قوله وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا
متعاظماً شَقِيًّا أي عاصياً بأن أفعل فعل الجبارين بغير استحقاق إنما أفعل ذلك بمن يستحق وروي

عن عيسى عليه السلام انه قال قلبي لين واني صغير في نفسي وعن بعض العلماء لا تجد العاق الا جبارا
شقيا ولا تجد سيء الملكة الا مختالا فخورا وقرأ وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا الصفة
الثامنة قوله وَالسَّلَامُ من الله تعالى عَلَيَّ فلا يقدر احد على ضري يَوْمَ وُلِدْتُ فلا يضرني شيطان وَيَوْمَ أَمُوتُ
فلا يضرني ايضا ومن بعد نبوتي عليّ باله وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا يوم القيامة كما تقدم في يحيى عليه السلام
وفي ذلك اشارة الى انه في البشرية مثل من سواه لم يفارقه اصلا الا في كونه من غير ذكر واذا كان جنس السلام
عليه كان اتباعه كذلك ولم يبق لاعدائه الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى
بمعنى ان العذاب على من كذب وتولى ذَلِكَ اي الذي تقدم نعته بقوله اني عبد الله الى آخره هو عِيسَى
ابْنُ مَرْيَمَ لا ما يصفه النصارى بقولهم انه الله او ابنه او اله ثالث فهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه
الابلغ والطريق البرهاني حيث جعل الموصوف باضداد ما يصفونه وفي ذلك تنبيه على انه ابن حسنة
الحواء وقوله تعالى قَوْلَ الْحَقِّ قرأه عاصم وابن عامر بنصب اللام على انه مصدر مؤكد والباقون بالرفع على انه
خبر محذوف اي هو قول الحق الذي لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق او لتمام القصة ثم
عجب تعالى من ضلالهم فيه بقوله تعالى الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ اي يشكون شكا يختلفون فيه ويجادلون فيه
فتقول اليهود ساحر وتقول النصارى ابن الله مع ان امره في غاية الوضوح ليس موضعا للشك
اصلا ثم دل على كونه حقا في كونه ابنا لامه مريم لا غيرها بقوله ردا على من ضل مَا كَانَ اي ما صح ولا يتأتى
ولا يتصور في العقول ولا يصح ولا يأتي لانه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة لِلَّهِ الغني عن كل شيء
أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ واكد النفي بمن لان المقام يقتضي النفي العام ولما كان اتخاذ الولد من النقائص
اشار الى ذلك بالتنزيه التام بقوله تعالى سُبْحَانَهُ اي تنزه عن كل نقص اي من احتياج الى ولد وغيره
ثم علل ذلك بقوله عز وجل إِذَا قَضَى أَمْرًا اي اي امر كان اي اراد ان يحدثه فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ اي يريده
ويعلق قدرته به وقوله تعالى فَيَكُونُ قرأه ابن عامر بنصب النون بتقدير ان او على الجواب والباقون
بالرفع بتقدير هو وقوله وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ اخبار عن عيسى عليه السلام انه قال ذلك وقرأ ابن عامر و
الكوفيون بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها بتقدير حذف حرف الجر متعلق بما بعده
والتقدير ولان الله ربي وربكم فَاعْبُدُوهُ وحده لتفرده بالاحسان كما عبدته كقوله تعالى
وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا والمعنى لوحدانيته اطيعوه وقيل انه عطف على الصلوة
والتقدير واوصاني بالصلوة وبان الله واليه ذهب الفراء هَذَا اي الذي امرتكم به صِرَاطٌ اي طريق
مُسْتَقِيمٌ اي يقود الى الجنة وقرأ قنبل بالسين وخلف باشمام الصاد والباقون بالصاد الخالصة
واختلف في قوله تعالى فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فقيل هم النصارى واختلافهم في عيسى اهو ابن الله
او اله معه او ثالث ثلاثة وسموا احزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق في امر عيسى النسطورية والملكانية
واليعقوبية وقيل هم اليهود والنصارى فجعله بعضهم ولدا وبعضهم كذابا وقيل
هم الكفار الشامل لليهود والنصارى وغيرهم من الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فا

ابن عادل وهذا هو الظاهر لانه لا تخصيص فيه ويؤيده قوله تعالى فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اي شدة
عذاب لهم مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ اي حضور يوم القيامة واهواله وقوله تعالى أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ اي
بهم صيغتا تعجب بمعنى ما اسمعهم وما ابصرهم يَوْمَ يَأْتُونَنَا في الآخرة لان حالهم في شدة السمع والبصر
جديرة بان يتعجب منها فيه [illegible] حيث لا ينفعهم الندم ويتمنون المحال من الرجوع الى الدنيا
ليتداركوا ما فاتهم فلا يجابون الى ذلك بل يسلك بهم في كل ما يؤذيهم ويهلكهم ويرديهم وقوله تعالى
لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ من اقامة الظاهر مقام المضمر اشعارا بانهم ظلموا انفسهم حيث اغفلوا الاستماع
والنظر والاصل ولكنهم الْيَوْمَ اي في الدنيا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ اي بين بذلك الضلال صموا عن سماع
الحق وعموا عن ابصاره اي اعجب منهم باحتياطهم في سمعهم وابصارهم في الآخرة بعد ان كانوا في الدنيا
صما عميا وقيل معناه التهديد بما سيسمعونه وسيبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم ثم ان الله تعالى
امر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان ينذر قومه بقوله وَأَنذِرْهُمْ اي خوفهم يَوْمَ الْحَسْرَةِ هو يوم القيامة
يتحسر فيه المسيء على ترك الاحسان والمحسن على عدم الازدياد من الاحسان لقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم ما من احد يموت الا ندم قالوا وما ندمه يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم ان لا يكون
وقف لازم ازداد وان كان مسيئا ندم ان لا يكون نزع وفي قوله تعالى إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وجوه احدها اذ قضي
الامر ببيان الدلائل وشرح امر الثواب والعقاب ثانيها اذ قضي الامر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال
التكليف ثالثها قضي الامر فرغ من الحساب وادخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار وذبح الموت
كما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى اذ قضي الامر فقال حين يجاء بالموت على صورة
كبش املح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد اهل الجنة فرحا الى فرح واهل النار غما الى غم وقوله تعالى
وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ جملتان حاليتان وفيهما قولان احدهما انهما حالان من الضمير
المستتر في قوله في ضلال مبين اي استقروا في ضلال مبين على هاتين
الحالتين السيئتين والثاني انهما حالان من مفعول انذرهم اي انذرهم على هذه الحالة وما بعدها
وعلى الاول يكون قوله وانذرهم اعتراضا والمعنى وهم في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة وهم لا يصدقون بذلك
اليوم ولما كان الارث هو حوز الشيء بعد موت اهله وكان سبحانه وتعالى قد قضى بموت الخلائق
اجمعين وانه تعالى يبقى وحده عبر عن ذلك بالارث مقررا به مضمون الكلام السابق فقال مؤكدا
تكذيبا لقولهم ان الدهر لا يزال هكذا حياة لناس وموت لآخرين إِنَّا نَحْنُ بعظمتنا التي اقتضت ذلك
نَرِثُ الْأَرْضَ فلا ندع بها شيئا من عاقل ولا غيره ولما كان العاقل اقوى من غيره صرح به بعد دخوله
فقال وَمَنْ عَلَيْهَا اي من العقلاء بان نسلبهم جميع ما في ايديهم وَإِلَيْنَا لا الى غيرنا يُرْجَعُونَ فنجازيهم ع ٢
باعمالهم القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ
اي خبره وقرأ هشام ابراهام بالف بعد الهاء والباقون بالياء وانما امر الله تعالى نبيه بان يذكر ذلك لانه
صلى الله عليه وسلم ما كان هو ولا قومه ولا اهل بلده مشتغلين بالتعليم ومطالعة الكتب فاذا اخبر

عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا باهرا دالا على نبوته وانما ذكر الاعتبار بقصة ابراهيم عليه السلام لوجوه الاول ان منكري التوحيد والذين اثبتوا ربا او معبودا سوى الله تعالى فريقان منهم من اثبت معبودا غير الله تعالى حيا عاقلا وهم النصارى ومنهم من اثبت معبودا غير الله تعالى جمادا ليس بحي ولا عاقل وهم عبدة الاوثان والفريقان وان اشتركا في الضلال الا ان ضلال عبدة الاوثان اعظم فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الاول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الاوثان الثاني ان ابراهيم عليه السلام كان ابا العرب وكانوا مقرين بعلو شانه وطهارة دينه على ما قال تعالى ابيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه فكانه تعالى قال للعرب ان كنتم مقلدين لابيكم على قولكم انا وجدنا اباءنا على امة فاشرف اباءكم واعلاهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الاصنام والاوثان وان كنتم مستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا الثالث ان كثيرا من الكفار في زمان النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون نترك دين ابائنا واجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وبيانه ترك دين ابيه وابطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة ابيه ثم قال تعالى في صفة ابراهيم انه كان جبلة وطبعا صديقا اي بليغ الصدق في نفسه في اقواله وافعاله اي كان من اول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة وسياتي الكلام على قوله بل فعله كبيرهم هذا واني سقيم في محله ولما كانت مرتبة النبوة ارفع من مرتبة الصديقية قال تعالى نبيا اي استنبأه الله تعالى اذ لا رتبة اعلى من رتبة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله تعالى اذ قال بدل من ابراهيم وما بينهما اعتراض او متعلق بكان او بصديقا نبيا اي كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين قال لابيه آزر هاديا له من تيه الضلال بعبادة الاصنام مستعطفا له في كل جملة بقوله يا ابت والتاء عوض عن ياء الاضافة ولا يجمع بينهما وقرأ ابن عامر بفتح التاء في الوصل والباقون بكسرها واما الوقف فوقف ابن كثير وابن عامر بالهاء والباقون بالتاء ثم ان الله تعالى حكى عنه ايضا انه تكلم مع ابيه باربعة انواع من الكلام النوع الاول قوله لم تعبد مريدا بالاستفهام المجاملة واللطف والرفق واللين والادب الجميل في نصحه له كاشفا الامر غاية الكشف بقوله ما لا يسمع ولا يبصر اي ليس عنده قابلية لشيء من هذين الوصفين ليرى ما انت فيه من خدمته او يسمع كلامك اذا ناديته حالا او مآلا ولا يغني عنك شيئا في جلب نفع ودفع ضر فوصف الاوثان بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة في الالهية وبيان ذلك من وجوه احدها ان العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها الا من له غاية الانعام وهو الاله الذي منه اصول النعم وفروعها على ما تقرر في تفسير قوله وان الله ربي وربكم وكما انه لا يجوز الاشتغال بشكرها ما لم يكن منعما وجب ان لا يجوز الاشتغال بعبادتها وثانيها انها اذا لم تسمع ولا تبصر ولا تميز من يطيعها

عمن يعصيها فاى فائدة فى عبادتها وهذا تنبيه على ان الاله يجب ان يكون عالما بكل المعلومات وثالثها
ان الدعاء مخ العبادة فاذا لم يسمع الوثن دعاء الداعى فاى منفعة فى عبادته واذا لم يبصر تقرب من
يتقرب اليه فاى منفعة فى ذلك التقرب ورابعها ان السامع المبصر الضار النافع افضل ممن كان
عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون افضل واكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل
عبودية الاخس وخامسها ان كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فاى فائدة
فى عبادتها وسادسها اذا كانت لا تحفظ نفسها عن الكسر والافساد حين جعلها ابرهيم عليه السلام
جذاذا فاى رجاء فيها للغير فكانه عليه السلام قال لا تعبد الا الذى يسمع ويبصر ويجيب
دعوة الداعى اذا دعاه النوع الثانى قوله يا ابت انى قد جاءنى من العلم بالمعبود الحق ما لم يأتك
منه فاتبعنى اى فتسبب من ذلك انى اقول لك وجوبا على النهى عن المنكر ونصيحة لما لك علىّ من الحق
اجتهد فى تبعى اهدك صراطا اى طريقا سويا اى مستقيما كما انى لو كنت معك فى طريق محسوس
واخبرتك ان امامنا مهلكا لا ينجو منه احد وامرتك ان تسلك مكانا غير ذلك لاطعتنى ولو عصيتنى
فيه عدّك كل احد غاويا النوع الثالث قوله يا ابت لا تعبد الشيطان فان الاصنام ليس لها دعوة
اصلا والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقا على لسان كل ولى فتعين ان يكون الآمر بذلك الشيطان
فكانه هو المعبود بعبادتها فى الحقيقة ثم علل هذا النهى بقوله ان الشيطان البعيد من كل خير المحترق
باللعنة كان للرحمن عصيا بالقوة من حين خلق وبالفعل من حين امره بالسجود لابيك آدم عليه السلام
فابى فهو عدوّ لله وله والمطيع للعاصى لشئ عاص لذلك الشئ لان صديق العدو عدوّ فان قيل هذا القول
يتوقف على اثبات امور احدها اثبات الصانع وثانيها اثبات الشيطان وثالثها ان الشيطان عاص
ورابعها انه لما كان عاصيا لم تجز طاعته وخامسها ان الاعتقاد الذى كان عليه آزر مستفاد من طاعة
الشيطان ومن شأن الدلالة التى تورد على الشخص ان تكون مركبة من مقدمات معلومة يسلمها الخصم
ولعل ابرهيم كان منازعا فى هذه المقدمات وكيف والمحكى عنه انه ما كان يثبت الها سوى نمرود
فكيف يسلم وجود الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يسلم ان الشيطان عاص للرحمن وبتقدير تسليم ذلك
فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه واجيب
بان الحجة المعول عليها فى ابطال مذهب آزر هو قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وهذا
الكلام جرى مجرى التخويف والتحذير الذى يحمله على النظر فى تلك الدلالة فيسقط السؤال النوع الرابع قوله
يا ابت انى اخاف لمحبتى لك وغيرتى عليك ان يمسك عذاب اى كائن من الرحمن الذى هو مولى كل من تولاه
لعصيانك اياه فتكون اى فتتسبب عن ذلك ان تكون للشيطان وليا اى ناصرا وقرينا فى النار ولما دعا
ابرهيم عليه السلام اباه الى التوحيد وذكر الدلائل على فساد عبادة الاوثان واردف تلك الدلائل
بالوعظ البليغ واورد كل ذلك مقرونا بالرفق واللطف قابله ابوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته
بالتقليد فانه لم يذكر فى مقابلة حجته الا ان قال اراغب انت عن آلهتى باضافتها الى نفسه

فقط اشارة الى مبالغته فى تعظيمها والرغبة عن الشئ تركه عمدا فاصر على ادعاء الهيتها جهلا
وتقليدا وقابل قوله بالرفق يا ابت بالعنف حيث لم يقل يا بنىّ بل قال يا ابراهيم وقابل وعظه بالسفاهة
حيث هدده بالضرب والشتم بقوله مقسما لَئِن لَم تَنتَهِ عما انت عليه لَاَرجُمَنَّكَ اى لاقتلنك او لارجمنك
بالحجارة حتى تموت او تبعد عنى وبالكلام القبيح فاحذرنى وَاهجُرنِى اى ابعد عنى بالمفارقة من الدار والبلد وهى
كهجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اى تباعد عنى مَلِيًّا اى دهرا طويلا لكى لا اراك وقيل
اهجرنى بالقول ولا تخاطبنى دهرا طويلا لاجل ما صدر منك من هذا الكلام وفى ذلك تسلية
للنبىّ صلى الله عليه وسلم وتاسية فيما كان يلقى من الاذى ويقاسى من قومه من العناد ومن عمه
ابى لهب من الشدائد باعظم ابائه واقربهم به شبها فلما سمع ابراهيم عليه السلام كلام ابيه
اجاب بامرين احدهما ان قَالَ له مقابلا لما كان منه من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة
العقل والعلم سَلَامٌ عَلَيكَ توديع ومتاركة اى سلمت منى لا اصيبك بمكروه ما لم اومر فيك بشئ
فانه لم يؤمر بقتاله على كفره كقوله لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين واذا خاطبهم
الجاهلون قالوا سلاما وهذا يدل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى انه يحسن
مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز ان يكون دعاء له بالسلامة استمالة الا ترى انه وعده بالاستغفار
فيكون سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه كقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما
ثم استانف قوله سَأَستَغفِرُ لَكَ رَبِّى اى المحسن الىّ بان اطلب لك منه غفران ذنوبك بان
يوفقك للاسلام اِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا اى مبالغا فى اكرامى مرة بعد مرة وكرة فى اثر كرة وقد وفى
بوعده بقوله المذكور فى الشعراء واغفر لابى وهذا قبل ان يتبين له انه عدو لله كما ذكره فى براءة
وثانيهما انه قال له انقيادا للامر بيه وَاَعتَزِلُكُم اى جميعا بترك بلادكم واشار الى ان من شرط المعبود
ان يكون اهلا للمناداة فى الشدائد بقوله وَمَا تَدعُونَ اى تعبدون مِن دُونِ اللهِ الذى له
الكمال كله فمن اقبل عليه وحده اصاب ومن اقبل على غيره ولو طرفة عين فقد خاب وخسر
وَاَدعُوا اى اعبد رَبِّى وحده لاستحقاقه ذلك منى ولم يقيد الاعتزال بزمن بل اشار الى انه
ما داموا على هذا الدين فهو معتزل لهم ثم دعا لنفسه بما ينبههم به على خسة مسعاهم فقال غير
جازم باجابة دعوته وقبول عبادته اجلالا لربه وهضما لنفسه عَسَى اَلَّا اَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى
المنفرد بالاحسان الىّ شَقِيًّا اى كما شقيتم بعبادة الاصنام فانها لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم
ولا تضركم ولما راى من ابيه ومعاشرته ما راى عزم على غربة مشقة النوى مختارا المغربة
فى البلاد على غربة الاضداد فكان كما قال الامام ابو سليمان الخطابى شعر وما غربة الانسان فى شقة
النوى * ولكنها والله فى عدم الشكل * وانى غريب بين بست واهلها * وان كان فيها اسرتى وبها اهلى
* وحقق ما عزم عليه فبين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه واجابة دعائه فقال فَلَمَّا اعتَزَلَهُم اى
بالهجرة الى الارض المقدسة وَمَا يَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لم يضره ذلك دينا ولا دنيا بل نفعه

وعوضه الله اولادا كما قال تعالى وَوَهَبْنَا لَهُ كما هو الشأن فى كل من ترك شيئا لله اِسْحٰقَ ولدا له
لصلبه من زوجته العاقر العقيم تجاوزها سن اليأس واخذه هو فى السن الى حد لا يولد لمثله
وَيَعْقُوبَ ولد الاسحٰق وخصهما بالذكر للزومهما محل اقامته وقيامهما بعد موته بخلافته فيه
واما اسمعيل عليه السلام فكان الله سبحانه وتعالى هو المتولى لتربيته بعد نقله رضيعا الى
المسجد الحرام واحيائه تلك المشاعر العظام فافرده بالذكر جاعلا له اصلا براسه بقوله بعد واذكر فى
الكتاب اسمعيل فترك ذكره مع اسحٰق الذى هو اخوه لذلك ثم صرح بما وهب لاولاده جزاء على هجرته
بقوله تعالى وَكُلًّا اى منهما جَعَلْنَا نَبِيًّا عالى المقدار ويخبر بالاخبار العظيمة كما جعلنا ابراهيم
عليه السلام نبيا وَوَهَبْنَا لَهُمْ كلهم مِنْ رَحْمَتِنَا اى شيئا منها عظيما من النسل الطاهر والذرية
الطيبة واجابة الدعاء واللطف فى القضاء والبركة فى المال والاولاد وغير ذلك من خيرى الدنيا
والآخرة وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا وهو الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما ع
عبر باليد عما يطلق باليد وهو العطية واستجاب الله تعالى دعوته فى قوله تعالى واجعل لى لسان
صدق فى الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه اهل الاديان كلهم فقال تعالى ملة ابيكم ابراهيم وقد اجتمعت
فيه خصال لم تجتمع فى غيره اولها انه اعتزل عن الخلق على ما قال واعتزلكم وما تدعون من دون الله فلا جرم
بارك الله له فى اولاده فقال ووهبنا له اسحٰق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ثانيها انه تبرأ من ابيه كما قال عز وجل
فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه لا جرم سماه الله ابا المسلمين فقال ملة ابيكم ابراهيم ثالثها تل ولده
للجبين ليذبحه فى الله على ما قال تعالى وتله للجبين لا جرم فداه الله تعالى على ما قال وفديناه بذبح
عظيم رابعها اسلم نفسه فقال اسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار بردا وسلاما عليه فقال يا نار كونى
بردا وسلاما على ابراهيم خامسها اشفق على هذه الامة فقال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم لا جرم
اشركه الله تعالى فى الصلوات فى قوله تعالى كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم سادسها وفى حق سارة
فى قوله تعالى وابراهيم الذى وفى لا جرم جعل موطئ قدميه مباركا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى
سابعها عادى كل الخلق فى الله فقال فانهم عدو لى الا رب العالمين فاتخذه الله خليلا كما قال واتخذ الله
ابراهيم خليلا ليعلم صحة قولنا ما خير على الله احد القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام المذكورة
فى قوله تعالى وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ اى الذى لا كتاب مثله فى الكمال مُوسٰى اى الذى انقذ الله به بنى اسرائيل
من العبودية ثم ان الله تعالى وصفه بامور احدها قوله تعالى اِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا قرأه عاصم
وحمزة والكسائى بفتح اللام اى مختارا اختاره الله تعالى واصطفاه وقيل اخلصه الله تعالى من
الدنس والباقون بالكسر اى اخلص التوحيد لله والعبادة ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل
منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الامرين ثانيها قوله
تعالى وَكَانَ رَسُولًا الى بنى اسرائيل والقبط نَبِيًّا ينبئه الله بما يريد من وحيه لينبئ به الرسل
اليهم فيرتفع بذلك قدره فلذلك صرح بها بعد دخولها فى الرسالة ضمنا اذ كل رسول نبى وليس

كل نبي رسولا خلافا للمعتزلة فانهم زعموا كونهما مترادفين فكل رسول نبي وكل نبي رسول
وسيأتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة الحج عند قوله وما ارسلنا من قبلك من
رسول ولا نبي ثالثها قوله تعالى وَنَادَيْنَاهُ اي بما لنا من العظمة مِنْ جَانِبِ الطُّورِ هو اسم جبل الْأَيْمَنِ
اي الذي يلي يمين موسى حين اقبل من مدين فانبأناه هناك حين كان متوجها الى مصر بانه رسولنا ثم
واعدناه اليه بعد اغراق آل فرعون فكان لبني اسرائيل به من العجائب في رحمتهم بانزال الكتاب الآخذ
بالخطاب من جوف السحاب وفي اماتتهم لما طلبوا الرؤية ثم احيائهم وغير ذلك ما يجل عن الوصف
رابعها قوله تعالى وَقَرَّبْنَاهُ بما لنا من العظمة تقريب تشريف حال كونه نَجِيًّا مخبره من امرنا بلا واسطة
من النجوى وهي السر والكلام بين اثنين كالسر وقيل قرب مكان اي مكانا عاليا عن ابي العالية انه قربه
حتى سمع صرير القلم حيث يكتب التوراة في الالواح وقيل انجيناه من اعدائه خامسها قوله تعالى وَوَهَبْنَا لَهُ
اي هبة تليق بعظمتنا مِنْ رَحْمَتِنَا اي من اجل رحمتنا او بعض رحمتنا أَخَاهُ اي معاضدة اخيه
وموازرته لا شخصه واخوته وذلك اجابة لدعوته واجعل لي وزيرا من اهلي هرون فانه كان اسن
من موسى + تنبيه + اخاه مفعول او بدل على تقدير ان تكون من للتبعيض وقوله هَارُونَ عطف
بيان وقوله نَبِيًّا حال منه هي المقصودة بالهبة + القصة الخامسة قصة اسمعيل عليه السلام
المذكورة في قوله تعالى وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ بن ابراهيم عليهما السلام الذين هم معترفون
بنبوته ومفتخرون برسالته وابوته فلزم من ذلك فساد تضليلهم انكار نبوة ناس بانه من البشر ثم
ان الله تعالى وصف اسمعيل بامور اولها قوله تعالى إِنَّهُ كَانَ اي جبلة وطبعا صَادِقَ الْوَعْدِ في حق
الله وفي حق غيره لمعونة الله له على ذلك بسبب انه لا يعد وعدا الا مقرونا بالاستثناء كما قال لابيه
حين اخبره بامر ذبحه ستجدني ان شاء الله من الصابرين وخصه بالمدح به وان كان الانبياء
كلهم كذلك لقصة الذبح فلم يلزم منه تفضيله على غيره وقد روي عن ابن عباس انه وعد صاحبا له
ان ينتظره في مكان فانتظره سنة وذكر ان عيسى عليه السلام قال له رجل انتظرني حتى آتيك فقال
عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء الى حاجته الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام
هناك للميعاد وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه واعد رجلا ونسي ذلك الرجل فانتظره
من الضحى الى غروب الشمس وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعادا الى اي وقت ينتظره قال ان واعده
نهارا فكل النهار وان واعده ليلا فكل الليل وسئل ابراهيم بن زيد عن ذلك فقال اذا واعدته
في وقت الصلاة فانتظره الى وقت صلاة اخرى ثانيها قوله تعالى وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا قد مر تفسيره
وثالثها قوله تعالى وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ اي التي هي طهرة البدن وقرة العين وخير الموضوعات على جميع المذاهب
وَالزَّكَاةِ اي التي هي طهرة المال كما اوصى الله تعالى بذلك جميع الانبياء عليهم الصلوة والسلام والمراد
بالاهل قومه وقيل اهله جميع امته فانه كان رسولا الى جرهم قاله الاصفهاني والى اهل تلك البوادي
بعد ابيه ابراهيم والمراد بالصلوة قال ابن عباس يريد التي افترضها الله تعالى عليهم قال

البغوي وهي الحنيفية التي افترضت علينا قيل كان يبدأ بأهله في الامر بالعبادة ليجعلهم قدوة
لمن سواهم كما قال تعالى وانذر عشيرتك الاقربين وامر اهلك بالصلوة قوا انفسكم واهليكم نارا وبالزكوة
قال ابن عباس انها طاعة الله والاخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه تعالى والظاهر كما
قال ابن عادل ان الزكوة اذا قرنت بالصلوة ان يراد بها الصدقات الواجبة رابعها قوله تعالى
وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ بعبادته على حسب ما امره به مَرْضِيًّا وهذا في نهاية المدح لان المرضي عند الله هو
الفائز في كل طاعة باعلى الدرجات فاقتد انت به فانه من اجل ابائك لتجمع بين طهارة القول
والبدن والمال فتنال رتبة الرضا ✦ القصة السادسة قصة ادريس عليه السلام المذكورة
في قوله تعالى وَاذْكُرْ فِي الْكِتٰبِ اي الجامع لكل ما يحتاج اليه حتى ما يحتاج اليه من قصص
المتقدمين والمتأخرين اِدْرِيْسَ وهو جد ابي نوح عليه السلام قيل سمي ادريس لكثرة دراسته
الكتب واسمه اخنوخ بمهملة ونون واخره خاء معجمة ووصفه الله تعالى بامور احدها وثانيها قوله
تعالى اِنَّهٗ كَانَ صِدِّيْقًا نَّبِيًّا اي صادقا في افعاله واقواله ومصدقا بما اتاه الله من اياته وعلى
السنة الملائكة ثالثها قوله تعالى وَّرَفَعْنٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا وفيه قولان احدهما انه من رفع المنزلة كقوله
تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فان الله تعالى شرفه بالنبوة وانزل عليه ثلاثين
صحيفة وهو اول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب واول من خاط الثياب ولبسها وكانوا
من قبله يلبسون الجلود واول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وثانيهما انه من رفعة المكان ثم
اختلفوا فقال بعضهم رفعه الله تعالى الى السماء الرابعة وهي التي رآه النبي صلى الله عليه وسلم فيها ليلة
الاسراء وقيل الى الجنة وهو حي لا يموت وقالوا اربعة من الانبياء احياء اثنان في الارض الخضر و
الياس واثنان في السماء عيسى وادريس وقال وهب كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة
ما يرفع لجميع اهل الارض في زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق له ملك الموت فاستأذن ربه
في زيارته فاذن له فاتاه في صورة بني ادم وكان ادريس يصوم الدهر فلما كان وقت افطاره دعاه
الى طعامه فابى ان يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فانكره ادريس وقال له الليلة الثالثة اني اريد ان
اعلم من انت قال انا ملك الموت استأذنت ربي ان اصحبك فقال لي اليك حاجة قال ما هي قال
تقبض روحي فاوحى الله تعالى اليه ان اقبض روحه فقبض روحه وردها اليه بعد ساعة فقال له
ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح قال لاذوق كرب الموت وغمته فاكون اشد استعدادا له
ثم قال له ادريس ان لي اليك حاجة اخرى قال وما هي قال ترفعني الى السماء لانظر اليها والى الجنة والنار
فاذن الله تعالى له في ذلك فرفعه فلما قرب من النار قال لي اليك حاجة قال وما تريد قال تسأل مالكا
ان يفتح ابوابها فاردها ففعل ثم قال كما اريتني النار فارني الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتح ابوابها
فادخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود الى مكانك فتعلق بشجرة وقال ما اخرج منها فبعث الله
تعالى ملكا حكما بينهما فقال له الملك ما لك لا تخرج قال ان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد

دفنته وقال وان منكم الا واردها وقد وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست اخرج فاوحى الله تعالى
الى ملك الموت باذنى دخل الجنة وباذنى لا يخرج فهو حى هناك وقال آخرون بل رفع الى السماء
وقبض روحه وقال كعب الاحبار ان ادريس سار ذات يوم فى حاجة فاصابه وهج الشمس فقال يا رب
انى مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها
وحرها فلما اصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرفه فقال يا رب خففت عنى حر الشمس
فما الذى قضيت فيه فقال تعالى ان عبدى ادريس سألنى ان اخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال
يا رب اجعل بينى وبينه خلة فاذن له حتى اتى ادريس فكان ادريس يسأله فكان مما سأله ان قال له انى
اخبرت انك اكرم الملائكة وامكنهم عند ملك الموت فاشفع لى ليؤخر اجلى فازداد شكرا وعبادة فقال
الملك لا يؤخر الله نفسا اذا جاء اجلها وانا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم اتى ملك
الموت فقال لى حاجة اليك لى صديق من بنى آدم تشفع بى اليك لتؤخر اجله فقال ليس ذلك الى ولكن
ان احببت اعلمته اجله فيتقدم لنفسه قال نعم فنظر فى ديوانه فقال انك كلمتنى فى انسان ما اراه يموت
ابدا قال وكيف ذلك قال لا اجده يموت الا عند مطلع الشمس قال انى اتيتك وتركته هناك قال فانطلق
فلا اراك تجده الا وقد مات فوالله ما بقى من اجل ادريس شئ فرجع الملك فوجده ميتا. ولما انقضى كشف
هذه الاخبار العلية المقدار الجليلة الاسرار شرع سبحانه وتعالى ينسب اهلها باشرف نسبهم
ويذكر المنن بينهم فقال عز من قائل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ اى العالو الرتبة الشرفاء النسب المذكورون فى هذه
السورة من لدن زكريا الى ادريس وهو مبتدأ وقوله ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بما خصهم به من مزيد
القرب اليه وعظيم المنزلة لديه صفة له وقوله تعالى ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ اى المصطفين بالنبوة الذين انباهم
الله تعالى بدقائق الحكم ورفع محالهم بين الامم بيان لهم وهو فى معنى الصفة وما بعده الى جملة الشرط
صفة للنبيين فقوله ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ اى ادريس لقربه منه لانه جد ابى نوح ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾
فى السفينة اى ابراهيم ابن ابنه سام ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ اى اسمعيل واسحق ويعقوب ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ
إِسْرَائِيلَ﴾ وهو يعقوب اى موسى وهرون وزكريا ويحيى وكذا عيسى لان مريم من ذريته ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾
الى اقوم الطرق ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ للنبوة والكرامة اى من جملتهم + وخبر اولئك ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من اى
قال كان ﴿آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا﴾ للمنعم عليهم تقربا اليه لما لهم من البصائر النيرة فى ذكر نعمه عليهم
واحسانه اليهم ﴿وَبُكِيًّا﴾ خوفا منه وشوقا اليه فكونوا مثلهم + تنبيه + سجدا حال مقدرة قال سجدة واجب
الزجاج لانهم وقت الخرور لم يكونوا سجدا وهو جمع ساجد وبكيا جمع باك وليس بقياس بل قياس
جمعه على فعلة كقاض وقضاة ولم يسمع فيه هذا الاصل واصل بكيا بكويا قلبت الواو ياء والضمة
كسرة واختلف فى هذا السجود فقال بعضهم انه الصلوة وقال بعضهم سجود التلاوة على
حسب ما تعبد وابه قال الرازى ثم يحتمل ان يكون المراد سجود القرآن ويحتمل انهم عند
الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلون ذلك لاجل ذكر السجود فى الآية التى ورد

ابن ماجة وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن
صالح المرّي قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة
فاين البكاء وعن ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك
عين احدكم فليبك قلبه وروى انه صلى عليه وسلم قال ما غرغرت عين بماء الا حرّم الله تعالى
على النار جسدها وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا
وعن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء
يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلني من
الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك واعوذ بك ان اكون من المتكبرين عن امرك واذا قرأ
سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين اليك الخاشعين لك وان قرأ هذه قال اللهم
اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الباكين عند تلاوة آيات كتابك وقرأ حمزة والكسائي
بكيا بكسر الباء والباقون بضمها ولما وصف سبحانه وتعالى هؤلاء الانبياء بصفة المدح
ترغيبا لنا في التاسي بهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ اى في بعض الزمان
الذي بعد هؤلاء الاصفياء سريعا خَلْفٌ في غاية الرداءة من اولادهم يقال خلفه اذا عقبه
خلف سوء باسكان اللام والخلف بفتح اللام الصالح كما قالوا وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان
الشر وفي الحديث في الله خلف من كل هالك وفي الشعر ؎ ذهب الذين يعاش في اكنافهم + و
بقيت في خلف كجلد الاجرب + وقال السدي اراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال قتادة في اضاعوا
الصلوة تركوا الصلوة المفروضة وقال ابن مسعود وابراهيم اخروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب
هو ان لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر حتى تغرب الشمس وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ اى المعاصي
قال ابن عباس هم اليهود تركوا الصلوة المفروضة وشربوا الخمور واستحلوا نكاح الاخت من الاب
وقال مجاهد هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الاسواق والازقة
فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا وهو كما قال وهب وابن عباس واد في جهنم بعيد قعره تستعيذ منه
اوديتها كما رواه الحاكم وصححه وقيل هو الخسران وقيل هو الشر كقول القائل ؎ فمن يلق خيرا
يحمد الناس امره + ومن يغو لا يعدم على الغي لائما + على الغي متعلق بلائما وقيل يلقون جزاء الغي
كقوله يلق اثاما اى مجازاة الآثام + تنبيه + قوله تعالى يلقون ليس معناه يرون فقط بل معناه
الاجتماع والملابسة مع الروية + ولما اخبر تعالى عن هؤلاء بالخيبة فتح لهم باب التوبة وحدا بهم
الى غسل هذه الحوبة بقوله إِلَّا مَنْ تَابَ اى مما هو عليه من الضلال وبادر بالاعمال وحافظ على الصلوات
وكف نفسه عن الشهوات وآمن بما اخذ عليه به العهد وعمل بعد ايمانه تصديقا له صالحا من الصلوات
والزكوات وغيرها فَأُولَئِكَ العالو الهمم الطاهرو الشيم يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ التي وعد المتقون وَلَا يُظْلَمُونَ
من ظالم ما شَيْئًا من اعمالهم فان قيل الاستثناء دل على انه لا بد من التوبة والايمان والعمل

الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب من كفره ولم يدخل وقت الصلوة او كانت المرأة حائضا فانه
لا يجب عليهم الصلوة والزكوة ايضا غير واجبة وكذلك الصوم فهذا لو مات في ذلك الوقت كان
من اهل النجاة مع انه لم يصدر منه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح لم اجيب بان هذه الصورة
نادرة والاحكام انما تناط بالاعم الاغلب ✦ تنبيه ✦ في هذا الاستثناء وجهان قال ابن عادل اظهرهما
انه متصل وقال الزجاج هو منقطع وهذا بناء منه على ان المضيع للصلوة من الكفار ووافق الزجاج
الجلال المحلي ✦ ولما ذكر تعالى في التائب انه يدخل الجنة وصفها بامور احدها قوله تعالى جنّٰت
عدن اي اقامة لا يظعن عنها بوجه من الوجوه وصفها بالدوام على خلاف وصف الجنان
في الدنيا التي لا تدوم ثم بين تعالى انها التي وعد الرحمٰن عباده الذين هو ارحم بهم وقوله بالغيب
فيه وجهان احدهما ان الباء حالية وفي صاحب الحال احتمالان احدهما ضمير الجنة وهو عائد
الموصول اي وعدها وهي غائبة عنهم لا يشاهدونها والثاني عباده اي وهم غائبون عنها لا يرونها
انما امنوا بها بمجرد الاخبار منه والوجه الثاني ان الباء سببية اي بسبب تصديق الغيب وسبب الايمان به
✦ ولما كان من شان الوعود الغائبة على ما يتعارفه الناس بينهم احتمال عدم الوقوع بين ان وعده ليس
كذلك بقوله تعالى انه كان اي كونا هو سنة ماضية وعده ماتيا اي مقصودا بالفعل فلا بد من وقوعه فهو
كقوله ان كان وعد ربنا لمفعولا ثانيها قوله تعالى لا يسمعون فيها لغوا وهو فضول الكلام وما لا طائل
تحته وفيه تنبيه ظاهر على تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله تعالى عنه الدار الاخرة التي لا تكليف فيها
وقد مدح الله تعالى اقواما بقوله واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا
اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا و
قوله تعالى الا سلٰما استثناء منقطع اي ولكن يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة
او سلاما من الله او من الملائكة او من بعضهم على بعض وجوزوا ان يراد باللغو مطلق الكلام قال في
القاموس لغا لغوا تكلم فيكون الاستثناء متصلا اي لا يسمعون فيها كلاما الا كلاما يدل على السلامة
او سلاما من الله او من الملائكة او من بعضهم على بعض ثالثها قوله تعالى ولهم رزقهم فيها اي على ما يتمنونه
ويشتهونه على وجه لا بد من اتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا منة عليهم به بكرة وعشيا اي على قدرهما
في الدنيا اذ ليس في الجنة نهار ولا ليل بل ضوء ونور ابدا وقيل انهم يعرفون النهار برفع الحجب والليل بارخائها
فان قيل المقصود من هذه الايات وصف الجنة باحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا
ليس من الامور المستعظمة اجيب بوجهين الاول قال الحسن اراد الله تعالى ان يرغب كل قوم بما
احبوه في الدنيا فلذلك ذكر اساور الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم والارائك
التي هي الحجال المضروبة على الاسرة وكانت عادة اشراف اليمن ولا شيء كان احب الى العرب من الغداء
والعشاء فوعدهم بذلك الثاني ان المراد دوام الرزق تقول انا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا
تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين وقيل المراد رفاهية العيش وسعة الرزق اي لهم رزقهم

منى شيئاً وولما بانت بهذه الاوصاف دار الباطل اشار الى علو رتبتها وما هو سببها بقوله تعالى
تِلْكَ الْجَنَّةُ باداة البعد لعلو قدرها وعظم امرها الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا اى نعطي عطاء الارث الذي
لا كد فيه ولا استرجاع وتبقى له الجنة كما يبقى للوارث مال الموروث وقيل تنقل تلك المنازل ممن لو اطاع
لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل النقل ارثا قاله الحسن مَنْ كَانَ تَقِيًّا اى المتقين عن عبادنا
فان قيل الفاسق المرتكب للكبائر لم يوصف بذلك الوصف فلا يدخلها اجيب بان الآية تدل على
ان الجنة يدخلها المتقي وليس فيها دلالة على ان غير المتقي لا يدخلها وايضا صاحب الكبيرة متق
عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه انه متق واذا كان صاحب الكبيرة
يصدق عليه انه متق وجب ان يدخل الجنة فدلالة الآية على ان صاحب الكبيرة يدخلها اولى
من ان تدل على انه لا يدخلها. واختلف في سبب نزول قول جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم وَمَا
نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ فقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما يمنعك ان
تزورنا اكثر مما تزورنا فنزلت الآية وقال مجاهد ابطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليلة فقال لعلي ابطأت قال قد فعلت قال ولم لا افعل وانتم لا تتسوكون ولا تقصون اظفاركم ولا تنقون
براجمكم وقال وما نتنزل الا بامر ربك فنزلت وقال قتادة والكلبي احتبس جبريل عليه السلام
عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة اصحاب الكهف وذي القرنين والروح وسبب
سؤالهم عن ذلك ما روي ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة النبي
صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم وسألوا النصارى فزعموا انهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده
في كتابنا وهذا زمانه وقد سأل رحمن اليمامة عن ثلاث فلم يعرف فسلوه عنهن فان اخبركم عن
خصلتين فاتبعوه فسألوه عن قصة اصحاب الكهف وذي القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب
فوعدهم ان يجيبهم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه اربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق
ذلك عليه مشقة عظيمة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له
النبي صلى الله عليه وسلم ابطأت حتى ساء ظني واشتقت اليك قال اني اليك اشوق ولكني عبد
مأمور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فنزلت هذه الآية وانزل قوله تعالى ولا تقولن لشيء
اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله وسورة الضحى فان قيل قوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من
كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بامر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل
اجيب بانه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كقوله تعالى اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون وهذا كلام
الله تعالى ثم عطف عليه قوله وان الله ربي وربكم فاعبدوه ثم علل جبريل قوله ذلك بقوله لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا
اى امامنا من امور الآخرة وَمَا خَلْفَنَا اى من امور الدنيا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ اى ما يكون من هذا الوقت
الى قيام الساعة اى له علم ذلك جميعه وقيل ما بين ذلك ما بين النفختين وبينهما اربعون سنة وقيل ما بين
ايدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك مدة حياتنا وقيل ما بين ايدينا بعد ان نموت

وما خلفنا قبل ان نخلق وما بين ذلك مدة الحياة وقيل ما بين ايدينا الارض اذا اردنا النزول اليها
وما خلفنا السماء وما ينزل منها وما بين ذلك الهواء يريد ان ذلك كله لله فلا نقدر على شيء الا بامره
وَمَا كَانَ رَبُّكَ المحسن اليك نَسِيًّا بمعنى ناسيا اى تاركا لك بتأخير الوحي عنك لقوله تعالى ما ودعك
ربك وما قلى اى وما كان امتناع النزول الا لامتناع الامر به وما كان ذلك عن ترك الله تعالى لك
وتوديعه اياك ثم استدل على ذلك بقوله رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فلا يجوز عليه النسيان
اذ لا بد ان يمسكهما حالا بعد حال والا لبطل الامر فيهما وفيمن يتصرف والآية دالة على ان الله تعالى
رب لكل شيء حصل بينهما ففعل العبد مخلوق له تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض
+ تنبيه + يجوز في رب ان يكون بدلا من ربك وان يكون بيانا من ربك وان يكون خبر مبتدأ مضمر اي
هو رب وقوله تعالى فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم مرتب على ما تقدم اى
لما عرفت ان ربك لا ينساك فاعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي من مثلك واصطبر عليها ولا تتشوش
بابطاء الوحي وهزء الكفار بك فان قيل لم يقل واصطبر على عبادته لانها صلته فكان حقه تعديه
بعلى اجيب بانه ضمن معنى الثبات لان العبادة ذات تكاليف قل من يثبت لها فكانه قيل اثبت لها
مصطبرا كقولك للمحارب اصطبر لقرنك ثم علل ذلك بقوله هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا قال ابن عباس هل تعلم له
مثلا اى نظيرا فيما يقتضي العبادة والذي يقتضيها كون منعما باصول النعم وفروعها وهي خلق الاجسام
والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك احد سواه سبحانه وتعالى واذا كان قد انعم عليك بغاية
الانعام وجب ان تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة وقال الكلبي هل تعلم احدا تسمى الله غيره فانهم وان كانوا
يطلقون لفظ الاله على الوثن فما اطلقوا لفظ الله تعالى على شيء + ولما امر تعالى بالعبادة والمصابرة عليها
فكأن سائلا يسأل وقال هذه العبادة لا منفعة فيها في الدنيا واما في الآخرة فقد انكرها بعضهم فلا بد
من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر ان الاشتغال بالعبادة يفيد فلهذا حكى الله سبحانه وتعالى
قول منكري الحشر فقال تعالى وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا قال الكلبي نزلت في ابي بن خلف
حين اخذ عظاما بالية فتتها بيده ويقول زعم لكم محمد انا نبعث بعد ما نموت وقيل نزلت في ابي جهل وقيل
المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى اقام الدليل على صحة البعث بقوله أَوَلَا يَذْكُرُ
الْإِنْسَانُ اى الجنس بهذا الانكار على ربه أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ اى من قبل جدله وَلَمْ يَكُ شَيْئًا
اصلا وانما يقتضي ذلك قادرون على اعادته فلا ينكر ذلك قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق
على ايراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لا شك ان الاعادة ثانيا اهون
من الايجاد اولا ونظيره قوله تعالى قل يحييها الذي انشأها اول مرة وقوله تعالى وهو الذي يبدأ
الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بسكون الذال وضم الكاف مخففة
والباقون بفتح الذال مشددة وكذا الكاف فان قيل كيف امر الله الانسان بالتذكر مع ان
التذكر هو العلم بما علمه من قبل ثم تخلله سهو اجيب بان المراد اولا يتفكر فيعلم خصوصا

اذا قرئ اولا يذكر مشددا واما اذا قرئ مخففا فالمراد اولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل احد يعلم
انه لم يكن حيا في الدنيا ثم صار حيا ثم انه تعالى لما قرر المطلوب بالدليل اردفه بالتهديد من وجوه
اولها قوله تعالى فَوَرَبِّكَ اي المحسن اليك بالانتقام منهم لَنَحْشُرَنَّهُمْ بعد البعث وَالشَّيَاطِينَ الذين
يضلونهم بان نحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة وفائدة القسم امران احدهما ان العادة جارية
بتأكيد الخبر باليمين والثاني في اقسام الله تعالى باسمه مضافا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تفخيم
لشأنه ورفع منه كما رفع من شان السماء والارض في قوله تعالى فورب السماء والارض انه لحق
والواو في والشياطين يجوز ان يكون للعطف وبمعنى مع وهو اولى ثانيها قوله تعالى ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
بعد طول الوقوف حَوْلَ جَهَنَّمَ من خارجها ليشاهد السعداء الاحوال التي نجاهم الله تعالى منها وخلصهم
فيزداد والذلك غبطة الى غبطتهم وسرورا الى سرورهم ويشمتوا باعداء الله واعدائهم فتزداد
مساءتهم وحسرتهم وما ينالهم من سعادة اولياء الله وشماتتهم بهم وقوله تعالى جِثِيًّا
حال مقدرة من مفعول لنحضرنهم وهو جمع جاث جمع على فعول نحو قاعد وقعود وجالس وجلوس
واصله جثوو بواوين او جثوي من جثا يجثو ويجثي لغتان فان قيل هذا المعنى حاصل للكل بدليل
قوله تعالى وترى كل امة جاثية ولان العادة جارية بان الناس في مواقف مطالبات الملوك
يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من القلق او لما بهم من شدة الامر التي لا يطيقون معها القيام
على ارجلهم واذا كان هذا حاصلا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار اجيب بانهم يكونون من وقت
الحشر الى وقت الحضور على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد ذلهم وقرأ حفص وحمزة والكسائي جثيا
وعتيا وصليا بكسر اولها والباقون بضمه ثالثها قوله تعالى ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ اي لنأخذن اخذا بشدة وعنف
مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ اي فرقة منتحلة مذهبا واحدا أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ الذي عمهم بالاحسان عِتِيًّا
اي تكبرا متجاوزا للحد والمعنى ان الله تعالى يحضرهم اولا حول جهنم ثم يميز البعض من البعض فمن كان اشدهم
تمردا في كفره خص بعذاب عظيم لان عذاب الضال المضل يجب ان يكون فوق عذاب من يضل
تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة
العذاب لا التخصيص باصل العذاب ولذلك قال تعالى في جميعهم ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ من كل عالم بِالَّذِينَ هُمْ
ظواهرهم وبواطنهم أَوْلَى بِهَا اي بجهنم صِلِيًّا اي دخولا واحتراقا فنبدأ بهم ولا يقال اولى الامر اشتراكهم
واصله صلوي من صلي بكسر اللام وفتحها تنبيه في اعراب ايهم اشد اقوال كثيرة اظهرها عند جمهور المعربين
وهو مذهب سيبويه ان ايهم موصولة بمعنى الذي وان حركتها حركة بناء بنيت عند سيبويه
لخروجها عن النظائر واشد خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لايهم وايهم وصلتها في محل نصب مفعول
بها ولاي اقوال اربعة ذكرتها في شرح القطر ولما كان نوع هذا الاعلام المؤكد بالاقسام
من ذي الجلال والاكرام جديرين باصغاء الافهام الى ما توجه اليها من الكلام التفت الى
مقام الخطاب افهاما للعموم فقال تعالى وَإِنْ اي وما مِنْكُمْ ايها الناس احد إِلَّا وَارِدُهَا

كان ذلك الورود على ربك الموجد لك المحسن اليك حتما مقضيا اى حتمه وقضى به لا يتركه
والورود موافاة المكان فاختلفوا فى معنى الورود هنا فقال ابن عباس والاكثرون الورود ههنا
هو الدخول والكناية راجعة الى النار وقالوا يدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله المتقين فيخرجهم
منها ويدل على ان الورود هو الدخول قوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار وروى
ابن عيينة عن عمرو بن دينار ان نافع بن الازرق مارى ابن عباس فى الورود فقال ابن عباس
هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول فتلا ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب
جهنم انتم لها واردون ادخلها هؤلاء ام لا ثم قال يا نافع اما والله انا وانت سنردها وانا ارجو ان
يخرجنى الله منها وما ارى الله يخرجك منها بتكذيبك ويدل عليه ايضا قوله تعالى ثم ننجى الذين
اتقوا اى الكفر منها ولا يجوز ان يقول ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين بالكفر فيها جثيا على الركب
الا والكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول روى ان عبد الله بن رواحة قال اخبر الله
تعالى عن الورود ولم يخبر بالصدر فقال صلى الله عليه وسلم يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجى الذين
اتقوا فدل على ان ابن رواحة فهم من الورود الدخول ولم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك
وعن جابر انه سأل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الورود الدخول
لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للنار ضجيجا من بردها ولان
حرارة النار ليست بطبعها فالاجزاء الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله تعالى محرقة مؤذية والاجزاء
الملاصقة لاجزاء المؤمنين يجعلها بردا وسلاما كما فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الملائكة الموكلين بها
لا يجدون المها وكما فى الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطى فيكون دما ويشربه الاسرائيلى فيكون
ماء عذبا وعن جابر بن عبد الله انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال اذا دخل اهل الجنة
الجنة وقال بعضهم لبعض اليس وعدنا ربنا ان نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة
بخاء معجمة اى ساكنة وروى بالجيم اى باردة ولا بد من ذلك فى الملائكة الموكلين بالعذاب حتى
يكونوا فى النار مع المعاقبين فان قيل فاذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى دخولهم فما الفائدة فى ذلك
الدخول اجيب بوجوه احدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منها ثانيها ان فيه مزيد غم
على اهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم اعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها ثالثها ان فيه
مزيد غم على اهل النار حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين رابعها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار
سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقيل المراد بالذين يردونها من تقدم ذكرهم من الكفار فكنى عنهم اولا
كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة وعلى هذا القول فلا يدخل النار مؤمن واستدل له بقوله
تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها والمبعد عنها
لا يوصف بانه واردها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها وبقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون وروى
عن مجاهد من حم من المؤمنين فقد وردها وفى الخبر الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن

من النار وفى رواية الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء وقوله من فيح جهنم اى وهجها وحرّها وقال
ابن مسعود وان منكم الا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة اليها قال البغوى والاوّل اصح وعليه
اهل السنة وروى انه يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار
من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن برّة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه
وزن ذرّة من خير وفى رواية من ايمان وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
انى لاعلم آخر اهل النار خروجا منها وآخر اهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له
اذهب فادخل الجنة قال فياتيها فيخيل اليه انها ملأى فيرجع فيقول وجدتها ملأى فيقول الله له
اذهب فادخل الجنة فانّ لك مثل الدنيا وعشر امثالها فيقول له أتسخر بى وانت الملك فلقد رايت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقال ذلك ادنى اهل الجنة منزلة * قوله
حتى بدت نواجذه اى انيابه واضراسه وقيل هى اعلى الاسنان وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم يعذب ناس من اهل التوحيد فى النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون
فيطرحون على باب الجنة قال فيرش عليهم اهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء فى حمالة السيل
الحمم الفحم والغثاء كل ما جاء به السيل وقرأ الكسائى ننجى بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم
والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم * ولما اقام تعالى الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث
قال تعالى عطفا على قوله ويقول الانسان وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ اى الناس من المؤمنين والكفار من اىّ تال
كان آيَاتُنَا اى القرآن حال كونها بَيِّنَاتٍ اى واضحات وقيل مرتّلات الالفاظ ملخّصات المعانى
وقيل ظاهرات الاعجاز قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيات ربهم البينة جهلا منهم ونظرا الى ظاهر الحيوة
الدنيا الذى هو مبلغهم من العلم لِلَّذِينَ آمَنُوا اى لاجلهم او مواجهة لهم اعراضا عن الاستدلال
بالآيات بالاقبال على هذه الشبهة الواهية المفاخرة بالمكاثرة فى الدنيا من قولهم أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
نحن بما لنا من الاتساع ام انتم بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال ولو كنتم انتم على الحق وكنا على
الباطل لكان حالكم فى الدنيا احسن من حالنا لانّ الحكيم لا يليق به ان يوقع اولياءه المخلصين فى الذل
واعداءه المعرضين عن خدمته فى العز والراحة وانما كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا فى النعمة
والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا فى ذلك الوقت فى الخوف والقلة هذا حاصل شبهتهم والقائل
ذلك هو النضر بن الحرث وذووه من قريش للذين آمنوا من اصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وكان
فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجّلون شعورهم ويلبسون
خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين اىّ الفريقين خَيْرٌ مَقَامًا اى موضع قيام او اقامة على قراءة ابن كثير بضم الميم
والباقون بفتحها ففى كلتا القراءتين يحتمل ان يكون اسم مصدر او اسم مكان اما من قام ثلاثيا
او من اقام * تنبيه * قالوا زيد خير من عمرو وشر من بكر ولم يقولوا اخير منه ولا اشرّ منه
لانّ هاتين اللفظتين كثر استعمالهما فحذفت همزتاهما ولم يثبتا الا فى فعل التعجب فقالوا

اخير زيد واشر عمرو وما اخير زيدا او ما اشر عمرا والعلة في اثباتهما في فعلي التعجب ان استعمال
هذين اللفظين اسما اكثر من استعمالهما فعلا فحذفت الهمزة في موضع الكثرة وبقيت على
اصلها في موضع القلة وَأَحْسَنُ نَدِيًّا اي مجمعا ومتحدثا والندي المجلس يقال ندي ونادي والجمع الاندية
وتأتون في ناديكم المنكر وقال تعالى فليدع ناديه ويقال ندوت القوم اندوهم اذا جمعتهم في مجلس ومنه
دار الندوة وكانت تجمع القوم فجعلوا ذلك الامتحان بالانعام والاحسان دليلا على رضا الرحمن مع
التكذيب والكفران وغفلوا عن ان في ذلك مع التكذيب بالبعث تكذيبا بما يشاهدون من
القدرة على العقاب باحلال النقم وسلب النعم ولو شئنا لاهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ثم بين ابهام كم بقوله مِنْ قَرْنٍ شاهدوا ديارهم ورأوا آثارهم هُمْ اي اهل تلك القرون
أَحْسَنُ من هؤلاء أَثَاثًا اي امتعة وَرِئْيًا اي منظرا فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على
كونه حبيب الله لوجب ان لا يصل الى هؤلاء غم في الدنيا وقرأ قالون وابن ذكوان بابدال الهمزة
ياء وادغامها في الياء وقفا ووصلا واذا وقف حمزة ابدل الهمزة ياء وله فيها الادغام
والاظهار تنبيه + كم مفعول اهلكنا مقدم واجب التقديم لان له صدر الكلام لانها اما استفهامية
او خبرية وهي محمولة على الاستفهامية اي كثيرا من القرون اهلكنا ومن قرن تمييز لكم مبين لها
وانما سمي اهل كل عصر قرنا لانهم يتقدمون من بعدهم وقول البيضاوي وهم احسن صفة لكم
تبع فيه الزمخشري وغيره ورد بان كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها فهم
احسن في محل جر صفة لقرن وجمع نظرا للمعنى لان القرن مشتمل على افراد كثيرة + ثم قال تعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم قُلْ لهؤلاء المبعدين ردا عليهم وقطعا لمعاذيرهم وهتكا لشبههم هذا الذي
افتخرتم به لا يدل على حسن الحال في الآخرة بل على عكس ذلك فقد جرت عادته تعالى انه مَنْ كَانَ
فِي الضَّلَالَةِ مثلكم كونا راسخا بسط له في الدنيا وطيب عيشه في ظاهر الحال فيها ونعم بانواع اللذة
وقوله فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا امر بمعنى الخبر معناه فيدعه في طغيانه ويمهله في كفره بالبسط
في الآثار والسعة في الديار والطول في الاعمار وانفاقها فيما يستلذ به من الاوزار ولا يزال يمد له
استدراجا حَتَّى إِذَا رَأَوْا اي كل من كفر باعينهم مَا يُوعَدُونَ من قبل الله إِمَّا الْعَذَابَ في الدنيا
بايدي المؤمنين وغيرهم او في البرزخ وَإِمَّا السَّاعَةَ اي القيامة التي هم بها مكذبون وعن الاستعداد لها معرضون
ولا شيء يشبه اهوالها وخزيها ونكالها فَسَيَعْلَمُونَ اذا راوا ذلك مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا اي من جهة المكان
الذي قوبل به المقام في قولهم خير مقاما وَأَضْعَفُ جُنْدًا اي اقل ناصرا اهم ام المؤمنون اي اضعف من جهة
الجند اي الذي اشير به الى الندي في قولهم واحسن نديا لانهم في النار والمؤمنون في الجنة فهذا رد
عليهم في قولهم اي الفريقين خير مقاما واحسن نديا وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا الى الايمان هُدًى
بما ينزل عليهم من الآيات عوض ما زوي عنهم من الدنيا لكرامتهم عنده مما بسط للضلال
لهوانهم عليه + واشار الى ان مثل ما خذل اولئك بالنوال وفق هؤلاء لمحاسن الاعمال باقلال الاموال

فقال عز من قائل والباقيات الصالحات اى الطاعات والمعارف التى شرحت لها الصدور
وانارت بها القلوب واوصلت الى علام الغيوب خير عند ربك مما متع به الكفرة والخيرية هنا
فى مقابلة قولهم اى الفريقين خير مقاما وقيل الباقيات الصالحات هى الصلوات وقيل التسبيح روى
ابو الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم واخذ عودا يابسا وازال الورق عنه
ثم قال ان قول لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله تحط الخطايا كما يحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن
يا ابا الدرداء قبل ان يحال بينك وبينهن الباقيات الصالحات وهى من كنوز الجنة فكان ابو الدرداء
يقول لاعملن بذلك ولاكثرن عمله حتى اذا رآنى الجاهل حسبنى مجنونا قال الرازى والقول
الاول اولى لانه تعالى انما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها ولا ينقضى
بعض العبادات فهى باسرها باقية صالحة نظرا الى اثرها الذى هو الهداية ثم بين تعالى
خيريتها بقوله تعالى ثوابا اى من جهة الثواب وخير مردا اى من جهة العاقبة يوم الحسرة
فان قيل لا يجوز ان يقال هذا خير الا والمراد انه خير من غيره والذى عليه الكفار لا خير فيه اصلا
اجيب بان المراد خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما واحسن نديا وقيل هو كقولهم الصيف
احر من الشتاء يعنى انه فى حره ابلغ منه فى برده فالكفرة يؤدون الى فناء وخسارة والمؤمنون
الى ربح وبقاء ولما ذكر تعالى الدلائل اولا على صحة البعث ثم اورد شبهة المنكرين واجاب
عنها اورد عليهم الان ما ذكره على سبيل الاستهزاء طعنا فى القول بالحشر فقال تعالى افرأيت
الذى اى الذى يعرفون شره هذا اليوم ويزيد على ذلك بانه كفر باياتنا الدالات على عظمتنا بالدلالة
البينات وقال جراءة منه وجهلا لاوتين اى والله لاوتين فى الساعة على تقدير قيامها مالا وولدا
اى عظيمين فلم يكفه فى جهله تقييد القادر حتى ضم اليه اقرار العاجز وقرأ حمزة والكسائى وولدا وكذا
ولدا فى جميع ما فى هذه السورة بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتح الواو واللام فى الجميع
يقال ولد وولد كما يقال عرب وعرب وعدم وعدم اما القراءة بالفتحتين فواضحة وهو اسم مفرد
قائم مقام الجمع واما قراءة الضم والاسكان فقيل هى كالتى قبلها فى المعنى وقيل بل هى جمع لولد نحو اسد
اسد وانشدوا على ذلك ؎ ولقد رأيت معاشرا + قد ثمروا مالا وولدا + وانشدوا شاهدا
على ان الولد والولد مترادف قول الاخر ؎ فليت فلانا كان فى بطن امه + وليت فلانا
كان ولد حمار + ولما كان ما ادعاه لا علم به الا باحد امرين لا علم له بواحد منهما انكر قوله ذلك
بقوله تعالى اطلع الغيب الذى هو غائب عن كل مخلوق فهو فى بعد عن الخلق كالعالى الذى لا يمكن
احدا منهم الاطلاع اليه وتفرد به الواحد القهار ام اتخذ اى بغاية جهده عند الرحمن عهدا
عاهده عليه بان يؤتيه ما ذكر بطاعة فعلها على وجهها ليقف سبحانه فيه عند قوله وقيل
فى العهد كلمة الشهادة وعن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول وعن الكلبى
هل عهد الله اليه ان يؤتيه ذلك وعن الحسن رحمه الله تعالى نزلت فى الوليد بن المغيرة والمشهور

انها في العاص بن وائل قال خباب بن الارت كان لي عليه دين فاتقاضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا اكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث قال فاني اذا مت بعثت قلت نعم قال اذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فاعطيك وقيل صاغ له خباب حليا فاقتضاه الاجر فقال انكم تزعمون انكم تبعثون وان في الجنة ذهبا وفضة وحريرا فانا اقضيك ثم فاني اوتى مالا وولدا فاعطيك حينئذ ثم انه سبحانه وتعالى بين من حاله ضد ما ادعاه فقال تعالى كَلَّا وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطأ اي هو مخطئ فيما يقول ويتمناه سَنَكْتُبُ اي نحفظ عليه مَا يَقُولُ فنجازيه به في الآخرة وقيل نأمر الملائكة حتى يكتبوا عليه ما يقول وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا اي نزيده بذلك عذابا فوق عذاب كفره وقيل نطيل مدة عذابه وَنَرِثُهُ بموته مَا يَقُولُ اي ما عنده من المال والولد وَيَأْتِينَا يوم القيامة فَرْدًا لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلا ان يؤتى ثم زائدا قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى وقيل فردا رافضا لهذا القول منفردا عنه ۰ ولما تكلم سبحانه وتعالى في مسئلة الحشر والنشر تكلم الآن في الرد على عباد الاصنام فقال وَاتَّخَذُوا اي كفار قريش مِنْ دُونِ اللَّهِ اي الاوثان آلِهَةً يعبدونها لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا اي منفعة بحيث يكونون لهم شفعاء وانصارا ينقذونهم من الهلاك ۰ ثم اجاب تعالى بقوله تعالى كَلَّا ردع وانكار لتعززهم بها سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ اي تجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا كقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وفي آية اخرى ما كانوا ايانا يعبدون وقيل اراد بذلك الملائكة لانهم كانوا يكفرون بعبادتهم ويتبرؤن منهم ويخاصمونهم وهو المراد من قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقيل ان الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك اعظم لحسرتهم ويجوز ان يراد الملائكة والاصنام وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا اي اعوانا واعداء فان قيل لم وحده وهو خبر عن جمع اجيب بانه اما مصدر في الاصل والمصادر موحدة مذكرة واما لانه مفرد في معنى الجمع قال الزمخشري والضد العون وحد توحيد قوله عليه الصلوة والسلام وهم يد على من سواهم لاتفاق كلمتهم وانهم كشيء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم انتهى والحديث رواه ابو داود وغيره والشاهد فيه قوله يد حيث لم يقل ايد ۰ ولما ذكر تعالى لهؤلاء الكفار مع آلهتهم في الآخرة ذكر بعده ما لهم مع الشياطين في الدنيا وانهم يتولونهم وينقادون اليهم فقال تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم أَلَمْ تَرَ اي تنظر أَنَّا أَرْسَلْنَا اي سلطنا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا الأز والهز والاستفزاز اخوات ومعناها التهييج وشدة الازعاج اي تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ اي تطلب عقوبتهم بان يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح انت والمسلمون من شرورهم إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا اي ليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم الا ايام محصورة وانفاس معدودة ونظيره قوله تعالى ولا تستعجل لهم كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ وعن ابن عباس كان اذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق اهلك وعن

ابن السماك انه كان عند المامون فقرأها فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما اسرع
ما تنفد وقيل نعد انفاسهم واعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها وقيل نعد الاوقات الى وقت
الاجل المعين لكل احد الذي لا يتطرق اليه الزيادة والنقصان ثم بين تعالى ما سيظهر في ذلك
اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين في كيفية الحشر فقال يَوْمَ اي واذكر يوم نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ
بايمانهم إِلَى الرَّحْمَٰنِ اي الى محل كرامته وقوله تعالى وَفْدًا حال اي وافدين عليه كما يفد الوفاد على
الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم والوفد الجماعة الوافدون يقال وفد يفد وفدا ووفودا
ووفادة اي قدم على سبيل التكرمة فهو في الاصل مصدر ثم اطلق على الاشخاص كالصف وقال
ابو البقاء وفد جمع وافد مثل ركب وراكب وصحب وصاحب وهذا الذي قاله ليس بمذهب
سيبويه لان فاعلا لا يجمع على فعل عند سيبويه واجازه الاخفش وجرى عليه الجلال المحلي فقال
وفد جمع وافد بمعنى راكب انتهى وقال ابن عباس وفدا ركبانا وقال ابو هريرة على الابل وقال علي
رضي الله تعالى عنه والله ما يحشرون على ارجلهم ولكن فوق نوق رحالها الذهب ونجائب
سروجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ بكفرهم إِلَىٰ جَهَنَّمَ
وقوله تعالى وِرْدًا حال اي مشاة باهانة واستخفاف كانهم نعم عطاش تساق الى الماء وقيل عطاشا
قد تقطعت اعناقهم من شدة العطش لان من يرد الماء لا يرد الا بعطش وحقيقة الورد المسير الى
الماء وقوله تعالى لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ الضمير فيه للعباد المدلول عليهم بذكر المتقين والمجرمين وقيل
للمتقين وقيل للمجرمين وقوله تعالى إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا استثناء متصل على القولين
الاولين منقطع على الثالث والمعنى ان الشافعين لا يشفعون الا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا كقوله
تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى ويدخل في ذلك اهل الكبائر من المسلمين اذ كل من اتخذ عند الرحمن
عهدا وجب دخوله فيه وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدا وهو التوحيد فوجب دخوله تحته
ويؤيده ما روي عن ابن مسعود انه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم ايعجز احدكم ان
يتخذ عند كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم
فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة اني اعهد اليك باني اشهد ان لا اله الا انت وحدك
لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك فلا تكلني الى نفسي فانك ان تكلني الى نفسي تقربني
من الشر وتباعدني من الخير واني لا اثق الا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة انك
لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد اين
الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر ان المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه الدلالة على ثبوت
الشفاعة لاهل الكبائر ولما رد سبحانه وتعالى على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من اثبت له ولدا بقوله
تعالى وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا اي قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت
العرب الملائكة بنات الله لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا قال ابن عباس اي منكرا وقال قتادة اي عظيما وقال

ابن خالويه الادّ والاذّ العجب وقيل العظيم المنكر والادة الشدة وادّنى الامر وادنى اثقلنى وعظم
علىّ وقرأ تكاد السموات نافع والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التانيث وقرأ ينفطرن منه
ابو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففا والباقون بعد الياء بتاء
وفتح الطاء مشددة يقال انفطر الشئ وتفطر اى تشقق وقراءة التشديد ابلغ لان التفعل مطاوع
فعل والانفعال مطاوع فعل ولان اصل التفعل التكلف وتنشق الارض اى تنخسف بهم وتخر الجبال
هدّا اى تسقط وتنطبق عليهم ان اى من اجل ان دعوا للرحمن ولدا قال ابن عباس وكعب فزعت
السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت ان تزول وغضبت الملائكة واستعرت
جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا فان قيل كيف يؤثر القول فى انفطار السموات وانشقاق الارض
وخرور الجبال اجيب بوجوه الاول ان الله تعالى يقول كدت افعل هذا بالسموات والارض
والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها لولا حلمى وانى لا اعجل بالعقوبة
الثانى ان يكون استعظاما للكلمة وتهويلا وتصويرا لاثرها فى الدين وهدمها لقواعده
واركانه الثالث ان السموات والارض والجبال تكاد ان تفعل كذلك لو كانت تعقل هذا القول
ثم نفى الله تعالى عن نفسه الولد بقوله تعالى وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا اى ما يليق به اتخاذ
الولد لان ذلك محال اما الولادة المعروفة فلا مقالة فى امتناعها واما التبنى فان الولد لابد وان
يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى لان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض اما سرور واستعانة
او ذكر جميل وكل ذلك لا يصح فى حق الله تعالى ان اى ما كل من فى السموات والارض اى ان كل
معبود من الملائكة فى السموات والارض من الناس كعزير وعيسى الا آتى الرحمن اى ملتجئ
الى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا ذليلا خاضعا كما يفعل العبيد ومن المفسرين كالجلال المحلى
من حمله على يوم القيامة خاصة والاول اولى لانه لا تخصيص فى الآية لقد احصاهم اى حصرهم
واحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزة علمه وقبضته وقدرته وكلهم تحت تدبيره وقهره
وعدهم عدا اى عد اشخاصهم وايامهم وانفاسهم وافعالهم فان كل شئ عنده بمقدار لا يخفى
عليه شئ من امورهم وكلهم آتيه اى كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فردا اى وحيدا ليس
معه من الدنيا شئ من مال او نصير يمنعه ولما رد سبحانه وتعالى على اصناف الكفرة وبالغ فى شرح
احوالهم فى الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر احوال المؤمنين فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات
سيجعل لهم الرحمن ودا اى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها من قرابة
او صداقة او اصطناع معروف او غير ذلك روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال اذا احب
الله عبدا يقول لجبريل احببت فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى اهل السماء ان الله قد احب
فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم توضع له المحبة فى الارض واذا ابغض الله العبد قال مالك لا احسبه
الا قال فى البغض مثل ذلك والسين فى سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين

الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك اذا قوي الاسلام والمعنى سيحدث لهم في القلوب مودة واما ان يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الله الى خلقه بما يظهر من حسناتهم وروى عن كعب قال مكتوب في التورية لا محبة لاحد في الارض حتى يكون ابتداؤها من السماء من الله عز وجل ينزلها على اهل السماء ثم على اهل الارض ومصداق ذلك في القران قوله سيجعل لهم الرحمن ودا وقال ابو مسلم معناه يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء ولما ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة التوحيد والنبوة والحشر والرد على فرق المبطلين بين تعالى انه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ اى القران بِلِسَانِكَ اى العربي اى لولا انه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك لك لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ اى المؤمنين وَتُنْذِرَ اى تخوف بِهِ قَوْمًا لُدًّا جمع الد اى يجادل بالباطل وهم كفار مكة ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة عظيمة بليغة فقال تعالى وَكَمْ اى كثيرا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ اى امة من الامم الماضية بتكذيب الرسل لانهم اذا تاملوا وعلموا انه لا بد من زوال الدنيا وانه لا بد فيها من الموت وخافوا سوء العاقبة في الآخرة كانوا الى الحذر من المعاصي اقرب ثم اكد ذلك بقوله تعالى هَلْ تُحِسُّ اى ترى وقيل تجد مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا اى صوتا خفيا قال الحسن بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا اثر اى فكما اهلكنا اولئك نهلك هؤلاء. تنبيه الركز الصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم ومنه ركز الرمح اى غيبه في الارض واخفاه ومنه الركاز وهو المال المدفون لخفائه واستتاره والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعا للزمخشري وهو من قرأ سورة مريم اعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله تعالى حديث موضوع

سورة طه عليه الصلوة والسلام مكية

وهي مائة وخمس وثلاثون اية وعدد كلماتها الف وثلاثمائة واحدى واربعون كلمة وعدد حروفها خمسة الاف ومائتان واثنان واربعون حرفا وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الاول واعطيت طه وطس والطواسين من الواح موسى واعطيت فواتح القران وخواتيم السورة التي ذكرت فيها البقرة من تحت العرش واعطيت المفصل نافلة

بِسْمِ اللّٰهِ الملك الحق المبين الرَّحْمٰنِ الذي عم نعمه على خلقه اجمعين الرَّحِيمِ الذي خص بجنته عباده المؤمنين وقرأ طه شعبة وحمزة والكسائي باملة الطاء والهاء ووافقهم ورش وابو عمرو على امالة الهاء محضة ولم يمل ورش محضة الا هذه الهاء وقد تقدم الكلام في الحروف المقطعة في اول سورة البقرة وفي هذه ههنا قولان الصحيح انها من تلك وقيل انها كلمة مفيدة اما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه في اول سورة البقرة والذي زاده هنا امور احدها قال الثعالبي الطاء شجرة طوبى والهاء الهاوية فكانه اقسم بالجنة والنار ثانيها

عن جعفر الصادق الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم ثالثها قال سعيد بن جبير هذا افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي رابعها مطمع الشفاعة للأمة وهادي الخلق إلى الملة خامسها الطاء من الطهارة والهاء من الهداية فكأنه قيل يا طاهرا من الذنوب يا هاديا إلى علام الغيوب سادسها الطاء طول القراء والهاء هيبتهم في قلوب الكفار قال تعالى سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب سابعها الطاء بتسعة في الحساب والهاء بخمسة تكون أربعة عشر ومعناها يا أيها البدر وأما على القول الثاني فقيل معنى طه يا رجل وهو يروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي ثم قال سعيد بن جبير بالنبطية وقال قتادة بالسريانية وقال عكرمة بالحبشية وقال الكلبي بلغة عك وهو بلشن بن الكاف ابن عدنان أخو معد وحكى الكلبي أنك لو قلت في عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه وقال السدي معناه يا فلان وقيل إنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا وقال الكلبي لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلوة لطول قيامه وكان يصلي الليل كله فأنزل الله عليه هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال تعالى مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ أي لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلوة الليل أي خفف عن نفسك فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم صلى الليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فإن لها عليك حقا ما أنزلناه لتهلك نفسك بالصلوة وتذيقها المشقة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة وروي أنه كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقيل لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك أي لتعنى وتتعب وما أنزل عليك القرآن يا محمد إلا لشقائك فنزلت وأصل الشقاء في اللغة العناء وقيل المعنى إنك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله تعالى وما أنت عليهم بوكيل أي إنك لا تؤاخذ بذنبهم وقيل إن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت مقهورا تحت ذل الأعداء فكأنه تعالى قال لا تظن أنك تبقى أبدا على هذه الحالة بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فإنا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل لتصير معظما مكرما وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة وأبو عمرو بين بين وورش بين اللفظين والفتح عنده ضعيف جدا وكذلك جميع رؤس آي هذه السورة من ذوات الياء وقوله تعالى إِلَّا تَذْكِرَةً استثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة قال الزمخشري فإن قلت هل يجوز أن يكون تذكرة بدلا من محل لتشقى قلت لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلا فيه بمعنى لكن لِّمَن يَخْشَىٰ أي لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار أو لمن علم الله تعالى منه أن يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع به وقوله تعالى تَنزِيلًا بدل من اللفظ بفعله الناصب له مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ أي من الله الذي خلق الأرض وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى أي العالية الرفيعة التي لا يقدر على خلقها في عظمها غير الله تعالى والعلى جمع عليا كالكبرى وكبر والصغرى وصغر وقدم

الارض على السموات لانها اقرب الى الحس واظهر عنده من السموات ثم اشار الى وجه احداث الكائنات
وتدبير امرها بان قصد العرش فاجرى منه الاحكام والمقادير وانزل منه الاسباب على ترتيب
ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال تعالى الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ ‌ هو سرير الملك
اسْتَوَىٰ اى استواء يليق به فانه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان واذا خلق الله الخلق لا يحتاج
الى مكان فهو بالصفة التى كان لم يزل عليها وتقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف مستوفى فراجعه
ثم استدل سبحانه وتعالى على كمال قدرته بقوله تعالى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن
والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى وهو التراب الندى والمراد الارضون
السبع لانها تحته وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر النون والنون على بحر وراسه وذنبه يلتقيان
تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكر الله تعالى فى قصة لقمان
فتكن فى صخرة والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى لا يعلمه الا الله عز وجل وذلك
الثور فاتح فاه فاذا جعل الله تعالى البحار بحرا واحدا سالت فى جوف ذلك الثور فاذا وقعت فى
جوفه يبست وقرأ ابو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة وورش بين اللفظين وكذا جميع رؤس
اى السورة من ذوات الراء ‌ ولما كانت القدرة تابعة للارادة وهى لا تنفك عن العلم عقب ذلك
باحاطة علمه تعالى بجليات الامور وخفياتها على حد سواء فقال تعالى وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ اى تعلن بالقول
فى ذكر او دعاء فالله تعالى غنى عن الجهر به فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى قال الحسن فى السر ما اسر الرجل الى غيره
واخفى من ذلك ما اسر فى نفسه وعن ابن عباس السر ما تسر فى نفسك واخفى من السر ما يلقيه
الله تعالى فى قلبك من بعد ولا تعلم انك ستحدث به نفسك لانك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا
والله يعلم ما اسررت اليوم وما تسر غدا وقال على بن ابى طلحة عن ابن عباس السر ما اسر ابن ادم
فى نفسه واخفى ما خفى عليه مما هو فاعله قبل ان يعلمه وقال مجاهد السر العمل الذى يسر من
الناس واخفى الوسوسة وقيل السر هو العزيمة واخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه وقال
زيد بن اسلم يعلم اسرار العباد واخفى سره من عباده فلا يعلمه احد ‌ ولما ذكر صفاته وحد نفسه
فقال تعالى اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ التسعة والتسعون الواردة بها الحديث والحسنى تانيث
الاحسن وفضل اسماء الله تعالى على سائر الاسماء فى الحسن لدلالتها على معان هى اشرف المعانى
وافضلها روى ان لله تعالى اربعة آلاف اسم الف لا يعلمها الا هو والف لا يعلمها الا الله والملائكة
والف لا يعلمها الا الله والملائكة والانبياء واما الالف الرابعة فالمؤمنون يعلمونها فثلثمائة فى التورية
وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى القرآن تسعة وتسعون منها ظاهرة وواحد مكنون
من احصاها دخل الجنة وذكر فى لا اله الا الله فضائل كثيرة اذكر بعضها واسأل الله تعالى ان يجعلنا ومحبينا
من اهلها روى انه صلى الله عليه وسلم قال افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله ثم تلا رسول

الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وروى انه
صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل ان يخلق السموات والارض وهو
يقول اشهد ان لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا اتمها امر اسرافيل
بالنفخ في الصور وقامت القيامة تعظيما لله وعن انس قال صلى الله عليه وسلم ما زلت اشفع الى ربي
ويشفعني واشفع اليه ويشفعني حتى قلت يا رب شفعني فيمن قال لا اله الا الله فقال يا محمد ليست
لك ولا لاحد وعزتي وجلالي لا ادع احدا في النار قال لا اله الا الله وقال سفيان الثوري سألت
جعفر بن محمد عن حم عسق فقال الحاء حلمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف
قدرته يقول الله عز وجل بحلمي وملكي وعظمتي وسنائي وقدرتي لا اعذب بالنار من قال لا اله الا الله
محمد رسول الله وروى عن موسى عليه السلام انه قال يا رب علمني شيئا اذكرك به قال قل لا اله الا الله قال
انما اردت شيئا تخصني به قال يا موسى لو ان السموات السبع ومن فوقهن في كفة ولا اله الا الله في كفة
لمالت بهن لا اله الا الله وقال بعض المفسرين في قوله تعالى الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة
طيبة انها لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما اعظكم
بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو
لا اله الا الله يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الاخرة هو لا اله الا الله ويضل الله
الظالمين عن قول لا اله الا الله وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال في السوق لا اله الا الله
وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له الف الف
حسنة ومحا عنه الف الف سيئة وبنى له بيتا في الجنة قال الرازي وفي النكت ينبغي لاهل لا اله الا الله
ان يخلصوا في اربعة اشياء حتى يكونوا من اهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرمة
فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له
الحرمة فهو فاجر كذاب وحكي ان بشرا الحافي راى كاغذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه
بالمسك فراى في النوم كانه نودي يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والاخرة وذكر ان
صيادا كان يصيد السمك وكانت ابنته تطرحها في الماء وتقول انما وقعت في الشبكة لغفلتها
الهنا تلك الصبية كانت ترحم غفلتها وكانت تلقيها مرة اخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة
الشيطان واخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منه والقنا في بحار رحمتك مرة اخرى
وعن محمد بن كعب القرظي قال قال موسى الهي اي خلقك اكرم عليك قال الذي لا يزال لسانه رطبا
من ذكري قال فاي خلقك اعظم قال الذي يلتمس الى علمه علم غيره قال فاي خلقك اعدل قال الذي
يقضي على نفسه كما يقضي على الناس قال واي خلقك اعظم جرما قال الذي يتهمني وهو الذي يسألني
ثم لا يرضى بما قسمت له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما احسنت به فهو فضل وكل ما لا تفعله فهو
عدل فلا تؤاخذنا بسوء افعالنا واعمالنا وعن الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من

اولى بالكرم اين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال
اين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادي مناد اين الحامدون الله كثيرا على كل حال
ثم يكون الحساب على من بقي الهنا نحن حمدناك واثنينا عليك بمقدار طاقتنا ومنتهى قدرتنا فاعف
عنا بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين ۞ ولما عظم الله تعالى حال القرآن وحال رسوله صلى الله عليه وسلم
بما كلفه اتبع ذلك بما يقوي قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من ذكر احوال الانبياء تقوية لقلبه
في الابلاغ كقوله تعالى وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام
لان فتنته كانت اعظم الفتن ليتسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويصبر على تحمل المكاره فقال تعالى
وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى وهذا يحتمل لان يكون هذا اول ما اخبر به من امر موسى فقال وهل اتاك
اي لم ياتك الى الان فتنبه له وهذا قول الكلبي ويحتمل ان يكون قد اتاه ذلك في الزمان المتقدم فكانه
قال اليس قد اتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس وهذا وان كان على لفظ الاستفهام
الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الخبر في نفسه وهذه الصورة ابلغ في ذلك كقولك
لصاحبك هل بلغك عني كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومي اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام
لكان الجواب يصدر من قبل موسى لا من قبل الله تعالى وقيل ان هل بمعنى قد وجرى على ذلك الجلال
المحلي تبعا للبغوي وقوله تعالى إِذْ رَأَى نَارًا يجوز ان يكون منصوبا بالحديث وهو الظاهر ويجوز ان ينصب
باذكر مقدرا اي اذكر اذ راى نارا وذلك ان موسى عليه السلام استاذن شعيبا عليه السلام
في الرجوع من مدين الى مصر لزيارة والدته واخيه فاذن له فخرج باهله وماله وكانت ايام شتاء
واخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامراته حامل في شهرها لا تدري ليلا تضع او نهارا
فسار في البرية غير عارف بطرقها فالجأه المسير الى جانب الطور الغربي الايمن في ليلة مظلمة مثلجة
شديدة البرد قيل كانت ليلة جمعة واخذت امراته في الطلق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده
وجعل يقدح زنده فلا يوري فابصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور فَقَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا اي اقيموا في مكانكم والخطاب لامراته وولدها والخادم ويجوز ان يكون للمراة وحدها خرج على
ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وايضا قد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيما وقرأ حمزة بضم
الهاء في الوصل والباقون بالكسر إِنِّي آنَسْتُ اي ابصرت نَارًا والايناس الابصار البين الذي لا شبهة
فيه ومنه انسان العين لانه يتبين به الشيء والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل ابصار
ما يونس به ولما وجد منه الايناس وكان متيقنا حققه لهم بكلمة اني ليوطن انفسهم ۞ ولما كان
الاتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال لَعَلِّي آتِيكُمْ
مِنْهَا بِقَبَسٍ اي شعلة في راس فتيلة او عود او نحو ذلك وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء في اني
ولعلي الآتية والباقون بالسكون الا ابن عامر ففتح لعلي مع من ذكر وهم على مراتبهم في المد
أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى اي هاديا يدلني على الطريق ومعنى الاستعلاء في على النار ان اهل

النار يستعملون المكان القريب منها كما قال سيبويه في مررت بزيد انه لصوق بمكان يقرب من
زيد ولان المصطلين بها اذا احاطوا بها كانوا مشرفين عليها وقال بعضهم النار اربعة اقسام نار تاكل
ولا تشرب وهي نار الدنيا ونار تشرب ولا تاكل وهي التي في الشجر الاخضر كما قال تعالى الذي جعل لكم
من الشجر الاخضر نارا ونار تاكل وتشرب وهي نار المعدة ونار لا تاكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام
وقيل ايضا النار اربعة احدها نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام ثانيها لها حرقة
بلا نور وهي نار جهنم اعاذنا الله تعالى منها ثالثها لها الحرقة والنور وهي نار الدنيا رابعها لا حرقة ولا نور وهي
نار الاشجار * تنبيه * ان وصلت هدى بفلما فليس فيها الا التنوين للجميع وان وقف عليها فهم
على اصولهم في الفتح والامالة وبين اللفظين فَلَمَّا أَتَىٰهَا اي النار قال ابن عباس راى شجرة
خضراء من اسفلها الى اعلاها اطافت بها نار بيضاء تتقد كاضوا ما يكون فوقف متعجبا من شدة
ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة يغير ضوء
النار قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضراء وقال مقاتل وقتادة والكلبي كانت من العوسج
وقال وهب كانت من العليق وقيل من العناب قال اكثر المفسرين ان الذي راه موسى لم يكن نارا بل
كان من نور الرب تعالى وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما ذكر بلفظ النار لان موسى
عليه السلام حسبه نارا فلما دنا منها سمع تسبيح الملائكة وراى نورا عظيما قال وهب فظن موسى
انها نار اوقدت فاخذ من دقاق الحطب وهو الحشيش اليابس ليقتبس من لهبها فمالت اليه
كانها تريده فتاخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن باسرع من خمودها كانها
لم تكن ثم رمى موسى ببصره الى فرعها فاذا خضرتها ساطعة في السماء واذا النور بين السماء والارض له شعاع
تكل عنه الابصار فلما راى موسى عليه السلام ذلك وضع يده على عينيه والقيت عليه السكينة
نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ قال وهب نودي من الشجرة فقيل يا موسى فاجاب سريعا ولم يدر
من دعاه فقال اني اسمع صوتك ولا ارى مكانك فاين انت فقال انا فوقك ومعك وامامك وخلفك
واقرب اليك منك فعلم ان ذلك لا ينبغي الا لله تعالى فايقن به وقيل انه سمع بكل اجزائه حتى ان
كل جارحة منه كانت اذنا وقرا ابن كثير وابو عمرو بفتح الهمزة من اني على تقدير الباء اي باني
لان النداء يوصل بها تقول ناديته بكذا وانشد الفارسي قول الشاعر ؎ ناديت باسم ربيعة بن مكدم
* ان المنوه باسمه الموثوق * وجوز ابن عطية ان تكون بمعنى لاجل وليس بظاهر والباقون
بالكسر اما على اضمار القول كما هو راي البصريين اي فقيل واما لان النداء في معنى القول عند
الكوفيين وقوله تعالى انا يجوز ان يكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر ان ويجوز ان يكون
توكيدا للضمير المنصوب ويجوز ان يكون فصلا وروى ابن مسعود مرفوعا في قوله تعالى فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ
انهما كانا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ فامر بخلعهما صيانة للوادي المقدس وقال
عكرمة ومجاهد انما امر بذلك ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة فيناله بركتها ويدل لذلك انه قال

تعالى عقبه إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ اي المطهر او المبارك فخلعهما والقاهما من وراء الوادي هذا
ما قاله اهل التفسير وذكر اهل الاشارة في ذلك وجوها احدها ان النعل في النوم يعبر بالزوجة
وقوله فاخلع نعليك اشارة الى انه لا يلتفت بخاطره الى الزوجة والولد وان لا يبقى مشغول القلب
بامرهما ثانيها المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كانه امره ان يصير مستغرق
القلب بالكلية في معرفة الله تعالى فلا يلتفت الى المخلوقات ثالثها ان الانسان حال الاستدلال
على وجود الصانع لا يمكنه ان يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل ان يقول العالم المحسوس محدث وكل
ما كان كذلك فله مؤثر ومدبر وصانع فهاتان المقدمتان شبيهتان بالنعلين لان بهما يتوصل
العقل الى المقصود وينتقل من النظر في الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق
وجب ان لا يبقى ملتفتا الى تلك المقدمتين فكانه قيل لا تكن مشتغل الخاطر بتلك المقدمتين فانك وصلت
الى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى • وقوله تعالى طُوًى بدل او عطف بيان وقرأه هنا
وفي النازعات نافع وابن كثير وابو عمرو بغير تنوين فهو ممنوع من الصرف باعتبار البقعة مع
العلمية وقيل لانه معدول عن طاو نحو مثل عمر للعدل عن عامر وقيل انه اسم اعجمي ففيه العلمية والعجمة
والباقون بالتنوين فهو مصروف باعتبار المكان ففيه العلمية فقط وعند هؤلاء ليس باعجمي
وقوله تعالى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ اي اصطفيتك للرسالة من قومك وقرأ حمزة بتشديد النون من انا وقرأ اخترناك
بنون بعدها الف بلفظ الجمع والباقون بتاء مضمومة • وقوله تعالى فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى اي اليك مني فيه
نهاية الهيبة والجلالة كانه تعالى قال لقد جاءك امر عظيم فتاهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا
اليه وفي قوله تعالى وانا اخترتك نهاية اللطف والرحمة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية
الخوف • تنبيه • يجوز في لام لما ان تتعلق فاستمع وهو اولى وان تكون مزيدة في المفعول على حد قوله تعالى
ردف لكم وجوز الزمخشري ان يكون ذلك من باب التنازع ونازعه ابو حيان بانه لو كان كذلك لاعاد
الضمير مع الثاني فكان يقول فاستمع له لما يوحى واجيب عنه بان مراده التعلق المعنوي من حيث الصلاحية
واما تقدير الصناعة فلم يعنه • وقوله تعالى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي بدل مما يوحى دال على انه
مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم والامر بالعبادة التي هي كمال العمل وفي هذه الآية
دلالة على ان علم اصول الدين مقدم على علم الفروع وايضا فالفاء في قوله تعالى فاعبدني تدل على ان عبادته
انما لزمت لالهيته لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وخص الصلوة بالذكر وافردها
في قوله تعالى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي للعلة التي اناط بها اقامتها وهو تذكير المعبود وشغل القلب
واللسان بذكره وقيل لذكري لاني ذكرتها في الكتب وامرت بها وقيل لاوقات ذكري وهي
مواقيت الصلوة او لذكر صلوتي لما روى مسلم انه صلى الله عليه وسلم قال من نام عن صلوة
او نسيها فليقضها اذا ذكرها ان الله يقول واقم الصلوة لذكري وقيل لان اذكرك بالثناء والمدح
واجعل لك عليها لسان صدق عليا وقيل لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري • ولما خاطب

تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى فاعبدني واقم الصلوة لذكري اتبعه بقوله تعالى إِنَّ السَّاعَةَ
آتِيَةٌ اي كائنة أَكَادُ أُخْفِيهَا قال اكثر المفسرين معناه اكاد اخفيها من نفسي فكيف يعلمها غيري
من الخلق وكيف اظهرها لكم ذكر تعالى على عادة العرب اذا بالغوا في كتمان الشيء يقول الرجل
كتمت سري من نفسي اي اخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شيء والمعنى في اخفائها
التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك
المعنى في اخفاء وقت الموت لان الله تعالى وعد قبول التوبة فاذا عرف وقت موته وانقضاء اجله
اشتغل بالمعاصي الى ان يقرب ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصي
بتعريف وقت موته فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية فاذا لم يعلم وقت موته لا يزال
على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي او يتوب منها في كل وقت خوف معاجلة الاجل وقال ابو مسلم
اكاد بمعنى اريد وهو كقوله تعالى كذلك كدنا ليوسف ومن امثالهم المتداولة لا افعل ذلك
ولا اكاد اي لا اريد ان افعله وقال الحسن ان اكاد من الله واجب فمعنى قوله تعالى اكاد اخفيها
اي انا اخفيها عن الخلق كقوله تعالى عسى ان يكون قريبا اي هو قريب وقيل اكاد صلة في الكلام والمعنى
ان الساعة آتية اخفيها قال زيد الخيل ؎ سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فما ان يكاد قرنه يتنفس
اي فما ان يتنفس قرنه وقوله تعالى لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ اي تعمل من خير او شر متعلق بآتية
واختلف في المخاطب بقوله تعالى فَلَا يَصُدَّنَّكَ اي يصرفنك عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فقيل وهو الاقرب
كما قاله الرازي انه موسى عليه السلام لان الكلام اجمع خطاب له وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم
واختلف ايضا في عود هذين الضميرين على وجهين احدهما قال ابو مسلم لا يصدنك عنها اي عن الصلوة
التي امرتك بها من لا يؤمن بها اي بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلوة والثاني الى الساعة ومثل
هذا جائز في اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمي بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه ثانيهما قال
ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة اي عن الايمان بها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم
القيمة وهذا اولى لان الضمير يعود الى اقرب المذكورات وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله ابو مسلم
انما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا * تنبيه * المقصود من ذلك نهي موسى عليه السلام
عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى وفيه وجهان
احدهما ان صد الكافر عن التصديق بها سبب التكذيب فذكر السبب ليدل على حمله على المسبب
الثاني ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم
لا ارينك ههنا المراد نهيه للمخاطب عن حضوره له لان يراه هو فالرؤية مسببة عن الحضور كما ان
صد الكافر مسبب عن الرخاوة والتضعضع في الدين فقيل لا يكن رخوا لكن شديدا صلبا حتى لا يلوح
منك لمن يكفر بالبعث انه يطمع في صدك عما انت عليه وَاتَّبَعَ هَوَاهُ اي ميل نفسه الى اللذات المحسوسة
المخدجة لقصر نظره عن غيرها وخالف امر الله فَتَرْدَىٰ اي فتهلك ان انصددت عنها وما في قوله

تعالى وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ مبتدأ استفهامية وتلك خبره بيمينك حال من معنى الاشارة وقوله تعالى يَا مُوسَىٰ تكرير لانه ذكره قبل في قوله تعالى نودي يا موسى وبعد في مواضع كالقها يا موسى لزيادة الاستئناس والتنبيه فان قيل السؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة في ذلك أجيب بان في ذلك فوائد الاولى توقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشك انه يعرفه ويريد ان ينضم اقراره بلسانه الى معرفته بقلبه الثانية ان يقرر عنده انها خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها الثالثة انه تعالى لما اراه تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء واسمعه كلام نفسه ثم اورد عليه التكليف الشاق وذكر له المعاد وختم ذلك بالتهديد العظيم فتحير موسى عليه السلام ودهش فقيل له وما تلك بيمينك يا موسى وتكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة فان قيل هذا خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليهما وسلم أجيب بالمنع فقد خاطبه في قوله تعالى فاوحى الى عبده ما اوحى الا ان الذي ذكره مع موسى عليه السلام افشاه الى الخلق والذي ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يؤهل له احد من الخلق وايضا ان كان موسى تكلم معه فامة محمد يخاطبون الله تعالى في كل يوم مرارا على ما قاله صلى الله عليه وسلم المصلي يناجي ربه والرب يتكلم مع احاد امة محمد يوم القيامة بالتسليم والتكريم لقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم + تنبيه + قوله تعالى وما تلك اشارة الى العصا وقوله تعالى بيمينك اشارة الى اليد وفي هذا نكت ذكرها الرازي رحمه الله تعالى الاولى انه تعالى لما اشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزة قاهرة وبرهانا ساطعا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين مرة الى قلب العبد فاي عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى السعادة بالطاعة ونور المعرفة ثانيها ان بالنظر الاول الواحد صار الجماد ثعبانا فبلع سحر السحرة فاي عجب لو صار القلب ثعبانا فبلع سحر النفس الامارة بالسوء ثالثها ان العصا كانت في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركته انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن فاذا حصلت ليد موسى عليه السلام هذه المنزلة فاي عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعي الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية + ولما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك اجاب باربعة اشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال اولها قَالَ هِيَ عَصَايَ وقدم الجواب بذلك الا انه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض ثانيها قوله أَتَوَكَّؤُا اي اعتمد عَلَيْهَا اذا مشيت واذا عييت واذا وقفت على راس القطيع وعند الطفرة ثالثها قوله وَأَهُشُّ اي اخبط ورق الشجر بِهَا ليسقط عَلَىٰ غَنَمِي لتاكله فبدأ عليه السلام اولا بمصالح نفسه في قوله اتوكؤ عليها ثم بمصالح رعيته في قوله اهش بها على غنمي وكذلك في القيامة يقول نفسي نفسي ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل في

الدنيا الا باصلاح امر الامة وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون
فاليوم يوم القيامة يبين ايضا بامته فيقول امتي امتي رابعها قوله ولي فيها مآرب جمع مأربة بتثليث
الراء حوائج ومنافع اخرى كحمل الزاد والسقي وطرد الهوام وانما اجمل في المآرب رجاء ان يسأله ربه
عن تلك المآرب فيسمع كلام الله تعالى مرة اخرى ويطول امر المكالمة بسبب ذلك وقيل انقطع لسانه
بالهيبة فاجمل وقيل اسم العصا نبعة وقيل في المآرب كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن
واذا طلب كسره لواه بالشعبتين واذا سار القاها على عاتقه فعلق بها ادواته من القوس والكنانة
والحلاب وغيرها واذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها والقى عليها الكساء واستظل
والزندين بفتح الزاي تثنية زند وزندة والزند العود الاعلى الذي تقدح به النار والزندة السفلى فيها
ثقب فاذا اجتمعا قيل زندان ولم يقل زندتان واذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه
وقيل كان فيها من المعجزات انه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا وتكونان شمعتين
بالليل واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فاورقت واثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه
فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وروي عن ابن عباس انها
كانت تماشيه وتحدثه ولما ذكر موسى هذه الجوابات لربه قال له القها اي ابتداء يا موسى فالقيها
فاذا هي حية اي ثعبان عظيم تسعى اي تمشي على بطنها سريعا وهنا نكت خفية احدها انه عليه السلام
لما قال ولي فيها مآرب اخرى اراد الله تعالى ان يعرفه ان فيها مآرب لا يفطن لها ولا يعرفها وانها اعظم
من سائرها وثانيها كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا فالرجل آلة الهرب
واليد آلة الطلب فقال اولا فاخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال القها وهو اشارة الى ترك
الطلب كانه تعالى قال انك ما دمت في مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك طالبا لحظك
فلا تكون خالصا لمعرفتي فكن تاركا للهرب والطلب تكن خالصا لي ثالثها ان موسى عليه السلام
مع علو درجته وكمال صفته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا امر بالقائها حتى امكنه
الوصول الى الحضرة فانت في الف وقر من المعاصي فكيف يمكنك الوصول الى جنابه فان قيل كيف قال
هنا حية وفي موضع آخر جان وهي الحية الخفيفة الصغيرة وقال في موضع آخر ثعبان وهو اكبر ما يكون
من الحيات اجيب بان الحية اسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير واما الثعبان
والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات كما مر والجان الدقيق وفي ذلك وجهان
احدهما انها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت
ثعبانا فاريد بالجان اول حالها وبالثعبان مآلها الثاني انها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة
الجان لقوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان قال وهب لما القى العصا على وجه الارض نظر اليها فاذا هي
حية تسعى صفراء من اعظم ما يكون من الحيات تمشي بسرعة لها عرف كعرف الفرس وكان
بين لحييها اربعون ذراعا وصارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز وعيناها تتقدان

كالنار تمر بالشجرة العظيمة مثل الخلفة من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بانيابها ويسمع لانيابها صريفا عظيما فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم نودي يا موسى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف قال تعالى له خذها اي بيمينك ولا تخف وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان فلما قال تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده فامره الله ان يكشف يده وذكر بعضهم انه لما لف المدرعة على يده قال له الملك ارأيت ان اذن الله بما تحاذره اكانت المدرعة تغني عنك شيئا قال لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت وكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فاذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتيها في الموضع الذي كان يضعها اذا توكأ عليها كما قال تعالى سنعيدها سيرتها الأولى وقد اظهر الله تعالى في هذه العصا معجزات لموسى عليه السلام منها انقلاب العصا حية ومنها وضع يده في فمها من غير ضرر ومنها انقلابها خشبة من الامارات التي تقدمت • تنبيه • في نصب سيرتها اوجه احدها ان تكون منصوبة على الظرف اي في سيرتها اي طريقتها ثانيها على البدل من ها سنعيدها بدل اشتمال لان السيرة الصفة اي سنعيد صفتها وشكلها ثالثها على اسقاط الخافض اي الى سيرتها وقيل غير ذلك فان قيل لما نودي يا موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلماذا خاف اجيب عن ذلك باوجه احدها ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وهذا معلوم بدلائل العقول ثانيها انما خافها لانه عليه السلام عرف ما لقي آدم عليه السلام منها ثالثها ان مجرد قوله ولا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين افضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فما اظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة عن النار وقوله تعالى واضمم يدك اي اليمنى الى جناحك اي جنبك الايسر تحت العضد في الابط تخرج بيضاء اي نيرة مشرقة تضيء كشعاع الشمس تغشى البصر لا بد فيه من حذف والتقدير واضمم يدك تنضم واخرجها تخرج فحذف من الاول والثاني وابقى مقابليهما ليدلا على ذلك ايجازا واختصارا وانما احتيج الى هذا لانه لا يترتب على مجرد الضم الخروج وبيضاء حال من فاعل تخرج وقوله تعالى من غير سوء متعلق بتخرج وروى عن ابن عباس الى جناحك الى صدرك والاول اولى كما قال الرازي لانه يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جانباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر سميا بذلك لانه يجنحهما اي يميلهما عند الطيران وجناحا الانسان عضداه فعضده يشبه جناح الطير ولانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى والسوء الرداءة والقبح في كل شيء فكني به عن البرص كما كني عن العورة بالسوأة والبرص ابغض شيء الى العرب ولهم عنه نفرة عظيمة واسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديرا بان يكنى عنه ولا ترى احسن ولا الطف ولا اخف للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه يروى ان موسى عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا ادخل يده اليمنى

في جيبه فادخلها في ابطه الايسر واخرجها فكانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير مرض ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول من غير نور وقوله تعالى آيَةً أُخْرَى اى معجزة ثانية حال من ضمير تخرج كبيضاء وقوله تعالى لِنُرِيَكَ متعلق بما دل عليه آية اى دللنا بها لنريك وقوله تعالى مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اى العظمى على رسالتك متعلق بمحذوف على انه حال من الكبرى والكبرى مفعول ثان لنريك والتقدير لنريك الكبرى حال كونها من آياتنا اى بعض آياتنا واختلف اى الآيتين اعظم في الاعجاز فقال الحسن اليد لانه تعالى قال لنريك من آياتنا الكبرى والذى عليه الاكثر ان العصا اعظم اذ ليس في اليد الا تغير اللون واما العصا ففيها تغير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحيوة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم اعادتها عصا بعد ذلك فقد وقع التغير في كل هذه الامور فكانت العصا اعظم واما قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى فقد ثبت انه عائد الى الكلام وانه غير مختص باليد فان قيل لم لم يقل تعالى من آياتنا الكبر اجيب بان ذلك ذكر لرؤس الآى وقيل فيه اضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى وهذا التقدير يقوى قول القائل بان اليد اعظم آية + ولما اظهر سبحانه وتعالى لموسى هذه الآيات عقبها بامره بالذهاب الى فرعون بقوله تعالى اذْهَبْ اى رسولا إِلَى فِرْعَوْنَ وبين تعالى العلة في ذلك بقوله تعالى إِنَّهُ طَغَى اى جاوز الحد في كفره الى ان ادعى الالهية وبهذا خصه الله تعالى بالذكر مع انه عليه السلام مبعوث الى الكل قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فانك بعيني وسمعي وان معك يدي ونصري والبستك جبة من سلطاني تستكمل بها القوة في امرك ابعثك الى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وامن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وانكر ربوبيتي اقسم بعزتي لولا الحجة التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمي في كلام طويل قال فسكت موسى عليه السلام سبعة ايام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال اجب ربك فيما امرك فعند ذلك قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي اى وسعه لتحمل الرسالة قال ابن عباس يريد حتى لا اخاف غيرك والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر بقوله قال رب اني اخاف ان يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني وذلك ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى ان يوسع قلبه حتى يعلم ان احدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده وقيل اشرح لي صدري بالفهم عنك ما انزلت علي من الوحي وَيَسِّرْ اى سهل لِي أَمْرِي اى ما امرتني به من تبليغ الرسالة الى فرعون وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالله تعالى هو الميسر له فان قيل قوله لي في اشرح لي صدري ويسر لي امري ما جدواه والامر مستتب بدونه اجيب بانه

قد ابهم الكلام اولا فقال اشرح لي ويسر لي فعلم ان ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع الابهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لامره من ان يقول اشرح صدري ويسر امري على الايضاح الساذج لانه تكرير للمعنى الواحد من طريق الاجمال والتفصيل ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ قال ابن عباس كان في لسانه عليه السلام رتة وذلك ان موسى عليه السلام كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمة واخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته ان هذا عدوي واراد ان يقتله فقالت له آسية انه صبي لا يعقل ولا يميز وفي رواية ان ام موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو ذات يوم يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به اذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه وهم بقتله فقالت آسية ايها الملك انه صغير لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطشتين في احدهما جمر وفي الآخر جوهر فاراد ان يأخذ الجوهر فاخذ جبريل يد موسى عليه السلام فوضعها على النار فاخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة وقيل قربا اليه تمرة وجمرة فاخذ الجمرة فجعلها في فيه فاحترق لسانه ويروى ان يده احترقت وان فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى اي رب تدعوني قال الى الذي ابرأ يدي وقد عجزت عنها وعن بعضهم انها لم تبرأ لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة وقيل كان ذلك التعقد خلقة فسأل الله تعالى ازالته واختلفوا في انه لم طلب حل تلك العقدة فقيل لئلا يقع خلل في اداء الوحي وقيل لئلا يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا اليه وقيل لاظهار المعجزة كما ان حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا في حقه فكذا اطلاق لسان موسى معجز في حقه واختلفوا في زوال العقدة بكمالها فقيل بقي بعضها لقوله واخي هرون هو افصح مني لسانا وقول فرعون ولا يكاد يبين وكان في لسان الحسين ابن علي رضي الله تعالى عنهما رتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثها من عمه موسى وقال الحسن زالت بالكلية لقوله تعالى قد اوتيت سؤلك يا موسى وضعف هذا الرازي بانه عليه السلام لم يقل واحلل العقد من لساني بل قال واحلل عقدة من لساني فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله قال والحق انه انحل اكثر العقد وبقي منها شيء وقال الزمخشري وفي تنكير العقدة ولم يقل واحلل عقدة لساني انه طلب حل بعضها ارادة ان يفهم عنه فهما جيدا اي ولذا قال ﴿يَفْقَهُوا﴾ اي يفهموا ﴿قَوْلِي﴾ عند تبليغ الرسالة ولم يطلب الفصاحة الكاملة ومن لساني صفة للعقدة كانه قيل عقدة من عقد لساني *تنبيه* استدل على ان في النطق فضيلة عظيمة بوجوه اولها قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان فماهية الانسان هي الحيوان الناطق ثانيها اتفاق العقلاء على تعظيم امر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم *

وقالوا ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مرسلة اي لو ذهب النطق اللساني لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل في البهائم وقالوا المرء باصغريه قلبه ولسانه وقالوا المرء مخبوء تحت لسانه

كالشهادات في مناظرة ادم عليه السلام مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا ادم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض ٭ ولما رأى موسى عليه السلام ان التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة قربة عظيمة في الدعاء الى الله تعالى طلب المعاونة على ذلك بقوله وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا اي معينا على الرسالة ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله وقال محمد صلى الله عليه وسلم ان لي في السماء وزيرين وفي الارض وزيرين فاللذان في السماء جبريل وميكائيل واللذان في الارض ابوبكر وعمر وقال صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله تعالى بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسي ذكره وان نوى خيرا اعانه وان اراد شرا كفه وقال انوشروان لا يستغني اجود السيوف عن الصقل ولا اكرم الدواب عن السوط ولا اعلم الملوك عن الوزير ٭ ولما كان التعاون على الدين منقبة عظيمة اراد ان لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله فقال مِنْ أَهْلِي اي اقاربي وقوله هَارُونَ قال الجلال المحلي مفعول ثان وقوله اخي عطف بيان وذكر غيره اعاريب غير ذلك لا حاجة الى ذكرها ٭ تنبيه ٭ الوزير مشتق من الوزر لانه يحمل عن الملك اوزاره ومؤنه او من الوزر لان الملك يعتصم برأيه ويلجئ اليه اموره او من الموازرة وهي المعاونة قال الرازي وكان هرون مخصوصا بامور منها الفصاحة لقول موسى هو افصح مني لسانا ومنها الرفق لقول هرون يا ابن ام لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ومنها انه كان اكبر سنا منه وقال ابن عادل كان اكبر سنا من موسى باربع سنين وكان افصح لسانا منه واجمل واوسم ابيض اللون وكان موسى ادم اللون اقنى جعدا ٭ ولما طلب موسى عليه السلام من الله تعالى ان يجعل هرون وزيره طلب منه ان يشد ازره بقوله اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي اي اقو به ظهري وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي اي في النبوة والرسالة وقرأ ابن عامر بسكون الياء من اخي وهمزة مفتوحة من اشدد وهو على مرتبته في المد وهمزة مضمومة من اشركه وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء من اخي وهمزة وصل من اشدد واشركه بهمزة مفتوحة والباقون بسكون الياء من اخي وهمزة وصل من اشدد وفتح الهمزة من اشركه ثم انه تعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال كَيْ نُسَبِّحَكَ تَسْبِيحًا كَثِيرًا قال الكلبي نصلي لك كثيرا ونحمدك ونثني عليك والتسبيح تنزيه الله تعالى في ذاته وصفاته عما لا يليق به وَنَذْكُرَكَ ذِكْرًا كَثِيرًا اي نصفك بصفات الكمال والجلال والكبرياء وجوز ابو البقاء ان يكون كثيرا نعتا لزمان محذوف اي زمانا كثيرا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا اي عالما بانا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك او بصيرا بان الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتي في النبوة اليها او بصيرا بوجوه مصالحنا فاعطنا ما هو الاصلح لنا ٭ ولما سأل موسى عليه السلام ربه تلك الامور المتقدمة وكان من المعلوم ان قيامه بما كلف به لا يتم الا باجابته اليها لا جرم قال الله تعالى قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى اي اعطيت جميع ما سألته منا عليك لما فيه من وجوه المصالح وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى اي انعمنا عليك في وقت اخر وفي ذلك تنبيه على امور احدها كانه تعالى قال اني

راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا اعطيك مرادك بعد السؤال ثانيها انى كنت ربيتك
فلو منعتك الان كان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمي ثالثها انا
اعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك الدرجة العالية وهي منصب النبوة
فكيف يليق بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب فان قيل لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع ان
هذه اللفظة مؤذية والمقام مقام تلطف اجيب بانه انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام
ان هذه النعم التي وصل اليها ما كان مستحقا لشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها لمحض فضله
واحسانه فان قيل لم قال مرة اخرى مع ان الله تعالى ذكر منا كثيرة اجيب بانه لم يعن بمرة اخرى واحدة
من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير ثم بين تلك المنة وهي ثمانية اولها قوله تعالى اذ اوحينا
الى امك وحيا لا على وجه النبوة اذ المرأة لا تصلح للقضاء ولا للامامة ولا تلي عند اكثر العلماء تزويج
نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل على ذلك قوله تعالى وما ارسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم
والوحي جاء لا بمعنى النبوة فى القرآن كثيرا قال تعالى واوحى ربك الى النحل واذ اوحيت الى الحواريين
ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحي على وجوه احدها انه رؤيا رأتها ام موسى وكان تاويلها وضع موسى
فى التابوت وقذفه فى البحر وان الله تعالى يرده عليها ثانيها انه عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة
واحدة ثالثها المراد خطور البال وغلبته على القلب فان قيل هذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بان
الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف
يجوز الاقدام على احدهما لاجل الصيانة عن الثاني اجيب بانها لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان
الالقاء فى البحر الى السلامة اغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون رابعها لعله اوحى الى بعض الانبياء فى ذلك
الزمان كشعيب عليه السلام او غيره ثم ان ذلك النبي عرفها اما مشافهة او مراسلة واعترض على هذا
بان الامر لو كان كذلك لما لحقها الخوف واجيب بان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى
عليه السلام كان يخاف فرعون مع ان الله تعالى كان امره بالذهاب اليه مرارا خامسها لعل بعض الانبياء
المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام اخبروا بذلك الخبر وانتهى ذلك الخبر الى امه
سادسها لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا
واما قوله تعالى مَا يُوحَى فمعناه ما لا يعلم الا بالوحي او ما ينبغي ان يوحى ولا يخل به لعظم شانه وفرط
الاهتمام ويبدل منه اَنِ اقْذِفِيهِ اى القيه فِي التَّابُوتِ اى الهمناها ان اجعليه فى التابوت
فَاقْذِفِيهِ اى موسى بالتابوت فِى الْيَمِّ اى نهر النيل فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ اى شاطئه والامر بمعنى
الخبر والضمائر كلها لموسى فالمقذوف فى البحر والملقى الى الساحل هو موسى فى جوف التابوت
حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر النظم الذى هو ام اعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدي
ومراعاته اهم ما يجب على المفسر + تنبيه + اليم البحر والمراد به هنا نيل مصر فى قول الجميع
واليم اسم يقع على النهر والبحر العظيم قال الكسائي والساحل فاعل بمعنى مفعول سمي بذلك

لان الماء يحمله اي يجره اذا علاه وقوله تعالى يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ اي فرعون جواب فليلقه
وتكرير عدو للمبالغة او لان الاول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقع اي سيصير عدوا له بعد ذلك
لانه لم يكن في ذلك الوقت بحيث يعادي روي انها اتخذت تابوتا قال مقاتل ان الذي صنع التابوت
حزقيل مؤمن آل فرعون وجعلت في التابوت قطنا محلوجا فوضعته فيه وجصصته وقيرته ثم القته
في اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية بنت مزاحم
اذا بتابوت يجري به الماء فامر فرعون الغلمان والجواري باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبي
اصبح الناس وجها فاحبه عدو الله حبا شديدا لا يتمالك ان يصبر عنه كما قال تعالى وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ
مَحَبَّةً مِّنِّي وهذه هي المنة الثانية قال الزمخشري مني لا يخلو اما ان يتعلق بالقيت فيكون المعنى على اني
احببتك ومن احبه الله احبته القلوب واما ان يتعلق بمحذوف وهو صفة لمحبة اي محبة خالصة
او واقعة مني قد ركزتها انا في القلوب وزرعتها فيها فلذلك احبك فرعون وآسية حتى قالت
قرة عين لي ولك لا تقتلوه روي انه كان على وجهه مسحة جمال وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه
من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا المنة الثالثة قوله تعالى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي
اي تربى على رعايتي وحفظي لك فانا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه اذا اعتنى به ويقول
الصانع اصنع هذا على عيني انظر اليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي + تنبيه + ولتصنع معطوف
على علة مضمرة مثل ليتلطف بك ولتصنع او على الجملة السابقة باضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك
وقرأ بفتح الياء نافع وابن كثير وابو عمرو وسكنها الباقون المنة الرابعة قوله تعالى إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
والعامل في اذ القيت او تصنع ويجوز ان يكون بدلا من اذ اوحينا واستشكل بان الوقتين مختلفان
متباعدان واجيب بانه يصح مع اتساع الوقت كما يصح ان يقول لك الرجل لقيت فلانا سنة
كذا فتقول وانا لقيته اذ ذاك وربما لقيه هو في اولها وانت في آخرها فتقول هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ
يروى ان اخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك انه
كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت لهم ذلك فقالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها فذلك قوله تعالى
فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا بلقائك ورؤيتك وَلَا تَحْزَنَ اي هي بفراقك او انت بفراقها وفقد
اشفاقها وروي ان آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهي التي اشفقت عليه وطلبت له المراضع
المنة الخامسة قوله تعالى وَقَتَلْتَ نَفْسًا قال ابن عباس هو الرجل القبطي الذي قتله خطأ بان
وكزه حين استغاثه الاسرائيلي اليه قال الكسائي كان عمره اذ ذاك اثنتي عشرة سنة فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ
اي من غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون كما قال تعالى في آية فاصبح في المدينة خائفا يترقب بالمهاجرة
الى مدين المنة السادسة قوله تعالى وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك
ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه في محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها اولها ان امه حملته
في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه في البحر في التابوت ثم منعه الرضاع

الا من الذي امه ثم انقاذه بحيلة فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطي وخروجه الى مدين خائفا فان قيل انه تعالى عدد انواع منته على موسى في هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع وفتناك فتونا اجيب بجوابين الاول وفتناك اى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب اذا اردت تخليصه من الفضة او نحوها الثاني ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا اوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا امنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين + ولما كان التشديد في المحنة يوجب كثرة الثواب عده الله تعالى من جملة النعم وتقدم تفسير ابن عباس وهو قريب من هذا فان قيل هل يصح اطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقا من قوله تعالى وفتناك فتونا اجيب بانه لا يصح لانه صفة ذم في العرف واسماء الله تعالى توقيفية لا سيما فيما يوهم ما لا ينبغي المنة السابعة قوله تعالى فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ والتقدير وفتناك فخرجت خائفا الى اهل مدين فلبثت سنين فيهم عند شعيب عليه السلام وتزوجت بابنته وهي اما عشر او ثمان لقوله على ان تاجرني ثماني حجج فان اتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عند شعيب عليهما السلام ثمانا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته فانه قضى اوفى الاجلين والاية دالة على انه لبث عشر سنين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر كما قاله الرازي وان قال ابن عادل يرده قوله تعالى فلما قضى موسى الاجل اى الاجل المشروط عليه في تزويجه وسار باهله ومدين بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ اى على القدر الذي قدرت انك تجيء فيه لان اكلمك واستنبئك غير مستقدم وقته المعين ولا مستاخر قال عبد الرحمن بن كيسان على راس اربعين سنة وهو القدر الذي يوحى فيه الى الانبياء وهذا قول اكثر المفسرين اى على الموعد الذي وعده الله وقدر انه يوحى اليه بالرسالة وهو اربعون سنة وكرر تعالى قوله يَا مُوسَى عقب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك المنة الثامنة قوله تعالى وَاصْطَنَعْتُكَ اى اخترتك لِنَفْسِي لاصرفك في اوامري لئلا تشتغل الا بما امرتك به وهو اقامة حجتي وتبليغ رسالتي وان تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك ثم بين تعالى ما له اصطنعه وهو الابلاغ والاداء بقوله تعالى اِذْهَبْ اَنْتَ وَاَخُوكَ بِاٰيَاتِي اى بمعجزاتي وقال ابن عباس الايات التسع التي بعث بها موسى وقيل انها العصا واليد لانهما اللذان جرى ذكرهما في هذا الموضع ولم يذكر انه عليه السلام اوتي قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقي فرعون فالتمس منه اية غير هاتين الايتين قال تعالى حكاية عن فرعون ان كنت جئت باية فات بها ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين وقال تعالى فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه فان قيل كيف اطلق لفظ الجمع على الاثنين اجيب بان العصا كانت ايات انقلابها حيوانا ثم انها في اول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كانها جان ثم كانت تعظم وهذه اية اخرى ثم

كانت تصير ثعبانا وهذه اية اخرى ثم انه عليه السلام كان يدخل يده في فمها فكانت تصير عصا فهذه اية اخرى
ثم كانت تنقلب حية فهذه اية اخرى وكذلك اليد فان بياضها اية وشعاعها اية اخرى ثم زوالها بعد ذلك
اية اخرى فدل ذلك على انها كانت ايات كثيرة وقيل الايات العصا واليد وحل عقدة لسانه وقيل معناه امدكما باياتي
واظهر على ايديكما من الايات ما تنزاح به العلل من فرعون وقومه ﴿ولا تنيا﴾ اي لا تفترا ولا تقصرا ﴿في ذكري﴾ اي بتسبيح
وغيره فان من ذكر جلال الله استخف غيره فلا يخاف احدا وتقوى روحه بذلك الذكر فلا تضعف في مقصوده
ومن ذكر الله لا بد وان يكون ذاكرا لاحسانه وذاكر احسانه لا يفتر في اداء اوامره وقيل لا تنيا في ذكري عند فرعون
بان تذكرا لفرعون وقومه ان الله لا يرضى منهم الكفر وتذكرا لهم امر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب
وقيل المراد بالذكر تبليغ الرسالة ﴿اذهبا الى فرعون انه طغى﴾ اي بادعاء الربوبية + تنبيه + ذكر الله
تعالى المذهوب اليه هنا وهو فرعون وحذفه في قوله اذهب انت واخوك باياتي اختصارا في الكلام
وقال القفال فيه وجهان احدهما ان قوله اذهب انت واخوك باياتي يحتمل ان يكون كل واحد منهما
مامورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة اخرى اذهبا ليعرفا ان المراد منه ان يشتغلا بذلك
جميعا لا ان ينفرد به احدهما دون الاخر والثاني ان قوله اذهب انت واخوك باياتي امر بالذهاب
الى كل الناس من بني اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله تعالى اذهبا الى فرعون امر بالذهاب الى فرعون
وحده واستبعد هذا بل الذهابان متوجهان لشيء واحد وقد حذف من كل من الذهابين ما اثبته
في الاخر وقيل انه حذف المذهوب اليه من الاول واثبته في الثاني وحذف المذهوب به وهو باياتي
من الثاني واثبته في الاول ﴿فقولا له قولا لينا﴾ اي مثل هل لك الى ان تزكى واهديك الى ربك فتخشى فانه
دعوة في صورة عرض ومشورة فان قيل لم امر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد اجيب بان عادة
الجبابرة اذا غلظ عليهم في الوعظ يزدادون عتوا وتكبرا فامر باللين حذرا من ان تحمله الحماقة على ان
يسطو عليهما واحتراما لما له من حق التربية وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى ابو العباس
وابو الوليد وابو مرة وقيل عداه شبابا لا هرم بعده وملكا لا يزول الا بالموت وان تبقى له لذة
المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فاعجبه ذلك وكان لا يقطع امرا دون
هامان وكان غائبا فلما قدم اخبره بالذي دعاه اليه موسى وقال اردت ان اقبل منه فقال له هامان
كنت ارى ان لك عقلا ورايا انت رب تريد ان تكون مربوبا وانت تعبد تريد ان تعبد فغلبه
على رايه وقوله تعالى ﴿لعله يتذكر او يخشى﴾ متعلق باذهبا او قولا اي باشرا الامر على رجائكما
وطمعكما مباشرة من يرجو ويطمع ان يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو
يجتهد بطوقه ويسعى باقصى وسعه قال الزمخشري ولا يستقيم ان يراد ذلك في حق
الله تعالى اذ هو عالم بعواقب الامور وعن سيبويه كل ما ورد في القران من لعل وعسى فهو
من الله واجب بمعنى انه يستحيل بقاء معناه في حق الله تعالى وقال الفراء ان لعل بمعنى كي فتفيد
العلية كما تقول اعمل لعلك تاخذ اجرتك + فائدة + قرا رجل عند يحيى بن معاذ فقولا له قولا ٤٤

ينا فبكى يحيى وقال الهي هذا ابوك من يقول انا الاله فكيف برك من يقول انت الاله فان قيل
ما الفائدة في ارسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه تعالى بانه لا يؤمن اجيب بان ذلك
لالزام الحجة وقطع المعذرة واظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية
للمتوهم ولذلك قدم الاول اي ان لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا اقل من ان يتوهمه فيخشى ويروى
عن كعب انه قال والذي يحلف به كعب انه لمكتوب في التوراة فقولا له قولا لينا وساقسي قلبه فلا يؤمن
ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين الجمه الغرق قال آمنت انه
لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين ثم ان موسى وهرون قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ
أَنْ يَفْرُطَ اي يعجل عَلَيْنَا بالعقوبة أَوْ أَنْ يَطْغَى اي يجاوز الحد في الاساءة علينا فان قيل لما تكرر الامر
من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على معصية اجيب بان
الامر ليس على الفور فسقط السؤال وهذا من اقوى الدلائل على ان الامر لا يقتضي الفور فان قيل
قوله تعالى قالا ربنا يدل على ان المتكلم موسى وهرون ولم يكن هرون هناك حاضرا اجيب بان
الكلام كان مع موسى الا انه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون
على سبيل التقدير في تلك الحالة وان كان موسى وحده الا انه تعالى اضافه اليهما كما في قوله
تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل روي
ان القائل عبد الله بن ابي وحده فان قيل ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لي صدري
فاجابه الله تعالى بقوله قد اوتيت سؤلك يا موسى وهذا يدل على انه تعالى قد شرح صدره ويسر له
ذلك الامر فكيف قال بعده انا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر اجيب
بان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه
لا يتطرق اليها السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير الخوف قَالَ الله تعالى لهما لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا
حافظكما وناصركما أَسْمَعُ وَأَرَى اي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فافعل ما يوجبه حفظي ونصري
وقال ابن عباس اسمع دعاءكما فاجيبه وارى ما يراد بكما فامنع فلست بغافل عنكما فلا تهتما وقال
القفال قوله تعالى اسمع وارى يحتمل ان يكون مقابلا لقوله تعالى يفرط علينا او ان يطغى يفرط علينا
بان لا يسمع منا او ان يطغى بان يقتلنا قال تعالى انني معكما اسمع كلامكما فاسخره للاستماع منكما
وارى افعاله فلا اتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ثم انه سبحانه وتعالى اعاد ذلك التكليف فقال
فَأْتِيَاهُ لانه سبحانه وتعالى قال في المرة الاولى اذهبا الى فرعون وفي الثانية قال اذهب انت واخوك
وفي الثالثة قال اذهب الى فرعون وفي الرابعة قال ههنا فأتياه فان قيل انه تعالى امرهما في الثانية بان
يقولا له قولا لينا وههنا امرهما بقوله تعالى فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اي الى
الشام وَلَا تُعَذِّبْهُمْ اي خل عنهم من استعمالك اياهم في اشغالك الشاقة كالحفر والبناء وحمل
الثقيل وقطع الصخور وكان فرعون يستعملهم في ذلك مع قتل الاولاد وفي هذا التغليظ من جهة

الاول قوله انا رسولا ربك وهذا يقتضي انقياده لهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع
الثاني قولهما فارسل معنا بني اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده
من الاعمال ايضا الثالث قولهما ولا تعذبهم الرابع قولهما قد جئناك باية من ربك فما الفائدة في
التليين اولا والتغليظ ثانيا اجيب بان الانسان اذا ظهر لجاجه فلا بدّ له من التغليظ حيث
لم ينفع التليين فان قيل اليس الاولى ان يقول انا رسولا ربك قد جئناك باية فارسل معنا بني اسرائيل
ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا بالدعاء للرسالة اولى من تاخيره عنه اجيب بان هذا اولى لانهما ذكرا
مجموع الدعاوي ثم استدلا على ذلك المجموع بالمعجز وقولهما قد جئناك باية من ربك قال الزمخشري
هذه الجملة جارية من الجملة الاولى وهي انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لان دعوى الرسالة
لا تثبت الا ببينتها التي هي مجيء الاية فان قيل ان الله تعالى قد اعطاهما ايتين هما العصا واليد ثم
قال تعالى اذهب انت واخوك باياتي وذلك يدل على ثلاث ايات وقالا هنا قد جئناك باية
من ربك وذلك يدل على انها كانت واحدة فكيف الجمع اجاب القفال بان معنى الاية الاشارة
الى جنس الايات كانهما قالا قد جئناك ببينات من عند الله ثم يجوز ان يكون ذلك حجة واحدة او حججا
كثيرة وتقدم الجواب عن التثنية والجمع وان في العصا واليد ايات وقوله تعالى والسلام على من اتبع
الهدى يحتمل ان يكون من كلام الله تعالى كانه تعالى قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على
من اتبع الهدى ويحتمل ان يكون كلام الله قد تم عند قوله قد جئناك باية من ربك وقوله تعالى بعد
ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد من قبلهما لمن امن وصدق بالسلامة له من عقوبات
الله في الدنيا والاخرة او ان سلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين وقال بعضهم ان على بمعنى اللام
اي والسلام لمن اتبع الهدى كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وقال تعالى في موضع
اخر ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب ما جئنا به
وتولى اعرض عنه قال البيضاوي ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لان التهديد في
اول الامر اهم وانجع وبالواقع اليق · ولما اتياه وقالا انا رسولا ربك وبلغاه ما امرا به قال لهما فمن ربكما
يا موسى انما نادى موسى وحده بعد مخاطبته لهما معا اما لان موسى هو الاصل في الرسالة وهرون
تبع وردء ووزير واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي كانت في لسان موسى عليه الصلوة والسلام
ويعلم فصاحة اخيه بدليل قوله هو افصح مني لسانا فاراد ان يفحمه ويدل عليه قول فرعون ولا يكاد يبين
واما لانه حذف المعطوف للعلم به اي يا موسى وهرون قاله ابو البقاء ثم ان فرعون لم يشتغل مع
موسى بالبطش والايذاء لما دعاه الى الله تعالى مع انه كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر
بل خرج معه في المناظرة لانه لو اذاه لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع
في المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير حجة لم يرضه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف
يليق ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم · تنبيه · قال ههنا فمن ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء

ورب العالمين وهو سؤال عن الماهية فهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة قال ابن عادل
والاقرب ان يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول انى انا الله والرب فقال فمن ربكما
فلما اقام موسى الدلالة على الوجود وعرف انه لا يمكنه ان يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه عدل
الى طلب الماهية لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر فان قيل لم قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما
اجيب بانه اثبت نفسه ربا في قوله الم نربك فينا وليدا فذكر ذلك على سبيل التعجب كانه قال
انا ربك فلم تدعى ربا آخر وهذا يشبه كلام نمروذ حين قال له ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال له
نمروذ انا احيي واميت فلم تكن الاماتة التي ذكرها ابراهيم هي الاماتة مع الاحياء التي عارضه نمروذ بهما
الا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام اى انا الرب الذي
ربيتك ومعلوم ان الربوبية التي ادعاها موسى عليه السلام غير الربوبية في المعنى وانه لا مشاركة
بينهما ثم كانه قيل فما اجاب به موسى فقيل قال مستدلا على اثبات الصانع باحوال المخلوقات
رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ اى من الانواع خَلْقَهُ اى صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به
كما اعطى العين الهيئة التي تطابق الابصار والاذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الانف
واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه او اعطى كل حيوان
نظيره في الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجرة زوجين والبعير والناقة كذلك والرجل
والمرأة كذلك فلم يزاوج منهما شيئا غير جنسه وما هو على خلاف خلقه ثُمَّ هَدَى اى ثم عرّف الله تعالى
الحيوان الكائن من المخلوق كيف يرتفق بما اعطى وكيف يتوصل اليه قال الزمخشري ولله دره ما احسن هذا
الجواب ما احضره وما اجمعه وما ابينه لمن القى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالبا للحق
ولما خاف فرعون ان يزيد موسى في اظهار تلك الحجة فيظهر للناس صدقه قال لموسى فَمَا بَالُ
اى حال الْقُرُونِ اى الامم الْأُولَى كقوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الاوثان فانها كانت
تعبد الاوثان وتنكر البعث فمن شقي منهم ومن سعد اراد ان يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بهذه
الحكايات فلم يلتفت اليه ولذلك قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي اى انه غيب لا يعلمه الا هو وما انا الا عبد مثلك
لا اعلم منه الا ما اخبرني به علام الغيوب وعلم احوال هذه القرون مثبت عند ربي فِي كِتَابٍ هو اللوح
المحفوظ ويجوز ان يكون ذلك تمثيلا لتمكنه في علمه تعالى بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده
قوله لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى والضلال ان يخطئ الشيء في مكانه فلم يهتد اليه والنسيان ان يذهب
عنه بحيث لا يخطر بباله وهما محالان على علام الغيوب بخلاف العبد الذليل والبشر الضئيل اى
لا يضل تعالى ولا ينسى كما تضل انت وتنسى بادعاء الربوبية بالجهل والوقاحة ثم عاد الى تتميم كلامه
الاول وابراز الدلائل الظاهرة على الوحدانية فقال الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ في جملة الخلق الْأَرْضَ مَهْدًا اى
فراشا تنبيه هذا الموصول في محل رفع صفة لربي وخبره محذوف تقديره هو او منصوب
على المدح وقرأ عاصم وحمزة هنا وفي سورة الزخرف مهدا بفتح الميم وسكون الهاء اى

مهد ها مهدا او تمهد ونها فهي لهم كالمهد وهو ما يمهد للصبي وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الهاء والف بعدها وهو اسم ما يمهد كالفراش او جمع مهد وَسَلَكَ اي سهل لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا اي طرقا بين الجبال والاودية والبوادي تسلكونها من ارض الى ارض لتبلغوا منافعها وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً اي مطرا وعدل بقوله فَأَخْرَجْنَا بِهِ عن لفظ الغيبة الى صيغة التكلم على الحكاية الكلام الله تعالى تنبيها على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال قدرته والحكمة وايذانا بانه مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لمشيئته وعلى هذا نظائره كقوله تعالى الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها امن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق أَزْوَاجًا اي اصنافا فاسميت بذلك لانها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله تعالى مِنْ نَبَاتٍ بيان وصفة لازواجا وكذلك شَتَّى وهو جمع شتيت من شت الامر تفرق نحو مرضى جمع مريض وجرحى جمع جريح فالفه للتانيث اي ازواجا متفرقة ويجوز ان يكون صفة للنبات فانه من حيث انه مصدر في الاصل يستوي فيه الواحد والجمع اي انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال تعالى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ والانعام جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم يقال رعت الانعام ورعيتها والامر للاباحة وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير اخرجنا اي مبيحين لكم الاكل ورعي الانعام اي وبقية الحيوانات إِنَّ فِي ذَلِكَ اي فيما ذكرت من هذه النعم لَآيَاتٍ اي لعبرا لِأُولِي النُّهَى اي اصحاب العقول جمع نهية كغرفة وغرف سمي به العقل لانه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح + ولما ذكر سبحانه وتعالى منافع الارض والسماء بين انها غير مطلوبة لذاتها بل هي مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الاخرة فقال مِنْهَا اي الارض خَلَقْنَاكُمْ + فان قيل انما خلقنا من النطفة على ما بين في سائر الايات اجيب باوجه احدها انه لما خلق اصلنا آدم عليه السلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب حسن اطلاق ذلك علينا ثانيها ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما متولدان من الاغذية والغذاء اما حيواني او نباتي والحيواني ينتهي الى النباتي والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة ثالثها روى ابن مسعود ان ملك الارحام يأتي الى الرحم حين يكتب اجل المولود ورزقه والارض التي يدفن فيها فانه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها في الرحم واخرج ابن المنذر عن عطاء الخراساني قال ان الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ اي مقبورين بعد الموت وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ اي عند البعث تَارَةً اي مرة أُخْرَى اي بتأليف اجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب ونردهم كما كانوا احياء ونخرجهم الى المحشر يوم يخرجون من الاجداث سراعا ولما كان المقام لتعظيم القدرة عطف عليه قوله تعالى وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ اي ابصرناه آيَاتِنَا كُلَّهَا اي التسع المختصة بموسى عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر

قوله وهي العصا الخ فيه ان الحجة في ... كانا بعد الحبل ... فرعون وعصاه ... الحبال فقال ... منها الى الاعمى ... الاولى والثانية قوله فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده الخ والثالثة قوله ولقد اخذنا ال فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ... في قوله فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ... في سورة يونس قوله ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم اه

والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل فكذب بها وزعم انها سحر وأبى ان يسلم فان قيل
قوله تعالى كلها يفيد العموم والله تعالى ما اراه جميع الايات فان من جملة الايات ما اظهرها على ايدي
الانبياء قبل موسى عليه السلام وبعده اجيب بان لفظ الكل وان كان للعموم قد يستعمل في الخصوص
مع القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ او يقال ان موسى عليه السلام اراه اياته وعدد
عليه ايات غيره من الانبياء فكذب فرعون بالكل او يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب
الكل فحكى سبحانه وتعالى ذلك على الوجه الذي يلزم ثم كأنه قيل كيف صنع في تكذيبه وابائه فقيل
قال حين علم حقيقة ما جاء به موسى وظهوره وخاف ان يتبعه الناس ويتركوه ووهن في نفسه
وهنا عظيما اجئتنا لتخرجنا من ارضنا اي الارض التي نحن مالكوها ويكون لك الملك فيها فصارت
فرائصه ترعد خوفا مما جاء به موسى لعلمه وايقانه انه على الحق وان المحق لو اراد قود الجبال لانقادت له
وان مثله لا يخذل ولا يذل ناصره وانه غالبه على ملكه لا محالة ثم خيل لاتباعه ان ذلك
سحر بقوله بسحرك يا موسى فكان ذلك مع ما القوة من عادتهم في الضلال صارفا لهم عن اتباع ما راوه
من البيان ثم اظهر لهم انه يعارضه بمثل ما اتى به بقوله فلنأتينك بسحر مثله اي مثل سحرك
يعارضه فاجعل بيننا وبينك موعدا اي من الزمان والمكان لا نخلفه اي لا نجعله خلفنا
نحن ولا انت اي لا نتجاوزه ولما كان كل من الزمان والمكان لا ينفك عن الآخر قال مكانا واتبع ذلك
المكان لاجل وصفه بقوله سوى اي عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوي مسافة الفريقين اليه
فانظر الى هذا الكلام الذي لوقه ونمقه وصنعه بما وقف به قومه عن السعادة واستمر يقودهم
بعناده حتى اوردهم البحر فاغرقهم ثم في غمرات النار احرقهم وقيل معنى سوى اي سوى هذا المكان
وقرأ شعبة وابن عامر وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بكسرها واما لشعبة وحمزة
والكسائي في الوقف محضة والباقون بالفتح وقيل المراد بالموعد الوعد لان الاخلاف لا يلائم
الزمان والمكان اي بل الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف وعدمه والى هذا نحا جماعة مختارين له
ورد عليهم بقوله قال موعدكم يوم الزينة فانه لا يطابقه ✦ تنبيه ✦ يحتمل ان قوله قال موعدكم
يوم الزينة ان يكون من قول فرعون فبين الوقت وان يكون من قول موسى عليه السلام
وهذا اظهر كما قال الرازي لوجوه الاول انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا الثاني
وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذي يعرف
ان اليد له لا المبطل الذي يعرف انه ليس معه الا التلبيس ثالثها ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلنا
من فرعون لموسى وهرون لزم اما ان نحمله على التعظيم او ان اقل الجمع اثنان فالاول لا يليق بحال
فرعون معهما والثاني غير جائز فاذا جعلناه من موسى عليه السلام استقام الكلام واختلف
في يوم الزينة فقال مجاهد وقتادة والسدي وقال ابن عباس وسعيد بن جبير هو يوم عاشوراء وقيل
كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل يوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون

ذلك اليوم وبين قوله وان يحشر الناس لان القصد الجمع لا كونه من معين الناس اى يجتمعوا
ضحى اى وقت الضحوة فيكون اظهر لما يعمل واوضح فلا ياتى الليل الا وقد قضى الامر وعرف المحق
من المبطل ويكثر التحدث بذلك فى كل بدو وحضر ويشيع فى جميع اهل الوبر والمدر فتولى اى
اعرض فرعون عن موسى الى تهيئة ما يريد من الكيد بعد توليه عن الانقياد لامر الله تعالى فجمع
كيده اى مكره وحيلته وهو السحرة الذين جمعهم لموسى عليه السلام يجمع من يحصل بهم الكيد وهم
السحرة جمعهم من كل فج وكان اهل مصر اسحر اهل الارض واكثرهم سحرا وكانوا فى ذلك الزمان
اشد اعتناء بالسحر واصحابه ثم اتى الموعد الذى وقع القرار عليه بمن حشره من
السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس مع توفر الدواعى على الاتيان للعيد والنظر الى تلك الحالة
التى لم يكن مثلها ولما تشوق السامع الى ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك استانف
تعالى الخبر عنه بقوله تعالى قال لهم اى لاهل الكيد والعناد وهم السحرة وغيرهم موسى
عليه السلام ابتداء منهم ناصحا لهم يا ايها الناس الذين خلقكم الله تعالى لعبادته
لا تفتروا اى لا تتعمدوا على الله كذبا باشراك احد معه فيسحتكم قال مقاتل يهلككم
وقال قتادة يستاصلكم بعذاب من عنده وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الياء وكسر
الحاء من الاسحات وهو لغة نجد وتميم والباقون بفتحهما والسحت لغة الحجاز وقد خاب من
افترى كما خاب فرعون فانه افترى واحتال ليبقى الملك له فلم ينفعه فتنازعوا اى تجاذب
السحرة امرهم بينهم لما سمعوا هذا الكلام علما منهم انه لا يقدر ان يواجه فرعون بمثله فى
جمع جنده واتباعه ثم يسلم منه الا من الله تعالى معه واسروا النجوى قال الكلبى قالوا سرا ان غلبنا
موسى اتبعناه وقال محمد بن اسحق لما قال لهم موسى لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض
ما هذا بقول ساحر وبالغوا فى اخفاء ذلك فان النجوى الاسرار لئلا يظهر فرعون واتباعه على ذلك
فكانه قيل ما قالوا حين انتهى تنازعهم فقيل قالوا اى السحرة ان هذان لساحران اى موسى
وهرون وقرأ ابن كثير وحفص بسكون النون من ان وشددها الباقون وقرأ ابو عمرو بالياء
بعد الذال والباقون بالالف على لغة من يجعل الف المثنى لازما فى كل حال قال ابو حيان وهى
لغة لطوائف من العرب بنى الحرث بن كعب وبعض كنانة وخثعم وزبيد وبنى العنبر وبنى الهجيم
ومراد وعذرة وقال شاعرهم * تزود منى بين اذناه ضربة * ويروى اذنيه وقال آخر * ان اباها وابا
اباها * قد بلغا فى المجد غايتاها * وقيل تقدير الآية انه هذان فحذف الهاء وذهب جماعة الى ان
ان ههنا بمعنى نعم اى نعم هذان روى ان اعرابيا سأل ابن الزبير شيئا فحرمه فقال لعن الله ناقة حملتنى اليك
فقال ابن الزبير ان وصاحبها اى نعم وشدد ابن كثير النون فكانت نجواهم فى تلفيق هذا الكلام وتزويره
خوفا من غلبتهما وتثبيطا للناس عن اتباع موسى وهرون يريدان اى بما يقولان من دعوى
الرسالة وغيرها ان يخرجاكم ايها الناس من ارضكم هذه التى الفتموها وهى وطنكم

عن سلف بسحرهما الذى اظهراه لكم وغيره ولما كان كل حزب بما لديهم فرحين قالوا ويذهبا
بطريقتكم المثلى مؤنث الامثل وهو الافضل اى بمذهبكم الذى هو افضل المذاهب باظهار مذهبه
واعلاء دينه لقوله تعالى انى اخاف ان يبدل دينكم وقيل ارادا اهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل فانهم
كانوا ارباب علم فيما بينهم لقول موسى ارسل معنا بنى اسرائيل وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم
واشرافهم من حيث انهم قدوة لغيرهم فاجمعوا كيدكم اى من السحر وغيره فلا تدعوا منه
شيئا الا جئتم به وقرأ ابو عمرو بهمزة الوصل بين الفاء والجيم وفتح الميم والباقون بهمزة مقطوعة
وكسر الميم ثم ائتوا اى للقاء موسى وهرون صفا اى مصطفين لانه اهيب فى صدور الرائين
تنبيه اختلفوا فى عدد السحرة فقال الكلبى كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط
وسبعون من بنى اسرائيل وقال عكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم
وثلثمائة من الاسكندرية وقال وهب خمسة عشر الفا وقال السدى بضعة وثلاثون الفا وقال
القاسم بن سلام كانوا سبعين الفا وقيل اثنى عشر الفا مع كل منهم حبل وعصا واقبلوا عليه اقبالة
واحدة وظاهر القرآن لا يدل على شئ من هذه الاقوال ولما كان التقدير ففعلوا كذلك فقد استعلى
عطف عليه قوله وقد افلح اليوم فى هذا الجمع الذى ما اجتمع مثله قط من استعلى اى فاز بالمطلوب من غلب
فلما اتى السحرة موسى قالوا له متأدبين لان لين القول مع الخصم ان لم ينفعه لم يضره بل نفعهم ذلك
ولذلك رزقهم الله تعالى الايمان ببركته يا موسى اما ان تلقى اى ما معك مما تناظرنا به اولا واما
ان نكون نحن اول من القى ما معه قال لهم موسى عليه السلام مقابلة لادبهم باحسن منه ولانه
فهم ان مرادهم الابتداء وليكون هو الآخر فتكون له العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها
شك لا القى انا اولا بل القوا انتم اولا فانتهزوا الفرصة لان ذلك كان مرادهم بما افهموه من
تغيير السياق والتصريح بالاول فالقوا ما معهم من الحبال والعصى فاذا حبالهم وعصيهم اى التى
القوها فاجاءت انه يخيل اليه تخييله مبتدأ من سحرهم اى الذى قد فاقوا به اهل الارض انها
تسعى اى انها تسعى فان قيل كيف يجوز ان يقول موسى عليه السلام بل القوا فيامرهم بما هو سحر اجيب
بان ذلك الامر كان مشروطا والتقدير القوا ما انتم ملقون ان كنتم محقين كما
فى قوله تعالى فاتوا بسورة من مثله اى ان كنتم صادقين وفى القصة انهم لما القوا الحبال
والعصى اخذوا اعين الناس فراى موسى والقوم كان الارض امتلأت حيات وكانت
قد اخذت ميلا من كل جانب وراوا انها تسعى وقيل لطخوها بالزئبق فلما وقعت عليها
الشمس اضطربت فخيل اليهم انها تتحرك وقرأ ابن ذكوان تخيل بالتاء الفوقية على
التأنيث والباقون بالياء على اسناده الى ضمير الحبال فاوجس اى احس فى نفسه
خيفة موسى عليه الصلوة والسلام فان قيل كيف استشعر الخوف وقد عرض
عليه المعجزات الباهرات كالعصا واليد ثم ان الله تعالى قال له بعد ذلك اننى معكما اسمع وارى

فكيف وقع الخوف في قلبه اجيب باوجه احدها انه خاف من جهة ان سحرهم من جنس معجزته ان يلتبس امره على الناس فلا يؤمنوا به الثاني انه خوف طبع البشرية مثل ما خاف من عصاه اول ما راها كذلك الثالث لعله كان مامورا ان لا يفعل شيئا الا بالوحي فلما تاخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف ان لا ينزل عليه الوحي في ذلك الجمع فيبقى الخجل ثم انه ازال ذلك الخوف بقوله تعالى قلنا لا تخف من شئ من امرهم ولا غيره ثم علل ذلك بقوله تعالى واكده انواعا من التاكيد لاقتضاء الحال انكار ان يغلب احد ما اظهروا من سحرهم لعظمه انك انت خاصة الاعلى اى الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها والق ما في يمينك ابهمه ولم يقل عصاك تحقيرا لها اى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم والق العويد الذي في يدك او تعظيما لها اى لا تحتفل بكثرة هذه الاجرام وعظمها فان في يمينك ما هو اعظم منها اى العصا التي قلنا لك اول ما شرفناك بالمناجاة وما تلك بيمينك يا موسى ثم اريناك منها ما اريناك تلقف اى تبتلع بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك ما صنعوا اى فعلوه بعد تدرب كثير وممارسة طويلة فلما القاها صارت اعظم حية من حياتهم ثم اخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادي ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت واكلت كل ما عملوه في الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا انه سحر ثم اقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح موسى فاخذها فاذا هي عصا كما كانت ونظرت السحرة فاذا هي لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئا الا اكلته وعرفوا انه ليس بسحر واصل تلقف تتلقف حذفت احدى التاءين وتاء المضارعة تحتمل التانيث على اسناد الفعل الى العصا والخطاب على اسناد الفعل الى السبب وقرأ ابن ذكوان برفع الفاء على الحال او الاستئناف والباقون بسكونها وحفص بسكون اللام وتخفيف القاف على انه من لقفته بمعنى تلقفته انما اى الذي صنعوا اى زوروا وافتعلوا وهالك امره كيد سحر اى كيد سحري لا حقيقة له ولا ثبات وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون الحاء بمعنى ذي سحر او بتسمية الساحر سحرا على المبالغة او باضافة الكيد الى السحر للبيان كقولهم علم فقه والباقون بفتح السين وكسر الحاء والف بينهما فان قيل لم وحد الساحر ولم يجمع اجيب بان القصد من هذا الكلام معنى الجنسية لا معنى العدد فلو جمع خيل ان المقصود هو العدد الا ترى الى قوله تعالى ولا يفلح الساحر اى هذا الجنس حيث اتى اى كيفما سار وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان وقيل معناه حيث احتال فانه انما يفعل ما لا حقيقة له فان قيل لم نكر اولا ثم عرف ثانيا اجيب بانه قال هذا الذي اتوا به قسم واحد من اقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان الكلام على هذا الوجه ابلغ ثم انه امتثل ما امره به ربه من القاء العصا فكان ما وعده به سبحانه من تلقفها لما صنعوا من غير ان يظهر عليها زيادة في ثخن ولا في غيره مع ان حبالهم وعصيهم كانت شيئا كثيرا فعلم كل من راى ذلك حقيقته وبطلان ما فعل السحرة فبادر السحرة منهم الى الخضوع لامر الله تعالى ساجدين مبادرة من كانه القاه ملق على وجهه ولذلك قال تعالى بيان ذكرهم واجتهادهم في معارضة موسى عليه السلام وحذف ذكر الالقاء وما سببه من التلقف

لان مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ اى فالقاهم ما راوا من امر الله
تعالى بغاية السرعة وبالاسراع سُجَّدًا على وجوههم لله تعالى توبة مما صنعوا واعتابا لفرعون بسجودهم
وتعظيما لما راوه وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما راوا فعل موسى عليه السلام
خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغلب الناس بالسحر وكانت
الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فاين الذى القيناه فاستدلوا بتغير احوال الاجسام على الصانع
القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله لاجرم تابوا وسجدوا
واتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود قال الاصبهانى سبحان الله ما اعظم شانهم القوا حبالهم
وعصيهم للكفر والجحود ثم القوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما اعظم الفرق بين الالقاءين
فكان قائلا قال هل فعلوا غير ذلك فقيل قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ولم يقولوا آمنا برب العالمين
لان فرعون ادعى الربوبية فى قوله انا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم من اله غيرى
فلو انهم قالوا ذلك لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لا بغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا
هذه العبارة والدليل على ذلك انهم لم يقتصروا على موسى بل قدموا هرون لان فرعون ربى موسى
فى صغره فلو اقتصروا على موسى او قدموا ذكره فربما توهم ان المراد فرعون وذكر هرون على
الاستتباع وقيل قدم لكبر سنه او لرؤس الآية فسبحان الله ما اعظم امرهم كانوا اول النهار
سحرة يقرون لفرعون بالربوبية وآخره شهداء بررة روى انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى راوا الجنة
والنار وراوا ثواب اهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا اراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم
التى يصيرون اليها فى الجنة وكانه قيل ما قال لهم فرعون حينئذ فقيل قَالَ لهم آمَنْتُمْ اى بالله
لَهُ اى مصدقين او متبعين لموسى قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ فى ذلك قال ذلك ايهاما بانه سياذن
فيه ليقف الناس عن المبادرة الى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء الاذن ثم استانف قوله معلما
مخيلا لاتباعه صدا لهم عن الاقتداء بالسحرة إِنَّهُ اى موسى لَكَبِيرُكُمُ اى معلمكم الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
اى فلم تتبعوه لظهور الحق بل لانه دلكم شيئا من المكر واتفقتم عليه قبل حضوركم فى هذا الموطن هذا
على عادته فى تخييل اتباعه بما يوقفهم عن اتباع الحق ولما خيلهم شرع يزيدهم حيرة بتهديد السحرة
فقال مقسما فَلَأُقَطِّعَنَّ اى بسبب ما فعلتم أَيْدِيَكُمْ على سبيل التوزيع وَأَرْجُلَكُمْ اى من كل واحد
يدا ورجلا وقوله مِنْ خِلَافٍ حال يعنى مختلفة اى الايدى اليمنى والارجل اليسرى وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ
وعبر عن الاستعلاء بالظرف اشارة الى تمكنهم فى المصلوب عليه تمكين المظروف فى ظرفه فقال
فِي جُذُوعِ النَّخْلِ تشنيعا لقتلكم وردعا لامثالكم وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا يريد نفسه لعنه الله وموسى عليه السلام
بدليل قوله آمنتم له واللام مع الايمان فى كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين
وفيه تبجح باقتداره وقهره وما الفه وضرى به من تعذيب الناس بانواع العذاب وتوضيع لموسى
عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به لان موسى لم يكن قط من التعذيب فى شىء وقيل يريد

موسى الذى آمنوا به أشدّ عذاباً وأبقى اى أدوم على مخالفته فان قيل ان فرعون مع قرب عهده
بمشاهدة انقلاب العصا حية وقصدها ابتلاعه وآل الامر الى ان استغاث بموسى من شرها وعجزه عن
دفعها كيف يعقل ان يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى فى قوله أينا
أشد عذاباً وأبقى أجيب بانه كان فى أشد الخوف فى قلبه الا انه يظهر الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه
وترويجاً للامر قال الرازى ومن استقرى احوال العالم علم ان العاجز قد يفعل امثال هذه الاشياء
ومما يدل على صحة ذلك قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر لانه كان يعلم ان موسى ما خالطهم البتة
وما لقيهم وكان يعلم من سحرته استاذ كل واحد منهم وكيف حصل ذلك العلم ثم انه كان يقول مع
ذلك هذه الاشياء ثم كأنه قيل فما قالوا له فقيل قالوا له لن نؤثرك اى نختارك على ما جاءنا على
لسان موسى من البينات التى عايناها وعلمنا انه لا يقدر احد على معارضتها ولما بدؤا بما يدل على
الخالق من الفعل ترقوا الى ذكره بعد معرفته بفعله اشارة الى علو قدره فقالوا والذى اى ولا نؤثرك
بالاتباع على الذى فطرنا اى ابتدأ خلقنا اشارة الى شمول ربوبية الله تعالى لهم وله ولجميع الناس
وتنبيهاً على عجز فرعون عند من له تعقل وفى جميع اقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبارة واشارة
وتحقير فرعون امر عظيم ❊ تنبيه ❊ قد علم مما تقرر ان والذى معطوف على ما وانما اخروا ذكر البارى تعالى
لانه من باب الترقى من الادنى الى الاعلى وقيل الواو قسم والموصول مقسم به وجواب القسم محذوف
اى وحق الذى فطرنا لا نؤثرك على الحق ولما تسبب عن ذلك انهم لا يبالون به وعلموا ان ما يفعله
بهم هو باذن الله تعالى قالوا له فاقض اى فاصنع فى حكمك الذى تريده ما انت قاض اى فاعل
الذى انت قاضيه ثم عللوا ذلك بقولهم انما تقضى اى تصنع بنا ما تريد ان قدر الله عليه هذه الحيوة
الدنيا النصب على الاتساع اى انما حكمك فيها على الجسد خاصة فهى ساعة تنقضى واحة ونحن لا نخاف
الا من حكمه على الروح وان فنى الجسد فذلك هو العذاب الشديد الدائم ثم عللوا تعظيم الله تعالى
واستهانتهم بفرعون بقولهم انا آمنا بربنا اى المحسن الينا طول اعمارنا مع اساءتنا بالكفر وغيره ليغفر لنا
من غير نفع يلحقه بالفعل او ضرر يدركه بالترك خطايانا التى قابلنا بها احسانه ثم خصوا بعد العموم
فقالوا وما اكرهتنا عليه وبينوا ذلك بقولهم من السحر لنعارض المعجزة فانه كان الاكل لنا عصياناً لك
فيه لان الله تعالى احق بان يتقى فان قيل كيف قالوا ذلك وقد جاؤا مختارين يحلفون بعزة فرعون ان لهم
الغلبة اجيب بانه روى ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط
والباقى من بنى اسرائيل اكرههم فرعون على تعلم السحر وروى انهم رأوا موسى عليه السلام نائماً
وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون ان الساحر اذا نام بطل سحره فهذا لا نقدر على معارضته فابى عليهم واكرههم
على المعارضة وقيل ان الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونه تعلم السحر فاذا
شاخ بعثوا اليه احداثاً ليعلمهم [illegible] ولما كان التقدير [illegible] اهل التقوى واهل
المغفرة عطفوا عليه [illegible]

به وأبقى ثواباً وعقاباً قال أبو حيان والظاهر أن الله تعالى سلمهم من فرعون ويؤيده قوله تعالى ومن
اتبعكما الغالبون وقال الرازي ليس في القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم و
لم يثبت في الأخبار وقال البقاعي سيأتي في آخر الحديد ما هو صريح في نجاتهم ثم علل الواجب الحكم بقولهم
إنه أي الأمر والشأن من يأت ربه أي المحسن إليه بأنواع الإحسان ... مجرماً بأن يموت على كفره فإن له جهنم لا يموت فيها فيستريح من عذابها ولا
يحيى فيها حياة ... فهم ما قيل إن الجسم الحي لابد
أن يكون إما حياً أو ميتاً فخلوه عن الوصفين محال وقال بعضهم إن لنا حالة ثالثة وهي حالة المذبوح
قبل أن يهدأ فهو حي لأنه قد فقد الحياة المستقرة وليس هو بميت لأن الروح لم تفارقه
بعد فهي حالة ثالثة ومن يأته أي ربه ... مؤمناً أي مصدقاً به قد
عمل الصالحات ... فأولئك أي العالو الرتبة لهم الدرجات العلى جمع عليا مؤنث أعلى
لا نسبة لما هنالك إلى ما هنا إلا بالأسماء ... جنات عدن أي إقامة
... تجري من تحتها الأنهار أي من تحت غرفها وأسرتها ... خالدين فيها ...
وذلك جزاء من تزكى أي تطهر من أدناس الكفر تنبيه هذه الآيات
الثلاث وهي من قوله إنه من يأت ربه مجرماً إلى هنا يحتمل أن تكون من كلام السحرة كما تقرر وأن تكون
ابتداء كلام من الله تعالى وقوله تعالى ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي عطف على قوله لقد
أريناه آياتنا وفيه دليل على أن موسى عليه السلام كان مستجيباً فأراد الله تعالى تمييزهم من طبقة فرعون
وخلاصهم فأوحى إليه أن يسري بهم ليلاً والسرى اسم لسير الليل والإسراء مثله والحكمة في السرى
بهم لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم أو ليكون ذلك عائقاً لفرعون عن طلبه وتتبعه أو ليكون
إذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عليه الصلوة والسلام عسكر فرعون لعنه الله فلا يهابونهم
وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون وهمزة وصل بعدها من سرى والباقون بسكون النون وهمزة قطع
بعدها من أسرى لغتان أي أسر ببني إسرائيل من أرض مصر التي أبيت قلب فرعون لهم حتى أذن لهم
في مسيرهم بعد أن كان قد أبى أن يطلقهم أو يكف عنهم العذاب فانفصل بهم ناحية بحر القلزم فاضرب
أي اجعل لهم بالضرب بعصاك طريقاً في البحر والمراد بالطريق الجنس فإنه كان لكل سبط طريق وقوله
يبساً صفة لطريقاً وصف به لما يؤول إليه لأنه لم يكن يبساً إلا بعد أن مرت عليه الصبا فجففته كما
روي وقيل في الأصل مصدر وصف به مبالغة وقيل جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد
مبالغة فلما امتثل ما أمر به وأيبس الله تعالى له الأرض وأراد المرور بها قال الله تعالى له
لا تخاف دركاً أي أن يدركك فرعون وجنوده ولا تخشى غرقاً وقرأ حمزة بجزم الفاء ولا ألف بينها وبين

الخاء على ان يكون نهياً مستأنفاً والباقون برفع الفاء والف بينها وبين الخاء على انه مستأنف
فلا محل له من الاعراب او انه في محل نصب على الحال من فاعل اضرب اى اضرب غير خائف فَأَتْبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ اى وهو معهم على كثرتهم وعظمهم وقوتهم وعزتهم فكانوا كالتابع الذى لا معنى له
بدون متبوعه والمتبوع بنو اسرائيل وذلك ان موسى خرج بهم اول الليل فاخبر فرعون بذلك فقص
اثرهم والمعنى فاتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثانى وقيل ان الباء زائدة
فَغَشِيَهُمْ اى فرعون وقومه مِنَ الْيَمِّ اى البحر مَا غَشِيَهُمْ اى امر لا تحتمل العقول وصفه فاهلكهم
وقطع دابرهم ولم يبق منهم احدا وما نجا الا من عبادنا المستضعفين شوكة وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ
قَوْمَهُ اى بدعائهم الى عبادته وَمَا هَدَى اى ما ارشدهم وهذا تكذيب لفرعون وتهكم به في قوله
وما اهديكم الا سبيل الرشاد تنبيه لا بأس بذكر شيء من هذه القصة فنقول قال
ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما امر الله تعالى موسى ان يقطع بقومه البحر وكان بنو اسرائيل
استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وكان يوسف
عليه الصلاة والسلام عهد اليهم عند موته ان يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يعرفوا مكانها حتى دلتهم
عجوز على موضع العظم فاخذوه وقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمى اى انظرى لك شيئا اطلبه فقالت
اكون معك في الجنة فلما خرجوا اتبعهم فرعون وعلى مقدمته الف الف وخمسمائة الف سوى الجنبين والقلب
فلما انتهى موسى الى البحر قال ههنا امرت فاوحى الله تعالى اليه ان اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال
لهم موسى ادخلوا فيه فقالوا كيف وهى رطبة فدعا ربه فهبت عليها الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق
في بعضنا فجعل بينهم كوى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر واقبل فرعون الى تلك الطرق
فقال له قومه ان موسى قد سحر البحر كما ترى وكان على فرس حصان فاقبل جبريل عليه السلام على فرس
انثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة فسار جبريل بين يدى فرعون فابصر الحصان الفرس فاقتحم بفرعون
على اثرها فصاحت الملائكة في الناس الحقوا حتى اذا لحق اخرهم وكاد اولهم ان يخرج التقى البحر عليهم
فغرقوا فرجع بنو اسرائيل حتى ينظروا اليهم وقالوا يا موسى ادع الله يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فلفظهم
البحر الى الساحل واصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس ان جبريل قال يا محمد لو رأيتنى وانا ادس
في فى فرعون الماء والطين مخافة ان يتوب فهذا معنى قوله تعالى فغشيهم من اليم ما غشيهم ولما انعم
الله تعالى على قوم موسى عليه السلام بانواع النعم ذكر اولادهم تلك النعم فناداهم بقوله تعالى
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ والمنادى من وجد من اليهود في زمن النبى صلى الله عليه وسلم وخوطبوا بما انعم به على اجدادهم
زمن موسى عليه السلام ولا شك ان ازالة الضرر يجب تقديمها على ايصال المنفعة وايصال المنفعة
الدينية اعظم من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ تعالى بازالة الضرر بقوله قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ
فان فرعون كان ينزل بهم من انواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والخراج والاعمال الشاقة ثم ثنى
بذكر المنفعة الدينية بقوله تعالى وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ اى الذى على ايمانكم

توجهكم هذا الذي وجوهكم فيه الى بيت ابيكم ابراهيم عليه السلام وهو جانبه الذي يلي البحر
وناحية مكة واليمن ووجه النفعة فيه انه انزل في ذلك القرب عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح
شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ بعد انزال هذا الكتاب في هذه المواعدة
لانعاش ابدانكم الْمَنَّ اي الترنجبين وَالسَّلْوَى اي الطير السماني بتخفيف الميم والقصر قوله تعالى
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ امر اباحة ان فسر الطيب باللذيذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة
وان فسر بالحلال لان الله تعالى انزله اليهم ولم تمسه يد الآدميين فهو امر ايجاب وقرأ حمزة والكسائي
قد انجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم بتاء مضمومة بعد التحتية من انجينا وبعد الدال من وعدنا وبعد
القاف من رزقنا ولا الف في الثلاثة والباقون بالنون والف بعدها في الثلاثة واسقط ابو عمرو
الالف قبل العين من وعدنا واثبتها الباقون ثم زجرهم عن العصيان بقوله تعالى وَلَا تَطْغَوْا
فِيهِ اي فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدي بما حد الله لكم فيه من السرف والبطر والمنع
عن المستحقين وقرأ الكسائي فَيَحُلَّ بضم الحاء اي ينزل والباقون بكسرها اي يجب عليكم غَضَبِي
اي عقوبتي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى اي هلك وقيل شقي وقيل وقع في الهاوية وقرأ الكسائي
بضم اللام الاولى وكسرها الباقون ولما كان الانسان محل الزلل وان اجتهد رجاه واستعطفه
بقوله سبحانه وَإِنِّي لَغَفَّارٌ اي ستار بإسبال ذيل العفو لِمَنْ تَابَ اي رجع عن ذنوبه من الشرك
وما يقاربه وَآمَنَ بكل ما يجب الايمان به وَعَمِلَ صَالِحًا تصديقا لايمانه ثُمَّ اهْتَدَى اي باستمراره على
ذلك الى موته فائدة اعلم انه تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبان له غفرانا ومغفرة
وعبر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والامر اما وصف كونه غافرا فقوله تعالى غافر الذنب واما كونه
غفورا فقوله تعالى وربك الغفور واما كونه غفارا فقوله تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن واما الغفران فقوله
تعالى غفرانك ربنا واما المغفرة فقوله تعالى وان ربك لذو مغفرة للناس واما صيغة الماضي فقوله
تعالى في حق داود عليه السلام فغفرنا له واما صيغة المستقبل فقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك
لمن يشاء وقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله تعالى في حق نبينا صلى الله عليه وسلم ليغفر لك
الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر واما لفظ الاستغفار فقوله تعالى استغفروا ربكم ويستغفرون لمن
في الارض ويستغفرون للذين آمنوا وههنا نكتة لطيفة وهي ان العبد له اسماء ثلاثة الظالم والظلوم
والظلام اذا كثر منه الظلم ولله تعالى في مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكانه تعالى قال ان كنت
ظالما فانا غافر وان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت ظلاما فانا غفار فيجب على كل من ارتكب معصية
كبيرة او صغيرة ان يتوب منها لهذه الآية ودلت على ان العمل الصالح غير داخل في الايمان لانه تعالى
عطف الصالح على الايمان والمعطوف يغاير المعطوف عليه ولما امر تعالى موسى عليه السلام بحضور
الميقات مع قوم مخصوصين قال المفسرون هم السبعون الذين اختارهم الله تعالى من جملة بني اسرائيل
ليذهبوا معه الى الطور ليأخذ والتوراة فسار بهم موسى ثم عجل موسى عليه السلام من بينهم شوقا الى ربه

وخلف السبعين وامرهم ان يتبعوه الى الجبل فقال تعالى له وما أعجلك عن قومك اى المجيء ميعاد
اخذ التورية يا موسى قال مجيبا لربه تعالى هم اولاء اى بالقرب مني يأتون على أثرى اى ماشين على
آثار مشيى قبل ان ينطمس وما تقدمتهم الا بخطا يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم الا مسافة
قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم على بعض وعجلت اليك رب لترضى اى لتزداد عني رضا فان المسارعة
الى امتثال امرك والوفاء بعهدك يوجب مرضاتك * تنبيه * في الآية سؤالات الاول قوله تعالى وما
اعجلك استفهام وهو على الله تعالى محال واجيب عنه بانه كان في صورة الاستفهام ولا مانع منه
الثاني ان موسى عليه السلام لا يخلو اما ان يكون ممنوعا من ذلك التقدم او لم يكن فان كان
الاول كان ذلك التقدم معصية وان لم يكن فلا انكار واجيب عنه بانه عليه السلام لعله ما وجد نصا
في ذلك فاجتهد فاخطأ في اجتهاده فاستوجب العتاب الثالث قوله وعجلت والعجلة مذمومة
اجيب عنه بانها ممدوحة في الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم الرابع قوله لترضى يدل على انه
انما فعل ذلك ليحصل الرضا واذا لم يكن راضيا عنه وجب ان يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال
الانبياء عليهم السلام اجيب عنه بان المراد تحصيل دوام الرضا او زيادته كما مر الخامس قوله اليك
يقتضي كون الله تعالى في جهة لان الى لانتهاء الغاية واجيب عنه بالاتفاق على ان الله تعالى لم يكن في الجبل
فالمراد مكان وعدك السادس قوله تعالى ما اعجلك عن قومك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه
اللائق به ان يقول طلب زيادة رضاك او الشوق الى كلامك واما قوله هم اولاء على أثرى فغير منطبق
عليه كما ترى اجيب عنه بان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين احدهما انكار نفس العجلة والثاني
السؤال عن سبب التقدم فاجاب عن السؤال الاول الذي هو الاهم فقال وعجلت اليك رب
لترضى قال تعالى فانا اى تسبب عن عجلتك عنهم انا قد فتنا اى ابتلينا قومك من بعدك اى بعد
فراقك لهم بعبادة العجل وهم الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة الف وما نجا من عبادة العجل
منهم الا اثنا عشر الفا واضلهم السامري باتخاذ العجل والدعاء الى عبادته فاطاعه بعضهم وامتنع
بعضهم والسامري منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من اهل
كرمان وقع الى مصر وقيل كان من قوم يعبدون البقر فدخل في بني اسرائيل ولم يكن منهم واسمه
موسى بن ظفر وكان منافقا فرجع موسى لما اخبره ربه بذلك الى قومه بعد ما استوفى الاربعين
ذا القعدة وعشر ليال من ذي الحجة واخذ التورية غضبان عليهم اسفا اى حزينا بما فعلوا قال اى
لقومه لما رجع اليهم مستعطفا لهم يا قوم وانكر عليهم بقوله الم يعدكم ربكم اى الذي احسن
اليكم وعدا حسنا اى بانه ينزل عليكم كتابا حافظا ويكفر عنكم خطاياكم وينصركم على اعدائكم الى غير ذلك
من الكرامة * ولما جرت العادة بان طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود كما قال ابو العلاء احمد بن
سليمان المعري شعر لا انسينك ان طال الزمان بنا * وكم حبيب تمادى عهده فنسى
قال لهم افطال عليكم العهد اى زمن لطف الله تعالى بكم فنسيتموه فاردتم عليه كما تغير اهل

الرذائل والاخلاد فى العزائم لضعف العقول وقلة التدبر ام اردتم اى بالنقض مع قرب العهد وذكر
الميثاق ان يحل اى يجب عليكم بسبب عبادة العجل غضب من ربكم المحسن اليكم اى وكلا الامرين
لم يكن اما الاول فواضح واما الثانى فلا يظن باحد ارادته والحاصل انه يقول فعلتم ما لا يفعله عاقل
فاخلفتم اى فتسبب عن فعلكم ذلك ان اخلفتم موعدى اى وعدكم اياى بالثبات على الايمان
بالله والقيام على ما امرتكم به ولما تشوف السامع الى جوابهم استانف ذكره فقال قالوا ما اخلفنا
موعدك بملكنا اى بان ملكنا امرنا اذ لو خلينا وامرنا ولم يسول لنا السامرى لما اخلفناه واختلف
فى هذا المجيب على وجهين الاول هم الذين لم يعبدوا العجل فكانهم قالوا ما اخلفنا موعدك بملكنا اى
بامر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قرينه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان
كان الفاعل لذلك اباءهم لا هم فكانهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه
ولم نقدر ايضا على مفارقتهم لانا خفنا ان يصير ذلك سببا لوقوع النفرة وزيادة الفتنة الثانى
ان هذا قول عبدة العجل والمراد ان غيرنا اوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب
فمخلف الوعد هو الذى اوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف كان رجوع قريب من ستمائة
الف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة عجل يعرف فساده
بالضرورة اجيب بان هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس وقرأ عاصم ونافع بفتح الميم وحمزة والكسائى
بضمها والباقون بكسرها وتلك ثلاثتها فى الاصل لغات فى مصدر ملكت الشئ ثم ان القوم فسروا العذر
الحامل لهم على ذلك الفعل فقالوا ولكنا حملنا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بضم الحاء وكسر الميم
مشددة وابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بفتح الحاء والميم مخففة اوزارا اى اثقالا من زينة
القوم اى حلى قوم فرعون استعارها منهم بنو اسرائيل بسبب عرس وقيل استعاروها لعيد كان
لهم ثم لم يردوها عند الخروج مخافة ان يعلموا به وقيل هى ما القاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فاخذوه
قال البيضاوى ولعلهم سموها اوزارا لانها اثام فان الغنائم لم تكن تحل بعد ولانهم كانوا مستامنين
وليس للمستامن ان ياخذ من مال الحربى فقذفناها اى فى النار فكذلك القى السامرى اى ما كان
معه اما من المال او من اثر الرسول روى ان موسى عليه السلام لما وعده ربه ان يكلمه استخلف
على قومه اخاه هرون واجلهم ثلاثين يوما وذهب فصامها ليلها ونهارها ثم كره ان يكلم ربه وريح
فمه متغير فمضغ شيئا من نبات الارض فقال له ربه او ما علمت ان ريح الصائم اطيب من ريح المسك
ارجع فصم عشرا وقيل انهم اقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها اربعين بايامها وقالوا قد كملت
العدة فلما راى قوم موسى انه لم يرجع اليهم ساءهم ذلك وكان هرون قد خطبهم وقال انكم خرجتم
من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار فاحفروا حفرة والقوها فيها ثم اوقد عليها نارا فلا يكون لنا
ولا لهم وكان السامرى قد راى اثرا فقبض منه قبضة ثم مر بهرون فقال له يا سامرى الا تلقى ما فى
يدك فقال هذه قبضة من اثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا القيها على شئ الا ان تدعو الله

اذا لقيتها ان يكون ما اريد فالقاها ودعا له هرون فقال اريد ان يكون عجلا فاجتمع ما في الحفرة وصار عجلا فهذا معنى قوله تعالى فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا من ذلك الحلي المذاب له جوف ليس فيه روح لَهُ خُوَارٌ اي صوت يسمع قال ابن عباس لا والله ما كان له صوت قط وانما كان الريح يدخل في دبره فيخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك وقيل انه صاغه ووضع التراب بعد صوغه في فيه فَقَالُوا اي السامري ومن افتتن به اول ما راوه مشيرين الى العجل هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ اي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور او فنسي السامري اي ترك ما كان عليه من الايمان أَفَلَا يَرَوْنَ اي قالوا ذلك فتسبب عن قولهم علمهم عن رؤية أَنْ اي انه لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا والاله لا يكون ابكم وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون فيقولون ذلك خوفا من ضرره وَلَا نَفْعًا فيقولون ذلك رجاء له وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ اي قبل رجوع موسى مستعطفا لهم يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ اي وقع اختباركم فاختبرتم في صحة ايمانكم وصدقكم فيه وثباتكم عليه به اي بهذا العجل في اخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة واكل لاجل انكارهم فقال وَإِنَّ رَبَّكُمُ اي الذي اخرجكم من العدم ورباكم بالاحسان الرَّحْمَٰنُ وحده الذي فضله عام ونعمه شاملة فليس على بر ولا فاجر نعمة الا وهي منه تعالى قبل ان يوجد العجل وهو كذلك بعده ومن رحمته قبول التوبة فخافوا نزع نعمه بمعصيته وارجوا اسباغها بطاعته فَاتَّبِعُونِي بغاية جهدكم في الرجوع اليه وَأَطِيعُوا أَمْرِي اي في الثبات على الدين قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ اي العجل عَاكِفِينَ اي مقيمين حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ فاذ فعلوا فهموا به وكان معظمهم قد ضل فلم يكن معه من يتقوى بهم فخاف ان يجاهد بهم الكفار فلا يفيد ذلك شيئا مع ان موسى لم يامره بجهاد من ضل وانما قال له واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فواي من الاصلاح اعتزالهم الى ان ياتي ✦ تنبيه ✦ انما قال هرون ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق اما شفقته على نفسه فلانه كان مامورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان مامورا من عند اخيه بقوله اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى وذلك لا يجوز اوحى الله تعالى الى يوشع بن نون اني مهلك من قومك اربعين الفا من خيارهم ومائتي الف من شرارهم فقال يا رب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبي وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه غير الله فليس من الله في شيء ومن اصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وعن عبد الله بن ابي اوفى قال خرجت اريد النبي صلى الله عليه وسلم فاذا ابو بكر وعمر عنده فجاء صغير يبكي فقال لعمر ضم الصبي اليك فانه ضال فاخذه عمر واذا ام الصبي تولول كاشفة عن راسها جزعا على ابنها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ادرك المراة فناداها فجاءت واخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال

النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك اترون هذه رحيمة لولدها قالوا يا رسول الله كفى بهذه رحمة
فقال والذى نفسى بيده ان الله ارحم بالمؤمنين من هذه بولدها ولقد سلك هرون فى موعظته احسن
الوجوه لانه زجرهم عن الباطل اولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله ثانيا بقوله وان ربكم
الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى النبوة بقوله فاتبعونى ثم دعاهم رابعا بقوله واطيعوا امرى وهذا هو الترتيب
الجيد لانه لابد قبل كل شئ من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى
فانها هى الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت ان هذا الترتيب احسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل
اولا ولما ذكر تعالى ما قال هرون تشوفت النفس الى علم ما قال موسى فقيل قال يا هرون انت
نبى الله واخى ووزيرى وخليفتى فانت اولى الناس بان الومه واحقهم بان اعاتبه ما منعك اذ
اى حين رايتهم ضلوا عن طريق الهدى واتبعوا سبيل الردى الا تتبعن فى سيرتى من الاخذ على
يد الظالم طوعا او كرها ٭ تنبيه ٭ لا مزيدة للتاكيد لان النافى اذا زيد فى كلام كان نافيا لضد مضمونه
فيفيد اثباتا للمضمون ونفيا لضده فيكون ذلك فى غاية التاكيد واثبت الياء بعد النون ابن كثير
وقفا ووصلا واثبتها نافع وابو عمرو وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا افعصيت اى
فتسبب عن اتباعى فتسبب عن ذلك انك عصيت امرى واخذ بلحيته وبراسه يجره اليه غضبا لله
تعالى فكانه قيل ما قال له فقيل قال مجيبا له مستعطفا بذكر اول وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ما له
من الرقة والشفقة يا ابن ام فذكرها خاصة وان كان شقيقه لانها يسوءها ما يسوءه وهى ارق
من الاب وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وحفص بفتح الميم وكسرها ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى لا تاخذ
بلحيتى ولا براسى اى بشعرهما ثم علل ذلك بقوله انى خشيت ان تقول اذا اشتددت عليهم حتى يصل
الامر الى القتال فرقت بين بنى اسرائيل بفعلك هذا الذى لم يجد شيئا لقلة من كان معك وضعفائك
عن ردهم ولم ترقب قولى اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولم تقل واردد هم ولو ادى
الامر الى السيف ٭ ولما فرغ من نصيحة اقرب الناس اليه واحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى اذ كان
راس الهداة تشوف السامع الى ما كان من غيره فاستانف تعالى ذكره بقوله قال اى موسى عليه السلام
لراس اهل الضلال معرضا عن اخيه بعد قبول عذره جاعلا ما نسب اليه سببا لسؤاله عن الحامل له
عليه فما خطبك اى امرك هذا العجيب العظيم الذى حملك على ما صنعت واخبرنى ولى انك اضللتهم
يا سامرى قال السامرى مجيبا له بصرت من البصر والبصيرة بما لم يبصروا به اى رايت ما لم يروا او بنى اسرائيل
وعرفت ما لم يعرفوا وقال ابن عباس علمت ما لم يعلموا ومنه قولهم رجل بصير اى عالم قال ابو عبيدة
واراد انه راى جبريل عليه السلام فاخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب كما قال فقبضت
اى فكان ذلك سببا لان قبضت قبضة اى مرة من القبض اطلقها على المقبوض تسمية للمفعول
بالمصدر من اثر فرس ذلك الرسول اى المعهود فنبذتها اى فى الحلى الملقى فى النار او فى العجل
وكذلك اى وكما سولت لى نفسى اخذ اثره سولت اى حسنت وزينت لى نفسى نبذها فى

الحلي فنبذتها وكان منها ما كان ولم يدعني الى ذلك داع ولا حملني عليه حامل غير التسويل
تنبيه كون المراد بالرسول جبريل عليه السلام هو ما عليه عامة المفسرين وارادوا باثر التراب
الذي اخذه من موضع حافر دابته لما رآه يوم فلق البحر وعن علي رضي الله تعالى عنه ان جبريل
عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى الى الطور ابصره السامري من بين الناس واختلفوا في انه
كيف اختص السامري برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين الناس فقال ابن عباس
في رواية الكلبي انما عرفه لانه رباه في صغره وحفظه من القتل حين امر فرعون بذبح اولاد بني اسرائيل
فكانت المرأة اذا ولدت طرحت ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان
ويربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامري ممن اخذه جبريل عليه السلام وجعل
كف نفسه في فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما رآه عرفه
قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به يعني رأيت ما لم يروه ومن فسر الابصار بالعلم
فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال ابو مسلم
ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو ان يكون المراد بالرسول
موسى عليه السلام وباثره سنته ورسمه الذي امر به فقد يقول الرجل ان فلانا يقفو اثر فلان
ويقتص اثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير ان موسى عليه السلام لما اقبل على السامري باللوم والمسألة
عن الامر الذي دعاه الى اضلال القوم في العجل قال بصرت بما لم يبصروا به اي عرفت ان الذي انتم عليه
ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من اثرك ايها الرسول اي شيئا من دينك فقذفته اي طرحته فعند ذلك
اعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة وانما اورد لفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل
لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير في كذا وبماذا يأمر الامير واما دعاؤه ان موسى رسولا مع جحده
وكفره فعلى مذهب من حكى الله فيه قوله يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا بالانزال
قال الرازي وهذا القول الذي ذكره ابو مسلم ليس فيه الا انه مخالف للمفسرين ولكنه اقرب الى التحقيق
لوجوه احدها ان جبريل عليه السلام ليس معهودا باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل
لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل كانه تكليف بعلم الغيب وثانيها
انه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من اثر حافر دابة الرسول والاضمار خلاف الاصل وثالثها انه
لا بد من التعسف في بيان ان السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته وكيف
عرف ان تراب حافر فرسه له هذا الاثر والذي ذكروه من ان جبريل هو الذي رباه فبعيد لان السامري
ان عرف انه جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى نبي صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان
ما عرفه حال البلوغ فاي منفعة لكون جبريل مربيا له حال الطفولية في حصول تلك المعرفة *ثم
ان موسى عليه السلام لما سمع من السامري ما ذكر قال له فَاذْهَبْ اي فتسبب عن فعلك ان اقول
لك اذهب من بيننا وحيث ذهبت فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيٰوةِ اي ما دمت حيا أَنْ تَقُولَ لكل من

رايته لَا مِسَاسَ اى لا تمسنى ولا امسك فلا تقدر ان تنفك عن ذلك فكان يهيم فى البرية مع الوحوش
والسباع واذا مس احدا ومسه احد حما جميعا عاقبه الله تعالى بذلك وكان اذا لقى احدا يقول
لامساس اى لا تقربنى ولا تمسنى وقال ابن عباس لامساس لك ولولدك حتى ان بقاياهم اليوم
يقولون ذلك واذا مس احد من غيرهم احدا منهم حما جميعا فى ذلك الوقت وَإِنَّ لَكَ بعد الممات
مَوْعِدًا للثواب ان تبت والعقاب ان ابيت لَّن تُخْلَفَهُ قرأ ابن كثير وابو عمرو بكسر اللام اى لن تغيب
عنه والباقون بفتحها اى بل تبعث اليه فلا انفكاك لك عنه كما انك فى الحياة لا تقدر ان تنفك
عن النفرة من الناس فاختر لنفسك ما يحلو ، ولما ذكر ما للاله الحق من القدرة التامة فى الدارين
اتبعه عجز العجل فقال وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ اى بزعمك الَّذِي ظَلْتَ اى دمت فى مدة يسيرة جدا بما
اشار اليه تخفيف التضعيف فان اصله ظللت بلامين اولاهما مكسورة حذفت تخفيفا
عَلَيْهِ عَاكِفًا اى مقيما تعبده لَّنُحَرِّقَنَّهُ اى بالنار وبالمبرد قال البقاعى كما ساق عن نص التورية
وكان معنى ذلك انه احماه حتى لان فهان على المبارد انتهى ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ اى لنذرينه اذا صار
سحالة فِي الْيَمِّ اى فى البحر الذى اغرق الله تعالى فيه آل فرعون ثم يجمع الله تعالى سحالته هى من عليهم
فيحميها فى نار جهنم ويكويهم بها ويجعلها من اشد العذاب عليهم واكد الفعل اظهارا للعظمة الله
تعالى الذى امره بذلك وتحقيقا للصدق فى الوعد فقال نَسْفًا قال الجلال المحلى وفعل موسى عليه السلام
بعد ذبحه ما ذكره انتهى وعلى هذا لا يصح ان يبرد بالمبرد قال الرازى ويمكن ان يقال صار لحما ودما فجم
ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها ، ولما اراهم بطلان ما هم عليه بالعيان اخبرهم
بالحق على وجه الحصر فقال إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ اى الجامع لصفات الكمال ثم كشف المراد من ذلك وحققه
بقوله الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ اى لا يصلح لهذا المنصب احد غيره لانه وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ وقوله عِلْمًا تمييز محول
عن الفاعل اى احاط علمه بكل شئ فكل شئ اليه مفتقر وهو غنى عن كل شئ واما العجل الذى عبدوه
فلا يصلح للالهية بوجه ولا فى عبادته شئ من حق ، ولما شرح الله تعالى قصة موسى عليه السلام
مع فرعون اولا ثم مع السامرى ثانيا على هذا الاسلوب الاعظم والسبيل الاقوم كان كانه قيل هل يعاد شئ
من القصص على هذا الاسلوب البديع والمثال الرفيع فقيل نعم كَذَٰلِكَ اى مثل هذا القص العالى
فى هذا النظم العزيز الغالى كقصة موسى ومن ذكر معه نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ اى اخبار مَا قَدْ سَبَقَ
من الامم زيادة فى علمك واجلالا لمقدارك وتسلية لقلبك واذهابا لحزنك بما اتفق للرسل من قبلك
وتكثيرا لبيناتك وزيادة فى معجزاتك وليعتبر السامع ويزداد المستبصر فى دينه بصيرة وتتأكد الحجة
على من عاند وكابر وَقَدْ آتَيْنَاكَ اى اعطيناك تشريفا لك وتعظيما لقدرك مِن لَّدُنَّا اى من عندنا
ذِكْرًا اى كتابا هو القرآن وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه احدها انه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه
الناس من امر دينهم ودنياهم وثانيها انه يذكر فيه انواع آلاء الله ونعمائه وفيه التذكير والموعظة
وثالثها فيه الذكر والشرف لك ولقومك كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وسمى الله تعالى كل كتابه

انزله ذكرا فقال فاسئلوا اهل الذكر والتنكير فيه للتعظيم فانه مشتمل على اسرار كتب الله تعالى المنزلة
من اعرض عنه فلم يؤمن به فانه يحمل يوم القيمة وزرا اى حملا ثقيلا من الاثم خالدين فيه اى فى عذاب
الوزر وساء اى وبئس لهم اى ذلك الحمل يوم القيمة وقوله حملا تمييز مفسر للضمير فى ساء والمخصوص
بالذم محذوف تقديره وزرهم واللام للبيان ومن اقبل عليه كان مذكرا له بكل ما يريد من العلوم
النافعة ويبدل من يوم القيامة يوم ينفخ فى الصور اى القرن النفخة الثانية وقرأ ابو عمرو بنونين
الاولى مفتوحة وضم الفاء على اسناد الفعل الى الامر به تعظيما له او الى النافخ والباقون بياء مضمومة
وفتح الفاء ونحشر المجرمين اى الكافرين يومئذ زرقا اى عيونهم مع سواد وجوههم لان زرقة
العيون ابغض شئ من الوان العيون الى العرب لان الروم اعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك
قالوا فى صفة العدو اسود الكبد اصهب السبال ازرق العين وقيل المراد العمى لان حدقة من
يذهب نور بصره تزرق وقيل عطاشا حال كونهم يتخافتون اى يخفضون اصواتهم بينهم لما يملأ
صدورهم من الرعب والهول والخفت خفض الصوت واخفاؤه ان اى يقول بعضهم لبعض ما
لبثتم اى مكثتم الا عشرا اى من الليالى بايامها فى الدنيا وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو
مقدار اربعين سنة قالوا ذلك اما استقصارا لمدة الراحة فى جنب ما بدا لهم من المخاوف لان
ايام السرور قصار واما لانها ذهبت عنهم وانقضت والذاهب وان طالت مدته قصيرة بالانتهاء
ومنه توقيع عبد الله ابن المعتز اطال الله تعالى بقاءك كفى بالانتهاء قصرا واما لاستطالتهم الاخرة
فانه يستقصر اليها عمر الدنيا ويتقال لبث اهلها فيها بالقياس الى لبثهم فى الاخرة كما قال تعالى كم لبثتم
فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسئل العادين واما غلطا ودهشة قال الله تعالى
نحن اعلم اى من كل احد بما يقولون فى ذلك اليوم اى ليس كما قالوا اذ يقول امثلهم اى اعدلهم
طريقة اى رايا او عملا فى الدنيا فيما يحسبون ان اى ما لبثتم الا يوما اى مبدأ الاحاد لا مبدأ العقود كما قال
تعالى فى اية اخرى يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون فلا يزالون فى افك وصرف
عن الحق فى الدارين لان الانسان يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه . ولما وصف
سبحانه وتعالى امر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال تعالى ويسئلونك يا اشرف الخلق
عن الجبال كيف تكون يوم القيامة قال الضحاك نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف يكون الجبال يوم القيامة
وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء ولما كان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر
فلاجرم امره الله تعالى بالجواب مقرونا بحرف التعقيب بقوله فقل لهم ينسفها ربى نسفا
لان تاخير البيان فى مثل هذه المسئلة الاصولية غير جائز واما المسائل الفروعية فجائز فلذلك
ذكر هناك فى نحو قوله تعالى يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ويسئلونك عن
اليتامى قل اصلاح لهم خير بغير حرف التعقيب والنسف التذرية وقيل القلع اى يقلعها
من اصلها ويجعلها هباء منثورا قال الخليل ينسفها اى يذهبها ويطيرها وفى ضمير فيذرها قولان

احدهما انه ضمير الارض اضمرت للدلالة عليها كقوله تعالى ما ترك على ظهرها من دابة والثانى ضمير الجبال وذلك على حذف مضاف اى فيذر مراكزها ومقارها ويذر يجوز ان يكون بمعنى يخليها فيكون قاعا حالا وان يكون بمعنى يترك التصييرية فيتعدى لاثنين فقاعا ثانيهما والقاع هو المكان المستوى وقيل الارض التى لا بناء فيها ولا نبات وفى قوله تعالى صفصفا قولان احدهما الارض الملساء والثانى المستوية والقاع والصفصف قريبان من الترادف وجمع القاع اقوع واقواع وقيعان لا ترى فيها اى الارض او مواضع الجبال عوجا اى انخفاضا ولا امتا اى ارتفاعا بوجه من الوجوه وعبر هنا فى العوج بالكسر وهو للمعانى ولم يعبر بالفتح الذى توصف به الاعيان فان الارض ومواضع الجبال اعيان لا معان نفيا للاعوجاج على ابلغ وجه بمعنى انك لو جمعت اهل الخبرة بتسوية الارض لاتفقوا على الحكم باستوائها ثم لو جمعت اهل الهندسة فحكموا بمقاييسهم العلمية فيها لحكموا بمثل ذلك يومئذ اى يوم اذ نسفت الجبال يتبعون اى الناس بعد القيام من القبور بغاية جهدهم الداعى اى الى المحشر وهو اسرافيل يضع الصور على فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول ايتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن لا عوج له اى الداعى فى شئ من قصدهم اليه لانه ليس فى الارض ما يحوجهم الى التعويج ولا يمنع الصوت من النفوذ على السواء وقيل لا عوج له عائد وهو من المقلوب اى لا عوج لهم عن دعاء الداعى لا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعا وخشعت الاصوات اى سكنت وذلت وتطامنت لخشوع اهلها للرحمن الذى عمت نعمه فيرجى كرمه وتخشى نقمه فلذا اى فتسبب عن خشوعها انك لا تسمع الا همسا اخفى ما يكون من الاصوات وقيل اخفى شئ من اصوات الاقدام فى نقلها الى المحشر كصوت اخفاف الابل فى مشيها يومئذ اى اذ كان ما تقدم لا تنفع الشفاعة احدا الا من اذن له الرحمن ان يشفع له ورضى له قولا ولو بالايمان المجرد قال ابن عباس يعنى قال لا اله الا الله فهذا يدل على انه لا يشفع لغير المؤمن ولما نفى ان تنفع شفاعة بغير اذنه علل ذلك كما سلف فى اية الكرسى بقوله يعلم ما بين ايديهم اى الخلائق من امور الاخرة وما خلفهم من امور الدنيا وقيل ما بين ايديهم ما قدموا وما خلفهم ما خلفوا من الاعمال ولا يحيطون به علما اى لا يحيط علمهم بمعلوماته وقيل الضمير الى ما اى يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه وقيل راجع الى الله تعالى اى ولا يحيطون بالله علما ولما ذكر خشوع الاصوات اتبعه خضوع ذويها فقال وعنت الوجوه اى ذلت وخضعت فى ذلك اليوم وبغير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وخص الوجوه بالذكر مع ان المراد الاشخاص لشرف الوجوه ولانها اول ما يظهر فيها الذل للحى الذى عم الموجودات الدائق والجلائل القيوم الذى لا يغفل عن التدبير ومجازاة كل نفس بما كسبت روى ابن ابى امامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وال عمران وطه قال الرازى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم وقد خاب اى خسر خسارة

ظاهرة مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا قال ابن عباس خسر من اشرك بالله والظلم الشرك ﴿ ولما شرح الله تعالى
احوال القيامة ختم الكلام فيها بشرح احوال المؤمنين فقال وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصّٰلِحٰتِ اى التى
امره الله تعالى بها بحسب طاقته لانه لن يقدر الله احد حق قدره ولن يشاد الدين احد الاغلبه
وَهُوَ مُؤْمِنٌ ليكون بناؤها على الاساس كما فى قوله تعالى ومن ياته مؤمنا قد عمل الصالحات فَلَا يَخٰفُ
ظُلْمًا اى بزيادة فى سياته وَّلَا هَضْمًا اى نقص من حسناته قاله ابن عباس وقيل لا يواخذ بذنب
لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها وعبر تعالى بالفاء اشارة الى قبول الاعمال وجعلها سببا لذلك
الحال واما غير المؤمن فلو عمل امثال الجبال لم يكن لها وزن وقوله تعالى وَكَذٰلِكَ معطوف على قوله تعالى
وكذلك نقص اى ومثل انزال ما ذكر اَنْزَلْنٰهُ اى القرآن قُرْاٰنًا جامعا لجميع المعانى المقصودة ثم وصفه
تعالى بامرين احدهما قوله تعالى عَرَبِيًّا اى بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه
وخروجه عن كلام البشر الثانى قوله تعالى وَّصَرَّفْنَا فِيْهِ مِنَ الْوَعِيْدِ اى كررناه وفصلناه ويدخل تحت
الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعد بما يتعلق بتكويره وتصريفه يقتضى بيان الاحكام فلذلك
قال تعالى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ اى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات فتصير التقوى لهم ملكة
اَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا اى عظة واعتبارا حين يسمعونها فيثبطهم عنها ولهذه النكتة اسند التقوى اليهم
والاحداث الى القرآن فَتَعٰلَى اللّٰهُ فى ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما
لا تماثل ذاته وصفاته ذاتهم وصفاتهم الْمَلِكُ الذى لا يعجزه شئ فلا ملك فى الحقيقة غيره الْحَقُّ
اى الثابت الملك فلا زوال لكونه ملكا فى زمن ما ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف
خلقه على ما هم عليه من الامور المتباينة ﴿ ولما شرح الله تعالى كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين
انه سبحانه وتعالى متعال عن كل ما لا ينبغى موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك
صان رسوله عن السهو والنسيان فى امر الوحى فلذلك قال تعالى وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ اى بقراءته
مِنْ قَبْلِ اَنْ يُّقْضٰٓى اِلَيْكَ وَحْيُهٗ من الملك النازل به اليك من حضرتنا كما انا لم نعجل بانزاله عليك
جملة بل رتلناه لك ترتيلا ونزلناه اليك تنزيلا مفصلا تفصيلا وموصلا توصيلا فاستمع له
ملقيا جميع تاملك اليه ولا تساوقه بالقراءة فاذا فرغ فاقراه فانا نجمعه فى قلبك ولا نكلفك
المساوقة بتلاوته وَقُلْ رَّبِّ ايها المحسن الى بافاضة العلوم على زِدْنِىْ عِلْمًا اى سل الله زيادة
العلم بدل الاستعجال فان ما اوحى اليك تناله لا محالة روى الترمذى عن ابى هريرة قال كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما والحمد لله على كل حال واعوذ
بالله من حال اهل النار وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الاية قال اللهم زدنى علما ويقينا ﴿ ولما قال تعالى
كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق ذكر هذه القصة انجازا للوعد فقال تعالى وَلَقَدْ عَهِدْنَآ بما لنا
من العظمة اِلٰٓى اٰدَمَ ابى البشر اى وصيناه ان لا ياكل من الشجرة وانما عطفها على قوله تعالى وصرفنا فيه
من الوعيد للدلالة على ان اساس بنى آدم على العصيان وعرقهم راسخ بالنسيان مِنْ قَبْلُ اى فى

زمن من الازمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم في هذه السورة ذكر نسيانهم واعراضهم فنسي عهدنا واكل منها ولم نجد له عزما اي تصميم راي وثبات على الامر اذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان ولم يستطع تغريره قال البيضاوي ولعل ذلك كان في بدء امره قبل ان يجرب الامور ويتولى ادبها ويذوق شريها انتهى والاري العسل والشري الحنظل قال البغوي قال ابو امامة الباهلي لو وزن حلم ادم بحلم ولده لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقال البيضاوي وعن النبي صلى الله عليه وسلم لو وزنت احلام بني ادم بحلم ادم لرجح حلمه وقد قال تعالى ولم نجد له عزما قال ابن الاثير والحلم بالكسر الاناة والتثبت في الامور فان قيل ما المراد بالنسيان اجيب بانه يجوز ان يراد بالنسيان الذي هو نقيض الذكر وانه لم يعن بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعا عن الانسان بل كان يؤاخذ به وانما رفع عنا وكان الحسن يقول ما عصى احد قط الا بنسيان يراد الترك وانه ترك ما اوصي به من الاحتراز عن الشجرة واكل ثمرتها وقيل نسي عقوبة الله تعالى وظن انه نهي تنزيه وتنبيه وهذا هو المرة الخامسة من قصة ادم في القرآن اولها في البقرة ثم في الاعراف ثم في الحجر ثم في الكهف ثم ههنا وقوله تعالى وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ تقدم الكلام على ذلك مفصلا في سورة البقرة وقوله تعالى أَبَىٰ جملة مستأنفة لانها جواب سؤال مقدر اي ما منعه من السجود فاجيب بانه ابى ومفعول الاباء يجوز ان يكون مرادا وقد صرح به في الاية الاخرى في قوله تعالى ابى ان يكون من الساجدين وحسن حذفه هنا كون العامل راس فاصلة ويجوز ان لا يراد اصلا وان المعنى انه من اهل الاباء والعصيان من غير نظر الى متعلق الاباء ما هو فَقُلْنَا بسبب امتناعه بعد ان حلمنا عليه ولم نعاجله بالعقوبة يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا الشيطان الذي تكبر عليك عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ حواء بالمد لانها منك وسبب تلك العداوة من وجوه الاول ان ابليس كان حسودا فلما راى اثار نعم الله في حق ادم حسده فصار عدوا له الثاني ان ادم عليه السلام كان شابا عالما لقوله تعالى وعلم ادم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه اثبت فضيلته بفضيلة اصله وذلك جهل والشيخ الجاهل ابدا يكون عدوا للشاب العالم الثالث ان ابليس مخلوق من النار وادم مخلوق من الماء والتراب فبين اصليهما عداوة فثبتت تلك العداوة فان قيل لم قال تعالى فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ مع ان المخرج لهما منها هو الله تعالى اجيب بانه لما كان هو الذي فعل بوسوسته ما ترتب عليه الخروج صح ذلك فان قيل لم قال تعالى فتشقى اي فتتعب وتنصب في الدنيا ولم يقل فتشقيا اجيب بوجهين احدهما ان في ضمن شقاء الرجل وهو قيم اهله واميرهم شقاءهم كما ان في ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على كونه راس فاصلة وعن سفيان بن عيينة قال لم يقل فتشقيا لانها داخلة معه فوقع المعنى عليهما جميعا وعلى اولادهما جميعا كقوله تعالى يا ايها النبي اذا طلقتم النساء ويا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم فدخلوا في المعنى معه وانما كلم النبي وحده الثاني اريد

بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المراة لان الرجل هو الساعى على زوجته روى انه اهبط الى آدم ثور احمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه ويحتاج بعد الحرث الى الحصد والطحن والخبز وغير ذلك مما يحتاج اليه وعن الحسن قال عنى به شقاء الدنيا فلا تلقى ابن آدم الا شقيا ناصبا اى ولو اراد شقاوة الآخرة ما دخل الجنة بعد ذلك . ولما كان الشبع والرى والكسوة والكن هى الامور التى يدور عليها كفاف الناس ذكر تعالى حصول هذه الاشياء فى الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لاضدادها بقوله تعالى اِنَّ لَكَ اَنْ لَا تَجُوْعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرٰى وَاَنَّكَ لَا تَظْمَؤُ اى تعطش فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى اى لا يحصل لك حر شمس الضحى لانتفاء الشمس فى الجنة بل اهلها فى ظل ممدود وهذه الاشياء كانها تفسير للشقاء المذكور فى قوله تعالى فتشقى فَوَسْوَسَ اى متعقب تحذيرنا هذا من غير بعد فى زمان ان وسوس اِلَيْهِ الشَّيْطَانُ المحترق المطرود وهو ابليس اى انهى اليه الوسوسة واما وسوس له فمعناه لاجله فلذلك عدى تارة باللام فى قوله تعالى فوسوس لهما وتارة بالى ثم بين تعالى تلك الوسوسة ما هى بقوله تعالى قَالَ يَا آدَمُ هَلْ اَدُلُّكَ عَلٰى شَجَرَةِ الْخُلْدِ اى على الشجرة التى ان اكلت منها بقيت مخلدا وَمُلْكٍ لَا يَبْلٰى اى لا يبيد ولا يفنى قال الرازى واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله تعالى فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس ايضا فى دوام الراحة بقوله تعالى هل ادلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله تعالى فيه آدم هو الذى رغبه ابليس فيه الا ان الله تعالى وقف ذلك الامر على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بان الله مولاه وناصره ومربيه وعلمه بان ابليس عدو له حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بعداوته له واعرض عن قول الله تعالى مع علمه بانه الناصر له والمربى ومن تامل هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع له منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله ذلك وقدره انتهى ويدل على ذلك ما ثبت فى الحديث الصحيح روى البخارى ومسلم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى انت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته واسكنك فى جنته ثم اهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم انت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه واعطاك الالواح فيها بيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل ان يخلقنى قال موسى باربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال افتلومنى على ان عملت عملا كتب الله على ان اعمله قبل ان يخلقنى باربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى وروى مسلم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله مقادير الخلائق قبل ان

بخلق السموات والارض بخمسين الف سنة قال وعرشه على الماء وقال كل شئ بقدر حتى العجز والكيس
ثم كانّ ابليس قال لادم بلسان الحال او المقال مشيرا الى الشجرة التى نهى عنها ما بينك وبين الملك
الدائم الا ان تاكل منها فَاَكَلَا اى فتسبب عن قوله وتعقب ان اكل منها هو وزوجته متبعين لقوله
ناسيين ما عهد اليهما لامر قدّره الله فى الازل فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْاٰتُهُمَا قال ابن عباس عريا من
النور الذى كان الله البسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع سواتهما كما قال صغت قلوبكما
اى فظهر لكل منهما قبله وقبل الاخر ودبره وسمى كل منهما سواة لانّ انكشافه يسوء صاحبه
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ اى اخذا يلزقان عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ ليستترا به قال ابن عادل وهو ورق التين
وَعَصٰى اٰدَمُ بالاكل من الشجرة وان كان انما فعل المنهى نسيانا لان عظم مقامه وعلوّ رتبته يقتضيان
له مزيد الاعتناء ودوام المراقبة رَبَّهٗ المحسن اليه بما لم ينله احد من بنيه من تصويره له بيده واسجاد
ملائكته له ومعاداة من عاداه فَغَوٰى اى فعل ما لم يكن له فعله وقيل اخطأ طريق الحق وقيل حيث طلب
الخلد باكل ما نهى عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز الى الذل ومن الراحة الى التعب قال ابن قتيبة
يجوز ان يقال عصى ادم ولا يجوز ان يقال ادم عاص لانه انما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل
يخيط ثوبه فيقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاوده ويعتاده *تنبيه* تمسك بعضهم بقوله
تعالى وعصى ادم ربه فغوى فى صدور الكبيرة عنه من وجهين الاوّل انّ العاصى اسم للذم فلا ينطلق
الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فانّ له نار جهنم خالدا فيها ولا معنى
لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه الثانى انّ الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى
ضد الرشاد ومثل هذا لا يتناول الا الفاسق المنهمك فى فسقه واجيب بانّ المعصية مخالفة
الامر والامر قد يكون بالواجب وقد يكون بالمندوب فانك تقول امرته فعصانى وامرته بشرب الدواء
فعصانى واذا كان كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على ادم بكونه للمندوب وان كان وصف
تارك المندوب بانه عاص مجازا واجاب ابو مسلم الاصبهانى بانه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل
بالتكاليف وكذا القول فى غوى قال الرازى والاولى عندى فى هذا الباب ان يقال هذه الواقعة كانت قبل
النبوّة وقد تقدّم شرح ذلك فى البقرة وقيل بل اكل من الشجرة متاولا وهو لا يعلم انّ الشجرة التى نهى الله
عنها شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل انما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة فهو كما قيل
حسنات الابرار سيّات المقربين اى يرونها بالاضافة الى علوّ احوالهم كالسيات ثُمَّ اجْتَبٰهُ رَبُّهٗ اى اختاره
واصطفاه فَتَابَ عَلَيْهِ اى قبل توبته واعاد عليه بالعفو والمغفرة وَهَدٰى اى هداه لرشده حتى رجع
الى الندم والاستغفار * ولما كانت دار الملوك لا تحتمل مثل ذلك وان كان قد هياه بالاجتباء لها
قال على طريق الاستئناف قَالَ الرب سبحانه وتعالى الذى انتهكت حرمة داره اهْبِطَا اى ادم
وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما مِنْهَا اى الجنة جَمِيْعًا وقيل الخطاب لادم ومعه ذريته
ولابليس فقوله تعالى بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ يكون على التفسير الاوّل بعض الذرية لبعض عدوّ

من ظلم بعضهم لبعض وعلى الثاني آدم وذريته وابليس وذريته وقوله تعالى فَإِمَّا فيه ادغام
نون ان الشرطية في ما المزيدة يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى اى كتاب ورسول فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ الذي اسعفته
به من اوامر الكتاب والرسول فَلَا يَضِلُّ اى بعد ذلك عن طريق السداد في الدنيا وَلَا يَشْقَى في الآخرة
قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله تعالى من الضلالة ووقاه الله تعالى يوم القيامة
سوء الحساب وذلك ان الله تعالى يقول فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ولما وعد تعالى من اتبع
الهدى اتبعه بوعيد من اعرض فقال تعالى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي اى عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه
فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا والضنك اصله الضيق والشدة وهو مصدر فكانه قال له معيشة ذات ضنك
واختلف في ذلك فقال ابو هريرة وابو سعيد الخدري وابن مسعود المراد بالمعيشة الضنك عذاب
القبر وروى ابو هريرة ان عذاب القبر للكافر قال قال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليسلط
عليه في قبره تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة
رؤس يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه الى يوم يبعثون وقال الحسن وقتادة والكلبي
هو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون
فيها ولا يحيون وقال ابن عباس المعيشة الضنك هي ان يضيق عليه ابواب الخير فلا يهتدى لشيء
منها وعن عطاء المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب وروى
عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة
والعسر في الشدة وان لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله وذلك ان مع الدين التسليم والقناعة
والتوكل على الله تعالى وعلى قسمته فهو ينفق ما رزقه الله تعالى بسماح وسهولة فيعيش عيشا
رفيعا كما قال تعالى فلنحيينه حيوة طيبة والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال
يطمح به الى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الانفاق فعيشه ضنك
وحاله مظلمة قال صلى الله عليه وسلم لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى اليه ثانيا ولو كان له
واديان لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب متفق عليه
قال بعض الصوفية لا يعرض احد عن ذكر ربه الا اظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه وقال تعالى
استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الآية وقال تعالى وان لو استقاموا على
الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا ثم ذكر حال المعرض في الآخرة بقوله تعالى وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى
قال ابن عباس اذا خرج من القبر خرج بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمي واجاب جمع بذلك بين هذا وبين قوله
تعالى اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا وقال عكرمة عمي عليه كل شيء الا جهنم وفي لفظ قال لا يبصر الا النار وعن
مجاهد المراد بالعمى عدم الحجة ويؤيد الاول قوله تعالى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى في هذا
اليوم وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا اى في الدنيا او في اول هذا اليوم فكانه قيل بم اجيب فقيل قَالَ
اى الرب كَذَلِكَ اى مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال أَتَتْكَ آيَاتُنَا واضحة نيرة فَنَسِيتَهَا اى عميت

عنها وتركتها غير منظور اليها وكذلك اي ومثل تركك اياها اليوم تنسى اي تترك في العمى والعذاب
وكذلك اي ومثل هذا الجزاء الشديد نجزي من اسرف في متابعة هواه فانكر ومن متابعة اوامرنا
ولم يؤمن بل كذب بآيات ربه وخالفها ولعذاب الآخرة اشد مما نعذبهم به في الدنيا
والقبر بعظمه وابقى فانه غير منقطع ✦ ولما بين الله تعالى ان من اعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة
اتبعه بما يعتبر به المكلف من الاحوال الواقعة في الدنيا ممن كذب الرسل فقال
أفلم يهد اي يبين بيانا يقود الى المقصود لهم اي هؤلاء الذين ارسلت اليهم افضل رسل
وفاعل يهد مضمون قوله كم اهلكنا وقال ابو البقاء الفاعل ما دل عليه اهلكنا اي اهلاكنا
والجملة مفسرة له وقال الزمخشري فاعل لم يهد الجملة بعده يريد الم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه
ونظيره قوله تعالى وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين اي تركنا عليه هذا الكلام
ويجوز ان يكون فيه ضمير الله او الرسول النبي وكم خبرية مفعول اهلكنا قبلهم من القرون اي
بتكذيبهم رسلنا حال كونهم يمشون اي هؤلاء العرب من اهل مكة وغيرهم في مساكنهم اي في سفرهم
الى الشام ويشاهدون آثار هلاكهم ان في ذلك اي الاهلاك العظيم الشان المتوالي في كل امة
لآيات عظيمات بينات لاولي النهى اي لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي ولما هددهم
باهلاك الماضين ذكر سبب التأخير عنهم بقوله تعالى ولولا كلمة اي عظيمة ثابتة نافذة سبقت
اي في ازل الآزال من ربك الذي عودك بالاحسان بتأخير العذاب عنهم الى الآخرة فانه يعاملهم
بالحلم والاناة لكان اي العذاب لزاما اي لازما اعظم لزوم لهم في الدنيا مثل ما نزل بعاد وثمود ولكن
قدرنا لهم لعلمنا بما لم يكونوا ان نمهلهم ونخرج من اصلاب بعضهم من يؤمن وانا فعلنا ذلك اكراما لك
ورحمة لامتك فيكثر اتباعك فيعملوا الخيرات فيكون ذلك زيادة في شرفك والى ذلك الاشارة
بقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذي اوتيته وحيا اوحاه الله الي فارجو ان اكون اكثرهم تابعا وفي رفع
قوله تعالى واجل مسمى وجهان اظهرهما عطفه على كلمة اي ولولا اجل مسمى لكان العذاب لازما لهم
وهذا ما صدر به البيضاوي والثاني انه معطوف على الضمير المستتر في كان وقام الفصل بخبرها مقام
التأكيد واقتصر الجلال المحلي على هذا وجوز الزمخشري والبيضاوي في هذا الاجل المسمى ان يكون
احدهما ولولا اجل مسمى في الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر والثاني ولولا اجل مسمى في الآخرة
لذلك العذاب وهذا كما قال الرازي اقرب قال اهل السنة له تعالى بحكم المالكية ان يخص من شاء
بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة اما قديمة فيلزم قدم
الفعل واما حادثة فيلزم افتقارها الى علة اخرى ويلزم التسلسل ثم انه تعالى لما اخبر نبيه صلى الله عليه وسلم
بانه لا يهلك احدا قبل استيفاء اجله امره بالصبر فقال فاصبر على ما يقولون لك من الاستهزاء وغيره
وهذا كان في اول الامر ثم نسخ بآية القتال وسبح اي صل وقوله تعالى بحمد ربك حال اي
وانت حامد لربك على انه وفقك لذلك واعانك عليه قبل طلوع الشمس صلوة الصبح وقبل

غروبها صلوة العصر ومن آناءِ الليل اى ساعاته فسبّح اى صل المغرب والعشاء وقوله تعالى وأطراف النهار معطوف على محل من آناء المنصوب اى صل الظهر لان وقتها يدخل بزوال الشمس فهو طرف النصف الاول وطرف النصف الثانى قال ابن عباس دخلت الصلوات الخمس فى ذلك وقيل المراد الصلوات الخمس والنوافل لان الزمان اما ان يكون قبل طلوع الشمس او قبل غروبها فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين واوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما فبقى قوله ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار للنوافل وقال ابو مسلم لايبعد حمل التسبيح على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الاوقات فان قيل النهار له طرفان فكيف قال واطراف النهار ولم يقل طرفى النهار اجيب بوجهين اظهرهما انه انما جمع لانه يلزم فى كل نهار وبعود والثانى ان اقل الجمع اثنان وقرأ قوله تعالى لعلك ترضى ابو بكر والكسائى بضم التاء اى ترضى بما تنال من الثواب كقوله تعالى وكان عند ربه مرضيا وقرأ الباقون بفتحها اى ترضى بما تنال من الشفاعة قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال تعالى عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا والمعنى على القراءتين لايختلف لان الله تعالى اذا ارضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد ارضاه ولما كانت النفس مياله الى الدنيا مرهونة بالحاضر من فانى العطايا وكان تخليها عن ذلك هو الموصل الى هويتها المؤذن بعلو همتها قال تعالى مؤكدا ولا تمدّنّ مؤكدا له بالنون الثقيلة عينيك اى لاتطول نظرهما بعد النظرة الاولى المعفو عنها الى ما متعنا به فى هذه الحيوة الفانية ازواجا اى اصنافا منهم اى الكفرة استحسانا له وتمنيا ان يكون لك مثله والامتاع الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح وقوله تعالى زهرة الحيوة الدنيا اى زينتها وبهجتها منصوب بمحذوف دل عليه متعنا او به على تضمنه معنى اعطينا فازواجا مفعول اول وزهرة هو الثانى وذكر ابن عادل غير هذين الوجهين سبعة اوجه لاحاجة لنا بذكرها ثم علل تعالى تمتعهم بقوله تعالى لنفتنهم فيه اى لنفعل بهم فعل المختبر فيكون سبب عذابهم فى الدنيا بالعيش الضنك لما مضى وفى الاخرة بالعذاب الاليم فصورته نعمة من لم يتامل معناه حق التامل فانت فيه خير مما هم فيه ورزق ربك فى الجنة خير مما اوتوه فى الدنيا وابقى اى ادوم وما رزقته من نعمة الاسلام والنبوة اولان اموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال خير وابقى قال الزمخشرى لان الله تعالى لاينسب الى نفسه الا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث والحرام لايسمى رزقا انتهى وهذا جار على مذهبه المخالف لاهل السنة من ان الحرام لايسمى رزقا وقال ابو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف اى لاتاسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا وقال ابو رافع نزلت هذه الاية فى ضيق نزل بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى يبيع او يسلف الى مدة فقال والله لا افعل الا برهن فاخبرته بقوله فقال صلى الله عليه وسلم انى لامين فى السماء وانى لامين فى الارض احمل اليه درعى الحديد

فنزل قوله ولا تمدن عينيك وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم ولكن
ينظر الى قلوبكم واعمالكم وقال ابو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له
وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى ابن مريم عليه السلام لا تتخذ والدنيا دارا فتتخذكم
لها عبيدا ۔ ولما امر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتزكية النفس امره بان يامر اهله بالصلوة
بقوله عز وجل وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلٰوةِ اى امر اهل بيتك والتابعين لك من امتك بالصلوة كما كان
ابوك اسمعيل عليه السلام يدعوهم الى كل خير اذ الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر وليتعاونوا على
الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بامر المعيشة ولا يلتفتوا الفت ارباب الثروة وكان صلى الله عليه وسلم
بعد نزول هذه الاية يذهب الى فاطمة وعلى رضى الله عنهما كل صباح ويقول الصلوة وَاصْطَبِرْ اى داوم
عَلَيْهَا لَا نَسْئَلُكَ اى نكلفك رِزْقًا لنفسك ولا لغيرك نَحْنُ نَرْزُقُكَ وغيرك كما قال تعالى وما
خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ان الله هو
الرزاق ذو القوة المتين ففرغ بالك لامور الاخرة وفى معناه قول الناس من كان فى عمل الله كان
الله فى عمله وروى انه صلى الله عليه وسلم كان اذا اصاب اهله ضر امرهم بالصلوة وتلا هذه الاية
وعن عروة بن الزبير انه كان اذا راى ما عند السلطان قرأ ولا تمدن عينيك الاية ثم ينادى الصلوة
الصلوة رحمكم الله وعن بكر بن عبد الله المزنى كان اذا اصاب اهله خصاصة قال قوموا فصلوا
امر الله ورسوله ثم يتلو هذه الاية وَالْعَاقِبَةُ اى الجميلة المحمودة لِلتَّقْوٰى اى لاهل التقوى قال ابن عباس
الذين صدقوك واتبعوك واتقوني ويؤيده قوله تعالى فى موضع اخر والعاقبة للمتقين ولا معونة
على الرزق وغيره لشئ يوازى الصلوة فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه امر اى بالباء الموحدة
اى اذا احزنه فزع الى الصلوة قال ثابت وكان الانبياء عليهم الصلوة والسلام اذا نزل بهم امر فزعوا الى
الصلوة وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى تفرغ لعبادتى املأ
صدرك غنى واسد فقرك وان لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم اسد فقرك وعن ابن مسعود
رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من جعل الهموم هما واحدا هم
المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به هموم احوال الدنيا لم يبال الله فى اى اوديتها هلك
وعن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كانت الدنيا همه
فرق الله عليه امره وجعل فقره بين عينيه ولم ياته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الاخرة همه
جمع الله له امره وجعل غناه فى قلبه واتته الدنيا وهى راغمة ۔ ثم انه تعالى بعد هذه الوصية حكى
عنهم شبهة بقوله تعالى وَقَالُوْا لَوْلَا يَأْتِيْنَا بِاٰيَةٍ مِّنْ رَّبِّهٖ فكانه من لوازم قوله تعالى فاصبر على ما يقولون
وهو قولهم لولا اى هلا ياتينا باية وقال فى موضع اخر فليأتنا باية كما ارسل الاولون ۔ ثم اجاب الله تعالى
عن رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله اَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ اى بيان مَا فِى الصُّحُفِ الْاُوْلٰى من التورٰية
والانجيل وسائر الكتب السماوية المشتمل عليه القران من انباء الامم الماضية واهلاكهم

تكذيب الرسل فما يؤمنهم ان يكون حالهم في سؤال الآيات كحال اولئك وقرأ نافع وابو عمرو و
حفص بالفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير ولو انا اهلكناهم معاملة لهم في
عصيانهم بعذاب من قبله اي هذا القرآن المذكور في الآية الماضية وما قاربها في قوله تعالى
ولا تعجل بالقرآن وفي مثاني السورة في ما انزلنا عليك القرآن لتشقى او من قبل محمد صلى الله
عليه وسلم لقالوا اي يوم القيامة ربنا بأسًا هو متصف بانه حسان الينا لولا اي هلا ولم لا ارسلت
الينا رسولا يأمرنا بطاعتك فنتبع اي فيتسبب عنه ان نتبع آياتك التي تبينها من قبل
ان نذل بالعذاب بهذا الذل ونخزى بالمعاصي التي عملناها على جهل فلاجل ذلك ارسلناك
اليهم واقمنا بك الحجة عليهم ولما علم بهذا ان ايمانهم كالممتنع وجدالهم لا ينقطع بل
ان جاءهم الهدى طعنوا فيه وان عذبوا قبله تظلموا كأنه قيل فما الذي افعل معهم
فقيل قل لهم كل اي كل مني ومنكم متربص اي منتظر ما يؤول اليه امري وامركم فتربصوا فانتم
كالبهائم ليس لكم تامل فستعلمون اي عما قريب بوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة
من اصحاب الصراط اي الطريق السوي المستقيم ومن اهتدى اي من الضلال فحصل ع
على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره انحن ام انتم قال ابن عادل عن ابي هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قرأ طه ويس قبل ان يخلق آدم بالفي عام فلما سمعت
الملائكة القرآن قالوا طوبى لامة ينزل عليها هذا وطوبى لالسن تتكلم بهذا وطوبى
لاجواف تحمل هذا وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يقرأ اهل الجنة
من القرآن الا يس وطه انتهى ولم يذكر لك سندا واما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه
صلى الله عليه وسلم قال من قرأ طه اعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار فحديث موضوع

سورة الانبياء عليهم الصلوة والسلام مكية

قال الرازي باجماع وهي مائة واحدى او ثنتا عشرة آية والف ومائة وستون كلمة واربعة آلاف وثمانمائة وتسعون حرفا
بسم الله الحكم العدل الذي تمت قدرته وعم امره الرحمن الذي ساوى بين خلقه في رحمة
ايجاده الرحيم الذي نجى من شاء من عباده في معاده قال ابو جعفر بن الزبير في برهانه لما تقدم
قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى قوله فستعلمون من اصحاب الصراط السوي ومن اهتدى قال
تعالى اقترب اي قرب للناس حسابهم اي في يوم القيامة اي فلا تمدن عينيك الى ذلك
فاني ميعادهم فتنة واشار بصيغة الافتعال الى مزيد القرب لانه لا امة بعد هذه ينتظر امرها واخر
الفاعل تهويلا لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب فان قيل كيف وصف ذلك اليوم
بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول اكثر من ستمائة عام اجيب بانه مقترب عند الله
والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون
ولان كل آت وان طالت اوقات استقباله وترقبه قريب وانما البعيد هو الذي وجد وانقرض

قال الشاعر: فلا زال ما تهواه اقرب من غد + ولا زال ما تخشاه ابعد من امس + وكان ما بقي
من الدنيا اقصر واقل مما سلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه
الموعود ببعثته في اخر الزمان وقال بعثت انا والساعة كهاتين واشار باصبعيه وقال صلى الله
عليه وسلم ختمت النبوة بي كل ذلك لاجل ان الباقي من مدة التكليف اقل من الماضي وعن ابن عباس
ان المراد بالناس المشركون وهو من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات
المشركين وهو قوله تعالى وَهُمْ اي والحال انهم فِي غَفْلَةٍ اي عن الحساب مُعْرِضُونَ عن التاهب
لهذا اليوم لا يتفكرون في عاقبتهم ولا يتفطنون لما يرجع اليه خاتمة امرهم مع اقتضاء عقولهم انه
لابد من جزاء المحسن والمسيء وايضاً ان هذه الاية نزلت في كفار مكة ولما اخبر تعالى عن غفلتهم
واعراضهم دل على ذلك بقوله مَا يَأْتِيهِمْ واغرق في النفي بقوله مِنْ ذِكْرٍ اي وحي ينبههم عن سنة
الغفلة والجهالة وقوله تعالى مِنْ رَبِّهِمْ صفة ذكر او صلة ليأتيهم مُحْدَثٍ انزاله اي ما يحدث
الله تعالى من تنزيل شيء من القران يذكرهم ويعظهم به وبهذا سقط احتجاج المعتزلة بان القران
حادث لهذه الاية وقيل معناه ان الله تعالى يحدث الامر بعد الامر فينزل الاية بعد الاية والسورة
بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من الامور والوقائع وقيل الذكر المحدث
ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى ما في القران واضافه اليه
لان الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى اِلَّا اسْتَمَعُوهُ اي قصد واسماعه
وهو اجد الجد واحق الحق وَهُمْ اي والحال انهم يَلْعَبُونَ اي يفعلون فعل اللاعبين بالاستهزاء
والسخرية لتناهي غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر في الامور والتفكر في العواقب لَاهِيَةً
اي غافلة معرضة قُلُوبُهُمْ عن ذكر الله + تنبيه + قوله تعالى وهم يلعبون لاهية قلوبهم
حالان مترادفتان او متداخلتان + ولما ذكر تعالى ما يظهرونه في حالة الاستماع من اللهو
واللعب ذكر ما يخفونه بقوله تعالى عطفاً على استمعوه وَاَسَرُّوا اي الناس المحدث عنهم
النَّجْوَى اي بالغوا في اسرار كلامهم وقوله تعالى الَّذِينَ ظَلَمُوا بدل من واو واسروا للايماء
بانهم ظالمون فيما اسروا به او مبتدأ والجملة المتقدمة خبره والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع
المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بانه ظلم وقيل جاء على لغة من قال اكلوني البراغيث
وقيل منصوب المحل على الذم ثم بين تعالى ما تناجوا به بقوله تعالى هَلْ اي فقالوا في تناجيهم
هذا معجبين من ادعائه النبوة مع مماثلته لهم في البشرية هَذَا الذي اتاكم بهذا الذكر
اِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ اي في خلقه واخلاقه من الاكل والشرب والحيوة والممات فكيف
يختص عنكم بالرسالة ما هذا الذي جاءكم به مما لا تقدرون على مثله الا سحر لا حقيقة له فحينئذ
تسبب عن هذا الانكار قولهم اَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَاَنْتُمْ اي والحال انكم تُبْصِرُونَ
باعينكم انه بشر مثلكم فكانهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء النبوة والرسالة

لاعتقادهم ان الرسول لا يكون الا ملكا واستلزموا منه ان ما جاء من الخوارق كالقرآن سحر فانكروا
حضوره فان قيل لم اسروا هذا الحديث وبالغوا في اخفائه اجيب بان ذلك كان يشبه
التشاور فيما بينهم والتحاور في طلب الطريق الى هدم امره وعادة المتشاورين في خطب ان لا يشركوا
اعداءهم في مشورتهم ويجتهدوا في طي سرهم عنهم ما امكن واستطيع ومنه قول الناس استعينوا
على قضاء حوائجكم بالكتمان قال البقاعي فيا لله العجب من قوم راوا ما اعجزهم فلم يجوزوا ان يكون ذلك
عن الرحمن الداعي الى الفوز بالجنان وجزموا انه من الشيطان الداعي الى الهوان باصطلاء النيران
والعجب ايضا انهم انكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم بما يخص الله تعالى به بعض الناس
عن بعض من الذكاء والفطنة وحسن الخلائق والاخلاق والقوة والصحة وطول العمر وسعة
الرزق ونحو ذلك انتهى ولا عجب فانها عقول اضلها باريها ثم كانه قيل فماذا يقال لهؤلاء فقال قل
لهم ﴿رَبِّي﴾ المحسن الي ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ سواء كان سرا ام جهرا كائنا ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ على حد سواء لانه
لا مسافة بينه وبين شيء من ذلك ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون
فان قيل هلا قيل يعلم السر لقوله تعالى واسروا النجوى اجيب بان القول عام يشمل السر والجهر فكان
في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان اكد في بيان الاطلاع على نجواهم من ان يقول يعلم السر كما ان
قوله يعلم السر اكد من ان يقول يعلم سرهم فان قيل لم ترك هذا الاكد في سورة الفرقان في
قوله تعالى قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارض ولم يقل يعلم القول كما هنا اجيب
بانه ليس بواجب ان ياتي بالاكد في كل موضع ولكن يجيء بالوكيد تارة وبالاكد اخرى كما يجيء بالحسن
في موضع وبالاحسن في غيره ليفتن الكلام افتنانا ويجمع الغاية وما دونها على ان اسلوب تلك
الاية خلاف اسلوب هذه من قبل انه قدم هاهنا انهم اسروا النجوى فكانه اراد ان يقول ان ربي
يعلم ما اسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثم قصد وصف ذاته بانه انزله الذي يعلم
السر في السموات والارض فهو كقوله تعالى علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة
وقرأ حفص وحمزة والكسائي قال بصيغة الماضي بالاخبار عن الرسول والباقون قل بصيغة الامر ثم
انه تعالى بين ان المشركين اقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله بقوله تعالى ﴿بَلْ قَالُوا﴾
اي قال بعضهم هذا الذي قال لكم ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ اي اخلاط احلام راها في النوم وقال بعضهم
﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ اي اختلقه من عند نفسه ونسبه الى الله تعالى وقال بعضهم ﴿بَلْ هُوَ﴾ اي النبي صلى الله عليه وسلم ﴿شَاعِرٌ﴾
فما جاءكم به شعر والشاعر يخيل ما لا حقيقة له لغيره او انهم كلهم اضربوا عن قولهم هو سحر الى انه
تخاليط احلام ثم الى انه كلام مفترى من عنده ثم الى انه قول شاعر وهكذا المبطل متحير رجاع
غير ثابت على قول واحد قال الزمخشري ويجوز ان يكون تنزيلا من الله تعالى لاقوالهم في درج
الفساد وان قولهم الثاني افسد من الاول والثالث افسد من الثاني وكذا الرابع افسد من
الثالث ثم انهم لما ظهر ان اعظم المعجزات طلبوا اية غيره فقالوا ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ دليلا على

رسالته بِآيَةٍ كَمَا اى مثل ما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ بالآيات كتسبيح الجبال وتسخير الريح وتفجير الماء واحياء
الموتى وابراء الاكمه والابرص وصحة التشبيه من حيث ان الارسال يتضمن الاتيان بالآية قال الله
تعالى مجيبا لهم مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ اى قبل مشركى مكة مِنْ قَرْيَةٍ اى من اهل قرية اتتهم الآيات
أَهْلَكْنَاهَا باقتراح الآيات لما جاءتهم أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ اى لو جئتهم بها وهم اعتى منهم وفيه دليل
على ان عدم الاتيان بالمقترح للابقاء عليهم اذ لو اتى به لم يؤمنوا واستوجبوا عذاب الاستئصال
لمن قبلهم + ولما بين تعالى بطلان ما اقترحوا به فى رسوله صلى الله عليه وسلم بكونه بشرا قال تعالى
عاطفا على امنت مجيبا عن قولهم هل هذا الا بشر مثلكم وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ اى فى جميع الزمان
الذى تقدم زمانك فى جميع طوائف البشر إِلَّا رِجَالًا اى لم نرسل الملائكة الى الاولين انما ارسلنا رجالا
نُوحِي إِلَيْهِمْ مثلك ثم انه تعالى امر المشركين ان يسالوا اهل الكتاب بقوله تعالى فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ
وانما احالهم على هؤلاء لانهم كانوا لا ينكرون ان الرسل كانوا بشرا وان انكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
وقيل المراد بالذكر القرآن اى فاسالوا المؤمنين العالمين من اهل القرآن وقرأ ابن كثير والكسائى
بفتح السين ولا همزة بعدها وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وهمزة
مفتوحة بعدها + ثم نبه تعالى على انهم غير محتاجين فيه الى السؤال بما قد كان بلغهم
على الاجمال من احوال موسى وعيسى وابراهيم واسمعيل وغيرهم عليهم السلام بقوله تعالى
معبرا باداة الشك محركا لهم على المعالى إِنْ كُنْتُمْ اى بجبلتكم لَا تَعْلَمُونَ اى لا اهلية لكم فى انتناص
علم بل كنتم اهل تقليد محض وتبع صرف + ولما بين تعالى انه صلى الله عليه وسلم على سنة
من مضى من الرسل فى كونه رجلا بين انه على سنتهم فى جميع الاوصاف التى حكم بها على البشر فى العيش
والموت فنبه على الاول بقوله تعالى وَمَا جَعَلْنَاهُمْ اى الذين اخترنا بعثتهم الى الناس ليامروهم
باوامرنا جَسَدًا اى ذوى جسد ولحم ودم متصفين بانهم لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ بل جعلناهم اجسادا يأكلون
ويشربون وليس ذلك بمانع من ارسالهم + فائدة + قال ابن فارس فى المجمل وفى كتاب الخليل
ان الجسد لا يقال لغير الانسان وتوحيد الجسد لارادة الجنس كانه قيل ذوى ضرب من الاجساد وعلى
حذف المضاف اى ذوى جسد كما مرّ او تاويل الضمير لكل واحد وهو جسم ذو لون قال البيضاوى
ولذلك اى ولكون الجسد جسما ذا اللون لا يطلق على الماء والهواء وهو فى الماء مبنى على انه لا لون له
وانما يتلون بلون ظرفه او مقابله لانه جسم شفاف لكن قال الامام الرازى بل له لون ويرى ومع ذلك
لا يحجب عن روية ما وراءه + ثم نبه على الثانى بقوله تعالى وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ اى باجسادهم
بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم وانما امتازوا عن الناس بما ياتيهم عن الله تعالى
ورسولكم صلى الله عليه وسلم ليس بخالد فتربصوا كما اشار اليه سفههم فانه متربص بكم
وانتم عاصون الملك الذى اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ اى الذى
وعدناهم باهلاكهم وهذا مثل قوله تعالى واختار موسى قومه فى حذف الجار والارسل

فى الوعيد تدقين قومه ومنه صدقوهم القتال وصدقنى سن بكره والاصل فى هذا المثل ان اعرابيا عرض بعيرا للبيع فقال له المشترى ماسنه قال بكر فاتفق انه ند فقال صاحبه هدع هدع وهذه اللفظة مما يسكن بها صغار الابل لا الكبار فقال المشترى صدقنى سن بكره واعرض فصار مثلا

تنبيه اشار تعالى باداة التراخى الى انهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ثم اجل بهم سطوته واراهم قدرته ‎فَأَنجَيْنَاهُمْ‎ اى الرسل ‎وَمَن نَّشَاءُ‎ وهم المؤمنون ومن فى ابقائه حكمة كمن سيؤمن هو او واحد من ذريته ولذلك حميت به العرب من عذاب الاستئصال ‎وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ‎ اى المشركين لان المشرك مسرف على نفسه ‎لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ‎ يا معشر قريش ‎كِتَابًا‎ اى القران ‎فِيهِ ذِكْرُكُمْ‎ اى شرفكم وصيتكم كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك او فيه مكارم الاخلاق التى كنتم تطلبون بها الثناء وحسن الذكر كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث واداء الامانة والسخاء وما اشبه ذلك وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من امر دينكم او لانه نزل بلغتكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا ما تكرهون الذكر بمعنى الوعد والوعيد ‎أَفَلَا تَعْقِلُونَ‎ فتؤمنوا به وفى ذلك حث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل ‎وَكَمْ قَصَمْنَا‎ اى اهلكنا ‎مِن قَرْيَةٍ‎ اى اهلها بغضب شديد لان القصم افظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم قوله تعالى ‎كَانَتْ ظَالِمَةً‎ اى كافرة صفة لاهلها وصفت بها لما اقيمت مقامها ثم بين الغنى عنها بقوله تعالى ‎وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا‎ اى بعد اهلاك اهلها ‎قَوْمًا آخَرِينَ‎ مكانهم ثم بين حالها عند احلال الباس بها بقوله تعالى ‎فَلَمَّا أَحَسُّوا‎ اى ادرك اهلها بحواسهم ‎بَأْسَنَا‎ اى عذابنا ‎إِذَا هُم مِّنْهَا‎ اى القرية ‎يَرْكُضُونَ‎ هاربين منها مسرعين راكضين دوابهم لما ادركتهم مقدمة العذاب والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه اركض برجلك او مشبهين بهم من فرط اسراعهم بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم لنخرجنك من ارضنا او لتعودن فى ملتنا فناداهم لسان الحال تقريعا وتشنيعا لحالهم ‎لَا تَرْكُضُوا‎ والمقال والقائل ملك او من ثم من المؤمنين ‎وَارْجِعُوا‎ الى قريتكم ‎إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ‎ اى تمتعتم ‎فِيهِ‎ من النعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة والترفه ولما كان اعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال ‎وَمَسَاكِنِكُمْ‎ اى التى كنتم تفتخرون بها على الضعفاء بما وسعتم من فنائها وعليتم من بنائها وحسنتم من مشاهدها ‎لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ‎ وفى هذا تهكم بهم وتوبيخ اى ارجعوا الى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما يجرى عليكم وينزل باموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة او ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجالسكم وترتبوا فى مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون امره وينفذ فيه امركم ونهيكم فيقولوا لكم بم تامرون وماذا ترسمون او شيئا من دنياكم على العادة او تسئلون فى الانهاك كما كنتم تسئلون فتابوا بما عندكم من الانفة والحمية والعظمة او فى المهمات كما تكون الرؤساء فى مقاعدهم العلية ومراتبهم السنية فيجيبون سائلهم بما شاؤا

ولما كان كانه قيل بم اجابوا هذا القائل قيل ‎قَالُوا‎ حين لا نفع لقولهم عند نزول الباس

ع

يَا وَيْلَنَا اشارة الى انه حل بهم لانه يتادى بيا القريب توفقا به كما يقول الشخص لمن يضربه يا سيدي
كانه يستغيث به ليكف عنه وذلك غباوة منهم وعمى عن الذى احله بهم لانهم كالبهائم لا ينظرون
الا السبب الاقرب ثم عللوا حلوله بهم تاكيدا لتوقفهم بقولهم إِنَّا كُنَّا جبلة وطبعا ظَالِمِينَ حيث كذبنا
الرسل وعصينا امر ربنا فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف لفوات محله وعن ابن عباس رضي الله
عنهما ان اهل القرية حضور بفتح الحاء وبالضاد المعجمة وهي وسحول قريتان قريبتان من اليمن تنسب
اليهما الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين وروى
حضوريين بعث الله لهم نبيا فقتلوه فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه الله على اهل بيت
المقدس فاستاصلهم وروى انه لما اخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يالثارات
الانبياء وهي بفتح اللام وبالمثلثة وهمزة ساكنة اى يا لاهل ثاراتهم اى الطالبة بدمهم فحذف
المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فندموا وقالوا ذلك فَمَا اى فتسبب عن اعلانهم بذلك البأس انه
مَا زَالَتْ تِلْكَ الدعوى البعيدة من الخير والسلامة وهي قولهم يا ويلنا دَعْوَاهُمْ يرددونها لا دعوى
لهم غيرها لان الويل ملازم لهم غير منفك عنهم وترفقهم له غير نافعهم حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
كالزرع المحصود بالمناجل بان قتلوا بالسيف * تنبيه * حصيد على وزن فعيل بمعنى مفعول ولذلك
لم يجمع لانه يستوى فيه الجمع وغيره خَامِدِينَ اى ميتين كخمود النار اذا طفئت وصارت رمادا
فان قيل كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل اجيب بان حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد لان معنى
قولك جعلته حلوا حامضا جعلته جامعا للطعمين وكذلك معنى ذلك جعلناهم جامعين لمماثلة
الحصد والخمود او خامدين صفة لحصيدا او حال من ضميره ثم نبههم سبحانه وتعالى على النظر في خلق
السموات والارض وما بينهما ليتدبروا فقال تعالى وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ على علوها واحكامها وَالْأَرْضَ
على عظمها واتساعها وَمَا بَيْنَهُمَا مما دبا به لتمام المنافع من اصناف البدائع وغرائب الصنائع
لَاعِبِينَ اى عابثين كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وانما
خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكيرا لذوى الاعتبار وتسبيبا لما ينتظم به امر العباد
في المعاش والمعاد ولما نفى عنه اللعب اتبعه دليله فقال عز وجل لَوْ أَرَدْنَا اى بما لنا من العظمة
أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا اى ما يتلهى به ويلعب وقيل هو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على
النصارى لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا اى من عندنا مما يليق ان ينسب لحضرتنا من الحور العين والملائكة
بما لنا تمام القدرة وكمال العظمة إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ذلك لكنا لم نفعله لانه لا يليق بجنابنا فلم نرده وقوله
تعالى بَلْ نَقْذِفُ اى نرمي بِالْحَقِّ اى الايمان عَلَى الْبَاطِلِ اى الكفر اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه
لذاته عن اللعب بل شاننا ان نرمي بالحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من عداد اللهو فَيَدْمَغُهُ
اى يذهبه واستعار لدحض الباطل بالحق القذف والدمغ تصويرا لابطاله به واهداره ومحقه
فجعله كانه جرم صلب كالصخرة ووجه استعارة القذف والدمغ لما ذكر ان اصل استعمالهما في

الاجسام ثم استعير القذف لدحض الباطل بالحق والدمغ لاذهاب الباطل فالمستعار منه حسي
والمستعار له عقلي فاذا هو في الحال زاهق اي ذاهب والزهوق ذهاب الروح وذكره لترشيح
المجاز من اطلاق القذف على دحض الباطل ثم عطف على ما افادته اذا قوله تعالى ولكم اي واذا لكم
ايها المبطلون الويل اي العذاب الشديد مما تصفون الله تعالى به مما تهوى انفسكم كالزوجة
والولد + تنبيه + ما اما مصدرية او موصولة او موصوفة + ولما حكى الله تعالى
كلام الطاعنين في النبوات واجاب عنها بان اغراضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين
بقوله تعالى وله من في السموات اي الاجرام العالية وهي ما تحت العرش وجمع السماء
هنا لاقتضاء تفخيم الملك ذلك ولما كانت عقولهم لا تدرك تعدد الارض وحدها فقال والارض
اي له ذلك خلقا وملكا لانه منزه عن طاعتهم لانه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات وعبر بمن
تغليبا للعقلاء وقوله تعالى ومن عنده اي وهم الملائكة باجماع الامة ولان الله تعالى وصفهم بانهم
يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر مبتدأ خبره لا يستكبرون عن عبادته بنوع كبر طلبا
ولا ايجادا وخصهم بالذكر لكرامتهم عليه تنزيلا لهم منزلة المقربين عند الملك + تنبيه + هذه العندية
للشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكانه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم وعلو درجاتهم ونهاية
جلالتهم لا يستكبرون عن عبادته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته ومع ذلك ايضا
لا يستحسرون اي لا يعيون وانما جيء بالاستحسار الذي هو ابلغ من الحسور تنبيها على ان عبادتهم
من ثقلها ودوامها حقيقة بان يستحسر منها ولا يستحسرون ولا يطلبون ان ينقطعوا عنها فانتج ذلك
قوله تعالى يسبحون اي ينزهون المستحق للتنزيه بانواع التنزيه من الاقوال والافعال الليل والنهار اي جميع
انائهما دائما لا يفترون اي عن ذلك وقتا من الاوقات فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل + ولما
كانوا عند هذا البيان جديرين بان يردوا الى التوحيد فلم يفعلوا كانوا حقيقين بعد الاعراض عنهم بالتوبيخ
والتهكم والتعنيف فقال تعالى ام اتخذوا اي بل اتخذوا فام بمعنى بل للانتقال والهمزة لانكار اتخاذهم
الهة من الارض ومعنى نسبتها الى الارض الايذان بانها الاصنام التي تعبد في الارض لان الالهة
على ضربين ارضية وسماوية ومن ذلك حديث الامة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم
اين ربك فاشارت الى السماء فقال انها مؤمنة لانه فهم منها ان مرادها نفي الالهة الارضية التي هي
الاصنام لا اثبات ان السماء مكان الله تعالى ويجوز ان يراد الهة من جنس الارض لانها اما ان تنحت
من بعض الحجارة او تعمل من بعض جواهر الارض هم ينشرون اي يحيون الموتى لا يقدرون على ذلك وهم
وان لم يصرحوا بذلك لزم من ادعائهم لها الالهية انهم يقدرون على ذلك فان من لوازمها الاقتدار على جميع
الممكنات فالمراد به تجهيلهم والتهكم بهم والمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص
الانتشار بهم ثم انه سبحانه وتعالى اقام البرهان القطعي على نفي الولد وغيره ببرهان التمانع وهو اشد
برهان لاهل الكلام فقال لو كان فيهما اي السموات والارض اي في تدبيرهما الهة الا الله

٦

اى غير الله تعالى لفسدتا اى لخرجتا عن نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند
تعدد الحاكم وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الاشدق كان والله اعز علىّ من دم
ناظرى ولكن لا يجتمع فحلان فى شول وهذا ظاهر واما طريقة التمانع فقال المتكلمون القول بوجود
الهين مفض الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلا بدّ ان يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات
ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا انّ احدهما اراد تحريكه
والآخر اراد تسكينه فاما ان يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين او لا يقع واحد منهما
وهو محال لانّ المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد
ذلك وبالعكس او يقع مراد احدهما دون الآخر وذلك ايضا محال لانّ الذى وقع مراده يكون قادرا
والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال فثبت ان الفساد لازم على كل
التقديرات واذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت انّ جميع ما فى العالم العلوى والسفلى
من المخلوقات دليل على وحدانية الله تعالى والدلائل السمعية على الوحدانية كثيرة فى القرآن
ولما افاد هذا الدليل انه لا يجوز ان يكون المدبر للسموات والارض الا واحدا وانّ ذلك الواحد
لا يكون الا الله تعالى قال فَسُبْحَانَ اللّٰهِ اى فتسبب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال رَبِّ
اى خالق الْعَرْشِ اى الكرسى المحيط بجميع الاجسام الذى هو محل التدابير ومنشأ التقادير
عَمَّا يَصِفُونَ اى الكفار الله به من الشريك له وغيره ثم بين تعالى ذلك بقوله عز وجل لا يُسْئَلُ
اى من سائل ما عَمَّا يَفْعَلُ لعظمته وقوة سلطانه واذا كانت عادة الملوك والجبابرة ان
لا يسالهم من فى مملكتهم عن افعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبا واجلالا مع
جواز الخطا والزلل وانواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الارباب خالقهم ورازقهم اولى بان لا يسئل
عن افعاله مع ما علم واستقرّ فى العقول من انّ ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ولا يجوز عليه
تعالى الخطا وَهُمْ يُسْئَلُونَ لانهم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما اخلقهم بان يقال لهم لم فعلتم فى كل
شئ فعلوه ولما قام الدليل ووضح السبيل واضمحل كل قال وقيل وامحقت الاباطيل
كرر تعالى اَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً كرره استفظاعا لشانهم واستعظاما لكفرهم واظهارا لجهلهم
ولما كان جوابهم اتخذناها ولا نرجع امر الله تعالى نبيه بجوابهم فقال قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ على
ما ادّعيتموه من عقل او نقل كما اتيت انا ببرهان النقل المؤيد بالعقل ولما كان تعالى لا يؤاخذ
بمخالفة العقل ما لم ينضم اليه دليل النقل اتبعه قوله مشيرا الى ما بعث الله تعالى به الرسل من
الكتب هٰذَا ذِكْرُ اى موعظة وشرف مَنْ مَعِيَ ممن آمن بى وهو القرآن الذى عجزتم عن
معارضته وَذِكْرُ اى وهذا ذكر مَنْ قَبْلِي من الامم الماضية وهو التورية والانجيل
وغيرهما من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها الا الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك
ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلا عن حجة ذمهم الله تعالى على جهلهم بمواضع الحق

فقال تعالى بل اكثرهم اى هؤلاء المدعون لا يعلمون الحق فلا يميزون بينه وبين الباطل بل اكثرهم جهلة والجهل اصل الشر والفساد فهم اى فتسبب عن جهلهم ما افتتحنا به السورة من انهم معرضون عن التوحيد واتباع الرسل ، ولما كان الارسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم كما ان الرسالة لا يقوم بها كل واحد فكذلك الارسال لا يصلح له كل زمن اثبت الجار فى قوله تعالى وما ارسلنا من قبلك واغرق فى النفى فقال من رسول فى شىء الاولين الا نوحى اليه من عندنا انه لا اله الا انا فاعبدون وهذا مقرر لما سبقه من اى التوحيد وقال تعالى الا انا ولم يقل نحن لئلا يجعلوا ذلك وسيلة الى ما ادعوه من تعدد الالهة ولذلك قال فاعبدون بالافراد وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء ، ولما بين سبحانه وتعالى بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند اردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد بقوله وقالوا اتخذ اى تكلف كما يتكلف من لا يكون له ولد الرحمن اى الذى كل موجود من فيض نعمه ولدا نزل فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وقيل نزل ذلك فى اليهود حيث قالوا انه تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملائكة كما حكى الله تعالى عنهم قولهم وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى سبحانه اى تنزه عن ان يكون له ولد فان ذلك يقتضى المجانسة بينه وبين الولد ولا تصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيقى بل اى الذين جعلوهم له ولدا وهم الملائكة عباد من عباده انعم عليهم بالايجاد كما انعم على غيرهم لا اولاد فان العبودية تنافى الولدية مكرمون بالعصمة من الزلل ولذلك فسر الاكرام بقوله تعالى لا يسبقونه اى لا يسبقون اذنه بالقول اى لا يقولون شيئا حتى يقوله كما هو شأن العبيد المؤدبين وهم بامره اذا امرهم يعملون لا بغيره لانهم فى غاية المراقبة له تعالى فجمعوا فى الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة ثم علل اخباره بذلك بعلمه بما هذا المخبر به مندرج فيه بقوله تعالى يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم اى ما عملوا وما هم عاملون لا تخفى عليه تعالى خافية مما قدموا واخروا ثم صرح تعالى بلازم الجملة الاولى فقال ولا يشفعون اى لا فى الدنيا ولا فى الاخرة الا لمن ارتضى فلا تطمعوا فى شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى قال ابن عباس والضحاك الا لمن ارتضى اى لمن قال لا اله الا الله فسقط بذلك قول المعتزلة ان الشفاعة فى الاخرة لا تكون لاهل الكبائر ثم صرح بلازم الجملة الثانية فقال وهم من خشيته اى لا من غيرها مشفقون اى خائفون واصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق خوف مع اعتناء فان عدى بمن فمعنى الخوف فيه اظهر وان عدى بعلى فبالعكس ولما نفى تعالى الشريك مطلقا ثم مقيدا بالولدية اتبعه التهديد على ادعائه بتعذيب المبرء لموجب لتعذيب الاثم بقوله تعالى ومن يقل منهم اى من الخلائق حتى العباد المكرمين الذين وصف كراماتهم وقرب منزلتهم عنده واثنى عليهم انى اله من دونه اى الله اى غيره والذى قال ذلك كما قال الجلال المحلى هو ابليس دعا الى عبادة نفسه وامر بطاعتها فذلك اى اللعين

الذي لا يصلح للتقريب اصده نجزيه جهنم لظلمه كذلك اي مثل هذا الجزاء الفظيع جدا نجزي
الظالمين اي المشركين ثم انه سبحانه وتعالى شرع الآن في الدلائل الدالة على وجود الصانع وذكر منها ع
ستة انواع النوع الاول قوله تعالى اولم يرى اي يعلم الذين كفروا علما هو كالمشاهدة ان السموات
والارض كانتا ولم يقل كن لان المراد جماعة السموات وجماعة الارض رتقا قال ابن عباس
والضحاك كانتا شيئا واحدا ملتزقتين زبدة واحدة ففتقناهما اي فصلنا بينهما بالهواء والرتق
في اللغة السد والفتق الشق قال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق
ريحا توسطتهما ففتحهما بها وقال مجاهد والسدي كانت السموات رتقا طبقة ففتقها فجعلها
سبع سموات وكذلك الارض كانت رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع ارضين وقال عكرمة وعطية
كانت السموات رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون
المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق او السموات باسرها على ان لها مدخلا
في الامطار وانما قال تعالى رتقا على التوحيد وهو نعت للسموات والارض لانه مصدر والكفرة
وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم بالنظر او باستفسار من العلماء او مطالعة الكتب وقرأ
ابن كثير الم بغير واو بين الهمزة ولم والباقون بالواو بين الهمزة واللام النوع الثاني من الدلائل قوله
تعالى وجعلنا اي خلقنا بما لنا من العظمة من الماء الماء هو الدافق وغيره كل شيء حي مجازا في النبات
وحقيقة في الحيوان فان قيل قد خلق الله تعالى بعض ما هو حي من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة اجيب
بان هذا خرج مخرج الاغلب والاكثر اي ان اكثر ما خلق الله خلق من الماء وبقاؤه بالماء وقيل
المراد بالماء ما نزل من السماء او نبع من الارض افلا يؤمنون مع ظهور هذه الآيات الواضحات
بتوحيدي النوع الثالث من الدلائل قوله تعالى وجعلنا في الارض رواسي اي جبالا ثوابت
كراهة ان تميد اي تتحرك بهم قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة
في الماء فارساها الله واثبتها بالجبال النوع الرابع من الدلائل قوله تعالى وجعلنا فيها اي في الرواسي
فجاجا اي مسالك واسعة سهلة ثم ابدل منها سبلا اي مذللة للسلوك ولولا ذلك لتعسر او تعذر
الوصول الى بعض البلاد لعلهم يهتدون الى منافعهم من ديارهم وغيرها والى ما فيها من دلائل
الوحدانية النوع الخامس من الدلائل قوله تعالى وجعلنا السماء وافردها مع ارادة الجنس لان اكثر
الناس لا يشاهدون منها الا السماء الدنيا ولان الحفظ للشيء الواحد اتقن سقفا اي للارض
كالسقف للبيت محفوظا اي عن السقوط بالقدرة وعن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم
بالمشيئة وعن الشياطين بالشهب وهم اي اكثر الناس عن آياتها اي من الكواكب الكبار
والصغار والرياح والامطار وغير ذلك من الدلائل التي تفوت الانحصار الدالة على قدرتنا على كل
ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالالهية وغير ذلك من اوصاف الكمال من الجلال
والجمال معرضون لا يتفكرون فيما فيها من التسيير والتدبير وغير ذلك فيعلمون ان خالقها

لاشريك له النوع السادس من الدلائل قوله تعالى وَهُوَ اى لاغيره الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ
ثم اتبعهما اعظم ايتيهما بقوله تعالى وَالشَّمْسَ التى هى اعظم اية النهار وَالْقَمَرَ الذى هو اعظم
اية الليل كُلٌّ اى من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم فِى فَلَكٍ اى مستدير كالطاحونة
فى السماء يَسْبَحُونَ اى يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وللتشبيه به اتى بضمير جمع
من يعقل والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا اى كل واحد منهم او كساهم
وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا ولان الغرض الدلالة على الجنس
ونزل لما قال الكفار ان محمدا سيموت وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ اى البقاء فى الدنيا أَفَإِنْ
اى ايتمنون موتك فان مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ فيها لا والله ليسوا بخالدين فالجملة الاخيرة هى محل
الاستفهام الانكارى وفى معنى ذلك قول فروة بن مسيك الصحابى رضه وقل للشامتين
بنا افيقوا ✱ سيلقى الشامتون كما لقينا ✱ وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بكسر الميم والباقون بضمها
ثم بين تعالى ان احدا لايبقى فى هذه الدنيا بقوله تعالى كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ اى ذائقة مرارة الموت اى
مرارة مفارقة روحها جسدها فلا يفرح احد ولا يحزن لموت احد بل يشتغل بما يهمه واليه الاشارة
بقوله وَنَبْلُوكُم اى نعاملكم معاملة المبتلى المختبر ليظهر فى عالم الشهادة الشاكر والصابر والمؤمن
والكافر كما هو عندنا فى عالم الغيب بان نخالطكم بِالشَّرِّ وهو المضار الدنيوية من الفقر والالم وسائر
الشدائد النازلة بالمكلفين وَالْخَيْرِ وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكن من المرادات
وقوله تعالى فِتْنَةً مفعول له اى لننظر اتصبرون وتشكرون ام لا كما يفتن الذهب اذا اريد تصفيته
بالنار عما خالطه من الغش فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى
يشكر على النعم ويصبر على المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم وَإِلَيْنَا بعد الموت لا الى غيرنا تُرْجَعُونَ فنجازيكم
بما فعلتم ثم عطف تعالى على قوله واسروا النجوى قوله تعالى وَإِذَا رَآكَ اى وانت اشرف الخلق
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ اى ما يَتَّخِذُونَكَ اى حال الرؤية إِلَّا هُزُوًا اى مهزوا به يقولون انكارا واستصغارا
أَهَٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ اى بسوء والذكر يكون بالخير والشر فاذا دلت القرينة على احدهما
اطلق عليه وذكر العدو لايكون الا بسوء وَهُم اى والحال انهم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ اى اذا ذكر
لهم الرحمن هُمْ كَافِرُونَ وذلك انهم كانوا يقولون لانعرف الرحمن الا مسيلمة وهم الثانية
للتاكيد ✱ ونزل فى استعجالهم العذاب خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ كانه خلق منه لفرط استعجاله
وقلة ثباته والعرب تقول للذى يكثر منه الشئ خلقت منه كقولك خلق زيد من الكرم فجعل
ما طبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة فى لزومه له ولذلك قيل انه على القلب اى خلق العجل
من الانسان ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجال الوعيد وقال سعيد بن جبير والسدى
لما دخل الروح فى راس ادم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح فى جوفه اشتهى
الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح الى رجليه عجلان الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان

من عجل والمراد بالانسان آدم واورث اولاده العجلة وقال قوم معناه خلق الانسان يعني آدم عليه السلام من تعجيل في خلق الله تعالى اياه لان خلقه كان بعد خلق كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة فاسرع في خلقه قبل مغيب الشمس قال مجاهد فلما احيا الروح راسه قال يارب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وقيل بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها وقال قوم من عجل اي من طين قال الشاعر

والنبع في الصخرة الصماء منبته * والنخل ينبت بين الماء والعجل

ثم قال تعالى مهددا للمكذبين سأريكم آياتي اي مواعيدي بالعذاب فلا تستعجلون اي تطلبون ان اوجد العجلة بالعذاب او غيره فاني منزه عن العجلة التي هي من جملة نقائصكم لانها ارادة الشيء قبل اوانه فان قيل لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خلق الانسان من عجل وقوله تعالى وكان الانسان عجولا أليس هذا من تكليف ما لا يطاق اجيب بان هذا كما ركب فيه الشهوة وامره ان يغلبها لانه اعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقد اراهم بعض آياته وهو القتل ببدر ويقولون في استهزائهم متى هذا الوعد اي باتيان الآيات من الساعة ومقدماتها وغيرها ان كنتم فيما توعدون به صادقين اي عريقين في هذا الوصف يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء ثم بين تعالى انهم يقولون ذلك لجهلهم بقوله تعالى لو يعلم الذين كفروا وذكر المفعول به بقوله تعالى حين اي وقت لا يكفون اي لا يدفعون عن وجوههم التي هي اشرف اعضائهم النار استسلاما وعجزا ولا عن ظهورهم التي هي اشد اجسامهم السياط ولا هم ينصرون اي لا يمنعون من العذاب في القيامة وجواب لو محذوف والمعنى لو علموا لما اقاموا على كفرهم ولما استعجلوا العذاب ولا قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين بل تأتيهم اي القيامة بغتة اي فجأة فتبهتهم اي تحيرهم يقال فلان مبهوت اي متحير فلا يستطيعون ردها اي لا يطيقون دفع ذلك لبهتهم في ذلك الوقت ليأسهم منه ولا هم ينظرون اي يمهلون لتوبة او معذرة ولما كان التقدير حاق بهم هذا باستهزائهم بك اتبعه ما يدل على ان الرسل في ذلك شرع واحد تسلية له صلى الله عليه وسلم فقال عاطفا على ما دارك ولقد استهزئ برسل من قبلك اي كثيرين فلك بهم اسوة وقرأ ابو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر الدال والباقون بالضم واذا وقف حمزة ابدل الهمزة ياء ساكنة فحاق اي نزل بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك ولما اعلم الله تعالى ان الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بسائر ما وصفهم به اتبعه بانهم في الدنيا ايضا لولا ان الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل يا اشرف المرسلين للمستهزئين من يكلؤكم اي يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن اي من عذابه ان نزل بكم اي لا احد يفعل ذلك بل هم عن ذكر ربهم اي القرآن معرضون لا يتفكرون فيه ولا يخطر ببالهم ذكره فضلا ان يخافوا بأسه ام فيها معنى الهمزة الانكارية

ع ٣

اى أم لهم آلهة موصوفة بانها تمنعهم مما يسوءهم من دوننا ليس لهم ذلك ثم وصف آلهتهم
بالضعف فقال تعالى لا يستطيعون اى الآلهة نصر انفسهم فكيف ينصرون عابديهم ولا هم
اى الكفار منا اى من عذابنا يصحبون اى يجارون يقال صحبك الله اى حفظك واجارك بل متعنا
هؤلاء اى الكفار على حقارتهم وآباءهم من قبلهم بالنعم استدراجا حتى طال عليهم العمر اى امتد
بهم ايام الدنيا بالروح والطمانينة فحسبوا ان لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب امنهم
واستمتاعهم فاغتروا بذلك وذلك طمع فارغ وامل كاذب وغلط درس اللازم بحذف عنه أفلا يرون
اى يعلمون علما هو فى وضوحه مثل الرؤية بالبصر انا نأتى الارض اى ارض الكفرة ننقصها من اطرافها
بتسليط المسلمين عليها واظهارهم على اهلها بقتل بعض ورد بعض عن دينه الى الاسلام فهم
فى نقص واولياؤنا فى زيادة أفهم الغالبون اى من مشاهدتهم لذلك ام اولياؤنا ولما اكثر سبحانه
وتعالى فى القرآن الادلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم اتبعه بقوله تعالى قل يا اشرف
الخلق لهؤلاء المشركين انما انذركم اى اخوفكم بالوحى اى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا انه
من قبل نفسى ولا يسمع الصم الدعاء اى ممن يدعوهم اذا ما ينذرون اى يخوفون فهم لتركهم
العمل بما سمعوه كالصم فان قيل الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف
قيل اذا ما ينذرون اجيب بانه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم اسماعهم
اذا انذروا اى هم على هذه الصفة من الجرأة والجسارة وعلى التصام عن آيات الانذار وقرأ
ابن عامر ولا تسمع بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم على الخطاب النبوى والباقون
بالياء التحتية وفتح الميم ورفع ميم الصم وفى الدعاء واذا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مفتوحة
والثانية مكسورة قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والياء والباقون
بتحقيق الهمزتين وهذا فى حال الوصل فان وقف على الهمزة الاولى فالجميع يبتدءون الثانية بالتحقيق
ويقف حمزة وهشام بابدال الهمزة الفا مع المد والتوسط والقصر ولئن مستهم اى اصابتهم نفحة
اى دفعة خفيفة وفى ذلك مبالغات ذكر المس وما فى النفحة من معنى القلة فان اصل النفح هبوب
رائحة الشئ والتاء الدالة على المرة من عذاب ربك المحسن اليك بصبرك عليهم من الذى ينذرونه
ليقولن وقد اذهلهم امرها يا ويلنا الذى لا نرى بحضرتنا الآن غيره انا كنا ظالمين دعوا على انفسهم
بالويل بعد ما اقروا بالظلم ثم ذكر تعالى بعض ما يفعل فى حساب الساعة من العدل فقال عاطفا على
قوله تعالى بل تأتيهم بغتة ونضع الموازين القسط اى ذوات العدل ليوم القيمة اى فيه وانما جمع
الموازين لكثرة من توزن اعمالهم ويجوز ان يرجع الى الموزونات وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد
الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال بالعدل والصحيح الذى عليه ائمة السلف ان الله
تعالى يضع ميزانا حقيقة توزن به اعمال العباد وعن الحسن هو الميزان له كفتان ولسان ويروى
ان داود عليه السلام سال ربه ان يريه الميزان فاراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فغشى عليه

ثم افاق فقال الهي من الذي يقدر ان يملأ كفته حسنات قال يا داود انى اذا رضيت عن عبدى
ملأتها بتمرة فان قيل كيف توزن الاعمال مع انها اعراض اجيب بان فيه طريقين احدهما ان توزن
صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات فى كفة وصحائف السيئات فى كفة والثانى ان توضع
فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل هذه الاية
يناقضها قوله تعالى فى الكفار فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا اجيب بان المراد منه انا لا نكرمهم
ولا نعظمهم فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا اى من نقص حسنة او زيادة سيئة وَإِنْ كَانَ اى العمل
مِثْقَالَ اى وزن حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ او اصغر منه وانما مثل به لانه غاية عندنا فى القلة وقرأ نافع برفع
اللام على ان كان تامة والباقون بالنصب وكذا فى لقمان أَتَيْنَا بِهَا اى بوزنها ولما كان حساب
الخلائق كلهم فى كل ما صدر منهم امرا باهرا للعقل حقيرا عند عظمته فقال وَكَفَى بِنَا اى بما لنا من
العظمة حَاسِبِينَ اى محصين فى كل شئ فلا يكون فى الحساب احد مثلنا ففيه توعد من جهة
ان معناه انه لا يروج عليه شئ من خداع ولا يقبل غلطا ولا يضل ولا ينسى الى غير ذلك من كل ما يلزم
منه نوع لبس وشوب ما نقص ووعد من جهة انه مطلع على حسن قصد وان دق وخفى ولما تكلم
سبحانه وتعالى فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية لرسوله
صلى الله عليه وسلم فيما ناله من قومه وتقوية لقلبه على اداء الرسالة والصبر على كل عارض وذكر منها
عشرا القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ
اى اخاه الذى سال ربه ان يشد ازره به الْفُرْقَانَ اى التورية الفارقة بين الحق والباطل وبين
الحلال والحرام وَضِيَاءً مبتدأ لاظلام معه اى يستضاء بها فى ظلمات الحيرة والجهل وقرأ قنبل
بعد الضاد بهمزة مفتوحة ممدودة والباقون بياء بعدها الف وَذِكْرًا اى عظة لِلْمُتَّقِينَ او ذكر
ما يحتاجون اليه من الشرائع وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر ويراد بالضياء على هذين التورية
ثم بين المتقين بوصفهم بقوله تعالى الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اى يخافون خوفا عظيما رَبَّهُمْ اى المحسن اليهم
بعد الايجاد بالتربية وانواع الاحسان بِالْغَيْبِ عن الناس فى الخلاء عنهم او بالغيب قبل ان يكشف
لهم الحجاب فى الجنة وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ التى توضع فيها الموازين وقد اعرض عنها الجاهلون مع كونها
اعظم حامل على كل خير ومباعد عن كل ضير مُشْفِقُونَ اى خائفون لانهم لقيامها متحققون
ولنصب الموازين فيها عالمون ولما ذكر تعالى فرقان موسى عليه السلام وكان العرب يشاهدون
تمسك اليهود به حثهم على كتابهم الذى هو اشرف منه بقوله تعالى وَهَذَا اى القرآن واشار اليه
باداة القرب ايماء الى سهولة تناوله عليهم ذِكْرٌ اى موعظة مُبَارَكٌ اى كثير خيره أَنْزَلْنَاهُ على اشرف
الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ اى جاحدون استفهام توبيخ القصة ربع
الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ
رُشْدَهُ اى صلاحه وهداه مِنْ قَبْلُ اى من قبل موسى وهارون ومحمد صلى الله عليه وسلم وقيل

من قبل استنبائه او بلوغه حيث قال انى وجهت وجهى وَكُنَّا بِهِ ظاهرا وباطنا عَالِمِينَ بانه اهل لما آتيناه
لانه جبلة خير جامع لمحاسن الاوصاف ومكارم الاخلاق والفضائل يدوم على الرشد ويترقى فيه الى اعلى درجاته
لما طبعناه عليه وفى ذلك اشارة الى انه فعله تعالى باختيار وحكمة وانه عالم بالجزئيات وتعليق
إِذْ قَالَ اى ابراهيم لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ بعالمين اشارة الى ان قوله لما كان باذن منا ورضا لنا نصرناه وهو وحده
على قومه كلهم ولو لم يكن يرضينا لمنعناه منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ثم ذكر مقول
القول فى قوله منكرا عليهم محقرا لاصنامهم مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ اى الصور التى صنعتموها مماثلين بها
ما فيه روح الله جاعلين لها ما لا يكون الا لمن لا مثل له وهى الاصنام الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا اى لاجلها وحدها مع
كثرة ما يشابهها وما هو افضل منها عَاكِفُونَ اى مقيمون على عبادتها فان قيل هلا قال عليها عاكفون
كقوله تعالى يعكفون على اصنام لهم اجيب بان اللام للاختصاص لا للتعدية ولو قصد التعدية
لعداه بصلته التى هى على ثم انه تعالى ذكر جوابهم له بما لزم الاستفهام عن السؤال بانهم قَالُوا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ فاقتدينا بهم لا حجة لنا غير ذلك فانظر ما اقبح التقليد وما اعظم كيد الشيطان
للمقلدين حتى استدرجهم الى ان قلدوا آباءهم فى عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم وهم
معتقدون انهم على شئ وجادون فى نصرة مذهبهم ومجادلون اهل الحق عن باطلهم وكفى اهل
التقليد مسبة ان عبدة الاصنام منهم والتقليد ان جاز فانما يجوز لمن علم فى الجملة انه على حق
ولذا قَالَ ابراهيم عليه السلام لَقَدْ كُنْتُمْ واكده بقوله أَنْتُمْ لاجل صحة العطف لان الضمير الموضوع
المتصل حكمه حكم جزء الفعل والعطف على ضميره هو فى حكم بعض الفعل ممتنع ونحوه اسكن انت
وزوجك الجنة وَآبَاؤُكُمْ اى من قبلكم فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فبين ان المقلدين والمقلدين جميعا
منخرطون فى سلك ضلال لا يخفى على من به ادنى مسكة لاستناد الفريقين الى غير دليل بل الى هوى متبع
وشيطان مطاع لاستبعادهم ان يكون ما هم عليه ضلالا بقوا متعجبين من تضليله اياهم فلذا قالوا
ظنا منهم انه لم يقل لهم ذلك على ظاهره أَجِئْتَنَا فى هذا الكلام بِالْحَقِّ الذى يطابقه الواقع أَمْ أَنْتَ
مِنَ اللَّاعِبِينَ اى تقوله على وجه المزاح والملاعبة لا على وجه الجد قَالَ عليه السلام بانيا على ما تقديره
ليس كلامى لعبا بل هو جد وهذه التماثيل ليست اربابا بَلْ رَبُّكُمْ اى الذى يستحق منكم اختصاصه
بالعبادة رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اى مدبرهن القائم بمصالحهن الَّذِي فَطَرَهُنَّ اى خلقهن على
غير مثال سبق وانتم وتماثيلكم بما فيهما من مصنوعاته انتم تشهدون بذلك اذا رجعتم الى عقولكم
مجردة عن الهوى وقيل الضمير فى فطرهن للتماثيل قال الزمخشرى وكونه للتماثيل ادخل فى تضليلهم
واثبت للاحتجاج عليهم وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ اى الامر البين من انه ربكم وحده فلا تجوز عبادة غيره مِنَ
الشَّاهِدِينَ اى الذين يقدرون على اقامة الدليل على ما يشهدون به لم يشهدوا الا على ما هو
عندهم مثل الشمس لا كما فعلتم انتم حين اضطركم السؤال الى الضلال ولما اقام البرهان على
اثبات الاله الحق اتبعه البرهان على ابطال الباطل بقوله وَتَاللَّهِ وهو قسم والاصل فى القسم

الباء الموحدة والواو بدل منها والتاء بدل من الواو وفيها مع كونها بدلا زيادة على التأكيد التعجب ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ اى لاجتهدن فى كسرها والتأكيد وما فى التاء من التعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه لان ذلك كان امرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره ولعمرى ان مثله صعب متعذر فى كل زمان خصوصا فى زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه ولكن اذا الله سنى عقد شئ تيسر ولما كان عزمه على ايقاع الكيد فى جميع الزمان الذى يقع فيه توليهم فى اى جزء تيسر له منه اسقط الجار فقال ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ اى بعد ان تذهبوا منطلقين الى عيدكم قال مجاهد وقتادة انما قال ابراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد فافشاه عليه وقال انا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وقال السدى كان لهم فى كل سنة مجمع عيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال ابو ابراهيم له يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا اعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق القى نفسه وقال انى سقيم اشتكى برجلى فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لاكيدن اصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الالهة وهى فى بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه اصغر منه والاصنام بعضها الى جنب بعض كل صنم يليه اصغر منه الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الالهة وقالوا اذا رجعنا وقد بركت الالهة عليه اكلنا منه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين ايديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء الا تأكلون فلما لم يجيبوه قال لهم ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفاس فى يده حتى لم يبق الا الصنم الاكبر علق الفاس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ اى فتاتا وقرأ الكسائى بكسر الجيم والباقون بضمها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ فانه لم يكسره ووضع الفاس فى عنقه وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد ورصاص وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ اى هؤلاء الضلال ﴿إِلَيْهِ﴾ اى ابراهيم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عند الزامه بالسؤال فتقوم عليهم الحجة فلما عادوا الى اصنامهم فوجدوها على تلك الحال ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا﴾ الفعل الفاحش ﴿بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ حيث وضع الاهانة فى غير موضعها فان الالهة حقها الاكرام لا الاهانة والانتقام ﴿قَالُوا﴾ اى الذين سمعوا قول ابراهيم وتالله لاكيدن اصنامكم ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ اى شابا من الشباب ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ اى يعيبهم ويسبهم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ اى هو الذى نظن انه صنع هذا فلما بلغ ذلك نمروذ الجبار واشراف قومه ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ﴾ الى بيت الاصنام ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ اى جهرة والناس ينظرون اليه نظرا لا خفاء معه حتى كانه ماش على ابصارهم متمكن منها تمكن الراكب على المركوب ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بانه الذى فعل بالالهة هذا الفعل كرهوا ان ياخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما اتوا به ﴿قَالُوا أَأَنْتَ﴾

ربع

عليه وَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا الفعل الفاحش بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ٭ تنبيه ٭ هنا همزتان مفتوحتان
من كلمة فالقراء الجميع على تحقيق الاولى واما الثانية فسهلها نافع وابن كثير وابو عمرو وهشام
بخلاف عنه وادخل بينهما الفا قالون وابو عمرو والباقون بتحقيقهما وعدم الادخال بينهما ثم
قَالَ ابراهيم متهكما بهم وملزما بالحجة بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ غيرة ان يعبد معه من هو دونه وتقييده
بقوله هٰذَا اشارة الى الذى تركه من غير كسر ٭ ولما اخبرهم ولم يكن احد رآه حتى يشهد على فعله ١٠
وكانوا قد احلوهم بعبادتهم ووضع الطعام لهم محل من يعقل تسبب عنه امرهم بسؤالهم فقال
فَاسْأَلُوهُمْ اى عن الفاعل ليخبروكم به ٭ وقوله إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ اى على زعمكم انهم آلهة يفردون
ويشفعون فيه تقديم جواب الشرط اى فان قدروا على النطق امكنت عنهم القدرة والافلا فاراهم
عجزهم عن النطق وفى ضمنه انه فعل ذلك روى عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله بل فعله
كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه اختى وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته اى انه لم يتكلم
بكلمات صورتها صورة الكذب وان كان حقا فى الباطن الا هذه الكلمات وقيل فى قوله انى
سقيم اى سأسقم وقيل سقيم القلب اى مغتم بضلالتكم وقوله لسارة هذه اختى اى فى الدين
وقوله بل فعله كبيرهم هذا روى عن الكسائى انه كان يقف عند قوله بل فعله ويقول معناه بل
فعله من فعله وقوله كبيرهم هذا مبتدأ وخبر قال البغوى وهذه التاويلات لنفى الكذب والاولى هو الاول
للحديث فيه ويجوز ان يكون الله تعالى قد اذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج
عليهم كما اذن ليوسف عليه السلام حتى نادى مناديه فقال ايتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا
سرقوا وقال الرازى الحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب اى تسمية المعاريض
كذبا لما اشبهت صورتها صورته وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين وترك الهمزة وكذا يفعل حمزة فى الوقف
والباقون بسكون السين وبعدها همزة مفتوحة وقيل الوقف على بل فعله ثم يبتدئ بقوله كبيرهم
هذا ٭ ولما اضطرهم الدليل ان يحققوا انهم على محض الباطل فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بالتفكر فَقَالُوا
اى بعضهم لبعض إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ لكونكم وضعتم العبادة فى غير موضعها لا ابراهيم
فانه اصاب بما نبها ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ اى انقلبوا غير مستحيين مما يلزمهم من الاقرار بالسفه
الى المجادلة له بعدما استقاموا بالمراجعة من قولهم نكس المريض اذا عاد الى حاله الاول شبه
عودهم الى الباطل بصيرورة اسفل الشئ مستعليا على اعلاه ثم انهم قالوا فى مجادلتهم عن شركائهم والله
لَقَدْ عَلِمْتَ يا ابراهيم مَا هٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ فلا حجة لك علينا فى ذلك اى فكيف تأمرنا بسؤالهم ٭ ولما تسبب
عن قولهم هذا اقرارهم بانهم لا فائدة فيهم انتجه لابراهيم عليه السلام الحجة عليهم قَالَ منكرا عليهم
موبخا لهم أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ اى بدله مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا من رزق وغيره لتوجهوا
وَلَا يَضُرُّكُمْ شيئا اذا لم تعبدوه لتخافوه أُفٍّ اى تبا وقبحا لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

اى غيره وقرأ نافع وحفص بتنوين الفاء مكسورة وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين
والباقون بكسر الفاء من غير تنوين * ولما تسبب عن فعلهم هذا وضوح انه لا يقربه عاقل انكر
عليهم و وبخهم بقوله أفلا تعقلون قبح صنيعكم وانتم شيوخ قد مرت بكم الدهور وحنكتكم التجارب
ولما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل قالوا عادلين الى العناد واستعمال
القوة الحسية حرقوه بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلا اعظم مما فعل بالهتكم وانصروا الهتكم التى
جعلها جذاذا ان كنتم فاعلين نصرتها قال ابن عمران الذى قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه
هيزون فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمروذ بن كوش
بن حام بن نوح عليه السلام وروى ان نمروذ وقومه حين هموا باحراقه حبسوه فى بيت ثم بنوا
عليه بيتا كالحظيرة بكوثى يقال لها كوثى ثم جمعوا له اصلاب الحطب من اصناف الخشب مدة
شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لاجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تغزل
وتشترى بغزلها الحطب احتسابا فى دينها وكان الرجل يوصى بشراء الحطب والقائه فيه
فلما جمعوا ما ارادوا واشعلوا فى كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى كان
الطير يمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها واوقدوا عليه سبعة ايام فلما ارادوا ان يلقوا
ابراهيم لم يعلموا كيف يلقوه فجاءهم ابليس عليه اللعنة فعلمهم عمل المنجنيق فعملوا ثم عمدوا الى ابراهيم
فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض
ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك يلقى فى النار وليس فى ارضك
من يعبدك غيره فاذن لنا فى نصرته فقال عز وجل انه خليلى وليس لى خليل غيره وانا الهه ليس له اله غيرى
فان استغاث باحد منكم او دعاه فلينصره فقد اذنت له فى ذلك وان لم يدع احدا غيرى فانا اعلم به وانا وليه
فخلوا بينى وبينه فلما ارادوا القاءه فى النار اتاه خازن المياه فقال ان اردت اخمدت النار واتاه خازن
الرياح فقال ان شئت طيرت النار فى الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لى اليكم حسبى الله ونعم
الوكيل وروى عن كعب الاحبار ان ابراهيم قال حين اوثقوه ليلقوه فى النار لا اله الا انت سبحانك
رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به فى المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال
يا ابراهيم الك حاجة قال اما اليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم عليه السلام حسبى من سؤالى
علمه بحالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم
عليه السلام حين القى فى النار وقالها اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم
فاخشوهم قال كعب الاحبار جعل كل شئ يطفى النار عنه الا الوزغ فانه كان ينفخ فى النار وعن ام شريك
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امر بقتل الاوزاغ وقال كان ينفخ على ابراهيم * ولما اراد الله تعالى الذى
له القوة جميعا سلامته منها قال تعالى قلنا يا نار كونى بارادتنا التى لا يتخلف عنها مراد بردا قال
ابن عباس لو لم يقل وسلاما لمات ابراهيم من بردها وفى الآثار انه لم يبق يومئذ نار فى الارض

الا طفئت فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ولو لم يقل تعالى على ابراهيم لبقيت ذات برد ابدا والمعنى كوني ذات برد وسلام على ابراهيم فبولغ في ذلك حتى كان ذاتها برد وسلام والمراد ابردي فيسلم منك ابراهيم او ابردي بردا غير ضار قال السدي فاخذت الملائكة بضبعي ابراهيم فاقعدوه على الارض فاذا بعين ماء عذب وورد احمر ونرجس قال كعب ما احرقت النار من ابراهيم الا وثاقه قالوا وكان ابراهيم في ذلك الموضع سبعة ايام قال المنهال بن عمرو قال ابراهيم ما كنت اياما قط انعم مني في الايام التي كنت في النار وقال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة ابراهيم فقعد فيها الى جنب ابراهيم يؤنسه قال وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فالبسه القميص واجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول اما علمت ان النار لا تضر احبابي ثم نظر نمروذ واشرف على النار من صرح له فرآه جالسا في روضة والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم يا ابراهيم الهك الذي بلغت قدرته ان حال بينك وبين ما ارى هل تستطيع ان تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان قمت فيها ان تضرك قال لا قال قم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشي فيها حتى خرج منها فلما خرج اليه قال له من الرجل الذي رايته معك في مثل صورتك قاعدا الى جنبك قال ذلك ملك الظل ارسله الي ربي ليؤنسني فيها فقال نمروذ اني مقرب الى الهك قربانا لما رايت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين ابيت الا عبادته وتوحيده اني ذابح له اربعة الاف بقرة قال اذا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه الى ديني فقال لا استطيع ترك ملكي ولكن اذبحها له فذبحها له نمروذ ثم كف عن ابراهيم ومنعه الله تعالى منه وكان ابراهيم اذ ذاك ابن ست عشرة سنة واختار والمعاقبة بالنار لانها اهول ما يعاقب به وافظعه ولذلك جاء في الحديث لا يعذب بالنار الا خالقها وقيل ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شيء قدير وقد دفع عن ابراهيم حرها كما يدفع ذلك عن خزنة جهنم ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ اي مكرا في اضراره بالنار وبعد خروجه منها ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ﴾ اي بما لنا من الجلال ﴿الْأَخْسَرِينَ﴾ اي اخسر من كل خاسر عاد سعيهم برهانا قاطعا على انهم على الباطل وابراهيم على الحق وموجبا لزيادة درجته واستحقاقهم اشد العذاب وقد ارسل الله تعالى على نمروذ وعلى قومه البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة فاهلكته فائدة وقع مثل هذه القصة لبعض اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو ابو مسلم الخولاني طلبه الاسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له اتشهد اني رسول الله قال ما اسمع قال اتشهد ان محمدا رسول الله قال نعم فامر بنار فالقي فيها ثم وجد قائما يصلي فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما وقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فاجلسه عمر بينه وبين ابي بكر رضي الله عنهم وقال عمر الحمد لله الذي لم يمتني حتى اراني من امة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بابراهيم خليل الله ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ من نمروذ وقومه من ارض العراق ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي الشام بارك الله

فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار ومنها بعث اكثر الانبياء قال ابي بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة لان ما من ماء عذب الا وينبع اصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس اي يهبط من السماء الى الصخرة ثم يتفرق في الارض قاله ابو العالية وعن قتادة ان عمر رضي الله تعالى عنه قال لكعب الاحبار الا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب اني وجدت في كتاب الله المنزل يا امير المؤمنين ان الشام كنز الله في ارضه وبها كنزه من عباده وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم قال محمد بن اسحق استجاب لابراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمروذ وملئهم وامن به لوط وكان ابن اخيه وهو لوط بن هاران بن تارح وهاران هو اخو ابراهيم وكان لهما اخ ثالث يقال له ناحور بن تارح وامنت به ايضا سارة وهي بنت عمه وهي سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم فخرج من كوثى وهي بضم الكاف ومثلثة قال ابن الاثير هي كوثى العراق وهي سرة السواد بها ولد ابراهيم الخليل عليه السلام وخرج مهاجرا الى ربه ومعه لوط وسارة كما قال تعالى فامن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي فخرج يلتمس الفرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج من مصر الى الشام فنزل السبع من ارض فلسطين وهي برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله تعالى نبيا الى اهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين اي كما انجيناك انت يا اشرف الخلق ويا افضل اولاده ومن يصدقك ابا بكر رضي الله تعالى عنه الى طيبة التي شرفناها بك وبثثنا من انوارها في ارجاء الارض واقطارها ما لم نبث مثله قط وباركنا فيها للعالمين بالخلفاء الراشدين وغيرهم من العلماء والصالحين الذين انبثت خيراتهم العملية والعلمية والمالية في جميع الاقطار، ولما ولد لابراهيم عليه السلام في حال شيخوخته وعجز امرأته مع كونها عقيما وكان ذلك دالا على الاقتدار على البعث الذي السياق كله له قال تعالى وَوَهَبْنَا لَهُ دالا على ذلك بنون العظمة إِسْحَاقَ اي من شبه العدم وترك شرح حاله لتقدمه اي فكان ذلك دليلا على اقتدارنا على ما نريد لا سيما من اعادة الخلق في يوم الحساب ثم انه قد يظن انه لتولده بين شيخ فان وعجوز عقيم كان على حالة من الضعف لا يولد لمثله معها نفى ذلك بقوله تعالى وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً اي ولدا لاسحق زيادة على ما دعا به ابراهيم عليهما السلام ثم نمى سبحانه وتعالى اولاد يعقوب وهو اسرائيل وذرياتهم الى ان ساموا النجوم عدة والجبال شدة وَكُلًّا من هؤلاء الاربعة وهم ابراهيم ولوط واسحق ويعقوب وعظم رتبتهم بقوله تعالى جَعَلْنَا صَالِحِينَ اي مهيئين لطاعتهم لله تعالى لكل ما يريدونه او يرادون له او يراد منهم، ثم لما ذكر انه تعالى اعطاهم رتبة الصلاح في انفسهم ذكر انه تعالى اعطاهم رتبة الاصلاح لغيرهم فقال تعالى معظما لامامتهم وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً اي اعلاما ومقاصد يقتدى بهم في الدين لما اتيناهم من العلم والنبوة وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بتسهيل

الهمزة الثانية المكسورة بين الهمزة والياء ويجوز ابدالها عندهم ياء خالصة ولا يدخلون بينهما
شيئا وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين وادخال الف بينهما بخلاف عنه في الادخال وعدمه والباقون
بتحقيق الهمزتين من غير ادخال بلا خلاف يَهْدُونَ اي يدعون الينا من وفقناه للهداية بِأَمْرِنَا
اي باذننا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ ايضا فِعْلَ اي ان يفعلوا الْخَيْرَاتِ ليحثوهم عليها فيتم كمالهم بانضمام العمل
الى العلم قال البقاعي ولعله تعالى عبر بالفعل دلالة على انهم امتثلوا كل ما يوحى اليهم وقال الزمخشري
اصله ان تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك اقام الصلوة وايتاء الزكوة
انتهى وقوله تعالى وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ من عطف الخاص على العام تعظيما لشانهما لان
الصلوة تقرب العبد الى الحق تعالى والزكوة احسان الى الخلق قال الزجاج الاضافة في الصلوة عوض
تاء التانيث يعني فيكون من الغالب لا من القليل وَكَانُوا لَنَا دائما جبلة وطبيعة عَابِدِينَ اي موحدين
مخلصين في العبادة ولذلك قدم الصلة + القصة الثالثة قصة لوط عليه السلام المذكورة
في قوله تعالى وَلُوطًا اي واتينا لوطا او واذكر لوطا ثم استانف قوله تعالى آتَيْنَاهُ حُكْمًا اي نبوة
وعملا محكما بالعلم وقيل فصلا بين الخصوم وَعِلْمًا مزينا بالعمل مما ينبغي علمه للانبياء وَنَجَّيْنَاهُ
مِنَ الْقَرْيَةِ اي قرية سدوم الَّتِي كَانَتْ قبل انجائنا له منها تَعْمَلُ اي اهلها الاعمال الْخَبَائِثَ
من اللواط والرمي بالبندق واللعب بالطيور والتضارط في انديتهم وغير ذلك وانما وصف
القرية بصفة اهلها واسندها اليها على حذف المضاف واقامته مقامه ويدل عليه إِنَّهُمْ
كَانُوا اي بما جبلوا عليه قَوْمَ سَوْءٍ اي ذوي قدرة على الشر بانهماكهم في الاعمال السيئة فَاسِقِينَ
اي خارجين من كل خير وَأَدْخَلْنَاهُ دونهم فِي رَحْمَتِنَا اي في الاحوال السنية والاقوال العلية
والافعال الزكية التي هي سبب للرحمة العظمى ومسببة عنها ثم علل ذلك بقوله تعالى إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ
اي الذين سبقت لهم منا الحسنى اي لما جبلناه عليه من الخير + القصة الرابعة قصة نوح عليه السلام
المذكورة في قوله تعالى وَنُوحًا اي واذكر نوحا إِذْ اي حين نَادَىٰ اي دعا الله تعالى على قومه بالهلاك
بقوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ونحوه من الدعاء مِنْ قَبْلُ اي من قبل لوط ومن تقدمه
فَاسْتَجَبْنَا اي اردنا الاجابة واوجدناها بعظمتنا لَهُ في ذلك النداء ثم تسبب عن ذلك قوله تعالى
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ اي الذين دام ثباتهم على الايمان وهم من كان معه في السفينة مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
اي من اذى قومه ومن الغرق والكرب الغم الشديد قاله السدي وقال ابو حيان الكرب اقصى الغم
والاخذ بالنفس وهو هنا الغرق عبر عنه باول احوال ما اخذ الغريق وَنَصَرْنَاهُ اي منعناه
مِنَ الْقَوْمِ اي المتصفين بالقوة الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا من ان يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ اي لا عمل لهم الا ما يسوء فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ لاجتماع الامرين تكذيب
الحق والانهماك في الشر لم يجتمعا في قوم الا واهلكهم الله تعالى + القصة الخامسة قصة داود
وسليمان عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ابنه اي اذكرهما واذكر

شأنهما إذ أي حين يحكمان في الحرث الذي انبت الزرع وهو من اطلاق اسم السبب على المسبب كالسماء على المطر والنبت قال ابن عباس واكثر المفسرين كان ذلك كرماً قد تدلت عناقيده وقال قتادة كان زرعاً قال ابن الخازن وهو اشبه للعرف إذ نفشت اي انتشرت ليلاً بغير راع فيه غنم القوم فرعته قال قتادة النفش في الليل والعمل في النهار وكنا لحكمهم اي الحاكمين والمتحاكمين اليهما شاهدين اي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه وقال الفراء جمع الاثنين فقال لحكمهم ويريد داود وسليمان لان الاثنين جمع وهو مثل قوله تعالى فان كان له اخوة فلامه السدس وهو يريد اخوين قال ابن عباس وقتادة وذلك ان رجلين دخلا على داود عليه السلام احدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي فافسدته فلم تبق منه شيئاً فاعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فقال كيف قضى بينكما فاخبراه فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة لو وليت امرهما لقضيت بغير هذا وروى انه قال غير هذا ارفق بالفريقين فاخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضي ويروى انه قال بحق النبوة والابوة الا ما اخبرتني بالذي هو ارفق بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فينتفع بدرها ونسلها وصوفها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته دفع الى اهله واخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت كما قال تعالى ففهمناها اي الحكومة سليمان اي علمناه القضية والهمناها له + تنبيه + يجوز ان تكون حكومتهما بوحي الا ان حكومة داود نسخت بحكومة سليمان ويجوز ان تكون باجتهاد الا ان اجتهاد سليمان اشبه بالصواب فان قيل ما وجه كل واحدة من الحكومتين اجيب بان وجه حكومة داود ان الضرر وقع بالغنم فسلمت بجنايتها الى المجني عليه كما قال ابو حنيفة في العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك او يفديه وعند الشافعي يبيعه في ذلك او يفديه ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ووجه حكومة سليمان انه جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير ان يزول ملك المالك عن الغنم واوجب على صاحب الغنم ان يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال اصحاب الشافعي فيمن غصب عبداً وابق من يده انه يضمن بالقيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا فان قيل لو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها اجيب بان ابا حنيفة واصحابه لا يرون فيها ضماناً بالليل او بالنهار الا ان يكون مع البهيمة سائق او قائد لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار اي هدر رواه الشيخان وغيرهما والشافعي واصحابه يوجبون الضمان بالليل اذ المعتاد ضبط الدواب ليلاً ولذلك قضى النبي صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطاً وافسدته فقال على اهل الاموال حفظها بالنهار وعلى اهل الماشية حفظها بالليل ولما كان ذلك ربما اوهم شيئاً في امر داود نفاه بقوله تعالى وكلا اي منهما آتينا حكماً اي نبوة وعملاً

مؤسسا على حكمة العلم وعلما مؤيدا بصالح العمل وعن الحسن لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا ولكنه تعالى اثنى على سليمان عليه السلام لصوابه وعلى داود باجتهاده انتهى وهذا على الرأي الثاني وعليه اكثر المفسرين وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فاصاب فله اجران واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله اجر وهل كل مجتهد مصيب او المصيب واحد لا بعينه رأيان اظهرهما الثاني وان كان مخالفا لمفهوم الآية اذ لو كان كل مجتهد مصيبا لم يكن للتقسيم في الحديث معنى وقوله صلى الله عليه وسلم واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله اجر لم يرد به انه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم في الخطأ عنه موضوع • فائدة • من احكام داود وسليمان عليهما السلام ما روي عن ابي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فاخبرتاه فقال ائتوني بالسكين اشقه بينكما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى اخرجاه في الصحيحين ثم انه تعالى ذكر لداود وسليمان بعض معجزات فمن بعض معجزات الاول ما ذكره بقوله تعالى ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ مع صلابتها وعظمها ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ معه اي يقدسن الله تعالى ولو شئنا لجعلنا الحرث والغنم تكلمه بصواب الحكم قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقوله تعالى ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال او مفعول معه وقال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذا الطير وقال قتادة يسبحن اي يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه وقيل يسبحن بلسان الحال وقيل يسبح من رآها تسير معه بتسيير الله تعالى فلما حملت على التسبيح وصفت به ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ اي من شأننا الفعل لامثال هذه الافاعيل ولكل شيء نريده فلا تستكثروا علينا امرا وان كان عندكم عجبا وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الامة كان مطرف ابن عبد الله بن الشخير اذا دخل بيته سبحت معه آنيته واما النبي صلى الله عليه وسلم فكان الطعام يسبح بحضرته والحصى وغيره ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ اي صنعة الدروع التي تلبس في الحرب قال قتادة اول من صنع هذه الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح وقد ألان الله تعالى لداود الحديد فكان يعمل منه بغير نار كأنه طين قال البغوي وهو اي اللبوس في اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الاسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب وقوله تعالى ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بعلم او صفة للبوس وقوله تعالى ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ بدل منه بدل اشتمال باعادة الجار ومرجع الضمير يختلف باختلاف القراءات فقرأ شعبة بالنون فالضمير لله تعالى وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث فالضمير للصنعة او للبوس على تأويل الدرع وقرأ الباقون بالياء التحتية فالضمير لداود او للبوس وقوله تعالى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ اي لنا على ذلك امر اخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة او التقريع ومن بعض معجزات

الثاني ما ذكره بقوله ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ أي وسخرنا لسليمان ﴿الرِّيحَ﴾ قال البغوي وهو هواء يتحرك وهو جسم
لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحس بحركته والريح تذكر وتؤنث ﴿عَاصِفَةً﴾ أي شديدة
الهبوب فإن قيل قد قال تعالى في موضع آخر تجري بأمره رخاء والرخاء اللين أجيب بأنها كانت
تحت أمره إن أرادت أن تشتد اشتدت وإن أرادت تلين لانت وقيل كانت في نفسها رخية طيبة
كالنسيم فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وقوله
تعالى ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي بمشيئته حال ثانية أو بدل من الأول أو حال من ضميرها ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾
أي الشام وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان ثم يعود إلى منزله بالشام
قال وهب بن منبه كان سليمان عليه السلام إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له
الجن والإنس حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما يقعد عن الغزو ولا يسمع في ناحية من الأرض
بملك إلا أتاه حتى يذله فكان إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب
ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت
تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا في روحته
وشهرا في غدوته إلى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء بالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذي
طائرا قال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا في فرسخ ذهبا في إبريسم وكان يوضع له
منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة تقعد
الأنبياء عليهم السلام على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن
والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من
الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الغروب وقال سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي
تجلس الإنس مما يليه ثم تليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح وقال الحسن لما شغلت الخيل نبي الله
سليمان حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيرا منها وأسرع وهي الريح
تجري بأمره كيف يشاء فكان يغدو من إيلياء فيقيل بإصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل وقال
ابن زيد كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت تركب معه فيه الجن والإنس
تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك الركن فإذا ارتفعت أتت الريح الرخاء فسارت به
وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ولا يدري القوم إلا وقد أظلهم معه الجيوش ﴿وَكُنَّا﴾ أي أزلا وأبدا بإحاطة
العظمة ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من هذا وغيره من أمره وغيره ﴿عَالِمِينَ﴾ ومن علمنا أن ذلك لا يزيدهم إلا تواضعا
وكما سخرنا الريح له سخرناها للنبي صلى الله عليه وسلم ليالي الأحزاب قال حذيفة رضي الله عنه حتى كانت
تقذفهم بالحجارة ما تجاوز عسكرهم فهزمهم الله تعالى بها وردوا بغيظهم لم ينالوا خيرا وأعطي صلى الله
عليه وسلم أعم مما أعطي جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقد أعطي صلى الله عليه وسلم التصرف
في العالم العلوي الذي جعل الله تعالى منه الفيض على العالم السفلي بالاختراق الطباق

بالاسراء تارة وبامساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف عليه السلام وبارساله اخرى كما في احاديث
كثيرة واتى مع ذلك بمفاتيح خزائن الارض كلها فردها صلى الله عليه وسلم وَمِنَ اي وسخرنا لسليمان من
الشَّيَاطِينِ الذين هم اكثر شيء تمردا وعتوا مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ اي يدخلون في البحر فيخرجون منه الجواهر
وغيرها من المنافع وذلك بان اكثف الله اجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة له وقد خنق
نبينا صلى الله عليه وسلم العفريت الذي جاءه بشهاب من نار واسر جماعة من اصحابه رضي الله
تعالى عنهم عفاريت اتوا الى تمر الصدقة وامكنهم الله تعالى منهم وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ اي
سوى الغوص كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى يعملون له ما يشاء من
محاريب وتماثيل الآية وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ اي حتى لا يخرجوا عن امره وقال الزجاج معناه حفظناهم
من ان يفسدوا ما عملوا وكان من عادة الشياطين اذا عملوا عملا بالنهار وفرغوا منه قبل الليل
افسدوه وخربوه وفي القصة ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ
من عمله قبل الليل فاشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه * القصة السادسة قصة ايوب
عليه السلام المذكورة في قوله تعالى وَأَيُّوبَ اي واذكر ايوب ويبدل منه إِذْ نَادَى رَبَّهُ قال وهب
بن منبه كان ايوب عليه السلام رجلا من الروم وهو ايوب بن اموص بن رزاح بن روم بن عيص
بن اسحق بن ابراهيم وكانت امه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط
عليه الدنيا وكانت له البثنية من ارض البلقاء من اعمال حوران من دمشق الشام كلها سهلها وجبلها وكان له
فيها من اصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل افضل منه في العدة والكثرة
وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امراة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان اتان
اتان لكل اتان من الولد اثنان او ثلاث او اربع او خمس وفوق ذلك وكان الله تعالى قد اعطاه اهلا و
ولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف
ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا لحق الله تعالى قد امتنع من عدو الله ابليس ان يصيب
منه ما يصيب من اهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن امر الله بما هو فيه من الدنيا وكان
معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من اليمن يقال له اليفن ورجلان من بلده يقال لاحدهما
بلدد وللآخر صافر وكانوا كهولا وكان ابليس لا يحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيثما اراد
حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب من اربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن
السموات كلها الا من استرق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على ايوب عليه السلام وذلك
حين ذكره الله تعالى واثنى عليه فادركه البغي والحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان
يقفه فقال الهي نظرت في امر عبدك ايوب فوجدته عبدا انعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك
ولو ابتليته بنزع ما اعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج من طاعتك قال الله
تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله ابليس حتى وقع على الارض ثم جمع عفاريت

الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى قد سلطت على مال ايوب وهى المصيبة
الفادحة والفتنة التى لا تصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين اعطيت من القوة ما اذا شئت
تحولت اعصارا من نار واحرقت كل شئ آتى عليه قال له ابليس فأت الابل ورعاتها فاتى الابل وقد وضعت
رؤسها ورعت فى مراعيها فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها احد الا احترق
فاحرق الابل ورعاتها حتى اتى على آخرها ثم جاء عدو الله ابليس فى صورة قيمه على قعود الى ايوب فوجده
قائما يصلى فقال يا ايوب اقبلت نار حتى غشيت ابلك فاحرقتها ومن فيها غيرى فقال ايوب
الحمد لله الذى اعطانيها وهو اخذها وانها مال الله اعارنيها وهو اولى بها اذا شاء تركها واذا شاء نزعها
وقديما كنت وطنت نفسى ومالى على الفناء قال ابليس فان الله ربك ارسل عليها نارا من السماء
فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان ايوب يعبد شيئا
وما كان ايوب الا فى غرور ومنهم من يقول لو كان اله ايوب يقدر على ان يصنع شيئا لمنع وليه ومنهم
من يقول بل هو الذى فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال ايوب الحمد لله حين اعطانى وحين
نزع منى عريانا خرجت من بطن امى وعريانا اعود فى التراب وعريانا احشر الى الله عز وجل ليس ينبغى لك
ان تفرح حين اعطاك الله وتجزع حين قبض الله عاريته الله اولى بك وبما اعطاك ولو علم الله تعالى
فيك ايها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فاخرك فرجع
ابليس الى اصحابه خاسئا ذليلا فقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى لم اكلم قلبه قال عفريت عندى
من القوة ما اذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فأت الغنم
ورعاتها فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت امواتا من عند آخرها وماتت رعاتها ثم جاء
ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى ايوب وهو يصلى فقال له مثل القول الاول فرد عليه ايوب مثل
الرد الاول ثم رجع ابليس الى اصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فانى لم اكلم قلب ايوب فقال عفريت
عندى من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شئ تأتى عليه قال فأت الفدادين
والحرث فانطلق حين شرع الفدادون فى الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت
كل شئ من ذلك حتى كانه لم يكن ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الحرث الى ايوب وهو قائم يصلى فقال
له مثل قوله الاول فرد عليه ايوب مثل رده الاول وجعل ابليس يهلك امواله مالا مالا حتى مر على آخره كلما
انتهى اليه هلاك مال من امواله حمد الله تعالى واحسن الثناء عليه ورضى عنه بالقضاء ووطن نفسه
بالصبر على البلاء حتى لم يبق له مال فلما راى ابليس انه قد فنى ماله ولم ينجح منه بشئ صعد سريعا حتى وقف
فى الموقف الذى يقف فيه وقال الهى ان ايوب يرى انك ما متعته بولده فانت تعطيه المال فهل انت
مسلطى على ولده فانها المصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك
على ولده فانقض عدو الله ابليس حتى جاء بنى ايوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم حتى تداعى من
قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا ويرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة

ورفع القصر فقلبه فصاروا منكبين وانطلق الى ايوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه فاخبره وقال لو رايت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكبين على رؤسهم تسيل دماؤهم ولو رايت كيف شقت بطونهم فتناثرت امعاؤهم لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق قلب ايوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على راسه وقال ليت امى لم تلدنى فاغتنم ابليس ذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع ايوب مسرورا به ثم لم يلبث ايوب ان فاء وابصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله عز وجل وهو اعلم فوقف ابليس خاسئا ذليلا وقال الهى انما هون على ايوب المال والولد انه يرى انك ما متعته بنفسه فانك تعيد له المال والولد فهل انت مسلطى على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله وكان الله عز وجل اعلم به لم يسلطه عليه الا رحمة لايوب ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله سريعا فوجد ايوب فى مصلاه ساجدا فعجل قبل ان يرفع راسه فاتاه من قبل وجهه فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها سائر جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثاليل مثل اليات الغنم ووقعت فيه حكة فحك باظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى نغل لحمه وتقطع وتغير وانتن واخرجه اهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امراته وهى رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلوة والسلام فكانت تختلف اليه بما يصلحه وتلزمه ولما راى الثلاثة من اصحابه وهم اليفن وبلدد وصافر ما ابتلاه الله تعالى به اتهموه ورفضوه من غير ان يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا اليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب الى الله تعالى من الذنب الذى عوقبت عليه قال وحضره معهم فتى حديث السن قد امن به وصدقه فقال لهم انكم تكلمتم ايها الكهول وانتم احق بالكلام منى لاسنانكم ولكنكم تركتم من القول احسن من الذى قلتم ومن الراى اصوب من الذى رايتم ومن الامر اجمل من الذى اتيتم وقد كان لايوب عليكم من الحق والذمام افضل من الذى وصفتم فهل تدرون ايها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم الم تعلموا انه ايوب نبى الله وخيرته وصفوته من اهل الارض الى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على انه قد سخط شيئا من امره منذ ما اتاه الله ما اتاه الى يومكم هذا ولا انه نزع شيئا منه من الكرامة التى اكرمه بها ولا ان ايوب قال على الله غير الحق فى طول ما صحبتموه الى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذى ازرى به عندكم ووضعه فى انفسكم فقد علمتم ان الله تعالى يبتلى المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لاولئك على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان ايوب ليس من الله بهذه المنزلة الا انه اخ احببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحكيم ان يعذل اخاه عند

البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكى معه ويستغفر له
ويحزن لحزنه ويدله على ارشاد امره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله ايها الكهول فقد
كان فى عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع السنتكم ويكسر قلوبكم الم تعلموا ان لله عبادا اسكتتهم
خشيته من غير عىّ ولا بكم وانهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الالباء العالمون بالله ولكنهم اذا ذكروا
عظمة الله انقطعت السنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم
اعظاما لله واجلالا له فاذا استفاقوا من ذلك استبقوا الى الله بالاعمال الزاكية يعدّون انفسهم
مع الظالمين والخاطئين وانهم لابرار براء ومع المقصرين المفرطين وانهم لاكياس اقوياء فقال
ايوب ان الله سبحانه وتعالى يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير فمتى نبتت فى القلب
يظهرها الله تعالى على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة واذا جعل
العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون عليه من الله تعالى نور الكرامة ثم اعرض
عنهم ايوب عليه السلام يعنى الثلاثة وقال اتيتمونى غضابا رهبتم قبل ان تسترهبوا وبكيتم قبل ان تضربوا
فكيف بى لو قلت تصدقوا عنى باموالكم لعل الله ان يخلصنى او قربوا قربانا لعل الله ان يتقبله ويرضى عنى
وانكم قد اعجبتكم انفسكم وظننتم انكم عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم
لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى بالعافية التى البسكم وقد كنتم فيما خلا توقروننى
وانا مسموع كلامى معروف حقى منتصف من خصمى فاصبحت اليوم وليس لى راى ولا كلام وانتم
كنتم اشد علىّ من مصيبتى ثم اعرض عنهم ايوب واقبل على ربه مستغيثا به مستغفرا
متضرعا اليه فقال يا رب لاى شئ خلقتنى ليتنى اذ كرهتنى لم تخلقنى يا ليتنى عرفت الذنب الذى
اذنبت والعمل الذى عملت فصرفت وجهك الكريم عنى لو كنت امتنى فالحقتنى بآبائى فالموت
كان اجمل بى الم اكن للغريب دارا وللمسلمين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهى انا عبدك
ان احسنت الىّ فالمن لك وان اسأت فبيدك عقوبتى جعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع
بى بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفى فان قضاءك هو الذى اذلنى
وان سلطانك هو الذى اسقمنى وانحل جسمى ولو ان ربى نزع الهيبة التى فى صدرى واطلق لسانى
حتى اتكلم بملء فمى فادلى بعذرى واتكلم ببراءتى واخاصم عن نفسى لرجوت ان يعافينى عند ذلك
مما بى ولكنه القانى وتعالى عنى فهو يرانى ولا اراه ويسمعنى ولا اسمعه فلما قال ذلك ايوب واصحابه
عنده اظله غمام حتى ظن اصحابه انه عذاب ثم نودى يا ايوب ان الله تعالى يقول ها انا قد دنوت منك
ولم ازل منك قريبا قم فادل بعذرك وتكلم بحجتك وخاصم عن نفسك واشدد ازرك وقم مقام جبار
يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغى ان يخاصمنى الا جبار مثلى لقد منتك نفسك يا ايوب امرا ما يبلغ
مثله قوتك اين انت منى يوم خلقت الارض فوضعتها على اساسها هل كنت معى تمد باطرافها هل انت
علمت باى مقدار قدرتها ام على اى شئ وضعت اكنافها ابطاعتك حمل الماء الارض ام بحكمتك كانت

الارض للماء غطاء اين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لا تعلق بسبب من فوقها و
لا يقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك ان تجرى نورها او تسير نجومها او يختلف بامرك ليلها ونهارها
اين انت منى يوم انبعت الانهار وسكرت البحار بسلطانك حبست امواج البحار على حدودها ام
قدرتك فتحت الارحام حتى بلغت مدتها اين انت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ
الجبال هل تدرى على اى شئ ارسيتها ام باى مثقال وزنتها ام هل لك من ذراع تطيق حملها ام هل تدرى
اين الماء الذى انزلت من السماء ام هل تدرى من اى شئ انشئ السحاب ام هل تدرى اين خزانة الثلج
ام اين جبال البرد ام اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل واين خزانة الريح وباى لغة تتكلم الاشجار
من جعل العقول فى اجواف الرجال ومن شق الاسماع والابصار ومن دانت الملائكة لملكه وقهر الجبارين
بجبروته وقسم الارزاق بحكمته فى كلام كثير يدل على كمال قدرته ذكرها لايوب فقال ايوب عليه
الصلاة والسلام كل شانى وكل لسانى وكل عقلى ورايى وضعفت قوتى عن هذا الامر الذى تعرض
لى يا الهى قد علمت ان كل الذى ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك واعظم من ذلك واعجب
لو شئت عملت لا يعجز عنك شئ ولا تخفى عليك خافية اذ لقينى البلاء يا الهى فتكلمت فكان البلاء هو الذى
انطقنى فليت الارض انشقت بى فذهبت فيها ولم اتكلم بشئ يسخطك ربى وليتنى مت بغمى فى اشد
بلائى قبل ذلك انما تكلمت حين تكلمت لتعذرنى وسكت حين سكت لترحمنى كلمة زلت منى
فلم اعد قد وضعت يدى على فمى وعضضت على لسانى والصقت بالتراب خدى اعوذ بك اليوم منك
واستجير بك من جهد البلاء فاجرنى واستغيث بك من عقابك فاغثنى واستعين بك على امرى
فاعنى واتوكل عليك فاكفنى واعتصم بك فاعصمنى واستغفرك فاغفر لى فلن اعود لشئ تكرهه منى
قال الله تعالى يا ايوب نفذ فيك علمى وسبقت رحمتى غضبى فقد غفرت لك فقال ايوب انى قد مسنى
الضر بتسليطك الشيطان على فى بدنى واهلى ومالى وقد طمع الآن فى دينى وذلك انه زين
لامراة ايوب ان تامره ان يذبح لصنم فانه اذا ذبح يبرأ فيفعل ذلك وحلف ليضربنها ان برأ مائة جلدة وقال وهب
لبث ايوب فى البلاء ثلاث سنين وروى عن انس يرفعه ان ايوب لبث ببلائه ثمان عشرة سنة وقال كعب
سبع سنين وقال الحسن مكث ايوب مطروحا على كناسة لبنى اسرائيل سبع سنين واشهرا يختلفون فى الدواب
ولا يقربه احد غير امراته رحمة صبرت معه تحمد الله معه اذا حمد وايوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على
بلائه فلما غلب ايوب ابليس ولم يستطع منه شيئا اعترض امراته فى هيئة ليست لهيئة بنى آدم فى العظم
والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال فقال لها انت صاحبة ايوب هذا الرجل المبتلى
قالت نعم قال هل تعرفينى قالت لا فقال لها انا اله الارض وانا الذى صنعت بصاحبك لانه اطاع اله السماء
وتركنى فاغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان من مال وولد واراها اياهم
ببطن الوادى الذى لقيها فيه قال وهب وقد سمعت انه انما قال لها لو ان صاحبك اكل طعاما ولم يسم عليه
لعوفى مما به من البلاء وفى بعض الكتب ان ابليس قال لها اسجدى لى سجدة حتى ارد عليك المال

والاولاد واعافي زوجك فرجعت الى ايوب فاخبرته بما قال لها وما اراها قال لقد اتاك عدو الله ليفتنك
عن دينك ثم اقسم ان الله عافاه ليضربنها مائة جلدة وعند ذلك قال مسني الضر من طمع ابليس
في سجود حرمتي ودعائه اياها واياي الى الكفر وَأَنتَ اي والحال انت أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فافعل لي ما يفعل
الرحمن بالمضرور وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية
الرحمة ولم يصرح فكان ذلك الطف في السؤال فهو اجدر بالنوال ويحكى ان عجوزا تعرضت لسليمان
بن عبد الملك فقالت يا امير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصا فقال لها الطفت في السؤال لاجرم
لاردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا ثم ان الله تعالى رحم رحمة امرأة ايوب بصبرها معه
على البلاء وخفف عليها واراد ان يبر يمين ايوب فامره ان يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغار
فيضربها به ضربة واحدة كما قال تعالى في اية اخرى وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وروي
ان ابليس اتخذ تابوتا وجعل فيه ادوية وجلس على طريق امرأة ايوب يداوي الناس فمرت به امرأة
ايوب فقالت ان لي مريضا افتداويه قال نعم ولا اريد شيئا الا ان يقول اذا شفيته انت شفيتني
فذكرت ذلك لايوب فقال هو ابليس قد خدعك وحلف ان شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة
وقال وهب وغيره كانت امرأة ايوب تعمل للناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس
فلم يستعملها احد فالتمست له يوما من الايام ما تطعمه فما وجدت شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته
برغيف فاتته به فقال لها اين قرنك فاخبرته فحينئذ قال مسني الضر وقال قوم انما قال ذلك حين
قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشي ان يمتنع عن الذكر والفكر وقال حبيب بن ابي ثابت لم يدع الله تعالى
بالكشف حتى ظهرت له ثلاثة اشياء احدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاءا اليه ولم يبق الا عيناه
ورأيا امرا عظيما فقالا لو كان لك عند الله منزلة ما اصابك هذا والثاني ان امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما
تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت اليه طعاما والثالث قول ابليس اني اداويه على ان يقول انت شفيتني
وقيل ان ابليس وسوس اليه ان امرأته زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عيل صبره وحلف ليضربنها مائة جلدة
وقيل معناه مسني الضر من شماتة الاعداء وقيل قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردها
الى موضعها وقال كلي جعلني الله تعالى طعامك فعضته عضة زاد المها على جميع ما قاسى من عض
الديدان فان قيل ان الله تعالى سماه صابرا وقد اظهر الشكوى والجزع بقوله اني مسني الضر ومسني
الشيطان بنصب اجيب بان هذا ليس بشكاية انما هو دعاء بدليل قوله تعالى فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
والجزع انما هو الشكوى الى الخلق واما الشكوى الى الله تعالى فلا يكون جزعا ولا ترك صبر كما قال يعقوب
عليه السلام انما اشكو بثي وحزني الى الله وقال سفيان بن عيينة من اظهر الشكوى الى الناس
وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روي ان جبريل عليه السلام دخل على النبي صلى الله
عليه وسلم فقال كيف تجدك قال اجدني مغموما اجدني مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله
تعالى عنها حين قالت وارأساه بل انا وارأساه وروي ان امرأة ايوب قالت له يوما لو دعوت

لله فقال لها كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحي من الله ان ادعوه وما بلغت مدة
بلائي مدة رخائي ثم تسبب عن الاجابة قوله تعالى فَكَشَفْنَا اي بما لنا من العظمة مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ بان امرناه ان
يركض برجله فنبع له عين من ماء كما قال تعالى اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فركض برجله
فنبعت له عين ماء فدخل فيها فاغتسل فاذهب الله تعالى كل ما كان به من البلاء بظاهره ثم مشى
اربعين خطوة فامره ان يضرب برجله الارض مرة اخرى ففعل فنبع عين ماء بارد فامره فشرب منها
فذهب كل داء كان بباطنه فصار كاصح ما يكون من الرجال واجملهم فاقبلت امراته تلتمسه في مضجعه
فلم تجده فقامت كالوالهة ثم جاءت اليه وهي لا تعرفه فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي
كان ههنا قال نعم وما لي اعرفه فتبسم وقال انا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته قال ابن عباس فوالذي
نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى رد لهما كل ما كان لهما كما قال تعالى وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ
اي اولاده الذكور والاناث بان احياهم الله وكل من الصنفين ثلاث او سبع وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ اي من
زوجته رحمة وزيد في شبابها هذا ما دل عليه اكثر المفسرين وقيل آتاه الله تعالى المثل من نسل ماله
وولده الذي رده اليه اي ولد له من ولده نوافل وقال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين
وروى الضحاك عن ابن عباس رد الى امراته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقال قوم آتى الله
تعالى ايوب في الدنيا مثل اهله الذين هلكوا فاما الذين هلكوا فانهم لم يردوا عليه في الدنيا وقال عكرمة
قيل لايوب ان اهلك لك في الآخرة وان شئت عجلناهم لك في الدنيا وان شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك
مثلهم في الدنيا فقال يكونون لي في الآخرة واوتى مثلهم في الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه اهله
في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا وروى عن انس يرفعه كان لايوب اندران اندر للقمح واندر للشعير
فبعث الله تعالى سحابتين فافرغت احداهما على اندر القمح الذهب وافرغت الاخرى على
اندر الشعير الورق حتى فاض وروى ان الله تعالى بعث اليه ملكا فقال ان ربك يقرئك السلام
بصبرك فاخرج الى اندرك فخرج اليه فارسل عليه جرادا من ذهب قيل انه لما اغتسل وخرج الى ودمنه
بعث الله تعالى له اجنحة فطارت فجعلها الله تعالى جرادا من ذهب وامطرت عليه فطارت واحدة
فاتبعها وردها الى اندره فقال له الملك اما يكفيك ما في اندرك فقال هذه بركة من بركات ربي
ولا اشبع من بركته وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ايوب
يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل ايوب يحثي في ثوبه فناداه ربه يا ايوب الم اكن اغنيتك
عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك وقوله تعالى رَحْمَةً مفعول له اي نعمة عظيمة وفخمها بقوله
تعالى مِنْ عِنْدِنَا بحيث لا يشك من ينظر ذلك انا ما فعلناه الا رحمة منا له وان غيرنا لا يقدر على ذلك وَذِكْرَى
اي عظة عظيمة لِلْعَابِدِينَ اي كلهم ليتاسوا به فيصبروا اذا ابتلوا ولا يظنوا ان ذلك انما نزل بهم لهوانهم
فيشكوا ويفتنوا كما اثيب وقيل برحمتنا العابدين فانا نذكرهم بالاحسان ولا ننساهم + القصة
السابعة قصة اسمعيل وادريس وذي الكفل المذكورة في قوله تعالى وَإِسْمَاعِيلَ اي واذكر اسمعيل بن

ابراهيم عليهما السلام الذي سخرناله من الماء بواسطة الروح الامين ما عاش به صغيرا بعد ما كان هالكا لا محالة ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم دائما وصناه وهو كبير من الذبح حين راى ابوه في المنام انه يذبحه ورؤيا الانبياء حق وفديناه بذبح عظيم ﴿وَاذكر ادريس﴾ اى ابن شيث ابن ادم عليهم السلام الذي احييناه بعد موته ودفعناه مكانا عليا وهو اول نبي بعث من بني ادم عليه السلام وتقدمت قصته في سورة مريم ﴿وَاذكر ذَا الكِفلِ﴾ سمي بذلك قال عطاء لان نبيا من انبياء بني اسرائيل اوحى الله تعالى اليه اني اريد ان اقبض روحك فاعرض ملكك على بني اسرائيل فمن تكفل لك ان يصلي بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفطر ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك فقام شاب فقال انا اتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به فشكر الله له ونباه فسمي ذا الكفل وقال مجاهد لما كبر اليسع قال لو اني استخلفت رجلا من الناس يعمل عليهم في حياتي حتى انظر كيف يعمل قال فجمع الناس فقال من يقبل مني ثلاثا استخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب فقام رجل فقال انا فاستخلفه فاتاه ابليس في صورة شيخ ضعيف حين اخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال ان بيني وبين قومي خصومة وانهم ظلموني وفعلوا وفعلوا وجعل يطول حتى ذهبت القائلة فقال اذا رحت فائتني فاني اخذ حقك فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينظره فلم يره فلما رجع الى القائلة واخذ مضجعه اتاه فدق الباب فقال من انت فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال الم اقل لك اذا قعدت فائتني فقال انهم اخبث قوم اذا عرفوا انك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدوني قال فانطلق فاذا جلست فائتني وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض اهله لا تدعوا هذا الرجل يقرب من هذا الباب حتى انام فانه قد شق علي النعاس فلما كانت تلك الساعة جاء فلم ياذن له الرجل فلما اعياه نظر فراى كوة في البيت فتسور منها فاذا هو في البيت يدق عليه الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان الم امرك قال اما من قبلي فلم تؤت فانظر من اين اتيت فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما اغلقه واذا بالرجل معه في البيت فقال اتنام والخصوم ببابك فقال اعدو الله قال نعم اعييتني ففعلت ما ترى لاغضبك فعصمك الله تعالى فسمي ذا الكفل لانه تكفل بامر فوفى به وقيل ان ابليس جاءه وقال ان لي غريما يظلمني فاحب ان تقوم معي وتستوفي حقي منه فانطلق معه حتى اذا كان في السوق خلاه وذهب وروي انه اعتذر اليه وقال صاحبي هرب وقيل ان ذا الكفل رجل كفل ان يصلي كل ليلة مائة ركعة الى ان يقبضه الله تعالى فوفى به واختلفوا في انه هل كان نبيا فقال الحسن كان نبيا وعن ابن عباس انه الياس وقيل هو زكريا وقيل هو يوشع بن نون وقال ابو موسى لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا ولما قرن الله تعالى بين هؤلاء الثلاثة استأنف مدحهم بقوله تعالى ﴿كُلٌّ﴾ اى كل واحد منهم ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على ما ابتليناه به فاثبناهم ثواب الصابرين ﴿وَادخَلنَاهُم فِي رَحمَتِنَا﴾ اى نعمتنا بهم

من الاحسان ما يفعله الراحم بمن يرحمه على وجه عمهم من جميع جهاتهم فكان ظرفا لهم ثم علل ذلك بقوله تعالى إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ اى لكل ما يرضاه تعالى منهم يعني انهم جبلوا جبلة خير فعملوا على مقتضى ذلك فكانوا من الكاملين في الصلاح وهم الانبياء لان صلاحهم معصوم عن كدر الفساد

القصة الثامنة قصة يونس عليه الصلوة والسلام المذكورة في قوله تعالى وَذَا النُّونِ اى واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ويبدل منه إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا واختلفوا في معنى ذلك فقال الضحاك مغاضبا لقومه وهو رواية العوفي وغيره عن ابن عباس قال كان قوم يونس يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة اسباط ونصفا وبقي سبطان ونصف فاوحى الله تعالى الى شعيب النبي عليه السلام ان سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا الى هؤلاء فاني القي في قلوبهم الرعب حتى يرسلوا معه بني اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان في مملكته خمسة انبياء فقال يونس فانه قوي امين فدعا الملك يونس وامره ان يخرج فقال يونس هل امرك الله باخراجي قال لا قال فهل سماني لك قال لا قال فههنا انبياء غيري اقوياء فالحوا عليه فخرج من بينهم مغاضبا للنبي والملك ولقومه فاتى بحر الروم فركبه وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضبا لربه اذ كشف عن قومه العذاب بعد ما وعدهم به وكره ان يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي رفع به العذاب عنهم وكان غضبه انفة من ظهور خلف وعده وان يسمى كذابا لا كراهية الحكم لله تعالى وفي بعض الاخبار انه كان من عادة قومه ان يقتلوا من جرب عليه الكذب فخشى ان يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب والمغاضبة ههنا من المفاعلة التي تكون من واحد كالمسافرة والمعاقبة فمعنى قوله مغاضبا اى غضبانا وقال الحسن انما غاضب ربه من اجل انه امره بالمسير الى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم اليه فسأل ربه ان ينظره ليتأهب فقيل له ان الامر اسرع من ذلك حتى سأله ان ينظره الى ان يأخذ نعله يلبسها فلم ينظره وكان في خلقه ضيق فذهب مغاضبا وعن ابن عباس قال اتى جبريل يونس فقال انطلق الى اهل نينوى فانذرهم قال التمس دابة قال الامر اعجل من ذلك فغضب فانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان في خلقه ضيق فلما حمل عليه اثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه وخرج هاربا فلذلك اخرجه الله تعالى من اولي العزم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ اى لن نقضي عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك وقال عطاء وكثير من العلماء معناه فظن ان لن نضيق عليه الحبس من قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر وعن ابن عباس انه دخل على معاوية فقال لقد ضربتني امواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم اجد لنفسي خلاصا الا بك قال وما هي يا معاوية فقرأ هذه الآية فقال او يظن نبي الله ان لن يقدر عليه قال هذا من القدر لا من القدرة وقال ابن زيد هو استفهام معناه افظن انه يعجز ربه فلا يقدر عليه فنادى اى فالتقمت

حكمنا ان عاتبناه حتى يستسلم فالقى نفسه فى البحر فالتقمه الحوت فمكث فيه اربعين من بين يوم
وليلة وقال عطاء سبعة ايام وقيل ان الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة وقيل بلغ به تخوم
الارض السابعة ومنعناه ان يكون له طعاما فنادى فى الظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت
وقيل فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات
وقوله يخرجهم من النور الى الظلمات وقيل ابتلع حوته حوت اكبر منه فحصل فى ظلمتى بطن الحوتين وظلمة
البحر ان لا اله الا انت ولما نزهه عن الشريك عم فقال تعالى سبحانك اى تنزهت عن كل نقص
فلا يقدر على الانجاء مما انا فيه الا انت ثم افصح بطلب الخلاص بقوله ناسبا الى نفسه من النقص
ما نزه الله عن مثله انى كنت من الظالمين اى فى خروجى من بين قومى قبل الاذن فاعف عنى كما هى
سيرة القادرين روى عن ابى هريرة مرفوعا اوحى الله تعالى الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له
عظما فاخذه ثم هوى به الى مسكنه فى البحر فلما انتهى به الى اسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه
ما هذا فاوحى الله تعالى اليه ان هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو فى بطن الحوت فسمع الملائكة
تسبيحه فقالوا يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بارض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول
فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان
يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا فيه عند ذلك فامر الحوت فقذفه
فى الساحل كما قال تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم فذلك قوله تعالى فاستجبنا له اى اجبناه
ونجيناه من الغم اى من تلك الظلمات بتلك الكلمات وكذلك اى وكما انجيناه ننجى المؤمنين
من كربهم اذا استغاثوا بنا داعين قال الرازى فى اللوامع وشرط كل من يلتجئ الى الله ان يبدأ بالتوحيد ثم
بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار وهذا شرط كل داع اه‍ وعن النبى صلى الله
عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه والله الا اقراره
على نفسه بالظلم وقرأ ابن عامر وابو بكر بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم على ان اصله ننجى فحذفت
النون الثانية كما حذفت التاء الثانية فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها اوقع من حذف حرف
المضارعة الذى لمعنى وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير المصدر وهو النجاء وقرأ الباقون بنونين
الثانية مخفاة عند الجيم + تنبيه + اختلفوا فى متى كانت رسالة يونس عليه الصلوة والسلام فروى
سعيد بن جبير عن ابن عباس كانت بعد ان اخرجه الله تعالى من بطن الحوت بدليل قوله تعالى فى سورة
والصافات فنبذناه بالعراء ثم ذكر بعده وارسلناه الى مائة الف او يزيدون وقال آخرون انها كانت
من قبل بدليل قوله تعالى وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين
فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون + القصة التاسعة
قصة زكريا عليه الصلوة والسلام المذكورة فى قوله تعالى وزكريا اى واذكر زكريا ويبدل منه اذ نادى
ربه نداء الحبيب القريب فقال رب باسقاط اداة البعد لا تذرنى فردا اى وحيدا من غير

ولد ذكر يرث ما آتيتني من الحكمة وَأَنتَ اي والحال انك خَيْرُ الْوَارِثِينَ اي الباقي بعد فناء خلقك
وكثيرا ما تورث بعض عبيدك عبيدا آخرين فانت الحقيق بان تفعل في ارثي من العلم والحكمة
ما احب فتهبني ولدا تمنّ عليّ به فَاسْتَجَبْنَا لَهُ بعظمتنا وان كان في حدّ من السنّ لا يولد به مثله
وزوجه في حال من العقم لا يرجى معه حبلها فكيف وقد جاوزت سن الاياس ولذلك عبر بما يدل
على العظمة فقال تعالى وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ولدا وارثا نبيا حكيما عظيما وَأَصْلَحْنَا لَهُ خاصة من بين اهل
ذلك الزمان زَوْجَهُ اي جعلناها صالحة لكل خير خالصة له فاصلحناها للولادة بعد عقمها واصلحناها
لزكريا بعد ان كانت سريعة الغضب سيئة الخلق فاصلحناها له ورزقناها حسن الخلق إِنَّهُمْ اي الانبياء
الذين سماهم في هذه السورة وقيل زكريا وزوجه ويحيى كَانُوا اي جبلة وطبعا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
اي الطاعات يبالغون في الاسراع بها مبالغة من يسابق آخر ودل على عظيم افعالهم بقوله تعالى وَيَدْعُونَنَا
مستحضرين لجلالنا وعظمتنا وكمالنا رَغَبًا اي طمعا في رحمتنا وَرَهَبًا اي خوفا من عذابنا
وَكَانُوا اي جبلة وطبعا لَنَا خاصة خَاشِعِينَ اي خائفين خوفا عظيما يحملهم على الخضوع والانكسار
قال مجاهد الخشوع هو الخوف اللازم للقلب وقيل متواضعين وسئل الاعمش عن هذه الاية
فقال اما اني سألت ابراهيم فقال الا تدري قلت افدني قال بينه وبين الله اذا ارخى ستره عليه
واغلق بابه فلير الله منه خيرا لعلك ترى انه ياكل خشنا ويلبس خشنا ويطاطئ راسه + القصة العاشرة
قصة مريم وابنها عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى وَالَّتِي اي واذكر مريم التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا
اي حفظته من الحلال والحرام حفظا يحق له ان يذكر ويتحدث به كما قال تعالى حكاية عنها و
لم يمسسني بشر ولم اك بغيا لان ذلك غاية في العفة والصيانة والتخلي عن الملاذ الى الانقطاع الى الله
تعالى بالعبادة مع ما جمعت مع ذلك من الامانة والاجتهاد في متانة الديانة والصحيح انها ليست
بنبية فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا اي امرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها فاحدثنا بذلك النفخ المسيح
في بطنها واضاف الروح اليه تعالى تشريفا لعيسى عليه السلام كبيت الله وناقة الله + ثم بين تعالى
ما خص مريم وعيسى من الآيات فقال تعالى وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا اي قصتهما او حالهما ولذلك
وحد قوله آيَةً لِّلْعَالَمِينَ من الجنّ والانس والملائكة وانّ من تامّل حالهما تحقق كمال قدرة الله
تعالى فان قيل هلا قال تعالى آيتين كما قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين اجيب بما تقدم وبانّ
الاية كانت فيهما واحدة وهي انها اتت به من غير فحل وههنا آخر القصص + ولما دل ما مضى من قصص
هؤلاء الانبياء عليهم السلام انهم كلهم متفقون على التوحيد الذي هو اصل الدين قال تعالى
إِنَّ هَذِهِ اي ملة الاسلام أُمَّتُكُمْ اي دينكم ايها المخاطبون اي يجب ان تكونوا عليها حال
كونها أُمَّةً قال البغوي واصل الامّة الجماعة التي هي على مقصد واحد فجعلت الشريعة
امة لاجتماع اهلها على مقصد واحد ثم اكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى وَاحِدَةً
فابطل ما سوى الاسلام من الاديان وَأَنَا رَبُّكُمْ اي المحسن اليكم لا غيري في كل زمان لما لي

لا اتغير على طول الدهر ولا يشغلني شأن عن شأن فَاعْبُدُونِ دون غيري فانه لا كفء لي ﴿ ثم ان بعضهم خالف الامر بالاجتماع كما اخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى وَتَقَطَّعُوا اي بعض المخاطبين أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ اي تفرقوا امر دينهم متخالفين فيه وهم طوائف اليهود والنصارى قال الكلبي فرّقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿ تنبيه ﴿ الاصل وتقطعتم الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات كانه ينعى عليهم ما افسدوه الى آخرين ويقبح عليهم فعلهم عندهم ويقول لهم الا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى والمعنى جعلوا امر دينهم فيما بينهم قطعا كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه بينهم فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا واحزابا شتى ثم توعدهم بقوله تعالى كُلٌّ اي من هذه الفرق وان بالغ في التمرد إِلَيْنَا يوم القيامة رَاجِعُونَ فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك انا نجازيهم اقامة للعدل فنعطي كلا من المحق التابع لاصفيائنا والمبطل المائل الى الشياطين اعدائنا ما يستحقه وذلك هو معنى قوله تعالى فارقا بين المحسن والمسيء تحقيقا للعدل وتشويقا الى الفضل فَمَنْ يَعْمَلْ اي منهم الآن مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ اي والحال انه مُؤْمِنٌ اي يأتي بعمله على الاساس الصحيح فَلَا كُفْرَانَ اي لا جحود لِسَعْيِهِ بل يشكر ويثاب عليه ﴿ تنبيه ﴿ قوله تعالى فلا كفران نفي الجنس ليكون ابلغ من ان يقول فلا نكفر سعيه وَإِنَّا لَهُ اي لسعيه كَاتِبُونَ اي مثبتون في صحيفة عمله وما اثبتناه فهو غير ضائع فلا ينقص منه شيء قل او جل ومن المعلوم ان قسيمه وهو من يعمل من السيئات وهو كافر فلا نقيم له وزنا ومن يعمل منها وهو مؤمن فهو تحت مشيئتنا قال البقاعي ولعله حذف هذين القسمين ترغيبا في الايمان ﴿ ولما كان هذا غير صريح في ان هذا الرجوع بعد الموت بينه بقوله تعالى وَحَرَامٌ اي ممنوع عَلَى قَرْيَةٍ اي اهلها أَهْلَكْنَاهَا اي بالموت أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ اي الينا بان يذهبوا تحت التراب باطلا من غير احساس بل الينا مرجعهم فحبسنا هم في البرزخ منعمين او معذبين نعيما او عذابا دون النعيم والعذاب الاكبر ﴿ تنبيه ﴿ ما قدرناه في الآية هو ما جرى عليه البقاعي والذي قدره الزمخشري ان معنى اهلكناها عزمنا على اهلاكها او قدرنا اهلاكها ومعنى الرجوع الرجوع من الكفر الى الاسلام والانابة فتكون لا صلة والذي قدره الجلال المحلي ان لا زائدة اي ممتنع رجوعهم الى الدنيا فيكون الاهلاك بالموت وهذا قريب مما قاله ابن عباس فانه قال وحرام على قرية اهلكناها ان يرجعوا بعد الهلاك فجعل لا زائدة قال البغوي وقال آخرون الحرام بمعنى الواجب فعلى هذا يكون لا ثابتا ومعناه واجب على اهل قرية اهلكناهم اي حكمنا بهلاكهم ان لا تتقبل اعمالهم لانهم لا يرجعون اي لا يتوبون والدليل على هذا المعنى انه تعالى قال في الآية التي قبلها ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه اي يتقبل عمله ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين ان الكافر لا يتقبل عمله انتهى والذي قدره البيضاوي قريب مما قدره الزمخشري وكل هذه التقادير صحيحة لكن الاول اظهر وقرأ شعبة وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء والباقون بفتح الحاء والراء والف بعد الراء

قال البغوي وهما لغتان مثل حل وحلال وقوله تعالى حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ متعلق كما قال
الزمخشري بحرام وحتى غاية له لان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة وهي حتى التي يحكى بعدها
الكلام اي فهي الابتدائية لا الجارة ولا العاطفة والمحكي هو الجملة الشرطية وقرأ ابن عامر بتشديد التاء
بعد الفاء والباقون بالتخفيف ويأجوج ومأجوج اسمان اعجميان اسم لقبيلتين من جنس الانس
ويقدر قبله مضاف اي سدهما وذلك قرب الساعة يقال الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج
ومأجوج وقرأهما عاصم بهمزة ساكنة والباقون بالالف ثم عبر عن كثرتهم التي لا يعلمها الا هو سبحانه
وتعالى بقوله تعالى وَهُمْ اي والحال انهم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ اي نشز عال من الارض يَنْسِلُونَ اي
يسرعون من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب وفي العبارة ايماء الى ان الارض
كرة وقيل الضمير راجع الى الناس المسوقين الى المحشر روي عن حذيفة بن اسيد الغفاري قال اطلع
النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم ما تذاكرون قلنا نتذاكر
الساعة قال انها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة
وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة
خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن
تطرد الناس الى محشرهم وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ اي يوم القيامة قال حذيفة لو ان رجلا اقتنى
فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا
قال الكلبي شخصت ابصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم . تنبيه فاذا هي اذا للمفاجاة
وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا
على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هي شاخصة او فهي شاخصة كان سديدا قال سيبويه والضمير
للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعني القصة ان ابصار الذين كفروا تشخص عند ذلك وقال
الزمخشري هي ضمير مبهم توضحه الابصار وتفسره كما فسر الذين ظلموا واسروا النجوى وقولهم يَا وَيْلَنَا
اي هلاكنا متعلق بمحذوف تقديره يقولون يا ويلنا ويقولون في موضع الحال من الذين كفروا والتنبيه
قَدْ كُنَّا اي في الدنيا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا اي اليوم حيث كذبنا وقلنا انه غير كائن ثم اضربوا عن الغفلة
فقالوا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ انفسنا بعدم اعتقاده ووضعنا الشيء في غير موضعه حيث اعرضنا عن تأمل
دلائله والنظر في مخايله وكذبنا الرسل وعبدنا الاوثان وقوله تعالى إِنَّكُمْ خطاب لاهل مكة واكده
لانكارهم مضمون الخبر وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ اي غيره من الاوثان حَصَبُ جَهَنَّمَ اي
وقودها وهو ما يرمى به اليها وتهيج به من حصبه يحصبه اذا رماه بالحصب والحصب في لغة
اهل اليمن الحطب وقال عكرمة هو الحطب بالحبشية قال الضحاك يعني يرمون بهم في النار كما يرمى
بالحصب وقوله تعالى أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ اي داخلون استئناف او بدل من حصب جهنم واللام
معوضة من على للاختصاص والدلالة على ان ورودهم لاجلها لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ اي الاوثان

آلِهَةً اى كما زعمتم مَا وَرَدُوهَا اى ما دخل الاوثان وعابدوها النار وقرأنافع وابن كثير وابو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة فى الوصل بعد تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما وَكُلٌّ اى من العابدين والمعبودين فِيهَا اى فى جهنم خَالِدُونَ لا انفكاك لهم عنها بل يحمى بكل منهم فيها على الاخر فان قيل لم قرنوا بآلهتهم اجيب بانهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة حيث اصابهم ما اصابهم بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب لانهم قدروا انهم يستشفعون بهم فى الآخرة وينتفعون بشفاعتهم فاذا صادفوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ ابغض اليهم منهم فان قيل اذا عنيت بما تعبدون الاوثان فما معنى قوله تعالى لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ اى تنفس عظيم على غاية من الشدة والنكد يخرج معه النفس اجيب بانهم اذا كانوا هم واوثانهم فى قرن واحد جاز ان يقال لهم زفير وان لم يكن الزافرون الا هم دون الاوثان للتغليب ولعدم الالباس وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ شيئا لشدة غليانها وقال ابن مسعود فى هذه الاية اذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت اخرى عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئا ولا يرى احد منهم ان احدا يعذب فى النار غيره وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى افحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله الاية فاقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فاخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله اما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أانت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة فقال صلى الله عليه وسلم بل هم عبدوا الشياطين التى امرتهم بذلك فانزل الله تعالى إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى اى الحكم بالموعدة البالغة فى الحسن فى الازل ومنهم من ذكر سواء اضل باحد منهم الكفار فاطروه ام لا أُولَئِكَ اى العالو الرتبة عَنْهَا اى جهنم مُبْعَدُونَ برحمة الله تعالى لانهم احسنوا فى العبادة واتقوا وهل جزاء الاحسان الا الاحسان وفى رواية عن ابن عباس ان ابن الزبعرى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير ام هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الاية وقد اسلم ابن الزبعرى بعد ذلك رضى الله تعالى عنه ومدح النبى صلى الله عليه وسلم وادعى جماعة ان المراد من الاية الاصنام لان الله تعالى قال وما تعبدون من دون الله ولو اراد الملائكة والناس لقال ومن تعبدون ويروى ان عليا رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الاية ثم قال انا منهم وابو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ثم اقيمت الصلوة فقام يجر رداءه وهو يقول لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا اى حركتها البالغة وصوتها الشديد فكيف

بحادونه لان الحس مطلق الصوت او الصوت الخفي كما قاله البغوي فاذا ازدادت حركته زاد معناه فذكر ذلك بدلا من مبعدون او حال من ضميره للمبالغة فى ابعادهم عنها وهم اى الذين سبقت لهم منا الحسنى فى ما اشتهت انفسهم فى الجنة كما قال تعالى وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين الشهوة طلب النفس اللذة خالدون اى دائما ابدا فى غاية التنعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به • فائدة • فى هنا مقطوعة من ما ولما كان معنى ذلك ان سرورهم ليس له زوال اكده بقوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر قال الحسن هو حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن عباس هو النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وقال ابن جريج هو حين يذبح الموت وينادى يا اهل النار خلود بلا موت وقال سعيد بن جبير هو ان تطبق جهنم وذلك بعد ان يخرج الله تعالى منها من يريد ان يخرجه وتتلقاهم اى تستقبلهم الملائكة قال البغوي على ابواب الجنة يهنئونهم وقال الجلال المحلي عند خروجهم من القبور ولا مانع انها تستقبلهم فى الحالين ويقولون لهم هذا يومكم الذى كنتم توعدون اى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم به فى الدنيا فابشروا فيه بجميع ما يسركم • ولما كانت هذه الافعال على غاية من الاهوال تتشوف بها النفس الى معرفة اليوم الذى تكون فيه قال تعالى يوم اى تكون هذه الاشياء يوم نطوى السماء طيا فتكون كانها لم تكن ثم صور طيها بما يعرفونه فقال مشبها للمصدر الذى دل عليه الفعل كطى السجل واختلف فى السجل فقال بعضهم هو الكاتب الذى له العلو والقدرة على مكتوبه للكتب اى القرطاس الذى يكتبه ويرسله الى احد وقال السدى هو ملك يكتب اعمال العباد وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذه الاقوال اسم للصحيفة المكتوب فيها وقال ابن عباس ومجاهد والاكثرون السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج وهو ضد النشر وانما وقع هذا الاختلاف لان السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب قاله فى القاموس وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الكاف والتاء على الجمع والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبين الكاف والتاء الف على الافراد فقراءة الافراد لمقابلة لفظ السماء والجمع للدلالة على ان المراد الجنس لجميع السموات تطوى روى عن ابن عباس انه قال يطوى الله تعالى السموات السبع بما فيها من الخليقة والارضين السبع بما فيها من الخليقة يطوى ذلك كله بيمينه اى بقدرته حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة وروى عن ابن عباس انه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا اى غير مختونين كما بدأنا اول خلق نعيده اى كما بدأناهم فى بطون امهاتهم عراة غرلا غير مختونين نعيدهم يوم القيامة نظيره قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وعدا واكد ذلك بقوله تعالى علينا وزاده بقوله تعالى انا كنا اى ازلا وابدا على حالة لا تحول فاعلين اى شأننا ان نفعل ما نريد لا كلفة علينا فى شئ من ذلك ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع

كتب الله تعالى المنزلة والذكر ام الكتاب الذى عنده ومعناه من بعد ما كتب ذكره فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس والضحاك الزبور التورية والذكر الكتب المنزلة من بعد التورية وقال الشعبى الزبور كتاب داود والذكر التورية وقيل الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر القرآن وبعد بمعنى قبل كقوله تعالى وكان وراءهم ملك اى امامهم وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها اى قبله وقرأ حمزة بضم الزاى والباقون بفتحها اَنَّ الْاَرْضَ اى ارض الجنة يَرِثُهَا عِبَادِيَ وحقق ذلك ما افاده اضافتهم اليه بقوله تعالى الصّٰلِحُوْنَ اى المتحققون باخلاق اهل الذكر المقبلون على ربهم الموحدون له المشفقون من الساعة الراهبون من سطوته الراغبون فى رحمته الخاشعون له فهذا عام فى كل صالح وقال مجاهد يعنى امة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقال ابن عباس اراد ان اراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل اراد بالارض الارض المقدسة وقيل اراد جنس الارض الشامل لبقاع ارض الدنيا كلها ولارض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى وجرى على هذا البقاعى فى تفسيره وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها اِنَّ فِي هٰذَا اى القرآن كما قال البغوى لَبَلٰغًا اى وصولا الى البغية فان من اتبع القرآن وعمل به وصل الى ما يرجوه من الثواب وقيل بلاغا اى كفاية يقال فى هذا الشئ بلاغ وبلغة اى كفاية والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر وقال الرازى هذا اشارة الى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لِقَوْمٍ عٰبِدِيْنَ اى عاملين به وقال ابن عباس عالمين قال الرازى والاولى انهم الجامعون بين امرين لان العلم كالشجرة والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن وقال كعب الاحبار هم امة محمد صلى الله عليه وسلم اهل الصلوات الخمس وشهر رمضان + ولما كان هذا مشيرا الى ارشادهم فكان التقدير فما ارسلناك الا لاسعادهم عطف عليه قوله تعالى وَمَآ اَرْسَلْنٰكَ اى على حالة من الاحوال الا على حال كونك رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ كلهم اهل السموات واهل الارض من الجن والانس وغيرهم طائعهم بالثواب وعاصيهم بتأخير العقاب الذى كنا نستأصل الامم به فنحن نمهلهم ونترفق بهم لاظهار شرفك واعلاء قدرك ثم نرد كثيرا منهم الى دينك ونجعلهم من اكابر انصارك واعاظم اعوانك بعد طول ارتكابهم الضلال وارتباكهم فى اشراك المحال ومن اعظم ما يظهر فيه هذا الشرف فى عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الله تعالى الاولين والآخرين وتقوم الملائكة صفوفا والثقلان وسطهم ويموج بعضهم فى بعض من شدة ما هم فيه يطلبون من يشفع لهم فيقصدون اكابر الانبياء نبيا نبيا عليهم الصلوة والسلام فيحيل بعضهم على بعض وكل منهم يقول لست لها حتى يأتوه صلى الله عليه وسلم فيقول انا لها ويقوم ومعه لواء الحمد فيشفعه الله تعالى وهو المقام المحمود الذى يغبطه به الاولون والآخرون فهو صلى الله عليه وسلم افضل الخلق اجمعين + ولما ورد تعالى على الكفار بالحجج فى ان لا اله سواه وبين انه ارسل

رسوله رحمة للعالمين اتبع ذلك بامره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى قُلْ اِنَّمَا يُوحٰى اِلَيَّ اَنَّمَا اِلٰهُكُمْ اِلٰهٌ وَّاحِدٌ اى ما يوحى الىّ فى امر الاله الا وحدانيته وما الهكم الا اله واحد لم يوح الىّ فيما تكل عون من الشركة بنحو ذلك فالاول من قصر الصفة على الموصوف والثانى من قصر الموصوف على الصفة والمخاطب بهما من يعتقد الشركة فهو قصر قلب وقال الزمخشرى انما لقصر الحكم على شئ او لقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم وانما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية لان انما يوحى الىّ مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية انتهى، ولما كان الوحى الوارد على هذه السنن موجبا ان يخلصوا التوحيد لله تعالى قال صلى الله عليه وسلم فَهَلْ اَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ اى منقادون لما يوحى الىّ من وحدانية الاله والاستفهام بمعنى الامر اى اسلموا فَاِنْ تَوَلَّوْا اى لم يقبلوا ما دعوتهم اليه فَقُلْ اى لهم اٰذَنْتُكُمْ اى اعلمتكم بالحرب كرجل بينه وبين اعدائه هدنة فاحس منهم بغدرة فنبذ اليهم العهد واشهر النبذ واشاعه واذنهم جميعا بذلك وقوله عَلٰى سَوَآءٍ حال من الفاعل والمفعول اى مستوين فى الاعلام به لم اطوه عن احد منكم ولا استبدّ به دونكم لتتأهبوا وَاِنْ اى وما اَدْرِيْٓ اَقَرِيْبٌ جدا بحيث يكون قربه على ما يتعارفونه اَمْ بَعِيْدٌ مَّا تُوْعَدُوْنَ من غلب المسلمين عليكم او عذاب الله او القيامة المشتملة عليه وان ذلك كائن لا محالة ولا بدّ ان يلحقكم بذلك الذلة والصغار وان كنت لا ادرى متى يكون ذلك لان الله تعالى لم يعلمنى علمه ولم يطلعنى عليه وانما يعلمه الله تعالى اِنَّهٗ تعالى يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ اى ما يجهرون به من الطعن وغير ذلك ونبه تعالى على ذلك فانّ من احوال المجهرات ترتفع الاصوات جدا بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضريها ما قاله اكثر القائلين فاعلم سبحانه وتعالى انه لا يشغله صوت عن اخر ولا يفوته شئ من ذلك ولو كثر وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُوْنَ مما تضمرونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين ونظير ذلك قوله تعالى فى اول السورة قل ربى يعلم القول فى السماء والارض ومن لازم ذلك المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتأجيل فستعلمون كيف تخيب ظنونكم ويتحقق ما اقول فتنطقون حينئذ بانى صادق ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن فهو من ابلغ التهديد فانه لا ابلغ من التهديد بالعلم، ولما كان الامهال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة قال وَاِنْ اى وما اَدْرِيْ ان يكون تاخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون ام لَعَلَّهٗ اى تاخير العذاب فِتْنَةٌ اى اختبار لَّكُمْ ليظهر ما يعلمه منكم من السر لغيره لان حالكم حال من يتوقع منه ذلك وَمَتَاعٌ لكم تتمتعون به اِلٰى حِيْنٍ اى بلوغ مدة اجالكم التى ضربها لكم فى الازل ثم ياخذكم بغتة وانتم لا تشعرون، ولما كان لله ان يفعل ما يشاء من عدل وفضل وكان من العدل جواز تعذيب الله تعالى الطائع وتنعيم المؤمن العاصى وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية فى البيان لهم وهم قد بلغوا النهاية فى اذيته وتكذيبه امر الله تعالى ان يفوض الامر اليه تسلية له بقوله تعالى قٰلَ رَبِّ ايها المحسن الىّ احْكُمْ اى انجز الحكم بينى وبين قومى بِالْحَقِّ

اى بالامر الذى يحق لكل منا من نصر وخذلان وقرأ حفص بفتح القاف والف بعدها وفتح
اللام بصيغة الماضى على حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم والباقون بضم القاف وسكون
اللام بصيغة الامر فان قيل كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم بالحق والله تعالى
لا يحكم الا بالحق اجيب بان الحق ههنا بمعنى العذاب فكأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم
بدر نظيره قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقال اهل المعانى معناه رب احكم بحكمك الحق
فحذف الحكم واقيم الحق مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب ام لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة
من الطالب فى حكمه الحق وَرَبُّنَا اى المحسن الينا اجمعين الرَّحْمٰنُ اى العام الرحمة لنا ولكم بادرارها
علينا ولولا عموم رحمته لاهلكنا اجمعين وان كنا نحن اطعناه لانا لا نقدره حق قدره ولو
يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة الْمُسْتَعَانُ اى المطلوب منه العون
عَلٰى مَا تَصِفُوْنَ من كذبكم على الله تعالى فى قولكم اتخذ الله ولدا وعلى فى قولكم ساحر وعلى القرآن
فى قولكم سحر قال الرازى روى انه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك فى حروبه ولم يذكر له
سندا واما ما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ اقترب حاسبه
الله حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن فحديث موضوع والله تعالى اعلم بالصواب

سورة الحج مكية

الا ومن الناس من يعبد الله على حرف الآيتين والا هذان خصمان الى الست آيات
فمدنيات وهى ثمان وقيل خمس او ست او سبع وسبعون آية

بِسْمِ اللّٰهِ اى الذى اقتضت عظمته خضوع كل شىء الرَّحْمٰنِ الذى عم برحمته كل موجود الرَّحِيْمِ
الذى خص بفضله من شاء من عباده * ولما ختمت السورة التى قبل هذه بالترهيب
من الفزع الاكبر وطى السماء واتيان ما يوعدون وكان اعظم ذلك يوم الدين افتتحت هذه
السورة بالامر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم بقوله تعالى يٰۤاَيُّهَا النَّاسُ اى الذين تقدم
اول تلك انه اقترب لهم حسابهم ان اريد ان ذلك عام والا فهم وغيرهم اتَّقُوْا اى احذروا
عقاب رَبَّكُمْ اى المحسن اليكم بانواع الاحسان بان تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية الطاعات
* ولما امرهم بالتقوى علل ذلك مرهبا لهم بقوله تعالى اِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ اى حركتها الشديدة
للاشياء على الاسناد المجازى فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله ويصح ان يكون الى
المفعول فيه على طريق الاتساع فى الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل
والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها واختلف فى وقتها
فعن الحسن انها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبى عند طلوع الشمس من مغربها
الذى هو اقرب الساعة شَيْءٌ عَظِيْمٌ اى امر كبير وخطر جليل وحادث هائل لا تحتمل العقول
وصفه وهذه الزلزلة نفسها فكيف بجميع ما يحدث فى ذلك اليوم الذى لا بد لكم من الحشر فيه

الى الله تعالى ليجازيكم على ما كان منكم لا ينسى منه نقير ولا قطمير يَوْمَ تَرَوْنَهَا اى الزلزلة او الساعة
اوكل مرضعة اضمرها قبل الذكر تهويلا للامر وترديدا للنفس تَذْهَلُ بسبب ذلك كُلُّ مُرْضِعَةٍ
اى بالفعل اى تنسى وتغفل حائرة مدهوشة والعامل فى يوم تذهل فان قيل لم قال تعالى مرضعة
ولم يقل مرضع اجيب بان المرضعة هى التى فى حال الارضاع ملقمة ثديها للطفل والمرضع التى شانها
ان ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها فقال مرضعة ليدل على ان ذلك الهول اذا فوجئت به
هذه وقد القمت ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة عَمَّا أَرْضَعَتْ عن ارضاعها او عن
الذى ارضعته وهو الطفل فما اما مصدرية او موصولة وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا اى تسقطه قبل التمام
رعبا وفزعا تنبيه هذا ظاهر على القول الثانى وهو قول علقمة والشعبى على ان ذلك يكون
عند طلوع الشمس من مغربها واما على القول الاول وهو قول الحسن على ان ذلك يوم القيامة
كيف يكون ذلك فقيل هو تصوير لهولها قاله البيضاوى وقال البقاعى فى المرضعة هى من ماتت
مع ابنها رضيعا وفى ذات الحمل من ماتت حاملا فان كل احد يقوم على ما مات عليه وهذا اولى
فانى فى حال كتابتى فى هذا المحل حضر عندى سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى نفعنا الله تعالى
ببركته فذكرت له هذين القولين فانشرح صدره للتوجيه الثانى وذلك يوم تاسوعاء من شهر الله
المحرم سنة ست وخمسين وتسعمائة وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل
ما فى بطنها بغير تمام ويؤيد ان هذه الزلزلة تكون بعد البعث ما روى عن ابى سعيد الخدرى انه قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ادم فيقول لبيك وسعديك زاد فى رواية
والخير فى يديك فينادى بصوت ان الله يامرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يا رب وما بعث النار
قال من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وساق بقية الاية
وهو وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى اى لما هم فيه من الدهشة والحيرة ثم بين الله تعالى ان ذلك ليس بسكر
حقيقة بقوله تعالى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى اى من الشراب ولما نفى ان يكونوا سكارى من الشراب اثبت
ما اوجب لهم تلك الحالة بقوله وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ ذى القوة والجبروت شَدِيدٌ فهو الذى اوجب ان يظن
بهم السكر لان هوله اذهب عقولهم وطير تمييزهم ثم الحديث عند اخر الاية فشق ذلك على الناس حتى
تغيرت وجوههم زاد فى رواية قالوا يا رسول الله اينا ذلك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من ياجوج وماجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم انتم فى الناس كالشعرة السوداء فى الثور
الابيض او كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وانى ارجو ان تكونوا ربع
اهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث اهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر اهل الجنة فكبرنا وفى رواية انى لارجو ان تكونوا
ثلثى اهل الجنة وروى عمران بن حصين رضى الله عنه ان هاتين الايتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق ليلا
فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقراهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم نر اكثر باكيا من تلك الليلة فلما اصبحوا لم يحطوا

تنبيه

السرج عن الدواب ولم يقربوا الطعام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم
قم فابعث بعث النار وذلك نحو حديث أبي سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من أمتي سبعون ألفا الجنة
بغير حساب قال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين
وسكون الكاف فيهما والباقون بضم السين وفتح الكاف وبعد الكاف ألف وأمال الألف بعد الراء
أبو عمرو وحمزة والكسائي محضة وورش بين بين والباقون بالفتح ونزل في النضر بن الحرث وكان
كثير الجدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين
وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابا ومن الناس أي المذبذبين من لا يسعى في إعلاء نفسه
وتهذيبها فيكذب فيوبق بسوء عمله لأنه يجادل في الله أي في قدرته على ذلك اليوم وفي غير ذلك
بعد أن جاءه العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم بغير علم بل بالباطل الذي هو جهل صرف فيترك اتباع
الهداة ويتبع بغاية جهده في جداله كل شيطان محترق بالسوء مبعد باللعن مريد أي متجرد
للفساد ولا شغل له غيره قال البيضاوي وأصله العري أي عن الساتر كتب أي قدر وقضي على
سبيل الحتم الذي لا بد منه تعبيرا باللازم عن الملزوم عليه أي على ذلك الشيطان أنه أي الشأن
من تولاه أي فعل معه فعل الولي مع وليه باتباعه والإقبال على ما يزينه فأنه يضله بما يبغض إليه
من الطاعات فيخطئ سبيل الخير ويهديه أي بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات إلى عذاب
السعير أي النار ثم ألزم الحجة منكري البعث بقوله تعالى يا أيها الناس أي كافة ويجوز أن يراد به
المنكر فقط إن كنتم في ريب أي شك وتهمة وحاجة إلى البيان من البعث وهو قيام الأجسام بأرواحها
كما كانت قبل مماتها فتفكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم
إنه سبحانه وتعالى ذكر مراتب الخلقة الأولى أمورا سبعة المرتبة الأولى قوله تعالى فإنا خلقناكم
بقدرتنا التي لا يتعاظمها شيء من تراب لم يسبق له اتصاف بالحيوة وفي الخلق من تراب وجهان
أحدهما أنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه الصلوة والسلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب
الثاني من الأغذية والأغذية إما حيوانية وإما نباتية وغذاء الحيوان ينتهي إلى النبات قطعا للتسلسل
والنبات إنما يتولد من الأرض والماء فصح قوله تعالى إنا خلقناكم من تراب المرتبة الثانية قوله تعالى
ثم من نطفة وحالها أبعد شيء عن حال التراب فإنها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال تعالى من ماء دافق
وأصلها الماء القليل قاله البغوي وأصل النطف الصب قاله البيضاوي المرتبة الثالثة قوله تعالى ثم من علقة
أي قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة
المرتبة الرابعة قوله تعالى ثم من مضغة أي قطعة لحم صغيرة وهي في الأصل قدر ما يمضغ مخلقة أي
مسواة لا نقص فيها ولا عيب يقال خلق السواك والعود سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء
إذا كانت ملساء وغير مخلقة أي وغير مسواة فكان الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها

ما هو كامل الخلقة واملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت
تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم هذا قول قتادة والضحاك
وقال مجاهد المخلقة الولد الذي يخرج حيا وغير المخلقة السقط وقال قوم المخلقة المصورة وغير المخلقة
غير المصورة وهو الذي يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله بن
مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت في الرحم اخذها ملك بكفه وقال اي رب مخلقة او غير مخلقة
فان قال غير مخلقة قذفها في الرحم دما ولم يكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك اي رب اذكر ام انثى
وشقي ام سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق باي ارض تموت فيقال له اذهب الى ام الكتاب
فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في ام الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى ياتي على
آخر صفتها والذي اخرجاه في الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق
المصدوق ان خلق احدكم يجمع في بطن امه اربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم
يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه واجله وعمله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه
الروح فوالذي لا اله غيره ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه
الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع
فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها فكانه تعالى يقول انما نقلناكم من حال الى حال
ومن خلقة الى خلقة لِنُبَيِّنَ لَكُمْ بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من التراب والماء
اولا ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين التراب والماء وقدر على ان يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ثم
يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما قدر على اعادة ما ابداه بل هذا ادخل في القدرة من تلك واهون
في القياس وورود الفعل غير معدى الى المبين اعلام بان افعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه
ما لا يحيط به الوصف ولا يكتنهه الذكر وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ اي من ذلك الذي خلقناه مَا نَشَاءُ اتمامه
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى هو وقت الوضع وادناه بعد ستة اشهر واقصاه اربع سنين بحسب قوة الارحام وضعفها
وقوة المخلقات وضعفها وكثرة تغذيه من الدماء وقلته الى غير ذلك من احوال وشؤون لا يعلمها الا باريها
جلت قدرته وتعالت عظمته وما لم نشأ اقراره مجته الارحام واسقطته دون التمام او محوقه فيضمحل
المرتبة الخامسة قوله تعالى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا وهو معطوف على نبين ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدريج
لغرضين احدهما ان نبين قدرتنا والثاني ان نقر في الارحام من نقر حتى يولدوا في حال الطفولية من صغر الجثة
وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس لئلا تهلكوا امهاتكم بكبر اجرامكم وعظم اجسامكم المرتبة السادسة
قوله تعالى ثُمَّ اي نمد اجلكم لِتَبْلُغُوا بهذا الانتقال في اسنان الاجسام من الرضاع الى المراهقة الى البلوغ الى
الكهولة أَشُدَّكُمْ اي الكمال والقوة وهو ما بين الثلاثين الى الاربعين جمع شدة كالانعم جمع نعمة كانه
شدة في الامور المرتبة السابعة قوله تعالى وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى اي عند بلوغ الاشد او قبله وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ في الشيخوخة
وبناؤه للمجهول اشارة الى سهولته عليه لاستبعاده لولا تكرار المشاهدة عند الناظر لتلك القوة والنشاط

وحسن التواصل بين اعضائه والارتباط الى ارذل اى اخس العمر وهو سن الهرم فتنقص جميع قواه
لكيلا يعلم من بعد علم كان اوتيه شيئا اى ليعود كهيئته الاولى فى اوان الطفولية من سخافة العقل
وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر من عرفه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك من هذا فتقول
فلان فما يلبث لحظة الا سألك عنه فان قيل هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه
اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات اجيب بان معنى قوله تعالى ثم رددناه اسفل
سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجرى مجرى العقوبة ولذلك قال تعالى الا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات لكن قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة فقد علم بعود الانسان فى ذهاب
العلم وصغر الجسم الى نحو ما كان عليه فى ابتداء الخلق قطعا ان الذى اعاده الى ذلك قادر على
اعادته بعد الممات ولما تم هذا الدليل على الساعة بحكم المقدمات واضح النتائج وكان اول
الايجاد فيه غير مشاهد ذكر الله تعالى دليلا آخر على البعث مشاهدا بقوله وترى الارض هامدة
اى يابسة ساكنة سكون الميت فاذا انزلنا اى بما لنا من القدرة عليها الماء اهتزت اى
تحركت وتاهلت لاخراج النبات وربت اى ارتفعت وذلك اول ما يظهر منها للعين وزادت
ونمت بما يخرج منها من النبات الناشئ عن التراب والماء وقوله تعالى وانبتت مجاز لان الله
تعالى هو المنبت واضيف الى الارض توسعا اى انبتت بتقديرنا الانواع النابتة من كل زوج اى
صنف بهيج اى حسن نضير من اشتات النبات فى اختلاف الوانها وطعومها وروائحها واشكالها
ومنافعها ومقاديرها قال الجلال المحلى من زائدة ولم ار من ذكر ذلك من المفسرين تنبيه
فى الآية اشارة الى ان النبات كما يتوجه من نقص الى كمال فكذلك الانسان المؤمن يترقى من
نقص الى كمال ففى المعاد يصل الى كماله الذى اعده من البقاء والغنى والعلم والصفاء والخارج
فى دار السلام مبرأ من عوارض هذا العالم ولما قرر سبحانه هذين الدليلين رتب عليهما
ما هو المطلوب والنتيجة وذكر امورا خمسة احدها قوله تعالى ذلك اى المذكور من بدء الخلق
الى اخر احياء الارض بان اى بسبب ان تعلموا ان الله اى الجامع لاوصاف الكمال هو اى وحده
الحق اى الثابت الدائم وما سواه فان ثانيها قوله تعالى وانه يحيى الموتى اى قادر على ذلك
والا لما احيا النطفة والارض الميتة ثالثها قوله تعالى وانه على كل شئ من الخلق وغيره قدير
انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون رابعها قوله تعالى وان الساعة التى تقدم
ذكرها وتقدم التحذير منها وهى حشر الخلائق كلهم آتية لا ريب اى لا شك فيها اى
بوجه من الوجوه مما دل عليها فلا سبيل الى انكارها بقول من لا مرد لقوله وهو حكيم لا يخلف
الميعاد ولا يسوغ بوجه ان يترك عباده بغير حساب خامسها قوله تعالى وان الله يبعث
بالاحياء من فى القبور بمقتضى وعده الذى لا يقبل الخلف وقد وعد بالساعة والبعث فلا بد ان
يفى بما وعد ونزل فى ابى جهل بن هشام كما قاله ابن عباس ومن الناس من يجادل اى بغاية

يجادل في الله اي في قدرته وما يجب له هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا البيان الذي
لامثل له ولاخفاء فيه بغير علم اتاه عن الله تعالى على لسان احد من اصفيائه اعم من ان يكون
كتابا او غيره ولا هدى اي ارشاد اليه اعم من كونه بضرورة او استدلال ولا كتاب منير له نور منه
ظهر له به انه من الله تعالى ومن المعلوم انه بانتفاء هذه الثلاثة لايكون جداله الا بالباطل وقيل
قوله تعالى ومن الناس كرر كما كررت سائر الاقاصيص وقيل الاول في المقلدين وهذا في المقلدين وقوله
تعالى ثاني عطفه حال اي لاوي عنقه تكبرا عن الايمان كما قال تعالى واذا تتلى عليه اياتنا ولى مستكبرا
والعطف في الاصل الجانب عن يمين او شمال وقوله تعالى ليضل عن سبيل الله علة للجدال وقرأ
ابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون بضمها فان قيل على قراءة الضم ما كان غرضه في جداله
الضلال لغيره عن سبيل الله فكيف علل به وما كان على قراءة الفتح مهتديا حتى اذا جادل
خرج بالجدال عن الهدى الى الضلال اجيب عن الاول بان جداله لما ادى الى الضلال جعل كانه
غرضه وعن الثاني بان الهدى لما كان معرضا له فتركه واعرض عنه واقبل على الجدال الباطل جعل
كالخارج من الهدى الى الضلال ✦ ولما ذكر فعله وثمرته ذكر ما اعد له عليه في الدنيا بقوله تعالى
له في الدنيا خزي اي اهانة وذل وان طال زمن استدراجه بتنعيمه حق على الله ان لا يرفع شيئا
من الدنيا الا وضعه وما اعد له عليه في الاخرة بقوله تعالى ونذيقه يوم القيامة الذي يجمع فيه
الخلائق بالاحياء بعد الموت عذاب الحريق اي الاحراق بالنار وعن الحسن قال بلغني ان احدهم يحرق في اليوم
سبعين الف مرة ويقال له حقيقة او مجازا ذلك اي العذاب العظيم بما قدمت يداك اي بعملك ولكن
جرت عادة العرب ان تضيف الاعمال الى اليد لانها الة اكثر العمل واضافه ما يؤدي اليهما الكي وان
اي وبسبب ان الله ليس بظلام اي بذي ظلم ما للعبيد وانما هو مجازيهم على اعمالهم او ان المبالغة
لكثرة العبيد ✦ ونزل في قوم من الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان احدهم
اذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا وولدت امراته غلاما وكثر ماله قال هذا دين
حسن وقد اصبت به خيرا واطمان به وان كان الامر بخلافه قال ما اصبت الا شرا فينقلب عن دينه
ومن الناس من يعبد الله اي يعمل على سبيل الاستمرار والتجدد بما امر الله به من طاعته على حرف
فهو متزلزل كتزلزل من يكون على حرف شفير او جبل او غيره لا استقرار له وكالذي على طرف من العسكر
فان راى غنيمة استمر وان توهم خوفا طار وفر وذلك معنى قوله تعالى فان اصابه خير اي من الدنيا
اطمان به اي بسببه وثبت على ما هو عليه وان اصابته فتنة اي محنة وسقم في نفسه وماله انقلب على
وجهه اي رجع الى الكفر وعن ابي سعيد الخدري ان رجلا من اليهود اسلم فاصابته مصائب فتشاءم
بالاسلام فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقلني فقال ان الاسلام لا يقال فنزلت ✦ ولما كان
انقلابه هذا مفسدة لدنياه ولاخرته قال تعالى خسر الدنيا بفوات ما امله منها ويكون ذلك
سبب التقتير عليه قال تعالى ولو انهم اقاموا التورية والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا

من فوقهم ومن تحت ارجلهم وروى ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وَالْاٰخِرَةَ بالكفر ثم
عظم مصيبته بقوله تعالى ذٰلِكَ اى الامر العظيم هُوَ اى لا غيره الْخُسْرَانُ الْمُبِيْنُ اى البين اذ لا خسران مثله
ثم بين هذا الخسران الذى ردّه الى ما كان فيه قبل الايمان الحرفى بقوله تعالى يَدْعُوْا اى يعبد
حقيقة او مجازا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اى غيره من الصنم مَا لَا يَضُرُّهٗ ان لم يعبده وَمَا لَا يَنْفَعُهٗ ان عبده
ذٰلِكَ اى الدعاء هُوَ الضَّلٰلُ الْبَعِيْدُ عن الحق والرشاد استعير الضلال البعيد من ضلال من
ابعد فى التيه ضالا فطالت وبعدت مسافة ضلاله + ولما كان الاحسان جالبا للانسان
لان القلوب جبلت على حب من احسن اليها بين ان ما قيل فى جلب النفع انما هو على سبيل
الفرض فقال تعالى يَدْعُوْا لَمَنْ اى من ضَرُّهٗ بكونه معبودا لانه يوجب القتل والخزى فى الدنيا
والعذاب فى الاخرة اَقْرَبُ مِنْ نَّفْعِهٖ الذى يتوقع منه بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها
الى الله تعالى + تنبيه + علم مما تقرر ان اللام فى لمن مزيدة كما قال الجلال المحلى فان قيل الضر
النفع منفيان عن الاصنام مثبتان لها فى الايتين وهذا متناقض اجيب بان المعنى اذا حصل
ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى سفه الكافر بانه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد
فيه بجهله وضلاله انه ينتفع به حين يستشفع به ثم يوم القيامة يقوم هذا الكافرين دعاء وصراخ
حين يرى استضراره بالاصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى اثر الشفاعة التى ادعاها لها وقيل الاية
الاولى فى الاصنام والثانية فى الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم بدليل قوله تعالى لَبِئْسَ الْمَوْلٰى اى
الناصر هو وَلَبِئْسَ الْعَشِيْرُ اى الصاحب هو قال الرازى وهذا الوصف بالرؤساء اليق لان ذلك لا يكاد
يستعمل فى الاوثان فبين تعالى انهم يعدلون عن عبادة الله الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء
+ ولما بين سبحانه وتعالى حال الكفار عقبه بحال المؤمنين بقوله تعالى اِنَّ اللّٰهَ اى الجامع لجميع صفات
الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص يُدْخِلُ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا بالله ورسله وَعَمِلُوا تصديقا لايمانهم الصّٰلِحٰتِ
من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان جَنّٰتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا اى فى اى مكان
من ارضها الْاَنْهٰرُ + ولما بين سبحانه وتعالى حال الفريقين قال تعالى اِنَّ اللّٰهَ اى المحيط بكل شئ
قدرة وعلما يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ من اكرام من يطيعه واهانة من يعصيه لا دافع له ولا مانع وقوله تعالى
مَنْ كَانَ يَظُنُّ اَنْ لَّنْ يَّنْصُرَهُ اللّٰهُ فِى الدُّنْيَا وَالْاٰخِرَةِ فيه اختصار والمعنى ان الله ناصر رسوله فى الدنيا
والاخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فالضمير راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم
فان قيل لم يجر له ذكر فى هذه الاية اجيب بان فيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان فى قوله تعالى
ان الله يدخل الذين امنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله وقيل الضمير راجع الى من فى اول الاية
لانه المذكور ومن حق الكناية ان ترجع الى المذكور اذا امكن ذلك وعلى هذا المراد بالنصر
الرزق قال ابو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال من ينصرنى نصره الله اى من يعطنى
اعطاه الله فكانه قال من كان يظن ان لن يرزقه الله فى الدنيا والاخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ اى

بحبل إِلَى السَّمَاءِ أي سقف بيته يشدّ بينه وبين عنقه ثُمَّ لْيَقْطَعْ أي ليختنق به بأن يقطع نفسه
من الأرض كما في الصحاح وقيل فليمدد حبلا إلى سماء الدنيا ثم ليصعد عليه فيجتهد في دفع نصر
النبي صلى الله عليه وسلم على الأول أو يحصل رزقه على الثاني وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر
اللام والباقون بسكونها فَلْيَنْظُرْ ببصره وبصيرته هَلْ يُذْهِبَنَّ وإن اجتهد كَيْدُهُ في عدم نصرة
النبي صلى الله عليه وسلم أو في تحصيل رزقه مَا يَغِيظُ من ذلك والمعنى فليختنق غيظا فإنه لابد من
نصرته صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته أو أن ذلك لا يغلب القسمة فإن الأرزاق بيد الله لا تنال
إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وهذا كما يقال لمن أدبر عنه أمر فجزع اضرب برأسك الجدار إن
لم ترض هذا ومت غيظا ونحو ذلك والحاصل أنه إن لم يصبر طوعا صبر كرها واختلف في سبب نزول هذه
الآية على القول الأول فذكروا فيها وجوها أحدها كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على الكفار يستبطئون
ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت ثانيها قال مقاتل نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف
أن الله لا ينصر محمدا فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ثالثها أن حساده
وأعداءه كثيرة وكانوا يتوقعون أن لا ينصره وأن لا يعينه على أعدائه فمتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم
ذلك وَكَذَلِكَ أي ومثل ما أنزلنا هذه الآيات ببيان حكمها وإظهار أسرارها أَنْزَلْنَاهُ أي القرآن
الباقي وقوله تعالى آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ أي معجزا نظمها كما كان معجزا حكمها حال وقوله تعالى وَأَنَّ اللَّهَ أي
الموصوف بالإكرام كما هو موصوف بالانتقام يَهْدِي أي بآياته مَنْ يُرِيدُ أي هدايته أي تثبيته على
الهدى معطوف على محل أنزلناه ولما قال تعالى وأن الله يهدي من يريد أتبعه ببيان من يهديه
ومن لا يهديه وبدأ بالقسم الأول بقوله إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بالله ورسوله وعبر بالفعل ليشمل الإقرار
باللسان الذي هو أدنى وجوه الإيمان ثم شرع في القسم الثاني بقوله تعالى وَالَّذِينَ هَادُوا أي انتحلوا
اليهودية وَالصَّابِئِينَ وهم فرقة من النصارى سميت بذلك قيل لنسبتها إلى صابئ عم نوح عليه السلام
وقيل لخروجهم عن دين إلى دين آخر وإطلاق الصابئة على هذا هو المشهور وتارة يوافقونهم في أصول
دينهم فتحل مناكحتهم وتارة يخالفونهم فلا تحل مناكحتهم وتطلق أيضا على قوم أقدم من النصارى
يعبدون الكواكب السبعة ويضيفون الآثار إليها وينفون الصانع المختار فهؤلاء لا تحل مناكحتهم
وقد أفتى الإصطخري والمحاملي بقتلهم لما استفتى القاهر الفقهاء فيهم فبذلوا له أموالا كثيرة
فتركهم والبلد ... وقرأ نافع بالياء التحتية بعد الباء والباقون بهمزة مكسورة بعد الباء الموحدة
وَالنَّصَارَى أي الذين انتحلوا دين النصرانية وَالْمَجُوسَ قال قتادة هم عبدة الشمس والقمر والنيران
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا هم عبدة الأوثان قال مقاتل الأديان كلها ستة واحد للرحمن وهو الإسلام
وخمسة للشيطان وقيل خمسة أربعة للشيطان وواحد للرحمن وجعل الصابئين مع النصارى لأنهم
نوع منهم كما مر على المشهور وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة البقرة إِنَّ اللَّهَ الذي هو أحكم
الحاكمين يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بإدخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار وادخلت أن

على كل واحد من جزاى الجملة لزيادة التاكيد ونحوه قول جرير ــه ان الخليفة ان الله سربله + سربال
ملك به ترجى الخواتيم + ثم علل ذلك بقوله تعالى إِنَّ اللهَ اى الجامع لجميع صفات الكمال عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ من
الاشياء كلها شَهِيدٌ اى عالم به علم مشاهدة أَلَمْ تَرَ اى تعلم أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ اى يخضع منقادا لامره
سبحانه مسخرا لما يريد منه تسخيرا من هو فى غاية الاجتهاد فى العبادة والاخلاص فيها مَنْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ان خصصت بذلك العاقل فهم خضوع غيره من باب اولى وان
ادخلت غير العاقل فبالتغليب ثم اتبعه باشرف ما ذكر مما لا يعقل لان كلا منها عبد من دون
الله او عبد شئ منه فقال تعالى وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ من الاجرام العلوية فعبد الشمس حمير والقمر
كنانة والدبران تميم والشعرى لخم والثريا طئ وعطارد اسد قاله ابو حيان روى عن عمرو بن
دينار قال سمعت رجلا يطوف بالبيت ويبكى فاذا هو طاوس فقال اعجبت من بكائى قلت نعم
قال ورب الكعبة ان هذا القمر ليبكى من خشية الله ولا ذنب له + ثم اتبع ذلك اعلى الذوات
السفلية فقال وَالْجِبَالُ اى التى قد نحتت منها الاصنام وَالشَّجَرُ اى التى عبد بعضها وَالدَّوَابُّ
اى التى عبد منها البقر كل هذه الاشياء تنقاد لامر الله ولا تأبى عن تدبيره وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وهم
المؤمنون بزيادة الخضوع سجد سجودا هو منه عبادة مشروعة فحق له الثواب وَكَثِيرٌ اى من الناس
حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وهم الكافرون لانهم ابوا السجود المتوقف على الايمان وَمَنْ يُهِنِ اللهُ اى يشقه سجدة
فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ اى مسعد لانه لا قدرة لغيره اصلا إِنَّ اللهَ اى الملك الاعظم يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ من الاكرام
والاهانة لا مانع له من ذلك نقل عن على رضى الله تعالى عنه انه قيل له ان رجلا يتكلم فى المشيئة
فقال له على يا عبد الله خلقك الله لما يشاء او لما شئت قال بل لما يشاء قال فيمرضك اذا شاء او
اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيشفيك اذا شاء او اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيدخلك حيث
شئت او حيث يشاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه
عيناك بالسيف + ولما بين تعالى ان الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه
العذاب ذكر كيفية اختصامهم بقوله تعالى هَٰذَانِ خَصْمَانِ اى المؤمنون خصم والكفار الخمسة
خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف اخْتَصَمُوا اى
اوقعوا الخصومة بغاية الجهد فِي رَبِّهِمْ اى دينه وروى عن قيس بن عباد قال سمعت ابا ذر يقسم
قسما ان هذه الاية هذان خصمان اختصموا فى ربهم نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى
وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة اخرجاه فى الصحيحين وعن ابن عباس
قال لما بارز على وحمزة وعبيدة عتبة وشيبة والوليد قالوا لهم تكلموا نعرفكم قال انا على وهذا حمزة وهذا
عبيدة فقالوا اكفاء كرام فقال على ادعوكم الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عتبة
هلم للمبارزة فبارز على شيبة فلم يلبثه ان قتله وبارز حمزة عتبة فقتله وبارز عبيدة الوليد فصعق
عليه فاتى على فقتله فنزلت وعن قتادة نزلت الاية فى المسلمين واهل الكتاب فقال اهل الكتاب

نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن اولى بالله منكم قال المسلمون كتابنا يقضي على الكتب كلها
ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء فنحن اولى بالله منكم وعن ابن عباس انها نزلت كذلك لكن
قال اهل الكتاب نحن اولى بالله واقدم بين يديكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن احق بالله
منكم آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما انزل الله من كتاب وانكم تعرفون نبينا وكتابنا
ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم في ربهم وقيل المؤمنون والكافرون من اي ملة كانوا
فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار لما روي عن ابي هريرة انه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار اوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة
مالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله عز وجل للجنة انت رحمتي ارحم بك من اشاء
من عبادي وقال للنار انما انت عذابي اعذب بك من اشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها
وعن عكرمة قالت النار خلقني الله لعقوبته وقالت الجنة خلقني الله لرحمته وهذا القول بعيد عن
السياق لان الله تعالى ذكر جزاء الخصمين بقوله تعالى فَالَّذِينَ كَفَرُوا وهو الفصل بينهم المعني بقوله
تعالى ان الله يفصل بينهم يوم القيامة قُطِّعَتْ اي قدرت لَهُمْ على مقادير جثثهم ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ اي
نيران تحيط بهم احاطة الثياب سابغة عليهم كما كانوا يسبلون الثياب في الدنيا فخرا وتكبرا
وعن ابراهيم التيمي انه قال سبحان من قطع من النار ثيابا وعن سعيد بن جبير قال قطعت من
نحاس وليس من الآنية شيء اذا حمي اشد حرارة منه وقال في قوله يُصَبُّ اي اذا دخلوها مِن فَوْقِ
رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ قال ابن النحاس يذاب على رؤسهم ولكن المشهور انه الماء الحار وعن ابن عباس
لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لاذابتها والجملة حال من الضمير في لهم او خبر ثان وقرأ ابو عمرو
في الوصل بكسر الهاء والميم وقرأ حمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا
في الوصل فان وقف على رؤسهم فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم وحمزة على اصله في الوقف على رؤسهم
بتسهيل الهمزة يُصْهَرُ اي يذاب بِهِ من شدة حرارته مَا فِي بُطُونِهِمْ من شحم وغيره وَالْجُلُودُ
فيكون اثره في الباطن والظاهر سواء وقال ابن عباس يسقون ماء اذا دخل بطونهم اذابها
والجلود مع البطون وَلَهُم مَّقَامِعُ جمع مقمعة بكسر ثم فتح وهو عمود حديد وقيل سوط يضرب به
الوجه والراس ليرد المضروب عن مراده ردا عنيفا ثم نفى المجاز بقوله تعالى مِنْ حَدِيدٍ اي يقمعون
بها روى ابو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو ان مقمعا من حديد وضع
في الارض فاجتمع الثقلان ما اقلوه من الارض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان
كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا اي من تلك الثياب او من النار مِنْ غَمٍّ اي كلما حاولوا الخروج من النار
لما يلحقهم من الغم والكرب الذي ياخذ بانفسهم أُعِيدُوا فِيهَا اي ردوا اليها بالمقامع وعن الحسن
انهم يضربون بلهب النار فترفعهم حتى اذا كانوا في اعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين
خريفا وعن الفضيل بن عياض قال والله ما طمعوا في الخروج لان الارجل مقيدة والايدي

موثقة ولكن يرفعهم لهيبها وتردهم مقامعها وعن الحسن قال كان عمر يقول اكثروا ذكر النار فان حرها
شديد وقعرها بعيد وان مقامعها من حديد وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق اي البالغ نهاية
الاحراق . ولما ذكر تعالى ما لاحد الخصمين وهم الكافرون اتبعه ما للآخر وهم المؤمنون وغير الاسلوب
فيه حيث لم يقل والذين آمنوا عطفا على الذين كفروا واسند الادخال فيه الى الله تعالى واكده بان
احمادا لحال المؤمنين وتعظيما لشأنهم فقال ان الله اي الذي له الامر كله يدخل الذين آمنوا بالله
ورسله وعملوا تصديقا لايمانهم الصالحات من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم
في الايمان جنات تجري اي دائما من تحتها الانهار اي المياه الواسعة اينما اردت من ارضها
جرى لك نهر في مقابلة ما يجري من فوق رؤس اهل النار وعن معاوية عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال ان في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد اخرجه
الترمذي وقال حديث صحيح يحلون فيها من حليت المرأة اذا لبست الحلي في مقابلة ما يزال من
بواطن الكفرة وظواهرهم وقوله تعالى من اساور صفة مفعول محذوف اي حليا من اساور ومن
زائدة او تبعيضية واساور جمع اسورة وهي جمع سوار ولما كان المقصود الحث على التقوى العلية
الى الانعام بالفضل سوق اليه باعلى ما يعرف من الحلية فقال من ذهب وقوله تعالى ولؤلؤا
معطوف على اساور لا على ذهب لانه لم يعهد السوار منه الا ان يراد المرصعة وعن ابي موسى
الاشعري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان
من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه
في جنة عدن وعن ابي سعيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان ادنى لؤلؤة
منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب اخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقرأ نافع وعاصم بنصب
الهمزة الثانية مع التنوين عطفا على محل اساور واضمار الناصب مثل ويؤتون والباقون بالخفض مع
التنوين وابدل الهمزة الاولى الساكنة حرف مد السوسي وابو بكر وهذا حالة الوصل واما الوقف
فحمزة يبدل الاولى واوا وكذا الثانية تبدل واوا وله ايضا فيها الروم وقوله تعالى ولباسهم فيها
حرير وهو الابريسم المحرم لبسه على الرجال المكلفين في الدنيا في مقابلة ثياب الكفار كما كان لباس الكفار
في الدنيا حريرا ولباس المؤمنين دون ذلك وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله ابن الزبير عن
عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تلبسوا الحرير فان من لبسه في الدنيا لم يلبسه
في الآخرة قال ابن كثير قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى ولباسهم
فيها حرير انتهى وفي الصحيحين ايضا عن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما يلبس هذا من
لا خلاق له في الآخرة قال البقاعي فيوشك المتشبه بالكفار في لباسهم ان يلحقه الله بهم فلا يموت مسلما
اهـ والاولى ان يحمل ذلك على انه لا يلبسه مع السابقين فان من مات على الاسلام لا بد من دخوله الجنة
او على من استحله من الرجال المكلفين وهدوا اي في الدنيا الى الطيب من القول قال ابن عباس

هو شهادة ان لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله اكبر والحمد لله وسبحان الله وقال السدى هو القرآن وقال عطاء هو قول اهل الجنة الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ اى طريق الله المحمود ودينه فكان فعلهم حسنا كما كان قولهم حسنا فدخلوا الجنة التى هى اشرف دار عند خير جار وحلوا فيها اشرف الحلى كما تحلوا فى الدنيا باشرف الطرائق عكس الكفار فانهم آثروا الفانى لحضوره واعرضوا عن الباقى مع شرفه لغيابه فدخلوا النار كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها ثم ذكر تعالى بعد ما فصل بين الفريقين حرمة البيت وعظم جرم من صد عنه فقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اى اوقعوا هذا الفعل الخبيث ومع عطف ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ وان كان مضارعا على الماضى لان المضارع قد لا يلاحظ منه زمان معين من حال او استقبال بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كما يقال فلان يحسن الى الفقراء لا يراد حال ولا استقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه فالصد ودمنهم مستمر دائم للناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اى عن طاعته باقتسامهم طرق مكة يقول بعضهم لمن يريد يخرج فينا ساحر واخر يقول شاعر واخر يقول كاهن فلا تسمعوا منه فانه يريد ان يردكم عن دينكم حتى قال من اسلم لم يزل الى حتى جعلت فى اذنى الكرسف مخافة ان اسمع شيئا من كلامهم وكانوا يؤذون من اسلم الى غير ذلك من اعمالهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ان تقام شعائره من الطواف بالبيت والصلوة والحج والاعتمار ممن هو اهل ذلك من اوليائنا ثم وصفه بما يبين شدة ظلمهم فى الصد عنه بقوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ﴾ بما لنا من العظمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ اى كلهم ثم بين جعله لهم بقوله تعالى ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ﴾ اى المقيم ﴿فِيهِ وَالْبَادِ﴾ اى الطارئ من البادية وهو الجائى اليه من غربة وقال بعضهم يدخل فى العاكف الغريب اذا جاء للتعبد وان لم يكن من اهله قال الزمخشرى وقد استشهد بهذا اصحاب ابى حنيفة قائلين ان المراد بالمسجد الحرام مكة على امتناع جواز بيع دور مكة واجارتها انتهى وايضا هو مذهب ابن عمر وعمر بن عبد العزيز واسحق الحنظلى المعروف بابن راهويه قال البيضاوى وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى الذين اخرجوا من ديارهم الآية وشرى عمر دارا للسجن فيها من غير نكير انتهى ووجه الرازى الضعف بقوله لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام او فى الاكثر فلا يلزم ما ذكر ويحتمل ان يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن فى كل وقت من الاوقات من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات انتهى واستدل ايضا للجواز بقوله صلى الله عليه وسلم لما قال له اسامة بن زيد يا رسول الله اتنزل غدا بدارك بمكة فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع او دور وكان عقيل ورث ابا طالب دون على وجعفر لانهما كانا مسلمين ولا يورث الا ما كان البيت مالكا له قال الرويانى ويكره بيعها واجارتها للخروج من الخلاف ونازعه النووى فى مجموعه وقال انه خلاف الاولى لانه لم يرد فيه نهى مقصود والاول كما قال الزركشى هو المنصوص بل اعترض على النووى فانه صرح بكراهة بيع المصحف والشطرنج ولم يرد فى ذلك نهى مقصود * تنبيه * محل الخلاف بين العلماء

فى بيع نفس الارض اما البناء فهو مملوك يجوز بيعه بلا خلاف اى اذا لم يكن من اجزاء ارضها قيل ان اسحق الحنظلى ناظر الشافعى رضى الله تعالى عنه بمكة فى بيع دور مكة فاستدل الشافعى بما مر واستدل هو على المنع بقوله حدثنى بعض التابعين بانها لا تباع فقال له الشافعى لو قام غيرك مقامك لامرت بفرك اذنيه اقول لك قال الله ورسوله تقول حدثنى بعض التابعين وقال الرازى فقال اسحق فلما علمت ان الحجة لزمتنى تركت قولى وقرأ حفص سواء بالنصب على انه ثانى مفعولى جعلناه اى جعلناه مستويا العاكف فيه والباد والباقون بالرفع على ان الجملة مفعول ثان لجعلناه ويكون للناس حالا من الهاء ويصح ان يكون حالا من المستكن فى للناس بجعله مفعولا ثانيا لجعلت وقرأ ورش وابو عمرو البادى باثبات الياء بعد الدال وصلا لا وقفا واثبتها ابن كثير وقفا ووصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ اى المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ اى بميل الى الظلم والالحاد العدول عن القصد واصله الحاد الحافر وقيل الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شئ منهى عنه من قول او فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام او ارتكاب شئ من محظورات الاحرام من قتل صيد او قطع شجر وقال ابن عباس هو ان تقتل فيه من لا يقتلك او تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد هو تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال سعيد بن جبير احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن امية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام فى الحرم الحاد وعن عطاء قول الرجل فى المبايعة لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر انه كان له فسطاطان احدهما فى الحل والآخر فى الحرم فاذا اراد ان يعاتب اهله عاتبهم فى الحل فقيل له فقال كنا نحدث ان من الالحاد فيه ان يقول الرجل لا والله وبلى والله + تنبيه + قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كانه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ اى مؤلم اى بعضه وخبر ان محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام نذيقهم من عذاب اليم وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك فينبغى لمن كان فيه ان يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل فى جميع ما يهم به ويقصده ولما ذكر تعالى الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت اتبعه التذكير به فقال تعالى ﴿وَإِذْ﴾ اى واذكر اذ ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ اى جعلنا له مكان البيت مبوأ اى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة فان البيت رفع الى السماء ايام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فاعلم الله ابراهيم عليه السلام مكانه بريح ارسلها يقال لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على اسه القديم وقيل بعث الله تعالى له سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على دورى فبنى عليه وعن عطاء بن ابى رباح قال لما اهبط الله آدم عليه السلام كان رجلاه فى الارض ورأسه فى السماء يسمع تسبيح اهل السماء ودعاءهم وانس اليهم فهابت الملائكة منه حتى شكت الى الله تعالى فى دعائها وفى صلاتها فاخفضه الله تعالى الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش وقيل اول من بنى البيت ابراهيم لما روى عن

ع ٣

في الصحيحين عن ابي ذر قال قلت يا رسول الله اي مسجد وضع اولا قال المسجد الحرام قلت ثم اي
قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال اربعون سنة ثم فسر التبوئة بقوله تعالى أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا
فابن اساس العبادة وراسها وعطف على النهي قوله تعالى وَطَهِّرْ بَيْتِيَ اي عن كل ما لا يليق به من الاوثان
والاقذار وطواف عريان به كما كانت العرب تفعل لِلطَّائِفِينَ اي الذين يطوفون بالبيت فان قيل
كيف يكون النهي عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة اجيب بان التبوئة لما كانت
مقصودة من اجل العبادة فكانه قيل تعبدنا ابراهيم قلنا له لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين
وقال ابن عباس للطائفين بالبيت غير اهله وَالْقَائِمِينَ اي المقيمين وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ اي المصلين
من الكل وقال غيره القائمين هم المصلون لان المصلي لا بد ان يكون في صلاته جامعا بين القيام
والركوع والسجود قال البيضاوي ولعله عبر عن الصلوة باركانها الدلالة على ان كل واحد منها مستقل
باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ اي اعلمهم وناديهم بِالْحَجِّ وهو قصد البيت
على سبيل التكرار للعبادة المخصوصة بالمشاعر المنصوصة وفي المامور بذلك قولان احدهما وعليه
اكثر المفسرين انه ابراهيم عليه السلام قال لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له اذن في الناس
بالحج قال يا رب وما يبلغ صوتي قال عليك الاذان وعلي البلاغ فصعد ابراهيم الصفا وفي رواية
اخرى ابا قبيس وفي اخرى على المقام قال ابراهيم كيف اقول قال جبريل قل لبيك اللهم لبيك فهو اول من لبى
وفي رواية اخرى صعد على الصفا فقال يا ايها الناس ان الله كتب عليكم حج هذا البيت العتيق فسمعه
ما بين السماء والارض فما بقي شيء سمع صوته الا اقبل يلبي يقول لبيك اللهم لبيك وفي رواية اخرى ان الله
يدعوكم الى حج بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار فاجابه يومئذ من كان في اصلاب الرجال
وارحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر او شجر او اكمة او تراب قال مجاهد فما حج انسان
ولا يحج احد حتى تقوم الساعة الا وقد اسمعه ذلك النداء فمن اجاب مرة حج مرة ومن اجاب مرتين
او اكثر فيحج مرتين او اكثر بتلك المقدار وفي رواية فنادى على جبل ابي قبيس يا ايها الناس ان ربكم
بنى بيتا واوجب الحج عليكم اليه فاجيبوا ربكم والتفت بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا فاجابه كل من
كتب له ان يحج من اصلاب الرجال وارحام الامهات لبيك اللهم لبيك وعن ابن عباس قال
لما امر الله ابراهيم بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى القول الثاني
ان المامور بذلك هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختاره اكثر المعتزلة واحتجوا
عليه بان ما جاء في القران وامكن حمله على ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو اولى لان
قوله تعالى واذ بوأنا لقد يره واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو في حكم المذكور فاذا قال تعالى واذن فاليه يرجع
الخطاب امران يفعل ذلك في حجة الوداع روي عن ابي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال يا ايها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا وجواب الامر يَأْتُوكَ اي يأتوا بيتك
الذي بنيته لذلك مجيبين لصوتك باذنك سامعين طائعين مختبتين خاشعين من اقطار الارض

يجيبون صوت الداعي من قبلنا اذا دعاهم بعد الموت بمثل ذلك رِجَالاً اي مشاة على ارجلهم
جمع راجل كقائم وقيام وَ رُكْبَاناً عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ اي بعير مهزول وهو يطلق على الذكر والانثى تنبيه
على كل ضامر حال معطوف على حال كانه قال رجالا وركبانا وقوله تعالى يَأْتِينَ صفة لكل ضامر لانه
في معنى الجمع مِنْ كُلِّ فَجٍّ اي طريق واسع بين جبلين عَمِيقٍ اي بعيد وروى سعيد بن جبير باسناده
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة
وللماشي سبعمائة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال كل حسنة
بمائة الف حسنة وفي هذا دلالة على ان المشي افضل من الركوب وفي ذلك خلاف بين الائمة
محله كتب الفقه ، ولما كان الانسان ميالا الى الفوائد متشوفا الى جميل العوائد علل الاتيان
بما يرغبه مبينا من فضله ما يقصده من امر المعاش بقوله تعالى لِيَشْهَدُوا اي يحضروا واحضروا تاما
مَنَافِعَ لَهُمْ واختلف في تلك المنافع فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهي ان يتجروا
في ايام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو كما
قال الرازي اولى فيأتون لتلك المنافع يتنقلون من مشعر من مشاعر الحج الى مشعر ومن مشهد الى مشهد
مجيبين بالدعوة خاشعين بالهيبة خائفين من السطوة راجين للمغفرة ثم يتفرقون الى منازلهم ومواطنهم
ويتوجهون الى مساكنهم كالسائرين الى مواقف الحشر يوم البعث والنشر المتفرقين الى داري النعيم والجحيم
فيا ايها المصدقون بان خليلنا ابراهيم عليه السلام نادى بالحج فاجابه بقدرتنا كرامة له من اراد
الله تعالى حجه على بعد اقطارهم وتنائي ديارهم ممن كان موجودا في ذلك الزمان وممن كان في
ظهور الآباء والامهات الاقربين والابعدين صدقوا ان الداعي من قبلنا بالنفخ في الصور يجيبه
كل من كان على ظهرها ممن حفظنا له جسده او سلطنا عليه الارض فمزقته حتى صار ترابا و
ما بين ذلك لان الكل علينا يسير قال الزمخشري وعن ابي حنيفة رحمه الله انه كان يفاضل بين العبادات
كلها قبل ان يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص ، ولما كانت
المنافع لا تطيب ولا تثمر الا بالتقوى وكان الحامل على التقوى ذكر الله تعالى قال تعالى وَيَذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ اي الجامع لجميع الكمالات بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره وقيل كنى بالذكر عن الذبح لان ذبح
المسلمين لا ينفك عنه تنبيها على ان المقصود مما يتقرب به الى الله تعالى ان يذكر اسمه ، واختلف
في الايام المعلومات في قوله تعالى فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ فالذي عليه اكثر المفسرين وهو مذهبنا الشافعي
وابي حنيفة انه عشر ذي الحجة واحتجوا بانها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من اجل ان وقت الحج
في آخرها ثم للمنافع اوقات من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام ولتلك الذبائح وقت منها وهو
يوم النحر وعن ابن عباس انها ايام التشريق وقيل يوم عرفة الى آخر ايام التشريق وقيل يوم النحر الى آخر ايام
التشريق واستدل لهذا بقوله تعالى عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ وهي الابل والبقر والغنم من الهدايا
والضحايا اي يذكروا اسم الله تعالى عند نحرها ونحر الضحايا والهدايا يكون في هذه الايام وتقدم الكلام

على الايام المعدودات في سورة البقرة عند قوله تعالى واذكروا الله في ايام معدودات وقوله تعالى
فكلوا منها اى من لحومها امر اباحة وذلك ان الجاهلية كانوا لا ياكلون من لحوم هداياهم شيئا فامر الله
تعالى بمخالفتهم واتفق العلماء على ان الهدى اذا كان تطوعا يجوز للمهدى ان ياكل منه وكذلك
اضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله في قصة حجة الوداع فاتى على ببدن من اليمن وساق رسول الله
صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر على ما غبر اى
ما بقى واشركه في بدنه ثم امر من كل بدنة ببضعة اى بقطعة فجعلت في قدر فطبخت فاكل من لحمها وشرب
من مرقها اخرجه مسلم واختلفوا في الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب
بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدى ان ياكل شيئا منه قال الشافعى رضى الله عنه
لا ياكل منه شيئا وكذلك ما اوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر رضى الله عنهما لا ياكل من جزاء
الصيد والنذر وياكل مما سوى ذلك وبه قال احمد واسحق وقال مالك ياكل من هدى التمتع ومن كل
هدى وجب عليه الا من فدية الاذى وجزاء الصيد والنذر وعن اصحاب ابى حنيفة انه ياكل من كل من دم
التمتع والقران ولا ياكل من واجب سواهما وقوله تعالى واطعموا البائس اى الذى اصابه بؤس اى شدة
الفقير اى المحتاج امر ايجاب وقد قيل به في الاول ثم ليقضوا تفثهم اى يزيلوا اوساخهم وشعثهم كقص
الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال وليوفوا نذورهم من الهدايا والضحايا
وليطوفوا طواف الافاضة الذى به تمام التحلل بالبيت العتيق اى القديم لانه اول بيت وضع للناس
وقال ابن عباس سمى عتيقا لان الله تعالى اعتقه من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه
فمنعه الله تعالى منه فان قيل قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع اجيب بانه ما قصد التسلط على البيت
وانما تحصن به ابن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه ابرهة فعل به ما فعل وقيل
لان الله تعالى اعتقه من الغرق فانه رفع في ايام الطوفان وقال مجاهد لانه لم يملك قط وقيل بيت كريم
اى العتيق بمعنى الكريم من قولهم عتاق الخيل والطير والطواف ينقسم الى ثلاثة هذا ويدخل وقته بعد الوقوف
وهذا لا يجبر تركه بدم لانه ركن الثانى طواف الوداع ووقته عند ارادة السفر من مكة وهو واجب يجبر تركه
بدم الثالث طواف القدوم وهو مستحب للحاج والحلال اذا قدم مكة روت عائشة رضى الله تعالى عنها
ان اول شئ بدأ به حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم انه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج ابو بكر وعمر مثله
وقرأ ابن ذكوان وليوفوا وليطوفوا بكسر اللام فيهما والباقون باسكانها وفتح ابو بكر الواو من وليوفوا
وشدد الفاء وقوله تعالى ذلك خبر مبتدأ مقدر اى الامر والشان ذلك المذكور كما يقدم الكاتب
جملة من كتابه في بعض المعانى ثم اذا اراد الخوض في معنى اخر قال هذا فقد كان كذا ومن يعظم
اى بغاية جهده حرمات الله ذى الجلال والاكرام كلها وهى ما لا يحل انتهاكه من مناسك الحج وغيرها
وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها وعن زيد بن اسلم الحرمات خمس
الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل فهو اى

التعظيم الحامل له على امتثال الامر فيها على وجهه واجتناب المنهى عنه كالذبح بذكر اسم غير الله
والطواف عريانا فهو خير له عند ربه اى الذى اسدى اليه كل ما هو فيه من النعم فى الآخرة
ومن انتهكها فهو شر عليه عند ربه ثم انه تعالى بين احكام الحج بقوله تعالى وأحلت لكم الانعام
اى اكلها بعد الذبح وهى الابل والبقر والغنم الا ما يتلى اى على سبيل التجديد مستمرا عليكم تحريمه
فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الآية فالاستثناء منقطع ويجوز ان يكون متصلا والتحريم لما عرض
من الموت ونحوه فحافظوا على حدوده واياكم ان تحرموا مما احل شيئا كتحريم عبدة الاوثان البحيرة
والسائبة وغير ذلك وان تحلوا مما حرم الله شيئا كاحلالهم اكل الموقوذة والميتة وغير ذلك ولما
فهم من ذلك حل السوائب وما معها وتحريم المذبوح للانصاب وكان سبب ذلك كله الاوثان
تسبب عنه قوله تعالى فاجتنبوا اى بغاية الجهد اقتداء بابيكم ابراهيم عليه السلام الذى تقدم
الايماء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة الرجس اى القذر الذى من حقه ان يجتنب
من غير احتياج الى بيانه وميزه بقوله تعالى من الاوثان اى الذى هو الاوثان كما تجتنب الانجاس فهو
بيان للرجس وتمييز له كقولك عندى عشرون من الدراهم وسمى الاوثان رجسا وكذا الخمر والميسر
والازلام على طريق التشبيه يعنى انكم كما تنفرون بطباعكم من الرجس وتجتنبونه فعليكم ان تنفروا
عن هذه الاشياء مثل تلك النفرة ونبه على هذا المعنى بقوله تعالى رجس من عمل الشيطان
فاجتنبوه جعل العلة فى اجتنابه انه رجس والرجس مجتنب وقوله تعالى واجتنبوا قول الزور تعميم
بعد تخصيص فان عبادة الاوثان راس الزور لان المشرك زاعم ان الوثن تحق له العبادة كانه قال
فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى راس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا منه شيئا لتماديه
فى القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان والزور من الزور والازورار وهو
الانحراف كما ان الافك من افكه اذا صرفه فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل قول الزور
قولهم هذا حلال وهذا حرام وما اشبه ذلك من افترائهم وقيل هو قول المشركين فى تلبيتهم لبيك
لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وقيل هو شهادة الزور لما روى ابو داود والترمذى
انه صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فلما سلم قام قائما مستقبل الناس بوجهه الكريم وقال عدلت
شهادة الزور الاشراك بالله قالها ثلاثا وتلا هذه الآية وقوله تعالى حنفاء لله اى مسلمين عادلين
كل دين سوى دينه غير مشركين به تاكيد لما قبله وهما حالان من الواو ومن يشرك اى يوقع شيئا
من الشرك بالله الذى له العظمة كلها بشئ من الاشياء فى وقت من الاوقات فكانما خر اى سقط
من السماء لعلو ما كان فيه من اوج التوحيد وسفول ما انحط اليه من حضيض الاشراك
فتخطفه الطير اى تاخذه بسرعة وهو نازل فى الهواء قبل ان يصل الى الارض او تهوى به الريح اى حيث
لم يجد فى الهواء ما يهلكه فى مكان من الارض سحيق بعيد فهو لا يرجى خلاصه + تنبيه + قال
الزمخشرى يجوز فى هذا التشبيه ان يكون من المركب والمفرق فان كان تشبيها مركبا فكانه قال من

اشرك بالله تعالى فقد اهلك نفسه هلاكا ليس بعده هلاك بان صوّر حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير فتفرّق مزعا فى حواصلها او عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان فى علوّه بالسماء والذى ترك الايمان واشرك بالله بالساقط من السماء والاهواء التى تتوزع افكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة اهـ قوله يطوح به الباء مزيدة للتاكيد قال الجوهرى طوّحه اى توهه وذهب به ههنا وههنا وقرأ نافع بفتح الخاء وتشديد الطاء والباقون باسكان الخاء وتخفيف الطاء ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما هو مسبب عنه بالاشارة باداة البعد فقال تعالى ذٰلِكَ اى الامر العظيم الكبير فمن راعاه فاز ومن حاد عنه خاب ثم عطف عليه ما هو اتمّ من هذا القدر فقال تعالى وَمَنْ يُّعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللّٰهِ جمع شعيرة وهى البدن التى تهدى للحرم لانها من معالم الحج بان يختارها عظام الاجرام حسانا سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس فى شرائها فقد كانوا يغالون فى ثلاث ويكرهون المكاس فيهنّ الهدى والاضحية والرقبة وروى ابن عمر عن ابيه رضى الله عنهما انه اهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل اهدها واهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى انفه برة من ذهب وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطى فيتصدق بلحومها وجلالها ويعتقد ان طاعة الله فى التقرّب بها واهدائها الى بيته المعظم امر عظيم لابدّ ان يقام به ويسارع فيه فَاِنَّهَا اى تعظيمها ناشئ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوْبِ فمن للابتداء فان جعلت تبعيضية فلابدّ من حذف تقديره فان تعظيمها من فعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديرها لانه لابدّ من راجع من الجزاء الى من ليرتبط به وانما ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى التى اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر اثرها فى سائر الاعضاء وسميت تلك البدن شعائر لاشعارها بما يعرف به انها هدى كطعن حديدة بسنامها قال البقاعى ولعله ماخوذ من الشعر لانها اذا جرحت قطع شئ من شعرها او ازيل عن محل الجرح فيكون من الازالة لَكُمْ فِيْهَا اى البدن مَنَافِعُ كركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وعن ابراهيم من احتاج الى ظهرها ركب ومن احتاج الى لبنها شرب وقال اصحاب الراى لا يركبها الا اذا اضطر اليها اِلٰٓى اَجَلٍ مُّسَمًّى وهو وقت نحرها ثُمَّ مَحِلُّهَآ اى مكان حل نحرها اِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيْقِ اى عنده والمراد الحرم جميعه وقيل المراد بالشعائر المناسك ومشاهد الحج وبالمنافع الاجر والثواب فى قضاء المناسك الى انقضاء اجالها ومحلها محل الناس من احرامهم الى البيت يطوفون به طواف الزيارة وَلِكُلِّ اُمَّةٍ اى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم جَعَلْنَا مَنْسَكًا اى متعبدا وقربانا يتقرّبون به الى الله تعالى وقرأ حمزة والكسائى منسكا هنا وفى اخر السورة بكسر السين فى الموضعين فيكون بمعنى الموضع والباقون بفتحها مصدر بمعنى النسك لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ اى الملك الاعلى وحده على ذبائحهم وقرابينهم لانه الرازق لهم وحده فيقولون عند النحر الله

اكبر لا اله الا الله والله اكبر اللهم منك واليك ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال تعالى عَلٰى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيْمَةِ الْاَنْعَامِ فوجب شكره لذلك عليهم وفيه تنبيه على ان القربان يجب ان يكون من الانعام فَاِلٰهُكُمْ اى الذى شرع هذه المناسك كلها اِلٰهٌ وَّاحِدٌ وان اختلفت فروع للشرائع ونسخ بعضها بعضا واذا كان واحدا وجب اختصاصه بالعبادة فلذا قال تعالى فَلَهٗ وحده اَسْلِمُوْا اى انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم فى كل ما امر به اونهى عنه وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِيْنَ اى المطيعين المتواضعين من الخبت وهو المطمئن من الارض وقيل هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا ۔ ثم بين علاماتهم بقوله تعالى الَّذِيْنَ اِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ اى الذى له الجلال والجمال وَجِلَتْ اى خافت خوفا مزعجا قُلُوْبُهُمْ فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى وَالصّٰبِرِيْنَ الذين صار الصبر عادتهم عَلٰى مَا اَصَابَهُمْ من الكلف والمصائب ولما كان ذلك قد يشغل عن الصلوة قال تعالى وَالْمُقِيْمِى الصَّلٰوةِ فى اوقاتها والمحافظة عليها وان حصل لهم من المشاق باعمال الحج وغيره ما عسى ان يحصل ولذلك عبر بالوصف دون الفعل اشارة الى انه لا يقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل الا راسخ فى حبها فهم لما تمكن حبها فى قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كانهم دائما فى صلوة وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُوْنَ فى وجوه الخير من الهدايا التى يغالون فى اثمانها وغير ذلك احسانا الى خلق الله تعالى ۔ ولما قدم تعالى الحث على التقرب بالانعام كلها وكانت الابل اعظمها خلقا واجلها فى انفسهم امر بخصها بالذكر فقال تعالى وَالْبُدْنَ اى الابل المعروفة جمع بدنة كخشب وخشبة وانتصابه بفعل يفسره جَعَلْنٰهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَآئِرِ اللّٰهِ اى من اعلام دينه التى شرعها الله تعالى وقيل لانها تشعر وهى ان تطعن بحديدة فى سنامها ليعلم بذلك انها هدى لَكُمْ فِيْهَا خَيْرٌ اى نفع فى الدنيا وثواب فى العقبى كما قال ابن عباس دنيا واخرى وروى الترمذى وحسنه عن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما عمل ابن ادم يوم النحر عملا احب الى الله من اراقة الدم وانه ليؤتى يوم القيامة بقرونها واظلافها واشعارها وان الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع الى الارض فطيبوا بها نفسا وروى الدارقطنى فى السنن عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انفقت الورق فى شئ افضل من نحيرة فى يوم عيد وعن بعض السلف انه لم يملك الا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له فى ذلك فقال سمعت ربى يقول لكم فيها خير فَاذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهَا اى على ذبحها بالتكبير حال كونها صَوَآفَّ اى قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث فَاِذَا وَجَبَتْ جُنُوْبُهَا اى سقطت سقوطا بردت به بزوال روحها فلا حركة بها اصلا من وجب الحائط وجبة سقط ووجبت الشمس وجبة غربت قال ابن كثير وقد جاء فى حديث مرفوع ولا تعجلوا النفوس ان تزهق وقوله تعالى فَكُلُوْا مِنْهَا اى اذا كانت تطوعا امر اباحة دفعا لما قد يظن انه يحرم الاكل منها للامر بتقربها لله تعالى وَاَطْعِمُوا الْقَانِعَ اى المتعرض للسؤال بخشوع وانكسار وَالْمُعْتَرَّ اى السائل وقيل بالعكس وهو قول الشافعى رحمه الله تعالى

قال في كتاب اختلاف الحديث القانع هو السائل والمعتر هو الزائر وقيل القانع هو الجالس في بيته المتعفف الذي يقنع بما يعطى ولا يسأل ولا يتعرض والمعتر المتعرض وقيل القانع هو المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة فيجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم كذلك أي مثل هذا التسخير العظيم الذي وصفناه من نحرها قياما سخرناها بعظمتنا التي لولاها ما كان ذلك لكم وذللناها ليلا ونهارا مع عظمها وقوتها تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها ولو شئنا لجعلناها وحشية لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرما وأقل قوة لعلكم تشكرون إنعامنا عليكم لتعرفوا أن ما ذللها لكم إلا الله تعالى فيكون حالكم حال من يرجو شكره فتوقعوا الشكر بأن تخرجوا منها إلا ما حرم عليكم ولا تخلوا منها إلا ما أحل وتهدوا منها ما حث على إهدائه وتتصرفوا بحسب ما أمركم به ولما حث تعالى على التقرب بها مع ذكر اسمه عليها قال تعالى لن ينال الله الذي له صفات الكمال لحومها المأكولة ولا دماؤها المهراقة أي لا يرفعان إليه ولكن يناله التقوى منكم أي يرفع إليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الإيمان كما قال تعالى والعمل الصالح يرفعه أي يقبله وقيل كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن لطخوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت ثم كرر سبحانه وتعالى التنبيه على عظيم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم به بقوله تعالى كذلك أي التسخير العظيم سخرها لكم بعظمته وغناه عنكم لتكبروا الله على ما هداكم أي أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه كأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته ثم وعد من امتثل الأمر بقوله تعالى وبشر المحسنين أي المخلصين فيما يفعلونه ويذرونه كما قال تعالى من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذي يفعل الحسن من الأعمال ويتمسك به فيصير محسنا إلى نفسه بتوفير الثواب عليه وقال ابن عباس الموحدين وقوله تعالى إن الله أي الذي لا كفء له يدافع عن الذين آمنوا قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الدال وفتح الفاء والباقون بضم الياء وفتح الدال وبعدها ألف وكسر الفاء أي يبالغ في الدفع مبالغة من يغالب فيه ولم يذكر الله تعالى ما يدفعه عنهم حتى يكون أعظم وأفخم وأعم وإن كان في الحقيقة أنه يدفع بأس المشركين فلذلك قال تعالى بعده إن الله أي الذي له صفات الكمال لا يحب أي لا يكرم كما يفعل المحب كل خوان في أمانته كفور لنعمته وهم المشركون قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه فبين بذلك أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذه صفته وقال مقاتل يدفع عن الذين آمنوا بمكة حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتلهم سرا فنهاهم عن ذلك ثم أذن الله تعالى لهم في قتالهم بقوله تعالى أذن للذين يقاتلون أي المشركين والمأذون لهم فيه وهو القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه بأنهم أي بسبب أنهم ظلموا فإنهم كانوا يأتونه صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت وهي أول

آية

آية نزلت في القتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية وقيل نزلت في قوم بأعيانهم مهاجرين
من مكة إلى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين منعوهم من الهجرة
بأنهم ظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم بضم الهمزة والباقون بفتحها وإنما
كان التقدير بأن الله أراد إظهار دينه بهم عطف عليه قوله تعالى وَإِنَّ اللّٰهَ أي الذي هو الملك الأعلى
عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ وفي ذلك وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم بقوله تعالى اَلَّذِيْنَ أُخْرِجُوْا مِنْ
دِيَارِهِمْ إلى الشعب والحبشة والمدينة بِغَيْرِ حَقٍّ أوجب ذلك ما أخرجوا إِلَّا أَنْ يَّقُوْلُوْا أي بقولهم
رَبُّنَا اللّٰهُ وهذا القول حق والإخراج به إخراج بغير حق ونظير ذلك قوله تعالى هل تنقمون منا إلا
أن آمنا بالله. تنبيه. الذين أخرجوا في محل جر نعت للذين يقاتلون أو بدل منه أو منصوب على المدح
أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف وَلَوْلَا دَفْعُ اللّٰهِ أي المحيط بكل شيء علما النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أي بتسليط
المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم وعلى متعبداتهم
كما قال تعالى لَهُدِّمَتْ أي خربت صَوَامِعُ وهي معابد صغار للرهبان مرتفعة وَبِيَعٌ كنائس
للنصارى وَصَلَوَاتٌ أي كنائس لليهود وسميت بها لأنها يصلى فيها وقيل هي كلمة معربة أصلها
بالعبرانية صلوتا وَمَسَاجِدُ للمسلمين يُذْكَرُ فِيْهَا أي هذه المواضع المذكورة اسْمُ اللّٰهِ الملك
العظيم كَثِيْرًا وتنقطع العبادات بخرابها وقيل الضمير يرجع للمساجد فقط تشريفا لها بأن ذكر الله
يحصل فيها كثيرا فإن قيل لم قدم الصوامع والبيع في الذكر على المساجد أجيب بأنها أقدم في الوجود
وقيل أخرها في الذكر كما في قوله تعالى ومنهم سابق بالخيرات ولأن الذكر آخر العمل فلما كان نبينا
صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمتنا خير الأمم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
نحن الآخرون والسابقون وقيل أخرها لتكون بعيدة عن الهدم قريبة من الذكر وقرأ نافع دفاع بكسر
الدال وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح الدال وسكون الفاء وقرأ نافع وابن كثير لهدمت
بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وأظهر التاء عند الصاد نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها الباقون
وَلَيَنْصُرَنَّ اللّٰهُ أي الملك الأعظم مَنْ يَّنْصُرُهُ أي ينصر دينه وأولياءه كائنا من كان منهم أو من غيرهم
وقد أنجز الله تعالى وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم
وأورثهم أرضهم وديارهم إِنَّ اللّٰهَ أي الذي لا كفء له لَقَوِيٌّ أي على ما يريد عَزِيْزٌ أي منيع
في سلطانه وقدرته وقوله تعالى اَلَّذِيْنَ إِنْ مَّكَّنّٰهُمْ أي بما لنا من القدرة فِي الْأَرْضِ بإعلائهم
على ضدهم أَقَامُوا الصَّلٰوةَ أي التي هي عماد الدين الدالة على المراقبة والإعراض عن تحصيل الفاني
وَاٰتَوُا الزَّكٰوةَ أي المؤذنة بالزهد في الحاصل منه المؤذن بعمل النفس للرحيل وَأَمَرُوْا بِالْمَعْرُوْفِ أي
الذي أمر الله تعالى ورسوله به وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ أي الذي نهى الله ورسوله عنه وصف للذين
هاجروا وهو إخبار من الله تعالى بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين والأنصار رضي
الله تعالى عنهم وعن عثمان رضي الله تعالى عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أن الله تعالى أثنى

عليهم قبل ان يجدوا من الخير ما احدثوا * تنبيه * فى ذلك دليل على صحة خلافة الائمة الاربعة الخلفاء الراشدين اذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين واذا ثبت ذلك وجب ان يكونوا على الحق ولا يجوز حمل الاية على امير المؤمنين على وحده لان الاية دالة على الجمع وعن الحسن هم امة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين منصوب بدل من قوله تعالى من ينصره ﴿وَلِلَّهِ﴾ اى الملك الاعلى ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ اى آخر امور الخلق ومصيرها اليه فى الآخرة فلا يكون لاحد فيها امر حتى انه لا ينطق احد الا باذن منه * ولما بين سبحانه وتعالى فيما تقدم اخراج الكفار للمؤمنين من ديارهم بغير حق واذن فى مقاتلتهم وضمن لرسوله صلى الله عليه وسلم النصرة وبين ان لله عاقبة الامور اردفه بما يجرى مجرى التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ما هم عليه من اذيته واذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال تعالى ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ اى قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وتانيث قوم باعتبار المعنى وتحقير المكذبين فى قدرته وان كانوا من اشد الناس ﴿وَعَادٌ﴾ اى ذووا الابدان الشداد قوم هود ﴿وَثَمُودُ﴾ اولوا الابنية الطوال فى السهول والجبال قوم صالح ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ المتجبرون المتكبرون ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ الانجاس بما لم يسبقهم اليه احد من الناس ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ ارباب الاموال المجموعة من خوائن الصدق فانت يا اشرف الخلق لست باوحدى فى التكذيب فان هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك ولما كان موسى عليه السلام قد اتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يات بمثله احد ممن تقدمه فكان تكذيبه فى غاية البعد غير سبحانه وتعالى الاسلوب تنبيها على ذلك وعلى ان الذين اطبقوا على تكذيبه القبط واما قومه فما كذبه منهم الا اناس يسير فقال تعالى ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ وفى ذلك ايضا تعظيم للتاسية وتفخيم للتسلية ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ اى امهلتهم بتاخير العقاب عنهم الى الوقت الذى ضربته لهم وعبر عن طول الاملاء باداة التراخى لزيادة التاسية فقال تعالى ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ اخذ عزيز مقتدر * ثم نبه سبحانه وتعالى بالاستفهام فى قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ اى انكارى لافعالهم على انه كان فى اخذهم عبر وعجائب واهوال وغرائب حيث ابدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا والاستفهام للتقرير اى هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء الذين اتبعتهم باعظم ما اتى به رسول قومه مثل ذلك فان لم يؤمنوا بك فعلت بهم كما فعلت بهؤلاء وان كانوا امكن الناس فلا يحزنك امرهم * تنبيه * اثبت ورش الياء بعد الراء من نكير فى الوصل وحذفها الباقون وقفا ووصلا ﴿فَكَأَيِّنْ﴾ اى وكم ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وقيل بمعنى كاين رب وقوله تعالى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ قرأه ابو عمرو بعد الكاف بتاء فوقية مضمومة والباقون بعد الكاف بنون وبعدها الف والمراد اهلها بدليل قوله تعالى ﴿وَهِيَ﴾ اى والحال انها ﴿ظَالِمَةٌ﴾ اى اهلها بكفرهم ويحتمل ان يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحت هلاكها هلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ ان يهلك القرية فتصير منهدمة حصل هلاك من فيها وان كان الاول اقرب ﴿فَهِيَ﴾ اى فتسبب عن اهلاكها انها ﴿خَاوِيَةٌ﴾ اى منهدمة ساقطة اى جدرانها ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ اى سقوفها اذ كل مرتفع اظلك من سقف بيت او خيمة او ظلة

اركانها فهو عروش والخاوي الساقط من خوى النجم اذا سقط او الخالي من خوى المنزل اذا خلا من اهله
وخوى بطن الحامل. تنبيه. قوله على عروشها لا يخلو من ان يتعلق بخاوية فيكون المعنى انها
ساقطة على عروشها اي سقوفها اي تقصفت الاخشاب اولا من كثرة الامطار وغير ذلك من الاشياء
فسقطت ثم سقط عليها الجدران فسقطت فوق السقوف او خالية مع بقاء عروشها وسلامتها
واما ان يكون خبرا بعد خبر كانه قيل هي خاوية وهي على عروشها اي قائمة مظلة على عروشها على
معنى ان السقوف سقطت الى الارض فصارت في قرار الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف
الساقطة وقوله فهي خاوية جملة معطوفة على اهلكناها لا على وهي ظالمة فانها حال كما قدرته والاهلاك
ليس حال خوابها فلا محل لها ان نصبت كاين بمقدر يفسره اهلكناها لانها معطوفة على جملة
اهلكناها كما مر وهي مفسرة لا محل لها وان رفعت كاين بالابتداء فمحلها رفع خبرا ثانيا لكاين
والخبر الاول اهلكناها وَكَم من بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ اي متروكة بموت اهلها وَقَصْرٍ مَشِيدٍ اي رفيع
خال بموت اهله. تنبيه. علم مما قدرته ان بئر معطوف على قرية وهو يقوى على ان عروشها
بمعنى مع اوجه وروي ان هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع اربعة آلاف نفر ممن آمن به
ونجاهم الله تعالى من العذاب وهي بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها
مات وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح وامّروا عليهم جلهس بن جلاس
واقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما فارسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان عليه السلام
نبيا فقتلوه فاهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم وقوله تعالى أَفَلَمْ يَسِيرُوا اي كفار مكة
فِي الْأَرْضِ يحتمل انهم لم يسافروا فحثوا على السفر ليروا مصارع من اهلكهم الله تعالى بكفرهم ويشاهدوا
آثارهم فيعتبروا وان يكونوا قد سافروا وراوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كان لم يسافروا ولم يروا
فَتَكُونَ اي فتتسبب عن سيرهم ان تكون لَهُمْ قُلُوبٌ واعية يَعْقِلُونَ بِهَا ما راوه بابصارهم مما نزل
بالمكذبين قبلهم أَوْ اي او يكون لهم ان كانوا عمي الابصار كما دل عليه جعل هذا قسيما آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا اخبارهم بالاهلاك وخراب الديار فيعتبروا فَإِنَّهَا اي القصة لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ويجوز ان
يكون الضمير مبهما يفسره الابصار وفي تعمى راجع اليه والمعنى ان ابصارهم صحيحة سالمة لا عمى
فيها وانما العمى لقلوبهم كما قال تعالى وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ولا يعتد بعمى
الابصار فانه ليس بعمى بالاضافة الى عمى القلوب فان قيل فاي فائدة في ذكر الصدور اجيب
بان الذي قد تعورف واعتقد ان العمى على الحقيقة للبصر وهو ان تصاب الحدقة بما يطمس
نورها واستعماله في القلب استعارة وتمثيل فلما اريد اثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة
العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا التصوير الى زيادة تعيين وفضل تعريف
ليتقرر ان مكان العمى هو القلوب لا الابصار كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك
فقولك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانك وتثبيت لان محل المضاء هو لا غير فكانك قلت ما نفيت المضاء عن

السيف وانّه للسان لك فلتة ولاسهوا مني ولكن تعمدت به اياه بعينه تعمدا قيل لما نزل قوله
تعالى ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى قال ابن ام مكتوم يا رسول الله انا في الدنيا اعمى افاكون
في الآخرة اعمى فنزلت ويستعجلونك بالعذاب الذي توعدتهم به تكذيبا واستهزاء ولما كان محالا انه
لن يخلف الله اى الذي لا كفء له وعده لامتناع الخلف فيه وفي خبره سبحانه وتعالى فيصيبهم
ما وعدهم به ولو من بعد حين لكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة وقد انجزه يوم بدر وانّ يوما عند ربك
اى المحسن اليك بتأخير العذاب عنهم اكراما لك من ايام الآخرة بالعذاب كالف سنة مما تعدون
في الدنيا وطول ايامه حقيقة او من حيث انّ ايام الشدائد مستطالة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى
بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وكاين من قرية امليت لها اى امهلتها كما امهلتكم
وهي ظالمة كظلمكم بالاستعجال وغيره ثم اخذتها اى بالعذاب والمراد اهلها والى المصير اى
المرجع فينقطع كل حكم دون حكمي ففيه وعيد وتهديد فان قيل لم قال فكاين من قرية اهلكتها بالفاء
وقال هنا بالواو اجيب بان الاولى وقعت بدلا عن قوله تعالى فكيف كان نكير واما هذه فحكمها حكم
ما تقدم من الجملتين المعطوفتين بالواو اعني قوله تعالى ولن يخلف الله وعده وانّ يوما عند ربك
كالف سنة مما تعدون ولما كان الاستعجال لا يطلب من الرسول وانما يطلب من المرسل امر الله
تعالى بان يديم لهم التخويف والانذار بقوله تعالى قل اى لهم ولا يصدنك عن دعائهم ما اخبرناك
به من عملهم يا ايها الناس اى جميعا من قومك وغيرهم انما انا لكم نذير مبين اى بين الانذار
والاقتصار على الانذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لانّ صدر الكلام وسياقه للمشركين
وانما ذكر المؤمنين وثوابهم بقوله فالذين آمنوا اى اقروا بالايمان وعملوا اى تصديقا لدعواهم
تلك الصالحات لهم مغفرة اى لما فرط منهم ورزق اى في الدنيا بالغنائم وغيرها وفي الآخرة بما لا
عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كريم اى لا خسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره
زيادة في غيظهم ولما كان في سياق الانذار قال معبرا بالماضي زيادة في التخويف والذين سعوا اى
اوقعوا السعي ولو مرة واحدة في آياتنا اى القرآن بابطالها معاجزين من اتبع النبيّ صلى الله عليه وسلم
اى ينسبونهم الى العجز ويثبطونهم عن الايمان او مقدرين عجزنا عنهم وقرأ ابن كثير وابو عمرو بتشديد
الجيم بعد العين على انها حال مقدرة والباقون بالف بعد العين وتخفيف الجيم اى مسابقين
مشاقين للساعين فيها بالتثبيط اولئك البعداء البغضاء اصحاب الجحيم اى النار استحقاقا بما سعوا
فيسكنهم فيها ليعلموا انهم هم العاجزون ولما لاح من ذلك انّ الشيطان التى شبهها يفاخرون فيها بجدالهم
في دين الله الذي امر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باظهاره وتقريره واشهاره عطف عليه
تسلية له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى وما ارسلنا اى بعظمتنا من قبلك ثم اكد الاستغراق بقوله
تعالى من رسول وهو نبيّ امر بالتبليغ ولا نبيّ وهو من لم يؤمر بالتبليغ وهذا هو المشهور فمعنى
ارسلنا اوحينا فالنبيّ اعم من الرسول ويدل عليه ما رواه الامام احمد من انه صلى الله عليه وسلم

سئل عن الانبياء فقال مائة الف واربعة وعشرون الفا قيل فكم الرسل فقال ثلثمائة وثلاثة
عشر جما غفيرا وقيل كما هو ظاهر الآية الرسول من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبي غير الرسول
من لا كتاب له وقيل يمكن حمل الآية عليه ايضا والرسول من ياتيه الكتاب والنبي يقال له ولمن يوحى
اليه في المنام الا اذا تمنى اي تلا على الناس ما امره الله تعالى به او حدث نفسه به واشتهى في نفسه
ان يقبلوه حرصا منه على ايمانهم شفقة عليهم القى الشيطان من التشبيه والتخييلات في امنيته
اي فيما تلاه او حدث به واشتهى ان يقبل ما يتلقفه منه اولياؤه فيجادلون به اهل الطاعة
ليضلوهم وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين
الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا كما يفعل هؤلاء فيما يفترون به في وجه الشريعة
اصولا وفروعا من قولهم في القرآن شعر وسحر وكهانة وقولهم لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا وقولهم
ان ما قتله الله تعالى بالموت حتف انفه اولى بالاكل مما ذبح وقولهم نحن اهل الله وسكان حرمه ولا نخرج
من الحرم فنقف في الحج بالمشعر الحرام وتقف الناس بعرفة ونحن نطوف في ثيابنا وكذا من ولدناه واما
غيرنا فلا يطوف الا عاريا ذكرا كان او انثى الا ان يعطيه احدنا ما يلبسه ونحو ذلك مما يريدون ان يطفؤا به
نور الله تعالى وكذا تاويلات الباطنية والاتحادية وانظارهم التي الحدوا فيها يضل الله تعالى بها من
يشاء ثم يمحوها عمن اراد من عباده وما اراد من امره فينسخ اي فيذهب عن القائه انه ينسخ الله
اي المحيط بكل شيء علما وقدرة ما يلقي الشيطان فيبطله بايضاح امره ثم يحكم الله آياته اي ثم يجعلها
جلية فيما يريد منها وادل دليل على ان هذا هو المراد من الافتتان بالمتأخرة في الآيات الختام بقوله
عطفا على ما تقديره فالله على ما يشاء قدير والله عليم باحوال خلقه حكيم فيما يفعله بهم وقيل انه
صلى الله عليه وسلم حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي
وغيرهما من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى
من مباعدتهم لما جاءهم به تمنى في نفسه ان ياتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه
على ايمانهم فجلس ذات يوم في ناد من اندية قريش كثير اهله واحب يومئذ ان ياتيه من الله تعالى شيء
لم ينفروا عنه وتمنى ذلك فانزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى بلغ افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه
سهوا الى ان قال تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون ومضى رسول الله
صلى الله عليه وسلم في قراءة السورة كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من
في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وابي احيحة
سعيد بن العاص فانهما اخذا حفنة من البطحاء ورفعاها على جبهتيهما وسجدا عليها لانهما كانا
شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا
احسن الذكر وقالوا قد عرفنا ان الله تعالى يحيي ويميت ويرزق ولكن هذه آلهتنا تشفع لنا عنده فاذا

جعل لهم محمد نصيبا فنجى معه فلما امسى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاه جبريل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله تعالى خوفا شديدا فانزل الله تعالى هذه الآية تعزية له وكان به رحيما وسمع بذلك من كان بارض الحبشة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل قد اسلمت اهل مكة فرجع اكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم احب الينا حتى اذا دنوا من مكة بلغهم ان الذي كانوا يتحدثون به من اسلام اهل مكة كان باطلا فلم يدخل احد منهم الا بجوار مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله تعالى فغير ذلك قال الرازي هذه رواية عامة المفسرين الظاهرية اما اهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة والمعقول اما القرآن فبوجوه احدها قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ثانيها قوله تعالى قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي ثالثها قوله تعالى وما ينطق عن الهوى واما السنة فمنها ما روي عن محمد بن خزيمة انه سئل عن هذه القصة فقال هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل فقد روى البخاري في صحيحه انه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها وسجد المسلمون والكفار والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق واما المعقول فمن وجوه احدها ان من جوز على النبي صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان النبي كان معظم سعيه في نفي الاوثان ثانيها قوله تعالى فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول صلى الله عليه وسلم اقوى من نسخ هذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فاذا اراد الله تعالى احكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا فبان يمنع الشيطان من ذلك اصلا اولى ثالثها وهو اقوى الوجوه لو جوزنا ذلك ارتفع الايمان عن شرعه ولجوزنا في كل واحد من الاحكام والشرائع ان يكون كذلك فيبطل قوله تعالى بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق في العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه وزاد الرازي ادلة اخرى على ذلك ثم قال وقد عرفنا ان هذه القصة موضوعة اكثر ما في الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية المتواترة انتهى وهذا هو الذي يطمئن اليه القلب وان اطنب ابن حجر العسقلاني في صحتها ثم قال وحينئذ فيتعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله القى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق الخ انتهى وعلى القول بها قد سلك العلماء في ذلك مسالك احسنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتل القرآن فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث سمعه من دنا اليه فظنوها من قوله واشاعوها وقال البيضاوي بعد ان ذكر بعض هذه القصة وهو مردود عند المحققين وان صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه انتهى قال ابن الاثير والغرانيق هنا الاصنام وهي في الاصل الذكور من طير الماء

واحدها غرنوق وغرنيق سمي به لبياضه قال وكانوا يزعمون ان الاصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلو الى السماء وترتفع وقيل تمنى اي قرأ كقول حسان في حق عثمان بن عفان سه تمنى كتاب الله اول ليلة + تمنى داود الزبور على رسل + اي على تأن وتمهل + ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حكم به من تمكين الشيطان من هذا الالقاء ذكر العلة في ذلك بقوله تعالى ليجعل ما يلقي الشيطن اي في المتلو او المحدث به من تلك الشبهة في قلوب اوليائه على التفسير الاول وعلى الثاني وغيره يؤول بما يناسبه فتنة اي اختبارا وامتحانا للذين في قلوبهم مرض اي شك ونفاق والقاسية اي الجافية قلوبهم عن قول الحق وهم المشركون وان الظلمين اي الواضعين لاقوالهم وافعالهم في غير مواضعها كفعل من هو في الظلام لفي شقاق اي خلاف لكونهم في شق غير شق حزب الله بعيد بمجاوزتهم في الايات بتلك الشبهة التي تلقوها من الشيطان وجادلوا بها اولياء الرحمن بعيد عن الصواب لتصغى اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالاخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون وعلى ثبوت ذكر القصة وجرى عليه الجلال المحلي قال انهم في خلاف طويل مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث جرى على لسانه ذكر الهتهم بما يرضيهم ثم ابطل ذلك وليعلم الذين اوتوا العلم باتقان حججه واحكام براهينه وضعف شبه المعاجزين انه اي الشيء الذي تلوته او تحدثت به الحق اي الثابت الذي لا يمكن زواله من ربك اي المحسن اليك بتعليمك اياه فيؤمنوا به لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبهة فتخبت اي تطمئن وتخضع له قلوبهم وتسكن به نفوسهم وان الله بجلاله وعظمته لهاد الذين امنوا في جميع ما يلقيه اولياء الشيطان الى صراط مستقيم اي قويم وهو الاسلام يصلون به الى معرفة بطلانه حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة فيوصلهم ذلك الى سعادة الدارين ولا يزال الذين كفروا اي وجد منهم الكفر وطبعوا عليه في مرية اي شك منه قال ابن جريج اي من القران وقيل مما القى الشيطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها وقيل من الدين وهو الصراط المستقيم حتى تاتيهم الساعة اي القيامة وقيل اشراطها وقيل الموت بغتة اي فجاة او ياتيهم عذاب يوم عقيم قال عكرمة والضحاك لا ليل بعده وهو يوم القيامة والاكثرون على انه يوم بدر وسمي عقيما لانه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم التي لا تاتي بخير وقيل لانه لا مثل له في عظم امره لقتال الملائكة فيه ويقوي التفسير الاول قوله تعالى الملك يومئذ اي يوم القيامة لله اي المحيط بجميع صفات الكمال وحده + ولما كان كانه قيل ما معنى اختصاصه به وكل الايام له قيل يحكم بينهم اي المؤمنين والكافرين بالامر الفصل الذي لا حكم فيه ظاهرا ولا باطنا لغيره كما ترونه الان بل يمشي فيه الامر على اتم شيء من العدل فالذين امنوا وعملوا اي وصدقوا دعواهم الايمان بان عملوا الصلحت وهي ما امرهم الله به في جنت النعيم فضلا منه ورحمة لهم بما رحمهم الله تعالى من توفيقهم للاعمال الصالحات والذين كفروا اي ستروا ما اعطيناهم من المعرفة بالادلة على وحدانيتنا وكذبوا

بآياتنا اى ساعين بما اعطينا هم من الفهم فى تعجيزها بالمجادلة بما يوحى اليهم اولياؤهم من الشياطين من الشبه فأولئك اى البعداء عن اسباب الكرم لهم عذاب مهين اى شديد بسبب ما سعوا فى اهانة آياتنا مريدين اعزاز انفسهم بمقابلتنا والتكبر عن آياتنا فان قيل لم ادخل الفاء فى خبر الثانى دون الاول اجيب بان فى ذلك تنبيها على ان اثابة المؤمنين بالجنان تفضل من الله تعالى وان عقاب الكافرين مسبب عن اعمالهم ولذلك قال لهم عذاب ولم يقل هم فى عذاب، ولما كان المؤمنون فى حصر مع الكفار رغبهم الله فى الهجرة بقوله تعالى والذين هاجروا فى سبيل الله اى فارقوا اوطانهم وعشائرهم فى طاعة الله وطلب مرضاته من مكة الى المدينة ثم قتلوا فى الجهاد بعد الهجرة وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف والحق به مطلق الموت فضلا منه بقوله تعالى او ماتوا اى من غير قتل ليرزقنهم الله اى الجامع لصفات الكمال رزقا حسنا هو رزق الجنة من حين تفارق ارواحهم اشباحهم لانهم احياء عند ربهم وان الله اى الملك الاعلى القادر على الاحياء كما قدر على الاماتة لهو خير الرازقين فانه يرزق بغير حساب يرزق الخلق عامة البار منهم والفاجر فان قيل الرازق فى الحقيقة هو الله تعالى لا رازق للخلق غيره فكيف قال لهو خير الرازقين اجيب بان غير الله يسمى رازقا على المجاز كقولهم رزق السلطان الجيش اى اعطاهم ارزاقهم وان كان الرازق فى الحقيقة هو الله تعالى، ولما كان الرزق لا يتم الا بحسن الدار وكان ذلك من افضل الرزق قال تعالى دالا على ختام الذى قبله ليدخلنهم مدخلا يرضونه هو الجنة يكرمون فيه بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا ينالهم فيها مكروه وقيل هو خيمة فى الجنة من درة بيضاء لها سبعون الف مصراع وقرأ نافع بفتح الميم اى دخولا او مكان دخول والباقون بالضم اى ادخالا او مكان ادخال وان الله اى الذى عمت رحمته وتمت عظمته لعليم اى بمقاصدهم وما عملوا مما يرضيه وغيره حليم عما قصروا فيه من طاعته وما فرطوا فى جنبه تعالى فلا يعاجل احدا بالعقوبة روى ان طوائف من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما اعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فانزل الله تعالى هاتين الآيتين ذلك اى الامر المقرر من صفات الله تعالى الذى قصصناه عليك ومن عاقب اى جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظلما من المشركين اى قاتلهم كما قاتلوه فى الشهر الحرام ثم بغى عليه اى ظلم باخراجه من منزله قال مقاتل نزلت فى قوم من المشركين اتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من محرم فقال بعضهم لبعض ان اصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون وكرهوا قتالهم وسألوهم ان يكفوا عن القتال لاجل الشهر الحرام فابى المشركون فقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصرهم الله تعالى عليهم فذلك قوله تعالى لينصرنه الله اى الذى لا كفء له ان الله اى الذى احاط بكل شئ قدرة وعلما لعفو عن المؤمنين غفور لهم فان قيل لم سمى ابتداء فعلهم عقوبة مع ان العقاب من العقب وهو متنف فى الابتداء

اجيب بانه اطلق عليه ذلك للتعلق الذى بينه وبين الثانى كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها
يخادعون الله وهو خادعهم وكما فى قوله كما تدين تدان فان قيل كيف طابق ذكر العفو الغفور فى هذا
الموضع مع ان ذلك الفعل جائز للمؤمنين لانهم مظلومون اجيب بان المنتصر لما اتبع هواه فى الانتقام
واعرض عما ندب الله تعالى له بقوله تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وبقوله تعالى
فمن عفا واصلح فاجره على الله وبقوله تعالى وان تعفوا اقرب للتقوى فكان فى اعراضه عما ندب اليه
نوع اساءة ادب فكانه تعالى قال عفوت عن هذه الاساءة وغفرتها له فانى انا الذى اذنت له فيها
وفى ذكر العفو تنبيه على انه تعالى قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده ذٰلِكَ
اى النصر بِاَنَّ اللّٰهَ اى المتصف بجميع صفات الكمال يُولِجُ اى يدخل لاجل مصالح العباد المسىء
والمحسن اَلَّيْلَ فِى النَّهَارِ فيمحو ظلامه بضيائه ولو شاء الله تعالى مواخذة الناس لجعله سرمدا فتعطلت
مصالح النهار وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ فينسخ ضياءه بظلامه ولولا ذلك لتعطلت مصالح الليل او بان
يدخل كلا منهما فى الآخر فيزيد به وذلك من اثر قدرته التى بها النصر وَاَنَّ اللّٰهَ بجلاله وعظمته
سَمِيْعٌ لكل ما يقال بَصِيْرٌ لكل ما يفعل دائم الاتصاف بذلك فهو غير محتاج الى سكون الليل ليسمع
ولا لضياء النهار ليبصر لانه سبحانه وتعالى منزه عن الاغراض ۞ ولما وصف تعالى نفسه بما ليس لغيره
علله بقوله تعالى ذٰلِكَ اى الاتصاف بتمام القدرة وشمول العلم بِاَنَّ اللّٰهَ اى القادر على كل ما اراد
هُوَ وحده الْحَقُّ اى الثابت الواجب الوجود وَاَنَّ مَا يَدْعُوْنَ اى يعبد المشركون مِنْ دُوْنِهٖ وهو
الاصنام هُوَ الْبَاطِلُ الزائل وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتاء على الخطاب للمشركين
والباقون بالياء على الغيبة وان هذه مقطوعة من ما فى الرسم وَاَنَّ اللّٰهَ لكونه هو الحق الذى لا كفؤ له
هُوَ وحده الْعَلِيُّ اى العالى على كل شئ بقدرته الْكَبِيْرُ وكل ما سواه سافل حقير تحت قهره وامره ۞
ثم انه سبحانه وتعالى استدل على كمال قدرته بامور ستة الاول قوله تعالى اَلَمْ تَرَ اى ايها المخاطب
اَنَّ اللّٰهَ اى المحيط قدرة وعلما اَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً اى مطرا بان يرسل رياحا فتثير سحابا فيمطر على
الارض الماء فَتُصْبِحُ الْاَرْضُ اى بعد ان كانت مسودة يابسة ميتة جامدة مُخْضَرَّةً حية يانعة
مهتزة نامية بما فيه رزق العباد وعمارة البلاد فان قيل لم قال تعالى فتصبح ولم يقل فاصبحت
اجيب بان ذلك لنكتة وهى افادة بقاء المطر زمانا بعد زمان كما تقول انعم علىّ فلان عام كذا فاروح
واغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع فان قيل لم رفع ولم ينصب
جوابا للاستفهام اجيب بانه لو نصب لاعطى عكس ما هو الغرض لان معناه اثبات الاخضرار فينقلب
بالنصب الى نفى الاخضرار ووجه ذلك بان النصب يتقدر بان وهو علم للاستقبال فيجعل الفعل متوقعا
والرفع جزم باثباته مثاله ان تقول لصاحبك الم تر انى انعمت عليك فتشكر ان نصبته فانت ناف
لشكره شاك فى تفريطه فيه وان رفعته فانت مثبت لشكره وهذا وامثاله مما يجب ان يتنبه له
من اتسم بالعلم فى علم الاعراب وتوقير اهله اِنَّ اللّٰهَ اى الذى له تمام النعم وكمال العلم لَطِيْفٌ بعباده فى

اخراج النبات بالماء خَبِيرٌ اى بمصالح الخلق ومنافعهم فانه مطلع على السرائر وان دقت فلا يستبعد عليه احياء من اراد بعد موته وقال ابن عباس لطيف بارزاق عباده خبير بما فى قلوبهم من القنوط الامر الثانى قوله تعالى لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ اى التى انزل منها الماء وَمَا فِي الْاَرْضِ اى التى استقر فيها ملكا وخلقا وَاِنَّ اللّٰهَ اى الذى له الاحاطة التامة لَهُوَ اى وحده الْغَنِيُّ فى ذاته عن كل شئ الْحَمِيدُ اى المستوجب للحمد بصفاته وافعاله الامر الثالث قوله تعالى اَلَمْ تَرَ اى ايها المخاطب اَنَّ اللّٰهَ ذا الجلال والاكرام سَخَّرَ لَكُمْ تفضلا منه مَا فِي الْاَرْضِ كله من مسالكها وفجاجها وما فيها من حيوان وجماد وزرع وثمار فلولا تسخيره تعالى الابل والبقر مع قوتهما حتى ذللهما للضعيف من الناس لما انتفع بهما احد منهم الامر الرابع قوله تعالى وَالْفُلْكَ اى وسخر لكم الفلك اى السفن ثم بين تسخيرها بقوله تَجْرِي فِي الْبَحْرِ العجاج المتلاطم بالامواج بريح طيبة للركوب والحمل بِاَمْرِهِ اى باذنه الامر الخامس قوله تعالى وَيُمْسِكُ السَّمَاۤءَ اى كراهة اَنْ تَقَعَ عَلَى الْاَرْضِ التى تحتها مع علوها وعظمها وكونها بغير عمد فتهلكوا اِلَّا بِاِذْنِهِ اى بمشيئته فيقع ذلك يوم القيامة حين يريد طى هذا العالم وايجاد عالم البقاء اِنَّ اللّٰهَ اى الذى له الخلق والامر بِالنَّاسِ اى على ظلمهم لَرَءُوْفٌ اى بما يحفظ من سرائرهم رَحِيْمٌ اى حيث هيأ لهم اسباب الاستدلال وفتح لهم ابواب المنافع ودفع عنهم ابواب المضار وَهُوَ اى وحده الَّذِيْٓ اَحْيَاكُمْ اى عن الجمادية بعد ان اوجدكم من العدم ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ اى عند انقضاء آجالكم ليكون الموت واعظا لاولى البصائر منكم ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ اى يوم البعث للثواب والعقاب واظهار العدل فى الجزاء اِنَّ الْاِنْسَانَ اى المشرك لَكَفُوْرٌ اى لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به فيوحد الله تعالى وقال ابن عباس هو الاسود بن عبد الاسد وابو جهل والعاص بن وائل وابى بن خلف قال الرازى والاولى تعميمه فى كل المنكرين لِكُلِّ اُمَّةٍ اى فى كل زمان جَعَلْنَا مَنْسَكًا قال ابن عباس شريعة يتعبدون بها هُمْ نَاسِكُوْهُ اى عاملون بها وروى عنه انه قال عيدا وقال مجاهد وقتادة موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة وقرأ حمزة والكسائى منسكا بكسر السين والباقون بفتحها فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْاَمْرِ اى امر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما لكم تاكلون مما تقتلون ولا تاكلون مما قتله الله تعالى يعنون الميتة وقال الزجاج هو نهى له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم كما تقول لا يضاربنك فلان اى فلا تضاربه وهذا جائز فى الفعل الذى لا يكون الا بين اثنين معناه لا تنازعهم انت وَادْعُ اى اوقع الدعوة لجميع الخلق اِلٰى رَبِّكَ المحسن اليك اى دينه ثم علل ذلك بقوله اِنَّكَ مؤكدا له بحسب ما عندهم من الانكار لَعَلٰى هُدًى اى دين واضح مُّسْتَقِيْمٍ هو دين الاسلام وَاِنْ جَادَلُوْكَ اى فى امر الدين بعد ان ظهر الحق ولزمت الحجة فَقُلِ اللّٰهُ اى الملك المحيط بالعز والعلم اَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليه وهذا وعيد فيه رفق وكان ذلك قبل الامر بالقتال ، ولما امر الله تعالى بالاعراض عنهم وكان

ذلك شديداً على النفس لتشوقها الى النصرة رجاء فى ذلك بقوله تعالى مستأنفاً تحذيراً لهم اَللّٰهُ
اى الذى لا كفؤ له يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ اى بينك مع اتباعك وبينهم يَوْمَ الْقِيٰمَةِ الذى هو يوم التغابن فِيْمَا
كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُوْنَ من امر الدين ومن نصر ذلك اليوم لم يبال بما حل به فهو كقوله وسيعلم الذين
ظلموا اى منقلب ينقلبون قال البغوى والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين الى خلاف
ما ذهب اليه الآخر اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ بجلال عزه وعظيم سلطانه يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَآءِ وَالْاَرْضِ
فلا يخفى عليه شئ اِنَّ ذٰلِكَ اى ما ذكر فِىْ كِتٰبٍ كتب فيه كل شئ حكم بوقوعه قبل وقوعه وكتب
جزاؤه وهو اللوح المحفوظ اِنَّ ذٰلِكَ اى علم ما ذكر عَلَى اللّٰهِ وحده يَسِيْرٌ اى سهل لان علمه مقتضى
ذاته المتعلق بكل المعلومات على السواء وَيَعْبُدُوْنَ اى المشركون على سبيل التجدد والاستمرار
مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اى من ادنى رتبة من رتبه الذى قامت جميع الدلائل على احتوائه على جميع
صفات الكمال وتنزيهه عن شوائب النقص مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهٖ سُلْطٰنًا اى حجة واحدة من الحجج وهو
الاصنام وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهٖ عِلْمٌ حصل لهم من ضرورة العقل واستدلاله بالحجة وَمَا لِلظّٰلِمِيْنَ
اى الذين وضعوا التعبد فى غير موضعه لارتكابهم لهذا الامر العظيم الخطر واكد النفى واستغرق
المنفى باثبات الجار فقال تعالى مِنْ نَّصِيْرٍ اى ينصرهم من اللّٰه لا مما اشركوه به ولا من غيره فيدفع عنهم
عذابه او يقوم مذهبهم وَاِذَا تُتْلٰى اى على سبيل التجدد والمبالغة من اى تال كان عَلَيْهِمْ اٰيٰتُنَا
اى من القرآن حال كونها بَيِّنٰتٍ لا خفاء فيها عند من له بصيرة فى شئ مما دعت اليه من الاصول
والفروع تَعْرِفُ فِىْ وُجُوْهِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا اى تلبسوا بالكفر الْمُنْكَرَ اى الانكار الذى هو منكر فى
نفسه فيظهر اثره فى وجوههم من الكراهة والعبوس لما حصل لهم من الغيظ ثم بين ما لام فى
وجوههم بقوله تعالى يَكَادُوْنَ يَسْطُوْنَ اى يوقعون السطوة بالبطش والعنف بِالَّذِيْنَ يَتْلُوْنَ
عَلَيْهِمْ اٰيٰتِنَا اى الدالة على اسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا القاضية بوحدانيتنا مع كونها بينات فى غاية
الوضوح فى انها كلام منا لما فيها من الحكم والبلاغة التى عجزوا عنها ثم امر اللّٰه تعالى رسوله صلى اللّٰه
عليه وسلم ان يقابلهم بالوعيد بقوله تعالى قُلْ اَفَاُنَبِّئُكُمْ اى افاخبركم خبراً عظيماً بِشَرٍّ مِّنْ ذٰلِكُمْ بالكره اليكم
من القرآن المتلو عليكم وقوله تعالى اَلنَّارُ كانه جواب سائل قال ما هو فقيل النار اى هو النار ويجوز ان ع ٩
تكون مبتدأ خبره وَعَدَهَا اللّٰهُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا جزاء لهم فبئس الموعد هى وَبِئْسَ الْمَصِيْرُ اى النار ولما بين
تعالى انه لا حجة لعابد غيره اتبعه بان الحجة قائمة على ان ذلك العابد فى غاية الحقارة فقال تعالى
منادياً اهل العقل منبهاً تنبيهاً عاماً يٰاَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ حاصله ان من عبد تموه من الاصنام
احقر منكم فَاسْتَمِعُوْا لَهٗ اى انصتوا له وتدبروه ثم فسره بقوله تعالى اِنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ اى تعبدون
وتدعونهم فى حوائجكم وتجعلونهم الهة مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اى الملك الاعلى من هذه الاصنام التى
انتم بها مغترون لَنْ يَّخْلُقُوْا ذُبَابًا اى لا قدرة لهم على ذلك فى زمن من الازمان على حال من الاحوال
مع صغره فكيف بما هو اكبر منه وَلَوِ اجْتَمَعُوْا اى الذين زعمتموهم شركاء لَهٗ اى الخلق فهم

فی هذا امثالکم + تنبیه + محل ولو اجتمعوا له النصب علی الحال کانه قال تعالی یستحیل ان یخلقوا
الذباب مشروطا علیهم اجتماعهم لخلقه وتعاونهم علیه وهذا من ابلغ ما انزل الله تعالی فی تجهیل
قریش واسترکاک عقولهم والشهادة علی ان الشیطان قد خدعهم بخداعه حیث وصفوا بالالهیة
التی تقتضی الاقتدار علی المقدورات کلها والاحاطة بالمعلومات عن اخرها صورا وتماثیل یستحیل
منها ان تقدر علی اقل ما خلقه الله تعالی واذله واصغره واحقره ولو اجتمعوا لذلک وتساندوا وادل
من ذلک علی عجزهم وانتفاء قدرتهم ان هذا الخلق الاقل الاذل لو اختطف منهم شیئا فاجتمعوا
علی ان یستخلصوه منه لم یقدروا کما قال تعالی وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ ای الذی تقدم انهم لاقدرة
لهم علی خلقه وهو غایة فی الحقارة شَيْئًا ای من الاشیاء جل او قل لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ لعجزهم فکیف
یجعلونهم شرکاء لله هذا امر مستغرب عبر عنه بضرب مثل + تنبیه + الذباب مفرد وجمعه
القلیل اذبة والکثیر ذبان مثل غراب واغربة وغربان وعن ابن عباس انهم کانوا یطلون الاصنام
بالزعفران ورؤسها بالعسل ویغلقون علیها الابواب فیدخل الذباب من الکوی فیاکله وعن ابن زید
کانوا یحلون الاصنام بالیواقیت واللالی وانواع الجواهر ویطیبونها بالوان الطیب فربما یسقط شیء منها
فیاخذه طائر او ذباب فلا تقدر الالهة علی استرداده منه ضَعُفَ الطَّالِبُ قال الضحاک هو العابد
وَالْمَطْلُوبُ المعبود وقال ابن عباس الطالب الذباب یطلب ما یسلب من الطیب الذی علی الصنم والمطلوب
هو الصنم وقیل علی العکس الطالب الصنم والمطلوب الذباب ای لو طلب الصنم ان یخلق الذباب
لعجز عنه + ولما انتج هذا جهلهم بالله عز وجل عبر عنه بقوله تعالی مَا قَدَرُوا اللَّهَ ای الذی له الکمال کله
حَقَّ قَدْرِهِ ای ما عظموه حق تعظیمه وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حیث اشرکوا به
ما لا یمتنع من الذباب ولا ینتصف منه إِنَّ اللَّهَ ای الجامع لصفات الکمال لَقَوِيٌّ علی خلق الممکنات
باسرها عَزِيزٌ ای لا یغلبه شیء والهتهم التی یعبدونها عاجزة عن اقلها مقهورة من اذلها قال الکلبی
فی هذه الایة وفی نظیرها فی سورة الانعام انها نزلت فی جماعة من الیهود مالک بن الصیف وکعب
بن الاشرف وکعب بن اسد وغیرهم حیث قالوا ان الله تعالی لما فرغ من خلق السموات والارض وما بینهما
خلقها استلقی واستراح ووضع احدی رجلیه علی الاخری فنزلت هذه الایة تکذیبا لهم ونزل قوله تعالی
وما مسنا من لغوب قال الرازی واعلم ان منشا هذه الشبهة هو القول بالتشبیه فیجب تنزیه ذات
الله تعالی عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما یقوله المشبهة وتنزیه صفاته عن مشابهة سائر
الصفات خلاف ما یقوله الکرامیة وتنزیه افعاله عن مشابهة سائر الافعال اعنی عن الغرض
والداعی واستحقاق المدح والذم خلاف ما یقوله المعتزلة قال ابو القاسم الانصاری رحمه الله تعالی
فهو سبحانه وتعالی خبیر النعت عزیز الوصف فالاوهام لا تصوره والافکار لا تقدره والعقول لا تمثله
والازمنة لا تدرکه والجهات لا تحویه ولا تحده صمدی الذات سرمدی الصفات + ولما ذکر سبحانه وتعالی
ما یتعلق بالالهیات ذکر ما یتعلق بالنبوات بقوله تعالی اَللَّهُ ای الملک الاعلی يَصْطَفِي ای یختار ویختص

من الملٰئكة رسلًا كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم الصلوة والسلام ومن
الناس كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم نزلت حين قالت المشركون
انزل عليه الذكر من بيننا فاخبر تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من خلقه ان الله اى
الذى له الجلال والجمال سميع لمقالتهم بصير بمن يتخذه رسولا يعلم ما بين ايديهم اى الرسل
وما خلفهم اى علمه محيط بما هم مطلعون عليه وبما غاب عنهم فلا يفعلون شيئا الا باذنه والى الله اى
وحده تعالى ترجع بغاية السهولة الامور يوم يتجلى لفصل القضاء فيكون امره ظاهرا لا خفاء فيه
ولا يصدر شئ من الاشياء الا على وجه العدل الظاهر لكل احد ولا يكون لاحد التفات الى غيره
وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم ولما اثبت سبحانه
وتعالى ان الملك والامر له وحده خاطب المقبلين على دينه وهم المخلص من الناس بقوله تعالى
يا ايها الذين آمنوا اى تلبسوا بالايمان اركعوا تصديقا لايمانكم واسجدوا اى صلوا الصلوة التى شرعتها
لكم فانها رأس العبادة ليكون دليلا على صدقكم فى الاقرار بالايمان ❊ تنبيه ❊ انما خص هذين الركنين
فى التعبير عن الصلوة لانهما لمخالفتهما الهيأت المعتادة هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير بهما
وذكر عن ابن عباس ان الناس كانوا فى اول الاسلام يركعون ولا يسجدون وقيل كان الناس اول
ما اسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود حتى نزلت هذه الآية ولما خص افضل العبادة عمم
بقوله تعالى واعبدوا اى بانواع العبادة ربكم اى المحسن اليكم بكل نعمة دينية ودنيوية ❊ ولما ذكر عموم
العبادة اتبعها ما قد يكون اعم منها مما صورته صورتها او قد يكون بلا نية فقال وافعلوا الخير
اى كله من القرب كصلة الارحام وعيادة المريض ونحو ذلك من معالى الاخلاق بنية وبغير نية حتى
يكون لكم ذلك عادة فيخف عليكم عمله لله تعالى قال ابو حيان بدأ تعالى بخاص وهو الصلوة ثم بعام وهو
واعبدوا ربكم ثم باعم وهو وافعلوا الخير لعلكم تفلحون اى افعلوا هذا كله وانتم راجون الفلاح وهو
الفوز بالبقاء فى الجنة طامعون فيه غير مستيقنين ولا تتكلوا على اعمالكم وقال الامام ابو القاسم
الانصارى لعل كلمة ترج تشعر بان الانسان قلما يخلو فى اداء فريضة من تقصير وليس هو على يقين
من ان الذى اتى به مقبول عند الله والعواقب مستورة وكل ميسر لما خلق له ❊ تنبيه ❊ اختلف
فى سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية فذهب قوم الى انه يسجد عندها وهو قول عمر وعلى وابن عمر
وابن مسعود وابن عباس وبه قال ابن المبارك والشافعى واحمد واسحق لظاهر ما فيها من الامر بالسجود
وقول البيضاوى ولقوله صلى الله عليه وسلم فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأها
حديث ضعيف رواه الترمذى وضعفه وذهب قوم الى انه لا يسجد وهو قول سفيان الثورى
وقول ابى حنيفة واصحابه لانهم يقولون قرن السجود بالركوع فى ذلك فدل ذلك على انها سجدة صلوة
لا سجدة تلاوة ❊ ولما كان الجهاد اساس العبادة وهو مع انه حقيقة فى جهاد الكفار مجاز لان يعم
كل امر بمعروف ونهى عن منكر بالمال والنفس بالقول والفعل بالسيف وغيره وكل جهاد

فى تهذيب النفس واخلاص العمل ختم به فقال تعالى وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ اى لله ومن اجله اعداء دينه الظاهرة كاهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وقول البيضاوى وعنه عليه الصلوة والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر حديث رواه البيهقى وضعف اسناده وقال غيره لا اصل له قيل اراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس حَقَّ جِهَادِهِ اى باستفراغ الطاقة فى كل ما امر به من جهاد العدو والنفس على الوجه الذى امر به من الحج والغزو وغيرهما فان قيل ما وجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فى الله او حق جهادكم فى الله كما قال تعالى وجاهدوا فى الله اجيب بان الاضافة تكون بادنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لاجله صحت اضافته اليه وعن مجاهد عن الكلبى ان هذه الاية منسوخة بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم ولما امر الله تعالى بهذه الاوامر اتبعها ببعض ما يجب به شكره وهو كالتعليل لما قبله فقال تعالى هُوَ اجْتَبَاكُمْ اى اختاركم لدينه ولنصرته وجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله اشرف الرسل ودينه اشرف الاديان وكتابه اعظم الكتب وجعلكم لكونكم اتباعه خير الامم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ اى الذى اختاره لكم مِنْ حَرَجٍ اى من ضيق وشدة وهو ان المؤمن لا يبتلى بشئ من الذنوب الا جعل الله تعالى له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بانواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك فليس فى دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفقه الله تعالى وسهله عند الضرورات كالقصر والتيمم واكل الميتة والفطر للمريض والمسافر وغير ذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا امرتكم بامر فأتوا منه ما استطعتم رواه البخارى وعن ابن عباس انه قال الحرج ما كان على بنى اسرائيل من الاصار التى كانت عليهم وضعها الله تعالى عن هذه الامة وقوله تعالى مِلَّةَ أَبِيكُمْ نصب بنزع الخافض وهو الكاف او على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف اى وسع دينكم توسعة ملة ابيكم او على الاغراء اى اتبعوا ملة ابيكم او على الاختصاص اى اعنى بالدين ملة ابيكم كقولك الحمد لله الحميد وقوله تعالى إِبْرَاهِيمَ عطف بيان فان قيل لم كان ابراهيم ابا للامة كلها اجيب بانه ابو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ابا لامته لان امة الرسول فى حكم اولاده واختلف فى عود ضمير هُوَ على قولين احدهما انه يعود على ابراهيم عليه الصلوة والسلام وان لكل نبى دعوة مستجابة ودعوة ابراهيم عليه السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها محمدا صلى الله عليه وسلم وامته والثانى انه يعود على الله تعالى فى قوله تعالى هو اجتباكم وروى عطاء عن ابن عباس انه قال ان الله تعالى سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ اى فى كل الكتب المنزلة التى نزلت قبل انزال هذا القرآن وَفِي هَٰذَا اى وسماكم فى هذا القرآن الذى انزل عليكم من بعد انزال تلك الكتب وهذا القول كما قال الرازى اقرب لانه تعالى قال لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ اى يوم القيامة انه بلغكم وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ اى ان رسلهم

بالغتهم فبان انه تعالى ما ظلم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله تعالى وانما كانوا شهداء على الناس لسائر الانبياء لانهم لم يفرقوا بين احد منهم وعلموا ان اخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك صحت شهادتهم وقبلها الحكم العدل وعن كعب اعطيت هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج وقال تعالى ادعوني استجب لكم وعن ابي حاتم عن ابن زيد انه قال لم يذكر الله بالايمان والاسلام غير هذه الامة ذكرهما بهما جميعا ولم يسم بامة ذكرت بالاسلام والايمان غيرها وعن مكحول ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تسمى الله عز وجل باسمين سمى بهما امتي هو السلام وسمى امتي المسلمين وهو المؤمن وسمى امتي المؤمنين ✦ تنبيه ✦ في الاية دليل على ان شهادة غير المسلم ليست مقبولة ✦ ولما ندبهم تعالى ليكونوا خير الامم تسبب عن ذلك قوله تعالى فَاَقِيْمُوا الصَّلٰوةَ التي هي اركان قلوبكم وصلة ما بينكم وبين ربكم اي داوموا عليها وَاٰتُوا الزَّكٰوةَ التي هي طهرة ابدانكم وصلة بينكم وبين اخوانكم وَاعْتَصِمُوْا بِاللهِ اي المحيط بجميع صفات الكمال في جميع ما امركم به من المناسك التي تقدمت وشد هاتم على تعالى اهليته بقوله تعالى هُوَ اي وحده مَوْلٰىكُمْ اي المتولي لجميع اموركم فهو ينصركم على كل من يعاديكم بحيث ان تمكنوا من اظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها ✦ ثم علل الامر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله تعالى فَنِعْمَ الْمَوْلٰى اي هو وَنِعْمَ النَّصِيْرُ اي الناصر لكم لانه تعالى اذا تولى احدا كفاه كل ما اهمه واذا نصر احدا اعلاه عن كل من خاصمه ولا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببت الحديث انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت وهذا نتيجة التقوى وما قبله من افعال الطاعة دليلها فقد انطبق اخر السورة على اولها ورد مقطعها على مطلعها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج اعطي من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي حديث موضوع

سورة المؤمنون مكية

وهي مائة وثمان او تسع عشرة اية والف وثمانمائة واربعون
كلمة واربعة الاف وثمانمائة حرف

بِسْمِ اللهِ الذي له الامر كله الرَّحْمٰنِ الذي عم انعامه الرَّحِيْمِ الذي خص من اراد بالايمان عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فانزل عليه يوما فمكث ساعة حتى سري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال اللهم زدنا ولا تنقصنا واكرمنا ولا تهنا واعطنا ولا تحرمنا واثرنا ولا تؤثر علينا اللهم ارضنا وارض عنا ثم قال لقد انزل علي عشر ايات من اقامهن دخل الجنة ثم قرأ قَدْ اَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ حتى ختم العشرة ايات قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد بقوا في الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة روى هذا الحديث الترمذي وغيره وانكره النسائي

وغيره * تنبيه * قال الزمخشري قد نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه فان قيل ما المؤمن اجيب بانه في اللغة هو المصدق واما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين احدهما ان كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن والآخر انه صفة مدح لا يستحقها الا البر التقي دون الفاسق * ثم انه تعالى حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبعة الصفة الاولى كونهم مؤمنين الصفة الثانية المذكورة في قوله تعالى الَّذِينَ هُمْ اي بضمائرهم وظواهرهم فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ قال ابن عباس مخبتون اذلاء وقيل خائفون وقيل متواضعون وعن قتادة الخشوع الزام موضع السجود روى الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين انه صلى الله عليه وسلم كان يصلي رافعا بصره الى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره الى نحو مسجده اي موضع سجوده وكان الرجل اذا قام الى الصلوة هاب الرحمن ان يشد بصره الى شيء او يحدث نفسه بشيء من شأن الدنيا وقيل هو جمع الهمة لها والاعراض عما سواها ومن الخشوع ان يستعمل الادب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والتشبيك والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والاختصار وتقليب الحصى روى الترمذي لكن بسند ضعيف انه صلى الله عليه وسلم ابصر رجلا يعبث بلحيته في الصلوة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ونظر الحسن الى رجل يعبث بالحصى وهو يقول اللهم زوجني الحور العين فقال بئس الخاطب انت تخطب وانت تعبث وعنه انه قال كل صلوة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة اسرع وعن معاذ ابن جبل من عرف من على يمينه وشماله وهو في الصلوة فلا صلوة له وروى انه صلى الله عليه وسلم قال انما يكتب للعبد من صلوته ما عقل منها وقال صلى الله عليه وسلم كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وقال من لم تنهه الصلوة عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا فينبغي للشخص ان يحتاط في صلوته ليوقعها على التمام فان بعض العلماء اختار عدم الامامة فقيل له في ذلك فقال اخاف ان تركت الفاتحة ان يعاتبني الشافعي وان قرأتها ان يعاتبني ابو حنيفة فاخترت عدم الامامة طلبا للخلاص من هذا النزاع فان قيل لم اضيفت الصلوة اليهم اجيب بان الصلوة وصلة بين الله وبين عباده والمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدته وذخيرته فهي صلوته واما الله تعالى فهو غني متعال عن الحاجة اليها والانتفاع بها الصفة الثالثة المذكورة في قوله تعالى وَالَّذِينَ هُمْ اي بضمائرهم التي تتبعها ظواهرهم عَنِ اللَّغْوِ قال ابن عباس عن الشرك مُعْرِضُونَ اي تاركون وقال الحسن عن المعاصي وقال الزجاج هو كل باطل ولهو وما لا يحمد من القول والفعل وقيل هو كل ما لا يعني الشخص من قول او فعل وهو ما يستحق ان يسقط ويلغى فمدحهم الله تعالى بانهم معرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بان لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما اي اذا سمعوا الكلام القبيح اكرموا انفسهم عن الدخول فيه الصفة الرابعة المذكورة في قوله تعالى

وَالَّذِيْنَ هُمْ لِلزَّكٰوةِ فَاعِلُوْنَ اى مؤدون * تنبيه * الزكوة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين هو
القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى المستحق والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو المراد هنا
لانه ما من مصدر الا ويعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل تقول للضارب فاعل الضرب
وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية ويجوز ان يراد بالزكوة العين ويقدر مضاف محذوف
وهو الاداء وقيل الزكوة هنا هى العمل الصالح لان هذه السورة مكية وانما فرضت الزكوة بالمدينة
سنة اثنتين من الهجرة قال البقاعى والظاهر ان التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب وان اصل
الزكوة كان واجبا بمكة كما قال تعالى فى سورة الانعام وآتوا حقه يوم حصاده انتهى الصفة الخامسة
المذكورة فى قوله تعالى وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوْجِهِمْ فى الجماع ومقدماته حَافِظُوْنَ اى دائما لا يتبعونها
شهوتها والفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام ثم استثنى من ذلك قوله تعالى
اِلَّا عَلٰۤى اَزْوَاجِهِمْ اللاتى استحقوا ابضاعهن بعقد النكاح ولعلو الذكر عبر بعلى ونظيره كان زياد على
البصرة اى واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا وقيل على بمعنى
من وجرى على ذلك البغوى اَوْ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُهُمْ رقابه من الاماء فان قيل هلا قال تعالى او من ملكت
اجيب بانه انما عبر بما لقرب الاماء مما لا يعقل لنقصهن عن الحرائر الناقصات عن الذكور ولانه اجتمع
فيها وصفان احدهما الانوثة وهى مظنة نقصان العقل والاخرى كونها بحيث تباع وتشترى كسائر
السلع قال البغوى والآية فى الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها ان تستمتع بفرج مملوكها فَاِنَّهُمْ
غَيْرُ مَلُوْمِيْنَ على ذلك اذا كان على وجه اذن فيه الشرع دون الاتيان فى غير المأتى وفى حال
الحيض او النفاس او نحو ذلك كوطء الامة قبل الاستبراء فانه حرام ومن فعله فانه ملوم فَمَنِ ابْتَغٰى
اى طلب متعديا وَرَآءَ ذٰلِكَ العظيم المنفعة الذى وقع استثناؤه بزنا او لواط او استمناء بيد او بهيمة
او غيرها فَاُولٰٓئِكَ المبعدون من الفلاح هُمُ الْعٰدُوْنَ اى البالغون فى تعدى الحدود وعن سعيد بن
جبير قال عذب الله تعالى امة كانوا يعبثون بمذاكيرهم اى فى ايديهم وقيل يحشرون وايديهم حبالى
الصفة السادسة المذكورة فى قوله تعالى وَالَّذِيْنَ هُمْ لِاَمٰنٰتِهِمْ اى فى الفروج وغيرها سواء
كانت بينهم وبين الله كالصلوة والصيام او بينهم وبين الخلق كالودائع والبضائع او فى المعانى الباطنة
كالاخلاص والصدق وَعَهْدِهِمْ رٰعُوْنَ اى حافظون بالقيام والرعاية والاصلاح والعهد ما
عقده الشخص على نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع ايضا على ما امر الله تعالى به كقوله تعالى الذين
قالوا ان الله عهد الينا * تنبيه * سمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه امانة وعهدا ومنه قوله تعالى
ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها وقال تعالى وتخونوا اماناتكم وانما تؤدى العيون لا المعانى
ويخان المؤتمن عليه لا الامانة فى نفسها وقرأ ابن كثير لامانتهم بغير الف بين النون والتاء على الافراد
لامن الالتباس او لانها فى الاصل مصدر والباقون بالالف على الجمع الصفة السابعة المذكورة فى
قوله تعالى وَالَّذِيْنَ هُمْ عَلٰى صَلَوٰتِهِمُ التى وصفوا بالخشوع فيها يُحَافِظُوْنَ اى يواظبون

عليها ولا يتركون شيئاً من مفروضاتها ولا مسنوناتها يجتهدون في كمالاتها جهدهم ويؤدونها في اوقاتها فان قيل كيف كرر الصلوة اولاً وآخراً اجيب بانهما ذكران مختلفان فليس بمكرر ووصفوا اولاً بالخشوع في صلاتهم وآخراً بالمحافظة عليها وذلك ان لا يسهوا عنها ويؤدوها في اوقاتها ويقيموا اركانها ويوطنوا انفسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي ان تتم به اوصافها وايضاً نقل وحدت اولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلوة اي صلوة كانت وجمعت آخراً على غير قراءة حمزة والكسائي فان غيرهما قرأ بالجمع واما هما فقرأ بالافراد لتفاد المحافظة على اعدادها وهي الصلوات الخمس والسنن المرتبة مع كل صلوة وصلوة الجمعة وصلوة الجنازة والعيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر والضحى وصلوة التسبيح وصلوة الحاجة وغيرها من النوافل، ولما ذكر تعالى مجموع هذه الصفات العظيمة نجم جزاءهم فقال تعالى أُولَٰئِكَ اي البالغون من الاحسان اعلى مكان هُمُ الْوَارِثُونَ اي المستحقون لهذا الوصف فيرثون منازل اهل الجنة في الجنة روى عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من احد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فان مات ودخل النار ورث اهل الجنة منزله وقال مجاهد لكل واحد منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فاما المؤمن فيبني منزله الذي له في الجنة ويهدم منزله الذي له في النار واما الكافر فيهدم منزله الذي في الجنة ويبني منزله الذي له في النار وقال بعض المفسرين معنى الوراثة هو ان يؤل امرهم الى الجنة وينالوها كما يؤل امر الميراث الى الوارث الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ وهو اعلى الجنة عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس اعلاها درجة منها تفجر انهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون عرش الرحمن فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس اللهم بجاه محمد صلى الله عليه وسلم ان تجعلنا ووالدينا واحبابنا من اهله هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ اي لا يخرجون منها ولا يموتون وانث الفردوس بقوله تعالى فيها على تأنيث الجنة وهو البستان الواسع الجامع لاصناف الثمر روى ان الله تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفي رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان وروى ان الله تعالى خلق ثلاثة اشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التورية بيده وغرس الفردوس بيده ثم قال وعزتي لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث والمراد ان الله تعالى لم يكل ذلك الى غيره من ملك من الملائكة والجنة مخلوقة الآن قال تعالى اعدت للمتقين ولما امر سبحانه وتعالى بالعبادات في هذه الآيات والاشتغال بعبادة الله لا يصح الا بعد معرفة الله تعالى عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل انواعاً الاول الاستدلال بتقليب الانسان في ادوار الخلقة وادوار الفطرة وهي تسع مراتب الاولى قوله تعالى وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ اي آدم مِنْ سُلَالَةٍ هي من سللت الشيء من الشيء اي استخرجته منه وهو خلاصته وقال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقوله تعالى مِنْ طِينٍ متعلق بسلالة وقيل المراد

بالانسان هذا النوع والسلالة قال مجاهد من بني ادم وقال عكرمة هو الماء يسيل من الظهر والعرب تسمي النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لانهما مسلولان منه المرتبة الثانية قوله تعالى ثُمَّ جَعَلْنٰهُ اي نسله نحذف المضاف نُطْفَةً اي منيا من الصلب والترائب بان خلقناه منها فِي قَرَارٍ مَّكِيْنٍ اي مستقر حصين هو الرحم * تنبيه * مكين في الاصل صفة للمستقر في الرحم وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار المرتبة الثالثة قوله تعالى ثُمَّ اي بعد تراخ في الزمان وعلو في الرتبة والعظمة خَلَقْنَا اي بما لنا من العظمة النُّطْفَةَ اي البيضاء جدا عَلَقَةً حمراء دما غليظا شديد الحمرة جامدا غليظا المرتبة الرابعة قوله تعالى فَخَلَقْنَا اي بما لنا من القوة والقدرة العظيمة الْعَلَقَةَ مُضْغَةً اي قطعة لحم قدر ما يمضغ لا شكل فيها ولا تخطيط المرتبة الخامسة قوله تعالى فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ اي بتقليبنا لها بما شئنا لها من الحرارة والامور اللطيفة الغامضة عِظٰمًا من راس ورجلين وما بينهما المرتبة السادسة قوله تعالى فَكَسَوْنَا بما لنا من قوة الاختراع تلك الْعِظٰمَ لَحْمًا بما ولدنا منها ترجيعا لحالها قبل كونها عظاما فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط والاعصاب وقرأ ابن عامر وابو بكر عظما والعظم بفتح العين واسكان الظاء من غير الف على التوحيد اكتفاء باسم الجنس عن الجمع والباقون بكسر العين وفتح الظاء والف بعدها على الجمع قال الجلال المحلي وخلقنا في المواضع الثلاثة بمعنى صيرنا المرتبة السابعة قوله تعالى ثُمَّ اَنْشَاْنٰهُ اي هذا المحدث عند بعظمتنا خَلْقًا اٰخَرَ اي خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما بعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان ابكم وسميعا وكان اصم وبصيرا وكان اكمه واودع ظاهره وباطنه بل كل عضو من اعضائه وكل جزء من اجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح وثم لما بين الخلقين من التفاوت قال الزمخشري وقد احتج به ابو حنيفة رحمه الله فيمن غصب بيضة فافرخت عنده فقال يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق اخر سوى البيضة اه ولما كان التفصيل لتطوير الانسان سببا لتحقيق الخالق قال تعالى فَتَبٰرَكَ اللّٰهُ اي تنزه عن كل شائبة نقص وحاز جميع صفات الكمال واشار الى جمال الانسان بقوله تعالى اَحْسَنُ الْخٰلِقِيْنَ اي المقدرين وميز احسن محذوف اي خلقا روي عن عمر رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا اخر قال فتبارك الله احسن الخالقين وروي ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبي يوحى الي فلحق بمكة كافرا ثم اسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال لما نزلت هذه الاية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله احسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا انزلت يا عمر وكان عمر يقول وافقني ربي في اربع الصلوة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولي لهن اوليبدلن الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن الاية والرابع قلت فتبارك الله احسن الخالقين فقال هكذا نزلت

قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر والشقاوة لعبد الله بن سعد بن
ابي سرح فانه قيل انه مات كافرا قال الله تعالى يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا المرتبة الثامنة قوله تعالى
ثم انكم بعد ذلك اى الامر العظيم من الوصف بالحياة والمد فى العمر فى آجال متفاوتة ما بين طفل
ورضيع ومحتلم وشديد وشاب نشيط وكهل عظيم وشيخ هرم الى ما بين ذلك من شؤن لا يحيط بها
الا اللطيف الخبير لميتون اى لصائرون الى الموت لا محالة ولذلك ذكر النعت الذى للثبوت
وهو ميت دون اسم الفاعل وهو مائت فانه للحدوث لا للثبوت المرتبة التاسعة قوله تعالى
ثم انكم يوم القيمة اى الذى تجمع فيه جميع الخلائق تبعثون للحساب والجزاء + النوع الثانى من
الدلائل الاستدلال بخلق السموات وهو قوله تعالى ولقد خلقنا فوقكم فى جميع جهة الفوق فى ارتفاع
لا تدركونه حق الادراك سبع طرائق اى سموات جمع طريقة لانها طرق الملائكة ومتعلقاتهم وقيل
الافلاك لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها وقيل لانها طرق بعضها فوق بعض كطارقة النعل
وكل شئ فوقه مثله فهو طريقة وما كنا اى بما لنا من العظمة عن الخلق اى الذى خلقناه تحتها غفلين
اى ان تسقط عليهم فتهلكهم بل نمسكها كاية ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه ولا مهملين
امرها بل نحفظها عن الزوال والاختلاف وندبر امرها حتى تبلغ منتهى امرها وما قدر لها من
الكمال حسب ما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة + النوع الثالث من الدلائل الاستدلال
بنزول الامطار وكيفية تاثيرها فى النبات وهو قوله تعالى وانزلنا من السماء اى من جرمها وهو
ظاهر اللفظ وعليه اكثر المفسرين او من السحاب وسماه سماء لعلوه ماء بقدر اى بقدر ما يكفيهم
لمعايشهم فى الزرع والغرس والشرب وانواع المنفعة ويسلمون معه من المضرة اذ لو كان فوق ذلك
لاغرقت البحار الاقطار ولو كان دون ذلك لادى الى جفاف النبات والاشجار فاسكناه اى جعلناه
ثابتا مستقرا فى الارض كقوله تعالى فسلكه ينابيع فى الارض وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم
ان الله تعالى انزل من الجنة خمسة انهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا
العراق والنيل نهر مصر انزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من اسفل درجة من درجاتها
على جناحى جبريل فاستودعها الجبال واجراها فى الارض وجعل فيها منافع للناس من اصناف
معايشهم فاذا كان عند خروج ياجوج وماجوج ارسل الله تعالى جبريل فرفع من الارض القرآن
والعلم كله والحجر الاسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة
فيرفع كل ذلك الى السماء وذلك قوله تعالى وانا على ذهاب به لقادرون قدرة هى فى نهاية العظمة
فانا كما قدرنا على ايجاده واختراعه نقدر على رفعه وازالته وزواله فاذا رفعت هذه الاشياء كلها
من الارض فقد اهلها خير الدين والدنيا قال البغوى وروى هذا الحديث الامام الحسن بن سفيان
عن عثمان بن سعيد عن سابق الاسكندرى عن سلمة بن على عن مقاتل بن حيان + تنبيه + فى تنكير
ذهاب ايماء الى تكثير طرقه وفيه ايذان باقتدار المذهب وانه لا يتعاصى عليه شئ اذا اراده وهو ابلغ

في الايعاد من قوله تعالى قل ارأيتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين فعلى العباد
ان يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفادها اذا لم تشكر ثم انه تعالى
سبحانه لما نبه على عظم نعمته بخلق الماء ذكر بعده هذه النعمة الحاصلة من الماء بقوله تعالى
فانشأنا اي فاخرجنا واحيينا لكم خاصة لا لنا به اي بذلك الماء الذي جعلنا منه كل شيء حي
جنات اي بساتين من نخيل واعناب صرح بهذين الصنفين لشرفهما ولانهما اكثر ما عند العرب
من الثمار وسمي الاول باسم شجرته لكثرة ما فيها من المنافع المقصودة بخلاف الثاني فانه المقصود
من شجرته واشار الى غيرهما بقوله تعالى لكم اي خاصة فيها اي الجنات فواكه كثيرة تتفكهون بها
ومنها اي ومن الجنات من ثمارها وزروعها تأكلون رطبا ويابسا وتمرا وزبيبا وقوله تعالى وشجرة
عطف على جنات اي وانشأنا لكم شجرة اي زيتونة تخرج من طور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله تعالى
عليه موسى بن عمران عليه السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين وفي رواية اخرى طور سينين
ولا يخلو اما ان يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء او سينين واما ان يكون اسما للجبل مركبا
من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فيمن اضاف فمن كسر سين سيناء وهو نافع
وابن كثير وابو عمرو فقد منع الصرف للتعريف والعجمة والتأنيث لانها بقعة وفعلاء لا تكون الفه
للتأنيث كعلباء وحرباء ومن قرأ بفتح السين وهم الباقون لم يصرفه لان الالف للتأنيث
كصحراء قال مجاهد معناه البركة اي من جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن اي الجبل الحسن وقال
الضحاك هو بالقبطية ومعناه الحسن وقال عكرمة بالحبشية وقال مقاتل كل جبل فيه اشجار مثمرة
فهو سيناء وسينين بلغة النبط وقرأ ابن كثير وابو عمرو تنبت بضم التاء الفوقية وكسر الباء الموحدة من الرباعي
والباقون بفتح الفوقية وضم الموحدة من الثلاثي فقوله تعالى بالدهن تكون الباء على الاول زائدة وعلى
الثاني معدية قال المفسرون وانما اضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منه تشعبت في البلاد وانتشرت
ولان معظمها هناك قال بعض المفسرين وانما عرف الدهن لانه اجل الادهان وافضلها وهو في الاصل
مائع لزج خفيف يتقطع ولا يختلط بالماء الذي هو اصله فيسرج ويدهن به وقوله تعالى وصبغ للآكلين
عطف على الدهن اي ادام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت قيل انها اول شجرة نبتت بعد
الطوفان ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله تعالى توقد من شجرة مباركة + النوع الرابع من الدلائل
الاستدلال باحوال الحيوانات وهو قوله تعالى وان لكم في الانعام وهي الابل والبقر والغنم لعبرة عظيمة
تعتبرون بها وتستدلون بها على البعث وغيره نسقيكم مما في بطونها اي اللبن نجعله لكم شرابا نافعا
للبدن موافقا للشهوة تلتذون به من بين الفرث والدم ولكم فيها اي جماعة الانعام وقدم
الجار لتعظيم المنافع فيها حتى كان غيرها عدم منافع كثيرة باستعدادها لما يراد منها مما لا يتيسر من
اصغر منها وباولادها واصوافها واوبارها واشعارها وغير ذلك من آثارها ومنها تأكلون
اي وكما تنتفعون بها وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح ايضا بسهولة من غير امتناع ما من شيء من

ذلك ولو شاء لمنعها وسلطها عليكم ولو شاء لجعل لحمها لا ينضج او جعله قذرا لا يؤكل ولكنه
بقدرته وعلمه هيأها لما ذكر وذللها وَعَلَيْهَا اى الانعام الصالحة للحمل وهى الابل والبقر وقيل
المراد الابل خاصة لانها هى المحمول عليها فى العادة وقرنها بالفلك التى هى السفن فى قوله تعالى
وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ لانها سفائن البر فكما يحمل على الفلك فى البحر فيحمل على هذه فى البر قال
ذو الرمة فى المعنى * سفينة بر تحت خدى زمامها * قال الزمخشرى يريد صيدحا اى ناقته لان
اسمها كان صيدح قال * رايت الناس ينتجعون غيثا * فقلت لصيدح انتجعى بلالا * يريد بلال
بن ابى بردة الاشعرى والى الكوفة * ولما بين سبحانه وتعالى دلائل التوحيد اردفها بذكر القصص
كما هو العادة فى سائر السور مبتدئا بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا اى بما لنا
من العظمة نُوحًا وهو الاب الثانى بعد ادم عليهما الصلوة والسلام وكان اسمه يشكر وسمى
نوحا لوجوه احدها لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فاهلكهم الله تعالى بالطوفان
فندم على ذلك ثانيها لمراجعته ربه فى شان ابنه ثالثها انه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب
على ذلك اِلٰى قَوْمِهٖ وهم جميع اهل الارض لتواصل ما بينهم لكونهم على لغة واحدة محصورين لا انه
ارسل الى الخلق كافة لان ذلك من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء فَقَالَ
اى فتسبب عن ذلك ان قال يٰقَوْمِ ترفقا بهم اعْبُدُوا اللّٰهَ وحده لانه الهكم وحده لاستحقاقه
لجميع خلال الكمال واستانف على سبيل التعليل قوله مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ اى معبود بحق غَيْرُهٗ فلا تعبدوا
سواه اَفَلَا تَتَّقُوْنَ اى افلا تخافون عقوبته ان عبدتم غيره وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء والباقون
بضمهما فَقَالَ اى فتسبب عن ذلك ان كذبوه بان قال الْمَلَؤُا اى الاشراف الذى تملا رؤيتهم
الصدور وعظمة الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهٖ لعوامهم مَا هٰذَا اى نوح عليه السلام اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
اى فلا يعلم ما لا تعلمون فانكروا ان يكون بعض البشر نبيا ولم ينكروا ان يكون بعض الطين انسانا
وبعض الماء علقة وبعض العلقة مضغة الى اخره فكانه قيل ما حمله على ذلك فقالوا يُرِيْدُ اَنْ يَّتَفَضَّلَ
يتكلف الفضل بادعاء مثل هذا عَلَيْكُمْ لتكونوا اتباعا له ولا خصوصية له دونكم وَلَوْ شَآءَ اللّٰهُ اى
الملك الاعلى الارسال اليكم وعدم عبادة غيره لَاَنْزَلَ كذلك مَلٰٓئِكَةً رسلا بابلاغ الوحى الينا
قال الزمخشرى وما اعجب شان الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للالوهية بحجر مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا
اى الذى دعا اليه نوح من التوحيد فِيْٓ اٰبَآئِنَا الْاَوَّلِيْنَ اى الامم الماضية اِنْ اى ما هُوَ
اِلَّا رَجُلٌ بِهٖ جِنَّةٌ اى جنون ولاجله يقول ما يدعيه فَتَرَبَّصُوْا بِهٖ اى فتسبب عن الحكم بجنونه
ان نامركم بالكف عنه لانه لا حرج على مجنون حَتّٰى حِيْنٍ اى الى حين لعله يفيق او يموت فكانه
قيل فما قال فقيل قَالَ عند ما ايس من فلاحهم رَبِّ انْصُرْنِيْ اى اعنى عليهم بِمَا كَذَّبُوْنِ
اى بسبب تكذيبهم لى فان تكذيب الرسول استخفاف بالمرسل فَاَوْحَيْنَآ اى فتسبب عن دعائه
انا اوحينا اِلَيْهِ اَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ اى السفينة بِاَعْيُنِنَا اى انه لا يغيب عنا شىء من امرك

ولا من امرهم وان تعرف قدرتنا على كل شئ فتثق بحفظنا ولا تخف شيئا
اليه ان يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر قال الجوهري جؤجؤ الطائر والسفينة صدرهما روى انه لما اوحى
ولما كان لا يعلم الصنعة قال تعالى وَوَحْيِنَا اى وامرنا وتعليمنا كيف تصنع فان جبريل عليه السلام علمه
ووصف كيفية اتخاذها له وقد تقدم الكلام عليها مستوفى فى سورة هود فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا اى بالهلاك
عقب فراغك منها او بالركوب وَفَارَ التَّنُّورُ قال ابن عباس وجه الارض وفى القاموس التنور الكانون
يخبز فيه ووجه الارض وعن قتادة انه اشرف موضع فى الارض اى اعلاه وعن على طلع الفجر وعن الحسن
انه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه وقيل هو مثل كقولهم حمى الوطيس والاقرب
كما قال الرازى وعليه اكثر المفسرين هو التنور المعروف بتنور الخباز فيكون له فيه اية وروى انه
قيل لنوح اذا رايت الماء يفور فى التنور فاركب انت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من
التنور اخبرته امراته فركب وقيل كان تنور ادم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه
فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد
وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند وقرأ قالون والبزى وابو عمرو باسقاط الهمزة
الاولى من الهمزتين المفتوحتين من كلمتين وحقق الاولى وسهل الثانية ورش وقنبل فَاسْلُكْ
اى ادخل فِيهَا اى السفينة مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ من الحيوان اثْنَيْنِ ذكرا وانثى وقرأ حفص بتنوين
اللام من كل اى من كل نوع زوجين فزوجين مفعول واثنين تاكيد والباقون بغير تنوين فاثنين
مفعول ومن متعلق باسلك وفى القصة ان الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما فجعل
يضرب بيده فى كل جنس فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الانثى فيحملهما فى السفينة وروى انه
لم يحمل الا ما يلد ويبيض وَأَهْلَكَ اى واهل بيتك من زوجتك واولادك إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ لا له
الْقَوْلُ مِنْهُمْ بالهلاك وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم
الثلاثة وفى سورة هود وَمَنْ آمَنَ وما آمن معه الا قليل قيل كانوا ستة رجال ونساءهم وقيل جميع
من كان فى السفينة ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء وَلَا تُخَاطِبْنِي اى بالسؤال
فى النجاة فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا اى كفروا ثم علل ذلك بقوله تعالى إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ اى قد حتم القضاء عليهم لظلمهم
بالاشراك والمعاصى ومن هذا شانه لا يشفع له فانه تعالى بعد ان املى لهم الدهر المتطاول فلم يزدهم الاضلالا
ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق الا ان يجعلوا عبرة للمعتبرين ونحن نكرمك عن سؤال لا يقبل ولقد بالغ
سبحانه وتعالى حيث اتبع النهى عنه الامر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم بقوله تعالى فَإِذَا اسْتَوَيْتَ
اى اعتدلت أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ اى من البشر وغيرهم عَلَى الْفُلْكِ ففرغت من امتثال الامر بالحمل
فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ اى الذى لا كفء له لانه مختص بصفات الحمد الَّذِي نَجَّانَا بحملنا فيه مِنَ الْقَوْمِ
اى الاعداء الاغبياء الظَّالِمِينَ اى الكافرين لقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب
العالمين * تنبيه * انما قال تعالى قل ولم يقل فقولوا لان نوحا عليه السلام كان لهم نبيا واماما

فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وان رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك او نبي ولما اشار له بهذا القول الى السلامة بالحمل اتبعه بالاشارة الى الوعد باسكان الارض بقوله تعالى وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي في الفلك ثم في الارض وفي كل منزل تنزلني به وتورثني اياه مُنْزَلًا مُبَارَكًا اي يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين وقرأ ابو بكر بفتح الميم وكسر الزاي اي مكان النزول والباقون بضم الميم وفتح الزاي مصدرا واسم مكان ثم ان الله تعالى امره ان يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته وهو قوله تعالى وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ما ذكر لانك تكفي نزيلك كل ملم وتعطيه كل امر ولما كانت هذه القصة من اغرب القصص حث على تدبرها بقوله تعالى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ اي الامر العظيم من امر نوح والسفينة واهلاك الكفار لَآيَاتٍ اي دلالات على قدرة الله تعالى وصدق الانبياء في ان المؤمنين هم المفلحون وانهم الوارثون للارض بعد الظالمين وان عظمت شوكتهم واشتدت صولتهم وَإِنْ كُنَّا بما لنا من العظمة والوصف الثابت الدال على تمام القدرة لَمُبْتَلِينَ اي فاعلين فعل المختبر بعبادنا بارسال الرسل ليظهر في عالم الشهادة الصالح منهم من غيره ثم نبتلي الصالحين منهم بما يزيد حسناتهم وينقص سيئاتهم ويعلي درجاتهم ثم نجعل لهم العاقبة كما قال تعالى والعاقبة للمتقين تنبيه ان هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان واللام هي الفارقة القصة الثانية قصة هود وقيل صالح عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى ثُمَّ أَنْشَأْنَا اي احدثنا واحيينا مِنْ بَعْدِهِمْ اي من بعد اهلاكهم قَرْنًا اي قوما آخَرِينَ هم عاد قوم هود وقيل ثمود قوم صالح فَأَرْسَلْنَا اي فتعقب انشاءنا لهم وتسبب عنه انا ارسلنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ هو هود وقيل صالح قال البغوي والاول هو الاظهر وهو المروي عن ابن عباس ويشهد له حكاية الله قول هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على اثر قصة نوح في سورة الاعراف وسورة هود والشعراء ثم بين تعالى ما ارسل به بقوله تعالى أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ اي وحده لانه لا مكافئ له ثم دل على الاستغراق بقوله تعالى مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ اي هذه الحالة التي انتم عليها مخافة عقابه فتؤمنون وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم النون في الوصل والباقون بكسرها والقراءة في غيره ذكرت قريبا وَقَالَ الْمَلَأُ اي الاشراف الذين تملأ رؤيتهم الصدور مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا اي غطوا ما يعرفون من ادلة التوحيد والانتقام من المشركين وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ اي بالمصير اليها وَأَتْرَفْنَاهُمْ اي والحال انا بما لنا من العظمة نعمناهم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بالاموال والاولاد وكثرة السرور مخاطبين اتباعهم مَا هَٰذَا اشاروا اليه تحقيرا له عند المخاطبين إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ في الخلق والحال ثم وصفوه بما يوهم المساواة لهم في كل وصف فقالوا يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ اي من طعام الدنيا وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ اي من شرابها فكيف يكون رسولا دونكم وقولهم وَلَئِنْ اللام لام قسم اي والله لئن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ اي فيما يامركم به إِنَّكُمْ إِذًا اي ان اطعتموه لَخَاسِرُونَ اي مغبونون لكونكم فضلتم مثلكم عليكم بما يدعيه ثم بينوا

انكارهم بقولهم أيعدكم أنكم إذا متم ففارقت أرواحكم أجسادكم وكنتم أي وكانت أجسادكم
ترابا باستيلاء التراب على ما دون عظامكم وعظاما مجردة عن اللحوم والأعصاب أنكم مخرجون
أي من تلك الحالة التي صرتم إليها فراجعون إلى ما كنتم عليه من الحياة على ما كان لكم
من الأجسام + تنبيه + قوله تعالى مخرجون خبر أنكم الأولى وأنكم الثانية تأكيد لها لما طال الفصل
ثم استأنفوا التصريح بما دل عليه الكلام من استبعاد ذلك فقالوا هيهات هيهات اسم فعل
ماض بمعنى مصدر أي بعد بعد جدا وقال ابن عباس كلمة بعد أي بعيد ثم كأنه قيل لأي شيء هذا
الاستبعاد فقيل لما توعدون من الإخراج من القبور فإن قيل ما توعدون هو المستبعد ومن حقه
أن يرفع بهيهات كما ارتفع به في قوله فهيهات هيهات العقيق وأهله + فما هذه اللام أجيب
بأن الزجاج قال في تفسيره البعد لما توعدون فنزل منزلة المصدر ويصح أن تكون اللام لبيان
المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام في هيت لك لبيان المهيت به
أو أن اللام زائدة للبيان + فائدة + وقف البزي والكسائي على هيهات الأولى والثانية بالهاء
والباقون بالتاء على المرسوم وقولهم إن هي ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة
إلا حياتنا الدنيا ثم وضع هي موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ويبينها ومنه هي النفس تتحمل ما حملت
والمعنى لا حياة إلا هذه الحياة لأن إن النافية دخلت على هي التي بمعنى الحياة الدالة على الجنس
فنفتها فوازنت لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس نموت ونحيا أي يموت منا من هو موجود وينشأ
آخرون بعدهم وقيل يموت قوم ويحيا قوم وقيل تموت الآباء وتحيا الأبناء وقيل في الآية تقديم
وتأخير أي نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت كما قالوا وما نحن بمبعوثين بعد الموت
فكأنه قيل فما هذا الكلام الذي يقوله فقيل كذب ثم حصروا أمره في الكذب فقالوا إن أي ما
هو إلا رجل افترى أي تعمد على الله أي الملك الأعلى كذبا فلا يلتفت إليه وما نحن له بمؤمنين أي
بمصدقين فيما يخبرنا به من البعث والرسالة فكأنه قيل فما قال فقيل قال رب أي أيها المحسن
إلي بالرسالة وبإرسالي إليهم وبغيره من أنواع النعم انصرني أي أوقع لي النصر بما كذبون فأجابه
ربه بأن قال عما قليل من الزمان وما زائدة وأكدت القلة بزيادتها ليصبحن أي ليصيرن نادمين
أي على كفرهم وتكذيبهم إذا عاينوا العذاب فأخذتهم الصيحة أي صيحة العذاب والهلاك كائنة بالحق
أي الأمر الثابت من العذاب الذي لا يمكن مدافعته لهم ولا لغيرهم غير الله تعالى فماتوا وقيل صيحة
جبريل عليه السلام ويكون القوم ثمود على الخلاف السابق فجعلناهم بسبب الصيحة غثاء أي
مطروحين ميتين كما يطرح الغثاء شبهوا في دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلي واسود من الورق
والعيدان ومنه قوله فجعله غثاء أحوى أي أسود يابسا ولما كان هلاكهم على هذا الوجه سببا لهوانهم
عبر عنه بقوله تعالى فبعدا أي هلاكا وطردا عن الرحمة للقوم الظالمين الذين وضعوا قوتهم التي كان
يجب عليهم بذلها في نصر الرسل في خذلانهم + تنبيه + يحتمل هذا الدعاء عليهم والإخبار عنهم وضع

الظاهر موضع ضميرهم للتعليل وبعدا وسحقا ونفرا وتخويفا ونحوها مصادر موضوعة مواضع افعالها
وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه نصبت بافعال لا يستعمل اظهارها + القصة الثالثة
المذكورة في قوله تعالى ثم انشأنا اي بعظمتنا التي لا يضرها تقادم ولا تأخير من بعدهم اي من بعد
قد منا ذكره من نوح والقرن الذي بعده قرونا اي اقواما آخرين فهو سبحانه وتعالى تارة يقص
علينا في القرآن مفصلا كما تقدم وتارة يقص مجملا كما هنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وايوب
ويوسف عليهم السلام وعن ابن عباس بني اسرائيل ثم انه تعالى اخبر بانه لم يعجل على احد منهم قبل
الاجل الذي اجل لهم بقوله تعالى ما تسبق من امة اجلها اي الذي قدر لها بان تموت قبله وما يستأخرون
عنه + تنبيه + ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى ومن زائدة ثم ارسلنا رسلنا تترا اي متتابعين
بين كل اثنين زمان طويل وقرأ ابو عمرو رسلنا بسكون السين والباقون برفعها وقرأ تترا ابن كثير
وابو عمرو في الوصل بتنوين الراء على انه مصدر بمعنى التواتر وقع حالا والباقون بغير تنوين ولما كان
كانه قيل فكان ماذا قيل كلما جاء امة رسولها اي بما امرناه من التوحيد كذبوه اي كما فعل
هؤلاء بك لما امرتهم بذلك + تنبيه + اضاف الرسول مع الارسال الى المرسل ومع المجيء الى المرسل
اليهم لان الارسال الذي هو مبدأ الامر منه والمجيء الذي هو منتهاه اليهم وقرأ نافع وابن كثير و
ابو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والواو والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم
في المد فاتبعنا القرون بسبب تكذيبهم بعضهم بعضا في الاهلاك فلم يبق عند الناس منهم الا
اخبارهم كما قال تعالى وجعلناهم احاديث اي اخبارا يسمعونها ويتعجب منها ليكونوا عظة
للمستبصرين فيعلموا انه لا يفلح الكافرون ولا يخيب المؤمنون وما احسن قول القائل شعر
ولا شيء يدوم فكن حديثا + جميل الذكر فالدنيا حديث + والاحاديث
تكون جمعا للحديث ومنه احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
وتكون جمعا للاحدوثة التي هي مثل الاضحوكة والالعوبة وهي ما يتحدث به الناس
تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا ولما تسبب عن تكذيبهم هلاكهم المقتضي لبعدهم قال تعالى فبعدا
لقوم اي اقوياء على ما يطلب منهم لا يؤمنون اي لا يوجد منهم ايمان وان جرت عليهم
الفصول الاربعة لانه لا مزاج لهم معتدل + القصة الرابعة قصة موسى وهرون عليهما السلام
المذكورة في قوله تعالى ثم ارسلنا اي بما لنا من العظمة موسى واخاه هرون باياتنا قال ابن عباس
الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والبحر والسنين ونقص
الثمرات وسلطان مبين اي حجة بينة وهي العصا وافردها بالذكر لانها قد تعلق بها معجزات
شتى من انقلابها حية وتلقفها ما افكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها
حارسا وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء فجعلت كانها ليست بعضا لما استبدت به من الفضائل
فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ويجوز ان

يراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها
وان شاركت آيات سائر الانبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قول موسى عليه السلام
وان يراد بالسلطان المبين المعجزات وبالآيات الحجج وان يراد بهما المعجزات فانها آيات النبوة
وحجة بينة على ما يدعيه النبي قال الرازي واعلم ان الآية تدل على ان معجزات موسى كانت معجزات
هرون ايضا وان النبوة كما كانت مشتركة بينهما فكذلك المعجزات الى فرعون وملائه اى وقومه
ولكن لما كان الاطراف لا يخالفون الاشراف عدهم عدما ومن الواضح ان التقدير ان اعبدوا الله ما لكم
من اله غيره واشار بقوله تعالى فاستكبروا الى انهم اوجدوا الكبر عن الاتباع فيما دعوهم اليه عقب
الابلاغ من غير تأمل ولا تثبت وطلبوا ان لا يكونوا تحت امر من دعاهم واشار بالكون الى فساد جبلتهم
بقوله تعالى وكانوا قوما اى اقوياء عالين اى متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم ولما تسبب عن استكبارهم
وعلوهم انكارهم للاتباع قال تعالى فقالوا أنؤمن اى بالله تعالى مصدقين لبشرين مثلنا اى في البشرية
والمأكل والمشرب وغيرهما مما يعتري البشر كما قال من تقدمهم وقومهما اى والحال ان قومهما
اى بني اسرائيل لنا عابدون خضوعا وتذللا اى في غاية الذل والانقياد كالعبيد فنحن اعلى منهما بهذا
او لانه كان يدعي الالهية فادعى للناس العبادة وان طاعتهم له عبادة على الحقيقة فكذبوهما اى
فرعون وملؤه موسى وهرون فكانوا اى فرعون وملؤه بسبب تكذيبهم من المهلكين اى بالغرق
ببحر القلزم ولم تغن عنهم قوتهم في انفسهم ولا قوتهم على خصوص بني اسرائيل واستعبادهم ولا ضعف بني
اسرائيل ضعفهم عن دفاعهم ولا ذلهم لهم وصغارهم في ايديهم ولما كان ضلال بني اسرائيل بعد انقاذهم
من عبودية فرعون وقومه اعجب قال تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ولقد آتينا اى بعظمتنا
موسى الكتاب اى التوراة لعلهم اى قوم موسى وهرون عليهما السلام يهتدون من الضلالة
الى المعارف والاحكام ولا يصح عود الضمير الى فرعون وملئه لان التوراة انما اوتيها بنو اسرائيل بعد
اغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى
القصة الخامسة قصة عيسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى وجعلنا اى بعظمتنا وقدرتنا
ابن مريم نسبه اليها تحقيقا لكونه لا اب له وكونه بشرا محمولا في البطن مولودا لا يصلح لرتبة الالهية
وزاد في تحقيق ذلك بقوله وامه وقال تعالى آية ولم يقل آيتين لان الآية فيهما واحدة ولادته
من غير فحل ويحتمل ان الآية الاولى حذفت لدلالة الثانية عليها والتقدير وجعلنا ابن مريم
آية وامه آية لان الله تعالى جعل مريم آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن قد تكلمت في صغرها
كما تكلم عيسى وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلتقم ثديا قط
* تنبيه * قال بعض المفسرين ولعل في ذلك اشارة الى انه تكملت به آية للقدرة على ايجاد الانسان
بكل اعتبار من غير ذكر ولا انثى وهو آدم عليه السلام ومن ذكر بلا انثى وهي حواء عليها السلام
ومن انثى بلا ذكر وهو عيسى عليه السلام ومن الزوجين وهو بقية الناس وآويناهما اى

بعظمتنا الى ربوة اى وكان عال من الارض * تنبيه * قد اختلف فى هذه الربوة فقال عطاء عن ابن عباس هى بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب قال كعب هى اقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا وقال عبد الله بن سلام هى دمشق وقال ابو هريرة هى الرملة وقال السدى هى ارض فلسطين وقال ابن زيد هى مصر وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضم الراء ذات قرار اى منبسطة مستوية واسعة يستقر عليها ساكنوها ومعين اى ماء جار ظاهر تراه العيون * تنبيه * قد اختلف فى زيادة ميم معين واصالتها فوجه من جعلها مفعولا انه مدرك بالعين لظهوره من عانه اذا ادركه بعينه نحو ركبه اذا ضربه بركبته ووجه من جعله فعيلا انه نفاع لظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة قيل سبب الايواء انها فرت بابنها الى الربوة وبقيت بها اثنتى عشرة سنة ثم رجعت الى اهلها بعد ما مات ملكهم وههنا اخر القصص وقد اختلف فى المخاطب بقوله تعالى يٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ على وجوه احدها انه محمد صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة ثانيها انه عيسى عليه السلام لانه روى ان عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل امه ثالثها انه كل رسول خوطب بذلك ووصى به لانه تعالى فى الازل متكلم امرناه ولا يشترط فى الامر وجود المامورين بل الخطاب ازلا على تقدير وجود المخاطبين فقول البيضاوى لاعلى انهم خوطبوا بذلك دفعة لانهم ارسلوا فى ازمنة مختلفة بل على معنى ان كلا منهم خوطب به فى زمانه تبع فيه الكشاف فان المعتزلة انكروا قدم الكلام فحملوا الاية على خلاف ظاهرها وانت خبير بان عدم اشتراط ما ذكروا انما هو فى التعلق المعنوى لا التنجيزى الذى الكلام فيه فانه مشروط فيه ذلك وانما خاطب جميع الرسل بذلك ليعتقد السامع ان امرا خوطب به جميع الرسل ووصوا به حقيق ان يؤخذ به ويعمل عليه وهذا كما قال الرازى اقرب لانه روى عن ام عبد الله اخت شداد بن اوس انها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده صلى الله عليه وسلم الرسول اليها وقال من اين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده صلى الله عليه وسلم وقال من اين هذه الشاة فقالت اشتريتها من مالى فاخذه ثم انها جاءته فقالت يا رسول الله لم رددته فقال صلى الله عليه وسلم بذلك امرت الرسل ان لا تاكل الا طيبا ولا تعمل الا صالحا والمراد بالطيب الحلال وقيل طيبات الرزق الحلال الصافى القوام فالحلال هو الذى لا يعصى الله تعالى فيه والصافى هو الذى لا ينسى الله فيه والقوام هو الذى يمسك النفس ويحفظ العقل وقيل المراد بالطيب المستلذ اى مما تستلذه النفس من الماكل والمشرب والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله تعالى واويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين واعلم انه سبحانه وتعالى كما قال للمرسلين يا ايها الرسل كلوا من الطيبات قال للمؤمنين يا ايها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ودل سبحانه وتعالى على ان الحلال عون على الطاعة بقوله تعالى وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا فرضا ونفلا سرا وجهرا غير خائفين من احد غير الله تعالى ثم حثهم على دوام المراقبة بقوله تعالى إِنِّى بِمَا اى بكل شئ تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ اى بالغ العلم فاجازيكم عليه وقرأ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ بكسر

الهمزة الكوفيون على الاستئناف والباقون بفتحها على تقدير واعلموا ان هذه اى ملة الاسلام وخفف
النون ساكنة ابن عامر وشددها مفتوحة الباقون امتكم اى دينكم ايها المخاطبون اى يجب
ان تكونوا عليها حال كونها امة واحدة لا شتات فيها اصلا فما دامت موحدة فهى مرضية
وانا ربكم اى المحسن اليكم بالخلق والرزق وحدى فمن وحدنى نجا ومن اشرك معى غيرى هلك
فاتقون اى فاحذرون فتقطعوا اى الامم وانما اضمرهم لوضوح ارادتهم لان الاية التى قبلها
قد صرحت بان الانبياء ومن نجا منهم امة واحدة لا خلاف بينهما فعلم قطعا ان الضمير للامم
ومن تابعهم ولذلك كان النظر الى الامر الذى كان واحدا اهم فقدم وقوله امرهم
اى دينهم بعد ان كان مجتمعا متصلا بينهم وقوله تعالى زبرا حال من فاعل تقطعوا اى احزابا
متخالفين فصاروا فرقا كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الاديان المختلفة جمع زبور
بمعنى الفرقة وقيل معنى زبرا كتبا اى تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من
الكتب كل حزب اى فرقة من المتحزبين بما لديهم اى عندهم من ضلال وهدى وقرأ حمزة
بضم الهاء والباقون بكسرها فرحون اى مسرورون فضلا عن انهم راضون وقوله تعالى
فذرهم خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم اى اترك كفار مكة فى غمرتهم اى ضلالتهم
شبهها بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها حتى حين اى الى ان يقتلوا او يموتوا تسلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تاخيره ولما
كان الموجب لغرورهم ظنهم ان حالهم فى بسط الارزاق من الاموال والاولاد حال الرضا
عنهم انكر ذلك عليهم تنبيها لمن سبقت له السعادة وكتبت له الحسنى وزيادة فقال تعالى
ايحسبون اى لضعف عقولهم وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها انما نمدهم
اى نعطيهم ونجعله مددا لهم به من مال نيسره لهم وبنين نمتعهم بهم ثم اخبر عن ان بقوله تعالى
نسارع اى نعجل لهم اى به فى الخيرات لا نفعل ذلك بل لا يشعرون انهم فى غاية البعد عن الخيرات
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال تعالى فى موضع آخر فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم
انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون وروى عن زيد بن
ميسرة انه قال اوحى الله تعالى الى نبى من الانبياء ايفرح عبدى ان ابسط اليه الدنيا وهو ابعد له
منى ويجزع ان اقبض عنه الدنيا وهو اقرب له منى وعن الحسن انه لما اتى عمر رضى الله عنه بسوارى
كسرى فاخذهما ووضعهما فى يد سراقة ابن مالك فبلغا منكبيه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك
عليه الصلوة والسلام كان يحب ان يصيب مالا لينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه ثم ان ابابكر كان
يحب ذلك اللهم لا يكون ذلك مكرا منك ثم تلا ايحسبون الاية ولما ذكر اهل الافتراق ذكر اهل الوفاق
ووصفهم باربع صفات الاولى قوله تعالى ان الذين هم اى ببواطنهم من خشية ربهم اى الخوف العظيم
من المحسن اليهم المنعم عليهم مشفقون اى دائمون على الحف الصفة الثانية قوله تعالى والذين

هم بآيات ربهم اى القرآن يؤمنون اى يصدقون الصفة الثالثة قوله تعالى والذين هم بربهم
اى الذى لا محسن اليهم غيره لا يشركون اى شيئا من شرك فى وقت من الاوقات كما لم يشركه
فى الاحسان اليهم احد + ولما اثبت لهم الايمان الخالص نفى عنهم العجب بقوله تعالى والذين
يؤتون اى يعطون ما آتوا اى ما اعطوا من الصدقة والاعمال الصالحة وهذه الصفة الرابعة
وقلوبهم وجلة اى شديدة الخوف ان لا يقبل منهم ولا ينجيهم من عذاب الله ثم علل ذلك بقوله
تعالى انهم الى ربهم اى الذى طال احسانه اليهم راجعون بالبعث فيجازيهم على النقير والقطمير
ويجزيهم بكل قليل وكثير وهو الناقد البصير ولا تنفع هناك الندامة وليس هناك الا الحكم العدل
والحكم القاطع من جهة مالك الملك قال الحسن البصرى المؤمن جمع ايمانا وخشية والمنافق جمع
اساءة وامنا + ثم اثبت لهم ما نفاه عن اضدادهم بقوله تعالى اولئك يسارعون فى الخيرات
وهم لها سابقون اى يبادرون الى الاعمال الصالحة قبل الموت + ولما ذكر تعالى كيفية اعمال المؤمنين
المخلصين ذكر انه تعالى لا يكلف احدا فوق طاقته بقوله تعالى ولا نكلف نفسا الا وسعها اى طاقتها
فمن لم يستطع ان يصلى الفرض قائما فليصل قاعدا ومن لم يستطع ان يصلى قاعدا فليصل مضطجعا
ومن لم يستطع ان يصوم رمضان فليفطر لان مبنى المخلوق على العجز ولدينا اى عندنا كتاب
ينطق بالحق بما عملته كل نفس وهو اللوح المحفوظ تسطر فيه الاعمال وقيل كتب الحفظة ونظيره قوله
تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها فشبه تعالى الكتاب
بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرف بما فيه كما يعرف بنطق الناطق اذا كان محقا
فان قيل ما فائدة ذلك الكتاب مع ان الله تعالى يعلم ذلك اذ لا يخفى عليه خافية اجيب بان الله تعالى
يفعل ما يشاء وقد يكون فى ذلك حكمة لا يطلع عليها الا هو تعالى وهم اى الخلق كلهم لا يظلمون
اى لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد فى سيئاتهم + ثم ذكر حال الكفار فقال تعالى بل قلوبهم اى الكفرة
من الخلق فى غمرة اى جهالة قد اغرقتها من هذا اى القرآن او الذى وصف به حال هؤلاء او من كتاب
الحفظة ولهم اعمال من دون ذلك المذكور للمؤمنين هم اى الكفار لها اى لتلك الاعمال الخبيثة
عاملون اى لا بد ان يعملوها فيعذبون عليها لما سبق لهم من الشقاوة حتى اذا اخذنا مترفيهم
اى رؤساءهم واغنياءهم بالعذاب قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع دعا عليهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى
يوسف فابتلاهم الله تعالى بالقحط حتى اكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والقد والاولاد اذا هم
يجأرون اى يصيحون ويستغيثون ويجزعون واصل الجأر رفع الصوت بالتضرع قاله البغوى وكأنه
قيل فلم يقبل اعتذارهم او يرحم انكسارهم فقيل لا بل يقال لهم بلسان الحال او المقال
لا تجأروا اليوم فان الجأر غير نافع لكم + ثم علل ذلك بقوله تعالى انكم منا لا تنصرون اى
بوجه من الوجوه ومن عدم نصرنا لم يجد له ناصرا فلا فائدة لجؤاره الا اظهار الجزع ثم علل عدم

بنصرة لهم بقوله تعالى قد كانت ءايٰتي اي من القرآن تتلى عليكم اي من اوليائي وهم الهداة النصحاء
فكنتم كناهو كالجبلة على اعقابكم عند تلاوتها تنكصون اي تعرضون مدبرين عن سماعها
والعمل بها والنكوص الرجوع القهقرى مستكبرين عن الايمان واختلف في عود الضمير في به
فقال ابن عباس بالبيت الحرام وشهرة استكبارهم وافتخارهم انهم قوامه اغنت عن سبق ذكره وذلك
انهم يقولون نحن اهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا احد ولا نخاف احدا فيأمنون فيه
وسائر الناس في الخوف وقيل بالقرآن فلم يؤمنوا به وقوله تعالى سامرا نصب على الحال اي جماعة
يتحدثون بالليل حول البيت وقوله تعالى تهجرون قرأه نافع بضم التاء وكسر الجيم من الاهجار وهو
الافحاش اي تفحشون وتقولون الخنا ذكروا انهم كانوا يسبون النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه والباقون
بفتح التاء وضم الجيم اي تعرضون عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الايمان وعن القرآن وترفضونها
وتسمون القرآن سحرا وشعرا ثم انه تعالى لما وصف حالهم رد عليهم بان بين ان اقدامهم على هذه
الامور لا بد ان يكون لاحد امور اربعة احدها ان لا يتأملوا في دليل نبوته وهو المراد من قوله تعالى
افلم يدبروا القول اي القرآن الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم واصل يدبروا يتدبروا
ادغمت التاء في الدال ثانيها ان يعتقدوا ان ما جاء به الرسول امر على خلاف العادة وهو المراد
من قوله تعالى ام جاءهم في هذا القول ما لم يأت ءاباءهم الاولين الذين بعد اسمعيل وقبله
ثالثها ان لا يكونوا عالمين بامانته وحسن حاله قبل ادعائه النبوة وهو المراد من قوله تعالى ام
لم يعرفوا رسولهم اي الذي اتاهم بهذا القول الذي لا قول مثله وهم يعرفون نسبه وصدقه وامانته
وما جاءهم به من معالي الاخلاق حتى انهم لا يجدون فيه اذا تحققت الحقائق نقيصة يذكرونها
ولا وصمة يستحلونها كما دلت عليه الاحاديث الصحاح منها حديث ابي سفيان ابن حرب الذي
في اول البخاري في سؤال هرقل ملك الروم له عن شانه صلى الله عليه وسلم وقد اتفقت كلمتهم عليه
بتسميته الامين فهم اي فتسبب عن جهلهم به انهم له اي نفسه او القول الذي اتى به منكرون
فيكونوا من جهل الحق لجهل حال الاتي به وفي هذا غاية التوبيخ لهم بجهلهم وبغباوتهم بانهم يعرفون انه
اصدق الخلق واعلاهم في كل معنى جميل ثم كذبوه رابعها ان يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انما حمله
على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله تعالى ام يقولون اي بعد تدبرما اتى به وعدم
عثورهم فيه على وجه من وجوه الطعن به اي رسولهم جنة اي جنون فلا يوثق به + ولما كانت هذه
الاقسام منفية عنه فانهم اعرف الناس بهذا النبي الكريم وانه اكملهم خلقا واشرفهم خلقا واطهرهم
شيما اعظمهم هما وارجحهم عقلا وامتنهم رايا واصدقهم قولا واصوبهم فعلا اضرب عنها وقال تعالى
بل اي لم ينكصوا عند سماع الآيات ويسمروا ويهجروا لاعتقاد شيء مما مضى وانما فعلوا
ذلك لان هذا الرسول الكريم جاءهم بالحق اي القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع
الاسلام وقال الجلال المحلي الاستفهام فيه للتقرير بالحق من صدق النبي ومجيء الرسول للامم

الماضية ومعرفة رسولهم بالصدق والامانة وان لا جنون به وبل للانتقال وأكثرهم اى
والحال ان اكثرهم للحق كارهون متابعة للاهواء الردية والشهوات البهيمية عناداً وانما قيد تعالى
الحكم بالاكثر لان بعضهم يتركه جهلاً وتقليداً وخوفاً من ان يقال صبأ وبعضهم يتبعه توفيقاً من الله
تعالى وتأييداً ثم بين تعالى ان اتباع الهوى يؤدى الى الفساد العظيم بقوله تعالى ولو اتبع الحق اى
القران اهواءهم بان جاء بما يهوونه من الشرك والولد لله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً لفسدت
السموات على علوها واحكامها والارض على كثافتها وانتظامها ومن فيهن على كثرتهم وانتشارهم
وقوتهم اى خرجت عن نظامها المشاهد بسبب ادعائهم تعدد الالهة لوجود التمانع فى الشئ عادة
عند تعدد الحاكم كما سبق تقريره فى قوله تعالى لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا بل اتيناهم
بعظمتنا بذكرهم اى بالقران الذى فيه ذكرهم وشرفهم وقيل بالذكر الذى تمنوه بقولهم لو ان عندنا
ذكراً من الاولين فهم عن ذكرهم اى الذى هو شرفهم معرضون لا يلتفتون اليه ثم بين تعالى
ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سبباً لنفرتهم بقوله تعالى ام تسألهم اى
على ما جئتهم به خرجاً اى اجراً وقرأ حمزة والكسائى بفتح الراء وبعدها الف والباقون بسكون الراء
ولما كان الانكار معناه النفى حسن موقع فاء السببية فى قوله تعالى فخراج ربك اى رزقه فى الدنيا
وثوابه فى العقبى خير لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم وقرأ ابن عامر بسكون
الراء والباقون بفتحها والف بعدها قال ابو عمرو بن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك
اداؤه قال الزمخشرى والوجه ان الخرج اخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة اى
الرقبة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجاً فخراج ربك يعنى ام تسألهم
على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير وقوله تعالى وهو خير الرازقين
تقرير لخيرية خراجه ولما زيف سبحانه وتعالى طريق القوم اتبعه بصحة ما جاء به الرسول عليه السلام
بقوله تعالى وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم تشهد عقولهم السليمة على استقامته لا عوج فيه
يوجب اتهامهم له كما تشهد له به العقول الصحيحة فمن سلكه اوصله الى الفوز بجوار كل شرف تنبيه
قد الزمهم الله تعالى الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم فان الذى ارسل اليهم رجل معروف
امره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بان يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وانه لم يعرض له حتى
يدعى مثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل له سلماً الى النيل من دنياهم واستعطاء اموالهم
ولم يدعهم الى دين الاسلام الذى هو الصراط المستقيم الا مع ابراز المكنون من ادوائهم وهو اخلادهم
بالتقليد والتأمل من غير برهان وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اى بالبعث والثواب والعقاب
ربع عن الصراط اى الذى لا صراط غيره لانه لا موصل الى القصد غيره لناكبون اى عادلون منحرفون
فى سائر احوالهم سائرون على غير منهج اصلاً بل خبط عشواء ولو رحمناهم اى عاملناهم معاملة المرحوم
فى ازالة ضرره وهو معنى قوله تعالى وكشفنا ما بهم من ضر اى جوع اصابهم بمكة سبع سنين للجوا

اى عادوا وتمادوا فى طغيانهم الذى كانوا عليه قبل هذا يعمهون اى يترددون ولقد
اخذناهم بالعذاب وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قريش ان يجعل عليهم سنين
كسنى يوسف فاصابهم القحط فجاء ابو سفيان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال انشدك الله
والرحم الست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قد قتلت الاباء بالسيف والابناء
بالجوع فقد اكلوا الفرث والعظام والعلهز وشكا اليه الضرع فادع الله تعالى يكشف عنا هذا
القحط فدعا فكشف عنهم فانزل الله تعالى هذه الاية * تنبيه * العلهز وبر يخلط بدماء اللحم
يؤكل فى الجدب والعلهز ايضا القراد الضخم * وشكا بعض الاعراب الى النبى صلى الله عليه وسلم
السنة فقال شعر ولا شئ مما ياكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامى والعلهز الغسل * وليس لنا
الا اليك فرارنا * واين فرار الناس الا الى الرسل * فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسقى
لرفع هذه المحن فقال الله تعالى عنهم فما استكانوا اى خضعوا خضوعا هو كالجبلة لهم واصله طلب
السكون لربهم اى المحسن اليهم عقب المحنة وما يتضرعون اى يجددون الدعاء بالخضوع
والذل والخشوع فى كل وقت بحيث يكون لهم عادة بل هم على ما جبلوا عليه من الاستكبار والعتو
حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا اى صاحب عذاب شديد قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وهو
قول مجاهد وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة اذا هم فيه اى ذلك الباب مضطرون
لا يقدرون منه على نوع خلاص مبلسون متحيرون ايسون من كل خير ثم انه سبحانه التفت
الى خطابهم وبين عظيم نعمته من وجوه احدها ما ذكره بقوله تعالى وهو الذى انشأ اى خلق
لكم يا من يكذب بالاخرة السمع بمعنى الاسماع والابصار على غير مثال سبق لتسمعوا بها
ما نصب من الايات والافئدة اى التى هى مراكز العقول فتتفكروا فى الايات وتستدلوا بها
على الوحدانية فكنتم بها اعلى من بقية الحيوان لهم فؤاد وهو القلب وانما خص
هذه الثلاثة بالذكر لانه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها
فمن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال عز وجل فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم
ولا افئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بايات الله * ولما صور لهم هذه النعم وهى بحيث
لا يشك عاقل فى انه لو تصور ان يعطى ادمى شيئا منها لم يقدر على مكافأته حسن تبكيتهم فى كفر
النعم فقال تعالى قليلا ما تشكرون لمن اولاكم هذه النعم التى لا يقدر غيره على شئ منها مع
ادعائكم انكم اشكر الناس لمن اسدى اليكم اقل ما يكون من النعم التى يقدر على مثلها
كل احد فكنتم بذلك مثل الحيوانات العجم صما بكما عميا قال ابو مسلم ليس المراد ان لهم شكرا
وان قل لكنه كما يقال للكفور الجاحد النعمة ما اقل شكر فلان ثانيها ما ذكره فى قوله تعالى
وهو اى وحده الذى ذرأكم اى خلقكم وبثكم فى الارض للتناسل واليه وحده
تحشرون يوم النشور ثالثها ما ذكره بقوله تعالى وهو اى وحده الذى من شأنه انه يحيى

وَيُمِيتُ فلا مانع له من البعث ولا غيره مما يريد ثالثها ما ذكره بقوله تعالى وَلَهُ اخْتِلَافُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ اى التصرف فيهما بالسواد والبياض والزيادة والنقصان أَفَلَا تَعْقِلُونَ اى بالنظر والتأمل ان الكل منا وان قدرتنا تعم الممكنات كلها وان البعث من جملتها فتعتبرون + ولما كان معنى الاستفهام الانكاري النفي حسن بعده قوله تعالى بَلْ قَالُوا اى هؤلاء العرب مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ من قوم نوح ومن بعدهم فقالوا ذلك تقليدا للاولين ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين احدهما ما ذكره بقوله تعالى قَالُوا اى منكرين للبعث متعجبين من امره ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا اى بالبلاء بعد الموت تُرَابًا وَعِظَامًا نخرة ثم اكدوا الانكار بقولهم ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ اى المحشورون بعد ذلك قالوا ذلك استبعادا ولم ينظروا انهم قبل ذلك ايضا كانوا ترابا فخلقوا ثانيهما ما ذكره بقوله تعالى انهم قالوا لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا اى البعث بعد الموت مِنْ قَبْلُ كانهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه صلى الله عليه وسلم فقد وقع قديما من سائر الانبياء ولم يوجد مع طول العهد وظنوا ان الاعادة تكون فى دار الدنيا ثم قالوا إِنْ اى ما هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ اى اكاذيب الْأَوَّلِينَ كالاضاحيك والاعاجيب جمع اسطورة بالضم وقيل جمع اسطار جمع سطر قال رؤبة + انى واسطار يسطرون سطرا + وهو ما كتبه الاولون مما لا حقيقة له + ولما انكروا البعث هذا الانكار المؤكد ونفوه هذا النفي المحتم امره الله تعالى ان يقررهم بثلاثة اشياء هم بها مقرون ولها عارفون يلزمهم من تسليمها الاقرار بالبعث قطعا احدها قوله تعالى قُلْ اى مجيبا لانكارهم البعث ملزما لهم لِمَنِ الْأَرْضُ اى على سعتها وكثرة عجائبها وَمَنْ فِيهَا على كثرتهم واختلافهم إِنْ كُنْتُمْ اى مما هو كالجبلة لكم تَعْلَمُونَ اى اهلا للعلم وفيه تنبيه على انهم الكفرة شيئا لا ينكره عاقل + ولما كانوا مقرين بذلك اخبر تعالى عن جوابهم قبل جوابهم ليكون من دلائل النبوة واعلام الرسالة بقوله تعالى استئنافا سَيَقُولُونَ اى قطعا ذلك كله لِلَّهِ اى المختص بصفات الكمال ثم انه تعالى امره بقوله قُلْ اى لهم اذا قالوا لك ذلك منكرا عليهم أَفَلَا تَذَكَّرُونَ اى الى ذلك المركوز فى طباعكم المقطوع به عندكم ما غفلتم عنه من تمام قدرته وباهر عظمته فتسرعوا ما اخبركم به من البعث الذى هو دون ذلك وتعلموا انه لا يصلح شئ منها وهو ملكه ان يكون شريكا له تعالى ولا ولدا وتعلموا ان القادر على الخلق ابتداء قادر على الاحياء بعد الموت وانه لا يصح فى الحكمة اصلا ان يترك البعث لان اقلكم لا يرضى بترك حساب عبيده والعدل بينهم وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء الثانية فى الذال ثانيها قوله تعالى قُلْ اى لهم مَنْ رَبُّ اى خالق ومدبر السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ كما تشاهدون من حركاتها وسيرا فلكها وَرَبُّ الْعَرْشِ اى الكرسى الْعَظِيمِ كما قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض سَيَقُولُونَ لِلَّهِ اى الذى له كل شئ هو رب ذلك لا جواب لهم غير ذلك ولما تاكد الامر وزاد الوضوح حسن التهديد على التمادى فقال تعالى قُلْ اى منكرا عليهم أَفَلَا تَتَّقُونَ اى تحذرون [illegible] قرّرا امر الله تعالى بعدما قررهم بالعالمين العلوى والسفلى

ان يقررهم بما هو اعم واعظم وهو قوله تعالى مَنْ بِيَدِهِ اى من تحت قدرته ومشيئته مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ من انس وجن وغيرهما والملكوت الملك البليغ قال ابن الاثير كانت العرب اذا كان السيد فيهم اجار احدا لا يخفر جواره وليس لمن دونه ان يجير عليه لئلا يعاب عليه ولو اجار ما افاد ولهذا قال تعالى وَهُوَ يُجِيرُ اى يمنع ويغيث من شاء فيكون في حرز لا يقدر احد على الدنو من ساحته وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ اى ولا يمكن احدا ابدا ان يجير جوارا يكون مستعليا عليه بان يكون على غير مراده بل يأخذ من اراد وان نصره جميع الخلائق ويعلى من اراد وان تحاملت عليه كل المصائب فتبين كالشمس انه لا شريك له يمانعه ولا ولد يضارعه وانه السيد العظيم الذى لا اعظم منه الذى له الخلق والامر ولا معقب لحكمه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ثم الهبهم الى المبادرة الى الاعتراف به وهيجهم بقوله تعالى إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ اى فى عداد من يعلم ولذلك استأنف قوله تعالى سَيَقُولُونَ لِلَّهِ اى الذى بيده كل ذلك خاصا به + تنبيه + سيقولون لله الاول لا خلاف فيها واما الثانية والثالثة فقرأ ابو عمرو سيقولون الله بزيادة همزة الوصل مع التفخيم فيهما ورفع الهاء والباقون بغير همزة الوصل مع الترقيق وكسر الهاء والنقس بذلك كله لله + ولما كان جوابهم بذلك يقتضى انكارهم تقصيرهم فى الاقرار بالبعث استأنف قوله تعالى قُلْ اى لهم منكرا عليهم فَأَنَّى تُسْحَرُونَ اى فكيف بعد اقراركم بذلك كله تخدعون وتصرفون عن الحق وكيف يخيل لكم انه باطل + ولما كان الانكار بمعنى النفى حسن قوله تعالى بَلْ اى ليس الامر كما يقولون بل أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ اى بالصدق من التوحيد والوعد بالنشور وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فى كل ما ادعوه من الولد والشريك وغيرهما مما بين القرآن فساده ومن اعظم كذبهم قولهم اتخذ الرحمن ولدا قال تعالى ردا عليهم مَا اتَّخَذَ اللَّهُ اى الذى لا كفء له مِنْ وَلَدٍ اى لا من الملائكة ولا من غيرهم لما قام من الادلة على غناه وانه لا مجانس له + ولما كان الولد اخص من مطلق الشريك قال تعالى وَمَا كَانَ مَعَهُ اى بوجه من الوجوه مِنْ إِلَٰهٍ يشابهه فى الالوهية إِذًا اى لو كان معه اله اخر لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ بالتصرف فيه فهو وحده يتميز ما له مما لغيره فان قيل اذا لا تدخل الا على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله تعالى لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل اجيب بان الشرط محذوف تقديره ولو كانت معه الهة وانما حذف لدلالة قوله تعالى وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ اى بعض الالهة عَلَىٰ بَعْضٍ اذا تخالفت اوامرهم فلم يرض احد منهم ان يضاف ما خلقه الى غيره ولا ان يمضى فيه امر على غير مراده كما هو مقتضى العادة فلا يكون المغلوب الها لعجزه ولا يمكن ان يجيرا فيه يجار عليه بيده وحده ملكوت كل شئ + ولما طابق الدليل الالزامى نفى الشريك نزه نفسه الشريفة بما هو نتيجة ذلك من قوله تعالى سُبْحَانَ اللَّهِ اى المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن شائبة كل نقص عَمَّا يَصِفُونَ من كل ما لا يليق بجنابه المقدس من الانداد والاولاد لما سبق من الدليل على فساده ثم اقام دليلا اخر على كماله بوصفه بقوله تعالى

عالم الغيب والشهادة اي ما غاب وما شوهد وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي برفع الميم على انه
خبر مبتدأ محذوف تقديره هو والباقون بالخفض على انه صفة لله ثم رتب على هذا الدليل
قوله تعالى فتعالى اي تعاظم عما يشركون معه من الالهة ثم ان الله تعالى امر نبيه صلى الله عليه وسلم
بقوله تعالى قل رب اي ايها المحسن الي إما فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة اي ان كان
لابد ان تريني لان ما والنون للتاكيد ما يوعدون من العذاب في الدنيا والاخرة رب فلا تجعلني
بامسانك الي في القوم الظالمين اي قرينا لهم في العذاب فان قيل كيف يجوز ان يجعل الله تعالى
نبيه صلى الله عليه وسلم المعصوم مع الظالمين حتى يطلب ان لا يجعله معهم اجيب بانه يجوز ان
يسال العبد ربه ما علم انه يفعله وان يستعيذ به مما علم انه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه
واخباتا له واستغفاره صلى الله عليه وسلم اذا قام من مجلسه سبعين مرة او مائة مرة لذلك
وما احسن قول الحسن في قول ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وليتكم ولست بخيركم كان يعلم انه
خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما ذكر ربه مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة
في التضرع وانا اي بما لنا من العظمة على ان نريك اي قبل موتك ما نعدهم من العذاب لقادرون
لكنا نؤخره علما بان بعضهم او بعض اعقابهم يؤمنون وهو صادق بالقتل يوم بدر او فتح مكة ثم
كانه قال فماذا افعل فيما تعلم من امرهم فقال تعالى ادفع بالتي هي احسن اي من الاقوال والافعال
بالصفح والمداراة السيئة اذاهم اياك وهذا قبل الامر بالقتال فهي منسوخة وقيل محكمة لان المداراة
محثوث عليها ما لم تؤد الى نقصان دين او مروءة نحن اعلم بما يصفون في حقك وحقنا فلو شئنا منعناهم
منه او عاجلناهم بالعذاب وليس احد باغير منا فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولما ادب سبحانه
وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بان يدفع بالتي هي احسن علمه ما به يقوى على ذلك بقوله تعالى
وقل رب اي ايها المحسن الي اعوذ بك اي التجئ اليك من همزات الشياطين اي ان يصلوا الي
بوساوسهم واصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم الناس على المعاصي بهمز الرائض
الدواب على المشي وانما جمع همزات لتنوع الوسواس او لتعدد المضاف اليه واعوذ بك رب اي
ايها المربي لي ان يحضرون في حال من الاحوال خصوصا حال الصلوة وقراءة القران وحلول الاجل
لانها احرى الاحوال وهم انما يحضرون بالسوء ولو لم يصل الى وساوسهم فان بعدهم بركة وعن جبير
بن مطعم قال رايت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي صلوة قال عمرو لا ادري اي صلوة هي فقال
الله اكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة واصيلا ثلاثا اعوذ بالله من
الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة
اخرجه ابو داود ولان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق والمتكبر
ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه ويحتاج الى ان ينفخ والموتة الجنون والجنون يصيبه في الدنيا
كما ابتليته ثم ان الله تعالى اخبر ان هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة الى الدنيا

عند معاينة الموت بقوله تعالى حتى وهي هنا كما قال الجلال المحلي ابتدائية او متعلقة بيصفون
او بكاذبون كما قال الزمخشري وقدم المفعول ليذهب الوهم في فاعله كل مذهب فقال اِذَا جَآءَ
اَحَدَهُمُ الْمَوْتُ فكشف له الغطاء وظهر له الحق ولاحت له بوارق العذاب ولم يبق في شيء من ذلك
ارتياب قَالَ متحسرا على ما فرط فيه من الايمان والطاعة مخاطبا للملائكة العذاب على عادة جهله
ووقوفه مع المحسوس من داب البهائم رَبِّ ارْجِعُوْنِ اي ردوني الى الدنيا دار العمل ويجوز ان
يكون الجمع له تعالى وللملائكة او للتعظيم على عادة مخاطبات الاكابر سيما الملوك كقوله +
الا فارحموني يا اله محمد + وقوله + فان شئت حرمت النساء سواكم + او القصد تكرير الفعل
للتاكيد لانه في معنى ارجعني كما قيل في قفا واطرقا فانهما بمعنى قف قف واطرق اطرق + ولما كان
في تلك الحالة مع وصوله الى الغرغرة ليس على القطع من الياس قال لَعَلِّيْ اَعْمَلُ اي لان اكون على رجاء
من ان اعمل صَالِحًا فِيْمَا تَرَكْتُ اي ضيعت من الايمان بالله وتوابعه فيدخل في الاعمال الاعمال البدنية
والمالية وعنه صلى الله عليه وسلم اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم
والاحزان بل قدوما على الله واما الكافر فيقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت قال قتادة
ما تمنى ان يرجع الى اهله ولا عشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل
بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر اذا راى العذاب وقال ابن كثير كان العلاء بن زياد
يقول لينزل احدكم نفسه انه قد حضره الموت واستقال ربه فاقاله فليعمل بطاعة الله تعالى
+ ولما كان القضاء قد قطع بانه لا يرجع ولو رجع لم يعمل بطاعة الله عز وجل ولرد لعاد والما نهوا
عنه وانهم لكاذبون قال الله تعالى له ردعا ورد الكلامه كَلَّا اي لا يكون شيء من ذلك وكانه
قيل فما حكم ما قال فقيل اِنَّهَا كَلِمَةٌ والمراد بالكلمة في اللغة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع
بعض رب ارجعون الى اخره هُوَ قَآئِلُهَا وقد عرف منه الخداع والكذب فهي كما عهد منه لا حقيقة
لها فلا يجاب اليها ولا تسمع منه وهو لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه
وتسلط الندم وَمِنْ وَّرَآئِهِمْ اي امامهم والضمير للجماعة بَرْزَخٌ اي حاجز حائل بينهم وبين الرجعة
واختلف في معناه فقال مجاهد حجاب بينهم وبين الرجوع الى الدنيا وقال قتادة بقية الدنيا وقال
الضحاك البرزخ ما بين الموت الى البعث وقيل هو الموت وقيل هو القبر هم فيه اِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ وهو
يوم القيامة وفي هذا اقناط كلي من الرجوع الى الدنيا لما علم انه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجوع
فيه الى حياة تكون في الاخرة فَاِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ اي القرن روى سعيد بن جبير عن ابن عباس انها
النفخة الاولى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض فَلَآ اَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَّ
لَا يَتَسَآءَلُوْنَ ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون واقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود انها
النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والاخرين
ثم ينادي مناد هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليات الى حقه فيفرح المرء ان يكون له

حق على والده او ولده او زوجته او اخيه فيأخذه منهم ثم قرأ ابن مسعود فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفي رواية عطاء عن ابن عباس انها النفخة الثانية فلا انساب بينهم اي لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون بها في الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا من انت ومن اي قبيل انت ولم يرد ان الانسان ينقطع نسبه فان قيل قد قال تعالى هنا ولا يتساءلون وقال تعالى في موضع اخر واقبل بعضهم على بعض يتساءلون اجيب بان ابن عباس قال ان للقيامة احوالا ومواطن ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفي موطن يفيقون افاقة فيتساءلون وقيل التساؤل بعد دخول اهل الجنة الجنة واهل النار النار ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ اي بالاعمال المقبولة قال البقاعي ولعل الجمع لان لكل عمل ميزانا يعرف انه لا يصلح له غيره وذلك ادل دليل على القدرة ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ اي خاصة قال ايضا ولعله جمع للبشارة بكثرة الناجي بعد ان افرد للدلالة على كثرة الاعمال او على عموم الوزن لكل فرد ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ اي الفائزون بالنجاة والدرجات العلى ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ لاعراضه عن تلك الاعمال المؤسسة على الايمان ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ خاصة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ لاهلاكهم اياها باتباعها شهواتها في دار الاعمال وشغلها باهوائها عن مراتب الكمال وقوله تعالى ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ بدل من الصلة او خبر ثان لاولئك وهي دار لا ينفك اسيرها ولا ينطفئ سعيرها ثم استأنف قوله تعالى ﴿تَلْفَحُ﴾ اي تغشى بشدة حرها وسمومها ووهجها ﴿وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ فتحرقها فما ظنك بغيرها واللفح كالنفح الا انه اشد تأثيرا ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ اي عابسون قد شمرت شفاههم العليا والسفلى عن اسنانهم وعن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط راسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ اي من القرآن على اضمار القول اي يقال لهم الم تكن اياتي ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ اي تتابع لكم قراءتها في الدنيا شيئا فشيئا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ثم استأنف جوابه بقوله تعالى ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ اي المسبغ علينا نعمه ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ اي ملكتنا بحيث صارت احوالها مؤدية الى سوء العاقبة ﴿وَكُنَّا﴾ اي بما جبلنا عليه ﴿قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ في ذلك عن الحق اقوياء في موجبات الشقوة فكان سببا للضلال عن طريق السعادة ﴿رَبَّنَا﴾ يا من عودنا بالاحسان ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ اي من النار تفضلا منك على عادة فضلك وردنا الى دار الدنيا لنعمل ما يرضيك ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ الى مثل ذلك الضلال ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لانفسنا ثم استأنف جوابهم بان ﴿قَالَ﴾ لهم بلسان ملك بعد قدر الدنيا مرتين لما يقال للكلب ﴿اخْسَئُوا﴾ اي انزجروا زجر الكلاب وانطردوا عن مخاطبتي ساكتين سكوت هوان ﴿فِيهَا﴾ اي النار ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ اصلا فانكم لستم باهل لمخاطبتي لانكم لن تزالوا متصفين بالظلم فيئس القوم بعد ذلك ولا يتكلموا بكلمة الا الزفير والشهيق والعواء كعواء الكلاب وقال القرطبي اذا قيل لهم ذلك انقطع رجاؤهم واقبل بعضهم ينبح في وجه بعض فانطبقت عليهم وعن ابن عباس ان لهم ست

دعوات اذا دخلوا النار قالوا الف سنة ربنا ابصرنا وسمعنا فيجابون حق القول مني فينادون
الفا ربنا امتنا اثنتين فيجابون ذلكم بانه اذا دعي الله وحده كفرتم فينادون الفا يا مالك ليقض
علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون الفا ربنا اخرجنا منها فيجابون اولم تكونوا اقسمتم فينادون
الفا اخرجنا نعمل صالحا فيجابون اولم نعمركم فينادون الفا رب ارجعون فيجابون اخسئوا فيها
ولا تكلمون ثم لا يكون لهم الا الزفير والشهيق والعواء ثم علل ذلك بقوله تعالى انه كان اي كونا
ثابتا فريق اي ناس قد استضعفتموهم من عبادي وهم المؤمنون يقولون مع الاستمرار ربنا اي ايها
المحسن الينا بالخلق والرزق امنا اي اوقعنا الايمان بجميع ما جاءتنا به الرسل فاغفر لنا اي
استر لنا زللنا وارحمنا اي افعل بنا فعل الراحم وانت خير الراحمين لانك تخلص برحمتك من كل
شقاء وهوان فاتخذتموهم اي تسبب عن ايمانهم ان اتخذتموهم سخريا اي تسخرون منهم
وتستهزؤن بهم وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بالكسر وهو مصدر سخر كالسخر
الا ان في ياء النسب زيادة قوة في الفعل كما قيل الخصوصية في الخصوص وعن الكسائي والفراء ان
المكسور من الهزء والمضموم من السخرية والعبودية اي تسخرونهم وتستعبدونهم قال الزمخشري
والاول مذهب الخليل وسيبويه انتهى واظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص والباقون بالادغام
حتى انسوكم ذكري اي بان تذكروني فتخافوني واضاف ذلك اليهم لانهم كانوا السبب فيه لفرط
اشتغالهم بالاستهزاء بهم وكنتم منهم تضحكون استهزاء بهم نزلت في كفار قريش كانوا يستهزؤن
بالفقراء من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ولما تشوقت
النفس بعد العلم بما فعل باعدائهم الى جزائهم قال الله تعالى اني جزيتهم اليوم اي بالنعيم المقيم
بما صبروا اي على عبادتي ولم يشغلهم عنها تألمهم باذاكم كما يشغلكم عنها التذاذكم بها انهم ففازوا
دونكم هو معنى قوله تعالى انهم هم الفائزون اي بمطلوبهم الناجون من عذاب النار وقرأ حمزة
والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها على انه مفعول ثان لجزيتهم ثم ان الله تعالى
قال لهم على لسان الملك المامور بسؤالهم تبكيتا وتوبيخا لانهم كانوا يظنون ان بعد الموت يدوم
الفناء ولا اعادة فلما حصلوا في النار وايقنوا انها دائمة وانهم فيها مخلدون سالهم كم لبثتم في الارض
على تلك الحال في الدنيا التي كنتم تعدون ونها فوزا عدد سنين انتم فيها ظافرون ولاعدائكم قاهرون
وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي قل كم بضم القاف وسكون اللام على الامر للملك او لبعض رؤساء
اهل النار والباقون بفتح القاف واللام والف بينهما خبرا وتقدم توجيهه واظهر الثاء المثلثة
عند التاء المثناة فوق نافع وابن كثير وعاصم وادغمها فيها الباقون قالوا لبثنا يوما او بعض يوم يشكون
في ذلك فان قيل كيف يصح في جوابهم ان يقولوا ذلك ولا يقع من اهل النار الكذب اجيب بانهم نسوا ذلك
لكثرة ما هم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا فاسئل العادين اي الملائكة المحصين
اعمال الخلق واعمارهم قال ابن عباس انساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل قالوا ذلك

تصغيرا للبثهم وتحقيرا له بالاضافة الى ما وقعوا فيه من دوام العذاب قال بعضهم
الا ان ايام الشقاء طويلة * كما ان ايام السرور قصار * وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين
وترك الهمز بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ثم
قال الله تعالى لهم على لسان الملك إِنْ اي ما لَبِثْتُمْ اي في الدنيا إِلَّا قَلِيلًا لان الواحد وان طال
مكثه في الدنيا فانه يكون قليلا في جنب ما يلبث في الآخرة لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ اي في عداد من
يعلم في ذلك الوقت لما آثرتم الفاني على الباقي ولا قبلتم على ما ينفعكم ولتركتم افعالكم التي لا يرضاها
ولكنكم كنتم في عداد البهائم وقرأ حمزة والكسائي قل امرا والباقون قال خبرا وليس ثم تقدم مثله وهو
قال وقل ثم وبخهم الله تعالى على تغافلهم بقوله تعالى أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ على ما لنا من العظمة
وقوله تعالى عَبَثًا حال اي عابثين كقوله لاعبين او مفعول له اي ما خلقناكم للعبث ولم يدعنا الى
خلقكم الا حكمة اقتضت ذلك وهي ان نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي و
حسبتم أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ في الآخرة للجزاء وروى البغوي بسنده عن انس ان رجلا
مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في اذنه افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون حتى ختم
السورة فبرئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو ان رجلا موقنا قرأها على
جبل لزال وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء الفوقية وكسر الجيم والباقون بضم الفوقية وفتح الجيم ثم
نزه سبحانه وتعالى نفسه عما يقوله ويصفه به المشركون بقوله تعالى فَتَعَالَى اللَّهُ اي الذي له الجلال
والجمال علوا كبيرا عن العبث وغيره مما لا يليق به الْمَلِكُ اي المحيط باهل مملكته علما وقدرة وسياسة
وحفظا ورعاية الْحَقُّ اي الذي لا يتطرق الباطل اليه في شيء في ذاته ولا في صفاته فلا زوال له
ولا لملكه لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فلا يوجد له نظير اصلا في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله فهو متعال عن
سمات النقص والعبث ثم زاد في التعيين والتأكيد والتفرد بوصفه بصفة لا يدعيها غيره بقوله
تعالى رَبُّ الْعَرْشِ اي السرير المحيط بجميع الكائنات الذي تنزل منه محكمات الاقضية والاحكام
ولذا وصفه بالكرم فقال الْكَرِيمِ او لنسبته الى اكرم الاكرمين * ولما بين سبحانه وتعالى انه الملك الحق
لا اله الا هو اتبعه بان من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا بقوله تعالى وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ اي الملك الذي
لا كفء له إِلَهًا آخَرَ يعبد لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ اي بسبب دعائه بذلك اذا اجتهد في اقامة برهان
على ذلك لم يجد ثم ذكر ان من قال ذلك جزاؤه العقاب العظيم بقوله تعالى فَإِنَّمَا حِسَابُهُ اي جزاؤه
الذي لا يمكن زيادته ولا نقصه عِنْدَ رَبِّهِ اي الذي رباه ولم يره احد سواه الذي هو اعلم بسريرته
وعلانيته فلا يخفى عليه شيء من امره * ولما افتتح السورة بقوله قد افلح المؤمنون ختمها بقوله إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ اي لا يسعدون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة * ولما شرح الله تعالى احوال الكفار في
جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة امر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بالانقطاع اليه والالتجاء
الى غفرانه ورحمته بقوله تعالى وَقُلْ رَبِّ اي ايها المحسن الي اغْفِرْ وَارْحَمْ اي اكرمني هذا من

الوصفين وانت خير الراحمين فمن رحمته افلح ما توفقه له من امتثال ما اشرت اليه اول السورة
فكان من المؤمنين وكان من الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فقد انطبق على
الاول هذا الآخر بفوز كل مؤمن وخيبة كل كافر فنسأل الله تعالى ان يكون لنا ولوالدينا ولاحبابنا
ارحم راحم وخير غافر انه المتولي للسرائر والمرجو لصلاح الضمائر وما رواه البيضاوي
تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة
بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت حديث موضوع وقوله ايضا تبعا
للزمخشري روي ان اول سورة قد افلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من اولها
واتعظ باربع آيات من آخرها فقد نجا وافلح قال شيخ شيخنا ابن حجر حافظ عصره لم اجده

سورة النور مدنية

وهي ثنتان او اربع وستون آية

بسم الله الذي تمت كلمته فبهرت قدرته الرحمن الذي ظهرت الحقائق كلها بشمول رحمته الرحيم
الذي شرف من اختاره بجعل منه قوله تعالى سُورَةٌ خبر مبتدأ محذوف اي هذه سورة اي
عظيمة او سورة انزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف اي فيما اوحينا اليك سورة انزلناها وقال
الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وانزلناها خبره ثم رغب في امتثال ما فيها مبينا
ان تنوينها للتعظيم بقوله تعالى أَنْزَلْنَاهَا اي بما لنا من العظمة وتمام العلم والقدرة وَفَرَضْنَاهَا اي
قدرنا ما فيها من الحدود وقيل اوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة وقرأ ابن كثير و
ابو عمرو بتشديد الراء لكثرة الفروض والباقون بالتخفيف وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ من الحدود والاحكام
والمواعظ والامثال وغيرها بَيِّنَاتٍ اي واضحات الدلالة لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ اي تتعظون وقرأ حفص
وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد ثم انه تعالى ذكر في السورة احكاما كثيرة
الحكم الاول قوله تعالى الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي اي غير المحصنين لرجمهما بالسنة وال فيما ذكر موصولة وهو
مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء في خبره وهو فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ اي ضربة
يقال جلده اذا ضرب جلده ويزاد على ذلك بالسنة تغريب عام والرقيق على النصف مما ذكر ولا رجم
عليه لانه لا يتنصف واعلم ان الزنا من الكبائر ويدل عليه امور احدها ان الله تعالى قرنه بالشرك
وقتل النفس في قوله تعالى ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما ثانيها قوله تعالى ولا تقربوا الزنا انه
كان فاحشة وساء سبيلا ثالثها ان الله تعالى اوجب المائة فيه بكمالها بخلاف حد القذف
وشرب الخمر وشرع فيه الرجم وروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يا معشر الناس
اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة اما اللاتي في الدنيا فيذهب
البهاء ويورث الفقر وينقص العمر واما اللاتي في الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب
النار وعن عبد الله قال قلت يا رسول الله اي الذنب اعظم عند الله قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك

قلت ثم اى قال ان تقتل ولدك خشية ان ياكل معك قلت ثم اى قال ان تزانى بحليلة جارك فانزل
الله تعالى تصديقا لذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق
ولا يزنون والزنا ايلاج حشفة او قدرها من مقطوعها من الذكر المتصل الاصلى من الآدمى الواضح
ولو اشل وغير منتشر وكان ملفوفا فى خرقة بقبل محرم فى نفس الامر لعينه خال عن الشبهة المسقطة
للحد مشتهى طبعا بان كان فرج آدمى حى ولا يشترط ازالة البكارة حتى لو كانت عذراء وادخل الحشفة
فيها ولم يزل بكارتها ترتب عليه حد الزنا بخلاف التحليل لا بد فيه من ازالة البكارة لقوله صلى الله
عليه وسلم حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك واختلف فى اللواط هل يطلق عليه اسم الزنا
او لا فقال بعضهم يطلق عليه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا اتى الرجل الرجل فهما زانيان والذى عليه
الاكثر اصحابنا انه غير داخل تحت اسم الزنا لانه لو حلف لا يزنى فلاط لم يحنث والحديث محمول على الاثم بدليل
قوله صلى الله عليه وسلم اذا اتت المراة المراة فهما زانيتان وللشافعى فى حده قولان اصحهما ان الفاعل
ان كان محصنا فانه يرجم والا فيجلد مائة ويغرب عاما واما المفعول فلا يتصور فيه احصان فيجلد
ويغرب والقول الثانى يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا ام لا لما روى عن ابن عباس انه
قال من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به واما اتيان البهائم فحرام باجماع الائمة واختلف
فى عقوبته على اقوال احدها حد الزنا فيرجم الفاعل المحصن ويجلد غيره ويغرب والثانى انه يقتل
محصنا كان او غير محصن لما روى عن ابن عباس انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتى بهيمة
فاقتلوه واقتلوها معه والثالث وهو الاصح انه يعزر لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه
وضعفوا حديث ابن عباس لضعف اسناده وهو وان ثبت فهو معارض بما روى انه صلى الله عليه وسلم
نهى عن ذبح الحيوان الا لماكله واما السحاق من النساء واتيان المراة الميتة والاستمناء باليد فلا يشرع
فيه شئ من ذلك الا التعزير والمقيم للحد هو الامام او نائبه وللسيد ان يقيم الحد على رقيقه ولا تجوز
الشفاعة فى اسقاط الحد ولا تركه ولا تخفيفه كما قال تعالى ولا تاخذكم اى على اى حال من الاحوال
بهما رافة اى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة والباقون بسكونها
والسوسى على اصله من البدل وقيل معنى الرافة ان يخففوا الضرب فى دين الله اى الذى شرعه لكم
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها وروى ان عمر رضى الله عنه
جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تاخذكم بهما رافة فى دين
الله فقال يا بنى ان الله تعالى لم يامرنا بقتلها وقد ضربت فاوجعت ثم انه سبحانه وتعالى زاد فى الحض
على ذلك بقوله تعالى ان كنتم تؤمنون بالله اى الذى هو ارحم الراحمين فانه ما شرع ذلك الا رحمة
للناس عموما وللزانين خصوصا فلا تزيدوا فى الحد ولا تنقصوا منه شيئا وفى الحديث يؤتى بوال
نقص من الحد سوطا فيقول رحمة لعبادك فيقال له انت ارحم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى
بمن زاد سوطا فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به الى النار وعن ابى هريرة اقامة حد بارض خير من مطر

اربعين ليلة ثم اتبع ذلك بما يرهبه بقوله تعالى وَالْيَوْمِ الْآخِرِ الذي يحاسب فيه على النقير والقطمير الحقير والجليل وَلْيَشْهَدْ اي وليحضر عَذَابَهُمَا اي حدهما اذا اقيم عليهما طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ والطائفة الفرقة التي يمكن ان تكون حلقة واقلها ثلاثة او اربعة وهي صفة غالبة كانها الجماعة الحافة حول الشيء وعن ابن عباس في تفسيرها اربعة الى اربعين رجلا من المصدقين بالله تعالى وعن الحسن عشرة وعن قتادة ثلاثة فصاعدا وعن عكرمة رجلان فصاعدا وعن مجاهد اقلها رجل فصاعدا وقيل رجلان وفضل قول ابن عباس لان الاربعة هي الجماعة التي يثبت بها الزنا ولا يجب على الامام حضور رجمه ولا على الشهود لانه صلى الله عليه وسلم امر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما وانما خص المؤمنين بالحضور لان ذلك افضح والفاسق بين صلحاء قومه اخجل ويشهد له قول ابن عباس الى اربعين رجلا من المصدقين بالله + تنبيه + الضرب يكون بسوط لا جديد يجرح ولا خلق لا يؤلم ويفرق بين السياط على اعضائه ولا يجمعها في موضع واحد واتفقوا على انه يتقي المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الراس لقول ابي بكر رضي الله عنه اضرب على الراس فان الشيطان فيه ولا يشد يده وينزع الثياب التي تمنع الم الضرب كالفرو ولو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل ان يضرب كل يوم سوطا او سوطين فان فرق وضرب والالم موجود كفى وان وجب الحد على حامل لا يقام عليها حتى تضع وترضعه حتى ينفطم ويندب ان يحفر للمرأة الى صدرها ان ثبت زناها بالبينة لا باقرارها ولا يندب للرجل مطلقا وان وجب الحد على المريض نظر ان كان يرجى زواله كصداع انتظر او لا يرجى كالزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط بل بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام جلده واما في حال الحر والبرد الشديدين فان كان الحد رجما لم يؤخر لان النفس مستوفاة وان كان جلدا اخر الى اعتدال الهواء ويقبل رجوع الزاني عن اقراره ولو في اثناء الحد واذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين.

الحكم الثاني قوله تعالى الزَّانِي لَا يَنْكِحُ اي لا يتزوج إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً اي المعلوم اتصافه بالزنا مقصور نكاحه على زانية او مشركة وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا اي لا يتزوجها إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ اي والمعلوم اتصافها بالزنا مقصور نكاحها على زان او مشرك اذ الغالب ان المائل الى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافحة لا يرغب فيها الصلحاء فان المشاكلة علة الالفة والانضمام والمخالفة سبب النفرة والافتراق وقال بعضهم الجنسية علة الضم والمشاكلة سبب المواصلة والمخالفة توجب المباعدة وتحرم المؤالفة وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الرجل على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل وعن علي رضي الله تعالى عنه انه خطب اهل الكوفة بعد ثلاثة ايام من مقدمه عليهم فقال يا اهل الكوفة قد علمنا شراركم من خياركم فقالوا كيف ومالك الا ثلاثة ايام فقال كان معنا شرار وخيار فانضم خيارنا الى خياركم وشرارنا الى شراركم وعن الشعبي انه قال ان لله ملكا موكلا بجمع الاشكال بعضها الى بعض وقال القائل

ه عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي * فإن قيل لم قدمت الزانية
على الزاني اولا ثم قدم عليها ثانيا أجيب بأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هي المادة
التي منها نشأت الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت اصلا واولا في ذلك
بدئ بذكرها واما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل اصل فيه لانه الراغب فيه والخاطب
ومنه يبدأ الطلب وَحُرِّمَ ذَلِكَ اي نكاح الزاني والزانية تحريما لا مشوبة فيه عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
واختلف العلماء في معنى الآية وحكمها فقال قوم منهم مجاهد وعطاء وقتادة والزهري
والشعبي ورواية عن ابن عباس قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر و
بالمدينة نساء بغايا هن يومئذ اخصب اهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن
لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فنزلت هذه الآية وحرم
ذلك على المؤمنين ان يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وقال عكرمة نزلت في نساء كن
بمكة وبالمدينة لهن رايات يعرفن بهن منهن ام مهزول جارية السائب ابن ابي السائب المخزومي
وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مأكلة فاراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك
الصفة فاستأذن رجل منهم النبي صلى الله عليه وسلم في نكاح ام مهزول فاشترطت ان تنفق عليه
فنزلت هذه الآية وروى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن ابي
مرثد الغنوي وكان يحمل الاسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكانت بمكة بغي يقال لها عناق
وكانت صديقة له في الجاهلية فلما اتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا فقالت
فانكحني فقال حتى اسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت
يا رسول الله انكح عناقا فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد علي شيئا فنزل الزاني لا ينكح
الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها علي
وقال لا تنكحها اخرجه الترمذي والنسائي وابو داود بالفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم
خاصا في حق اولئك دون سائر الناس وقال قوم منهم سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس
المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزاني لا يزني الا بزانية او مشركة والزانية لا تزني الا بزان او مشرك وقال
يزيد بن هرون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وعن عائشة رضي الله عنها
ان الرجل اذا زنى بامرأة ليس له ان يتزوجها لهذه الآية واذا باشرها كان زانيا وكان ابن مسعود يحرم نكاح
الزانية ويقول اذا تزوج الزاني الزانية فهما زانيان ابدا وقال الحسن الزاني المجلود لا ينكح الا زانية مجلودة والزانية
المجلودة لا ينكحها الا زان مجلود وقال سعيد ابن المسيب وجماعة منهم الشافعي رحمه الله تعالى ان حكم
الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية فنسخها الله تعالى بقوله تعالى وانكحوا الايامى منكم
وهو جمع ايم وهي من لا زوج لها فدخلت الزانية في ايامى المسلمين واحتج من جوز نكاح الزانية بما روي عن
جابر ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان امرأتي لا تمنع يد لامس قال طلقها قال فاني

اجنبها وهي جميلة قال استمتع بها وفي رواية غيره امسكها اذا وقد اجازه ابن عباس وشبهه بمن
سرق ثمر شجرة ثم اشتراه وعنه صلى الله عليه وسلم انه سئل عن ذلك فقال اوله سفاح واخره نكاح
وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه ضرب رجلا وامراة زنيا وحرص ان يجمع بينهما فابى الغلام . ولما
نفر سبحانه وتعالى عن نكاح من اتصف بالزنا من رجل او امراة نهى عن الرمي به فقال تعالى
وَالَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ اي بالزنا الْمُحْصَنٰتِ جمع محصنة وهي هنا المسلمة الحرة المكلفة العفيفة وهذا
هو الحكم الثالث والذي يدل على ان المراد الرمي بالزنا امور احدها تقدم ذكر الزنا ثانيها انه تعالى
ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على ان المراد بالرمي رميها بضد ذلك ثالثها انعقاد
الاجماع على انه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب ان يكون المراد هو الرمي بالزنا رابعها قوله تعالى
ثُمَّ لَمْ يَاْتُوْا اي الى الحكام بِاَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ اي ذكور ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير شرط
الا في الزنا وشرط القاذف الذي يحد بسبب القذف التكليف والاختيار والتزام الاحكام والعلم
بالتحريم وعدم اذن المقذوف وان يكون غير اصل والفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض
فمن الصريح قوله لرجل او امراة زنيت او زنيت او يا زاني او يا زانية ولو كسر التاء في خطاب الرجل
وفتحها في خطاب المراة او زنيت في الجبل ومن الكناية زنات وزنأت في الجبل بالهمز فان نوى
بذلك القذف كان قذفا والا فلا ومن التعريض يا ابن الحلال واما انا فلست بزان فهذا ليس
بقذف وان نواه فان قيل اذا كان حكم القذف يشمل الذكر والانثى فلم كانت الاية الكريمة في الاناث فقط
اجيب بان الكلام في حقهن اشنع تنبيها على عظيم حق ام المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها
وحد القاذف الحر ثمانون كما قال تعالى فَاجْلِدُوْهُمْ اي ايها المؤمنون من الائمة ونوابهم ثَمٰنِيْنَ جَلْدَةً
لكل واحد منهم لكل محصنة وحد القاذف الرقيق ولو مبعضا او مكاتبا اربعون جلدة على النصف من
الحر لاية النساء فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فهذه الاية مخصوصة بتلك انه لا فرق
بين الذكر والانثى ولا بين حد الزنا وحد القذف ودليل على ان المراد بالاية الاحرار قوله تعالى وَلَا تَقْبَلُوْا
لَهُمْ اي بعد قذفهم شَهَادَةً اي شهادة كانت اَبَدًا للحكم بافترائهم لان العبد لا تقبل شهادته
وان لم يقذف . ولما كان التقدير فانهم قد افتروا عطف عليه تحذيرا من الاقدام عليه من غير تثبت
وَاُولٰٓئِكَ اي الذين تقدم ذمهم بالقذف فنزلت رتبتهم جدا هُمُ الْفٰسِقُوْنَ اي المحكوم بفسقهم
الثابت لهم هذا الوصف وان كان القاذف منهم محقا في نفس الامر وفي ذلك دليل على ان القذف
من الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب كبيرة واختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة
وحكم هذا الاستثناء المذكور في قوله اِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا اي رجعوا عما وقعوا فيه من القذف وغيره وندموا
عليه وعزموا على ان لا يعودوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ اي الامر الذي اوجب ابعادهم فذهب قوم الى ان
القاذف ترد شهادته بنفس القذف فاذا تاب وصلح حاله كما قال تعالى وَاَصْلَحُوْا اي بعد التوبة
بمضي مدة يظن بها حسن الحال وهي سنة يعتبر بها حال التائب بالفصول الاربعة التي تكشف

الطائع فَإِنَّ اللّٰهَ اى الذى له صفات الكمال غَفُورٌ اى ستور لهم ما اقدموا عليه لرجوعهم عنه رَّحِيْمٌ اى يفعل بهم من الاكرام فعل الراحم بالمرحوم فى قبول الشهادة وقبلت شهادته سواء قبل الحد وبعده وزال عنه اسم الفسق وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى ردّ الشهادة والى الفسق ويروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وجمع من الصحابة وبه قال مالك والشافعى وذهب قوم الى انّ شهادة المحدود فى القذف لاتقبل ابدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله واولئك هم الفاسقون ويروى ذلك عن النخعى وشريح وبه قال اصحاب الراى قالوا بنفس القذف لاتردّ شهادته ما لم يحدّ قال الشافعى هو قبل ان يحدّ شرّ منه حين يحدّ لانّ الحدود كفارات فكيف يردّ بها فى احسن حاليه وذهب الشعبى الى ان حدّ القذف يسقط بالتوبة فان قيل اذا قلتم بالاول فما معنى قوله تعالى ابدا اجيب بانّ معنى ابدا ما دام مصرا على القذف لانّ ابد كل انسان مدّته على ما يليق بحاله كما يقال لاتقبل شهادة الكافر ابدا يراد بذلك ما دام على كفره فاذا اسلم قبلت شهادته + تنبيهان + الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين او اربع كالزنا فيه قولان اصحهما انه يثبت برجلين تجلدوا فى فعل الزنا لانّ الفعل يغمض الاطلاع عليه واذا شهدوا على فعل الزنا يجب ان يذكروا الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية لابيه فيظنه زنا يوجب الحدّ وان يقولوا فى شهادتهم رايت ذكره يدخل فى فرجها وان لم يقل دخول الميل فى المكحلة لكن قوله ذلك اولى فلو شهدوا مطلقا انه زنى لم يقبلوا لانهم ربما يرون المفاخذة زنا ويشترط ايضا ان يفسر فى اقراره كالشهود ويصح رجوعه عن الاقرار ولو فى اثناء الحد كما مرّ ولا فرق فى قبول الشهادة بين ان يجئ الشهود متفرقين او مجتمعين كما قاله الشافعى وقال ابو حنيفة اذا شهدوا متفرقين لايثبت وعليهم حدّ القذف ولو شهد على الزنا اقل من اربعة او اربعة وفيهم الزوج لم يثبت الزنا وعليهم الحدّ لان شهادة الزوج لاتقبل فى حق زوجته قال ابن الرفعة فى الكفاية لامرين احدهما انّ الزنا تعرّض لمحل حق الزوج فانّ الزانى يستمتع بالمنافع المستحقة له فشهادته فى حقها تتضمن اثبات جناية الغير على ما هو مستحق له فلم تسمع كما اذا شهد انه جنى على عبده والثانى انّ من شهد بزنا زوجته فنفس شهادته دال على اظهار العداوة لان زناها يوغر صدره لانه بتلطيخ فراشه وادخال الغير عليه وعلى ولده وهو ابلغ من مؤلم الضرب وفاحش السب ولو قذف رجل وجاء باربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا لم يحدّ ولان شرائط الشهادة بالزنا قد وجدت عند القاضى الا انه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فلما اعتبرنا التهمة فى نفى الحدّ عن المشهود عليه فكذلك اوجبنا اعتبارها فى نفى الحدّ عنهم + ولما كان لفظ المحصنات عاما للزوجات وكان لهن حكم غير ما تقدم وهو الحكم الرابع افردهن بقوله وَالَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ اى بالزنا اَزْوَاجَهُمْ اى من المؤمنات والكافرات الحرائر والاماء وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَآءُ يشهدون على صحة ما قالوه اِلَّآ اَنْفُسُهُمْ اى غير انفسهم وهذا ربما يفهم انه اذا كان الزوج احد اربعة كفى وهذا المفهوم معطل لكونه حكاية حال واقعة لا شهود فيها وقوله تعالى فى الاية قبلها ثم لم ياتوا باربعة شهداء فانه يقتضى كون الشهداء غير الرامى بالزنا ولعله استثناه

من الشهداء لان لعانه يكون بلفظ الشهادة ومن مذهب الشافعي انه لا يقبل في ذلك كما قدمناه فَشَهَادَةُ
اَحَدِهِمْ اى فالواجب شهادة احدهم على من رماها او فعليهم شهادة احدهم اَرْبَعُ شَهٰدٰتٍ من خمس
فى مقابلة اربعة شهداء بِاللّٰهِ اى مقرونة بهذا الاسم الكريم الاعظم الموجب لاستحضار جميع صفات
الجلال والجمال اِنَّهٗ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ اى فيما قذفها به وقرأ حفص وحمزة والكسائى برفع العين على
انه خبر شهادة والباقون بنصبها على المصدر وَالْخَامِسَةُ اَنَّ لَعْنَتَ اللّٰهِ اى الملك الاعظم عَلَيْهِ
اى القاذف نفسه اِنْ كَانَ مِنَ الْكٰذِبِيْنَ فيما رماها به وقرأ نافع بتخفيف ان ساكنة ورفع لعنة
والباقون بتشديد النون مفتوحة ونصب لعنة ورسمت لعنة بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء
ابن كثير وابو عمرو والكسائى ووقف الباقون بالتاء واذا وقف الكسائى امال الهاء هذا لعان
الرجل وحكمه سقوط حد القذف عليه وحصول الفرقة بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله صلى الله عليه وسلم
المتلاعنان لا يجتمعان ابدا او بتفريق الحاكم فرقة طلاق عند ابى حنيفة ونفى الولد ان تعرض له فيه وثبوت
حد الزنا على المرأة بقوله تعالى وَيَدْرَؤُا اى يدفع عَنْهَا اى المقذوفة الْعَذَابَ اى المعهود وهو الحد الذى
اوجبه عليها كما تقدم اَنْ تَشْهَدَ اَرْبَعَ شَهٰدٰتٍ من خمس بِاللّٰهِ الذى له جميع الاسماء الحسنى والصفات
العليا كما تقدم فى الزوج اِنَّهٗ لَمِنَ الْكٰذِبِيْنَ فيما قاله عليها وَالْخَامِسَةَ من الشهادات اَنَّ غَضَبَ اللّٰهِ
الذى له الامر كله عَلَيْهَا اِنْ كَانَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ اى فيما رماها به روى البخارى فى تفسيره وغيره
عن ابن عباس ان هلال بن امية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء
فقال له النبى صلى الله عليه وسلم البينة او حد فى ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى احدنا على امرأته
رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول البينة او حد فى ظهرك فقال هلال
بن امية والذى بعثك بالحق انى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد فنزل جبريل عليه السلام
وانزل عليه والذين يرمون ازواجهم حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبى صلى الله عليه وسلم
فارسل اليهما فجاء فقام هلال بن امية فشهد والنبى صلى الله عليه وسلم يقول والله يعلم ان احدكما
كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة اوقفوها وقالوا انها موجبة
قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا افضح قومى سائر اليوم فمضت وقال
النبى صلى الله عليه وسلم ابصروها فان جاءت به اكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو
لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان
لى ولها شان وقد روى البخارى ايضا عن سهل بن سعد ان سبب نزولها قصة مثل هذه لعويمر رضى الله
عنه وقد تقدم انه لا يمتنع ان يكون للآية الواحدة عدة اسباب معا او متفرقة * تنبيه * خصت
المرأة بالغضب لانه ابلغ من اللعن الذى هو الطرد لانه قد يكون بسبب غير الغضب وسبب التغليظ
عليها الحث على اعترافها بالحق لما يصدق الزوج من القرينة من انه لا يتجشم فضيحة اهله المستلزم
لفضيحته الا وهو صادق ولانها مادة الفساد ومخالطة الانساب ويشترط فى اللعان امر القاضى وتلقينه

كلماته في الجانبين فيقول قل اشهد بالله الخ لان اللعان يمين لا يعتد بها قبل استحلاف القاضي وان غلب فيه معنى الشهادة فهي لا تؤدى عنده الا باذنه وان يتأخر لعانها عن لعانه لان لعانها لاسقاط الحد الذي وجب عليها بلعان الزوج كما علم مما مرّ ويلاعن اخرس باشارة مفهمة او كتابة ويكرر كلمة الشهادة اربعا او يكتبها مرة ويشير اليها اربعا ويصح اللعان بالعجمية وان عرف العربية ويشترط الولاء بين الكلمات الخمس فيؤثر الفصل الطويل ولا يشترط الولاء بين لعاني الزوجين ولو ابدل لفظ الشهادة بحلف ونحوه او لفظ غضب بلعن او عكسه او ذكرا قبل تمام الشهادة لم يصح ذلك ويصح ان يتلاعنا قائمين وان يغلظ اللعان بزمان وهو بعد عصر الجمعة فيؤخر اليه ان لم يكن طلب اكيد فلا فبعد عصر اي يوم كان وبمكان عند اشرف بلد اللعان فبمكة بين الحجر الاسود والمقام وهو المسمى بالحطيم والمدينة على المنبر وبيت المقدس عند الصخرة وغيرها على منبر الجامع وتلاعن حائض بباب المسجد وذمي في بيعة للنصارى وكنيسة لليهود وبيت نار لمجوس لانهم يعظمونها لا بيت اصنام وثني لانه لا حرمة له وقرأ حفص والخامسة الاخيرة بالنصب والباقون بالرفع وقرأ نافع بتخفيف النون ساكنة وكسر الضاد ورفع الهاء من الاسم الجليل والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب الضاد وخفض الهاء ✦ ولما حرّم سبحانه وتعالى بهذه الحدود الاعراض والانساب فصان بذلك الدين والاموال علم ان التقدير فلولا انه سبحانه خير الغافرين وخير الراحمين لما فعل بكم ذلك ولافضح المذنبين واظهر سرائر المستخفين ونفس الظالم فعطف على هذا الذي علم تقديره قوله تعالى ولولا فضل الله اي بما له من الكرم والاتصاف بصفات الكمال عليكم ورحمته اي بكم بالستر في ذلك وان الله اي الذي احاط بكل شيء قدرة وعلما تواب بقبوله التوبة في ذلك وغير ذلك حكيم بحكم الامور فيمنعها من الفساد بما يعلم من عواقب الامور لفضح كل عاص ولم يوجب اربعة شهداء ستراً للكرم ✦ الحكم الخامس قصة الافك المذكورة في قوله تعالى ان الذين جاؤا بالافك اي اسوأ الكذب سمي افكا لانه مصروف عن الحق من قولهم افك الشيء اذا صرفه عن جهته وذلك ان عائشة رضي الله تعالى عنها وعن ابويها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم فمن رماها بسوء فقد قلب الامر عن احسن وجوهه الى اقبح افضائه فان قيل لم ترك تسميتها اجيب بانه تركه تنزيها لها عن هذا المقال وابعادا لصون جانبها العلي عن هذا المراد وقوله تعالى عصبة خبران اي جماعة اقلهم عشرة واكثرهم اربعون وكذا العصابة وقوله تعالى منكم خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وابي بكر وعائشة وصفوان ممن يعد عندكم في عداد المسلمين يريد عبد الله بن ابي وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى لا تحسبوه شرا لكم مستأنف اي لا تظنوا الافك فتنة ولا يصدقه احد بل هو خير لكم لاكتسابكم به الثواب العظيم لانه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة وظهور كرامتكم على الله تعالى بانزال ثمان عشرة اية في براءتكم وتعظيم شأنكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن

رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتبرئة لام المؤمنين رضوان الله تعالى عليها وتطهير لاهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك او سمع به فلم تمجه اذناه وعدة الطاف للسامعين والتالين الى يوم القيامة وفوائد دينية واحكام وآداب لا تخفى على متأمليها ولما كان لا شفاء لغيظ الانسان اعظم من انتصار الملك الديان له علل ذلك بقوله تعالى لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم اى الآفكين مَّا اكْتَسَبَ اى بخوضه فيه مِنَ الْإِثْمِ الموجب لشقائه وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ اى معظمه مِنْهُمْ اى من الخائضين وهو ابن ابي فانه بدأ به واذاعه عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم او هو وحسان ومسطح فانهما تابعاه بالتصريح به والذى بمعنى الذين على هذا لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ في الآخرة او في الدنيا بان جلدوا وصار ابن ابي مطرودا مشهورا بالنفاق وحسان اعمى اشل اليدين ومسطح مكفوف البصر * تنبيه * قصة الافك معروفة في الصحيح والسنن وغيرهما شهيرة جدا ولكن نذكرها طرفا تبركا بذكر النبي صلى الله عليه وسلم وبذكر السيدة عائشة وابويها رضي الله تعالى عنهم فنقول عن عائشة رضي الله تعالى عنها انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد سفرا اقرع بين ازواجه فايتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة فاقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما انزل الحجاب فكنت احمل في هودج وانزل فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين فآذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شاني اقبلت الى رحلي فلمست صدرى واذا عقد لي من جزع اظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسني ابتغاؤه قالت واقبل الرهط الذين يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيرى الذى كنت اركب عليه وهم يحسبون اني فيه وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما ياكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما سار الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فيممت منزلي الذى كنت فيه وظننت انهم سيفقدوني فيرجعون الي فبينا انا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن معطل السلمي ثم الذكواني رضي الله تعالى عنه قد عرس من وراء الجيش فادلج فاصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى اناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى اتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول فهلك من هلك وكان الذى تولى كبر الافك منهم عبد الله بن ابي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون في قول اصحاب الافك ولا اشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي اني لا اعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت ارى منه حين اشتكي انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذى يريبني فيه ولا اشعر بالشر حتى نقهت فخرجت انا وام مسطح

قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل ان نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وامرنا امر العرب الاول في البرية وكنا نتاذى بالكنف ان نتخذها عند بيوتنا فانطلقت انا وام مسطح حين فرغنا من شأننا نمشي فعثرت ام مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت اتسبين رجلا شهد بدرا فقالت يا هنتاه اولم تسمعي ما قال قالت وما قال فاخبرتني بقول اهل الافك فازددت مرضا على مرضي فلما رجعت الى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له اتاذن لي ان اتي ابوي قالت وانا اريد ان استيقن الخبر من قبلهما قالت فاذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتيت ابوي فقلت لامي يا اماه ماذا يتحدث الناس قالت يا بنية هوني عليك فوالله ما كانت امراة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا اكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى اصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ثم اصبحت ابكي قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن ابي طالب واسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق اهله قالت فاما اسامة فاشار على النبي صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة اهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال اسامة هم اهلك يا رسول الله ولا نعلم والله الا خيرا واما علي فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال اي بريرة هل رايت من شيء يريبك قالت والذي بعثك بالحق ان رايت عليها امرا قط اغمصه اكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين اهلها فتاتي الداجن فتاكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن ابي ابن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني اذاه في اهلي والله ما علمت على اهلي الا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ولم يدخل على اهلي الا معي قالت فقام سعد اخو بني عبد الاشهل فقال انا يا رسول الله اعذرك فان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج امرتنا ففعلنا فيه امرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن حملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما احببت ان تقتله فقام اسيد بن حضير ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين قالت فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا ان يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم قالت واصبح ابواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا اكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى اني لاظن ان البكاء فالق كبدي فبينما ابواي جالسان عندي وانا ابكي فاستأذنت علي امراة من الانصار فاذنت لها فجلست تبكي معي قالت فبينا نحن على ذلك اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني بشيء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين

جلس ثم قال اما بعد یا عائشة انه بلغنی عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت المت بذنب فاستغفری الله وتوبی اليه فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى لا احس منه بقطرة فقلت لابی اجب رسول الله فيما قال فقال انی والله ما ادری ما اقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لامی اجيبی رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال فقالت امی والله ما ادری ما اقول لرسول الله فقلت وانا جارية حديثة السن لا اقرأ من القرآن كثيرا والله لقد علمت ما سمعتم هذا الحديث حتى استقر فی انفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم انی بريئة لا تصدقونی ولئن اعترفت لكم بامر والله يعلم انی منه بريئة لتصدقونی فوالله لا اجد لی ولكم مثلا الا ما قال العبد الصالح ابو يوسف ولم اذكر اسمه حين قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت واضطجعت على فراشی والله يعلم حينئذ انی بريئة والله مبرئی ببراءتی ولكن والله ما كنت اظن ان الله ينزل فی شأنی وحيا يتلى لشأنی فی نفسی كان احقر من ان يتكلم الله تعالى فی بامر ولكن كنت ارجو ان يری رسول الله صلى الله عليه وسلم فی النوم رؤيا يبرئنی الله بها فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج احد من اهل البيت حتى انزل الله تعالى على نبيه فاخذه ما كان يأخذه عند الوحی من البرحاء حتى انه ليتحدر منه العرق مثل الجمان فی اليوم الشاتی من ثقل الذی انزل عليه فسجی بثوب فوالله ما سری عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفسی ابری ستخرج جانب فرقا من ان يأتی الله بتحقيق ما قال الناس فلما سری عنه وهو يضحك فكان اول كلمة تكلم بها ان قال ابشری يا عائشة قد برأك الله فكنت اشد ما كنت غضبا فقال لی ابوای قومی اليه فقلت والله لا اقوم اليه ولا احمده ولا احمدكما ولا احمد الا الله الذی انزل براءتی لقد سمعتموه فما انكرتموه ولا غيرتموه وانزل الله تعالى ان الذين جاؤا العشر آيات كلها فقال ابوبكر والله لا انفق على مسطح بعد الذی قال لعائشة ما قال فانزل الله ولا يأتل اولوا الفضل منكم الى قوله غفور رحيم فقال ابوبكر الصديق رضی الله عنه بلى والله انی لاحب ان يغفر الله لی فرجع النفقة الى مسطح التی كان ينفقها عليه وقال والله لا انزعها منه ابدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن امری فقال لزينب ما علمت او رأيت فقالت يا رسول الله احمی سمعی وبصری والله ما علمت الا خيرا قالت عائشة وهی التی تسامينی من ازواج النبی صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت عائشة والله ان الرجل الذی قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذی نفسی بيده ما كشفت كنف انثى قط قالت ثم قتل بعد ذلك فی سبيل الله تعالى قالت ولما انزل عذری قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن وضرب عبد الله بن ابی ومسطحا وحسان وحمنة الحد قال عروة وكانت عائشة تكره ان يسب عندها حسان وتقول انه الذی قال سه فان ابی ووالده وعرضی + لعرض محمد منكم وقاء وقال الحافظ ابن عمر بن عبد البر فی الاستيعاب وانكر قوم ان يكون حسان خاض فی الافك

وجد فيه وروى عن عائشة انها برأته من ذلك النهي وقال غيره والله لا اظن به ذلك اصلا
وان جاءت تسميته في الصحيح فقد يخطئ الثقة لاسباب لا تحصى كما يعرف ذلك من مارس نقل
الاخبار وكيف يظن به ذلك ولا شغل له الا مدح النبي صلى الله عليه وسلم والمدافعة عنه
والذم لاعدائه وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم ان جبريل معه وهو القائل يمدح عائشة
ويكذب من نقل عنه ذلك * حصان رزان ما تزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل *
حليلة خير الناس دينا ومنصبا * نبي الهدى والمكرمات الفواضل * عقيلة حي من لؤي بن غالب *
كرام المساعي مجدها غير زائل * مهذبة قد طيب الله خيمها * وطهرها من كل شين وباطل *
وان كان ما بلغت عني قلته * فلا رفعت سوطي الي اناملي * فكيف وودي ما حييت ونصرتي *
لآل رسول الله زين المحافل * له رتبة عال على الناس فضلها * تقاصر عنها سورة المتطاول *
وفي هذا القدر كفاية لاولي الالباب فان في هذه القصة عبرة لمن اعتبر فان اهل الافك
استمروا في هذا اكثر من شهر والله تعالى عالم بما يقولون وان قولهم يكاد يقطع الاكباد
في احب خلقه اليه وهو قادر على تكذيبهم عند اول ما خاضوا فيه ولكنه سبحانه
اراد لناس رفع الدرجات ولآخرين الهلكات ولا باس ببيان غريب هذه الالفاظ التي وقعت
في هذه القصة من كلام عائشة وغيرها قولها آذن اي اعلم بالرحيل وقولها فقدت
عقدا لي من جزع اظفار هو نوع من الخرز هو الجزع اليماني المعروف وقولها لم يهبلن
اي لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن وقولها انما يأكلن العلقة من الطعام
وهو بضم العين اي البلغة من الطعام وهي قدر ما يمسك الرمق وقولها ليس
بها منهم داع ولا مجيب اي ليس بها احد لا من يدعو ولا من يرد جوابا وقولها
فتيممت اي قصدت وقولها معرس من وراء الجيش فادلج المعرس نزول المسافر بالليل
للراحة والادلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله وقولها باسترجاعه هو قول
القائل انا لله وانا اليه راجعون وقولها خمرت اي غطيت وجهي بجلبابي اي ازاري وقولها موغرين
في نحر الظهيرة الوغرة شدة الحر وكذلك نحر الظهيرة اي اولها وقولها والناس يفيضون اي
يخوضون ويتحدثون وقولها وهو يريبني يقال رابني الشيء يريبني اي تشككت فيه وقولها ولا
ارى من النبي اللطف اي الرفق بها واللطف في الافعال الرفق وفي الاقوال لين الكلام وقولها
حين نقهت اي افقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول
واصله المكان الواسع الخالي والمرط كساء من صوف او خز قولها فقالت تعس مسطح اي خسر
وقولها يا هنتاه اي يا بلهاء كانها نسبتها الى البله وقلة المعرفة وقولها لا يرقأ اي لا ينقطع وقول
بريرة ان رأيت بمعنى النفي اي ما رأيت منها امرا اغمصه عليها بالصاد المهملة اي اعيبه
والداجن الشاة التي تألف البيت وتقيم به وقوله صلى الله عليه وسلم من يعذرني اي ان انا كافأته

على سوء صنيعه ان عاتبت او عاقبت فلا تلوموني على ذلك وقولها ولكن حملته الحمية اي حمله
الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة وقولها فتثاور الحيان اي ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة
وقولها فلم يزل يخفضهم اي يهوّن عليهم ويسكت وقوله صلى الله عليه وسلم ان كنت الممت قيل هو من
اللمم وهو صغار الذنوب قيل معناه مقاربة الذنب من غير فعل وقولها قلص دمعي اي انقطع جريانه قوله
ما رام اي ما برح من مكانه والبرحاء الشدّة والجمانة الدرة وجمعه جمان وقولها فسرّي عنه اي كشف عنه
وقول زينب احمي سمعي وبصري اي امنعهما عن ان اخبر بما لم اسمع ولم ابصر وقولها وهي التي كانت تساميني
من السموّ وهو العلوّ والغلبة فعصمها الله تعالى اي منعها الله من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل
ما كشفت كنف انثى اي ستر انثى وقول حسان في عائشة حصان بفتح الحاء امراة حصان اي
متعففة رزان اي ثابتة ما تزن اي ترمى ولا تتهم بريبة اي امر يريب الناس وتصبح غرثى اي خائفة
الموت والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انها لا تغتاب احدا ممن هو غافل وقرأ
لا تحسبوه ويحسبونه ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها ، ولما اخبر سبحانه
وتعالى بعقاب اهل الافك وكان في المؤمنين من سمعه وسكت وفيهم من سمعه فتحدث به
متعجبا من قائله او متثبتا في امره وفيهم من اكذبه اتبعه سبحانه وتعالى بعتابهم في اسلوب خطابهم
مثنيا على من كذبه فقال سبحانه وتعالى مستانفا محرضا لَوْلَا اي هلا ولم لا اِذْ اي حين سَمِعْتُمُوْهُ ايها
المدعون للايمان ظَنَّ الْمُؤْمِنُوْنَ اي منكم وَالْمُؤْمِنٰتُ وكان الاصل ظننتم اي ايها العصبة ولكنه
التفت الى الغيبة تنبيها على التوبيخ وصرح بالنساء ونبه على الوصف المقتضي لحسن الظن تخويفا للذي
ظن السوء من سوء الخاتمة بِاَنْفُسِهِمْ حقيقة خَيْرًا وهم برءون من كذب عليها فقطعوا ببراءتها
لان الانسان لا يظن في الناس الا ما هو متصف به او باخوانهم لان المؤمنين كالجسد الواحد وذلك
نحو ما يروى ان ابا ايوب الانصاري قال لام ايوب الا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان
كنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوأ قال لا قالت ولو كنت انا بدل عائشة
ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير مني وصفوان خير منك وَقَالُوْا هٰذَا اِفْكٌ مُّبِيْنٌ
اي كذب بين فان قيل هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب
الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر اجيب بان ذلك مبالغة في التوبيخ على طريقة الالتفات وليصرح
بلفظ الايمان دالا على ان الاشتراك فيه يقتضي ان لا يصدق مؤمن على اخيه ولا مؤمنة على اختها قول
عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على ان حق المؤمن اذا سمع قالة في اخيه ان يبني الامر فيها على الظن لا على
الشك وان يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير هذا افك مبين هكذا اللفظ المصرح ببراءة
ساحته لا يقول كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الادب الحسن الذي قل القائم به
والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما يسمعه باخوانه ثم علل سبحانه وتعالى كذب
الافكين ان قال موبخا لمن اختلقه واذاعه ملتفتا لمريديه الى ظن الخير لَوْلَا اي هلا ولم لا جَآءُوْ عَلَيْهِ

بأربعة شهداء كما تقدم ان القذف لا يباح الا بها فاذ اى حين لم يأتوا بالشهداء اى
الموصوفين فاولئك اى البعداء من الصواب عند الله هم الكاذبون قد جعل الله التفصلة بين الرمى
الصادق والرمى الكاذب بثبوت شهادة الشهود الاربعة وانتفائها والذين رموا عائشة لم تكن
لهم بينة على قولهم فقامت عليهم الحجة وكانوا عند الله اى فى حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ
وتعنيف للذين سمعوا الافك فلم يجدوا فى دفعه وانكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف
فى الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة فى التنكيل به اذا قذف امرأة محصنة من عرض
نساء المسلمين فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم
حبيبة حبيب رب العالمين * ولما بين الله سبحانه وتعالى الدليل على كذب الخائضين فى هذا
الكلام وانهم استحقوا الملام قال عاطفا على لولا الماضية التى للتحضيض ولولا التى هى لامتناع
الشئ لوجود غيره فضل الله اى المحيط بصفات الكمال عليكم ورحمته اى معاملته لكم بمزيد الانعام
والاكرام اللازم للرحمة فى الدنيا بقبول التوبة والمعاملة بالحلم والآخرة بالعفو عمن يريد ان يعفو عنه
منكم لمسكم اى عاجلكم فى ما افضتم اى ايها العصبة اى خضتم فيه من حديث الافك عذاب
عظيم اى يحتقر معه اللوم والجلد * فائدة * فى مقطوعة فى الرسم من ما كما ترى ثم بين تعالى وقت
حلول العذاب وزمان تعجيله بقوله تعالى اذ اى مسكم حين تلقونه اى تجتهدون فى تلقى اى قبول
هذا الكلام الفاحش والقائه بالسنتكم اى يرويه بعضكم عن بعض وذلك ان الرجل منهم كان يلقى
الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا يتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض وحذفت من الفعل احدى
التاءين وتقولون بافواهكم اى كلاما مختصا بالافواه فهو كلام لا حقيقة له فلا يمكن ارتسامه
فى القلب بنوع دليل واكد هذا المعنى بقوله تعالى ما ليس لكم به علم اى بوجه من الوجوه وتنكيره للتحقير
فان قيل القول لا يكون الا بالفم فما معنى قوله تعالى بافواهكم اجيب بان معناه ان الشئ المعلوم يكون
علمه فى القلب فيترجم عنه اللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجرى على السنتكم ويدور فى افواهكم
من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله تعالى يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم وتحسبونه
بدليل سكوتكم عن انكاره هينا اى لا اثم فيه وهو اى والحال انه عند الله اى الذى لا يبلغ احد
مقدار عظمته عظيم فى الوزر واستجرار العذاب فهذه ثلاثة آثام مترتبة علق بها مس العذاب
العظيم تلقى الافك بالسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله تعالى
عظيم ولولا اى وهلا اذ اى حين سمعتموه قلتم من غير توقف ولا تلعثم ما يكون اى ما ينبغى
وما يصح لنا ان نتكلم بهذا اى القول المخصوص ويجوز ان تكون الاشارة الى نوعه فان قذف
احاد الناس محرم فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة اكمل الخلق فان قيل كيف جاز الفصل
بين لولا وقلتم اجيب بان الظروف تنزل من الشئ منزلة نفسه لوقوعه فيها وانها لا تنفك عنها
عنه فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها فان قيل [illegible] اوقع فاصله

يا

أجيب بأن الفائدة فيه بيان انه كان الواجب عليهم ان يتفادوا اول ما سمعوا بالافك عن التكلم به
فلما كان ذكر الوقت اهم وجب التقديم فإن قيل ما معنى يكون والكلام بدونه ملتئم لو قيل
ما لنا ان نتكلم بهذا أجيب بأن معناه ينبغي ويصح اي ما ينبغي لنا ان نتكلم بهذا وما يصح لنا كما تقدم
تقريره ونحوه ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق وقوله تعالى سُبْحَانَكَ تعجب من ان يخطر ذلك
بالبال في حال من الاحوال فإن قيل ما معنى التعجب في كلمة التسبيح أجيب بأن الاصل في ذلك
ان يسبح الله تعالى عند رؤية التعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه وقيل تنزيه
فهو منزه عن ان يرضى بظلم هؤلاء القذفة وعن ان لا يعاقبهم وعن ان تكون حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم
فاجرة قال البيضاوي فان فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج بخلاف كفرها فانه لا ينفر
ولهذا كانت امرأة نوح ولوط كافرتين وهذا يقتضي حل نكاح الكتابية مع انها لا تحل له صلى الله
عليه وسلم لانها تكره صحبته ولانه اشرف من ان يضع ماءه في رحم كافرة بنكاح ولقوله تعالى
وازواجه امهاتهم ولا يجوز ان تكون الكافرة ام المؤمنين ولخبر سالت ربي ان لا ازوج الا من
كانت معي في الجنة فاعطاني رواه الحاكم وصحح اسناده اما التسري بالكافرة فلا يحرم لانه صلى الله
عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بني قريظة ولا يشكل تعليلهم السابق من انه اشرف
ان يضع ماءه في رحم كافرة لان القصد بالنكاح اصالة التوالد فاحتيط له وبانه يلزم منه ان تكون الزوجة
المشركة ام المؤمنين بخلاف الملك فيهما هَٰذَا بُهْتَانٌ اي كذب يبهت من يواجه به ويحيره لشدة
ما يفعل في القوى الباطنة لانه في غاية الغفلة عنه لكونه ابعد الناس منه ثم هوله بقوله عَظِيمٌ
لعظمة المبهوت عليه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها ✦ ولما كان هذا كله
وعظا لهم واستصلاحا اتبعه بقوله يَعِظُكُمُ اللَّهُ اي يرقق قلوبكم الذي له الكمال كله فيمهل بحلمه ولا يهمل
بحكمته أَنْ اي كراهة ان تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا اي ما دمتم احياء مكلفين ثم عظم هذا الوعظ بقوله تعالى
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ اي متصفين بالايمان راسخين فيه فانكم لا تعودون فان الايمان يمنع منه
وهذا تهييج وتقريع لانه يخرج عن الايمان كما تقول المعتزلة فإن قيل هل يجوز ان يسمى الله واعظا
لقوله تعالى يعظكم الله أجيب بانه لا يجوز كما قاله الرازي قال كما لا يجوز ان يسمى الله معلما لقوله تعالى
الرحمن علم القرآن لان اسماء الله تعالى توقيفية وَيُبَيِّنُ اللَّهُ اي بما له من صفات الكمال والاكرام
لَكُمُ الْآيَاتِ اي الدالة على الشرائع ومحاسن الاداب كي تتعظوا وتتادبوا وَاللَّهُ اي المحيط بجميع الكمال
عَلِيمٌ اي بما يأمر به وينهى عنه حَكِيمٌ لا يضع شيئا الا في احكم مواضعه وان دق عليكم فهم ذلك فلا تتوقفوا
في امر من اوامره ✦ ولما كان من اعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب بينه بقوله تعالى
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اي يريدون وعبر بالحب اشارة الى انه لا يرتكب هذا مع شناعته الا محب له ولا يحبه
الا بعيد عن الاستقامة أَنْ تَشِيعَ اي تنتشر بالقول او الفعل الْفَاحِشَةُ الفعلة الكبيرة
القبح فِي الَّذِينَ آمَنُوا اي بنسبتها اليهم وهم العصبة وقيل المنافقون لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا

اى بالحد للقذف وَالْآخِرَةِ اى بالنار لحق الله تعالى ان لم يتب وَاللَّهُ اى المستجمع لصفات الجلال
والجمال يَعْلَمُ اى له العلم التام فهو يعلم مقادير الاشياء ما ظهر منها وما بطن وما الحكمة فى اظهاره
او ستره او غير ذلك من جميع الامور وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ اى ليس لكم علم من انفسكم فاعملوا بما اعلمكم فلا تتجاوزوه
ولا تضلوا وقيل معناه يعلم ما فى قلب من يحب ان تشيع الفاحشة فيجازيه عليها وانتم لا تعلمون
ذلك وقيل والله يعلم انتفاء الفاحشة عنهم وانتم ايها العصبة لا تعلمون وجودها فيهم وقوله تعالى
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ اى بكم تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة
ولذا عطف عليه وَأَنَّ اللَّهَ اى الذى له القدرة التامة فسبقت رحمته غضبه رَءُوفٌ رَحِيمٌ على حصول
فضله ورحمته وجواب لولا محذوف كانه قال لعذبكم واستاصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس
الخطاب لحسان ومسطح وحمنة قال الرازى ويجوز ان يكون الخطاب عاما وقيل الجواب
فى قوله تعالى ما زكى منكم من احد وقرا رؤف نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بمد الهمزة
والباقون بقصرها يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ اى طرق الشَّيْطَانِ بتزيينه اى
لا تسلكوا مسالكه فى اشاعة الفاحشة ولا فى غيرها وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ اى
المتبع يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اى بالقبائح من الافعال وَالْمُنْكَرِ اى ما انكره الشرع وهو كل ما يكرهه الله
تعالى وقرا قنبل وابن عامر وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
اى الذى لا اله غيره عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ اى بكم بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وتشريع الحدود المكفرة
لها مَا زَكَى اى ما طهر من ذنبها مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا آخر الدهر والآية عند بعض المفسرين على
العموم قالوا اخبر الله انه لولا فضل الله ورحمته ما صلح منكم من احد وقال ابن عباس الخطاب
للذين خاضوا فى الافك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح امره بعد الذى فعل
بالتوبة منه وَلَكِنَّ اللَّهَ اى العليم باحوال خلقه يُزَكِّي اى يطهر مَنْ يَشَاءُ من الذنوب
بقبول التوبة منها وَاللَّهُ سَمِيعٌ اى لاقوالهم عَلِيمٌ اى بما فى قلوبهم وَلَا يَأْتَلِ اى يحلف
افتعال من الالية وهو القسم أُولُو الْفَضْلِ اى اصحاب الغنى مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ
اى ان لا يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا
عنهم فى ذلك أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ اى على عفوكم وصفحكم واحسانكم
الى من اساء اليكم قال المفسرون نزلت هذه الآية فى ابى بكر رضى الله عنه حيث حلف ان
لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة ابى بكر رضى الله تعالى عنه وكان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه
فلما فرط منه ما فرط قال لهم ابو بكر قوموا لستم منى ولست منكم وكفى بذلك داعيا فى المنع
فان الانسان اذا احسن الى قريبه وكافاه بالاساءة كان اشد عليه مما اذا صدر
الا له من اجنبى قال الشاعر شعر وظلم ذوى القربى اشد مضاضة ＊ على المؤمن وضع الحسام المهند
فقال له مسطح نشدتك الله والاسلام والقرابة لا تحوجنا الى احد فما كان لنا اول الامر من

ذنب فقال لي الم تكلم فقال قد كان بعض ذلك عجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا
ايها القوم فان الله لم يجعل لكم عنده زادا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون اين يذهبون واين يتوجهون من
الارض وناس من الصحابة اقسموا ان لا يتصدقوا على من تكلم بشيء من الافك فبعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى ابي بكر وقرأ عليه الآية فلما وصل الى قوله الا تحبون ان يغفر الله لكم
وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ اي مع كمال قدرته فتخلقوا باخلاقه قال بلى يا رب انى احب ان تغفر لي فذهب
ابوبكر الى بيته وارسل الى مسطح واصحابه وقال قبلت ما انزل الله تعالى على الراس والعين وانما
فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم اما اذ عفا عنكم فمرحبا بكم وجعل له مثل ما كان له وقال والله
لا انزعها ابدا وذلك من اعظم انواع المجاهدات ولا شك ان هذا اعظم من مقاتلة الكفار لان هذا
مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكفار ومجاهدة النفس اشد من مجاهدة الكفار
ولهذا روى انه صلى الله عليه وسلم قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر اِنَّ الَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ
الْمُحْصَنٰتِ اي العفائف الْغٰفِلٰتِ اي عن الفواحش وهن السليمات الصدور النقيات القلوب
بان لا يقع في قلوبهن فعلها اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لانهن لم يجربن الامور ولم يرزن الاحوال
فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات قال في ذلك القائل متغزلا ۞ ولقد لهوت بطفلة ميالة ۞
بلهاء تطلعني على اسرارها ۞ وكذلك البله من الرجال في قوله صلى الله عليه وسلم اكثر اهل الجنة البله
وقيل البله هم الراضون بنعيم الجنة والفضلاء لم يرضوا الا بالنظر الى وجهه الكريم الْمُؤْمِنٰتِ بالله ورسوله
لُعِنُوْا فِي الدُّنْيَا وَالْاٰخِرَةِ اي عن بواقي الدنيا بالحد وفي الآخرة بالنار وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ لعظم ذنوبهم
قال مقاتل هذا خاص في عبد الله بن ابي ابن سلول المنافق وروى انه قيل لسعيد بن جبير من
قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة فقال ذلك لعائشة رضي الله تعالى عنها خاصة قال
الزمخشري ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما اوعد به العصاة لم تر ان الله عز وجل قد غلظ في
شيء تغليظه في افك عائشة رضوان الله عليها ولا انزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد
الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما اقدم عليه
ما انزل فيه على طرق مختلفة واساليب مفتنة كل واحد منها كاف في بابه ولو لم تنزل الا هذه
الثلاث آيات لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم
في الآخرة وبان السنتهم وايديهم وارجلهم تشهد عليهم كما قال تعالى يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ
اَلْسِنَتُهُمْ وَاَيْدِيْهِمْ وَاَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ اي من قول وفعل وهو يوم القيامة بما افكوا
وبهتوا فانه تعالى يوفيهم جزاءهم الحق كما قال تعالى يَوْمَئِذٍ يُّوَفِّيْهِمُ اللّٰهُ دِيْنَهُمُ الْحَقَّ اي جزاءهم
الواجب الذين هم اهله وَيَعْلَمُوْنَ عند ذلك اَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِيْنُ حيث حقق لهم جزاءه الذي
كانوا يشكون فيه فاوجز في ذلك واشبع وفصل واجمل واكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد
المشركين وعبدة الاوثان الا ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك الا لامر عظيم وعن ابن عباس

انه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال من اذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض فى امر عائشة وهذا منه مبالغة وتعظيم لامر الافك ولقد برأ الله تعالى اربعة باربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد فقال تعالى وشهد شاهد من اهلها الآية وبرأ موسى عليه الصلوة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها عليه الصلوة والسلام حين نادى من تحتها انى عبد الله الآية وبرأ عائشة رضى الله تعالى عنها بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات فانظر كيف بينها وبين تبرئة اولئك وما ذاك الا لاظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على انافة محل سيد ولد آدم وخيرة الاولين والآخرين وحجة الله على العالمين ومن اراد ان يتحقق عظمة شانه وتقدم قدمه واحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الافك وليتامل كيف غضب الله تعالى له فى حرمته وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه وقال قوم ليس لمن قذف عائشة وبقية ازواج النبى صلى الله عليه وسلم توبة لان الله تعالى لم يذكر فى قذفهن توبة وما ذكر من اول السورة فذاك فى قذف غيرهن فان قيل ان كانت عائشة هى المرادة فكيف قيل المحصنات اجيب بانها لما كانت ام المؤمنين جمعت ارادتها وارادة بناتها من نساء الامة الموصوفات بالاحصان والغفلة والايمان ولذا قيل ان هذا حكم كل قاذف ما لم يتب فان قيل ما معنى قوله تعالى هو الحق المبين اجيب بان معناه ذو الحق المبين اى العادل الظاهر العدل الذى لا ظلم فى حكمه والمحق الذى لا يوصف بباطل ومن هذه صفته كان له ان يجازى المحسن على احسانه والمسيء على اساءته فحق مثله ان يتقى ويجتنب محارمه وقرأ يشهد حمزة والكسائى بالياء التحتية والباقون بالفوقية ويوم ناصبه الاستقرار الذى تعلق به لهم وقرأ ابو عمرو يوفيهم الله بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا كله فى الوصل واما الوقف فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم الْخَبِيثَاتُ اى من النساء والكلمات لِلْخَبِيثِينَ من الناس وَالْخَبِيثُونَ اى من الناس لِلْخَبِيثَاتِ اى مما ذكر وَالطَّيِّبَاتُ اى مما ذكر لِلطَّيِّبِينَ اى من الناس وَالطَّيِّبُونَ اى منهم لِلطَّيِّبَاتِ اى مما ذكر فاللائق بالخبيث مثله وبالطيب مثله أُولَٰئِكَ اى الطيبون والطيبات من النساء ومنهم صفوان وعائشة مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ اى الخبيثون والخبيثات من النساء وقيل عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى فان كان له اخوة اى اخوان لَهُمْ اى للطيبين والطيبات من النساء على الاول ولصفوان وعائشة على الثانى مَغْفِرَةٌ اى عفو عن الذنوب وَرِزْقٌ كَرِيمٌ هو الجنة وروى ان عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تفتخر باشياء اعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها ان جبريل عليه السلام اتى بصورتها فى سرقة من حرير وقال للنبى صلى الله عليه وسلم هذه زوجتك وروى انه اتى بصورتها فى راحته ومنها انه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها ومنها انه قبض صلى الله عليه وسلم وراسه الشريف فى حجرها ومنها انه دفن فى بيتها ومنها انه كان ينزل

عليه الوحي وهو معها في لحاف ومنها ان براءتها نزلت من السماء ومنها انها ابنة خليفة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه وخلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً وكان
مسروق رحمه الله تعالى اذا روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها قال حدثتني الصديقة بنت الصديق
حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء * الحكم السادس ما ذكره بقوله تعالى يا ايها الذين
آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم اي التي تسكنونها فان الآجر والمعير لا يدخلان الا باذن وقرأ ورش
وابو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها وفي قوله تعالى حتى تستأنسوا
وجهان احدهما انه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لان الذي يطرق
باب غيره لا يدري ايؤذن له ام لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فاذا اذن له فقد
استأنس والمعنى حتى يؤذن لكم كقوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم وهذا من باب
الكناية والارداف لان هذا النوع من الاستئناس يردف الاذن فوضع موضع الاذن والثاني
ان يكون من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف استفعال من انس الشيء اذا ابصره
ظاهراً مكشوفاً والمعنى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم ام لا ومنه قولهم استأنس
هل ترى احداً واستأنست فلم ار احداً اي تعرفت واستعلمت وقال الخليل بن احمد الاستئناس
الاستبصار من قولهم انست ناراً اي ابصرت وقيل هو ان يتكلم بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة
ويتنحنح يؤذن اهل البيت وعن ابي ايوب الانصاري قال يا رسول الله ما الاستئناس قال ان يتكلم
الرجل وتسلموا على اهلها كان يقول الواحد السلام عليكم ادخل ثلاث مرات فان اذن له دخل
والا رجع قال قتادة المرة الاولى للتسميع والثانية ليتهيأ والثالثة ان شاء اذن وان شاء رد وهذا
من محاسن الاداب فان اول مرة ربما منعهم بعض الاشتغال من الاذن وفي الثانية ربما كان هناك
مانع يقتضي المنع فان لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ولهذا كان الاولى في
الاستئذان ثلاثاً ان لا تكون متصلة بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقت ما ولا بد من اذن صريح
اذا كان الداخل اجنبياً او قريباً غير محرم سواء كان الباب مغلقاً ام لا وان كان محرماً فان كان
ساكناً مع صاحبه فيه لم يلزمه الاستئذان ولكن عليه ان يشعره بدخوله بتنحنح او شدة وطء او نحو ذلك
ليستتر العريان فان لم يكن ساكناً فان كان الباب مغلقاً لم يدخل الا باذن وان كان مفتوحاً فوجهان
والاوجه الاستئذان وعن ابي موسى الاشعري انه اتى باب عمر فقال السلام عليكم ادخل قالها ثلاثاً ثم
رجع وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الاستئذان ثلاثاً واستأذن رجل على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال الج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة قومي الى هذا
فعلميه فانه لا يحسن ان يستأذن قولي له يقول السلام عليكم ادخل فسمع الرجل فقال ادخل
وكان اهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتاً غير بيته حييتم صباحاً وحييتم مساء ثم
يدخل فربما اصاب صاحب البيت مع امرأته في لحاف واحد فصد الله عز وجل عن ذلك وعلم

ما هو الاحسن الاجمل وكم من باب من ابواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد
تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك قال الزمخشري بينا انت في بيتك اذ رعف عليك
الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا اسلام ولا جاهلية وهو ممن يسمع ما انزل الله فيه
وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن اين الاذن الواعية ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اي من تحية الجاهلية
ومن ان تدخلوا من غير استئذان روي ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم استاذن على امي قال
نعم قال انها ليس لها خادم غيري استاذن عليها كلما دخلت قال اتحب ان تراها عريانة قال الرجل
لا قال فاستاذن وقوله تعالى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ متعلق بمحذوف اي انزل عليكم وقيل بين لكم هذا
ارادة ان تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما امرتم به في باب الاستئذان وقرأ حفص وحمزة والكسائي
بتخفيف الذال والباقون بالتشديد فَاِنْ لَّمْ تَجِدُوْا فِيْهَا اي البيوت اَحَدًا يأذن لكم في دخولها
فَلَا تَدْخُلُوْهَا حَتّٰى يُؤْذَنَ لَكُمْ اي حتى ياتي من يأذن لكم فان المانع من الدخول فيها ليس الاطلاع على
العورات فقط وانما شرع لئلا يوقف على الاحوال التي تطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون
من اطلاع احد عليها ولانه تصرف في ملك غيرك فلابد ان يكون برضاه والا اشبه الغصب والتغلب
وَاِنْ قِيْلَ لَكُمُ ارْجِعُوْا اي بعد الاستئذان فَارْجِعُوْا اي اذا كان في البيت احد وقال لكم ارجعوا فارجعوا
هُوَ اي الرجوع اَزْكٰى اي اطهر واصلح لَكُمْ من الوقوف على الابواب منتظرين لان هذا مما يجلب
الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصا اذا كانوا ذوي مروءة مرتاضين للآداب الحسنة واذا نهي
عن ذلك لادائه الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي اليها من قرع الباب بعنف والتصييح
بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من اكثر الناس وعن ابي عبيد رحمه
الله تعالى ما قرعت بابا على عالم قط وكفى بقصة بني اسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى ان الذين
ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون وعن قتادة رحمه الله تعالى اذا لم يؤذن له لا يقعد وراء
الباب فان للناس حاجات وان حضر ولم يستاذن وقعد على الباب منتظرا جاز وكان ابن عباس
رضي الله تعالى عنهما ياتي باب الانصاري لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستاذن
فيخرج الرجل فيقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو اخبرتني فيقول هكذا امرنا ان نطلب
العلم فاذا وقف فلا ينظر من شق الباب اذا كان الباب مردودا الماوردي عن ابي هريرة انه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم من اطلع في بيت قوم فقد حل لهم ان يفقؤا عينه وفي رواية للنسائي قال لو ان
امرأ اطلع عليك بغير اذن فخذفته ففقأت عينه ما كان عليك جناح ولو عرض امر في دار من حريق
او هدم او هجوم سارق او ظهور منكر يجب انكاره جاز الدخول بغير اذن وَاللّٰهُ اي الذي لا يخفى
عليه شيء بِمَا تَعْمَلُوْنَ من الدخول باذن وبغير اذن عَلِيْمٌ فيجازيكم عليه ولما نزلت اية
الاستئذان قالوا يا رسول الله كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس
فيها انسان فانزل الله تعالى لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اي اثم اَنْ تَدْخُلُوْا بُيُوْتًا غَيْرَ مَسْكُوْنَةٍ اي

بغير استئذان منكم وذلك كبيوت الخانات والربط المسبلة فِيهَا مَتَاعٌ اى منفعة لكم والمنفعة فيها بالنزول وانواع المتاع والاتقاء من الحر والبرد ونحو ذلك وقال ابن زيد هى بيوت التجار وحوانيتهم التى بالاسواق يدخلها للبيع والشراء وهو المنفعة وقال ابراهيم النخعى ليس على حوانيت الاسواق اذن وكان ابن سيرين رحمه الله تعالى اذا جاء الى حانوت السوق يقول السلام عليكم ادخل ثم يلج وقال عطاء هى البيوت الخربة والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُوْنَ اى تظهرون وَمَا تَكْتُمُوْنَ اى تخفون فى دخول غير بيوتكم من قصد صلاح او غيره وفى ذلك وعيد من الله تعالى لمن دخل لفساد او تطلع على عورات وسيأتى انهم اذا دخلوا بيوتهم سلموا على انفسهم والحكم السابع حكم النظر المذكور فى قوله تعالى قُلْ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوْا مِنْ اَبْصَارِهِمْ اى عما لا يحل لهم نظره وَيَحْفَظُوْا فُرُوْجَهُمْ اى عما لا يحل لهم فعله بها تنبيه من للتبعيض والمراد غض البصر عما لا يحل كما مر والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش ان تكون مزيدة وأباه سيبويه فان قيل لم دخلت من فى غض البصر دون حفظ الفرج اجيب بان فى ذلك دلالة على ان المراد ان امر النظر اوسع بدليل جواز النظر للمحارم فيما عدا ما بين السرة والركبة واما نظر الفروج فالامر فيه ضيق وكفاك فرقا ان ابيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ويجوز ان يراد مع حفظها عن الافضاء الى ما لا يحل حفظها عن الابداء وعن ابن زيد كل ما فى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا هذا فانه اراد به الاستتار فان قيل لم قدم غض البصر على حفظ الفرج اجيب بان البلوى فيه اشد وروى عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله تعالى عنه قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فقال اصرف بصرك وعن بريدة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى يا على لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية اخرجه ابو داود والترمذى وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المرأة الى عورة المرأة ولا يفضى الرجل الى الرجل فى ثوب واحد ولا تفضى المرأة الى المرأة فى ثوب واحد ذٰلِكَ اى غض البصر وحفظ الفرج اَزْكٰى اى خير لَهُمْ لما فيه من البعد عن الريبة سئل الشيخ الشبلى رحمه الله تعالى عن قوله تعالى يغضوا من ابصارهم فقال ابصار الرؤس عن المحرمات وابصار القلوب عن المحرمات ثم اخبر سبحانه وتعالى بانه خبير باحوالهم وافعالهم بقوله تعالى اِنَّ اللّٰهَ اى الملك الذى لا يخفى عليه شئ خَبِيْرٌ بِمَا يَصْنَعُوْنَ بسائر حواسهم وجوارحهم فعليهم اذا عرفوا ذلك ان يكونوا منه على تقوى وحذر فى كل حركة وسكون وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ اَبْصَارِهِنَّ عما لا يحل لهن نظره وَيَحْفَظْنَ فُرُوْجَهُنَّ عما لا يحل لهن فعله بها روى عن ام سلمة رضى الله تعالى عنها انها قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحرث اذ اقبل ابن ام مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما امرنا بالحجاب فقال صلى الله عليه وسلم احتجبا

منه فقلت يا رسول الله اليس هو اعمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افعمياوان انتما الستما
تبصرانه وقوله تعالى ولا يبدين اى يظهرن زينتهن اى لغير محرم والزينة خفية وظاهرة
فالخفية مثل الخلخال والخضاب فى الرجل والسوار فى المعصم والقرط فى الاذن والقلائد فى العنق
فلا يجوز للمراة اظهارها ولا يجوز للاجنبى النظر اليها والمراد من الزينة مواضعها من البدن وذكر الزينة
للمبالغة فى الامر بالصون والستر لان هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر اليها
الا ما ظهر منها اى من الزينة الظاهرة واختلف اهل العلم فى هذه الزينة التى استثناها الله تعالى
فقال سعيد بن جبير وجماعة هى الوجه والكفان وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه هى الثياب
وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الكحل والخاتم والخضاب فى الكف فما كان من الزينة
الظاهرة يجوز للاجنبى النظر اليها ان لم يخف فتنة فى احد وجهين وعليه الاكثر وانما رخص فى هذا
القدر للمراة ان تبديه من بدنها لانه ليس بعورة فى الصلوة وسائر بدنها عورة فيها ولان سترها
فيه حرج فان المراة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا
فى الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشى فى الطرقات وخاصة الفقيرات والوجه الثانى
يحرم لانه محل الفتنة ورجح حسما للباب وليضربن بخمرهن على جيوبهن اى يسترن الرؤس والاعناق
والصدر بالمقانع فان جيوبهن كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن
يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فامرن بان يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها ويجوز ان يراد
بالجيوب الصدر وتسمية لها باسم ما يليها ويلابسها ومنه قولهم ناصح الجيب بالنون والصاد
اى سليم الصدر وقولك ضربت بخمارها على جيبها كقولك ضربت بيدى على الحائط اذا وضعتها
عليه قالت عائشة رضى الله تعالى عنها يرحم الله تعالى نساء المهاجرات لما انزل الله وليضربن بخمرهن
على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها والمرط كساء من صوف او خز او كتان وقيل هو الازار وقيل
هو الدرع وقرأ نافع وابو عمرو وهشام وعاصم بضم الجيم والباقون بكسرها وكرر قوله تعالى ولا يبدين
زينتهن لبيان من يحل له الابداء ومن لا يحل له اى الزينة الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلوة ولا
للاجانب وهى ما عدا الوجه والكفين الا لبعولتهن اى فانهم المقصودون بالزينة ولهم ان ينظروا الى
جميع بدنهن حتى الفرج ولو الدبر ولكنه يكره وقال ابن عباس لا يضعن الجلباب والخمار عنهن
الا لازواجهن او آبائهن او آباء بعولتهن او ابنائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بنى اخوانهن
او بنى اخواتهن فيجوز لهؤلاء ان ينظروا الى الزينة الخفية ولا ينظروا الى ما بين السرة والركبة وانما
سومح فى الزينة الخفية لاولئك المذكورين فى الاية للحاجة المضطرة الى مداخلتهم ومخالطتهم
ولقلة الفتنة من جهتهم ولما فى الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وتحتاج المراة الى صحبتهم
فى الاسفار للنزول والركوب وغير ذلك او نسائهن اى المؤمنات فان الكافرات لا يتحرجن عن
وصفهن للرجال فلا يجوز للمسلمة ان تتجرد من ثيابها عند النساء الكافرات لانهن اجنبيات عن الدين

فلسن كالرجال الاجانب لكن يجوز ان ترى الكافرة منها ما يبدو عند المهنة وقد كتب عمر بن الخطاب
الى ابى عبيدة بن الجراح ان يمنع نساء اهل الكتاب ان يدخلن الحمامات مع المسلمات وقيل النساء
كلهن وللعلماء فى ذلك خلاف ❊ تنبيه ❊ العورة على اربعة اقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة
المراة مع المراة وعورة المراة مع الرجل وعورة الرجل مع المراة اما الرجل مع الرجل فيجوز له ان ينظر الى
جميع بدنه ما عدا ما بين السرة والركبة وكذلك المراة مع المراة واما المراة مع الرجل او الرجل مع المراة
فلا ينظر احدهما من الآخر شيئا وقيل يجوز للاجنبى ان ينظر الى وجهها وكفيها اذا امن الفتنة
ولم تكن بشهوة وقيل يجوز لها ان تنظر منه ما عدا ما بين السرة والركبة ويجوز لمن اراد ان يخطب
حرة ان ينظر وجهها وكفيها وهى تنظر منه اذا ارادت ان تتزوج به ما عدا ما بين السرة والركبة
وان اراد ان يتزوج بامة جاز ان ينظر منها ما عدا ما بين السرة والركبة ويحرم ان ينظر بشهوة
لكل منظور اليه الا لمن اراد ان يتزوج بها او الاحليلته ويباح النظر من الاجنبى لمعاملة وشهادة
حتى يجوز النظر الى الفرج للشهادة على الزنا والولادة والى الثدى للشهادة على الرضاع وتعليم
ومداواة بقدر الحاجة وكل ما حرم نظره متصلا حرم نظره منفصلا كشعر عانة من رجل او قلامة
ظفر من اجنبية ويحرم اضطجاع رجلين او امرأتين فى ثوب واحد اذا كانا عاريين وان كان كل منهما
فى جانب من الفراش للخبر المتقدم ويجب التفريق بين ابن عشر سنين واخته واخوانه فى المضجع
اذا كانا عاريين وتسن مصافحة الرجلين والمراتين لخبر ما من مسلمين يلتقيان ويتصافحان
الا غفر لهما قبل ان يتفرقا وتكره مصافحة من به عاهة كجذام او برص والمعانقة والتقبيل فى الرأس
للنهى عن ذلك الا لقادم من سفر او تباعد عهد ويسن تقبيل الطفل ولو لغير ابويه شفقة ولا باس
بتقبيل وجه الميت الصالح ويسن تقبيل يد الحى لصلاح او علم او زهد او نحو ذلك ويكره لغنى او وجاهة
او نحو ذلك وقوله تعالى اَوْ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُهُنَّ يعم الاماء والعبيد فيحل نظر العبد العفيف غير المبعض
والمشترك والمكاتب الى سيدته العفيفة لما روى ابو داود انه صلى الله عليه وسلم اتى فاطمة
رضى الله تعالى عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به راسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها
لم يبلغ راسها فلما راها النبى صلى الله عليه وسلم وما تلقى قال صلى الله عليه وسلم انه ليس عليك باس
انما هو ابوك وغلامك وعن عائشة انها قالت لعبد ما ذكوان انك اذا وضعتنى فى القبر وخرجت
فانت حر واما الفاسق والمبعض والمشترك والمكاتب فكالاجنبى بل قيل ان المراد بالاية الاماء
وعبد المراة كالاجنبى وبه قال ابن المسيب اخرا وقال لا تغرنكم اية النور فان المراد بها الاماء
اَوِ التَّابِعِيْنَ اى الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم غَيْرِ اُولِى الْاِرْبَةِ اى
اصحاب الحاجة الى النساء مِنَ الرِّجَالِ اى ليس لهم همة الى ذلك ولا حاجة لهم فى النساء
لانهم بله لا يعرفون شيئا من امرهن وقيل هم شيوخ صلحاء اذا كانوا معهن غضوا ابصارهم
وقيل هم الممسوحون سواء كان حرا ام لا وهو ذاهب الذكر والانثيين اما ذاهب الذكر

قوله الا لمن اراد ان [illegible]

فقط والانثيين فقط فكالفحل وعن ابي حنيفة لا يحل امساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشراؤهم قال الزمخشري فان قلت روي انه اهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصي فقبله قلت لا يقبل فيما تعم به البلوى الاحديث مكشوف وان صح فلعله قبله ليعتقه اولسبب من الاسباب انتهى وعندنا يجوز جميع ذلك اذ لا مانع منه وقيل المراد باولي الاربة هو المخنث وقرأ ابن عامر وشعبة بنصب الراء على الاستثناء والحال والباقون بكسرها على الوصفية وقوله تعالى أَوِ الطِّفْلِ بمعنى الاطفال وضع الواحد موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبينه ما بعده وهو قوله تعالى الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا اي لم يطلعوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ للجماع فيجوز لهن ان يبدين لهم ما عدا ما بين السرة والركبة قال امام الحرمين رحمه الله تعالى اذا لم يبلغ الطفل حدا يحكي ما يراه فكالعدم او بلغه من غير شهوة فكالمحرم او بشهوة فكالبالغ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وذلك ان المرأة كانت تضرب برجلها الارض ليتقعقع خلخالها فيعلم انها ذات خلخال وقيل كانت تضرب باحدى رجليها على الاخرى ليعلم انها ذات خلخالين فنهين عن ذلك لان ذلك يورث ميلا في الرجال واذا وقع النهي عن اظهار صوت الحلي فمواضع الحلي ابلغ في النهي واوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك قال تعالى وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ اي الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ اي مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره وشروط التوبة ان يقلع الشخص عن الذنب ويندم على ما مضى منه ويعزم على ان لا يعود اليه ويرد الحقوق لاهلها وقرأ ابن عامر في الوصل ايه المؤمنون بضم الهاء لانها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والباقون بفتحها واما الوقف فوقف ابو عمرو والكسائي بالالف بعد الهاء ووقف الباقون على الهاء ساكنة لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ اي تنجون من ذلك بقبول التوبة منه وفي الآية تغليب الذكور على الاناث وعن ابن عباس توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة فان قيل على هذا قد صحت التوبة بالاسلام لانه يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة اجيب بان بعض العلماء قال ان من اذنب ذنبا ثم تاب منه لزمه كلما ذكره ان يجدد التوبة لانه يلزمه ان يستمر على ندمه وعزمه على عدم العود الى ان يلقى الله تعالى والذي عليه الاكثر انه لا يلزمه تجديدها وعن ابي بردة انه سمع الاغر يحدث ابن عمر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا ايها الناس توبوا الى ربكم فاني اتوب الى ربي كل يوم مائة مرة وعن ابن عمر قال انا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول رب اغفر لي وتب علي انك انت التواب الغفور مائة مرة وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه وعن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله افرح بتوبة عبده من احدكم يسقط على بعيره وقد اضله في ارض فلاة ولما نهى عما سيفضي الى السفاح المخل بالنسب المقتضي للالفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية

الى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بالحكم الثامن وهو الامر بالنكاح المذكور في قوله تعالى
وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ جمع ايم والايامى واليتامى اصلهما ايايم ويتايم فقلبا والايم هي من ليس لها
زوج بكرا كانت او ثيبا ومن ليس له امراة فيشمل ذلك الذكر والانثى قال الشاعر: فان تنكحي انكح
وان تتايمي + وان كنت افتى منكم اتايم اي اقرب الى الشباب منك واتايم بالرفع على تلة جواب
ان تتايمي وما بينهما جملة معترضة والمعنى او افقك في حالتي التزوج والتايم وان كنت
اقرب الى الشباب منك وعنه صلى الله عليه وسلم اللهم انا نعوذ بك من العيمة والغيمة والايمة
والقزم والقرم العيمة شهوة اللبن والغيمة العطش والايمة شهوة النكاح مع الخلو من الزوجة
والقزم البخل والقرم شهوة اللحم وهذا في الاحرار والحرائر واما غيرهم فهو قوله تعالى وَالصَّالِحِينَ
اي المؤمنين مِنْ عِبَادِكُمْ وهو من جموع عبد وَإِمَائِكُمْ والخطاب للاولياء والسادة وهذا الامر مندوب
فيستحب لمن تاقت نفسه للنكاح ووجد اهبته ان يتزوج ومن لم يجد اهبته استحب له ان يكسر
شهوته بالصوم لما ورد انه صلى الله عليه وسلم قال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة
فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اي قاطع
لشهوته لان الوجاء بكسر الواو نوع من الخصاء وهو ان توض عروق الانثيين وتترك الخصيتان
كما هما فشبه الصوم في قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذي يقطع النسل والباءة بالمد مؤن النكاح
وهي المهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه فان لم تنكسر شهوته بالصوم فلا يكسرها بالكافور ونحوه
بل يتزوج ويكره لغير التائق ان فقد الاهبة او وجدها وكان به علة كهرم فان وجدها ولا علة به
وهو غير تائق فالتخلي للعبادة افضل من النكاح ان كان متعبدا فان لم يتعبد فالنكاح افضل من تركه
لقوله صلى الله عليه وسلم من احب فطرتي فليستن بسنتي وهي النكاح وعنه صلى الله عليه وسلم من كان
له مال يتزوج به فلم يتزوج فليس منا وعنه صلى الله عليه وسلم اذا تزوج احدكم عج شيطانه يا ويله
عصم ابن آدم مني ثلثي دينه والاحاديث في ذلك كثيرة وربما كان واجب الترك اذا ادى الى معصية
او مفسدة وعنه صلى الله عليه وسلم اذا اتى على امتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة
والترهب على رؤس الجبال وفي رواية ياتي على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه الا بالمعصية
فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة ويندب النكاح للمراة التائقة وفي معناها
المحتاجة الى النفقة والخائفة من اقتحام الفجرة ويستحب ان تكون المنكوحة بكرا الا لعذر
لقوله صلى الله عليه وسلم هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ولودا لقوله صلى الله عليه وسلم تزوجوا
الولود الودود فاني مكاثر بكم الامم يوم القيامة وفي رواية يا عياض لا تتزوج عجوزا ولا عاقرا
فاني مكاثر دينة لما روى عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما انه صلى الله عليه وسلم قال الدنيا
متاع وخير متاعها المراة الصالحة وقيل المراد بالصالحين الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه
وقوله تعالى إِن يَكُونُوا اي الاحرار فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ اي بالتزويج مِن فَضْلِهِ رد لما عساه

ان يمنع من النكاح والمعنى لا يمنعهن فقر الخاطب والمخطوبة من المناكحة فان في فضل الله غنية
عن المال فانه غاد ورائح او وعد من الله تعالى بالغنى لقوله صلى الله عليه وسلم اطلبوا الغنى في هذه
الاية لكن ينبغي ان تكون شريطة الله تعالى غير منسية في هذا الوعد ونظائره وهي مشيئته ولا يشاء
الحكيم الا ما اقتضته الحكمة ونحوه ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وقد جاءت
الشريطة منصوصة في قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم
حكيم ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضا بعزب كان غنيا فافقره النكاح وبفاسق تاب
واتقى الله وكان له شيء ففني واصبح مسكينا وورد التمسوا الرزق بالنكاح وشكى الى النبي صلى الله
عليه وسلم رجل الحاجة فقال عليك بالباءة اي النكاح وعن عمر رضي الله عنه عجبت لمن يبتغي الغنى بغير النكاح
والله تعالى يقول ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وحكي عنه انه قال عجبت لمن لم يطلب الغنى
بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا فانه اوسع لكم في رزقكم واوسع في اخلاقكم ويزيد الله في مروءتكم
قال الزمخشري ولقد كان عندنا رجل رازح الحال ثم رايته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت
فسألته فقال كنت في اول امري على ما علمت وذلك قبل ان ارزق ولدا فلما رزقت بكر ولدي
تراخيت عن الفقر فلما ولد لي الثاني ازددت خيرا فلما تتاموا ثلاثة صب الله علي الخير صبا فاصبحت
الى ما ترى انتهى ﴿وَاللَّهُ﴾ اي الذي له الملك كله ﴿وَاسِعٌ﴾ اي ذو سعة لخلقه لا تنفد نعمه اذ لا تنتهي
قدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولما ذكر تعالى تزويج الحرائر والاماء ذكر حال من
يعجز عن ذلك بقوله ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ اي وليجتهد في طلب العفة عن الزنا
والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من مهر ونفقة يوم التمكين وكسوة فصله وقيل لا يجدون
ما ينكحون ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾ اي يوسع عليهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ فينكحون ولما ذكر تعالى نكاح الصالحين من
العبيد والاماء حث على كتابتهم بالحكم التاسع وهو الامر بالكتابة المذكور في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ
الْكِتَابَ﴾ اي يطلبون الكتابة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ اي من العبيد والاماء ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾
اي امانة وقدرة على الكسب لاداء مال الكتابة وسبب نزول هذه الاية ما روي ان غلاما لحويطب
بن عبد العزى يقال له الصبيح سأل مولاه ان يكاتبه فابى فانزل الله هذه الاية فكاتبه حويطب على مائة
دينار ووهب له منها عشرين فاداها وقتل يوم حنين في الحرب واركانها اربعة رقيق وصيغة وعوض
وسيد وشرط في السيد كونه مختارا اهل تبرع وولاء وكتابة المريض مرض الموت محسوبة من الثلث
فان خلف مثلي قيمته صحت الكتابة في كله او مثل قيمته صحت في ثلثيه او لم يخلف غيره صحت في ثلثه
وشرط في الرقيق اختيار وعدم صبا وجنون وان لا يتعلق به حق ادمي لازم وشرط في الصيغة لفظ
يشعر بالكتابة كان يقول السيد لمملوكه كاتبتك على الفين في شهرين كل شهر الف فاذا اديتهما
فانت حر فيقول العبد قبلت ذلك فلا يصح عقدها الا مؤجلا منجما بنجمين فاكثر كما جرى عليه الصحابة
فمن بعدهم فلا بد من بيان قدر العوض وصفته وعدد النجوم وقسط كل نجم فلا يجوز عند الشافعي

رضي الله تعالى عنه بنجم واحد ولا بحال لان العبد لا يملك شيئا فعقدها بحال يمنع من حصول الغرض لانه لا يقدر على اداء البدل حالا وعند ابي حنيفة رضي الله تعالى عنه تجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لان الله تعالى لم يذكر التنجيم وقياسا على سائر العقود وهي سنة لا واجبة وان طلبها الرقيق لئلا يتعطل اثر الملك وتتحكم المماليك على الملاك بطلب رقيق امين قوي على الكسب وبهما فسر الشافعي الخير في الآية واعتبرت الامانة لئلا يضيع ما يحصله فلا يعتق والطلب والقدرة على الكسب ليوثق بتحصيل النجوم روي انه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الاداء والناكح يريد العفاف والمجاهد في سبيل الله فان فقدت هذه الشروط او بعضها فهي مباحة اذ لا يقوى رجاء العتق بها ولا تكره بحال لانها عند فقد ما ذكر قد تفضي الى العتق نعم ان كان الرقيق فاسقا بسرقة او نحوها وعلم سيده انه لو كاتبه مع العجز عن الكسب اكتسب بطريق الفسق لم يبعد تحريمها حينئذ لتضمنها التمكين من الفساد ونص على عوض قليل وكثير ويجب ان يحط عنه قبل عتقه شيئا متمولا من النجوم او يدفع اليه من جنسها او من غيرها كما قال تعالى وَآتُوهُمْ امر للسادة مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ما يستعينون به في اداء ما التزموه لكم ايها السادة وفي معنى الايتاء حط شيء متمول مما التزموه بل الحط اولى من الدفع لان القصد بالحط الاعانة على العتق وهي محققة فيه موهومة في الدفع اذ قد يصرف المدفوع في جهة اخرى وكون ذلك في النجم الاخير اولى منه فيما قبله لانه اقرب الى العتق يروى ان عمر رضي الله تعالى عنه كاتب عبدا له يكنى ابا امية وهو اول عبد كوتب في الاسلام فاتاه باول نجم فدفعه اليه عمر وقال استعن به على كتابتك فقال لو اخرته الى اخر نجم فقال اخاف ان لا ادرك ذلك وكونه ربعا من النجوم اولى فان لم تسمح به نفسه فكونه سبعا اولى روى حط الربع النسائي وغيره وحط السبع مالك عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه وعند ابي حنيفة امر للمسلمين على جهة الوجوب باعانتهم للمكاتبين واعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله وفي الرقاب ولما بين تعالى ما يهم من تزويج العبيد والاماء اتبع ذلك بالحكم العاشر وهو الاكراه على الزنا المذكور في قوله تعالى وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ اي اماءكم عَلَى الْبِغَاءِ اي الزنا كان لعبد الله بن ابي راس المنافقين ست جوار معاذة ومسيكة واميمة وعمرة واروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤاجرون اماءهم فلما جاء الاسلام قالت مسيكة لمعاذة ان هذا الامر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد ان لنا ان ندعه فانزل الله هذه الآية وروي انه جاءت احدى الجاريتين يوما ببرد وجاءت الاخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا فاتتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا اليه فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقل احدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وامتي ان اردن

تحصنا اى تعففا عنه وهذه الارادة محل الاكراه فلا مفهوم للشرط لان الاكراه لا يتصور الا عند
ارادة التحصن فاما اذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغى بالطبع طوعا وكلمة ان وايثارها على اذا ايذان بان
الباغيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن وان ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ
النادر ولان الكلام ورد على سبب وهو الذى ذكر فى سبب نزول الاية فخرج النهى على صورة صفة
السبب وان لم يكن شرطا فيه وقال الحسين بن الفضل فى الاية تقديم وتاخير تقديرها وانكحوا
الايامى منكم ان اردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا اى تطلبوا
من اموال الدنيا بكسبهن واولادهن ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور اى لهن
رحيم بهن وكان الحسن اذا قرأ هذه الاية قال لهن والله لهن اى لا للمكره الا اذا تاب
فان قيل ان المكرهة غير اثمة فلا حاجة الى المغفرة اجيب بان الزنا لا يباح بالاكراه فهى اثمة
لكن لاحد عليها للاكراه ✦ ولما ذكر تعالى فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القران بصفات
ثلاث احدها قوله تعالى ولقد انزلنا اليكم ايت مبينت اى الايات التى بينت فى هذه السورة
واوضحت فيها الاحكام والحدود وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بكسر الياء التحتية والباقون
بفتحها لانها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول السليمة من بين بمعنى تبين اولانها
بينت الاحكام والحدود وثانيها قوله تعالى ومثلا من الذين خلوا من قبلكم اى من جنس امثالهم
اى وقصة عجيبة مثل قصصهم وهى قصة عائشة رضى الله تعالى عنها فانها كقصة يوسف ومريم
عليهما السلام ثالثها قوله تعالى وموعظة للمتقين اى ما وعظ به فى قوله تعالى ولا تأخذكم بهما
رافة فى دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون الخ وفى قوله تعالى لولا اذ سمعتموه
قلتم الخ وفى قوله تعالى يعظكم الله ان تعودوا الخ وتخصيصها بالمتقين لانهم المنتفعون بها
✦ واختلف فى معنى قوله تعالى الله نور السموت والارض فقال ابن عباس الله هادى اهل
السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلال ينجون وقال
الضحاك منور السموات والارض فقال نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقال
مجاهد مدبر الامور فى السموات والارض وقال ابى بن كعب والحسن وابو العالية مزين السموات
والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين ويقال
بالنبات والاشجار وقيل معناه الانوار كلها منه كما يقال فلان رحمة اى منه الرحمة وقد يذكر
مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل ؎ اذا سار عبد الله من مرو ليلة ✦ فقد سار منها نورها وجمالها
✦ وسبب هذا الاختلاف ان النور فى الاصل كيفية تدركها الباصرة اولا وبواسطتها سائر
المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرات على الاجرام الكثيفة المحاذية لها وهو بهذا
المعنى لا يصح اطلاقه على الله تعالى الا على ضرب من التجوز كالامثلة المتقدمة او على تقدير
مضاف كقولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات

والارض

والارض ونور السموات والارض الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور اي من الباطل الى الحق واضاف النور الى السموات والارض لاحد معنيين اما للدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضيء له السموات والارض واما ان يراد اهل السموات والارض وانهم يستضيئون به واختلف ايضا في معنى قوله تعالى مَثَلُ نُورِهِ فقال ابن عباس مثل نوره الذي اعطى المؤمن اي مثل نور الله في قلب المؤمن وهو النور الذي يهتدي به كما قال تعالى فهو على نور من ربه وقال الحسن وزيد بن اسلم اراد بالنور القرآن وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل اراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نورا واضاف هذه الانوار الى نفسه تفضلا اي صفة نوره العجيبة الشأن في الاضاءة كَمِشْكٰوةٍ اي كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة فِيهَا مِصْبَاحٌ اي سراج ضخم ثاقب اَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ اي قنديل من زجاج شامي ازهر وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها ابين من كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ثم وصف الزجاجة بقوله تعالى اَلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا اي النور فيها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ اي مضيء شبهها في الضوء باحدى الدراري من الكواكب الخمسة العظام وهي المشاهير المشتري والزهرة والمريخ وزحل وعطارد فان قيل لم شبه بالكواكب ولم يشبه بالشمس والقمر اجيب بانهما يلحقهما الخسوف والكسوف والكواكب لا يلحقها ذلك وقرأ ابو عمرو والكسائي بكسر الدال من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام والباقون بضمها منسوب الى الدر اي اللؤلؤ في صفائه وحسنه وان كان الكوكب اكثر ضوءا من الدر لكن يفضل الكواكب بصفائه كما يفضل الدر سائر الحب وهمز مع المد ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي والباقون بغير همز وكل من اهل الهمز على مرتبته في المد يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ اي ابتداء توقده من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بان رويت فتيلة المصباح بزيت الشجرة وهي شجرة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو اصفى الادهان واضوأها وقرأ ابن كثير وابو عمرو بفتح التاء والواو وتشديد القاف على وزن تفعل على الماضي اي المصباح وقرأ ابو بكر وحمزة والكسائي بضم التاء الفوقية وتخفيف القاف اي المصباح لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ اي ليست شرقية وحدها لا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس اذا طلعت بل هي مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تاخذ حظها من الامرين فيكون زيتها اضوأ وهذا كما يقال فلان ليس باسود ولا ابيض اي ليس اسود خالصا ولا ابيض خالصا بل اجتمع فيه كل واحد منهما وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض اي اجتمع فيه الحلاوة والحموضة هذا قول ابن عباس والاكثرين وقال السدي وجماعة معناه انها ليست في مقناة لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لا يصيبها الظل فهي لا تضرها شمس ولا ظل والمقناة بقاف فنون فهمزة وهي بفتح النون وضمها المكان الذي لا تطلع عليه الشمس وقول البيضاوي تبعا للزمخشري

وفى الحديث لا خير فى شجرة فى مقناة ولا فى نبات فى مقناة ولا خير فيهما فى مضحى قال ابن حجر العسقلانى
لم اجده وقيل معناه انها معتدلة ليست فى شرق يصيبها الحر ولا فى غرب يضرها البرد وقيل
معناه هى شامية لان الشام وسط الارض لا شرقى ولا غربى وقيل ليست هذه الشجرة من اشجار الدنيا
لانها لو كانت فى الدنيا لكانت شرقية او غربية وانما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره يَكَادُ زَيْتُهَا
اى من صفائه يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ اى يكاد يتلألأ ويضئ بنفسه من غير نار نُورٌ عَلَى نُورٍ اى
نور المصباح على نور الزجاجة + تنبيه + اختلف اهل العلم فى معنى هذا التمثيل فقال بعضهم
وقع التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار اخبرنى عن قوله تعالى
مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة
قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم
وامره يتبين للناس ولو لم يتكلم انه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضئ ولو لم تمسسه نار وروى سالم عن
ابن عمر فى هذه الآية قال المشكاة جوف النبى صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله
الله تعالى فيه لا شرقية ولا غربية لا يهودى ولا نصرانى توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب
ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليهما وسلم وقال محمد بن كعب القرظى المشكاة ابراهيم والزجاجة اسمعيل
عليهما السلام والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال تعالى
وسراجا منيرا توقد من شجرة مباركة وهى ابراهيم عليه السلام سماه مباركا لان اكثر الانبياء من صلبه لا شرقية
ولا غربية يعنى ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلى قبل المغرب
والنصارى قبل المشرق يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم
تظهر للناس قبل ان يوحى اليه نور على نور نبى من نسل نبى نور محمد على نور ابراهيم عليهما السلام وقال
بعضهم وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن روى ابو العالية عن ابى بن كعب قال هذا مثل المؤمن فالمشكاة
نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله من الايمان والقرآن فى قلبه توقد من شجرة مباركة وهى
الاخلاص لله وحده فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر فهى خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا اذا طلعت ولا اذا غربت
فكذلك المؤمن قد احترس من ان يصيبه شئ من الفتن فهو بين اربع خلال ان اعطى شكر وان ابتلى صبر
وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضئ اى يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل ان يبين له
لموافقته اياه نور على نور قال ابى اى فهو يتقلب فى خمسة انوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه
نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد
الزيت الصافى يضئ قبل ان تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء كذلك يكاد قلب
المؤمن يعمل بالهدى قبل ان يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال
الكلبى قوله تعالى نور على نور يعنى ايمان المؤمن وعمله وقال السدى نور الايمان ونور القرآن
وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى

بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضئ يعني تكاد حجة القرآن تتضح وان لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما قام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول القرآن فازداد وابذلك نورا على نور يهدي الله لنوره قال ابن عباس دين الاسلام وقيل القرآن من يشاء فان الاسباب دون مشيئته لاغية وقيل يوفق الله لاصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والانصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة اليه يمينا وشمالا ومن لم يتدبر فهو كالاعمى سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس ويضرب اي يبين الله الامثال للناس تقريبا للافهام وتسهيلا للادراك والله بكل شئ عليم معقولا كان او محسوسا ظاهرا كان او خفيا وفيه وعيد لمن تدبرها ولم يكترث بها وقوله تعالى في بيوت يتعلق بما قبله اي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كانه قيل مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت او بما بعده وهو يسبح اي يسبح رجال في بيوت وفي قوله فيها تكرير لقوله في بيوت كقوله زيد في الدار جالس فيها او بمحذوف كقوله تعالى في تسع آيات اي سبحوا في بيوت والبيوت هي المساجد قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال المساجد بيوت الله في الارض وهي تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض وقيل المراد بالبيوت المساجد الثلاثة وقيل المراد اربعة مساجد لم يبنها الا نبي الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما السلام فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما النبي صلى الله عليه وسلم واتى فيها بجمع الكثرة دون جمع القلة للتعظيم اذن الله ان ترفع قال مجاهد تبنى نظيره قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وقال الحسن تعظم اي فلا يذكر فيها الفحش من القول وتطهر من الانجاس والاقذار وقوله تعالى ويذكر فيها اسمه عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في افعاله والمباحثة في احكامه وقال ابن عباس يتلى فيها كتابه يسبح اي يصلي له فيها بالغدو والآصال اي بالغداة والعشي قال اهل التفسير اراد به الصلوات المفروضة فالتي تؤدى بالغداة صلوة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلوة الظهر والعصر والعشائين لان اسم الاصيل يقع على هذا الوقت وقيل اراد به الصبح والعصر قال صلى الله عليه وسلم من صلى البردين دخل الجنة اراد صلوة الصبح وصلوة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلوة الضحى وروي من مشى الى صلوة مكتوبة وهو متطهر فاجره كاجر الحاج المحرم ومن مشى الى تسبيح الضحى لا ينصبه الا اياه فاجره كاجر المعتمر وصلوة على اثر صلوة لا لغو بينهما كتاب في عليين وقرأ ابن عامر وشعبة بفتح الباء الموحدة والباقون بكسرها رجال لا تلهيهم تجارة اي معاملة رابحة وقيل المراد بالتجارة الشراء لقوله تعالى ولا بيع عن ذكر الله اطلاقا للاسم الجنسي على النوع كما تقول رزق فلان تجارة رابحة اذا اتجه له بيع صالح او شراء وعلى الاول ذكر مبالغة للتعميم والتعميم بعد التخصيص وقيل التجارة لاهل الجلب تقول تجر فلان في كذا اي جلب + تنبيه + قوله تعالى رجال فاعل يسبح بكسر الباء وعلى فتحها نائب الفاعل

له رجال فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كانه قيل من يسبحه وحذف من قوله تعالى
وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ الهاء تخفيفا اى واقامة الصلوة وارادادائها فى وقتها لان من اخر الصلوة عن
وقتها لا يكون من مقيمى الصلوة وانما ذكر اقام الصلوة مع ان المراد من ذكر الله الصلوات الخمس
لانه تعالى اراد باقامة الصلوة حفظ المواقيت روى سالم عن ابن عمر انه كان فى السوق فاقيمت الصلوة
فقام الناس واغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد قال ابن عمر فيهم نزلت هذه الاية وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ قال
ابن عباس اذا حضر وقت اداء الزكوة لم يحبسوها اى فيخرجون ما يجب اخراجه من المال للمستحقين
وقيل هى الاعمال الصالحة ومع ما هم عليه يَخَافُونَ يَوْمًا هو يوم القيامة تَتَقَلَّبُ اى تضطرب فِيهِ الْقُلُوبُ
بين النجاة والهلاك وَالْأَبْصَارُ بين ناحيتى اليمين والشمال وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه
فى الدنيا من الشك الى اليقين وتنفتح الابصار من الاغطية وقوله تعالى لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ متعلق بيسبح
او بلا تلهيهم او يخافون أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا فى الطاعات فرضها ونفلها اى ثوابه الموعود لهم من
الجنة واحسن بمعنى حسن وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ما لم يستحقوه باعمالهم مما لا عين رأت ولا اذن سمعت
وقوله تعالى وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة
وسعة الاحسان وكمال جوده فكانه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ومع ذلك
يكونون فى نهاية الخوف فالله سبحانه وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ويزيدهم الفضل الذى
لاحد له فى مقابلة خوفهم وقوله تعالى وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ اى اعمالهم على ضد ذلك فان اعمالهم
التى يحسبونها صالحة نافعة عند الله تعالى يجدونها لاغية مخيبة فى العاقبة كسراب وهو ما يرى فى الفلاة
وقت الضحى الاكبر شبيها بالماء الجارى وهو ليس بماء ولكن الذى ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا وقيل
هو الشعاع الذى يرى نصف النهار فى شدة الحر فى البرارى الذى يخيل الى الناظر انه الماء السارب اى
الجارى فاذا قرب منه انفش فلم ير شيئا واما الال فانما يكون اول النهار كانه ماء بين السماء والارض
وقال البغوى والال ما ارتفع عن الارض وهو شعاع يرى بين السماء والارض بالغدوات شبه الملاءة
ترفع فيها الشخوص يرى فيها الصغير كبيرا والقصير طويلا والرقراق يكون بالعشاء وهو ما ترقرق من السراب
اى جاء وذهب وقوله تعالى بِقِيعَةٍ جمع قاع وهو ارض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والاكام
قاله فى القاموس وقيل القيعة بمعنى القاع وهو الارض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب وقال
الفراء جمع قاع كجار وجيرة وقال الفارسى جمع قيعة قيعان يَحْسَبُهُ اى يظنه الظَّمْآنُ اى
العطشان الشديد العطش من شدة الحر مَاءً فيقصده ولا يزال سائرا حَتَّى إِذَا جَاءَهُ اى ما قدر انه
ماء وقيل جاء الى موضع السراب لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا مما حسبه ووجه التشبيه ان الذى جاء به الكافر ان
كان من افعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع انه يعتقد ان له ثوابا عليه وان كان من افعال الاثم
فهو يستحق عليه العقاب مع انه يعتقد ان له ثوابا فكيف كان فهو يعتقد ان له ثوابا عند الله تعالى
فاذا وافى عرصة القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه

ووجد

فيشبه حاله حال الظمآن الذي اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب في البر تعلق به قلبه
فاذا جاءه لم يجده شيئا فكذلك حال الكافر يحسب ان عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده شيئا
ولا ينفعه وقال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا فان قيل قوله تعالى
حتى اذا جاءه يدل على كونه شيئا وقوله تعالى لم يجده شيئا مناقض له اجيب بان معناه لم يجده شيئا
نافعا كما يقال فلان ما عمل شيئا وان كان قد اجتهد وانه اذا جاء موضع السراب لم يجد السراب يرى
من بعيد بسبب الكثافة كانه ضباب وهباء فاذا قرب منه رق وانتشر وصار كالهواء ووجد الله
عنده اي ووجد عقاب الله الذي توعد به الكفار او وجد زبانية الله او وجده محاسبا اياه او قدم
على الله فوفاه حسابه اي جزاء عمله قيل نزلت في عتبة بن ربيعة فانه قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين
في الجاهلية ثم كفر بالاسلام قال ابن الخازن والاصح ان الاية عامة في حق جميع الكفار والله سريع الحساب
لانه تعالى عالم بجميع المعلومات فلا يشغله محاسبة واحد عن واحد وفي هذا رد على المشبهة قبحهم الله
تعالى لانه تعالى لو كان متكلما بالة كما يقولون لما صح ذلك وقوله تعالى او كظلمات عطف على كسراب
على حذف مضاف واحد تقديره او كذي ظلمات ودل على هذا المضاف قوله تعالى اذا اخرج يده
لم يكد يراها فالكناية تعود الى المضاف المحذوف وهو قول ابي علي وقال غيره على حذف مضافين
تقديره او كاعمال ذي ظلمات فقدر ذي ليصح عود الضمير اليه في قوله تعالى اذا اخرج يده وقدر
اعمال ليصح تشبيه اعمال الكفار باعمال صاحب الظلمة اذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب
الظلمة واو للتخيير فان اعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق
كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والامواج والسحاب او للتنويع فان اعمالهم ان كانت حسنة
فكالسراب وان كانت قبيحة فكالظلمات او للتقسيم باعتبار وقتين فانها كالظلمات في الدنيا
وكالسراب في الاخرة وقوله تعالى في بحر لجي صفة لظلمات فيتعلق بمحذوف واللجي منسوب الى اللج
وهو معظم البحر وقيل منسوب الى اللجة بالتاء وهي ايضا معظمه فاللجي هو العميق الكثير الماء وقوله تعالى
يغشاه اي يغطي هذا البحر ويعلوه موج كائن من فوقه موج اي امواج مترادفة متراكمة من فوقه اي
الموج الثاني المركوم وقوله تعالى سحاب اي غيم غطى النجوم وحجب انوارها صفة اخرى لبحر وقوله تعالى
ظلمات اي من البحر والموجين والسحاب خبر مبتدأ مضمر تقديره هذه ظلمات او تلك ظلمات
ويجوز ان يكون ظلمات مبتدأ والجملة من قوله تعالى بعضها فوق بعض خبره قاله الحوفي فان قيل
لا مسوغ للابتداء بهذه النكرة اجيب بانها موصوفة تقديرا اي ظلمات كثيرة متكاثفة وقرأ البزي
سحاب بلا تنوين وجر ظلمات وقنبل بتنوين سحاب وجر ظلمات والبزي جعل الموج المتراكم
بمنزلة السحاب واما قنبل فانه جعل ظلمات بدلا من ظلمات الاولى والباقون بتنوين سحاب
وظلمات بالرفع فيهما اذا اخرج اي الكافر في هذا البحر لدلالة المعنى وان لم يجر له ذكر يده
وهي اقرب ما يرى اليه في هذه الظلمات لم يكد اي الكائن فيه يراها اي لم يقرب من

رؤيتها فضلاً عن ان يراها كقول ذي الرمة سه اذا غير النأي اي البعد وفي نسخة الهجر المحبين لم يكد + رسيس الهوى (اي ثابته معنى الهوى الثابت) من حب مية يبرح + اي يزول والمعنى لم يقرب من البراح فضلاً عن ان يبرح + تنبيه + في كيفية هذا التشبيه وجوه احدها قال الحسن ان الله تعالى ذكر ثلاثة انواع من الظلمة ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب كذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل ثانيها قال ابن عباس شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث ثالثها ان الكافر لا يدري ولا يدري انه لا يدري ويعتقد انه يدري فهذه المراتب الثلاثة تشبه تلك الظلمات الثلاث رابعها قلب مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم خامسها ان هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده اظهر الدلائل لم يفهمه ومن لم يجعل الله اي الملك الاعظم له نوراً فما له من نور قال ابن عباس من لم يجعل الله له ديناً وايماناً فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادي له لانه تعالى قادر على ما يريد + ولما وصف تعالى انوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين اتبع ذلك بدلائل التوحيد بقوله تعالى الم تر اي تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة بالوحي والاستدلال ان الله اي الحائز لصفات الكمال يسبح له اي ينزهه عن كل شائبة نقص من في السموات والارض لان التسبيح لا يرى بالبصر بل يعلم بالقلب وهذا استفهام والمراد به التقرير والبيان وهذا التسبيح اما ان يكون المراد منه دلالة خلق هذه الاشياء على كونه تعالى منزهاً عن النقائص موصوفاً بنعوت الجلال او يكون المراد منه في حق البعض الدلالة على التنزيه وفي حق الباقين النطق باللسان قال الرازي والاول اقرب لان القسم الثاني متعذر لان في الارض من لا يكون مكلفاً لا يسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لا يسبح ايضاً بهذا المعنى كالكفار واما القسم الثالث وهو ان يقال ان من في السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان واما الذين في الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على لسان الدلالة فهذا يقتضي استعمال اللفظ الواحد في الحقيقة والمجاز معاً وهو غير جائز اي عند اكثر العلماء فلم يبق الا القسم الاول وهو ان هذه الاشياء مشتركة في ان اجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله تعالى وقدرته والهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيهاً توسعاً فان قيل فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء اجيب بان خلقة العقلاء اشد دلالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى لان العجائب والغرائب في خلقهم اكثر وهي العقل والنطق والفهم + ولما كان امر الطير دلالته اعجب ولانها قد تكون بين السماء والارض فتكون خارجة عن حكم من فيهما خصها بالذكر من جملة الحيوان بقوله تعالى والطير صافات اي باسطات اجنحتها في جو السماء لا شبهة في انه لا يمسكها الا الله تعالى وامساكه لها في الجو مع انها اجرام ثقيلة واقداره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته تعالى واختلف في عود الضمائر في قوله تعالى كل اي من المخلوقات قد علم

صلاته وتسبيحه على قولين احدهما انها كلها عائدة على كل اى كل قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها
قال ابن عادل وهذا اولى لتوافق الضمائر ثانيهما ان الضمير فى علم عائد الى الله تعالى وفى صلاته
وتسبيحه عائد على كل ويدل عليه قوله تعالى وَاللّٰهُ اى المحيط علما وقدرة عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وقيل
ان ضرب اجنحة الطير صلاته وتسبيحه وهذا يؤيد ان المراد من التسبيح دلالة هذه الامور على التنزيه
لا النطق باللسان روى ان اباثابت قال كنت جالسا عند ابى جعفر الباقر فقال لى اتدرى ما تقول
هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قال لا قال فانهن يقدسن الله ربهن ويسألنه
قوت يومهن قال بعض العلماء انا نشاهد من الطيور وسائر الحيوانات اعمالا لطيفة يعجز عنها
لكثير من العقلاء فاذا كان كذلك فلم لا يجوز ان يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان انه تعالى
الهمها الاعمال اللطيفة بوجوه احدها ان الدب يرمى بالحجارة ويأخذ العصا ويرمى الانسان حتى
يتوهم انه مات فيتركه وربما عاد يشمه ويتجسس نفسه ويصعد الشجرة اخف صعود ويهشم الجوز بين
كفيه تفريقا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فاه فيذر قشره ويتغذى به ويحكى عن الفار فى سرقته
امور عجيبة ثانيها امر النحل وما لها من الرياسة والبيوت المسدسة التى لا يتمكن من بنائها افاضل
المهندسين ثالثها انتقال الكركى من طرف من اطراف العالم الى الطرف الآخر طالبا لما يوافقه من الاهوية
ويقال من خواص الخيل ان كل واحد يعرف صوت الفرس الذى قاتله وقتاما والتماسيح تفتح افواهها
لطائر يقع عليها يقال لها القطقاط وينظف ما بين اسنانها وعلى راس ذلك الطائر كالشوكة فاذا هم
التمساح بالتقام ذلك الطائر تأذى من تلك الشوكة فيفتح فاه فيخرج ذلك الطائر والسلحفاة تتناول
بعد اكل الحية سعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى عن بعض الثقات المجربين للصيد انه
شاهد الحبارى تقاتل الافعى وتنهزم عنها الى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا تزال كذلك وكان ذلك
الشخص قاعدا فى كن وكانت البقلة قريبة من مسكنه فلما اشتغل الحبارى بالافعى قلع البقلة فعاد
الحبارى الى منبتها فلم يجدها فاخذ يدور حول منبتها دورانا متتابعا حتى خر ميتا فعلم الشخص انه
يعالج باكلها من اللسعة وتلك البقلة هى الجرجير البرى وابن عرس يستظهر فى مقاتلة الحية باكل السذاب
فان النكهة السذابية تنفر منها الافعى والكلاب اذا مرضت بطونها اكلت سنبل القمح واذا جرحت داوت
الجراحة بالسعتر الجبلى رابعها القنافذ تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان
رجل بالقسطنطينية قد اثرى بسبب انه ينذر بالرياح قبل هبوبها وينفع الناس بانذاره وكان السبب
فيه قنفذا فى داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صناع فى اتخاذ العش من الطين وقطع
الخشب فان اعوزه الطين ابتل وتمرغ فى التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا فرخ بالغ فى
تعهد الفراخ وتأخذ زرقها بمنقارها وترميها من العش والغرانيق تصعد فى الجو عند الطيران فان حجب
بعضها عن بعض سحاب او ضباب احدثت عن اجنحتها حفيفا مسموعا يتبع به بعضها بعضا واذا باتت
على جبل فانها تضع راسها تحت اجنحتها الا القائد فانه ينام مكشوف الراس فيسرع انتباهه

واذا سمع جرسا صاح وحال النمل فى الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا
امر عجيب واذا كشف عن بيوتها الساتر الذى كان يسترها وكان تحته بيض لها فان كل نملة تأخذ بيضة
فى فيها وتذهب فى اسرع وقت والاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتاب طبائع الحيوان
والمقصود من ذلك ان الفضلاء من العقلاء يعجزون عن امثال تلك الحيل واذا كان كذلك فلم
لا يجوز ان يقال انها تسبح الله تعالى وتثنى عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التى تعرفها الناس
ويؤيد هذا قوله تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقوله صلى الله عليه وسلم ان نوحا عليه السلام
اوصى بنيه عند موته بلا اله الا الله فان السموات السبع والارضين السبع لو كن فى حلقة مبهمة
قصمتهن وسبحان الله وبحمده فانها صلوة كل شئ وبها يرزق كل شئ وقال الغزالى فى الاحياء
روى ان رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تولت عنى الدنيا وقلت ذات يدى فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم فاين انت من صلوة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون قال
فقلت وما هى يا رسول الله قال قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم استغفر الله مائة مرة
ما بين طلوع الفجر الى ان تصلى الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح
الله الى يوم القيامة لك ثوابه ثم نبه سبحانه وتعالى بقوله وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ على ان
الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجد الا عند الانتهاء الى القديم الواجب
الوجود ويدخل فى هذا جميع الاجرام والاعراض وافعال العباد واحوالهم وخواطرهم وفى قوله تعالى وَاِلَى اللّٰهِ
اى الذى له الاحاطة بكل شئ الْمَصِيْرُ دليل على المعاد وانه لا بد من مصير الكل اليه بعد الفناء والرؤية
فى قوله تعالى اَلَمْ تَرَ بصرية اَنَّ اللّٰهَ اى ذا الجلال والجمال يُزْجِيْ سَحَابًا اى يسوقه برفق بعد ان انشاه
من العدم تارة من السفل وتارة من العلو ضعيفا رقيقا متفرقا قال الرمانى وهو اسم جنس واحده
سحابة والمعنى يسوق سحابة الى سحابة وهو معنى قوله تعالى ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهٗ اى بين اجزائه
بعد ان كان قطعا فى جهات مختلفة فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة ثُمَّ يَجْعَلُهٗ رُكَامًا فى غاية العظمة
متراكما بعضه على بعض بعد ان كان فى غاية الرقة فَتَرَى اى فى تلك الحالة المستمرة الْوَدْقَ اى المطر يَخْرُجُ
مِنْ خِلٰلِهٖ اى من فتوقه التى حدثت بالتراكم وانعصار بعضه فى بعض فان قيل بين انما تدخل
على مثنى فما فوقه فلم دخلت هنا على مفرد اجيب بان المراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه
او على حذف مضاف اى بين اجزائه كما مر وبين قطعه فان كل قطعة سحابة وقرأ السوسى فترى فى الوصل
بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح واما فى الوقف فابو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش
بالامالة بين بين والباقون بالفتح وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ اى من الغمام وكل ما علا فهو سماء مِنْ جِبَالٍ فِيْهَا
اى فى السماء وهى السحاب الذى صار بعد تراكمه كالجبال وقوله تعالى مِنْ بَرَدٍ بيان للجبال
والمفعول محذوف اى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من برد بردا فمن الاولى لابتداء
الغاية باتفاق والثانية للتبعيض والثالثة للبيان ويجوز ان تكون الثانية لابتداء الغاية ايضا

ومجرورها بدل من الاولى باعادة العامل والتقدير وينزل من جبال اي من جبال فيها فهو بدل
اشتمال والاخيرة للتبعيض واقع موقع المفعول فان قيل ما معنى من جبال فيها من برد اجيب بان فيه
معنيين احدهما ان يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الارض جبال حجر وليس في العقل قاطع
يمنعه الثاني ان يراد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب وقرأ ابن كثير وابو عمرو
بسكون النون واخفائها عند الزاي وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي
ثم بين تعالى ان ذلك باختياره وارادته بقوله تعالى فَيُصِيبُ بِهِ اي بكل من البرد والمطر على وجه
النقمة او الرحمة مَنْ يَشَاءُ اي من الناس وغيرهم وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ صرفه عنه فائدة
عن مقطوعة من من في الرسم ثم نبه تعالى على ما هو غاية في العجب في ذلك مما في الماء من النور الذي
ربما نزل منه صاعقة فاحرقت ما لا تحرق النار بقوله تعالى يَكَادُ اي يقرب سَنَا اي ضوء بَرْقِهِ
وهو اضطراب النور في خلاله يَذْهَبُ اي هو ملتبسا بِالْأَبْصَارِ اي الناظرة له اي يخطفها لشدة
لمعانه وتلألئه فتكون قوة البرق دليلا على تكاثف السحاب وبشيرا بقوة المطر ونذيرا بنزول
الصواعق واعلم ان البرق الذي صفته كذلك لابد وان يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء
والبرد فظهوره يقتضي ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم ثم ذكر تعالى
ما هو ادل على الاختيار بقوله تعالى مترجما لما يشمل ما مضى وزيادة يُقَلِّبُ اللَّهُ اي الذي له الامر كله
بتحويل الظلام ضياء والضياء ظلاما والنقص تارة والزيادة اخرى مع المطر تارة والصحو اخرى اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ فينشأ عن ذلك التقليب من الحر والبرد والنمو والتنويع واليبس ما يبهر العقول ولهذا
قال منبها على النتيجة إِنَّ فِي ذَلِكَ الامر العظيم الذي ذكر من جميع ما تقدم لَعِبْرَةً اي دلالة على وجود
الصانع القديم وكمال قدرته واحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزيهه عن الحاجة وما يفضي اليها
لِأُولِي الْأَبْصَارِ اي لاصحاب البصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده ولما استدل تعالى اولا باحوال
السماء والارض وثانيا بالاثار العلوية استدل ثالثا باحوال الحيوانات بقوله تعالى وَاللَّهُ اي الذي
له العلم الكامل والقدرة الشاملة خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ اي حيوان مِنْ مَاءٍ وقرأ حمزة والكسائي بالف بعد
الخاء وكسر اللام ورفع القاف وكسر لام كل والباقون بفتح اللام والخاء ولا الف بينهما ونصب لام
كل فان قيل كثير من الحيوانات لم يخلق من الماء كالملائكة خلقوا من النور وهم اعظم الحيوانات عددا
وكذا الجن وهم مخلوقون من النار وخلق ادم من التراب كما قال تعالى خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح
كما قال تعالى فنفخنا فيه من روحنا ونرى كثيرا من الحيوانات يتولد لا من نطفة اجيب بوجوه
احسنها ما قال القفال ان من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى ان كل دابة
متولدة من الماء فهي مخلوقة لله تعالى ثانيها ان اصل جميع المخلوقات من الماء على ما روي
ان اول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم قسم ذلك الماء فخلق
منه النار والهواء والنور والتراب والمقصود من هذه الاية بيان اصل الخلقة فكان اصل الخلقة الماء

فلهذا ذكره الله تعالى ثالثها المراد من الدابة التى تدب على وجه الارض ومسكنها هنالك فتخرج
الملائكة والجن رابعها لما كان الغالب من هذه الحيوانات كونها مخلوقة من الماء اما لانها متولدة
من النطفة واما لانها لا تعيش الا بالماء اطلق عليها لفظ كل تنزيلا للغالب منزلة الكل فان قيل
لم نكر الماء فى قوله تعالى من ماء وعرفه فى قوله تعالى من الماء كل شئ حى اجيب بانه جاء ههنا منكرا لان
المعنى خلق كل دابة من نوع من الماء مختصا بتلك الدابة وعرفه فى قوله تعالى من الماء كل شئ حى
لان المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان ان ذلك الجنس ينقسم الى انواع كثيرة
فمنهم اى الدواب مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ كالحية والحيتان والديدان واستعير المشى للزحف
على البطن كما قالوا فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان ما يمشى له امر وسمى بذلك للمشاكلة
بسبب ذكر الزاحف مع الماشى وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ اى فقط كالادمى والطير وَمِنْهُم
مَّن يَمْشِى عَلَىٰ أَرْبَعٍ اى من الايدى والارجل كالنعم والوحش فان قيل لم حصر القسمة فى هذه الثلاثة
انواع من المشى وقد نجد من يمشى على اكثر من اربع كالعناكب والعقارب والحيوان الذى له
اربع واربعون رجلا الذى يسمى دخال الاذن اجيب بان هذا القسم الذى لم يذكر كالنادر
فكان ملحقا بالعدم وقال النقاش انه اكتفى بذكر ما يمشى على اربع عن ذكر ما يمشى على اكثر
من اربع لان جميع الحيوان انما اعتماده على اربع وهى قوائم مشيه وكثرة الارجل لبعض الحيوان
زيادة فى الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه الى جميعها وبان قوله تعالى يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
كالتنبيه على سائر الاقسام فان قيل لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب اجيب بانه قدم
ما هو اعرق فى القدرة وهو الماشى بغير آلة مشى من ارجل او قوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى
على اربع + تنبيه + انما اطلق من على غير العاقل لاختلاطه بالعاقل فى المفصل بمن وهو كل دابة
وكان التعبير بمن اولى ليوافق اللفظ + ولما كانت هذه الادلة ناظرة الى البعث اتم نظر وكانوا منكرين
له اكد ذلك بقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ اى الذى له الكمال المطلق عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ من ذلك وغيره قَدِيرٌ لانه القادر
على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على احوال هذه الحيوانات فاى عقل يقف عليها واى خاطر يصل
الى ذرة من اسرارها بل هو الذى يخلق ما يشاء كيف يشاء ولا يمنعه منه مانع + ولما اتضح بهذا
ما لله تعالى من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقامت ادلة الوحدانية على
ساق واتسقت براهين الالوهية اى اتساق قال تعالى متوجها لتلك الادلة لَّقَدْ أَنزَلْنَا اى
فى هذه السورة وما تقدمها بما لنا من العظمة آيَاتٍ اى مما لنا من الحكم والاحكام والادلة
والامثال مُّبَيِّنَاتٍ للحقائق بانواع الدلائل التى لا خفاء فيها وَاللَّهُ اى الملك الاعظم يَهْدِى
مَن يَشَاءُ من عباده إِلَىٰ صِرَاطٍ طريق مُّسْتَقِيمٍ هو دين الاسلام الموصل الى دار الحق
والفوز بالجنة + ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد اتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بالسنتهم
ولكنهم لم يفعلوه بقلوبهم فقال تعالى وَيَقُولُونَ اى الذين ذمهم الله تعالى آمَنَّا بِاللَّهِ اى

الذى

الذى اوضح لنا جلاله وعظمته وكماله وبالرسول اى الذى علمنا كمال رسالته وعموم ما اقام عليها
من الادلة واطعنا اى واوجدنا الطاعة لله ولرسوله ثم عظم المخالفة بين الفعل والقول باداة
البعد فقال تعالى ثم يتولى اى يرتد بانكار القلب ويعرض عن طاعة الله ورسوله ضلالا منهم
عن الحق فريق منهم اى ناس يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة من بعد ذلك
اى القول السديد المؤكد مع الله الذى هو اكبر من كل شئ ومع رسوله الذى هو اشرف الخلائق
وما اولئك اى البعداء البغضاء الذين صاروا بتوليهم فى محل البعد بالمؤمنين اى المعهودين
الموافقة قلوبهم السنتهم فان قيل انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون امنا ثم حكى عن فريق منهم
التولى فكيف يصح ان يقول فى جميعهم وما اولئك بالمؤمنين مع ان المتولى فريق اجيب بان قوله
تعالى وما اولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى ولو رجع الى الجملة الاولى لصح
ويكون معنى قوله تعالى ثم يتولى فريق منهم اى يرجع عن هذا الفريق الى الباقى فيظهر بعضهم
لبعض الرجوع كما اظهروه بينهم * ولما فضحهم بما اخفوه من توليهم قبح عليهم ما اظهروه فقال
تعالى معبرا باداة التحقيق واذا دعوا اى الفريق الذين ادعوا الايمان من اى داع كان الى الله
اى الى ما نصبه الملك الاعظم من احكامه ورسوله وافرد الضمير فى قوله تعالى ليحكم
وقد تقدم اسمان وهما الله ورسوله فهو كقوله تعالى والله ورسوله احق ان يرضوه لان حكم
رسوله هو حكمه قال الزمخشرى كقولك اعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله
ومنهل من الفلا فى اوسطه * غلسته قبل القطا وفرطه * اى قبل فرط القطا بينهم اى بما اراه الله
اذا فريق منهم اى ناس مجبولون على الاذى معرضون اى فاجؤا الاعراض اذا كان الحق عليهم
لعلمهم بانك لا تحكم لهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه وان يكن لهم اى على سبيل الفرض
الحق اى بلا شبهة يأتوا اليه اى الرسول مذعنين اى منقادين لعلمهم بانه يحكم لهم لانهم يعلمون انه
دائر مع الحق لهم وعليهم فليس انقيادهم للطاعة الله ورسوله * تنبيه * قوله تعالى اليه يجوز تعليقه
بيأتوا لان اتى وجاء قد يتعديان بالى ويجوز ان يتعلق بمذعنين لانه بمعنى مسرعين فى الطاعة
وصححه الزمخشرى قال لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص ومذعنين حال ثم قسم تعالى الامر فى
عدولهم عن حكومته صلى الله عليه وسلم اذا كان الحق عليهم بين ان يكونوا مرضى القلوب
بقوله تعالى افى قلوبهم مرض اى نوع فساد من اصل الفطرة يحملهم على الضلال او مرتابين فى نبوته
بقوله تعالى ام ارتابوا اى بان رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم بك او خائفين الحيف
فى قضائه بقوله تعالى ام يخافون ان يحيف اى يجور الله اى الغنى عن كل شئ لان له كل شئ
عليهم ورسوله اى الذى لا ينطق عن الهوى * ثم اضرب عن القسمين الاخيرين لتحقيق
القسم الاول بقوله تعالى بل اولئك اى البعداء البغضاء هم الظالمون اى الكاملون فى
الظلم ووجه التقسيم ان امتناعهم اما لخلل فيهم او فى الحاكم والثانى اما ان يكون محققا

عندهم او متوقعا وكل منهما باطل لان منصب نبوته وفرط امانته تمنعه فتعين الاول وظلمهم يعم
خلل عقيدتهم وميل نفوسهم الى الحيف وضمير الفصل لنفي ذلك عن غيرهم فان قيل اذا خافوا ان يحيف الله
عليهم ورسوله فقد ارتابوا في الدين واذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض والكل واحد فاى فائدة في التعديد
اجيب بان قوله تعالى في قلوبهم مرض اشارة به الى النفاق وقوله تعالى ام ارتابوا اشارة الى انهم
بلغوا في حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه فان قيل هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة
فكيف ادخل عليها كلمة ام اجيب بانه تعالى نبههم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان في قلوبهم
مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول وكل واحد
من ذلك كفر ونفاق واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت في بشر المنافق وكان
قد خاصم يهوديا في ارض فقال اليهودي نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق نتحاكم الى
كعب بن الاشرف فان محمدا يحيف علينا فانزل الله تعالى هذه الآية وقد مضت قصتهما
في سورة النساء وقال الضحاك نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي رضي الله تعالى عنه
ارض تقاسماها فوقع الى علي ما لا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعني ارضك فباعها اياه
وتقابضا فقيل للمغيرة اخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض ارضك فانما اشتريتها ان
رضيتها ولم ارضها فقال علي بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا اقبلها منك ودعاه الى ان
يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة اما محمد فلا نأتيه ولا احاكم اليه فانه يبغضني وانا اخاف
ان يحيف علي فنزلت الآية وقال الحسن نزلت في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون
الكفر ۔ ولما نفى تعالى عنهم الايمان الكامل بما وصفهم به كان كانه سئل عن حال المؤمنين فقال تعالى اِنَّمَا
كَانَ اى دائما قَوْلَ الْمُؤْمِنِيْنَ اى العريقين في ذلك الوصف اِذَا دُعُوْا اى من اى داع كان اِلَى اللّٰهِ اى
الى ما انزل الملك الذي لا كف [illegible] من احكامه وَرَسُوْلِهٖ الذي لا ينطق عن الهوى لِيَحْكُمَ اى الرسول بَيْنَهُمْ
بما اراه الله تعالى اى حكومة من الحكومات لهم او عليهم اَنْ يَّقُوْلُوْا سَمِعْنَا اى الدعاء وَاَطَعْنَا اى
بالاجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وهذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم ادب الشرع بمعنى
ان المؤمنين ينبغي ان يكونوا هكذا وَاُولٰٓئِكَ اى العالو الرتبة هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ الذين وصفهم الله تعالى
في اول المؤمنين وهذا يدل على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد انكاره
لما لا ينبغي ۔ ولما رتب تعالى الفلاح على هذا النوع الخاص اتبعه عموم الطاعة بقوله تعالى وَمَنْ يُّطِعِ اللّٰهَ
اى الذي له الامر كله وَرَسُوْلَهٗ اى فيما ساءه وسره وَيَخْشَ اللّٰهَ اى فيما صدر عنه من الذنوب
في الماضي ليحمله ذلك على كل خير وَيَتَّقْهِ اى الله فيما بقي من عمره بان يجعل بينه وبين ما يسخطه
وقاية من المباحات فيتركها ورعا فَاُولٰٓئِكَ اى العالو الرتبة هُمُ الْفَآئِزُوْنَ بما لا عين رأت
ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم وعن ابن عباس في تفسير هذه الآية ومن
يطع الله في فرائضه ورسوله في سننه ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل

المليك انه سأل عن آية كافية فتليت عليه هذه الآية وقرأ ابو عمرو وشعبة وخلاد ويتقه بسكون
الهاء بخلاف عن خلاد وقالون باختلاس كسرة الهاء وحفص بسكون القاف وقصر كسرة
الهاء والباقون وخلاد في احد وجهيه باشباع كسرة الهاء ولما ذكر تعالى ما رتب على الطاعة
الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن ذكر حال المنافقين بقوله تعالى وأقسموا بالله اي
الذي له الكمال المطلق وقوله تعالى جهد أيمانهم مستعار من جهد نفسه اذا بلغ اقصى
وسعها وذلك اذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها وعن ابن عباس من قال بالله
فقد بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها لئن أمرتهم اي امرا من الامور ليخرجن مما هم متلبسون به
من خلافه كائنا ما كان وذلك ان المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اينما
كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن اقمت اقمنا وان امرتنا بالجهاد جاهدنا فقال الله تعالى
قل اي لهم لا تقسموا اي لا تحلفوا فان العلم بما انتم عليه لا يحتاج الى الاقسام وههنا قد تم
الكلام ولو كان قسمهم لما دعاهم المانعوا عنه لان من حلف على القيام بالبر لا ينهى عنه فثبت
ان قسمهم كان لنفاقهم وكان باطنهم يخالف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه قبيح
قال المتنبي شعر وفي اليمين على ما انت واعده + ما دل انك في الميعاد متهم + وفي رفع قوله
تعالى طاعة معروفة ثلاثة اوجه احدها انه خبر مبتدأ مضمر تقديره امرنا طاعة او المطلوب
طاعة ثانيها انه مبتدأ والخبر محذوف اي امثل واولى او خبر اي طاعة معروفة للنبي صلى الله
عليه وسلم خير من قسمكم الذي لا تصدقون فيه ثالثها طاعة مبتدأ اي هذه الحقيقة ومعروفة
هو الخبر اي معروفة منكم ومن غيركم وارادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها
لان العموم الذي تصلح له قد تخصص بارادة الحقيقة كما قالوه في اعرف المعارف والمعنى ان الطاعة
وان اجتهد العبد في اخفائها لا بد ان تظهر مخايلها على شمائله وكذا المعصية لانه ما اسر عبد سريرة
الا البسه الله رداءها رواه الطبراني عن عثمان وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه
قال لو ان رجلا دخل بيتا في جوف بيت فادمن هناك عملا اوشك الناس ان يتحدثوا به وما من عامل
عمل عملا الا كساه الله رداء عمله ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وعن سعيد لو ان احدكم يعمل في صخرة صماء
ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا من كان ان الله اي الذي له الاحاطة بكل شيء خبير بما تعملون
اي لا يخفى عليه شيء من سرائركم فانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم + ولما نبه تعالى على خداعهم واشار الى
عدم الاغترار بايمانهم امر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا الى الاعراض عن عقوبتهم بقوله تعالى قل اي لهم
أطيعوا الله اي الذي له الكمال المطلق وأطيعوا الرسول اي الذي له الرسالة المطلقة ظاهرا
وباطنا وقوله تعالى فإن تولوا اي عن طاعته بحذف احدى التاءين خطاب لهم اي فان تتولوا
فما ضررتموه وانما ضررتم انفسكم فإنما عليه اي محمد صلى الله عليه وسلم ما حمل اي
ما حمله الله تعالى من اداء الرسالة واذا ادى فقد خرج من عهدة التكليف وعليكم اي وانما

انتم فعليكم ما حملتم اى ما كلفتم من التلقى بالقبول والاذعان فان لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم
انفسكم لسخط الله وعذابه وان اطعتموه فقد احرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة الى الهدى فالنفع
والضر عائد اليكم وان تطيعوه بالاقبال على كل ما يامركم به تهتدوا اى الى كل خير وما على الرسول اى
من جهة غيره الا البلاغ اى وما الرسول الا ناصح وهاد وما عليه الا ان يبلغ ما له نفع فى قبولكم
ولا عليه ضرر فى توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالاداء بمعنى التادية ومعنى المبين كونه
مقرونا بالآيات والمعجزات روى انه صلى الله عليه وسلم قال على المنبر من لم يشكر القليل لم يشكر
الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة
عذاب وقال ابو امامة الباهلى عليكم بالسواد الاعظم فقال رجل ما السواد الاعظم فنادى ابو امامة
هذه الآية فى سورة النور فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وقوله تعالى وعد الله اى الذى
له الاحاطة بكل شئ الذين آمنوا منكم وعملوا اى تصديقا لايمانهم الصالحات خطاب للنبى صلى الله
عليه وسلم وللامة اوله ولمن معه ومن للبيان ثم اكد غاية التاكيد بلام القسم لما عند اكثر
الناس من الريب فى ذلك بقوله تعالى ليستخلفنهم فى الارض اى ارض العرب والعجم بان
يمد زمانهم وينفذ احكامهم فيجعلهم متصرفين فى الارض تصرف الملوك فى مماليكهم كما استخلف
الذين من قبلهم اى من الامم من بنى اسرائيل وغيرهم من كل من حصلت له مكنة وظفر على الاعداء
بعد الضعف الشديد كما كتب فى الزبور ان الارض يرثها عبادى الصالحون وكما قال موسى عليه السلام
ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقرأ ابو بكر بضم التاء الفوقية وكسر
اللام والباقون بفتح التاء واللام وليمكنن لهم اى فى الباطن والظاهر دينهم الذى ارتضى لهم
وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتوكيده واضافه اليهم اشارة الى رسوخ اقدامهم فيه وانه
الذى لا ينسخ ولما بشرهم بالتمكين اشار لهم الى مقداره بقوله تعالى وليبدلنهم من بعد خوفهم
الذى كانوا عليه امنا وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين
ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما ياتى علينا يوم نامن
فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم لا تغبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ
العظيم محتبيا ليس فيه حديدة وانجز الله تعالى وعده واظفرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعض بلاد
المشرق والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا واستعبدوا ابناء القياصرة
وتمكنوا شرقا وغربا مكنة لم تحصل قبلهم لامة من الامم كما قال صلى الله عليه وسلم ان الله زوى لى الارض
فرايت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتى ما زوى لى منها ولما قتلوا عثمان رضى الله عنه وخرجوا
على على ثم ابنه الحسن نزع الله ذلك الامر كما اشير اليه من وتنكير امنا وجاء الخوف واستمر نيفا ول
ويزداد قليلا قليلا الى ان صار فى زماننا هذا الى امر عظيم وذلك تصديق لقوله عليه افضل الصلاة
والسلام الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ثم تصير بزيزى قطع سبيل

وسفك دما واخذ اموال بغير حقها والثلاثون خلافة ابي بكر سنتان وخلافة عمر عشرة وخلافة عثمان اثنا عشر وخلافة علي ستة والبزيزي بكسر الباء وتشديد الزاي الاولى والقصر السلب والتغلب وقوله فقطع سبيل بنصب اما عطف بيان لقوله بزيزي او بدل منه وقرأ ابن كثير وابو بكر بسكون الباء الموحدة وتخفيف الدال والباقون بفتح الموحدة وتشديد الدال ثم انه تعالى اثنى عليهم بنيته بقوله تعالى تعليلا للتمكين وما معه ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ اي وحدي وقوله تعالى ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حال من الواو اي يعبدونني غير مشركين فان قيل ما محل يعبدونني اجيب بانه مستأنف لا محل له كان قائلا قال ما لهم مستخلفين ويؤمنون فقال يعبدونني ويجوز ان يكون حالا عن وعدهم اي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم واخلاصهم فمحله النصب ولما كان التقدير فمن ثبت على دين الاسلام وانقاد لاحكامه واستقام نال هذه البشرى عطف عليه قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ اي ارتد او كفر هذه النعمة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ اي بعد الوعد والخلافة ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ اي البعداء من الخير ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ اي الخارجون عن الدين خروجا كاملا لا يقبل معه معذرة ولا يقال لصاحبه عثرة بل تقام عليهم الاحكام بالقتل وغيره ولا يراعى منهم ملام ولا تأخذ بهم رافة عند انتقام كما تقدم اول السورة فيمن لزمه الجلد وقيل المراد بالكفر كفران النعمة لا الكفر بالله وقوله تعالى فاولئك هم الفاسقون اي العاصون لله وقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اي فانها قوام ما بينكم وبين ربكم معطوف على اطيعوا الله واطيعوا الرسول قال الزمخشري وليس ببعيد ان يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وان طال لان حق المعطوف ان يكون غير المعطوف عليه ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فانها نظام ما بينكم وبين اخوانكم ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ اي في كل ما يامركم به وكررت طاعة الرسول تاكيدا لوجوبها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اي لتكونوا على رجاء من الرحمة ممن لا راحم في الحقيقة غيره والفاعل في قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ضمير المخاطب اي لا تحسبن ايها المخاطب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اي وان ازدادت كثرتهم على العد وتجاوزت عظمتهم الحد ﴿مُعْجِزِينَ﴾ اي لاهل ودنا وقيل لنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ اي فانهم ماخوذون لا محالة وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على الغيبة قال النحاس ما علمت احدا من اهل العربية بصريا ولا كوفيا الا وهو يلحن قراءة حمزة فمنهم من يقول هي لحن لانه لم يات الا بمفعول واحد ليحسبن واجيب عن ذلك من وجهين احدهما ان المفعول الاول محذوف تقديره ولا يحسبن الذين كفروا انفسهم معجزين الا ان حذف احد المفعولين ضعيف عند البصريين ومنه قول عنترة شعر ولقد نزلت فلا تظني غيره + مني بمنزلة المحب المكرم اي فلا تظني غيره واقعا والثاني ان المفعولين هما قوله معجزين في الارض قاله الكوفيون وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وكسرها الباقون وقوله تعالى ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ اي مسكنهم معطوف على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كانه قيل الذين كفروا لا يفوتون اهل ودنا ولا يفوتوننا وما واهم النار والمراد بهم المقسم عليه بالله

ايمانهم ولما كانت سكنى الشيء لا تكون الا بعد المصير اليه قال تعالى وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ اى المرجع
مصيرها فكيف اذا كان على وجه السكنى واختلف فى سبب نزول قوله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ الآية فقال ابن عباس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم
غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر رضى الله تعالى عنه وقت الظهيرة ليدعوه
فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك فنزلت وقال مقاتل نزلت فى اسماء بنت مرثد كان
لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت فكرهته فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان
خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت واللام فى ليستأذنكم للامر وملك اليمين
يشمل العبيد والاماء قال بعض المفسرين هذا الخطاب وان كان ظاهره للرجال فالمراد به الرجال
والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث قال الرازى والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء
بقياس جلى لان النساء فى باب العورة اشد حالا من الرجال فهو كتقديم الضرب بالقياس على حرمة
التأفيف وقال ابن عباس هى فى الرجال والنساء اى البالغين او من قاربوا البلوغ يستأذنون على كل حال
فى الليل والنهار للدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتلذذ بذلك الى مصارتكم واختلف العلماء
فى هذا الامر فقيل للندب وقيل للوجوب واستظهر وَالَّذِينَ اى وليستأذنكم الذين لم يطلعوا على عورات
النساء ولكنهم لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ وقيده بقوله تعالى مِنْكُمْ ليخرج الكفار والارقاء وعبر عن البلوغ
بالاحتلام لانه اقوى دلائله ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فى اليوم والليلة وقيل ثلاث استئذانات فى كل مرة
فان لم يحصل الاذن رجع المستأذن كما تقدم المرة الاولى من الاوقات الثلاث مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ
لانه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم والمرة الثانية وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ اى التى
للخروج بين الناس مِنَ الظَّهِيرَةِ اى شدة الحر وهو انتصاف النهار والمرة الثالثة وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ
الْعِشَاءِ لانه وقت الانفصال من ثياب اليقظة والاتصال بثياب النوم وخص هذه الاوقات
لانها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف واثبت من فى الموضعين لاقتضاء قرب
الزمن من الوقت المذكور لضبطه واسقطها فى الاوسط دلالة على استغراقه لانه غير منضبط ثم علل ذلك
بقوله تعالى ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ اى اختلالات فى التستر والتحفظ لَكُمْ لانها ساعات وضع الثياب
والخلوة قال البيضاوى واصل العورة الخلل ومنها اعور المكان ورجل اعور اذا بدا فيه خلل انتهى وسميت
هذه الاوقات عورات لان الانسان يضع فيها ثيابه فربما تبدو عورته وقرأ ابو بكر وحمزة والكسائى
فى الوصل ثلاث بالنصب بتقدير اوقات منصوبا بدلا من محل ما قبله قام المضاف اليه مقامه
والباقون بالرفع على انها خبر مبتدأ محذوف بعده مضاف وقام المضاف اليه مقامه اى هى اوقات
ويجوز ان يكون مبتدأ وخبره ما بعده ثم بين سبحانه وتعالى حكم ما عدا ذلك بقوله تعالى مستأنفا
لَيْسَ عَلَيْكُمْ اى فى ترك الامر وَلَا عَلَيْهِمْ اى المماليك والصبيان فى ترك الاستئذان جُنَاحٌ اى
اثم واصله الميل فى الدخول عليكم فى جميع الساعات بَعْدَهُنَّ اى بعد هذه الاوقات الثلاثة اذا

تهجموا عليكم ثم علل الاباحة في غيرها مخرجا لغيرهم بقوله تعالى طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ اى لعمل ما تحتاجون في الخدمة كما انتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم في الاستخدام بَعْضُكُمْ طوّاف عَلَىٰ بَعْضٍ لعمل ما يعجز عنه الآخر ويشق عليه فلو عم الامر بالاستئذان لادّى الى الحرج فان قيل بم رفع بعضكم على بعض اجيب بانه رفع بالابتداء وخبره على بعض اى طواف على بعض وحذف لان طوافون يدل عليه ويجوز ان يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة كَذَٰلِكَ اى كما بين ما ذكر يُبَيِّنُ اللَّهُ اى بما له من احاطة العلم والقدرة لَكُمُ الْآيَاتِ اى الآيات في الاحكام وغيرها بعلمه وحكمته وَاللَّهُ اى الذى له الاحاطة العامة بكل شئ عَلِيمٌ بكل شئ حَكِيمٌ فيما يريده فلا يقدر احد على نقضه وختم الآية بهذا الوصف يدل على انها محكمة لم تنسخ واختلف في ذلك فقال الزمخشرى عن ابن عباس انه قال آية لا يؤمن بها اكثر الناس آية الاذن وانى لآمر جاريتى اى زوجتى ان يستأذن على وسأله عطاء استأذن على اختى قال نعم وان كانت في حجرك تمونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جحدهن الناس الاذن كله وقوله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم فقال الناس اعظمكم بيتا وقوله واذا حضر القسمة وعن ابن مسعود عليكم ان تستأذنوا على آبائكم وامهاتكم واخواتكم وعن الشعبى ليست منسوخة فقيل له ان الناس لا يعملون بها فقال الله المستعان وعن سعيد بن جبير ان الناس يقولون هى منسوخة والله ما هى منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها وقال قوم هى منسوخة روى البغوى عن ابن عباس انه قال لم يكن للقوم ستور ولا حجاب فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرون منهم ما لا يحبون فامروا بالاستئذان وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور فلعل الرواية اختلفت عن ابن عباس + ولما بين تعالى حكم الصبيان والارقاء الذين هم اطوع للامر واقبل لكل خير اتبعه حكم البالغين من الاحرار بقوله تعالى وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ اى اذا بلغ اطفالكم الاحرار بلوغ السن الذى يكون فيه انزال المنى سواء رأى منيا ام لا واختلف في ذلك السن فقال عامة العلماء هو خمس عشرة سنة اى قمرية تحديدية لا فرق في ذلك بين الذكر وغيره وقال ابو حنيفة هو ثمانى عشرة سنة في الغلام وسبع عشرة سنة في الجارية وعن على رضى الله عنه انه اعتبر القامة وتقدر بخمسة اشبار وبه اخذ الفرزدق في قوله ؎ ما زال مذ عقدت يداه ازاره + وسما فادرك خمسة الاشبار واعتبر غيره الانبات اى للعانة وعن عثمان رضى الله تعالى عنه انه سال عن غلام له فقال هل اخضر ازاره اى نبت شعر عانته فاسند الاخضرار الى الازار على المجاز لانه مما اشتمل عليه الازار ونبات العانة الخشن عندنا علامة على بلوغ ولد الكافر فقط اما اذا رأى المنى في وقت امكانه وهو استكمال تسع سنين قمرية فانا نحكم ببلوغه سواء كان ذكرا ام انثى مسلما ام كافرا واما الخنثى فلا بد ان يمنى من فرجيه او يحيض بالفرج ويمنى من الذكر فَلْيَسْتَأْذِنُوا اى على غيرهم في جميع الاوقات كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ اى من الاحرار الكبار الذين

جعلوا فيما لهم ما ليك فلا يدخل في ذلك الارقاء فلا يستدل بذلك على ان العبد البالغ يستأذن
على سيدته وقيل المراد الذين كانوا من ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام كذلك اي كما بين لكم ما ذكر
يبين الله اي الذي له الاحاطة والقدرة لكم آياته الامة آياته اي دلالاته والله اي الذي يعلم السر واخفى
عليم اي باحوال خلقه حكيم اي فيما دبره لهم قال سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على امه فانما
انزلت هذه الآية في ذلك وسئل حذيفة ايستأذن الرجل على والدته فقال نعم ان لم تفعل رأيت
منها ما تكره وعن انس قال لما كانت صبيحة احتلمت دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم
فاخبرته اني قد احتلمت فقال لا تدخل على النساء فما اتى علي يوم كان اشد منه + ولما ذكر تعالى اقبال
الشباب في تعيين حكم الحجاب اتبعه الحكم عند ادبار الشباب في القاء الظاهر من الثياب
بقوله تعالى والقواعد من النساء اي اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكبر فلا يلدن ولا يحضن
واحدهن قاعد بلا هاء وقيل قعدن عن الازواج وهو معنى قوله اللاتي لا يرجون نكاحا اي
لا يردن الرجال لكبرهن قال ابن قتيبة سميت المرأة قاعدا اذا كبرت لانها تكثر القعود وقال ربيعة
هن العجز اللواتي اذا رآهن الرجال استقذروهن فاما من كان فيها بقية من جمال وهي محل الشهوة
فلا تدخل في هذه الآية فليس عليهن جناح اي حرج في ان يضعن ثيابهن اي الظاهرة فوق
الثياب الساترة بحضرة الرجال كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار اما الخمار فلا يجوز وضعه
لما فيه من كشف العورة غير متبرجات بزينة اي من غير ان يردن بوضع الجلباب والرداء اظهار
زينتهن ثم ان الزينة الخفية في قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او غير قاصدات بالوضع
التبرج والتبرج هو ان تظهر المرأة محاسن ما ينبغي لها ان تستره + ولما ذكر الله تعالى الجائز عقبه
بالمستحب بعثا منه على اختيار افضل الاعمال واحسنها بقوله تعالى وان يستعففن اي فلا يلقين
الرداء او الجلباب خير لهن من الالقاء كقوله تعالى وان تعفوا اقرب للتقوى وان تصدقوا لانه
ابعد عن التهمة والله اي الذي حاط بعظمته سميع لقولكم عليم بما في قلوبكم واختلف في سبب
نزول قوله تعالى ليس على الاعمى حرج اي في مؤاكلة غيره ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج
كذلك فقال ابن عباس لما انزل الله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل تحرج
المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج وقالوا الطعام افضل الاموال وقد نهى الله
تعالى عن اكل المال بالباطل والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والاعرج لا يتمكن من الجلوس
ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي من الطعام حقه
فانزل الله تعالى هذه الآية وعلى هذا تكون على بمعنى في اي ليس في الاعمى اي ليس عليكم في مؤاكلة
الاعمى والاعرج والمريض حرج وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان
والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الاصحاء لان الناس يتقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم وعن
عكرمة كانت الانصار في انفسها قزازة فكانت لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا وكان ٥٩٥

هؤلاء يقولون الاعمى ربما اكل اكثر وربما سبقت يده الى ما سبقت عين اكيله اليه وهو لا يشعر
والاعرج ربما اخذ في مجلسه مكان اثنين فيضيق على جليسه والمريض لا يخلو من رائحة
تؤذي او جرح يبض او نحو ذلك فنزلت وقال مجاهد نزلت الاية ترخيصا لهؤلاء في الاكل من بيوت
من سمى الله في هذه الاية وذلك ان هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فاذا لم يكن
عنده ما يطعمهم ذهب بهم الى بيت ابيه وبيت امه وبعض من سمى الله تعالى في هذه الاية
فكان اهل الزمانة يتحرجون من هذا الطعام ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره فنزلت الاية وقال
سعيد بن المسيب كان المسلمون اذا غزوا اغلقوا منازلهم ويدفعون اليهم مفاتيح ابوابهم ويقولون
قد احللنا لكم ان تاكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غيب فانزل الله تعالى
هذه الاية رخصة لهم وقال الحسن نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد وقال تم الكلام عند قوله
تعالى ولا على المريض حرج وقوله تعالى ولا على انفسكم ان تاكلوا من بيوتكم كلام مستانف منقطع عما قبله
فان قيل اي فائدة في اباحة اكل الانسان طعامه في بيته اجيب بان المراد من البيوت التي فيها
ازواجكم وعيالكم فيدخل فيه بيوت الاولاد لان بيت ولده كبيته قال صلى الله عليه وسلم انت
ومالك لابيك وقال صلى الله عليه وسلم ان اطيب ما ياكل المرء من كسبه وان ولده من كسبه وقيل
لما نزل قوله تعالى ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل قالوا لا يحل لاحد منا ان ياكل عند احد فانزل الله
تعالى ولا على انفسكم ان تاكلوا من بيوتكم اي لا حرج عليكم ان تاكلوا من بيوتكم او بيوت اباءكم اي وان
بعدت انسابهم قال البقاعي ولعله جمع لذلك فانها مرباكم وهو متهاجر مثلكم او بيوت امهاتكم
كذلك وقدم الاب لانه اجل وهو حاكم بيته دائما والمال له او بيوت اخوانكم اي من الابوين او الاب او الام
بالنسب او الرضاع فانهم من اولى من رضي بذلك بعد الوالدين لانهم منكم وهم اولياء بيوتهم او بيوت
اخواتكم فانهن بعدهم من اولى البيت فان كن مزوجات فلا بد من اذن الزوج او بيوت اعمامكم
فانهم شقائق ابائكم سواء كانوا اشقاء او لاب ام لام ولو افرد العم لتوهم انه الشقيق فقط فانه احق
بالاسم او بيوت عماتكم فانهن بعد الاعمام لضعفهن ولانهن ربما كان اولياء بيوتهن الازواج او بيوت
اخوالكم لانهم شقائق امهاتكم او بيوت خالاتكم اخرهن لما ذكر في العمات او ما ملكتم مفاتحه
قال ابن عباس عني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا باس عليه ان ياكل من
ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وملك المفاتح كونها في يده وحفظه
وقال الضحاك يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم لان السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن لقوله
تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويجوز ان تكون الذي يفتح به وقال عكرمة اذا ملك
الرجل المفتاح فهو خازن فلا باس ان يطعم الشيء اليسير وقال السدي الرجل يولي طعام غيره ويقوم
عليه فلا باس ان ياكل منه وقيل او ما ملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم وقال مجاهد وقتادة من بيوت
انفسكم مما ادخرتم وملكتم او صديقكم اي او بيوت اصدقائكم والصديق هو الذي

صديق في المودة ويكون واحداً وجمعاً كذا الخليط والقطين والعدو وقال ابن عباس نزلت
في الحرث بن عمرو خرج غازياً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما
رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال تحرجت أكل طعامك بغير إذنك فأنزل الله هذه الآية
ويحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها
الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال
هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه
وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك وعن جعفر
بن محمد من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى في الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة
النفس والأب والابن والأخ وعن ابن عباس الصديق أكبر من الوالدين إن الجهنميين لما استغاثوا
لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والمعنى يجوز الأكل من
بيوت من ذكر وإن لم يحضروا إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة ظاهرة الحال فإن ذلك يقوم
مقام الإذن الصريح ولذلك خصص هؤلاء فإنهم اعتادوا التبسط بينهم وربما سمج الاستئذان
وثقل كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه فإن قيل إذا كان ذلك لا بد فيه من العلم
بالرضا فحينئذ لا فرق بينهم وبين غيرهم أجيب بأن هؤلاء يكفي فيهم أدنى قرينة بل ينبغي أن يشترط
فيهم أن لا يعلم عدم الرضا بخلاف غيرهم فلا بد فيه من صريح الإذن أو قرينة قوية هذا ما ظهر لي و
لم أر من تعرض لذلك وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والأكل من طعامه
بغير إذنه لهذه الآية واحتج أبو حنيفة بهذه الآية على أن من سرق من ذي رحم محرم أنه لا يقطع
لأن الله تعالى أباح لهم الأكل من بيوتهم ودخولها بغير إذنهم فإن قيل فيلزم أن لا يقطع إذا سرق من
مال صديقه أجيب بأن من سرق من ماله لا يكون صديقاً له وقيل إن هذا كان أول الإسلام
ثم نسخ فلا دليل له فيه وقرأ بيوتكم وبيوت وبيوتاً ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون
بالكسر وقرأ حمزة والكسائي أمهاتكم في الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم وكسر الميم حمزة وفتحها الباقون ولما
ذكر تعالى معدن الأكل ذكر حاله بقوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي إثم ﴿أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين
﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي متفرقين واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال الأكثرون نزلت في بني ليث
بن عمرو من كنانة وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من
يؤاكله أكل ضرورة وقال عطاء عن ابن عباس كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته
فيدعوه إلى طعامه فيقول والله إني لأجنح أي أتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير فنزلت هذه
الآية وقال عكرمة وأبو صالح نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع
ضيفهم فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا مجتمعين أو أشتاتاً متفرقين وقال الكلبي كانوا إذا
اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعمى طعاماً وحده وكذلك الزمن والمريض فبين الله تعالى لهم أن ذلك غير

واحسبه وقيل تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الاكل وزيادة بعضهم على
بعض ‹ تنبيه › جميعا حال من فاعل تاكلوا واشتاتا عطف عليه وهو جمع شت وشتى جمع شتيت
وشتان تثنية شت روى ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا ناكل ولا نشبع قال فلعلكم
تاكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه وروى انه صلى الله
عليه وسلم قال كلوا جميعا ولا تفرقوا واذكروا اسم الله فان البركة مع الجماعة ‹ ولما بين تعالى مواطن
الاكل ذكر كيفية الحال التي عليها الداخل الى تلك المواطن او غيرها بقوله تعالى فاذا دخلتم اي
بسبب ذلك او غيره بيوتا اي من هذه البيوت فسلموا على انفسكم اي على اهلها الذين هم
منكم دينا وقرابة جعل انفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى ولا تقتلوا انفسكم وقال ابن عباس
اذا لم يكن في البيت احد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين
وقال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على اهلك فهم احق بالسلام ممن سلمت عليهم واذا دخلت
بيتا لا احد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا ان الملائكة ترد عليه
تحية من عند الله اي ثابتة بامره مشروعة من لدنه مباركة اي لانه يرجى بها زيادة الخير
والثواب طيبة اي تطيب بها نفس المستمع والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والتحية
من عند الله ووصفها بالبركة والطيب لانها دعوة مؤمن يرجى بها من الله تعالى زيادة الخير وطيب
الرزق وعن انس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وقيل تسع سنين
فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا قال لي لشيء تركته لم تركته وكنت واقفا على راسه اصب الماء
على يديه فرفع راسه فقال الا اعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بلى بابي انت وامي يا رسول الله
قال متى لقيت من امتي احدا فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك
وصل صلوة الضحى فانها صلوة الابرار الاوابين ‹ تنبيه › تحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا
فهو من باب قعدت جلوسا فكانه قال فحيوا تحية وقال القفال وان كانت في البيت اهل الذمة فليقل
السلام على من اتبع الهدى وكرر قوله تعالى كذلك يبين الله اي الذي احاط علمه بكل شيء لكم الآيات
ثالثا لمزيد التاكيد وتفخيم الاحكام المختتمة به وفصل الاولين بما هو المقتضى لذلك وهذا بما هو المقصود منه
فقال تعالى لعلكم تعقلون اي عن الله امره ونهيه وادبه ‹ ولما كان امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ع
اجل موطن يجب الاقامة فيه ويهجر ما عداه من الاوطان قال تعالى انما المؤمنون اي الكاملون
في الايمان الذين آمنوا بالله اي الملك الاعلى ورسوله اي ظاهرا وباطنا واذا كانوا معه اي الرسول
صلى الله عليه وسلم على امر جامع اي يجمعهم من حرب حضرت او صلوة جمعة او عيد او جماعة او تشاور
في امر نزل ووصف الامر بالجمع للمبالغة او من الاسناد المجازي لانه لما كان سببا في جمعهم نسب
الفعل اليه مجازا لم يذهبوا اي يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له حتى يستاذنوه
قال الكلبي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون

يمينا وشمالا فاذا لم يرهم احد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان ابصرهم احد لبثوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان المؤمن بعد نزولها لا يخرج لحاجة حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن قال مجاهد واذن الامام يوم الجمعة ان يشير بيده قال اهل العلم كذلك كل امر اجتمع عليه المسلمون مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه الا باذن وهذا اذا لم يكن سبب يمنعه من المقام فان حدث سبب يمنعه من المقام كان يكونوا في المسجد فتحيض منهم امرأة او يجنب الرجل او يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستئذان ولما كان اعتبار الاذن كالمصداق لصحة كمال الايمان والمميز للمخلص فيه اعاده مؤكدا على اسلوب ابلغ بقوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ اي تعظيما لك ورعاية للادب أُولَٰئِكَ اي العالو الرتبة الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ اي الذي له الامر كله وَرَسُولِهِ فانه يفيد ان المستأذن مؤمن لا محالة وان الذاهب بغير اذن ليس كذلك ولما نص على الاستئذان سبب عن ذلك اعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفعل اذ ذاك بقوله تعالى فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ وهو ما تشتد الحاجة اليه فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ بالانصراف اي ان شئت فأذن وان شئت فلا تأذن ففي ذلك تفويض الامر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستدل به على ان بعض الاحكام مفوض الى رأيه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب وذلك انه استأذن في غزوة تبوك في الرجوع الى اهله فاذن له وقال انطلق فوالله ما انت بمنافق يريد ان يسمع المنافقون ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد اذا استأذنه اصحابه اذن لهم واذا استأذناه ابى فوالله ما نراه يعدل قال ابن عباس ان عمر استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فاذن له ثم قال يا ابا حفص لا تنسنا من صالح دعائك ولما كان في الاستئذان ولو لعذر قصور لان فيه تقديما لامر الدنيا على امر الدين امره الله تعالى بان يستغفر لهم بقوله تعالى وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ اي الذي له الامر كله بعد الاذن ليكون ذلك شاملا لمن صحت دعواه وغيره ثم علل ذلك ترغيبا في الاستغفار وتطييبا لقلوب اهل الاعذار بقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ اي الذي لا يخفى عليه شيء غَفُورٌ اي لفرطات العباد رَّحِيمٌ اي بالتيسير عليهم ولما اظهرت هذه السورة بعمومها وهذه الآيات بخصوصها من شرف الرسول ما بهر العقول صرح بتفخيم شأنه وتعظيم مقامه بقوله تعالى لَّا تَجْعَلُوا اي يا ايها الذين آمنوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قال سعيد بن جبير وجماعة معناه لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا يا ابا القاسم بل نادوه وخاطبوه بالتوقير فقولوا يا رسول الله يا نبي الله وعلى هذا يكون المصدر مضافا لمفعوله وقال المبرد والقفال لا تجعلوا دعاءه اياكم كدعاء بعضكم بعضا فتتباطؤن عنه كما يتباطأ بعضكم عن بعض اذا دعاه لامر بل يجب عليكم المبادرة لامره ويؤيده قوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن امره وعلى هذا يكون المصدر مضافا للفاعل وقال ابن عباس احذروا دعاء الرسول عليكم اذا اسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وروي عنه ايضا لا ترفعوا اصواتكم في دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون اصواتهم

عند رسول الله وقول المبرد كما قال ابن عادل اقرب الى نظم الآية ولما كان بعضهم يظهر الموافقة
ويبطن المخالفة حذر من ذلك بقوله تعالى قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ اى الذى لا تخفى عليه خافية الَّذِيْنَ
يَتَسَلَّلُوْنَ مِنْكُمْ اى ينسلون قليلا قليلا ليجعلوا ذهابهم فى غاية الخفاء ونظير تسلل تدرج وتدخل
وقوله تعالى لِوَاذًا حال اى ملاوذين واللواذ والملاوذة التستر يقال لاذ فلان بكذا اذا استتر به
وقال ابن عباس اى يلوذ بعضهم ببعض وذلك ان المنافقين كان يثقل عليهم المقام فى المسجد
يوم الجمعة لاسيما فى خطبة النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا يلوذون ببعض اصحابه فيخرجون من المسجد
فى استتار وقد للتحقيق وتسبب عن علمه تعالى قوله تعالى فَلْيَحْذَرِ اى يوقع الحذر الَّذِيْنَ
يُخَالِفُوْنَ عَنْ اَمْرِهٖ اى يعرضون عن امر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصرفون عنه بغير اذنه
وقال ابوبكر الرازى الضمير فى امره لله لانه يليه وقال الجلال المحلى اى الله ورسوله وكل صحيح
فان مخالفة امر احدهما مخالفة امر الآخر اَنْ اى لئلا تُصِيْبَهُمْ فِتْنَةٌ قال مجاهد بلاء فى الدنيا وعن
ابن عباس فتنة قتل وعن عطاء زلازل واهوال وعن جعفر بن محمد يسلط الله عليهم
سلطانا جائرا اَوْ يُصِيْبَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ اى وجيع فى الآخرة ✦ تنبيه ✦ الآية تدل على ان الامر للوجوب
لان تارك المأمور مخالف للامر ومخالف الامر يستحق العذاب ولا معنى للوجوب الا ذلك ولما اقام
تعالى الادلة على انه نور السموات والارض وختم بالتحذير لكل مخالف انتج ذلك ان له كل شئ فقال
تعالى اَلَاۤ اِنَّ لِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا فان قيل ما فائدة ذكر عبيدا بعد
ملكا اجيب عنه انما ذكر لئلا يتوهم ان ما لما لا يعقل فقط ولما كانت احوالهم من جملة ما هو له وانما
يخلقه قال تعالى قَدْ يَعْلَمُ مَاۤ اَنْتُمْ اى ايها المكلفون عَلَيْهِ اى من الموافقة والمخالفة والاخلاص
والنفاق وانما اكد علمه بقد لتأكيد الوعيد وذلك ان قد اذا دخلت على المضارع كانت بمعنى
ربما فوافقت ربما فى خروجها الى معنى التكثير فى نحو قول بعضهم ؎ فان تمس مهجور الفناء فربما
اقام به بعد الوفود وفود ✦ ونحوه قول زهير ؎ اخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ✦ ولكنه قد يهلك المال نائله
والمعنى ان جميع ما فى السموات والارض مختص به تعالى فكيف يخفى عليه احوال المنافقين
وان كانوا يجتهدون فى سترها عن العيون واخفائها وقوله تعالى وَيَوْمَ اى ويعلم يوم
يُرْجَعُوْنَ اِلَيْهِ فيه التفات عن الخطاب اى حتى تكونوا او ويوم يرجع المنافقون اليه للجزاء
فَيُنَبِّئُهُمْ اى فتسبب عن ذلك انه يخبرهم بِمَا عَمِلُوْا اى من الخير والشر فيجازيهم عليه وَاللّٰهُ
اى الذى لا تخفى عليه خافية بِكُلِّ شَيْءٍ اى من اعمالهم وغيرها عَلِيْمٌ وعن عائشة رضى الله
تعالى عنها وعن ابويها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوا النساء الغرف و ع
لا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور اخرجه ابو عبد الله فى البيع فى صحيحه
واما قول البيضاوى تبعا للكشاف من قرأ سورة النور اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد
كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى فحديث موضوع

سورة الفرقان مكية

الا قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها آخر الى رحيما فمدني وآيها سبع وسبعون
آية وثمانمائة واثنان وسبعون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثون حرفا
بسم الله الذي له الحجة البالغة الرحمن الذي عم الخلق بنعمه الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء
تبارك قال الزجاج تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ومنه تبارك الله وفيه معنيان
تزايد خيره وتكاثر او تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وافعاله وعن ابن عباس كان معناه
جاء بكل بركة وخير وقال الضحاك تبارك تعاظم ولا يستعمل الا لله تعالى ولا يتصرف فيه ثم وصف
ذاته الشريفة بما يدل على ذلك بقوله تعالى الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ اي القرآن والفرقان مصدر فرق
بين الشيئين اذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل ولانه لم ينزل جملة واحدة
ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعض في الانزال الا ترى قوله تعالى وقرآنا فرقناه لتقرأه على
الناس على مكث عَلَى عَبْدِهِ اي محمد صلى الله عليه وسلم واضافه الى نفسه اضافة تشريف وفي عود
ضمير لِيَكُونَ ثلاثة اوجه احدها انه يعود على الذي نزل اي ليكون الذي نزل الفرقان نذيرا
الثاني انه يعود على الفرقان اي ليكون الفرقان نذيرا واضاف الانذار اليه كما اضاف الهداية
اليه في قوله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم قال ابن عادل وهو بعيد لان المنذر و
النذير من صفات الفاعل المشرف ووصف القرآن به مجاز وحمل الكلام على الحقيقة اولى
الثالث انه يعود على عبده اي ليكون عبده محمد صلى الله عليه وسلم لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا اي وبشيرا
وهذا احسن الوجوه معنى وصناعة لقربه مما يعود عليه والضمير يعود على اقرب مذكور والعالمين
متعلق بنذيرا وانما قدم لاجل الفواصل ونذيرا بمعنى منذر اي مخوف ويجوز ان يكون مصدرا بمعنى
الانذار كالنكير بمعنى الانكار ومنه قوله تعالى فكيف كان عذابي ونذر والمراد بالعالمين قال
البقاعي اي المكلفين كلهم من الجن والانس والملائكة اهـ ولكن في ارساله للملائكة خلاف بين
العلماء فقد نقل الجلال المحلي في شرحه على جمع الجوامع الاجماع على انه لم يرسل اليهم وغيره صرح بانه ارسل
اليهم ومن حفظ حجة على من لم يحفظ فان قيل قوله تعالى تبارك يدل على كثرة الخير والبركة
فالمذكور عقبه لا بد وان يكون مبينا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف
يليق ذكره بهذا الموضع اجيب بان الانذار يجري مجرى تأديب الوالد فكما انه كلما كانت المبالغة
في تأديب الوالد اكثر كان رجوع الخلق الى الله تعالى اكثر وكانت السعادة الاخروية اتم واكثر
وهذا كالتنبيه على انه لا التفات الى المنافع العاجلة لانه تعالى لما وصف نفسه ان يعطي الخيرات
الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر منافع الدنيا البتة وقوله تعالى الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه وتعالى حال حدوثها وانه تعالى
هو المتصرف فيها كيف يشاء فلا انكار ان يرسل رسولا الى كل من فيها + تنبيه + يجوز في الذي

الذي الرفع نعتا للذي الاول او بيانا او بدلا او خبر المبتدأ محذوف والنصب على المدح وما بعده
بدل على انه من تمام الصلة فليس اجنبيا فلا يضر الفصل به بين الموصول الاول والثاني اذا جعلنا
الثاني تابعا له وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا اي هو الفرد ابدا ولا يصح ان يكون غيره تعالى معبودا او وارثا للملك
عنه وهذا رد على النصارى وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ اي هو المنفرد بالالوهية واذا عرف العبد ذلك
انقطع رجاؤه عن كل من سواه تعالى ولم يشتغل قلبه الا برحمته واحسانه وفيه رد على الثنوية
القائلين بعبادة النجوم والاوثان ولما نفى تعالى الشريك فكان قائلا يقول ههنا اقوام يعترفون
بنفي الشريك والشركاء والانداد ومع ذلك يقولون بخلق افعال انفسهم فرد الله تعالى عليهم بقوله
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ اي من شانه ان يخلق ومنه افعال العباد والخلق هنا بمعنى الاحداث اي احدث
كل شيء احداثا مراعى فيه التقدير والتسوية فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا اي هيأه لما يصلح له مثاله انه
خلق الانسان على هذا الشكل المقدر الذي نراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به
في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة وسمى احداث
الله خلقا لانه لا يحدث شيئا لحكمة الا على وجه التقدير من غير تفاوت فاذا قيل
خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك احدث واوجد من غير نظر الى وجه الاشتقاق فكانه قيل
واوجد كل شيء فقدره تقديرا في ايجاده ولم يوجده متفاوتا ولو حمل خلق كل شيء على معناه الاصلي
من التقدير لصار الكلام وقدر كل شيء فقدره فلم يصر له كبير فائدة وقيل فجعل له غاية ومنتهى
ومعناه فقدره للبقاء الى امد معلوم واختلف في عود الضمير في قوله تعالى وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
اي الله تعالى اي غيره آلِهَةً على ثلاثة اوجه احدها انه يعود على الكفار الذين تضمنهم لفظ العالمين
ثانيها انه يعود على من ادعى لله شريكا وولدا لدلالة قوله تعالى ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك
ثالثها انه يعود على المنذرين لدلالة نذيرا عليهم ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بصفات
الجلال والعزة والعلو اردفه بتزييف مذهب من يعبد غيره من وجوه منها انها ليست خالقة
للاشياء بقوله تعالى لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا والاله يجب ان يكون قادرا على الخلق والايجاد ومنها انها مخلوقة
بقوله تعالى وَهُمْ يُخْلَقُونَ والمخلوق محتاج والاله يجب ان يكون غنيا وغلب العقلاء على غيرهم لان
الكفار كانوا يعبدون العقلاء كعزير والمسيح والملائكة وغيرهم كالكواكب والاصنام التي ينحتونها
ويصورونها ومنها انها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا بقوله تعالى وَلَا يَمْلِكُونَ اي لا يستطيعون
لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا اي دفعه وَلَا نَفْعًا اي جلبه ومن كان كذلك فليس باله ومنها انها لا تقدر على موت
ولا حيوة ولا نشور بقوله تعالى وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً اي اماتة لاحد واحياء لاحد وَلَا نُشُورًا
اي بعثا للاموات فيجب ان يكون المعبود قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة
فمن لا يكون كذلك يجب ان لا يصلح للالهية «تنبيه» احتج اهل السنة بقوله تعالى لا يخلقون شيئا على ان
فعل العبد مخلوق لله تعالى لانه تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيئا وذلك

يدل على ان من خلق يستحق ان يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الهاً ولما تكلم تعالى اولاً على التوحيد وثانياً في الرد على عبدة غيره تكلم ثالثاً في مسئلة النبوة وحكى شبه الكفار في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . الشبهة الاولى قوله تعالى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا اى مظهروا الوصف الذى حملهم على هذا القول وهو ستر ما ظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد في اخفائه إِنْ اى ما هٰذَا اى القرآن إِلَّا إِفْكٌ اى كذب مصروف عن وجهه افْتَرَاهُ اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ اى القرآن قَوْمٌ آخَرُونَ اى من غير قومه وهم اليهود فانهم يلقون اليه اخبار الامم وهو يعبر عنها بعبارته وقيل عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وابو فكيهة الرومي كانوا بمكة من اهل الكتاب فزعم المشركون ان محمداً ياخذ منهم فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى فَقَدْ جَاءُوا اى قائلوا هذه المقالة ظُلْمًا وهو جعل الكلام المعجز افكا مختلقا متلقفا من اليهود وجعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاماً عربياً اعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب وَزُورًا اى بهتوه بنسبة ما هو بريء منه اليه وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام . تنبيه . جاء واتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته وظلما مفعول به وقيل انه على اسقاط الخافض اى جاؤا بظلم . الشبهة الثانية قوله تعالى وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اى ما سطره الاولون من اكاذيبهم جمع اسطورة بالضم كاحدوثة او اسطار اكْتَتَبَهَا اى تطلب كتابتها له من ذلك القوم واخذها والمعنى ان هذا القرآن ليس من الله تعالى انما هو مما سطره الاولون الاول كاحاديث رستم واسفنديار استنسخها محمد من اهل الكتاب فَهِيَ اى فتسبب عن تكلفه ذلك انها تُمْلَىٰ عَلَيْهِ اى تقرأ عليه ليحفظها بُكْرَةً قبل ان تنتشر الناس وَأَصِيلًا اى عشيا حين ياوون الى مساكنهم او دائما ليتكلف حفظها بالانتساخ لانه امي لا يقدر ان يكرر من الكتاب او ليكتب وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة في عقل او مروءة كيف وهو يدعوهم الى المعارضة ولو بسورة من مثله وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء وهم اكثر منه مالا واعظم اعوانا ولا يقدرون على شيء منه فان قيل كيف قيل اكتتبها فهي تملى عليه وانما يقال امليت عليه فهو يكتبها اجيب بوجهين احدهما اراد اكتتابها وطلبه فهي تملى عليه الثاني انها كتبت له وهو امي فهي تملى اى تلقى عليه من كتاب ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب وقرأ فهي قالون وابو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها . ثم امره الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى قُلْ اى دالا على بطلان ما قالوه ومهددا لهم أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ اى الغيب فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لانه اعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه اخبارا عن مغيبات مستقبلة واشياء مكنونة لا يعلمها الا عالم الاسرار فكيف تجعلونه اساطير الاولين مع علمكم ان ما تقولونه باطل وزور وكذلك باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما يبهتونه وهو يجازيكم على ما علم منكم وعلم منه فان قيل كيف يطابق هذا قوله تعالى إِنَّهُ كَانَ اى ازلا وابدا غَفُورًا رَحِيمًا اجيب بانه لما كان ما تقدمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة

عليه لانه لا يوصف بالرحمة والمغفرة الا القادر على العقوبة او هو تنبيه على انهم استوجبوا
بمكابرتهم هذه ان يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم لانه غفور رحيم يمهل
ولا يعاجل * الشبهة الثالثة قوله تعالى وَقَالُوا مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ اى ما لهذا الذى يزعم الرسالة وفيه
استهانة وتهكم وتصغير لشانه وتسميته بالرسول سخرية منهم كانهم قالوا ما لهذا الزاعم انه رسول
ونحوه قول فرعون انّ رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون اى ان اصح انه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا
يَأْكُلُ الطَّعَامَ اى كما ناكله وَيَمْشِي اى ويتردد فِي الْأَسْوَاقِ لطلب المعاش كما نمشى فلا يجوز ان يمتاز عنا
بالنبوة يعنون انه يجب ان يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب والتعيش وكذلك كانوا يقولون
له لست انت بملك لانك تاكل الطعام والملك لا ياكل ولان الملك لا يتسوق وانت تتسوق
وما قالوه فاسد لان اكله الطعام لكونه ادميا ومشيه فى الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته
فى التورية ولم يكن صخابا فى الاسواق وليس شئ من ذلك ينافى النبوة ولانه لم يدع انه ملك من الملوك
ثم نزلوا عن اقتراحهم ان يكون ملكا الى اقتراح ان يكون انسانا معه ملك حتى يساند ه فى الانذار والتخويف
فقالوا لَوْلَا اى هلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ اى يصدقه ويشهد له فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا اى داعيا ثم نزلوا ايضا
الى انه لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز فقالوا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ اى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه
فلا يحتاج الى المشى فى الاسواق لطلب المعاش ثم نزلوا فاقتنعوا بان يكون رجلا له بستان فقالوا
أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ اى بستان يَأْكُلُ مِنْهَا اى ان لم يلق اليه كنز فلا اقل ان يكون له بستان كالمياسير
فيتعيش بريعه وقرأ حمزة والكسائى بالنون ان ناكل نحن منها فيكون له مزية علينا بها والباقون بالياء
وقوله تعالى وَقَالَ الظَّالِمُونَ وضع فيه الظاهر موضع المضمر اذ الاصل وقالوا تسجيلا عليهم بالظلم فيما
قالوا إِنْ اى ما تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا اى مخدوعا مغلوبا على عقله وقيل مصروفا عن الحق ولما انهى
تعالى ما ذكر من اقوالهم الناشئة عن ضلالهم التفت سبحانه وتعالى الى رسوله صلی الله علیه وسلم
مسليا له بقوله تعالى انْظُرْ اى يا افضل الخلق كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ اى بالمسحور والمحتاج الى
ما ينفقه والى ملك يقوم معه بالامر فَضَلُّوا اى بذلك عن جميع طرق الهدى فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
اى فى الحال ولا فى المآل بسبب التهلك سَبِيلًا اى سلوك سبيل من السبل الموصلة الى ما يستحق ع
ان يقصد بل هم فى مجاهل موحشة وفيافى مهلكة * ولما اثبت انهم لا علم لهم ولا قدرة
ولا يمن ولا بركة اثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال الذى
يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء بقوله تعالى تَبَارَكَ اى ثبت ثباتا مقترنا
باليمن والبركة لا ثبات الا هو الَّذِي إِنْ شَاءَ فانه لا مكره له جَعَلَ لَكَ اى فى الدنيا
خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ اى من الذى قالوه على طريق التهكم من الكنز والبستان وقوله تعالى
جَنَّاتٍ بدل من خيرا ويجوز ان يكون منصوبا باضمار اعنى ثم وصفها بقوله تعالى تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ اى تكون ارضها عيونا نابعة اى فى اى موضع اريد منه اجراء نهر جرى فهى

لا تزال ريا تغنى صاحبها عن كل حاجة ولا تحوجه فى استمرارها الى سقى ويجعل لك قصورا ايضا وهى جمع قصر وهو المسكن الرفيع قال المفسرون القصور هى البيوت المشيدة والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا ويحتمل ان يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومنتزها ويجوز ان تكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل جنات فى الاخرة وقصورا فى الدنيا ولم يشأ الله سبحانه وتعالى ما اشار اليه فى هذه الاية الشريفة فى هذه الدنيا الفانية واخره الى الاخرة الباقية وقد عرض عليه سبحانه وتعالى ما شاء فى الدنيا فاباه روى انه عليه الصلوة والسلام قال عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يا رب ولكن اشبع يوما واجوع يوما او قال ثلاثا او نحو هذا فاذا جعت تضرعت اليك واذا شبعت حمدتك وشكرتك وعن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لسارت معى جبال مكة ذهبا جاءنى ملك فقال ان ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك ان شئت نبيا عبدا وان شئت نبيا ملكا فنظرت الى جبريل عليه السلام فاشار الى ان ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت وكان النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا ياكل متكئا ويقول اكل كما ياكل العبد واجلس كما يجلس العبد وعن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه فقال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استاذن ربه فى زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك ان يعطيك مفاتيح كل شئ لم يعطه احدا قبلك ولا يعطيه احدا بعدك من غير ان ينقصك مما لك شيئا فقال صلى الله عليه وسلم بل يجمعها لى فى الاخرة فنزل تبارك الذى ان شاء الاية وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر وشعبة برفع اللام من يجعل وفيه وجهان احدهما انه مستانف والثانى انه معطوف على جواب الشرط لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز فى جوابه الجزم والرفع كقوله ؎ وان اتاه خليل يوم مسئلة ✽ يقول لا غائب مالى ولا حرم ✽ والباقون بالجزم ويجوز فى يجعل لك اذا ادغمت ان تكون اللام فى تقدير الجزم والرفع ✽ ثم اضرب سبحانه وتعالى عن كلامهم فى حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى بل اى لا يظنوا انهم كذبوا بما جئت به لانهم لا يعتقدون فيك كذبا بل كذبوا بالساعة اى القيامة فقصرت انظارهم على الحطام الدنيوى وظنوا ان الكرامة انما هى بالمال فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فلا يتكلفون النظر والفكر ولهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل واعتدنا اى والحال انا اعتدنا اى هيانا بما لنا من العظمة لمن كذب من هؤلاء وغيرهم بالساعة سعيرا اى نارا شديدة الاتقاد بما اعظم الحريق فى قلوب من كذبوهم من الانبياء واتباعهم وعن الحسن ان السعير اسم من اسماء جهنم ✽ تنبيه ✽ احتج اهل السنة على ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى اعدت للمتقين وعلى ان النار وهى دار العقاب مخلوقة بهذه الاية اذا راتهم من مكان بعيد هى ابعد ما تكون رؤيتها منه وقال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة

روى انه صلى الله عليه وسلم قال من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا قالوا وهل
لها من عينين قال نعم الم تسمع قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد وقال البيضاوى تبعا للزمخشرى
اذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه الصلوة والسلام لا تراءى ناراهما اى لا تتقاربان بحيث تكون
احداهما بمرأى الاخرى على المجاز انتهى وهذا التأويل للمعتزلة بناء منهم على ان الرؤية
مشروطة بالحيوة بخلاف الاشاعرة فانهم يجوّزون رؤيتها حقيقة كتغيظها وزفيرها فى قوله تعالى
سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا اى غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب وَزَفِيرًا اى صوتا شديدا اذ لا امتناع
من انها تكون رائية مغتاظة زافرة واشار البيضاوى الى ذلك بعد ما ذكر بقوله هذا وان الحيوة
لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية امكن ان يخلق الله فيها حيوة فترى وتتغيظ وتزفر وقال الجلال
المحلى وسماع التغيظ رؤيته وعلمه انتهى قال عبد الله بن عمرو تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى
ملك مقرب ولا نبى مرسل الا خرّ لوجهه وقيل اذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار للانتقام
منهم فنسب اليها على حذف مضاف وَاِذَآ اُلْقُوْا اى طرحوا طرح اهانة مِنْهَا اى النار مَكَانًا ثم
وصفه تعالى بقوله تعالى ضَيِّقًا زيادة فى فظاعته قال ابن عباس يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح
مُّقَرَّنِيْنَ اى مصفدين زيادة قد قرنت ايديهم الى اعناقهم من الاغلال وقد قيل الكرب مع الضيق
كما ان الروح مع السعة ولذلك وصف الله تعالى الجنة بان عرضها السموات والارض وجاء فى الاحاديث
ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله تعالى على اهل النار انواع الضيق
والارهاق حيث القاهم فى مكان ضيق يتراصون فيه تراصا كما مرّ عن ابن عباس انه يضيق
عليهم كما يضيق الزج فى الرمح وهو منقول ايضا عن ابن عمرو وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك
فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط وهم مع ذلك الضيق
مسلسلون مقرنون فى السلاسل قرنت ايديهم الى اعناقهم ويقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة
فى ارجلهم + تنبيه + مكانا منصوب على الظرف ومنها فى محل نصب على الحال من مكانا لانه
فى الاصل صفة له ومقرنين حال من مفعول القوا وقرأ ابن كثير ضيقا بسكون الياء
والباقون بكسر الياء مشددة دَعَوْا هُنَالِكَ اى فى ذلك المكان الضيق البعيد
عن الرفق ثُبُوْرًا قال ابن عباس ويلا وقال الضحاك هلاكا فيقولون واثبوراه هذا حينك
وزمانك لانه لا منادم لهم غيره وليس بحضرة احد منهم سواه قال البغوى وفى الحديث ان اول
من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه
وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقال لهم لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ اى
اى ايها الكفار ثُبُوْرًا وَّاحِدًا لانكم لا تموتون اذا حلت بكم اسباب العذاب والهلاك
وَّادْعُوْا ثُبُوْرًا كَثِيْرًا اى هلاككم اكثر من ان تدعوا مرة واحدة او ادعوا ادعية كثيرة
وقال الكلبى نزل هذا كله فى ابى جهل والكفار الذين ذكروا امثال الشبه + ولما وصف تعالى

العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة بقوله تعالى قل اى لهؤلاء
البعداء والبغضاء أذلك اى المذكور من الوعيد وصفة النار خير أم جنة الخلد اى الاقامة الدائمة
التى وعد المتقون اى وعدها الله تعالى لهم فالراجع الى الموصوف وهو هاء وعدها محذوف
فان قيل كيف يقال العذاب خير ام جنة الخلد وهل يجوز ان يقول القائل السكر احلى ام الصبر
اجيب بانه يحسن فى معرض التقريع كما اذا اعطى السيد عبده مالا فتمرد وابى واستكبر فيضربه
ويقول له هذا خير ام ذلك قال ابو مسلم جنة الخلد هى التى لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء
كالشكر والشكور قال تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فان قيل الجنة اسم لدار الخلد فاى فائدة
فى قوله تعالى جنة الخلد اجيب بان الاضافة قد تكون للتبيين وقد تكون لبيان صفة الكمال
كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ وهذا من هذا البيان او للتمييز عن جنات الدنيا ثم حقق تعالى
امرها تاكيدا للبشارة بقوله كانت لهم جزاء اى ثوابا على اعمالهم بفضل الله تعالى وكرمه ومصيرا
اى مرجعا فان قيل ان الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال تعالى
كانت اجيب من وجهين الاول ان ما وعده الله تعالى فهو فى تحققه كالواقع الثانى انه كان
مكتوبا فى اللوح المحفوظ قبل ان يخلقهم الله تعالى بازمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم فان قيل
لم جمع تعالى بين الجزاء والمصير اجيب بان ذلك كقوله تعالى نعم الثواب وحسنت مرتفقا فمدح
الثواب ومكانه كما قال تعالى بئس الشراب وساءت مرتفقا فذم العقاب ومكانه لان النعيم لا يتم
للمتنعم الا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة والا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف
بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء. تنبيه. المتقى يشمل من اتقى الكفر
ان لم يتق المعاصى وان كان غيره اكمل. ثم ذكر تعالى تنعمهم فيها بعد ان ذكر نعيمهم بقوله تعالى
لهم فيها اى الجنة ما يشاؤن من كل ما تشتهيه انفسهم كما قال تعالى ولكم فيها ما تشتهى انفسكم
وفيها ما تشتهى الانفس فان قيل اهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية
لا بد وان يريدوها فاذا سألوها ربهم فان اعطاها لهم لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت
فى الدرجة وان لم يعطها لهم قدح ذلك فى قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن اجيب بان الله تعالى يزيل
هذا الخاطر عن قلوب اهل الجنة ويشتغلون بما هم فيه من اللذات عن الالتفات الى حال غيرهم
وقوله تعالى خالدين منصوب على الحال اما من فاعل يشاؤن واما من فاعل لهم لوقوعه خبرا والعائد على
ما محذوف اى لهم فيها الذى يشاؤنه حال كونهم خالدين وقوله تعالى كان على ربك اى وعدهم ما ذكر
وعدا يدل على ان الجنة حصلت لهم بحكم الوعد والتفضل لا بحكم الاستحقاق وقوله تعالى مسئولا اى
مطلوبا اختلف فى السائل فالاكثر على ان المؤمنين سألوا ربهم فى الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على
رسلك روى انه صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه
بها احدى ثلاث اما ان يعجل له دعوته واما ان يدخرها له فى الآخرة واما ان يصرف عنه من

السوء مثلها قالوا اذا نكثر قال الله تعالى اكثر وروى انه يدعى بالمؤمن يوم القيامة حتى
يوقفه الله تعالى بين يديه فيقول عبدى فيقول نعم يارب فيقول انى امرتك ان تدعونى ووعدتك
ان استجيب لك فهل كنت تدعونى اما انك لم تدعنى بدعوة الا استجبت لك اليس دعوتنى يوم
كذا وكذا لغم نزل بك ان افرج عنك ففرجت عنك فيقول نعم يارب فيقول انى عجلتها لك فى الدنيا
ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان افرج عنك فلم تر فرجا قال نعم يارب فيقول انى ادخرت لك بها
فى الجنة كذا وكذا ودعوتنى فى حاجة اقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها فيقول نعم يارب فيقول انى
عجلتها لك فى الدنيا ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة اقضيها لك فلم تر قضاءها فيقول نعم يارب
فيقول انى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة
دعا بها عبده المؤمن الا بين له اما ان يكون عجل له فى الدنيا واما ان يكون ادخر له فى الآخرة فيقول
المؤمن فى هذا المقام ياليته لم يكن عجل له شئ من دعائه وروى لا تعجلوا فى الدعاء فانه لا يهلك
مع الدعاء احد وروى ادعوا الله وانتم موقنون بالاجابة وروى يستجاب لاحدكم ما لم يعجل فيقول
دعوت فلم يستجب لى وروى لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم او قطيعة رحم ما لم يستعجل
قيل يارسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت فلم يستجب لى فيستحسر اى يمل عند ذلك
ويدع الدعاء فليدع الانسان وهو موقن بالاجابة وقال محمد بن كعب القرظى الطلب من الملائكة
للمؤمنين سألوا دبهم للمؤمنين بقولهم ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم وقيل ان المكلفين
سألوها بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعة الله كان ذلك قائما مقام
السؤال قال المتنبى ؎ وفى النفس حاجات وفيك فطانة + سكوتى كلام عندها وخطاب
+ ولما ذكر تعالى حالهم فى نفسهم اتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه بقوله تعالى
وَيَوْمَ اى واذكر لهم يوم يَحْشُرُهُمْ اى المشركين وقرأ ابن كثير وحفص بالياء والباقون
بالنون واختلف فى المراد بقوله تعالى وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ اى غيره فقال الاكثرون
من الملائكة والجن والمسيح وعزير وغيرهم وقال عكرمة والضحاك والكلبى من الاصنام فقيل
لهم كيف يخاطب الله تعالى الجماد بقوله تعالى فَيَقُولُ ءَاَنْتُمْ اَضْلَلْتُمْ عِبَادِىْ هٰٓؤُلَآءِ اى
اوقعتموهم فى الضلال بامركم اياهم بعبادتكم اَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيْلَ اى طريق الحق بانفسهم
فاجابوا بوجهين احدهما انه تعالى يخلق الحيوة فيها ويخاطبها ثانيهما ان يكون ذلك بالكلام
النفسانى لا بالقول اللسانى بل بلسان الحال كما ذكره بعضهم فى تسبيح الجماد وكلام الايدى
والارجل ويجوز ان يكون السؤال عاما لهم جميعا فان قيل كيف صح استعمال ما فى العقلاء
اجيب على الاول بانه اريد به الوصف كانه قيل ومعبوديهم الا ترى انك تقول اذا اردت السؤال
عن صفة زيد ما زيد تعنى اطويل ام قصير فقيه ام طبيب وقال تعالى والسماء وما بناها ولا انتم
عابدون ما اعبد واما على القول الثانى فواضح واما على القول الثالث فتغليب غير العاقل

لتعلمه عباده او تحقيرا فان قيل ما فائدة هذا السؤال مع ان الله تعالى كان عالما في الازل بحال
المسؤل عنه اجيب بان هذا سؤال تقريع للمشركين كما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت
للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله وقرأ ابن عامر فنقول بالنون والباقون بالياء وقرأ
أأنتم نافع وابن كثير بتسهيل الثانية وادخال الف بينهما وبين همزة الاستفهام وورش
وابن كثير بتسهيل الثانية ولا الف بينهما وبين الاولى ولورش وجه آخر وهو ابدال الثانية الفا وهشام
بتسهيل الثانية وتحقيقها مع الادخال والباقون بتحقيقهما وقرأ هؤلاء ام هم نافع وابن كثير
وابو عمرو في الوصل بابدال الهمزة من ام ياء خالصة والباقون بتحقيقها قالوا سبحانك اى تنزيها لك
عما لا يليق بك او تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة او انبياء معصومون فما ابعدهم عن الضلال
الذى هو مختص بابليس وجنوده او جمادات وهى لا تقدر على شئ او اشعارا بانهم الموسومون بتسبيحه
وتوحيده فكيف يليق بهم اضلال عبيده ما كان ينبغى اى يستقيم لنا ان نتخذ اى نتكلف
ان ناخذ باختيارنا بغير ارادة منك من دونك اى غيرك من اولياء للعصمة او لعدم القدرة فكيف
يستقيم لنا ان نامر بعبادتنا فان قيل ما فائدة انتم وهم وهلا قيل اضللتم عبادى هؤلاء ام ضلوا السبيل
اجيب بان السؤال ليس عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن متوليه
فلا بد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم انه المسؤل عنه + تنبيه + من اولياء مفعول اول ومن
زائدة لتاكيد النفي وما قبله المفعول الثاني وهو الصحيح كأنهم قالوا انا لم نضللهم ولم نحملهم على الضلال ومن
الاستدلال بقولهم ولكن متعتهم وآباءهم وهو ان ذكروا سببه اى انعمت عليهم وعلى آبائهم
من قبلهم بانواع النعم والصحة وطول العمر في الدنيا فجعلوا ذلك ذريعة الى ضلالهم عكس القضية
حتى نسوا الذكر اى تركوا الايمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه وكانوا اى في علمك بما قضيت
عليهم في الازل قوما بورا اى هلكى وهو مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع او جمع
بائر كعائذ وعوذ وقوله فقد كذبوكم فيه التفات الى العبدة بالاحتجاج والالزام على حذف القول
والمعنى فقد كذب المعبودون العابدين بما اى بسبب ما تقولون اى ايها العابدون من انهم
يستحقون العبادة وانهم يشفعون لكم وانهم اضلوكم ولما تسبب عن تخليهم عن عبدتهم انه لا نفع
في ايديهم ولا ضر قال تعالى فما تستطيعون اى المعبودون صرفا اى لشئ من الاشياء عن احد من الناس
لا انفسهم ولا غيرهم من عذاب ولا غيره بوجه حيلة ولا شفاعة ولا معاداة ولا نصرا اى منعا لكم من الله تعالى
ان اراد بكم سوءا وهذا نحو قوله تعالى لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا وقرأ حفص بالتاء على الخطاب
والباقون بالياء على الغيبة ومن يظلم اى بالشرك منكم اى ايها المكلفون نذقه اى بما لنا من العظمة
عذابا كبيرا اى شديدا في الدنيا بالقتل والاسر او ضرب الجزية وفي الآخرة بنار جهنم + وروى
الضحاك عن ابن عباس انه قال لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم
ما لهذا الرسول الى آخرها انزل الله تعالى وما ارسلنا قبلك اى يا اشرف الخلق احدا من

المرسلين الا وحالهم انهم ليأكلون الطعام كما تأكل ويأكل غيرك من الآدميين ويمشون
في الأسواق كما تفعل فهذه عادة مستمرة من الله تعالى في كل رسله وهم يعلمون ذلك بالسماع
من اخبارهم وهذا تأكيد من الله تعالى لانهم لا يكذبونه صلى الله عليه وسلم وقيل معنى الآية وما
ارسلنا قبلك من المرسلين الا قيل لهم مثل هذا انهم يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق كما قال
تعالى في موضع آخر ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك وجعلنا اي بالمطاع والمنوع بالناس
العظمة بعضكم اي ايها الناس لبعض فتنة اي بلية والمعنى انه تعالى ابتلى المرسلين بالمرسل اليهم
وبمناصبتهم والعداوة لهم واقاويلهم الخارجة عن حد الانصاف وجعل الغني فتنة للفقير والصحيح
فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع يقول الثاني من كل مالي لا اكون كالاول وقال ابن عباس
جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا الهدى
ام لا وقال مقاتل نزلت هذه الآية في ابي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل والنضر بن الحرث
وذلك انهم رأوا ابا ذر وابن مسعود وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة ومن دونهم قد اسلموا قبلهم
فقالوا انسلم ونكون مثل هؤلاء وقيل جعلناك فتنة لهم لانك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنات
لكان ميلهم اليك وطاعتهم لك للدنيا فتكون ممزوجة بالدنيا وانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك
خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي وقوله تعالى أتصبرون اي على ما تسمعون مما ابتليتم به استفهام
بمعنى الامر اي اصبروا وكان ربك اي المحسن اليك احسانا لم يحسنه الى احد سواك لا سيما بجعلك
نبيا عبدا بصيرا اي بكل شيء فهو عالم بالانسان قبل الامتحان لم يفده ذلك علما لم يكن عنده ولكن ليعلم
ذلك شهادة كما يعلم علم الغيب ولتقوم عليهم بذلك الحجة فلا يضيقن صدرك ولا يستخفنك اقاويلهم
فان صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين روي انه صلى الله عليه وسلم قال اذا نظر احدكم من فضل
عليه في المال والجسم فلينظر الى من هو دونه في المال والجسم وروي انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا
الى من هو فوقكم فهو اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم • الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا اي لا يخافون البعث قال الفراء الرجاء بمعنى الخوف
لغة تهامة ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا اي لا تخافون لله عظمة لولا اي هلا ولم لا انزل اي على
اي وجه كان من اي منزل كان علينا الملائكة كما انزلت عليه فيخبرونا وكانوا رسلا الينا او فتخبرنا بصدقه
او نرى ربنا بما له علينا من الاحسان بما اتاه من العظمة بالقوة بالاموال وغيرها فيأمرنا بما يريد
من غير حاجة الى واسطة قال الله ردا عليهم لقد استكبروا اي تعاظموا في شأن انفسهم اي بالغوا في الاستكبار
عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه
وعتوا اي تجاوزوا الحد في الظلم عتوا كبيرا اي بالغا اقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات الظاهرة
فاعرضوا عنها واقترحوا لانفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامح النفوس القدسية
واللام جواب قسم محذوف وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ تعجب الا ترى

ان المعنى ما اشد استكبارهم وما اكبر عتوهم + ثم بين تعالى لهم حالهم عند بعض ما طلبوا بقوله
تعالى يوم يرون الملائكة اى يوم القيامة وقال ابن عباس عند الموت لا بشرى اى من البشرى اصلا
يومئذ وقوله تعالى للمجرمين اى الكافرين اما ظاهر فى موضع ضمير واما لانه عام فقد تناولهم
بعمومه بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة + تنبيه + فى نصب يوم اوجه احدها انه منصوب
باضمار فعل يدل عليه قوله تعالى لا بشرى اى يمنعون البشرى يوم يرون الثانى باذكر فيكون
مفعولا به الثالث بيعذبون مقدرا ولا يجوز ان يعمل فيه نفس البشرى لوجهين احدهما
انها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله والثانى انها منفية بلا وما بعد لا لا يعمل فيما قبلها وقوله
ويقولون اى فى ذلك الوقت حجرا محجورا عطف على المدلول ويقول الكفرة لهم حينئذ هذه الكلمة
استعاذة وطلبا من الله تعالى ان يمنع لقاء الملائكة عنهم مع انهم كانوا يطلبون نزول الملائكة
ويقترحونه وهم اذا رأوهم عند الموت او يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون
وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو والشدة النازلة او هو ذلك حجرا محجورا يضعونها
موضع الاستعاذة فهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة قال سيبويه يقول الرجل للرجل تفعل كذا وكذا
فيقول حجرا وهى من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله ان يمنع المكروه عنه فلا يلحقه
وكان المعنى اسأل الله ان يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وقال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما ان
يدخل الجنة الا من قال لا اله الا الله وقيل اذا اخرج الكفار من قبورهم تقول الملائكة لهم حرام محرم عليكم
ان تكون لكم البشرى + ولما كان المريد لابطال شئ لشدة كراهته له لا يقنع فى ابطاله بغيره بل يأتيه بنفسه
فيبطله عبر تعالى بقوله وقدمنا اى وعمدنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة فى ذلك اليوم الذى
يرون فيه الملائكة سواء كان فى الدنيا ام فى الاخرة الى ما عملوا من عمل اى من مكارم الاخلاق من الجود
وصلة الرحم واغاثة الملهوف ونحو ذلك فجعلناه لكونه لم يؤسس على الايمان وانما هو للهوى والشيطان
هباء وهو ما يرى فى شعاع الشمس الداخل من كوة مما يشبه الغبار منثورا اى مفرقا اى مثله
فى عدم النفع اذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه فى الدنيا فتكون النار مستقرهم ومقيلهم
ولهذا بين حال اضدادهم وهم المؤمنون بقوله تعالى اصحاب الجنة يومئذ اى يوم اذ يرون
الملائكة خير مستقرا من الكفار واحسن مقيلا منهم والمستقر المكان الذى يكونون فيه
فى اكثر اوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون والمقيل المكان الذى يأوون اليه
للاسترواح الى ازواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن كما ان المترفين فى الدنيا يعيشون
على ذلك الترتيب روى انه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم فيقيل اهل الجنة فى الجنة واهل النار
فى النار قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل اهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار
وقال ابن عباس فى هذه الآية الحساب فى ذلك اليوم فى اوله وقال يوم القيامة يقصر على المؤمنين
حتى يكون قدر ما بين العصر الى غروب الشمس + تنبيه + فى افعل ههنا قولان احدهما انها على

بابها من التفضيل والمعنى ان المؤمنين خير في الآخرة مستقرا من مستقر الكفار واحسن مقيلا من مقيلهم ولو فرض ان يكون لهم ذلك او على انهم خير في الآخرة منهم في الدنيا والثاني ان يكون لمجرد الوصف من غير مفاصلة ومن ذلك المعنى قوله تعالى ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وازواجهم في ظلال على الارائك متكئون ذكروا في تفسير الشغل افتضاض الابكار وانما سمي مكان دعتهم واسترواحهم الحور مقيلا مع انه لا نوم في الجنة على طريق التشبيه + ثم عطف تعالى على قوله يوم يرون قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ اي كل سماء ﴿بِالْغَمَامِ﴾ اي كما تشقق الارض بالنبات فيخرج من خلال شقوقها وهو غيم ابيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الا لبني اسرائيل في تيههم + تنبيه + في هذه الباء ثلاثة اوجه احدها انها سببية اي بسبب الغمام يعني سبب طلوعه منها ونحوه السماء منفطر به كانه الذي تشقق به السماء الثاني انها للحال اي ملتبسة بالغمام الثالث انها بمعنى عن اي عن الغمام كقوله تعالى يوم تشقق الارض عنهم سراعا والباء وعن يتعاقبان تقول رميت عن القوس وبالقوس وقرأ ابو عمرو والكوفيون بتخفيف الشين والباقون بتشديدها ثم اشار تعالى الى جهل من طلب نزول الملائكة دفعة واحدة بقوله تعالى ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ اي بالتدريج بامرهم لا يمكنهم التخلف عنه بامر من الامور وغيره من الذين طلبوا ان يروهم في حال واحد ﴿تَنْزِيلًا﴾ في ايديهم صحائف الاعمال قال ابن عباس تشقق السماء الدنيا فينزل اهلها وهم اكثر ممن في الارض من الجن والانس ثم تنشق السماء الثانية فينزل اهلها وهم اكثر من اهل سماء الدنيا واهل الارض جنا وانسا ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة واهل كل سماء يزيدون على السماء التي قبلها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش فان قيل ثبت ان نسبة الارض الى سماء الدنيا كحلقة في فلاة فكيف تسع الارض هؤلاء اجاب بعض المفسرين بان الملائكة تكون في الغمام والغمام يكون مقر الملائكة ويجوز ان الله تعالى يوسع الارض حتى تسع الجميع وقرأ ابن كثير بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الزاي ورفع اللام ونصب الملائكة والباقون بنون واحدة والزاي مشددة ونصب اللام ورفع الملائكة ثم بين تعالى ان ذلك اليوم لا يقضي فيه غيره بقوله تعالى ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ اي اذ تشقق السماء بالغمام ثم وصف الملك بقوله تعالى ﴿الْحَقُّ﴾ اي الثابت ثباتا لا يمكن زواله ثم اخبر عنه بقوله تعالى ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ اي العام الرحمة في الدارين ومن عموم رحمته وحقية ملكه ان يسر قلوب اهل وده بتعذيب اعدائه الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل احد الجنة فان قيل مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة في قوله تعالى يومئذ اجيب بان في ذلك اليوم لا مالك له سواه لا في الصورة ولا في المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام ﴿وَكَانَ﴾ اي ذلك اليوم الذي تظهر فيه الملائكة الذي طلب الكفار رؤيتهم له ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ اي شديد العسر والاستعار + تنبيه + هذا الخطاب يدل على انه لا يكون على المؤمنين عسيرا

قوله وغيره الظاهر جره عطفا على من طلب باعتبار معناه اه

جاء فی الحدیث انه یهون یوم القیامة علی المؤمن حتی یکون علیه اخف من صلوة مکتوبة صلاها فی الدنیا
وقوله تعالی ویوم یعض الظالم ای المشرك لفرط تاسفه لما یری فیه من الاهوال معمول لمحذوف او
معطوف علی یوم تشقق وال فی الظالم تحتمل العهد والجنس لکن قال ابن عباس اراد بالظالم عقبة بن
ابی معیط بن امیة بن عبد شمس کان لا یقدم من سفر الا صنع طعاما ودعا الیه جیرانه واشراف
قومه وکان یکثر مجالسة النبی صلی الله علیه وسلم ویعجبه حدیثه فقدم ذات یوم من سفر فصنع طعاما
ودعا الناس ودعا النبی صلی الله علیه وسلم فلما قرب الطعام قال النبی صلی الله علیه وسلم ما انا باکل
طعامك حتی تشهد ان لا اله الا الله وانی رسول الله فقال عقبة اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان
محمدا رسول الله فاکل صلی الله علیه وسلم من طعامه وکان عقبة صدیقا لابی بن خلف فلما اتی
ابی بن خلف قال له یا عقبة صبأت فقال لا والله ما صبأت ولکن دخل علی رجل فابی ان یاکل طعامی
الا ان اشهد له فاستحییت ان یخرج من بیتی ولم یطعم فشهدت له فطعم والشهادة لیست فی نفسی فقال
ما انا بالذی ارضی منك ابدا الا ان تاتیه وتبصق فی وجهه وتطا قفاه وتلطم وجهه وعینه فوجده ساجدا
فی دار الندوة ففعل ذلك عقبة فقال النبی صلی الله علیه وسلم لا القاك خارجا من مکة الا علوت راسك
بالسیف فقتل عقبة یوم بدر صبرا امر علیا رضی الله عنه فقتله وقیل قتله عاصم بن ثابت بن افلح الانصاری
واما ابی بن خلف فقتله النبی صلی الله علیه وسلم بیده یوم احد طعنه فی المبارزة فرجع الی مکة ومات
قال الضحاك لما بصق عقبة فی وجه النبی صلی الله علیه وسلم عاد بصاقه فی وجهه فاحترق خداه فکان
اثر ذلك فیه حتی مات وقال الشعبی کان عقبة خلیل امیة فاسلم عقبة فقال امیة وجهی من وجهك حرام
ان بایعت محمدا فکفر وارتد فانزل الله تعالی ویوم یعض الظالم ای عقبة علی یدیه قال الضحاك یاکل یدیه
الی المرفق ثم تنبت ولا یزال هکذا کلما اکلها نبتت وقال المحققون هذه اللفظة للتحسر والغم یقال عض انامله
وعض علی یدیه وهو لا یشعر حال کونه مع هذا الفعل یقول ای یجدد فی کل لحظة قوله یلیتنی اتخذت ای
ارغمت نفسی وکلفتها ان اخذ فی الدنیا مع الرسول ای محمد صلی الله علیه وسلم سبیلا ای طریقا
الی الهدی ولما تاسف علی مجانبة الرسول ندم علی مصادقة غیره بقوله یویلتی ای یا هلاکی الذی
لیس لی منادم غیره لانه لیس یحضرنی سواه لیتنی لم اتخذ فلانا ای ابیا خلیلا ای صدیقا اوافقه
فی اعماله لما علمت من سوء عاقبتها فکنی عن اسمه وان ارید به الجنس فکل من اتخذ من المضلین خلیلا
کان لخلیله اسم علم علیه لا محالة فجعله کنایة عنه وقرأ ابو عمرو بفتح الیاء والباقون بالسکون واظهر الذال
عند التاء ابن کثیر وحفص وادغمها الباقون ثم استانف قوله الذی یتوقع کل سامع ان یقوله لقد ای
والله لقد اضلنی عن الذکر ای صدنی عن طریق القران الذی لا ذکر فی الحقیقة غیره وصرفنی عنه والجملة
فی موضع العلة لما قبلها بعد اذ جاءنی ای وتمکنت منه ما لم یرد فی من الایمان به وقرأ نافع وابن ذکوان
وعاصم باظهار الذال والباقون بالادغام وقوله تعالی وکان الشیطان اشارة الی خلیله سماه شیطانا لانه
اضله کما یضل الشیطان او الی کل من کان سبب الضلال من شیاطین الجن والانس للانسان خذولا ای

شديد الحذق لان يورده ثم يسلمه الى اكره ما يكون لا ينصره ولو اراد ما استطاع بل هو في شيء من ذلك لان عليه اثمه في نفسه ومثل اثم من اضله * تنبيه * حكم هذه الآية عام في كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما ان يحذيك واما ان تبتاع منه واما ان تجد ريحا طيبة ونافخ الكير اما ان يحرق ثيابك واما ان تجد ريحا خبيثة وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل وقال صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا ياكل طعامك الا تقي * ولما ذكر تعالى اقوال الكفار ذكر قول رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ اي ايها المحسن الي بانواع الاحسان وعبر باداة البعد هضما لنفسه ومبالغة في التضرع اِنَّ قَوْمِي اي قريشا الذين لهم قوة ومنعة اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ اي المقتضي للاجماع عليه والمبادرة اليه مَهْجُورًا اي متروكا بعيدا لم يؤمنوا به ولم يقبلوه واعرضوا عن استماعه * تنبيه * اشار بصيغة الافتعال الى انهم عالجوا انفسهم في تركه علاجا كثيرا لما يرون من حسن نظمه ويذوقون من لذيذ معانيه ورائق اساليبه ولطيف عبائره وبديع غرائبه واكثر المفسرين على ان هذا القول وقع من النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابو مسلم بل المراد انه يقوله في الآخرة كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد الآية والاول اولى لان قوله تعالى وَكَذَلِكَ اي كما جعلنا لك عدوا من مشركي قومك جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ من الانبياء قبلك رفعة لدرجاتهم عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ اي من المشركين تسلية له صلى الله عليه وسلم كانه تعالى يقول له فاصبر كما صبروا ولا يكون ذلك الا اذا وقع القول منه وَكَفَى بِرَبِّكَ اي المحسن اليك هَادِيًا اي يهدي بك من قضى بسعادته وَنَصِيرًا اي ينصرك على من حكم بشقاوته * تنبيه * احتج اهل السنة بهذه الآية على انه تعالى خلق الخير والشر لان قوله تعالى لكل نبي عدوا يدل على ان تلك العداوة من جعل الله تعالى وتلك العداوة كفر فان قيل قوله تعالى يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا كقول نوح عليه السلام رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا فكما ان المقصود من هذا انزال العذاب فكذلك ما هنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين اجيب بان نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم واما النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر هذا لم يدع عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا كان ذلك كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فافترقا * الشبهة الخامسة لمنكري النبوة ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا اي الذين غطوا عداوة وحسدا ما تشهد عقولهم بصحته من ان القرآن كلام الله تعالى لاعجازه لهم مفرقا فضلا عن كونه مجتمعا لَوْلَا اي هلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ اي انزل كخبر بمعنى اخبر لئلا يناقض قولهم جُمْلَةً واكدوا بقولهم وَاحِدَةً اي من اوله الى آخره كما انزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود ليتحقق انه من عند الله تعالى ويزول عنا ما نتوهمه من انه الذي يرتبه قليلا قليلا وهذا

الاعتراض فى غاية السقوط لان الاعجاز لا يختلف بنزوله جملة او متفرقا مع ان للتفريق فوائد منها ما اشار اليه بقوله تعالى كذلك اى انزلناه شيئا فشيئا على هذا الوجه العظيم الذى انكروه لنثبت اى نقوى به فؤادك اى قلبك فتعيه وتحفظه لان المتلقى انما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا فشيئا وجزءا عقب جزء ولو القى عليه جملة واحدة لتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله داود وموسى وعيسى عليهم السلام حيث كان اميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فانزله الله عليه منجما فى عشرين سنة وقيل فى ثلاث وعشرين سنة وايضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولان بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك الا فيما انزل مفرقا فان قيل ذا فى كذلك يجب ان يكون اشارة الى شئ تقدمه والذى تقدم هو انزاله جملة فكيف فسر كذلك بانزلناه مفرقا اجيب بان الاشارة الى الانزال مفرقا لا الى جملة والدليل على فساد هذا الاعتراض ايضا انهم عجزوا عن ان يأتوا بنجم واحد من نجومه وتحدوا بسورة واحدة من اقصر السور فابرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على انفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا الى المحاربة ثم قالوا هلا نزل جملة واحدة كانهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته وقوله تعالى ورتلناه ترتيلا معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك كانه قال تعالى كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلا ومعنى ترتيله قال ابن عباس بيناه بيانا والترتيل التبيين فى تؤدة وتثبت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد بعضه فى اثر بعض وقال الحسن تفريقا آية بعد آية ووقعة عقب وقعة ويجوز ان يكون المعنى وامرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا اقرأه بترتل وتثبت ومنه حديث عائشة رضى الله تعالى عنها فى صفة قراءته لا كسردكم هذا لو اراد السامع ان يعد حروفه لعدها وقيل هو ان نزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل فى مدة متباعدة وهى عشرون سنة ولم نفرقه فى مدة متقاربة + ولما كان النقد يرد ببطل ما اتوا به من هذا الاعتراض عطف عليه ولا يأتونك اى يا اشرف الخلق اى المشركون بمثل اى باعتراض فى ابطال امرك يخيلون به لعقول الضعفاء يجتهدون فى تنميقه وتحسينه وتدقيقه حتى يصير عندهم فى غاية الحسن والرشاقة لفظا ومعنى الا جئناك فى جوابه بالحق اى الذى لا محيد عنه فيزهق ما اتوا به لبطلانه فسمى ما يوردون من الشبه مثلا وسمى ما يدفع به الشبه حقا واحسن اى من مثلهم تفسيرا اى بيانا وتفصيلا + ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا او لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو ان يقرن بك ملك ينذر معك او يلقى اليك كنز او تكون لك جنة او ينزل عليك القرآن جملة واحدة الا اعطيناك نحن من الاحوال ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا ان نعطاه وما هو احسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته + ثم بين تعالى حال هؤلاء المعاندين فى الآخرة بقوله تعالى الذين اى هم الذين يحشرون اى يجمعون قهرا ماشين مقلوبين على وجوههم

مسحوبين الى جهنم اى كما انهم لم ينظروا فى الدنيا بعين الانصاف فان الآخرة مرآة الدنيا فمهما
عمل هنا رآه هناك كما ان الدنيا مزرعة الآخرة مهما عمل فيها جنى ثمره هناك روى البخارى
ان رجلا قال يا نبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال الذى امشاه على الرجلين
فى الدنيا قادر ان يمشيه على وجهه يوم القيامة وروى البيهقى يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة
اصناف صنف على الدواب وصنف على الوجوه وصنف على الاقدام + ولما وصف الله تعالى المتعنتين
فى امر القرآن بهذا الوصف استانف الاخبار عنهم بقوله تعالى اُولٰئِكَ اى البعداء البغضاء شَرٌّ
اى شر الخلق مَكَانًا هو جهنم وَاَضَلُّ سَبِيْلًا اى اخطأ طريقا من غيرهم وهو كفرهم + ولما قال تعالى ع
وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وذكر ذلك فى معرض التسلية له صلى الله عليه وسلم
ذكر قصص جماعة من الانبياء وعرفه تكذيب اممهم زيادة فى تسليته + القصة الاولى قصة موسى
عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى وَلَقَدْ اٰتَيْنَا اى بما لنا من العظمة مُوْسَى الْكِتٰبَ اى التوراة
وَجَعَلْنَا مَعَهٗٓ اَخَاهُ هٰرُوْنَ وَزِيْرًا اى معينا فان قيل كونه وزيرا كالمنافى لكونه شريكا له فى النبوة
والرسالة اجيب بانه لا منافاة بين النبوة والرسالة والوزارة فقد كان يبعث فى الزمن الواحد
انبياء متعددون ويؤمرون بان يوازر بعضهم بعضا + تنبيه + هرون بدل او بيان او منصوب
على القطع ووزيرا مفعول ثان وقيل حال والمفعول الثانى معه ويدل على رسالة هرون عليه السلام
قوله تعالى فَقُلْنَا اذْهَبَا اِلَى الْقَوْمِ اى الذين فيهم قوة وقدرة على ما يحاولونه وهم القبط فرعون
وقومه الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِاٰيٰتِنَا فذهبا اليهم بالرسالة فكذبوهما فَدَمَّرْنٰهُمْ تَدْمِيْرًا اى اهلكناهم
اهلاكا اى فانت يا محمد لست اول من كذب من الرسل فلك اسوة بمن قبلك فان قيل الفاء للتعقيب
والاهلاك لم يحصل عقب بعثة موسى وهرون اليهم بل بعده بمدة مديدة اجيب بان فاء التعقيب
محمولة هنا على الحكم باهلاكهم لا على الوقوع او على انه على ارادة اختصار القصة فاقتصر على حاشيتيها
اى اولها وآخرها لانهما المقصودان من القصة بطولها اعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق
التدمير بتكذيبهم + تنبيه + قوله تعالى كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على الآيات الالهية
فهو ظاهر وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وان كان للماضى فالمراد به المستقبل + القصة الثانية
قصة نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى وَقَوْمَ اى ودمرنا قوم نُوْحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ كانهم
كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا او كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع بالقوة لان المعجزات
هى البرهان على صدقهم وهى متساوية الاقدام فى كونها خوارق لا يقدر على معارضتها فالتكذيب لشئ منها
تكذيب للجميع او لم يروا بعثة الرسل اصلا كالبراهمة وهم قوم يمنعون بعثة الرسل نسبوا الى رجل
يقال له براهام قد مهد لهم ذلك وقرره فى عقولهم ولانهم علقوا تكذيبهم بانه من البشر فلزمهم تكذيب
كل رسول من البشر + ثم بين تعالى تدميرهم بقوله تعالى اَغْرَقْنٰهُمْ قال الكلبى امطرنا عليهم السماء اربعين
يوما واخرج ماء الارض ايضا فى تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا وَجَعَلْنٰهُمْ اى

قوم نوح في ذلك للناس آية اي لمن بعدهم عبرة ليعتبر كل من سلك طريقهم واعتدنا اي
هيأنا في الآخرة للظالمين اي للكافرين وكان الاصل لهم ولكنه تعالى اظهر تعميما وتعليقا للحكم
بالوصف عذابا أليما اي مؤلما سوى ما يحل بهم في الدنيا. القصة الثالثة قصة هود عليه السلام
المذكورة في قوله تعالى وعادا اي ودمرنا عادا قوم هود بالريح. القصة الرابعة قصة صالح عليه
السلام المذكورة في قوله وثمودا اي ودمرنا ثمودا قوم صالح بالصيحة. القصة الخامسة
المذكورة في قوله تعالى وأصحاب الرس اي البئر التي هي غير مطوية اي مبنية قال ابن جرير والرس
في كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر اي ودمرناهم بالخسف واختلف في نبيهم فقيل شعيب
وقيل غيره كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم فهلكوا جميعا وقال الكلبي الرس بئر بفلج اليمامة
قتلوا نبيهم فاهلكهم الله تعالى وفلج بفتح الفاء واللام والجيم قرية عظيمة بناحية اليمن من مساكن
عاد وبسكون اللام واد قريب من البصرة وقيل الرس الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار
وقيل اصحاب حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي اعظم ما يكون من الطير سميت بذلك
لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ قيل هو بفاء وفوقية فخاء معجمة او
وبياء تحتية وجيم وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان اعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة
فاصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فاهلكوا وقرونا اي ودمرنا قرونا بين ذلك اي الامر العظيم
المذكور وهو بين كل اثنين من هذه الامم وقد يذكر الذاكر اشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب
الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب او المعدود ثم قال الله
تعالى كثيرا وناهيك بما يقول فيه سبحانه وتعالى انه كثير واسند البغوي في تفسيره وسطا في البق
عن ابي سعيد الخدري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة العصر فما ترك شيئا
الى يوم القيامة الا ذكره في مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل واطراف الحيطان
قال انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقي من يومكم هذا الا وان هذه الامة توفي سبعين امة
هي اخرها واكرمها على الله عز وجل ثم انه تعالى قال تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتاسية وبيانا للشيء
بالعقوبة امته وكلا اي من هذه الامم ضربنا اي بينا الناس العظيمة له الامثال حتى وضح له
السبيل وقام من غير شبهة الدليل وكلا تبرنا تتبيرا اي اهلكنا اهلاكا وقال الاخفش كسرنا تكسيرا
وقال الزجاج كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ولقد أتوا اي هؤلاء الذين يدعون من قومك
على القرية التي امطرت اي وقع امطارها ممن لا يقدر على الامطار سواه بالحجارة ولذا قال تعالى
مطر السوء مصدر ساء وهي قرى قوم لوط قال البغوي كانت خمس قرى فاهلك الله تعالى
اربعا منها لعملهم الفاحشة ونجت واحدة منهم وهي صغر وكان اهلها لا يعملون ذلك العمل
الخبيث فان قيل لم عبر تعالى بالقرية وهي قرى أجيب بانه تعالى قال ذلك تحقيرا لشانها في جنب
قدرته تعالى واهانة لمن يريد عذابه ولانهم كلهم على الفاحشة جمعهم حتى كانوا كانهم شيء واحد

وقوله تعالى أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون أي لا يخافون نشورا أي بعثا بعد الموت
لأنه استقر في أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة واستمروا عليه قرنا بعد قرن حتى تمكن
منهم ذلك تمكينا لا ينفع معه الاعتبار إلا من شاء الله وإذا رأوك أي مع ما يعلمون من صدق
حديثك وكرم أفعالك ولو لم تأتهم بمعجزة فكيف وقد أتيتهم بما بهر العقول إن أي ما يتخذونك
إلا هزوا أي مهزوا بك وعبر تعالى بالمصدر إشارة إلى مبالغتهم في الاستهزاء مع شدة بعده صلى الله
عليه وسلم عن ذلك يقولون أهذا الذي بعث الله رسولا أي في دعواه محتقرين له أن تأتيه الرسالة
وقولهم إن مخففة من الثقيلة أي إنه كاد ليضلنا أي يصرفنا عن آلهتنا أي عن عبادتها بفرط
اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يورد مما يسبق إلى الذهن أنها حجج ومعجزات لولا أن
صبرنا أي بما لنا من الاجتماع والتعاضد عليها أي على التمسك بعبادتها قال الله تعالى
وسوف يعلمون أي في حال لا ينفعهم فيه العمل ولا العلم وإن طالت مدة الإمهال في التمكين
حين يرون العذاب عيانا في الآخرة من أضل سبيلا أي أخطأ طريقا أهم أم المؤمنون * ولما
كان صلى الله عليه وسلم حريصا على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم سلاه تعالى بقوله
تعالى معجبا من حالهم أرأيت أي أخبرني من اتخذ إلهه هواه أي أطاعه وبنى عليه دينه
لا يسمع حجة ولا ينظر دليلا فإن قيل لم أخر هواه والأصل قولك اتخذ الهوى إلها أجيب بأنه ما هو إلا
تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية كما تقول علمت منطلقا زيدا لفضل عنايتك بالمنطلق ولما كان
لا يقدر على صرف الهوى إلا الله تعالى تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله تعالى أفأنت تكون
عليه وكيلا أي حافظا تحفظه من اتباع هواه لا قدرة لك على ذلك أم تحسب أن أكثرهم أي هؤلاء
المدعوين يسمعون أي سماع من ينزجر ولو كان غير عاقل كالبهائم أو يعقلون أي كالبشر
ما يرون وإن لم يكن لهم سمع حتى تطمع في رجوعهم باختيارهم من غير قسر فإن قيل إنه تعالى لما نفى عنهم
السمع والعقل فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث إليهم الرسول فإن من شرط التكليف
العقل أجيب بأنه ليس المراد أنهم لا يعقلون شيئا بل المراد أنهم لا ينتفعون بذلك العقل فهو كقول الرجل
لغيره إذا لم يفهم إنما أنت أعمى وأصم فإن قيل لم خص الأكثر بذلك دون الكل أجيب بأنه كان منهم
من آمن ومنهم من عقل الحق فكابر استكبارا وخوفا على الرياسة ولما كان هذا الاستفهام مفيدا
للنفي استأنف ما أفهمه بقوله تعالى إن أي ما هم إلا كالأنعام أي في عدم انتفاعهم بقرع
الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات بل هم أضل أي منها
سبيلا لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها
وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه
إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون
العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي

ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلائل التوحيد وبين فساد طريقهم ذكر أنواعاً من الدلائل
على وجود الصانع أولها الاستدلال بالنظر إلى حال الظل مخاطباً لأشرف المخلصين الناظرين
هذا النظر جاعلاً أهل ودّه على مثل ذلك بقوله تعالى ألم تر أي تنظر إلى ربك أي إلى صنعه وقدرته
كيف مدّ الظل وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدوداً لأنه ظل لا شمس معه كما قال
تعالى في ظل الجنة وظل ممدود إذ لم يكن معه شمس وإن كان بينهما فرق وهو الليل لأن ظل الأرض
الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس عما قابل قرصها من الأرض حتى
امتد بسائطه وضرب فسطاطه كما تحجب ظل ضلالهم أنوار عقولهم وغفلة طباعهم نفوذ أسماعهم
ولو شاء لجعله أي الظل ساكناً أي دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهبه الشمس لأنها أصل كل مظل
من جبل وبناء وشجر فيبقى منبسطاً فلم ينتفع به أحد سمى انبساط الظل وامتداده تحركاً منه
وعدم ذلك سكوناً لكنه تعالى لم يشأ بل جعله متحركاً كما يسوق الشمس له وقال أبو عبيدة
الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفيء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال سمي فيئاً لأنه فاء من
جانب المشرق إلى جانب المغرب ثم جعلنا الشمس عليه أي الظل دليلاً أي أن الناس يستدلون
بالشمس وأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتاً في مكان أو زائلاً ومتسعاً أو متقلصاً
فلو لم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والأشياء تعرف
بأضدادها ثم قبضناه أي الظل إلينا أي إلى الجهة التي أردنا لا يقدر أحد غيرنا أن يحوله إلى
جهة غيرها والقبض جمع المنبسط من الشيء ومعناه أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس
فإذا طلعت قبض الله الظل قبضاً يسيراً أي على مهل وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء
من المنافع ما لا يعد ولا يحصى لو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً
وقيل المراد من قبضها يسيراً قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الظل
وقوله تعالى يسيراً كقوله تعالى حشر علينا يسير فإن قيل ثم في هذين الموضعين كيف موقعها أجيب
بأن موقعها بيان تفاضل الأمور الثلاثة كأن الثاني أعظم من الأول والثالث أعظم منهما تشبيهاً
لتباعد ما بينها في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت ولما تضمنت هذه الآية الليل والنهار وهو
النوع الثاني قال تعالى مصرحاً بهما وهو أي ربك المحسن إليك وحده الذي جعل دليله على الحق
وإظهار النعمة على الخلق لكم الليل أي الذي تكامل به مد الظل لباساً أي ساتراً للأشياء شبه
ظلامه باللباس في ستره والنوم سباتاً أي راحة للأبدان بقطع المشاغل وهو عبارة عن كونه
موتاً أصغر طاوياً لما كان من الإحساس قاطعاً لما كان من الشعور والتقلب فيه دلائل لأهل البصائر
قال البغوي وغيره وأصل السبت القطع وفي جعله تعالى كذلك من الفوائد الدينية والدنيوية
ما لا يعد ولا يحصى وكذا في قوله تعالى وجعل أي وحده النهار نشوراً أي منشوراً فيه
لابتغاء الرزق وغيره وفي ذلك إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذجان للموت والنشور يحكى

ان لقمان قال لابنه يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر ثم ذكر النوع الثالث بقوله تعالى
وَهُوَ اي وحده الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ وقرأه ابن كثير بالافراد لارادة الجنس وقرأه الباقون بالجمع
لكونها تارة صبا وتارة دبورا وتارة شمالا وتارة جنوبا وغير ذلك ويسن الدعاء عند هبوب
الريح ويكره سبها لخبر الريح من روح الله تاتي بالرحمة وتاتي بالعذاب فاذا رايتموها فلا تسبوها
واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه ابو داود وغيره باسناد حسن وقوله تعالى نُشُرًا
قرأه نافع وابن كثير وابو عمرو بضم النون والشين اي ناشرات للسحاب وقرأه ابن عامر بضم النون وسكون
الشين على التخفيف وقرأه عاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين جمع بشير بمعنى مبشر
وقرأه حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين على انه مصدر وصف به بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
اي قدام المطر ولما كان الماء مسببا عما تحمله الريح من السحاب اتبعه بقوله تعالى وَأَنْزَلْنَا اي
بما لنا من العظمة مِنَ السَّمَاءِ اي من السحاب او الجرم المعهود مَاءً ثم ابدل منه بيانا للنعمة به
فقال تعالى طَهُورًا اي طاهرا في نفسه مطهرا لغيره كما قال تعالى في اية اخرى ليطهركم به فهو اسم
لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به وكالسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم لما يفطر به قال صلى الله
عليه وسلم في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته اراد به المطهر فالماء المطهر لانه يطهر الانسان من
الحدث والخبث وذهب بعض الائمة الى ان الطهور هو الطاهر حتى جوز ازالة النجاسة
بالمائعات الطاهرة مثل الخل ورد بانه لو جاز ازالة النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب بعضهم
الى ان الطهور ما يتكرر به التطهير كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر والشكور اسم لمن يتكرر منه
الشكر حتى جوز الوضوء بالماء الذي يتوضأ به مرة بعد مرة ورد بان فعولا ياتي اسما للآلة كسحور لما
يتسحر به كما مر فيجوز ان يكون طهور كذلك ولو سلم اقتضاؤه التكرر فالمراد جمعا بين الادلة فان الصحابة
رضي الله عنهم لم يجمعوا الماء في اسفارهم القليلة الماء بل عدلوا عنه الى التيمم ثبوت ذلك لجنس الماء
او في المحل الذي كان يمر عليه فانه يطهر كل جزء منه لِنُحْيِيَ بِهِ اي بالماء بَلْدَةً مَيْتًا اي بالنبات
وذكر ميتا باعتبار المكان وَنُسْقِيَهُ اي بالماء وهو من اسقاه مزيد سقاه وهما لغتان قال
ابن القطاع سقيتك شرابا واسقيتك والله تعالى اسقى عباده وارضه مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا اي ابلا وبقرا
وغنما وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا جمع انسان واصله اناسين فابدلت النون ياء وادغمت فيها الياء او جمع انسي
وقدم تعالى النبات لان به حياة الانعام والانعام على الانسان لان بها كمال حياته فان قيل لم خص
الانعام من بين ما خلق من الحيوان اجيب بان الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب
بخلاف الانعام ولانها قنية الاناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي انعامهم كالانعام
بسقيهم فان قيل لم نكر الانعام والاناسي ووصفها بالكثرة اجيب بان جل الناس منيخون بالقرب من الاودية
والانهار ومنابع الماء فبهم غنية عن سقي السماء واعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشون الا بما ينزل الله من
رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله تعالى لنحيي به بلدة ميتا يريد به بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان

الماء واختلف في عود الهاء في قوله تعالى وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ على ثلاثة أوجه أولها قال
الجمهور انها ترجع الى المطر اى صرفنا نزول الماء من وابل وطل وغير ذلك مرة ببلدة ومرة ببلدة
اخرى قال ابن عباس ما عام بامطر من عام آخر ولكن الله تعالى يصرفه في الارض ثم قرأ هذه الآية وهذا كما
روى مرفوعا ما من ساعة من ليل او نهار الا والسماء تمطر فيها يصرفه الله تعالى حيث يشاء وروى
عن ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بامطر من اخرى ولكن الله تعالى قسم هذه الارزاق فجعلها
في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم واذا عمل قوم بالمعاصي
حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافي والبحار وروى ان الملائكة
يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لانه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد ثانيها قال ابو مسلم
الضمير راجع الى المطر والسحاب والاظلال وسائر ما ذكره الله من الادلة ثالثها صرفنا هذا القول بين
الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي انزلت على الرسل عليهم الصلوة والسلام وهو ذكر انشاء
السحاب وانزال المطر لِيَذَّكَّرُوا اى ليتفكروا ويعلموا كمال القدرة وحق النعمة ويقوموا بشكره تنبيه
اصل يذكروا يتذكروا ادغمت التاء في الذال وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال وضم الكاف
مخففة والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين فَأَبَىٰٓ اى لم يرد أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ اى بسبب ما [illegible]
إِلَّا كُفُورًا اى جحودا للنعمة وقلة الاكتراث بها وكفرانهم هو انهم اذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وهو بفتح
النون وهمزة آخره وقت النجم الغارب على عادة العرب في اضافة المطر الى الانواء [illegible] ان يقول ذلك
لايهامه ان النوء فاعل المطر حقيقة فان اعتقد انه الفاعل له حقيقة كفر [illegible] زيد بن خالد الجهني
قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوة الصبح بالحديبية في اثر سماء كانت من الليل فلما
انصرف اقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة قالوا الله ورسوله اعلم قال قال اصبح
من عبادي مؤمن بي وكافر فاما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب
واما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب واما تعليق الحكم بالباء
او قال مطرنا في نوء كذا لم يكره ونقل الشافعي عن بعض الصحابة انه كان يقول عند المطر مطرنا بنوء الفتح ثم
يقرأ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا اى بما لنا من العظمة [illegible]
فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا اى رسولا ينذرهم من البشر او الملائكة او غيرهم كما قسمنا المطر عليها ولكنا قصرنا الامر
عليك وعظمناك به واجللناك وفضلناك على سائر الرسل فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ فيما قصدوا من
التقصير عن الدعاء به مما يريدونه من المقترحات او يخطرون لك من المداهنة او من القلق
من صادع الانذار ويخيلون لك انك لو قللت منه رجوا ان يوافقوك وقابل ذلك بالتشدد والتصبر
وَجَٰهِدْهُم اى بالدعاء به اى القرآن الذي تقدم التحدث عنه في قوله تعالى ولقد صرفناه او بترك
طاعتهم المدلول عليه بقوله تعالى فلا تطع او بالسيف والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد
بعد الهجرة بزمان جِهَادًا كَبِيرًا اى جامعا لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة لان في ذلك اقبال كثير

من الناس اليك واجتماعهم عليك فيقوى امرك ويعظم خطبك وتضعف شوكتهم وتنكسر
سورتهم فان مجاهدة السفهاء بالحجج اكبر من مجاهدة الاعداء بالسيف ثم ذكر النوع الرابع بقوله تعالى
وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ اى الماءين الواسعين الكبيرين بان خلاهما متجاورين متلاصقين
وهو بقدرته تعالى يفصل بينهما ويمنعهما التمازج هَٰذَا عَذْبٌ اى حلو سائغ فُرَاتٌ اى شديد
العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب الى الحلاوة ولا فرق بين ما كان منه على وجه الارض وما كان
فى بطنها وَهَٰذَا مِلْحٌ اى شديد الملوحة أُجَاجٌ اى مر محرق بملوحته ومرارته لا يصلح لسقى ولا شرب
تنبيه اشار تعالى باداة القرب فى الموضعين تنبيها على وجود الوصفين مع شدة المقاربة
لا يلتبس احدهما بالآخر حتى انه اذا حفر على شاطئ البحر الملح بالقرب جدا منه خرج الماء عذبا وَجَعَلَ
اى الله تعالى بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا اى حاجزا من قدرته مانعا من اختلاطهما ثم انه تعالى اتم تقرير النعمة
فى منعهما من الاختلاط بالكلمة التى جرت عادتهم بقولها عند التعوذ تشبيها لكل منهما بالمتعوذ
بقوله تعالى وَحِجْرًا مَّحْجُورًا فكان كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له ذلك كما قال تعالى
لا يبغيان اى لا يبغى احدهما على صاحبه بالملوحة او العذوبة فانتفاء البغى كالتعوذ وهنا ثم جعل
كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه وهو من احسن الاستعارات واشهدها
على البلاغة فان قيل لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى هنا اجيب بان المراد منه
الاودية العظام كالنيل وجيحون ومن البحر الاجاج البحار الكبار ثم ذكر النوع الخامس بقوله تعالى
وَهُوَ اى وحده الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ اى المنى من الرجل والمراة بَشَرًا اى انسانا فَجَعَلَهُ اى بعد
ذلك بالتطوير فى اطوار الخلقة والتدوير فى ادوار التربية نَسَبًا اى ذكرا ينسب اليه وَصِهْرًا
اى انثى يصاهر بها فيقسم هذا الماء بعد التطوير الى ذكر وانثى كما جعل ذلك الماء قسمين عذبا
وملحا ونحو هذا قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وقيل النسب ما لا يحل نكاحه والصهر
ما يحل نكاحه فالنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها قال البغوى وقيل وهو الصحيح النسب
من القرابة والصهر الخلطة التى تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد ذكر الله تعالى انه حرم
بالنسب سبعا فى قوله تعالى فى النساء حرمت عليكم امهاتكم وَكَانَ رَبُّكَ اى المحسن اليك
بارسالك وانزال هذا الذكر اليك قَدِيرًا حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا اعضاء مختلفة وطباع
متباعدة وجعله قسمين ذكرا وانثى وربما يخلق من نطفة واحدة توءمين ذكرا وانثى فهو يوفق من يشاء
فيجعله عذب المذاق سهل الاخلاق ويخذل من يشاء فيجعله مر الاخلاق كثير الشقاق عريقا فى النفاق
ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فقال تعالى وَيَعْبُدُونَ اى هؤلاء الكفرة
مِن دُونِ اللَّهِ اى مما يعلمون انه فى الرتبة دون الله المستجمع لصفات الكمال والعظمة بحيث انه
لا ضر ولا نفع الا هو بيده مَا لَا يَنفَعُهُمْ بوجه من الوجوه ان عبدوه فى ازالة كربة وَلَا يَضُرُّهُمْ فى ازالة نعمة
من نعم الله تعالى عليهم ان تركوه وَكَانَ الْكَافِرُ اى مع علمه بضعفه وعجزه عَلَىٰ رَبِّهِ اى المحسن اليه

لا غيره ﴿ظَهِيرًا﴾ اي معينا للشيطان من الانس والجن على اولياء الله تعالى وروى انها نزلت في
ابي جهل ويجوز ان يراد بالظهير الجماعة كقوله تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق
والخليط وعلى هذا يكون المراد بالكافر الجنس فان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور دين الله
قال تعالى واخوانهم يمدونهم في الغي وهذا اولى لان خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ولانه
اوفق لظاهر قوله تعالى ويعبدون من دون الله وقيل معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو
عبادة ما لا ينفع ولا يضر على ربه هينا مهينا من قولهم ظهرت به اذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت اليه
وهو نحو قوله تعالى اولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولما كان التقدير تسلية
له صلى الله عليه وسلم فالزم ما نامرك به ولا يزيدنك حملك بودهم عما هم فيه فانا ما ارسلناك عليهم وكيلا
عطف عليه قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا اشرف الخلق بالنواميس العظيمة ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالثواب على الايمان
والطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ اي مخوفا بالعقاب على الكفر والمعصية ثم كانه قيل فماذا اقول لهم اذا طعنوا في الرسالة آية
فقال تعالى ﴿قُلْ﴾ اي لهم يا اكرم الخلق حقيقة واعدلهم طريقة مقسما عليهم بازالة ما يكون موضعا للتهمة
﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ اي على تبليغ ما ارسلت به ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتهموني اني ادعوكم لاجله اذ لا غرض لي الا نفعكم
ثم اكد هذا المعنى بقوله تعالى مستثنيا لان الاستثناء معيار العموم ﴿إِلَّا مَنْ﴾ اي الا اجر من ﴿شَاءَ أَنْ
يَتَّخِذَ﴾ اي يكلف نفسه ويخالف هواه ويجعل له ﴿إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ فانه اذا اهتدى بهداية ربه كان
لي مثل اجره لا نفع لي من جهتكم الا هذا فان سميتموه اجرا فهو مطلوبي ولا مرية في انه لا ينقص
احدا شيئا من دنياه فافاد فائدتين الاولى انه لا طمع له اصلا في شيء ينقصهم والثانية اظهار
الشفقة البالغة حيث لم يقصد منفعتهم الموصلة لهم الى ربهم ثوابا لنفسه وقيل الاستثناء منقطع
اي لكن من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل وجرى على هذا الجلال المحلي وقال ابن عادل في الاول
نظر لانه لم يسند السؤال المنفي في الظاهر الى الله تعالى انما اسنده الى المخاطبين فكيف يقدر هذا
المقدر انتهى وقرأ قالون والبزي وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش
وقنبل الثانية ولهما ايضا ابدالها الفا والباقون بتحقيق الهمزتين ولما بين تعالى ان الكفار
يتظاهرون على ايذائه وامره ان لا يطلب منهم اجرا امره ان يتوكل عليه في دفع جميع المضار وجلب
جميع المنافع بقوله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ اي اظهر العجز والضعف واستسلم واعتمد في امرك كله ولا سيما في مواجهتهم
بالانذار وفي ردهم عن عنادهم ﴿عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ ولا يضيع من توكل عليه فانه الحقيق بان يتوكل
عليه دون الاحياء الذين يموتون فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وعن بعض السلف انه قرأها
فقال لا يصح لذي عقل ان يثق بعدها بمخلوق ﴿وَسَبِّحْ﴾ متلبسا ﴿بِحَمْدِهِ﴾ اي نزهه عن كل نقص مثبتا له
كل كمال وقيل صل له شكرا على نعمه وقيل قل سبحان الله والحمد لله وعلى هذا اقتصر الجلال
المحلي ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ اي ما ظهر منها وما بطن وكل ما سواه عبد ﴿خَبِيرًا﴾ اي عالما مطلعا
فلا يخفى عليه خافية شيء منها وان دق فلا عليك ان آمنوا او كفروا وهذه الكلمة يراد بها المبالغة

يقال كفى بالعلم كمالا وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك اى لا تحتاج معه الى غيره لانه تعالى خبير
باحوالهم قادر على مكافاتهم وهذا وعيد شديد ، ولما امر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم
ان يتوكل عليه وصف تعالى نفسه باموره منها انه حي لا يموت ومنها انه عالم بجميع المعلومات
ومنها انه قادر على كل الممكنات وهو قوله تعالى الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ على عظمهما وَمَا بَيْنَهُمَا
من الفضاء والعناصر والعباد واعمالهم من الذنوب وغيرها الا يعلم من خلق وقوله تعالى فِي سِتَّةِ
اَيَّامٍ اى من ايام الدنيا تعجيب للغبي الجاهل وتدريب للفطن العالم في الحلم والاناة والصبر على عباد الله
تعالى في دعوتهم فان قيل الايام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقبل السموات لا ايام فكيف
قال تعالى في ستة ايام اجيب بانه تعالى خلقها في مدة مقدارها هذه الايام فان قيل يلزم على هذا
قدم الزمان وهو ممنوع اجيب بان الله تعالى خلق هذه المدة اولا ثم خلق السموات والارض فيها
بمقدار ستة ايام فلا يلزم من ذلك قدم الزمان وقيل في ستة ايام من ايام الآخرة كل يوم مقداره
الف سنة وهو بعيد لان التعريف لا بد وان يكون بامر معلوم لا بامر مجهول فان قيل لم قدر الخلق
والايجاد بهذا المقدار اجيب بانه يجب على المكلف ان يقطع الطمع عن مثل هذا فانه بحر لا ساحل له
من ذلك تقدير الملائكة الذين هم اصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بثمانية والشهور باثني
عشر والسموات بالسبع وعدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات والحدود والكفارات
فالاقرار بان كل ما قاله الله حق هو الدين والواجب ترك البحث عن هذه الاشياء وقد نص الله تعالى
على ذلك في قوله عز وجل وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا
ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب
والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلا ثم قال تعالى
وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا جواب ايضا عن انه لم لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد
بن جبير انما خلقها في ستة ايام وهو قادر ان يخلقها في لحظة واحدة تعليما لخلقه الرفق والتثبت
وقيل اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين وعن مجاهد اول الايام يوم الاحد وآخرها يوم
الجمعة ، ولما كان تدبير هذا الملك امرا باهرا اشار اليه باداة التراخي بقوله تعالى ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ
اى شرع في التدبير لهذا الملك الذي اخترعه واوجده ولا يجوز ان يفسر بالاستقرار لانه يقتضي
التغير الذي هو دليل الحدوث ويقتضي التركيب وكل ذلك على الله محال فان قيل يلزم من ذلك ان يكون
خلق العرش بعد خلق السموات وقد قال تعالى وكان عرشه على الماء اجيب بان كلمة ثم ما دخلت على
خلق العرش بل على رفعه على السموات وهو في اللغة سرير الملك وفي رفع قوله تعالى اَلرَّحْمٰنُ اوجه
احدها انه خبر الذي خلق او خبر مبتدأ مضمر اى هو الرحمن ولهذا اجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش
ثم يبتدئ الرحمن اى هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم الا له او يكون بدلا من الضمير في
استوى وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي واختلف في معنى الباء في قوله تعالى فَسْئَلْ بِهٖ على

توبين احدهما انها على بابها وهي متعلقة بالسؤال والمراد بقوله خبيرا اى عالما يخبرك
بحقيقته هو الله تعالى ويكون من التجريد كقوله رايت به اسدا والمعنى فاسأل الله الخبير بالاشياء
قال الزمخشري او فاسأل بسؤاله خبيرا كقولك رايت به اسدا اى برؤيته انتهى قال الكلبي فقوله به
يعود الى ما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك
الخبير هو الله تعالى لانه لا دليل فى العقل على كيفية خلق السموات والارض والاستواء على العرش
ولا يعلمها احد الا الله تعالى والثاني ان تكون الباء بمعنى عن اما مطلقا واما مع السؤال خاصة
كهذه الاية وكقول علقمة بن عبدة فان تسألونى بالنساء فاننى * خبير بادواء النساء طبيب
والضمير فى به لله وخبيرا من صفات الملك وهو جبريل عليه السلام فعن ابن عباس ان ذلك الخبير
هو جبريل وانما قدم لرؤس الاى وحسن النظم وقال ابن جرير الباء فى به صلة والمعنى فاسأله
خبيرا نصب على الحال وقيل به يجرى مجرى القسم كقوله تعالى واتقوا الله الذى تساءلون به
وقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من اهل الكتاب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون
ما نعرف الرحمن الا الذى باليمامة يعنون مسيلمة الكذاب وكان يقال له رحمن اليمامة وقيل
فاسأل بسبب سؤالك اياه خبيرا عن هذه الامور وكل امر تريده فيخبرك بحقيقة امره ابتداء وحالا
ومآلا فلا يضيق صدرك بسبب هؤلاء المدعوين فانه ما ارسلك الا وهو عالم بهم فسيعلى كلمتك
عليهم ويحسن لك العاقبة وقرأ ابن كثير والكسائي بالنقل وكذا يقرأ حمزة فى الوقف والباقون
بسكون السين وفتح الهمزة * ولما ذكر تعالى احسانه اليهم وانعامه عليهم ذكر ما ابدوه من كفرهم
فى موضع شكرهم بقوله واذا قيل لهم اى من اى قائل كان لهؤلاء الذين يتقلبون فى نعمه اسجدوا
اى اخضعوا بالصلوة وغيرها للرحمن اى الذى لا نعمة لكم الا منه قالوا وما الرحمن متجاهلين
فى معرفته فضلا عن كفر نعمته معبرين باداة ما لا يعقل وقال ابن عربي انما عبروا بذلك اشارة
الى جهلهم بالصفة دون الموصوف ثم عجبوا من امره بذلك منكرين عليه بقولهم انسجد لما
تأمرنا فعبروا عنه بعد التجاهل فى امره والانكار على الداعى اليه ايضا باداة ما لا يعقل وزادهم
اى هذا الامر الواضح المقتضى للاقبال والسكون شكرا للنعمة وطمعا فى الزيادة نفورا اى عن سجدة
الايمان والسجود * تنبيه * هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقارى والمستمع
والسامع ان يسجد عند قراءتها او سماعها وقرأ واذا قيل لهم هشام والكسائي بالاشمام ضم القاف
مع سكون الياء والباقون بكسر القاف وقرأ لما يأمرنا حمزة والكسائي بالياء التحتية والباقون
بالتاء الفوقية وابدل ورش والسوسي الهمزة وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا * ولما حكى
تعالى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود وذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن
قال عز من قائل تبارك اى ثبت ثباتا لا نظير له الذى جعل فى السماء التى تقدم انه اخترعها
واختلف فى معنى قوله بروجا فقال الزجاج ومجاهد وقتادة هى النجوم الكبار سميت بروجا ربع

لظهورها وقال عطية العوفي هي القصور فيها الحرس كما قال تعالى ولو كنتم في بروج مشيدة وقال
عطاء عن ابن عباس هي الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة وهي الحمل والثور والجوزاء
والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت فالحمل والعقرب
بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت القمر
والاسد بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشتري والجدي والدلو بيتا زحل وهذه
البروج مقسومة على الطبائع الاربعة فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات
فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدي مثلثة ارضية والجوزاء والميزان
والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية وَجَعَلَ فِيهَا اي السماء وقيل
البروج سِرَاجًا اي شمساً وقرأ حمزة والكسائي بضم السين والراء على الجمع للتنبيه على عظمته
في ذلك من حيث انه اعظم من الف من النجوم فهو قائم مقام الوصف كما في الذي بعده
اي سرجاً وقيل المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار والباقون بكسر السين وفتح الراء والف
بين هاتين التوحيد وَقَمَرًا مُنِيرًا اي مضيئاً بالليل ولما ذكر تعالى هاتين الآيتين ذكر ما هما
آيتاه بقوله تعالى وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ اي الذي آيته القمر وَالنَّهَارَ اي الذي آيته الشمس خِلْفَةً
اي ذوي حالة معروفة في الاختلاف فيأتي هذا خلف ذلك بضد ما له من الاوصاف وقال ابن عباس
والحسن يعني خلفاً وعوضاً يقوم احدهما مقام صاحبه فمن فاته عمل في احدهما قضاه في الآخر قال
شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال فاتتني الصلاة الليلة قال ادرك ما فاتك
من ليلتك في نهارك فان الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ اي يتذكر
آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم انه لا بد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد وقرأ
حمزة بسكون الذال وضم الكاف مخففة من ذكر بمعنى تذكر والباقون بفتح الكاف والذال مشددتين
أَوْ أَرَادَ شُكُورًا اي شكر نعمة ربه عليه من الآيات بكل منهما بين الآخر لاجتناء ثمراته ولو جعل
احدهما دائماً لفاتت مصالح الآخر ولحصلت السآمة والملل منه والتواني في الامور المقدرة
بالاوقات وفتر العزم الذي انما يثيره لتداركها دخول وقت آخر وغير ذلك من الامور التي
احكمها العلي الكبير وعن الحسن من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب
ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب ولما ذكر الله تعالى عباده الذين خذلهم بتسليط
الشيطان عليهم فعاندوا واعرضوا ولم يحنهم الى اسم من اسمائه ايذاناً باهانتهم لهوانهم عنده اشار
الى عباده الذين اخلصهم لنفسه بقوله تعالى وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ناظماً لهم اليه رفعة لهم وان كان الخلق
كلهم عباده واضافهم الى وصف الرحمة الابلغ الذي انكره اولئك تبشيراً لهم ثم وصفهم بضد ما وصف
به المتكبرين عن السجود اشارة الى انهم تخلقوا من هذه الصفة التي اضيفوا اليها بصفات كثيرة الصفة
الاولى قوله تعالى الَّذِينَ يَمْشُونَ وقال تعالى عَلَى الْأَرْضِ تذكيراً بما يصيرون اليه وحثاً على السعي في

معالي الاخلاق هونا اي هينين او مشيا هينا مصدر وصف به مبالغة والهون الرفق
واللين ومنه الحديث احبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمثل اذا عز اخوك فهن والمعنى
اذا عاسر فياسر والمعنى انهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار لا يضربون باقدامهم ولا
يخفقون بنعالهم اشرا وبطرا ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الاسواق لقوله تعالى ويمشون
في الاسواق + تنبيه + عباد مرفوع بالابتداء وفي خبره وجهان احدهما الجملة الاخيرة
في اخر السورة والثاني يجوز وبه بدأ الزمخشري والذين يمشون وما بعده صفات المبتدأ والثاني
ان الخبر الذين يمشون الصفة الثانية واذا خاطبهم الجاهلون اي بما يكرهون قالوا سلاما
اي تسلما منكم لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر اي نتسلم منكم تسليما فاقيم السلام
مقام التسلم وقيل قالوا سدادا من القول اي يسلمون فيه من الاثم والايذاء وليس المراد التحية
لان المؤمنين لم يؤمروا بالسلام على المشركين وعن ابي العالية نسختها اية القتال ولا حاجة الى
ادعاء النسخ باية القتال ولا غيرها لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الادب
والمروأة والشريعة واسلم للعرض والورع واطلق الخطاب اعلاما بان اكثر خصال الجاهل وهو الذي
يخالف العلم والحكمة الجهل وهو السفه وقلة الادب من قوله شعر الا لا يجهلن احد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا + ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهي الصفة
الثالثة بقوله تعالى والذين يبيتون من البيتوتة قال الزجاج كل من ادركه الليل قيل بات وان
لم ينم كما يقال بات فلان قلقا والمعنى يبيتون لربهم اي المحسن اليهم سجدا على وجوههم في الصلوة
وقدمه لانه انهى الخضوع واخر عنه قوله تعالى وقياما اي على اقدامهم وان كان تطويل القيام
افضل للروي وتخصيص البيتوتة لان العبادة بالليل اشق وابعد من الرياء قال الزمخشري والظاهر
انه وصفهم باحياء الليل او اكثره وقيل من قرأ شيئا من القران في صلوة وان قل فقد بات
ساجدا وقائما وقال ابن عباس من صلى بعد العشاء ركعتين فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما
الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء الاخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلى
الصبح في جماعة كان كقيام ليلة + ولما ذكر تعالى تهذيبهم للخالق والخلق وصفهم الله تعالى انهم
مع ذلك خائفون وجلون وهي الصفة الرابعة بقوله تعالى والذين يقولون ربنا اي المحسن
الينا اصرف عنا عذاب جهنم قال ابن عباس يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول ثم
علل سؤالهم بقوله تعالى ان عذابها كان اي كونا جبلت عليه غراما اي هلاكا وخسرانا
ملحا لازما لا ينفك عنه كما قال شعر ان يعاقب يكن غراما وان يعط جزيلا فانه لا يبالي
ومنه الغريم لملازمته والحاحه فهم يبتهلون الى الله تعالى في صرف العذاب عنهم لعدم اعتدادهم
باعمالهم ووثوقهم على استمرار احوالهم + ولما اثبت لهم هذا الوصف انتج قوله تعالى انها ساءت

اى تناهت هى فى كل ما يحصل منه سوء وهى فى معنى بئست فى جميع المذام مستقرا اى موضع استقرار ومقاما اى موضع اقامة + تنبيه + ساءت فى حكم بئست كما مر ففيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها ويجوز ان تكون ساءت بمعنى احزنت ففيها ضمير اسم ان ومستقرا حال او تمييز والتعليلون يعم ان يكونا متداخلين او مترادفين وان يكونا من كلامه تعالى وحكاية لقولهم + ولما ذكر تعالى افعالهم واقوالهم اتبع ذلك بذكر انفاقهم وهو الصفة الخامسة بقوله تعالى وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا اى للخلق او الخالق فى واجب او مستحب او مباح لَمْ يُسْرِفُوا اى لم يجاوزوا الحد فى النفقة بالتبذير فيضيعوا الاموال فى غير حقها وَلَمْ يَقْتُرُوا اى لم يضيقوا فيضيعوا الحقوق وَكَانَ اى انفاقهم بَيْنَ ذَٰلِكَ اى الاسراف والاقتار قَوَامًا اى وسطا + تنبيه + اسم كان ضمير يعود على الانفاق المفهوم من قوله تعالى انفقوا وخبرها قواما وبين ذلك معمول له وقيل غير ذلك وذكر المفسرون فى الاسراف والتقتير وجوها احدها قال الرازى وهو الاقوى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقتير وبمثله امر صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط اذ يقال ما عال من اقتصد وسال رجل بعض العلماء ما البناء الذى لا سرف فيه قال ما سترك من الشمس واكنك من المطر قال فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة قال فما اللباس الذى لا سرف فيه قال ما ستر عورتك وادفاك من البرد + ثانيها وهو قول ابن عباس الاسراف النفقة فى معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى وقال مجاهد لو انفق احد مثل جبل ابى قبيس ذهبا فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو انفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا فى معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى وانشد واسمه ذهاب المال فى حمد وخير + ذهاب لا يقال له ذهاب + وسمع رجل رجلا يقول لا خير فى الاسراف فقال لا اسراف فى الخير وعن عمر بن عبد العزيز انه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته واحسن اليه فقال وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام كثير حسن فقال ابن لعبد الملك انما هو كلام اعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد ايام دخل عليه والابن حاضر فساله عن نفقته واحواله فقال الحسنة بين السيئتين فعرف عبد الملك انه اراد ما فى هذه الآية فقال لابنه يا بنى هذا ايضا مما اعده + وثالثها السرف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وان كان من حلال لانه يؤدى الى الخيلاء وكسر قلوب الفقراء فكانت الصحابة لا ياكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا ياكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويقيهم من الحر والبرد وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه كفى سرفا ان لا يشتهى الرجل شيئا الا اشتراه فاكله وقرا نافع وابن عامر يقتروا بضم التحتية وكسر الفوقية من اقتر وابن كثير وابو عمرو بفتح التحتية وكسر الفوقية والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية + ولما

ذكر تعالى ما تحلوا به من اصول الطاعات اتبعه بذكر ما تخلوا عنه من امهات المعاصى التى هى الفحشاء والمنكر وهو الصفة السادسة بقوله تعالى والذين لا يدعون اى رحمة لانفسهم واستعمالا للعدل مع الله اى الذى اختص بصفات الكمال الها آخر اى دعاء جليا بالعبادة ولا خفيا بالرياء ولما نفى عنهم ما يوجب قتل انفسهم بخسارتهم اياها اتبعه نفى قتل غيرهم بقوله سبحانه ولا يقتلون النفس رحمة للخلق وطاعة للخالق ولما كان من الانفس ما لا حرمة له بين المراد بقوله التى حرم الله اى منعهم من قتلها الا بالحق اى بان تعمل ما يبيح قتلها ولما ذكر القتل الجلى اتبعه الخفى بتضييع نسب الولد بقوله تعالى ولا يزنون اى رحمة للمزنى بها ولانه فاحشة [illegible] لنفسه على ان الزنا ايضا جار الى القتل والفتن وفيه التسبب لايجاد نفس بالباطل كما ان القتل سبب الى اعدامها بذلك وقد روى فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود انه سأل النبى صلى الله عليه وسلم اى الذنب اعظم وفى رواية اكبر عند الله قال ان تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم اى قال ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك قال ثم اى قال ان تزانى حليلة جارك فانزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآية وقد استشكل تصديق هذه الآية الخبر من حيث ان الذى فيه قتل خاص وزنا خاص والتقييد بكونه اكبر والذى فى الآية مطلق القتل والزنا من غير تعرض لعظم واجيب بدفع الاشكال بانها نطقت بتغليظ [illegible] دون الاعتراض بين المبتدأ الذى هو وعباد الرحمن وما عطف عليه والخبر الذى هو اولئك يجزون الغرفة على احدى الروايتين بذكر هذه الثلاثة خاصة وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الاعظام الثانى الاشارة باداة البعد فى قوله تعالى ومن يفعل ذلك اى هذا الفعل العظيم القبيح من هذه المذكورات فدل على ان البعد من رتبتها فهو اشارة الى جميع ما تقدم لانه بمعنى ما ذكر ولذلك وحد [illegible] فى الدال والمرسل والباقون بالاظهار الثالث التعبير باللقى مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى فى قوله يلق اثاما دون يأثم ويلق اثما اى جزاء اثمه الرابع التقييد بالمضاعفة فى قوله تعالى يضاعف له العذاب جزاء ما اتى نفسه هو اما الخامس التهويل بقوله تعالى يوم القيامة الذى هو اهول من غيره مما لا يقاس السادس الاخبار بالخلود الذى اقل درجاته ان يكون مكثا طويلا بقوله تعالى ويخلد فيه وقرأ يضاعف ويخلد ابن عامر وشعبة برفع الفاء والدال والباقون بجزمهما واسقط الالف من يضاعف مع تشديد العين ابن كثير وابن عامر فالجزم على البدل من يلق [illegible] بدل اشتمال والرفع على الاستئناف السابع التصريح بقوله تعالى مهانا [illegible] لذنوبه كبيرة وان كان الاثم كبيرا [illegible] فثبت بهذا [illegible] تصديق الآية [illegible] ابن كثير بصلة الهاء بالياء [illegible] من صفات عباد الرحمن صفات [illegible] القتل

والزنا فلو كان الترتيب بالعكس كان اولى اجيب بان الموصوف بتلك الصفات السابقة قد
يكون متمسكا بالشرك تدينا وبقتل الموؤدة تدينا وبالزنا تدينا فبين تعالى ان المراد لا يصير بتلك الخصال
وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب تلك الكبائر واجاب الحسن بان المقصود من ذلك التنبيه
على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كانه قال تعالى وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله
الها آخر وانتم تدعون ولا يقتلون وانتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وانتم تزنون ولما اتم تعالى تهديد
الفجار على هذه الاحداث الثلاثة ترغيب الابرار الى الفوز النضار بقوله تعالى الا من تاب اى رجع عن كل شئ
كان فيه من هذه النقائص وآمن اى اوجد الاساس الذي لا يثبت عمل بدونه وهو الايمان
والكل رجوعه تقوى الله تعالى وعمل عملا صالحا اى مؤسسا على اساس الايمان فان قيل العمل الصالح
يدخل فيه التوبة والايمان فذكرهما قبل العمل الصالح مستغنى عنه اجيب بانهما افردا بالذكر
لعلو شأنهما تنبيه اختلف في هذا الاستثناء على وجهين احدهما انه استثناء متصل وهو الى
عليه كلام الجمهور لانه من الجنس والثاني انه منقطع ورجحه ابو حيان معللا بان المستثنى منه محكوم عليه
بانه يضاعف له العذاب فيصير التقدير الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب
ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف فالاولى في المنقطع فان التقدير لكن
من تاب الى آخره فلا يلقى شيئا من ذلك ووجه كلام الجمهور بان ما ذكر ليس بلازم اذ المقصود الاخبار
بان من فعل كذا فانه يحل به ما ذكر الا ان يتوب واما اصابة اصل العذاب وعدمه فلا تعرض في الاية
له ثم زاد تعالى في الترغيب بالاتيان بالفاء وربط الجزاء بالشرط دليلا على انه سببه فقال تعالى فاولئك
اى العالو المنزلة يبدل الله اى الذي له العظمة والكبرياء سيئاتهم حسنات قال ابن عباس
ومجاهد هذا التبديل في الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح اعمالهم في الشرك بمحاسن الاعمال في
الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا احصانا وعفة فكانه تعالى يبشرهم
بتوفيقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب وقال الزجاج ان السيئة بعينها لا تصير حسنة
فالتأويل ان السيئة تمحى بالتوبة وتكتب مع التوبة حسنة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات
وقال سعيد بن المسيب ومكحول ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه
الاية وهذا هو ظاهر الاية ويدل له ما روى ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لاعلم
آخر رجل يخرج من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال له اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه
كبارها فيعرض عليه صغارها فيقال له عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا
فيقول نعم فلا يستطيع ان ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه ان تعرض عليه فيقال له ان لك مكان
كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت اشياء لا اراها ههنا قال ابو هريرة فلقد رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه وكان الله اى الذي له الجلال والاكرام على الاطلاق في
الازل وابدا غفورا اى ستورا للذنوب كل من تاب بهذا الشرط رحيما به بان يعامله بالاكرام كما

يبدل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة روى البخاري عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت
في اهل الشرك ولما نزل صدرها قال اهل مكة قد عدلنا بالله وقتلنا النفس التي حرم الله واتينا
الفواحش فانزل الله الا من تاب الى آخرها وروى البخاري في التفسير ان ناسا من اهل الشرك كانوا قتلوا
فاكثروا وزنوا فاكثروا فاتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذي تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا ان
لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية ونزل قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
وَمَنْ تَابَ اي عن ذنبه غير ما ذكر وَعَمِلَ تصديقا لادعائه التوبة صَالِحًا ولو كان كل من نيته
وعمله ضعيفا ورغب سبحانه في ذلك بقوله تعالى معللا انه يصل الى الله فَإِنَّهُ يَتُوبُ اي يرجع
واصلا إِلَى الله اي الذي له صفات الكمال فهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات مَتَابًا
اي رجوعا مرضيا عند الله بان يرغبه تعالى في الاعمال الصالحة فلا يزال كل يوم في زيادة بنيته
وعمله فيخف عليه ما كان ثقيلا ويتيسر عليه ما كان عسيرا ويسهل عليه ما كان صعبا كما مر
ان الذين امنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ولا يزال كذلك حتى يحبه فيكون سمعه
الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها بان يوفقه للخير
فلا يسمع الا ما يرضيه وهكذا + ولما وصف سبحانه وتعالى عباده بانهم تحلوا باصول الفضائل وتخلوا عن
امهات الرذائل ورغب في التوبة لان الانسان للعجز لا ينفك عن النقص مدحهم بصفة اخرى
وهي الصفة المذكورة في قوله تعالى وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ اي لا يحضرون الزُّورَ اي القول المنحرف
عن الصدق كذبا كان او مقاربا له فضلا عن ان يتفوهوا به للخبر فلا يسمعوا ويقروا عليه في
مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام اياكم ومجالسة الخاطئين ويحتمل انهم لا يشهدون شهادة الزور
فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو والغناء
وعن مجاهد اعياد المشركين ثم عطف عليه ما هو اعم منه بقوله تعالى وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ اي الذي ينبغي
ان يطرح من الكلام القبيح وغيره مَرُّوا كِرَامًا اي آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ان تعلق بهم
امر او نهي اشارة او عبارة على حسب ما يرون نافعا فان لم يتعلق بهم ذلك كانوا معرضين عنه
مكرمين انفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه لقوله تعالى واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا
ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب
والكناية عما يستهجن التصريح به وعن الحسن لم تشقهم المعاصي وقيل اذا سمعوا من الكفار الاذى
اعرضوا عنه + ثم ذكر الصفة الثامنة بقوله تعالى وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا اي ذكرهم غيرهم كائنا من كان
لانهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله بِآيَاتِ رَبِّهِمْ اي الذي وفقهم لتذكر احسانه اليهم في حسن
تربيته لهم بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة لَمْ يَخِرُّوا اي لم يسقطوا عَلَيْهَا صُمًّا اي غير واعين لها
وَعُمْيَانًا اي غير متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر كابي جهل والاخنس بن شريق بل خروا
سامعين باذان واعية مبصرين بعيون راعية فالمراد من النفي نفي الحال وهي صما وعميا لا دون

الفعل وهو الخرور فالمراد نفي القيد دون المقيد كما تقول لا يلقاني زيد مسلماً هو نفي للسلام
لا للقاء * الصفة التاسعة المذكورة في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي علماً منهم بعد اتصافهم
بجميع ما مضى أنهم أهل للإمامة ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ اللاتي قرنتهن بنا كما فعلت بنبيك
محمد صلى الله عليه وسلم فيمن تزوجه في كونه ملك القلوب وجعلت مدحهن يتلى على تعاقب
الأزمان والسنين ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لنا بأن نراهم مطيعين لك ولا شيء أسر للمؤمن من أن يرى
حبيبه يطيع الله تعالى وعن محمد بن كعب ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده يطيعون
الله وعن ابن عباس هو الولد إذا رآه يكتب الفقه وخص الأزواج والذرية بذلك لأن الأقربين أولى
بالمعروف * تنبيه * من في قوله تعالى من أزواجنا يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة
أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وذرياتنا ومعناه أن اجعلهم لنا قرة أعين
وهو من قولهم رأيت منك أسداً أي أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم
ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح وأتى بجمع القلة في أعين لأن المتقين الذين يفعلون الطاعة
ويسرون بها قليلون في جنب العاصين قيل سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذرياتهم في الجنة ليتم لهم
سرورهم ووحد القرة لأنها مصدر وأصلها من البرد لأن العرب تتأذى من الحر وتتروح إلى البرد وتذكر
قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن
حار وقال الأزهري معنى قرة العين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر إلى غيره وقرأ نافع
وابن كثير وابن عامر وحفص بألف بعد الياء على الجمع والباقون بغير ألف على الإفراد ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ
إِمَامًا﴾ أي أئمة يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل فاكتفى بالواحد لدلالته على
الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلاً أو أراد واجعل كل واحد منا أو أراد جمع آم كصائم
وصيام أو أراد واجعلنا إماماً واحداً لاتحادنا واتفاق كلمتنا وعن بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة
في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها وقال الحسن نقتدي بالمتقين ويقتدي المتقون بنا وقيل
هذا من المقلوب أي واجعل المتقين لنا إماماً واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم وهو قول مجاهد وقيل نزلت هذه
الآية في العشرة المبشرين بالجنة * ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين بعد إحسانه إليهم
بقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي العالو الرتبة العظيمة المنزلة ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أي فضلاً من الله تعالى على
ما وفقهم له من هذه الأعمال الزاكية والأحوال الصافية ﴿الْغُرْفَةَ﴾ أي الغرفات وهي العلالي في الجنة
فوحدها اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى وهم في الغرفات آمنون
وقيل هي من أسماء الجنة * ولما كانت القرب في غاية التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع
البدن رغب فيها بأن جعلها أسباباً لهذا الجزاء بقوله تعالى ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي أوقعوا الصبر على أمر ربهم
ومرارة غربتهم بين الجاهلين في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وغير ذلك من معالي خلالهم
* ولما كان المنزل لا يطيب إلا بالكرامة والسلامة قال تعالى ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي الغرفة ﴿تَحِيَّةً﴾ أي دعاء

المنزلة من بعضهم لبعض ومن الملائكة الذين لا يخرجون [illegible] في ساعة لا يسهون لانهم كما قال
تعالى يتلقون وذلك على وجه الاعظام والاكرام مكان ما افاضوا فيها والشيطان وقيل ملكا وقيل
بقاء دائما وسلاما اى من الله والملائكة وغيرهم وسلامة من كل آفة مكان ما اصابوهم بالمصائب
اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا من اهل رحمتك وارزقنا ما رزقتهم في دار رضوانك يا ارحم
الراحمين وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من لقى كما قال
تعالى فسوف يلقون غيا والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف اى يجعلهم الله تعالى
لاقين بايسر امر كما قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا خالدين فيها اى الغرفة لا يموتون ولا يخرجون
مكان ما ازعجهم من ديارهم حتى هاجروا ودل على عظم امرها وعظيم قدرها بابراز مدحها في مظهر
التعجب بقوله تعالى حسنت اى ما احسنها مستقرا اى موضع استقرار ومقاما اى موضع
اقامة وهذا مقابل ساءت ومثله في الاعراب ولما شرح سبحانه وتعالى صفات المتقين وانعم
عليهم من اجلها وشرح لديهم امر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى قل اى لكفار مكة ما يعبأ
اى ما يصنع بكم ايها الكافرون من غياث البشر او لا يعتد بكم ربي اى المحسن الي والمربي [illegible]
المختص لي بالاحسان بربوبيته وانما خص بالاضافة لاعترافه [illegible] لولا دعاؤكم اى عبادتكم
وما تضمنته المعنى للاستفهام وهي في محل النصب [illegible]
يعبأ بكم لولا عبادتكم وطاعتكم اياه كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فقد كذبتم
بما اخبرتكم به حيث خالفتموه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وقال قوم ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم
ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم
وآمنتم لولا دعاؤكم اى تداعيكم في الشدائد كما قال تعالى فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين
وقوله تعالى فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فيجوز ان تكون ما نافية [illegible] على ذلك
المدلول المحقق فقد كذبتم اى فتسبب عن تكذيبكم ان يجازيكم على ذلك ولكنه [illegible] بقدرته واختياره وقوته
لا يغالبكم بل يكون جزاء هذا التكذيب [illegible] وما ضربه لكم من الامثال لزاما اى لازما يحيق بكم
لا تنفكون عنه [illegible] اليوم [illegible]
هو القتل يوم بدر [illegible] لزوم [illegible] وقيل [illegible] ابن مسعود
خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفرقان لقي الله
وهو موقن بان الساعة آتية لا ريب فيها
وادخل الجنة بغير حساب حديث
موضوع والله اعلم

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث اوله سورة الشعراء